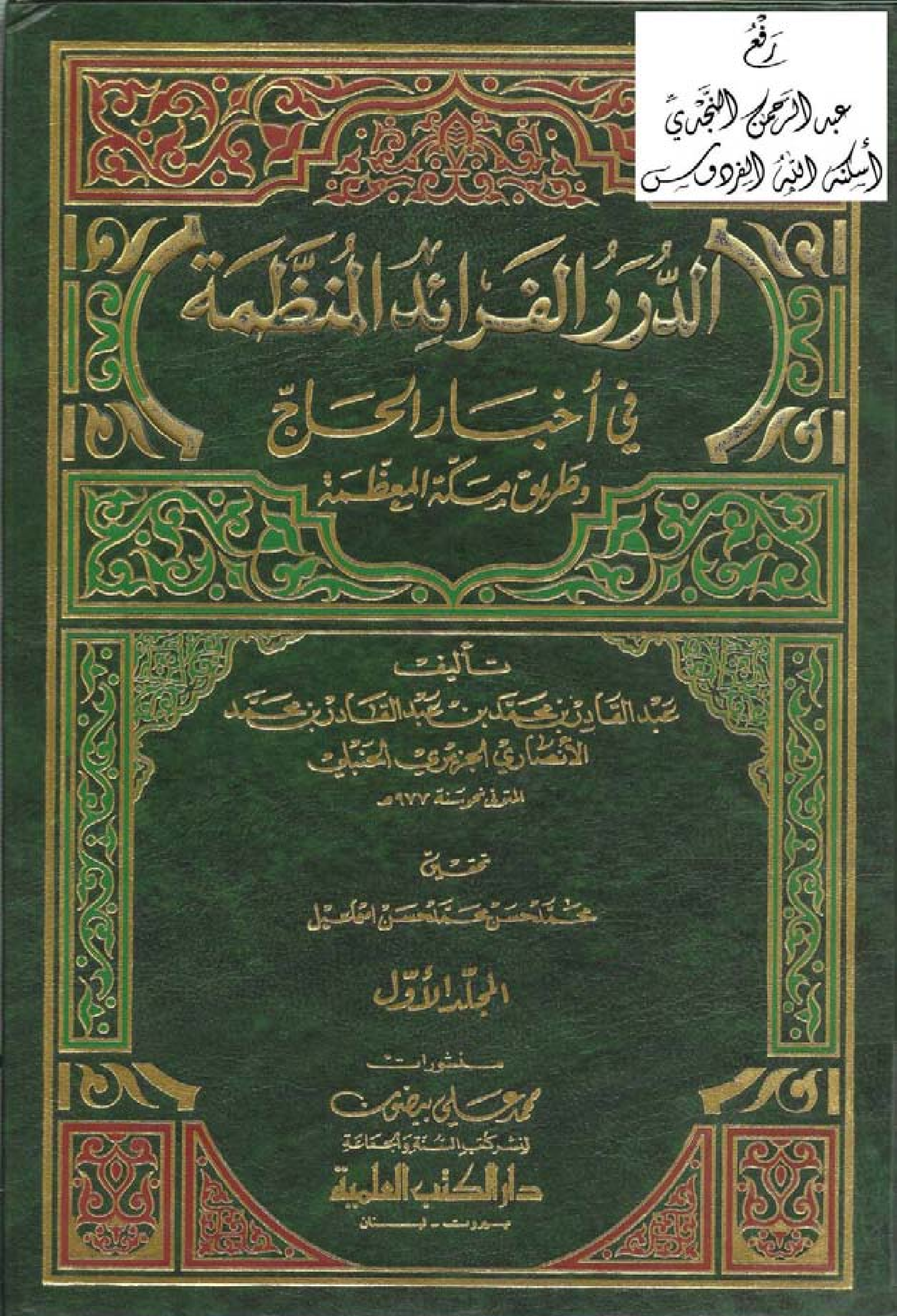

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
الدرر الفرائد المنظمة
في أخبار الحاج
وطريق مكة المعظمة
تأليف
عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد
الأنصاري الجزيري الحنبلي
المتوفى نحو سنة ٩٧٧ هـ
تحقيق
محمد حسن محمد حسن إسماعيل
المجلد الأول
منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الدرر الفرائد المنظمة

في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة

تأليف

عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد
الأنصاري الجزيري الحنبلي
المتوفى نحو سنة ٩٧٧ هـ

تحقيق

محمد حسن محمد حسن اسماعيل

الجزء الأول

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

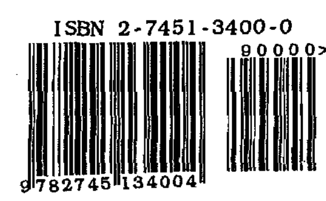
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد: ١١ - ٩٤٢٤ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P.: 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3400-0



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

بسم الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

والحمد للّه سبحانه على توفيقه إيّاي في تحقيق هذا الكتاب الذي جمع فيه مصنفه ما جاء عن أخبار مكة، وولاتها، وإمرة الحاج، مع ذكر ما وقع من الأحداث مرتَّباً على السنوات مهتمّاً بمَن كان في إمرة الحج في كل سنة، مع ذكر شيء من فضائل مكة والمدينة، وذكر شيء من مناسك الحج والعمرة.

ومصنف الكتاب هو الجزيري: عبد القادر بن زين العابدين بن البدر محمد الأنصاري الجزيري العراقي الحنبلي من علماء القرن العاشر الهجري.

له من المؤلفات:

- خلاصة الذهب في فضل العرب.
- عمدة الصفوة في حل القهوة.
- وكتاب معاني ما يجري على ألسنة الناس.
- وكتاب منارة المنازل ومناهج المناهل في المناسك[١].

ولا نشك في نسبة الكتاب للشيخ الجزيري.

قال إسماعيل باشا[٢]:

الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة لعبد القادر الأنصاري، الموجود ينتهي إلى سنة ٩٦٦، ست وستين وتسعمائة (من كتب

---

(١) انظر كشف الظنون (٥/٥٩٦).
(٢) انظر كشف الظنون (٣/٤٦٧).

آيا صوفية).

ولقد اعتمدنا في تحقيق هذا الكتاب على ثلاث نسخ خطية:

إحداها: النسخة المصرية.

الثانية: نسخة جامعة ييل.

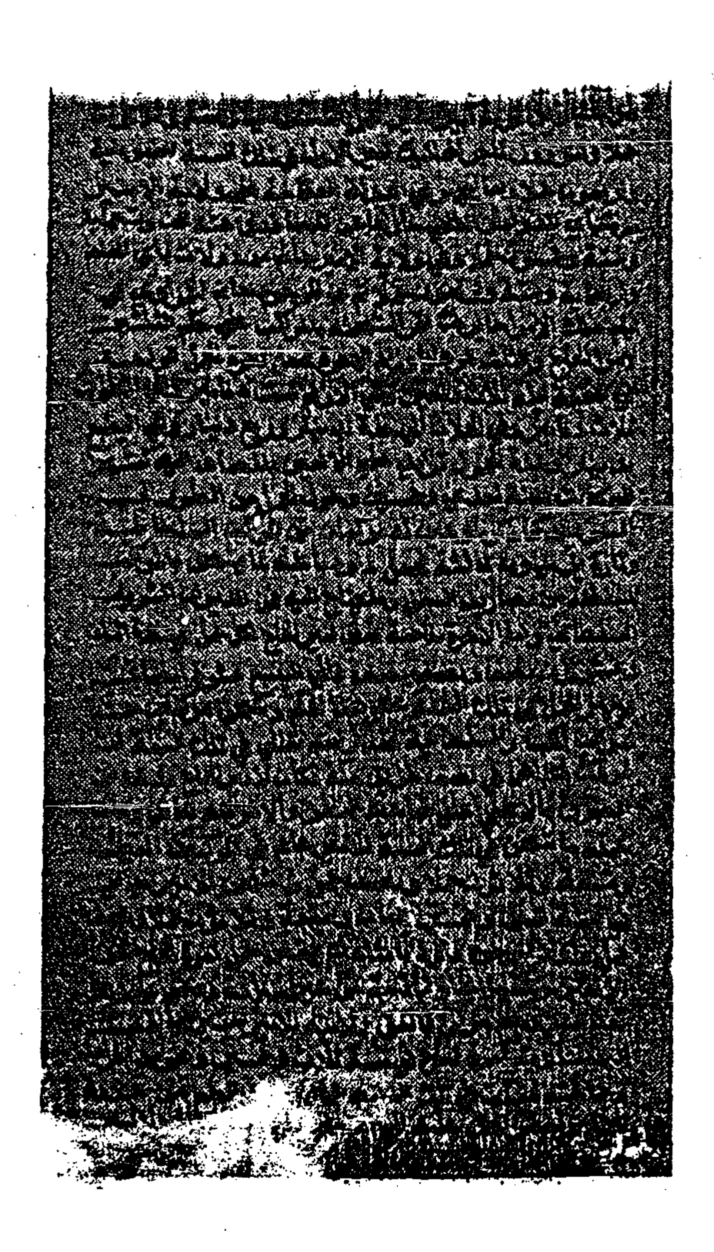
الثالثة: النسخة المغربية.

والله أسأل أن يكون الكتاب قد خرج على الوجه الذي يستطيع طلبَة العلم من الاستفادة منه.

صورة اللوحة «أ» من نسخة مصر ـ المجلد الأول

صورة اللوحة «ب» من نسخة مصر ـ المجلد الأول

صورة اللوحة «أ» من نسخة مصر ـ المجلد الثاني



صورة اللوحة «ب» من نسخة مصر ـ المجلد الثاني

صورة الورقة الأخيرة من نسخة مصر

صورة الورقة الأولى من مخطوطة جامعة ييل

الغزاوي فوقف الركب باجمعه واكتنف القواصنة الحاج
فحماه الله منهم وسلم جميع من فيه ثم ان العرب
المذكورين خرجوا على الركب الشامي ايضا فاخذوه باجمعه
في محل يقال له الحسا ولم يقتل احد من الحجاج وانما قبضوا
على بعض تجاره ومنهم الخواجه علي القاري وابن المزه لو والخو
ابراهيم بن الزمن وابن الخواجه عمر النيرلي فاشتري كل واحد
منهم نفسه من العرب بالف دينار ومات كثير من الحاج بالطرقات
من الجوع والعري ولم يصل منهم الى الشام الا القليل ويقال
ان امير الحاج الشامي استجار ببعض العرب فسلم سنة تسعمائة
كان امير المحمل في هذه السنة تنبك الجمالي امير مجلس واحد
المقدمين وامير اول الامير كرتباي الاشرفي من مماليك
الاشرف قايتباي واحد المقدمين وفي هذه حج القاضي
بدر الدين بن مزهر وصحبته اخوه وعياله وكان امير الشامي
بكتباي وكان توجه امير الركب الاول في ثاني عشر ذي الحجة
وتبعه امير المصري وكان توجه امير الشامي في سابع عشر
ذي الحجة تم الجزؤ الاول من كتاب
درر الفرائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق
مكة المعظمة ويليه الجزؤ
الثاني اوله القرن العاشر
سنة احدى وتسعماية
سنة ٩٠١
م

صورة آخر الجزء الأول من مخطوطة جامعة ييل

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

القرن العاشر

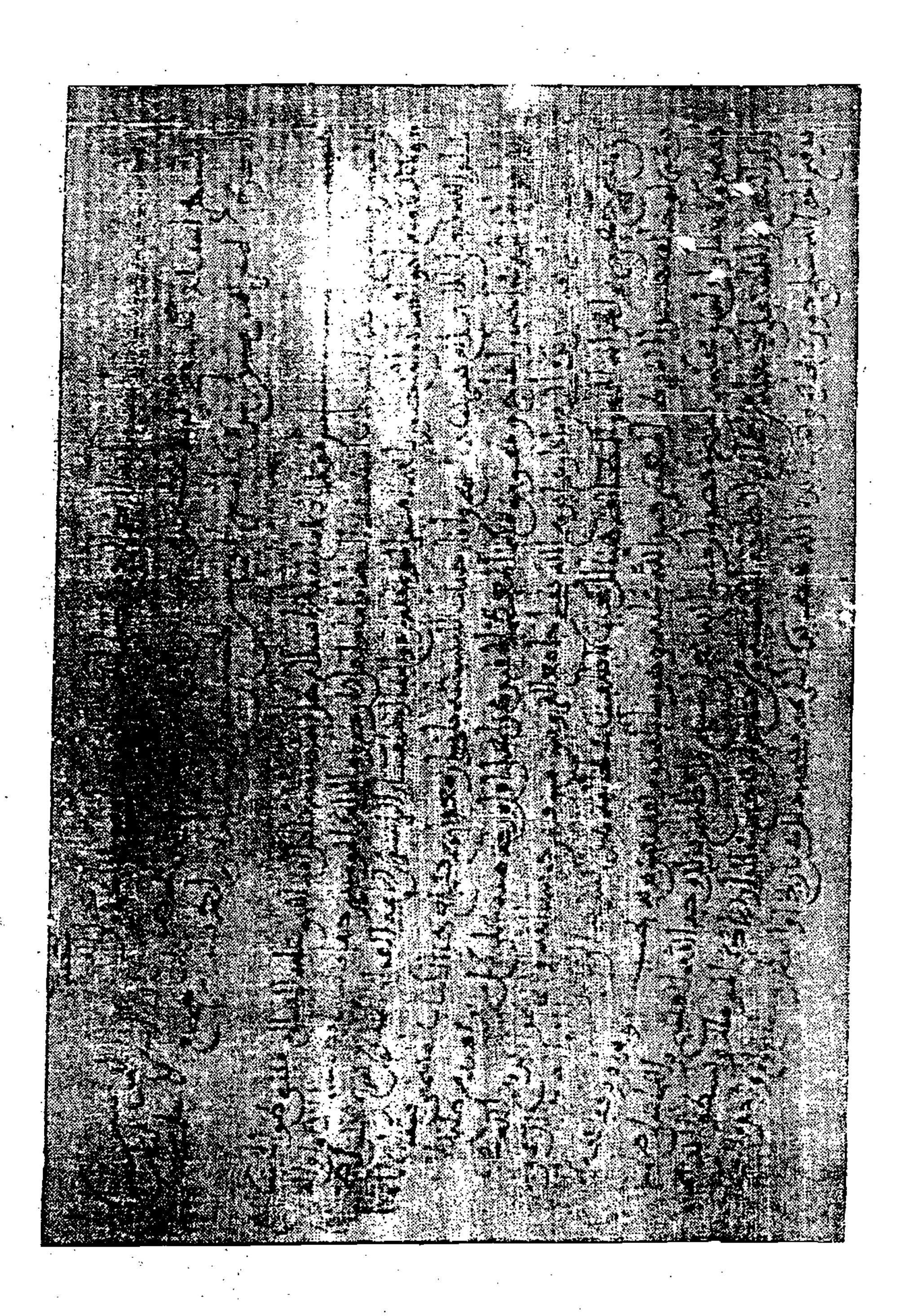
سنة احدى وتسعماية كان امير الاول بردبك
الاشرفي وامير المحمل جاني بك ثم امير راس نوبة كبير وقبض
عليه من عقبة ايلة وقيد وجهز في الترسيم مع اصطنبغا
الملاقاة وجهز الى الثغر السكندري وكانت وفاة
الاشرف قايتباي في يوم الاحد سابع عشر ذي القعدة
الحرام سنة احدى وتسعماية وفوضت السلطنة
الشريفة الى ولده الناصر ابي السعادات بن قايتباي
قبل وفاته بيوم سنة اثنين وتسعماية كان
امير الاول مصري شاد الشراب خاناه وامير المحمل كرتباي
من خواز قريب المقام الشريف واتفق في تلك
السنة ان يحيى بن سبع امير الينبع حضر الى الابواب
الشريفة وسعى في امرة الينبع لانها كانت مع والده
فلم يجب الى ذلك لان الاشرف قايتباي اضافها لامير
مكة المشرفة فتوجه حنقا الى بلاده ومر على عجرود

فذبح الانوار الذين بالسواقي جميعهم وادمى بعضهم
في الفساقي فساق الله تعالى قافلة حضرت الى المنهل
فرأت هذه البهائم مذبوحة فشاوتوا على اثر النهاس الله
ولم يحصل للحجاج في تلك السنة ادنى ضرر سنة
[illegible] الشريف محمد بن بركات
ابن حسن بن عجلان امير مكة وكان راى قبل موته
باثني عشر يوما ان باب الكعبة هدم فاول لنفسه
بموته فطلب ولده بركات واوصاه واعتق ما كان له
غرض في عتقه وقسم ماله بين اولاده وقبض رحمه الله
تعالى في اخر المدة المذكورة وكان امير المحمل تنبك الجمالي
امير سلاح وامير الاول طومانباي الدوادار الثاني
وتولى يحيى بن سبع امرة الينبع رابع جمادى الاخرة
من السنة المذكورة بعد ان اضاف السلطان قايتباي
هذه الوظيفة لامير مكة وكان الرخا في هذه السنة
والامن للحجاج زايدا سنة اربع وتسعماية كان
امير المحمل قرقماس بن ولي الدين راس نوبة كبير وامير
الاول اينبك المكحل ثم عزل واستقر [illegible]
محمد بن خاص بك وفي [illegible]
واخيه هزاع بن محمد [illegible] هزاع من الحجاز
وصحبته اخوه [illegible] الى جماعتهم قبل عود
خشقدم الفارس [illegible] كاتبوا السلطان في امرة مكة
بعناية الف دينار [illegible] لتولوا فيتين مع بركات ومع هزاع
فبرز امر السلطان [illegible] بن البدري بن مزهر كاتب السر

صورة أول الجزء الثاني من مخطوطة جامعة ييل

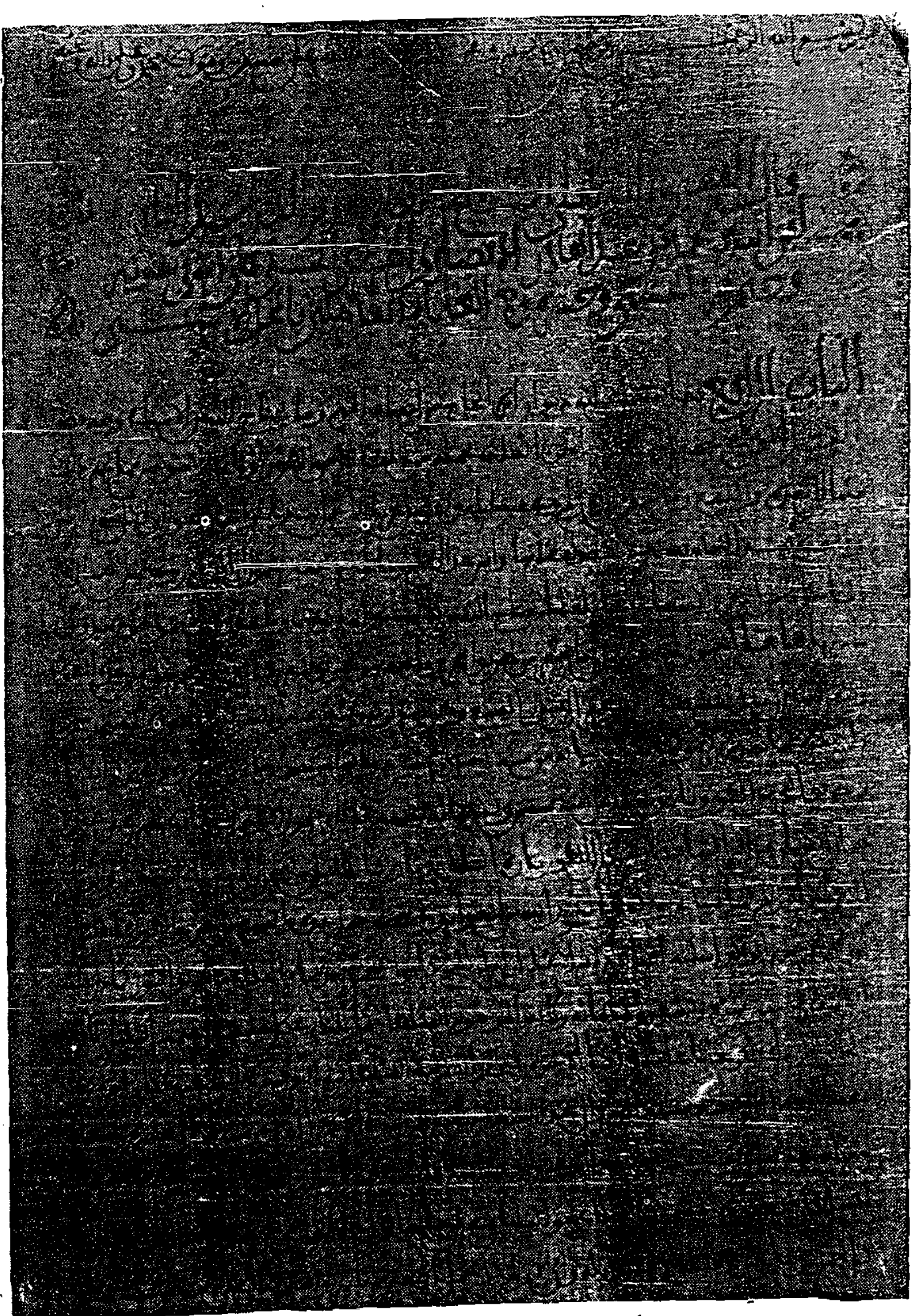
صورة أول الجزء الثالث من مخطوطة جامعة ييل

صورة الورقة الأخيرة من الجزء الثالث من مخطوطة جامعة ييل



صورة طرّة المخطوطة المغربية

صورة أول المخطوطة المغربية



صورة أول المجلد الثاني من المخطوطة المغربية

صورة آخر المخطوطة المغربية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

إنَّ أَوْلى ما يُتَوَّج بذِكْره رؤوسُ الكتب والدفاتر، وأَحقَّ أنْ يتوالى نشره لتعطير كل نادٍ وغابر، وأجْدَرَ أنْ يطرِّز ذكرُهُ لسان كل بادٍ وحاضر، حَمْدُ مَن جعلَ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناس، والشهر الحرام والْهَديَ والقلائد، المنعم على مَنْ أَهَّلَهُ للوفود إِلَى حَرَمِه الأَمِيْن بحُسْن الصِّلاتِ وجميل العوائد، المفيض على مَن أشرقَت شمسُ هدايته بالصفا حُلَل الوفاء وجزيل العطاء، المانح لمنْ سَعَى ونَقَلَ الخُطَا في ذلك الْمَحَلِّ الأَسْنَى مَحْوَ الْخَطَا، حَمْداً يحلو مكرره على ألسنة الأَنام، وأَسِنَّةِ الأَقلام، ويفُوح شَذَا عِطْرِهِ بين الركن والمقام، على تواردِ الشهور ومضيِّ الأَعوام، وتُهْدَى غُرره وَدُرَرُه لمن خُصَّ بلذة العيش الأَبيض، عِنْدَ لَثم الْحَجَر الأَسود، ولاَذَ بذلك الملتزم، سائلاً إقالةَ الْعَثَراتِ عند كُلِّ موقف ومَشْهَد.

والصلاةُ والسلام على مَن سطَعَتْ أنوارُ نُبُوَّتهِ بالبراهين القاطعة، محمد أشرفِ المرسلين، المخصوص بالشفاعة الْعُظْمَى إِذَا وَقَعَتِ الواقعة. وعلى آله وأصْحابه الذين أغْصَانُ هِدايتهم بثمار التوحيد يانعة، ما تَنَفس صُبْح الهنا بمِنَى والمشاعِر، وهبَّت نُسَيْماتُ القبول بتلك المعاهد والمآثر، ولَعْلَعَ الحادِي بذكر طوَيْلع وحاجر، فَحَرَّكَتْ رياح الأَشواق سواكن الخواطر.

وبعد: فإِنَّ التحدث بالنعمة من أَداءِ واجب شكرِهَا، وفي آي التنزيل الجليل الأَمْرُ بذكرها ونشرها.

وإِذا كانت المنحُ الإلٰهية تَفِيض مواهبَها علَى الْعِبَاد مِنَناً لا تنحصِرُ، فلا بدعَ أن يَخصَّ واهبُ الإِحسان مَن شاءَ من عباده بأَنواعِ مِن المواهِب ويَدخِر.

ولمَّا تَوَالَتْ آلاءُ الله علينا بالوفود إِلَى حَرمِهِ الأَمين، وتتابعتْ مَزَايد نعمه ومننه بالورود إِلى حضرة أَشْرَفِ المرسَلين، وأعلن حادِي أشواقنا إِلى تلك الْحَضَرات بحَيَّ على الفلاح فَلَبَّيْنَا، ولَهَجَ لِسَانُ حالِنا ومقالنا بأَنَّ الْحَمْدَ والنِّعْمةَ لك، والله لولا الله ما اهْتَدينا، ولم تَزَلْ تلك العنايةُ محفوفةً بالوالد مدة حياته مترادفة تَتْرَى، مُؤَيداً برعاية

الله تعالى لَه أعواماً وسنِيْنَ ودَهْراً، وكُنْتُ بعده ـ بَرَّد الله مضجعه ـ المشار إِليَّ في ذلك المقام، والْمَأْمُوْرَ من السلطنة الشريفة بالنَّظَر في مهمات إِمرة الحاج على توالي السنين والأعوام، وممن مَنَحَهُ الله سلوكَ ذلك الطريق ومُهمَّاتِ الحجيج وعوائد العربان، وتَحْرير أَدْرَاكِها وفَصْل قضاياها بعون الله، كما سارت بذِكْرِهِ المشاةُ والركبان، متواصل السَّعْي إِلى مَعْدِن الرحمةِ ومَوْطِن الْعفو ومَحَلِّ الْغفْران، قدْ مَنَّ الله علينا بذلك، سالِكيْنَ في ذلك الدرب الشريفِ بهدايته أَحْسَنَ المسالك، وأدركنا مِنه وفيه ما لم يعثر عليه غيرُنا ولا سوانا من المدارك.

دَرْبُ الْحِجَازِ لقَدْ شَرُفْتَ مَنازِلاً ... قَدرُ الْمَنَازِل عَنْ سَنَاهَا نَازِل

كم سِرْت فِيْهَا نَحْوَ مَكَّةَ مُنْشِداً: ... (لَكِ يا مَنَازِل فِي الْقلُوب مَنَازِل)

الْتمس مني بعض الأَعِزَّاءِ من خُلاصَة الأَحباب، والأَجلاَّءِ مِنْ أفاضِل الأَصحاب، أَنْ أُصَنِّفَ كتاباً جامعاً لأُمور الحاجِّ والمنازل، وكَيْفية الرحيل والنزول والمناهل، ومَن حجَّ بالناس من الخلفاء والصحابة والأُمراء والأعيان، من ابتداء فرض الحج وإِلى هذا الأوان، مع ما ينتظم في سلك هذا الباب، ويحسُن ذكرهُ وموقعه عند أُولي الأَلباب، فَتَعَلَّلْت بكثرةِ الشواغِل، خصوصاً أنني فِي زَمَنٍ كَسَدتْ فيه سُوق الفضائل، ونَفَقَتْ فيه أسواق ذَوي الجهالاتِ والرَّذَائِل، حتَّى لقدْ دَرَسَ الْعِلْمُ وعَفَتْ آثارُه ومراسِمُهْ، وكَبُر الْجَهْلُ وعظمَتْ أعيادهُ ومواسمه، وقلَّ الْمُنْصِفُ والمسْعِفُ، وصار طَالِب الفضائل والفواضِل عندَهم لنفسه كَالْمُتْلِفِ.

ثم اسْتَخَرْتُ اللّهَ تعالى لمَّا رأيتُ أنه لَمْ يسْبِقْني أحدٌ إِلى العمل بمثل هذا السُّؤَال، ولَمْ يَتَقدَّمْنِي ناسِجٌ غَيْري على هذا الْمِنوَال. وشرَعْتُ في مؤلف جامع لأَحوال الْحَجِّ وإِمْرَتِه، والطُّرقاتِ والرَّحِيل والنُّزُول ومَعْرفته، مُتَضَمِّناً لما لا بد منه مِنْ مناسك الحَجِّ على مَذْهَب إِمامنا أحمد، مع نَقْل الخلافِ في بعض المسائل التي هي أحمد، وما اعْتَمَدَهُ الأَصحاب، وما يسْتعذَبُ مَوردُهُ من التواريخ والآداب، مع اقتطاف ما يَحْسنُ موقعه من زهور الفوائد في هذا البستان الفريد، وما حررته في هذا القانون المجيد ليكون ـ إِنْ شاء اللّهُ تعالى ـ عمدةً للمستفيد، وتحفَةً لكل باديءٍ ومُعِيْد، وسميته بـ«الدُّرَر الْفَرَائِدِ المنظمة، في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة» مخاطباً لمن يكون من رتبتي ونَمَطي، بقول ابن الْقُوطِي:

يَا نَاظِراً فِيْمَا عنِيْت بجَمْعِهِ ... عُذْراً فَإِنَّ أخَا الْفَضِيْلَة يَعْذرُ

علماً بِأَنَّ الْمرْءَ لو بلَغَ الْمَدى ... فِي الْعُمْر لاقَى الْمَوْتَ وهُوَ مُقَصِّرُ

فَـإذا ظَـفِـرْت بِـزَلَّـة فـافْـتَـحْ لَـهَـا ... بَـابَ الـتَّـجَـاوُزِ، فـالـتَّـجـاوُزُ أَجْـدَرُ
ومِـن الْـمَـحـال بـأَنْ تَـرَى أحـداً حَـوَى ... كُـنْـهَ الْـكَـمـال وذَا هُـوَ الْـمُـتَـعَـذِّرُ
والـنـقـصُ فـي نَـفْـسِ الـطـبـيْـعَـة كَـامِـن ... فَـبَـنُـو الـطَّـبِـيْـعَـة نَـقْـصُـهـم لاَ يُـنْـكَـرُ

ورتبته أبواباً وفصولاً، ليكون سرْعة الوصول إلى المقصود فيه مَحصولاً، وحبل الغرض بهذا المؤلف البديع موصولاً، وجملتها سبعة أبواب، متضمنةً لأَحَد وثلاثين فَصلاً، عاريةً من الإطْناب والإِسهاب، فهي عروس ومَهْرُهَا الأَسْماعُ والأَبْصَار، قد زُفَّتْ، عليك تُجْلَى.

وهذه ترجمة الأَبواب، والله المسؤول حسنَ التوفيق والهُدَى للصَّوَاب:

ـ **الباب الأَوّل**: في ابتداء بناءِ الكعبة وفضلِها وشرفها، ومعنى الحجِّ والعمرة، وما يتعلق بالشروع في ذلك، وفيه فصول:

الفصل الأَول: في ابتداءِ بنَاءِ البيت وشرفه وفضله، وذِكْر مَن حَجَّهُ من الأَنبيَاء والملائكة وغيرهم.

الفصل الثاني: فيما ورد في فَضْل الحجِّ والعمرة من الأَحادِيث الصحيحة، والأَسانيد الفصيحة.

الفصل الثالث: في معنى الحج والعمرة، وبيان ذلك، وتفصيل ما هنالك، لغةً وشرعاً.

الفصل الرابع: في شرائط وجوبهما والكلام على ذلك تفصيلاً وجمْعاً.

الفصل الخامس: فيما يجب ويُسْتَحَبُّ على مَن قَصَد الحجَّ والعمرةَ، وبيان ذلك.

الفصل السادس: في أخبار مكة المشرفة ـ زادها الله تعالى شرفاً وتعظيماً ـ ومَن كان بها من قبائل العرب إلى أن جاء الإِسلام.

الفصل السابع: فيمن كان يلي الإجازة بالناسِ قبل النبُوَّة في تلك المشاعر الْعظَام، والأماكن الكرام.

ـ **الباب الثاني**: في إِمْرةِ الحاج، وفيه فصول:

الفصل الأَول: كيف حَجَّ رسول الله ﷺ.

الفصل الثاني: الحالُ الذي يَجبُ أَن يكون عليهِ أَمِيرُ الْحَاج من الصفات، والأَخْلاق والأَفعال وذكر الراعي والرَّعية.

الفصل الثالث: في ذكر أرباب المناصب التابعة لإِمْرَةِ الحاج، وما يتعلق بذلك.

الفصل الرابع: في فوائدَ نَخْتِمُ بها هذا الباب، وإنْ كانتْ لَيْسَتْ من نَمَطِ هذا الكتاب.

ـ **الباب الثالث**: فيمنْ وليَ إِمْرَةَ الحاجِّ من زمن النبي ﷺ بعد وجوب الفرض، وإلى تاريخ الشروع في هذا الكتاب، وفيه فصلان:

الفصل الأول: فتح مكة المشرفة وتاريخ ذلك مُلَخَّصاً.

الفصل الثاني: مَن ولي إِمْرَةَ الحاجِّ، وإيراد بعضِ الوقائع بمكة والطُّرُقاتِ، في بعض السنين على سبيل الاختصار، مما لا يُسْتَغْنى عن ذكره.

ـ **الباب الرابع**: فيما يشتمل عليه دِيوانُ إمْرَةِ الحاج منْ بعض أَصنافِ الْمهم والأَسباب، وفيه فصول:

الفصل الأول: في تجهيز الحمول، وذكر ما جرتْ العادة بحملهِ من ذلك، من طريق الطُّوْر أَوَّلاً، ثم من السُّوَيْسِ بَحراً، وإلى الْعَقَبة والأَزْلَم بَرًّا، وتفصيل العُرْبان الحاملين لذلك ببدَنَات وأسماء.

الفصل الثاني: في ذكر الجمال وتفصيل محْملها وعددها، على اختلاف الآراء والسنين، وذكر بعض ما وقع في أثمانها وما معها من التعيين، عند انتقال الإِمْرة، وما يتعلق بذلك.

الفصل الثالث: في ذكر ما كانت عليه ولاية إمرة الحاج من الاعتبار والمهابة، واعتناء مَن تَقَدَّمَ من الملوك بشأْنِها، وفي صدر من الدولة المظفرة، وتصريف هذا الْمُهمِّ في كُلِّ حالة مستطابة، والتعالي في حسن القيام بحال الفقراء، وسماحة النفوس، والمبالغة في ذلك إلى كُل نفيس، من مَأْكول ومشروب لا زينة مركوب وملبوس.

ـ **الباب الخامس**: وهوَ لُبُّ الكتاب، وسَجْعُ طائِرِهِ المستطاب، في ذكر المنازل والمناهل، محلاً بمحل، وما يلتحق بذلك، وفيه فصول:

الفصل الأول: في مسافة ما بين مكة المشرفة وغيرها من البلدان، المتواردة على الأَسماع، وذِكر الْبُرُد والْفَرَاسِخ، وما يتعلق بذلك.

الفصل الثاني: في ذكر ما بين مكة ومصر والشام والعراق واليمن من المراحل على سبيل الاختصار، وما يلتحق بذلك.

الفصل الثالث: في ذكر الأَدْراكِ وحُدودِها، وطوائف العربان منزلاً بمنزل، ومَنْهَلاً بِمنْهل، وإيراد ما يفتح الله به من معْنَى اسمِ تلك المنزلة، وما فيها من المياه، وصفتها، وما فيها من المحارس وما يقرب منها من المياه، المتواردة عليها طوائف العربان، وما يقرب من جهتها، واختلاف ما ورد في أسماءِ بعض المنازل كَحَذْرَةِ دَامة، وأُمِّ الْبُسَيْسِ، وما قيل في كُلِّ منزلة من الشعر إنْ تَيَسَّرَ، وصفة النزول والرحيل، وفي كَمْ درجة، ومقدار الإقامة بالدار، وإيراد بعض الوقائع الواردة في بعض المحلات، وما فيها من تَجْديد فَسْقِيَّة أو عمارة، أو صالح مدفون بها، وترجمته، وترجمة الْمُعَمِّر، إن تَيَسَّر، وإيراد ما تَيَسَّر من معنى اسم المنزلة، والسَّبب في تسميتها كَبَدْرٍ وحُنَيْنٍ.

الفصل الرابع: في مختصر غَزَاة بَدْر، ونُصْرة النبي ﷺ بها، وذِكْرِ الشهداءِ، ومسجد الغمامة وغير ذلك.

الفصل الخامس: في رابغ الإحرام، وما يَجب شرعاً من المناسك والمحظورات، وما يستَحَبُّ من ذلك.

الفصل السادس: في ذكر مكة المشرفة وأسمائِها وَفْضلها، وحدود الحرم وذَرْعِه، وذكر أُمرَائِها، ونسب صاحبها الآن، وهو مولانا السيد الشريف أبو نمَيٍّ بن بركات، وبعض الوقائع على سبيل الاختصار.

الفصل السابع: في ذكر أفعال الحج، وما يجب وما يستحب من المناسك، إلى تمامها شرعاً وما يتعلق بذلك.

الفصل الثامن: في ذكر بقية المراحل على الترتيب السابق، مما لم يسْبقْنِي إلَيْه أحد ـ بعون الله.

ـ **الباب السادس**: في ذكر المدينة الشريفة، وأسمائِها وفضلها، ومشاهدها ومعاهدها، وفيه فصول:

الفصل الأَول: في فضلها وأسمائها ومشاهدها ومعاهدها.

الفصل الثاني: في فضل زيارة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وما ورد في ذلك، وما نُقِلَ عمن زاره من الأَخيار من محاسن الأَخبار.

الفصل الثالث: في كيفية الزيارة، وما يفعله الزائر عند الشروع فيها، وما يستحب من ذلك.

ـ **الباب السابع**: وهو خاتمة الكتاب ـ في ذكر مَن حجَّ من الأَعيان رجالاً

ونساءً، من الصحابة والخلفاء، والملوك والوزراء، وأكابر الأُمراء، وذكر بعض أحوالهمْ وأقوالهم وأفعالهم، وفيه فصول:

الفصل الأَول: في ذكر مَن حَجَّ من الصحابة والخلفاء.

الفصل الثاني: في ذكر مَن حَجَّ من الملوك.

الفصل الثالث: في ذكر مَن حَجَّ من الوزراءِ وأَكابر الأُمراءِ والأَعيان ممن اشتهر في ذلك الزمان.

الفصل الرابع: في ذكر مَن حَجَّ من النساءِ و(الْخَوَنْدَات) وأَكَابر الْمُخدَّرَات، وبتمام ذلك يتم الكتاب، وبالله المستعان وعليه التكلان.

وقد آن أوان الشروع فيما قررناه، والإفصاح عما قصدناه، فنقول:

الباب الأول

الفصل الأول

في ابتداءِ بناء البيت وفضله وشرفهِ، ومعنى الحجّ والْعُمْرَة وما يتعلق بالشروع فيهما، وفيه فصول:

الفصل الأَول: في ابتداء بناء البيت وشرفه وفضله وذكر مَن حَجَّه من الملائكة والأَنبياء وغيرهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى لِنبيِّه إبراهيم، عليه أَفضلُ الصلاةِ والتسليم: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨].

وروى أَبو الوليد الأَزرقيُّ في تاريخه عن عَطاءٍ عن ابن عباس رضي الله عنه أَنه قال: لَمّا كان الْعَرْشُ على الماءِ قبل أَن يَخْلق اللّهُ السمواتِ والأرض، فبعث الله رِيْحاً [صَفَّاقةً][1] فصَفقتِ الْماءَ فأَبْرَزَتْ عن [خشفة][2] في موضِع البيت كأَنها قُبَّةٌ، فدَحَا اللّهُ عزَّ وجَلَّ [الأَرْض][3] من تحتها، فمادَتْ ثم مادَتْ، [فأَوْثَقَها][4] اللّهُ تعالى بالْجِبَال، قال: فكان أَوَّلُ جَبَلٍ وُضِع فيها أَبو قُبَيْس، ولِذلِك سُمِّيَتْ مكةُ أُمَّ الْقُرى[5].

---

(١) هكذا في الأصل وثبت في أخبار مكة للأزرقي [١/ ٤] [هفافة].
(٢) هكذا بالخاء المعجمة في الأصل، وثبت في أخبار مكة للأزرقي [١/ ٤] بالحاء المهملة.
(٣) هكذا في الأصل، وفي أخبار مكة للأزرقي [١/ ٤] [الأرضين].
(٤) هكذا في الأصل، وفي أخبار مكة للأزرقي [١/ ٤] [أوتدها].
(٥) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٣ ـ ٤] باب: ذكر ما كانت الكعبة الشريفة عليه فوق الماء، من طريق سعيد بن سالم عن طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس به.

وبروايته أيضاً عن يحيى بن سعيد عن محمد بن عمر بن إبراهيم الجُبيري عن عثمان بن عبد الرحمٰن، عن هشام عن مجاهد قال: لقد خلق الله عزَّ وجَلَّ مَوْضِعَ هذا البيتِ قبل أن يَخلُقَ [من الأرض شيئاً][١] بألْفَيْ سنة، وإنَّ قواعِدَهُ لَفِي الأَرْض السابعة [السفلى][٢][٣].

قيل: ولذلك سُمِّيَ البيتُ العتيقُ في أحد الأقوال. وفي «الجامع الصغير»[٤] للجلال السيوطيّ عن النبي ﷺ: «إنما سُميَ الْبيت العتيق لأنَّ اللّهَ أعْتَقَهُ منَ الْجبابرةِ فلم يَظْهَرْ عليه جبَّارٌ قطُّ»[٥] رواه ابنُ الزُّبير. وقيل: العتيق بمعنى الْقَدِيْم، قاله الحسن. وقيل: لأنَّهُ لم يُمَلَّكْ قطُّ. قاله مجاهد. وقيل: لأنَّه أُعْتِقَ من الْغَرَق زَمَنَ الطوفان. قاله ابنُ السائب وذكر ذلك الحافظ أبو الفرج.

وفي «تاريخ مكةَ» للأزرقي قال: حدّثنا أبو الوليد قال: حدّثني جدّي عن سعيد بن سالم عن عثمان بن سَاج، عن وَهْب بن مُنبِّه قال: إنَّ آدم عليه الصلاة والسلام لَمَّا هبط إلى الأَرض ٱسْتَوْحَشَ فيها لِمَا رأى من سَعَتِها ولَمْ يَرَ فيها أحداً غَيْرَهُ قال: يا رَبِّ أمَا لأَرْضِكَ هٰذِهِ عامِرٌ يُسَبِّحُكَ فيهَا ويُقَدِّسُكَ [كثيراً][٦]؟ قال: إنِّي سأَجْعَلُ [فيها][٧] من ذريتك مَنْ يُسَبِّح بحمدي، ويُقدِّسُ لي، وسأَجعلُ فيها بيوتاً تُرْفَعُ لِذِكْري، ويُسَبِّحْني فيهَا خَلْقي، [وسأبوئكَ][٨] فيها بيتاً أَخْتَارُهُ لنفسي وأَختصُّهُ بِكرامتي وأُوثِرُهُ على بُيُوتِ الأَرضِ كلِّها باسْمي، فَأُسَمِّيه بَيْتِي وأُنطِقُه بعظمتي [وأَحُوزه][٩] بحُرُمَاتي، وأَجْعَلُهُ أَحَقَّ بيوتِ الأَرض كُلِّهَا وأَولاها بذِكري وأَضعه في البقعة التي اخترتُ لنفسي، فإنِّي اخْتَرْت مكانَهُ يومَ خَلَقْت السمواتِ والأَرض، وقبل ذلك قد كان بُغْيتي، فهو صفوتي من البيوتِ ولَسْت أَسْكنُهُ وليس ينبغي لي أَن أَسْكُنَ البيوتَ، ولا

---

(١) هكذا في الأصل، وفي أخبار مكة للأزرقي [١/ ٤] [شيئاً من الأرض].
(٢) زيادة ليست في الأصل من أخبار مكة للأزرقي [١/ ٤].
(٣) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٤].
(٤) انظر: الفتح الكبير [١/ ٤٣٩].
(٥) أخرجه الترمذي في التفسير [٤/ ٦ ـ ٧] ح [٣٢١٩] وقال: حديث حسن غريب، وقد روي عن الزهري عن النبيّ ﷺ مرسلاً. والبيهقي في شعب الإيمان [٣/ ٤٤٣] ح [٤٠١٠]. والحاكم في مستدركه [٢/ ٣٨٩].
(٦) هكذا في الأصل، وفي موضع تخريج الحديث: [لك غيري].
(٧) زيادة ليست في الأصل، من موضع التخريج.
(٨) في الأصل [وسأريك].
(٩) في موضع التخريج بالجيم المعجمة.

ينبغي لها أَن تَسعَنِي، ولكنْ علَى كُرسيِّ الكبرياء والجبروت، وهو الذي أستقل بعِزتِي، وعليه وَضَعْت عظمتي وجلالي، وهنالك أستقر قراري، ثم [بعدُ هو][1] ضعيف عني لولا قوتي، ثم أَنا بعد ذلك مِلءُ كُلِّ شَيْءٍ وفوق كُلِّ شَيءٍ ومع كل شيء، ومحيطٌ بكلِّ شَيْءٍ وأَمام كلِّ شَيْءٍ، وخلف كلِّ شَيْء، ليس ينبغي لشيْءٍ أَن يعلم علمي، ولا يقدر قُدْرَتي ولا يَبْلُغُ كُنْهَ شَأْنِي، أَجعل ذلك البيتَ لكَ، ولمنْ بَعْدَكَ حرماً وأَمْناً أُحَرِّمُ بحرماتِهِ ما فوقه وما تحته [وما حوله][2] فمنْ حَرَّمَهُ بحُرْمتِي فقد [حَرَّم][3] حُرُمَاتي، ومَن أَحَلَّهُ فقدْ أَباحَ حُرُمَاتِي، ومَنْ أَمَّن أَهْلَهُ فقد استوجب بذلك أَمَاني، ومَنْ أَخَافَهُمْ فقد [أَخْفَرَ لي][4] ذِمَّتِي، ومَن عَظَّمَ شأْنه عَظُمَ في عيني، ومَنْ تهاون به صَغُرَ فِي عَيْني، ولِكُل ملك حِيازةُ ما حوالَيْه، وبطْنُ مكةَ خِيرَتي، وحِيازتي وجيْرانُ بَيْتي وعُمَّارُهَا وزُوَّارُها وَفدِي وأَضيَافِي، في كنَفِي وأَفْنِيَتِي، ضامِنُونَ عليَّ في ذمتي وجواري، فأَجعله أَوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للناس، وأَعْمُرُهُ بأَهْل السماءِ وأَهْل الأَرض، يأتونَهُ أَفْواجاً شُعْثاً غُبراً، على كُلِّ ضامرٍ يَأتينَ منْ كُلِّ فَجّ عميقٍ، يعجُّون بالتكبير عَجيْجاً، ويَرُجُّونَ بالتلبيةِ رَجيجاً، وينتحبون بالبكاءِ نَحِيباً. فمَن اعْتَمَرَهُ لا يُريد غيرهُ فقد زارني، ووفد إليَّ ونزل بي، ومَن نزل بي فحقيقٌ عليَّ أَن أُتْحِفَهُ بكرامتي، وحقُّ الكريم أَن يُكْرِمَ وفدَهُ وأَضيافَهُ وأَن يُسْعِف كلَّ واحد منهم بحاجته، تَعْمُرُهُ يا آدمُ ما كُنْتَ حيًّا ثم تعْمُرُهُ من بَعْدِك الأُمَمُ والْقرون والأَنْبياءُ أُمَّةً بعد أُمَّةٍ، وقرناً بعد قرْنٍ، ونبيًّا بعد نَبيٍّ، حتى ينتهيَ ذلك إِلى نبيٍّ من ولدك، وهو خاتم النبيين، فأَجعله من عُمَّارِهِ وسُكَّانه، وحُماته وولاته وسُقاته، يكون أَمِيني ما دام حيّاً، فإِذا انقلب إِليَّ وجَدنِي قد دخرْت من أَجْرِهِ وفضيلته ما يتمكن به القربةَ مِنِّي، والوسيلةَ إِليَّ وأَفضَلَ المنازل في دار المقام، وأَجْعَل اسمَ ذلك البيت وذكرَه وشرَفَهُ ومَجْدَه [وسناه][5] ومكرمته لِنَبيٍّ من ولدِك، يكون قبل هٰذا النَّبيِّ وهو أَبوهُ، يُقال له إِبراهيم، أَرفع له قواعِدَهُ، وأَقضِي على يديه عمَارَتَهُ، [وأَبْسطُ][6] له سقايَته، وأُرِيْه حِلَّهُ وحرمه ومواقفه، وأُعْلِمه مشاعره ومناسكه، وأَجْعله أُمَّةً وَاحِدَةً، قانِتاً بأَمري، داعياً إِلى

(١) في موضع التخريج: [هو بعد].
(٢) ما بين المعكوفين ليس في الأصل، زدناه من موضع التخريج.
(٣) هكذا في الأصل، وفي موضع التخريج [عظَم].
(٤) هكذا في الأصل، وفي موضع التخريج: [أخفرني في].
(٥) هكذا في الأصل، وفي موضع التخريج: [وثناءه].
(٦) هكذا في الأصل، وفي موضع التخريج: [وأنبط].

سبيلي، أَجْتَبيه وأَهدِيه إلى صراط مستقيم، أبْتَلِيْهِ فَيَصْبر، وأُعافِيْه فيشكر، ويَنْذُرُ لي فَيَفِي، ويَعِدُنِي فَيُنْجز، أَستجيب له في ولده وذُريته من بعده، وأُشَفِّعُهُ فيهم، [وأَجْعلهم][(١)] أهلَ ذلك البيت وحماته وولاته [وسُقاته، وحُرَّاسَهُ][(٢)] وحُجَّابه حتى يبتدعوا ويُغَيِّروا، فإذا فعلوا ذلك فأنا اللّهُ أَقدَرُ القادِرِيْنَ، على أَنْ أَستبدِلَ مَن أَشاءُ بمَنْ أَشاء. أَجْعَلُ إِبراهيمَ إِمامَ أَهْلِ ذَلك البيتِ وأَهل تلك الشريعة، يَأْتَمُّ به مَن حَضَر تلك المواطن، من جميع الإِنْس والجنِّ، يَطَؤوْنَ فيها آثارُهُ، ويتبعون فيها سُنَّتَهُ، ويقتدون فيها بهدْيِه، فمَن فعل ذلك منهم أَوفَى نَذْرَهُ، واستكمل نُسُكَه، ومَن لم يفعل ذلك منهم ضَيَّعَ نُسُكَهُ، وأَخطأَ بُغْيَتَهُ، فمَن سأَل عني يومئذ في تلك المواطن أَيْنَ أَنَا؟ فأَنا مَعَ الشُّعْثِ الغُبْر، الموفِين بنَذرهم، المستكملين مناسِكهم، المبتهلين إلى ربِّهم الذي يَعْلم ما يُبْدُون وما يكتمون. وليس هذا الخلقُ ولا هذا الأَمْرُ الذي قصصت عليك شأْنه [يا آدم][(٣)] [ليزيد][(٤)] في ملكي، ولا عظمتي ولا سلطاني، ولا شَيْءَ مما عندي إلاَّ كما زادَت قطرةٌ من رَشَاش، وقعتْ في [سَبْغَة][(٥)] [البُحر][(٦)]، يُمِدُّهَا من بعدها [سَبْغَةُ البَحْرِ][(٧)] لا تحْصَى، بل [الْقَطْرة][(٨)] أَزْيَدُ في الْبَحْر من هَذا الأَمر في شَيْءٍ مما عندي ولَوْ لَمْ أَخلقْهُ لم ينقصْ شيئاً من ملكي ولا عَظَمَتِي، ولا مِمَّا عندي من الغناء والسِّعة إلا كما نَقَصَتِ الأَرض ذَرَّةٌ وقعَتْ في جميع تُرَابها وجبالها وحَصَاها ورمَالها [وأَنهارها][(٩)]، بَل الذَّرَّةُ أَنْقصُ في الأَرض من هَذا الأَمْر لو لم أَخْلُقه لِشَيْءٍ مما عندي، وبعد هذا من هذا مثلاً للعزيز الحكيم[(١٠)].

وروي أيضاً عن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه قال: كنت مع أَبي

---

(١) هكذا في الأصل، وفي موضع التخريج [فأجعلهم].
(٢) هكذا في الأصل، وفي موضع التخريج: [ومماته، وخدامه، وسدانه، وخزانه].
(٣) زيادة في موضع التخريج، ليست في الأصل.
(٤) هكذا في الأصل، وفي موضع التخريج [بزايد].
(٥) هكذا في موضع التخريج وفي الأصل [سبعة] بالعين المهملة. وسبغة البحر أي: سعته، قال الفيروزآبادي: والسبغة: السعة والرفاهية. انظر: القاموس المحيط [٣/ ١٠٤] [مادة: سبغ].
(٦) هكذا في موضع التخريج، وفي الأصل [أبحر] ولفظ الأصل [سبعة أبحر].
(٧) هكذا في موضع التخريج، وفي الأصل [سبعة أبحر].
(٨) هكذا في موضع التخريج، وفي الأصل [القطر].
(٩) هكذا في الأصل، وفي موضع التخريج [وأشجارها].
(١٠) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ١٥ ـ ١٧] باب: ذكر وحشة آدم في الأرض حين نزلها، وفضل البيت الحرام.

علي بن الحسين، بمكة، فبينما هو يطوف بالْبَيْت إِذْ جاءَه رجلٌ شرْجَعٌ[١] من الرجال، يقول: طويل، فوضع يَدَهُ على ظهر أَبي، فالتفتَ أَبي إِليه فقال: السلام عليك يَا ابْنَ بنْتِ رسول الله ﷺ إِنِّي أُرِيْد أن أَسْأَلَكَ [فسكت أبي][٢]، وأَنا والرجل خلفه [حتى فرغ من أسبوعه فدخل الحجر فقام تحت الميزاب فقمت أنا والرجل خلفه][٣] [ليصلي][٤] ركعتَيْ أُسْبُوعِهِ، ثم استوى قاعداً فالتفت إِلَيَّ، فقمتُ وجلستُ إلى جنبه فقال: يا محمد فأَينَ هذا السائل؟ فأَومأْتُ إِلى الرجل، فجاءَ فجلس بين يديَّ فقال له أَبي: عَمَّ تسأَلُ؟ قال: أَسأَلُكَ عن بَدْءِ هذا الطواف لهذا البيت لِمَ كَانَ وأَيْنَ كانَ وحيثُ كانَ وكيف كان؟ قال أَبي: نعم، من أَين أَنتَ؟ قال: من أَهْل الشام. قال: أَينَ مَسْكَنُكَ؟ قال: بَيْتُ الْمَقْدِس. قال: فهل قرأْتَ الكتابَيْن - يعني التوراةَ والإِنجيْلَ -؟ قال الرجل: نعم. قال أَبي: يا أَخا الشام احْفَظْ ولا تَرْوِ عَنِّي إلاَّ حقًّا. أَما بَدْءُ هذا الطواف بهذا البيتِ فإن الله تبارك وتعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قالت الملائكة: أَي رَبِّ أَخليفة منْ غَيْرِنا ممن يُفْسِدُ فيها ويَسْفِك الدماءَ، ويتحاسدون ويتباغضون [ويتباغون][٥]؟ أَيْ رَب اجعل ذلك الخليفة مِنَّا فَنَحْنُ لا نُفْسِدُ فيها ولا نَسْفِكُ الدِّماءَ ولا نَتَباغَض ولا نتحاسد، ولا نتبَاغَى، ونَحْنُ نُسَبِّحُ بحمدك ونُقَدِّسُ لَك، ونطيعَك ولا نَعْصيك. قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] [قال:][٦] فظنَّتِ الملائكة أَنْ ما قالوا ردّاً منهم على ربِّهم عزَّ وجلَّ، وأَنه قَدْ غَضِبَ من قولهم، فَلاَذوا بالْعَرْشِ، ورفعوا رُؤُوسَهم وأَشاروا بالأَصابع، يتضرَّعُون ويبكون إِشْفاقاً لغضبه، وطافوا بالْعَرْش ثلاثَ ساعات، فنظر اللّهُ عزَّ وجلَّ إِليهم، فنزلت الرحمةُ عليهم، فوضع اللّهُ عزَّ وجلَّ تَحْتَ العرْش بَيْتاً على أَربعة أَساطِيْنَ من زَبَرْجَد، وغَشَّاهُنَّ بياقوتَةَ [حمراء][٧]، وسَمَّى [ذلك][٨] الْبَيْتَ الضُّرَاحَ

---

(١) أي طويل، قال الفيروزآبادي:
الشرجع كجعفر: الطويل.
انظر: القاموس المحيط [٣/ ٤٢] [مادة: شرجع].
(٢) ما بين المعكوفين سقط من الأصل المخطوط، واستدركناه من موضع التخريج.
(٣) ما بين المعكوفين سقط من الأصل المخطوط واستدركناه من موضع التخريج.
(٤) وقع في الأصل المخطوط [فصلى] وما أثبتناه من موضع التخريج.
(٥) ما بين المعكوفين زيادة ليست في الأصل المخطوط، زدناها من موضع التخريج.
(٦) ما بين المعكوفين زيادة ليست في الأصل.
(٧) ما بين المعكوفين وقع في الأصل [خضراء]، وما أثبتناه من موضع التخريج.
(٨) زيادة ليست في الأصل.

ـ بالضاد المعجمة ـ ثم قال الله عزَّ وجلَّ لملائكته: طوفوا بهذا البيت ودَعُوا العرشَ. قال: فطافت الملائكة بالبيتِ وتركوا العرشَ وصار أَهْوَنَ عليهم، وهو البيتُ المعمورُ الذي ذكرهُ الله عزَّ وجلَّ، يَدْخُلُه كلَّ يوم وليلة سبعون ألف مَلَك، لا يعودون فيه أَبَداً، ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ بعث ملائكةً فقال: ٱبْنُوا لِي بيتاً في الأَرض بمثَالِه وَقَدْرِه، فأَمر الله سبحانه وتعالى مَنْ في الأَرض مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يَطُوفوا بهذا البيت كما يطوفُ أَهلُ السماءِ بالبيتِ المعمور. فقال الرجل: صدقْتَ يا ابنَ بنتِ رسول الله ﷺ [هكذا كان][1][2].

وعن أَبي الوليد قال: حدّثني جدّي قال: حدّثنا سعيد بن سالم عن طلحة بن عمرو الحضرميّ عن عطاء بن أبي رَبَاح، عن ٱبن عباسٍ رضي الله عنه قال: لما أَهْبَطَ اللّهُ عزَّ وجلَّ آدمَ عليه الصلاة والسلام [مِنَ الجنةِ إلى الأَرْض][3] كان رأْسُهُ في السَّماءِ، ورجْلاهُ في الأَرض، وهو مِثْلُ الْفُلْكِ مِنْ رَعْدَتِهِ. قال: فطأْطأَ الله عزَّ وجلَّ منه إلى سِتِّيْنَ ذِراعاً فقال: يا رب ما لِيْ لا أَسْمَعُ أَصواتَ ملائكتك وَلاَ [حِسَّهُم][4]؟ فقال: خَطِيئتُكَ يا آدم، ولكن ٱذْهَب فابْن لي بيتاً فَطُفْ به وٱذْكُرْني حوله كَنَحْو مَا رأيت الملائكة تصنع حول عرشي، فأَقبل آدمُ عليه الصلاة والسلام يتخطى، فَطويتْ له الأَرْضُ وقُبضَتْ له المفاوزُ، فكانتْ كُلُّ مُفازة يمرُّ بها خطْوَةً، وقبضَ له ما كان من مخاضِ ماءٍ، أَوْ بَحْرٍ، فجعل له خطوةً، ولم تقعْ قدمُه في شيءٍ من الأَرض إلاَّ صار عُمْراناً وبركة، حتى انتهى إلى مكة المُشرَّفة فَبَنى البيتَ الحرامَ، وإنَّ جبريلَ عليه السلام ضربَ بجَناحِهِ الأَرضَ فأَبرَزَ عنْ أُس ثابت على الأَرْض السُّفلَى، فقذَفَتْ فيه الملائكة الصَّخْرَ، ما يُطِيْقُ الصخْرةَ منها ثلاثون رَجُلاً، وأَنَّهُ بناهُ من خَمْسةِ أَجْبُل: من لُبْنَان، ومن طُوْر زَيْتا، ومن طُوْر سَيْنا ومن الْجُوْدِيِّ، وحِرَاءَ، حتَّى استوى على وجه الأَرض. قال ابن عباس رضي الله عنه: فكان أَولُ مَن أَسَّسَ البيتَ وصلَّى فيه وطافَ به آدمَ عليه الصلاة والسلام حتى بعثَ الله سبحانهُ وتعالى الطوفانَ، قال [وكان غضباً ورجساً][5] فحيث ما انتهى الطوفانُ ذَهَبَ رِيْحُ آدم عليه الصلاة والسلام، قال: ولم يَقرَب الطوفانُ أَرضَ السِّنْدِ والهند. قال: فدرس موضعُ البيت في الطوفان، حتى بَعَثَ

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة ليست في الأصل.
(٢) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٤ ـ ٥] باب: ذكر بناء الكعبة قبل خلق آدم ومبتدأ الطواف.
(٣) هكذا في الأصل، وفي موضع التخريج [إلى الأرض من الجنة].
(٤) هكذا في الأصل، وفي موضع التخريج [أحسهم].
(٥) ما بين المعكوفين سقط من الأصل المخطوط، زدناه من موضع التخريج.

اللّهُ تعالى إبراهيمَ وإسماعيلَ عَليهما الصلاة والسلام فرفعا قواعدهُ وأعلامه، وبَنَتْهُ قُريشٌ بعد ذلك، وهو بحِذاء البيتِ المعمور، لو سقطَ ما سقط إلاَّ عليه(١).

وعن وهْب بن مُنَبِّه رضي الله عنه: أن اللّهَ تبارك وتعالَى لَمَّا تاب على آدم عليه الصلاة والسلام أمرهُ أن يَسِيْرَ إلى مَكَّة، فطوَى له الأَرْضَ وَقَبضَ له الْمَفاوزَ، فصار كل مفازة مَرَّ بها خَطْوَةً، وقبضَ له ما كان فيها من [مَخَائِض](٢) ماءٍ أوْ بَحْرٍ فجعل له خطْوةً. فلم يضع قدمه في شيء من الأَرض إلاَّ صار عُمْراناً وبركةً، حتى انتهى إلى مكة، وكان قبل ذلك قد اشْتَدَّ بكاؤُهُ وحُزْنُهُ لِمَا كان فيْه من عظيم المصيبة، حتى أنْ كانتِ الملائكة تَحْزن لحُزْنهِ، وتَبْكِي لبكائه، فعزَّاه الله سبحانه وتعالى بخَيْمَة من خيام الجنة، ووضعها له بمكة في موضع الكعبة قبل أن تكونَ الكعبة، وتلك الخيمةُ ياقوتةٌ حمراءُ منْ يواقيت الجنة، فيها ثلاثة قناديلَ، من ذهَبٍ من تِبْرِ الجنة، فيها نوْرٌ يلتهب من نُوْر الجنة، ونزَل معها الركنُ وهو يومئذٍ ياقوتةٌ بيضاءَ من رَبَضِ الجنة، وكان كُرْسيًّا لآدمَ عليه الصلاة والسلام يَجْلِسُ عليه، فلما صارَ آدم عليه السلام بمكة، حرسها الله تعالى، وحرس له تلك الخيمة بالملائكة، كانوا يحرسونها ويردُون عنها ساكنَ الأَرضِ، [وساكنها](٣) يومئذ الْجنُّ والشياطينُ، ولا ينبغي لهم أن ينظروا إلى شَيْءٍ من الجنة، لأَنَّه من نظر إلى شَيْءٍ من الجنة وَجَبَتْ لهُ، والأَرضُ يومئذٍ طَاهرة نقِيَّةٌ لم تَنْجُسْ، ولم تُسْفَكْ فيها الدِّماء ولمْ تُعْمَلْ فيها الخطايا، فلذلك جعلها الله تعالى مسكَنَ الملائكة، وجعلهم فيها كما كانوا في السماءِ يُسَبِّحُونَ الليل والنهارَ لا يَفْتُرُوْنَ. وكانَ وقوفُهم على أعْلاَمِ الحرم صفًّا واحداً مُسْتَدِيْرِيْنَ بالْحرم الشريف كله، الحِلُّ من خَلْفِهم، والْحَرَمُ كلُّهُ من أَمامِهمْ، فلا يجوزهم جنِّي ولا شيطانٌ، ومن أَجْل مقامِ الملائكة حُرِّمَ الْحَرَمُ حتَّى اليوم، ووُضِعتْ أَعْلاَمٌ له حيث كان مقامُ الملائكة، وحرَّم الله عزَّ وجلَّ على حَوَّاء عليها السلام دُخُوْلَ الحرمِ، [والنظر](٤) إلى خيمة آدم عليه السلام مِنْ أجْل خَطِيئتِها التي أَخْطأَتْ في الجنة، فلَم تَنْظُرْ إلى شَيْءٍ من ذلك حتى قُبضَتْ، وأنَّ آدم عليه السلام إذا أرادَ لقاءها لِيُلِمَّ بِها للولد، خرجَ مِنَ الْحرم كُلِّه حتَّى يلقاها. فلم تزل خيْمةَ آدم عليه

---

(١) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/٦ ـ ٧] باب: ذكر هبوط آدم إلى الأرض وبناء الكعبة وحجه وطوافه.

(٢) هكذا في الأصل المخطوط، وفي موضع التخريج [مخاض].

(٣) وقع في الأصل المخطوط [سكانها] والمناسب للسياق كما في موضع التخريج ما أثبتناه.

(٤) وقع في الأصل المخطوط [والسكن] والمناسب لقوله بعد [فلم تنظر إلى شيء من ذلك. . .] هو ما أثبتناه كما في موضع التخريج.

الصلاة والسلام مكانَها، حتى قبض الله تعالى آدمَ عليه الصلاة والسلام ورفعها الله تعالى وبنَى بنو آدم من بعْدها مكانَها بيْتاً بالطِّيْنِ والحِجارة، فلم يزَلْ معموراً يَعْمُرُونَه همْ، وَمَنْ بَعْدَهم حتَّى كان زَمَن نوح عليه الصلاة والسلام فنَسَفَه الْغَرَق وخَفِي مَكَانه، فَلَمَّا بعَث اللَّهُ عزَّ وجلَّ إبراهيمَ خليله عليه الصلاة والسلام طَلَبَ الأَساسَ، فلما وصل إليه ظَلَّلَ الله له تعالى له مكانَ البيتِ بغمامة فكانت حِفافَ البيت الأَوَّل، ثم لم تزل راكدةً على حفافه، تظِل إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام وتَهدِيْه مكَانَ القواعدِ، حتَّى رفع الله القواعِد قامةً، ثم انكشفت الغمامةُ، فذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] أي الغمامة التي رَكَدَتْ على الحفاف، لتهديهُ مكانَ الْقَواعدِ، فلم يزلْ بِحَمْدِ الله تعالى منذ رَفَعَه الله تعالى مَعْمُوراً [ولم تزل الملائكة والأنبياء تَحِجُّ هذا الْبَيْتَ العتِيقَ][١].

قال وهب بن مُنَبِّه: وقرأتُ في كتابٍ من الكتب الأوَلِ ذُكِر فيه أَمْرُ الكعبة، فوجدتُ فيه: أن لَيْس من مَلَكٍ [من الملائكة][٢] بَعَثَهُ الله تعالى إلَى الأرض إلا أَمَرَهُ بزيارةِ البيْتِ، فينقَضُّ من تَحْتِ العرشِ مُحرِماً مُلَبِّياً حتَّى يَسْتَلِمَ الْحَجَرَ، ثم يَطوفُ سَبْعاً بالْبَيْتِ، ويَرْكعُ في جَوْفِه ركعتين، ثم يَصْعَدَ[٣].

وعن عطاء بن أبي رَباح رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: حَجَّ آدمُ عليه الصلاة والسلام فطاف بالبيتِ سَبْعاً فَلَقِيَتْه الملائكة في الطواف فقالوا: بُرَّ حَجُّكَ يا آدم أما إنَّا قد حججنا [هذا البيت قبلك][٤] بأَلْفَيْ عام، قال: فما كنتم تقولون [في الطواف][٥]؟ قالوا: كنا نقول: سبحان الله والحمد لله، ولا إِلَهَ إلاَّ الله والله أكبر. قال آدم عليه السلام: فَزِيْدُوا فيها: ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: فزادت [الملائكة][٦] فيها ذلك، قال:

ثم حجَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد [بناءِ][٧] البيت، فلقيتْه الملائكة في

---

(١) ما بين المعكوفين سقط من موضع التخريج.
(٢) ما بين المعكوفين سقط من الأصل المخطوط، استدركناه من موضع التخريج.
(٣) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/٧ ـ ٩] باب: ذكر هبوط آدم إلى الأرض، وبناء الكعبة، وحجه وطوافه. من طريق: مهدي بن أبي مهدي، ثنا إسماعيل بن عبد الكريم الصنعاني، عن عبد الصمد بن معقل، عن وهب بن منبه به.
(٤) وقع في موضع التخريج [قبلك هذا البيت].
(٥) ما بين المعكوفين سقط من الأصل المخطوط، استدركناه من موضع التخريج.
(٦) زيادة ليست في الأصل المخطوط.
(٧) هكذا هنا، وفي موضع التخريج [بنيانه].

الطوافِ فسلّموا عليه فقال لهم إبراهيم عليه السلام: ماذا كُنتم تقولون في طوافكم؟ قالوا: كنا نقول قبل أبيك آدم: سبحانَ الله، والحمد لله ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر. فأعلمناه ذلك، فقال آدم عليه السلام: زِيْدوا فيها: ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله. فقال إبراهيم عليه السلام: زيْدوا فيها: العلي العظيم. قال: ففعلت الملائكة ذلك[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنَّ جبريلَ عليه السلام وقف على رسول الله ﷺ وعليه عِصَابَةٌ حمراءُ قد علاها الْغُبَارُ، فقال له رسول الله ﷺ: «ما هذا الغبار [الذي][2] أَرَى على عصابَتِك أَيُّها الرُّوْح الأَمِين»؟ فقال: إني زُرْتُ البيتَ فازْدَحَمَت الملائكةَ على الرُّكْنِ، فهذا الغبار الذي تَرَى مما تُثِيْرهُ بِأَجْنِحَتِهَا[3].

وحَجَّهُ إسحاقُ وسارةُ عليهما السلام من الشام، قال ابن إسحاق: وكان إبراهيمُ عليه السلام يَحِجُّهُ كلَّ سنة على الْبُرَاق.

قال: وحَجَّتْهُ بعد ذلك الأَنْبِياءُ والأُمَمُ.

وقال ابن إسحاق: لم يَبْعثِ الله نبيًّا بعدَ إبراهيم عليه السلام إلاَّ وَحَجَّ البيتَ. وحجَّ موسى ماشِياً، ويونُسُ وهارون عليهم السلام.

وروى الأَزْرَقِيُّ عن مجاهد قال: حجَّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مَاشِيَينِ[4].

وبروايته عن عطاء بن السائب عن محمد بن سابط عن النبي ﷺ قال: «كان النبيُّ من الأنبياءِ إذَا هلكتْ أُمَّتهُ لحِقَ بمكةَ [فَيَعْبُدُ الله][5] فيها ـ النبيُّ ومَن معه حتى يموت، فمات بها نوح وهود وصالح وشُعَيب، وقبورهم بين زَمْزَمَ والْحِجْرِ»[6].

وبروايته عن عطاء بن أبي رباح «أنَّ موسَى بن عمران عليه السلام طاف بين

---

(١) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ١٤] باب: ذكر هبوط آدم إلى الأرض، وبناء الكعبة وحجه وطوافه.

(٢) ما بين المعكوفين سقط من موضع التخريج.

(٣) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٥ ـ ٦] باب: ذكر هبوط آدم إلى الأرض، وبناء الكعبة وحجه وطوافه.

(٤) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٣٤] باب: ذكر حج إبراهيم عليه السلام، وأذانه بالحج، وحج الأنبياء بعده. من طريق: ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد به.

(٥) في موضع التخريج [فيتعبد فيها].

(٦) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٣٤] باب: ذكر حج إبراهيم عليه السلام، وأذانه بالحج، وحج الأنبياء بعده.

الصفا والمروةِ وعليه عَباءةٌ قَطَوانِيَّةٌ[١] وهو يقول: لَبَّيْك اللهم لبيك، فأجابه ربُّه عزَّ وجلَّ: لَبَّيْكَ يا مُوسَى وها أَنَا معك»[٢].

وبروايته عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «أَقبل موسى عليه السلام يُلَبِّي تُجَاوِبُهُ [الجبالَ][٣]، جبالُ الشام، على جَمَل أَحْمَر، عليه عَباءَتَان قَطَوَانِيَّتَان»[٤].

وورد أنَّ الأنبياءَ كانوا يدخلون الحرم مُشَاةً حُفَاةً ويطوفون بالبيت ويَقْضُوْنَ المناسِك مُشَاة حُفَاة.

وعن مقاتل قال: في المسجد الحرام قُبورُ سَبْعِين نَبِيًّا منهم هود وصالح وإِسماعيل.

وقبور آدم وإِبراهيم وإِسحاقَ ويعقوبَ ويوسف في بيت الْمَقْدِسِ.

وعن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «لَقَدْ مَرَّ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ - أو قال: لقد مر بهذا الفجِّ - سبعون نبيًّا على نُوْقٍ حُمْرٍ خُطمُهَا اللِّيْفُ ولبوسهم العباءة وتلبيتهم شَتَّى، منهم يونس بنُ مَتَّى، وكان يونس يقول: لَبَّيْكَ فرَّاجَ الكروب لبَّيْك، وكان موسَى عليه السلام يقول: لَبَّيْكَ أَنا عَبْدُك لَدَيْكَ لَبَّيْكَ»، قال: وتلبيةُ عيسى عليه السلام: أنا عبدك ابن أَمَتِكَ، بِنْتِ عَبْدَيْك[٥].

ولم يزلْ هذا البيت على حالة التعظيم، والتَّبجيل والتكريم، قد شرَّفه الله تعالى، وعَظَّمَه، في عصر كُلِّ أُمَّة، وجعله مغناطيس القلوب، ومَوْئلاً لكفَّارات الذنوب، وملجأً للخاطىء والأثيم، ومحطَّ رحال المذنبين، ووقاية لهم من عذاب الجحيم.

---

(١) قال ابن منظور: القطونية عباءة بيضاء قصيرة الخمل، والنون زائدة، كذا ذكره الجوهري في المعتل، وقال: كساء قطواني: ومنه حديث أم الدرداء قالت: أتاني سلمان الفارسي، فسلّم علي وعليه عباءة قطونية. انظر: لسان العرب [٢٠/ ٥٢] [مادة: قطا].

(٢) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٣٧] باب: ذكر حج إبراهيم عليه السلام، وإذنه بالحج وحج الأنبياء بعده. من طريق: سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج أخبرني عثمان بن الأسود، عن عطاء بن أبي رباح به.

(٣) ما بين المعكوفين سقط من موضع التخريج.

(٤) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٣٧ - ٣٨] باب: ذكر حج إبراهيم عليه السلام. من طريق: عثمان بن ساج أخبرني غالب بن عبيد الله عن مجاهد عن ابن عباس به.

(٥) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٣٨ - ٣٩] باب: ذكر حج إبراهيم عليه السلام.

نقل الشريف الأَجل القاضي أمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله الحسنيُّ الأَفطسي النسّابة في كتاب أَلّفه لخزانة السلطان إسماعيل بن العباس بن علي ابن رسول ملك اليمن، ذكر فيه فضلَ البيت وعِدة أحاديث مسندة وأخباراً متعددة، إلى أن قال: مَا عسى يبلغ مدح المادح وجهد الواصف من كنه الثناء على بيت عظَّمته الملائكة، وطافت به الجِنُّ ثم الإِنس، ثم الأُمم على اختلاف مذاهبها وتباين عقائدها.

ولم يقع على قديم الدهر في تعظيمه وتقديسه وتفخيم شأْنه اختلاف من الموحد والملحد وأهل الشرك والإيمان، فكلٌّ على اختلاف المذاهب والملل، والشرائع والنِّحَل والوسائط والرسل، إلى تفضيله داعٍ، وإلى الطواف به والصلاة فيه ساعٍ، وبالإذعان والرسل مختلف (؟).

فما ظنُّك ببيت تجافى عنه طوفان نوح، ورُدَّ دونه فِيْل الحبشة، وخلب عن ثلمِه كَيْدُ الفراعنة، وثبت فيه مقام إبراهيم، وأشرقت به أنوار نُبُوَّةِ محمد ﷺ.

والذي نذكره هو المشاهَد بالعيان، وما يحققه حاضر الامتحان ليكون أردع للمنكر، وأقطع لحجة المخالف، وأشحذ لنية المؤمنين وأقر لعين المهتدين.

فمن خصائصه الواضحة، ومناقبه الراجحة، أنه لم يَضق قطّ عن الحجيج، وأكثر الروايات الصحيحة والإجماع أنه لن يتم موسم بدون الأَربع مئة ألف نسمة.

قلت: بل الوارد في السنة ست مئة ألف فإنْ نقصت العدة تممتها الملائكة.

قال: ثم إنه معلوم أنَّ حَجَّهُ لا يتمُّ إلاَّ برمي الجمار، وعلى كل مسلم رَمْي سبعين حصاة، وذلك من لَدُن آدم إلى حِين زماننا هذا، فلو اجتمع بالْمُزدَلِفَةِ لكان جبلاً لا يبلغه ثبير، ولا يعتبره يَلَمْلم، ولا يبلغه هضاب (؟) لولا معجزة الله بها أعلم والأَحاديث عنها تكثر.

ومنها: أَن لا نرى لأَربع مئة أَلف أُضحية أَو ست مئة أَلف تُنحَر فِي صعيد واحد كل سنة منْ فرثٍ أَوْ دَم أَو ما يتولد من الذبائح، والمقاذر والروائح شيئاً تَأْباه النفوس، وتنبو عنه العين، وأَنتَ لو اعتبرت ذلك في مدينة يذبح قَصَّابوها الأَعداد اليسيرة، لرأَيتَ ما يغُضُّ الناظر، وينبو عنه الخاطر، ويدل ذلك على موضع الإِعجاز والإِعجاب، فإنه أَمْرٌ لا يخفى إلا عن عديم حسٍّ، وسقيم نَفْس، ثم إذَا اعتبرت أَمْرَ الحمام مع كثرة العدد، ونُمُوِّهِ على طول الأَبد، وهو لا يعرض له جارح، ولا يذعرهُ صائد، ولاَ ذابح، ولا ترى حمامةً طارتْ على سطح الكعبة إلا أَن تكون عليلة فتَرَى هناك طريحة، كالمستشفية حتى تَبْرأَ، ثم تعود إلى عادتها.

ثم إنَّ أَهلِ النظر والتبيين، والفحص والتبحيث، يعتبرون في ابتداء كل عام إذا دخلت الشمسُ رأسَ النقطة والاعتدال من الْحَمَل، فإن نشأَتِ السحائب من تلقاءِ الركن العراقي كان الخصب بالعراق، وإن نَشأَتْ من اتِّجاه الركن اليماني كان الخصب باليمن، وإن نشأَتْ من إزاء الركن الشامي كان الخصب بالشام، وإن عمّت السحائب من الأَركان الأَربعة كان الخصب ذلك العام عامًّا.

قال: حدثني شيخ من أَهل المدينة يكنى أَبا القاسم وَنَحْن في الروضة ما بَيْنَ القبر والمنبر، وهو يقيم بها، أَنَّ صديقاً له يكنَى أَبا الطيب الدِّينوري، كان مُجَاوراً بمكة ثلاثين سنة، قال: فزرته في بعض السنين التي حججت فيها في منزله، فقلت: يا أَبا الطيب قد أَخذتَ من المجاورة بنصيب، فلو عُدتَّ بأَهلك إلى مسقط رأسك فإنْ تلقى منيَّة ففي غير غربة، وحيث يشاهدك ذووك ولا يعزب عَنْك أَقربوك فقالَ: أَصَبْت ما في نفسي وكان مُوْسِراً، فحاسب مُعامِليه وجميع حاشيته، وعمل على الرجوع، فبيْنَما هو كذلك في المسجد طائفاً به للتوديع، حين خفَّ أَهله عند الهاجرة، حتى رأى غزالاً هبط من أَعلى أَبي قبيس، ودخل من باب إبراهيم عليه السلام وطاف بالبيت سبعاً، ثم سَمَى للحجر الأَسود يرومه بأَظلافه، وهو لا يكاد يبلغه، فاستلمه ثم رجع على أَدراجه، صاعداً إلى أَبي قبيس، فقال: يا أَبا القاسم، يستجير به الوحش، وأَرْحَلُ أَنَا منه؟! كلاً والذي عظَّمه، وكرَّمه، فأَقام مجاوراً، إلى أَن قضى نَحْبَهُ.

قلت: وسيأْتي طواف الجمل والطير والحيّة بالبيت، في توالي السنين.

ولو لم يكن هذا البيت إلا أَنه بلد لَقَاح، لم يملكه أَحدٌ على وجه الأَرض، ولم تَطُلْ عليه يدٌ، ولم يَزَلْ مضافاً إلى الله تعالى، فيقال: بيت الله، وحرم الله، وكعبة الله، ويُدْعَى سُكَّانه جيرةَ الله، وأَهله أَهل الله، لكان ناهيك به فَضْلاً، وحسبُكَ به فَخْراً ونبْلاً.

ثم إنَّ العرب كانتْ تنتمي إليه، وتسمي أَولادها به، تَنويْهاً بهم، وتفخيماً لهم، فكان عثمان بن عامر أَبو قُحَافَةَ، سَمَّى ولده في الجاهلية عبد الكعبة، حتى أَتى الله تبارك وتعالى بالإسلام فسمّاه النبيّ ﷺ عبد الله.

وكانت لعبد المطلب عِدَّةُ كُنَى، وكان أَشرفها عندهم أَبو البطحاء، يرون الاستمالة إلى تلك الأَباطح منقبةً لا توازيها المناقب، ونسباً لا تدانيه المناسب.

وكم من مولدي الإسلام يسمى بالمكيِّ والمدنيِّ والحاج والحاجي، قال: حدّثنا القاضي البراسي حين بدأْنا بالبادية سائرين من القادسية قال: جَرَتِ البارحةَ بيني وبين طائفةٍ من بلدي منازعةٌ، فقال غِمْرٌ مِنْ أَغْمَارهم: هذا دِهْلِيْز الْمَنِيَّةَ، وأَول أَبواب

الشقوة، ومفتاح التغرير بالمهجة، فقلت: كلاَّ، بل هو باب الرحمة، والطريق إلى الجنة، وفاتحة العفو والمغفرة، قال: فهوَّمْت في مِخْمَلي، وفي نفسي هاجسٌ من ذلك، فأُريْتُ أَرضَ البادية كلها كصفائح الفضة المجْلُوَّة، والسيوف البواتر المصقولة، أَو كالصرح الْمُمَرَّد العجيب الصنْعة، وعن اليمين والشمال قبابٌ شامخة، وقناديل معلقة زاهرة، وكأَنَّ هاتفاً يهتف بي، ويقول: ما قلت اليوم؟! وما قيل لك؟ فأعدتُّ ما جرى، فقال: القول ما قلته. فسكن روعي، وقُلْتُ: ما هذه القنايل والقباب؟ قال: هي للحجاج كل سنة. انتهى ما قاله باختصار.

قال بعض العلماء: **سُؤَالٌ** ما الحكمةُ فِي ميل الخلق إلى الكعبة الشريفة؟

فأَجَاب: إِنَّ الحكمة في ميل الخلق إِلى الكعبة الشريفة أنه لما خلق اللّٰهُ الأَرواحَ وتكاثرتْ عليها العلوم غَشَّاها بِالْمَاءِ الْكَوْنِيِّ لِلرَّاحَة من تَزايد تلك العلوم، فكان أَصل الكعبة طائِفاً على الماء كالْحشفَة، تجرمت مع ذوات الأرواح، فكانت للأَرْواح معها تلك النِّسْبَة من القدس.

مَـحَبَّـةٌ مـا عـرفْـتُ الـدَّهْـرَ سَـلْـوَتَـهـا ... تَجْرِي مع الرُّوْحِ أَوْ تَسْرِي مَعَ النَّفَسِ
ومـا لَـهـا آخِـرٌ لٰـكِـنَّ أَوَّلَـهـا ... تَـعَـارُفٌ سابِـقٌ فِـيْ حَـضْـرَةِ الْـقُـدسِ
فِـي عَـالَـم الـذَّرِّ نَـاجَـانِـي الْـبَـشِـيْـرُ بِـهَـا ... أهْـلاً يُـمَـثِّـلُـهَـا طُـهْـراً مِـنَ الـدَّنَـسِ
أَشْهَى إِلَى النَّفْسِ مِنْ أَمْنٍ عَلَى وجَلٍ ... ومِنْ مَجال الْكَرَى فِي الأَعْيُنِ النَّعسِ

ثم استمرت على القدسيةِ لأَنَّهَا من عَالم الرَّيحَان، والأَرواح تشتاقها، لذلك المعنى شعر:

يـا كَـعْـبَـةَ مَـلأْتَـنَـا ... شَـوْقـاً يَـسُـوْقُ الْـعَـزَائِـمْ
كَـمْ ذَا قُـلُـوْبٌ إِلَـيْـهَـا ... مِـثْـلُ الـطُّـيُـوْر حَـوَائِـمْ

غيره:

لِـلّٰـهِ بَـيْـتٌ عـلاَ فـي الأَرْض مـنْـزلَـةً ... يَـكَـاد يـحـسِـدُهُ مِـنْ أَجْـلِـهـا الأُفُـق
قَـدْ أُودعـتْ فِـيْـه أَسْـرارُ الْـهَـوى فَـلِـذَا ... تَـرَاهُ يُـلْـثَـمُ أَرْكَـانـاً ويُـعْـتَـنَـق

فتكاد تفضل الحجر لأَنها تجَرَّمَتْ من الماء قَبْل الجنة والحجر من الجنة، وإِنما أَعْنِي عَرَصَتَها وهواءَها أَمَّا أَحجارُها فحادثة.

وسُئِل بعض العلماءِ: مَا الْحِكْمة في أَنَّ الْمُشَاهِدَ للكعبةِ المعظمة إذا فارقَهَا يزدادُ شوقاً؟ وكذلك كلُّ مواصل، إذا فارقَ محبوبَهُ ازْدادَ شوقاً؟

فأَجاب: لأَنه إِذَا فارقَ صار يُشَاهِدُ بالرُّوْح، بعد أَن كان يشاهِدُ بالْعَيْن، وشَهادَةُ الأَرْوَاح أَقْوَى من شهادة الأَجرام، فيَقْوى حُبُّهُ بقدر شهوده.

ورُوي أَنَّ النَّظَر إلى الكعبةِ عِبادةٌ[1]، وفي رواية أُخرى: أنه كعبادة الْعُبَّاد، وأَنه أَفْضَلُ من الصلاة والصيام والجهاد[2]. وقيل: إنَّ الناظِرَ إلى الكعبة كالمجتهد في العبادة في غير مكة من البلاد، ورُوي أنه يَعْدِلُ عبادةَ سَنَة، وأَنَّ مَن نظر إليها خرج من ذنوبه كيوم وَلَدَتْهُ أُمُّهُ[3].

وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «تُفْتَح أَبوابُ السَّمَاءِ وتُسْتَجابُ دعوةُ المسلم عند رؤية الكعبة»[4] شِعْرٌ:

يَا حُسْنَ بَيْتِ اللّهِ وهْوَ مُجَرَّدٌ ... وَلَنَا لِهَيْبَةِ نُورِهِ إِطْرَاقُ

نَكْسُوْهُ أَسْوَدَ والْقُلُوبُ تَوَدُّ لَوْ ... ضُمَّتْ عَلَيْهِ سَوَادَهَا الأَحدَاقُ

غيره:

كَعْبَتُنَا قَدْ أَصبَحَتْ ... بِنُوْرِهَا مُخَلَّقَهْ

تَهُبُّ مِنْ أَرْكَانِهَا ... أَرْيَاحُ عِشْقٍ عَبِقَهْ

فَصَيَّرَتْ قُلُوْبَنَا ... بالْوجْدِ كَالْمُطَوَّقَهْ

وغادرت أَرواحنا ... بِعرْشِهَا مُعلَّقَهْ

مَلِيْكَةٌ بِجوْهرِ الْـ ... ـذِّكْرِ غَدتْ مُمنطَقَهْ

والطَّائفُوْنَ حوْلَهَا ... جُنُوْدُ تلْكَ الْحَلَقَهْ

---

(١) روي مرفوعاً من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن جده بلفظ: «النظر إلى البيت الحرام عبادة». أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على عطاء (٤٠٥٢) وابن أبي شيبة [٢ ـ ٣/ ٣٢٨]. وأورده ابن الجوزي مرفوعاً هكذا في مثير الغرام الساكن باب: فضل النظر إلى الكعبة.

(٢) قال عطاء: الناظر إلى البيت كمنزلة الصائم القائم الدائم المخبت المجاهد في سبيل الله عزّ وجل، ونظره إلى البيت يعدل عبادة سنة قيامها وركوعها وسجودها. أخرجه الأزرقي [٩١٢] وعزاه السيوطي للجندي وابن أبي شيبة. انظر: الدر المنثور [١/ ٢٥٠].

(٣) قاله ابن المسيب. أخرجه الأزرقي [٢/ ٩] وعزاه السيوطي للجندي. انظر: الدر المنثور [١/ ٢٥٠] وقال أبو السائب المدني: مَن نظر إلى الكعبة إيماناً وتصديقاً تحاتت عنه الذنوب كما يتحات الورق من الشجرة. أخرجه الأزرقي [٢/ ٩].

(٤) روي عن أبي أمامة مرفوعاً بلفظ: «تفتح أبواب السماء ويستجاب الدعاء في أربعة مواطن: عند التقاء الصفوف في سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلاة، وعند رؤية الكعبة». أخرجه الطبراني في الكبير [٨/ ١٦٩] ح [٧٧١٣] وقال الحافظ الهيثمي: فيه عفير بن معدان، وهو مجمع على ضعفه. انظر: مجمع الزوائد [١٠/ ١٥٥].

غيره:

حَمَانَا مِنْ مَخُوفِ الدَّهْرِ بَيْتٌ ... لَهُ بِالذِّكْرِ أَرْكَانٌ وَسَقْفُ
مَحُوطٌ بِالسُّرُوْرِ وبِالتَّهَانِي ... عَلَيْهِ الْبِشْرُ والإِقْبَال وَقْفُ
نَزَلْنَا فِي فِنَاءٍ مِنْهُ رحب ... بِهِ الآمَالُ لَيْسَ لَهُنَّ خُلْفُ
فَأَرْشَفَنَا مِنَ الرِّضْوَان مَاءً ... يَزِيْدُ عَلَى الْمَدى طِيْباً ويَصْفو
وأَلْبَسَنَا مِنَ الإِكْرَام ثَوْباً ... لَهُ بالأَمْن والإِسْعَافِ سُجْف
يَصُدُّ عَدُوَّنَا الشَّيْطَانَ عَنَّا ... ويُتْحِفُنَا مَلائِكَة تُحَفُ

وفي عدد بناء البيت الشريف خلاف، ونحن نذكر ما بلغنا من ذلك:

قال العلماء رحمهم الله: بُنِيَ البيتُ الشريفُ خمس مرات، ومَشَى على ذلك الإمام النوويُّ رحمه الله تعالى في «مناسكه»: أَوَّلاً بنته الملائكة[1]. عن علي بن الحسين رضي الله عنهما: أَنَّ الله وضع تحتَ العرش بيتاً وهو البيت المعمور، وأَمَرَ الملائكة أَن يطوفُوا به، ثم أَمَرَ الملائكة الذين هم سُكَّانُ الأَرض أَن يبنوا في الأَرْض بيتاً على مِثَاله وقَدْرِهِ، واسمه الضُّرَاحُ، وأَمَرَ مَنْ فِي الأَرْض أَنْ يَطُوْفُوا بِهِ كما يَطُوْفُ أَهْلُ السَّمَاءِ بِالْبَيْتِ المعمور[2].

وروي أَنَّ الملائكة عليهم السلام بَنَوْهُ قبل خلق آدمَ عليه السلام بِأَلْفَيْ عام، وكانوا يَحِجُّونَه، فلما أَهبط اللّهُ آدمَ من الجنة كان رأسُه في السَّماء ورجلاه في الأَرض، فسمع كلام أَهْل السماء ودعاءَهُم، فَأَنِسَ بهم، فَتَأَذَّتِ الملائِكةُ من حَرِّ نَفَسِه، حتى شَكَتْ إِلى الله تعالى فَنقَصَه إِلَى ستِّينَ ذراعاً، بذراع آدم عليه السلام، فلما فقَدَ آدمُ عليه السلام ما كانَ يَسْمَعُهُ من أَصواتِ الملائكة وتَسْبيحِهم قال: يا رب ما لِيْ لا أَسْمَعُ؟ قال: بخطِيْئَتك يا آدم. وأمرهُ أَنْ يطوف بالبيت فتوجَّه آدم عليه السلام نَحْوَ مكة، فكان كلُّ مَوْضِع قَدَمَيْه قَرْيَة، وبين كُلِّ خَطْوة مفازَة، حتى أَتى مكةَ[3]، فأَنزل الله ياقوتةً من يواقيت الجنة فكانت على موضع البيت[4]، فحجَّ آدمُ عليه السلام فلما حجَّهُ قالت الملائكة: بُرَّ حجُّكَ يا آدَمُ: حَجَجْنَا هذا الْبَيْتَ قَبْلَكَ بِأَلْفَيْ عام[5].

---

(١) انظر: شرح الإيضاح في مناسك النووي [ص٤٦٧].
(٢) أخرجه الأزرقي ضمن حديث طويل عن علي بن الحسين عليهما السلام في أخبار مكة [١/ ٣٢ ـ ٣٤].
(٣) إلى هنا أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٣٦] باب: ذكر هبوط آدم إلى الأرض.
(٤) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٣٧].
(٥) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٣٩].

وقيل: هو أولُ بيت ظَهر على وجه الأَرْض، عندَ خلق السموات والأرض، خلقه الله تعالى قبل الأرض بألفَيْ عام[١]، وكانت زَبَدَة بيضَاءَ على وَجْهِ الماء فَدُحِيَتِ الأَرْضُ من تَحْتِهِ، ولذلك سماهُ الله تعالى الْبَيْتَ العتيقَ.

ثم بناه إبراهيم عليه السلام بعْدَما أَرسل اللّهُ الطوفانَ في زمن نوح عليه السلام فَرُفِعَتْ تلك الياقوتَةُ، ثم إنَّ الله تعالى أَوْحَى إلى إبراهيم عليه السلام وقال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ فقال: إلٰهِي إنَّ المشرقَ والمغرب فِي بُعْدِهِمَا، مَتَى يبلغُ بهم نِدَائِي؟ قال الله تعالى: يا إبراهيمُ مِنْك النِّدَاءُ ومِنِّي البلاغ. فصعد إبراهيم عليه السلام على الصفا ـ وقيل على أَبِي قُبَيْس ـ ونادَى: عبادَ الله أَجِيْبُوا دَاعِيَ الله وحِجُّوا بَيْتَه. فارتفعتِ الأَصواتُ مِن أَصْلاَب الآباءِ وأَرحام الأُمَّهات من كل مكان في علم الله تعالى أَن يحجَّ بيته يقولون: لَبَّيْك، وكل مَن لَبَّى مَرَّةً يحِجُّ مَرَّةً، وكلُّ مَنْ لبَّى مرَّتَيْن فإِنَّه يَحِجُّ مَرَّتَيْن، ومَن زاد في التلبية يزيد في الحج على حسب الزيادة في التلبية. كذا ذكره أهلُ التفسير[٢].

ثم بناهُ قريشٌ في الجاهلية، وحضر الرسول المصطفى ﷺ هذا البناءَ، وعمره خمس وثلاثون سنة، وقيل: خمس وعشرون سنة، وقيل: دون ذلك، وهو الذي وضع الْحَجَرَ الأَسودَ بيده ﷺ حين اشتوروا قُرَيش فيمن يضعُ الْحجرَ فِي مَحَلِّهِ، فجعلوا ذَلك لأَوَّل دَاخِل عليهم، فكانَ المصطفى ﷺ.

ثُمَّ بَناهُ عبدُ الله بنُ الزُّبير رضي الله عنه كما سَيَأْتِي، ثم بَنَاهُ الحجَّاجُ وهو بناؤه اليوم.

وذكِر أَنَّ هارونَ الرشيدَ العَبَّاسِيَّ سأَلَ مالكاً رضي الله عنه أَنْ يَهْدِمَهُ وَيَرُدَّهُ إلى بناءِ ابن الزبير، لكونه على قواعدِ إبراهيمَ عليه السلام بالأَحاديث الدالة على ذلك، فقال مالك رحمه الله تعالى: أَنْشُدُكَ اللّهَ ـ يَا أَمِيْرَ المؤمنين ـ أَنْ لا تَجْعَلَ هذا البيتَ مَلْعَبَةً للملوك، لاَ يشاءُ أَحدٌ إلاَّ نَقَضهُ وبناه، فَتَذْهبُ هَيْبَتُهُ من صدور الناس.

وذكر العلامة الفاسِيُّ المؤرخ في كتابه «شفاء الغرام، بأَخبار البلد الحرام» أَنها بُنِيَتْ عشر مرات، فإنه قال: بنيت الكعبة المعظمة مَرَّات، وفي عدد بنائها خلافٌ، ويتحصل من مجموع ما قيل في ذلك عشر مرات: منها بناءُ الملائكةِ، ومنها بناءُ آدم عليه السلام، ومنها بناءُ أَولادِهِ، ومنها بناءُ الخليل على جميعهم السلام، ومنها بناءُ

---

(١) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة [١/ ٣٢].

(٢) انظر: تفسير ابن كثير [٣/ ٢١٦].

الْعَمَالِقَة، ومنها بناءُ جُرْهُمَ، ومنها بناءُ قُصَيٍّ بن كِلاَب، ومنها بِناءُ قُرَيشٍ، ومنها بناءُ عبد الله بن الزبير، ومنها بناءُ الحجاج بن يوسف الثَّقَفِيِّ(١).

قال العلامة الفاسي رحمه الله تعالى: وإطلاقُ العبارة بأَنَّ الحجاجَ بَنى الكعبَةَ تَجوُّزٌ، لأَنه ما بني إلاَّ بَعْضَها، قال: ولولا أن السهَيْلِيَّ والنَّوَوِيَّ ذكرَا ذلك لَمَا ذكرته، وجميع ما ذكرناه من بناء الكعبة ذكره الأَزرقيُّ، إلاَّ بناءَ قُصَيٍّ فإِنَّهُ لم يذكره، وذكره الزُّبَيْر بن بكار في موضعين من كتابه، والفاكهيُّ وابن فائد وغيرهم، وهو أَوَّل مَن سقَّفَهَا. وقريْش أَول مَن رفع بابَها لِيُدْخِلُوا مَن شَاؤُوا ويَمْنَعُوا مَن شَاؤُوا، وابن الزبير أَوَّلُ مَن جعل لها بابَيْن، وبناؤه لها ثابتٌ، وكذلك بناءُ قريش والخليل عليه السلام وما عدا ذلك غَيْرُ ثابتٍ لضعف سَنَد الأَخْبار الواردة به، وكلام السُّهَيْلِيِّ يقتضي أَنَّ شَيْثَ بنَ آدم عليهما السلام أَوَّلُ مَن بناها، وفي الأَزرقيِّ ما يدلُّ لِتَقَدُّم بناء آدم عليه السلام على بناء الملائكة(٢).

وسببُ بناء ابن الزبير رضي الله عنه لها حريقٌ أَصابها من خَيْمَةٍ في المسجد أَيَّامَ حَصَرَه الْحُصَيْن بن نُمَيْرٍ السَّكُونيُّ لِمُعَانَدَةِ يَزِيْدَ بن مُعَاوية، وما أَصَابَها مِنْ حَجَر الْمَنْجَنِيْق الذي كان يَرْمِي به الحصينُ بْنَ الزُّبَيْر في حال حَصْرِهِ، فإنه كان يصيبُ الكعبةَ، وذلك في أَوائل سنة أَربع وستين من الهجرة، فلما أَدْبَرَ الحُصَيْنُ بنُ نُمَيْر من مكة راجعاً إِلى الشام، في ربيع الآخر من هذه السنة، بعد أَنْ بلغه موت يزيد، استشار ابن الزبير في هَدْم الكعبة وبنائِها، فأَشار بذلك قومٌ وكرهه آخرون، منهم ابن عباس رضي الله عنهما. فلما اجتمع إِليه ما يحتَاج إِليه من آلاتِ الْعِمارة هَدَمَها، فبناها على أَساس إِبراهيمَ عليه السلام لأنه أَدْخَل فيها ما كانَتْ قريشُ أَخْرَجَتْهُ منها في الْحِجْر، بعد أَن كشف عن أَسَاس إِبراهيم حتى ظهر له، وأَوقَفَ الناسَ عليه، وجعلَ لها بَابَيْن مُتقَابلَيْن، لاصقيْن بالأَرْض: أَحدُهما شرقيّ والآخر غربيّ، واعتمد في ذلك وفي إِدْخَالِهِ فيها مَا أَخرَجتْهُ منها قريش على حديث يقتضي ذلك، أَخبرته به أُمُّ الْمُؤْمِنِين عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، وزاد في طوْلها تسعةَ أَذرع. هذا هو المشهور فيما زاده، وقيل: زاد فيه عَشراً وهذا في مُسْلِم عن عطاء(٣).

وعبد الله بن الزبير رضي الله عنه هو الذي وضع الْحَجَرَ الأَسْوَدَ في الكَعْبَةِ لَمَّا

---

(١) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ٤٧].
(٢) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ٤٧ ـ ٤٨].
(٣) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ٤٨ ـ ٤٩].

بُنِيَتْ في زمنه، وَقِيْلَ: وضعه ابنُهُ عَبَّادُ، وقيل: ابنه حمزة، وقيل: الْحَجَبَةُ مع ابْنِهِ حمزة، والله أعلم.

والذي بناه الْحَجَّاجُ في الكعبة الجدرُ الَّذِي يَلِي الْحِجْرَ - بسكون الجيم - والباب الذي صنعه ابنُ الزبير رضي الله عنه في دُبُرِ الكعبة، وما تَحْتَ عتبةِ الباب الشرقيّ وكَبَسَ أَرْضَهَا بالْحِجَارة التي فَضَلَتْ من أَحْجارها، وبَاقِيْها على بناءِ ابنِ الزبير رضي الله عنه[(١)].

قال الفاسِيُّ في كتابه «العقد الثمين في تاريخ البلد الأَمين»: وقد صُنِعَت فيها أُمُوْرٌ بعد ابن الزبير والحجاج.

قلت: وأول مَن بدأ بذلك الوليد بن عبد الملك في عشر الثمانين، أَحضر لها من الشام الرُّخَامَ، وفرش به أَرْضَها وأَزْرها مِنْ داخلها. وقيل إِنَّ أَباه عبد الملك بدأَ بذلك. وكانتْ أَرض سَطْحِها بِالفسيْفِساءِ، فجعلت تَكِف، فَغَلَّفَتْها الحجبة بِالْمَرْمر المطبوخ، والجصّ بعد المئتين.

قال العلامة الفاسي: ومن ذلك عِمارةٌ في الْجَدْرِ الذي بَنَاهُ الحجَّاج لانْفِتَاحِه، وهذا لَمْ يذكره الأَزْرَقِيُّ وذَكَره الْخُزَاعي، وهذا الجدر لم يَزَلْ منفصلاً عن بِناء ابنِ الزبير إِلى آنِنَا هذا، وهو يُلْزَق بالْجِبْسِ ولا يلْتَئِمُ، وبرز أَعْلاَه بروزاً ظاهراً.

ومن ذلك عمارة رخام غير مرة في سنة إِحْدى أَو اثنتين وأَربعين ومئتين، وفي عشر الخمسين وخمس مئة - في غالب الظَّنّ - من فعل الجواد الأَصفهانيّ وزير صاحب الموصل وهو أنه عمِل درجاتها.

وفي سنة تسع وعشرين وست مئة في غالب الظن، من قبل المستنصر العباسي.

وفي سنة ثمانين وست مئة من قبل الملك المظفر صاحب اليمن.

وفيما بعد ذلك وقبله.

ومن ذلك عمارة في سطحها بعد سنة مئتين، ذكر ذلك الأَزْرَقيُّ.

ومن ذلك عمارة سقْفِها والدرجة التي بباطنها في سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة.

ومن ذلك مواضع في سقفها في شهر رمضان سنة أَربع عشرة وثمان مئة.

---

(١) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ٤٩].

ومن ذلك في آخر سنة خمس وعشرين وثمان مئة إصلاح رخام كثير في جوفها، وإصلاح [الروازن][١] بسطحها، ورخامة تلي ميزابها لِتَخرُّب ما تَحتَها، والأَخشاب التي بسطحها المُعَدة لِشَد كسوة الكعبة لتُخرُّبِهَا وعُوِّضتْ بخشبِ غيرها، وأُحكم وضعُها بسطحها[٢].

ومن ذلك في المحرم من سنة ثمان وثلاثين وثمان مئة في زمن الأَشرف برسْباي هَدَمَ سودُون المحمديُّ سَقفَي الكعبة، وأَقامتْ مُدةً بلا سقْف إلى شهر ربيع الأَول، ثم رُكِّبَ سَقْفها وأُكْمِلتْ، وفي صفر منها أُصْلِحَ أَحْجاراً من داخلها، مقابل الداخل من الباب، وأُصلحت سقوفُ من ظاهرها بالجبس، وقُلع الرخام الذي بسطح الكعبة، بسبب أَنه كان يكِفُ الماءَ إليها لأنَّه مَبْنِيٌّ بالْجبْس، ثم عُمِل بالنورة وجُرِّدت الكعبة لرثاثة الخشب، وأُدْخِلَت الثيابُ في جوف الكعبة، واستمرت يومين وليلتين مُجَرَّدَةً، حتى عُوِّضَتِ الأَخشابُ التي تُشَدُّ بها أَثوابُ الكعبة من أَعلاها، ثم أُعيدتِ الثيابُ عليها ضحى يوم الاثنين، ثاني عَشرَي صفر المذكور.

وفي سنة سبع وأَربعين وثمان مئة سقط من الكعبة حَجَرٌ من تحتِ الميزاب، فَنُقِلَ بما فيه إلى قُبَّةِ الفرَّاشِيْنَ، واستمر أَيَّاماً إلى أَنْ أُعِيْدَ مكانه.

ومن ذلك ترميم السَّقْفِ الشَّريف في سنة إحدى وثلاثين وتسع مئة بحُكْم وَرَدَ مِنْ مصر، من تلقاءِ كافل الديار المصرية يومئذ، وهو المرحوم إبراهيم باشا، وقُرِىءَ المرسومُ في الحَطِيم، فكان في عبارته: (ليعمر تعميراً مُحكماً ليكون أَول مَن بناه إبراهيم عليه السلام وآخر مَن بناه إبراهيم) فعُدَّتْ هذه كبيرة ممن أَنشأ ذلك المرسوم، ويظهر لي أَنه القاضي محبُّ الدين الظاهري، وكان المباشر للترميم المذكور والي جلبي أَمِيْن جُدَّةَ المعمورة، والمرحوم قاضي القضاة بمكة محبُّ الدين بن ظَهيْرَةَ الشافعي، وقاضي القضاة تاج الدين المالكي رحمهما الله تعالى، وجعلوا طوقاً من الحديد على موضع الكسر من خَشب السقف، وحَشَوُا الموضع المنخسِفَ بالْمُشَاق والجبْس، فلم يلبثْ أَنْ زاد الكَسْرُ وانخسف، وظهر ظهوراً تامّاً، وكان ذلك سبباً لتميره في سنة تسع وخمسين، فإنه قد عَرَض بنو شَيْبة وقاضي مكة إذ ذاك، وهو قاضي القضاة، محمد بن محمود بن كمال الرومي الحنفي، بالْتِماسهم إلى الأَبواب

---

(١) وقع في الأصل الروازي، والتصويب من العقد الثمين، والروازن هي: الطاقات الصغيرة لتهويتها وإضاءتها. انظر: العقد الثمين [١/ ٥٠].

(٢) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ٤٨ ـ ٤٩].

العالية، سنة ثمان وخمسين وتسع مئة أنَّ بعض أَسْهُم سَقْف البيت قد انكسر وانخسف ـ بسبب ذلك ـ سَطْحُ البيت، وصار الماءُ المجتمعُ من المطر ينزلُ إلى جوف البيت الشريف، ويُتْلِفُ الكسوةَ التي بداخلِهِ، وقد بَذَلْنا النُّصْحَ، وأَرَدْنا أَنْ نَخُصَّ السلطانَ بهذه الْمَزِيَّةِ الْعُظْمَى، ويَعْمر بيْتَ الله تعالى ويُخَلِّدُ ذِكْرُ ذلك على صفحات الأَيام، ويكون له منقبة عظمى.

فلما وصلت العروض إلى السلطان ـ سليمان بن عثمان ـ نصره الله تعالى، استفتى مفتي الزمان في ذلك الأوان، أَبا السعود شلبي، فأَفتاه بجواز ترميم الضروريِّ من غير أَنْ يُتَعَلَّلَ به إلى تَرْميم ما لَيْسَ بضروري، وأَرسل مولانا السلطان صورةَ الفتوى، مع حكم شريف، إلى وزيره علي باشا كافل المملكة المصرية إِذْ ذاك، لِيُرْسِلَ في هذه المصلحة مَن يُعْتَمَدُ عليه، فأَرسل الباشا لهذه المصلحة أَحمد جلبي، الذي كان (مقاطِعْجيًّا) قبل ذلك بمصر، من طائفة يدعون في اللغة التركية بـ (أَسباهي أَغلان)، وجعله ناظراً على حرم مكة المشرفة، وأَرسل معه مِعْمَاراً ومصروفاً، وما يتعلق بذلك من الأَدوات والأَسباب، فوصل أَحمد جلبي في موسم سنة ثمان وخمسين وتسع مئة وبعد ذلك أَراد الشروع فيما أَراد، فخالفه الشَّيْبِيُّوْنَ وقالوا: لا نُمَكِّنُ من ذلك، طمعاً منهم في شَيْءٍ يحصل لهم من قبله.

فلما كان يوم الجمعة خامس عشر ربيع الأَول عقد أَحمد جلبي مجلساً بحضور قاضي مكة، وطلب جماعة من أَهل مكة والمجاورين، منهم الشيخ العلامة المحقق شهاب الدين أَحمد بن حَجر الشافعي، والشيخ الإمام العلامة الحنفي عمدة المحققين قدوة الملة والدين، علامة أَهل الأَدب المتبحرين، قطب الدين بن مُلاً عَلاَءِ الدِّين النهروالي مفتي الحجيج، والقاضي شمس الدين محمد بن عبد الحق النُّوَيْري المالكي، وشمس الملّة والدين المدرِّس الرومي الحنفي، والسيد الشريف حسين المالكي، والقاضي شرف الدين يحيى بن فائِز بن ظَهيْرة، وحضر من المجاورين الشيخ الإمام العلامة الرحلة، شمس الدنيا والدين، مفتي المسلمين، أَوحد العصر، محمد ابن شيخنا العلامة الحافظ الرحلة، بقية السلف جمال العلماء، أَبي الحسن البكريُّ الصِّدِّيْقِيُّ الأَشْعَرِيُّ الشافعيُّ، والشيخ العلامة، عمدة أَهل الأَدب نور الدين علي العسيليُّ الشافعي، فقال أَحمد جلبي: ما قولكم في تعمير الموضع المنخسف من سطح البيت، وقد حصلَ منه الضررُ على الكسوة، ويُخْشَى منه الزيادة؟ فقال الجميع: يجوز إِصلاحُهُ، بل يتعَيَّن. فقال فاتح البيت الشيخ أَبو السعود الشيبي: ليس في سطح البيت الشريف مَوْضِعٌ منخسِفٌ، يحصل منه الضررُ، وإِنْ يكُنْ فَمِثْل هذا يُسَدُّ بالْقُطْن

ويُكْتَفَى بذلك. فقال أَحمد شلبي: معي بينة تشهد بما أَقول. وأَحضرَ جماعة من البنَّائِيْنَ والمِعْمَار، وشهدوا أَنَّهم عاينوا الكسر في سَهْمَيْن من أَسْهُم السَّقف الشريف، ورأوا السَّهْمَ الثالث انْحَنى عن موازاةِ بقيَّةِ الأَسْهُم أَحدَ عشر قيراطاً بالْعَمَل، وأنه إن لَمْ يُتدَارَكْ بالعمل يُخْشَى من سقوطِ السقفِ الشريف. وحكم القاضي بموجب شهادتهم وأَمر بالشروع في العمل. فلما بلغ هذا المجلسُ بعضَ الأَعاجم، تحرَّك فيه عرقُ عَصَبيَّة لِلشَّيْبِيِّيْنَ وقال: لاَ يَجُوزُ أَن يُعْمَرَ مطلَقاً إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَسْقُطَ مِنْ تِلْقاءِ نفسه.

وعُمل مجلس آخر حضر فيه جماعةٌ غيرُ الأَولين، وكلهم بالغ في الإِنكار على القائل بجواز الترميم، وصرَّحُوا بأَنَّ الكعبةَ قائِمةٌ بيد الْقدْرة، وأَنَّها لا تنهدم، فلا يجوز أَنْ تُمَسَّ مطلقاً، وأَوردوا لذلك أَشياءَ وتفرقوا. فلما رأى ذلك أَحمد جلبي أَخرج لهم خَطَّ المفتي، فخاف الجميعُ، وفَرَقُوا مما قالوا، وذكروا أَنَّ هذا هُو مرادنا بعينه ومرْحَباً بالوفاق، فطلب خطوطَهم بذلك، فكتبوا خوفاً من إِظهار مخالفةِ المفتي وطوْلِعَ بذلك السيد الشريف أَحمد أَمير مكة المشرفة فحضر بنفسه، وشرع في التعمير، ولم يبلغوا مرادَهم، فاتفق أَنَّ في أَثناءِ ذلك وقع حريق في بيت الشيخ العلامة قطب الدين الحنفي واحترقت كتبه، فزعموا أَنَّ ذلك بسبب الفتيَا بهَدْم ما يُحْتاج إِليه من عمارة السقف بالبيت الشريف، وتقوَّلوا عليه ما لم يَكن قاله، وقد أعلف في هذه الواقعة الشيخ العلامة شهابُ الدِّيْن أَحمدُ بْن حَجَرِ الشَّافِعِي تأْليفاً بديعاً في بابه.

ومن ذلك في شهر صفر الخير سنة ست وعشرين وثمان مئة إِصلاحُ رخام كثير بأَرض الكعبة، بين جانبها الغربيِّ وأَساطينها، وفي جدرانها، وإِقامة الأَسطوانة التي تلي باب الكعبة، لميلها، وأُحْكِمَت في موضعها وتنقلها، ومن ذلك عتبة الباب السُّفلَى لرثاثتها، وجعْل عوضها عتبةً قطعة ساج، في سنة إِحدى وأَربعين ومئتين، أَوْ في التي بعدها ثم غُيِّر ذلك بعتبة حَجَرٍ مَنْحُوت، وهي الآن على ذلك.

قال العلامة الفاسِيُّ: وما علمت متى جرى ذلك. ومن ذلك أُسطوانة فيها لأَنَّ الفاكهيَّ قال: حدّثني أَبو علي الحسن بن مكرم قال: حدّثنا عبد الله بن بكر قال: حدّثنا أبو بكر بن حبيب قال: جاورتُ بمكة فعابتْ أُسطوانةٌ من أَساطين البيت فَأُخْرِجَتْ، وجيءَ بأُخْرَى لِيَدْخلوها مكانها، وطالت عن الموضع، فأَدركهم الليل، والكعبة لا تُفتَحُ ليلاً فتركوها مائلةً، ليعودوا من الغد فيصلحوها، فجاؤوا مِن الغد فأَصابوها أَقْوَمَ من القِدْح انتهى. وهذا غريب، وفيه للبيت كرامة.

وَأَوَّل مَن حَلَّى الْمِيزاب بالذَّهب الوليد بن عبد الملك، وطوله بما فيه من جدار الكعبة أَربعة أَذرع وثُمُن بالحديد، أَوْ أَكثر بيسير.

ومن ذلك ميزاب عمله رَامِشْت، وصل به خادمه مثقال، في سنة تسع وثلاثين وخمس مئة.

وميزاب عمله المقتفي العباسيُّ ورُكِّب في الكعبة، بعد قلع ميزاب رَامشت في سنة إِحدى وأَربعين وخمس مئة أو في التي بعدها.

وميزاب عمله الناصرُ العباسيُّ، وظاهره فيما يبدو للناس مُحَلًّى بفضة.

وأَحْدَث عَهْد حُلِّيَ فيه سنة إِحْدَى وثمانين وسبع مئة.

قلت: وقَدْ قُلِع هذا الميزاب في سنة تسع وخمسين وتسع مئة وعُمِل على صفته مِيْزابٌ حُلِّي بالْفضة، وطُلِيَ بالذهب، بأَمر مولانا السلطان سليمان بن عثمان ـ دامت معدلته ـ ورُكِّبَ بالكعبة المشرفة في موسم السنة المذكورة، في ولاية المقام العالي الوزيري علي باشاه، وأَمر بنقل الميزاب القديم إِلى خزانة الروم، ووردت الأَحكام بأَنْ تُعَوَّضَ بنو شَيْبَةَ في مقابلة ذلك وَزْنَهُ فِضَّةً، من بَندر جدة، وذلك ـ بحسب تخمين نائب جدة، والقاضي بمكة ـ أَلفان وثمان مئة درهم فضة، عن ذلك أَلف دينار، ونَيِّف، من المعاملة القديمة.

ورأَيت في تاريخ صاحبنا الشيخ محمد الشلج (؟) السلمي ما نصه: من هناليس في المغربية وفي يوم الخميس سادس عشر الحجة طلب الأَمير إسكندر نائب جدة بني شَيْبَةَ وقال لهم: السلطانُ رَسَم أَن يقدر ما في الميزاب القديم من الفضة، ويدفع كل ذلك من مال جُدَّة، وضبطناه بالوزن، فإِذا هو خمسة آلاف وثمانون درهماً، والثمن من ذلك مئتا سلطاني، وسبعة. فقالوا: ما نأْخذ إلاَّ ثَمَنَ كل قَفْلَة ديناراً ذهباً، للبركة، وهذا ما هو ثمن للفضة.

وطال النزاع. فقال نائب جُدَّة: أَنا لا أَقدر أَن أَزيد على مئتين وسبعة شيئاً، فتوجهوا إِلى القاضي، وتكلموا فما أَفادهم، وأَخذوا المبلغ المذكور بعد ذلك في يوم الاثنين، وزِيْدُوا شيئاً قليلاً فوق ذلك. وجملة ما قبضوا من الذهب السلطاني مئتان وخمسة وأَربعون ذهباً. إِلى هنا زيادة من المصرية.

واخْتُلِفَ في أَول مَن بَوَّب الكعبة فقيل: أَنوش بن شيث بن آدم عليهم السلام، وقيل: تُبَّع الثالث، الذي كساها ونَحَرَ لها، وقيل: جُرْهُم بَوَّبَتْهُ.

ومن ذلك باب عمله الجواد الوزير في سنة خمسين وخمس مئة وكتب عليه

اسم المقتفي، وحلاّهُ حِلْيَةً حسنةً، وكلام ابنُ الأَثير يوهم أَنَّ المقتفي عمل للكعبة باباً. وما عمله إلا الجواد والله أَعلم.

وباب عمله الملك المظفر صاحب اليمن وكانت عليه صفائح فضة، زنتها ستون رطلاً.

وباب عمله الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر من السّنْط الأَحمر وحلاّهُ بخمسة وثلاثين أَلف درهم، ورُكِّبَ في الكعبة في ثامن عشري ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين وسبع مئة.

وفي سنة ست وسبعين وسبع مئة أَمر الأَشرف شَعْبان بتحلية بابِ الكعبة، فحُلي بمئتين وثلاثين ـ أو ثلاثة وثلاثين ـ أَلف درهم.

وفي سنة إِحدى وخمسين وثمان مئة أُصْلِحت فيارِيْز البابِ بالْفضة، وطلِيتْ بالذهب، وقدر ذلك بأَلف وست مئة درهم وتسعين أفلورياً للطلاء، وذلك في زمن السلطان جُقْمُق.

قلت: وقد قلع هذا الباب في سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة بأَمر مولانا السلطان سليمان ـ دام مجده ـ في ولاية نائبه بمصر وأَعمالها داود باشاه، وعُمِل غَيْرُهُ وحُلِّيَ بحلية كثيرة من الفضة المطلاة بالذهب، ورُكِّبَ في التاريخ المذكور، وصائغه رجل روميٌّ واسمه شعيب، أَحسن صياغته ما شاءَ، وأَلبسه في تلك السنة زمن الموسم أَمير الحج حسين أَباظا كاشف إِقليمي الفيُّوم والبهنساوية قفطاناً مذهباً لذلك.

وفي عام ثلاث وسبعين وتسع مئة برز أمر السلطان سليمان ـ أدام الله عزه وتأْييده ـ بعمل قفل من ذهب، فَصُنِعَ على أحسن صناعة، وجهزه إِلى مكة في موسم تلك السنة. فوضع على الباب المكرم، وأمر بتجهيز القفل القديم إِليه، فجهزه الشريف أبو نُمَيٍّ بن بركات صحبة ساماط مملوكه، إِلى السلطان من طريق مصر.

قال العلامة الفاسيُّ: واسم مولانا السلطان الملك الأَشرف برسْباي مكتوب بحائط الكعبة اليمانِيِّ، بسبب ما أَنفق في سلطنته من العمارة في الكعبة المشرفة، واسم الأَشرف شعبان بن حسين ملك مصر كان مكتوباً في أَحد جانبي باب الكعبة لتحليته في زمنه.

ومن ذلك تعمير الْحجرِ الشريف على يدَي الأَمير خاير بك المعمار، في سنة ست عشرة وتسع مئة بأمرٍ من المرحوم السعيد الشهيد قانصوه الْغُوري، فإِنَّ خاير بك هدم الْحِجْرَ جميعَه وبُنِي جديداً بالرُّخام من داخل، وبالْحَجرِ من خارج.

وعُمر في هذه السنة باب إبراهيم. وَوُجد فيه لقْيَةً في قبة كانت هناك، وهي مِئَتَا أَشْرَفِي مغربي في صندوق، وفيه ورقة فيها مكتوب: (نحن عمرنا وتعبنا، وما ظلمنا، فإذا خربت هذه القبة تبْنى بهذا المال) وكان وزن الأشرفيّ قَفْلَةَ وتُسْع، وعليه كتابة بالكوفية.

ثم في سنة سبع عشرة وتسع مئة وصل الْمُرَخِّمُوْنَ بَحْراً برخام، وورد أمرٌ من السلطان الغوريّ ـ رحمه الله تعالى ـ بنقض الحجر الشريف وإعادته بِالرُّخَام الأَبيض والأَسود، وشَدِّهِ بِالْجبس والرصاص، فَبُنِي خَمْسَةَ مَدَامِيْكَ رخام أَبيض، وأربع مداميك رخام أَسود، وسمك كُلِّ مِدْمَاك مقدار سبع أَصابع، وشُدَّ ذلك بالجِبس والرصاص، وكان الخواجا بن عبد الله سأل السلطانَ أَنْ تكونَ النفقةُ على ذلك من ماله، وأَرسل يأمر جماعةً بذلك، فلم يوافقه الأَمير خاير بك المعمار على ذلك، وهو الأَمير خاير بك العلائي أَحدُ أُمراء (الطَّبْلَخاناة) بالديار المصرية و(باش) المماليك، وناظر الحسبة بمكة، وشادُّ العمائر السلطانية رحمه الله تعالى.

وكان قد تفكَّك بعضُ أَحجارِ الْحجرِ الشريف فأَعادها الأَمير خوشكلدي، ورَمَّمَ ما برز منها في سنة إحدى وخمسين وتسع مئة.

وقبل ذلك في شعبان المكرم سنة أَربع وأَربعين وتسع مئة، دخل قاضي مكة مصطفى الرومي إلى الكعبة، هو وشيخ الحجبة أَبو القاسم الشيبي، وتكلموا في عمارة الرخام المقلوع من أَرض الكعبة وجُدْرَانِها، مع تسمير الأسطوانة الموالية للجهة الشمالية، وطلب القاضي جماعة من الفقهاءِ والعلماءِ، منهم الشيخ العلامة، جمال العلماء أَبو الحسن البكري الشافعي، وشيخ الصوفية علي الكيزواني الحلبي، فتعرَّض الشيخ البكري لمنع العمارة في المحلِّ الشريف، فإنه يَضُرُّ بالبيت. فترك القاضي ما شرع في عمله لديانته.

قلت: وللسلطان سليمان بن عثمان ـ أَسبغ الله عليه ظلاله، وأَعزَّ نصره وأَدام بِرَّهُ ونواله ـ من العمائر الجميلة بالحرمين الشريفين، وطريق الحجاج المصريين، والمآثر الجليلة، ما نرجو له به ـ إن شاءَ اللّهُ تعالى ـ طولَ البقاء، والنَّصْرَ على الأَعداء، فمن ذلك بمكة المشرفة وحرمها متجددات:

منها: ما تقدّم ذكره بالبيت الشريف.

ومنها: تغيير بلاط المطاف القديم، وعمل البلاط الجديد بدائر المطاف، على يد أَحمد جلبي في سنة تسع وخمسين وتسع مئة، مع أَن البلاط المبدَّل بغيره كأَنْ لَمْ يظهر به تكسيرٌ ولا تَغَيُّرٌ مع ما تداولتْ عليه أَرجلُ عباد الله الصالحين، والرجال

أَصحاب المقامات والأَحوال، ولَعَمْري أَن تلك الأَحجار تُقْصَدُ بالزيارة وأَنها تميز وتفضل على كثير من أَهل زماننا الذين لا يعبر عن أَحوالهم بعبارة.

وأَخبرني مَن أَثق به من أَهل مكة، حين صلاتي الجمعة، بِظلَّة زمزم في عام ٩٦٢ أَنَّ الحجارة الأُولى في بعضها طلسَم صغير، محكوم بمنع الحمام أَن يذرق نَحْو الكعبة، أَو تعلو بسطحها إِلاَّ إِذا كانت مريضة، فتعلو السطح للاستشفاء، وأَنه من تاريخ إِزالة ذلك الطلسم مع أَحجار المطاف، لم يزل الحمام يتوالى خرْءُها وذَرْقها على الطائفين وحول البيت، وصارت تعْلو على السطح، ولو لم تكن مريضة.

وأَوَّل مَن بلَّطَ المطاف عبدُ الله بن الزبير رضي الله عنهما لما بنَى الكعبة، وفرغ من بنائها، بقيتْ معه بقية من الحجارة، ففرش بها حولَ البيت نحواً من عشرة أَذْرع، وتَبعَهُ غيره ففرش باقي المطاف.

ومن المتجددات ما كان من العمائر على يد الأَمير المرحوم خُوْشكَلْدِي ـ أَمين جدة كان ـ وأَمير اللِّواء الشريف السلطاني، والعمائر الشريفة، فإِنه عمل مَعْبَراً لمتحصل السيول والأَمطار بمكة المشرفة، حصل به غاية النفع، وزال به مضارُّ السيول، التي كانت حاصلةً قبل عمارته.

ومن متجدداته تَوْسِعةُ الْمَسْعَى الشريف، وهدم ما كان مُضَيِّقاً بها من مقاعد الباعة والمساطب، وإِزالة ذلك بالكلية، جزاه الله خيراً.

ومنها العمارة في مرمات الحرم الشريف، وهدم مقام الحنفية الذي كانت عمارته على هيئة التربيع تجاه الكعبة الشريفة، وهو عمارة السلطان سليم بن عثمان، تغمّده الله بالرحمة والرضوان، وإِعادته على الحالة التي هو بها الآن، ودِهَان مقام سيدنا إِبراهيم الخليل عليه السلام، وتذهيبه، وكذلك أَبواب الحرم وعمارة التكية (الخاصكية) بالقرب من الصَّفا، والسَّبيل الذي بها، والمطبخ الذي لدشيشة الفقراء، وغير ذلك من الآثار الجليلة.

ومن العمائر السلطانية ما جُدِّدَ على يد الأَمير مصلح الدين الرومي في أَول سنة ٩٢٤ فعمل الحنفيَّة التي خلف درجة الريّس، وفيه السقاية القديمة المعروفة الآن بالملك المؤيد شيخ، الملاصقة لفرشة زمزم، بجانب الحنفية القديمة التي غيرها الأَمير جانيك، وهي حوض كبير ببزابيز من نحاس، وشرع بهدم مقام الحنفية، وبناء قبة عالية على أَربعة أَعمدة، بعقود أَربعة، ووقع بسبب عمارة ذلك اختلاف بين القضاة ومصلح الدين المذكور، وصرحوا له بعدم الجواز، لأَن فيه شغْلُ بقعة في المسجد،

واتفق بينهم رجٌّ كبير، إلى أن أذن له الشريف بركات بالعمارة، بعد أخبار يطول شرحها، فلا نطيل بذكرها، ثم هدمت على يد الأمير شكلدي كما تقدم قريباً.

ومن العمائر السلطانية تغيير طلاء (دَرَابْزِيْن) ظُلَّة المؤذنين بأحسن منه، وبُيِّضت من داخلها وخارجها، وعُمِل لدائر بيت زمزم طرازٌ مذهَّب، في سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة، وتغيير الأعمدة التي حول المطاف، في سنة اثنتين وثلاثين، وتعويضها أعمدة من نُحاس، وبينها أخشاب ممدودة لتعليق قناديل المطاف وتغيير منبر الحرم الشريف ودرج الكعبة بالموجود الآن. وعمارة مقامي المالكيّ والحنبليّ في سنة اثنين وثلاثين وتسع مئة، وعمارة منارة باب عليٍّ في السنة المذكورة وعمارة باب بني شيبة المعروف بباب السلام، وتغليف منارة باب العمرة، وعمارة الموالد بمكة المشرفة وغيرها، وإصلاح عَيْنِ خُلَيْص، والفسْقِيَّة التي بها، وبناء القبة المستجدة عليها. وولاية شاد على العَيْن بجامكية تصرف له، من محصولات بَنْدَرِ جدة، لمراعاة سقاية وَفْد الله تعالى، وبناء سُور المدينة المنورة، على حالة الإتقان والإمكان، و(الحصار) الذي بها، والتكية الخاصكية خارج باب المدينة، وما جدد بها من العمائر والآثار السلطانية الجليلة، وعمارة في خان نخيل، توسعة له وتسهيل طرق عَقَبة أَيْلة، وإزالة المضايق الفاحشة والأحجار التي كانت بالطرقات، وقطعءالجبال بالمعاول، لتتسع الطرق للحاج، كما هو مشاهد معلوم، بعد أنْ كانت من أَشَدِّ المشقَّات على الوفد الشريف، وغير ذلك مما يطول تعداده، فلنرجع إلى ما كنا بصدده.

الفصل الثاني

من الباب الأول

فيما ورد في فضل الحَجِّ والعمرة من الأحاديث الصحيحة، والأسانيد الفصيحة فنقول:

قد ذكر الله تعالى هذا البيت في كتابه العزيز بِأَجَلِّ ذِكْرٍ وأَفْخَم تعظيم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥] ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨] قال سعيد بنُ المُسَيَّب: هي منافع الآخرة، وقال مُجَاهِدُ: هي منافِعُ الدنيا والآخرة، وقال ابن مسعود والحسن وسعيد بن جُبَيْر في قوله تعالى:

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]: إنه طريق مكة ولأُغيِّر أمرهم عن الحج.

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ [قريش: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة: ١٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ لنبيه محمد ﷺ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

وقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٢٦].

ورَوينا عن الشيخين وغيرهما عن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أَنهُ سُئِلَ: أَيُّ الأَعمالِ أَفضل؟ قال: «إِيمانٌ بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حجٌّ مبرور» وفي «المسند» و«سنن ابن ماجه» عن أُمِّ سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ[1] قال: «الْحَجُّ جهادُ كُلِّ ضعيف»[2]، وخرج البيهقيُّ وغيره من حديث أَبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «جهاد الضعيف والكبير

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان [١/ ٩٧] ح [٢٦]. ومسلم في الإيمان [١/ ٨٨] ح [١٣٥/ ٨٣]. والترمذي في فضائل الجهاد [٤/ ١٨٥] ح [١٦٥٨]. والنسائي في الحج [٥/ ٨٥] باب: فضل الحج. والدارمي في الجهاد [٢/ ٢٦٤] ح [٢٣٩٣].

(٢) أخرجه ابن ماجه في المناسك [٢/ ٩٦٨] ح [٢٩٠٢]. والإمام أحمد في مسنده [٦/ ٣٢٦] ح [٢٦٥٧٦].

والمرأة الحج والعمرة»[١] وروينا بالسند الصحيح، كما أخبرنا به شيخنا مُسْنِدُ الآفاق، خاتمة الأئمة، أَقْضى القضاةِ شهابُ الدين، أحمد بن عبد العزيز بن علي بن إبراهيم الفتوحيُّ الحنبليُّ الشهير بابن النجَّار قال: أخبرني شيخ الإسلام، البدر، أبو السعادات محمد البَلْقيني قال: أنبأني جدِّي لأبي شيخ الإسلام الجلال عبد الرحمٰن ابن شيخ الإسلام سراج الدين البُلقيني، قال: أنبأني جدِّي لأُمِّيْ شيخ الإسلام بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمٰن بن عَقِيلِ النحويّ، قال: أخبرني مسندُ الآفاق أحمد بن أبي طالب بن أبي المنعم بن الشحنة الحجَّار، قال: أنبأني أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى الزبيدي، قال: أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى الرومي بسماعه من أبي الحسن عبد الرحمٰن بن محمد المظفر الداودي بسماعه من أبي محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي: بسماعه من أبي عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفِرَبْري، بسماعه من الإمام البخاريِّ رضي الله عنه بسنده عن عائشة، وبروايتي بالسند المتصل عن النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله نَرَى الجهادَ أَفْضَلَ العمل، أفلا نُجاهِد؟ قال: «لَكُنَّ أَفْضَلُ الْجِهاد» وفي رواية: «أَحْسَنُ الجهاد وأَجمَلُه حجٌّ مبرور»[٢]، وقالت عائشة رضي الله عنها: فلم أَدَع الْحَجَّ بعد أَنْ سمعت هذا من رسول الله ﷺ[٣]، وللنسائي بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جهادُ الكبير والصغير والضعيف والمرأةِ الحَجُّ والعُمْرةُ»[٤]، وللطبرانيِّ والبيهقيِّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «حَجَّةٌ لمنْ لم يحِج خَيْر من عشْر غزوات، وغزوةٌ لِمَن حجَّ خَيْر من عشر حِجَج، وغزوةٌ في البحر خير من عشر غزوات في البرّ، ومَن اجتاز الْبَحر فكأَنما اجتاز الأَودية كلها، والْمائِدُ فيه كالْمُتَشَحِّطِ في دمه»[٥]، وللبزَّار برواة ثقات عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «حَجَّةٌ أَفضل من أَربعين غزوة، وغزوةٌ خير من

---

(١) أخرجه النسائي في الحج [٥/ ٨٥] باب: فضل الحج. والإمام أحمد في مسنده [٢/ ٥٥٥] ح [٩٤٥٧].
(٢) أخرجه النسائي في الحج [٥/ ٨٦] باب: فضل الحج.
(٣) هكذا أخرجه البيهقي في الكبرى في الحج [٤/ ٥٣٤] ح [٨٦١٨].
(٤) أخرجه النسائي في الحج [٥/ ٨٥] باب فضل الحج.
(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط [٣/ ٢٨٠] ح [٣١٤٤]. والبيهقي في الكبرى في الحج [٤/ ٥٤٧] ح [٨٦٦٧]. وعزاه الحافظ الهيثمي للطبراني في الكبير والأوسط وقال: فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث: قال عبد الملك بن شعيب بن الليث: ثقة مأمون وضعفه غيره. انظر: مجمع الزوائد [٥/ ٢٨٤].

أَربعين حجة»[1] ومعناه: إذا حَجَّ الرَجل حجَّةَ الإِسلام فغزوة خير له من أَربعين حجة، وحجة الإِسلام خَيْرٌ له من أَربعين غزوةً. وللنسائي وابن خُزيمة وابن حِبَّان في «صحيحه» عن أَبي هريرة رضي الله عنه، ولإِسحاق عن جابر قالا: قال رسول الله ﷺ: «وفْدُ الله ثلاثة: الغازي والْحَاجُّ والمُعْتَمِر»[2] ولابن ماجه عن أَبي هريرة رضي الله عنه، وابن حِبَّان في «صحيحه» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الحُجَّاجُ إلى بيت الله والعُمَّارُ وَفْدُ الله عزَّ وجلَّ، إنْ دَعَوْهُ أَجابَهُمْ وإِن اسْتغفروه غفر لهم»[3] وفي رواية: «دعاهم فأَجابوه، وسأَلوه فأعطاهم»[4].

وروينا عن الشيخين وغيرهما عن أَبي هريرة رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «العمرةُ إلى العمرة كفارةٌ لما بينهما، والحج المبرورُ ليس له جزاءٌ إلاَّ الجنة»[5].

ورواه الأَصفهاني وزاد: «وما سبَّحَ الحاجُّ من تسبيحة، ولا هَلَّلَ من تهليلة، ولا كَبَّرَ من تكبيرة إلا بُشِّرَ بها تَبْشِيرةً» ولأَحمد بن منيع واللفظ له، وعَبْدِ بْن حُمَيْد وأَبي بكر بن أَبي شَيْبَةَ وأَبي يَعْلَى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قَضى نسُكَهُ وسَلِمَ الناسُ مِن يدِهِ ولسانه غُفِرَ لَه من ذَنبِهِ ما تقدّم وما تأخر»[6]، وللبيهقي وابن حبان في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسولَ الله عليه

(١) هكذا عزاه للبزار الحافظ الهيثمي وقال: رجاله ثقات، وعنبسة بن هبيرة وثقه ابن حبان وجهله الذهبي. انظر: مجمع الزوائد [٥/ ٢٨٢].

(٢) أخرجه النسائي في المناسك [٥/ ٨٥] باب: فضل الحج. وابن خزيمة [٢٥١١]. وابن حبان في الحج [ص٢٤٠] برقم [٩٦٥/ موارد الظمآن]. والبيهقي في الكبرى في الحج [٥/ ٤٣٠] ح [١٠٣٨٧]. والحاكم في المستدرك [١/ ٤٤١]. وأبو نعيم في الحلية [٨/ ٣٢٧].

(٣) أخرجه ابن ماجه في المناسك [٢/ ٩٦٦] ح [٢٨٩٢]. وفي الزوائد: في إسناده صالح بن عبد الله: قال البخاري: منكر الحديث. والبيهقي في الكبرى في الحج [٥/ ٤٣٠] ح [٤٣٠]. وابن عدي في الكامل [٦/ ٢٢٠٤].

(٤) أخرجه ابن ماجه في المناسك [٢/ ٩٦٦] ح [٢٨٩٣].

(٥) أخرجه البخاري في العمرة [٣/ ٦٩٨] ح [١٧٧٣]. ومسلم في الحج [٢/ ٩٨٣] ح [٤٧/ ١٣٤٩]. والترمذي في الحج [٣/ ٢٦٣] ح [٩٣٣]. والنسائي في المناسك [٥/ ٨٤] باب: فضل الحج المبرور بتقديم: [الحجة المبرورة ليس لها جزاءٌ إلا الجنة] ثم [والعمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما]. وابن ماجه في المناسك [٢/ ٩٦٤] ح [٢٨٨٨]. والإمام مالك في الموطأ في الحج [١/ ٣٤٦] ح [٦٥]. والإمام أحمد في مسنده [٢/ ٣٣٠] ح [٧٣٧٢].

(٦) عزاه الحافظ ابن حجر لأحمد بن منيع من طريق مروان بن معاوية ثنا موسى بن عبيدة عن أخيه عبدالله بن عبيدة عن جابر مرفوعاً به. انظر: المطالب العالية [١٩/٢] ح [١١٨٣/ ١]. وعزاه البوصيري لعبد بن حميد، وأبو بكر بن أبي شيبة، وأبي يعلى الزوائد [٣٧٧/٤] ح[٣١٥٠].

الصلاة والسلام يقول: «ما تَرْفَعُ إبل الحاج رِجْلاً ولا تَضَعُ يَداً إلاّ كتب اللّهُ لَهُ بها حَسَنَةً أَوْ مَحَا عَنْهُ سَيِّئَةً أو رفع درجة»(١)، وللحارث بن أبي أسامة وللطبراني في «الأوسط» والأَزرقي في «تاريخ مكة» عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ هذا البيت دِعَامَةُ الإسلام، مَن خرج يَؤمُّ هذا البيت من حَاج أَوْ مُعْتَمِرٍ أَوْ زَائِرٍ كانَ مضموناً على الله عزَّ وجلَّ إنْ قَبَضَهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الجنة، وإنْ رَدَّهُ رَدَّهُ بغَنيمة وأَجْرٍ»(٢).

وللطبراني في «الأَوسط» عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَمَّ في هذا الْوَجْه بحج أَوْ عُمْرَةٍ فماتَ لَمْ يُعْرَضْ ولَمْ يُحَاسَبْ، وقيل له: ٱدْخُلِ الْجنة»(٣). ولأَبي يَعْلَى والبيهقيِّ في «شُعَب الإيمان» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي عليه الصلاة والسلام: «مَن خرج حَاجًّا فماتَ كُتِبَ له أَجْرُ الحاج إلى يوم القيامة، ومَن خرج معتمراً فمات كُتِبَ له أجر المُعْتمر إلى يوم القيامة، ومَن خرج غازياً في سبيل الله فمات كُتِبَ له أَجر الغازي إلى يوم القيامة»(٤) وفي التنزيل الجليل: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] وللحارث وابن أبي شَيْبة عن أَبِي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم عن خطبة النبي ﷺ قال فيها: «وَمَنْ خَلَفَ حاجًّا أَو معتمراً في أَهله بخير كَانَ له مثْلُ أَجْرِهِ كامِلاً، من غير أَن يُنْقَصَ من أجره شيئاً»، ولأَحمد والترمذيّ والنسائي وابن خزيمة وابنِ حبَّان في «صحيحيهما» عن عبد الله وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ والعمرة فإِنَّهُمَا يَنْفِيَان الْفَقْرَ والذُّنوب كما يَنْفَى الْكيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ والذَّهبِ والفِضة، وليس

(١) هكذا عزاه الحافظ السيوطي للبيهقي وابن حبان عن ابن عمر مرفوعاً، وأشار لضعفه. انظر: الجامع الصغير [٢/ ١٤٤].

(٢) أخرجه الحارث في مسنده [ص١٢١] ح [٣٤٩ بغية الباحث] وعزاه الحافظ الهيثمي للطبراني في الأوسط، وقال: فيه محمد بن عبد الله بن عبيد بن عمير وهو متروك. انظر: مجمع الزوائد [٣/ ٢١٢].

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط [٥/ ٣٠٥] ح [٥٣٨٨] وعزاه الحافظ الهيثمي للأوسط ولأبي يعلى وقال: وفي إسناد الطبراني محمد بن صالح العدوي ولم أجد مَن ذكره، وبقية رجاله رجال الصحيح، وإسناد أبي يعلى فيه عائذ بن بشير وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد [٣/ ٢١١].

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان [٣/ ٤٧٤] ح [٤١٠٠]. والطبراني في الأوسط [٥/ ٢٨٢] ح [٥٣٢١]. وقال الحافظ الهيثمي بعدما عزاه للطبراني في الأوسط: وفيه جميل بن أبي ميمونة وقد ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في الثقات. انظر: مجمع الزوائد [٣/ ٢١٢].

للحجَّةِ المبرورة ثواب إلا الجنة»(١) زاد الترمذي: «وما مِنْ مُؤمِنٍ يَظَلُّ لِرَبِّهِ مُحْرِماً إلاَّ غَابَتِ الشَّمْسُ بِذُنُوبِهِ»، وللإمام أحمد والحارث بن أَبي أُسامة وأَبي بكر بن أَبي شَيْبَة عن عامر بن أَبِي رَبيعة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تابِعُوا بين الحجِّ والعمرة، فَإِنَّ متابعة بينهما تزيد في العمر والرزق، ويَنْفِيَان الْفَقْرَ والذنوبَ كما ينفي الْكِيْرُ خَبَثَ الحديد»(٢) وفي «الفِردوس» بسند ضعيف من طريق محمد بن الحارث عن محمد بن عبد الرحمٰن البيلماني عن أَبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما، وللبيهقي عن الشافعي رضي الله عنه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: «حِجُّوا تَسْتَغْنُوا، وسافِرُوا تَصِحُّوا، وتَنَاكحوا تَكْثُرُوا، فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القيامة»(٣).

وللطبرانيِّ في «الأَوسط» والبزّار برجال الصحيح، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أَمْعَرَ حاجٌّ قَطُّ» قيل لجابر: ما الإِمْعَارُ؟ قال: ما افتقر(٤).

وللطبراني أَيضاً عن عبد الله بن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حِجُّوا فإِنَّ الْحَجَّ يَغْسِلُ الذُّنُوبَ كما يَغْسِل الماءُ الكرب»(٥)، وفي «الجامع الصغير» للسيوطيِّ رحمه الله: «حِجَجٌ تَتْرَى وعُمَر نَسَقاً، يَدْفَعْنَ مِيْتَةَ السُّوْءِ، وعَيْلَةَ الْفقر»(٦). وعن عامر بن عبد الله بن الزبير مرسلاً: «الحاجُّ الراكبُ له بكلِّ خُف يَضَعُهُ بَعِيرُهُ حَسَنَةٌ»(٧).

وعن ابن عباس عن أَبي أُسامة: «الْحَاج في ضَمَان الله مُقْبِلاً ومُدْبِراً»(٨) وفيه عنْ

---

(١) أخرجه الترمذي في الحج [٣/١٦٦] ح [٨١٠] وقال: حديث حسن صحيح غريب. والنسائي في الحج [٥/٨٧] باب: فضل المتابعة بين الحج والعمرة. والإمام أحمد في مسنده [١/٥٣] ح [٣٦٦٨]. وابن حبان في الحج [ص٢٤١] ح [٩٦٧ موارد الظمآن].

(٢) أخرجه ابن ماجه في المناسك [٢/٩٦٤] ح [٢٨٨٧]. والإمام أحمد في مسنده [١/٣٢] ح [١٦٨].

(٣) أخرجه عبد الرزاق في الجامع [٨٨١٩] وعزاه الحافظ السيوطي له وضعفه. انظر: الجامع الصغير [١/١٤٧].

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط [٥/٢٤٥] ح [٥٢١٣].

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط [٥/١٧٧] ح [٤٩٩٧] وقال الحافظ الهيثمي: فيه يعلى بن الأشدق وهو كذاب. انظر: مجمع الزوائد [٣/٢١٢].

(٦) وعزاه لعبد الرزاق في جامعه عن عامر بن عبد الله بن الزبير مرسلاً وللديلمي في مسند الفردوس وأشار لضعفه. انظر: الجامع الصغير [١/١٤٦].

(٧) عزاه الحافظ السيوطي للديلمي في مسنده الفردوس عن ابن عباس وحسنه. الجامع الصغير [١/١٥٠].

(٨) عزاه الحافظ السيوطي للديلمي في مسند الفردوس وأشار لضعفه. انظر: الجامع الصغير [١/١٥٠].

أَنس: «الْحُجَّاجُ والْعُمَّارُ وَفْدُ الله، يعطيهم ما سألوا، ويستجيب لهم ما دَعَوا، ويخلُف عليهم ما أَنفقوا: الدرهم أَلْف أَلف»(١).

وعن أَنس: «الحجُّ سبيل الله تُضَعَّف فيه النفقة بسبع مئة ضعف»(٢).

وللبزار عن أَبي موسى رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «الحاجُّ يُشَفَّعُ في أَربع مئة أَهل بيت» أَو قال: «من أَهل بيته، ويخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»(٣).

ولأَحمد وأَبي داود وأَبي بكر بن أَبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أَراد الحج فليتعجل»(٤)، وفي رواية لأَحمد «تعجَّلوا الحج ـ يعني الفريضة ـ فإِنَّ أَحدكم لا يَدْرِي ما يعرضُ له»(٥).

وللدارقطني عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حجُّوا قبل أَن لا تَحِجُّوا» قيل: وما شأْن الحج يا رسول الله؟ قال: «تقعدُ أَعْرابُها عَلَى أَذْنابِ أَوْدِيَتها، فلا يَصِلُ إِلى الحجِّ أَحد»(٦) وفي «الجامع الصغير» للسيوطي عن علي رضي الله عنه: «حِجُّوا قبل أَن لا تَحِجُّوا، فكأَني أَنْظُرُ إِلَى حَبَشيٍّ أَصْمَعَ أَفْدَعَ، بيدِهِ مِعْوَلٌ يهْدِمُها حَجَراً حَجَراً»(٧).

وروى أَبو بكر بنُ أَبِي شَيْبَةَ وأَبو يَعْلَى وابنُ حِبَّانَ في «صحيحه» والحاكمُ والبيهقيُّ عن أَبي سعِيد الخدريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ يقول: إِنَّ عبداً صحَّحْتُ له جِسْمَهُ ـ وفي رواية بدنه ـ وأَوسَعْت عليهِ فِي المعِيشة ـ أَوْ رِزْقِهِ ـ

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب [٣/ ٤٧٥] ح [٤١٠٤] وضعفه الحافظ السيوطي. انظر: الجامع الصغير [١/ ١٥١].

(٢) عزاه الحافظ السيوطي لسمويه عن أنس. انظر: الجامع الصغير [١/ ١٥١].

(٣) عزاه الحافظ السيوطي للبزار، قال: وفيه مَن لم يعينه. انظر: مجمع الزوائد [٣/ ٢١٤].

(٤) أخرجه أبو داود في المناسك [٢/ ١٤٥] ح [١٧٣٢]. وابن ماجه في المناسك [٢/ ٩٦٢] ح [٢٨٨٣]. والإمام أحمد في مسنده [١/ ٢٧٩] ح [١٨٣٩].

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [١/ ٤٠٨] ح [٢٨٧٢].

(٦) أخرجه البيهقي في الكبرى في الحج [٤/ ٥٥٧] ح [٨٧٠٢].

(٧) أخرجه البيهقي في الكبرى في الحج [٤/ ٥٥٦] ح [٨٦٩٨]. والحاكم في المستدرك في المناسك [١/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩] وقال الحافظ الذهبي: حصين واهٍ، ويحيى الحمامّي ليس بعمدة. اهـ. وأشار الحافظ السيوطي لصحته. انظر: الجامع الصغير [١/ ١٤٧] قلت: إسناده ضعيف لما تقدّم والله أعلم.

حتى أَتى عليه خمسةُ أَعوام لا يَفِدُ إِلَي لمحروم»[1]، ولأَبي يعلى بإِسناد رِجالُه على شَرْطِ مُسْلم إِلاَّ أَنَّهُ منقطع، وابن خزيمة في «صحيحه» والحاكم والبيهقيّ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الحاجَّ الراكِبَ له بكل خطوة يخطوها سبع مئة حسنة من حسنات الحرم» قيل: يا رسول الله، وما حسنات الحرم؟ قال: «الحسنة بمئة ألف»[2].

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْت رسول الله ﷺ يقول: «مَن حجَّ لله فلم يَرْفثْ ولم يَفسُقْ رَجَعَ كما وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[3]، متفق عليه واللفظ للبخاري، ورواه النَّسائِيُّ فقال: «مَن حجَّ واعتمر» الحديث. وروى سعيدُ بن منصور أَن النبيَّ ﷺ قال للسائل عن مسائل الحج: «وأَما طوافك ـ يعني الإِفاضة ـ فإِنك تطوف ولا ذنْب لك، ويأْتيك ملك حتى يضع يَدَهُ بين كَفَّيْكَ فيقول: اعمل لما بقي، فقد غُفِرَ لك ما مضى» وروى ابن حِبَّان في حديث طويل، عن النبيِّ ﷺ: «أَنَّ الحاج إِذا قضَى آخِرَ طوافه بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمُّهُ».

وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه: لو يعلم المقيمون ما للحجاج عليهم من الحق لأَتوهم حتى يقبِّلوا رواحلهم. وحكى القاضي أَبو الفضل عياض رحمه الله تعالى في كتابه «الشِّفا» عن بعض شيوخ المغرب، وهو أَبو سعدون الخولاني أَنَّ قوماً أَتوهُ، فأَعلموه أَنَّ كُتَامَةَ قتلوا رجلاً وأَضرموا عليه النارَ فلم تعملْ فيه، وبقي أَبيض البدن، فقال: لعله حَجَّ ثلاث حجات؟ فقالوا: نعم، فقال: نعم إِن مَن حجّ حجّة أَدّى فرضه، ومَن حجّ ثانية داين ربه، ومَن حجّ ثلاث حِجَج، حَرَّمَ الله شعره وبشره على

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط [١/ ١٥٥] ح [٤٨٦] وعزاه الحافظ الهيثمي لأبي يعلى وقال: إلا أنه قال خمسة أعوام، ورجال الجميع رجال الصحيح. انظر: مجمع الزوائد [٣/ ٢٠٩]. وعزاه الحافظ ابن حجر لأبي بكر بن أبي شيبة، وعبد الرزاق. انظر: المطالب العالية [٢/ ١٢] برقم [١/١١٦١]. وأخرجه ابن حبان في صحيحه [ص٢٣٩] ح [٩٦٠ موارد الظمآن]. وعزاه البوصيري للحاكم والبيهقي [٤/ ٢٩٦] ح [٢٨٣٤].

(٢) عزاه الحافظ الهيثمي للبزار والطبراني في الأوسط والكبير بنحوه وفيه قصة، وله عند البزار إسنادان أحدهما فيه كذاب، والآخر فيه إسماعيل بن إبراهيم عن سعيد بن جبير ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد [٣/ ٢١٢].

(٣) أخرجه البخاري في المحصر [٤/ ٢٥] ح [١٨١٩ ـ ١٨٢٠]. ومسلم في الحج [٢/ ٩٨٣] ح [٤٣٨/ ١٣٥٠]. والنسائي في الحج [٥/ ٨٥] باب: فضل الحج. وابن ماجه في المناسك [٢/ ٩٦٤ ـ ٩٦٥] ح [٢٨٨٩]. والدارمي في المناسك [٢/ ٤٩] ح [١٧٩٦]. والإمام أحمد في مسنده [٢/ ٣٠٧] ح [٧١٥٥].

النار. وأخرج البخاريُّ ومسلم في «صحيحيهما» عن رسول الله ﷺ قال: «كَأَنّي أنظر إِلَى مُوْسَى بنِ عِمْرَانَ مُنْهَبِطاً من ثنيَّةِ هَرْشَى ماشِياً»[١]، وأخرج الأزرقيُّ: «إِنَّ آدمَ عليه السلام حجَّ عَلَى رِجْلَيْهِ سَبْعينَ حجَّةً»[٢] ورواه ابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنه بلفظ: «أنه حجَّ من الهند على رجليه سبعين حجَّة» قيل لِمُجاهد: أفلا كان يركب؟ قال: وأي شَيءٍ كان يحمله؟! وروى البيهقيُّ عن مجاهد رحمه الله قال: إِنَّ إبراهيم وإِسماعيل عليهما الصلاة والسلام حَجَّا ماشِيَيْن[٣]. وذكر الأَزرقيُّ: أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ حَجَّ ماشِياً.

وروى البيهقيُّ أَيضاً عن ابن عباس رضي الله عنه أَنه قال: ما آسَى عَلَى شَيْءٍ ما آسَى على أَنّي لم أَحِجَّ ماشياً[٤].

ولقد حجَّ الْحَسَنُ بنُ علي رضي الله عنهما خمساً وعشرين حجَّةً ماشياً، وإِنَّ [النجائب][٥] لَتُقَاد بَيْنَ يَدَيْه، وفي رواية: معه.

وحجَّ عبدُ الله بن جعفرٍ ومعه ثلاثون راحلة، وهو يمشي على رِجليه، حتى وقف بعرفات، فأَعْتَقَ ثلاثين مملوكاً، وحملهم على ثلاثينَ راحلة، وأمر لهم بثلاثين ألفاً وقال: أَعتقتهم لله، لعل الله يعتقني من النار.

وحجَّ عليُّ بن شعيب من نَيْسَابور نَيِّفاً وسبعين حجَّةً على قدَمَيْه. وسافر المغيرة بن الحكم إِلى مكة أَكثر من خمسين مرة صائِماً مُحْرِماً قائماً.

وحجَّ أَبو العباس العباسيُّ ثمانينَ حجَّةً على قدميه، وأَبو عبد الله المغربيُّ سبعاً وسبعين، وحَجَّ حُسَيْن أخو شيبان الدِّيْنَوَرِيُّ ست عشرة حجَّة حافِياً، كلُّ ذلك ابتغاءَ لوجه الله الكريم.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان [١/ ١٥٢] ح [٢٦٨/ ١٦٦]. والإمام أحمد في مسنده [١/ ٢٨٣] ح [١٨٥٩].

(٢) وأورده ابن الجوزي في مثير الغرام الساكن [ص١١٧].

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى في الحج [٤/ ٥٤٢] ح [٨٦٤٧].

(٤) أخرجه البيهقي في الكبرى في الحج [٤/ ٥٤٢] ح [٨٦٤٤].

(٥) وقع في الأصل الجنائب، وما أثبتناه من موضع التخريج هو المناسب، لأن الجنائب هي: الإبل التي ليس لها رب يفتقدها. قال الحسن بن مزرد:

ركـــابـــه فـــي الـــحـــي كـــالـــجـــنـــائـــب

انظر: لسان العرب [١/ ٦٩٣] [مادة: جنب]. وأما النجائب فهو القوي من الإبل، الخفيف السريع. انظر: لسان العرب [٦/ ٤٣٤٢ ـ ٤٣٤٣] [مادة: نجب].

وكان ابْن جُرَيْجٍ والثَّوْرِي رضي الله عنهما يحجّان ماشِيَيْن.

إذا دَعَانِيَ دَاعِي الشَّوْق نَحْوَكُمُ أَتَيْتُ أَسْعَى عَلَى الْعَيْنَيْنِ والرأسِ
مُلَبِّياً مُحْرِماً عَيْنِي الْمَنَام وَقَدْ نَسِيتُ أَهْلِيَ وَالأَوْطَانَ والناسِ

وحُكي عن حكيم بن حزام رضي الله عنه أنه كان يقيم عشية عرفة مِئة بدنة ومِئَةَ رقبة فيعتق الرقاب عشيةَ عرفة، وينحَرُ الْبُدْنَ يوم النحر، وكان يطوف بالبيت ويقول: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، نِعْمَ الرَّب ونِعْمَ ٱلإِلٰهُ، أُحِبُّهُ وأَخشاه. ورُوِيَ أَنَّ الملائكة تَعْتَنِقُ المُشاةَ وتصَافِحُ الركبان.

تنبيه:

الحجُّ المبرور الذي لا يُخالطهُ إثم، قال صاحب «المطالع» وغيره: الحج المبرور هو الخالص الذي لا يُخالطه مَأْثَمٌ، وأصله من الْبِرِّ، وهو اسْمٌ جامع للخير، ومنه بَرَرْتُ فُلاَنَاً أَيْ وصلته، وكلُّ عَمَل صالح بِرٌّ، ويقال: بَرَّ اللَّهُ حَجَّهُ وأَبَرَّهُ[1].

وقيل: الْمُتَقَبَّلُ.

ومن علامات القبول أَنْ يرجع خَيْراً مِمَّا كانَ، ولا يعاود المعاصِيَ وقيل: الذي لا رياءَ فيه ولا سُمْعَةَ، وَلاَ رَفَثَ ولا فسوق. وقيل: الذي لا معصيةَ بعده.

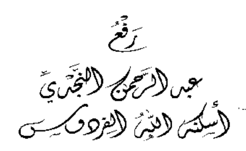
وقال الحسنُ الْبَصْريُّ رضي الله عنه: الحج المبرور أَنْ يرجع زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة.

وقال أَبو الشَّعْثاء رحمه الله: نظرتُ في أَعمال الْبرِّ فإذا الصلاة تجْهدُ الْبَدَنَ، والصوم كذلك، والصدَقَة تُجهدُ المالَ، والحجُّ يُجْهدُهُمَا فرأَيته أَفْضَلَ، ووافق أَبا الشَّعْثاء على ذلك جماعةٌ من العلماء.

والرفث: قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما: إِنَّه الْجمَاع، وقيل: اسم لكل فُجُوْر وخناً ولهو وزوْر، والفسُوق: المعاصِي.

---

(١) انظر: المطلع للبعلي [ص١٩١].



الفصل الثالث

من الباب الأول

في معنى الحج والعمرة لغةً وشرعاً وبيان ذلك، وتفصيل ما هنالك:

فنقول: الْحَجُّ بفتح الحاء لا بكسرها في الأشهر، وَعَكْسه شهْرُ الحِجَّة، ذكره صاحب «الفروع» وذكر الْبَعْليُّ الْحَنْبَليُّ في كتابه «المُطْلِع» أنه بفتح الْحَاءِ وبكسرها، لغتان مشهورتان[١]، ويقال: حَجَّ يحِجُّ ـ بضم الحاء وكسرها، ورجل حاجٌّ، وقوم حُجَّاج، وحَجيْجٌ ـ وقيل: المصدرُ بالفتح، والاسم بالكسر. وقال أَبو القاسم عبد الرحمٰن الزجَّاجي النَّحويُّ: يقال حَجَّ الإِنسانُ حِجَّةً ـ بالكسر ـ ولا يجوز الفتح والمعنى أنه قصد به عمل سنة، وأَمَّا الْحَجَّةُ ـ بالفتح ـ فالمرَّة الواحدة من العمل، نحو الرَّكبة والضَّرْبة، وليس يرادُ بالحِجَّةِ ذلك، وإنما يراد بها جميع الأَعمال في سنتها، ومعناه في اللغة القصد إلى مَنْ تُعَظِّمه، وقيل: كثرة القصد، وحكي ذلك عن الخليل[٢]، قال الجوهريُّ: ثم تعُوْرف استعمالُه في القصد إلى مكة المشرفة لِلنُسُك. وقال الإِمام أَبو الْيُمْن الكنديُّ: الْحَجُّ الْقصْدُ، ثُمَّ خُصَّ كالصلاة وغيرها[٣].

قال الْمُخبَّل السَّعْدِيُّ:

وأَشْهدُ مِنْ عَوْف حُلُوْلاً كثِيْرَةً ... يَحِجُّون بَيْت الزِّبرِقان الْمُزَعْفَرا

ويقال: حَجَجْت بيتَ الله أَي قصدته لأَفعال النُسُك، قال الجوهري: قد نسك وتَنَسَّك أَي تَعَبَّدَ، ونَسُكَ ـ بالضَّمِّ ـ نَسَاكَةَ أَي صار ناسِكاً[٤]. والنُسك والمناسك في الأَصل من النَّسِيْكَة وهي الذبيحة المتقرَّبُ بها، ثم اتسع فيه فصار اسْماً للعبادة والطاعة، ومنه قيل للعابد ناسك.

وقال صاحب «المطالع» الْمَناسِك مواضع مُتَعَبَّدَاتِ الْحَج، فالمناسك أَداءُ الْمُتَعَبَّدَات كلها، وقد غلبَ إِطلاقُها على أَفعال الحج لكثرة أَنواعها[٥]. والمناسك جمع مَنْسك ـ بفتح السين وكسرها ـ فبالفتح مَصْدَرٌ، وبالكسر اسْمٌ لموضع النُسُكِ،

---

(١) انظر: المطلع للبعلي [ص١٦٠].
(٢) انظر: المطلع للبعلي [ص١٦٠].
(٣) انظر: المطلع للبعلي [ص١٦٠].
(٤) انظر: المطلع للبعلي [ص١٦٠].
(٥) انظر: المطلع للبعلي [ص١٦٠].

وهو مسموعٌ، وقياسه الفتحُ في المصدر والمكان، ومعناه الشرعيُّ قصدُ مكة المشرفة لعمل مخصوص في زمان مخصوص.

والعمرة ـ لغةً ـ الزيارَةُ، يقال: اعْتَمَرَهُ، أَيْ زاره[1]، ثم صار عُرْفاً في زيارة البيت على وجه مخصوص، قال ابن أحمر:

يُهِلُّ بالْفَرْقَدِ، رُكْبَانُها كَمَا يُهِلُّ الراكِبُ الْمُعْتَمِرْ

وفي الشرع: عبارة عن أَفعالها المخصوصة[2]، المذكورة في مواضعها ـ كما سيأتي بيانه ـ.

ويَجبَان في العمر مَرَّةً واحدةً، وهو فرض كفاية كل عام، فالْحَجُّ فَرْضٌ إِجماعاً، وهو الخامس من أركان الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقول النبي ﷺ: «بُنِيَ الإِسلام على خمسٍ» ـ ذكر منها ـ «وحج البيت» متفق عليه[3]، في أَخبار كثيرة سواه، وإِجماع الأُمة على ذلك، قال العلامة ابن مُفْلِح في كتاب «الفروع» قال ابنُ الْمُنْذِر: أَجمع أَهل العلم على أَن عَلَى المرءِ في عُمُرِهِ حجةً واحدةً حجةَ الإِسلام، إِلاَّ أَن ينذر المرءُ نَذْراً فيجب عليه الوفاء به[4]، وروى أَبو أُمامةَ الباهِليُّ رضي الله عنه أَنَّ النبي ﷺ قال: «مَن لم يمنعهُ عَن الحج حاجَةٌ ظاهرة، أو مرض يحبسه، أو سلطان جائر، فلْيَمُتْ إِنْ شاءَ يَهُودِيًّا وإِن شاءَ نَصْرانيًّا»[5]. وقد دلَّ على ذلك ما رواه أَبو هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أَيُّها الناس قد فُرِض عليكم الْحَجُّ فَحجُّوا» فقال رجل: أَفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال النبي ﷺ: «لو قُلتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ، ولو وجبتْ لم تعملوا بها، ولم تستطيعوا أَنْ تَعملوا بها، الحج مَرَّة، فمَن زاد فهو تَطَوُّعٌ»[6] وروي عن ابن عبَّاس رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أَيُّها الناسُ كُتِبَ عليكم الحجُّ» فقام الأَقْرَع بن حابس فقال: أَفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: «لو قلتُهَا لَوَجَبَتْ، ولو وَجَبَتْ

(١) وقيل: القصد، نقلها ابن الأنباري وغيره. انظر: المطلع للبعلي [ص١٦٠].
(٢) انظر: المطلع للبعلي [ص١٦٠].
(٣) أخرجه البخاري في الإيمان [١/ ٦٤] ح [٨]. ومسلم في الإيمان [١/ ٤٥] ح [١٦/١٩].
(٤) وانظر: الشرح الكبير لابن أبي عمر المقدسي [٣/ ١٥٩].
(٥) أخرجه الترمذي في الحج [٣/ ١٦٧] ح [٨١٢] وقال: حديث غريب، وفي إسناده مقال، وهلال بن عبد الله مجهول، والحارث يضعف في الحديث. وانظر: نصب الراية للزيلعي [٤/ ٤١٠].
(٦) أخرجه مسلم في الحج [٢/ ٩٧٥] ح [٤١٢/ ١٣٣٧].

لَمْ تعملوا بها، ولم تستطيعوا أَن تعملوا بها، الحَجُّ مَرَّةً فمَن زاد فهو تطوع»(١) رواه أحمد والنسائي بمعناه.

ولأَبي داوِد وابنِ ماجَه مختصراً: أَنَّ الأَقرع بْنَ حابسٍ سأَل النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله في كل سنة أَو مرة واحدة؟ فقال: «بلْ مرة واحدة فمَن زاد فهو تطوع»(٢).

وفَرْضُ الْعُمْرةِ قولُ أَكثرِ الْعُلَمَاءِ من الصحابةِ وغيرهم وفاقاً للشافعية في الجديد(٣).

وخلافاً لأَبي حنيفة في قوله: العمرة غير واجبة(٤)، وللمالكية قولان، لقول عائشة: يا رسولَ الله هَلْ علَى النساءِ مِنْ جهاد؟ قال: «نعم عليهنَّ جهاد لا قتالَ فيه: الحج والعمرة» رواه أَحمد وابن ماجه بإِسناد صحيح(٥). وعن أَبي رَزِيْنٍ الْعُقَيْلِيِّ: أَنَّهُ أَتَى النبي ﷺ فقال: إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كبير، لا يستطيع الحجَّ ولا العمرة ولا الظَّعْنَ، فقال: «حجّ عنِ أَبيك واعتمر» إِسناده جَيد رواه الخمسة وصححه الترمذي(٦).

وجاء جبريل عليه السلام إِلى النبي ﷺ فقال: ما الإِسلام؟ قال: «أَنْ تشهدَ أَنْ لا إِله إِلاَّ الله، وأَنَّ محمداً رسول الله، وتُقِيْمَ الصلاة وتؤْتِيَ الزكاةَ، وَتَحِج الْبَيْتَ وتَعْتَمِرَ» وذكر الحديث وهو من حديث رواه ابن خزيمة في «صحيحه» والدارقطنيُّ وقال: إسناده صحيح.

---

(١) أخرجه النسائي في المناسك [٥/ ٨٣] باب: وجوب الحج. والإمام أحمد في مسنده [٢/ ٦٦٩] ح [١٠٦١٨].

(٢) أخرجه أبو داود في المناسك [٢/ ١٤٣] ح [١٧٢١]. وابن ماجه في المناسك [٢/ ٩٦٣] ح [٢٨٨٦].

(٣) وهي إحدى الروايتين عن الإمام أحمد، ويروى ذلك عن الخليفة عمر وابن عباس، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، والشعبي، والثوري. انظر: الشرح الكبير لابن أبي عمر المقدسي [٣/ ١٦٠].

(٤) روي ذلك عن ابن مسعود، وهو قول أبي ثور. انظر: الشرح الكبير لابن أبي عمر المقدسي [٣/ ١٦٠].

(٥) أخرجه ابن ماجه في المناسك [٢/ ٩٦٨] ح [٢٩٠١]. والإمام أحمد في مسنده [٦/ ١٨٥] ح [٢٥٣٨٦].

(٦) أخرجه أبو داود في المناسك [١٦٧١٢] ح [١٨١٠]. والترمذي في الحج [٣/ ٢٦٠] ح [٩٣٠]، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في المناسك [٥/ ٨٨ ـ ٨٩] باب: العمرة عن الرجل الذي لا يستطيع. وابن ماجه في المناسك [٢/ ٩٧٠] ح [٢٩٠٦]. والإمام أحمد في مسنده [٤/ ١٥] ح [١٦١٩٠].

وروى أبو بكر بن الجوزيّ رحمه الله في كتابه «المخرج على الصحيحين» عن الصبي بن معبد قال: أتيت عمر فقلت: إنِّي وجدتُ الحجَّ والعمرةَ مكتوبَيْنِ عليَّ فأَهْلَلْتُ بهما، فقال عُمَرُ رضي الله عنه: هدِيْتَ لِسُنَّة نبيك محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. إسناده جيد، ورواه النسائي وغيره.

حجَّةُ إمامنا أحمد رضي الله عنه وجماعةٌ قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وممن قال بِوُجُوبِها عُمَرُ بْنُ الخطاب وابنه عبد الله، وابنُ عباس، وزيد بنُ ثابت، وابنُ مسعود في رواية، وجابرُ بن عبد الله في رواية، ومن التابعين وغيرهم: سعيدُ بن المسيَّب، وسعيدُ بن جُبَير، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، والحسن، وابنُ سيرين، والشَّعْبي، ومسروق، وأبو بردة، وعبد الله بن شداد، والثوريُّ، والشافعيُّ في الجديد، وأبو عبيدة وإسحاق بن رَاهَوَيْه، وابن المنذر(١).

وعن أحمد رواية ثانية أنها سُنَّةٌ غير واجبة، وهو قول النَّخَعِي وأبي حنيفة وأصحابِه ومالك والشافعي في القديم وأبي ثور(٢).

وهل تجب على المكيّ؟ قال القاضي وغيره: أطلقَ أحْمد وجوبها في مواضع يَدْخل فيه المكيَّ وغيره، قال: وهو قول شيخنا، فدلّ على أَنَّ أحمد لم يُصَرِّحْ بوجوبها على الْمَكيِّ، وصرَّحَ بأنَّها لا تجب عليه، وتجب على غيره(٣)، ذكره العلامة ابنُ مُفْلِح في «الفروع» وإطلاق عبارة «المنقح» يقتضي وجوبها عليه، ونقل الأَثْرمُ وعبد الله والميمونيُّ وبكرُ بن محمد عن أحمد رحمه الله تعالى ورضي عنه أنها لا تَجب على أهلِ مكة، ورُوي ذلك عن ابن عباس، وعطاء، وطاوس(٤)، ووجه ذلك أنَّ رُكْنَ العُمَرَةِ ومعظَمُها المقصودُ هو الطواف بالبيت، وهم يفعلونه فأَجزأ ذلك عنهم.

فوائد: الصحيح أنَّ الحج فُرِضَ سنة تِسْع من الهجرة، وقيل: سنة عشر، وقيل: في سنة ست(٥) وقيل: خمس.

---

(١) انظر: الشرح الكبير لابن أبي عمر المقدسي [٣/ ١٦٠].
(٢) انظر: الشرح الكبير لابن أبي عمر المقدسي [٣/ ١٦٠].
(٣) انظر: الشرح الكبير لابن أبي عمر المقدسي [٣/ ١٦١].
(٤) انظر: الشرح الكبير لابن أبي عمر المقدسي [٣/ ١٦٠].
(٥) وهو مذهب الجمهور، لأنها نزلت فيها قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وهذا ينبني على أن المراد بالإتمام ابتداء الفرض، ويؤيده قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعي بلفظ: ﴿وَأَقِيمُوا﴾. أخرجه الطبري بأسانيد صحيحة عنهم. انظر: فتح الباري [٣/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣].

وفُرِضَتِ الصلاة ليلة الإسراء، وهو قبل الهجرة بِنَحْو خمس سنين، وقيل: سنة، وقيل: بعد البعثة بنحو سنة، وقيل: بخمسة عَشَر شَهْراً.

والصحيح من مذهب إمامنا رضي الله عنه أن الظُّهْر هي الأُولى، لأنها أول الخمس افتراضاً وبها بدأ جبريل عليه السلام حِيْنَ أَمَّ بالنبي ﷺ عند البيت، وبدأ بها الصحابة حين سُئلوا عن الأوقات. واشتقاقها من الظهور، إذْ هي ظاهرة في وسط النهار. قال ابن مفلح: [الظُّهْر] لغةً: الوقت بعد الزوال، وشرعاً: اسم للصلاة، من باب تسمية الشيء باسم زمنه، فقولنا: صلاة الظهر أي صلاة هذا الوقت[١]. والحكمة في بداءة جبريل بها إشارة منه إلى أن هذا الدين ظهر أَمرُهُ وسطع نورُه، من غيرِ خفاء، ولأَنَّهُ لو بَدَأ بالفَجْر لخَتَم بِالعشاءِ في ثلث الليل، وهو وقت خفاء، فلذا ختم بالفجرِ لأنه وقت ظهور لكن فيه ضعف، إشارة إلى أَنَّ هذا الدين في آخر الأَمر يضعُفُ.

وتسَمَّى أيضاً الهجير، لفعلها في وقت الهاجرة. انتهى ما ذكره في «المبدع» مُلَخَّصاً[٢].

والصلاة الوسْطَى: هي صلاة العصر، مؤنَّثُ الأَوسط وهو الوسط: الخيار. وفي صفة النبيِّ ﷺ أنَّهُ كانَ مِنْ أوسط قومه ـ أي من خيارهم ـ وليستْ بمعنى مُتَوَسِّطة، لكون الظهر هي الأُولى، بل بِمَعْنى الفَضْلى.

والعصر هو العشيُّ، قال الجوهريُّ: والعصرانِ: الغداةُ والعَشِيُّ، ومنه سُمِّيَتْ صلاة العصر. وذكر الأزهريُّ مثله، تقول: فلان يأْتينا العَصْرَيْن والبَرْدَيْنِ، إذا كان يأْتي طرفَي النهار. فكأَنَّها سُمِّيَتْ باسم وقتها[٣].

وأما الحكمة في غسل أَعْضَاءِ الوضوءِ، المنصوص عليها شرعاً دون غيرها، لأَنها أَسْرَعُ تَحْريكاً للمخالفة، فأَمر الله تعالى بغسلها ظاهِراً، تنبيهاً على طهارتها الباطنة، ورتَّبَ غَسْلَها على ترتيب سُرْعَة الحركة في المخالفة، فأَمر بِغَسْل الوجه، وفيه الفَمُ والأَنف، فابتدأَ بالمَضْمَضَة، لأَنَّ اللِّسانَ أكثر الأَعضاءِ، وأشدها حركة، لأَنَّ غيره قد يَسْلَم، وهو كثير العطب، قليل السلامة غالباً، ثم بالأَنف ليتوب عمَّا يشمُّ به، ثم بالوجه، ليتوب عَمَّا نظر، ثم باليدين، ليتوب عن البطش، ثم خصَّ الرأْسَ بالمسح، لأَنه مجاور لما تقع منه المخالفة، ثم بالأُذن لأَجل السماع، ثم بالرِّجْل لأَجل المشي.

---

(١) هكذا قاله ابن مفلح. انظر: المبدع [١/ ٢٩٥].
(٢) انظر: المبدع [١/ ٢٩٦].
(٣) انظر: المبدع [١/ ٢٩٩].

ثم أرشده بعد ذلك إلى تجديد الإيمان بالشهادتَيْن. ذكر ذلك العلاَّمة ابن مُفْلِح، في كتاب «المُبْدع»[(١)].

وأمّا أوقات الصلاة فقال الزَّرْكَشِيُّ الشافعيُّ رحمه الله تعالى في «شرح التنبيه» في باب المواقيت للصلاة: ونَصْبُ الأوقَاتِ أسباباً للصلاة بَعِيْدٌ غير معقول المعنى، عند الجمهور من أهل العلم.

وقال الترمذيُّ الحكيمُ: هو مَعْقُول فَعِلَّةُ نَصْبِ الفجرِ أَنَّ الشمسَ آيةٌ عُظْمَى، والفجرُ مَبْدَؤُها، فإذَا ظهرتْ فحقيق بالعباد أن ينهضوا للعبادة. وعِلَّة الظُّهْرِ زوالُ الشمس، وهو سجودها لله تعالى، فإنها إذَا زالتْ مالتْ للسجود، وهو فيها بمنزلة الركوع، فإذا بلغتْ متوسطة الانحطاط فهو انحدارها للسجود، وهو وقت العصر، ولذلك سُمِّيَتِ العصر عَصْراً للانحطاط. وعِلَّةُ وقْتِ المَغْرِبِ ظهورُ سلطانِ الليل، وهو آيةٌ عظيمةٌ، وآخِرُ هذه الآية ظلمةُ الليل، ونعمةُ السكون، وهو وقت العشاء.

قال الإمام فخر الدين الرازيُّ رحمه الله تعالى: هذه الأَحوال الخمس شِبْهُ أحوالِ الإنسان في مُدَّةِ عمره، فخروجه إلى الدنيا كظهورها، ونشوؤه كَارْتفاعها، وشبابُه كوقوفها قريباً من وسطها، وكهولته كَانْحِطاطها إلى الجانب الغربيِّ، وشيخوخته كانحطاطها إلى الغروب، وبقاءُ ذكره بعد مَوْتِهِ قليلاً كآثارها في الأُفق، فكانت هذه الصلاة في هذه الأَوقات تذكرةً له بهذه الأَحوال.

قلت: وذكر بعض العلماء - منهم الغزاليّ وغيره - أَنَّ مِمَّا يُذَكِّرُ بأحوال الآخرةِ والموت أفعال الحج، فإنَّ الإنسانَ حينَ شروعه في الحج يقدِّم التوبةَ الخالصةَ، والْخُروج من المظالم، وردّ الحقوق إلى أربابها إنْ كان ثم، والْوَصِيَّةَ بما أَحَبَّ، ووداع أهله وأولاده وذَوِيه.

وخرُوْجهُ مع قافلةِ الحاج إلى أوّل المنازل كأول أحوال الموت.

وإحرامُه مِنَ الميقات كقيامه من القبر ونشره، مُجَرَّداً حاسراً عُرياناً حافِياً مُقْبلاً على الله تعالى، ذَلِيلاً أَشْعَثَ أَغْبر، وطوافُهُ بالكعبة كملاذِهِ بالأنبياء عليهم السلام والأَولياءِ والشفعاءِ يوم القيامة.

والوقوف بعرفاتِ المعظم كالْعرْض على الله تعالى يوم فَصل القضاءِ.

---

(١) نعم هكذا ذكره في المبدع [١/ ١١١ - ١١٢].

ورُجوعه إلى أوطانه كاستقرارهِ في دار القرار، فكانتْ أَفعالُ الحج تَذكِرة له بهذه الأَحوال.

وقال الشيخ العلامة خليل بن إسحاق المالكي في منسكه ما نصه:

اعْلَم - نوَّر الله قَلْبي وقلبَكَ، وضاعف في النَّبِيِّ المصطفى حُبي وحبَّك - أَنَّ الحج مُحْتوٍ على أحكام عديدة، وقلَّ مَن يتعرض لها من المصنِّفين.

فأَولها: أنَّ الله تَعالى شَرَّف عبيده بأَن ٱسْتدعاهم لمحل كرامته، والوصول إلى بيته، ولما كان اللّهُ تعالى مُنَزَّهاً عن الحلول في محل أَقامَ البيت الحرام مقامَ الْبَيْتِ لِلْمَلِكِ، لأَنَّ الْمَلِكَ في الدُّنْيَا إِذا شَرَّف أحداً دعاه إلى حضرته، ومكَّنَهُ مِنْ تقبيل يَده، وأَمَرَه أن يَلوْذَ به، وجَدِيْرٌ به حينئذ أَنْ يَقْضِي حاجَتَهُ، فلذلك الله تعالى استدعَى عَبيْدَهُ لبيته الحرام، وأمرهم باللِيَاذِ به، وأقام الحجر الأسود مقام يَدِ الملك، فأَمَرهم بتقبيله، وأمرهم بطلب حوائجهم، وإذا كان اللائق بملوك الدنيا قضاء الحوائج في هذه الحالة، فكيف بملك الملوك الذي يعطي بغير سؤال؟!

وشرع الغسل عند الإحرام إشارةً إلى أنَّ مَن استدعاه الملك ينبغي أن يكون على أكمل الحالاتِ، في تطهير قلبه ولسانه، إذ إنَّ الظاهِرَ تبَعٌ للباطن، فإذا أُمِرَ بتطهير الظاهر فَالْبَاطِن من بابِ أَوْلى.

وشَرعَ خلعُ الثياب إِشعاراً بحالة الموت، ليتخلَّى عن الدنيا، ويقبل على باب ربه وعبادته، لأَنَّ نَزْع ثيابه كنزع ثياب الميِّت على المغتسل، ولبس ثياب الإِحرام كلبس الأكفان، وتشبهاً بنبيِّه موسى عليه السلام، فإنَّه لما قدم إلى المناجاة قيل له: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾. والحاج قادم على الأرض المباركة المقدسة. قصداً لمخالفة حالته المعتادة، وتنبيهاً لعظيم ما هو فيه فلا يوقع خَلَلاً ينافيه.

ثم أمره بالإحرام لأنه لَمَّا دُعِيَ وَأَتَى مجيباً قيل له: قَدِّم النِّيَّةَ، وأَظْهِرْ ما أَتَيتَ له فقل: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك. أَيْ إجابةً بعد إجابة.

وأُمِر بِأَلاَّ يفعل ذلك إلاَّ بَعْد الصلاة، لأَنَّهَا تَنْهَى عَنِ الفحشاء والمنكر، فكأنه قيل له: انتَه عن رعونات البشرية، وتَهَيَّأْ لهيئة الإقدام على الله، وقد أَمر الله عزَّ وجلَّ موسَى عليه السلام قبل مناجاته بصيام أَربعين يوماً، تصفية وتطهيراً لباطنه من كدُوْرَاتِ البشريَّة، مع عصمته له عليه السلام.

لكن لما علم منك أيها العبد من الضعف ما علم، لم يأْمرك بذلك، واكتفى منك بالصلاة مع حضور القلب، وترك ما نهاك عنه.

ثم جعل ميقاتَيْنِ زمانِيًا ومكانيًا إشارة إلى عظم هذه العبادة، وأنَّ العبد يحصل له بها الشرف فإنه إذا أعطى الزمان والمكان شرفاً وحرمة بسبب القرب وهما مما لا يعقل كان أولى.

وأمر عبيده بترك الرفاهية وإلقاء التَّفَثِ إشارة إلى ترك حظوظ النفس، فإنَّ العبد إذَا قدم على مولاه لا يأتيه إلا خاضعاً ذليلاً، ولا يشتغل بغير الله تعالى.

ونهى العبد عن قتل الصَّيْدِ إشارة إلى أنَّ مَنْ دخل الحرم فهو آمِنٌ، ليطمع العبد حينئذ في تأمين مولاه له.

وشرع عند دخول مكة الغسلَ، إشارة إلى تطهير قلبه مما عَساه أن يكون اكتسبه من حال إحرامه إلى حين الدخول في محل الملك، وأنه ينبغي أن يدخل إلا بعد تصفيته من جميع الأكدار.

وشرع طواف القدوم إشارة إلى تعجيل إكرامه، لأَنَّ الضيف ينبغي أن يُقَدم إليه ما حضرَ ثم يُهيَّأَ له ما يليق به، وكان سبعةَ أشواط، لأن أبواب جهنم سبعة، فكل شوط يُغْلِق عنه باباً.

وكان السجود والركوع بعد الطواف زيادة في القرب والتداني، لأَن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

وأمره بعد ذلك بالسعي والبداءة بالصفا، إشارة إلى أن العبد إذا أطاع مولاه أوصلته طاعته إلى محل الصفا وصفاء القلوب.

ثم أمره بالمسير والنزول إلى المروة إشارة إلى أَن العبد ينبغي له أن يتردد في طاعة ربه بين صفاء القلب، وبِخُلُوِّهِ مما سوى ربِّه وبين المروة (؟) بالسمت الحسن، وترك المجانة.

وأمره أن يفعل ذلك سبعاً إما للمبالغة في الإبعاد عن جهنم، وإمَّا لما في السبع من الْحِكم التي لا يحيط بكنهها إلاَّ ربُّ الأرباب، كما جعل الأَيام سبعاً، والأَقاليم سبعاً، والأَفلاك سبعاً، وتطور الإنسان سبعاً، وطباق العين سبعاً، وأمره أن يسجد على سبع، وجعل السموات سبعاً، والأَرضين سبعاً، وجعل رزق الإنسان سبعاً، وأبواب جهنم سبعاً إلى غير ذلك.

ثم أمره بالخروج إلى منى إشارة إلى بلوغ الْمُنَى.

ثم بالمسير إلى عرفات، لأَنها محل المعرفة والمناجاة، تشبهاً بنبيه موسى عليه السلام وتنبيهاً على شرف هذه الأُمة بأَنْ شرع لها ما شرع لأَنبيائه مثله وخصها بأَشياء.

وأمره بالدعاء، لأنه ينور القلب ويوجب الانكسار والتذلُّل.

وأباح الجمع والقصر، رفقاً بهم وإشعاراً بإرادته طول المناجاة معهم، وسماع أصواتهم.

ثم أمرهم بطلب حوائجهم، ولهذا استحب لهم الوقوف ليكون أبلغ في التضرع، ثم إن وقوفهم في هذا اليوم تشبيهاً بوقوفهم في المحشر، ألا ترى أنَّ بركة بعضهم هنا على بعض كبركة الأنبياء والمرسَلين على المؤمنين يوم المحشر. وقد ورد: أنَّ مَن صلّى خلف مغفور له غفِر له، فمن لطفه بك شرع الجماعات وحضَّ على الإتيان بها لعل أن تصادف المغفور له فيغفر لكَ.

وشرع الجمعةَ احتياطاً ليحضر أهل البلد كلهم لاحتمال أن لا يكون في تلك الحالة مغفوراً له، وشرع العيدين لهذا، لأنه يجتمع في العيدين أكثر من يوم الجمعة. ثم احتاط بشروع الموقف الأعظم، لأنه يجتمع فيه ما لا يجتمع في غيره.

ثم أمرهم بالنَّفرِ إلى مِنى، إشارةً إلى نيل الْمُنَى، وإشعاراً بقضاء حوائجهم، وأباح لهم الجمع بين المغرب والعشاء رفقاً بهم.

ثم أمرهم بالوقوف بالمشعر الحرام مبالغةً في إكرامهم، كما أنَّ الملك إذَا بالغ في إكرام شخص أدخله بساتينه ومقاصيره.

وأمرهم بالمسير إلى جمرة العقبة ورَميها بسبع حَصيات، إشعاراً بالإبعاد عن النار، إذِ الْجمارُ مَأْخوذة من الجمر وهو طرد الشيطان، إذ سبب ذلك على ما قيل: إن الشيطان عرض لإسماعيل، لما ذهب مع أبيه للذبح، وقال له: إنَّ أباكَ يريد أن يذبحك، فأمره أن يرميه بسبع حصيات، فكأنه جلَّ وعلا يقول: يا عبادي قد شرفتكم بدخول حرمي، وأَهَّلتُكم لمناجاتي، وأدخلتكم في زمرة أوليائي، فابتدروا الجمرة بالحصى، وأبعدوا عن محلٍّ من عصى، فتلك الجمار فكاك رقابكم من النار. قال الله العظيم في صفة النار: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] فأنتم قد بَعُدْتُمْ من النَّارِ، فاجعلوا مكانكم الحجارة، ثم انقلبوا إلى مِنَى فانحروا، وكُلُوا واشربوا، وقد نلتم المُنَى، واستحققتم القرى.

وشرع لهم الفداء إشعاراً بإكرام قراهم، فإنه كذلك يُفْعل بالكبير، ووردت السنة بالفطر على زيادة الكبد، تشبيهاً بأهل الجنة فإنهم أول ما يفطرون على زِيادة كبد الحوتِ الذي عليه الأَرض.

ثم نهاهم عن الصوم ثلاثة أيام لأَن الضيافة كذلك، ثم تعدَّى ذلك لأَهل الأَقاليم

كلها بمنعهم من صيام أيام التشريق، زيادةً في الإكرام للحجاج، لكونه أدخل سائر الناس في ضيافتهم، ولم يطلب الشرع صيام ثلاثة أيام متواليات إلاَّ هنا، ولهذا قال بعضهم: إنه لا ينبغي أَنْ يمكث الإنسان أربعة أيام متواليات من غير صوم.

ثم أمرهم بحلق رؤوسهم ليزول ما في الشعر من الدرن والعفن، وفيه إشارة إلى نبذ المال، لأَنَّ الشعر يقي الدماغ من البرد، كما أنَّ المال يقي الإنسان من الفقر، ولذلك قال الْمُعَبِّرُوْن: مَن رأى أن شعر رَأْسِهِ قد ذهب فهو ذهاب ماله.

ثم أمرهم بلباس المخيط، وأكمل لهم ما مُنِعوا منه من النساء والطيب بعد طواف الإفاضة، إشارة إلى أنَّ آخِرَ التعب في الدنيا والنصب بالعبادة أن يدخلوا الجنة مُسْتَحلِّين ما حُرِّمَ عليهم من الشهوات، متلذذين بالطيب والزوجات.

ثم أمرهم بالرجوع إلى مِنَى ليرموا الجمرات، ويكبِّروا في سائر الأَوقات، مبالغةً في الإبعاد من النار، وتعظيم الملك الجبار، وفي ذلك إشارةٌ إلى التَّخَلِّي عن الدنيا، لأَنَّ وقوفهم عند الجماراتِ تشبيهٌ بوقوفهم في المواقف التي في المحشر، والسؤال عن كل موقف.

ولتعلم يا أخي أنَّ تكثير أسباب المغفرة دليلٌ على أنه تعالى رحيم بهذه الأُمة، فإنه إِذَا أخطأَ الْعَبْدَ سَبَبٌ من أسباب المغفرة لا يخطئه سببٌ آخر، فنسأل الله العظيم أن يُصلح قلوبنا، ويحقق رجاءنَا وآمالنا، وأن يُقدِمَنَا عليه وهو راضٍ عنا، ويُطهّر قلوبنا من رعونات البشرية، فهو القادر على ذلك.

واختلف العلماء رحمهم الله تعالى هل فُرضت الزكاة بمكة أم بالمدينة؟ فروى أحمد والنسائيُّ وابن ماجه وغيرهم عن أبي عمَّار ـ واسمع عَرِيب بفتح العين المهملة ـ عن قيس بن سعد، قال: أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت لم يأمرنا، ولم ينهنا، ونحن نفعله(1). إسناده جيد. قال ابن مفلح في «الفروع»: الظاهر أنَّ صدقة الفطر مع رمضان، وهو في السنة الثانية، وفي هذا الخبر أنَّ الزكاة بعدها، وفُرِضَ شَهْرُ رمضان في السنة الثانية من الهجرة، فصام رسول الله ﷺ تسع رمضانات والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه النسائي في الزكاة [٥/ ٣٦] باب: فرض صدقة الفطر. وابن ماجه في الزكاة [١/ ٥٨٥] ح [١٨٢٨]. والإمام أحمد في مسنده [٦/ ٨] ح [٢٣٩٠٢].

الفصل الرابع

من الباب الأول

في شرائط وُجُوبهما، والكلام على ذلك تفصيلاً وجمعاً.

اِعلم أنَّ الحج يجب بستة شرائط، وهي: الحريَّة، والبلوغ، والعقل، والإسلام، ووجود الزاد، والراحلة، وعَدَّها بعضهم خمسة[١]، ففسَّر الزاد والراحلة بالاستطاعة، لأَن الاستطاعَة تشمل الزادَ والراحلة. وأمْنَ الطريق، وغير ذلك ممَّا يأتي ذكره مفصَّلاً، فيكون ذكر الاستطاعةَ أوْلَى، لشمولها لما ذكرناه مما يأتي بيانه بعد ذلك.

وينقسم ذلك على ثلاثة أقسام: ما يشْترط للوجوب والصحة وهو: الإِسلام والعقل، وما يُشْترط للوجوب والإِجزاءِ دون الصحة، وهو البلوغ والْحُرِّيَّة، وما يُشْترط للوجوب دون الإِجزاء، وهو الاستطاعة، فلو تكلَّفَ غَيْرُ المستطيع الْحجَّ أجزأه، وسقط عنه فرض الإِسلام.

والأَصل في اشتراط الاستطاعة للوجوب قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وأجمعتِ الأُمَّة على القول به، فإِنَّهُ لا حَجَّ على غَيْر مستطيع، قال القاضي أبو يَعْلَى ـ وهو من أَئمة المذْهَب ـ في كتابه «المجرد»: وَمِنَ الاستطاعة تخليةُ الطريق، وهو أن لا يكونَ مانعُ يمنع، فننظر إِنْ كانَ الطريقُ مسلوكاً لا عَدُوَّ فيه، أو كان فيه عَدُوٌّ لكن هناك طريق آخر مأْمون، لا عَدُوَّ فيه ولكنه أبعد منْ هذا المخوف لزمه الحج، لأَنَّا نعتبر أن يكون الطريق مُخَلًّى، بعيداً كان أَوْ قريباً. وإِن كان الطريق فيه عَدُوٌّ ولا طريقَ له سواه، أو فيه عدو مانع، أو كان فيه لصوص لا يمكنه دفعهم، لم يلزمه فرض الحج، لأنه لو أحرم بالحج ثم صَدَّهُ عَدُوٌّ أو حَصَرَهُ لصُوص، كان له التَّحَلُّل، ولا قضاءَ عليه فَبِأَنْ لاَ يجبُ عليه ابتداءُ الحجِّ مع وُجودِ الْعَدُوِّ أَوْلَى، فإِنْ كانَ العدوُّ يطلب شيئاً ليفرج عن الطريق، مثل الخفائِر ونحو ذلك لم يلزمه فَرْضُ الحج، وقَيَّدَهُ بعضهم بما إِذا كانت الخفائر مُجْحِفَةً بمَالِه، أمَّا إِذا كانتْ يسيرةً فإِنه يلزمه. فإِن لم يكن له طريق إِلاَّ في البحر، فهل يلزمه ركوبه إِلى الحج؟ نَنْظُرُ إِنْ كان الغالبُ منه التَّلَفُ والهلاكُ لم يَجبْ عليه، كطريق الْبَرِّ، وإِنْ كانَ الغالبُ فيه السلامةُ فهو كالْبَرِّ.

---

(١) وهو قول المقنع. انظر: المبدع لابن مفلح [٣/ ٨١].

قال: وأمَّا الزاد فهو عبارة عن المأكول والمشروب، فينظر فيه فإن لم يجدْهُ بحال، لم يلزمه فرضُ الحج، وإن وجده بأكثر من ثمن مِثْلِهِ في الرخص والغلاء فحكمه حكم مَن لم يجد الماء لطهارته إلاَّ بأَكْثَرَ من ثَمَن مثْله، والمنصوص عن إمامنا في ذلك إنْ كانت الزيادةُ لا تُجْحِف بمالِه لزمه شراؤُهُ، فإذا أجْحَفَتْ بمَالِه لم يلزمه، كذلك في باب الزاد مثله، ثم ننْظرُ إن كان يَجدُ الزادَ في المنازل اشترى في كل منزل قَدْرَ حاجته، وإنْ لم يجده في المنازل فعليه أن يحمله من أقرب المنازل التي يجده فيها. وأما الماءُ فَنَنْظُرُ فيه فإنْ كان موجوداً في المنازل فعليه الحجُّ، وإن كان معدوماً في المنازل لم يلزمه حَمْلَ الماءِ من أقرب المنازل بالْبَرِّ، لأَنَّ العادةَ ما جرت بتَزَوُّدِ الماء لطول السفر، ولأنه لا يمكن فإنَّ البهيمة لا تَقْدِر أنْ تحملَ قدر حاجتها من الماءِ لطول سفرها فكانَ وجودهُ في المنازل شرْطاً فِي الوجود، بَلَى إنْ كَانَ الطريق قريباً لا ماء فيه ويمكن التزوُّدُ من الماءِ له كان كالزاد، وبالجملة لا يلزمه تزوُّدُ الماء من منزل واحد لجميع المسافة، والعادة جارية بذلك في الزاد. فلهذا فرّقنا بينهما.

وأمَّا الراحلة فتختلف باختلاف الناس، فإنْ كان قَويًا في نفسه كالْحَدَثِ والشابِّ والكهل والشيخ القويِّ فراحلته ما لا تلحقه مشقة شديدة في الكون عليها، فإن قدر على مَحْمَلٍ أو زاملة ونحو هذا بلا مشقة شديدة تلحقه في الكون عليه فقد وجد الراحلة، وإن كان شيخاً ضعيفَ القوة، تلحقه مشقةٌ شديدة في ركوب غير مَحْمَل، فراحلة هذا المَحْمَل، فإن قدر عليه لزمه فَرْضُ الحج. ومَن أمكنه المشي فلا يَخْلُو إمَّا أنْ يكونَ ذا صنعة كالتجارة والْحِجامة والفِحامة ونحوهم. فإنه يستحب له ذلك ليخرج من الخلاف، وإمَّا أن يَتَّكِل على مسألة الناس فإنه يُكره له ذلك، لأَنه يَصِيْر كَلاً على الناس. وقد سُئِل إمَامُنَا رضي الله عنه عمن يدخل الباديةَ بلا زَادٍ ولا راحلة فقال: لا يَحِلُّ له ذلك، هذا يَتَّكِلُ على أزواد الناس[١].

ومذهب الإمام مالِك رضي الله عنه أنَّ الراحلة غير معتبرة، فمَنْ أطاق الْمَشْيَ لزمه الحجُّ ماشياً[٢]، وأما الزَّادُ فلا يعتبر ملكه وإنَّما تعتبر القدرة عليه، فإنْ كان ذَا صَنْعَةٍ يمكنه الاكتسابُ بها لزمه، وإن لم تكنْ له صنعةٌ وكان يحسن السؤال وجرت عادته به لزمه الحج[٣]. انتهى.

---

(١) ذكره عنه ابن مفلح. انظر: المبدع [٣/ ٨٨].
(٢) انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير [٢/ ٢٠٥].
(٣) انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير [٢/ ٢٠٧].

وفي «النوادر» من كتب المالكية، قال مالك رحمه الله: والحج على الإبل والدوابِّ أَحَبُّ إليَّ من المشي، وكذا عند غيره[١].

وعن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه كراهة الْمَشي في طريق مكة.

وصحّح الرافعي رحمه الله من قول الشافعي رضي الله عنه أنَّ الْمَشْيَ أفضل.

قال القاضي أبو يعلى: وأما علفُ البهائم فإنْ كان موجوداً في المنازل فهو كالماءِ، وإن كان معدوماً في المنازل لم يلزمه السعي إلى الحج، لأنَّ العادة لم تَجْرِ أَنْ يتزودَ علف البهائم دفعة واحدة فجرى مجرى الماء، وكذلك ما لا بُدَّ له منه من آلة الطريق، مثل ظروف الزاد، والماء وما يركب عليه من قِرَبٍ أو مِحْمَل أو زاملة ونحو هذا فوجوده شرط، فإنْ عدم ذلك لمْ يلزمه الخروج، لأنَّ السبيلَ متعذر.

ومن الاستطاعة الإمكان للمسير، وهو أن تكمل هذه الشروط والوقت مُتَّسعٌ، فَإِنْ أمكنَه المسيرُ بأَنْ يحمل على نفسه ويسير في يوم واحد ما يسير في يومين أو يسير سيراً يجاوز العادة قلت: مثل أن يكون بِبركَة الحاجِّ مثلاً، والركب بِعُجْرُود فلا يلزمه المسير، وكذلك لو كان مع الركب بالبركة ولكن قد ضاق الوقت عن التأَهُّب، ولا يمكنه تحصيل الآلة وحوائج الطريق، ومتى تشاغل بذلك خَرَج الناسُ وفاته المسير معهم، لم يَجِبْ عليه لأَنَّ معنى إمكان المسير هو اتِّساع الْوقْتِ له، على ما جرت العادة به، فإذا خرج عن العادة لم يلزمه.

قال القاضي: وشرط آخرُ في حقِّ المرأة، وهو وجود الْمَحْرَمِ، واختلفت الرواية عن الإمام أحمد هل هو من شرائط الوجوب أَوْ من شرائط لزوم السعي والأَداء؟ فَرُوِيَ عنه أنه من شرائط الوجوب[٢]، ورُوِي عنه أنه من شرائط إمكان الأَداء[٣]، ولزوم السعي كالزاد والراحلة.

---

(١) قال الشيخ الدسوقي: الحج راكباً على الإبل أو غيرها أفضل من الحج ماشياً، لأنه فعله ﷺ على المعروف، ولما فيه من مضاعفة النفقة، ولأنه أقرب إلى الشكر وكذا العمرة. انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير [٢/ ٢١١].

(٢) لأنه غير مستطيع، ولتعذر فعل الحج معه، لعدم الزاد والراحلة. انظر: الإنصاف للمرداوي [٣/ ٤٠٧] المبدع لابن مفلح [٣/ ٩٢].

(٣) لأنه ﷺ فسّر السبيل بالزاد والراحلة، ولأن إمكان الأداء ليس شرطاً في وجوب العبادة بدليل ما لو زال المانع ولم يبقَ من وقت الصلاة ما يمكن الأداء فيه، ولأنه يتعذّر الأداء دون القضاء، كالمرض المرجو برؤه، وعدم الزاد والراحلة يتعذر معه الجميع. انظر: المبدع لابن مفلح [٣/ ٩٢ ـ ٩٣].

والْمَحْرَمُ للمرأة هو كلُّ مَنْ لا تَحلُّ له بحال، من النسب والسبب[1]، إلا الزوج فإنه مَحْرَمٌ لها[2]، وهي تَحِلُّ لَهُ بكل حال، وليس له أنْ يمنعَها حَجَّة الفرض، وله منعها من حَجَّة التطوع، وقد رَوَى الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ لامْرأَة تُؤْمِن بالله واليوم الآخر أَنْ تُسافر سفراً فوق ثلاثة أيام فصاعداً إلا ومعها أَخُوها أو أَبُوها أو زَوجها أو ابنها أو ذو محرم منها»[3].

وليس العبد مَحْرَماً لمولاته، لأَنها قَدْ تعْتِقُه فَتَحِلُّ له بالنكاح[4]، ولا تحج المرأة مَعَ زوج أختها لأَنها قَدْ تَحِلُّ له[5]، فلو حَجَّت امرأة بغير محْرم أجزأتها الحجة عن الفرض، وكانت عاصيةً آثمةً[6]. ولا تَحِجُّ المرأةُ في عِدَّتِها من الوفاةِ، ولا من الطلاق الرَّجْعِيِّ، ولها أنْ تحِجَّ في عِدَّتِها من الطلاق البائن. قال القاضي أبو يَعْلى في كتابه «المجرد» في آخر كتاب الحج قال: في رواية أحمد رضي الله عنه في رواية إسماعيل بن سعيد: لا تحجُّ المرأة في الْعِدَّة من موت، أو طلاق يملك زوجُها فيه رَجْعَتَهَا، ولا بأس أنْ تحجَّ من الطلاق المبتوت، وذلك لأَن الحجَّ وإنْ كان على الفور، لأَنه لم يتعين بالدخول فيه، والعدَّةُ قد تعينتْ بالدخول، فلهذا لم تحج مع بقاء العدة. ولأَنَّ الْعِدَّة لا تُؤَخَّر بالعذر، والحجُّ يتأَخر في العذر، وأما حجها في العدة من الطلاق المبتوت، لأَنَّ العدة من الطلاق المبتوت لا تتعين لموضع الطلاق. وعدة الوفاة تتعين بذلك، وأما الطلاق الرجعيُّ فهي زوجة وأحكام الزوجات باقية في حقها، فإن كانت الحجة فرضاً فلها الخروج، وإنْ كانت تطوعاً لم يكن لها ذلك إلا عن إذْن زوجها، وليس على الزوج الخروجُ معها في الحج إلاَّ أَنْ يَخْتَارَ، فإنْ كان لها مَحْرَمٌ غيره كان لها أنْ تخرج معه لحجة الفرض، ولا اعتراض للزوج عليها، ويستحب لها أَنْ تستأْذِنَه، وتَسْتَحِق عليه النفقة لكن بقدر نفقة الحضر، فإنْ كان له أَهلٌ وعيال تجب عليه نفقتُهم لم يجب عليه الحجُّ حتى تكون له نفقتهم بقدر غَيْبَتِهِ

---

(١) انظر: المبدع لابن مفلح [٣/ ٩٥].

(٢) قال ابن مفلح: وأطلقوا على الزوج مجرماً لأن المقصود من سفر المحرم معها صيانتها وحفظها مع الخلوة والنظر، وهو موجود فيه. انظر: المبدع [٣/ ٩٥].

(٣) أخرجه مسلم في الحج [٢/ ٩٧٧] ح [٤٢٣/ ١٣٤٠]. وأبو داود في المناسك [٢/ ١٤٤] ح [١٧٢٦].

(٤) انظر: المبدع لابن مفلح [٣/ ٩٦].

(٥) انظر: المبدع لابن مفلح [٣/ ٩٦].

(٦) وأجزأتها كما لو تركت حقًا يلزمها من دينٍ أو غيره. انظر: المبدع لابن مفلح [٣/ ٩٧].

لذهابه ورجوعه، لأنه إذا لم يكن كذلك ضاع عيالُهُ بالغيبة، وإنْ لم يكن له أهلٌ وعيالٌ فلا بُدَّ من نفقته لذهابه، ولا يعتبر وجودَ الزاد والراحلة، وتعتبر نفقته لرجوعه أيضاً، نَصَّ عليه أحمد في رواية أبي طالب[١]، ويُعتبر أن تكون نفقته ونفقة عياله في الفاضل عن الخادم والمسكن، نصَّ عليه في رواية الميموني فقال: إذا كان له الخادم والمسكن والشيء الذي يعود به على عياله فلا يباع، فإذا خرج عن كفايته ومَؤُونَته ومَؤُونَة عياله بَاعَ[٢]، والضَّيْعة مثل ذلك، إذا كان فَضْلاً عن الْمَؤُوْنَة، فظاهر هذا أنه اعتبر ذلك في الفاضل عن الخادم والمسكن، لأنه قد اعتبر ذلك في الكفارة وفي حَقِّ الْمُفْلِس، فإنْ وجد زاداً وراحلةً وكفاية عن ما ذكرنا وأراد أن يتزوج فهل يقدم الحج على التزوج؟ نُظِرَ: فإنْ كَانَ يَخَاف الْعَنَتَ قَدَّمَ التزويج، وأخَّر الحجَّ، وإن كان لا يخاف العنتَ قدَّم الحج عليه، فإن اسْتَعَان برجل فحمله إلى الحجِّ فحجَّ أَجزأه، وسقط الفرض عنه، نصَّ عليه في رواية حرب، لأنَّ الحجَّ أفعال أبدان، وكونه في حمولة غيره إعانةٌ على السبب الذي يتوصل به، فلم يمنع سقوط الفرض، كرجل لا عَشَاءَ له فأَعطاه رجل عشاء فأَكلَ وصام أَجزأه، فإنْ خَرجَ تاجراً فحجَّ في جملة التجارة أجزأه، وسقط الفرض عنه. نصَّ عليه في رواية أبي داود، لأَنَّ كونه في تجارة لا يمنعه عن صحة أفعال الحج، فلهذا سقط الفرضُ به، وهذا كله في سقوط الفرض به عنه، أما الثواب فعلى حسب الإخلاص والانقطاع والانفراد به، وهذا كله فيمن كان على مسافَة بعيدة تُقْصَرُ فيها الصلاة، أما إن كان بمكة أو على مسافة لا تُقْصَرُ فِيها الصلاةُ فإنْ كان قادراً على الْمَشْي لزمه الحجُّ ماشياً، وليس من شرطه الراحلة لأَنه لا مشقة عليه فهو كالجمعة[٣]، فإنْ غَصَب مالاً فحجَّ به فهل يُجْزيه الحجُّ أم لا؟ فالمنصوص عن إمامنا فيمن غَصَبَ مالاً فحجَّ به لَمْ يُجْزِهِ الحجُّ وإنْ أَدَّاه، قال القاضي أبو يَعْلَى: وقد نَصَّ في الصلاة في الثوب الغَصْب والأَرض، فهل تبطل الصلاة؟ على روايتين، كذلك يخرج في الحج روايتان، إحْدَاهما: حَجُه باطلٌ من

---

(١) قال ابن مفلح: قال في المحرر: وكفاية رائعة له ولأهله، قال: فظاهره أنه قصد النفقة عليه وعلى عياله إلى أن يعود ويبقى له إذا رجع ما يقوم بكفايته وكفاية عائلته على الدوام من عقارٍ أو بضاعةٍ أو صناعةٍ، جزم به في الهداية ومنتهى الغاية، وقدّمه في الفروع لتضرره بذلك وكالمفلس، وفي الكافي والروضة إلى أن يعود، وقدّمه في الرعاية. انظر: المبدع لابن مفلح [٣/٨٩].

(٢) انظر: المبدع لابن مفلح [٣/٨٨].

(٣) قال ابن مفلح: وأما الراحلة فلا تشترط إلا مع البعد، وهو مَن بينه وبين مكة مسافة القصر فقط إلا مع عجزٍ كشيخ كبير لا يمكنه المشي. انظر: المبدع [٣/٨٨].

أصله، سواء حصل من صاحب المال إذْنٌ في المستقبل أو لم يحصل، لأَنَّ الزادَ والراحلةَ من إحدى شرائط وجوب الحج، فإذَا وقع على غير الوجه المأمور به شرعاً جاز أن يمنع صحة الحج، دليله: الإسلام لَمَّا كان شرطاً في الوجوب كان وقوعه على غير الوجه المأمور به وهو الكفر مانِعاً من الصِّحَّة، كذلك هاهنا. والثانية: يصح الحجُّ ويكون المال دَيْناً في ذمته، لأَنَّ الحج أفعالُ أَبْدَان، وكونه متصرفاً بمال غيره أعانه على السبب الذي يتوصل به، فلا يمنع الصحة، كرجل لا عَشَاءَ له فاغتصب عشاءً فأكل وصام من غدهِ أجزأه، كذلك هاهنا. انتهى كلامه[1].

وقال النووي من الشافعية في «مناسكه»: إن حجَّ بمال فيه شُبْهَةٌ أو مغصوبٌ صَحَّ حجَّه، في ظاهر الحكم، ولكن ليس حجًّا مبروراً، ويَبْعُد قبوله، هذا مذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة وجماهير العلماء من السلف والخلف. وقال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: لا يجزيه بمال حرام، انتهى كلام النووي رضي الله تعالى عنه[2].

وقد أخرج الطبرانيُّ وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا خرج الرجل حاجًّا بنفقة طيبة، ووضع رجله في الْغرْز فنادى: لَبَّيْك اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، ناداه منادٍ من السماء: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، زادُكَ حلالٌ وراحِلتُكَ حلالٌ ونفقتُكَ طيبةٌ وحجك مبرور غير مَأْزور. وإذا خرج الرجل بالنفقة الخبيثة فوضع رجله في الغرز فنادى: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك، ناداه مُنَاد منَ السماء: لا لَبَّيْكَ ولا سَعْدَيْكَ، زادُك حرام، ونفقتك حرام، وحجك غير مبرور»[3].

وعن مالك بن أنس قال: صَحِبْتُ جَعْفَرَ الصَّادِقَ رضوان الله عليه، فلما أراد أَن يُلَبِّيَ تَغَيَّر وجهُه وارْتَعَدَتْ فرائِصُهُ وبقي كالمرتاب، فقلت: ما لكَ يا ابْنَ رسول الله ﷺ؟ فقال: أَردتُ أَنْ أُلَبِّيَ قلت: فما يوقفك؟ قال: أخافُ أنْ أسمع غير الجواب. وذكروا أن رجلاً مات في طريق مكة، فحفروا له فدفنوه، ونسوا الْفَأْس في لَحْدِهِ، فكشفوا عنه الترابَ ليأخذوا الفأسَ فإذَا رأسُهُ وعنقُه قَدْ جُمِعَا في حَلْقَة الفأْس، فردُّوْا عليه التراب ورجعوا إلى أهله، فسأَلوهم عنه فقالوا: صحبَ رجلاً فأَخَذَ مالَهُ وكانَ منه يحج ويَغْزُو. ولبعضهم:

---

(١) وقد ذكره مختصراً في كتاب الروايتين والوجهين [١/ ١٥٨].

(٢) انظر: شرح الإيضاح للنووي [ص٣٠].

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط [٥/ ٢٥١] ح [٥٢٢٨]. وقال الحافظ الهيثمي: فيه سليمان بن داود اليمامي وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد [١٠/ ٢٩٥].

يَحجُّون بالمَال الَّذِي يَجْمَعُوْنَهُ حَرَاماً إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيْقِ الْمُحَرمِ
ويزعم كل منهم أنَّ وزْرَه يُحَطُّ، وَلٰكِنْ مَعْهُمْ في جَهَنَّمِ

غيره:

إِذَا حَجَجتَ بِمَال أَصْلُهُ سُحُتٌ فَمَا حجَجْتَ ولٰكِنْ حَجَّتِ الْعِيْرُ
لاَ يَقبَل اللّهُ إِلاَّ كُلَّ طَيِّبَة مَا كُلُّ مَن حَجَّ بَيْتَ الله مَبْرُوْرُ

ومن دقائق الورع ما حكاه سِبْطُ ابن الجوزيِّ في «مرآة الزمان» عن السلميِّ عن شقيق بن إبراهيم البلْخِيِّ رضي الله عنه قال: حججت فَبِتُّ ليلةً في المسجد الحرام قبالَ الكعبة، فنزل ملكانِ من السماء فوقفا عَليَّ فقال أحدهما للآخر: كم حَجَّ العامَ؟ فقال له الآخر: ثلاثةُ أنفس، فقال: هذا منهم؟ وأشار إِليَّ فقال: لا. قال: وَلِمَ؟ قال: له ثوبان، قال: فلما كانَ العامُ حججْتُ في عَبَاءٍ ونمتُ في ذلك المكان، فإِذَا بهما قد نزلا فقال أحدهما للآخر مثل ما قال في العام الماضي. فقال له: وشقيقٌ فيهم؟ قال: نعم، وقد شفعه الله في جميع مَن حجَّ هذا العام.

وحكى القُشَيْرِيُّ فِي «رسالته» عن أبي محمد المرتعِش أنه قال: حججت كذا وكذا حجة على التَّجْريد، فبان لي أنَّ جميع ذلك كان مشوباً بحظي، وذلك أن والدتي سألتني يوماً أن أستقي لها جَرة ماء، فثقل ذلك على نفسي، فعلمت أنَّ مطاوعة نفسي في الحجَّات كانت لحظ وشرب لنفسي، إِذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حقٌّ في الشرع.

ورُوِيَ أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه سمع يوم عرفة رجلاً يسأَل الناسَ، فقال: أفي هذا اليوم وهذا المكان تسأَل من غير الله تعالى؟ وخفقه بالدُّرَّةِ. وقد روي عن الْفُضَيْلِ بن عِيَاض رضي الله عنه أنه وقف بعرفة، والناس يَدْعون، وهو يبكي بكاءَ الثَّكْلَى المحترقَة، فلما كادتِ الشمس أنْ تَسْقُطَ قَبَضَ على لِحْيَته، ثم رفع رأسه إِلى السماء وقال: وَاسوأتاه مِنْكَ وإِنْ غَفَرْت!! فهكذا يكون الحياءُ من الله. ونقل عن الرياشي رحمه الله تعالى أنه قال: رأيتُ أحمدَ بْنَ الْمُعَذَّلِ الفقيه في يوم شديد الحرِّ، وهو ضاحي الشمس فقلت: يا أبا الفضل هذا أَمْرٌ قد اخْتلِف فيه، فلو أَخَذْتَ بِالتوسعة، فأَنشد من كبد متوجعة:

ضَحَيْتَ لَهُ كَيْ أَستَظِلَّ بِظِلِّهِ إِذَا الظِّلُّ أَضْحَى فِي الْقِيَامَةِ قَالِصَا
فيا أَسَفِي إِنْ كَانَ سَعْيِيَ بَاطِلاً وَيَا حَسرَتِي إِنْ كَانَ حَجِّيَ نَاقِصَا

قال القاضي: فإن أخذ من ابنهِ مالاً بغير إذنه فَحجَّ به نَظَرْتَ فإنْ كان يُجْحِفُ بماله فحجهُ باطلٌ، وإن كان لا يُجْحِفُ بماله فحجُّه صحيح، لأنَّ له أنْ يأخذ منه. وأما ألأمُّ فليس لها أن تأخذ من مال ابْنِها، فإنْ أخذتْ وحجَّتْ فحجُّها باطل. وإذا كملتْ شرائطُ الوجوب وجبَ الحجُّ على الفور. قال أحمد في رواية عبد الله وإسحاق بن إبراهيم: مَن استطاع الحجَّ ولم يَحْبِسْهُ سببٌ ولمْ يَحِجَّ لَمْ تُجزِ شَهَادَتُهُ.

وأشهر الحج شوال وذو القعدة وعشرة أيام من ذِي الحجة، فإذا غربتِ الشمس يوم النحر خرجتْ أشهر الحج. انتهى.

فائدة: الراحلة اسم يقع على الجمل والناقة، وليس المراد بها الناقة النجيبة فقط، والهاء فيها هاء المبالغة، وإنما سُمِّيَت راحلةً لأنَّها ترْحَل ـ بضم التاء ـ أيْ يُشَدُّ عليها الرَّحْلُ، فهي فاعِلةٌ بمعنى مفعولة كما جاء في التنزيل: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] بمعنى مَرْضِيَّة، وقد ورد فاعل بمعنى مفعول في عدة مواضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] أي لا معصوم، وكقوله عزَّ اسمه: ﴿جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧] أي مَأْموناً فيه، وجاء أيضاً مَفْعُول بمعنى فاعل كقوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، أي ساتراً، ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] أي آتياً. وقد يُكْنَى عن النَّعل بالراحلة، لكونها مطيةَ القدم، ذكره الشيخ أبو القاسم الْحريريُّ.

الفصل الخامس

من الباب الأول

فيما يجب ويستحب على مَن قصد الحج والعمرةَ وبيان ذلك.

فنقول: مَن أراد الحج ٱسْتحِبَّ له أَنْ يشاور مَن يعلم من حاله النصيحةَ والشفقةَ والخِبْرَة، ويثق بدينه ومعرفته، قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ويجب على مَن يستشيره أن يبذِل له النصيحةَ، ويتخلَّى من الهوى وحظوظ النفس، فإنَّ المستشار مُؤْتَمَنٌ، والدِّيْنُ النصيحة.

وإذا شاور وظهر أَنَّ في سفره ذلك مصلحةٌ استخار الله تعالى في ذلك، وهو أن يصلِّيَ صلاةَ الاستخارة، وليست في الحجِّ نَفْسِهِ ـ فإنه خير لا شكَّ فيه ـ بل في تفصيل أحواله إن كان واجباً، وفي وقته إنْ كان تطوعاً. وصفتها أن يركع ركعتين من غير الفريضة، قال بعضهم: ويقرأُ في الأُولى بعد الفاتحة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ١﴾

[الكافرون: ١] وفي الثانية بعد الفاتحة أيضاً: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ثم يقول: اللهم إنِّي أَسْتَخِيْرُك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسأَلك من فضلك العظيم، فَإِنَّك تَقْدِر ولا أَقدر، وتعلم ولا أَعلم، وأنت علاَّم الغيوب. اللهم إنْ كنتَ تعلم أن في هذا الأَمر - ويُسَمِّيه - خَيْراً لِيْ في ديني ودنيايَ ومعاشِي، وعاقبة أمري وفي الأمور كلها، فاقْدِرْهُ لِي، ويَسِّرْه لي، وبارك لي فيه، وإن كنت تعلم أنَّ في هذا الأمر شَرًّا لي في ديني ودنياي ومعاشي، وعاقبة أمري وفي الأُمور كلها، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقْدِرْ لِيْ الخَيْرَ حيث كان، وَرَضِّنِي بقضائِك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم، اللهم خِرْ لِي، واختر لِي مع عافيتك ورحمتك، اللهم ما قضيتَ لي من قضاءٍ فاجعل عاقبتَه إلى خير.

فإذا فعل ذلك وقَوِيَ عزمُه على السفر فليجتهد في تحصيل أمور: منها أن يُوْصِيَ بما يحتاج إلى الوصية، ويُشْهِدَ على وصيته، ويَسْتَحلَّ كُلَّ مَن كان بينه وبينه معاملة في شيء، أو مصاحبة، وليطلبْ من الله له المعونَةَ على سفره، ويتعلَّمُ مناسكَ الحج أو يَصْحَب معه كتاباً بذلك، ولو تعلَّمها واستصحب كتاباً كان أفضل، وكثيرٌ من الناس بلْ غالبهم في زماننا هذا يُقَلِّدون بَعْضَ عوامِّ مَكَّةَ وصِغارها، ومَن لا خبرة له بمناسك الحج، ويتوهمون أنهم يُعَرِّفُونَهُمُ المناسكَ، فيغترُّون بهم، وذلك خطأٌ فاحش، يجب التحرُّزُ منه. وليبَادِرْ إلى قضاء ما عليه من الديون إن كان عليه شَيْءٌ، واسترضاءِ أربابها، والتوبة إلى الله تعالى من كل ذنب وقع فيه - ولو مَرَّةً فإن كان الذنبُ بِالقول - كالقذف، فالتوبةُ منه بالقول بأن يقول: ما قذفت به فلاناً باطل، وأنا نادمٌ عليه فلا أعود إليه أبداً، وإنْ كان الذَّنْبُ بالفعل فالتوبة منه بالإقلاع عنه، والندم على وقوعه، والعزْم على عدم العود إليه أبداً، ثم إن الذنب إن كان متعلقاً بآدَمِيٍّ كالسرقة ونحوها فَيُشْتَرَط مع ذلك أن يَرُدَّ ظَلاَمَتُهُ إليه، وإنْ كان عليه شيءٌ من حقوق الله تعالى كالزكاة والصوم بادَرَ إلى قضائها وبراءةِ ذمته منها، وهذا كله مطلوب كل وقت، لكن عند إرادة النُّسُكِ أَوْلَى.

قال العلامة ابن مفلح رحمه الله في «الآداب الشرعية»: والتوبةُ هي الندم على ما مضى من المعاصي والذنوب، والْعَزْم على تركها دائماً لله تعالى، لا لأَجْل نَفْعِ الدنيا أو أذى الناس، وأن لا تكون عن إكراهٍ ولا إِلْجَاءٍ، بل اختياراً حال التكليف. وقيلَ: يشترط مع ذلك: اللهم إنِّي تائب إليك من كذا وكذا وأستغفر الله. وأن يكون إذا ذكرها انزعج قلبه، وتغيَّرَتْ صفته، ولم يَرْتَحْ لذكرها ولا ينمق في المجالس صفتها، فمَن فعل ذلك لم تكن توبة، أَلا ترى أَنَّ المعتذر إلى المظلوم من ظلمه متى كان

ضاحكاً مستبشراً مطمئناً عند ذكره الظلم اسْتُدِلَّ على عدم الندم وقلة الفكرة بالجرم السابق، وعدم الاكتراث بحرمة المعتذر إليه، ويجعل كالمستهزىء. قال: والدلالة على أنَّ الندم توبةٌ مع شرط العزم أن لا يعود، ورَدِّ المظلمة من يده، خلافاً للمعتزلة في قولهم: الندم مع هذه الشرائط هو التوبة، وَليس فيها شرط، بل بمجموعها توبة، لما رُوِي عن النبي ﷺ أنه قال: «الندم توبة»[١]، وليس لهم أن يقولوا: أجمعنا على احتياجها إلى العزم لأَنَّ ذلك شرط، ولا يوجب أن يكون هو التوبة، كما أَنَّ الصلاة من شرطها الطهارة ولا تصح إلا بها، وليست هي الصلاة، ولأَن التوبة هي الندم، والإقلاع عن الذنب، فمتى ادَّعَى زيادةً على ما اقتضته اللغة يحتاج إلى دليل، وإن كَفَّ حياءً من الناس لم تصحَّ، ولا تكتب له حسنة، وخالف بعضهم وهي التوبة النصوح فيما قال الحسن البصري، وقال البغويُّ في تفسيره: قال عُمَر وأُبَيٌّ ومعاذ رضي الله عنهم: التوبة النصوح أَنْ يتوب ثم لا يعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع. وقال الكلبيُّ: هي أن يَستغفر باللِّسان، ويندم بالقلب، ويُمْسِكَ باليدين.

وروى أحمد عن ابن مسعود مرفوعاً: «التوبة من الذنب أن يتوب منه ثم لا يعود فيه» ولعل المرادَ ثم ينوي أن لا يعود فيه[٢]. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الندم توبة»[٣]. وقيل: التوبة النصوحُ تَقَدُّمُ أَرْبَعَةِ أشياء: الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، وإضْمَار أن لا يعود، ومجانبة خلطاء السوء. قال الشيخ تقي الدين رحمه الله: لو تابَ ثم عاد إلى الذنب قَبِلَ الله توبته الأُولى، ثم إنْ تاب تاب الله عليه أيضاً. قال: وإذا أظهر التوبة أظهر الله له الخير. ولا يجوز لوم التَّائب بِاتِّفاق الناس.

وقال في «الرعاية»: وميلُ الطبع إلى المعصية بدون قصدها ليس إثْماً، وظاهر هذا أنه لو قصد المعصيَة أَثِمَ، وإنْ لم يصدرْ منه فعلٌ ولا قولٌ.

وقال الشيخ تقيُّ الدين رحمه الله: حديثُ النفس به يتجاوز الله عنه إلى أن يتكلم، فهو إذا اختار نِيَّة وعَزْماً وقصداً ولم يتكلم فهو معفوٌّ عنه. وقال في موضع آخر: الإرادة الجازمة للفعل مع القدرة التامة توجب وقوع المقدور، فإن كان في القلب حبُّ الله ورسوله راسباً استلزم موالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد [٢/ ١٤٢٠] ح [٤٢٥٢]. والإمام أحمد في مسنده [١/ ٤٩٠] ح [٣٥٦٧].

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [١/ ٥٧٨] ح [٤٢٦٣].

(٣) تقدّم تخريجه.

ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢] ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١] فهذا الالتزام أَمْرٌ ضروري.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه في رواية عبدوس بن مالك العطار رحمه الله تعالى: مَن لقي الله بذنب يجب له به النار، تائِباً غَيْر مُصِرٍّ فإنَّ الله يتوبُ عليه، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السَّيِّئات، ومَن لقي الله وقد أُقيم عليه حَدُّ ذلك الذنب في الدنيا فهو كَفَّارَتُهُ، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ، ومَن لقي الله مُصِرًا غير تائب من الذنوب التي قد استوجب بها العقوبة، فأَمره إِلى الله تعالى، إِنْ شاء عَذَّبهُ، وإِن شاءَ غفر له. ومَن لقيه كافراً عَذَّبَهُ ولمْ يغفر له. انتهى كلام ابن مُفْلح.

وقد أوسعت الكلام هنا لمسيس الحاجة إِلى ذلك. وقد آن أن نلوي عنان القلم إِلى ما كنا بصدده فنقول: ويُعِدُّ النفقة لمن تلزمه نفقته ويستكثر من الزاد من غير إِسراف، ويُؤْثِرُ منه المحتاجين، ويسترضي والديه، ويطلب منهما الدعاءِ إِنْ كانا موجُوْدِيْنِ، ويُطْلِع الْجَمَّالَ على ما يريد حَمْله من قليلٍ وكثير، فقد دَقَّق السلفُ في ذلك. ويرافق مَن يساعده على ما يقصده من الأُمور الدينية والدنيوية، ويُذَكِّرهُ إِذا نسي، ويعينه إِذا ذكر، ويُحَسِّنُ خُلُقَهُ ما استطاع، ويتجنَّب الغِيبةَ واللَّعْنَ والشتم والمخاصمة، ومزاحمة الناس في الطريق ومواردِ المياهِ، ولا يصحب كلباً ولا دابة في عنقها جَرَسٌ، فإِنْ فعله غيره أزاله، فإِن لم يَقْدر قال: اللهم إِنِّي أَبْرأُ إِليك مما فعل فلا تحرمني ثَمَرةَ صُحبَة ملائكتك وبَرَكَتَكَ.

ويستحب له ترك الشِّبَع المفرط والتنعُّم، ويتواضع في هيئته وملبسه، ويستحب له خروجه يوم الخميس(١)، ولا بأْس بالخروج في غيره، قال الإِمام النَّوَوِيُّ: ويُصَلِّي في أَهْلِهِ ركعتين لحديث المقطم بن المقدام الصحابيِّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما خلَّفَ أحدٌ عند أهله أفضلَ من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد سفراً» رواه الطبرانيُّ(٢).

قال الإمام النوويُّ أيضاً: قال بعضُ أصحابنا: يستحبُّ أَن يقرأ في الأولى منها بعد الفاتحة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾، وقال

---

(١) فقد ثبت في الصحيحين عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قلما خرج رسول الله ﷺ في سفر إلا يوم الخميس، فإن فاته فيوم الاثنين إذ فيه هاجر رسول الله ﷺ من مكة. انظر: شرح الإيضاح [ص٤٢].

(٢) أورده النووي في مناسكه [ص٤٤].

بعضهم: يقرأ في الأولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وفي الثانية ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وإذا سَلَّم قرأ آية الْكُرْسِيِّ، فقد جاء أنه «مَن قرأ آية الكرسي قبل خروجه من منزله لم يُصبْه شيء يكرهه حتى يرجع»[١]. ويستحب أن يقرأ سورة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾، فقد قال الإمام أبو الحسن القزويني الفقيه الشافعي رحمه الله صاحب الكرامات الظاهرة أنه أَمانٌ من كل سُوء، قال أبو الطاهر بن جَحْشَوَيْه: أردت سفراً وكنت خائفاً منه، فدخلت إلى القزوينيِّ أسأله الدعاء فقال لي ابتداء من نفسه: مَن أراد سفراً ففزع من عَدُو أَوْ وَحْشٍ فليقرأ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ فإنها أمانٌ من كل سُوءٍ، فقرأتها فلم يعرضْ لي عارضٌ حتى الآن[٢]. ويستحب إذا فرغ من هذه القراءة أن يدعو بإخلاص ورقّة، ومن أحسن ما يقول: اللهم بك أستعين، وعليك أتوكل، اللهم ذلِّلْ لي صعوبةَ أمري، وسهِّلْ عليَّ مشقة سفري، وارزقني من الخير أكثر مما أطلب، واصرف عني كُلَّ شر، ربِّ اشرح لي صدري، ونوِّر قلبي، ويسِّرْ لي أمري، اللهم إني أستحفظك وأستودعك نفسي وديني وأهلي وأقاربي، وكل ما أنعمت عليَّ وعليهم به من آخرة ودنيا، فاحفظنا أجمعين يا كريم. ويفتتحه ويختمه بالتحميد لله تعالى، والصلاة والسلام على رسوله ﷺ. وإذا نهض من جلوسه فليقل ما روي عن أنس رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ لَمْ يُرِدْ سفراً إلاَّ قال حين ينهض من جلوسه: «اللهم إليك توجهت، وبك اعتصمت، اللهم اكفني ما أَهَمَّنِي، وما لا أَهْتَمُّ لَهُ، اللهم زوِّدني التقوى، واغفر لي ذنوبي، ووجِّهني للخير فيما توجهت»[٣] ويستحب له أَنْ يودِّعَ أهله وأقاربه، وأصحابه وجيرانه ويسألهم الدعاءَ له ويدعو هو لهم. وفي «مسند الإمام أحمد» بن حنبل رضي الله عنه وغيره عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إِنَّ اللّهَ إِذَا اسْتُوْدِعَ شيئاً حفظه»[٤]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَن أراد أنْ يسافر فليقُلْ لمَن يخلفه: أستودعكم الله الذي لا تَضِيعُ ودائعهُ»[٥]. قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: والسنّة أن يقول له مَن يودعه، ما رويناه في «سنن أبي داود» عن قزعة قال: قال لي ابنُ عمر رضي الله عنهما: أُوَدِّعُك كما ودَّعني رسول الله ﷺ: «أستودع الله دِيْنَكَ وأمانَتَك

---

(١) أورده النووي في مناسكه [ص٤٤].

(٢) ذكره شيخ الإسلام الهيثمي في حاشيته على شرح الإيضاح [ص٤٥].

(٣) أورده الشيخ النووي في الأذكار [١٩٥] وفي مناسكه [ص٤٤ ـ ٤٥].

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٢/ ١١٩] ح [٥٦٠٨].

(٥) عزاه شيخ الإسلام الهيثمي لأحمد والنسائي وابن ماجه. انظر: حاشيته على الإيضاح [ص٤٦].

وخَوَاتِيمَ عملك»(١)، قال الإمام الخطَّابيُّ: الأَمانة هنا أهله ومَن يخلفه وماله الذي عند ابنهِ، قال: وذكر الدِّيْنَ هنا لأن السفر مظنَّة المشقة، فَرُبَّمَا كان سبباً لإهمال بَعْضِ الدِّيْن. وفي «كتاب الترمذي» عن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنِّي أُرِيْدُ سَفَراً فَزَوِّدنِي، فقال: «زوَّدكَ الله الْبِرَّ والتَّقْوى» قال: زدني، قال: «وغفر ذنبك»، قال: زِدْنِي، قال: «ويَسَّرَ لك الخيرَ حيث ما كنت»(٢).

قلت: وفي بعض المناسك: «ووجَّهَك له، وكفاك الْمُهِمَّ وجعلك في حفظه وكَنَفِه» وللصلاح الصفدي:

وَلَمَّا أَنْ حَجَجْتُ جَعَلْتُ أَهْلِي ... وَدِيْعَةَ ربِّ زَمْزَمَ والْحَطِيْمِ
فَيَا أَسَفِي عَلَيْهِمْ فِيْ رَوَاحِي ... وَيَا فَرَحِي بِهِمْ عِنْدَ الْقُدُوْمِ

وله:

سرزتُ بِقصْدِيْ حِيْنَ سِرْت لِطَيْبَة ... وَمَا كُلُّ قَصْد في الْوَرَى رَاحَ ضَائِعَا
وَوَدَّعْتُ أَوْلاَدِيْ وَأَوْدَعْتُ ضَعْفَهُمْ ... وعَجْزَهُمُ مَنْ لاَ يُضِيْعِ الْوَدَائِعَا
وفَارَقْتُ أَوْطَانِي وَأَوْطَارَ لَذَّتِي ... وصَيَّرْتُهَا إِذْ سِرْت عَنْهَا بَلاَقِعا
أَنَا قَد وَكَلْت ٱلأَمْرَ فِيْهِمْ إِلَى الَّذِي ... غَدَا لُطْفُهُ في سَائِرِ النَّاسِ ذَائِعَا
فَمَا قَلقِي مِنْ أَجْلِهِمْ رَاحَ مُجْدِياً ... ولاَ شُغْلُ قَلْبِيْ بَعْدَ ذَلِكَ نافِعَا

فائدة: ذكر الشيخ ابنُ تيميَّة في شرحه على «المُحَرَّر» أَنَّ الإمام وغيره استحبَّ تَوْدِيْعَ الغازي وتَلَقِّي الحاجِّ، لما في ذلك من الآثار، وفيه معانٍ منها: أنَّ الغازيَ في خروجه متعرِّضٌ للموت، فيكون بمنزلة تَوْدِيْعِهِ، بخلاف الحاجِّ، ومنها: أنه يحتاج إلى تقوية هِمَّتِه، وتَثْبيت قلبه، لما في سفر الغزو من الخوف، فيكون تشييعه من باب التحريض المأمور به، والإعانة المشروعة الذي مما عند الإرجاف والتخذيل، وأما إذا رجع الغازي فإنه يكون فَرِحاً مسروراً، ولا يحتاج إلى ذلك، بخلاف فَسَفَرِ الحجِّ، لأنه في مَبْدَإِهِ يكون فيه نشاطٌ وشوق، وفي الرجوع يكون قد حصل له مَلَلٌ وتَعَبٌ،

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد [٣٤/٢] ح [٢٦٠٠]. والترمذي في الدعوات [٤٩٩/٥] ح [٣٤٤٢ ـ ٣٤٤٣]. وقال في الحديث الأول: حديث غريب من هذا الوجه. وقال في الحديث الثاني: حديث حسن صحيح غريب. وابن ماجه في الجهاد [٩٤٣/٢] ح [٢٨٢٦]. والإمام أحمد في مسنده [١١/٢] ح [٤٥٢٣].

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات [٥٠٠/٥] ح [٣٤٤٤] وقال: حديث حسن غريب. والدارمي في الاستئذان [٣٧٢/٢] ح [٢٦٧١].

يحتاج إلى جَبْرِ القلب. ومنها: أَنَّ الحاجَّ قد رجع مغفوراً له، فَيُتَلَقَّى لطلب استغفاره، وأما في مَبْدَإِهِ فإنه خارجٌ بذنوبه، وإنما خرج لِيَحِجَّ ويَرْجع، وقد كَمل سفره، وأما الغازي فإنه خرج متعرضاً للشهادة، فليس برجوعه كمال أمره، فلا يُهَنَّى بسلامة الدنيا. انتهى كلامه.

فائدة: قال الْحَرِيْرِيُّ في «دُرَّة الغوَّاص»: يقولون: ودَّعت قافلةَ الحاجِّ، فينطقون بما يتضاد الكلام فيه، لأَنَّ التوديعَ يكون لمن يخرج إلى السفر، والقافلة اسم للرُّفقة الراجعة إلى الوطن، فكيف يقرن بين اللفظتين، مع تنافي المعنيين، وَوَجْهُ الكلام أن يقال: تلقيت قافلة الحاجِّ أو استقبلت قافلة الحاج. انتهى كلامُه.

ويخرج مقدماً رِجله اليمنى ثم يقول: بسم الله وبالله، آمنت بالله واعتصمت بالله وتوكلت على الله، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله. اللهم إني أسألك خَيْرَ هذا الْمَخْرَج، وخَيْرَ ما فيه، وأعوذ بك من شره وشر ما فيه، خرجت بحول الله وقوته، وبَرِئْت إليه من الحول والقوة. اللهم اكفني ما أَهَمَّنِي، وما أنت أعلمُ به مني، اللهم زَوِّدْنِي التَّقْوَى، واغفر لي ذنبي ووجِّهني للخير حيث ما كنت. اللهم أَنْتَ الصاحبُ في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاءِ السفر، وكَآبة المنظر، وسُوْءِ المنقَلَب، في الأهل والمال والولد. اللهم اطْوِ لنا البَعِيْدَ، وهوِّنْ علينا السفر. فإذا قَدَّم رجلَه للركوب قال: بسم الله. فإذا استوى راكباً قال: الحمد لله ﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣ ـ ١٤]. ثم يقول: الحمد لله ـ ثلاث مرات ـ الله أكبر ـ ثلاث مرات ـ ثم يقول: سبحانك إِنِّي ظلمتُ نفسِي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت.

فإذا نَزَلَ منزلاً فَلْيَتَحَرَّ عدم النزول في الطريق، ويشتغل بالتسبيح حالَ حَطِّ الرِحَال. فإذا استقرَّ على الأرض قال: أعوذ بكلمات الله التامَّات منْ شرِّ ما خَلَق، فَإِنَّه لا يضرُّهُ شيء حتى يرتحل. فإنْ كان نزوله نهاراً فلا بأْس له أنْ ينامَ نومةً تُعينه على دفع الوسن وعلى سير الليل. فإذا نزل ليلاً قال: يا أرْضُ ربِّي وربُّكِ الله، أعوذ بالله من شرِّكِ، وشرِّ ما فيك، وشَرِّ ما يَدبُّ عليك، وأعوذ بالله من أَسَد وأَسْود، وحَيَّة وعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد. فإذا أصبح قال: أصبحنا وأصبح الملكُ للّه، الحمد للّه الذي لا إله إلا هو وَحْدَه لا شريك له، له الملك وله الحمد يُحْيي ويُمِيت وهو على كل شيء قدير، ربِّ أسأَلك خَيْرَ ما في هذا اليوم، وخَيْرَ ما بعده، وأعوذ بك من شرِّهِ وشرِّ ما بعده. فإذا أمسى قال: أَمْسينا وأَمْسَى الملك للّه، أعوذ بك من شرِّ هذه الليلة ـ إلى آخره ـ فإذا ارتحل قال: الحمد للّه الذي عَافانا، في منقلبنا ومَثْوَانا، اللهم كما حملتنا من

منزلنا فبلِّغنا غيره في عافية، لا إله إلا الله الحليم العظيم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل(١).

وآداب السفر كثيرة، وأذكاره غزيرة، وليكن هذا القدر في هذا المختصر كفاية.

ولا بأس أنْ يُخْتَمَ هذا الفصلُ بفوائد غزيرة، وفرائد تكون العين بمطالعتها قريرة، فقد قال أهل العرفان، ومَن أدَّبه الزمان والحدثان، أن للسفر فوائد:

أحدها: رفع الإنسان نفسه من الذل إذا كان بين قوم لِئَام فقد خرج النبي ﷺ من مكة شرّفها الله تعالى، وهي أَحَبُّ البقاع إليه، وهاجر إلى طيبة.

الثاني: أن فيه تعديلاً للبدن وصحة له، قال ﷺ: «سافروا تَصِحُّوا وتَغْنَمُوا»(٢).

الثالث: أنه يحصل لنفسه معارف في غربته يعجز عن تحصيلها في محلته.

الرابع: أنه إذا مات يحكم له بالشهادة، لما روى ابن ماجه والدارقطنيُّ في سننهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: «موت الغريب شهادة»(٣) وَذَكَره الدارقطنيّ من حديث ابن عمر وصححه.

الخامس: روى النسائيُّ وابن ماجه في سننهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: مات رجل بالمدينة ممن ولد بها، فَصَلَّى عليه رسول الله ﷺ ثم قال: «يا ليته مات بغير مولده» قالوا: ولِمَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «إن الرجل إذا مات بغير مولده قِيْسَ له من مولده إلى منقطع أَثَرِهِ في الجنة»(٤).

السادس: أنَّ الأعمال التي تفوته بسبب السفر تُكْتَبُ له وإن لم يعملْها إذا كان العائق لها مُجَرَّدَ السَّفَر، ففي «صحيح البخاري»، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذَا مَرِض العبدُ أو سافر كتب له ما كان يعمل، مقيماً صحيحاً»(٥).

---

(١) وانظر: شرح الإيضاح ومعه حاشية ابن حجر الهيثمي [ص٤٨ ـ ٤٩].

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٢/ ٥٠٣] ح [٨٩٦٧].

(٣) أخرجه ابن ماجه في الجنائز [١/ ٥١٥] ح [١٦١٣]. والطبراني في الكبير [١١/ ٥٧ ـ ٥٨] ح [١١٠٣٤] وعزاه العجلوني لأبي يعلى، والبيهقي، والقضاعي. انظر: كشف الخفاء [٢/ ٣٨٢] [برقم ٢٦٦٥].

(٤) أخرجه النسائي في الجنائز [٤/ ٧] باب: الموت بغير مولده. وابن ماجه في الجنائز [٢/ ٥١٥] ح [١٦١٤]. والإمام أحمد في مسنده [٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠] ح [٢٦٦٥].

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير [٦/ ١٥٨] ح [٢٩٩٦]. والإمام أحمد في مسنده [٤/ ٥٠١] ح [١٩٧٠١].

السابع: أنه مستجاب الدعوة عن أبي هريرة يرفعه: «ثلاثُ دعوات مُسْتَجَاباتٌ لا شَكَّ فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة الوالد، ودعوة المسافر»(١).

واعلم أن السَّفَرَ مشروع في الجمعة، لكنه ينقسم إلى طلب وهرب، وكُلٌّ منهما ينقسم إلى الأحكام الخملَة أما الهرب فينقسم إلى واجب ومستحَب وحرام ومكروه ومباح.

أما الواجب فالخروج من أرض غلب فيها الحرام، فإنَّ طلب الحلال فريضةٌ على كل مسلم.

وأما المستحب فالخروج من أرض غلبت فيها البدع، إذَا لم يقدر على إنكارها، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وأما الحرام فالمخروج من أرض تعيَّن عليه فيها وظيفة كمَن يتعيَّن عليه قضاء البلد.

وأما المكروه فالخروج من أرض وقع بها الطاعون فِرَاراً عنه، فقد نهى النبي ﷺ عنه.

وأما المباح فخروج المريض من الأَرض الموخمة إلى النزهة، وقد أَذِنَ النبي ﷺ في ذلك للرعاء حين استوخموا المدينة.

وأما سفر الطلب فينقسم أيضاً إلى واجب ومندوب وحرام ومكروه ومباح.

فالواجب سفر الجهاد والحج وتحصيل القوت، لأَنَّ ما لا يتم الواجبُ إلاَّ بِهِ واجبٌ.

والمستحب السفر لطلب العلم والزيارة والعشيرة (؟) والرباط.

والحرام سفر المعاصي. والمكروه السفر للاستكثار من المال من غير حاجة.

والمباح سفر التنزُّه والتجارة وكسب الزائد عن القوت، الذي لا ينتهي به لحد الطغيان في الغِنَى.

وأما سفر السياحة لا لغرض ولا إلى مكان مقصود، فمنهيٌّ عنه، وفي الحديث «لا رهبانية في الإِسلام ولا تَبَتُّلَ»(٢)، وقال الإمام أحمد: ما السياحة من الإِسلام في شيء، ولا من فعل النبي والصالحين.

---

(١) أخرجه الترمذي في البر [٤/ ٣١٤] ح [١٩٠٥]. وابن ماجه في الدعاء [١٢/ ١٢٧٠] ح [٣٨٦٢]. والإمام أحمد في مسنده [٢/ ٣٤٦] ح [٧٥٢٧].

(٢) قال الشيخ العجلوني: قال الحافظ ابن حجر: لم أره بهذا اللفظ، لكن في حديث سعد بن أبي وقاص عند البيهقي «إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة». انظر: كشف الخفاء [٢/ ٥١٠] [برقم ٣١٥٤].

ولأَن السفر مُشَتِّتٌ للقلب، فلا ينبغي للمرء أن يسافر إِلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدي به. انتهى.

وفي الحديث: «سياحة أمتي الصوم، ورهبانيتهم الجهاد» ويروى: «سياحتهم الجهاد، ورهبانيتهم الجلوس في المسجد»[1].

ومن الاحتراز في سفر الْحَرِّ أن مَن سافر في حَرٍّ شديد فلا يمتلىءُ، من الطعام والشراب، ولا ينبغي أن يكون خاوياً منهما، إِلا أن يكونَ مُتْخَماً وإِلاَّ فليعتدلْ منهما ويستعمل الأَغذية الباردة المسكِّنة للعطش، كَمَاءِ الحِصْرِم والخل والزيت، وشراب التمر هندي، والسكَنْجَبِين وحَلِيب البقلة الحمقاء، ويشرب شربة خفيفة من السكر والسَّوِيق، فإِذا قطع سيره اغتسل بالماء البارد العذب أو الفاتر، وليحذر الأَكلَ من المالح والحلو والحريف والسمك بخاصة، والزيتونَ فإِنها معطشة، وينفعه البصل المنقوع بالخل، والرفق في السير وتقليل الأَكل.

ومن الاحتراز من ضرر البرد لِمَن سافر في البرد الشديد أو الثلج فقد يعرض له الجمود، أو الجوع والاِسترخاء ونحوها، فينبغي أن يمتلىء من الطعام ويمسك عن الحركة بسببه بقدر ما يسخن الطعام. وقال بعض حذّاق الأَطباء: يجب على مَن أراد أن يسافر سفراً بعيداً أو طويلاً أن ينقِّي بدنه من الفضول بالفصد والمسهل حسب تولدها في بدنه، والأَغلب على مزاجه، فمتى سافر وَبَدَنُهُ غير نَقِيٍّ لم يكد يسلم من الخرّاجات والبثور والحميات المتطاولة وأنواع الأَورام والنوازل.

ثم يدرج نفسه إِلى المياه التي تثقل عليه، بأَن يحمل من ماءِ بلده ويمزجه بالماء الذي يرد عليه أَوّلاً، ويحمل ماء ذلك المنزل الثاني ويخلطه بماء المنزل الثالث، يفعل ذلك إِلى أن يبلغ الموضع الذي يقصده، فإِن تَعَذَّرَ مِنَ التدبير وكرهه فليجتهد أن لا يَشْرَبَ ما يشربه إِلا بمزاجِ شراب إِن كان مرطوباً أو سَكَنْجَبِين ساذجٍ، إِن كان محروراً، وإِن تعذر فَبِخَلٍّ، وقد ينفع البصل المكبوس في الخل والمقطَّع فيه والمغسول به، ومن ساعته يأكلهُ، وينفع من ذلك أَيضاً أَن يتزود من طين بلده من

---

(١) حديث: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى». أخرجه أبو داود في الجهاد [٣/ ٥] ح [٢٤٨٦]. والبيهقي في شعب الإيمان [٤/ ١٤] ح [٤٢٢٦]. وحديث: «عليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام». أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٣/ ١٠٠ ـ ١٠١] ح [١١٧٨٠]. وعن أنس مرفوعاً: «إن لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله». أخرجه البيهقي في شعب الإيمان [٤/ ١٤] ح [٤٢٢٧] وأما بهذا اللفظ هكذا فلم أجده، والتقصير منا. طالب العلم.

الطين الْحُرّ الجيد من موضع الماءِ الذي أَلِفَ شربه، فيلقي منه قطعةً على ماءٍ يرد عليه، ويتركه حتى يسكن ويصفو، ثم يشربه فإنْ كان الماءُ الذي يرد عليه كَدِراً صَفَّاهُ، بِأَخْذِ حديد مجرش وينثر عليه، أَو يُرَوِّقُ بكعك جيِّد الصنعة.

وإن كانَ الماءُ مالِحاً مزج بِسَكَنْجَبِيْنٍ ساذج أو بشيءٍ من خلٍّ، أَو يلْقى فيه خرنوبٌ مَائِيٌ، أَو حَبَّ الأَسر (؟) أو زعرور أو طِين حُرُ، والسَكنجبين أفضل ذلك كله.

فإن كان [. . . . .][1] وكانت فيه عفونة فليمزج بِرُبِّ الفواكه المزّة الحامضة كَرُبِّ الْحِصْرِمِ والرمَّان والتفاح والرماس، والسفرجل ويهجر الأغذية الحارة ما دام الشرب منه، فإن هذا الماءِ أَسْرع شَيْءٍ في تولد الحصاة، فإن كان الماءُ فيه مرارة فيجب أَن يُمْزَج بجلاب أَو ماءِ السكر، وتوكل عليه الأشياء الحلوة، ومما يدفع ضرورة أَن يتجرّع قبل شربه ماء الحصرم وكذلك أَكل الحمص [. . . . .][2] نافع من ذلك والله يعلم.

وللشافعي رضي الله عنه:

تَغَرَّبْ عَنِ ٱلأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلاَ وَسَافِرْ فَفِي ٱلأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرّجُ هَمٍّ واكتسابُ مَعِيشَةٍ وعِلْمٍ وآدابٍ وصُحْبَةِ مَاجِدِ
فَإِنْ قِيْلَ فِي ٱلأَسْفَارِ ذِلٌّ وَغُرْبَةٌ وقَطْعُ الفَيَافِي وارْتِكَابُ الشَّدَائِدِ
فموت الْفتى خَيْرٌ لَهُ مِن حَيَاتِهِ بِدَارِ هَوَان بَيْنَ وَاشٍ وحَاسِدِ

فأما الأولى وهي انفراج الهم فإن الله أجرى العادة أن الملازم بمكان واحد وطعام واحد يَسأم منه، لا سيما إِذَا كان في هَمٍّ كثير، فإن انفصل عن تلك الحالة وتشاغل بغيرها انصرف الهمُّ عنه على التدرع وانبعثت روحانيته لما يروم، قال يحيى بن علي: إنَّ الطبيعة تَملُّ الشيءَ الواحد إذا دام عليها، ولذلك اتخذت ألوان الأَطعمة، وأُطْلِق التزويج بأربع نسوة، ورُسم التَّنَزُّهُ والتحوُّل من مكان إلى مكان والاستكثار من الإخوان والجمع بين الجد والهزل.

وأما **الفائدة الثانية**: وهي اكتساب المعيشة فإنها لا تكون إلا بالتحرك للحديث: «سافروا تغنموا»[3] وفي التوراة: «ابن آدم خليقته من الحركة فَتحرَّك وأنا معك».

---

(١) (٢) بياض في الأصل.

(٣) بلفظ: «سافروا تستغنوا» أخرجه: الطبراني في الأوسط [٨/ ١٧٤] ح [٨٣١٢]. وقال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه موسى بن زكريا، فإن كان الراوي عن شباب فقد تكلم فيه الدارقطني، وإن كان غيره فلم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد [٥/ ٣٢٧].

ومن الكلام النافع: صعود الآكامِ وهبوط الغيطان، خير من القعود بين الحيطان.

قال الشاعر:

دَعِ الْهُوَيْنَا وانْتَصِبْ واكْتَسِبْ وَاكْدَحْ فَنَفْسُ الْمَرْءِ كَدَّاحَهْ
وكُنْ عَنِ الرَّاحَةِ فِي مَعْزِلٍ فَالصَّفْعُ مَوْجُودٌ مَعَ الرَّاحَهْ

وقال رجل لمعروف الكَرْخِي: يا أبا محفُوظ أتحرَّكُ لطلب الرزق أم أَجْلِس؟ قال: لا بَلْ تَحَرَّكْ فإنه أصلح لك، فقال: أتقول هذا؟ قال: ما أنا قلته ولكن الله عزَّ وجلَّ أمر به، قال لمريم: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: ٢٥] ولو شاء أن ينزله من غير هَزٍّ أنزله.

وقال النابغة:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشاً لِنَفْسِهِ شَكَى الْفَقْرَ أَوْ لاَمَ الصَّدِيْقَ فَأَكْثَرَا
فَسِرْ فِي بِلادِ اللّهِ والْتَمِسِ الْغِنَى تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتَ فَتُعْذَرَا

وقال ابْن عبد رَبِّهِ: هلْ يجوز في عقل أو تمييز في وهم، أو يَصِحُ في قياس أن يُحْصَدَ زَرْعٌ بغير بَذْرٍ، أو يُجْنَى ثَمَرٌ بغير غَرْسٍ، أو يُوْرَى زَنْدٌ بغير قَدْحٍ، أو يَنْمُو مالٌ بغير طلب؟!

وأما **الفائدة الثالثة**: وهي حصول العلم والآداب فقد كان السلف يرحلون في طلب الفائدة، ورحل جابر بن عبد الله مسافة بعيدة في طلب حديث واحد.

وأما **الفائدة الرابعة**: وهي الآداب قلما يرى من الأُدَباء، ولقاءِ العلماء والعقلاء، الذين لا يَأْوُوْنَ قُطْرَهُ، فيكتسب من أخلاقهم، ويتحلَّى بفوائدهم وحقائقهم.

وأما **الفائدة الخامسة**: فهي صُحْبة الأَمجاد، وهي تَرْفَعُ المنقوص، وتُرَقِّيْهِ إلى رُتْبة إعلاء المخصوص، وتُدْخِلُهُ في زمرتهم وتنسجه في لحمتهم.

قال الثعلبيُّ: من فضائل السفر أنَّ صاحِبَهُ يَرَى من عجائب الأَقطار، ومن بدائع الأَمصار، ومحاسن الآثار ما يزيده علماً بقدرة الله تعالى ويدعوهُ شكراً إلى نعمه.

وقال المأمون: لا شيءَ أَلَذُّ من السفر في كتابة لأَنك تجد في كل يوم محلة لم تَحُلَّها، وتعاشر قوماً لم تعاشرهم.

وقال غيره: السَّفَرُ يَشُدُّ الأَبدانَ، ويُنَشِّطُ الكسلان، ويُشَهِّي الطعام. والله أعلم.

الفصل السادس

من الباب الأول

في أخبار مكة المشرفة ومَن كان بها من قبائل العرب إلى أن جاء الإسلام.

ونبذة في فضل العرب، وشرفهم على مَن سواهم، واختصاصهم بخصائص ليست فيمن عداهم.

فنقول: قال ابنُ حَزْم: اللُّغَاتُ أصلها لُغَةٌ واحدة، وإنما اختلفت باختلاف البلاد والتغيرات في الاستعمال، فالسرْيَانِيَّةُ أصل العربية والعبرانية، وأول مَن تكلم بهذه العربية إسماعيلُ عليه السلام، فهي لغة واحدة، والعِبْرانِيَّة لغة إسحاق عليه السلام ولغة ولده، واليونانية كانت لغةَ إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقال الشيخ حسن بن محمد النابلسيُّ الحنبليُّ في كتابه «حُجَّة المعقول والمنقول»: إنَّ السريانية فيما ذكر ابن سَلاَّم، سميت بذلك لأن الله تبارك وتعالى حين علَّم آدمَ الأَسماءَ علَّمه سِرًّا من الملائكة، وأنطقه بها حينئذ، وأما العبرانية فذكر الطَّبريُّ أَنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنما نطق بالعبرانية حين عبر النهر فارًّا من النمرود، وكان النمرود قد قال لجماعة الطلب الذين أرسلهم في طلبه: إذا وجدتم فتى يتكلم بالسريانية فَرُدُّوْهُ، فلما أدركوه استنطقوه فحوّل الله لسانه عِبْرَانِيًّا، وذلك حين عبر النهر، فسميت العبرانية بذلك.

قال الشيخ حسن النابلسي الحنبلي: وهذا صريح في أَنَّ لغة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت السريانية لا اليونانية. ويمكن الجمع بين القولين بأنه كان يتكلم بهذه وهذه، فلعلَّ النمرود ما سمع منه غير السريانية، وأما العبرانية فما تكلم بها إلاَّ من حين عبوره النهر، وقال العلامة نجم الدين الطوفيُّ الحنبليُّ: اختلاف اللغات إلى عربي وعجمي وغير ذلك من أصناف اللغات عِلَّتُهُ اختلافِ أَمْزِجَةِ الأَلسنة، واختِلافُ أَمْزِجَة الأَلْسِنَة عِلَّتُهُ وسَبَبُهُ اختلاف الأَهوية، وطبائع الأَمكنة، فإِذَا غلب البردُ مثلاً على مكانٍ برد هواؤُهُ، وطبع البرد التَّكْثِيْفُ والتَّثقيل، لأَنَّ العُنْصُرَيْنِ الباردين ـ وهما الماء والأَرض ـ ثَقِيْلانِ كثيفان، والماء أَشدُّهُمَا بَرْداً، والأَرض أشدهما كثافَةً، فيغلبُ الثِّقَلُ على ألسنة أهل ذلك البلد، فيثقل النُّطْقُ على ألسنتهم، ثم يضعون الأَلفاظ المخصوصة للمعاني المخصوصة، فيجيء النطق بها ثقيلاً كالعجميِّ والتركيِّ وغيرهما، فإذا غلبَ الْحَرُّ على مكان سَخُنَ هَوَاؤُهُ، وطبْع الحرارةِ التَّخْفِيْفُ والتحليل والتلطيف، فتغلِبُ الْخِفَّةُ على ألسنةِ أهلِ ذلك المكان، فَيَخِفُّ النطقُ على ألسنتهم،

ثم يضعون الألَفاظَ المخصوصةَ للمعاني المخصوصة، فيجيءُ النُّطقُ خَفِيْفاً سَمْحاً سَهْلاً كاللغة العربية، ولهذا كانتْ أَصَحَّ اللغات وأفصَحَها وأَشْرَفَها، وحصل الإِعْجاز والتَّحَدِّي بكلام الله تعالى النازل بها، دون كلامه النازل بغيرها، مع أنه قد كان في قدرة الله تعالى أَنْ يُعْجزَ أَهلَ كل لسان بما ينزله من كلامه بذلك اللسان. وهذا التقرير أشار إليه الأَطِبَّاء منهم صاحب «الإقناع».

وذكر صاحب كتاب «المشرق» أن أول مَن تكلم بالعربية من ولد نوح سامٌ، ثم ولد إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد رُوي عن كعب الأحبار أنَّ أول مَن تكلم بالعربية جبريل عليه السلام، وهو الذي ألقاها على لسان نوح عليه السلام، وألقاها نوحٌ على لسان ابنه سام، وروي عن كعب الأحبار أن أول من وضع الكتاب العربيَّ والسريانيَّ والكتبَ كلها وتكلم بها وبالألَسِنةِ كلها آدمُ عليه السلام. وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان مع نوح عليه السلام في السفينة ثمانون إنساناً منهم جُرْهُم ـ قال ابن عبد البر: يعني جُرْهُمَ الأَكبر ـ من ولد سام، ومنه القبيلة التي نزلت بمكة إِذْ مرَّتْ بها على إسماعيل وأُمِّه، وروي في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] أنه لسان جُرْهُم. وقال ابنُ الكلبيِّ: نُطِقَ اللِّسَانُ العربيُّ يوم تبلبلت الألْسن في زمن نمرودَ بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح، وقيل: إن أوَّلَ مَن تكلم بها يَعْرُبُ بنُ قحطان، وهو أَفْصَح من العربية الأولى، عربية عاد وثمود والعماليق وطَسْم وجَديس، وبني يَقْطن بن عابر، بالباء التحتية الموحدةِ، وجُرْهُم بن عامر ـ بالميم المكسورة ـ ابن سبأ بن يقطن، وعربية إسماعيل عليه السلام ومَعَدِّ بن عدنان أفصح.

وقيل: إنَّ أَولَ مَن تكلم بالعربية بلسان فصيح يَعْربُ بن قحطان، وبه سميت العرب، وقد كانت عادٌ تكلمت بها ولم تُفْصِح.

وقيل: كان الناس بعد الطوفان مجتمِعِيْن في مكان واحد، بأَرض بابل، ولغتهم السِّرْيانية، وذلك في زمن فالغ بن عامر بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، فاجتمع رأْيُهُمْ على أَنْ يَبْنُوا صَرْحاً أَسَاسُه في الأرض، وأعلاه في السماء، يمتنعون به من كُلِّ طوفان وبلاء، وكان إِبليسُ حينئذ يظهر فيهم، وهو الذي أشار عليهم بذلك، ونهاهم فالغ، وكان عند فالغ وصيةُ أبيه عن آبائه، فلم يقبلوا منه. وبنوا الصرح، كما سَوَّلَ لَهُمْ إبليسُ بَنَوهُ بالحجارة والرَّصاص واللُّبَان والشَّمْع والْكِلْس، وكانوا حينئذ اثنين وسبعين بيتاً. فلما فرغوا منه أرسل الله عليهم في جوف الليل صَيْحةً هدمتْ ذلك الصرح، وسلَّط عليهم رِيْحاً وظُلْمَةً، وكان بعضهم لا يُبْصِرُ بعضاً، فأَقاموا بذلك أياماً، ثم أنارتْ لهم اثنان وسبعون طريقاً، فأَصبح كلُّ بيت يسلكون طريقاً من تلك

الطرق، والريح ترفعهم، فسلك قحطان وعاد وثمود وعملاق وطَسْمٌ وجَديْسُ طريقاً من تلك الطرق، وألهمهم الله هذا اللسانَ العربيَّ، فرفعتهم الريحُ إلى اليمن، وسارت عاد إلى الأحقاف، ونزل ثمود بن عامر في ولده في ناحية الْحِجْر، وقصد جَدِيْسُ أخو ثمود اليمامَةَ، ثم شخص طَسْمُ بن لاوذ بن إِرَمَ بن سام فأتبعهم، ثم شخص عِمْلِيق بن إرم فنزل بأرض الْحَرَم، ونزلَ ضَخْمُ بن إرم الطائفَ، وسار جُرْهُمُ بن قحطان وَوَلَده فنزلوا مكة، فهؤلاء ونسلهم يُدعون العرب العاربة، وبنو إسماعيل يُسمون العرب المستعربة، لأنهم تعلّموا منهم وتكلموا بلغتهم، وأما ولد إسحاق بن إبراهيم عليه السلام وابنيه عيص ويعقوب فألسنة شَتَّى: السريانية والعبرانية وغيرهما.

وعن ابن عباس: كان مجتمع الناس حين خرجوا من السفينة ببابل، فنزلوا سوقَ ثمانين من أرض الجزيرة، وابتنَى كُلُّ واحد منهم بيتاً، وكانوا ثمانين رجلاً، وبهم يُعرف سوق الثمانين، ثم ضاقت بهم فخرجوا عنها، ونزلوا من بابل بموضع آخر، وكانت بابلُ اثْنَيْ عشر فرسخاً، في اثْنَيْ عشر فرسخاً، فمكثوا فيها حتى كثروا وملكهم يومئذ نمرود بن كنعان بن سام بن نوح عليه السلام فلما كثروا بلبل الله ألسنتهم فتفرّقوا على اثنين وسبعين لساناً، وفَهَّمَ اللّهُ العربيةَ عِمْلِيقاً وأَمِيْماً وطَسْماً بني لاَوذ بن سام، وعادا وعبيلا ابنَي عوص بن إرم بن سام، وطَسْماً وجديساً ابنَيْ حام بن إرم بن سام وبني قطورا بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام، فنزلت عاد الشِّحْرَ، ونزلتْ عِبَيلُ يثْربَ، ونزلت العماليقُ صَنْعَاءَ وما حولها، ونزلت أَميم أبان، ونزلت طسمٌ وجديسُ اليمامةَ، ونزلت ثمودُ الحِجْرَ وما والاها، فهلكتْ عادٌ، وتحوَّلَتِ العماليق فنزلت مكة، ثم مضى بعضهم إلى يَثْرب، ويثرب اسم رجل منهم، وكانوا يسمون المنازل التي ينزلون بأسمائهم، وهو يثرب بن قانِيةَ بن مهاليل بن إرم بن عوص وأقبلت العِماليق فأخرجتْ عَبيْلاً من يَثْرب، فأنزلوهم الْجُحْفَةَ، فجاء سَيْل فاجْتَحَفَهُمْ فسميت بذلك.

وعن أبي عَمْرو بن العلاء: أَوَّلُ مَنْ فَتَقَ اللّهُ لِسَانَه بالعربية إسماعيل عليه السلام يعني العربية الْمُبينة. قال: والعربية الفصيحة التي في ربيعة ومُضَرَ ابْنَيْ نزار بن مَعَدِّ بن عدنان هي التي ألهمها الله تعالى إسماعيل.

ومن أحسن ما قيل في بلبلة الألسن وأَخْصَرهِ ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ نوحاً عليه السلام لما نزل إلى أسفل الْجُوْدِي ابتنى قرية وسماها ثمانين، فأصبح ذات يوم وقد تبلبلت الألسن على ثمانين لغة إحداها لسان العرب، وكانوا لا يفهم بعضهم عن بعض، فكان نوح عليه السلام يُعَبِّرُ لبعضهم عن بعض.

قال ابنُ عبد البر: لا خِلاَف أنَّ لسانَ عاد وثمودَ وصالح وشعيبٍ ومديَنَ عَرَبيٌّ كله، وما أُرْسِلَ منهم مَنْ أُرسل إلاَّ بلسان قومه. قال: وأولى ما قيل في ذلك والصواب قول مَن قال: إنَّ آدم عليه السلام أولُ مَن تكلم بالعربية والسريانية وغيرهما، وأولُ من وضع الكتاب بذلك لأنه عُلِّمَ الأَسماءَ كُلَّها وعُلِّم حساب الأَزمنة والأَيام، وقد جاءت الآثار بأَنه تكلم بالعربية وغيرها، وقد رُوي أنَّ شَيْث بنَ آدم عليهما السلام رَثَى أباه آدم عليه السلام بشعرٍ عربي منه قوله:

تَغَيَّرَتِ الْبِلاَدُ ومَنْ عَلَيْها فَوَجْهُ ٱلأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيْح

وقد رُوِي أنَّ كلام أهلِ الجنة في الجنة عربيٌّ. وقال رسول الله ﷺ: «أول مَن خطَّ بالقلم إدريسُ عليه السلام»[1] وقيل: أول العرب كتب العربية حَرْبُ بْنُ أُمَيَّةَ بن عبد شمس، وقيل: من أهل مكة، فإن ذلك كان في الحيرة، وتعلَّمه أهلُ الحيرة من أهل الأَنبار، وقيل: أول مَن قَدِمَ مكة بالكتاب العربي عَبْدُ بنُ قُصَيٍّ، جاء به من اليمن فتعلّمه منه أهل مكة، ولم يُعَقِّبْ عَبْد.

ونزل مكة المشرفة، وسكنها وولي بها قبائل كثيرة من قبائل العرب لا يليق بهذا المختصر سَرْدُ أخبارها.

وذكر أَبو عُبَيْد البكري في كتابه «المسالك والممالك» أَنَّ ولاةَ البيت إبراهيم وإسماعيل ثم وليه نابت بن إسماعيل، هكذا قال ابن إسحاق وقال الزُّبير والكلبيُّ: نابت بن إسماعيل وأُمُّه جرهميةٌ، فوليه ما شاء الله، ثم مات نابت، فوليه مُضَاضُ بن عَمْرو بن غالب الجرهميُّ، وفي ذلك يقول مُضَاضُ بن عَمرِو بن الحارث الجرهمي:

وَكنَّا وُلاةَ البيت مِنْ بَعْد نَابتِ نطوف بذاك البيت والخير ظاهر

وجُرْهُمُ وقَطورا يومئذ أَهلُ مكة، وهُمَا أَخَوَان، ورئيس قطورا السَّمَيْدعُ، ورئيس جُرْهُمَ مضاضُ، ومنزل جُرْهُمَ أعلى مكة بقُعَيْقِعانَ، فَمَا حَازَ ـ أَي ما قَرُب ـ ومنزل قطورا أَسفل مكة، بأَجياد، فما حاز، وكان السَّمَيْدَعُ يُعَشِّرُ مَنْ دخل مكة من أَسفلها، ومُضَاض يُعَشِّرُ مَن دَخَلها من أَعلاها. ثم دَخَل بينهما منافسة على الملك، وبغى بعضهم على بعض، ومع مُضَاضٍ بنو إسماعيل، وإليه ولايةُ البيت دون السميدع، فَسُمِّيَ قُعَيْقِعَانُ لِقَعْقَعَةِ السِّلاح حين خرج مُضَاض إلى السميدع من قُعَيْقعان، وخرج السَّمَيْدع منْ أَجيَاد، ومعه الخَيْلُ والرجال.

---

(١) عزاه الشيخ العجلوني للإمام أحمد عن أبي ذر. انظر: كشف الخفاء [١/ ٣١٤] [برقم ٨٣٤].

فقيل: إنَّه ما سُمِّيَ أَجْيَادُ إلاَّ لخروج الجياد من الخيل منه مع السميدع، فالتقوا بفاضح، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فَقُتِلَ السميدعُ، وفُضِحَتْ قطورا فَيُقال: ما سُمِّيَ فاضِحُ فاضِحاً إلاَّ لذلك. ثم تَدَاعَوْا إلى الصلح فساروا حتى نزلوا المطابخ بأَعْلَى مكة ـ وهو شِعْبُ بني عامر ـ واصطلحوا هناك وسلَّمُوا الأَمْر إلى مُضاض، فَنَحر للناس وأطعمهم فيقال: ما سميت المطابخ إلاَّ لذلك، وبعضهم يزعم أنها ما سميت لذلك إلا أَنَّ طعام تُبَّع حين قدم مكة كان يُطْبخ بها، وكذلك قالوا في أجياد أنه كان موضعَ جيادِه، فدامتْ لجُرْهُم ولاية البيت ثلاث مئة سنة، ثم إنهم بَغَوا بمكة واستحلُّوا حرمتَها، وأَكلوا مال الكعبة الذي يهدى إليها، ولم يتناهوا حتى أَنَّ الرجل إذا لم يجد مكاناً يزني فيه دخل الكعبة، فزعموا أَن إِسافاً زنى بنَائلة في جوف الكعبة فَمُسِخَا حجَرَيْن، وهو إِساف بن سهيل، ونائلة بنت عمرو بن ذؤيب.

وتفرّق أَولاد عَمْرو بن عامر منَ اليمن فانخزع منهم بنو حارثة بن عمرو بن عامر، وأُمُّه فهيرة ابنة عمرو بن الحارث بن مُضاض الجرهمي، وليس بابن مضاض الأَكبر.

فلما أَحسَّ عَمْرُو بن الحارث بن مضاض بالهزيمة، وهو رئيسُ جُرْهُم، خرج بِغَزَالَي الكعبة وحجر الركن يلتمس التوبة، وهو يقول:

لاَ هُـمَّ إِنَّ جـرهـمـا عـبـادك   الـنـاس طـرفٌ، وهـم تـلادك

وهـم قـديـمـاً عـمـروا بـلادَك

فلم تُقبل توبته، فَأَلْقَى غَزَالي الكعبة وحَجَرَ الركنِ في زَمْزم ثم دفنها، وخرج بمن بقي من جُرْهُمَ إلى أَرضٍ من أَرض جهينة، فجاءَهم سيلٌ فذهب بهم، فقال أُمَيَّةُ بنُ أَبي الصلت:

وجُرْهم نَزَلُوا تِهَامَةَ فِي الدَّهْـ   ـر فَـسَـالَـتْ بـجُـرْهُـم إِضَـمُ

وكان ماءُ زَمْزَم قد نَضَب، لما أَحدثتْ جُرْهُمُ بمكة، حتى انْمَحَى مكان البئر واندرس، فأَتَى مضاض بن عمرو بعضُ ولده في ليلة مظلمة، فحفر في موضع زمزم، ودفن فيه وأَعمق ودفن هناك غَزَالَي الكعبة وحَجَرَ الركن، وأَسْيافاً قُلَعِيَّة، وانطلق ومَن معه إلى اليمن.

وروى الزُّبير عن رجاله عن ابن شهاب أنه قال: لم يَبْقَ من جُرْهم بمكة غير حي في ملكان بن كنانة وهم قليل، وآخرون في حكم ابن الهون.

فولّى البيت عمرو بن ربيعة، وهو جد لحَي، وقال ابن قصي: بَلْ وَلِيه عَمْرُو بن الحارث بن عمرو، أحد بني غبشان بن سليم من بني ملكان بن أَفْصَى بن حارثة بن عامر، وبنو عمرو هم كلهم من خزاعة، قالوا: وهو الذي يقول:

وَنَحْنُ وُلاةَ البيتِ مِنْ بَعْدِ جُرْهُم ... لِنَمْنَعَهُ مِنْ كُلِّ بَاغٍ ومُلْحِدِ

وقال:

وَاد حرام طَيْرُهُ وَوَحْشُه ... نَحْنُ ولاته فلا نغشه
وابن مضاض قائم يمشه ... يَأْخُذُ مَا يُهْدى له يقشه

وقد كانت بنو إسماعيلَ اعتزلَتْ حَرْبَ جُرْهُمَ وخزاعة، فجاءَت خزاعة فسألوهم السكنى معهم، فأذنوا لهم، وقال عمرو بن لُحَيٍّ: مَن وجد منكم جُرْهَمِيًا قد قارب الحرمَ فدمه هدر، فنزعت إبلٌ لمضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض بن عَمْرٍو مِنْ قَنَوْنَا تريد مكة فخرج في تبعها، حتى قدم مكة فوجد أَثَرَها قد دخلت مكة، فمضى على الجبال من نحو أجياد حتى ظهر على أبي قبيس يتبصّر الإبل في بطن وادي مكة فأبصرها تُنْحَر وتؤكل، ولا سبيل له عليها فخاف إن هبط إلى الوادي أَنْ يُقْتَلَ فولّى مُنْصَرِفاً إلى أهله وأنشد يقول:

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُوْن إِلَى الصَّفا ... أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُر بِمَكَّةَ سَامِرُ
بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَزَالَنَا ... صُرُوْفُ اللَّيَالِيْ وَالْجُدُوْدُ الْعَوَاثِرُ
وَأَبْدَلَنَا رَبِّيْ بِهَا دارَ غُرْبَة ... بِهَا الذِّئْبُ يَعْوِي والْعَدُوُّ الْمُخَامِرُ
وكُنَّا لإِسْمَاعِيل صِهْراً وَجِيْرَةً ... وَلَمَّا تَدُرْ يَوْماً عَلَيْنَا الدوَائِرُ
وكُنَّا وُلاَةَ الْبَيْتِ مِن بَعْدِ نابت ... نَطُوْفُ بِذَاكَ الْبَيْتِ والْخَيْرُ ظَاهِرُ
وَصَاهَرَنَا مِنْ أَكْرَم النَّاس وَالِداً ... فَأَبْنَاؤُهُ مِنَّا وَنَحْن الأَصَاهِرُ
فَأَخْرَجَنَا مِنْهَا الْمَلِيْكُ بِقُدْرَة ... كَذَلِكَ يَا لِلنَّاس تَجْري الْمَقَادِرُ
أَقُوْل إِذَا نَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ أَنَم ... إِذَا الْعَرْش لاَ يَبْعدْ سُهَيْلٌ وَعَامِرُ
وَبُدِّلْتَ مِنْهَا أَوْجُهاً لاَ أُحِبُّهَا ... قَبَائِلُ مِنْهَا حِمْيَرٌ وَيُحَابِرُ
وَصِرْنَا أَحَادِيْثاً وَكُنَّا بِغِبْطَة ... بِذَلِك عَضَّتْنَا السُّنُوْنُ الْغَوَابِرُ
فَسَحَّتْ دموعُ الْعَيْن تَبْكي لِبَلْدَة ... بِهَا حَرَمٌ أَمْنٌ وَفِيْهَا الْمَشَاعِرُ
فَبَطْنُ مِنَى أَمْسَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ ... مُضَاضٌ ومَنْ حَيَّيْ عَدِي عَمَائِرُ
فَهَلْ فَرَجٌ آت بِشَيْءٍ أُحِبُّهُ؟ ... وهَلْ جَزَعٌ يُنجِيكَ عَمَّا تُحَاذرُ؟

وقال أيضاً:

كُنَّا أُنَاساً كَمَا كنتم فَغَيَّرَنَا ... دَهْرٌ فأَنْتم كَمَا كُنَّا تَكُوْنُوْنَا
حُثُّوا الْمَطِيَّ وأَرْخُوا مِنْ أَزِمَّتِهَا ... قَبْلَ الْمَمَاتِ وقَضُّوا ما تُقَضُّوْنَا
يَا أَيُّهَا النَّاسُ سِيْرُوْا إِنَّ قَصْرَكُمُ ... أَنْ تُصْبِحُوا ذَاتَ يَوْم لاَ تَسِيْرُوْنَا

يقول: بادروا واعملوا لأُخراكم، وأَحْكِمُوا أُمُورَ دينكم، فإِنكم تَمُوتون كما متْنَا.

قَدْ مَالَ دَهْرٌ علَيْنا ثُمَّ أَهْلَكَنَا ... بالْبَغْي فِيْهِ فَقَدْ صِرْنَا أَفَانِيْنَا
كُنَّا زَمَاناً مُلُوْكَ النَّاس قَبْلَكُمُ ... وفِي بلاد حرام كَانَ مَسْكُوْنَا

فغيَّر عمرو بن لُحَيٍّ دينَ إبراهيم وبَدَّلَه، وحَثَّ العربَ على عبادة التماثيل، ففي هذا يقول رجلٌ من جُرْهم كان على الْحَنِيْفِيَّة:

يَا عَمْرُو لا تظْلِمْ بِمكَّـ ... ـة إِنَّهَا بَلَدٌ حَرَامُ
سائِلْ بعَادٍ أَيْن هُمْ ... وكذاك تُخْتَرَمُ الأَنَامُ
وبَنُو الْعَمَالِيْق الذيـ ... ـن لَهُمْ بِهَا كَانَ السَّنَامُ

وعُمِّرَ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ ثلاث مئة سنة وخمسة وأَربعين سنة، وكان لعمرو من الولد وولد الولد أَلْفٌ.

ثم ولي البيتَ غبشان من خزاعة دون بني بكر بن عبد مناة، وكان الذي وليه عمرو بن الحارث الغبشاني، وقريش إِذ ذاك حلول وصرْمٌ وبيوت متفرقة في قومهم من بني كنانة، واستمرت ولاية خزاعة للبيت كابراً عن كابر، حتى كان آخرهم حُلَيْل بن حبشية بن كعب بن عمرو الخزاعي وكانت ابنته زوجة قصي وسيأتي ذكر ذلك قريباً.

وقد ذكر الفاسي في كتابه «العقد الثمين، في أَخبار البلد الأَمين» أَخبار بني المحض بن جندل، ملوك مكة ونسبهم، وذكر شيئاً من أَخبار العماليق ملوك مكة ونسبهم، وذكر ولاية طَسْم للبيت الحرام، وخَبَر جُرْهُمَ ولاة مكة ونسبهم، ومدة ملكهم فيها، وولاية إِياد بن نزار بن معدّ بن عدنان للكعبة، وولاية بني إِياد بن نزار، وولاية خزَاعَةَ لمكة المشرفة ومدة ملكهم فيها[1]، وبسط القول في ذلك يطول.

---

(١) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ١٣١ ـ ١٣٢].

فلنذكر شيئاً من فضل العرب:

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الحوائجَ فاسألوها العرب، فإنها تُعْطِي لثلاث خصال: كَرَم أَحْسَابها، واسْتِحْياء بعْضِها من بعض، والمواساة للّه»، ثم قال: «مَنْ أبغض العرب فقد أبغضني، ومَن أبغضني أبغضه الله»[١] وروى الطبراني في حديث عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله اختار خلقه، فاختار منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب، ثم اختار العربَ فاختار منهم قُرَيْشاً، ثم اختار قريشاً فاختار منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم، فلم أَزَلْ خِياراً من خيار»[٢].

قَــرَيْــشُ خِــيَــارُ بَــنــي آدم وخَــيْــرُ قُــرَيْــشٍ بَــنُــو هَــاشِــم
وخَــيْــرُ بَــنــي هَــاشِــم أَحْــمَــدٌ رَسُــولُ الإلْــهِ إلَــى الْــعَــالَــمِ

ولَوْ لَمْ يكنْ من شرفهم إلاَّ كون رسول الله ﷺ خاتم النبيِّين، وسيِّد المرسَلين، من خيارهم، وأنزل عليه القرآن بلُغَتِهِمْ لكفَى ذلك شرفاً وفخْراً، قال ﷺ: «أنا أَفصح مَن نطق بالضَّاد، بَيْد أَنّي مِنْ قريش»[٣].

وقد رُويَ أَنَّ كلام أَهل الجنة في الجنة عربي، وذلك من أَدَلِّ الدليل على شرفه وفضله، لكونه لسان أَهل دار النعيم، قد خَصَّهم الله عزَّ وجلَّ به.

وعن ابن جُريج عن عطاءٍ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أَحِبُّوا العربَ لثلاث: لأَني عربيٌّ، والقرآن عربيٌّ، وكلام أَهل الجنة في الجنة عربيٌّ»[٤].

وقال ابن الكلبيِّ رحمة الله عليه: في العرب عشر خصال لم تكن في أُمَّة من الأُمم، خمس منها في الرأس، وخمس في الجسد، فأَما التي في الرأْس فَالْفَرْق والسّوَاك والمَضْمَضَةَ والاسْتِنْشاق وقَصُّ الشارب، وأَما التي في الجسد فتقليمُ الأَظْفَار ونَتْفُ الأَبطِ، وحَلْقُ العانة، والختان والاسْتِنْجَاءُ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) المنهل الصافي [١٣] الشفا [١/ ١٨٢].

(٣) قال الحافظ العجلوني: قال في اللآلىء: معناه صحيح، ولكن لا أصل له. وانظر: كشف الخفاء [١/ ٢٣٢].

(٤) عزاه الحافظ العجلوني للطبراني، والحاكم، والبيهقي وآخرون. عن ابن عباس بسندٍ فيه ضعيف جدًا، وعزاه للطبراني. عن أبي هريرة مرفوعاً قال: وهو مع ضعفه أقوى من حديث ابن عباس، وعزاه لأبي الشيخ بسندٍ ضعيف عن أبي هريرة مرفوعاً. وعزاه للدارقطني عن ابن عمر بلفظ: «حب العرب إيمان وبغضهم نفاق». وانظر: كشف الخفاء [١/ ٥٥ ـ ٥٦].

وذكر صاحب «نزهة العيون» أنَّ الذي امتازت به العرب على مَن عداها من الأمم: بديع الشعر، وبلاغة المنطق وتشقيق اللفظ، وصدق الحِس، وصواب الحدْس، وحفظ النسب، ومعرفة الأنواء، والاهتداء بالنجوم، والزَّجْر، والقيافة، ويبلغون بهما ما لا يبلغ الْمُنَجِّمُ والحاذق في صناعة التنجيم.

وعن شبيب بن شيبة، قال: كنا وقوفاً بالمِرْبَدِ، وكان الْمِرْبَدُ مَأْلَفَ الأَشْرافِ، إذْ أَقبل علينا ابنُ الْمُقَفَّع، فبششنا به وناديناه بالسلام، فردَّ علينا وقال: لو ملتم إلى داود بن برثن، وهو اسم رجل، والْبُرْثُن المِخْلَبُ، وأنشد:

أَبُو مَالِك جارٌ لَهَا وابْنُ بُرْثُن ... فَيَا لَكَ جَارَيْ ذِلَّة وَصَغَارِ

وظِلُّهَا الظليل، وسورها المديد، ونَسِيْمُها العجيب، لَوَدَعْتُم أبدانكم بمَهْيَد الأَرض، وأَرَحْتُم دوابَّكُم من جُهْد الثقل، فإنَّ الذي تطلبون لن تعانوه (؟) ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه. فَقِلْنَا وملنا، فلما استقر بنا المكان قال لنا: أَيُّ الأُمم أَعقل؟ فنظر بَعْضُنا إلى بعض فقلنا: لعله أراد أَصْلَهُ من فارس، فقال: ليسوا بذاك، إنهم ملكوا كثيراً من الأَرض، وحَووا كثيراً من الملك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عِقْدُ الأَمر، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم من نفوسهم. قلنا: فالروم. قال: أَصحابُ صَنْعة. قلنا: فالصِّيْن. قال: أَصحاب طُرْفَة. قلنا: فالهندُ. قال: أَصحاب فَلْسَفَة، قلنا: السودانَ، قال: شَرُّ خلق الله. قلنا: التُّرْكُ، قال: كلابٌ مُخْتلسة، قلنا: الخزر، قال: بَقَرٌ سائمة، قلنا: فقل، قال: العرب، قال: فضحكنا، قال: إنّي ما أَردتُ موافقتكم، ولكني إذْ فاتني حظِّي من النِّسْبَةِ لمْ يَفُتْنِي حَظِّي من المعرفة، إن العرب حكمت على غير مثال مثلَ لها، ولا آثارِ أُثرت، أَصحاب إبل وغنم، وسكّان شَعَرٍ وأَدَم، يجود أَحدهم بقوته، ويتفضّل بمجهوده، ويشارك في مَيْسوره ومعسوره، ويَصِفُ الشيْءَ بقوله فيكون قدوة، ويفعله ويصير حجة، ويُحَسِّنَ ما شاء فَيَحْسُن، ويُقَبِّحُ ما شاءَ فيقبُح. أَدَّبَتْهُم أنفسهم، ورفعتهم هِمَّتُهُم، وأَعلتهم قلوبُهم وأَلسنتُهُم، فلم يزلْ حِمى الله فيهم، وحَيَاؤُهُم في أَنفسهم حتى رفع الله لهم أَكرم الفخر، وبلغ بهم أَشرف الذخر، وختم لهم بهم كلهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافته فيهم إلى الحشر، على الخير فيهم ولهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] فمَن دفع حقَّهم خَسِر، ومَن أَنكر فضلهم خصِم.

فالعرب أَجلُّ الناس قَدْراً، وأَعلاهم ذكراً، وعنهم أُخِذَت كلُّ فضيلة، لا سيما الفصاحة والسماحة، والصباحة والشجاعة والبراعة.

والعرب فرقتان: بائدةٌ كانتَ أُمَماً ضخمة كعاد وثمود وطسم والعمالقة وجديس، وجُرْهُم، وردوا على إسماعيل عليه السلام وأقاموا بمكة عنده، وتزوج منهم وانقضت مدتهم بعد أن سلف لهم ملك جليل مذكور وخبر مشهور.

والفرقة الثانية متفرقة من جديس وقحطان وعدنان ونظمها حالان: حال الجاهلية، وحال الإسلام، فحالتهم الأُولى مشهورة بالعز والمنعة، أما قحطان فكان ملكهم في سبع قبائل منها، وهي: حِمْيَرُ وهمدان، وكندة ولخم ودوس، وجفنة ومَذْحج، وكانت بنو الصوار من عبد شمس بن وائل بن الحارث بن همدان بن قحطان بن عريب بن زهير بن أيمن بن أبي الهمسيع بن حِمَيْر، وإفريقس باني إفريقية، وشمر بن عثمان باني سمرقند، وَتُبَّعٌ الأكبر، وتُبَّعٌ الأَقرون، وتُبَّعٌ الأوسط واسمه أَسعد، ويسمى أَبا كَرِب، وتُبَّعٌ الأَصغر وهو عمرو بن حسان بن أَبي كرب.

وكانت ديار قحطان، ومقر عزها من زمان يعرب بن قحطان إلى آخرها [ ][1]، وما اتصل بها من أَرض اليمن بالطوفان الصغير، وهو سيل العرم الذي ذكر الله به في سورة سبإٍ، وكانت حِمْيَرُ تعبد الشمس من دون الله تعالى، وذلك دليل قوله عن الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤] الآية. فلما تغلّب سليمان عليه السلام على مُلْك بلقيس، وملك غيرها رفضتْ حِميَرُ عبادةَ الشمس فتهوّدوا.

وقال محمد بن هشام الكلبيُّ: كانت حِمْيَرُ تعبد القمر، ولخم وجذام تعبد الْمُشْتري، وطيِّئٌ تعبد سُهَيْل، وقيس تعبد الشعرى، وثقيف وإِياد تعبد اللات، وكان لحنيفة صَنَمٌ من حَيْس فلحقتهم مجاعة في بعض السنين فأَكلوه.

وقال ابن قتيبة: كانت النصرانيةُ في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وكانت اليهوديةُ في حِمْيَرَ وبني كنانة، وكانت المجوسيَّةُ في تَميم منهم زُرَارَة وابنه حاجبٌ، والأَقرعُ بن حابس، وكان في زمن رسول الله ﷺ من المؤَلَّفة قلوبهم.

وأَما عدنانُ فمن ولد إسماعيل عليه السلام، الذين اختارهم الله تعالى من جميع الناس، واختار منهم كنانةَ، واختار من كنانة قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واصطفى من بني هاشم سَيِّدَ الخلق محمداً ﷺ.

وأَما علم العرب قبل الإِسلام فإِنها كانت تتفاخر بعلم لسانها، ولا سِيَّمَا الذين

---

(١) ما بين المعكوفين سقط من الأصل.

كانوا يدخلون البلاد للتجارات، وكانت تتفاخر بعلم لسانها، وإحكام لغتها، ونظم الأَشعار، وتأليف الخطب والأَخبار، ومعرفة السِّيَر والأَعصار، ولأَنَّهم أَصحاب حِفْظ ودراية لخفة الكلام عليهم، ورقّة أَلسنتهم، وكان لهم معرفةٌ بأَوقات طلوع النجوم وغروبها، وأَنواء الكواكب وأَقطارها، ومهب الرياح من جهاتها مما أَدركوه بفرط العناية، وطول التجربة لاحتياجهم لمعرفة ذلك في أَسباب المعيشة.

وجزيرة العرب أَربعة أَجزاء كبار، وهي: الحجاز ونجد وتهامة واليمن، ومسافة جزيرة العرب في الطول من عدن إلى أَطْراف الشام نحو من أَربعة وعشرين مرحلة، وفي العرض ما بين ساحل أَيْلَة والجار وجدة، وما بين العُذَيب وما اتصل به من ريف العراق بنحو من خمسة وعشرين مرحلة.

وجمع الله تعالى على نبيه محمد ﷺ مَنْ كان بجزيرة العرب من عدنان وقحطان، فآمنوا به، وانقادوا إليه ورفضوا جميعَ ما كانوا يدينون به من عبادة الأَوثان وتعظيم الكواكب، وصاروا باتِّباعه من المفلحين، وبلغ ملك أُمته ما وعدهم به ﷺ، فملكوا العراق وخراسان وغيرهما من بلاد الفرس والروم والشام، والقبط بمصر ونواحيها، وجعل الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ملك العرب في عدنان، ثم في قريش.

ولا بَأس بإيراد ما ذكره الإمام أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعوديُّ في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ملخصاً. قال: إنَّ الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأَرض كتب إلى بعض حكماء ذلك العصر: إنَّا ناسٌ عَرَبٌ، وقد فتح الله علينا البلاد، ونرِيْد أنْ نتبوّأ الأَرض، ونسكُنَ الأَمصارَ، فَصِفْ لي المدنَ وأَهْوِيَتَها ومساكنَها وما تُؤَثِّرُهُ الترْبُ والأَهوية في سكانها. فكتب إليه ذلك الحكيم: اعلم ـ يا أمير المؤمنين ـ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ قسم الأَرض أقساماً: شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، فما تناهَى في التشريق، ولحج في المطلع السانح منه النور، فهو مكروه لإحراقه واحتراقه، وناريته وحِدته، وإحراقه لمن حَلَّ فيه، وما تناهى مغرباً أيضاً أَضَرَّ بسكانه لموازنته أذية ما أوغل في التشريق، وهكذا ما تناهى في الشمال أضرّ ببرده وقَرِّهِ وثلوجه، وآفاتِه الأَجسام، وأورثها الأَسقام، وما اتصل بالجنوب نال من إحراق ناريته ما اتصل به من الحيوان، ولذلك صار المسكون من الأَرض جزءاً يسيراً ناسب الاعتدال، وأَخذ بحظه من حسن القسمة، وَسَأَصف لذلك يا أمير المؤمنين القطع المسكونة من الأَرض.

فأَما الشام فسحب ركام، وثج غمام وغدق رهام، ترطب الأَجسام، وتبلد الأَفهام، تصفي الأَلوان لا سيما أَرض حمص فإِنها تحسن الجسم، وتصفي لونه وتبلد الفهم وتمرج غوره، وتجفي الطبع، وتذهب بماء القريحة، وتنضب العقول، والشام يا أمير المؤمنين، وإِن كان على ما وصفت فمسرح خصب، ووابِل سكب، كثرت أَشجاره، واطردت أنهاره، وعمرت عشاره، وبه أُنزل الأَنبياء والقدس المجتبى، وبه حلّ أشراف خلق الله من الصالحين والمتعبدين، وجباله مساكن المجتهدين والمنفردين.

وأما أرض مصر فأَرض قوراء غوراء، ديار الفراعنة، ومنازل الجبابرة، تحمد بفضل نيلها، وذمها أكثر من حمدها، هواؤها راكد، وخيرها زائد، وشرها بائد، تكدر الأَلوان، وتخبث الفطن، وتذَكر الإِحَن، وهي معدن الذهب والجوهر والزمرد، ومغارس الغلات غير أنها تسمن الأَجسام وتسود الأَبشار، وتنمو فيها الأَعمار، وفي أهلها مكر ورياء، وخبث ودهاء، وخديعة إلاَّ أنها بلد مكسب ليست بلد مسكن، لترادف فتنها واتصال شرورها.

وأما اليمن فتضعف الأَجسام، وتهذِّب الأَحلام، وتذهب بالرطوبة، في أهلها همم كبار، ولهم أحساب وأخطار، ومغايضه خصبة، وأطرافه جدبة، في هوائه انقلاب، وفي سكانه اغتيال، ولهم قطعة من الحسن، وشعبة من الترفه وفقيرة من الفصاحة.

وأما الحجاز فحاجز بين الشام واليمن والتهائم، هواؤه حرور، وليله زهور، ينحف الأَجسام، ويجَفف الأَدمغة، ويشجع القلوب، ويسقط الهمم، ويبعث على الإِحن، وهو بلد محل قحط جدب ضنك.

وأما المغرب فيقسي القلب، ويوحش الطبع، ويطيش اللب، ويذهب بالرحمة، ويكسب الشجاعة، ويقشع الضراعة، وفي أهله غدر، ولهم خبث ومكر، وديارهم مختلفة وهِمَمُهم غير مؤتلفة.

وأما العراق فباب الشرق، وسُرَّةُ الأَرض وقلبها، إِليه تحادرت المياه، وبه اتصلت النضارة، وعنده وقف الاعتدال، فصفت أمزجة أهله، ولطفتْ أذهانهم، واحتدت خواطرهم، واتصلت مسرَّاتهم فظهر منهم الدهاء، وقويتْ عقولهم، وثبتت بصائرُهم، وقلب الأَرض العراق وهو المجتبى على قديم الزمان.

وأمَّا الجِبال فَتُخَشِّن الأَجسامَ وتغلظها، وتبلِّدُ الأَفهامَ وتقطعها، وتفسد

الأخلاق، وتميت الهمم، لمَا هي عليه من غلظ التربة، ومتانة الهواء وتكاثفه، واختلاف مهابه، وسوء متصرفاته، والأَخلاق والصُّوَر ـ يا أمير المؤمنين ـ تناسب البلدَ وتحاذيه، وتقاربه وتوازيه، وتوافقه وتضاهيه، فكل بلد اعتدل هواؤُهُ وخفَّ ماؤه، ولطف غذاؤه، كانت صُوَرُ أهله وأخلاقُهُمْ تناسب ما عليه أركانه، وما أُسِّسَ عليه بنيانه.

وأما أرض خراسان فتكبر الهام، وتُعَظِّم الأَجسام، وتلطِّف الأَحلام، ولأَهلها عقولٌ وهِمَم طامحة، وفيهم غوص وتفكير، ورأي وتدبير.

وأما بلد فارس فهو خصيب الفضاء رقيق الهواء، متراكم الماء، معتم بالأَشجار، كثير الثمار، وفي أهله شح ولهم خب، وغرائزهم سيئة، وهممهم دنيئة، وفيهم مكر وخداع.

وأما بلد خوزستان ـ وهي كور الأَهواز ـ فتفسد الأَحلام وتبلِّد الأَفهام وتخبث الهمم، وتستأْصل الكرم، وتساق أهله سوق الأنعام، والهمج الطغام.

وأما أرض الجزيرة فتناسب السير، والهواء اللطيف، وفيها خصب ومسرح، وفي أهلها شح، ولهم بأْس ومراس.

والبر ـ أفضل يا أمير المؤمنين ـ خير قطع الأَرض، وأسناها وأشرفها وأعلاها، نحو الأَنجاد والتهائم لحماية الهواء والأَقذاء عن سكانه، ودفعه الآفات عن قطَّانه، وسماحة المثوى وتهذيب الماء وصحة المتنسَّم، وارتفاع الأكدار وذهاب الأضداد.

وأما الهند والصين وأرض الروم فلا حاجة لي إلى وصفها لك، لأَنها شاسعة نائية، وبلدان كفرة طاغية.

وكل ما وصفته في هذه البلدان فهو الأَعم من أمور أهلها، والأَغلب من أحوالهم، فإنْ وجد فيها خلاف ذلك فهو النادر ـ يا أمير المؤمنين ـ والحكم في ذلك للأَغلب. انتهى ما ذكره المسعودي[1].

ولنذكر شيئاً من أخبار قريش في الجاهلية، وشيئاً من فضلهم، وما وُصِفوا به، وبيان نسبهم، وسبب تسميتهم بقريش، وابتداء ولايتهم للكعبة، وأمر مكة زادها الله شرفاً وتعظيماً.

أما فضلهم فمنه قول النبي ﷺ: «إنَّ الله اصطفى كِنَانةَ من ولد إسماعيل، واصطفى

(١) انظر: مروج الذهب [١/ ٢٧١].

قريشاً من كنانة» الحديث، وهو في مسلم من رواية واثلة بن الأَسقع عنه[1] وقوله ﷺ: «إنَّ هذا الأَمر في قريش فلا يُقَاوِمُهُم أحَدٌ إلاَّ كبَّه الله تعالى على وجهه، ما أقاموا الدين»[2] فنسبهم أعظم الأَنساب، وحسبُهم أعظم الأَحساب، وهم أطيب مختبراً، وأكرم محتضراً، وأعذب معتصراً، منهم النبوَّةُ والخلافة، ولهم الكعبة والسِّدانة، وزمزم والسقاية، واللواء والرفادة، والشورى والندوة، والسبق بالإيمان، والهجرة، وفتوح مكة والآفاق، وتفرقة الأَرزاق، وبهم مُصِّرتِ الأَمصار في سائر الأَقطار، ومنهم أول من تنشقُّ عنه الأَرض، صاحب الحوض، الشافع المشفَّعُ يوم العرض، وأول مَن يدخل الجنة حَتْماً، وأكرم الناس أباً وأُمّاً، وسيد ولد آدم، ﷺ مَن أعزهم أعزُّوه، ومَن قصد ذلَّهم أذلُّوه، وأقرب الناس من رسول الله ﷺ نسباً، ومن بيت الله بيتاً وطنباً، وأمنعهم بحمى الله عزَّ وجلَّ حِمَى، وأمَسُّهُم بنبيه ﷺ رحِماً، كلام الله عليهم نزل، وهو رحيم بهم لَمْ يَزَلْ، قد عَمَّهم ببركة تأويله، وخَصَّهم بفصل تحريمه وتحليله، وصادفهم (؟) طراوة وحيه المنزل، وغمرهم غزير علمه المجمل والمفصَّل.

فَأَكْرِمْ بِفَرْعٍ هَؤُلاَءِ أُصُولُهُ وأَعْظِمْ بِبَيْتِ هَؤُلاَءِ قَوَاعِدُهْ

وقيل: إنَّما سُمِّيَتْ قريشٌ قُرَيْشاً باسم دابَّة في البحر، تسمَّى الْقِرْش، وقال السُّهَيْلي: هو تصغير القِرْش، وهو حوتٌ في البحر، يأْكل الحيتان، سُمِّيت به القبيلة[3]. وقيل في تسميتهم بذلك أقوال، أحدها: لِتَجَمُّعِهِمْ في الحرم، وقيل: لأَنهم كانوا يتقرشون البياعات فيشترونها[4]. أوْ لأَنَّ النضر بن كنانة اجتمع في قومه، فقيل: تَقَرَّش. أو لأَنه جاء إلى قومه فقالوا: كأنه جمل قريش، أي شديد[5].

وقيل: إنَّ المجَمِّعَ هو قُصَيٌّ فسمي به، والصحيح أنه النضر، وقريش أولاد النضر، ومَن كان من بني كنانة لم يلده النضر فليس بقرشي.

قال الثعلبي: سأَل معاوية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: لِمَ سُمِّيَتْ قريشُ

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل [٤/ ١٧٨٢] ح [١/ ٢٢٧٦]. والترمذي في المناقب [٥/ ٥٨٣] ح [٣٦٠٥ ـ ٣٦٠٦]. والإمام أحمد في مسنده [٤/ ١٣٣] ح [١٦٩٨٨].

(٢) أخرجه البخاري في المناقب [٦/ ٦١٦] ح [٣٥٠٠].

(٣) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ١٤٥].

(٤) انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ١٤٥].

(٥) وقيل: لتفتيشهم عن حاجة الناس، وسدهم لها. وقيل: بتجمعها من تفرقها. انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ١٤٥].

قريشاً؟ قال: لدابة في البحر يقال لها القرش، تأكل ولا تُؤكل، وتعلو ولا تُعْلى، قال: وهل تعرف العرب ذلك في أشعارهم؟ قال: نعم. قال شاعرهم: وقيل: إنه تبع وقيل المشمرخ.

وَقُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنِ الْبَحْـ ـرِ بِهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا
سُلِّطت بِالْعُلُوِّ في لُجَّةِ الْبَحْـ ـرِ عَلَى سَائِرِ الْبِحَارِ جُيُوشَا
تَأْكُلُ الغَثَّ والسَّمِينَ وَلاَ تَتْـ ـرُكُ فِيهِ لِذِي جَنَاحَيْنِ رِيشَا
هٰكَذَا فِي الْكِتَابِ حيٌّ قُرَيْش يَأْكُلُونَ الْبِلاَدَ أَكْلاً كَشِيشَا
وَلَهُمْ آخِرِ الزَّمَانِ نَبِيٌّ يُكْثِر الْقَتْلَ فِيْهِم والْخُمُوشَا
تَمْلأُ الأَرْضَ خَيْلُهُ وَرِجَالٌ يَحْشُرُوْنَ المطيَّ حَشْراً كَمِيْشَا

وكانت الصحابة رضي الله عنهم يحضرون ابن عباس رضي الله عنه مجلس الاجتهاد، لأَن طريق الفقه فيهم خطاب الله، وخطاب رسوله، وأفعاله، وقد كانوا عارفين بذلك، لأَن القرآن نزل بلغتهم، وعلى أسباب عرفوها، وعلى قصص كانوا فيها، فعرفوا مسطورهُ ومنشوره، ومنظومه ومنقوله، ولهذا قال أبو عبيدة في كتاب «المجاز»: لم يُنْقَلْ أنَّ أحداً من الصحابة رضي الله عنهم رجع في معرفة شيء من القرآن إلى رسول الله ﷺ، وخطاب رسول الله ﷺ أيضاً بلغتهم، يعرفون معْناه، ويفهمون منظومه، وأفعاله هي التي نقلها من العبادات والمعاملات أصحابه رضي الله عنهم وكانوا يقولون لبعضهم: تكلم فإِنْ أحسنت أفدت، وإِن أَخْطأت استفدت.

وروي أن في الجنة منزلة لا يسكنها إِلاّ أهل مكة، وكانوا فيما مضى يلقون أهل مكة، فيقولون لهم: يا أهل الله. قاله ابن مليكة: وروي أن رسول الله ﷺ لما استعمل عتَّاب بن أسيد على أهل مكة قال له: «يا عتاب أتدري على مَن استعملتك؟ استعملتك على أهل الله فاستوصِ بهم خيراً» يقولها ثلاثاً عليه صلاة الله.

وعن أبي هريرة صاحب رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قريش والأَنصار وجهينة ومزينة وأَسلم وغفار، من آل الله ورسوله»[1] وعن سليمان بن خَيْثمة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تعلِّموا قريشاً وتعلَّموا منها، ولا تتقدموا قريشاً ولا تتأَخروا عنها، وإِن للقرشي مثل قوة الرجلين من الناس»[2] يعني في الرأي

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب [٦/ ٦١٧] ح [٣٥٠٤]. ومسلم في فضائل الصحابة [٤/ ١٩٥٤] ح [١٨٩/ ٢٥٤٠].

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى في الصلاة [٣/ ١٧٢] ح [٥٢٩٧] وقال: هذا مرسل، وروي موصولاً وليس بالقوي.

النافذ، والشدة والبأس، وعن زيد بن أسلم رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «صلب الناس قريش. وهل يمشي الرجلُ بغير صلب»[١]؟

وعن الأحنف بن قيس قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول كثيراً: «قريش رؤُوس الناس، لا يدخلون باباً إلاَّ فتح الله عليهم منه خيراً»:

قُـرَيْـشُ خِـيَـارُ بَـنِـي آدَمٍ ... وَخَـيْـرُ قُـرَيْـشٍ بَـنُـو هَـاشِـمِ
وَخَـيْـرُ بَـنِـي هـاشِـم أَحْـمَـدٌ ... رَسُـولُ ٱلإِلٰـه إِلَـى الْـعَـالَـمِ

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا قريشاً فإِنَّ عالمها يملأُ الأَرض علماً، اللهم إِنك أذقت أولها عذاباً ووبالاً فَأَذِقْ آخرها نوالاً»[٢].

مِـنَ الْـبِـيْـضِ الْـوُجُـوْهِ بَـنِـي قُـرَيْـش ... لَـوْ أَنَّـك تَـسْـتَـضِـيْءُ بِـهِـمْ أَضَـاؤوا
لَـهُـمْ ضَـوْءُ الـنَّـهَـارِ إذ اسْـتَـقَـلَّـتْ ... وَنُـوْرٌ لاَ يُـغَـطِّـيْـهِ الْـعَـمَـاءُ
هـم حَـلُّـوا مِـنَ الـشَّـرَف الْـمُـعَـلَّـى ... وَمِـنْ حَـسَـبِ الْـعَـشِـيْـرَةِ حَـيْـثُ شَـاؤُوا
فـلـو أَنَّ الـسَّـمَـاءَ دَنَـتْ لِـمَـجْـد ... وَمَـكْـرُمَـة دَنَـتْ لَـهُـمُ الـسَّـمَـاءُ

وقال رسول الله ﷺ: «مَن أهان قريشاً أهانه الله»[٣] وفي الصحيح في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أي إلاَّ أن تَصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. قال ابن عباس رضي الله عنهما لم يكن بطن من قريش إلاَّ كان له فيهم قرابة. وقد أعطى رسول الله ﷺ الإِمرة لأَهْلِها فقال: «الناس تبع لقريش في هذا الأَمر خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإِسلام إذا فقهوا، والله لولا أن تبطر قريش لأَعلمتها بأَخبارها عند الله ـ أو قال ـ بما لها عند الله»[٤] وحديث معاوية رضي الله عنه مرفوعاً: «إِنَّ هذا الأَمر في قريش، لا يعارضهم أحدٌ إلاَّ أكَبَّهُ الله على وجهه ما أقاموا الدين» أخرجه البخاري[٥]، وفي حديث عن ابن عباس رضي الله عنه: «قريش أهل الله فإِذا خالفتها قبيلةٌ من العرب

(١) عبد الرزاق في مصنفه [١٩٨٩٦].
(٢) عزاه الحافظ العجلوني للطيالسي في مسنده وقال: في سنده الجارود مجهول. انظر: كشف الخفاء [٢/ ٦٨].
(٣) أخرجه الترمذي في المناقب [٥/ ٧١٤] ح [٣٩٠٥] وقال: حديث غريب. والإمام أحمد في مسنده [١/ ٨٠] ح [٤٦٢].
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٤/ ١٢٥] ح [١٦٩٣١].
(٥) في كتاب المناقب [٦/ ٦١٦] ح [٣٥٠٠].

صاروا حزب إبليس» أخرجه الطبراني[١]، وفي «أسباب النزول» للواحديّ عن أم هانىء بنت أبي طالب قالت: قال النبي ﷺ: «إن الله فضّل قريشاً بسبع خصال لم يُعْطَهَا أحدٌ قبلهم، ولا يُعْطِهَا أحدٌ بعدهم: أن الخلافة فيهم، والحجابة فيهم، وأن السقاية فيهم، وأن النبوة فيهم، ونُصِروا على الفيل، وعبدوا الله سبع سنين لم يعبده أحد غيرهم. ونزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ①﴾ الإيلافُ هو الحبل، وهو العهد، قال الشاعر:

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافُ

وحديث سهل مرفوعاً: «أَحِبُّوا قريشاً فإنَّ من أَحبّهم أحبّه الله»[٢] أخرجه ابن عرفة في «جُزْئِهِ». وكانت قريش تُعِزُّ الحليف، وتكرم المولى، وتكاد تلحقه بالصمم.

وبعضهم يعرف بقريش البطاح، وهم بنو كعب بن لُؤَيٍّ، وبعضهم يعرف بقريش الظواهر، وهم بنو محارب والحارث ابنَي فهر، وبنو عامر بن لُؤَيٍّ، والأَدرم بن غالب، وبقية قريش، إلاَّ أَنَّ الحارث بن فِهر دخل مكة فهي من البطاح، وبعضهم يُعْرف بقريش العاربة، وهم ولد سامة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، وبعضهم يعرف بقريش العائدة وهم بنو خزيمة بن لؤيٍّ بن غالب بن فهر.

واختلف في نسبهم فقيل: إنهم من ولد فِهْر بن مالكِ بن النَّضْر بن كنانة، ورجَّحه الزُّبير بن بكار وغيره. وقيل: إنَّهم من ولد النضر بن كنانة ورجَّحَهُ النوويُّ.

وابتداءُ ولاية قريش للكعبة المعظمة وأَمر مكة المشرفة:

فسببه قُصَيُّ بن كلاب بن مُرَّةَ بن لُؤَيِّ بن غالب، وذلك أَن الجليل ـ بالجيم المعجمة ـ ابن حبشية جعل ذلك لقصي عندما حضرته الوفاة، وكان قصيٌّ قد تزوج ابنته حُبَّى، وولد له منها عبد الدار وعبد مناف وعبد الْعُزَّى وعَبْدَ بني قصي، ولما مات جليل أَبتْ خزاعة أَن تدع قُصَيًّا وذاك، وأَخذوا المفتاح منه، فاستنصر قصيٌّ برجال من قريش وكنانة فأَجابوه، واستنصر أَيضاً بأَخيهِ لأُمِّه رزَاح بن ربيعة، فخرج إليه بإخوته ومَن معهم من قضاعة فقاتل بهم قُصَيٌّ خزاعة بعد انقضاء الحج، فبمقتضى ما حصل بمِنَى سُمِّيَ ذلك المكان الْمَفْجِر لما فجر فيه وسُفِكَ من الدماء بسبب الجراحات في الفريقين وكثرة الْقَتْلَى

---

(١) في الأوسط [٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦] ح [٧٤٣].

(٢) عزاه الحافظ الهيثمي للطبراني وقال: فيه عبد المهين بن عباس بن سهل وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد [١٠/ ٣٠].

فيهما، ثم تداعوا إلى الصلح، فحكَّمُوا يَعْمُر بن عوف بن كعب بن الليث بن بكر بن عبد مناةَ بن كنانة، وكان شريفاً، فحكم أن لا تَبَاعَة لأَحد على أَحد من دم، وحكم بحجابة الكعبة وولايةِ أمْر مكة لِقصَي دون خزاعة لما جعل له حليل، وأن لا تخْرجَ خزاعةُ من مساكنها من مكة، فسمي يَعْمُرُ يومئذ الشَّدَّاخَ، لأَنه لما حكم قال: أَلا إِنِّي قد شَدَخْتُ ما كان بينكم من دم تحت قَدَمَيَّ هاتَيْن.

وولي قصيُّ حِجابة البيت، وأَمْر مكة، وجمع قومه من قريش من منازلهم إِلى مكة، ليستعين بهم، ويملك على قومه، فملَّكوه.

وذكر الزُّبيرُ بن بَكَّارٍ خبراً يقتضي أَنَّ قصيَّ بن كلاب أولُ مَن ثرد الثريد، فأَطعم بمكة وسقى اللبن.

ومن خبر قصيِّ بن كلاب أَنه أَحدث وقود النار في المزدلفة ليراها مَن دفع من عرفة، وأَنه اتخذ لنفسه دارَ الندوة، وجعل بابها إِلى مسجد الكعبة، وفيها كانت تقضي قريش أُمورها. وأَنَّ أَمره في قومه كالدِّيْن المتبوع، لا يعمل بغيره في حياته ومن بعده، وأَنه مات بمكة فَدُفِن بالْحُجُون، فتدافن الناس بالحجون بعده، وأَنه أَول بَنِي كعب بن لُؤَي أَصاب مُلْكاً أَطاع له به قومه.

واختلف فيما صنعه قصيُّ فيما كان بيده من الأُمور المشار إِليها فقيل: إِنه جعل ذلك لابنه عبد الدار بن قُصَيٍّ ليلحقه في الشرف بأَخيه عبد مناف، ثم إِنَّ بني عبد مناف بن قصي عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفلاً أَجمعوا على أَن يأْخُذوا ذلك من أَيدي بني عبد الدار، لشرفهم وفضلهم في قومهم على بني عبد الدار، وكاد أَن يقع بين الفريقين قتال، ثم اصطلحوا على أَن يُعْطوا بَنِي عبد مناف الرِّفَادَةَ والسِّقَاية، وأَن تكون الْحِجابة واللِّوَاءُ والنَّدْوَة لبني عبد الدار، فولي السقاية والرفادة هاشمُ بن عبد مناف ليساره، واسمه عمرو، ويقال: ما سُمي هاشماً إِلاَّ لهشمه الْخُبْزَ بمكة لقومه، كما قال الشاعر:

عَمْرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيْدَ لِقَوْمِهِ   وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُوْن عِجاف

ويقال: إِنه أَول مَن أَطعم الثريد بمكة، وأَنه أَول مَنْ سَنَّ لقريش الرحْلَتَيْن رحْلَةِ الشتاءِ ورحلةِ الصيف، ومات بغزَّة من أرض الشام تاجراً، فولي السِّقايَةَ والرِّفادة بعده المطلبُ بنُ عبد مناف، وكان يُسَمَّى الْفَيْض، لسماحته وفضله، ومات برَدْمان فولي ذلك بعده عبدُ المطلب بن هاشم، والرِّفادةُ: الضِّيَافَةُ، وأَيام مِنَى كان الناس لا يجودون إِلاَّ بأَمره.

وكان في قريش أَجواد: منهم المعروفون بأَزْوَادِ الرَّكْب، لكفايتِهم مَن معهم

الْمَئُوْنَةَ في السفر، منهم الأَسود بن المطلب بن أَسد، وعبد الْعُزَّى وَأَخوه زَمَعَةُ بن المطلب، ومسافِرُ بن عمرو بن أُمَيَّةِ بن عبد شمس، وأَبو أُمية بن المغيرة المخزومي.

وحُكَّام قريش بمكة في الجاهلية منهم عبد المطلب بن هاشم، وابناه الزبير وأبو طالب، ولم يكن لأحد منهم تَمَلُّكٌ على بقية قريش، وإنما ذلك بتراضيهم عليه، حسماً لمادة الشر.

وكان بمكة من الأَصنام في زمن الجاهلية على ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه ثلاث مئة وستون صَنَماً، منها الصنم المعروف بهُبَل، وكان من أَعظم أَصنام قريش، ومنها إِساف ونَائِلة، وهما رجل وامرأَة من جُرْهُم مُسخا حَجَرَيْن، لأَنَّ الرجل فجر بالمرأَة في الكعبة ـ كما تقدّم ذكره ـ وقيل: بل قَبَّلَها، ثم كسرهما النبي ﷺ يوم فتح مكة، مع ما كسر من الأَصنام في هذا اليوم، ومنها الخلصة بأَسفل مكة، ونهيك، ويقال له مجاور الريح على الصَّفا، ومُطْعِمُ الطير على الْمَرْوَةِ. وكان الذي نَصَبَ هذه الأَصنام الثلاثة عَمْرُو بن لُحَي[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاث مئة وستون صَنَماً، منها ما قَدْ شُدَّ بالرصاص، وطاف عليه الصلاة والسلام على راحلته وهو قول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] ويشير إِليها، فما من صنم أَشار إِلى وجهه إِلاَّ وقع على دُبُرِه، ولا أَشارَ إِلى دُبُرِهِ إِلاَّ وقع على وجهه حتى وقعت كلها، هذا نص حديثه في تاريخ الأَزرقي[٢]. وفيه عن ابن إِسحاق: لَمَّا صلّى النبيُّ ﷺ الظهر يوم الفتح أَمر بالأَصنام التي حول الكعبة جميعها فجمعت وحُرِّقت[٣].

فائدة: ذكر الشُّمُنِّيُّ في حاشيته على «الشفاء» عند قوله: ﴿وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] أَنه كان لآدم بنون خمسة، يسمون نَسْراً ووَدًّا وسُواعاً ويَغُوْث ويَعُوق، وكانوا عُبَّاداً فماتوا، فحزنَ أَهلُ عصرهم عليهم، فصور لهم إِبليس اللعين أَمثالَهم من صُفْرٍ ونحاس، ليستأنسوا بهم فجعلوها في مُؤَخَّر المسجد، فلما هلك أَهل ذلك العصر قال اللعين لأَولادهم: هذه آله آبائكم، فعبدوهم. ثم إِنَّ الطوفان دفنها فأَخرجها إِبليس اللعين للعرب، وكانت وَدُّ لكلبٍ بدُوْمَةِ الْجَنْدَل، وسواعُ لهذيل بساحل البحر، ويغوثُ لغطيف من مُراد، ويعوق لهمدان، ونسْرٌ لذي الْكلاع من حِمْيَرَ.

---

(١) انظر: أخبار مكة للأزرقي [١/ ١٢٤ـ١٣٠].

(٢) انظر: تاريخ الأزرقي [١/ ١٢٠ ـ ١٢١].

(٣) تاريخ الأزرقي [١/ ١٢١].

فائدة: قال الْمُبَرِّدُ: بيوت العرب ستة: قُبَّةٌ من أَدَم، وظُلَّةٌ من شَعْرٍ، وخِبَاءٌ من صوف، وبجادٌ من وَبَرٍ، وخَيْمَةٌ من شجر، وقُنَّةٌ من حَجرٍ.

قال الماورديُّ: لم تكن مكةُ ذاتَ منازل، وكانت جُرْهُمُ بعد العمالقة ينتجعون جبالَها وأوديتها، ولا يخرجون عن حَرَمِها انتساباً إلى الكعبة لاستيلائهم عليها وتخْصِيْصهم بالحرم، ويرون أنه سيكون لهم بذلك شأنٌ، وكلما كثر فيهم العدد، ونشأتْ فيهم الرئاسة قوي أَملهم، وعلموا أَنهم سيقدَّمُون على العرب، وكان فضلاؤهم يتخيلون أَن ذلك هو الرياسة في الدِّين قياساً للنبوة ستكون فأَول من أُلهِمَ منهم كعبُ بن لُؤَيّ بن غالب، وكانت قريش تجتمع إليه في كل جمعة، وكان يخطبهم فيه، ويذكرهم أَمر نبينا محمد عليه أَفضل الصلاة والسلام.

ثم انتقلت الرئاسة إلى قُصَيّ بن كلاب، فبنى دارَ الندوة بمكة، ليحكم فيها بين قريش، ثم صارتْ لِتشاورهم وعَقْدِ أَلْوِيَتِهِمْ في الحروب. قال الكلبيُّ: وكانت أَوَّلَ دارٍ بُنِيَت بمكة ثم تتابع الناس فبنوا الدور، وكلما قربوا من الإسلام ازدادوا قوة وكثرة عدد، حتى دانت لهم العرب.

ذكر أسواق مكة في الجاهلية

قال العلامة الفاسي: فمن أَسواق مكة في الجاهلية:

عكاظ: كانوا يصبحون به يوم هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مَجَنَّةَ بعد مضي عشرين يوماً من ذي القعدة، فإذا رأَوا هلال ذي الحجة ذهبوا من مجنَّة إلى ذِي الْمَجَاز، فلبثوا به ثمان ليال، ثم يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ولاَ أيام مِنَى، فلما جاءَ الله بالإسلام أجاز الله عزَّ وجلَّ ذلك لهم لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] يعني مِنَى وعرفة وعكاظ ومجنة وذي المجاز، فهذه مواسم الحج، وكانت هذه الأَسواق بعكاظ ومجنَّة وذي المجاز قائمة في الإسلام، حتى كان حديثاً من الدهر، فَأَمَّا عكاظ فتُرِكتْ عامَ الْحَرُوْرِيّ بمكة مع أَبي حمزة المختار بن عوف الأَزديّ الإِبَاضِي في سنة تسع وعشرين ومئة وخاف الناس أَن يُنْتَهَبُوا، وخافوا الفتنة فتركت حتى الآن. ثم تُرِكَتْ مَجَنَّةُ وذو المجاز بعد ذلك، واستغنوا بالأَسواق بمكة ومِنى وعرفة[١].

---

(١) انظر: شفاء الغرام [٢/ ٢٨٢].

قال الأَزرقيُّ: وعكاظُ وراء قَرْن المنازل بمَرْحَلة، على طريق صنعاءَ في عمل الطائف على بريد منها، وهي سوق لقيس عيلان وثقيف وأَرضها لِنصْر.

ومَجَنَّة سوق بأسفل مكة على بريدين منها، وهي سوق لكنانة، وأَرضها من أَرض كنانة، وهي التي يقول فيها بلاَلُ رضي الله عنه:

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِيْ هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً ... بِوادٍ وحَوْلِيْ إِذْخِرٌ وَجَلِيْلُ
وَهَلْ أَردَنْ يَوْماً مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وهَلْ يَبْدُوَنْ لي شَامَةٌ وطَفِيْلُ

وشامة وطَفِيل جبلان مشرفان على مجنة وذُو الْمجَازِ: سوق لِهذَيْل عن يمين الموقف من عرفة، قريب من كبكب، على فرسخ من عرفة[1].

قال العلامة الفاسيُّ المؤرخ: وخالف الأَزرقيَّ فيما ذكره في مجنَّة وشامة الفاكهيُّ عن ابن إِسحاق فإِنه قال: وكانت مجنة بَمَرِّ الظَّهْران، إِلى جبل يقال له الأَصْفر، ومَرُّ الظهران لا يقال له أَسفل مكة[2].

والقاضي عياض قال في «المشارق»: وطَفِيلُ وشامةُ جبلان على نحو من ثلاثين ميلاً، وكلام الأَزرقيّ يقتضي أَنَّ مَجَنَّةَ على بريدين من مكة فيكون الجبلان كذلك من مكة، ومَجَنةُ بفتح الجيم وكَسْرها والفتح أَكثر.

وفي هذا القدر كفاية، وبهذه الصبابة في هذا المحل غناية، وما أحسن ما قيل:

يَا جِيْرَتِي بَيْنَ الْحُجُوْن إِلى الصَّفَا ... شَوْقِي إِلَيْكم مُجمَل ومفصلُ
أَهْوى دِيَارَكُمْ وَلِي بِرُبُوْعِهَا ... وَجدٌ يُثَبِّطنِي وعَهد أَوَّلُ
ويَزِيْدَنِي فِيْهَا الْعَذُوْلُ صَبَابَةً ... فَيَظَلُّ يُغْرِيْنِي إِذَا مَا يَعْذِلُ
وَيَقُوْل لِيْ: لَوْ قَدْ تَبَدَّلْتَ الْهَوَى ... فَأَقُولُ: قَدْ عَزَّ الْغَدَاةَ تَبَدُّلُ
يا اللّهِ قُلْ لِي كَيْفَ تَحْسُنُ سَلْوَتِي ... عَنْهَا وحُسْنُ تَصَبُّرِيْ هَلْ يَجْمُلُ؟
هَلْ فِي الْبِلاَدِ مَحَلَّةٌ مَعْرُوْفَةٌ ... مِثْلُ الْمُعَرَّفِ أَوْ مَحَلٌّ يُحْلَلُ؟
أَمْ فِي الزَّمَانِ كَلَيْلَةِ النَّفْر الَّتِي ... فِيْهَا مِنَ اللّهِ الْعَوَارفُ تُجْزَلُ؟
أَمْ مِثْلُ أَيَّام تَقَضَّتْ فِي مِنًى ... عُمْرُ الزَّمَان بِهَا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

وللشيخ العلامة قطب الدين القِسْطِلاَّنِيُّ:

---

(١) انظر: أخبار مكة للأزرقي [١/ ١٩٠ ـ ١٩١] باب: حج أهل الجاهلية وإنساء الشهور.
(٢) انظر: شفاء الغرام [١/ ٢٨٣].

أَلاَ هَـلْ لِـظِـلٍ بـالأَرَاكِ مَـعَـادُ؟ وهَـلْ ذَلِـكَ الْـعَـيْـشُ الْـهَـنِـيُّ يُـعَـادُ؟
وهَـلْ زَائِـرُ الـزَّوْرَاءِ زَائِـرُ أَبْـطَـحٍ وخَـيْـفٍ مِـنـىً دارٌ تَـحُـلُّ سُـعَـادُ؟
وهَـلْ لِطُـوَى وَالْـمَـأْزِمَيْـن وَمَشْعَرٍ تَـدَانٍ؟ فَـقَـدْ أَضْـنَـى الْـفُـؤَادَ بُـعَـادُ؟
وَهَـلْ مُـذْنِـفٌ بَـاكٍ تَـكَـدَّرَ عَـيْـشُـهُ وَأَقْـلَـقَـهُ دَاعِـي الْـغَـرَام يُـعَـادُ؟
وَهَـلْ ذَلِـكَ الـسِّـرُّ الَّـذِيْ كَـانَ بَـيْـنَـنَـا وَمَـا فَـطِـنَ الْـوَاشِـيْ لِـذَاكَ يُـعَـادُ؟

وله أسبغ الله عليه ظلالَه:

أَرَاعَكَ وَشْكُ الْبَيْـنِ أَمْ أَنْتَ غَافِلُ؟ أَم الْقَلْبُ فِي إِثْرِ الظَّعائِنِ رَاحِلُ؟
لَـقَـدْ لَـجَّ هَـذَا الْـوَجْـدُ حَـتَّـى كَـأَنَّـهُ يُـحَـاوِلُ ثَـأْراً عِـنْـدَ مَـنْ هُـوَ قَـاتِـلُ
تَحَيَّرْتُ حَتَّى لَوْ سُئِلْتُ عَنِ الْهَوَى لِـفَـرْطِ الْـجَـوَى لَـمْ أَدْرِ مَـا أَنَـا قَـائِـلُ
أَأَحْبَابَنَا بِالْجِزْعِ مِنْ أَيْمَنِ الْحِمَى تَرَى هَلْ لِمَا أَرْوِي مِنَ الشَّوْقِ نَاقِلُ
تَـمَـنَّـعَ مَـنْ أَهْـوَى عَـلَـيَّ بِـوَصْـلِـهِ فَعِنْدِيْ مِنَ الْوَجْدِ الْمُبَرِّحِ شَاغِلُ
كَـتَـمْـتُ هَـوَاهُ بِـرْهَـةً فَـنَـمَـتْ بِـهِ دُمُـوعٌ عَـلَـى خَـدِّي هَـوَامٍ هَـوَامِـلُ
رَعَى اللّٰهُ هَاتِيْكَ الْمَعَاهِدَ كَمْ بِهَا عُـهُـوْدُ بِـقَـلْـبٍ أَحْـرَقَـتْـه الْـبَـلاَبِـلُ

وله بَلَّ الله ثراه، وأكرم نزله ومثواه:

أَلاَ هَـلْ عَـشِـيَّـاتُ الأَرَاكِ رَوَاجِـعُ؟ فَـنَـنْـعَـمُ عَـيْـنـاً، وَالْـعُـيُـوْنُ هَـوَاجِـعُ؟
ونـرفـل فـي ذيـل مـنَ الْـقُـرْبِ سابـل ويَـسْـكُـنُ صَـبٌّ جَـرَّحَـتْـهُ الْـقَـوَاطِـعُ
ويَـرْفَـعُ جَـزْمَ الْـهَـجْـرِ عَـنَّـا بِـوَصْـلِـهَـا عـوامـل، لَـمَّـا أَنْ عَـرَاهـا الـتَّـقَـاطُـعُ
غَـرِيْـبٌ لَـهُ مُـذْ بَـانَ بَـانُ بِـرَامَـةٍ فـؤادٌ مُـعَـنًّـى أَزْعَـجَـتْـهُ الْـمَـطَـامِـعُ
يبِيْتُ يُنَاجِي النَّجْمَ والطَّرْفُ ساهِرٌ بِجَنْبٍ قَرِيْحٍ قَدْ جَفَتْهُ الْمَضَاجِعُ
لَـهُ مُـذْ نَـأَى الأَحْـبَـابُ سَـفْـحُ مَـدَامِـعٍ وزفـرة مَـغْـمُـودٍ وَهَـلْ ذَاكَ نَـافِـعُ
تَـشَـاغَـلَ دَهْـراً بِـالْـحَـدِيْـثِ يَـظُـنُّـهُ يُـشَـتِّـتُ هَـمًّـا وَهْـوَ لِـلْـهَـمِّ جَـامِـعُ
وَلَـمْ يَـثْـنِـهِ قَـوْلُ الْـوُشَـاةِ بِـأَنَّـهُ وإِنْ ظُنَّ عاصٍ فَهْوَ بِالْقَطْعِ طائِعُ
تَـبَـدَّلَ مِـنْ مُـرِّ الـتَّـصَـابِـي حَـلاَوَةً فَـلَـذَّ لَـهُ مَـا طَـالَ فِـيْـهِ الـتَّـنَـازُعُ
دَعُوا الْعَتْبَ فِيْمَا قَدْ مَضَى وَتَصَدَّقُوا بِبَذْلِ الرِّضَا فَالْعُمْرُ لَوْلاَهُ ضَائِعُ
وَمَـن لِـيْ بِـوَصْـلٍ أَرْتَـجِـيْـهِ وإِنَّـنِـي بِـطَـيْـفِ خَـيَـالٍ فِـي الْـمَـنَـام لَـقَـانِـعُ
أَجِيْرُوا مِنَ الْجَوْرِ الْمُفَرِّقِ لِلْمُنَا بِـجَـمْـعٍ عَـلَـى مَـرِّ الـدُّهُـوْرِ يُـطَـاوِعُ

وللشيخ شرفِ الدين عمر بن الفارض قدّس الله روحه:

خَفِّفِ السَّيْرَ واتَّئِدْ يَا حَادِي — إِنَّمَا أَنْتَ سَائِقٌ بِفُؤَادِي
مَا تَرَى الْعِيْسَ بيْنَ سَوْقٍ وَشَوْقٍ — لِرَبِيْعِ الرُّبُوْعِ غَرْثَى صَوَادِي
لَمْ تُبَقِّ لَهَا الْمَهَامِهُ جِسْماً — غَيْرَ جِلْدٍ عَلَى عِظَامٍ بَوَادِي
وتحفَّتْ أَخْفافُهَا فَهْيَ تَمْشِي — مِنْ جَوَاهَا فِي مِثْلِ جَمْرِ الرَّمَادِ
وَبَرَاهَا النَّوَى فَحَلَّ بُرَاهَا — خَلِّهَا تَرْتَعِي ثُمَامَ السَّوادِ
شَفَّهَا الْوَجْدُ أَنْ عَدِمْتَ دَوَاهَا — فَاسْقِهَا الْوَجْدَ من جفَار الْمِهَادِ
واسْتَبِقْهَا واسْتَبْقِهَا فهْيَ مِمَّا — تَتَرَامَى بِهِ إِلَى خَيْرِ وادِي
عَمْرَكَ اللّهُ إِنْ مَرَرْتَ بِوَادِي — يَنْبُعٍ فَالدَّهْمَا فَبَدْرٍ غَادِي
وَسَلَكْتَ النَّقَا فَأَرْدَانَ وَدًّا — نَ، إِلَى رَابِغِ الرَّوِيِّ الثِّمَادِ
وَقَطَعْتَ الْحِرَارَ عَمْداً لِخَيْمَا — تِ قُدَيْدٍ، مَوَاطِنِ الأَمْجَادِ
وتَدَانَيْتَ مِنْ خُلَيْصٍ فَعُسْفَا — نَ فَمَرِّ الظَّهْرَانِ مَلْقَى الْوِهَادِ
وَوَرَدتَّ الْجَمُوْمَ فَالْقَصْرَ فَالدَّكْنَا — ءَ طُرًّا مَنَاهِلَ الرُّوَّادِ
وَأَتَيْتَ التَّنْعِيْمَ فَالزَّاهِرَ الزَّا — هِرَ نُوراً إِلَى ذُرَى الأَطْوَادِ
وَعَبَرْتَ الْحَجُوْنَ واجْتَزْتَ فَاخْتَرْ — تَ ازْدِيَاراً مَشَاهِدَ الأَوْتَادِ
وَبَلَغْتَ الْخِيَامَ فَأَبْلِغْ سَلاَمِي — عَنْ حِفَاظٍ عُرَيْبَ ذَاكَ النَّادِي
وَتَلَطَّفْ وَاذْكُرْ لَهُمْ بَعْضَ ما بي — مِنْ غَرَامٍ ما إِنْ لَهُ مِنْ نَفَادِ
يَا أَخِلاَّيَ هَلْ لِعَوْدِ التَّدَانِي — مِنْكُمُ بِالْحِمَى يَعُوْدُ رُقَادِي؟
مَا أَمَرَّ الْفِرَاقَ يَا جِيْرَةَ الْحَيِّ — وَأَحْلَى التَّلاَقَ بَعْدَ انْفِرَادِ
كَيْفَ يَلْتَذ بِالْحَيَاةِ مُعَنًّى — بَيْنَ أَحْشَائِهِ كَوَرْيِ الزِّنَادِ
عُمْرُهُ واضْطِبَارُهُ فِي انْتِقَاصٍ — وَجَوَاهُ وَوَجْدُهُ فِي ازْدِيَادِ
فِي قُرَى مِصْرَ جِسْمُهُ وَالأُصَيْحَـ — ـابُ شَآماً وَالْقَلْبُ فِي أَجْيَادِ
إِنْ تَعُدْ وَقْفَةٌ فُوَيْقَ الصُّخَـ — ـيراتِ رواحاً سَعِدتُّ بَعْدَ بُعَادِ
يَا رَعَى اللّهَ يَوْمَنَا بِالْمُصَلَّى — حَيْثُ نُدْعَى إِلَى سَبِيْلِ الرَّشَادِ
وقبابَ الركَابِ بَيْنَ الْعَلَيمَـ — ـيْنِ سِرَاعاً لِلْمَأْزِمَيْنِ غَوَادِي
وَسَقَى جَمْعَنَا بِجَمعٍ مُلِثٌّ — ولَوَيْلاتِ الْخَيْفِ صَوْبَ عِهَادِ
مَنْ تَمَنَّى مَالاً وَحُسْنَ نَوَالٍ — فَمُنَايَ مِنًى وَأَقْصَى مُرَادِي
يَا أُهَيْلَ الْحِجَازِ إِنْ حَكَمَ الدَّهْـ — ـرُ بِبَيْنٍ قَضَاهُ حَتْمٍ إِرادي (؟)

فَغَرَامي الْقَدِيْمُ فِيْكُمْ غَرَامي وَوِدَادِي كَمَا عَهِدتُّمْ وِدَادِي
قَدْ سَكَنْتُمْ مِنَ الْفُؤَادِ سُوَيْدَا هُ ومن مُقْلَتِي سَوَاءَ السَّوَادِ
يَا سَمِيْرِي روِّحْ بِمَكَّةَ رُوْحِي شَادِياً إنْ رَغِبْتَ في إسْعَادِي
فَذراها سِرِّي وطِيْبِي ثَرَاهَا وَسَبِيْلُ الْمَسِيلِ ورْدِي وَزَادِي
كَانَ فيها أُنْسِي ومِعْرَاجُ قُدْسِي ومَقَامي الْمَقَامُ والفتحُ بادِي
نَقَلَتْنِي عَنْهَا الْحُظُوظُ فَجُدَّتْ وارداتي وَلَمْ تَدُمْ أَوْرَادِي
آه لَوْ يَسْمَحُ الزَّمَانُ بِعَوْدٍ فَعَسَى أنْ تَعُوْدَ لِي أَعْيَادِي
قَسَماً بالْحَطِيْمِ والرُّكْنِ والأَسْتَارِ وَالْمَرْوَتَيْنِ مَسْعَى الْعِبَادِ
وظِلاَلِ الجنابِ والْحِجْرِ والْمِيزَابِ والْمُسْتَجَارِ لِلْقُصَّادِ
مَا شَمَمْتُ الْبَشَامَ إلاَّ وَأَهْدَى لِفُؤَادِيْ تَحِيَّةً مِنْ سُعَادِ

* * *

الفصل السابع

من الباب الأول

فيمن كان يلي الإجازة بالناس قبل النبوة في تلك المشاعر العظام والمواقف الكرام، ولنذكر ذلك باختصار فنقول:

قد قدّمنا طرفاً يسيراً من أخبار مَن كان بمكة، وذكر قريشٍ وما خُصَّتْ به من الشرف، وطرفاً مما كانت تعبد العرب في الجاهلية، وغير ذلك، فلنبدأ قبل الشروع في ذكر مَن كان يحج بالناس قبل النبوة بذكر طرف من ديانات العرب أيضاً وآرائها في الجاهلية، وقد قدّمنا منها مَن كان يعبد الشمس كَحِمْيَر، وكنانة تعبد القمر، ولخم، وجذام، وغيرهم كانوا يعبدون الكواكب، وكان لحنيفة صنم من حَيْس، فلحقهم مجاعة في بعض السنين فأكلوه، ومنهم مَن يُقِرُّ للّه بالوحدانية. قال أبو الحسن المسعودي في «مروج الذهب»: كانت العرب في جاهليتها فرقاً منهم الموحِّد المقر بخالقه، والمصدِّق بالبعث والنشور، والموقن بأن الله يثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ومنهم مَن دعا إلى الله تعالى، ونَبَّه على آياته في الفترة، كقسِّ بن ساعدة، ورباب الشيبي، وبَحِيرا الراهب، وكانا من عبد القيس، وكان من العرب مَن أَقَرَّ بالخالق، وأثبت حدوث العالم، وأيقن بالبعث والإعادة، وأنكر الرسل، وعكف على الأصنام عابداً لها، وهذا الصنف هم الذين

حجُّوا إلى الأصنام، وقصدوها ونحروا لها البدْن، ونسكوا لها النسائك، وأحلُّوا لها وحرَّموا، ومنهم مَن أقرَّ بالخالق، وكذب بالرسل والبعث، ومال إلى قول أهل الدهر، وهؤلاء هم الذين حكى الله تعالى إلحادهم، وصرح مخبراً بكفرهم، وكذبهم. فقال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] ومنهم مَن مال إلى اليهودية والنصرانية، ومنهم المارُّ على عنجهيته، الراكب لِهَمَجيته، وقد كان صنفٌ من العرب يعبدون الملائكة، ويزعمون أنها بنات الله عزَّ وجلَّ، وكانوا يعبدونها لتشفع إلى الله عزَّ وجلَّ الذين عنى الله عنهم بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢)﴾ [النجم: ١٩] الآية.

فَمِمَّن أقرَّ بالتوحيد مثبتاً للوعيد، تاركاً للتقليد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وقد كان حفر بئر زمزم، وكانت مطمورة، وذلك في ملك كسرى بن قباذ، فاستخرج منها غزالي الذَّهب عليهما الدر والجوهر، وغير ذلك من الحليّ، وسبعةَ أسياف قلعية، وخمسة أدرع سوابغ، فضرب من الأسياف باباً للكعبة، وجعل أحدَ الغزالتين الذهب صفائِحَ في الباب، وجعل الأُخرى في الكعبة، وكان عبدُ المطلب أولَ مَن أقام الرفادة والسقاية للحاج، وكان أولَ مَن سقى الماءَ بمكة عذباً، وجعل بابَ الكعبة ذهباً.

قلت: ومن أول دليل على إقراره بالتوحيد واقعته مع [والي][1] النجاشي، وقوله: سلني يا عبد المطلب فأبى أن يسأله إلاّ إبلاً له، فأمر بردِّها عليه. فقال له: ألا تسألني الرجوع؟ فقال: أنا رَبُّ هذه الإبل، وللبيت رب سيمنعه. وانصرف عبد المطلب إلى مكة، وهو يقول:

يا أهل مكة [قَدْ وَافَاكُمُ مَلِكٌ ... مَعَ الْفُيُول عَلى أَنْيَابِهَا الزَّرَدُ][2]
هٰذَا النَّجَاشِيُّ قَدْ سَارت كَتَائِبُهُ ... مِثْلَ اللُّيُوْثِ عَلَيْهَا الْبَيْضُ تَتَّقِد
يُرِيْدُ كَعْبَتَكُمْ واللّهُ غَالِبُهُ ... كَمَنْعِ تُبَّعَ لَمَّا جَاءَهَا حَرِد

وأمر قريشاً أن يلحقوا بقرون الجبال، وبطون الأودية من مَعَرَّةِ الحبشة، وقلد الإبل النعال، وخلاها في الحرم، ووقف بباب الكعبة وهو يقول:

---

(١) زيادة ليست في الأصل يستقيم بها المعنى، وهو: أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل النجاشي. انظر: العقد الثمين للفاسي [١/ ٧٢].

(٢) البيت من مروج الذهب.

يَـا رَبِّ لا أَرْجُـو لَـهُـمْ سِـوَاكـا ... يَـا رَبِّ فَـامْـنَـعْ مِـنْـهُـمُ حِـمَـاكـا
إِنَّ عَـدُوَّ الْـبَـيْـتِ مَـنْ عَـادَاكـا ... فَـامْـنَـعْـهُـمُ أَنْ يُـخْـرِبُـوا قِـرَاكـا

وقال:

يـا رب إِنَّ الـمـرءَ يَـمـ ... ـنعُ رَحْلَـهُ فَـامْـنَـعْ رِحَـالَـكْ
لا يَـغْـلِـبَـنَّ صَـلِـيْـبُـهُـم ... ومَـحَـالُـهُـمْ أبـداً مَـحَـالَـكَ
فـإن تـكـن أحـلـلـتـه ... فـهـو أمـر مـا بـدا لـك[1]

فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل كما هو مذكور في المطولات.

قال المسعودي: فمنهم من رأى أنَّ عبد المطلب كان مؤمناً موحداً، وأنه لم يشرك بالله، ولا أحد من آباء النبي ﷺ، وأنه نقل ﷺ في القنواتِ الطاهرات، وأنه أخبر عليه الصلاة والسلام أنه ولد من نكاح لا من سفاح، ومنهم مَنْ رأى أنْ عبد المطلب كان مشركاً وغيره من آباء النبي ﷺ إلاَّ مَن صحَّ إيمانه، وهذا موضع فيه تنازع بين الإمامية والمعتزلة والخوارج والمرجئة، وغيرهم من الفرق في النص والاختيار. . . وقد كان أكثر العرب ممن فنى ودثر يقر بالصانع، ويستدل على الخالق.

وكان للعرب آراء في الجاهلية، ومذاهب يتنازعون في كيفيتها، فمنهم من زعم أن النفس هي الدَّمُ، وأن الروح هي الهواء الذي في باطن جسم الإنسان الذي منه نفسه، ولذلك سموا المرأة نُفَسَاءَ، لما يخرج منها من الدم، وطائفة تزعم أنَّ النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان، فإذا هو مات، أو قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً له في صورة الطائر، ويصرخ على قبره، مستوحشاً له، ويسمون هذا الطائر الهام، الواحدة هامة، وجاء الإسلام وهم على ذلك حتى قال النبي ﷺ: «لا هام ولا صفر»[2].

---

(١) هكذا الأبيات في أخبار مكة للأزرقي:

يـا رب إن الـمـرء يـمـنـع ... رحـلـه فـامـنـع حـلالـك
لا يـغـلـبـن صـلـيـبـهـم ... ومـحـالـهـم عـدوا مـحـالـك
إن كـنـت تـاركـهـم وقـ ... ـبـلـتـنـا فـأمـر فـابـدا لـك
ولـئـن فـعـلـت فـإنـه ... أمـر يـتـم بـه فـعـالـك

انظر: أخبار مكة للأزرقي [١/١٤٥].

(٢) أخرجه البخاري في الطب [١٠/١٦٧] ح [٥٧٠٧]. ومسلم في السلام [٤/١٧٤٢ ـ ١٧٤٣] ح [١٠١/٢٢٢٠]. وانظر: مروج الذهب للمسعودي [١/٣٢٥].

والكلام في ذلك يطول إذ ليس هذا النمط من مرادنا هنا.

وقال المسعودي أيضاً: لما قُبض إِسماعيل بن إِبراهيم الخليل عليهما السلام قام بالبيت بعده نابت بن إِسماعيل، ثم قام من بعده ناس من جَرْهُمَ، لغلبة جُرْهُمَ على ولد إِسماعيل، وكان ملك جُرهمَ يومئذ الحارث بن مُضَاض، وهو أول مَن تولَّى البيت من جرهم، وكانت حروب إلى أن صارت ولاية البيت إلى العماليق، ثم كانت لجرهم عليهم فأقاموا ولاية البيت نحو ثلاث مئة سنة، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مُضَاض الأَصغر بن عمرو بن الحارث بن مضاض الأكبر، وبغت جرهم في الحرم وطغت، فبعث الله عليهم الرُّعَاف والنَّمل، وغير ذلك من الآفات، وهلك كثير منهم، وكثر ولد إسماعيل فغلبوا على أخوالهم من جرهم، فأخرجوهم عن مكة فأتاهم في بعض الليالي السيل، فذهب بهم.

ثم صارت ولاية البيت في ولد إِياد بن نزار. ثم كانت حروب كثيرة بين مضر وإِياد، فكانت لمضر على إِياد فانجفلوا عن مكة إلى العراق[١]. قال: ولما خرج عمرو بن عامر، وولده من مَأْرِبِ انخزع بنو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن لُحَي، واسم لُحَيٍّ حارثة بن عامر، فغيّر دين إبراهيم وبدَّلَهُ، وبعث العرب على عبادة التماثيل [حين خرج إلى الشام] ورأى قوماً يعبدون الأَصنام، فأعطوه منها صنماً، فنصبه على الكعبة، وقويت خزاعة، وعمّ الناس ظلم عمرو بن لُحَي، وأكثر مَن نصب الأَصنام حول الكعبة، وغلب على العرب عبادة ذلك، وانمحت الحنيفية فيهم إلاَّ لُمَعا. قال في ذلك سحنة بن خليفة[٢] الجرهمي.

يَا عَمْرُو إِنَّكَ قَدْ أَحْدَثْتَ آلِهَةً ... شَتَّى بمكَّة حَوْلَ الْبَيْتِ أَنْصَابَا

وكَانَ لِلْبَيْتِ رَبٌّ وَاحِدٌ أبدا ... فَقَدْ جَعَلْتَ لَهُ فِي النَّاسِ أَرْبَابَا

لَتَعْرِفَنَّ بأَنَّ اللَّهَ فِي مَهَلٍ ... سَيَصْطَفِيْ دُوْنَكُمْ لِلْبَيْتِ حُجَّابَا

وعمر عَمْرو بن لُحَيٍّ ثلاث مئة سنة وخمساً وأربعين سنة كما قدمنا ذكره قريباً، فكانت ولاية البيت في خزاعة، وفي مضر ثلاث خصال: الإِجازة بالناس من عرفة، ومن المزدلفة الإِفاضة بالناس غداة النَّحر إلى منى، ومن منى إلى مكة، فانتهى ذلك منهم إلى أبي سَيَّارة، فكان أبو سَيَّارة يدفع الناس من مزدلفة إلى منى أربعين سنة على

---

(١) انظر: مروج الذهب للمسعودي [١/ ٢٦٤].

(٢) وقع في مروج الذهب [١/٢٦٨]: [خلف].

حماره، ولم يعتلّ في ذلك حتى أدركه الإسلام، فكانت العرب تتمثل به فتقول: أَصَحُّ من عَيْر أَبي سَيَّارة.

وقال ابنُ إسحاق: وكان الْغَوثُ بن مُرَّة بن أُدِّ بن طابخة بن إلياس بن مضر يلي الإجازَة للناس بالحج من عرفة، وولده من بعده، وكان يقال له ولولده صُوفَة. وإنما ولي الغوثُ بن مرة لأَن أمه كانت من جُرْهُمَ فكانت لا تَلِد، فنذرتْ للّه تعالى إنْ ولدتْ رجلاً أن تتصدّق به على الكعبة عَبْداً لها يخدمها ويقوم عليها، فولدت الغوثَ، وكان يقوم على الكعبة مع أخواله من جُرْهُمَ في الدور الأَول، فولى الإجازة بالناس من عرفة لمكانه الذي كان به من الكعبة، وولده من بعده حتى انقرضوا، وزعموا أنّ الغوث كان إذا دفع بالناس قال:

لاَ هَـمَّ إِنِّـي تـابـعٌ تَـبـاعَـهْ ... إنْ كَـان إثْـمٌ فَـعَـلَـى قُـضَـاعَـهْ

قال ابن إسحاق: حدّثني يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال: كانت صوفة تدفع الناس من عرفة، وتجيز لهم إذا نفروا من منى، إذا كان يوم النحر أتوا لِرَمْي الجمار، ورجل من صوفة يرمي، والناس لا يرمون حتى يرمي، فكان ذوو الحاجات الذين يحبُّونَ التعجيل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له: قم وَيْلَكَ فَارْم، فيأبَى عليهم، حتى إذا زالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه.

قال ابنُ إسحاق: فإذا فرغوا من رَمْي الجمار فأَراد النَّفْرَ من مِنى أخذتْ صُوفةُ بجانبي العقبة، فَحُبِس الناس وقالوا: أَجيزوا بني صوفة فلم يَجُزْ أحد من الناس حتى ينفروا، فإذا نفرت صوفةُ ومضت خُلِّيَ سبيل الناس فانطلقوا بعدهم، فكانوا كذلك حتى انقرضوا، فورثهم من بعدهم بالْقُعْدُدِ بنو سَعْد بن زيد مناة بن تميم، وكان من بني سعد في آل صفوان بن الحارث بن شِجْنَة، وهو ابن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة، وكان صفوان هو الذي يجيز الناسَ بالحج من عرفة، ثم بنوه من بعده، حتى كان آخرهم هو الذي قام عليه الإسلام كَربُ بن صفوان، فقال أوس بن مغراء السَّعديُّ في قصيدة له:

لاَ يَبْرَحُ النَّاسُ ما حَجُوْا مُعَرَّفَهُمْ ... حتَّى يقـال: أَجِيـزُوا آلَ صَـفْـوَانَـا

فكان كرب يأْخذ بالطريق، فلا يفيض أحد من عرفات، حتى تغيب الشمس، وكانوا يقفون، ولا يعرفون الوقوف بها، فيقيمون يفتخرون بآبائهم وبفعالهم، ويسأَلون لدنياهم فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] فإذا غربت الشمس سارَ نحو جمع، ويسيرون خلفه، لكل حي مُجيز سوى

ذلك، حتى يأتوا الحمس في جوف الليل فيقفوا معهم، وقد أخذ الطريق لا يخرج أحد قبل طلوع الشمس، فإذا أصبحوا قام أبو سيَّارة عُمَيلة بن الأَعزل بن خالد بن الحارث العدواني، فقال: أَشرِق ثَبير، كيْمَا نُغِير. ثم يقول أبو سيَّارة: اللهم إني أسأَلك طريقة قريش فبيِّن لنا يا ربنا حقوقنا. ثم يقول: اللهم أصلح بين نساءنا وبَغِّض بين رعاتنا، واجعل أموالنا عند سمائحنا. ثم يفيض على فرس له من منى، وأنَّ حِمْيَرَ تَعَرَّضَتْ له ذات عام فقالوا: نحن أَوْلَى بهذا منك. فقال: كذبتم أنتم في بلدي، ونسكي وديني، وأمر نحن شرعناه، وهذا ميراثٌ لنا عن آبائنا، والحرمة حرمتنا، فأَبوا عليه، وتعلّقوا بلجامه. فقال: يا آل قيس!! فلم يكن بها كثير أحد. فقال: يا آل مضر! فثار إليه بنو أسد بن خزيمة، وبنو كنانة فاستنقذوه منهم. ثم قالوا: والله لا يجيزهم إلاَّ على حمار، فإنهم قد استبطنوا من الخيل، فحملوه على حمار، ثم زفُّوا حوله قليلاً قليلاً، وهم يقولون: نحن دفعنا عن أبي سيَّارة.

الأبيات:

وقال في المعنى ذو الإِصْبَع العَدوائِي ـ واسمه حُرْثان بن عمرو ـ في قصيدة له أيضاً:

عَـذِيْـر الـحـيّ مِـنْ عَـدْوا ... ن كـانُـوا حـيَّـةَ الأَرْض
بَـغَـى بَـعْـضُـهُـمْ بـعـضـاً ... فَـلَـمْ يُـرْعِ عَـلَـى بَـعْـضِ
ومِـنْـهُـمْ كَـانـتِ الـسَّـادا ... تُ والـمـوفُـوْنَ بـالْـقَـرْضِ
وَمِـنْـهُـمْ مَـنْ يُـجِـيْـزُ الـنَّـا ... سَ بـالـسُّـنَّـة وَالْـفَـرْضِ
ومِـنْـهُـمْ حَـكَـمٌ يَـقْـضِـي ... فَـلاَ يُـنْـقَـضُ مَـا يَـقْـضِـي

وحكى أبو القاسم الزجاجيُّ النحويُّ في كتابه «الأَخبار والفوائد والأَشعار» قال: أخبرنا محمد بن الحسن بن دريد، قال: أخبرنا أبو حاتم عن أبي عبيدة، ويونس بن حبيب. قال أبو بكر: وأخبرنا به العكليُّ عن أبي خالد عن الهيثم بن عدي عن مسعر بن كدام، قال: حدثني سعيد بن خالد الجدليُّ، قال: لما قدم عبد الملك بن مروان الكوفة بعد مقتل مصعب بن الزبير دَعَا الناس على فرائضهم، فأَتيناه، فقال: مَن القوم؟ فقلنا: نفر من جديلة، قال: أَمِنْ جديلة عدوان؟ قلنا: نعم، فأَنشأَ عبد الملك متمثلاً:

عَـذِيْـر الْـحَـيّ مِـنْ عَـدْوا ... نَ كَـانُـوا حَـيَّـةَ الأَرْضِ

إلى آخر الأَبيات.

ثم أقبل على رجل منا جَسيم وَسِيْم، كنا قدمناه، فقال: إياكم يقول هذا الشعر؟ قال: لا أدري، فقلت له ـ أنا من خلفه ـ: يقوله ذُو الإصبع، فتركني، وأقبل عليه، فقال له: فما اسمه؟! قال: لا أدري، فقلت ـ أنا من خلفه ـ: نهشته حيَّة على إصبعه، فسمي ذو الإصبع، فتركني وأقبل عليه، فقال: فما اسمه؟ قال: لا أدري، فقلت له: اسمه حرثان، فقال: فمن أيّكم كان؟ قال: لا أدري، فقلت له: هو من بني ناج، فقال له: كم عطاؤك؟ قال: سبع مئة. ثم أقبل علي فقال: كم عطاؤك؟ قلت: أربع مئة، فقال: يا أبَا الزُّعَيْزعةِ: خُذْ من عطاءِ هذا ثلاث مئة، وزدها في عطاء هذا. فرحت وعطائي سبع مئة، وعطاؤه أربع مئة.

وقال ابن هشام: فَلأَنَّ الإفاضة من المزدلفة كانت في عدوان، فيما حدّثني زياد بن عبد الله عن محمد بن إسحاق: يتوارثون ذلك كابراً عن كابر، حتى كان آخِرُهُمْ الذي قام عليه الإسلام أبَا سيَّارة عُمَيلةَ بن الأعزل، ففيه يقول شاعر العرب:

نَحْنُ دَفَعْنَا عَنْ أَبِي سَيَّارهْ وَعَنْ مَوَالِيْهِ بَنِي فَزَارَهْ
حتَّى أَجَازَ سَالِماً حِمَارَهْ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَة يَدْعُو جَارَهْ

وكان أبو سَيَّارَةَ يدفع بالنَّاسِ على أَتَانٍ فلذلك يقول: سالِماً حِمَاره. وكان يُقَالُ: هذا أَصَحُّ من حمار أبي سيارة، وقال أبو الحسن الأَثْرم عن أبي عبيدة: أَظُنُّهُ كان سميناً، وقال محمد بن الحسن: عاشَ حمارُ أبي سيَّارة أربعين عاماً لا يصيبه فيها عَرَضٌ، فقيل: أصحُّ من عيْر أبي سيَّارة. ونقل عن الخطابيِّ أنَّ اسمه العاص، وكانت له أتان عوراء خطامها لِيْفٌ، وهو أول مَن جعل الدِّيَةَ من الإبل فيما ذكر أبو اليقظان. قال أبو عُبَيْدة: وصوفة وصوفان يقال لكل مَن وَلِي من البيت شيئاً من غير أهله، أوْ قام بشيء من خِدْمَة البيت أو بشيءٍ من أمر المناسك يقال له صوفة وصُوْفَان. قال أبو عبيدة: لأَنهم بمنزلة الصوف فيهم القصير والطويل، والأَسود والأَحمر، ليسوا من قبيلة واحدة، وذكر أبو عبد الله الزُّبيْر أنه حدّثه أبو الحسن الأَثرم عن هشام بن محمد الكلبيّ قال: إنَّما سُمِّيَ الغوث بن مرة صوفةَ لأَنه كان لا يعيش لأُمِّه ولد، فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفةً، ولتجعلنَّه ربيطاً للكعبة المشرفة، ففعلت، فقيل له صوفة ولولده من بعده.

الباب الثاني

في إمرة الحج، وفيه فصول

الفصل الأول

كيف حجّ رسول الله ﷺ، وبيان ذلك.

فنقول: هذه الحجة التي نشير إليها، ويُعَوَّل في شعائر الدين عليها، هي حجة الوداع وسند الاتّباع، وكانت في السنة العاشرة من الهجرة.

روى جماعةٌ من أئمة الحديث منهم مسلم(١) عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ورُبما دخل حديثُ بعضهم في بعض، وأوفاهم حديث جابر بن عبد الله الأَنصاري رضي الله عنه قال جابر وزيد بن أرقم رضي الله عنهما: إنَّ رسول الله ﷺ غَزَا تسع عشرة غزوة، وأنه حَجَّ بعدما هاجر حجَّةً واحدة، ثم حجَّ بعدها حجة الوداع، فمكث ﷺ تسع سنين لم يحج. ثم لما دخل عليه ذو القعدة من السنة العاشرة تَجَهَّز للحج.

فإنَّ فتح مكة كان لعشر ليال بقينَ من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة كما سيأْتي ذكره في محله، وفرض الحج في سنة تسع من الهجرة على الصحيح من الأَقوال، كما قدّمنا ذكره، فلم يحج رسول الله ﷺ في تلك السنة واستعمل رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه في تلك السنة أميراً على مَن يحج كما سيأْتي ذكره.

وحجَّ ﷺ في السنة العاشرة وفيها أنزل الله عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] روى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ حَجَّ على رَحْلٍ رث وقطيفة ما تساوي أربعة دراهم وقال: «اللهم اجعلها حجَّةً لا رياءَ فيها ولا سُمْعَة»(٢) وقال عطاء: صَلَّى رسول الله ﷺ الصبح بمِنَى غداة عَرَفَة، ثم غدا إلى عرفات وتحته قطيفة اشْتُرِيَتْ له بأربعة دراهم، وهو يقول: «اللهم اجعلها حجَّةً مبرورة

---

(١) في كتاب الحج [٢/ ٨٨٦ ـ ٨٩٢] ح [١٤٧/ ١٢١٨].

(٢) أخرجه ابن ماجه في المناسك [٧/ ٩٦٥] ح [٢٨٩٠].

مُتَقَبَّلة لا رياء فيها ولا سمعة». وقال عبد الله بن الحارث: ركب رسول الله ﷺ رَحْلاً فاهْتَزَّ به فتواضع لله عزَّ وجلَّ وقال: «لبَّيْكَ لا عيش إلاّ عيش الآخرة»[1].

ولنَأْتِ بما بلغنا من أقواله وأفعاله ﷺ في هذه الحجة على الترتيب، ولنذكر ذلك ملخّصاً بأُسلوب قريب الفهم:

قال الحافظ برهان الدين البقاعي في كتابه «حجة الإسلام»: لما طبق الإسلام جزيرة العرب، وفرَّ الشيطان ـ لعنه الله ـ من صولة الإيمان وهرب، قلت: وتبرأ من دين الجاهلية وأدبر، وأعلن لسان التوحيد: قد جاء الحق وزهق الباطل فاصدع بما تؤمر، وعلا منار الدين القويم، واهتدى مَن شاء الله إلى صراط مستقيم، وضحك ثغر الإسلام، وجاء نصر الله والفتح لسيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، وأشرقت شمس الهداية بحَيَّ على الصلاة والفلاح، وسطع نور الأَمان لأَهل الإيمان يؤذن بالنجاة والنجاح، ووضحت البراهين لأَهل اليقين، وأتى القول لأَشرف المرسَلين: اليوم أكملت لكم الدين، وقَرَّتْ أعين المؤمنين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا وقيل الحمد لله رب العالمين. قال الحافظ برهان الدين: قصد رسول الله ﷺ الحج ونهض إلى العج والثج، فأَذن في الناس بذلك، للموافاة في تلك المساعي والمسالك، والمشاعر والمناسك، وليس فيهم إلا سامع مطيع، قريب إلى ما يقوله سريع، فلم يبقَ أحد يستطيع أن يأتي إلا أتى راكباً أو راجلاً، كلهم يلتمس أن يأْتمَّ برسول الله ﷺ ويعمل بمثل عمله. وأستعمل رسول الله ﷺ على المدينة أبا دُجَانةَ الأَنصاريَّ ثم الساعِديَّ رضي الله عنه ويقال سَبَّاع بن عرفطة الْغِفارِي ـ حكاهما عبد الملك بن هشام ـ فأَمر رسول الله ﷺ بالخروج معه، فأَصاب الناس بالمدينة جدريٌّ أو حصبة منعت مَن شاء الله أن يمنع من الحج، فأَعلم ﷺ أن عمرةً في رمضان تعدل حجةً معه.

وخرج عليه الصلاة والسلام من المدينة إلى مكة، بعد أن صلى الظهر بالمدينة الشريفة، ومعه جمع من الناس كثير لا يحصيهم غير خالقهم ورازقهم، فقيل: مئة ألف وأربعة عشر ألفاً، وقيل أكثر، وقيل تسعون ألفاً، حتى حجّ معه مَن لم يُرَ قبلها ولا بعدها، وحصل لهم فضل الصحبة، وأراهم مناسكهم، وعلَّمَهُمْ. وخرج ﷺ على طريق الشجرة في يوم السبت لأَربع ـ وقيل لخمس ـ ليال بقين من ذي القعدة، وقيل: يوم الخميس لست ـ أو خمس ـ بقين منها نهاراً، بعد أن تدهَّنَ وترجَّل وأغتسل، وتجرّد، في ثوبين حجازيين إزار ورداء، وأخرج معه ﷺ نساءه كلهن في

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٣/ ٢٦٥] ح [١٣٢٦٣] من حديث أنس.

الهوادج، وصلى العصر بذي الحُليفة ونام بها، وطاف في ليلته على نسائه ثم اْغتسل، فلما أصبح صلى بها الصبح، وطيَّبته عائشة رضي الله عنها بذريرة مُمَسَّكة، وولدت أسماءُ بنت عُمَيْس محمدَ بْنَ أبيَ بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين، فأَرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟ فقال: اْغتسلي واْستثفري بثوب وأحرِمي. وصلى رسول الله ﷺ في مسجد ذي الحليفة، ثم أحرم ﷺ، ولم يغسل الطِّيب، ولَبَّدَ رأسه، وقلد بَدَنَتَهُ نَعلين وأشعرها في جانبها الأيمن، وسلَت الدَّم عنها وكانت هذه تطوعاً، وساقَ ﷺ معه الهديَ، وكان عليه ناجية بن جندب الأَسلميُّ، ثم ركب رسول الله ﷺ راحلته القَصواءَ، وكان عليها رَحْلٌ وقَطيفةٌ لا تساوي أَربعة دراهم. وقال ﷺ: «اللهم اجعله حجًا لا رياء فيه ولا سمعة» كما قدمنا ذكره، وأهلَّ حينَ انبعثتْ به راحلته من عند مسجد ذي الحُليْفة، فأَتمَّها بِحَجٍّ وعُمْرَة معاً قبل الظهر بيسير، وقال للناس: «لِيُهلَّ كلُّ واحد مِنْكم بما أحبّ من قِران وإِفْرَادٍ وعُمْرَةٍ» وقيل: إن النبيَّ ﷺ أَحْرم بالحج مفرداً، وقيل: دخل مكة مُحْرماً بعمرة مُتَمَتِّعاً ثم أضاف إليها حجة، وأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتَّلبية، وصلى الظهر بالْبَيْدَاءِ، ثم تمادى يَسِيْرُ المنازل، ويَؤُمُّ أصحابه في الصلاة في أماكن، فبنَاها الناس مَساجدَ، وعُرِفَتْ مواضعها، واْستهل هلالُ ذي الحجة ليلة الخميس الثامن أو السادس من خروجه ﷺ من المدينة.

فلما كان ببطن الرَّوْحَاءِ قال أُسَامَةُ بن زيد رضي الله عنه: أتته اْمرأةٌ فقالتْ: إن ابنِيْ هذا به لَمَمٌ منذ سَبْع سنين، يأْخذه في كل يوم مَرَّتَيْن، فقال رسول الله ﷺ: «أَدْنِيه منِّي» فأَدْنَتْهُ، فتفل في فيه وقال: «اْخرج عدوَّ الله، أنا رسول الله»[1]، ثم قال لها: «إِذا رَجَعْنَا فأَعْلِمِينا مَا صنع»، ثم قال: «يا أُسَيْمَ اْنْظُرْ هَلْ تَرى من حَجَر لمخرج رسول الله ﷺ»، فقلت: يا رسول الله تَدْرُج، جلس الناس في الوادي فما فيه موضع، فقال: «أنظر هل ترى من نَخْل أو حجارة؟» فقلت: يا رسول الله قد رأيت نخلات متفرقات ورجْماً من حجارة، قال: «انطلق إلى النخلات وقل لهن: إنَّ رسول الله ﷺ يأْمركُنَّ أَنْ تَدانَيْنَ لَمَخْرَج رسول الله ﷺ، وقل للحجارة مثل ذلك»، فأَتَيْتُهُنَّ فقلت ذلك لهنَّ، فوالذي بعثه بالحقِّ لقد جعلت أنظر إلى النخلات يَخدُدْن الأَرض خَدًّا حتى اْجتمعنَ، وانظر إلى الحجارة يتزاحمن حتى صِرْنَ رجْماً خلف النخلات، فأَتيتهُ وقلت ذلك له، فقال: «خذ الإِداوة واْنطلق»، فلما قضى حاجتَهُ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٤/ ٢١٣] ح [١٧٥٧٧].

وانصرف قال: «يا أُسَيْمُ عُدْ إِلَى النخلات والحجارة وقل لهن: إنَّ رسول الله ﷺ يأمركنَّ أنْ تَرْجعْنَ إِلى مواضعكنَّ» فلما رجع رسول الله ﷺ استقبلته المرأة ومعها كَبْشانِ وأَقِطٌ وسمْنٌ، فقال لي رسول الله ﷺ: «خذ هذا الكبش» فأخذ منه ما أراد. وورد في بعض الروايات: «خُذْ أحد الكبشَيْنِ ورُدَّ عليها الآخر، وخُذِ السمن والأَقِط» قال: ففعلت، قالت: والذي أكرمك ما رأينا به شيئاً منذ فارقتنا. ثم أتاه بَعِيرٌ فقام بين يديه فرأيت عينيه تدمعانِ، فبعث إلى أصحابه فقال: «ما لِبَعيركم هذا يشكوكم»؟ فقالوا: كُنَّا نَعمل عليه، فلما كبر، وذهب عمله تَوَاعَدْنا لِنَنحرَهُ غَداً، فقال ﷺ: «فلا تَنْحَروه، واجعلوه في الإِبل يكون فيها»(١).

وقال الشَّريد بن سُوَيد الثَّقفي: خرجت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فبينا أنا أمشي ذات يوم إِذَا وَقْعُ ناقة خلفي، فالتفتُّ فإذا رسول الله ﷺ فقال: «الشريد؟» فقلت: نعم، قال: «ألا أحملك؟» قلت: بلى، وما بي من إِعْيَاء ولا لُغُوْب ولكن أردت البركة في ركوبي مع رسول الله ﷺ. فأَناخ وحملني، فقال: «أمعك من شعر أُمَيَّةَ بن أبي الصَّلْت؟» قلت: نعم، قال: «هاتِ» فأنشدته مئة بَيْت، كلما أنشدته بَيْتاً قال: «إِيْه» فقال النَّبي ﷺ: «إِن كاد ليسلم» واستَمَرَّ رسول الله ﷺ من الرَّوْحَاءِ حَتَّى نزل قدَيْداً، فمرَّ بامرأة في مَحَفَّتِها ومعها ابنٌ لها صغير، فأخذت بِضَبعِهِ وقالت: يا رَسول الله، ألهذا حج؟! فقال رسول الله ﷺ: «ولك أَجْر»(٢) وسألته أيضاً في هذه الحجة امرأةٌ من خَثْعَمَ فقالت: إِنَّ فريضة الله عزَّ وجلَّ أدركتْ أبي شيخاً كبيراً لا يَثْبُتُ على الراحلة أفَأَحِجُّ عنه؟ فقال ﷺ: «نعم»(٣) ثم سار حتى نزل بسَرف، فخرج إِلى أصحابه فقال: «مَنْ لم يكن معه منكم هَدْيٌ فأَحَبَّ أنْ يجعلها عُمْرةً فليفعل، ومَن كان معه هَدْيٌ فلا»(٤).

فمنهم الآخِذُ بها والتَّارِكُ لها ممن لم يكن معه هَدْيٌ. ثم غربتْ عليه الشمس بسرف، فجاء إِلى ذي طُوَى، فبات بها ليلة الأَحد لأَربع ليال خلَوْنَ من ذي الحجة، وصلَّى بها الصبح واغتسل، ثم دخل مكة من أعلاها من ثَنِيَّة كَدَاء، نهاراً على راحلته

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك في التاريخ [٢/ ٦١٧ ـ ٦١٨] باب: اجتماع الشجرتين بأمر رسول الله ﷺ.
(٢) أخرجه مسلم في الحج [٢/ ٩٧٤] ح [٤٠٩/ ١٣٣٦].
(٣) أخرجه البخاري في الحج [٣/ ٤٤٢] ح [١٥١٣]. ومسلم في الحج [٢/ ٩٧٣] ح [٤٠٧/ ١٣٣٤].
(٤) أخرجه البخاري في الحج [٣/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦] ح [١٥٥٦]. ومسلم في الحج [٢/ ٨٧٠] ح [١١١/ ١٢١١].

القَصْوَاءِ، فلما أتى إلى باب بني شيبة ورأى البيت رفع يديه وقال: «اللهم زدْ هذا البيت تَشريفاً وتكريماً ومهابة، وزدْ من عظمه ممن حَجَّه أو اعتمره تَشريفاً وتكريماً ومهابة وتعظيماً وبرًّا»[1]. ثم أتى البيت فاستلم الركن، وطاف على ناقته الجدعاء، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، وهو مُضطَبِعٌ بردائه يستلم الركنَ بِمِحْجَنِه، ثم يعطف المحجن ويُقَبِّلُهُ حتَّى فرغ منْ سبعة، فلما فرغ أتى إلى مقام إبراهيم الخليل فجعل المقام بينه وبين البيت الشريف، وأناخ ناقته عند المقام فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] ثم صلى ركعتين قرأ فيهما: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصَّفا، فلما أتى الصفا قرأ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]: «أَبْدَأُ بما بدأ اللّهُ به» فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة، وحمد الله تعالى وكبَّره وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أَنْجزَ وعده، ونَصر عَبْدَهُ، وهزم الأَحْزاب وحده». ثم عاد بعد ذلك فقال مثل ذلك ثلاثَ مَرّات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انْصَبَّتْ قدماه في بطن الوادي رَمَل، حتى إذا صعد مشى، حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر الطواف على المروة قال: «إني لو استقبلت منْ أمري ما استدبرتُ لم أَسُق الْهَدْيَ وجَعَلْتُها عُمْرَةً، فمَن كان منكم ليس معه هَدْيٌ فليحْلُلْ ولْيجعلها عُمْرَةً» وكان عبد الله بن رواحة آخذاً بخِطام ناقة النَّبي ﷺ وهو يَسْعى، فجعل يَرْتَجزُ ويقول:

يَـا حَـبَّـذا مَـكَّـةَ مِـنْ وَادِي ... بِـهَـا أَهْـلِـيْ وعُـوَّادِيْ

بِـهَـا أَمْـشِـي بِـلاَ هَـادِي ... بِـهَـا تَـرْتَـجُ أَوْتَـادِي

ورسول الله ﷺ ضاحكٌ من قول ابن رواحة حتى فرغ من سَعْيِه، وجاء النَّبيَّ ﷺ رَجلٌ بغلام يَوْم وُلِدَ وقد لُفَّ في خِرقة فقال له النبي ﷺ: «يا غلام مَن أنا»؟ فقال: أنت رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام: «بارك الله فيك». ثم إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شبَّ، ثم ذهب النبي ﷺ إلى منزله بالأَبْطح، وكان قد ضربتْ له قبَّة من أَدَم، ولم يقرب الكعبة بعد طوافه حتى رجع منْ عرفة.

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى في الحج [٥/ ١١٨] ح [٩٢١٣]. والطبراني في الكبير [٣/ ١٨١] ح [٣٠٥٣] وعزاه الحافظ الهيثمي للطبراني في الكبير والأوسط وقال: فيه عاصم بن سليمان الكوزي وهو متروك. وانظر: مجمع الزوائد [٣/ ٢٤١].

وقدم عليٌّ مِنَ اليمن ببُدنٍ للنَّبيِّ ﷺ، فوجد فاطمة رضي الله عنها مِمَّنْ حَلَّ، ولبستْ ثياباً صبغاً واكتحلتْ، فأنكر ذلك عليٌّ رضي الله عنه عليها فقالت: أبي أَمَرَنِيْ بهذا، وكان عليٌّ رضي الله عنه يقول بالعراق: فذهبتُ إلى رسول الله ﷺ مُحَرِّشاً على فاطمة في الذي فعلتْ، مُسْتَفْتِياً لرسول الله ﷺ فيما ذكرتُ عنه، وأخبرته أنّي أنكرتُ ذلك عليها فقال: «صدقَتْ. ما قُلْتَ حيْنَ فَرَضْتَ الحج»؟ قال: قلت: إنِّي أُهِلُّ بما أَهَلَّ به رسول الله ﷺ. وكان جملة الْهَدْيِ الذي قدم به عليٌّ رضي الله عنه من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ من المدينة مِئةَ بدنة.

وأقام النبيُّ ﷺ مُحرماً بمكة يوم الأَحد والاثنين والثلاثاء والأَربعاء، وخطب الناس فيه بمكة بعد الظهر، وأطعم النَّبيُّ ﷺ الحاج كما كانت قريش تَصْنع. ثم نهضَ عليه الصلاة والسلام بكرة الخميس إلى منى ومعه أصحابهُ، وفي هذا الوقت عند نهوضهم من الأَبطح أحرم كل مَن كان أَحلَّ منهم بالحج، فصلى النَّبيُّ ﷺ الظهرَ بمِنَى والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، وبات بها فصلَّى بها الصبح يوم الجمعة ومكث قليلاً حتى إذا طلعت الشمس نهض، وأمر ﷺ بقُبَّة له من شعر فضربتْ بِنَمِرَةَ، فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس أَمر عليه الصلاة والسلام بالقصواء فَرُحِلَتْ له فأَتى بطن الوادي، ثم ركب فسار ولا تَشكُّ قُريش أنه واقفٌ عند المشعر الحرام بالمزدلفة، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، وأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد الْقُبَّةَ قد ضُربتْ له بنَمِرة، فَنَزَل بها، حتَّى إذا زاغت الشمس أمر ﷺ بالقصواء فَرُحِلَتْ له، فأَتى بطن الوادي فخطب الناس، وقال: «إنَّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، أَلا كُلُّ شيءٍ من أمر الجاهلية تحتَ قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوع، وإن أول دم أَضَعُهُ من دمائنا دم إياس بن ربيعة بن الحارث ـ مسترضعاً في بني سعد فقتلته هُذيل ـ وربَا الجاهلية موضوع، وأوَّلُ رِباً أضعه رِبا للعباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله. فاتقوا الله في النساء، فإنكم أَخَذْتموهنَّ بأَمان الله، واَستحللتمْ فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوْطِئْن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلنَ ذلك فاضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح، فإِن اَنْتَهَيْنَ وأَطعْنَكُم فلهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف. وقد تركتُ فيكم ما لَنْ تَضِلُّوا بعده إن اَعتصمتُمْ به: كتاب الله. وأنتم مسؤولون عنِّي، فما أَنْتُمْ قائلون»؟ قالوا: نشهد أنَّك قد بلَّغتَ وأدَّيْتَ ونصحتَ. فقال عليه الصلاة والسلام بأَصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكبها إلى الناس: «اللهم اشهد» ـ ثلاث مرات ـ فلما فرغ من خطبته أمر بلالاً فأَذَّنَ وأقامَ فصلّى الظهر، ثم أقام فصلّى العصر، مجموعتَيْن، ولم يُصَلِّ بينهما شيئاً. ثم ركب عليه الصلاة والسلام راحلتَهُ القصواء حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته

إلى الصَّخرات، وجعل حَبْلَ الْمُشَاةِ بين يديه، وٱستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً بالهضاب، وقال: «كل عرفة موقف إلاّ بطن عَرَنَةَ». ووقف على راحلته يدعو، وأرسل إلى الناس أن يقفوا على مشاعرهم، ونزل عليه ﷺ قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. ووقف معه عليه الصلاة والسلام مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وقيل: مئة وعشرون ألفاً، وقيل غير ذلك. ولم يزلْ واقفاً ﷺ عند الصخرات، حتى غربت الشمس من يومه، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرصُ. وأرْدف أسامةَ خلفه ثم دفع وقد خَطَم زمام ناقته حتى إنَّ زمامها ليصيب طَرَفَ رجله، ومضى يسير، فإذا وجد فرجةً نَصَّ، وكلما أتى رَبْوَة من تلك الروابي أرْخى للناقة زمامها قليلاً حتى يصعدها، وهو ﷺ يشير بيده اليمنى وهو يقول: «أيها الناس السكينةَ السكينةَ» فلما كان عند الشِّعْب الأَيْسر نزل ﷺ فبال وتوضأ وضوءاً خفيفاً، ثم ركب حتى أتى المزدلفة، ونزل بها وتوضأ، ثم صلَّى المغرب والعشاء بأذانٍ واحد وإقامتين، ويقال بأَذانين، ولم يسبِّحْ بينهما شيئاً، ثم ٱضطجع وبات بها، فلما كان السحر أَذِنَ للضعفة من الذرية والنساء أن يأتوا مِنى قبل حَطْمة الناس، وقال: «لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس» فلما برق الفجر وتبيّن الصبح صلَّى الصبح بالناس مغلساً، أو في انصداع الفجر بأذان وإقامة. ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فوقف على قُزَح وقال: «كل مزدلفة موقف إلا بطن مُحَسِّرٍ» واستقبل القبلة ودعا الله عزَّ وجلَّ وكبَّره وهلَّله ووحَّده، ولم يزل واقفاً بها حتى أسفر جدًّا. ثم سار رسول الله عليه الصلاة والسلام قبل أنْ تطلع الشمس يريد مِنى، وأردف الفضل بن عباس خلفه، وانطلق أسامة في ساق قريش، وكان الفضل رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً، فلما سار النَّبي عليه الصلاة والسلام مَرَّت ظُعُنٌ يَجْرِيْنَ، فطفق الفضل ينظر إليهن، فأخذ النبي ﷺ يدَه فوضعها على وجه الفضل، فَحَوَّل الفضل وجهه من الشقِّ الآخر ينظر، فوضع النبيُّ عليه الصلاة والسلام يده من الشق الآخر على وجه الفضل، فصدف وجهه عن الشق الآخر ينظر، حتى أتى النبي ﷺ مُحَسِّراً حرَّكَ ناقته قليلاً، وسلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، وهي جمرة العقبة، ولم يزل يُلَبِّي حتى أتى الجمرة التي عندها الشجرة، فرماها من أسفلها من بطن الوادي، بعد طلوع الشمس بسبع حصيات مثل حصى الخَذْفِ، التقطها له عبد الله بن عبَّاس من موقفه الذي رَمَى فيه، ويقال التقطها من مزدلفة، وهو ﷺ على راحلته، وكبَّر مع كل حصاة، وقطع التلبية وهو لاَ ضَرْبَ ولا طَرْدَ ولا إِلَيْكَ إِلَيْكَ!! وكان بلال وأسامة رضي الله عنهما أحدهما ممسك بخطام ناقته والآخر يُظَلِّلُهُ بثوبه من الحرّ. وأنزل النبيُّ عليه الصلاة والسلام المهاجرين والأنصار والناس منازلهم، وأمرنا بالتبليغ، ثم انصرف

النبيُّ ﷺ فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده الشريفة، ثم أعطى عليًّا رضي الله عنه فنحر ما بقي منها مما كان أتى به معه من اليمن، ومما ساقه معه من المدينة، وكانت لتمام مئة بدنة، فيها لأَبي جهل جمل على أَنفِه بُرَةُ فِضَّة. ثم أمر النبي عليه الصلاة والسلام من كل بدنة ببضعة فَجُعِلَتْ في قِدْرٍ فطبخَتْ، فأكل من لحمها، وشرب من مرقها. ثم حلق رأسه، فأَعطى أبا طلحة نصفه وفرّقَ النصف الثاني على الناس الشعرة والشعرتين، وأخذ من شارِبه وعارِضه. وقلّمَ أظفارَه، وأمر بشعره وأظفاره أنْ تُدْفَنَ، وقَصَّرَ قوم، وحَلَقَ آخرون، فقال عليه الصلاة والسلام: «رحم الله المحلِّقين» ـ ثلاثاً ـ، وفي كل مرة يقال له: والمقصِّرين يا رسول الله. فقال في الرابعة: «والمقصِّرين» وضحَّى بكبشين أملحين، وذبح ﷺ عن نسائه البقر من اعتمر منهن بقرة، وطيَّبتْهُ عائشة رضي الله عنها بطيب مُمَسَّك، ولبس القميص ونادى مناديه: «إِنها أيَّامُ أَكْل وشُرْب وذكر الله».

ثم ركب النبي ﷺ فأَفاض إِلى البيت، وطاف طواف الإِفاضة، وٱختلف أيْنَ صلَّى ظهر اليوم يومئذ.

وأتى بني عبد المطلب وهم يسقون على زمزم فقال: «انزعوا بنِي عبد المطلب، فلولا أن يَغْلِبَ الناسُ على سقايتكم لنَزعْتُ معكم» فناولوه فشرب منه. ثم رجع النَّبي ﷺ من يومه إِلى مِنى، وخطب الناس في هذا اليوم بعد الظهر، وقيل ثاني يوم النحر، أعاد فيه خطبته بالأَمس، وأمرهم بأَخْذِ مناسِكهم، وأوصاهم وقال ﷺ: «لا أحجُّ بعدها، ولعلكم لا تروني بعد عامي هذا»، وقال: «أيها الناس، أيُّ شَهْرٍ هذا؟» فسكتوا، فقال ﷺ: «هذا شهرٌ حرامٌ. وأَيُّ بلدٍ هذا؟» فسكتوا، فقال ﷺ: «بلد حرام. وأَيُّ يوم هذا؟» فسكتوا، فقال ﷺ: «يوم حرام» ثم قال: «إِنَّ الله حرَّم دماءَكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة شهركم هذا، في بلدكم هذا، في يومكم هذا، إِلى أَنْ تلقوا رَبَّكم، ألا هل بَلَّغْت»؟ قالوا: نعم، فقال ﷺ: «اللهم اشْهَد».

ثم قال: «أيها الناس ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] أَلا وإِنَّ الزمان قد ٱستدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأَرض، وإِنَّ عدة الشهور اثنا عشر شهراً في كتاب الله تعالى، منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب، الذي يُدْعى شهر مُضَر، الذي بين جُمادى الآخرة وشعبان، الشهر تسعة وعشرون، وثلاثون، ألا هل بلغت؟» فقال الناس: نعم، فقال ﷺ: «اللهم اشهد».

ولتوديعه ﷺ الناسَ سُمِّيَتْ حجة الوداع، وحجة الإِسلام، وحجة البلاغ.

وأقام بمِنَى بقية يومه، وأيامَ التشريق ولياليها الثلاث، فرمى الجمار الثلاث في كل يوم عند الزوال، كل واحدة بسبع حصيات مثل حصى الخذف، يكبِّر مع كل حصاة، يبدأ بالرمي التي تلي مسجد الخيف، ثم الوسطى، ويقف عند كل منهما ويدعو طويلاً، ويتضرّع، ثم يرمي جمرة العقبة ولا يقف عندها.

فلما زالت الشمس في اليوم الثالث من أيام التشريق وذلك يوم الثلاثاء، نفر النَّبيُّ ﷺ من منى فنزل الْمُحَصَّبَ - وهو الأَبطح - في قبة ضربها له مولاه أبو رافع، فصلّى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

ولما نزل النبيُّ عليه الصلاة والسلام بالمحصَّب دعا عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما فقال: «أَخْرِجْ أُخْتَك - يعني عائشة - من الحرم فَلْتُهِلَّ بعمرة، ثم لِتَطُفْ بالبيت فإني أنتظركما هاهنا». ورقد ﷺ رقدةً إلى أن فرغت عائشة رضي الله عنها من عمرتها، فلما أتياه أَذَّنَ في الناس بالرحِيل، وأمرهم أن لا ينصرفوا حتى يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت، ورخَّص في ترك ذلك للحائض التي كانت طافت يوم النحر. ثم دخل النبيُّ ﷺ إلى مكة سَحَراً، فطاف طواف الوداع، لم يرمل منه في شيء، ثم وقف على راحلته بالْحَزْوَرَة وقال: «والله إنك لَخَيْرُ أرض الله تعالى، وأحب أرض الله إليَّ، ولولا أني أُخْرِجْتُ ما خرجت» ثم مضى من فوره ذلك راجعاً إلى المدينة الشريفة لسبع بقين من ذي الحجة أو ثمان[(١)].

وفي هذه السنة كان الحج بحمد الله في ذي الحجة ولم يكن فيها قبلها، وأستمر على ذلك، وقال ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأَرض، فلا شهر يُنْسَى ولا عِدَّة تُخْطى، وإن الحج في ذي الحجة إلى يوم القيامة»[(٢)].

---

(١) أخرج صفة حجة النبي هكذا بنحوه: أبو داود في المناسك [٢/١٨٩ - ١٩٣] ح [١٩٠٥].

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٥/٨٨ - ٨٩] ح [٢٠٧٢٢] بلفظ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم: ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. أخرجه البخاري في التفسير [٨/١٧٥] ح [٤٦٦٢]. ومسلم في القسامة [٣/١٣٠٥ - ١٣٠٦] ح [٢٩/١٦٧٩]. وأبو داود في المناسك [٢/٢٠٢] ح [١٩٤٧]. والإمام أحمد في مسنده [٥/٨٨ - ٨٩] ح [٢٠٧٢٢].

الفصل الثاني

في ذكر إمرة الحاج

وبيان الحال الذي يجب أن يكون عليه أمير الحاج من الصفات والأخلاق والأفعال وذكر الراعي والرعية وما يتعلق بذلك.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٨، ٥٩]. قال العلماء رضي الله عنهم: نزلت الآية الأُولى في ولاة الأمور، عليهم أن يُؤَدُّوا الأَمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، ونزلت الآية الثانية في الرعية من الجيوش وغيرهم، عليهم أن يطيعوا أُولي الأَمر، الفاعلين لذلك في سائر أحوالهم، إلاَّ أن يأمروا بمعصية الله تعالى، فلا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق، فإنْ تنازعوا في شَيْء ردُّوه إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وإذا كانت الآية قد أوجبت أداءَ الأَمانات إلى أهلها والحكم بالعدل فهذان جماع السياسة العادلة، والولاية الصالحة.

ويجب أن نعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجباتِ الدين، بل لا يقام الدين ولا الدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تَتِمُّ مصلحتهم إلا بالاجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض، فلا بُدَّ لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤَمِّرُوا أحدهم»[١] رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، وروى الإمام أحمد في «المسند» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا يحلُّ لثلاثة يكونون بفلاة من الأَرض إلا أمَّروا عليهم أحدهم»[٢] فأوجب ﷺ تأْمِيرَ الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر بينهما بذلك على سائر أنواع الاجتماع، فتعيَّن بذلك التأْمير على حجاج بيت الله تعالى شرعاً، وهم في الغالب جمع كثيرون. ويدل على أنه أوجب الأَمر بالمعروف، والنهيَ عن المنكر، وذلك لا يتم إلا بقوة وإمارة.

قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية: يجب على وليِّ الأَمر أن يولِّيَ على كل

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد [٣/٣٦ ـ ٣٧] ح [٢٦٠٨].
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [٥/٢٣٨] ح [٦٦٥٥].

عمل أصلحَ مَن يجده لذلك العمل، قال النبي ﷺ: «من وُلِّيَ مِنْ أمر المسلمين شيئاً فولَّى رجلاً وهو يجد مَن هو أصلح منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين» رواه الحاكم في صحيحه[١]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مَن وُلِّيَ من أمر المسلمين شيئاً فولَّى رجلاً لمودَّة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين.

وليحذر وليُّ أمر المسلمين من دعوة الرسول المصطفى ﷺ ويتَّقِ ذلك، فقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللهم مَن وُلِّيَ أمْراً من أمور أُمَّتِيْ وشقَّ عليهم فاشْقُق اللهم عليه»[٢]، فيجب على وليّ الأمر البحث عن المستحقين للولايات، خصوصاً ولاية إِمْرَة الحاج، فإنه منصب جليل، ومحلٌّ مقداره نبيل، يجتمع فيه العلماء والفقهاء، والأولياء والصلحاءُ، والقويُّ والضعيف والعاجز والسخيف، والنساء والصبيان، والأتباع والغلمان، فقد تعيّن حينئذ على ولي الأَمر أن لا يُوَلِّيَ على وفد الله تعالى إلاَّ مَنْ علم استقامة أحواله، واختبره في دينه وفعاله ومقاله، ولا يقدم الرجُلَ لكونه طلب أو سبقَ في الطلب، بل ذلك سبب المنْع، فإنَّ في الصحيح عن النبي ﷺ أنَّ قوماً دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال: «إنَّا لا نولِّي أمرنا هذا مَن طلبه»[٣] وقال لعبد الرحمٰن بن سمُرة: «يا عبد الرحمٰن لا تسأَل الإمارة فإنك إنْ أُعْطيتَها من غير مَسْأَلة أُعِنْتَ عليها، وإن أُعْطيتَها من مسألة وكِلْتَ إليها»[٤] أخرجاه في الصحيحين.

فإن عدَل عن الأَحق الأَصلح إلى غيره لأَجل صداقة أو صهارة أو موافقة في شيءٍ من الدنيا، أو رشوة يأْخذها منه من مال أو منفعة أو لغير ذلك من الأَسباب، فقد خانَ الله ورسوله والمسلمين.

وقد دلَّتْ سنة رسول الله ﷺ على أنَّ الولاية أمانةٌ يجب أداؤها في مواضعها، وروى البخاريُّ في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أُضِيْعَتِ الأَمانة فانتظروا الساعة» قيل: يا رسول الله ما إضاعتها؟ قال: «إِذَا وُسِدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أهله فانتظر الساعة»[٥].

---

(١) في كتاب الأحكام [٤/ ٩٣] باب: الإمارة أمانة.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة [٣/١٣٥٨] ح [١٩/١٨٢٨].

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام [١٣/ ١٣٤] ح [٧١٤٩]. ومسلم في الإمارة [٣/١٤٥٦] ح [١٤/١٧٣٣].

(٤) أخرجه البخاري في الأحكام [١٣/ ١٣٢] ح [٧١٤٦]. ومسلم في الإمارة [٣/١٤٥٦] ح [١٣/١٦٥٢].

(٥) أخرجه البخاري في العلم [١/ ١٧١] ح [٥٩].

ولا يجوز لإمام المسلمين أن يولِّيَ على حجاج بيت الله تعالى مَن رَسَخَ في قلبه جمع الحطام خصوصاً من غير حِلِّه، كما يفعله بعض أُمراء زماننا من السعي إلى هذه الإمرة لجمع الحطام فقط. فقد كان بعضهم ممن نشأ في أوصاف السفالة والرذالة، حتى أنه كان يقرر على السُّرَّاق والمفسدين مالاً، ويكون شريكاً لهم في الباطن، وإذا قبض على أحد منهم في الظاهر أظهر النفاق جَهراً، ويطلقه ليلاً سِرًّا، ويستخدم من الغلمان مَن عُرِف بذلك بلا (جامكية) ويدعه يسعى في الوفد بالفساد، ويبالغ في أذى العباد، واثقاً بحمايته من أُستاذه، بليغ الأذى والنكاية، لطارف مال الحجيج وتلاده.

قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيْمِيَّة رحمه الله تعالى: ولا يجوز أَن يرسل الإمام من يضعف عن مقاومة الحرَامية ويتَّقِ، ولا مَن يأخذ مالاً من المَأخوذ من التُّجَّار ونحوهم من أَبناءِ السبيل، بل يرسل من الجند الأقوياء الأُمناء، إلا أن يتعذر ذلك فيرسل الأَمْثَلَ فالأَمْثَل، فإنَّ بعض نواب السلطان أَو رؤساء القرى ونحوهم يأمر الحرَاميَّة للأَخذ في الباطن والظاهر، حتَّى إذَا أَخذوا شيئاً قاسمهم ودَافَع عنهم، وأَرضى المأخوذين ببعض أَموالهم، أَوَ لم يرضهم، فهذا أَعظم جرماً من مقدم الحرامية لأَنَّ ذلك يمكن دفعهُ بدون ما يدفع به هذا، والواجب أَنْ يقال فيه ما يقال في الرد والعون لهم، فإن قَتَلُوا قُتِل هو، على قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأكثر أَهل العلم، وإن أَخذوا المال قُطِعت يده ورِجله، وإن قَتلوا وأَخذوا المال قُتِلَ وصُلِبَ، وعلى قول طائفة من أَهل العلم يُقطع ويُقتل ويُصلب وقيل: يخَيَّر بين هذين وإن كان لم يَأْذَنْ لهم لكن لما قدر عليهم قاسمهم على الأَموال، وعطل بعض الحدود والحقوق، ومَن آوى محارباً أَو سارقاً أَو قاتلاً ونحوهم ممن وجب عليه حَدٌّ، وحقٌّ للهِ أَو لآدمي، ومنعه من أَن يُسْتَوْفَى منه الواجب بلا عدوان فهو شريكهم في الْجُرْم. وروى مسلم في «صحيحه» عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله مَن أَحدث حدثاً أَو آوى مُحْدِثاً»[١] وإذا ظفر بهذا الذي آوى المحدِث فإِنَّهُ يطلب منه إحضاره أَو الإعلام به، فإِن اَمتنع عُوْقِبَ بالحبس والضرب مرة بعد مرة حتى يُمكِّنَ من ذلك الْمُحْدِث.

إذا علمت ذلك فمما تجب معرفته أَيضاً أَن الوالي راعٍ على الناس بمنزلة راعي الغنم، كما قال النبي ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته: فالإمام الذي على

---

(١) أخرجه البخاري في المدينة [٤/ ٩٧ ـ ٩٨] ح [١٨٧٠]. ومسلم في الحج [٢/ ٩٩٤ ـ ٩٩٨] ح [٤٦٧/ ١٣٧٠].

الناس راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والولد راعٍ في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، والعبد راعٍ في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته» أخرجاه في «الصحيحين»[1] وقال ﷺ: «ما من راعٍ يسترعيه الله رعيةً يموت يوم يموت وهو غاشٌ لها إلاَّ حَرَّم الله عليه رائحة الجنة» رواه مسلم[2].

ودخل أبو مسلم الخولانيُّ على معاوية رضي الله عنه فقال: السلام عليك أيُّها الأَجير، فقالوا: قل السلام عليك أيها الأَمير، فقال معاوية رضي الله عنه: دعوا أبا مُسلم فإنه أعلم بما يقول، فقال: إنما أنت أجيرٌ استأجر رَبُّ هذه الغنم لرعيتها فإنْ أنت هَنَأْتَ جَرْبَاها، وداويتَ مرضاها، وحبسْتَ أُولاها على أُخراها وفَّاك سَيِّدُهَا أَجْرَك، وإن أنت لم تَهْنَأْ جَرْبَاها، ولم تُدَاوِ مَرضاها، ولم تَحْبِس أُولاها على أُخراها عَاقبكَ سيِّدُها.

وحكى ابن حمدون في «تذكرته» قيل: طاف الرشيد بالبيت فوطىء جُنْدُبَةً له فلم يدرِ ما عليه فيها فبعث المأمون إلى الفضيل بن عياض فسلّم عليه وقال: أمير المؤمنين يقرأُ عليك السلام ويقول: لنا إليك حاجة فأُحب أَنْ تَصِيْرَ إلينا. فلم يُجِبِ الفضيلُ بشيءٍ، فرجع المأمون وقال: رأيت رجلاً ليس به إليك حاجة. فقام الرشيد مغضباً، حتى خِيْفَ على الفُضَيْل منه فوقف عليه وسلّم، فوسَّعَ الفضيل له وردَّ السلام عليه، فلما جلس أقبل على الفُضَيل فقال: رحمك الله قد كان الواجب أَنْ تأتينا وتعرف حقَّنا إذْ ولاَّنا الله أُموركم فصيَّرنا الحكَّامَ في دمائكم والذَّائدِيْنَ عن حريمكم، وإذا لم تَأْتِنَا فقد أتيناك، إنِّي وَطَأْتُ الآن جُنْدُبَةً في الطواف، فما دِيَتُهَا؟! قال: فبكى الفضيل بكاءً شديداً حتى علا صوتُهُ وقال: إذا كان الراعي يسأَلُ الْغَنَمَ هلكتِ الغنمُ وإنَّما يجب على الراعي أَن يرتاد لغنمه المرعَى وَجَيِّدَ الْكَلأِ، وعَذْبَ الماء، فإذَا كنت يا أمير المؤمنين تسألني عن معالم الدين فَبِأَيِّ شَيْءٍ تسوسُ رعيتك؟ قال: فخجل الرشيد حتى عَرِقَ، وانصرف.

وحكى أحمد بن عبد ربّه في كتابه «العقد الفريد» أَن المنصور أَمير المؤمنين العباسيَّ بينما هو يطوف بالبيت ليلاً إذْ سمع قائلاً يقول: اللهم إنِّي أشكو إليك ظهور

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة [٢/ ٤٤١] ح [٨٩٣]. ومسلم في الإمارة [٣/ ١٤٥٩] ح [٢٠/ ١٨٢٩].

(٢) في كتاب الإمارة [٣/ ١٤٦٠] ح [٢١/ ١٤٢].

البَغْي والفساد، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فخرج المنصور فجلس ناحية في المسجد، وأرسل إلى الرجل، فصلّى ركعتين واستلم الحجر، ثم أقبل مع الرسول فسلَم عليه بالخلافة، فقال له المنصور: ما الذي سمعتُك تذكر من ظهور الفساد والبغي في الأرض؟! وما الذي يحول بين الحق وأهله؟ فقال: إن أمَّنْتَنِيْ يا أمير المؤمنين أعلمتك بالأمور من أصلها، وإلاَّ اقتصرت على نفسي ففيها لي شاغل. قال: فأنت آمِنٌ على نفسك، قال: يا أمير المؤمنين إنَّ الله استرعاك أمر عباده وأموالهم فجعلت بينك وبينهم حُجَّاباً من الْجُصّ والآجُرّ، وأبواباً من الحديد، وحُرَّاساً معهم السلاح، ثم سَجَنْتَ نفسك معهم، وبعثْتَ عُمَّالك في جباية الأموال وجمعها، وأمرتَ أن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان، مِمَّنْ سميتهم، ولا تأمر بإيصال الملهوف والمظلوم إليكَ، ولا أحدَ إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر، الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك، وأمرت أن لا يحجبوا دونك، تجبي الأموال وتجمعها، قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه؟ وائتمَروا أن لا يصل إليك منْ عِلْم النَّاسِ شيْءٌ إلاَّ أخْفَوْهُ ولا يخرج لك عامل إلاَّ خَوَّفوه عندك ونفوه حتى تَسقط منزلته، فلما انْتَشَرَ ذلك عنك وعنهم عظَّمَهم الناس فهابوهم وصانعوهم، وكان أول مَنْ صانعهم عُمَّالُك بالهدايا والأموال، ليقووا بذلك على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك ليتناولوا به ظلم مَن هُوَ دونهم، وامتلأَتْ بلادُ الله بغْياً وفساداً، وصارَ هؤلاء القوم شركاءك وأنت غافل، وإنْ جاءَ متظلِّم حِيْل بينك وبينه، وإذا أراد رَفْع قصّته إليك وَجَدَكَ قَدْ نَهَيْتَ عن ذلك، ووقفتَ للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإنْ جاءَ ذلك الرجل المتظلِّم وَبَلَّغَ بِطانَتَكَ خَبَرهُ سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك، فلا يزال المظلوم يختلف إليه، ويلوذ به، ويشكو ويستغيث، ويدفعه، فإذا جهد وأُحرج ثم ظهر لك وصرخ بين يديك ضُرِب ضَرْباً مُبَرِّحاً يكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر فلا تنكر، فما بقاء الإسلام على هذا؟! وقد كنتُ يا أمير المؤمنينَ أسافر إلى الصين فَقَدِمْتها مَرَّةً وقد أُصيب ملكهم بِسَمْعِهِ فبكى يوماً بكاءً شديداً، فحثّه جلساؤه على الصَّبْر فقال: أما إني لست أبْكي للبليَّة، ولكني أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته، فأنا إذَا ذَهب سمعي فإنَّ بصري لم يذهَبْ، نادوا على الناس: لا يلبسُ ثوباً أحْمَر إلاَّ مظلوم. ثم كان يلتفت طرفَي نهاره ينظر هل يرى مظلوماً، فهذا يا أمير المؤمنين مُشْركٌ بالله، بلغتْ رأْفَتُه بالمشركين هذا المبلغ، وأنْتَ مُؤمِنٌ بالله، ثم مِنْ أهل بيت نَبيِّه، ألا تغلبك رأْفَتُك بالمسلمين على شحِّ نفسك؟ قال: فبكى المنصور، وقال: وَيْحَكَ كيف أحْتال لنفسي؟ فقال: يا

أَمير المؤمنين إنَّ لِلنَّاس أَعلاماً يفزعون إليها في دينهم ويرضون بها في دنياهم، فاجْعلهم بطانَتَك يرشدوك، وشاورهم يُسَدِّدُوك. قال: قد بعثت إليهم فهربوا منِّي، قال: خافُوا أَنْ تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بَابَك، وسهِّلْ حجابك، وانصر المظلوم واقمع الظالم، وخُذِ الفَيْءَ والصدقات على وجوهها، وأنا ضامِنٌ عنهم أَنهم يأتونك ويساعدونَك على صلاح الأمة.

وجاءَ المؤذنون فسلّموا عليه وصلّى، وعاد إلى مجلسه وطلب الرجل فلم يُوْجد فيقال: إنه الخضر عليه السلام، وهذا كله ظاهر في الاعتبار فإنَّ الخلق عباد الله والولاة نواب الله على عباده.

إذا عرف هذا فليس على وَليّ الأمر أَنْ يُوَلِّيَ على حجاج بيت الله الحرام ووفدِه وقاصديه إلاَّ الأصلح الموجود ممن هو صالح لتلك الولاية، فإنَّ الولاية لها ركنان: القُوَّةُ والأمانة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] وقال الله تعالى في صفة جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]. فالقُوَّة في إمارة الحرب تَرْجع إلى شجاعة القلب، والخبرة في الحروب، والقدرة على أنواع القتال، والقوةُ في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل، والقدرة على تنفيذ الأحكام، والأَمانةُ ترجع إلى خشية الله تعالى، واجتماع القوة والأمانة في الناس قليل.

قال صاحب «الفروع»: يعتبر في ولاية تَسْيير الحاج كونه مطاعاً ذَا رأْي وشجاعة وهداية، وعليه جمعهم وترتيبهم وحِراستهم في السير والنزول، والرِّفْقِ بهم، والنُّصح، ويلزمهم طاعته في ذلك. ويُصلح بين الخصمين، ولا يحكم إلاَّ أن يُفَوَّضَ، فيعتبر كونه من أهله.

- قال الآجُرِّيُّ: يلزمه علمُ خُطب الحج والعمل بها، فإمرة الحج ولاية سياسيَّة، وتدبير وهداية، لأنها من أَجلِّ المراتب الدينيّة، وأَفخم الوظائف السُّنِّيَّة. وأَمير الركب هو الذي يخبرنا بالوفد في تلك الأَماكن الكرام، والمشاعر العظام، والمتلَبِّسُ بفرض شعائِره ظاهرة في الإسلام، فدخلِ بهذه المرتبة الشريفة فوق النَّيِّرَيْن، وعلا مَحَلُّهُ على السِّمَاكَيْن، وناب عن الإمام الأعظم في خدمة الحرمين الشَّرِيفَيْنِ، فقد تولاها رسول الله ﷺ بنفسه فحجّ بالناس السنة العاشرة من الهجرة كما تقدّم ذكره، وحجّ بالناس الإمام أَبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه وبعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه

في خلافته إلا السنة الأُولى منها، ذكر ذلك الفاسيُّ في كتابه «العقد الثمين».

وحجّ بالناس بعده الإمامُ ذو النُّورَيْنِ عثمان بن عفان رضي الله عنه في جميع خلافته إلا السنة الأُولى والأَخيرة، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وأَخوه هشام بن عبد الملك، وأَبو جعفر المنصور، والمهدي ولده، وهارون الرشيد تسع حجج، والملوك من اليمن ومصر والشام وبغداد والعراق، والأَكابر من جميع الآفاق.

وآخر ما كانت عليه هذه الإمرة في زمن الجراكسة على ما ذكره الشيخ الوالد ـ سقى الله تعالى عهده صوب الرضوان، وأَسكنه بحابح الجنان ـ وغيره من المتقدمين في السن، لمن يكون متَعَيِّناً من أكابر مُقَدَّمي الأُلوف، وأَعيان أُمراء (الصناجق) والصفوف، ولهم ولغلمانهم وأَتباعهم وخدمهم من الحرمة والمهابة وقيام الناموس والمراعاة والجاه ما لا يدخل تحت حصر.

وكانت الأُمراء يناظر بعضهما بعضاً وتَتَضاهى في التفنُّن في حسن (يرق) الحاج وأُبهته والتوسع في مأكولات ومصروفاته وإنعاماته وسعته.

وكانت أَرباب الوظائف والغلمان والمقدمون وغلمان البيوتات وعربان الحمل إذا أَرادوا جاهاً وعِزًّا وحمايةً ووقاية يسعون إلى خدمة أُمراء الحاج أَشدَّ السَّعْي، ويتطلّبون ذلك من أَبوابهم، ويبذلون ما أَحَبُّوا، ويرغبون فيه ليبلغوا ما يريدون من الوجاهة والحرمة، حتَّى ولو كانوا أَصحاب جنايات لا يتعرّض إليهم، ولا يعوَّل في مكروه عليهم.

ولعمري فقد عكس هذا الموضوع، وصار مَن عرف بخِدمة هذا المُهِمّ الشريف بكل باب مدفوع، ولقد ضعف الطالبُ والمطلوب، وصار يسعى في هذه الإمرة وفي مناصب بابها مَن ليس بمحبوب ولا بمرغوب، وقد تولاها كشاف الجسور، ومَن لا خبرة لديه بالأُمور، وأَسافل الناس ونفر العسكر، ولا يحْتَاج إلى البيان عن ذلك فإنَّه من الشمس أَظهر.

والذي على أَمير الحاج في هذه الولاية عشرة أَشياء ذكرها الإمام النَّوويُّ رضي الله عنه في «مناسكه» عن الماورديِّ، مخلصاً[1] جداً، وعبارته في «الأَحكام السلطانية»: هذه الولاية ضَرْبان:

أَحدهما: أَن تكون على تسيير الحج.

(١) انظر: شرح الإيضاح للنووي [ص٥٦٨].

والثاني: على إقامة الحج.

فأما تسيير الحج فهو ولاية سياسة، ورعاية وتدبير؛ والشروط المعتبرة في الْموَلّى أن يكون مطاعاً، ذا رأي وشجاعة وهداية، والذي عليه في هذه الولاية عشرة أشياء:

أحدها: جمع الناس في سفرهم ونزولهم حتى لا يفترقوا فيخاف عليهم العدو والتغرير.

الثاني: ترتيبهم في المسير والنزول، وإعطاءِ كل طائفة منهم محلاً معروفاً، حتى إذ نزلت عُرِف محله، حتى لا يتنازعوا فيه ولا يضلُّوا عنه.

الثالث: أن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنهم ضعيفُهُم ولا يضل عنه مستطيعُهُم.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «المضعف أمير الرفقة»[1] يريد أن مَن ضعفت دوابُّهُ كان على القوم أن يسيروا بسيره.

الرابع: أَنْ يسلك بهم أَوضح الطرق وأَحْسَنَها، ويتجنّب أَوْعَرَها وأَجْدَبَها.

الخامس: أَنْ يرتاد لهم المياهَ إذا قَلَّتْ.

السادس: أَنْ يحرسهم إذا نزلوا، ويحوطهم إذا رحلوا، حتى لا يتخطّفهم ذاعر، ولا يطمع فيهم متلصِّص.

السابع: أَنْ يمنع عنهم مَن يصدُّهم عن المسير، ويدفع عنهم مَن يحصرهم عن الحج بقتال إن قدر عليهم، أو بَذْل مالٍ إنْ أَجاب الحجيج إليه، ولا يسعه أَن يجبر أَحداً على بذل الخفارة إن امتنع منها، حتى يكون باذلاً لها طوْعاً، وإن بذل المال على التمكين من الحج لا يجب.

الثامن: أَنْ يصلح بين المتشاجرين، ويتوسط بين المتنازعين، ولا يتعرّض للحكم بينهم، فإنْ دخل بلداً فيه حاكم جاز له ولحاكم البلد أن يحكما بينهما فَأَيُّهُمَا حَكمَ نَفذَ حكمه، وإنْ كان التنازع بين الحجيج وأَهل البلد لم يحكم بينهم إلا حاكم البلد.

التاسع: أَنْ يُقَوِّمَ زائغَهم، ويؤَدِّبَ خائنهم ولا يجاوز التعزيرَ إلى الحدِّ، إلاَّ أَنْ

---

(١) لم أجده، والتقصير منا.

يُؤْذَنَ له فيه فيستوفيه (؟) إذا كان من أَهل الاجتهاد فيه، فإن دخل بلداً فيه مَن يتولى إقامة الحدود على أَهله نظر فإن كان ما أَتاه المحدود قبل دخول البلد فوالي الحجيج أَوْلى بإقامة الحدّ عليه.

العاشر: أَن يراعي اتِّساع الوقت، حتى يؤمن الفوات، ولا يُلْحِقهم ضيقةً في الحثّ على المسير، فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام، وأَقام بسببه، فإن كان الوقت متسعاً عدل بهم إلى مكة، لِيَخْرُجُوا مع أَهلها إلى الموقف، وإن كان الوقت ضيِّقاً عدل بهم عن مكة إلى عَرَفَة، خوفاً من فواتها فيفوت الحجُ بها، فإذا وصل الحجيج إلى مكة فمَن لم يكن على العود منهم زالتْ عنه ولايةُ الوالي على الحجيج، فلم تبقَ عليه يده، ومَن كان منهم على العود فهو تحت ولايته انتهى.

قال: وأما إذا كانت الولاية على إقامة الحج فهو فيه بمنزلة الإمام في إقامة الصلاة، فيشترط أن يكون عالِماً بمناسك الحج وأحكامه، عارفاً بمواقيته وأيامه، وتكون مدَّة ولايته سَبعة أيَّام، أولها من صلاة الظهر في اليوم السابع من ذي الحجة، وآخرها يوم الحلاق، وهو يوم النفر الثاني في اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، وهو فيما قبلها وبعدها أحد الرعايا، وليس من الولاة[١].

وقد بسطتُ الكلام في ذلك مما لا يوجد في غير هذا المؤلف ـ بعون الله ـ فنقول:

الأَول: أَنْ يجمع الناسَ في مسيرهم ونزولهم، لِئَلاً يتفرقوا، فيخاف عليهم من المفسدين من العربان والسُرَّاق، فإنه يجب أن يعلم أَنَّ درب الحاج وطريقهُ مَتْبُوْعٌ في ذلك الأَوان، خصوصاً في منازل معروفة بالدرب الشريف مثل ليلة الْمُعَشَّى برمل المنْصرف وثغرة حامد، لهذا يبيت الركب في هاتين المنزلتين إلى طلوع الفجر أو قبله بيسير، وكذلك في المحل المعروف بعِرقوب البغلة، وفي ليلة سطح العقبة، وفي النزول في مضيقها، وفي مناخ عقبة أَيْلة ذهاباً وإياباً فإنَّ الإقامة به بهذا المعنى ستة أَيام، وطوائف العربان واردون على هذا المحل كثيراً في زمن مرور الحاج به، كما لا يخفى ذلك على السالكين في هذا الدرب، والمترددين عليه لقربه من حِسْمَا والكَرْك وغيره والشَّوْبك وبلاد الشام وغير ذلك، وكذلك في مَعْشَاةِ بَيْنَ الْجُرْفَيْنِ والشَّرَفَة والمسير فيهما، وبالجملة فإن الربع الأَول وما بعده إلى مغارة شُعَيْب والمحل المعروف بِكُبَيْدَةَ ـ بضم الكاف ـ بلاد بني عَطِيَّة، وغالبهم أهل الفساد وبعضهم أكثر

(١) انظر: الأحكام السلطانية للماوردي [ص١٩٤ ـ ١٩٧].

فساداً من بعض كالحُويطات والرُّتيمات والسواركة والترَّابين والعمَّارين وغيرهم، وستقف على المشهور من بدناتهم مفصَّلاً في بابه.

ومن مغارة شُعَيْب إلى حدِّ بلاد الحجازِ ومكة والمدينة والينبع طوائف شتَّى من عربان بني عُقْبة وبَلِي وجُهَيْنَةَ وعَنَزَة وصُبْح ومُطيْرِ، وغيرهم، وينْضَمُ ويَلْتَئِمُ مَعَ الرَّبائع جماعة من عربان الفساد، يتوسّمون الأذى للوفد من كل عام كالمتسَبِّبَةِ.

وقد رأينا من أهل الأَدْراك مَن يَحْرس دَرَكَهُ ويصونُه، ويرحل مع الركب، يتعمد فعل الأَذى والسرقة في دَرَك غيره كعُرْبان بَلِي، الأَحامدة وغيرهم.

ومن طوائف العربان مَن يلازم أتّباع الركب للأذَى والفساد، إلى بلاد الحجاز.

فقد مسكوا بنو عطية الحويطات وغيرهم ليلاً بمنزلة رابغ وغيرها وضُرِبت أعناقهم، ومن لفيف بني عطية طائفة تدعى السلالمة أكثر فسادها بالمغارة وعيون القصب والمويلح، وتتبع الركب إلى محل إمكانها.

وقد يكون الفساد والأَذى في بعض الأَوقات من بعض طوائف عربان الربائع، كالسعادنة والرواشدة، وقد رأينا بالاستقراء والتجارب اعتماد السرّاق لأَذى الحجّاج في ليلة المبيت بمنزلة المويلح بالرجعة غالباً، فإنَّ اعتماد السرّاق لتتبع أهل الركب في الرجعة أكثر من مسافة الطلعة طمعاً ما فيما يصحب من التجار من القماش والبهار، وما يصحب بقية الحاج من الهدايا، فلينتبه أمير الحاج للحراسة في مثل الإقامة بمناخ العقبة وليلة المُوَيلح بالرجعة خصوصاً وفي المواضع التي ليس فيها صاحب دَرَك، أو الدَّرَكُ مُخْتلف فيه كاختلاف عربان العائد وبني عطية في الدَّرك من منزلة نخل إلى سطح عقبة أَيلة، ومنه إلى جانب البحر محل زينة أَمير الحاج فإنه في خفارة بني عطية اصطلاحاً كما سيأتي في بابه، وكمنزلة أَكْرَا في الطلعة والرحيل منها ليلاً، فإنها نهاية دَرَكُ بَلِيٍّ، وأول درك أهل الحجاز الحريرة، وهي العقبة السوداء بالقرب من الحوراء، وما بين أكرا والحريرة بلا درك ولا خفارة، ما عدا المحل المعروف بطارف الحنك، فإنَّ دركه الآن لشخص من عبيد بني حسن ولفيفهم، يدعى بابن شوفان، وابن رقطية، ولا قدرة له على الخفارة لكونه بمفرده، فإنَّ ذلك المحل وما والاه يردون به عربان العنزة وغيرهم، للأَذى، فإن لهم محرساً من المدينة المنورة الشريفة إلى أكرا قريب المسافة فيقصدون الأَذى والتخطف هناك، وسيأتي ذكر ذلك عند ذكر الأَدراك وطوائف العربان بأَبسط من هذا.

وبالجملة فينبغي أَن يكون أمير الحج على غاية من التيقُّظ لذلك ومثله، ويسأَل أهل المعرفة بالدرب عن أهله وطرقه ومحارسهُ ليكون على بصيرة في سائر أموره، ومن جمع

الناس في سيرهم أن لا يكون بين ركب الدليل و(الصنجق) مثلاً بُعْدٌ، أو بين (الصنجق) والعيدان، بحيث أنهم لا يرون بعضهم أو لا يسمع بعضهم كلام بعض، فمثل ذلك فيه تفريط كبير بالحاج، فقد يخشى التخطُّف حينئذ، وخصوصاً في الليل.

الثاني مما يجب على أمير الحاج: ترتيبهم في المسير والنزول، وإعطاء كل طائفة منهم محلاً معروفاً حتى يعرف كل فريق منهم مكانه إقامةً وسيراً، لئلا يتنازعوا ولا يضلُّوا عنه، قلت: وهذا الأمر الثاني هو المسمَّى بالترتيب والتعقيب، وهو من المهمات الكبار لمراعاة مصلحة الحجاج وراحتهم من الازدحام والاصطدام والشرود والفتن مع بعضهم بعضاً.

واعلم أن أول مَن عقب الحاج المصري عند رحيلهم من بركة الحاج وابتدأ التوجه إلى مكة الأَمير جمال الدين (الأستادار) عندما استقر ولده شهاب الدين أمير المحمل في سنة تسع وثمان مئة، فجعلهم قطَارَيْنِ مُتَحاذيين لا غير، جعل ناساً بعد ناس، ليسيروا ذهاباً وإياباً في راحة، فاستمرَّ هذا ولم يتغير، وكان الحجاج يسيرون كيف شاؤوا، فإذا دخلوا إلى مضيق وقف أمير الحاج بنفسه وعقبهم، فساروا قطاراً وقطارَيْن بحسب الحال حتى يتخلَّصوا من المضيق بغير قتال، فيسيروا كيف شاؤوا. ثم لما تغيرت الأَحوال وولي الأُمورَ غير أهلها، قَلَّتْ عناية أمراء الحاج بما ذكرناه، فصار الناس في المضايق يفضي بهم الحال إلى القتال، وإسالة الدماء، وكسر الأَعضاء، وغلَبة الأَقوياء على الضعفاء.

ثم لما ولي الأَمير كُزُل العجمي الحاجب في سنة سبع وثمان مئة جبا من الحاج مالاً كثيراً حتَّى عقبهم في المضايق.

فقصد أَمير جمال الدين (الأستادار) بما فعله خيراً، فكان خيراً من وجه، وشَرًّا من وجه: أما خَيرهُ فراحة الناس من الازدحام في المضايق، وأما شَرُّه فإنَّ الأَقوياء يسيرون أَولاً فأَولاً، وضعفاءُ الناس لا يزالون في الأَعقاب، فإذا نزلوا لا تقدر الساقة ترحل حتى يرحل مَن تقدّم، فيسيرون طول سيرهم في عناء، قال العلامة صاحبنا جارُ الله بن فهد ـ نقلاً عن والده عن الشريف الفاسيّ ـ: وأحسن من ذلك ما كان الناس عليه في تعقيبهم عند المضيق من غير غلبة ولا قتال. قلت: لعل الحاج في تلك السنين لم يكن بهذه الكثرة التي في زماننا هذا حتى حَسَّنَ الوجه الأَول المؤرخون، وفيه نظر، واستمر ما رتبه الأَمير جمال الدين (الأستادار) عند سفر ولده شهاب الدين أمير الحاج مرتَّباً في كل عام، وزادت القُطُر فصارت أربعة من غير

زيادة، أخبرني بذلك المشيخة الذين أدركوا صَدْراً من دولة الجركسية، ثم تزايدت القطر في الدولة المظفرية بحسب آراء أمراء الحاج، إلى أن صار المصطلح عليه في زماننا تسعة عقوب، وتارة تنقص واحِداً أو تزيد.

فلنذكر شيئاً من ترجمة الأَمير جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمد بن جعفر بن قاسم الأَمير الوزير المشير جمال الدين (الأستادار) البيري الحلبي المعروف بـ(أستادار) بجاش: كان أبوه خطيباً بالبيرة، وتزوج بأُخت وزير حلب شمس الدين بن مهلوك، فولدت له يوسف وإخوته، قال المقريزيُّ رحمه الله في كتابه «درر العقود الفريدة في تراجم الأَعيان المفيدة»: إن يوسف هذا خدم عند الشيخ على كاشف بردمش في زيِّ جندي، وقدم القاهرة فترقَّى في خدمة الأُمراء، حتى صار (أستادار) الأَمير بجاش، وطالت أيامه عنده فعُرِف به، وآشتهر بعد موت الظاهر برقوق بكثرة المال، وعرف بقضاء حوائج الناس، فقصده الأَكابر، وكثر تردادهم إلى بابه، واجتمع له (استدارية) نَحْوَ عشرين أمِيراً، وصار ملجأ الْقُصَّاد، وقام بأَعباءَ ثقيلة من مُهمَّات الأُمور التي لا ينهض بها غيره، ثم أستقر (استاداراً) عوضاً عن ابن غراب في رابع شهر رجب سنة سبع وثمان مئة، فشكرت مباشرته، وقوي أمر جمال الدين، وازداد عظمة، ثُمَّ أُضيف لجمال الدين نظر الخاص والوزارة في نصف شعبان سنة تسع وثمان مئة عوضاً عن فخر الدين ماجد بن غراب، وجعل إليه مع ذلك كشف الوجه البحري. وعَظُمَ أَمْرُهُ، وانقادت أُمور الدولة إليه بأَزِمَّتِهَا، وكانت عامة الأُمور تصدر برأيه، وكافة أهل الدولة تتردد إلى بابه، وسائر الناس تهرع في حوائجها إليه، وصار يُسْتَأْذَنُ في إمضاء ما رَسَم به السلطان من ذلك، وصاحب القلم السلطانيّ بمفرده، ولا يعقد مشور سلطانيّ مُهِمٌّ إلا به، ولا يخرج إقطاع بديار مصر وبلاد الشام لأَمير أو جندي إلاَّ بإذنه، ولا يكتب موقعو الدست وصيةَ أحد مِنَ الناس جليلاً كان أو حقيراً، حتى يأذن في كتابتها، ولا تباع دارٌ حتى تعرض عليه، ولا يمكن أمير من الأُمراء وإن عظم لاستخدام كاتب أو شاهد أو (استادار) إلا بتعيينه، ولا يقدر أحد من الأُمراء أن يتكلَّم في فلاَّح إقطاعه إلا بإذنه، ولا يُثْبِتُ قاضٍ مكتوباً حتى يستأذنه ولا تباع تركة ميت سواء كانت له ورثة أو كانت لبيت المال حتى ترفع إليه قصته، ويكتب عليها بالإذن، سواء قلَّتِ التركة أَو كثرت، أَو كانت لأَمير أو غيره، ولا يباع جوهر، ولا صينيّ، ولا آنية ذهب أو فضة، ولا كتاب نفيس من كتب العلم، ولا سلاح ولا فَرْوٌ ولا ثوب صوف ولا ثياب حرير، إلا بعد عرض ذلك عليه، فإمَّا أَخذه أَو تركه، ولا يقدر أَحد أَن يلي وظيفة من السلطان ولا من القضاة ولو قلَّتْ إلاَّ بأمره، ومَن تعدّى

عليه في شيء مما تقدّم ذكره من شراء شيْءٍ أو تقليد وظيفة نَكَّلَ به، وبالغ في عقوبته، فانضبطت له عامَّة الأُمور، ودان له الخاص، والعام، وخضع له الأمير والمأمور، حتى إنه لم يبق شيْءٌ من الأُمور الجليلة والحقيرة إلاَّ وهو جارٍ تحت حكمه، ومَغْدوق (؟) بأمره ونهيه، وداخل تحت حوطته، وتَتَبَّع مَن كان يخشى منه أن يُؤَهل لما هو بصدده فقتلهم، وكان يمتُّ إلى السلطان بكثرة ماله وجزيل ما يحمله، فبذل لمَن أراد قتله مالاً كثيراً حتى تمكَّن من الأَمير يلبغا السالمي، وقتله بثغر اسكندرية في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة، ومن الوزير فخر الدين ماجد بن غراب وقتله في ذي الحجة منها، ومن الوزير تاج الدين بن البقري، ومن الأَمير ناصر الدين بن محمد ابن الأَمير محمود، ومن الأَمير ناصر الدين محمد بن كلفت وقتلهم، في آخرين، ظنًّا منه أن الأَيام تعطيه مناه، وتبلغه منها غاية ما يتمناه، حتى إذا دنا حمامهُ، وأنقضت لياليه وأيامه، لم يُغْنِ عنه سلطانه، ولا نفعه ماله، ولا دافع عنه أَعوانه، فإنه لما تحقق السلطان الناصر فرج سعى جمال الدين في إفساد دولته، وإزهاق مهجته، بأَصح الطرق التي توالتْ عليه، أَخفى ذلك عن جمال الدين، ولما عاد السلطان من دمشق ونزل على غزَّة، أَظهر لجمال الدين الجفاء، وجدَّ في المسير حتى نزل على بُلْبَيْس، فقبض على جمال الدين، وعدة من حواشيه، وأَتباعه، في يوم الخميس تاسع جمادى الأُولى سنة اثنتي عشرة، وحملوا في القيود مع الأَمير الكبير تَغْري بردي إلى القاهرة، وهم بضعة وعشرون رجلاً، وأَوقع الحوطة على دَوْرِ جمال الدين وأَتباعه، ورسم بتتبع أَموال جمال الدين وكتب إلى الأَعمال بالحوطة على ماله، منْ صامت وناطق، وما لأَقاربه وحواشيه، فَحُمِلَ شيْء كثير من سائر الأَصناف، وعُصِر جمال الدين وابنه أَحمد بحضرة السلطان ثم ضرب عرياً على أَكتافه، وسلّم إلى ابن الهيصم (الاستادار) فتولى عقوبة جمال الدين أَعدى أَعدائه الأَمير حسام الدين حسين شاد الدواوين، ووالي القاهرة، وكان جمال الدين قد قبض عليه وبالغ في إهانته وعقوبته، يريد قتله، فرسم السلطان بتخلية سبيله، فأَفرج عنه، فاختفى حتى إذا قبض على جمال الدين ظهر واستقرَّ شادَّ الدواوين، وتسلّم جمال الدين، وعاقبه حتى تجاوز الحدَّ في عقوبته، ثم خنقه في يوم الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة سنة اثنتَيْ عشرة وثمان مئة، وقطع رأسه، وحُمل إلى السلطان حتى رآه، ثم أُعيد إلى جسده ودُفن بتربته خارج باب النصر:

فَتًى كَانَ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ ... عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الأَعَادِيَا

ذِكْر ما اصطلح عليه الآن من أمر التقطير، وكيفيَّته وترتيبه

فنقول: إنَّ الذي عليه أُمراء الحاجِّ الآن أَنَّ رَكْبَ الحجيج إذا نزل المحلَّ المعروف بعجرود، فعادته أَن ينزل الدار وقت المعشَّى، ويبيت تلك الليلة بها، لإراحة الناس والجمال من المسير الذي على غير تعقيب ولا ترتيب، ثم يتقدّم أمر أَمير الحاج لجماعته بتفرقة العليق، ومأْكولات العسكر والمضافات سحراً، ويرحل من عجرود بعد الشمس بعشرين درجة أَو ثلاثين، بعد أَن يتقدّم إعلامه لأَكابر الركب وأَعيانهم بمحلاَّتهم التي يعينها لهم، وعاداتهم بين الدليل و(الصنجق)، ويركب أَمير الحاج بنفسه ومَن يستعين به من مقاطره وأَخِصَّائه، وإن صحب معه مُقَدَّمَ الجمَّالة كان حسناً، لمعرفته بركاب جماله من أَكابر الحاج، وعدد الجمال التي معهم، ويجمع الركب من الطليعة إلى الساقة جمعاً واحداً، ويأْخذ عليه الطرقات بجماعة من العسكر على خيولها، بحيث أن لا يسير واحد من الركب إلا بأَمره، فإذا فعل ذلك أَمَرَ أَوَّلاً بتقدم جمال شعارته الحاملة للعليق أول الركب، ثم يليها جماعة الدُّلَّاءِ على رواحلهم صفًّا واحداً، بحيث أَن تكون الشعارة قريبة منهم يسيراً ثم يلي الدُّلَّاء ركبٌ خاص بأَمير الحاج، أَوله الفرّاشون الحاملون للخيام وآلاتها وذلك أَن الأَشاير تابعة للدليل يأْتمرون بأَمره في الرحيل والنزول، ثم الطباخون والمخابزية للمسابقة إلى أَخذ الدار، وسرعة ابتداء عملهم فيما يعملون للغداء والعشاء، قبل نزول بقية الركب، ليكون ذلك فسحة لهم، ثم السَّقَّاؤُونَ بجمالهم وأَحمالهم وقربهم بيمنة ويسرة لاحتياج الطبَّاخ والمخبزيِّ إليهم، لكونهم يردون على مناهل المياه ومواردها أَول الحاج.

ثم يليهم مَن يتقدّم من أُمراءِ (الصناجق) إن كان، وأَعيان الأَكابر بمحفَّاتهم وأَحمالهم المغطاة، وأَثقالهم يمْنةً ويُسْرَةً على ترتيب لا يكون فيه زحام، بحيث أَن تكون هذه القطر وعددها دون التي وراء العيدان بكثير، ويحث عليهم أَمير الحاج، ويلزمهم أَن لا يُدْخِلُوا معهم مَن لا يكون مَنْ لازمهم، كمَن يسأَلهم القطار معهم من الفلاحين والرعاع والغوغاء، فإنَّ هذا المحل يضيق على ذلك، بل إن كان في الأَكابر فلاَّحةٌ مسافرون فلا يسوغ لهم التقدم في هذا المحل مطلقاً.

ويلي هذه الأَكابر جمال الهجن الخاصة وهجانتها ثم (الطبلخاناة) المصرية ثم جمال (الزردخانة) السلطانية والعربات ثم الخيول مجنوبةً مع (أوجاقيتها) ثم محفة الركاب، ثم الخزائن وهي الصناديق المشتملة على مال الصُّرر والأَوقاف، والودائع السلطانية، المجهزة لأَهل الحرمين في كل عام، من مرتبات العربان ومال الأَوقاف

الرومية والجوالي، ومال أوقاف الدشيشة، المجهز لأجرة نقل القمح من البنادر إلى مكة والمدينة وغير ذلك مما له قَدْرٌ وقيمة، وعادتها ثلاثة أحمال من الصناديق المغشاة بأثواب الحرير الأصفر القرمزي المكلل دوائرها بالمشلشلات والحرير الملون، ولها هجَّان يقودها، وعكَّامة خاصة لحملها، ونزولها بالدُّوْر.

ويلي الخزانة (الصنجق) الشريف السلطاني، والعسكر المنيف الرحماني حافّين بجوانبه ركباناً على الهجن المكملة بالأكوار الخشب، والغُبُطَان الموشقة والمدهونة بميائرها ووشاحاتها، وشباكها وآلاتها، على ما جرت العادة بأحسن أُبَّهَة وأجل نظام، وأبدع ترتيب، من الشبان والشجعان وأهل القوة والبأس.

ووراء (الصنجق) (الطبلخانة) الرومية المكملة على العادة بطبلين ونقرزانين وزمارين ومنفرين، على غاية من المهابة والحرمة.

ويعقب العسكر جماعة الهجانة على جمالهم، مما فيه ردع للمفسدين والمتعرضين لوفد الله تعالى، وإيقاع الرعب والخوف في قلوبهم، خصوصاً إن كان أمير الحاج من أهل الشجاعة والبأس، ومن المشهورين بالفروسية وعسكره على مثل صفاته، ومصرف هذا العسكر من مأكوله ومشروبه ومركوبه، وما تحتاج هجنهم على التكفية من وثائر ووشاحات وبدائد وأسباب، و(جوامك) الهجّانة من مال مقاطعة إمرة الحاجّ، المجهزة إليه من الخزائن السلطانية، والتكفية عليه، هذا ما يتعلق بالعسكر الذين تحت (الصنجق) وأما جماعة العسكر (البلكات) من الكمليين و(التفكجيين) و(الحصاريين) والعرب الذين يركبون على جمال المقومين بالأجرة المصروفة من ديوان السلطنة، فليس لهم عادة على أمير الحاج من مأكول ومشروب ومركوب، وغيره مطلقاً، سوى ما يصرف لهم بالْبَرْكَة عند التوجه لابتداء السفر، وعادة ذلك ليلة الرحيل، ويكون الإحراقة بعده، وهو لكل نفس رأسان من السكر ومجمعان من الحلوى المتنوعة، ولرأس كل (بلك) نوع زيادة على هذا العدد، مع ما لـ(بلك باش) كلِّ طائفة من الافتقادة في بعض المناهل بما تَيَسر من الغنم والسكر، إن كان موجوداً، ولهم خاصة لكل (باش) هَجِيْنٌ بِكَوْرِهِ وأسبابه من الخرجيات، وعليقُ بغله في كل يوم.

ويتنفل في ذلك (بلك باش) الكمليين و(التفكجيين) بزيادة عن (الإنكشارية) والعرب، إن كان من (الكواخي)، ولكل نفر من الأربعة مشعل لِضَوْءِ ركابه.

واعلم أن العادة المجمع عليها من حين برز أمر السلطنة بتجهيز العسكر صحبة

الركب، لكل نفر من السكر والحَلْوَى رأسان لا نقص عن ذلك، وقد أَخلَّ بعضُ أُمراء الطمع برأس من السكر، ومَجْمَع من الحلوى، لكل نفر في بعض السنين لولايته، فحصل من الغوغاء عليه من جماعة العسكر والرعاء التشويش والشكاية والتقصير في خدمته، وفي مهمات الركب إلى الغاية، وإنما ذكرنا ذلك هنا ليحذر أَمير الحاج من اتِّباعه في تلك السنة، فمَن سنَّ سنّة سيئة فعليه وزرها إلى يوم القيامة وبالضد.

وعِدَّةُ العسكر الذين مع (السنجق) رُكْبَاناً على هجن أَمير الحاج على ما سنذكره فمن جماعة الكمليين ثلاثون نفراً، وهذا العدد مستمرٌ لا ينقطع ولا ينقص، فإن كان عند أَمير الحاج بعض نفر منهم كمل بهم العدد، وأَما (التفكجيون) الهجانة فليست لهم عادة لازمة في صحبة (السنجق) ولا يركبون على هجن أَمير الحاج إلا باختياره، فمتى أَراد ذلك يأخذ جمالهم التي هي بالأُجرة السلطانية، أَو أُجرتها لنفسه ويركبون الهجن بدلها. ونهاية مقدار مَن يتعين منهم مع (السنجق) من عشرة إلى خمسة عشر، ويصير حينئذ جميع لازمهم عليه، من المأكول والمشروب والمركوب كغيرهم.

وأَما الجراكسة فالذي كان عليه عددهم مئة نفر، ثم تناقص ذلك بطلب أَمير الحاج، إلى أَن صار عددهم الآن إلى ستين نفراً ودونها. بما فيه (النوباجية) بخان عقبة أَيلة عشرة أَنفار (والنوباجية) بخان الأَزْلَم عشرة أَنفار، وإن كان لأَمير الحاج عدة من المماليك كانوا على الهجن مع (السنجق) هذا ما يتعلق بـ(السنجق).

وأَما العسكر الذين هم يركبون على جمال المقومين بالأُجرة السلطانية فكان عددهم من ابتداء تقريرهم في السفر، صحبة الركب في سنة سبع وعشرين وتسع مئة في ولاية جانم من دولات باي، كما يأْتي بيانه ثلاث مئة وستين نفراً من (البلكات) الأَربعة وهم: الكمليون والتفكجيون والحصاريون والعرب، فلما كانت ولاية خسرو باشا في سنة اثنتين وأَربعين وتسع مئة نقصهم مئة وعشرين نفراً، ووفّر أُجرة جمالهم ومصروفهم بالسلطنة، واستمر الباقي من ذلك وهو مئتان وأَربعون نفراً على عددهم إلى الآن، كما وفّر تلك السنة أَيضاً من مصروفه عمل ثوب الكعبة المعظمة مبلغاً وافراً مع أنه من مال الوقف لا من مال السلطان الذي هو في الحقيقة بيت مال المسلمين.

ولنرجع إلى ذكر بقية القُطر وترتيبها فنقول: ثم بعد (السنجق) والعسكر محفة الحريم والأَحمال المغطاة إن كان ثَمَّ حريم، ثم يَلِي ذلك عودا السنيح على جملين

عَاليين، من أَكبرها وأَحسنها منظراً وهيبة وقدراً، ولهما رحلان مُعَدَّان لذلك، على أَحسن هيئة وأَبدع نظام، وفي رأْس العودين علمان أَحمران يعملان في المواكب والتطاليب، زينت وشهرت، ويلي عُوْدَا السَنِيح، وهما (باشة) حملان مسطحان موشقان، مُذَهَّبان مخيشان بالخيط المثلث صناعة رئيس النسيج، ويلي ذلك بقية أَصناف عمل النسيج من (الحوائج خاناه) والمزاود والأَقفاص، وهما قطاران متحاذيان إِلى نهايته، وقطار ثالث للعسكر المنصور، يسيرون من جانب الجبال لا من جهة البحر ذهاباً وإِياباً، وقطار رابع أَوله لجمال حمل الصدقة الشريفة (الخنكارية) المسماة بالسحابة المستجدة الإِنشاء من باب تسمية الشَّيْء باسم لازمه لكون أَنَّ للفقراء المخصوصين بهذه الصدقة، سحابة على هيئة الجملون كبيرة، تنصب لهم في كل يوم، ينزلون تحتها يستريحون، ويستروحون بظلها، ولهذه السحابة من الماء والزاد والقمصان والمراكيب والأَكفان، والشقادف تحمل المشاة، والعيان ما يحمل على مئة جمل، أَمر بإِنشائها مولانا السلطان سليمان ـ نصره الله تعالى ـ نصراً مُؤَزراً، في ولاية سليمان باشا نائبه بمصر في سنة ثمان وثلاثين وتسع مئة على يد المقر المرحوم الأَمير جانم الحمزاوي ناظر الأَموال بمصر، ورتبها المرحوم الوالد رحمه الله تعالى ترتيباً حسناً وقُرِّرَ في مباشرتها والنظر عليها إِلى وفاته، وباشرتها بعد وفاته سنوات عديدة، وبقية العقوب لمقدمي الركب لحمل التجار الخاصة أَصحاب الحمول والمؤجَّر يكونون في قلب الحاج وللرعايا والحجاج.

وفي الغالب يكون جملة الجميع تسعة مقاطر، وتارة يزيدون واحداً أو ينقصونه، هذا ما عليه القطار الآن، وفيه زيادة عدد.

وأَما عقباء السنيح فما كان من جانب الميمنة يكون يليه تعقيب المحمل الشريف، وجماعة من القاضي والشهود والرقية، والكسوة الشريفة، واتباع المحمل، ويليهم الرعايا إِلى آخر العقب، وفي بعض السنين يجعل المحمل الشريف مع (السنجق) تجاهه اختياراً لبعض قضاته من الأَروام الأَكابر، وبعض أُمراء الحاج كما هو على ذلك الآن، ومن جانب الميسرة صاحب ديوان إِمرة الحاج، ويليه بقية الكتاب، ويليم الرعايا إِلى آخر العقب والقطار.

واعلم أَن السَّنيح يكون محله في وسط العقوب، وهو أَعظم أَماناً من بقية العقوب لكونها محيطة به، وحاصل ما في التقطير أَن يكون الأَكابر وذوو الوجاهة وجماعة الأَروام وأَهل الدولة أَوله، والتجار وأَصحاب الأَحمال المخزومة والأَموال في قلب الركب، والفلاحون ورعاع الناس في آخر الركب.

وأما الربائع والحجاج الذين بصحبتهم فيسيرون على ميمنة الركب وميسرته وساقته حيث الفضاءُ من غير تقطير، لا يبعدون عنه ولا يزاحمونه، مع حفظ الساقة بجماعة من العسكر المنصور. وغالب القواسة يسيرون بها ليلاً ونهاراً مسلحين متحفظين، بل لا يغفلون عن حفظها ويقفون مع الجمال التي تركب لتصلح أحمالها حتى تحمل وتسير، وشخص من الضوئية يكون يقظاً في الساقة ليلاً بمشعله، يطوف بها ويفتش تحت أَشجار أم غيلان وشقيف الجبال عن النائم والغافل والمنقطع فينبه النائم ويذكّر الغافل.

وللضوئي المذكور (جامكية) من ديوان السلطنة الشريفة كانت من جملة مصاريف غلمان المحمل على الديوان، وقد وفر ذلك جميعه في سنة سبع وخمسين وتسع مئة في ولاية علي باشا، وجعلوا من تلك المصاريف ثمن المسك والماورد والجلاس النحاس لتعبئته برسم الكعبة الشريفة من الفضة الجديدة خمس مئة وخمسين نصفاً على ديوان وقف الكسوة، ثم جعلوا أَيضاً بعد ذلك من الوقف المذكور (جامكية) (المحفدار)، وثمن ما يحتاج إِليه المحمل، و(جامكية) الرقية (؟)، والضَّوْئِي، والفراش خمس مئة نصف، ووفر ما عدا ذلك، والضوئيُّ المذكور معه من المشاعل السلطانية أَربعة، وشرحها: للدليل مشعل، وللمحمل مشعل، وللكسوة مشعل، وللساقة مشعل.

وقد جرت العادة لمن يسافر من مشايخ العربان المشتهرة أَن تكون جماله ساقة الحاج، ليحصل النفع به للفقراء والآفاقية المشاة والمنقطعين للساقة. ويحصل كسب المحامد من ركوب العيان، وإِطعام الجيعان، وسقاية العطشان.

ومَن طلب التوجه والمسير من مشايخ العربان قدام الركب فإِنما يقصد البعد عن ذلك، والهرب من سلوك هذه المسالك، والعادة والقاعدة أَن أَمير الحاج كلما سار ليلاً أَو نهاراً يكشف على الساقة، والدليل بجوازه عليهم ليكون أَبلغ في حفظ الحجاج والذب عنهم وليخشاه المتخطفة بالساقة والغلام المعاند.

وكنت نبهت بعض الأُمراء في أَن يرسل خلف عربان أَكابر الربائع خصوصاً السعادنة لشهرتهم بالفساد والأَذى، والرواشدة، ويحثهم على حفظ مَن معهم من الحجاج والتجار ويخوفهم عاقبة ضياع شيء من أَسبابهم ومتى ضاع لهم شيء أُلزموا به، وهذا التخويف والتشديد ليس على سبيل الإِلزام وإِنما ليخفف أَذاهم ويخشون عاقبة قوله لهم، ولأَن في الغالب ينضم ويلتئم مع الربائع أَهل الفساد من بني عطيَّة

وغيرهم للأذى فقط، خصوصاً عند حضور ملاقاة الأزلم بالرجعة فيكثر الأذى ممن حضر معهم مضافاً إلى الربائع، وإلا فأمير الحاج يكون يقظاً للبحث عما يضيع للحجاج سواء كان بالربائع أو بالقطار.

واعلم أن من عادة حفظ الدرك على عربانه الذين لهم المقررات من السلطنة إلزامهم بحفظ قطر الركب، من حد مشعل الدليل إلى الركب، ومشعل الساقة ليلاً، فإذا تعدّى مُتَلصِّصٌ، وقطع جملاً من قطار من القُطُرِ لزم صاحب الدرك إحضاره، أو قيمته إن تعذّر، هذا الذي أدركنا عليه مَن تقدَّمنا من أهل القواعد. ويحرم شرعاً تناول شيء من الحاج على التقطير في محل يطلبونه بالخصوص، أو مجاناً، ولا يجوز ذلك بوجه، وإذا منع أخذ الخفارة من الحاج على سلوك الطريق فهنا من باب أولى.

والذي نعرفه من نفوس أهل الهمم والمروءات من الأُمراء والأَعيان الأَنفَة والحمية من الإذن في ذلك لأتباعهم، بدلاً عن تعاطيه، بل كان عند السابقين من أكبر الكبائر، فكانوا يتحاشون عن مثل ذلك ويأنفون من ذكره، ويمنعون جميع جماعتهم من تعاطيه، ومَن اشتهر من جماعتهم بشيء منه قوبل أشد مقابلة، وردع وزجر، لينتهي غيره، بحيث أن لا يحصل من ذلك للحجاج بل لفرد من أفرادهم، أو شخص من آحادهم، أدنى كلفة ولا مشقة.

وفي هذا الزمن قد يقع ذلك من بعض الأُمراءِ ممن غلب عليهم حب الدنيا فيأخذون ذلك بأيديهم ولو كان تافهاً، ويضعونه في جيوبهم من غير مبالاة كما وقع ذلك في سنة اثنتين وخمسين، وما كفاه ذلك حتى أنه أَجَّر مَحَفَّةَ ركابه السائرة مع العلم السلطاني والعسكر محيط بها، لشخص من أسافل السوقة صناعته الزياتة بمبلغ قدره من الذهب خمسون ديناراً. نسأَل الله العافية.

وبعضهم لا يتعاطى ذلك بنفسه وإنما يقصد نفع جماعته بإغضائه عنهم ويعدها عليهم منفعة حاصلة فيعم ضرر ذلك ويشتد.

وأَول مَن تعاطى البَلْص على التقطير من أُمراء الحاج قديماً كُزُل العجمي في سنة سبع وثمان مئة عندما طلب الحجاج التقطير في المضايق كما قدّمنا ذكره، ثم إن الأمير جمال الدين الأَستادار لما توجه إلى البركة لوداع ولده شمس الدين أمير المحمل في سنة تسع وثمان مئة قطر الجمال وعقبهم من البركة بنفسه كما قدّمنا، لما بلغه ما يلصه أمير الحجاج السابق في المضيقات، والله أعلم.

الأمر الثالث مما على أمير الحاج: الرفق بهم، فإن كان الوقت حارًا أو بارداً

خارجاً عن المعتاد صبر بهم عن الرحيل مقدار راحتهم واعتدال الوقت، وإن كان فيهم ضعفاء سار بسير ضعيفهم، وإن كانت الرحلة بها مضيق أو وعر وقف أمير الحاج عند ذلك لتسهيل طرقهم وصرف العقوب قليلاً قليلاً بالرفق، ومنعهم من المزاحمة والاصطدام والتشاجر، فإن لم يستطع بنفسه جعل ذلك لمن يثق به من (دواداره) وأخصائه وأكد عليهم في ذلك، ثم سأل بعد ذلك مَن يثق به من الحجاج عن أحوالهم فأزال الشكاية ومنع ظلم مَن يظلم لتحمد سيرته، وتستقيم طريقته ويحصل له حسن الثناء في الدنيا ومزيد الثواب عند الله تعالى في الآخرة.

ومن الرفق بهم أن يمهلهم بالدار بعد الإعلام بالرحيل مقدار ما يعلم أن أهل الركب في حال الاعتدال للمسير.

ورأينا بعض أُمراء الحاج كان يتربّص بالحجاج بعد النفير نحو العشرين درجة، وذلك غاية الرفق بهم، وإلا فيصير الذي ما حمل جماله في غاية السرعة والدهشة خصوصاً ليلاً، فقد يترك بعض أمتعته بالدار ذهولاً ونسياناً.

والذي كان عليه أُمراءُ الحاج قديماً في إيذانهم بالرحيل، إلى صدر من الدولة المظفرة أن (الزردكاش) يحمل معه صنفاً من آلة النفط يسمى [ ][(١)] لكونه إذا وضعها على الأرض، وأطلق الفتيلة، تسمع لها صوتاً كبيراً، يشمل الحاج في الغالب، وكانوا يحملون من ذلك ما يكفيهم عن المسافة ذهاباً وإياباً. ولا يخفى ما في ذلك من التكلُّف بعمله وحمله، فعدل عن ذلك بصوتٍ بلا كلفة ولا مشقة. ومنه من اللطف ما لا يخفى.

ويجب على أمير الحاج أن يقف بالدليل والركب، في أوقات الصلوات الخمس، لأجل الصلاة في الوقت، ويأمر المنادي أن يقول: الصلاة يا حجاج، وأن يكون بصحبة العلم إمام مستقل لأجل الصلاة بالعسكر، ومَن انضم إليهم كما كان قديماً على ذلك، وكان صاحبنا المرحوم الشيخ بدر الدين المارديني شاهد المحمل الشريف إمام (الصنجق) وله ناقة بكورها لركوبه على الكفاية والراتب من السنيح، والمطبخ لمأكوله والماء لمشروبه، وله عن (جامكية) الإمامة مئة وخمسون نصف فضة، وقد وفّر ذلك من جملة ما توفر من العوائد. وبالجملة فمَن حجّ من غير إقام الصلاة لا سيّما إن كان حجه تطوعاً كان بمنزلة مَن سعى في ربح درهم وضَيّع رأس

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمة.

ماله وهو أُلوف كثيرة. وقد كان السلف يواظبون في الحج على نوافل الصلاة، وكان النبي ﷺ يواظب على قيام الليل على راحلته في أسفاره كلها، ويُوْتِرُ عليها، وحجّ مسروق رحمه الله فما نام إلا ساجداً، وكان محمد بن واسع يصلي في طريق مكة ليلهُ أَجمع في محمله يُوْمِىءُ إيماءً، ويأمر حاديه أَن يرفع صوته خلفه، حتى يُشْتغَل عنه بسماع صوت الحادي فلا يُتَفَطَّنُ له.

فيجب على أمير الحاج أن يأْمرهم بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، ولو بالجمع بين الصلاتين المجموعتين في وقت إحداهما بالأَرض، فإنه لا يرخص لأَحد أن يصلي صلاة الليل بالنهار، ولا صلاة النهار بالليل، ولا أن يصلي على ظهر راحلته المكتوبة إلا مَن يخاف الانقطاع عن رفقته أو نحو ذلك مِمَّن يخاف على نفسه، فأَما المريض ومَن كان في ماءٍ وطين ففي صلاته على الراحلة اختلاف مشهور بين العلماء، وفيه روايتان عن الإمام أحمد.

وأن يكون بالطهارة الشرعية بالوضوء بالماء مع القدرة عليه والتيمم عند العجز حِسًّا أو شرعاً.

ومتى علم الله من عبده حرصه على إقام الصلاة على وجهها أعانه، وما قدَّم أحد حقَّ الله تعالى على هَوَى نفسه وراحتها إلا ورأى سعادة الدنيا والآخرة، ولا عَكَسَ أحدٌ ذلك فقدَّم حظَّ نفسه على حق ربه إلا ورأى الشقاوة في الدنيا والآخرة.

وَاللّهِ مَا جِئْتُكُمْ زَائِراً ... إلاَّ وَجَدْتُ الأَرْضَ تُطْوَى لِي
ولا ثَنَيْتُ الْعَزْمَ عَنْ بَابِكم ... إلاَّ تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالِي

وقيل أَيضاً:

أَرَى الطَّرِيْقَ قَرِيْباً حِيْنَ أَسْلُكُهُ ... إِلَى الْحَبِيْبِ بَعِيْداً حين أَنْصَرِفُ

ومن الرفق بالحاج أن لا يسير بهم رحلتين في رحلة، ويقصد بذلك السرعة في السير، فإن ذلك ضرره كبير، ومشقَّتُهُ شديدة، على النفوس والأَبدان والجمال، ومن أمراء هذا الزمان مَن يفعل ذلك، ويعينه عليه بعض أهل الميقات الذي بخدمته، جهالةً، وسوء تدبير، خصوصاً إن كانت الرحلتان أشدَّ مشقة على الجمال والرجال من غيرها كالمسير من ظهر الحمار بعد قطع مسافة دوَّار حَقْلٍ، إلى مَغْدَاة آخر الشَّرَفَةِ، في الطلعة مع استحسانهم لذلك، نعوذ بالله من الجهل المركب.

الرابع مما على أمير الحاج: أن يسلك بهم أوضح الطرق وأوسعها وأخفَّها،

ويراعي أحوالهم في ذلك، وَيسير بهم سيراً معتدلاً، ويوصي الدُّلَلاء على ذلك، ويُرِيحهم في أوقات القيلولة المفرطة الحرّ وأوقات الهواء والريح المفرط الشدة، وما أشبهَ ذلك.

وبالجملة فإن سفر هذا الدرب عظيم المشقة على الجمال والرجال، خصوصاً الحاملة المثقلة كحال الجمال في ربع العقبة ذهاباً فالواجب على أمير الحاج أن يكون بالمرصاد لمراعاة أحوال رعيته، فإذا علم أنه قد حصل لهم أدنى مشقة بادر إلى راحتهم بإزالتها، ويسأل الله تعالى الإعانة والتوفيق والسداد، فإن الله تعالى يساعده ويعينه ويلهمه رشده في سائر أحواله.

الخامس مما يجب على أمير الحاج: يرتاد لهم المِياه والمراعي إذا قلّت، فإن كان الركب محتاجاً إلى الماء معطشاً والمنهل بعيداً أو ليس فيه ماءٌ، كالوجه في غالب أحواله، وبالقرب منه مورد للعربان سأل عنه مَن يثق بصدقه وخبرته وأمانته من أصحاب الدرك وأماثلهم من الدللاء العارفين، وقليل ما هم الآن، فإن عرفوه عن طرق ذلك المورد وقربه ورآه صواباً جهّز معهم السقاة بالقُرَب، مع جماعة من القوّاسة والرماة لإحضار ما يستعين به الحجاج على ظمإهم من ذلك المورد وقد ذكر المقريزي في كتابه «السلوك في دول الملوك»: أن في سنة أربع وثلاثين وثمان مئة حفر الأمير شاهين الطويل بِئْرَيْنِ بموضع يقال له زاعم وقبقاب، وذلك أنَّ الحاج كان إذا ورد الوَجْهَ تارةً يجد الماء، وتارة لا يجده، فهلك الناس من العطش في سنة ثلاث وثلاثين، فبعث السلطان شاهين ـ هذا كما تقدّم ذكره ـ فحفر البئرين بناحية زاعم، حتَّى لا يحتاج الحاج إلى وُرُوْدِ الْوجه، فيروى الحاج منها، وعَمَّ الانتفاع بها، وبطل سلوك الحاج على طريق الْوَجْه من هذه السنة. قلت: هذا المورد باق على حاله إلى الآن مشهور، وهو تجاه الأزلم بنحو بريد، غير أن الركب لا يمر عليه، ولأصحاب الدرك به صُرَّة مصروفة قدرها ثلاثة وثلاثون ديناراً، منها لمشايخ السلمات من بليٍّ الثلث، والثلث الثاني لجماعة يدعون بأولاد عَنقَا، والثلث الثالث باسم أولاد جبر بن قشعم، ويسمى هذا المحل عند العربان بالحودة والآبار المستجدة. والحودة ـ بحاء مهملة مفتوحة بعدها واو ساكنة ودال مهملة مفتوحة وهاء ـ وتارة يقولون: زاعم وقماقم، كما وجدت ذلك مكتوباً بدفاتر الخزائن السلطانية، وتارة يقولون: قبقاب على وزن فعلال.

وفي وادي تلْبَة آبارٌ حلوة تسمى عند عَربان الدرك أبو الْقِزاز ـ بقاف مكسورة وزايين معجمتين بينهما ألف ـ.

ويقابل مفْرش النَّعَام بنحو بريد بئر تسمى أبو الحار، رِشَاؤها تسع باعات.

ويقابل أَكْرَى بنحو بَرِيْدٍ مورد أيضاً يسمى الضِّحِيَّ ـ بكسر الضاد المعجمة والحاء المهملة بعدها ياء مشدّدة ـ قليل الماء أخبرني بذلك الشيخ جلاس بن نصار بن جماز صاحب دَرَكِ الوجه والرحبة، وهو من مشاهير مشايخ بَلِيٍّ الأَحامدة، وأخبرني خليل بن إبراهيم (دوادار) الشيخ عمرو بن عامر بن داود أمير بني عقبة أنَّ بالقرب من عيون القصب من الجانب اليمين، وأنت متوجه إلى الحجاز بين مدين وعيون القصب، بالقرب من مضيق عيون القصب، المسمى بالقرقف بدون نصف بريد، حفائر بها ماء حلو، تسمى قِيال ـ بقاف مشوبة بالكاف مكسورة وبعدها ياء مثناة تحتية وألف ولام آخر الحروف ـ تروي الركب، وبالقرب من إصطبل عنتر دون أبي القزاز حفائر ماء حلو، تسمى الدبوب ـ هو بضم الدال المهملة المشددة بعدها باء موحدة مضمومة وواو وباء موحدة آخر الحروف ـ ومنه إلى أبي القزاز، ومن أبي القزاز ماء حفائر حلو تسمى بِدَهْ ـ بكسر الباء الموحدة والدال وسكون الهاء آخر الحروف ـ ويجمع المياه الثلاث واد واحد.

وفوق عَنْ قبقاب بنحو بريد ماء حفائر حلو يدعى شغب ـ بفتح الشين المثلثة والغين المعجمة وباء موحدة آخر الحروف ـ وفوق وادي عنتر بنحو نصف بريد عين تجري تسمى شُوَاق ـ بضم الشين المثلثة وفتح الواو وقاف آخر الحروف ـ وهي تروي الركب.

وسيأتي ذكر موارد المياه التي هي موارد العربان غير المناهل المعتادة مستوفاة في باب المنازل والمناهل؛ ولعمري إنك لا تجده إلا في هذا المؤلف إن شاء الله تعالى.

وأخبرني صاحبنا الشيخ العلامة المحقق البليغ الأَوحد، قطب الملّة والدين النهروالي المكي الحنفي نفع الله بعلومه أن في سنة تسع وخمسين وتسع مئة جهز السلطان محمود شاه صاحب الكجرات من ملوك الهند، إلى مكة المشرفة نحو مئة سندة من النبل لتباع ويحفر بأَثمانها آبار في طريق المدينة الشريفة، فلم يتيسر ذلك لوفاة مَن جهزت معه، فأَرسل ثانياً في سنة ستين وتسع مئة شخصاً آخر من أركان دولته، يقال له نصير الملك، يأمره بحفر الآبار حيث لقي في طريق المدينة الشريفة بالخبوت، وعزم الرجل إلى هناك فوجد آباراً منطمسة فنظف بعضها فيما بين رابغ وخُلَيْص وداركه الحج فرجع، وفي عزمه تكميل ذلك بعد الحج إن شاء الله تعالى.

وذكر صاحبنا الشيخ شمس الدين السلح (؟) السلمي المكي في قطعة وُجدت من تاريخه: أن في يوم السبت سادس عشرين شوّال سنة ستين وتسع مئة توجه نصير الملك ولد أخت أفضل خان، الواصل بحراً في هذا العام من الكجرات، إلى رابغ وخُلَيص والخبت، وأخذ معه جماعة من الذين لهم خبرة في أمر الآبار، وفي قصده أن يحفر بعض الآبار في طريق المدينة بالخبت، حيث لا ماء يحصل الارتفاق للحجاج والزوار والقوافل ويقال: إن أفضل خان أرسل معه المصرف على ذلك، وعمل هذه المصالح أربعة آلاف ذهباً، وكان في العام الماضي أمر السلطان محمود صاحب الكجرات وزيره واصف خان المقيم بمكة قبل تاريخه بحفر الآبار في هذه المواضع، وأرسل لذلك مئة سندة ببنل كما يقال، فأمر صهره القاضي تاج الدين بذلك، واخترمته المنية، وضُبط مال الآبار وختم عليه، وعرض في أمره لسلطان الهند منتظرين ما يرد من الجواب فقبل أن يصل إليهم علم ذلك أرسل أفضل خان ابن أخيه ببعض مال إلى هذه المصلحة، فاستأذنوا السيد الشريف فأذن لهم، وتوجه لينظر أولاً المواضع التي يمكن عمل الآبار فيها، ثم شرع بعد ذلك في العمل انتهى ما ذكره. ودخل نصير الملك قبل دخول الحاج إلى مكة في أواخر القعدة، وذكر أنه نظف ثلاثة أبيار كانت دائرة فيما بين رابغ وخُلَيْص وهي على غير طريق الحجاج لكنها قريبة من الطريق، يصل إليها مَن أراد. فقال بعض الناس: هذه أبيار لنفع زُبَيْد والسُّرَّاق المقيمين بتلك الأَرض، وأما للزوار وللحجاج فلا!!..

وكما يرتاد أمير الحاج للرعايا الماء، يرتاد لهم المرعَى للجمال، فإنْ كان قريباً وأَمِنَتْ طرقُه للتوجه إليه كان، وإلاّ جهز صحبة الحشَّاشِيْن حراساً وخفراء لإحضار الحشيش لعلف الجمال من ذلك المرعى.

السادس مما على أمير الحاج: أن يحرسهم إذا نزلوا، ويحوطهم إذا حلُّوا، حتى لا يتخطفهم متلصص، ويسأَل المترددين على الدرب، وأهل الخبرة به عن المخارس التي تكون طريقاً للمفسدين، وقطّاع الطريق، كالطريق الموصلة إلى حِسْمَا فإنه محل يرد عليه غالب العربان في الأَكثر، فيجهز إليها بعض الفرسان ملبسة خيولهم إن اقتضى الحال ذلك، وإلا بسلاحهم فقط، إلى أن يمر الحاج ويجوز من ناحية ذلك المحرس.

واعلم أنَّ محارس بني لاَم وغيرهم بالدرب المصريّ متعددة، فمنها في دوَّارِ حَقْلٍ، وادٍ يطلع إلى حِسْمَا، وعند عُشِّ الغُرَاب محرس إلى حِسْما، وبوادي عَفَانٍ - عند قبر السَّقَّاف بالشَّرَفَة - محرس إلى حِسْمَا، وبالقرب من عينونة بحذاء يَرْوَى - بفتح الياء المثناة التحتية تحتها راء ساكنة وواو مفتوحة - محرس إلى حِسْمَا، وبالقرب منها أيضاً يرنب وسدر بمُعَشَّى الشرمة محرس.

وبالنَّبْك ـ المسمى بالمويلح ـ محرس، وبالقرب من دار السلطان محرس يدعى الْخرَيْطَة يرد إلى حسما ـ وهو بضم الخاء المعجمة الفوقية وفتح الراء المهملة وسكون الياء التحتية وفتح الطاء بعدها وهاء آخر الحروف ـ وبالقرب من حدرة دامة مخرس، وبالقرب من سماوة والدَّخاخين مخرس، وبالصَّفْحَةِ ـ بتشديد الصاد المهملة المفتوحة وسكون الفاء وفتح الحاء المهملة وبعدها هاء آخر الحروف ـ من وراء أُصطبل عنْتر مخرس، وبِالْوَجْهِ مخرس، وبالقرب من أَكْرَى محل يدعى الْوَفْدِيَّة ـ بفتح الواو وسكون الفاء وكسر الدال المهملة وبعدها ياء مشددة مفتوحة مثناة تحتية وهاء السكت ـ مخرس أيضاً، وبأَكْرا مخرس، وبأول مَضِيق الْعُقَيِّق، بالقرب من آخر الفضاءِ، على يسار السائر بالطلعة مخرس، وهو الذي وفدت منه بنو لام، للتعرض للركب في سنة ثلاثين وتسع مئة، ولاية المرحوم جانم الحمزاوي لإمرة الحاج ولم يفوزوا منه بطائل، وعلى شمال السائر بالطلعة مخرس.

والعادة أنَّ أمير الحاج يستمر ـ بعد رحيل الركب من الدار ـ مُقِيْماً بها في محله إلى أَن يَمُرَّ أهلُ الساقة ومَن معهم، فيركب حينئذ، ويستمر سائراً إلى أن يجاوز ركب الدليل والشعارة فينزل لقصد راحته إلى أن تمر الساقة كذلك، هذا دأبه ليحيط علماً بأحوال جميع الحجاج كل وقت، و(دواداره) من جهة أخرى كذلك ليستغرق عموم أحوال الناس في سيرهم، والذبُّ عنهم عند الاحتياج إليه ورعايتهم وإحاطتهم، وأما ليلاً بعد المعشاة بالدار فجرت العادة في الغالب أنَّ الحِرَاسة من مهمات (الدوادار)، يركب ومعه مَن يستعين به من جماعة العسكر بسلاحهم وفندقاتهم، إن أراد بعض رماة، وتصحبه المشاعل للضوء، وبعض الأُمراء صَنعَتْ لَهُ النفطية شيئاً من البارود الأَبيض، يسمى عقرب الضَّوْء إذا وقع الصراخ في الركب يجعل شيئاً من ذلك العقب في المشعل فيضيء إضاءَةً واضحة جدًّا، بحيث لا يخفى السارق فيمسك عند ذلك، وأكثر ما يصحبه بـ(الزردخانات) من العقرب المذكور مئة ويتوجه مع (الدوادار) شخص من المشاعلية يسمى الْمُبَيِّت، يُعْلِم الناس بالتيقُّظ على أسبابهم وعدم غفلتهم عن ذلك، وحالة المحل الذي هم به نازلون هل له درك أم لا، فإنْ رأى مفسداً من الذين يسعون في الأَرض الفساد، وقدر على إمساكه من غير قتله قَبَضَ عليه، وأحضره إلى أمير الحاج، ليرى في أمره ما يستحقه شرعاً، وإن لم يقدر على قبضه وكان من المشهورين بالفساد، وأذى العباد، قتله وأشهره بالركب ليرتدع مَن يكون على طريقته، ويسير بمثل سيرته، ويستمر يطوف على الركب إلى أن يدخل من الدار.

وإنما قلنا: إنَّ حراسة (الدوادار) أمر في الغالب لكونه إنما هو معين لأَمير

الحاج لا غير، ولكون أنَّ من أمراء الحاج مَن له صرامة وقوة وشجاعة وهمّة كما رأينا من كاشف الفيُّوْم والبهنساوية حسين أباظة، فإنه تولى ذلك بنفسه ذهاباً وإياباً ولم يَنَمْ بخيمته قط إلا وفأسه مربوط على بابها، متولياً للحراسة بنفسه، ولم يعتمد على أحد من جماعته، ولقد اتّفق له في مبيته في ذي الْحُلَيْفَةِ ليلاً أن الصارخ وقع في الركب، فخرج وحده من الخيمة غير مُعْلِم أحداً من جماعته ومماليكه، والجميع نيام، وركب فرسه بلا لجام، فإنه فتش عليه فلم يجده بها، وتوجّه صوب الصراخ فوجد السارق في طريقه بين الخيام، فضرب عنقه، وتركه مطروحاً وأتى إلى خيمته فربط فرسه مكانها بيده، ودخل إليها، وأظهر التناوم، وفي أثناء ذلك أتى (دواداره) يشبك من واني، من جماعة الجراكسة بمشاعله وجماعته وطوفه، فتقنطرت به فرسه فوقع من ظهرها، ثم ركب فطاف إلى أن مَرَّ على السارق المضروب العنق، فجاء إلى الأَمير حسين المذكور، وحكى له أنه وجد سارقاً مقتولاً ولا يعلم قاتله فلم يزد على قوله له: فرغ أجله. وعاد إلى تناومه، وكنتُ نازلاً تجاهه تلك الليلة، قريباً منه، ومشاهداً لجميع فعاله، ومثل ذلك هو المطلوب من أمير الحاج، فلما أصبحنا ودخلنا إلى المدينة الشريفة وجدت علمه عندهم فسألتهم عنه فأخبرني جماعة منهم أنه شريف من بني حسين، وأنه مشهور بالسرقة والرفض، ونُهِيَ عن ذلك فلم ينتهِ.

واعلم أنَّ في الغالب يتبع ساقة الركب بعضُ العربان الضِّعاف الهمَّة الفقراء لا لقصد السرقة، وإنما يتبعون الجمل الميت والعاجز يأكلون لحمه، ويخزنون منه قديداً لمؤنتهم، فمن الأُمراء وجماعتهم مَن يجعل كميناً بالساقة، فإذا مَرَّ هؤلاء العربان قتلهم، وأشهر بهم بالركب، على أنهم مفسدون، فزعوا على الساقة بالسلاح، وليس كذلك فإن هؤلاء الطائفة اللحامة لا يصحبهم غير السكين لقطع لحوم الجمال، فيزعمون بقتلهم أنهم على شيء من الحراسة، والتيقُّظ لأَحوال الركب، لقصد الإطاعة فقط، لا لخوفهم من الله تعالى الذي أمر بالتقوى، ونهى عن اتباع الهوى، ومنع من قتل النفس إلا بالحق، فهم إنما يقصدون أن يشاع ويقال، لقصور همتهم عن اتباع أهل الفساد ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

السابع مما على أمير الحاج: أن يكف عنهم مَن يصدهم عن المسير بقتال إن اقتضى الحال ذلك، وقدر عليه لأن ذلك والحالة هذه أكبر حاجة إليه في إمرته على الحاج، أو ببذل مال، إن أجاب الحجيج إليه، ولا يحلُّ له أن يُجْبرَ أحداً في بَذْلِ الخفاوة إن امتنع منها، لأَنَّ بذل المال في الخفارة لا يجب، قال بعضهم: إلاَّ أن تكون الخفارةُ يسيرةً كما قدّمنا ذِكْرَهُ.

ويجب أن تعلم أنه في غالب أحوال عربان الدَّرَك لا يتعَمَّدُون حصول الفساد والأَذى والتَّخطُّف، إلا عند قطع عوائدهم المرتبة لهم من الديوان السلطاني فإن الملوك السالفة ما رَتَّبُوا ذلك لهم إلاَّ لأجل استقامة أحوال طريق الحاج، ومرور أهل الركب في هذا الدرب على حالة الأَمن والأَمان، مقصداً جميلاً، وتأسيساً جميلاً لأجل استقامة أحوالهم، ومرور أهل الركب في هذا الدرب الشريف على حالة أمان منهم، فمن أمراء الحاج مَن يبطل عادتهم من ديوانه، ثم يتقدّم إلى عادتهم من الديوان الشريف فيطمع في غالبها عيناً وصنفاً ويوجه لذلك وجوهاً من الذرائع، ثم ما كفاه ذلك الطمع وعدم النظر في العاقبة حتى يعاملهم مع ذلك بسوء المعاملة فلا يراعي أحوالهم كما إذا احتاجوا إلى عليق لرواحلهم أو دقيق يتزوّدون به فيبخل عليهم بذلك ولا يوفيهم مالهم ولا يراعي أحوالهم، فليس عندهم حينئذ إلا أنهم يتداعون للفساد، وتجتمع آراؤهم عليه، كما وقع ذلك في سنة تسع وخمسين وتسع مئة في ولاية إبراهيم بن عيسى باشا فإنه طمع في عوائدهم ومرتباتهم السلطانية ولا راعَى كبيراً، ولا تلطف مع صغير، وقابلهم بكل رذيلة، ولم تقع منه في حقهم سياسة جميلة، فأَجمعوا رأيهم على الوقوف على حضرة علي باشا كافل المملكة المصرية وأن ينظر في أمرهم ويأخذ بيدِهم في فاحش هذه القضِيَّة.

فلما فَعَلُوا ذلك أزال الباشا شكايتهم، ووفر كرامتهم، ولم أكن في تلك السنة لذلك الحاكم رفيقاً، ولما قاربت أيام الرحيل من القاهرة أخذت طريقاً وأخذ طريقاً، فعوَّل الباشا على ما أقوله في مراضاتهم، وأوصلناهم ما شهدتْ لهم به الدفاتر، وقضينا جميع إراداتهم، ومن جملة مقالهم للباشا: إنْ وليته سنة ثانية وعاد إلينا فلا تعتبنا، فإن مخالفته علينا ولم يكن لذلك موجب إلا كبير طمعه، وشُحّهِ وخُبْث طويته جدًّا.

وقد حكى لنا الشيخ الإمام العلامة سلالة السلف الطاهر، جمال العلماء، شمس الدنيا والدين البكريُّ الشافعي، بأنه كان عائداً معه في تلك السنة من المجاورة بمكة المشرفة. قال: لقد شاهدتُهُ وهو مارٌّ على السوقة الواصلة من القاهرة إلى عُجْرُوْد، لملاقاة الركب، والبيع عليهم، فأَخرج من جيبه يَسِيْراً من الفضَّة، ليشتري بيضاً، فساومهم بنفسه على أن يبيعوه كل أربع وعشرين بيضة بنصف واحد، فوافقهم وسلّموه البيض المذكور على هذا الشرط، ففي أثناء ذلك حضر ترجمانه وقال: شريت ثلاثين بنصف. فوقف بنفسه، وردَّ عليهم البيض، وتناول الفضة، ووضعها في جيبه، أحسبه قال: إنَّ مقدارها نصفان. وأغرب من ذلك ما حكاه لي ساعي ركابه، وكان تعيَّن للسفر معه، وعاد من البركة، فسأَلته عن سبب عودته ولم لَمْ يحج معه؟ فقال لي

شفاهاً: إنني لما مشيت في ركابه يوم خروج الركب من القاهرة، فلما مَرَّ على الرِّيْدَانية أحضر له بعض الفقراء جفنة من اللبن، فقال لي: خُذْ هذه الجفنة، وضَعْهَا عند ولدي في مَحَفَّتِه، وكان ولده في داخلها، وأراد أن يأكل منها. فأخذتها وتوجهت إلى ولده، فدفعتها إليه، وعُدت إلى ركابه، فقال لِي: فَعَلْتَ ما قُلْتُ لك؟ فقلت: نَعَمْ! فقال: ناولني يدك. فأخذ يدي وشَمَّها وقال: بَلَى أنت خُنْتَ، وأكلت من اللبن وهذه رائحته في يدك. فحلفت له أَيْمَاناً مغلظة على عدم أكْلي منْها. ورجعت عن سفري معه على هذه الصفة، وأرَحْتُ نفسي منه.

[ومن تعاظمه وتكبُّره أنه لا يكلم بشراً من أولاد العرب قط إلا بترجمان، فنعوذ بالله من سوء تسويل الشيطان].

الثامن: يجلس لهم في كل دار ومنزلة ليحضر إليه مَن يشكو جمَّاله فيزيل شكواه، أو متنازعان فيصلح بينهما، وإن كانت الحكومة شرعية جهزه إلى قاضي المحمل، وإن كانت تقتضي السياسة واستحقَّ الخصم التعزير عزَره، قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: فإذا دخلوا بلداً جاز له ولحاكم البلد أن يحكم بينهم. ولو تنازع واحد من الحجيج وواحد من البلد لم يحكم بينهم إلا حاكم البلد.

ولا يحتجب أمير الحاج عن الحجيج ويدع أمرهم شورى بينهم فقد قدّمنا أنه راع وكل راع مسؤول عن رعيته.

تنبيه:

لا ينبغي أن يكون لأَمير الحجِّ ترجمانٌ يتكلَّمُ بينه وبين رعيته، إلاَّ أن يكون لا يعرف اللسان العربيَّ أَمَّا إذا كان يعرف اللسانَ العربيَّ وقصد بترجمانه إهانة وَفْدِ الله تعالى، والتَّكَبُّرَ عليهم بعدم مخاطبته لهم، فقد ارتكب إثماً عظيماً. وقد لا يُبَلِّغُ الترجمان ما قاله كلٌّ من الأَمير والحجَّاج على جَلِيَّتِهِ، إنَّما القصد (البلص) على ذلك، أو لغرض، أو لقصور في ترجمته، فتضيع أحوال الرعايا حينئذ، وهو مسؤول عن وَفْد الله تعالى، لأَنهم رعاياه، وكل راع مسؤول عن رعيَّتِهِ.

التاسع مما على أمير الحاج: أن يؤدَّب جانِيهمْ ولا يجاوز التعزير إلى الحدّ، ولا يقتل إلا ما جَوَّزَ قتلَهُ الشرع كالمذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣] الآية، فالقتل المشروع هو ضرب العنق بالسيف أو نحوه لأَن ذلك أَوْحى أنواع القتل، ولذلك شرع الله قتل ما يباح قتله من الآدميين والبهائم إذا قدر عليه على هذا الوجه، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله كتب الإحسان

على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا الْقِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، ولْيُحِدَّ أحدكم شَفْرَتَهُ، ولْيُرِحْ ذَبيحته» رواه مسلم[1]. وأما الصلب المذكور في القرآن فهو رَفْعهم على مكان عال ليراهم الناس ويشتهر أمرهم، وهو بعد القتل عند الجمهور من العلماء، وقد جوّز بعض الفقهاء قتلهم بغير السيف حتى قال: يتركون على المكان العالي حتى يموتون حتف أنوفهم بلا قتل، وأما التمثيل في القتل فلا يجوز إلا على وجه القصاص، وقد قال عمران بن حصين رضي الله عنه: ما خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلا أمرنا بالصدقة ونهانا عن المثلة، حتى الكفار إذا قتلناهم فإنا لا نمثّل بهم بعد القتل ولا نجدع آذانهم وأنوفهم ولا نبقر بطونَهم إلا أن يكونوا فعلوا ذلك بنا فنفعل بهم مثل ما فعلوا، والترك أولى وأفضل، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]. وأما السارق فيجب قطع يده اليمنى بالكتاب والسنّة والإجماع، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [المائدة: ٣٨، ٣٩] ولا يجوز بعد ثبوت الحدّ عليه بالبينة أو بالإقرار تأخيره لا بحبس، ولا بمال يفتدى به ولا غيره، بل تُقْطَعُ يده في الأَوقات المعظمة وغيرها، فإن إقامة الحدود من العبادات كالجهاد في سبيل الله، قاله الشيخ تقيُّ الدين بن تيميَّة من أصحابنا الحنابلة.

العاشر مما على أمير الحاج: أن يراعي اتساع الوقت من أول سفره بهم حتى يأمن الْفَواتَ ولا يلحقهم ضيق في الحث على المسير، كخروجه من القاهرة مثلاً في يوم عادته الآن، وهو اليوم الثامن عشر من شهر شوّال، فلو تأخر وخرج يوم العشرين، ورحل من البِرْكَة يوم الخامس والعشرين فقد ضيَّق عليهم، وحثّهم على المسير في المستقبل، خصوصاً إنْ حصلت له عاقة أُخرى كالإقامة بِعَقَبَةِ أَيْلَةَ يوماً رابعاً لأَجل راحة الجمال والحجاج لمشقة حصلت من موت جمال أو عطش كما وقع ذلك في سنة ثمان وخمسين وتسع مئة، وفي سنة ستين فقد أجحف بهم، وينبغي له أنه إذا وصل الميقات أن يتربَّص بهم في رابغ الإحرام، ويوسع عليهم في الإقامة ليتمكنوا من فعل الإحرام والمناسك كما ينبغي، وتحصل لهم الطمأْنينة عند أداء هذه العبادة، وإنما يتمكن من التربُّص بهم في مثل ذلك وأمثاله، إلاَّ إذا كان الوقت متسعاً، بأَن يراعي اتساع الوقت من الْبَداءة، بخلاف ضد ذلك.

---

(١) في كتاب الصيد [١٥٤٨/٣] ح [١٩٥٥/٥٧].

ويجب على أمير الحاج أن يكون في جميع عَوْده وإيابه ملتزماً لجميع ما ذكرناه، من مراعاة أحوال الحجاج، حتى يصير بهم إلى البلد الذي خرج بهم منه، وهم راضون عن سيرته، شاكرون من طريقته، لا يختلف فيه اثنان، ولا يرتاب في حسن سيرته إنسان.

ومن أكبر المهمات التي ينظر فيها أمير الحاج بنفسه أمر الفقراء بالركب، خصوصاً المشاة والزَّمْنَى والْمَرْضَى، ومَن أعياه المشي والتعب، فإنه يجب عليه تفقُّد أحوالهم، وقت مسير الركب، ويكشف على الساقة في الغالب لأنها مظنة ذلك وعلى غيرها وفي الدُّوْر، وتحت شجر أُمّ غَيْلاَن، فإن كان الوقت شديد الحرّ حمل معه من القرب المملوءة بالماء ليسقي عطاشهم، ويتفقّد الجياع ويُرْكِب العيّان إلى أن يستريح وتعود إليه قوته. وإن رأى ميتاً فقيراً أمر بغسله وتكفينه ودفنه، لأنهم - كما تقدّم - رعيته، وكل راع مسؤول عن رعيته.

وكان الأَمير المفخَّم، والباشاه المعظَّم، مصطفى باشاه مملكة اليمن - طاب ثراه - في أولى ولايته لإمرة الحاج في سنة ثمان وثلاثين وتسع مئة وهو إذ ذاك كاشف الجسور السلطانية بإقليم الغربية، يسير سِيْرَةً حميدةً، وطريقة سديدة، وكان يحمل معه قصاعاً من الخشب يشتريها من ماله، ليفرقها على فقراء الركب، عند الاحتياج إليها، وتحمل معه من الطرقات وأوقات الحرّ ومظنة العطش، يسقي بها الفقراء العادمين للأَوعية، حتى إنه ليسقي حميرهم، إن كانوا ركباناً على الحمير، وتذكر في تلك السنة رغبة الفقراءِ في السفر معه، ولقد اتفق أن امرأة فقيرة، صناعتها ماشطة، توجهت إلى بِرْكَةِ الحاج، لتودع رفقة لها، ولا تملك شيئاً ولم يكن معها سوى الحمار الذي أَجَّرَتْهُ من الْعَلاَّف، لتركب عليه إلى بركة الحاج، وتعود، فحين الوداع تأَسفت على فراق رفقتها وبكت كثيراً، وكانت قريبة من المحل الذي كنت به، أشاهد أحوالهم، ومما قالت لهم: ليستْ لي حيلة في شيء أستعين به على توجهي معكم، ولم يصحبني غير حمارِ العلاَّف، والشوق غالب عليّ، فأَنا أَركبه وأَتوجه معكم، والمستعان الله، والرزق عليه، فتوجهت عليه بلا عليق ولا زاد، فلما وردت ماء عجرود تسقي حمارها مرَّ عليها أمير الحاج المشار إليه فرآها متعبة، وحمارها كذلك، لعدم العليق، فسألها عن حالها فأخبرته وشكت إليه أمرها، فدفع لها مبلغاً من جيبه وأمرها أن تأتي المخيم، فلما حضرت أمرني بكتابة اسمها في راتب العليق والجراية وسقاية الحمار ذهاباً وإياباً، ففعلتُ ذلك، واستمرت إلى أن وردت ماء عجرود بالرجعة، فرأيتها وسأَلتها عن حالها فأَخبرتْ أَنها بخير، وأَنها لم تزلْ راكبة

على الحمار، وهو ينهض بها، وإنما هي في خوف العلاَّف صاحبه من جهة الأُجرة، فلينظر المتأمل إلى أنَّ هذه امرأة فقيرة عاجزة، خرجت لوداع رفقتها فلما كان الرفق عامًّا بالحجاج حصل لها من ذلك ما أعانها على ذهابها ورجوعها من غير ضرر يحصل لها، ومثل ذلك هو المطلوب فعله من أُمراء الركب لا ما يعدونه من تجهيز الحمل الكثير للمتاجر، وتنميق (يرقهم) بالمزركشات الشهيرة والمفاخر، ولا يعملون لله ولا لليوم الآخر، فذلك لا نفع فيه للمسلمين. وكان من سيرة مصطفى المذكور بإشارة المرحوم الوالد أَنْ جعل راتباً للفقراء خاصة بموارد المياه طعاماً يُطبخ من (الكشك) والباسلا وغيرهما ويعمل في الزخامي الكبار وعدتها إما اثنان أَو ثلاث يحملن عند الاستواء بعيدان العتل، إلى أن يضعها العتّالون تجاه مخيمه، وينهض هو بنفسه مشمِّراً عن ساعده ومَن يستعين به من خواصه لتناول قِصَعِهِم وما معهم من الأَوعية فإن لم تكن له نَاوَلَهُ إمَّا قصعةً أَو ثمنها، ويستمر يفرق عليهم ذلك بنفسه بحسن دُرْبَةٍ ولُطْف، وترتيب إلى نهايته ثم يقرأُون الفاتحة ويهدون ثوابها ويتوجهون، واستمرت هذه التفرقة على هذه الصفة، قررتها مع مَن هداه الله تعالى من الأُمراء، إلاَّ أَنَّ بعضهم بخل بها وبعضهم لا يحسن سياسة الفقراء، فيتبعها بالأَذى والضَّرْب المؤلم عند التفرقة، ورُبَّما كسر أَوعيتهم، وبعضهم تأْنف نفسه أَن يحضر التفرقة عليهم بنفسه ويأْمر بصرف ذلك من المطبخ فلا يحصل للفقراء بذلك نفع، ولا يصل إليهم إلا ما شذَّ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

ولقد حصل في سنة ثمان وخمسين عطش شديد للفقراء والحجاج ومعظمه من المحل المعروف بالتِّيْه إلى نَخْل، وبالركب السحابة السلطانية، المستجدة الإنشاء، على يد الأَمير جانم الحمزاوي، وأَوقف (الخنكار الأَعظم) ـ نصره الله نصراً عزيزاً ـ لها وقفاً حسناً عامراً، وجعل بمكتوب وقفه للفقراء الآفاقية المنقطعين بدرب الحجاز، والمحتاجين ما هو لحمل الماءِ خاصة أَربعين جَمَلاً عنها من القِرَب مئة وستون قِربة، هذا ما يخص الفقراء من السحابة غير جمال أَمير الحاج الحاملة للماء، وهي في زماننا على اختصار مئة جمل، والمحل الحاصل فيه العطش الضرورة ليس بعيداً من القاهرة، فإن التِّيَهْ يكون الوصول إليه في ثالث يوم من الْبِرْكَة، فلما رأَيت شدَّة ما فيه الفقراء من اللهف على الماء وهم يتساقطون بين العقوب، وفي أَطراف الركب ما بين منقطع النَّفَس، ومَيِّت وملهوف ومكروب، قصدتُ إعانتهم بتذكير أَمير الحاج بما جرتْ العادة بفعله ممن فيه خوف الله تعالى والشفقة على خلقه من الأُمراء، فتوجهتُ إليه وذكرت له ذلك، وسأَلته أَن يأْمر بإحضار بعض الْقِرَب من السحابة، ولو حَمْلاً

يجرع به الفقراء الهَلْكَى، فأَجابني مُتَكَرِّهاً لذكري ذلك له: أَنَّ السحابة ليس بها ماء. فأَعدتُ القول وأَنه يأْمر السقّائين بخدمته بذلك فكان من جوابه: معنا الحريم ولا يمكن أَن نُبَدِّد الماء، فسأَلت بعد ذلك رئيس السقّائين بخدمته عن الماء، فأَخبرني أن الأَمير أوصاه أن لا يرسل إِلى الحريم للغسل والاستنجاء إِلاَّ من ماء النِّيل لا من ماء عُجْرود، وأن الماء معه بكثرة، وأَمره أَن لا يعطي لأَحد قطرةً، فانظر إِلى هذا الحرمان، وعدم إِنشاء الحسنات في هذا المكان، نعوذ بالله من ذلك.

ذكر عوائد أميرِ الحاج ـ من الديوان السلطاني ومن الأقطار الحجازية ومن غيره

فأَما عادته من الديوان السلطاني على ما كانت عليه إِمرة الحاج في الدولة الجركسية إِلى آخر أَيام دولة المرحوم قانصوه من بيردي الغوري رحمه الله تعالى مما رأَيته بدفاتر المرحوم الوالد سقى الله تعالى عهده وبَلَّ ثراه، وأَحسن متقلبه ومثواه، على ما نذكره: فالذي كان لأَمير المحمل من النقدية الأَشرفية معاملة ذلك الزمان أَحد عشر أَلف دينار فما هو للمصروف على المهم عشرة آلاف دينار، وما هو ثمن جمال نفر عدتها مئة جمل، قيمتها أَلف دينار تكملة للأَحد عشر أَلف دينار، ومن الأَصناف فمن الجمال الشعَّارة مئتان، ومن الغلال ثلاثة آلاف أردب، منها من القمح المصري الطيب ألف أردب، ومن الفول الصحيح بمكيول أربعة وعشرين قيراطاً ألفان، ومن التشاريف أطلسات عدتها سبعة، ومن الكوامل سبعة، ولأَمير الركب الأَول من النقد أربعة آلاف من الدنانير وخمس مئة، فما هو عن المصروف أربعة آلاف دينار وثمن جمال من النفر خمس مئة دينار، وله من الغلال ألف وخمس مئة، منها من القمح خمس مئة أردب، ومن الفول الصحيح ألف أردب، ومن الجمال الشعارة مئة جمل، ولهما أجرة الحمول المجهَّزة لهذا المهم برًّا وبحراً بضريبة سلطانية، مقررة لذلك نافهة عن أسوة الرعايا بأَضعاف مضاعفة كما سيأْتي بيانه في باب الحمول.

ثم لما زالت الدولة الجركسية واستقر أمر الدولة المظفرة العثمانية ـ أعلى الله تعالى شأْنها وأدام معاليها، وأنار في صفحات الأيام غرَر أيامها ولياليها ـ وفوّض السلطان المرحوم الشهيد سليم شاه ولاية نيابة الديار المصرية وأعمالها للمقر العالي المرحوم خاير بك ـ ملك الأُمراء بالمملكة الحلبية كان ـ جعلِ الحجيج ركباً واحداً، وعيَّن لأَمير المحمل بمفرده من غير أمير أول بحضور الشيخ الوالد، وشاركته في ذلك، مع المتكلمين

من أهل المملكة من النقد بما فيه ثمن الجمال ثمانية عشر ألف دينار ومئتي دينار حساباً عن كل دينار من الفضة المستجدة الضرب السليمانية خمسة وعشرون نصفاً، ومن الغلال من الشُّوَن السلطانية ستة آلاف أَردب فما هو من القمح الطيب أَلفان، ومن الفول الصحيح بمكيول ثلاثة وعشرين قيراطاً الأَردب، أَربعة آلاف أَردب، وأجرة الحمول برّاً وبحراً الضريبة المعتادة على حالها، ومن التشاريف الخاصة به خمسة منها من الشطمة العال عند الاستقرار في الإِمرة واحد، وله عند التوجه اثنان أحدهما من الشيت الأعلى، وتحته من الشطمة المعرّق المذهّب. وعند العود كذلك. ولجماعة العربان أرباب الأَدراك بالطرقات ذهاباً وإِياباً مما يجهز مخيوطاً من ديوان القلعة المنصورة، فمن الجوخ المخيوط الملون مئة وإِحدى وثلاثون جوخة منها باسم مقدَّمي القوّاسة المخصوصين بالجامكية السلطانية أربعة، وباقي ذلك للعربان، ولهم من الملاليط البعلبكي: مئة وخمس، ومن الشاشات إِحدى عشرة شاشاً مفصلة على اسم أصحاب كل درك، خارجاً عما يفصله أمير الحاج من الجوخ بديوانه وقدره أربع مئة واحدة، ومن الملاليط مئة وعشرون، ومن العجلوني مئة، وهي ثياب من الملحم المصبوغ الأَصفر، وتجعل مفرجة من قدام ووراء. وله ما يجهز إِليه بصحبة (باش) ملاقاة عَقَبة أَيْلَةَ وهو: من السكر المكرر خمسة قناطير، ومن الحلوى المنوعة المعبأة بعلبها المسماة بالمجامع خمس مجامعها: قنطاران ونصف قنطار، وبرسم العليق توسعة من الفول المجروش مئة وخمسة وعشرون أردباً، ومن الشعير خمسة وعشرون أردباً، ومن المأكولات أيضاً أصناف: فمن البطيخ الصيفي اثنا عشرة حبة، ومن البقسماط المعمول خمسون قنطاراً، ومن الجبن القايات أربعة قناطير، ومن ماء النيل ضمن قرب عدتها أربعة خارجاً عما يجهز به العسكر النصور، وهو من البقسماط أربعون قنطاراً، ومن الفول المجروش عشرون أردباً وله من الطين السلطاني إطلاقاً لزراعته وربيع جماله وخيوله ثمانون فداناً، وله من الإسطبلات السلطانية للسفر خاصة فإِذا عادت أُعيدت إِليها من الخيول الحجورة بنعالاتها وآلاتها وسُوَّاسها عشرون حجيرة، وله من (الزردخاناه) السلطانية ضمن ستة أحمال تجهَّز صحبته، من البارود والقسيّ والنشّاب والأَوتار، و(الفندق) الرصاص، والأَحجار الرصاص، للمدافع وأكياسها، والنفط وما يحتاج إِليه لآلة الحرب، يصرف منها عند الاحتياج، ولَوْ أَتَى على آخرها، وما فَضُل يعود إِلى الديوان السلطاني. وكان له ـ أَيضاً ـ إِلى آخر سنة إِحدى وأَربعين وتسع مئة (زردخاناه) ثانية، إِنعاماً عليه، تنقل إِلى داره، فَوُفِّرَتْ في ولاية خسرو باشا على مصر في السنة المذكورة. وأصنافها من البارود ستة قناطير (فندق) رصاص ثلاثون حبة، وقِسِيٌّ موتورة، أَربعون قوساً وأَوتار مئة وخمسون، ونشّاب ألفان، عوداً. وله على أمير مكة المشرفة عادة

مستمرة للصرف بحكم ما استقر عليه الحال في الاختصار منها في ولاية الأمير جانم الحمزاوي، وهي من الاشرفية ضريبة كل دينار خمسة وعشرون نصفاً كبيرة، ألفان، منها على أمير الينبع أربع مئة دينار، عنها من الفضة الجديدة عشرة آلاف نصف، وباقي ذلك على أمير مكة. وقدره أشرفية كبيرة ألف وست مئة دينار، عنها من الفضة الجديدة أربعون ألفاً.

وله من الأغنام على أمير مكة المعظمة مئتان وسبعون رأساً، يجهز إليه مطبوخاً مع الطعام يوم دخوله مكة المشرفة سبعون رأساً، وباقي ذلك يجهز إليه حيًّا، وله على أمير الينبع مئتان، وثلاثون رأساً من الغنم، ما يجهز إليه مشويًّا ثلاثون، وما يجهز إليه حيًّا مئتان، عند ذهابه مئة، وعند رجوعه مئة، وذلك خاصة سوى (دواداره) وجماعته، وله من المنافع عند مصروفه على المُهِمّ مناقصات للغلمان عند استقرارهم في خدمته إن كان يرى ذلك، وهو من أهل الشره والطمع كغالب أمراء زماننا. كما تمادى بعضهم في طمعه وسفالته، وخبث نفسه، إلى أن ضَمَّ ما يرجع من المصروف، باسم الكاتب و(الدوادار) و(الخازندار) ومن الصرر أيضاً، وهو في كل مئة دينار أربعة دنانير إلى نفسه، واستمرت عادة لأمير الحاج عند ذوي النفوس الرذيلة، ثم بالغوا في ذلك إلى أنْ صار أميرُ الحاج يتولّى ما يشتريه بنفسه، ثم يقول للبائع أو العامل: إنَّ الذي كان يأخذه الكاتب و(الدوادار) و(الخازندار) قد أبطلته، فتترك لي جانباً من السعر والثمن في مقابل ذلك. ثم ما كفاهم ذلك إلى أن شَدَّدُوا في منع أن يحصل لأحد من خَدَمَتِهِمْ الدرهم الفرد، ومَن اشتهر بشيء تافه، قد وصل إليه من ذلك حصل له غاية التعنيف، وكان مسقوطاً (؟) عندهم إلى الغاية، فلا كَثَّرَ الله من أمثال هؤلاء الخبائث (؟) ولا بارك في أحوالهم.

ومما أضافَهُ أمير الحاج إلى نفسه معلوم الحسبة على السوقة، بالطرقات وأقطار الحجازية، وكانت في القديم إلى آخر سنة ثمان وثلاثين وتسع مئة ولاية مصطفى كاشف الغربية منفعة معدة (لمهتار الطشتخانه) يستعينُ بها على مصروفه، وما يحتاج إليه، وقدرها أربعون ديناراً قديمة، ول(لدوادار) والكاتب عشرون ديناراً، فأضافها أمير الحاج إلى نفسه، من جملة ما أضافهُ، واستمرت، وتزايدَ هذا المعلوم إلى أن صار ستين ديناراً من الذهب البنادقة، فلما كانت سنة تسع وخمسين بعد واقعة محمود أمير الحاج مع الأشراف في مكة ووردت الأحكام السلطانية للشريف أبي نُمَي وأولاده أنَّ الأمر جميعه منوط بكم، وليس لأمراء الركب يَدٌ مطلقاً في أمر من الأمور، فمنع الشريف أبو نُمَيٌ يَدَ أمراء الحاج عن الحسبة بمكة، وعما كان يأخذه أمير (آخوره) على سوق الجمال بمكة، وهو على كل

جَمَل نصف واحد، وما كان يأخذه مقدم (الضوئية) على العمار بمكة، ومنع غير ذلك مما جرت به العوائد، وصارت الحسبة إنّما يتكلم أمير الحاج على ما يكون بالطرقات خاصة، ونقصت المقدار المخصوص بمكة.

وأما عادة أمير الحاج المقدرة من الخزائن السلطانية فاستمرت على حكمها إلى سنة أربع وخمسين وتسع مئة، وتولى إمرة الحاج حسين كاشف البهنساوية والفيُّوم، وحضر مصطفى باشاه اليمن معزولاً منها إلى القاهرة، وتوجه منها إلى الأعتاب الشريفة (الخندكارية) بعد أن تغير خاطره من حسين المذكور لفتن كانت بينهما عند حضوره من اليمن إلى مكة، وقدومه صحبة الركب، مع حسين المذكور، فلما أن كان مصطفى باشا بالديوان (الخندكاري) وَفَّر من عادة إمرة الحاج أربعة أكياس ونقيصة، عنها من الدنانير أربعة آلاف دينار، ومئتا دينار، وتولّى إمرة الحاج بعد رتبة ملك اليمن على حكم هذه المناقصة عند تغير خاطره من حسين المذكور. واسترمت العادة على هذا النقص، وقدرها أربعة عشر ألف دينار، عن كل دينار من الفضة خمسة وعشرون نصفاً، وتَمَّ الأمر على ذلك إلى تاريخه.

أقول: ومما كان من عوائد أُمراءِ الحاج: [أن أمير الحاج] عظيم الحماية والرعاية والوجاهة، ومراعاة خدمته، وغلمانه ممن عرف بخدمة هذا المهم، مما لا يضاهِيه غيره، حتى أن قاتل النفس المحرمة، والمحرم إذا احتمى بباب هذه الإمرة، وقيل عنهُ إنه من خدمتها فلا يتعرَّض إليه، ولا يقرب لناموسه أدنى ضرورة إكراماً للمهمّ الشريف، وأدركت جانباً من ذلك، وأتذكر في تلك السنين أنه كان في خدمة الوالد غلام يكنى بأَبي الخير، وكان معروفاً بخدمته، وكان دأبه أن يخلص الغرماء من محاكم الشرع وغيرها برسالة أستاذه مشافهة إلى الحاكم، ويؤدِّي شهادته أن الغريم ن جماعة أمير الحاج، أو من غلمانه، وفي الغالب لم يشعر أستاذه بذلك.

وكانت القاعدة والعادة أن جميع ما يحضر للمهم الشريف من سائر الأَصْناف بَرًّا وبَحْراً من مأْكولات وأصناف وقِرَب وغير ذلك لا يتعرّض إليه أحد من أهل المكس مطلقاً بوجه من الوجوه، ولا يمكن لعامل من العمال أن يجري ذكر ذلك على لسانه، بدلاً عن طلبه. وأين هذا الاعتبار من سوء الحال في زَمَنِنا، ولقد تفاحش الأَمر جدًّا حتى صار أمير الحاج ومَن يلوذ به كآحاد الرعايا وأراذلهم، حتى صار الأَمر الآن إذا اشتكى أحقر الرعايا أمير الحاج لمتولي مصر، على أمر تافه، سواء بحق أو بباطل، تَمَكَّن من إيذائه بكل طريق، وبالغ في مقابحته إلى الغاية، ولم يستطع له دفاعاً، ولم يكن محميًّا منه، ولا مراعًى، فقد شكا الأَمير جانم من قصروه شخص من عامة الرعايا إلى داود باشا وذكر أنه

كان راكباً حماراً في مضيق عَقَبَة أَيْلَةَ، وعليه خُرْجٌ فيه أسبابه وهديتُه، فزاحمه أمير الحاج في النقب، فوقع من ظهر حماره، وتسرّب الحمار فضاع هو والخرْجُ، ولا يعلم خبره، وذلك بمجرّد ذكره من غير ثبوت، وبالغ في السبِّ والفحش على أمير الحاج، فجهّزه الباشا صحبة (جاويش) من الديوان إلى منزله، وألزمه بأن يعطيه ثمن حماره، ويعطيه ثمن أسبابه، ستين ديناراً قديمة، ففعل ذلك، بعد أن سمع منه مكروه الكلام وغليظ القول.

وكان من العوائد المتقدمة أن إمرة الحاج رتبةٌ جليلة، ووظيفة نبيلة، يساعد أميرَ الحاجِّ في مهمَّاته أكابِرُ الأُمراء والأعيان، ويجهزون إليه محاسن الهدايا و(الأرمغان) ويقومون بمجده، ويساعدونه على مطلوبه وقصده، وآخر ما أدركته في باكورة الدولة المظفرة أنَّ الباشا بمصر، وناظر أموالها، وكبراء أمرائها وعمالها، كان أجلَّ اهتماماتهم، وأكبر قصدهم واحتفالاتهم، النظر في أحوال إمرة الحاج ومهمَّاتها، ويقومونَ بهمتهم في سداد أحوالها وجهاتها، ويسألون عما جُهز من الحمل، وما تهيأ من الأسباب في كل وقت وحين، ويحثُّون الأَمير على حُسن اهتمامه بأُمور هذا المهم، عما سبق من السنين، لا يغفلون عن البحث عن ذلك، ولا عن السؤال عما هنالك، لتكون أمور هذه الإمرة مُنْجَزَةً، وأسبابُها ماضِيَةَ الأمر مُعَزَّزَة، وكل جماعة الديوان السلطاني منقادون لأمره، مجمعون على طاعتهم له في سهل الأَمْرِ وَوَعْرِهِ، وقد أُخِلَّ هذا النظام، وحُلَّ هذا العقد على أيدي جميع الحكام، ولم يصغوا إلى لائم، في ذلك، ولا يستمعون، أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُوْن.

الفصل الثالث

في ذكر المناصب التابعة لإمرة الحاج، وما يتعلق بذلك، فنقول:

إن التابعين لإمرة الحاج كثيرون، وخدمة هذا المنصب الجليل متعددون، وإنما نذكر في هذا الفصل مَن اشتهرتْ خدمته وتعيّن منصبه ورتبته.

فأول ذلك وظيفة (الدوادار):

وموضوعه تبليغ الرسائل عن الأَمير، وإبلاغ عامة الأُمور، وتقديم القصص إليه والمشاورة على مَنْ يحضر إلى الباب، وهو الذي يقدم إلى الأَمير الدواة لأَخذ العلامة عى المراسيم والتواقيع، ولعل اسمه مشتق من إدارة الدواة إلى مخدومه للعلامة على التواقيع، لأَن ذلك غالبُ أحواله.

ويضاف إلى (دوادار) أمير الحاج خاصة الشرطة بدرب الحجاز والعسس، وهو

الطواف ليلاً لتتبع أهل الرِّيَب والحرامية، يقال: عَسَّ يَعِسُّ عَسًّا وعَسَساً.

وأول مَن عَسَّ ليلاً عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أمره أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه بعسس المدينة، أخرج أبو داود عن الأعمش عن زيد قال: أُتِيَ عبد الله بن مسعود فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله: إنَّا قد نُهِينا عن التَّجَسُّسِ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأْخذ به.

وذكر الثعلبيُّ عن زيد بن وهب أنه قال: قيل لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عقبة تَقْطُر لحيته خمراً؟ فقال: إنا قد نهينا عن التجسس، فإن ظهر لنا شيءٌ نَأْخُذْ به، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتولَّى في خلافته الْعَسَسَ بنفسه، ومعه أسلم مولاه، وربما استصحب معه عبد الرحمٰن بن عوف الزُّهريَّ رضي الله عنه.

و(لدوادار) كنائب أمير الحاج في المهمات التي لا يتولاها الأمير بنفسه، وفيما تطول مشقة العمل يه كتقطير الجمال، وتسهيل الطرق في المضيقات، وتسريب العقوب في الأماكن الجاري بها العادة في الزحام، والطواف على الحجاج ليلاً بالخصوص ـ كما ذكرنا في حراستهم ـ ونهاراً عند الاحتياج إلى ذلك، وتتبُّع السُّرَّاقِ والمفسدين، وما أشبه ذلك. وهو مُعِيْنٌ لأمير الحاج على ما هو بصدده، منْ مهمات الركب وأحواله وعُدَده، فَإِنْ كان لأمير الركب قين فيه هذه الأهلية كان، وإلا فيكون من عُقلاء نفر العسكر وشجعانهم، من المشهورين بحسن المعرفة والعقل والمروءة والدربة والسياسة في الأُمور والشجاعة والخبرة بالفروسية، ومعاركة الدهر، مع الديانة، لأنه في الحقيقة معين لأمير الحاج في غالب أحواله، فربما كان الأمير ضعيف الرأي سَيِّىءَ التدبير، أَو ليس شجاعاً، فكيون لـ(لدوادار) موقع في ذلك ومحل، وأما إذا اتفقا في عدم ما ذكرنا فأَخْلِقْ بأَهل الركب أن تضيع أحوالهم، وعلى كل تقدير فهو مرجع يرجع ويعول على قوله ومعقوله، في المهمات وغالب الأُمور الضروريات، وما أحوج أمير الحاج إليه إذا كان متصفاً بما ذكرناه من الصفات، فله أنه إذا رأى من الأمير خللاً في أقواله وأفعاله أَن يراجعه في ذلك، ويعرِّفه طريق الصواب، ويبيّن له ما في ذلك من الخلل وما في قوله من الخطل، ليسلم من الملامة، ويوصف بحسن الاستقامة، ويعامل أهل الركب الذين هم وفد الله وأضيافه بحسن السيرة وجميل الطريقة، من غير عُنْفٍ ولا تشديد، ولا بَلَص ولا تهديد، إلا فيما أمر الشارع بالتشديد فيه، كإقامة الحدود، وقطع السرّاق، وردع المفسدين، فإنه يفعل ذلك بإذن أمير الحاج من غير خروج عن أمر الشارع صلوات الله وسلامه عليه، ولا يتجاوز عما أمر الله تعالى به من الأوامر والمناهي. وليكن عفيف النفس عن البلص والحرام، حسن السيرة في كل مقال ومقام، لا كما يفعله غالب (دوادارية) زماننا إلا ما شَذَّ

منهم من أخذ البلص على القطار، ويعدون ذلك من أجل منافع هذه الوظيفة، ومن مهماتها، ومنهم مَن يسأَل عمن عرف بالسرقة والاختلاس وملازمة الحرام وأذى الناس، كالنشّالين المشهورين بذلك فَيُقَوِّي يدَهم في الباطن ويكون شريكاً لهم فيما بينهم من المكامن، وإذا رفعت قصة شكواه عن أميره بتهمة لاحظه في سائر أحواله وأفعاله ووقائعه وأحواله، وربما حسن لأَمير الحاج أخذ البرطيل منه وإطلاقه لأذى وفد الله تعالى، إن رأى من الأَمير ميلاً إلى تناول الحرام، وطمعاً زائداً في تحصيل الحطام، فإنْ هُمَا إلا كالأَنعام، لأنهما حينئذ على الوفد من أشد البليات، ومن أكبر النازلات، ومنهم مَن يتسلَّط على صُرَر العربان المقررة لهم من الخزائن السلطانية، بالبلص والأَذى، ويجعل ذلك له راتباً لا ينقطع، وسبيلاً لا يمتنع، ويزعم أن لـ(لدوادار) العادة المقررة، وأن ذلك من العوائد الواضحة المشتهرة، وأَنَّ أَخْذَهُ لذلك من أجل كسبه، ونسي أمر رَبِّه، وله أعوان متعددة ينفذهم لإحضار العربان إليه بعد قبض الصرة ليوقع بهم أنواع المضَرَّة، وليس لذلك أصل في العادة، وإنما إذا كان بعض الأَدْراك قليل الخفر واستعانوا به في الخفر معهم إذا كان المبيت بتلك الدار واقعاً، فإنه إذا ضَيَّع عليه تعبه معهم ربما أن صاحب الدرك ـ بعد قبضه للصرة ـ يعطيه ما تيسّر بطريق المروءة لكونه استعان به في خفارة تلك الرحلة لَيْلاً، فرتّب أهل البلص ذلك عادة على عامَّة العربان، سواء كان الدرك ليلاً أو نهاراً، وسواء استعان به صاحب الدرك أم لا، ومثل ذلك وأشباهه مما يوقع العربان في المشاقّ، ويحملهم على النفور والشِّقاق، خصوصاً إن اتَّفق مع ذلك طمع أميره في جانب من الصرّة وتعدد البلص من (الخازندار) والكاتب، ومال الطمع إلى ما بيده من كل جانب، من كل (قابجي) وقوّاس، ومسخرة للمخدوم، ولحّاس، فلا يتبع صاحب الصرّة إلا ذكرها، والإشهاد عليه بها لا غير، كما نشاهد ذلك من بعض أهل زماننا الذين يسعون في الأَرض الفساد، ويزعمون أنهم على شيء من المعرفة والسداد، ولقد اتفق في عام من ولاية المرحوم جانم مَن قصروه لإمرة الحاج واقعة أظنها في سنة خمسين وتسع مئة، وهي أن (دواداره) جلس بمخيمه، لصرف عوائد عربان الدرك من بني عُقْبَة، في حالة الذهاب بالمنزلة المعروفة بدار السلطان قايتباي، ومن جملتهم صاحب دَرك طَيِّ الناشر، وهو أيتلي بن عقاب بن سليمان الأَعرج من المناصير، فقبض نصف معلومه عن درك الذهاب، وقدره بعد مقتطع أمير الحاج سبعة من الذهب، وذكر لـ(لدوادار) أن عليه دَيناً لبعض القوَّاسة، فإذا خرجتُ من عندك أخذوا الدراهم مني، وأنا أضعها تحت بساطك وديعة، فإذا انقطع الناس عن محلك جئت وقت الرحيل وأخذتها على حال التوقي من صاحب الدين، فتركها تحت بساطه وتوجّه وعاد إليه وقت الرحيل فلم يجدها فَسأَله عنها

فقال: لا علم لي بها. وأنكرها طمعاً فيها، فكرّر عليه أيتلي سؤاله، فأغضبه ما قاله، وأمر به فَمُدَّ وضُربَ، ولم يُصْغِ لقوله، ولم يستجب، وذهب ويده من الذهب أفرغ من فؤاد أُمّ موسى، والحنق من الضرب قدْ أثار عنده لؤماً وبُؤساً، فاجتمع برباعته، وحرّضهم على ما يفعله بمقالته، وكانوا ثلاثة أنفار فرساناً و(قناماتهم) معهم، والغدر لهم سجية، فلا مانع منه يمنعهم، فدبَّروا مكيدةً على الأمير والحجاج، ليأخذوا ثأْرهُمْ في تلك المَهَامِهِ والفجاج، ويقتَصُّوا ما وقع من (دَوَاداره) ويشفوا غليل صدورهم بما أَبْداه من طمعه وشناره، وجاؤوا إليه جميعاً بدار المعشَّة ليلاً، وقالوا: إنَّ بالقرب منك تزويدةً، قد تدفقت سيلاً، وكانت المنزلة بجوار قبر الشيخ مرزوق الكُفَافِيِّ، وأزمعوا على المكيدة من غير تلافي، فجهّز معنا جمالاً للتزاويد من سَلْمَى، وحثَّ السقَّائين على حمل الكثير من ذلك الماء، وأكَّد عليهم في الضبط إلى مفازة نبط، فبرز أمره بتجهيز السقَّائين والقِرَب والجمال المخبورة، وأن يكثروا من ذلك، لأَجل الماء الطيب في محل الضرورة، وجهّز معهم عشرة من القوَّاسة بجِمالهم، وتبعهم من الحجاج مَن أراد التزويد، وتوجهوا على قلب غافل مما يريد أيتلي أن يكيد، فما هو إلا أنْ أُنيخت الجمال عند الماء، وشرعوا في مَلْءِ القِرب من تزويدة سَلْمَى، وإذا بأَيْتَلي ومَن معه قد عطفوا عليهم، وأظهروا كامن الغدر لديهم، وسلبوا القوَّاسَةَ ثيابهم وجمالهم والنُّشَّاب، ورغَّمُوا أنوفهم بالتراب، واستولوا على جميع ما معهم من قليل وكثير، وسلبوا عامَّة جمال المأمور والأمير، وكان لمقال أيتلي لمحمد حجازي الرامي: سلِّم على أمير الحاج وأَعْلِمه أنَّ سبب هذه الغنيمة ما فعله (دوادارك) من غير ذنب لنا ولا جريمة، ولم ينتطح فيها عَنْزَان، وكانت تلك الفعلة الذميمة سبباً لهذا الانتهاك والامتهان، فليحذر العامل من أمثال ذلك، ويسلّم بعفته هذه الذريعة، ويتباعد عن ما يقرب إلى مثل هذه الأَفعال الشنيعة، وليعلم أن السلاطين الأُوَل، ومَن انقضى زمنهم دولاً بعد دول، إنما رتبوا هذا الترتيب، وقرروا هذه الصرر التي تتعطّر بذكرها مجالس عربان الدَّرك وتطيب، إلا لتسهيل طرق الحجاج، وأَمْنِهم في تلك البراري الواسعة الفضاء الفجاج، ولإقامة الحجة على كل مخالف، وأخذهم بمقتضى ذلك بكل هفوة وذنب سالف، ولطمأْنينة العربان الحاصلة بهذه الواسطة، ليدوسوا بساط السلطنة على ثقة من مكارمهم عليهم بأَيْدٍ باسطة، وليجلبوا الميرة للوفد وللحالة هذه من أغنام وسمن ولبن وعلف وغيره، كافَّة أيديهم وأطماعهم عن الأَذى له، خوفاً من انقطاع خيره، سائرين على حسن الانقياد للطاعة بهذا لسبب للسلطنة الشريفة، محضرين أولادهم وأحبابهم يجعلوها رهينة في الحديد والأَغلال بانشراح صدر وطيب نفس، آمنين من كل محذور وخيفة، باذلين نياقهم وجمالهم لإعادة ما أخذه المجرم في دركهم خوفاً من

الملامة، سالكين في خفارتهم وحراستهم اعتماداً على الصرَّة سبل النجاح وطرق الاستقامة، فيجب ويتعيّن على كل أمير من أمراء الحاج الاعتناء بمراعاتهم، وإيصالهم ما لهم من ديوان السلطنة، وما لهم من العادة بديوانه، سالكاً طريق مراضاتهم، وأن لا يعين (دواداراً) إلا بعد اختياره واختباره وتجربة عقله ونقله، والبحث عن أفعاله وتدبيره ومروءته، وحُسن سيرته، إن كانتْ غير معلومة ولا مشاعة، ولا يقرر في هذه الوظيفة إلا بعد الاجتهاد بحسب الاستطاعة، فقد قيل:

وَمَنْ يَرْبط الْكَلْبَ الْعَقُوْرَ بِبَابِه فَآفَةُ عَقْرِ النَّاسِ مِنْ رَابِطِ الْكَلْبِ

(وللدوادار) من العوائد الإحسان من بعض العاملين بالديوان على سبيل المروءة، وطريق كسبهم والعائدة إن كان من أهل البلص، وله القفطان المذهَّب من أمير الحاج عند بذل مجهوده، ووفاء خدمته على الاستقامة وحسن مقصوده، وأما في حالة السفر فله العادة على أمير مكة المشرفة بطريق المكارمة والمروءة، عادة قدرها مئة دينار عنها من الفضة ألف نِصْفٍ، ومن الشاشات والأغنام ما يكون سببه حسن قيامه في خدمته، والشكر من جميل سياسته، وحُسن ملاطفته، وله على أمير الينبع من النقد ثلاث مئة نصف عنها ثلاثون ديناراً وبعضهم أخذها طمعاً خمسين ديناراً ومن الأغنام عشرة فما دونها. وأَمّا ما يتناوله بطريق العُرف والعادة من المصالح الهوائية بحسب الأُمور الاصطلاحية، فلا يدخل ذلك في سياق كتابنا، ومَن عَفَّ كَفَّ.

قضاء المحمل:

هذه الوظيفة عبارة عمن يكون حاكماً شرعياً ينصبه وليُّ الأَمر ليتعاطى الأَحكام الشرعية بين الحجيج، ذهاباً وإياباً ضبطاً لوقائع المسلمين.

وكانت هذه الوظيفة يتولاها في الأَيام الجركسية قاضٍ من قضاة المذاهب الأَربعة، يعينه قاضي قضاة ذلك المذهب إما بسؤال أَمير الحاج له، أو بسعي قاضي المحمل وطلبه من غير رشوة للحاكم على تقرير هذا المنصب مطلقاً.

فلما مَنَّ الله تعالى على الإسلام والمسلمين بهذه الدولة الشريفة (الخندكارية)، وجرت سطوتها في ميادين الأَقاليم الإسلامية، وسارتْ قضاياها العادلة بين الحكام والرعية، وأشرقت في أبراج ممالكها شموس أحكامها المُضِيَّة، صار أمير الحاج يُعَيِّنُ مَنْ يختاره من قضاة أولاد العرب بصحبته قاضياً في تلك السنة على المناهج الحسنة، والمسالك المستحسنة، وأتذكر أن في عام ثلاثين وتسع مئة فيَ ولاية الأَمير جانم الحمزاوي سؤال شخص من القضاة يدعى النضري له، واستقر قاضياً من غير كلفة لدرهم

واحد، وساعده الشيخ الوالد بالثناء عليه عند أمير الحاج، ولما عاد من السفر أنعم عليه أمير الحاج بمئة دينار من الذهب السليمي - رحمهم الله أجمعين - فلما كان سنة أربعين وتولى أمير الحاج سليمان (دوادار) سلميان باشا ويلقب في اللغة التركية بالكيخيا - بكسر الكاف بعدها ياء ساكنة وخاء معجَّمة فوقية مكسورة وياء تحتية مفتوحة - وكان من أخص مماليكه لديه واعتنى بشأنه كما سيأتي، سعى صاحبنا المرحوم الشيخ زكريا الصغير، ولد الكبير قاضي القضاة الأَنصاري الشافعي في قضاء المحمل الشريف تلك السنة، وسأل أيضاً صاحبُنا الشيخ رضي الدين ابن بنت الدهانة الحنفي، وتغايَرا فاستقرَّ الشيخ زكريا الأَنصاري قاضياً في تلك السنة برشوة لأَمير الحاج والباشا، ذكره لي من لفظه رحمه الله تعالى أنها تعدل خمس مئة دينار، فكان أول مَن سَنَّ ذلك، ثمّ عقبه بعد ذلك الشيخ رضي الدين الحنفي أيضاً، واستقرَّ في قضاء المحمل الشريف بعد الشيخ زكريا على مبلغ له صورة، وزنه للباشا حتَّى قرره، فاشرأَبَّتْ إِلى هذا المنصب أعناق قضاة الأَروام بالباب السلطاني، وبذلوا السعي في ذلك من القسطنطينية العظمى واستقر أمر قضاة المحمل أن لا يعين إلا من الباب السلطاني بحكم عالٍ لقضاة الأَروام لا من أولاد العرب، واستمر ذلك إِلى تاريخه في كل سنة قاضٍ غير الأَول.

ثم إِنَّ قاضي مصر طمع في بعض محصولهم، فاختُصَّ به، وهو أنه كان قديماً إِلى ولاية داود باشا أنَّ قاضي المحمل له جميع المعلوم المتعلق بشواهد العاملين والعربان، بديوان أمير الحاج بالقاهرة، ومعاقدات الجمَّالة بالقاهرة وغيرها، وكان يؤكد ذلك نائبُ الديار المصرية، بعد زوال الدولة الجركسية، بأَن ينادي بشوارع القاهرة: إِنه لا يكْتُب أحدٌ معاقدةً إِلاَّ بباب أمير الحاج بمعرفة قاضي المحمل، وكان أوان ابتداء ذلك من أول شهر رجب الفرد، وفي ذلك من الصواب معرفة قاضي المحمل لذلك، فإذا وقع بين الجمَّال والراكب منازعةٌ وخصومة أو خلاف في حالٍ من الأَحوال يرجع فيه إِلى ما كان بمعرفته قبل التوجُّه، ليكون فيه الراحة للحجيج عند مصالحهم وإِكماله، فمنع ذلك قاضي مصر من نيف وخمسين وتسع مئة، ورفع يد القاضي وشهوده مطلقاً، وأظهر النداء أن لا يكتب أحدٌ معاقدة عند قضاة المحمل إِلاَّ من ابتداء الرحيل والنزول ببرْكة الحاج، وصار قاضي مصر يعين قاضياً من جماعته، يجلس بمنزل أمير الحاج لضبط المعاقدات، ومعه شهود المحمل في تلك السنة، ويجمع المعلوم المتحصل يدفعه لقاضي مصر، ولا يتصرَّف ويحكم قاضي المحمل إِلاَّ من الْبرْكة، واستمر الأَمر على ذلك من جملة ما تغيّر من أحوال الديار المصرية، وطمع حكامنا في كل أَمْر وقضية، ولقاضي المحمل من العوائد أجرة جَمَل من جمال المحمل من السلطنة الشريفة، وقدر ذلك من الفضة الجديدة

السليمانية أربع مئة نصف لا غير، وله بديوان مصر قفطان من الشطمة المذهَّب، يلبسه يوم خروج الركب من القاهرة، ويمرُّ به الشارع الأعظم، تجاه المحمل مع شهوده إلى نهاية الشارع، وله من ديوان أمير الحاج عليقة لبغْلتِه، وهو رُبْع كيْل في كل يوم، والراتب من السَّنيح أو المطبخ، وله بمناهل المياه أربعة من الخبز، وأما من الربع إلى الربع فجرايتان من البقسماط، وَزْنُ كُلِّ جراية ستة عشر رطلاً، وله مع ما يفرق للعسكر بالبرْكة من السكر المكرر خمسة أقماع أو أربعة، ومن الحلوى المجامع مثلها، وهذا هو المقرر الجاري به العادة.

وأما الإحسان والإنعام من الأُمراء إن كانوا من ذوي المروءة أو لحاجة أو غرض ما، فلا يتقيَّد ذلك بحالة، ولا يدخل في هذه المقالة، ولي من أبيات في بعض قضاة المحمل عندما أساء السيرة.

قاضٍ له نفسٌ يَلُوحُ أذاها ... أيسَتْ وفودُ الله منْ تَقْوَاها
ابْتَاعَ أحْكامَ الحَجيْجِ بمَبْلَغ ... جَمٌّ وَأعراض الأنام فَشَاهَا
أحكامُه قَبُحَتْ وسَاءَتْ سِيْرةٌ ... إذْ لَمْ نُشاهِدْ مُخْلصاً زَكَّاها
فَلِرِشْوَة يَأتِي بأمْر وَاضِح ... وَلِفَقْدِها تَبَّت يَدا نجواها
لَمْ يَرْضَ إلاَّ بالكَثِيْر ولَوْ تَكُنْ ... خَمْسِيْنَ أو سِتِّيْن لاَ يَرضاها
رجمتْ به الحجاج في عام مَضَى ... وَتأَلَّمَتْ لِمَزِيْد مَا وَاسَاهَا
وتضرَّعَت كلُّ الأنام لِرَبِّها ... حَتَّى الجمالُ شَكَتْ إلَى مَوْلاَهَا

شهود المحمل:

وعادتهما أن يكونا اثنين من أهل الخبرة والعدالة وممن له معرفة بالصناعة، وكان تقريرهما قديماً من جانب قاضي المحمل. ثم إن الشيخ الوالد ـ برَّد الله مضجعه ـ قرر مع الحكام أن لا تُعزل الشهود بعزل القضاة، وأن لا تغير إلا بموت أو مرض مانع من السفر، لأجل حفظ وقائع المسلمين، والرعايا بالطرقات على تعاقب السنين، ليكون السجل الحكمي محفوظاً لما يرد من الكشف والتحرير منه، لئلاً تضيع أُمور المسلمين، فوافقوه على ذلك، وكان إذ ذاك صاحبنا الشيخ العلامة الشريف محب الدين البرديني، والد صاحبنا السيّد الشريف القاضي فتح الدين البرديني الحسني الحنفي، فاستمر برهة على ذلك، ثم عقبه الشيخ العلامة شمس الدين محمد السمديسي المالكي، ثم الشيخ بدر الدين المحلي الشافعي، وإماماً في شهادة المحمل مدة تقارب العشرين سنة، وكذلك القاضي فتح الدين البرديني المذكور أعلاه مدة سنوات، ثم لما توفي الشيخ شمس الدين

السمديسي ورفيقه البدري المحلي، وولي السيد الشريف أَبو الفتح البرديني قضاء الأَعمال بالضواحي والإطفيحية ونقابة السادة الأَشراف، وتغيرت الأَحوال واختلّ ذلك النظام، وانحلّ ذلك العقد التّام، وولي الأُمور غير أَهلها كما هو شأن انقراض الأَنام، وحوادث الأَيام، صارت ولاية الشهود بحكم من الباشا بمصر لكل مَن طلب ذلك، سواء كان عدلاً أَو غيره، رجُلاً أو صَبيًّا، عارفاً أَو غير عارف، وتهافت لطلب ذلك كل بليد مهووس، وكل فاسق متلطخ متنجس.

ولهما من المعلوم بديوان القلعة من جمال المحمل أُجرة جمل كالقاضي وجرايتان، وأَما العليق فتارة يصرف لهما عليقة وتارة نصفها، وتارة تُمنع في النادر، ولهم من السنيح أَو المطبخ صباحاً ومساءً كغيرهم وأَربعة من الفطير في المناهل، ورأسان من السكر ومثلهما من الحلوى المجامع بالْبِرْكة. ولي من أَبيات أُخاطب بعض قضاة المحمل في شخص تولى الشهادة وهو غير عدل. وشهرته آخر الأَبيات:

يَا قَاضِيَ الْمَحْمَلِ وَالْمُرْتَضَى ... فِيْ حُكْمِهِ بِالسَّيِّدِ الكَامِلِ
وَفَّقَكَ اللّهُ لِمَرْضَاتِهِ ... مُرْتَفِعاً عَنْ شاهِدِ جَاهِلِ
لاَ تُسْنِدِ ٱلأَمْرَ إِلَى فَاسِقٍ ... تُذَمّ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ

وقلت في بعض شهود المحمل مُضَمِّناً:

فلان الدِّين في مَيْنٍ وَشَيْنٍ ... كَمَدِّ النِّيلِ أَيَّامَ الزِّيَادَةْ
يَذُوبُ عَلَى الشَّهَادَةِ وَهْوَ حَيٌّ ... (إِلٰهي لاَ تُمِتْه عَلَى الشَّهَادَةْ)

كاتب ديوان إمرة الحاج من ديوان السلطنة الشريفة:

وهذا النعت أُطلق على الوالد ـ تغمَّده الله برحمته ـ وعلى مؤلف هذا الكتاب من بعده ولم يُدْعَ به مَن كان قبل ذلك، والسبب المقتضي لذلك هو أَن الذي كانت عليه إمرة الحاج في دولة الجراكسة لكل سنة أَمير غير الأَول، وكانت الإمرة منقسمة إلى أَول وثان، وكان الأَوان الذي يتعيّن فيه أَمير الحاج للولاية هو ليلة المولد الشريف النبوي وهي ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأَول فعند اجتماع الأُمراء ومقدِّمي الأُلوف لإعطاء الخدمة السلطانية ما يجب لها وسماع القراءة والمولد فتكون للسلطان حينئذ إشارة لطيفة، وهو أَنه إذا دار المشروب يبدأ بالسلطان فيناوله الساقي ليشرب منه ما تيسّر، ويشير إليه بإعطاء باقي مشروبه إلى مَن عيَّنه أميراً على الحاج في تلك السنة، فعند وصول ذلك إليه يفهم الإشارة، ويقوم على أقدامه مسرعاً لتقبيل يد السلطان، وتُهَنِّئُهُ الأُمراءُ باستقراره في هذا المنصب الجليل، ويشرع في أَسبابه ومهماته لتلك السنة فقط على حسب ما تقتضيه همته

ومروءته، من غير قانون معين، بل إنما كانت رغبتهم في الزيادة على مَن كان قبلهم، وإرادة الظهور والفخار وحسن الثناء، ويساعد كل أمير على ولايته أصحابه وأهل مكارمته ومحبته بالمال والغلال والهدايا، كل أحد بحسب مقداره ومقامه، ويكون المتولي لمباشرة ذلك كاتب داره وإقطاعه، لا غير، وكان أمير المحمل والأول على ذلك يأخذان ما لهما من العادة بالديوان الشريف ويصرفان ذلك، ويكملان عليه من مالهما، مع مساعدة إخوانهما بمباشرة كاتب كل منهما، وإذا انقضت تلك السنة تولّى غيرهما، وجرى الأمر على ما شرحناه، كل أمير له مباشر مختص به وبإقطاعه، ينعزل بعزله ويتولى بولايته، فلم يكن لديوان إمرة الحاج قاعدة ولا قانون معين مضبوط إلا بعض أشياء من ضرائب يتداولها كتاب الأمراء بينهم بإعلام بعضهم من بعض، لأن كل أمير يسير في مصروفه وتَجْهيز (يرقه) بحسب مروءته كما قدّمنا ومكانته من السلطنة. والآن في الدولة الجركسية القريبة لا ما قبلها، لم يسافر أمير سنوات متعددة في الغالب، إلا الأمير أَزْدَمِرْ تمساح ـ كما سيأتي ذكره في أُمراء الحاج ـ وكان قديماً كاتبه شخصاً يدعى بابن الفاقوسي، فتكرر سفره مع أستاذه نحو خمس سنين أو ست، ولم تكن الإمرة في القديم مقصورة لتحصيل المال ولا لبيع الشَّدّ والغلال، كما في زماننا، وإنما كان القصد والمراد الافتخار بحسن (اليرق) والهمم الملوكية، واعتماد ما فيه الناموس والشهرة، والتوسع في بقية المأكولات، وغيرها، لقصد حسن الثناء بإطعام الفقراء ومواساة المحتاجين والمناظرة بذلك بين الأمراء من غير نظر إلى محصول من مبيع أو غيره، ولا شيء على قانون محرر، فلما كتب الوالد رحمه الله تعالى في ديوان أمير الأوّل في أواخر الدولة الجركسية حُمِدتْ طريقته، فتتابعت كتابته، وتوالت مباشرته، وفي الركب الأول يقول ابن أبي حَجَلَة مُضَمِّناً:

سِرْ بي مَعَ الرَّكْبِ الشَّرِيْفِ الأَوَّلِ وَدَعِ الْعَذُوْلَ وَمَا يَقُولُ بِمَعْزِلِ
(كَمْ مَنْزِلٍ فِي الأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَنِيْنُهُ أَبَداً لأَوَّلِ مَنْزِلِ)

ثم كتب في ديوان إمرة المحمل بعض سنين إلى انقراض الدولة الجركسية، ولَمّا لَمَعَتْ بَوارقُ هذه الدولة المظفرة العثمانية، وأَضاءت كواكبها بقلعة المملكة المصرية، وجميع أَقطارها السنية، واستولتْ عليها يدُ السلطنة الشريفة السليمية، وبَدَا بدر جماله تَحُفُّهُ تِلك النجومُ الزاهرة، وقهرت سطواته المظفرية جميع مَن كان بها من عساكر القاهرة، ووطئتْ عزماته سبل المخاوف والمكائد، وأنعم بعموم أَمَانِهِ لعامة رعاياه كما منحهم ما كان لهم من المستحقات والحقوق والأَوابد، وذلك في سلخ ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وتسع مئة، وخطب له على المنابر يوم الجمعة غرّة شهر الله المحرّم عام ثلاث وعشرين وتسع مئة، وتوجه إلى المملكة الرومية بعد أن فوّض نيابة الديار المصرية

وأعمالها إلى المرحوم خاير بك، الذي كان نائباً بحلب الشهباء في زمن المرحوم قانصوه من بيبردي الغوري، ولقب بملك الأمراء، فاقتضى الحال بتجهيز الركب الشريف والكسوة على العادة، فإن في السنة التي قبلها لم يتوجه الركب من القاهرة، وإنما جهزت الكسوة من طريق الطور بَحراً صحبة الطواشي الكبير آغا مرهف، لاشتغالهم بالحروب في تلك السنة، فجعل ملك الأمراء الرَّكْبَيْن ركباً واحداً بإذْنٍ من السلطان، وعيَّن القاضي علاء الدين ابن الإمام ناظر الخواص السلطانية أميراً على المحمل في تلك السنة، وطلب الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ لِلسَّفر معه، إذْ لم يكن بالبلدة مَنْ عُرف بتكرار مباشرة هذه الإمرة غيره، وأكَّدَ عليه ملك الأمراء في الاهتمام بأُمور الركب والمحمل الشريف، ومن جملة قوله: لا نعرف السَّداد في أحوال هذه الإمرة إلا من الله تعالى على يَدِكَ، فقوي عزمه، وباشر الأُمور في تلك السنة على أحسن حالة وأتم قاعدة، ونفذتْ كلمته وزيدت رفعته، واستمر في مباشرة هذا الديوان بعفة وصيانة ونزاهة، مع القيام بما فيه الحظُّ والمصلحة والنفع للفقراء والحجاج، ورتب هذا الديوان ترتيباً حسناً وبَوَّبَهُ وجعل له ضرائب مقررة معلومة، وقواعد، فصار قانوناً يعتمد عليه بحيث أَن أُمور الحج ومهماته هو المشار إليه فيها، والمعوَّل عليه فيما يصدر ويرد منها:

إذا قالتْ حَذَام فصَدِّقُوها ... فإنَّ القَوْل مَا قَالَت حذَامِ

وسافرت معه نائباً مَرَّات، مع اشتغالي بالعلم الشريف، ومجانبة كل أَمر دَني وسخيف، فإني أَخذت العلم عن جماعة أَجلاَّء أدركتهم في الزمن الأَول، بهم الاقتداء والاهتداء في كل أَمر ومعول، منْ أَجَلِّهم عملاً وعلماً ورواية ودراية، الشيخ الإمام العلامة القدوة، بقية السلف شيخ مشايخ الإسلام، أَحد الأَئمة الأَعلام، شهاب الدين أَحمد بن عبد العزيز بن علي بن إبراهيم الحنبلي الْفُتُوْحِيُّ الشهير بابن النَّجّار، ومولده سنة اثْنتين وستين وثمان مئة، قرأْت عليه كثيراً من كتب الفقه والمعقولات والحديث، وسمعت عليه كثيراً من الفقه والحديث والمعقولات والطب كالْخِرَقِيِّ في الفقه، و«المقنع» و«المحرر» وسمعت عليه بقراءَة الشيخ تقي الدين الفتوحي نجله وبقراءَة الشيخ شِهاب الدين أَحمد المقدسيِّ الحنبلي، وبقراءَة الشيخ قاسم البغدادي، وسمعت عليه غالب «الفروع» بقراءَة الشيخ شهاب الدين أَحمد البهوتي، وغالب «المحرر» وسمعت عليه «شرح التصريف» للجامريزدي بقراءَة الشيخ الفاضل أَحمد العبادي الأَزهري، وابن المصنف على «الأَلفية» وكثيراً من كتب العربية والمنطق والتصريف والطب، وأَخذت عنه الكتب الستة و«مسند الإمام أَحمد بن حنبل» و«الشفا» للقاضي عياض و«التبيان في آداب حمَلَة القرآن» للنوويِّ، سماعاً بجميعه بقراءَة أَمير المؤمنين

هارون العباسي، وكثيراً من كتب العلم رواية ودراية، ولازمته إلى حين وفاته تغمّده الله برحمته.

ومن أجلّ مشايخي في المعقولات الشيخ الإمام العلامة عمدة المعقول والمنقول، كاشف معضلات الفروع والأصول السيد شرف الدين الشريف موسى بن أحمد بن عبد الرحمٰن الحسني الأرميوني المالكي، الشهير بالحطابي، قرأت عليه كثيراً من كتب النحو كالمكودي، ومن شروح «الألفية» ابن عقيل وابن المصنف و«التوضيح» وشرحه للشيخ خالد الوقاد، و«المغني» لابن هشام، وغير ذلك من كتب التصريف والمنطق والمعقولات ما يزيد على عشرين مُؤَلَّفاً، وأروي عنه «صحيح البخاري» قراءة لبعضه، وإجازة لباقيه بحق قراءته على الشيخ عثمان الدِّيَمِيِّ، و«الشفا» للقاضي عياض وغير ذلك، وبالجملة فلازمته قراءة إلى حين وفاته رحمه الله.

ومن أَجَل مشايخي في الحديث والطب، الشيخ العلامة القدوة المعمَّر المحدّث شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن صدقة بن داود بن محمد بن سليمان ابن الشيخ إبراهيم الدُّمِيْري الحنفي الشهير بابن الصايغ، مولده سنة خمسين وثمان مئة، أروي عنه «صحيح البخاري» قراءة لبعضه، وإجازة لباقيه، بحق روايته عن سبعة وعشرين شيخاً منهم الشهاب أحمد السلوي وغيره، وقرأت عليه «قانون شاه» في الطب، وأجازني بجميع ما تجوز له عنه روايته.

ومن أجلهم الشيخ القدوة، المعمر الحجة، علاّمة الزمان، أوحد العصر، سعد الدين بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الذهبي الشافعي، ومولده سنة خمسين وثمان مئة.

ومن أَجل مشايخي قاضي القضاة بقية السلف كمال الدين بن علي القادريُّ الشافعي الشهير بالطويل.

وقاضي القضاة، عَلَم الحفاظ، خاتمة السلف، الشيخ نور الدين عليُّ بن ياسين بن محمد بن محمد الطرابلسي الحنفي.

وقاضي القضاة شرف الدين يحيى بن إبراهيم الدميري المالكي، ومولده سنة ثمان وثمان مئة.

والشيخ العلامة المحدّث الرحلة شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد العلائي الحنفي، ومولده سنة أربع وخمسين وثمان مئة.

والشيخ العلامة الرحلة شمس الدين محمد بن عيسى الدواخلي الشافعي

الغمري، قرأت عليه «صحيح البخاري» بحق روايته له سماعاً على الشاوي، بمقعد ابن البازري، في ستَّةَ عشر مجلساً، وكتاب «المواهب» للقسطلاَّني، بحق روايته عن المؤلف، وإِجازة عامة.

والشيخ العلامة نابغة الزمان بقية السلف شهاب الدين أَحمد بن أَحمد بن حمزة الرملي الأَنصاري الشافعي والشيخ العلامة العمدة شهاب الدين، أَحمد بن يونس الحنفي الشهير بابن الشلبي.

والشيخ العلامة علم الحفاظ، فارس المعاني والأَلفاظ، شيخ الطريقة والحقيقة، أَبو الحسن محمد بن محمد بن عبد الرحمٰن بن أَحمد بن محمد بن عوض بن عبد الخالق بن عبد المنعم بن محمد بن الحسن بن محمد بن يحيىٰ بن يعقوب بن نجم بن عيسى بن شعبان بن عيسى بن داود بن محمد بن نوح بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أَبي بكر الصديق بن عثمان رضي الله عنهم البكريِّ الصديقيُّ الأَشعري الشافعي، سبط آل الحسن، مولده عام ثمان وتسعين وثمان مئة وصحبته مدة مديدة، إِقامة وفي أسفاره المكيَّة رحمه الله تعالى.

والشيخ العلامة واعظ الوقت الرحلة المحدِّث شهاب الدين أَحمد بن عبد الحق السنباطي الشافعي، ومولده سنة تسع وثمانين وثمان مئة.

والشيخ العلامة، شهاب الدين محمد بن شعبان بن أَبي بكر بن خلف بن موسى الديروطي السنديوني الشافعي والشيخ شمس الدين محمد بن أَحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد المظفري المحدِّث الرحلة والشيخ جمال الدين يوسف بن حسين بن علي السالمي الشهير بالجمل خادم رواق الريافة بجامع الأَزهر، ومولده قريب من الستين وثمان مئة.

والشيخ شهاب الدين أَحمد الشويكي الحنبلي نزيل طَيْبَةَ.

وجماعة أُخر يطول ذكر تعدادهم.

فكنت ملازماً الاشتغال، معرضاً عما سواه من الأَعمال، وكان بعض مشايخي الأَجلاَّء يحثُّني على ملازمة الاشتغال، وعدم النظر بالكلية إِلى فَنِّ الكتابة، وأَنْ لا أَجْنَحَ إِليها لكونها من أَعمال أَبناء الدنيا المشتغلين بزهرتها ونضارتها، ومَن تعلّق بها فليس بشيءٍ من الإِصابة، وكان يساعدني على ذلك، ويباعدني عن السلوك في هذه المسالك أَن شيخنا ومولانا العارف بالله تعالى مربّي المريدين، قدوة السالكين والعارفين صاحب الأَحوال والتجليات، والكرامات الظاهرات شهاب الدين أَحمد أَبا العباس الحريثي اليزيدي

الشافعي لقَّنني الذكر، وألبسني الخرقة، وتسلّكت في خدمته في تلك الطريقة ورتعت بمجالسته في رياض الذكر مبتهجاً بتلك الحديقة، في سن الحداثة وباكورة الشباب، وريعانه العذب المستطاب، وانتفعت به وببركاته، ولزمته في غالب إقامته بالقاهرة إلى حين وفاته، وكان له بي وبوالدي كبير الإلمام، ولنا به مجاورة وصحبة رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة. فغلب عليّ جانب الميل إلى الاشتغال، وأعرضتُ بالكلية عن جميع ما سواه من الأعمال، إلا في بعض التجارة، بحالة لا تشغلني عن مطلبي ولا تعوقني عن مقصدي ومذهبي، وحَجَجْتُ مع الوالد في بعض السنين أعواماً متعددة، مساعِداً له في حالة الأسفار، لا لطلب الفائدة، وإنما كنت أنوي الحج والزيارة، وأَتَسَبَّبُ مع ذلك ببعض التجارة، إلى أن كانت سنة أربعين وتسع مئة وولي إمرة الحاج سليمان (دوادار) سليمان باشاه فطلبني الباشا المذكور، وألزمني بالكتابة حضراً وسفراً، مع الوالد، وكان ذلك من أجل بغيته والمقاصد، فباشرت معه على كُرْه لمخالطتهم، إلى أن توفي في شهر ذي القعدة سنة أربع وأربعين وتسع مئة بعد انقطاعه متمرضاً بمرض الفالج ـ أسكنه الله تعالى أعلى غرف الجنة ـ فكنت بعده كالمحبوس على أمر هذا الديوان، ملزوماً به في كل وقت وأوان، مخاطباً من جانب السلطنة في سائر مُهمَّاته، مجانباً لما يفعله بعض أهل هذا الفن من زيف الحساب ودسائسه وتُرَّهَاته، وجمعتُ ما كان في هذا الديوان ممزَّقاً، ونَقَّحْتُ ما كان مهملاً متمزقاً واشتغلت بتوالي الأسفار، بعد أن كنت مكبًّا على العلم والحديث ومطالعة الأسفار بالليل والنهار، وكان في مباشرة هذا المهم بقية رذيلة من صبابة وضئيلة من لبابة، والخاطر مع ذلك لا يجنح إلى موافقة الحكام، ولا يميل، ولا يلوي إلى مقاصد بعضهم التي هي مباينة لما صرح به التنزيل الجليل، فكيف وقد تغيّر ذلك النظام، وساءت الأحوال مع انقضاء كل عام وتجدُّد عام. وغلب ميل نفوس الأمراء إلى الشُّحّ، وإلى التجارات والمحصولات والربح، وانعكس القصد في هذه الإمرة عما كانت قديماً، ولم يكن مُتَوَلِّيهَا إلا طالباً محصولاً من تعلقاتها عظيماً، واستولى حب الدنيا على قلوبهم في كل آن وأوان، وصار تلفُّتهم إلى ما يحصل من المبيع والعادة و(الأزمعان) (؟) وتداولتها أسافل الأمراء من كل خسيس ورذيل وتوالت مع توالي الأمراء كتاب من جانبهم غالبهم بمحصول دنياهم عارفون، وفي موج الضلالة وتيار الجهل سابحون، وإلى السحت والحرام المحض متطلبون، وعلى الكذب والزور والبهتان عاكفون، إلا ما شذّ ونَدَر، وهم الأقلون.

ومن سيرة بعضهم أنني في سنة ثلاث وخمسين [وتسع مئة] رأيت غلامَه بمنزلة أبيار عَلي، المعروف بذي الُحلَيْفة ليلاً بالطلعة وعلى كتفه قربة مملوءة من الماء

فسألته عنها وما يصنع بها فأخبرني أن سَيِّده استمر على حالة الجنابة من حين توجهه من القاهرة إلى هذا المحل بمقتضى انهماكه في تعاطي ما لا يحل له من الزنا واللواط وشرب الخمر المحمول معه، وقد خوِّف عاقبة دخوله على أشرف المرسلين جُنباً، فطلب هذه القربة ليغتسل بها، فأنكرْت هذا القول على الغلام، فأخبرني بعض أخِصَّائه بما يُسْتحْيَى عن ذكره، فما أحرى هذا الجاهل، يقول القائل:

حَجَجْت الْبَيت لِيْتك لا تحِجُّ ... ومِنْك الرَّكْبُ في الآفاق ضجُّوْا
وَرُحْت بِحِمْل أوزار ثِقال ... فعدت وفوق ذاك الْحِمْل خُرج

ولابن سناء الملك:

حَجَّ فِيْ الْعُمْر حِجَّةً ... وَتَعَنَّى وأَحْرَمَا
وَأَتانا مِن الْحِجَا ... ز كما رَاح مُحْرِمَا
فَهْوَ ذو الحِجَّة الَّذي ... يَسْتحِلُّ الْمُحَرَّمَا

ولبعضهم:

رَأَى الْبَيْت يُدْعَى بالْحَرَام فحَجَّه ... وَلَوْ كان يُدْعَى بالْحَلال لمَا حَجَّا

ولبعضهم:

حَجَّ وَقَدْ كَانَ ذَا غَرامِ ... بالركن والبيْت وَالْمَقَامِ
وعادَ مِنْ حَجِّه سَرِيْعًا ... يَطْعن فِي الْمَشْعَر الْحَرَامِ

وليس ذلك في زماننا بمستنكر، فنحن في زمان عاد الإسلام فيه غريباً، والقابض فيه على دِيْنِه كالقابض على الجمر، والمنكرات وكثرتها أمراً عجيباً، فنجوم الصدق به آفلة، ونتائج (؟) المعروف ليست بمعروفة ولا متواصلة، وماذا يقال وقد حكى صاحب «المحاضرات» أنَّ عبَيْد بْن شرْيَة دخل على معاوية بن أبي سفيان، في ذلك الصدر من الزمان، وقد أتت على عبيد مئتان وعشرون سنة فقال له: ما شاهدت من الزمان وما أدركت؟ فقال: يا أمير المؤمنين أدركت الناس وهم يقولون: ذهب الناس فلا مرجع ولا مفزع. وقيل: ما بقي من الناس إلا جمَارٌ رامحٌ أو كلب نابحٌ، أو أخٌ فاضح. وكانتْ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تُنْشد:

ذهبَ الذِين يُعاش في أكْنافِهم ... وَبَقِيْت فِيْ خلفٍ كَجلْدِ الأَجرب

قال ابن عباس: لئِنْ شكَتْ أمُّ المؤمنين من زمانها فلقد شَكَا قوم عاد من زمانهم إذ وُجد في خزائنهم سَهْمٌ مكتوبٌ عليه شعر:

بلاد بها كنّا ونحن نحبّها إذِ النّاس ناسٌ والزّمانُ زمانُ

وعن أبي صالح في قوله تعالى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣] أي بسَرَاةِ الناس، وقال بعضهم: كأنَّ الله عَنَى بقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣] أهلَ زمانا، وقال المُتَنبِّي:

وصِرْتُ أَشِكُّ فِي مَنْ أَصطَفِيْه لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الأَنَامِ

ولعمري لقد صدقَ الإمامُ أبو محمد عبدُ الله بن مُسْلِم بن قُتَيْبَةَ الدِّيْنَوريُّ فيما افْتتح به كتابه «أدب الكاتب» بقوله: أما بَعْدُ فإنّني رأيتُ أكثر أهل زماننا عنْ سبيل الأَدب ناكبين، ومن اسْمِه مُتَطَيِّرين، ولأهله هاجرين ـ إلى أن قال ـ: حينَ خَوَى نَجْمُ الخير، وكسدت سُوْقُ البرّ، وبارتْ بضائعُ أَهله، وصار العلم عاراً على صاحبه، والفضل نَقْصاً، وأموالُ الملوكِ وَقْفاً على النفوس، والجاه الذي هو زكاة الشرف يُبَاع بيْعَ الْخَلَق، وآضَتِ الْمُرُوءَاتُ في زَخَارف النُّجُدِ، وتَشْييدِ البنيان، ولذات النفوس في اصطفاق المزاهر ومعاطاة الندمان، ونُبِذَتِ الصَّنائع، وجهل قدر المعروف، وماتتِ الخواطر، وسقطت هِمَمُ الناس، وزهِدَ في لسان الصدق، فَأَبْعَدُ غاياتِ كاتِبنَا في كتابته أَن يكون حَسَن الْخَطِّ، قويم الحروف، قُلْت: فلو رأى هذا الزمان الذي أشرَفت فيه شموس الفضل على الأُفُوْل، واستوطن مَن كان فاضلاً زوايا الخمول، وضاعت فيه السِّيَرُ العادلة، وشاعت الأَقوال الباطلة، واندرس الخير وبناؤه، وانطمس الحقُّ وآثاره، لا سيما فنّ العلم فإنه قد صار مِمَّا بالتْ عليه الثعالب، بعدما كان من أشرف المناصب، ومن أجَل المقاصد والمطالب، كما قال بعضهم:

تَعَلَّمْنَا الْكِتَابَةَ فِي زَمَانٍ غَدَتْ فيه الكتابَةُ كالْحِجَامه
فَيَا أَسَفِي عَلَى الْأَقْلَامِ أَضْحَتْ وما قَلَمٌ بأَشْرَفَ من قلامَهْ

قد نسجت عليه العناكب، بعدما كان من أعظم المآدب، وتطاولت إليه أيدي ذوي الجهل والحمق والنفاق ومَن قدّم نفسه في هذا الزمان بغير استحقاق، وصار يدعى به كلُّ نذل وخسيس، ومَن هو أكثر حمقاً وتلبيساً من إبليس، واحترف به سفل الناس وجهابذة المغانِي، وتطاولوا إلى مراتب المعاني، وتطاولوا إلى مراتب أَهل الكمال ومَن يستخرج درر الفضائل من صدف المعاني.

إنَّ الزَّمَانَ لتابعٌ لِلأَنْذَل تَبَعَ الْخَسِيْسَةِ لِلأَخَسِّ الأَرْذَل

ولبعضهم:

نَحنُ وَالله فِي زَمَانِ غَشُوْمِ لَوْ رَأَيْنَاهُ فِي الْمَنَامِ فَزِعْنَا
أَصْبَحَ النَّاسُ فِيْه مِنْ سُوْءِ حَالٍ حَقُّ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ أَنْ يُهَنَّا

وكفى بالقلم شرفاً وفخراً أنَّ الله تعالى أقسم به، فقال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] قال الإمام القرطبيُّ: واخْتُلِفَ فِي تأويله فروى معاوية بن قُرَّة عن أبيه يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «نون: لوح من نور»[١]، وروى ثابت البُنَانِي أنه الدواة، وقاله الحسن وقتادة[٢]، وروى الوليد بن مسلم: حدّثنا مالك عن أنس عن سُمَيٍّ مَوْلَى أبي بكر عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أوّل ما خلق الله القلم، ثم خلق النُّوْن» وهي الدواة، وذلك قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[٣] [القلم: ١] أقسم بالقلم، لما فيه من البيان كاللسان، وهو واقع على كل قلم مما يكتب به مَن في السماء ومَن في الأرض، وأجاد أبو الفتح البُسْتِيُّ حيث قال:

إِذَا أَقْسَمَ الأَبْطَالُ يَوْماً بِسَيْفِهِمْ وَعَدُّوْهُ مِمَّا يَكْتُبُ الْمَجْدَ وَالْكَرَمْ
كَفَى قَلَمَ الكُتَّابِ عِزًّا ورِفْعَةً مَدَى الدَّهْرِ أَنَّ اللّهَ أَقْسَمَ بِالْقَلَمْ

وقال سِبْطُ بن الجوزي في كتابه «الْمِرْآة»: قد أكثر العلماء رضي الله عنهم في وصف القلم فقال بعضهم: الأقلام مطايا الفِطن، ورسل الكرام، وبيان البيان وقولهم: الأُمور بشيئين بالقلم والسيف، والقلم فوق السيف كما قيل:

إِنْ يَتْبَعِ الْقَلَمُ السَّيْفَ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ وَقَدْ دَانَتْ لَهُ الأُمَمُ
فَالسَّيْفُ وَالسَّيْفُ لاَ شَيْءٌ يُمَاثِلُهُ مَا زَالَ يَتْبَعُ مَا يَجْرِي به الْقَلَمُ
كَذَا قضى اللّهُ لِلأَقْلاَمِ مُذْ بُرِيَتْ أَنَّ السُّيُوْفَ لَهَا مذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

وقال أبو تَمَّام الطَّائِيُّ:

ولَضَرْبَةٌ مِنْ كَاتِبٍ بِبَنَانِهِ أَمْضَى وَأَبْلَغ مِنْ رَقِيْقِ حسَامِ
قَوْمٌ إذا عَرَفوا عَدَاوَة مَعْشَرٍ سَفَكُوا الدمَاءَ بِأَلْسُنِ الأَقْلامِ

وقال الْحِمْيَرِيّ:

---

(١) عزاه الحافظ السيوطي لابن جرير عن معاوية بن قرة، عن أبيه مرفوعاً به. انظر: الدر المنثور [٦/ ٣٨٨].
(٢) عزاه الحافظ السيوطي لعبد الرزاق وابن المنذر. انظر: الدر المنثور [٦/ ٣٨٨].
(٣) عزاه الحافظ السيوطي للحكيم الترمذي. انظر: الدر المنثور [٦/ ٣٨٨].

قوم إذَا أَخَذوا الأَقْلاَمَ مِنْ غَضَبٍ ثُمَّ اسْتَمَدُّوا بِهَا مَاءَ الْمنِيَّاتِ
نَالوا بِهَا مِنْ أَعَادِيْهِمْ وَإِنْ كَثُرُوْا مَا لاَ يُنَالُ بِحَدِّ الْمَشْرَفِيَّاتِ

ولبعضهم:

كلُّ الْيَرَاعِ أَنَابِيبٌ إذَا تُرِكَتْ كَانَتْ حُطَاماً فَلَمْ تَنْفَعْ وَلَمْ تَضِرِ
فَإِنْ غَدَتْ وَهْيَ أَقْلاَمٌ رَأَيْتَ لَهَا تَحَكُّماً نَافِذاً يَمْضِي على الْبَشَرِ
تَجْرِي بِخَيْرٍ وَشَرٍّ لا تُرِيدُهُمَا لكِنَّها رُسُلٌ فِيْ ذَلِكَ الْقَدَرِ
والْحَمْدُ والذَّم مَعْقُوْدٌ لِحَامِلِهَا فَخَفْ نَدَاها وَكُنْ مِنْها عَلى حَذرِ

غيره لبعض الكتّاب:

مَنْ كَان يُعْجِبُهُ فِي صَحْنِ عَارِضِهِ مِسْكٌ يُطَيِّبُ مِنْهُ الرِّيْحَ وَالنَّسَما
فَإِنَّ مِسْكِيْ مِدَادٌ فَوْقَ أَنمُلَةٍ إِذَا الأَصابِعُ مِنِّي خَفَّت الْقَلَمَا

وللشعراء في تفضيل القلم على السيف أبيات كثيرة، ومفاخرات شهيرة، لا يتحمّلها هذا المختصر، فلتُطلب من المطولات وكتب الأَدب.

أمير آخور:

(أمير آخور) وهو عَلَم على مَن يكون ناظراً على الخيل والجمال و(آخور) باللغة الفارسية معناه الإسطبل، فكأنه يقال فيه: أمير الإسطبل، أو يشبه أن أصل وضع هذا الاسم عَلَماً على صاحب هذه الوظيفة، أنه لما عين (الدوادار) لتنفيذ الأَحكام وقراءة القصص، وإدارة الدواة لأَخذ العلامة، عين مَن كان ناظراً على الجمال والخيل وقالوا: (أمير آخر) ثم توسّعوا فيه فقالوا: (آخور).

وتعدد أشخاص هذه الوظيفة، فأَمير (آخور الخيل) يكون مشرفاً على عليقها وسَقيها وأحوالها ونعالاتها ومهماتها وفي الغالب يكون منفرداً. وأما أمير (آخور الجمال) فيقسم إلى: جمال النفر، والمشرف عليها يكون (أمير آخور) كبير، ورتبته أنه يلي (الدوادار) من جهة تعلُّقِه بأَمر الجمال ومصالحها، وله مشعل مُعَيَّن (كالدوادار) يضيء بركابه ليلاً أينما سار، وعليه أن يشرف على سنيح أستاذه، وعلى سائر الجِمال الحاملة، لينظر في حال جمل مات أو بَرَك، ويقف عليه حتى ينقل حِمْلَه إلى غيره، ويعلم أثر (داغِه) فهو وإن كان للسنيح شاد، فتعلق (أمير آخور) بمعرفة المنتقل من الجمال، والوقوف على (داغاتها) وهو في ذلك ليلاً أشد حالة خوفاً من حصول غبطة في (الداغ) أَوْ شبهة.

وأما الشعارة فتتعدد أمراء آخورتهم، وأقلهم اثنان: أحدهما يكون مشرفاً على تفرقة

العليق بالدار، والثاني يكون في صحبة الجمال بكل محل خوفاً من خيانة الخولة الشعارة فإنَّ فسادهم كبير وضررهم كالخمر والميسر أكثر من نفعهم، ومن فسادهم وخيانتهم أنهم يكرون جمال أُمراء الحاج بالأُجرة للرعايا، من الربع إلى الربع، ويحملونهم من الأَثقال ما يريدون، ولكل خولي منهم جملان: أحدهما عليه زاده، والثاني يحمل عليه حملاً من الفول، ويزعم أن ذلك تحت العجز والنقص، أو يحملون ما شاؤوا لأَنفسهم وهذا كله افتيات ليس له أصل في القواعد السابقة، ومنهم مَن يبدل الجمل المثمن بجمل رديء لا قيمة له، خصوصاً إن كان (الداغ) الذي عليه غير واضح، ولهم في (الداغات) أحوال وأمور، فتارة يرسم داغا أو يقصُّه بالمقص أو يحرقه بالنار ويأْخذ بدله جملاً من الخيار، وتارة يجعله أقساماً متعددة، ويحتج بأَن الذي سلخه غير خبير بالسلخ ويدك (؟) على الأُمراء، ويأْخذ بدلهم جملاً من الحاصل، وبالجملة فاستقامة أحوالهم قليلة، وغالبهم خبيث الطويَّة، ونيته غير جميلة، وله مغالطات في حساب الفول الذي يحملونه من الربع إلى الربع، فليكن الكاتب يقظاً على حذر من أغاليطهم.

ويكون (أمير آخور) الشعارة ناظراً على جِمال الهجن المركبات وعلى الهجانة، والإِحاطة بأَحوالهم، وعليه أن يكون مشرفاً على العلف وقت تفرقة العليق، وعلى عليق الجِمال، خصوصاً في البنادر الحجازية وعند غلاء أسعار الفول بها، فالخَيِّرُ منهم إن تلطف قاسم الجمل في عليقه بالنصف، وفي غالب الأَوقات يحصل فيهم الموت والفناء بالحجاز والطرقات، والذي يظهر لي أن غالب موت جمال الشعارة بالرجعة وفنائها من قلة الأَمانة في العليق مدة الإِقامة بمكة المشرفة وما بعدها، ويقتصرون في علوفتها على الحشيش وبعض الفول، والله أعلم بذلك، وعليه أن يُسَهِّل طريق الجِمال عند مسيرها في المضيقات، ويمنع مَن يسايرها أو يزاحمها بضرر من الغرباء الذين هم لفيف الحاج فقد يتفقون مع خولة الشعارة على تحْميلها من أثقالهم وأخذ شيء من الفول الحاملة لهم بالثمن لحاجتهم إليه ولأُمراءِ (آخور) من العوائد ثلث ما يتحصّل من عادة ببيع أو منفعة أو تسليم من العرب، والثلث الثاني للسمسار وللكيَّالين. والثلث الثالث للكتاب.

ومنافعهم الظاهرة المعتادة قليلة جداً، فإن عادتهم على الأردب المبيع بحواصل الحجاز نصفان، يَكون حصتهم فيها الثلث ولأَمير (آخور) الخيل من (الأَوجاقية) عادة من كل نفر عشرة أنصاف، لا يشاركه فيها غيره، ولهم عادة التسليم من عربان الحمل عن كل جمل نصف.

واعلم أن الذي على (الأَوجاقي) في نظير ركوبه وجرايته وعليقه مئة وخمسون نصفاً، يخص كل أمير الحاج من كاملها الثلثان، والثلث الثالث يقسم بين (الدوادار)

والكاتب وأمير (آخور الخيل) و(المهتار) و(الخازندار) بالسوية و(للأوجاقي) جمل من الشعارة برحلهِ وقتبه، وجراية من الربع إلى الربع، وعليق جمله في كل يوم وملء قلصِه من الماء ذهاباً وإياباً. ولبعض الأدباء في مليح (أوجاقي):

هٰـذا (الْـوجَـاقِـيُّ) أضْـحَـى هَـوَاه لِـلْـقَـلْـب جـاذبْ
لـلـطْـف عِـطْـفَـيْـه تـصْـبُـو ريَـاحُـهـا وَالْـجَـنَـائِـبْ

شاد السنيح:

ويدعى في لغة الترك بـ(الكلارجي) أي خازن القوت، وهو يكون من مماليك الأُمراء، ومن الجند ممن يُعتقد فيه الأَمانة والنصيحة، ويوصف بحسن الدراية والسياسة. وشرطه أن لا يكون مبذِّراً فيضيع ما تحت يده من المأْكولات في أيسر مدة، في محل الحاجة والضرورة، ولا ممسكاً فإنه إذا لم يوفِ للناس رواتبهم المقررة من السنيح، عوائدهم المعتادة المعلومة بالديوان حصل بسبب ذلك كثرة الغوغاء من العسكر والغلمان وأصحاب الرواتب والأَتباع، وأنكروا على أمير الحاج أفعال الشاد فيسوء ثناؤه وتقل أَحِبَّاؤه، ومن عدم الأمانة أن يشح عليهم في الظاهر ويوفر من ذلك أشياء باطنة، يبيعها لنفسه على سبيل الحرام والخيانة، خصوصاً إن اتفق مع القباني ومقدم العكَّامة على ذلك، فلا يحصل الرضا من أهل الرواتب عن مخدومهم، ويرتبون له سُوْءَ الثناء من غير شيء يعود عليه مما وفره (الشاد) سوى عدم رضا العباد، واشتهاره بالأَفعال المخالفة للمعتاد، ومعظم اتفاقهم في تفرقة الجرايات بالأَرباع، وفي التَّفاريق اليومية خصوصاً إن لم يكن هناك مَن يُحَرِّرُ ويعيد على القباني أوزانه، فيشترط في القباني أن يكون كاملاً من أهل الحذق والمعرفة بصناعته، حسن الدربة والسياسة مع الناس عاقلاً أميناً، ويلزمه ضبط ما يرد إلى السنيح من الأَصناف، وكتابة ما يصرف منها بمياومة، ويبسط على ذلك جريدة ويخرج الحساب على ما صرف وما بقي مدة بمدة، ويرفع حساب ذلك بمفردات يومية ليكون على أهبة في طلب ذلك منه والسؤال عنه.

ويشترط في أوصاف مقدم العكامة أيضاً أن يكون خبيراً بصناعته، عاقلاً، من أهل الأَمانة والقوة والهمّة، كما قال الله تعالى حكاية عن بنات شعيب صلوات الله عليه عند استئجاره لموسى صلوات الله عليه: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وإنما شرطنا ذلك لأَن العكَّام إذا كان قوياً ذا همة في أفعاله -لا- يصاحب على مثل فعله إلا مَن يوافقه في صفاته، بخلاف ما إذا كان بضد ذلك، فقد

يرحل الركب من الدار والسنيح لم يحمل ولم ينهض به أحد، فتدهكه العُقُوب والناس، والمقدم في دهشته وعجزه على غاية من الالتباس، وأما إذا كانت عنده الأَمانة فهذا هو الأَمر المطلوب منه، ليكون مخدومه في راحة من الجهتين.

وإنما سُمِّيت الأسفار أَسفاراً لإِسفارها عن أخلاق الرجال، فكم من ذي هيئة بزة، يظنه الظمآن إلى خدمته شيئاً فإذا لاحت أعلام ذلك البر انكشف له ما كان عنه مستوراً، فصار في عينيه مهاناً محقُوراً.

وآخر مَن رأيناه في هذا الباب يونس بن عثمان البرلسي مقدم العكامة والعتالين، فابتدأ سفره سنة تسع وعشرين وتسع مئة بولاية المرحوم فارس بن أزدمر، كاشف البحيرة، واستمر إلى أن كانت وفاته في سادس شوال سنة تسع وخمسين وتسع مئة في ولاية الأمير إبراهيم بن عيسى باشا، وكان رحمه الله من أهل المروءة والفضل والاحتمال والدربة والسكون والمعرفة والمراعاة، ولم يخلف بعده مثله.

وأما عوائد خدمة السنيح فإنها على ما نذكره وهو أنه لهم على كل حمل من الشد المحزوم المبيع في البنادر والطرقات على المشتري خارجاً عن الثمن المتوافَق عليه من الفضة عشرة أنصاف، تُقسم أرباعاً بين الشادّ، والمقدم والكاتب والقباني، ولهم على الجراية المفرَّقة في الأَرباع، وقدر كل جراية من (البقسماط) ستة عشر رطلاً ـ من (البقسماط) يجمع ذلك على عدد الجرايات، ويُقسم أرباعاً كما ذكرنا، ويُخص مقدم العكّامة من الطحانين خارجاً عما ذكرنا ـ على كل تليس من الدَّقيق ثلاثة من الفلوس النقرة، ويسمى ذلك التفريغ، وقد اضمحل غالب ذلك وبطل معظمه، فما كان من معلوم الدقيق بالقاهرة فقد شكا جماعة الطحانين إلى علي باشا أن هذا ظلامة عليهم، ترجع إلى (البلص) وأنهم في خسارة بسببها، وسأَلوه في إبطالها ورفعها عنهم، فأَمر بذلك في سنة ثمان وخمسين وتسع مئة ولاية الأَمير محمود، فاستمر ذلك، وما كان من معلوم المحمل المحزوم المبيوع بالبنَادر، فمنع تناوله مصطفى باشا في أواخر سفراته، وتبعه مَنْ بَعْدَهُ على ذلك، وعاد المحصول من ذلك تارة وتارة، وكذلك الجرايات في بعض الأَحوال وأما (جامكية) مقدم العكامة ورجاله، وهي المسماة بـ(الطرحة) في عرف غلمان الدرب الشريف، وهي من مدة السفر فقط، وأقلها مئة دينار من الذهب الجديد، مع مساعدته في القرض وهي ضريبة لطيفة القدر، وأكثرها مئة وخمسون ديناراً، وصُرفت في ولاية الأَمير المعظم عيسى ابن الأَمير إسماعيل أمير عربان بني عونة بالبحيرة، مئة وسبعينَ ديناراً، وبعض الأُمراء يميل إلى قطع العوائد والمناقصات، فبسبب ذلك تحصل لديه المرافعات والمناقصات بين الغلمان، فيجعلونها سبعين ديناراً وأكثر من ذلك بقليل.

شاد المطبخ:

وهو المسمى في الدولة الجركسية (استدار) الصحبة بدالين مهملتين، وهو بكسر الهمزة وسكون السين والدال وفتح التاء، ومعناه الأخذ، والكلمة الثانية (دار) ومعناه ممسك والمراد المتولي للأخذ والعطاء، هكذا مشروحاً في بعض التعاريف الديوانية قال: وغلط بعض الكتّاب فضمّ الهمزة من أوله، ويلحقون به ألفاً بعد التاء فيقولون (أستاد الدار) و(أستادار) ظنّاً منهم أنَّ المراد بالدار المحلّة وأنَّ (إستاد) يعني السيد وذلك غلط فاحش، وممن وقع في ذلك صاحب «التعريف على الوصايا» وقال في «ممالك الأمصار»: إنه المتحدث في بيوت السلطنة كلها، وهو هنا عبارة عن المشرف على أحوال المطبخ بداية ونهاية، وإليه أمر الذبيحة والمناسب منها، ومعرفة ما يحضر إلى المطبخ من الأنصاف، والتفرقة على أرباب البيوتات رواتبهم من الأطعمة المنوعة. وغيرها، على حسب منازلهم، والمخاطب من مخدومه بما يشتهيه ويطلبه، والطباخون ينقادون لأمره، ويمتثلون جميع أقواله وأفعاله، ويشترط فيه أن يكون من ذوي العقل والمروءة، والمعرفة لمقادير الناس ومراتبهم، والكفاية فيما نُدِبَ إليه، وله من المنفعة مشاركة جماعة الطباخين في ثمن جلود الذبيحة، وفي الأرقاب، إلاَّ أَنْ يشحَّ بها بعض نفوس الأُمراء، ولهم بعض المنفعة على أمِير مكة وأمِير الينبع مشاركة لخولي الأغنام، عند تسليم العادة من الأغنام في تلك البنادر.

شاد السقائين:

وهو من الأتراك عادة في الغالب، فكيون مشرفاً على مَلءِ القِرَب في المناهل وعدتها وعلى تفرقتها وتفرقة الماء للبيوتات عند ورودها، والذب عنهم في الزحام، وليست له عادة مقررة، ومنافعه الظاهرة قليلة، ومَن سار في طرق الخيانة باع الماءَ في أوقات الحاجات إليه خفية.

واعلم أن الذي كان يجهز مع أُمَراءِ الحاج من القِرب في الدرب الشريف ما عدته ألف وست مئة قِرْبة من الحلبيات، والبعلبكيات، وكانت عدة جِمال ذلك مئتين وعشرين جملاً، وآخر ما أدركنا ذلك في ولاية المرحوم جانم الحمزاوي، وكانت السقاية على أمير الحاج تصرف مفرداتها من يده كغيرها، ثم جعلت مقاطعة بعد أيام المرحوم الحمزاوي تصرف بيد المقدمين بجماعة النفر على الكفاية، وعدة القِرَب المشروطة في المقاطعة ثمان مئة قربة، فيها من المراجعة مئتان، والست مئة من القِرَب الجدد، القدسيات والصفديات وبعض الحلبيات، ومن الحِيضان الكبار خمسة أو أربعة، وذلك عند اختصار إمرة الحاج

لأُمور المهم، والمقاطعة المصروفة مبلغها اثنا عشر ألف نصف، وذلك ما عدا القفف الخوص، والوكا، والسحيل اللّيف، واللُّبّاد الأَسود، ومصروف الدركْ ببولاق، فإنه من مال أمير الحاج أيضاً، فلما ولي الأَمير الكبير، والمنهل الغدير، عيسى بن إسماعيل أمير عربان بني عونَه، بالبحيرة لإمرة الحاج في سنة ثلاث وستين وتسع مئة أبطل المقاطعة المذكورة وجعل المصروف على يده، وجهّز من الْقِرَب الكبار الجدد الحلبيات ألفاً وأربع مئة قربة، ومن الحيضان الكبار خمسة أحواض، وكان مصروفه على ذلك قريباً من ألف من الذهب الجديد، كما سيأْتي ذكره في محله.

ولجِمال السقائين لنعالاتها من الجلود الخصيان الكبار خمسة لا ينقطع ذلك، ولا يمتنع في كل عام ولبعضه في مليح سَقَّاء:

لِـلّـه سَـقَّـاء لَـهُ طَـلْـعَـة	لِكُلِّ حُسْنٍ قَدْ غَدَت حَاوِيَهْ
أَرُوْمُ أَنْ يَسْكُبَ لي قِرْبَة	وَعَبْرَتِي عَن صَبْوَتِي راوِيَهْ

شاد المحمل الشريف:

وكان من حقه التقدُّم في الذكر على غيره من الشادين، إلا أنه لما تغيرت الأَحوال واختلّ ذلك النظام وولي الأُمور غير أَهلها صار يتولى هذه (الشاديّة) أَراذل الناس وسفهاؤهم من الصبيان والبوّابين والبلاصية وغيرهم وصارت هذه (الشاديّة) علماً على غير معنى، فإن شاد المحمل الآن عبارة عن شخص من عامة الناس وآحادها يكون عوانياً على غلمان المحمل من (المحفدارية) والسقائين والرقية وخدمة المحمل فيما يتصرفون فيه من الماء الذي هو معدٌّ بالمحمل وغير ذلك لشربهم ولا صالح في ذلك ولا نفع للمحمل، وإنما شرط شاد المحمل أن يكون من ذوي الهيئات من أَهل الكفاءة والحرمة والمهابة، ليكون به نظام المحمل من تسهيل طرقه في المضيقات وعند الازدحام والاصطلام، وله من العوائد أُجرة جمل من السلطنة الشريفة كالقاضي وكقاضي المحمل وكشهوده وجراية راتبه في الأَرباع، وراتب من السنيح أَو المطبخ، وأَما العليقة فكانت قبل تاريخه عادة مقررة والآن تارة وتارة.

وقد استجدَّ في هذا الزمنِ (بلص) (شاد المحمل) للحجاج على تعقيبهم في قطار المحمل ولم يعهد ذلك قبل الآن، وقد صار ذلك منفعة يَعُدُّها (شاد المحمل) من مصالحه، من غير نظر إلى حال المحمل ولا ذَب عنه في المضايق.

ولقد اتفق في سنة ستين وتسع مئة أن حصل ازدحام شديد بنقب عقبة أَيْلَةَ بحيث أَنَّ العقوب تقطعتْ واخْتلط النَّفَرُ بالشعَّارة، وآل الأَمر إلى شدة الازدحام، إلى أن امتنع

السالك مطلقاً، ولم تَجد الجِمال ولا الرجال لها مُخلِّصاً، فكان من ضياع حال المحمل الشريف وعدم مَن يذب عنه في المضايق أن تقطعت جِمال الكسوة الشريفة، وضاع منها جملٌ بحمله من كسوة الكعبة المعظمة، وأَخذته عربانُ بني عطية اختلاساً ولم يشعُرْ به أحدٌ من (الشَّاد) و(المحفدارية) وغيرهم، ولما علموا ضياعه بانقطاعهم عن خبره أخفوا ذلك وكتمُوه، خوفاً من أَمير الحاج وعلم بذلك (الدوداد) وسكتَ عنه أيضاً إلى اليوم الثاني، من ضياعه، أَخبرني بعض صبيان (المحفدارية) بخِدمة المحمل بذلك سِرًّا وهو في غاية الخوف والوجل فتوجهت في حال الوقت، وأَعلمت أَمير الحاج، وأَخذت للمحفدار أماناً على نفسه، وشرعنا في الفحص عنه من عربان بني عطية أَصحاب الدرك إلى أن يسّر الله تعالى بوجوده بعد أَن حسبه العربان من جنس الخيام فدفنوه في الرمل، ولما أَحضروه وجدنا ضمنه شقتين بطرازهما المذهَّب المخايش، ولم يحصل فيها أَدنى ضرر فحمدنا الله على وجوده، فانظر إلى شدة إِهمال أَمير المحمل و(الشاد)، لأَنه لو كان فيه كفاءة لذبَّ عنه وقدّمه قبل الازدحام. ولما وقع ذلك، وكانتْ ولاية (شاد) المحمل قديماً من تَصَرُّفِ أَمير الحاج، يولي مَن يخْتاره، وقد صار الآن أَمر ذلك إلى باشا مصر، يولي مَن يختاره بحكم، وعلامة من عنده.

المقدمون على جِمال النفر:

وهم عبارة عن مَن يكون عريفاً على الجمَّالة بخدمة أمير الحاج، وكان في القديم أَمر ذلك إلى أمير الحاج، يولّي مَن يختاره على جِماله، وآخر ما أَدركنا في هذه الوظيفة من الأَيام الجركسية هو المقدم قنبر أَخو المقدم طعيمة إلى وفاته، ورأَيت بدفاتر المرحوم الوالد في الدولة الجركسية عادة المقدم قنبر من الديوان الشريف كاملة مخمل قرمزي، مفرًّا، من الصَّمُور المطرش، وذلك فيه دلالة على رعاية جانبه، وقد بطل ذلك في الدولة المظفرية، ثم استقر فيها أَخوه المقدم محمد المدعو طعيمة، ويليه المقدم محمد بن العظمة، وكانا من الجلالة والمهابة عند السلطنة الشريفة والأكابر وغيرهم بمحل جليل، وكذلك مع أُمراء الحاج وهما سائران على أَحسن نظام وأَتم اعتبار، من الأُبهة والحرمة والسداد واليسار، وعدم الشكوى من أَحدٍ منهما مطلقاً.

ثم لما استجد العسكر المنصور المعيَّن لخفارة الحجاج وحراستهم في سنة سبع وعشرين وتسع مئة بعد واقعة سلامة بن فواز، عُرِفَ بِجُغَيْمان، شيخ عربان بني لام، المفارجة، وخروجه على الحاج في سنة ستة وعشرين فدفعت السلطنة أُجرة الجِمال لركب العسكر المذكور، في يد المقدمين المذكورين، وأَضافوا إلى ذلك أُجرة جِمال

(الزردخاناه) والعربات المستجدة في تلك السنة، وشاركهما في ذلك الحاج علي المزابلي المقوم، إلى أن توفي، وكتبت عليهم هذه الجملة، وصار لهم تعلق بخدمة السلطنة مع ما أُضيف إلى ذلك من المهمات السلطانية ببندر السويس المعمور، وما عساهم أن يندبوا إليه من أُمور السلطنة، فرسخت أَقدامهم في خدمتها وغلب عند ذلك جانب السلان على جانب أُمراء الحاج، وتأكدت حرمتهم ورعايتهم.

واعلم أَنَّ الذي يقبضونه الآن من الديوان السلطاني عن تعلقات الحاج خاصة من الذهب الجديد أربعة آلاف وسبع مئة وسبعة وتسعون ديناراً، ومن الفضة ثلاثة وعشرون نصفاً، منها أُجرة جِمال العسكر وعدتها مئتان وإِحدى وأَربعون أُجرة كل جمل من الفضة السليمانية سبع مئة نصف وعن حَمْل (الزردخاناه) والعربات أَربعة وعشرون جملاً بالضريبة.

وعن جِمال المحمل الشريف وأتباعه:

وذلك خاصة محمد بن العظمة وعدة الجِمال ثمانية وعشرون جملاً، ما هو لحمل المحمل الشريف جمل واحد، ولحمل الكسوة والماوَرْدِ أَربعة جِمال وللسقَّائين ستة وَلحمل ثوب المحمل ضمن (حوائج خاناه) جمل، وللقاضي وللشاهدين جملان و(لشاذ) المحمل جمل، وللحكيم والمزَيِّن جمل، وللرقية والمنفرين ستة جِمال، ولِلضَّوْئية عن مشاعل الساقة والمحمل والدليل أَربعة، ولحمل الشتل واحتياج الفراش جمل ونصف جمل، والنصف الثاني لمختار (الطشت خاناه) بخدمة أَمير الحاج، وأَدركت الوالد - رحمه الله - يصرف له ذلك ولعله عما كان يحمل من الأَكفان والمراكيب والقمصان مما كان يجهز من ديوان القلعة صحبة المحمل.

أُجرة كل جمل من الفضة أَربع مئة نصف عن ذلك جميعه من الفضة مئة أَلف وستة وتسعون أَلفاً وسبع مئة نصف استجد بعد ذلك في سنة ثمان وثلاثين وتسع مئة جِمال الصدقة الشريفة (الخنذكارية) وقدرها مئة جمل وأُجرة كل جمل كجِمال العسكر المتقدم فكانت بينهم بالسوية، وأُضيفت إِليهما السقاية قبل ذلك بالسوية بالمقاطعة المذكورة قريباً، فاتسع أَمرهما، وكبر شأْنهما عند الحكام وولاة الأُمور، وصارا مرجعاً في أَمر الجِمال والتحميل، وما يحتاج إِليه في النزول والرحيل، واستمرا على ذلك إِلى أَن انتقل المقدم محمد بن العظمة بالوفاة بمنزلة، الْحوراء من طريق الحجاز الشريف بعد تمرضه في محفَّة أَمير الحاج، وهو الأَمير جانم بن قصروه في عام ثمان وأَربعين وتسع مئة، وحمل إِلى الحوراء، ودُفِنَ بالشرف العالي، بمحطة الركب بها طلعة، وعلى قبره حجر منقوش فيه

اسمه، وتاريخ وفاته رحمه الله تعالى. واستقر عوضه شريكاً للمقدم طعيمة المقدم محمد بن العظمة ولد المتوفى، وأخوه علي، واستمرا على ذلك مدة مع عدم الاتفاق باطناً. إلى أن تَغَيَّر خاطر أمير الحاج جانم بن قصروه على المقدم طعيمة بسبب فتنة من بعض غلمانه على شيء يسير طلبه منه، فلم يعطه أو قصر عنه في شيء فذكر الغلام لأُستاذه كلاماً ابتدعه عن المقدم طعيمة، فحصل من الأمير جانم الإعراض عن طعيمة بالكليَّة، وقصر عن مساعدته بكل طريق، فحصل له العجز بسبب ذلك، وآل أمرهُ إلى أنه استخفى في ولاية داود باشا، واستقر المقدم محمد بن العظمة وأخوه عليٌّ بمفردهما من غير مشارك، مدة تقارب العشرة من الأعوام، واستعملا العسف والظلم والجور للرعايا والحجاج، واستخفَّا بأُمراء الحاج وبغيرهم، لانفرادهما، وأخذا جِمال الرعايا غَصْباً وجوراً وافتئاتاً في حجة جمال التفاريق التي يدَّعون أنها سالفة قديمة من الظلامات المنسوبة إلى البدع في زمن الجراكسة، وكثرت منهما شكايات البرية والغوغاء والدعاوى وغَيَّرا ذلك النِّظَام، ومَن شكا منهما من جَمَّال أو غيره عاملاه بمزيد الانتقام، إلى أن تولى الأمير محمود (كيخيا) المرحوم داود باشا كان، إمرة الحاج فتكلم مع علي باشا في ولاية المقدم عبد الكريم بن طعيمة شريكاً لأولاد العظمة في التقدمة، فأجابه إلى ذلك، وقرر عبد الكريم، وأشهرك معه إخوتَهُ، وجعلهم ضمناً له مساعدين فيما هو بصدده من مهمات أمير الحاج والسلطنة الشريفة فلم يلحقوا والدهم في ذلك الباب، ولم يطابقوا أولاً العظمة إلا في الانتساب، مع وجود المقدم محمد طعيمة منقطعاً بمنزله بخط بولاق، وهو عاجز لكبر سنِّه، وقلة ما في يده، فكانت وفاته في ثامن جمادى الأُولى سنة إحدى وستين وتسع مئة ـ رحمه الله تعالى وعفا عنه ـ.

ذكر خصال المقدمين

التي قد تواطؤوا عليها، وركنوا حولها ولديها، وهي على أقسام: ما هو خاص بهم، وما هو عام منهم ومن أتباعهم. أما الخاص بهم فمن ذلك ما ابتدعوه مسنداً إلى تقادم السنين من المظالم الواقعة في الدولة الجركسية وهو أنهم يحسنون لأُمراء الحاج قبض أُجرة جمال بيدهم بمبلغ بخس عدَّتها أربعون جملاً يسمونها جمال التفاريق، حساباً عن كل جمل من الفضة السليمانية ثلاث مئة نصف ويوجهون حمل هذه الجِمال المذكورة على بيوتات أهل الكدّ والحمل الثقيل، وذوي السرعة في السير كالفرّاشين والطباخين والغشامة وسقَّائي الأَسياق، فيعم الضرر بذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن أُجرة الجمل الواحد بحكم الأنصاف ثمانون أو أكثر مثلاً، فيأخذون الثلاثين، ويظهرون أَنهم مشفقون على أَمير الحاج وأن ذلك فيه التوفرة لجماله، والمصلحة له، والحال أن ذلك هو النفاق بعينه، فإن النفاق إظهار الإسلام وإخفاء الكفر كما في ذلك من المظالم التي ستُذكر بعد.

الوجه الثاني: أَنهم يوفرون بها جمال أَمير الحاج براحتها من المشقات الشديدة والأَحوال الثقيلة، ويخصون بتلك الأَحمال جِمال الرعايا المذكورة، فلا يزال ذلك الجِمال يغير تحت تلك الحمول العامة جِماله، إلى أَن تفنى، هذا إذا لم يرحمه المقيم على تلك الحمول، وأما إذا رحمه فإنه يأخذ منه قدر أُجرتها التي قبضها المقدم من أَمير الحاج، ولم يعطِ صاحب الجمال منها الدرهم الفرد حتى أَنه يريح جِماله أَو بعضها ويربح وجودها على أَيّ حالة كانت.

والوجه الثالث: وهو غاية الظلم والأَذى لوفد الله تعالى، وسببه أَن المقدم لا يحمل على جِماله شيئاً من الحمول المذكورة كما شرحنا، ولا يفرق على البيوتات الجمل الواحد من جِماله وإنما يوجه لها وجوهاً من أَنواع الظلم والسخرة والغصب لجِمال الرعايا ويدَّعي أَن القانون الذي هو مخالف لدين الله تعالى من زمن الجراكسة بزعمه أَن المقدم يقبض الأُجرة ويفرقها من باطنه غلى جماعة المقدَّمين، ومَن عليه عادة باختلافه بالحصص، وبذلك سميت تفاريق، فيعم البلاء بسبب ذلك سائر الناس الذين لهم جِمال سواء كانوا جمَّالَة أَم لا، من أَهل البلدة أَو الأَغراب، ولا يزالون يقبضون على جِمال الرعايا والحجاج في كل منزلة ومحل ورحلة بالطرقات حتى يستغرقوا أَعداد ما حملوه في ضمن ذلك العدد، ويرمي بسبب ذلك حمل الرعايا بالطرقات، ويشتد الكرب فتراهم يستغيثون فلا يغاثُون، ويستصرخون فلا يُجابون، وإن كلمهم أَحد في شأنهم عَابوا، ويستمر المقدم فيهم يسخر جمالهم من تحت أَحمالهن ويحملها أَحماله وأَثقاله، ويوفر جماله، والدعاء متزايد عليهم من جوانب الركب والغوغاء كذلك، فلا يرعوون ولا ينتهون، وأَمير الحاج يذرهم في طغيانهم يعمهون. . ولقد اتفق في عام اثنين وخمسين وتسع مئة ولاية المرحوم ايدين من الظلم والعسف رَمْي الأَحمال، ونهب جِمال المسلمين ومن المقدم محمد بن العظمة من استقبال المسير ببِرْكَةِ الحاج إلى نهاية العود، وحَلَّ بالمسلمين والتجار من ذلك ما لا يدخل تحت حصر، ولم يستطع أَمير الحاج الدفع عنهم، ولا الانتقام منهم فإنَّه اتفق في تلك السنة موتُ الجِمَال، وتفاحش ذلك جدًّا بجِمال المقوِّمين لأَنهم لا يطعمونها من العليق إلا بدون الحاجة ويدعونها أَياماً متعددة بلا عليق، وربما يعولون

على الحشيش في علفهم من غير زيادة، فذاقوا وبال أمرهم وحصلت لهم الغلبة العامة عليهم بسبب ذلك، فبهذه الواسطة صار المقدم وجماعته ينهبون جِمال الرعايا يميناً وشمالاً، وطليعة وساقة، ويحتَجُّون بأن جِمال العسكر قد فَنِيتْ، وأَنَّ غالبهم مشاة على أَقدامهم، فإنَّ في تلك السنة مشت النساء والأَولاد عن الجِمال، وخرجت المخدرات من أَحمالهن المغطاة مشاة على أَقدامهن، منهم مَن انقطع بالساقة وأَردفهم الترك الذين بها خلفهم على الهجن والبغال والخيل، إلى أَن وصلوم الدار. ووقع أكثر من ذلك في سنة اثنتين وستين وتسع مئة ولاية الأَمير حمزة بن إسكندر كاشف الغربية لإمرة الحاج إفناء الجِمال في تلك السنة كما سيأتي ذكره في محله. فلما تفاحش هذا البلاء بالوفد وعمّ، ولم أجد أحداً بأحوالهم يَهْتَمّ ولا من أفعالهم يَغتم، تكلمت مع أُمراء الحاج في ذلك، وبيّنت لهم ذلك الظلم المتدارك فلم يلتفتوا إلى ذلك، ولا جنحوا إلى رَفْع ما هنالك، إلى أن حلّ ركاب مصطفى باشا بالمملكة الرومية في سنة أَربع وخمسين وتسع مئة أَميراً على الحاج، في مستهل شوال من السنة المذكورة، فوافقني على إبطال ذلك في تلك السنة، وأَن يَمْحُوَ هذه السيِّئة، ويتعمّد لفعل الحسنة. ثم عاد الأَمر بعد ذلك كما كان بتسويل المقدّم محمد بن العظمة لذلك، ليروج حاله في غصب جمال الوفد ويشارك، وأَظهر تلك السنة السيئة، وأَصغى إلى مكامن كفريات تلك الفئة، ثم ولي الأَمير محمود (دوادار) داود باشا فمشى في إبطالها، وصمّم على عدم موافقتهم والجول في مجالها، وتكلم مع علي باشا في هذه القضية وقرر معه إماتة هذه البدعة المشتملة على خبث الطويّة، إلى أن صرح الباشا للمقدم بأَنه متى تعرّض لذلك قُتل، وحذّر وأَنذر من التعرُّض لمثلها، وحسَّن السيرة مع الوفد في جميع ما فعل، وأَشركه مع المقدم عبد الكريم بن طعيمة، ليكون ضِدًّا وعوناً عليه في الوقوع بمثل ذلك المحظور، حسماً لهذه المظالم الواقعة للوفد في غالب الطرق والدور، فاستمر الأَمر على ذلك مدة ولايته والعام الذي بعدها إلى أن عاد مصطفى باشا إلى الإمرة في سنة ستين وتسع مئة فأَعاد ما كان بطل، واستأْنف في الظلامة العمل، لكن نقصها عشرة جِمال من الأربعين، وجعل أُجرة الجمل إلى عشرة من الذهب بعد أَن كانت من الأَشرفية المعاملة ثلاثين.

وأما الأمر الثاني الذي هو خاص بالمقدم فهو أمر أجرة الجِمال التي تحمل العسكر المنصور فإنهم يأْخذون عن الجمل الواحد من الخزائن السلطانية من الفضة الجديدة سبع مئة نصف فإذا فرق ذلك على رجالته، جعل مقتطعاً لنفسه على كل جمل مئة نصف، ويحاسبهم على كل جمل بستين ديناراً عنها من الفضة ست مئة

نصف ثم يقيم لكل نفر حساباً عما في جهته سابقاً من بقية ثمن فول ودقيق وعليق وقرض وغيره من ستين عديدة. فإن رحمه في ذلك دفع إليه نصف الأُجرة نقداً، وأقام باقي ذلك مما عليه، فتستقيم أجرة كل جمل على هذا الحكم في حساب الجمل بثلاث مئة نصف، ولا يستطيع الجمَّال مخالفته في ذلك، فيرجعون إلى بغيهم وكذبهم وتَحيُّلهم على مَن يكون سعده معكوساً بالكراء معهم في تلك السنة، فلا يزالون يقترضون منه ويتحيّلون عليه إلى أن يستغرقوا أمثال الأُجرة المتعاقَد عليها، ولا تَعود الرعايا تظفر من ذلك القرض بطائل، مع مقاساة الغلبة وأنواع المشاق من جِمالهم وسوء رحالهم وغلبتهم في أقوالهم وأفعالهم ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩] هذا وغالب جماعة العسكر في مشقة زائدة وأحوالهم مع الجِمال والجمَّال على غير طائل ولا فائدة، فلولا حضور الجِمال التي هي صحبة الملاقاة الأَزْلَمِيَّة لانقطع بالطرقات أعداد وافرة، ولولا القرض على الجمالة من التجار والرعايا في كل كرة خاسرة ـ لما سمع والله أعلم ـ لِركابهم خَبَرٌ، إلا اللحاق بأهل الآخرة.

وأما الأَمر العام من المقدمين وأتباعهم فهو ما قد جنحوا إليه، واقتفوا طريقه وعولوا في سائر أحوالهم عليه، وهو أنهم بعد الاتفاق والتراضي والمعاقدة ودفع الأُجرة يطلبون القرض في كل منزلة ومحل، ويصممون عليه، خصوصاً إنْ كان راكب جمالهم من ذوي الملاءة والقدرة، فإنهم يوجهون له أنواعاً من التُّرَّهات، ويستغرقون منه أعداداً معلومات، ويأخذون عليه في المحل الضيّق كما هو هو مشهور من أفعالهم الذميمة، وتصرفاتهم التي هي غير ناجحة ولا مستقيمة. ويتبرّعون له في سرعة الوفاء بالأَيمان الغموس، على غاية من مجانبة السعود ومقارنة النحوس، معوّلين على أخذ أموال الناس بالباطل، ومَنْ عَوّق عليهم العطاء ـ والعياذ بالله تعالى ـ فله منهم كل مجلس حافل. وماذا أقول فيمن جمعوا فأَوْعَوْا كل خبيث ورذيل، ورضعوا ثدِيَّ الفقر والإفلاس بأَيمانهم الفاجرة واغتذوا بالأَباطيل، وشهدت عليهم أفعالهم وأقوالهم بخبث الطوية، الكاشفة عن كل رذيلة وعقيدة غير مرضية، وحذرت من الركون والإصغاء إليهم، والمستعان بالله تعالى فهو العون عليهم.

وقد صرّح بعض العلماء بأن من تمام الحج ضرب الجمّال، ومنعه بعضهم، ومشى على ذلك ابنُ مُفْلح في كتابه «الفروع» فإنه قال: وليس من تمام الحج ضرب الجمَّالين خلافاً للأعمش، كما حكى ابن حمدون عنه في «تذكرته» في باب المِلَح والنَّوادر أنه حجّ فلما أَحرم لاحَاه الجمَّال في شيء فرفع عكازه فشجَّه بها فقيل له: يا أبا محمد وأنت محرم؟ فقال: إن من تمام الإحرام شَجُّ الجمال. وحمل ابن حزم

قوله على الفسَقة منهم ثم قال: ويتوَجَّهُ أن يَمْشِي ناوياً بذلك الإحسان إلى الدابة وصاحبها، وأنه في سبيل الله. وكان ابن المبارك رحمه الله يمشي كثيراً، فسأله رجل: لمَ تمشِ؟ فلم يرد أن يخبره فقبض على كمّه وقال: لا أدعك حتى تخبرني، فقال: فدعني حتى أخبرك، قال: أليس يقال في حُسْن الصحبة؟ فقلت: بلى، قال: فهذا من أحسن الصحبة مع الجِمال أليس يقال: مَن اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل الله ونحن نمشي فيه؟ أليس يقال إدخال السرور على المسلم صدقة؟ قلت: بلى. قال: فهذا الجمَّال كلما مشينا سَرَّه. قلت: بلى. قال السائل: هذا أحبُّ إليَّ من ألف درهم. ولابن أبي حَجَلَةَ التلمسانيِّ:

لِجَمَّالنَا في اللَّيْلِ مَشْيٌ لأَجْلِهِ أَرَى ضَرْبَه في الْحَجِّ ضَرْبَةَ لاَزب

عديم ضياء الحسن يمشي بجهله كَحَاطِبِ لَيلٍ في طَرِيْق الْمَحَاطِب

وللمقدمين ما يقبضونه من ديوان إمرة الحاج مقاطعة، السقاية المتقدم ذكرها وهي عبارة عن أرش القرب والوعول والزمازم والحيضان ومصروف (جامكية) السقائين على الكفاية ذهاباً وإياباً ما عدا قفف القرب والخيط، ووكاؤها من الخيط والسحيل اللِّيف، لربط أكارعها وكلفة (الردك) وهو ما يُصرف على تنظيف القِرَب بساحل البحر من القطران عن مؤنة الرجال مدة إقامتهم لذلك، وهي على ما استقرَّ عليه الحال الآن خمسة أرادب من القمح، وقنطار من العسل، وقنطار من الدهن، وأربعة من الذهب، فإن ذلك على أمير الحاج.

وقدر المقاطعة على حكم ما تقرر زمن المرحوم جانم الحمزاوي لإمرة الحاج، من الفضة السليمانية اثني عشر ألف نصف وخمس مئة، فأسقطت الخمس مئة بعد ذلك وترك الباقي على حاله وإنما قلنا أرش القرب لأنه إذا انتهى السفر كانت القِرَب الرديد وما معها للمقدم، هذا هو القانون المتعارف المتداول، ولهم أرش الرحال لتغطية ظهور جِمال النفر التي هي ملك لأمير الحاج وهي على سبيل المقاطعة على كل رجل عشرة أنصاف بسائر أسبابه وقبَّته وآلاته ما عدا اللباد والعباءة والقنب للمقاود فإنه على أمير الحاج، ولا يخفى أن في ذلك نوعاً من المساعدة لأمير الحاج في مصروف هذا الباب، وإذا عاد الركب كان ما فضل من الرحال للمقدمين وأصل ذلك سلوك طريق الجمّالة بخدمة هذا المهمّ، لتكون الحماية والرعاية في مقابل ما وفّره المقدم على أمير الحاج من المصروف.

ولقد كانوا على غاية من الحماية في الدولة الجركسية بحيث أن الجمَّال إذا

دخل منزل أستاذه وقل قتل قتيلاً مثلاً وهو مطالب بدمه فلا يتعرض إليه مطلقاً، وكذلك فيما عليه من الديون ولقد أدركنا بعض ذلك فكان ينادي بالقاهرة وأعمالها من غرة رجب أنه لا يتعرض لجمَّالة أمير الحاج ولا لغلمانه عامة، وتعرف قضاة الشرع بذلك فلا يتعرضون إلى أحد منهم، وهذا وأمثاله من الأُصول والقواعد الفاسدة المخالفة لدين الله تعالى، المبطلة لحقوق الناس ظلماً وافتئاتاً، مما مشى عليه الجراكسة كغيره من مفاحش الظلامات وما يحملهم على أكل أموال الحجاج بالباطل، ولهم جامكية رجال النفر من باب تسمية الشيء باسم خادمه ولازمه لأن النفر هم الرجال الخادمة للجِمال بأُجرة معلومة، أما في الإقامة فلكل نفر على ستة جِمال خمسة وعشرون نصفاً ولنائب المقدّم وهو (المهمرت) ثلاثون ومثله لسنّ النفر وهو رأسهم، ولهم من الجراية من القمح في كل شهر لكل نفر ويُبَتَانِ ولـ(لمهمرت) من النفر ثلاث، وأما في السفر فلهم الجامكية أيضاً تصرف بيد المقدم على سبيل المقاطعة، ويصرف لكل نفر عن ثمانية جِمال ويسمى قطاراً بحسبه، ولكل قطار من الربع إلى الربع جرايتان من البقسماط عن نفرين حمَّال وحَشَّاش، وقدر المقاطعة عن أربع مئة جمل فما دونها من الفضة السليمانية أَو ما يعادلها اثني عشرة ألف نصف.

واعلم أن رجال النفر المذكورين هم المشهورون من قديم الزمان بسوء السيرة وقَبيح الطريقة من سرعة الاختلاس واعتماد الأَذى للناس، حتى أنهم تُضرب بهم الأَمثال، ويقاس عليهم من قبيح الأَفعال والأَقوال، فليحذر من أفعالهم فإنها مشهورة، وخيانتهم غير مقطوعة ولا منكورة، وللمقدمين خاصة القفطانات المذهّبة من غير رجوع عليهم بها، عند عرض الجِمال ونائبهم وسن نفرهم من الجوخ المخيوط ما هو عادة مستمرة لهم وقت العرض وقدر ذلك ستة، وللمقدمين وأتباعهم الحماية والرعاية وقيام الناموس ـ كما ذكرنا ذلك ـ منها من زمن الجراكسة، واستمر في الدولة المظفرية إلى آخر ولاية سليمان باشا أنه لا يطالب الجمَّال بما عليه من الحقوق إلا من باب أمير الحاج وكذلك جميع غلمان المهم من استقبال شهر رجب الفرد إلى حين عوده من السفر وقصداً لتعظيم شأْن هذا المهم وحرمة القائم بأُموره ومهماته بحيث أن جميع القضاة بالمحاكم الشرعية والكُشَّاف والولاة لا يتعرّضون لفرد من أفرادهم ولا لشخص من آحادهم في المدة المذكورة، ويعاملونهم بالحماية والرعاية في كل قضية مذكورة، وقد بطل ذلك كغيره واضمحلّ، وتلاشَتْ أحوال المهم والقائم بها، والأَمر للّه عزّ وجل.

وللمقدمين من المنزلة والمرتبة أن أمير الركب لا يرحل منَ الْبِرْكَة ولا من المناهل والبنادر المشهورة إلا إذا كان حالهم في اعتدال، وكفايتهم في غير اختلال

ولا اعتلال، وجرت العادة عند الاحتياج إلى القرض أو العليق بمصر أو بالمناهل المساعدة على ذلك ودَفع ذلك لهم إذا لم يجدوا من يعطيهم فربما أنه إذا عاكسهم أو خالفهم ولم يلتفت إلى النظر في أحوالهم ورحل في حال اختلال من كفايتهم أن يُتعب نفسه غاية التعب، ويعرض بهم ومَن معهم من الحجاج إذا عدموا الكفاية إلى حالة العطب، غير أن معاملة المقدمين عسرة الإعادة فيكتب بما يعطيهم مسطوراً شرعياً بضامن وكفيل ويحرر عليهم قبل الإعطاء، ويؤكد في نية الوفاء، وقد احتاج المقدم محمد بن العظمة في سنة ثمان وخمسين وتسع مئة إلى القرض وكان أمير الحاج معسراً بالنقد فأُخرج له قرضاً من الخزائن السلطانية بمساعدة أمير الحاج قدره ألف دينار من الذهب تمشية لحاله وتنجيزاً لقطع علائقه وأسبابه ورحاله، فإن المقدمين في الحقيقة عمدة الركب الشريف في حمل الأثقال، وفي مَن يعجز من الجمَّالة والرجال، وفي أوقات النزول والرحيل، وفي كل حاجة تحتاج إلى التحميل، فهو فيها أصيل وكفيل. ولهم من العليق ثمان علائق ومن الجرايات مثلها، ولهم حسن النظر والمساعدة في كل حاجة عُرضت لهم، ولا يخفى على العاقل أن الاستقامة للرحيل إلى تلك الأقطار الشريفة، وقطع تلك الفيافِي المخيفة، لا يكون إلا بالجِمال والجمَّال، وإذا كان الجمَّال مُزَاح العلة وحاله منتظماً فأمير الحاج كذلك وأهل الركب كذلك، وللصلاح الصفدي:

دَرْبُ الْحِجَازِ مَشَقَّةٌ لَكِنْ إذا الـ ... جمَّـال هـانَ تَسَهَّـلَـتْ أَحْـوَالـه
أصبحت في تَصريف جَمَّالِي عَلَى ... مَـا يَـشْـتَـهِـي فـكَـأَنَّـنِي جَـمَّـالـه
قَدْ كَانَ خَفَّ عَلَى فُؤَادِي لَوْ غَدَا ... مِنْ فَوْق ظَهْرِيْ في السُّرَى أَحْمَاله
وَيَكوْن طَوْعِي فِي الَّذي أَخْتَاره ... لَـكِـنْ قَـسَـا وتَـضَـاعَـفَـتْ أَثْـقَـالـه

وله:

دَرْب الْـحِـجَـاز مُـبَـارَكٌ لَـكِـنَّـهُ ... يَـحْـتَـاجُ صَـبْـراً زَائِـدَ الأَحْـمَـال
وَعُـيُـوْبُـهُ شَـتَّـى وَلاَ مِـثْـلَ الَّـذِي ... أَصْـبَـحـتُ أَلْـقَـاهُ مِـنَ الْـجَـمَّـال

وله:

غَـدَا سَـفَـرُ الْـحِـجَـازِ كَـمـا تَـرَاهُ ... لأَخْـلاَقِ الـرِّجَـالِ بَـدَا مِـحَـكَّـا
فَـكَـمْ مِـنْ صـاحِـبٍ أَمـسـى عَـدُوًّا ... بِـهِ وَصَـحِـيْـحُ وُد قَـدْ تَـشَـكَّـى
وَجَـمَّـالٌ جَـمِـيْـلُـكَ لاَ يَـرَاه ... وَعَـكَّـامٌ أَتَـى مِـنْ أَرْضِ عَـكَّـا
كَـمَـا أَنَّ الْـمُـقَـوَّمَ فِـي اعْـوِجَـاج ... وَحِـيْـنَ تُـقِـيْـمُـهُ بِـيَـدَيْـكَ دَكَّـا

وله:ـ

مُقَوِّمٌ نَحْنُ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ نَدْعُو لَهُ خِيفَةً أن تُعْدَمَ ٱلإبل
أَقُولُ لَمَّا أَرَاهُ وهْوَ فِي حَزَنٍ مِن أَجْلِ أَحْمَالِهِ وَالركْبُ مُشْتَغِل
يَا مَنْ إِذ نَحْنُ أَخْلَصْنَا الدُّعَاءَ لَه كُنَّا لأَنْفُسِنَا نَدْعُو، وَنَبْتَهِل

وله:

كَمْ جَمل مُنْتَصِبٌ لِلشَّقا مَا جَرَّهُ الْجَمَّالُ إلاَّ انْكَسَرْ
وكَانَ في الركْبِ يُرَى مُبْتَدَا فَمَا لَهُ مِنْ بَعْدِ هَذَا خَبَر

وللشيخ شهاب الدين بن حَجَرٍ في مَلِيح جمال:

و(سَيْرَوان) قادَ قَلْبي وقَدْ قَطَّرَ دَمْعَ هَجْرِه كَالْجُمَان
وكلما واصل قَالَتْ له حواسدي قاطع يا (سيروان)

وله أيضاً:

و(سيروان) قد نَفَرْ قَطَّر دمعي إذ نَظَرْ
فلا تَثِق بِوَعْدِهِ فَدهْنُه على وَبَر

وله أيضاً:

و(سَيْرَوَان) كَالشَّمْسِ وَجْنَتُه قَطَّرَ دَمْعِي وَلَيْسَ ذَا عَجَبْ
مَا زلْت أَهْوى مَنَاخَهُ زَمَناً فَضَاعَ رَحْلِي وحَشْني القَتَب؟

ولابن أبي حَجَلة التلمسانيِّ:

كَمْ قُلْتُ لِلجَمَّالِ يَا سَعَادَهْ إِن كُنْتَ تَبْغِي لِلْكِرَا زِيَادَه
قُدْ فِي الْمَضِيق جَمَلي وَلاَ تَخَفْ وَفي الْفَلاَ أمْشِي بلاَ قِيَادَهْ

مقدم الضَّوْئِيَّة والغشّامة:

وهو عبارة عمن يكون مقدماً لرجال المشاعل، نسبة إلى ضَوْئِها حال إيقادها.

والغشامة مفرده غشام، نسبة إلى ما يتصفون به من الغلظة واليبس في ذاتهم وسببهم، لأنهم هم الذين يتولون أمر المحابيس، والحديد من السلاسل وأقفالها وتوابع ذلك، وعليهم دَرَك ذلك وحفظه للمقدم في حالة الإقامة وفي حالة الظعن، ومن ملازمهم أمر أحطاب المشاعل والمطبخ بالطريق وتكسيرها.

والْمَشَاعِليُّ - بفتح الميم - نسبة إلى حمل المشعل الذي هو آلة للضوء في الأسفار، والعامة يطلقونه على المنادي توسعاً لأنَّه من أتباعه ومجانسه، وعلى السياف - ويكسرون الميم منه - وهو توسع في نسبته وسمي السياف أيضاً في عرف بيوت الحكام بـ(الزفوري)، وفي مصطلح أمراء الأَروام يقال له جلاد، وهو في عرف منازل أمراء الحاج وفي عادتهم يكون من باطن الْمُبَيِّت، و(جامكيته) عليه، وهي مئة نصف كبيرة.

والْمُبَيِّت المذكور هو المنادي فقط، وهو من أتباع مقدم الضوئية. وكذلك سعادة الركاب من باطن مقدم الضوئية أيضاً و(جوامكهم) الآن على أمير الحاج.

ويشترط في مقدم الضَّوْئِيَّة أن يكون خبيراً بصناعته، حسن التصرف عند الحكام، فيه ميل إلى الخير، قليل الأذى، غير منتظم فيما لا يعنيه، مُبْعِداً لِلسُّرَّاق وأهل الأذى ومَن عُرِف بذلك.

وآخر مَن أدركناه في هذا الباب من المقدّمين عبد الرحمٰن بن كوكب المدعو (أصلغاي) وكان من أهل الملاءة والمعرفة بهذا السبب، وكان في ذلك الزمن تصرف له (الجوامك) والعوائد بتمامها، وغالب أموره على قوامها ونظامها، وكان بهِ جمال في بيوت الحكام، وله منهم غاية الإكرام والاحترام، وقد تلاشى حال هذه التقدمة وصار يتقدّم فيها صبيان المقامرين، والطبّاخون وسلاخة الحمير، وأراذل الساسة، ويتهافتون عليها بالمرافعات والمناقصات، وتزايد أمر ذلك إلى أن صاروا يخدمون بلا شَيْءٍ، اعتماداً على الموالسة مع النشّالين والسرَّاق وأهل الاختلاس، وجميع مَن يعرفون بهذه المثابة من أهل الإقدام على أخذ أموال الناس، يصحبونهم لأَذى وفد الله في كل عام، ليس لهم دَأب إلا التطلع إلى ما يرد من الحرام، ويحسنون لأَمير الحاج أن يقررهم بكامل (الجامكية) وثمن الأَحطاب والدهن والمشاعل، وأجرة الحديد والسلاسل، حتى أنهم يلتزمون بالشباك الليف والزبالات والسلب، ويقومون بسائر الاحتياج والجوامك، ويزعمون إنما قصدهم إلا الحج إلى بيت الله الحرام في مقابل ذلك.

وكان المقرر لهم في نظير ما ذكرنا من الذهب الجديد مئة دينار، فيشهدون على أنفسهم بقبض ذلك، ويعمد أمير الحاج على ذلك الإشهاد غاية الاعتماد، ويدعهم يسعون في الأَرض الفساد، فإنهم لا يخدمون بهذا المقدار، ويسافرون فيعملون للمغارم، مع مَشَقَّاتِ تلك الأَسفار، إلا لأَجل أذى الرعية، واستباحة أموال وَفْدِ الله

بالكلية، ولذلك اشتهر الفساد من السرّاق وذاع، وملأ الأبصار والأسماع، وجعلوا طريقاً إلى خباثتهم بذل هذا المعلوم، لما علموا أن غالب الأُمراء على ذلك يحوم، وعمّ البلاء منهم بهذا المقتضى حتى صار من الواضح المشهور، وأذاهم غير مقطوع ولا منكور، إلا مَنْ وفقه الله من الأُمراء لليقظة على مثل ذلك، فسلك في كفهم عن وفد الله أحسن المسالك.

ومن كف أذاهم وغيرهم من النفر وأهل الفساد التقدم بإعلام المتقدمين عليهم أنهم لا يستخدمون من عُرف بالأذى والسرقة والفساد ولا يُؤْوُوْنَ مَن عُرف بذلك، ومتى فعل ذلك بعد الإعلام قابلهم أشد المقابلة، ومع ذلك التوعد يُوَفِيهم (الجوامك) والعوائد من ماله لئلا يكون لهم عليه الحجة وقد شدّد عليهم مصطفى باشا في بعض سفراته وفحص عن أهل الأذى المشتهرين به المعتمدين للفساد من طوائف غلمان النفر، والضوئية والسقّائين وغيرهم، فضبطهم بالكتابة، اسماً وحِلْيَةً، فكانوا نيفاً وخمسين نفراً ما بين رجال وصغار ونساء ليعرفهم بسيماهم وأسمائهم، وكان في ابتداء سفراته إذا رُفع له سارق ولم يرَ قتله، كَوَاه في جبهته، فإن عاد عرفه بالكيِّ فقتله.

وللضوئية من المنافع السحت المحض مما يتحصل من القمار بالدرب، ومن قاعة القمار بالبنادر كمكة المشرفة فإن لهم بها قديماً عادة على ذوي القمار نحو ألف نصف وكذلك لهم عادة بالينبع وغيره ولهم الحديد على المحابيس عند إطلاقهم فإن لهم بها قديماً عادة على ذوي القمار نحو ألف نصف، وكذلك عادة بالينبع وغيره، ولهم معلوم الحديد على المحابيس عند إطلاقهم وبلغني أنَّ لهم عادة يأخذونها من المجرمين أهل المحلة في مقابلة تقريرهم معه رغبة في الفساد.

وعدة المشاعل أربعة وعشرون مشعلاً ما يشعل منها بالدهن وهي الخاصة لأمير الركب أربعة، والخامس (للدوادار) وبقية ذلك يشعل بالحطب فمنها (لأمير آخور) النفر وهو الكبير مشعل و(لبلك باشات العسكر) وعدتهم أربعة (الكمليون) و(التفكجيون) و(الحصاريون) وجماعة العرب لكل (باش) مشعل، والذي كان قديماً له المشعل من هؤلاء: (باش) الكملية والتّفكجية فقط، والاثنان الأخيران مستجدان، وللعلم السلطاني مشعل، ولمحفة الركاب كذلك، وللخزائن مثله وهي الصناديق، وللعربات مثله، و(للطشت خاناه) مثله، وللخيول مشعل و(للزردخاناه) كذلك، وللحريم اثنان إن كان ثَمَّ، وللعيدان مشعلان، وللسّنيح أربعة. وللصلاح الصفديِّ في مشاعل الضوئية:

وَإِذَا بَـدَّدَتْ مَشَاعِلُنَا الْجَمْـ ـرَ ثم صَارَتْ بالأرض في كُلِّ مَسْرَى
وَطِئتهَا أجمالنا بخُطَاهَا كَرِقَابِ النَّعَامِ يَلْقُطْنَ جَمْرَا

وله:

أَمْسعى لنَا رَكْبٌ يُقَابِل السَّما بِمِثْلِها مِنْ أَنْجُم الْمشاعِل
بُرُوْجُهَا مَحَايِرٌ قَدْ ضُمِّنَتْ أَقْمَارَ تَمٍّ لَيْسَ بِالأَوَافِل
كَمْ بَدْرَ تَمٍّ وَالظَّلامُ شَعْرُهُ وَقَدْ تَجَلَّى فَوْقَ غصْنٍ مَائِل
جَمَالَه جِمَالُهُ إِذَا سَرَتْ وَحِنْدِسُ الظَّلاَمِ غَيْرُ حَائِل

وفي المشاعل الضَّوْئية عندما تسكب فضلاتِ نارها لَيْلاً يقول:

لِرَكْبِ أَحْمَدَ نَارٌ بِاللَّيْلِ باتت مُضيَّهْ
نَمْشِي على اللَّيْلِ فِيهَا لأَنَّنَا أَحْمَدِيَّه

وقال مجد الدين عبد الوهاب بن سحنون، خطيب النيرب في مشاعلي:

بأَبي غزالا جاءَ يحملُ مشعلا يَكْسُو الدُّنَا بِمِلاَءِ ثَوْبٍ أَصْفَرِ
فَكَأَنَّهُ غُصْنٌ عَلَيْهِ باقَةٌ مِنْ نَرْجِسٍ أَوْ زَهْرَةٌ من نَوْفَرِ

مقدم الهجّانة والشَّعَّارَة:

وهو من مهمات هذا المهم، لكثرة ما يتعلق به وتحت يده من الجِمال والعليق، والأكوار بآلاتِها، فيشترط فيه الأمانة والعقل والخبرة بأحوال الجِمال، وأن يكون ضابطاً لما يتسلّمه من الأسباب، غير مفرط ولا هامل لشيء يطلب منه فيه الحساب، وحاصله من أَجَل حواصل البيوتات، ويحتوي على كثرة الخرج والتفرقات، وفيه من الأكوار الفضة بقماشاتها المزركشة، والمياثر الخاصات من المخمل والقطيفة، والسرانك المنقّشة ومن المياشر الخرجيات وآلات ذلك كالبدائد المحورة، والْعبي واللبابيد والوشاحات، والحجورة والحوايص والزكايب الشعر، والغلال التي برسم العليق، والجِمال، وما في تسليمها من الضبط والكتابة والتدقيق.

وهو المطالب بعد التسليم بما ينقص أو يضيع من ذلك جميعه ذهاباً وإياباً، ومن جماعته الخولة الشعارة، وهم رجال جمال العليق لأمير الحاج، ومنه خولي الغنم لما تحت يده من الأَغنام ـ وقد تبدل اللام نوناً فيقال الخونة ـ قوم سوء إلا ما شَذَّ ونَدَر، وهم كثيرو التعدي فيما بأيديهم من الجمال والغلال والأَسباب ولهم في ذلك اصطلاحات، ومنهم الْمُغَيِّر والمُبَدِّلُ في (الداغات) ومَن ينقشه بالسكين أو يقصه

على حكم الترتيب والتبيين، وقد يكون في (الداغ) الواحد ثلاث لطعامهم، فيفردها عن بعضها، ويحاسب بها عن ثلاثة جِمال.

فينبغي أن يكون المتكلم عليهم يقظاً على أحوالهم، كالأَفعى لهم من أفعالهم، وليس ذلك مُطَّرِداً في كلهم، وإنما إذا كان المقدم عليهم من أهل الخبرة بذلك ـ وهو الغالب في زماننا ـ فهم أتباع فيما هناك.

ذكر ما يحتاج إليه أمير الحاج من أصناف حاصل الهجانة ملخصاً

أما من الأَكوار الخاص فمن سبعة نوب إلى اثنتي عشرة نوبة، عنها ستة وثلاثون كوراً بقماشها من المخمل والحرير المزركش، والمذهبات المنوعة. بحسب ما يقتضيه رأيه، وتسمح به همته، وتَحسُن به طريقته، ومن الأَكوار الخرجيات والغبطان بقماشات من السختيان والحور مئة وعشرون، أو بزيادة عشرة، مدهونة بقماشها.

ومن البدائد المحورة المبطنة من الخاص والخرجي على عدد الأَكوار، والقماش، ومثل ذلك من الوشاحات الكاملة النوار والحلق والحور، ومثل ذلك من السلاسل الحديد الخاص والخرجيات، ومن اللباد الأَبيض من أربع مئة لبَّاد إلى ما دونها يسيراً ضريبة كل كور، وعلى حكم الكمال ثلاثة لبابيد، ومن العِبِيِّ البلديِّ على عدد الأَكوار، ومن المقاود القُنَّبِ على الكفاية، ومن الحدايج ـ لجمال الشعارة المكملة بالظِّهارة من الشعر الأَسود، والبطانة ـ نحو ثلاث مئة حِدَاجة، ومن الأَقتاب الشعاري مثل ذلك. ومن الزكائب الشعر نحو سبع مئة حمل، وغير ذلك من العدد المكفية، والأَصناف مما هو معلوم عند أهله.

ولنذكر الكور الواحد وما فيه من أسباب: أما الكور الخشب فله مقدم، وهو القربوص، ومؤخر، وجلستان كذلك يميناً ويساراً، ووسطانيَّة، ورباطه من الجلد الفطير، وإذا عمل له فضة فالمقدم والمؤخر الوجوه فقط، والأُفقية من المخمل والحرير وغيره، ويحتاج إلى حاشية من حرير بدائرة، ومسمار قباقبي تشَدُّ به الحاشية.

وأما قماش الكور واحتياجه فالمِيثرةُ وهي فخدان ووسطانية، وبرقع بطانة، وظهارة وشبكة وكنْبوش وخرج بشراريبه، وشوابك بحلقها المختصرة وشراريبها وأرضيتها، عدتها أربعة.

وله من الوشاحات زوج مكمل الحلق والحور والنوار والشراريب، والبذلة وهي القلادة، والمجر والسلسلة والمخطمة، وتعليق القلادة بشيء من المخمل والجوخ،

والبديد وهو ظهارة وبطانة وأربع طبلات من الحور الأَحمر والكور الخشب قالب وشيّالة وعباءة، وثلاث من اللباد الأبيض، وحجر كامل التكفية، بحوائصه ومنجنيقه وحلقه، وركاب بزخماته وغاشية تستر ذلك كله، وسَوْط مظفور لتحريك هجينه، ولكل صنف مما ذكرنا احتياج يتألَّف منه، وصانع يؤلفه، كالعقّاد والدماج للشبكة الحرير، وذلك معلوم عند أربابه.

وأما (الجامكية) لجماعة الهجانة والشعارة فكانت زمن الدولة الجركسية وصدر من الدولة المظفَّرية إلى نيِّف وأربعين وتسع مئة ما يعدل إحدى عشرة ألف نصف من الفضة السليمانية، فلما تلاشت الأُمور وولي الإمرة غير أهلها وكثرت مرافعة الهجانة ومناقصاتهم، وسأَلوا في الخدمة بلا (جامكية) وبجمال لها عدد يخدمونَ بها. وبذهب، وغير ذلك، وطمعت الأُمراء عند سماع هذا القول انحَط قدر (الجامكية) إلى أن صارت في الغالب ستة آلاف من الفضة العددية في بعض الأَوقات وفي بعضها مئة من الذهب.

ومَن يسأَل بالخدمة بلا (جامكية) أَو بشيء منها أو يزن نقداً أو أحمالاً أو أبتاتاً وغرائر، فينبغي لأَمير الحاج أن يحذره فليس له في مقابل ذلك إلا ما هو تحْت يده من الجِمال والعليق وغير ذلك.

وللصلاح في مليح هجَّان:

يَا حَسْنَ هَجَّان رَأَيْت قِوَامَه ... مِنْه تغار معاطِف ٱلأَغْصَانِ
أَبْصَرْت خَطَّ عذَاره في خدهِ ... فَقَرَأْتُه يَا لَيْتَه (هَجَّانِي)

ولابن أبي حَجلَة التِّلْمَسَانِي:

كَمْ قلْت لِلْهَجَّان أَنْتَ الَّذِي ... قَطرْتَ دمْع الْعيْنِ أَلْوانا
بِالله هَلْ هَجَّاكَ هَجري امْرُؤٌ ... فَقَالَ: مُذْ أَحْبَبْت (هجانا)

مقدمو القواسة:

انتظم في الدولة العثمانية عشرة أنفار، منهم بجوامك وجرايات من ديوان السلطنة أربعة أنفار، والباقون بغير ذلك، وإنما هم أتباع لهم في خدمة أمراء الحاج وهم مُعَرِّفُونَ عن بدنات العِربان، يلزمهم التعريف، وإحضارهم لحمل ما عليهم من حمل البحر والبر وقت طلبهم، وهم متضامنون، متكافلون مع بعضهم في هذه الخدمة، وكلمتهم واحدةٌ في الخير والشر، وإنما يختلفون إذا انفرد بعضهم بمنفعة عن

الباقين، وهم في باب أمير الحاج كعصا مُوسَى لِمَا أَلْقَت السحرة، ويأْخذون في التعريف من البدوي على كل جمل خمسة أنصاف، وقت المصروف، فإن وفى البدويُّ حمله في محله كان، وإلا حَلَّ به البلاءُ بين القوّاسة وأمير الحاج، لأَنَّ القوَّاسة يتقدمون بالإسراع في أخذ ثمن الباقي منه مثمناً على حكم ما يختارون من الثمن الغالي، ويختصون به، ويصير أمير الحاج مطالَباً بإحضار البدوي، والقوَّاسة تدافع عنه بكل طريق، فإن وقع، غرم المال ثاني مرة، ولا يمكنه الإقرار عليهم خوفاً من شرهم، وإن اعترف عليهم أنكروا ذلك، وأغروا به أمير الحاج، ونكلوا به غاية النكال وقد تواطؤوا على ذلك، وعلى إخفاء بدنات العربان، وتقرير ما له صورة من الذهب عليهم، ليعفوهم من الحمل، وبالجملة فهم من الذين يفسدون في أمر الحمل ولا يُصلحون، والعادة والقاعدة أنهم ملتزمون بإحضار البدوي لحمل ما عليه، ولما تأخر عليه من الحمل، وإذا غاب فلم يحضروه كان عليهم ما لزمه، كضمان الإحضار، وقد اختل معهم هذا النظام، وهان لديهم حمل أمير الحاج وقوله، وضعفت كلمته، وقلَّت حرمته، بمقتضى ضعف جاهه عند ولاة الأُمور والحكام، وعدم التفاتهم إلى أحوال الأَنام، فعادت عرافه القواسة كالسبب لهم، فمَن أعطاهم من العربان مبلغاً يرضيهم أعفوه من الحمل، ودافعوا عنه، وتعلّلوا بعدم وجوده وتَسَحُّبِه من ظلم الكشافة والولاة وشروده، وإن شَدَّدَ عليهم أميرُ الحاج قبضوا للبدويِّ على أيديهم شيئاً تافهاً، مصنعين به على أمير الحاج، ومن أبى من العربان عن طاعتهم نكلوا به، وحملوه من الحمول أضعاف عادته، وتلاشت أَحوال هذا الباب فلا يحسبون لأَمير حساب.

وكانت لهم (الجامكية) قديماً عن السفر خاصة للمقدم ستون نصفاً، والتبع أربعون، فلما تفاحش بَلْصهُم وترافعهم عند الحكام وقتاً بعد وقت، وتكرر ذلك منهم قُطِعت (الجامكية) من سنة إحدى وأربعين وتسع مئة، وفي بعض الأَحيان يعطيهم بعض الأُمراء شيئاً على وجه الإنعام والإحسان، وغالبهم لا يعطي، واستقر المقرر لهم على خدمة أمير الحاج بالقاهرة في ثمن عليق، وجراية من الذهب الجديد عشرة دنانير، لكل نفر دينار واحد، ولهم من الجوخ المخيوط من ديوان أمير الحاج خاصة خارجاً عما يأْخذه المقدمون الذين لهم (الجامكية) من ديوان السلطنة من جوخ السلطنة، وقدر المأْخوذ من ديوان أمير الحاج عشرة من الجوخ يأْخذون ذلك عند نهاية الخدمة.

وبالجملة فضررهم وبلصهم معلوم ومشهور، واجتماع كلمتهم على ما فيه

منفعتهم وضرر أمير الحاج غير منكور، وأقل ما يفعل في قضيتهم واختصار ضررهم، قلّتهم في العدد من اثنين إلى ثلاثة ليخفّ أذاهم للعربان ومَن يتكلمون عليه، وليقلّ ضررهم لما يندبون إليه، بل لو جعل الْمُعَرِّفُ فرداً كصبيِّ الباب كان ذلك عين الصواب، ولبعضهم في قوّاس:

رأيْتُ قوّاساً كَبَدْرِ الدُّجَا يَرْمِي بِقَوْسٍ حَسَنِ الْمَنْظَرِ
فَقُلْتُ: ذَا الْقَوْسُ لِمَنْ يَا فَتَى فَقَالَ: هَذَا الْقَوْسُ لِلْمُشْتَرِي

صبي الباب:

وهو نائب عن أمير العائد بالشرقية، وعادته أوان الْحَمْل الملازمة لباب أمير الحاج، معرفاً عن عربانه، محضراً لهم، مخبراً عن أحوال بدناتهم كمقدمي القوّاسة، وطوائفه غير طوائفهم، فإن عربان القوّاسة هم بَلِيٌّ وجُهَيْنَةُ وبنو عُقْبَةَ، وطوائف معينة، وعادتهم ثلث حمل السويس وكامل حمل الأزلم، وغالب حمل عَقَبة أيلةَ، وأما عربان العائد فهم عربان الرِّيْف وهم بدنات متعددة وعربان الطور الذين هم الصوالحة والقليعات، وعربان الشرق بالأطفيحية وهم النيعام، وبنو شاكر النفعة، ويحمل عربان العائد فوق الثلاثين من حمل البحر فقط لا من غيره إلا بعض طوائف من النيعام وبني شاكر النفعة، فإنَّ عليهم عادة حمل عقبة أَيْلَةَ أيضاً كما سيأتي بيانه.

وأما عربان القواسة فيحملون الثلث ودونه يسيراً في حمل البحر من طريق السُّويس، ويحملون حمل الأَزْلَم بمفردهم، ما عدا عربان السعادنة، فإنهم لا يحملون إلاّ إلى عقبة أَيْلَةَ فقط، تَلَقَّوْا ذلك عن بني عَطِيَّة من نيف وثلاثين وتسع مئة.

ثم يجب أَنْ تعلم أَنَّ المعهود والمعروف أن جميع العربان المتعلقة بحمل إمرة الحاج لا ولاية لأحد عليهم، ولا سلطان لحجزهم عنه، وهم جميعهم داخلون في حمايته ورعايته، وكانوا قديماً في غاية الحماية والرعاية، ومن ذلك ما أخبرني به بعض العربان الأَشراف من بني حُسَين شيالة الحمل، أنَّ أصل تقريرهم في هذه الحملة، ودخولهم مع تلك الجملة، أنهم وردوا من المدينة المنورة ـ على الحالِّ بها ضريحه أفضل الصلاة والسلام ـ إلى القاهرة، واتفق أَنَّ بعضهم أذنب ذنباً فاحشاً، يستحق به العقوبة، وطلب لذلك، فتشاوروا فيما بينهم عمن يحميهم من ذلك، فرأوا أَنَّ حمايتهم من هذه الواقعة انتسابهم إلى حَمْل أمير الحاج، فتوجهوا إلى بعض الأُمراء، وأرشوا بعض جماعته على كتابتهم في ديوان الْمُهم الشريف، فلما فعل ذلك حصلت لهم الحماية عمن كان يطلبهم، وسلموا من تلك المؤاخذة، واستمرت

أمورهم على شيل الحمل بأُجرة، ولعمري فقد عكس هذا الوضع، وتلاشَت حالُ عربان الحمل جداً، وصاروا ملعبةً لِلْكُشَّاف والحكام، إلى أن صاروا كسباً لكل صادر ووارد، غير آمنين على أموالهم وأنفسهم، من غير أن يستطيع أمير الحاج الدفاع عنهم، بعد أن كان بابه للحماية والرعاية أمنع من عُقَاب الجوِّ، وهكذا شأْنُ هذه الدنيا، في تقلباتها بأَهلها.

وأما حمل الدشيشة فعربانه المقررة لهم هم السعادنة وهُتَيْم، وطائفة تدعى بأَولاد عياد، من لفيف بني عطية، فلما تولى إمرة الحاج تنم بن مغلباي في سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة وكان ناظر الدشيشة الشريفة، فسأَل عربان الحماضية وبعض طوائف من العربان الريف الذين هم من العائد، في مساعدته في حمل الدشيشة على سبيل المروءة والمخادعة لا العادة، فحملوا في ديوانه تلك السنة وبعدها، ثم صار بعض أمراء الدشيشة يسأَلهم باللطف والخداع أن يساعدوه، ويحملوا له بعد انقضاء حمل إمرة الحاج، فيجيبونه إلى ذلك، طمعاً في الأُجرة لأَنهم آمنون من المقتطع والمظالم الواقعة في ديوان إمرة الحاج، خصوصاً عرّافة القوّاسة عليهم فإنها من البلايا، فلما تلاشت أحوال هذه الإمرة وقصرت كلمة أُمراء الحاج، وتقدّمت عليهم أمراء الدشيشة، وصاروا هم المتكلمون على جميع العربان باليد والعدوان، صار مَن يعتني به (باشة) الديار المصرية من أمراء الحاج يأمر ناظر الدشيشة أن يجهز نقلة وأمير الحاج نقلةً، ويعدونه صنيعاً عليه، وعاد المتبوع تابعاً، ولله عاقبة الأُمور.

وملخص ما الحال عليه بين أمير الحاج وناظر الدشيشة الذين هم أهل الخصوص بحملها قبل تجدد ما تجدد من الدشايش وبعده ثلاث بدنات ولا يحملون مع أمير الحاج شيئاً إلا السعادنة، في حمل عقبة أيلة، وكانوا يحملون مساعدة في حمل الطور أو السويس، وانقطوا فالأُولى: عربان هتَيْم، والثانية: أولاد عَيَّاد، والثالثة: السعادنة. والمخصوص بإمرة الحاج لعريف القوّاسة وعربان بَلي وجهينة ومَن عهم، وهم نحو العشرين بدنة، ولا يحملون في الدشيشة مطلقاً إلى آخر وقت.

والقسم الثاني: عربان الطور وهم الصوالحة والقليعات، ويحملون في الجهتين من بعد سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة عربان الريف تعريف أمير العائد، ويحملون في الجهتين كذلك كما شُرِحَ.

ثم لما تولى علي (باشاه) المملكة المصرية حَسَّن له بعض أهل الفتن والعوانية أنَّ أمير الحاج لا يجهز هذا الحمل إلاَّ مُتَّجِراً، وأنه يبيعه بيعاً سابغاً، وأن هذا المجهز

إلى الأَقطار الحجازية فائدته (الكيما جودة) فشرع في عمل مراكب، وشحنها بالحمول شَدًّا وغلالاً، وأقام وكيله على ذلك القاضي رضيَّ الدين بن خضر، والمذكور له حُسْن معرفة في عمارة المراكب، وتجهيز الحمول، بعد أن كان في ابتداءِ أمره خاملاً جدًّا، فطلب عربانَ الْمِحْمَل لنقله من القاهرة إلى السويس فلم يَحْتم عليه أحد، وفعله من بعده كفعله، وتجدد قبل ذلك أيضاً بعد عمارة (التكية الخاصكية) بمكة على يد المرحوم (خوشكلدي) دشيشة تحمل إلى مكة قمحاً من شونتها لفقراءِ مكة المشرفة والمدينة المنورة، وتحركت بعض الأَكابر إلى تجهيز الحمول إلى الأَقطار الحجازية، طمعاً في كثرة المكاسب من ذلك، وحسداً لأُمراء الحاج، فتأَكد حينئذ التلاشي لحمل إمرة الحاج في نقله على جِمال العربان في زمن تجهيزه إلى السويس، فإنه تأَخر جدًّا، وفي نقله من البنادر، وفي مبيعه زمن الموسم بالحجاز، وتزايد الطلب على عربان الحمل من كل جهة كما ذكرنا، فمنهم مَن تشتت في الأَقاليم، ومنهم مَن تضعضعت حاله من كثرة السخر، ومنهم مَن تداعى للخراب، مع عدم حمايتهم من الكُشَّاف والولاة بالأَقاليم ـ كما ذكرنا والأَمر لله تعالى ـ.

والدَّرَكُ على أمير العائد فيما ينقص من الحمل، أو يتأَخر، هو ونائبه صبي الباب كما ذكرنا في القواسة، وله ولنائبه في نظير حمل الدرك والضمان مقتطع يسير على كل حمل، يستخرجه من العربان عند قبض أُجرة الحمل من الديوان بالتلطُّف من غير إكراه، ولا إجبار لأَحد من العربان على ذلك عرفاً بينهم، فعادت تلك الجباية خيانة، وصارت من أظلم المظالم على العربان، فإن أمير العائد يجمعهم في محل، ويحضر هو وجماعته من ذوي الشِّرَّه والشدة، ويجبي من كل جمل خمسة أنصاف لنفسه بالظلم والعدوان، ومَن أبى من إعطاء ذلك نكَّلَ به، وحلَّ عليه سائر الهوان، ثم تتقدّم أقاربه وجماعته يطلبون لأَنفسهم مع ما يقطعه أمير الحاج من المقتطع لنفسه وما يأْخذه (الدوادار)، وأتباع أمير الحاج فلا يبقى في يد البدوي من الأُجرة إلاَّ ما عفوا عنه إن كان.

ولأَمير العائد عند نهاية الحمل جوخة مخيوطة من جوخ العربان الخاص من ديوان أمير الحاج والله تعالى أعلم بالصواب.

ولنذكر بقية أتباع بقية هذه الإمرة فنقول:

الإمام ـ وقد قدّمنا ذكره في أول الكتاب، وعادته مفصلاً ـ وبعض الأُمراء لا يعتني بذلك لعدم احتفاله بأُمور الدين، فإذا احتاج إلى ذلك على وجه الرياء سخر أو أمر بعض مَن حضر بالصلاة به وقتاً دون وقت.

وعادة الإمام أن يكون له خيمة يستظلُّ بها وتصحبه جماعة المؤذنين، والراتب وغيره قد تقدّم ذكره.

الميقاتي والمؤذن:

والعادة القديمة نفران:

أحدهما: ميقاتي للإعلام بدخول الوقت، والماضي والباقي، واختلاف جهة القبلة في بعض المراحل والمنازل، كمناخ عقبة أَيْلَةَ، ولضبط مسير الركب وإقامته بالدار بِمَنَاكِيْبَ مُحَرَّرة مستقيمة صحيحة، ليكون المعول عليه عند كل رحيل أو نزول في معرفة الوقت.

ويشترط فيه أن يكون من ذوي المعرفة ومن أصحاب القدرة على السهر، للإحاطة بعلم ما مضى وما بقي ليلاً.

والثاني: مؤذن للأذان والإقامة في كل وقت وكل صلاة، فإن كان المؤذن فيه أهلية لما ذكرنا من المعرفة بالوقت وغيره، كفى انفراده في ذلك، كما وقع ذلك للشيخ محمد أبي شعرة الميقاتي، في غالب سفراته إلى الحجاز.

والذي كان لهما (جامكية) قديماً أربعون ديناراً عنها من الفضة أربع مئة نصف، منها خاصة الميقاتي خمسة وعشرون ديناراً، وللمؤذن خمسة عشر ديناراً قديمة، ولكل نفر هَجِيْنٌ بكوره وآلَتِهِ، ولهما هجّان وخيمة، والراتب من السنيح والمطبخ في كل يوم كغيرهما، وجرايتان من الربع إلى الربع، ولهما الإنعام والإحسان عند قراءة المولد بالحرمين الشريفين على العادة، وأما في زمننا هذا، فقد اقتصر على صاحبنا الشيخ محمد أبو شعرة الميقاتي الواعظ، فتارة تصرف له الخمسة وعشرون ديناراً، وتارة يقتصر في (جامكيته) وراتبه، ويضاف هجينه إلى جماعة النوابة، وينزل إمّا مع أحد المضافات، أو منفرداً بلا خيمة، كما رأيته في سنة ستين وتسع مئة وسمعته يطالب أمير الحاج بـ(جامكيته) بالرجعة فأجابه: أما يكفيك الذي مات تحتك من جمالنا؟! والشيخ محمد أبو شعرة المذكور تكرر سفره مع أمراء متعددة، في هذا الدرب مدة مديدة، ورأيته يضبط المراحل والمنازل بمنكابه عاماً بعد عام، ضبطتُ معه في بعض السنين فوجدته يقارب في الكتابة والضبط من غير تحرير، لأنه يشقُّ عليه السهر، فيخطىءُ في بعضها، وبالجملة فقد تكررت ممارسته لذلك أكثر من غيره، واعتادت معاركته للمراحل والمنازل في تلك المسالك ـ ختم الله لنا وله بالحسنى ـ.

الجرائحي:

قد اقتصر في السفر عليه دون الحكيم والكحال، والسعادة أن يكون بصحبة أمير الحاج كحَّالٌ وطبيب عارف، وجرائحي حاذق، ويصرف لكل منهم ما يحتاج إليه من (الجوامك) وما عساه أن يكون بصحبة كل شخص منهم من الأدوية والعقاقير والأشربة والمعاجين والمسهلات والأكحال والإشبانات والمراهم والأدهان، والمفردات والبزورات والعطريات والدرياقات والسفُوفَات لمصالح وفُد الله تعالى، يصرف لكل محتاج في وقته، ويعالج كل مريض بما يناسبه، من غير مقابل في ذلك، وجميع المصاريف و(الجوامك) بالكفاية على أمراء الحاج، وقد وُفِّرَ ذلك كله كغيره، واقتصر في غالب السنين على الجرائحي فقط، وكامل (جامكيته) من الفضة مئتان وله الجراية والراتب من المطبخ، أو من السنيح كغيره، وله شقة جمل من جِمال النفر بالسنيح مقابلاً لشقة القباني، وفي بعض الأوقات شَحَّ بعض الأمراء فصاحبه المزين، ويكتفي بمَن يسافر من الجرائحية صحبة الركب إذا كان، ويقتصرون على طلب شيء من حاصل (البيمارستان) المنصوري من الأكحال والإشبانات والسفوفات، وبعض الدرياقات بقدر الحاجة، يكون ذلك تحت يد أحد غلمانه المختصة بشرابه، له ولخاصته فقط، ومثل ذلك معدود من الإهمال والشح، الخارجَيْنِ عن سبيل الاحتفاء.

(مهتار الطشت خاناه):

من باب تسمية الشيء باسم لازمه، ولازمه هنا الطشتُ والإبريق، لغسل يد المخدوم في الغالب، ولوضوئه وغسل قماشه، فأُضيف ذلك إليه وصار علماً، مع أنَّه له خِدَمٌ متعددة أهم من ذلك، لكن إنَّما غلب عليه ذلك لتكرره في اليوم والليلة مرات.

و(خانه) في لغة الفرس اسم لكل بيت، وكأنه قيل مهتار بيت الطشت، وهو مخصوص بملابس المخدوم وتشاريفه، وخِلع العربان وقماش (الأرمغانات) وسائر الملابس المتعلقة بالإمرة الخاصة والعامة، وما عساه أن يكون من تعلقات مخدومه الخاصة به كالخيمة الشريفة، والهياكل، وما لا غنى له عنه من السلاح الذي يصحبه إذا ركب، كالسيف و(التركاس) وآلات الضَّوْء، كالفوانيس و(الشماعدين).

والمزيّن و(الجلبي) من أَتباع (الطشت خانه) وكانت في الدولة الجركسية لها شأن، وهي مقدمة في الغرض على غيرها من البيوتات، وكانت عادتهم أن يقدموا في الغرض الختمة الشريفة والهياكل، وإذا أرادوا أن يمتحنُوا كاتباً ليستقر عندهم قالوا له:

ما هو الواجب في أول غرض (الطشت خاناه) فإن قال: الختمة الشريفة استعملوه، وإلا تركوه، ونسبوه إلى عدم المعرفة.

و(لمهتار الطشت خاناه) أَتْبَاعٌ يسافرون معه، عوناً له على ما هو بصدده، وله ولمَن معه من (الجامكية) عن السفر أَربعون ديناراً عن ذلك من الفضّة العددية أَربع مئة نصف، وله العوائد بطريق المروءة على لبس القفاطين من أَربابها، وله عادة عُرْفيَّة على جوخ العربان، وكانت في القديم نصفين من الفضة، على كل جوخة، يأخذها من البدوي على عدد جَوْخِهِ، والجوخة إذ ذاك لها قيمة وقدر، ولقد أَبيعت تشاريف المرحوم جانم الحمزاوي في زمنه فكانت الجوخة تباع بمئتين من الأنصاف العددية، ولم يكن على الملوطة عادة، وأَما في زمننا هذا فصاروا يُفَصِّلون جوخ العربان من العباءَة الرومي التي هي لُبَّادٌ يُصبغ أَلواناً، وتُقَوَّم الجوخة منه بنيف وعشرين نصفاً، ولجماعة (الطشت خانه) على هذه الجوخة خمسة أَنصاف، وعلى الملوطة نصفان، وأَما الجوخ القلعي المجهز من ديوان السلطنة بأَسماء أَصحاب الأَدراك فكان قبل تاريخه يُفَصَّلُ ويقوم على كل جوخَة بتسعين نصفاً، فلما كان زمن علي باشا مصر، جعلت بستين نصفاً، ثم نقصت بعد ذلك إلى أَربعين نصفاً، ويأْخذ عليها جماعة (الطشت خانه) عشرة أَنصاف.

وليس العجب من ظلم جماعة (الطشت خانه) وإنَّما العجب من إغراء أُمراء الحاج عبيدَهم ومماليكهم على مثل ذلك مع الإهانة الفاحشة للعربان عند إعطائهم ذلك ومزيد الضرر الحاصل لهم بسببه.

والذي يحتاج إليه الآن أمير الحاج من أَصناف التشاريف فهو من القفاطين المذهبة من النوع المسمى بالشيت ومن الشطمة والبنك والمنقش بعد الاختصار عما سبق وتقدّم فعله، ستة وثلاثون قفطاناً معينة لأَربابها، معلومة بديوان إمرة الحاج، ومن الجوخ المخيوط مما كان قديماً من جنس أَبي شرابة، وأَغلا منه ما عِدَّتُهُ أَربع مئة جوخة، وفُصِّلَت في سنة أَربعين وتسع مئة ولاية الأَمير سليمان (دوادار) المرحوم سليمان باشا من أَعلى الجوخ خمس مئة وخمسون قطعة.

وهو الآن من ثلاث مئة إلى ما دونها من الجوخ العباءَة، ومن الملاليط من أَصل مئة وعشرين، سبعون ملوطة إلى ما دونها.

وكان للعربان نوع يفصل من الملحم الأَصفر، ويفرج من وراء وقدام، يسمى العجلوني، وعدته مئة وعشرون، وقد بطل ذلك.

وكان لمشايخهم من الظهور الملونة والمقاطع الأَحمرين وغير ذلك يفرق على أَعيانهم كسوة لهم ولنسائهم، حتىَ من المراكيب البدوية، وقد وُفِّرَ ذلك جميعه.

وأَما المجهز من الديوان السلطاني لعربان الأَدراك يصرف لهم بمعرفة أَمير الحاج خارجاً عن ذلك، من القفاطين الخاصة المذهبة المجهزة لأَكابر أَهل الحرمين كالشريف ومَنْ دونه وأَمير الينبع وأَمير المدينة ومَن معه من القاضي وشيخ الحرم، وعدة ذلك تسعة، فهو من الجوخ المخيوط مئة وإِحدى وثلاثون، منها أَربعة لمقدمي القواسة بخدمة السلطنة، ومن الملاليط مئة وخمسة، ومن الشاشات إِحدى عشرة شاشاً وبها أيضاً أَنواع ما يجهز لهدايا الشريف أَمير مكة، ولأَمير الينبع، وهو من الجوخ البندقي والأَثواب البعلبكية الموصلية أَو دونها، ومن السوانسي الخميسي (؟) والسلامي والتفاصيل السكندرية والظهور الفارسكورية، والفوط الوهيبة من الحرير ومن الغزل والمنايل السكندرية أَيضاً، ومن الكسيان الحرير المغششة الفَيُّومية مما اختصر من الكثير إِلى الغاية.

وكان من العوائد القديمة منفعة (لمهتار الطشت خانه) بطريق المساعدة له مع (الجامكية) معلوم الحسبة بالطرقات، وبمكة الشريفة، والمدينة المنورة والينبع، ذهاباً وإِياباً وكان (المهتار) يعطيها لشخص يختاره ويكتبها عليه بخمسين ديناراً جديدة أَو أَربعين قديمة.

وللمباشر كاتب الديوان خارجاً عن ذلك عشرة دنانير و(الدوادار) مثله، فلما ولي مصطفى كاشف الغربية هذه الإِمرة أَول ولايته بها في سنة ثمان وثلاثين وتسع مئة أَضاف ذلك إِلى نفسه، وقطع هذا المعلوم عن (الطشت خانه) فاستمرَّ ذلك لأُمراء الحاج، وتزايد معلومها في تعاقب السنين إِلى أَن بلغ ستين ديناراً ذهباً، واختصرت أَيضاً (جامكية المهتار) ومَن معه إِلى حالة المراضاة فإِن رضيتَ وإِلا فَلاَ، ثم في سنة تسع وخمسين ولاية محمود (دوادار) داود باشا وحصول تلك الشرور الحادثة بإِظهار عزل الشريف أمير مكة ـ كما سيأتي ذكره في محله ـ ووردت الأَحكام السلطانية للسيد الشريف أَبي نُمَي بِانفراده بتدبير مملكته في جميع الأُمور، ورفع يد أُمراء الحاج مطلقاً، بحيث أَنه لا حكم له بالأَقطار الحجازية، ولا ولاية على شيء من أُمورها ولا رعاياها، صارت الحسبة بمكة المشرفة من تعلقات المحتسب بمكة المشرفة كغيرها، فإِنه كان لجماعة أُمراء الحاج تَصَرُّف زمن الموسم بمكة، منها الحسبة، ومن معلوم سوق الجمال (لأمير آخور) وللمقدم على كل جمل يباع نصف واحد، ومنها قاعة القمار لمقدّم الضوئية ـ كما تقدّم ذكره ـ وغير ذلك فرُفِعَتْ يدُ الجميع ومن هذا

التاريخ انحطَّ قدر أُمراء الحاج بمكة جدًا، كما هو معلوم في زمننا، فبهذه الواسطة نقص معظم معلوم الحسبة، وصار الذي يَرِدُ من ذلك لأُمراء الحاج عن المناهل والطرقات فقط.

وبـ(الطشت خانه) المذكورة من الأَصغاف (الشماعدين) الكبار والصغار، والطشاطيف المعتبرة على اختلاف أَنواعها، وسُفر الوضوء المقصَّصة المنوَّعة، والفوانيس الكبار بأَغشيتها، والغرادات والستائر البهنسي، والبسط الأُقصري، وغير ذلك مما لا يستغْني عن مثله أَعيان الأُمراء وأَكابر الوزراء، والملابس الفاخرة المعدَّة للمواكب الجليلة، والهيئة الجميلة، وبالجملة فهي أَول البيوت المعدّة لنظام الأَكابر، ولقيام الناموس والنظام والمفاخر كالـ(بشتميخ) الأَصفر السلطاني، المكمل دوائره بمشلشلات الحرير، والمقاعد الصدر، والجناحين وكسوة الأَباريق والغلاَّيات والكرازير، وما كان مصطلحاً قديماً للأُبهة والمهابة.

وقد اختصر الآن غالب ذلك كما هو حال الزمان المشاهد المعلوم، والله الموفق.

ولبعضهم في مليح بابا:

يَا لَقَوْمِي مِنْ فَاتِنِ الطرف بابا ... حَسَنِ الْخَلْقِ لِلْقُلُوْب يُمَازِحْ
صَقَلَ الْوُدَّ بِالتَّوَاصُلِ مِنْهُ ... وَطَوَى صَدْرَهُ وَمَا دَقَّ خَارِجْ

وفي طشت دار:

أَضْنَى فُؤَادِي طَشْتُ دَارٍ لَهُ ... وَجْهٌ كَبَدْرٍ أَوْ كَشَمْسِ النَّهَارْ
وَكُلَّمَا أَسْأَلُهُ دَوْرَةً ... يَوْماً إِلى نَحْوِيَ بِالْوَصْلِ دَارْ

(مهتار الشراب خانه):

وهو المتولي لأَمر مشروب المخدوم، والمتحدث على ما يرد إِلى (الشراب خانه) وما يقدم منها من مأْكول ومشروب، وهو أَمين الحاكم على روحه من جهة طعامه وشرابه حين يناوله له، من إِدخال سُم ونحوه، والشراب معروف، و(دار) باللغة الفارسية معناه الممسك، وفي الدولة الرومية يعتمدون في ذلك على (الجاشنكير) وله موضع في الدولة الجركسية أَيضاً، ومعناه المتصدِّي لذوق المأْكول والمشروب قبل أُستاذه، خوفاً من أَن يُدَسَّ فيهما وهو مركب من اسمين فارسيين (جاشا) ومعناه الذوق و(كير) ومعناه المتعاطي، والعامة يسمون فعل ذلك

المسنسني (؟) وهذا يكون لرتبة أُمراء (الصناجق) وأما دونهم فلمنولي (الشراب خانه) أَو المطبخ وقد يكون الطعام والشراب مخصوص بـ(الشراب خانه) في الغالب وهذا البيت قديماً من أَتباعه الحكماء والأَطباء والجرائحية والكحّالون، وفيه ما يحتاج إليه من أَصناف العقاقير، والعطريات والأشربة المنوعة وغيرها كما قدّمنا ذكره، وفيه أَيضاً أَصناف المشروبات من السكر و(الأمير باريس) و(الأَقسمة) وله عرض جليل يشتمل على أَواني الفضة والصيني والنحاس الشامي والتباسي والشساني الرومي الخرط والتغالي في ذلك إلى الغاية، فللّه الأَمر في البداية والنهاية، وقد اختصر ذلك في زمننا، وصار (المهتار) علماً على شخص إما مِنْ عَبيد المخدوم، أَو من حاشيته، يضبط أَمر الماء المشروب، ويُبَرِّدُهُ لأُستاذه في أَوقات الحر، ويحمل إليه السكر من السَّنيح بقدر الحاجة بحساب، رأساً برأس، وكذلك غيره عند الاحتياج، وكان له من (الجامكية) خمسة وعشرون ديناراً صغيرة، وهي في زمننا تارة وتارة.

(مهتار الفراشخاناه) وأتباعه من الفرّاشين:

وهي من البيوتات المهمة لحالة الأَسفار، المشتملة على أنواع الخيام الخاصة والخارجية، وعادة أَمير الركب الحجازيّ أَنه يكون لخيامه من الأُبَّهَةِ والحرمة، لأَنه سائر بالوفد، مارٌّ على عربان مختلفة الأَجناس كالْعُقْبِيّ والْبَلَوِيّ والْعَطَوِيّ والْحُوَيْطِيّ وغيرهم، ومنهم المفسد والمتعرض للأذى، وجرت سالفة الأُمراءِ من زمن الجراكسة بـ(الوطاق) المكمل، والخام المجمل، فإذا جَرَى الأَمر فيه على العادة كان فيه من الهيبة، وقمع المفسد، وتخويفه ما لا يخفى، لأَنَّ حسن الخيام وكبرها يدل على ناموس مالكها، واعتباره في النفوس خصوصاً في نفوس أَهل الْبَرِّ وعربان الفلاة والجبال، فيكون الديوان والحكم للصيوان الكبير، المنقوش باطنه وظاهره، يحمله عمودانِ، وله أَربعة أَبواب وخزائنه أَربعة وعشرون غير الصلب، فيكون ستة وثلاثين خزانة، ويليه تنورةٌ منقوشة الباطن، والغالب أَن تكون صفراء الظاهر، صباغ الناخوذي، يعلوها (شلغمة) كبيرة في غاية الجلالة والجمالة، ويتصل بها زقاق كلونها مكمل الأَرماح، يتصل بآخره مؤخر كبير كلونه، مكمل الكراسي من الخشب المحور المبلد، فإن كان ثَمَّةَ بصحبته حريم فيليه حوش مكمل، بلا جوفين موصولين به ومؤخرين وإلاَّ فلا.

ثم خيمة (الخازندار) بالقرب من التنورة وخيمة الكاتب و(الشراب خاناه) من الجانب اليمين، وخيمة (الطشت خانه) بالقرب من (الخازندار) وخيمة (الدوادار) تجاه الخيل، وأَرباب المناصب كل بالقرب مما يتكلم عليه، وخيام الحلقة بجماعة العسكر

المنصور، وبقية الحاشية من القبب الاثني عشريَّات، وأكبر منها يميناً ويساراً، وأقل ما ضبط لكفاية مَن ذكرنا ست وثلاثون قبة، ومرادنا بالعسكر ركاب الهجن، وإلا فالنفر ليس لهم عليه خيام.

ثم الإشارة المناهلية:

وهي التي تنصب في المناهل خاصة، المشتملة على أكثر من ألف قنديل، بصناعات عجيبة وساع (؟) وعادتها ببركة الحاج قبل الإحراقة بليلة، وبجبل عرفات، وبمنى المعظم، ليلة الرحيل إلى مكة، تعمل مع الإحراقات التي بمنى، وهذه الإشارة مع الإحراقة مما صار أُمراءُ الركب يصرفون إليهما وجه العناية، فيجهزون للإشارة قناديل من البحر بكثرة وأول مَن جهز ذلك المرحوم الأمير حسين كاشف الفيوم والبهنساوية، في سنة ثلاث وخمسين، فإنه جهز نحو ألفي قنديل ونيف، واستمر ذلك إلى الآن، لكن ينقص عدد القناديل تارة ويزيد أُخرى.

وأمَّا الإحراقات فهي أربع: أولها: ليلة الرحيل من بركة الحاج، وهي حسنة كثيرة العدد، لأجل اجتماع المودعين بالْبركَة، والثانية: بعرفات، وهي لطيفة مستجدة الإنشاء من نيف وخمسين وتسع مئة، والثالثة: ليلة الرحيل من مِنَى المعظم، وهي الكبرى لاجتماع الرُّكوب بها، والشاميُّ واليماني، وأهل الحجاز وغيرهم، مما تجمعه مِنَى في الموسم، والرابعة: ليلة الرحيل من عقبة أيلة وهي لَطيفة، وأدركت في سنة ست وعشرين ـ خامسة عُملَت بالينبع عند الرحيل منها في ولاية جانم من دولات باي، وهي كانت الرابعة في ذلك الزمن، وقد تجدّد بدلها إحراقة في ولاية المرحوم مصطفى باشا، وتبعه في ذلك الأمير محمود تابع داود باشا، وسيأتي ذكر الإحراقات بالبسط من ذلك.

والذي رأيناه في هذا الزمن، ومشت عليه العادة المستمرة أنَّ الإشارة الكبْرَى المناهلية من ملازم (المهتار) المخصوصة به، من الخشب والحبال والآلات، وأما القناديل فهي من ديوان أمير الحاج بحراً وبرًا، وعادة المجهز من البر صحبة (المهتار) خمس مئة قنديل، منها من المساحير مئة وخمسون، والباقون عادة، وأما الإشارة للرحيل والنزول فمصروفها على أمير الحاج، وفي بعض المنازل يتفق فعل ثلاث أشاير في ليلة واحدة، وهي الليلة التي يبيت فيها بداري البقر فإن دخولها عشية، فيكون لها إشارة، وفي صبيحتها يكون الركب قبل الفجر بالينبع، فتحتاج إلى إشارة بها، والإشارة الثالثة: بجبل الزينة لنزول أمير الحاج وجماعته هناك للزينة.

واعلم أَنَّ الأَشاير الكبار وإن كان فيها نوع من الاحتفال والشهرة فهي معدودة شرعاً من الإِسراف، ولذلك نظائر بدرب الحجاز الشريف وبالحجاز، منها وقود الشمع المتزايد المقدار بمعشاة واسط، وهي الليلة التي صبيحتها يكون الوصول إِلى منزلة بَدْرٍ وحُنَيْنٍ، وفي ليالي المولد بالحرمين الشريفين، زمن الموسم لأُمراء الحاج، وبعرفات المعظم.

وأَما عددها ووضعها فعادتها المستمرة، وقاعدتها المستقرة، سبعة من القناديل كخاتم سليمان وضعاً، وهذه هي المتداولة، وليس لأَحد في الركب فعل مثل ذلك مطلقاً، سوى أَمير الحاج فقط، بل دونها إِلاً أَن يكون من ذوي المراتب العالية على أَمير الحاج، فيزيد عليها ما يختار، وجعلها المرحوم يوسف الحمزاوي تسعة قناديل صفًّا واحداً في سنة إِحدى وأَربعين وتسع مئة، ولما ولي الأَمير محمود تابع المرحوم داود باشا في سنة سبع وخمسين وتسع مئة جعلها ستَّ عشرة قنديلاً، وكان السبب في ذلك أَن ناظر السَّحَابَةِ حَجَّ في تلك السنة وكان مُعَظِّماً لنفسه، معجباً، فجعل إِشارته سبعة من القناديل كأُمراء الحاج وليس ذلك له ـ كما ذكرنا ـ والعادة في إِشارة السحابة أَن تكون قنديلين، فكان ذلك سبباً للانتقام منه لمَّا عاد إِلى القاهرة، بشكواه إِلى الباش فَفَتَّش عليه وعزله.

وأَما عدد أَشاير العسكر النفر ـ وعلى أَمير الحاج تفرقة الزيت الطيب لوقود أَشايرهم ذهاباً وإِياباً ـ وهي إِشارة جماعة الكمليين وعدتها ستة، وإِشارة جماعة (التفكجين) وعدتها خمسة، وإِشارة جماعة العرب وعدتها ثلاثة، وإِشارة جماعة (الحصاريين) وعدتها أَربعة.

وإِشار المحمل أَيضاً تابعة لأَمير الحاج، وهي قنديل واحد.

وفي رؤية الإِشارة عند دخول الدار راحة للفقير والعيَّان، لأَنها علَمٌ على دخول الدار، مؤذنة بالراحة من مشقة الأَسفار، يرقبها المتغرب والعيَّان من أَمد بعيد، ويفرح برؤيتها الظمآن إذا كان موردا على ماء حميد، وتسَر بمشاهدتها القلوب والنفوس، ويرتاح لمعاينتها أَهل الركب لقربهم من الراحة وإِزالة البؤس، ويشاركها في ذلك مُبَشِّرُ الدار، إِذا كانَ الورود إِليها في أَوقات النَّهار، وأَما إِذا كان الدخول ليلاً فالإِشارة تسبق رؤيتها الْمُبَشِّرَ غَالباً، خصوصاً إِذا كانتْ على نَشَزٍ من الأَرض، ولصاحبنا الشيخ العلامة أَبي بكر بن سالم القناوي المكي الشافعي لما كان بصحبتنا في بعض الأَسفار المكيَّة في الإِشارة مضمناً لهذا المعنى شعر:

لَـمَّا وَصَلْنَا إِلَى الدَّارِ التي نَزَحَتْ وَقَدْ سَئِمْنَا مِنَ التَّرحَالِ فِي الظُّلَمِ
وَأَخْبَرَتْنَا إِشَارَاتٌ مُحَقَّقَةٌ أَنَّ الْمَطَايَا أَلَمَّتْنَا عَلَى الْخِيَمِ
نَادَى الْبَشِيْرُ عَبَرْتُ الدَّارَ، وهو بِهَا (وَفِي ٱلإِشَارَاتِ مَا يُغْني عَنِ الْكَلِمِ)

ولصاحبنا العلامة الشيخ بدر الدين الغُسَيليّ الشافعيّ:

قَالُوا: اسْتَمِعْ لِبَشِيْرِ الدَّارِ مُصْطَرِخاً عِنْدَ ٱلإِشَارَاتِ يُبْدِي أَحْسَنَ النَّغَمِ
فَقُلْتُ: مَا لي وَهَذَا الصَّوْتُ أَسْمَعُهُ (وَفِي ٱلإِشَارَاتِ مَا يُغْنِي عَنِ الْكَلِمِ)

وللفراشين عن (جامكية) السفر مبلغ قدرهُ مئة وعشرون ديناراً قديمة، وهو عادتهم قديماً، وأما في زمننا فصَار من خمسة وعشرين من الذهب وما دونها بيسير، وللمهتار عليق بَغلتِهِ في المرتب، ولهم الإكرامات والإحسان في المناهل بحسب المروءة، وعلى كل حال فإنهم مُعَمِّرُو الدور بالطرقات في أسرع وقت ومخربوها في أقربه، والمتحملون للمشاقّ في ضيق العيش وأطيبه، والسائرون أمام الركب مع الدُّلَلاَءِ لإقامة هذا النظام، والسابقون بأشايرهم وخيامهم إلى أخذ المنازل بعزم وحسن اهتمام، والصابرون في البأساء والضَّرَّاء وحين البأس على تغيُّر الأنام، ومشقَّة الأيَّام، ولبعضهم في فَرَّاش:

فتِنْتُ بِحُسْنِ فَرَّاشٍ بَدِيْعٍ بِهِ قَدْ هِمْتُ مِنْ فَرْطِ الْمَحَبَّهْ
كَأَنَّ الرِّدْفَ وَالسَّاقَيْنِ مِنْهُ إِذَا مَا مَاسَ أَعْمِدَةٌ وَقُبَّهْ

غيره:

وَرُبَّ فَرَّاشٍ لَهُ وَجْنَةٌ تَفُوقُ لَوْنَ الْوَرْدِ بِالْحُمْرَهْ
مُنْبَسِطِ النَّفْسِ سَخِيٌّ إِذَا حَيَّا مُحِبًّا قَدَّمَ السُّفْرَهْ

الطباخون:

ولهم كبيرٌ ينعت بالْمُعَلِّم فلان، يرجعون إليه في جميع أحوالهم، وهم شركاء الفراشين فيما ذكرنا من تحمُّل المشاق، ويزيدون عليهم في رداءة الثياب، ودماثة الأخلاق، يسيرون بحالهم وأحمالهم مع النَّفير، ويقتنعون بما يختلسونه من تفرقة الطبالي بالوطاق ولو كان تافهاً يَسِيْراً، دأبهم الجري والإفلاس، وإذا قصد أهل الركب الراحة كانوا في جمع الطبالي وتفرقتها على الناس، فَهُم أكثر أهل الركب تعباً، وأقلهم من الدنيا أرباً، ولهم (الجامكية) كالفراشين والجراية في الأرباع، على عدد الرجال من قصَّاب وطبَّاخ وأتباع، ولهم من العلائق لبهائمهم ثلاث علائق بحكم

الاختصار عما كان، عادة لكبيرهم ولجماعته أصحاب الحمير من قديم الزمان، لأَن جمال أمير الحاج لا تكفيهم للركوب عليها.

وأَما ما يحتاج إليه مطبخ أمير الحاج:

فهو من الزخامي الكبير اثنان، ومن الحلل الوساطة ثلاثة، ومن القوالب والطناجير وغيرها من عشرة إلى دونها، ومن الحصون النحاس العساليات الخرجيات مئة وعشرون صحناً، ومن الفقس النحاس ستون، ومن الصحون الخاصة لسماط أمير الحاج بحسب ما يراه، وأقلها عشرون.

ومن احتياج المطبخ زوجان من الصناديق الخشب الكبار، ذوات الأَرجل والجلد، ومن الطبالي الخشب للتفرقة عشرون ودونها، ومنَ الأَسياخ الحديد الكبار والصغار والمساحي والمسارح والمناصب الجديد فبِحسب الكفاية، ولهم الستائر والصَناديق والمغارز والكراويك، ولقد وُفِّر غالبُ ذلك في سنة ستين وتسع مئة، وتقدّم أمر المرحوم مصطفى باشا مملكة اليمن وأمير الحاج في تلك السنة لعامَّة العسكر ومَن معهم أنهم لا يتوجهون إلى السفر إلا ومعهم من الحصون والقصاع ما يتناولون به مأْكولاتهم من السَّنيح والمطبخ على أيدي غلمانهم وأتباعهم وهجانتهم، ولا ينتظرون غلمان المطبخ لتنقل الأَطعمة إليهم في الأَصحن والفقس، كما كانت العوائد السابقة، وفعل ذلك فكان من أعظم المشقات على طائفة العسكر، ومن فواحش التغيير، فإنه لا يخفى ما في النظام المضادُّ من الحرمة للعسكر، والجلالة لأَمير الحاج، وقيام الناموس، واعتماد نظام هذا المهم الشريف، والراحة لغلمانهم والهجانة والأَتباع، عند نزول الدار، وتفرغهم لخدمة مواليهم، واستمر ذلك في آخر أيامه، إلى أن توجه إلى المملكة اليمانية من مكة المشرفة وعاد بالركب (دواداره) مراد، وأمر (الصنجق) مراد أيضاً فَأُعدَّتِ الصحون والطبالي والطباخين من منزلة وادي مَرّ الظَّهْرَان إلى تمام السفر، واستمرت العادة القديمة جارية على نظامها ولبعضهم في طبَّاخ:

فَضَحَ الْوَجْدُ بِطَبَّاخٍ بِهِ	أُضْرِمَتْ نَارُ غَرَامِي يَا أُخَيّ
وَغَدَتْ نَفْسِيْ بِهِ مَغْمُومَةً	مُذْ قَلاَنِي فِي الْهَوى مِنْ غَيْرِ شَيّ

(الزردكاش):

وينعت في اللغة التركية بـ(جبجي باشاه) وهو الْقَيِّم على مُهمَّات السلاح، وما يحتاج إليه من آلات الحرب كلبوس الخيول والزرد والخوْذ، والمرافق والجواشن

والعينات والألَباب الحربيات المكملة بالقطارات والنّواقيس، وأَقل ما يصحب أمير الحاج للسفر من لبوس الخيل عشرون لبساً وفي الغالب أكثر من ذلك، ومن غيرها بحسب رأي الحاكم وعزمه.

ومن تعلقات (الزردخاناه) البيارق وسبب (الصناجق) وأكياسها و(الدولك) والقسي والنشاب والأَوتار والبارود والتفك والفندق الرصاص. وقد رتبت السلطنة الشريفة من ابتداء سنة سبع وعشرين وتسع مئة تجهيز (زردخانه) سلطانية صحبة (عرباجي) و(جبجي) يحملها ستة جِمال، بأُجرة سلطانية، بها من البارود وأحجار المدافع والفندق والرصاص والتفك والقسيّ والنُّشّاب والأَوتار وغيرها، وجعلوا أجرة عكّام لهذه (الزردخاناه) على أمير الحاج من الفضة الجديدة مئتي نصف مستمرة الصرف إلى تاريخه وجهزوا أيضاً ستًا من العربات، ومعها لحملها في المواكب وأَوقات الحاجات اثني عشر كَدِيْشاً من الخيل، وثمانية عشر جملاً لحملها بالطرقات ذهاباً وإِياباً صحبة، (عرباجية) للرمي بها وإِصلاحها أَو بعضها إِذا فسدت احتياطاً لدفع صائل، أو خوف أمر هائل.

واعتناء بأَمر هذا المهم الشريف، وحسن القيام بمصالحه على أَتم قانون، وأَبدع نظام، ليكون الوفد في دَعَة وافرة الأَقسام، ولـ(لزردكاش) من (الجامكية) له ولصيقل بخدمته ثلاثون ديناراً صغيرة، عنها من الفضة الكبار ثلاث مئة نصف [وعلى أمير الحاج ـ بطريق العادة لا الواجب ـ (جامكية) عكام (الزردخاناه) المجهزة من القلعة المنصورة، وقدر ذلك من الفضة الجديدة مئتان].

النفطي:

وهو البارودي من أتباع (الجبجي) وإِن كان معلماً برأسه، صناعته عمل الإِحراقات من القلاع والصواريخ والطيارات الكبار، ذوات الأَزماح، والفتاتيش الحربيات، وعقوب الضَّوء، والشمع المطيب الذي لا يطفئه الهواء الشديد، وغير ذلك.

والذي أدركناه في عدة الإِحراقات أربع:

أولها ببركة الحاج: وهي مما يُعْتَنَى بها في زيادة القطع لاجتماع الناس، فتكون مشكورة.

والثانية: وهي دونها بالينبع في حالة الرجعة، وقد بطلت.

والثالثة: وهي الكُبرى، ومحلها ليلة الرحيل من مِنَى إِلى مكة المشرفة.

والرابعة: وهي باقية إلى يومنا هذا في ليلة الرحيل من عقبة أَيْلَةَ بالرجعة. واستجدَّ المرحوم مصطفى باشا مملكة اليمن ـ وتبعه في ذلك الأمير محمود تابع داود باشا ـ عمل إحراقة وسطانية بعرفات المعظم، وعلَّلها بأن الموقف الشريف يجمع سائر الركوب، من أَقطار الأرض، وأمراء المحامل، ورأى ما توقد الناس في تلك الليلة من الشموع الكثيرة، والأَشاير الكبيرة. فأَحبَّ إضافةَ إحراقة إلى ذلك، لأنَّها من جنس إشعال النيران ويجعلون بعد ذلك ومعه إطلاق البنادق الكثيرة، ويَتَعَايَى في ذلك أمير المحمل المصري والشامي، ويكثرون من أحجار المدافع في ذلك المحل السَّامي، ثم استَجدَّ بعد ذلك عثمان بن أزدمر باشا إحراقة بواسطة مختصرة، ومعها من أحجار المدافع والتفك ما يناسبها، كل ذلك تَشَبُّهاً بالمجوس بكثرة النِّيران ووقود الشموع في تلك المحال الشريفة، لو أنهم أكثروا الخشوع والخضوع، وبدأ منهم في ذلك المحل الشريف تسكاب الدموع، لكان خيراً لهم لو كانوا يعملون، ولكن ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ١٩].

وقال الإمام النَّوَويُّ في «مناسكه» رحمه الله تعالى: ومن البدع القبيحة ما اعتاده العوام في هذه الأزمان من إيقاد الشمع بجبلِ عرفة ليلة التاسع، وهذه ضلالة فاسدة، جمعوا فيها أنواعاً من القبيح، منها: إضاعة المال في غير وجه، ومنها: إظهار شعائر المجوس في النار، ومنها: اختلاط النساء بالرجال والشموع بينهم، ووجوههم بارزة، ومنها: تقديم دخول عرفات قبل وقْتِه المشروع، ويجب على وَليِّ الأمر وكل مَن يتمكن من إزالة هذه البدع إنكارها وإزالتها ـ وبالله المستعان ـ انتهى كلامه[١].

وأما تفصيل مجموع هذه الإحراقات فهي من الطيارات الكبار التي تُشد بالأَرماح أربعة أطوال، عدتها خمسون، محبرات ستون، ومن التفاصيل الشامي مئة ومن التفاصيل العراقي تسعون، ومن تفاصيل الحمصي مئتان، ومن الفتاتيش الحربيات ألفان إلى خمس مئة، ومن الصواريخ بِقَدرِ الكفاية، ومن الشجر النحَّاس مَلْءُ (؟) وتفريغ، ومن المراير والشرابيات بقدر الكفاية، وكذلك من القلاع.

وأَكبر إحراقة عُمِلتْ في ديوان أمراء الحاج ما عمله شمس الدين (جبجي) السلطان بقلعة مصر المحروسة للأمير سليمان (كتخداي) سليمان باشا، عند ولايته لهذه الإمرة في سنة أربعين وتسع مئة، وقدر المصروف عليها من الفضة ألفان، وأمَّا

---

(١) انظر: شرح الإيضاح [ص٣٣٣].

المتداول بدواوين أمراء الحاج فالمقاطعة على ذلك من النقد من ست مئة نصف إلى خمس مئة، واختصرها مصطفى باشا إلى أربع مئة ودونها.

وله من البارود غير المبلغ قنطاران، أحدهما: من ديوان القلعة المنصورة، عادة جارية لا تنقطع، نصفه أبيض، ونصفه أسود، والثاني: من ديوان إمرة الحاج، وبعض الأُمراءِ من أهل الشُّحِّ بَخُلَ بالقنطار الثاني أو بعضه ويجعله مبلغاً تافهاً بطريق المصالحة.

وأما (جامكية) النفطي وأتباعه فكجامكية (الزردكاش) وأتباعه، ولهم ما يركبون من جمال الشعارة، والجرايات في الأَرباع، ولهم الإحسان بالجوخة المخيوطة وغيرها، بحسب المروءة والهمة، وبعضهم لا يعطي (الجامكية) إلاَّ على طريق المصالحة بقدر يقصر عما ذكرناه.

(مهتار الركاب خاناه):

وأتباعه من الغلمان و(الرختوان) والسواس فالمهتار، وهو رأس الجماعة ينقادون له فيما يفعل، وهو المتسلم للحاصل، وما فيه من السروج وآلاتها وما يُحتاج إليه للخيول، أما الخاصُّ فبحسب همة أمير الحاج ومنزلته، وأما ما جرتْ به العادة لِمُهِمِّ الإِمرة فكانت العادة من السروج الخرجيات السختيان أربعين سَرْجاً، وهي على حالها إلاَّ في بعض السنين فتنقص خمسة وآلات السروج المذكورة هي الأَقواسُ والألباب والزخمات، والركابات، واللجم الحديد، والدوالات، والحنكلتات، والأَرماوات، وما يتبع ذلك من الْعِبِيِّ والأَجْلال، والأَسْطَال النحاس، ورؤُوس المقاود والمجرّات والطوائل، والشكل والشبح، وغاشية التختان من الحرير الأَصفر، المكمل بالدائر القرمزي؟ ومقاعد الرخت من الجوخ الأَصفر السلطاني، بأَربعة من الرنوك الأَحمر في كل زاوية.

وكانت العادة القديمة أنْ يكون أول الخيول الملبسة في حاصل (الركاب خاناه) ثلاثة من لبوس الخيل، مكملة الرقاب والوجوه والذيول، أحدها: أبيض من القماش البعلبكي ويسمى بالإحرام، والثاني: سود منقوش بالبياض وينعت بالخليفتي، والثالث: من الحرير الأَصفر السلطاني بدائر من القرمزي، وينعت بالزناري، وكان مثل ذلك في قماش الهجن، وآلاته مكان الإِحرام من الحرير الأَبيض الساطع البياض، نوبة عنها من الأَكوار ثلاثة، وجميع ما بها من الشباك والسوايل والكنابيش، والقلائد والمجرات، والمخاطم وآلات ذلك من الحرير الأَبيض، وكان الخليفتي من النسيج الحرير الأَسود السادج بجميع آلاته، والنوبة الثالثة من الأَصفر السلطاني بجميع

الآلات، وقد بطل ذلك، وأخلُّوا بهذا الترتيب، وأما (طُلْب الركاب خاناه) برفع الطاءِ وسكون اللام فلترتيبه وآلاته مؤلف مجلد، رأيته مع (المهاترة) القدماء الهجرة، الذين انقرضوا، يشتمل على أشياء يطول الكلام في شرحها، وقد اقْتُصِرَ الآن في الطُّلْب يوم خروج الركب، ومروره بالميدان على كثرة الخيول الملبسة بأنواع اللبوس الشهيرة، والسروج المحلاة، والشهرة بالسيوف الكبيرة، والخُوَذ والقِسِي والرايات على رؤوس الرماح بظهور الخيل، وكذلك مَن يركب مع أمير الحاج من مماليكه، ومن عسكر (الباشا) يكون باللبس الكامل في الغالب، وما كان يصنع قديماً من أحمال (الطشت خاناه)، و(الشراب خاناه)، والبياطرة وغير ذلك فقد بطل، وفي بعض السنين يعمل جمل البيطار باختصار والله أعلم.

وأما الخيول فيجهز صحبة أمير الحاج من الإسطبل السلطاني عشرون حَجْرة، وفي الغالب يكون من ديوان أمير الحاج مثلها وأكثر، ومن البغال لركوبه اثنان وأكثر من ذلك، والمجهز من ديوان القلعة صحبة الخيول ما تحتاج إليه من الأَجْلاَل والمقاود والشكل والشبح وغيره صحبة سُوَّاسِها، ومن النعالات الحديد مئة وخمسون تطبيقة، يتسلمها البيطار وعليه التكفية.

وأما (جامكية) الغلمان فللمهتار عن السفر مئة وخمسون نصفاً، وللرختوان مثله، ولجماعة السواس وعدتهم أربعة أنفار أو ثلاثة لكل نفر خمسة وسبعون نصفاً، ولغلام الركاب ـ ويسمى (الركاب دار) في عرفهم ـ تسعون نصفاً وبعض الأمراء يَشِح بهذا المقدار، ويصرف بحسب ما يختار، ولبعضهم في سائسٍ:

وَسَائِسٍ هَامَ قَلْبِي بِحُسْنِهِ وَالْكِيَاسَه
بِالشَّزْرِ مَا نِلْتُ شَيْئاً مِنْهُ وَلاَ بِالسِّيَاسَهْ

البيطار:

وهو عبارة عن طبيب الدواب، يشترط فيه أن يكون عارفاً بأمراض الدواب وأحوالها، خبيراً بمعالجتها، وله من (الجامكية) بمن يساعد من أتباعه ثلاثون ديناراً صغيرة، عنها من الفضة العددية ثلاث مئة نصف، وهو يتسلّم النعالاتِ الجارية عادتها من الديوان السلطاني، وعليه الكفاية، وله جملان من الشعارة، لِحمل أسبابه والجرايات له ولأتباعه، وعليقة واحدة لبهيمته وللصَّلاَح الصفدِيّ:

يَا حُسْنَ بَيْطَارٍ أَقُولُ لَهُ وَقَدْ أَصْبَحْتُ فِيْ بَحْرِ الدُّمُوْعِ غَرِيْقَا
لَو أَنَّ قَلْبِيْ مِنْ حَدِيْدٍ لَمْ يَكُنْ فِيْ مِثْلِ حُبِّكَ يَحْمِلُ التَّطْرِيْقَا

الشعراء:

وهما نفران من أتباع مقدم الهجانة، عادتهما أن يكونا مع الأَطلاب أول الهجن الخاصة، وبقية الأَيام يسيرون مع أمير الركب ذهاباً وإِياباً، بربابهم وراءه، إنْ كان ممن يختار سماعهم.

وكان لهم من (الجامكية) أربعون ديناراً، عنها من الفضة أربع مئة نصف، وهي الآن بحسب المراضاة والموافقة.

جماعة الطبول خاناه:

والذي كان الحال عليه في الدولة الجركسية مع كوسات المحمل هم المصريون، وكانوا يركبون مع العلم السلطاني، وهم خمسة أنفار غير هجّانتهم، طبلان وزمران ومنقر، واستمر ذلك في صدر من الدولة المظفرية إلى أن ولي المقر المرحوم الأَمير سنان يوسف الحمزاوي في سنة سبع وثلاثين، فاستجد بـ(الطبلخاناه) الرومية وجعلها مع العلم السلطاني، وقدّم المصرية مع الخيول والطلب... وعدة أنفارهم الروسية ثمانية وهم طبلان وزمران ومنقران ونقرازانان، وكبيرهم ينعت بأَمير علم، ولهم لخدمة جمالهم هجانان لتمام عشرة أنفار، فإِن كان الأَمير صاحب لواء كانوا جماعته، وإِلا فيكونون من (الحصار) السلطاني، ولهم عادة غير الإِحسان والإِنعام ذهاباً وإِياباً، عن ثمن الرقمات وإِصلاح البوقات من الذهب البندقي أربعة وليس لهم على أمير الحاج (جامكية) بل على السلطنة إلاّ أن يكونوا من مماليكه.

وأما المصريون وكان لهم من الفضة أربع مئة نصف، وهي الآن تارة وتارة.

وأما كوسات المحمل، والخليلية المستمرة من زمان دولة الجراكسة وهم سبعة أنفار، ومركبهم من جملة جمال المحمل بالأُجرة السلطانية - كما قدّمنا ذكره - وجوامكهم من وقف الكسوة الشريفة، من جملة ما يحمل إلى أمير الحاج من ناظر الكسوة عن ثمن المسك والماورد للكعبة المعظمة، ولجوامك غلمان المحمل وهم هؤلاء، ولهم ستة وخمسون نصفاً لكل نفر ثمانية أنصاف، ولِضوئِيِّ المحمل والساقة والدليل عن عدة أربع مشاعل لكل مشغل دينار، ولشادّ المحمل دينار، ولفراش الشتل خمسون نصفاً، ولـ(لمحفدار) مئتان، وباقي المبلغ وقدره أَصْلاً ألف نصف وخمسون نصفاً يصرف في ثمن قنطار من الماورد الشامي، مع جلاس من النحاس، يوضع فيه، ويختم عليه بالرصاص، وفي ثمن خمس مثاقيل من المسك التركي، وفي ثمن حمل

من (الحوائج خاناه) لثوب المحمل وفي ثمن ثوب أصفر من الملحم يكون كسوة المحمل بالطريق، وفي ثمن شقْدفٍ من الخشب لحمل الماورد.

ولطبَّال المحمل الجرايات في كل رُبْع، ذهاباً وإياباً، بعددهم مع مزيد محبتهم للشحاذة والطلب من عامة الحجاج، وذلك دأبهم وكسبهم على الدوام، ولعل ـ والله أعلم ـ إنما قصد المتقدمون بتقريرهم مع المحمل حرمة وقياماً لناموسه، وإرهاباً للمفسدين، كما هو دأبهم في تعمُّد الخلال الحميدة، والأفعال السديدة، والانتظام، لا كقصد بعض حكام زماننا الذين يريدون أن يُطْفِئُوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يُتم نوره، ويريد لهذا الركن الطاهر ظهوره، والله أعلم. ولبعضهم في مليح زامر:

وَزَامِرٍ يَبْعَثُ مِنْ زَمْرِهِ ... إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ أَفْرَاحَا

كَأَنَّ إِسْرَافِيلَ فِي نَايِهِ ... يَبْعَثُ لِلأَجْسَادِ أَرواحَا

المخبزي:

وهو الخَبَّازُ بطريق الحجاز الشريف، ذهاباً وإياباً، والعادة والقاعدة أنَّ الْخُبْزَ يُعمل لجماعة العسكر والبيوتات، عوضاً عن (البقسماط) في المناهل، التي هي محل المياه، ويكون بها أيضاً تفرقة الطعام من المطبخ، بدل المفرق من السَّنِيح، وأما في غير المياه والمناهل، فالمعروف من السَّنِيح عوض الطعام، ومن (البقسماط) عوضاً عن الخبز، هذا هو العادة والقاعدة، والذين يستحقون ذلك هم العسكر، الذين يركبون على الهِجْن، وأتباع أمير الحاج من قاضي المحمل وشهوده، و(دوادار) أمير الحاج و(خازنداره) ومماليكه، وكاتب الحاج ورفقته، وأكابر المقدمين بخدمته، والقبَّاني والدُّلَّاء، ولهم مرتب يومي مضبوط مُحَرَّر، ففي المناهل والمياه لكل خيمة من العسكر، وتجمع من الأنفار تسعة، طَبْلِيَّةٌ في المغدة، تحوي من الْخبز ثماني عشرة رغيفاً، لكل نفر رغيفان، ومن الطعام نقستان من أيِّ طعام، مما يناسب السفر، وإن كان أمير الركب من الأكابر وذوي المروءة التامة فأطعمته مُنَوَّعَةٌ فبحسب ما تُؤَدِّي إليه همته لكل خيمة، والذي ذكرناه هو العادة والقانون، وأما من السنيح فلكل نفر من الوجبة الواحدة رطل من (البقسماط)، ولتسعة أنفار تحوي الخيمة المذكورة، أما في المغدة فصحن من العسل فيه رطلان، وصحن من الجبن فيه رطل ونصف رطل، وصحن من المُخَلَّل بقدر الكفاية، وأما في المعشَّة فلا يفرق المخلل أصلاً، ويكون بدله صحن من العسل لتمام ثلاثة أصحن بالجبن، هذا هو المعتاد، وأمَّا جميع الغلمان وأرباب بعض البيوتات غير الخواص فليس لهم إلاَّ الجراية من (البقسماط)

لكل نفر من الرُّبْع إلى الرُّبع، حساباً عن كل يوم رطلان، ومن الجبن في الربع لكل نفر رطل، ومثله من البصل، ولهم طعام خاص بهم، في المناهل من الكُشْكِ والباسلاًء وغيرهما يفرق عليهم بالمطبخ، يَرَوْن به مساعدة على ما هم بصدده من مشاق السفر وأتعابه في الجملة، وللأعيان من الغلمان في بعض الأوقات الإحسان إليهم من السنيح، إما بالعسل أو بالجبن أو بالمخلل، من باب المعروف وحسن الثناء، وأما مُعَدَّل الخبز في الغالب فاعلم أن الْبَطَّة من الدقيق زنتها خمسون رطلاً، ويقدر عليها من الماء حالة العَجز عشرة أرطال، فتصير ستين رطلاً، يكون عنها من الخبز القرصة الخمير مئة وعشرون رَغيفاً، الرغيف نيئاً نصف رطل وبعد الاستواء خمسة أواق ونصف أُوقية، وهذا لا حَيْفَ فيه، ولا شَطَطَ، وبعضهم يقدر الماء عشرينَ رطلاً فيكون عدد الخبز على هذا التقدير مئة وأربعين رغيفاً وفيه إجحاف بالمخبزي، ومَن قَدَّرَ زائداً عن ذلك فقد تَعَدَّى في الشطط ولبعضهم:

رَغِيْفُ ذَا الْخَبَّازِ لُطْفاً حَكَى مِنْ وَجْهِهِ التَّدْوِيْرَ والْحُمْرَهْ
إِذَا رَأَى مِيْزَانَهُ الْمُشْتَرِي قَالَ: هناك الْمِيْزَانُ والزُّهْرَهْ

و(جامكيتُه) ومَن يستعين به ثلاثون ديناراً عنها من الفضة ثلاث مئة نصف، وله من الاحتياج على الديوان حِمْل من (الحوائج خاناه) وحِمْل من المواهي الخوص المطبق، وثلاث من العلب الخشب، وطَسْتَان من النُّحاس للعجن، وما يحتاج إليه من طِيْب الكعك كالمُصْطكى والمحلب، والحبة السوداء وغيره، ولُبَّادَانِ أسودان، يقيان العجين من الرمل والغبار، إن كان الوقت شتاءً أو صيفاً.

الكيالون والسمسار في الغلال:

وهو رجل يُدَوْلِبُ لغلال إمرة الحاج والشَّوْنَة، والكيالون من باطنه، ويشترط فيه أن يكون عارفاً خبيراً بصناعته، مميزاً لطيِّب الغلال من خبيثه، عارفاً بما يناسب الجرش ببنادر الحجاز من الفول الصحيح، ومن خِدْمته إحضار التراسين لنقل الغلال وجمعهم، والمغربلين لغربلته، والجرّاشين لجرشه، والقيام على ذلك جميعه، وعليه دَرَك تحرير الكيلات وعيارها، والخروج من عهدة ذلك على وجه الحق، ويلزمه عجز الحاصل ونقصه، إذا كان القبض والصرف من جانبه، وبكيالته سفراً وحضراً، والعُهْدة عليه.

واعلم أنَّ لأَهل هذا السبب دسائسَ خفيَّة، يعرفها الحاذقُ منهم، في أصل عمل الكيلات وفي عيارها، فقد تكون إِحداهما أكبر من الأُخرى بيسير، ففيها الفرط إذا

تسلّم بها مبيعاً للبيع على يده، وكذلك في العيار، ولهم مصطلح في القبض والصرف، وفي التسليم من الحاصل، وفي البيع خارجاً منه، وفي مصارفة الفضة بالذهب، إذا كان المبيع على يده، ويتفاوت ذلك ببنادر الحجاز، وبالجملة فصناعتهم مداخلها خفيَّةٌ إلاَّ مَنْ تفطّن لها.

وله ولكيالته من (الجامكية) للسفر خمسة وعشرون ديناراً، عنها من الفضة مئتان وخمسون نصفاً، وفي الغالب يسامح بها، وربما خدم معها بمبلغ له صورة، وفي بعض الأحيان أو بغلال يحضرها للحاكم، وله ستُّ جرايات بالأرباع، وعَليقتان من الفول، والافتقادة من السَّنيح بالجبن أو العسل والمخلل ومن المطبخ.

نَجّار السنيح:

وعادته أن يسافر فيه لترميم ما عساه أن يصطلم مع العقوب، أو ينكسر في المضايق، والحالة هذه، وتسمير ما يجب تسميره، وفتح ما يجب فتحه، ذهاباً وإياباً، وله الركوب والجراية في الأرباع ونصف عليقة لحماره، ومن (الجامكية) عشرون ديناراً.

ولبعضهم:

بِرُوْحِيَ نجّاراً حَكَى الْغُصْنَ قَدُّهُ   رَشِيْقُ التَّثَنِّي أَحْوَرُ الطَّرْفِ رَيَّان
يَمِيل على ٱلأَعْوَادِ قَطْعاً بِمَا جَنَتْ   وَمَا مَزَّقَتْ مِنْ قَدِّهِ وَهْوَ إِنْسَان

نجار الكور:

مثل نَجّار السنيح، يسافر مع الشعّارة لإصلاح ما ينكسر، أو ينصدم من الأكوار في وقته أَوّلاً بأَوّل، وله جمل كنجار السَّنيح، وجراية وخمسة وعشرون ديناراً وآخِرُ مَن أدركناه ماهراً في هذه الصناعة المعلم محمود الأكواري، توفي بطريق الحجاز بالرجعة، في نَيِّف وخمسين وتسع مئة، ودُفن تجاه باب خان الأزلم، ولم يخلف بعده مثله، ولم يسافر بعده نجّار الكور صحبة أمير الركب إلاَّ نادراً ووفرت عوائده.

خولي الأغنام:

يلزمه في كل حال حفظ ما في يده من الأغنام المساقة بالدرب، وأن يعلق عليها بمعرفته، ويحفظها إلى نهايتها والخروج من حساب ذبحها بمعرفة (استادار المطبخ). وله من (الجامكية) مئة وخمسون نصفاً وجراية وجمل وعليقة، إن كان قليل

الرفاقة، وإلا فأكثر السعاة يلازمون ركاب الحاكم ليلاً ونهاراً، وحالة مسيره، ودارهم بالطريق عند مَحَفَّة الركاب مع المبيت، ولكل نفر منهم من (الجامكية) مئة نصف وجراية كغيره، ولبعضهم:

بِالرُّوحِ أَفْدِيْ سَاعِياً   جَمَالُهُ يُضْنِي الْوَرَى
لاَ بُدَّ لِي مِنْ وَصْلِهِ   وَلَوْ جَرَى لِي مَا جَرَى

الزُّفوري:

وهو السَّيَّاف. يلزمه أن يراجعَ الحاكم قبل إيقاع الفعل ويكون ذلك ثلاث مرار ويريح المقتول بعد إكرابِهِ في المشي، إنْ كان، وبحِدَّة سلاحه، وحسن تَأْدِيَة ما يفعل على الوجه الذي ينبغي فعله، لما رويناه بالسند الصَّحيح إلى أبي يعلى شَدَّادِ بن أَوْسٍ رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا الْقِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فَأَحْسِنوا الذِّبْحَةَ، ولْيُحدَّ أحدُكُمْ شَفْرَتَه، ولْيُرِحْ ذَبِيحتَه» رواه مسلم[١]. وعليه في القتل أن يتربص بالمقتول ثلاثاً قبل إيقاع الفعل، لاحتمال شافع.

وله من (الجامكية) على السفر مئة نصف، وجمل لركوبه وجراية كغيره.

المبيتون:

وهم الذين يجهرون بالنداء نهاراً عنوان بما عسى أن يأمر به أمير الركب، من المصالح للوفد، وليلاً مع (الدوادار) والعسس، لإجهار النّداء بإعلام أهل الركب بأيِّ منزلة نزلوا، وبالاحتراز، والاحتفاظ على أسبابهم وجمالهم، وهل لتلك المنزلة دَرَك أم لا.

وعادتهم أنْ يسيروا ببغالهم صحبةَ رِكاب الأمير و(الزفوري) تبع لهم، وليس لهم على أمير الركب جمالٌ لركوبهم، وإنّما لهم العليق والجرايات من غير (جامكية) وَدَأْبُهُمُ الشِّحاذَةُ من أعيان الركب في المناهل الكبار، وذلك كالسبب لهم، وشرط الْمُبَيت أن لا يشارك (الزفوري) في فصله، وبعضهم يفعل ذلك، ويتفاوتون في حفظ الشِّعْر المناسب الذكر، في ليالي الحراسة وحُسْنِ الصوت، ولَهم ألفاظ جميلة، يتداولونها في مواكب الأُمراء، كالمدح ويسمونها الخطبة، وعليهم أن يدوروا ليلاً بـ(الوطاق) على الحجاج يُذَكِّرُوْنَ الغافل، وينبِّهون النائم بصياحهم.

---

(١) تقدّم تخريجه.

ذكر مَن ليس له (جامكية) ولا جمل على أمير الحاج، ومَن له جمل بلا (جامكية)

وأَول ذلك: الحيابون وهم جماعة الدُّلَلاَء بالدرب، ويشترط أَن يكونوا من أَهل الخبرة، بتعاريج الطريق، واستقامتها، ويَدلُّونَ على سَوَاءِ الطريق، ذهاباً وإِياباً، ولهم في مقابل دلالتهم إِقطاع من السلطنة، بإِقليم الشرقية، ولهم عند سفرهم من ديوان القلعة من الفضة ثلاث مئة نصف، ولهم العوائد على أَمير الينبع ومكة المشرفة، والشحاذة من صاحب الدرك إِذا قبض الصُّرَّةَ، بحسب ما تطيب به نفوسهم، ولهم من العليق في كل يوم على أَمير الركب من ستة إِلى سبعة، ومثلها من الجرايات بالأَرباع، ومثلها من جوخ أَمير الحاج المخيوط، عند نهاية السفر، ولهم الخبز في المياه، والطعمة من السّنيح، ومن المطبخ، والخيمة لنزولهم فيها، والكرامة والوقار من الأُمراء، وقد انقرض العارفون منهم، وخلف من بعدهم خلف لا يكادون يفقهون حديثاً.

المبشرون بالدار:

وأَدركناهم جماعاتٍ متعددة، عَلَى سِيْمَا أَهلِ الصلاح، من ذوي الشعور، ولباس الصوف، والأَعلام الحسنة، منهم الشيخ عبد الرحمٰن، والشيخ محمد أَبو جريدة، والشيخ علي أَبو حلاوة، والشيخ يونس المرزوقي، وكان صيِّتاً جداً، والشيخ ناصر الدين، وكان صالحاً، توفي بالمدينة المنورة، والموجود الآن عبد المجيد وحسن أَولاد الشيخ علي أَبي حلاوة.

ولكل نفر من المبشرين الجملُ على أَمير الحاج عادة والجراية بلا (جامكية).

وشرط البشير أَن يكون بعيداً عن رؤية الخيام أَو في رأْس عطف يواريها، وإِلا فهيَ تدل على ما يدل عليه بزيادة القرب والله أَعلم.

مبشر الحاج من عرفات:

وهذه وظيفة قديمة الترتيب لها معلوم على أَمير الينبع قدره من الفضة أَلفان، عن ذلك أَشرفية قديمة مئتا دينار، وتسمى عادة المبشر. وقد صارت هذه من جملة منافع أُمراء الحاج، يأْخذونها لأَنفسهم، ويعطون بعض العربان مصالحة على البشارة من خمسة عشر من الذهب إِلى تسعة ودونها.

والعادة القديمة أَنَّ المبشر يتوجه من مكة المشرفة أَول أيام منى، لا يتأَخر عن ذلك مطلقاً.

ومصرف المئتي دينار لأصحاب الأدراك عَلى ما سنذكره مفصلاً، فما هو لعربان زُبَيْد عشرون ديناراً، ولبني حَسَّان أصحاب سقاية نَبْط سبعة عشر ديناراً، ولعربان بَلِيٍّ الأحامدة خمسة وستون ديناراً، ولبني عُقْبَةَ أربعون ديناراً، ولبني عَطِيَّة ثمانية وخمسون ديناراً أو دونها، ثم تلاشى هذا الأمر فمنهم مَن يُؤَخِّر المبشر إلى أَنْ يجهزه من عيون الْقَصَب من طريق البحر بالرَّجْعَة، ومنهم مَن يجهزه بعد الخروج من مكة بأيام، شُحًّا من عند أنفسهم.

وأما بشارة الحاج عن دخوله في الديار المصرية سالماً فأَخْبرني المشيخة بذلك الزمان أَنَّ هذه الوظيفة كان السلطان إذ ذاك ينعم بها على أكابر الأمراء كـ(اسنباي) المبشر و(أزبك) المكحل، ويقصد بذلك استغراقه في النِّعم، فيجهز بالمثالات، السلطانية إلى جماعة النواب بالمماليك الإسلامية البشارة بذلك، وأُخبرت أَنَّ الذي كان من العادة على نائب الشام للمبشر إذا ورد عليه بمكتوب السلطان في كل سنة عشرة آلاف دينار، وأَنَّ الأمير أزبك المكحل عمر داره الكبرى التي هي خارج باب زوَيْلَة من معلوم البشارة، وهذا للتعالي من عظيم اهتمامهم قديماً بأُمور الحاج، فيقاس على ذلك غيره، وأين هذا من أحوال هذا الزمان (؟) فما شاء الله كان.

ذكر ما لباشات الملاقاة

بمنهل الأزلم، وعقبة أَيلة من العوائد، على أَمير الحاج، وإنما ذكرناهم هنا وإن كان ليس من النمط المتقدم فهم أتباع مجاز، أَو هو من باب الإعلام بما لا تضر معرفته، ولْنَبْدَأْ بِذِكر (باش عسكر) الملاقاة إلى الأزلم، وهي عبارة عن انضمام جماعة كثيرة من السوقة، والتئامها المتسبب على ركب الحاج، عند عودهِ بالأزلم، لشدة حاجته الداعية إلى ذلك، وليس لأمير الحاج عادة من السلطنة، تجهز إلَيه هنا مطلقاً، وإنما العادة القديمة المستمرة على ديوان السلطنة هي ما يُجَهَّزُ إلى عقبة أيلة، صحبة باشها ـ كما سيأتي ذكره بعد ـ والسبب في إنشاء هذه الملاقاة إلى الأزْلم ما يحصل للجِمَال والرجال في رجوعهم من الحجاز من التَّعب، ومزيد المشقة وفناء الزاد، وكانت هذه الملاقات من محاسن ما اهتم به من أُمور الحاج، وهي كانت تجهز في زمن الجراكسة في غالب الأَوقات، وربما بلغ وصولها في نادر السنين إلى مكة، وأَما في الدولة العثمانية فإن في سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة ولاية القاضي بركات بن موسى لإمرة الحاج كاتب المقام العالي خاير بك ملك الأُمراء بالديار المصرية،

بِعَرْضٍ ذكَر في مضمونه: أنه مُتَخَوِّفٌ من عربانَ بَنِي لاَم على الحاج، وأَنَّ العسكر الذي بصحبته قليلون، ويحتاج الحال إلى تجهيز جماعة من العسكر إلى الأَزلم، ليكون قُوَّةً للحجاج وأمناً فأمر ملك الأُمراء بتجهيز طائفة من العسكر بَرًّا إلى الأَزلم، وصحبتهم من السوقة والمتسببة طائفة كبيرة للبيع عليهم وعلى الحاج، وتَجهيز طائفة من العسكر من طريق البحر إلى الْحَوْرَاء، وأمر بكتابة مرسوم بعلامته، بما يجهز إليه، والمرسوم المذكور عندي إلى الآن في الدفاتر بشرح ذلك، فلما حصل للركب الرفق والأَمن بملاقاة العسكر والسوقة المتسببة استمر ذلك إلى تاريخه، وقرر لهذا العسكر جِمالٌ على أَقاليم معينة، يأْخذها (الباش) من كاشف ذلك الإِقليم مبلغاً معيناً، ويصرفها في أجرة الجِمال على عربان الحمل، لحمل العسكر ودبشهم، مع ما يضاف إلى ذلك من الجمال الحاملة لأَثقال السوقة، وبضائعها التي صحبتها، فتجمع قافلة حافلة، وينتفع الركب بما معها من المأْكولات القريبة العهد من القاهرة، وبالجمال الحاملة لذلك، انتفاعاً كبيراً، لا نعبر عنه بعبارة في الغالب بحيث أنَّ الملاقاة المذكورة جُزْءٌ من أجزاء سبب بقاءِ سَلامة الركب وعودهِ إلى أوطانه سالماً، لما بها من الرفق العام، والنفع الوافر الأَقسام، والجمَّالَةُ وغالب أهل الركب صاروا يعتمدون في تمام أحوالهم على وجودها وحضورها، وجرت عادة (الباش) بها أنه يدع معظم السوقة والأَثقال بخان الأَزلم، ويلاقي أمير الحاج بعسكره وعَلَمِهِ، وببعضِ سوقة رجال من المنزلة المعروفة بِ(أَكْرَا) فيكون بهذه الملاقاة المختصرة نفع ورفق لا ينحصر تعداده، خصوصاً بالجِمال الواصلة معهم للكراء، فيتصدَّى المقدمون والجمّالة لمقابلة هذه النعمة المستحقة لمزيد من الشكر عليها، بوافر الظلم المؤدي إلى الكفر، خصوصاً ما يحصل من المقدم محمد بن العظمة فإِنَّه يتصدَّى لأَخذ الجِمال الحاملة لأَسباب السوقة، سواء كانت للعربان أو للمقاطرية، وسواء كانت مجهزةً لأَحد من الحجاج على سبيل الملاقاة أم لا، بل يأْخذ ذلك بالظلم والكذب والعدوان، والفحش والغلظة والبهتان، ويساعدهم بعض أُمراء الحاج على ذلك بتجهيز طائفة من جماعته سابقة إلى (الباش) بمطالعة من عنده، يذكر فيه أنه لا بُدَّ من مراعاة مصلحة المقدمين، ومساعدتهم على ما يرومونه من الجِمال، والقيام معهم في ذلك، وربما جهز بعضهم عسكراً للقبض على الجِمال باليد العادية، وإِحضارها إلى (الوطاق) وضرب أربابها وإِيلامهم ووضع بعضهم في الحديد، مع الغشامة من غير تسمية أجرة لذلك، ولا مراضاة على أمرها، ويمنعون الفقير والمضطَرَّ والْعَيَّانَ ومَن جَهَدَهُ الْمَشْيُ، والمحتاج إلى ذلك، ويجهزونه عن الوصول إليه أو بعضه إلاَّ بمشقة شديدة، إن أعانه

الله على ذلك، ويسره له، ويشرد أصحاب الجِمال في رؤوس الجِمال، وفي ذلك البَرِّ بكل موضع، خوفاً من هذه الظلامة، هذا والطلب حثيث وراءَهم، ولا يجدون لهم معيناً ولا مغيثاً ولا ناصراً، وإِنْ جَهَّزَ أحدٌ من أهل القاهرة لجماعته وأحبابه شيئاً من الجِمال التي يكتريها بالأُجرة يقصد بها الرفق لذلك الحاج الواصل بجِمال متعبة أو ماتت أو غالبها. فيتعرّضون له، ويأْخذونها منه رغماً عليه، ولا يجد له ناصراً على خلاصها منهم، فيحصل لأصحاب الجِمال من أهل الملاقاة من الضرر البالغ أكثر مما حصل للحجاج من النفع بملاقاتهم.

ويجري الأَمر على ذلك أيضاً في الفول والدقيق، إن كان قليلاً جدًّا بالبندر، ولو قصدوا رضا الله تعالى بمراضاة أَصحاب الجِمال في إعطاء أُجْرَتِها على وجه الحقِّ والإِنصاف، ومنعوا عنها النهب والسبق بكل ما يحذر ويخاف، لما حصل شيْءٌ من هذه المفاسد، ولسهل عليهم تناولها على أكمل العوائد، وأتوهم سراعاً بطيبة نفس، وانشراح صدر، قاصدين قضاء مآرِبهم على أتم المقاصد.

وللباش على أمير الحاج قفطان من أعلى (الشطمة) مذهب، وعادته أن يكون من الأُمراء، وتارة يكون لكحداي جماعة الجراكسة، وتارة من (الجاويشية) بحسب مَن يعينه نائب مصر، وكان (لباش بلك الكمليين) قفطان أو ثمنه عشرة من الذهب و(لباش بلك التفكجيين) مثله فبطل ذلك قريباً، ولمقدم القوّاسة (الباش) جوخة، ولدليله كذلك، واتفق في ولاية الأَمير جانم قصروه أن نفق بعض خيول العسكر بالملاقاة، فدفع لكل مَن ماتت فرسه مئة نصف، فإنه كان ـ تغمّده الله برحمته ـ من مكارم الأَخلاق في المحلّ النبيل، وكان يعطي (باش) الملاقاة زيادة على القفطان من ماله بحسب مروءته وهمته، ولا يأْمر بكتابة ذلك في ديوانه قصداً للانفراد بفعل المكارم.

وأما الملاقاة العقابية فيحضر صحبة باشها عادة الإِنعام السلطاني المذكور في بابه أولاً، لِ(لبلكات) بشرح ما قلناه في الأَزلمية، وله قفطان من (الشطمة) دون الأَول، وله ولجماعة العسكر بصحبته عادة قديمة، قدرها مئة دينار، وعنها من الفضة ألف نصف، وللسَّقَّاء بخدمته المحضر للماء الحلو من النيل مئة نصف، وللدليل ومقدم القوّاسة كِما شرحنا في الأَزلم، وكان المرحوم جانم من قصروه يُحْسِن إِلى (الباش) كثيراً، وأعطاه من الفضة العددية ثلاثة آلاف نصف ـ أسكنه الله أَعلى عليين ـ فلقد كان معدوداً من كرماء العالم وأجوادهم.

الفصل الرابع

في فوائد نختم بها هذا الباب، وإن كانت ليست من نمط هذا الكتاب فنقول:

الفائدة الأُولى: ـ في معنى الديوان ـ وهو بكسر المهملة وقد تُفتح، فارسي مُعَرَّب، وفي «الصحاح» أصله (دَوَّان) فعوض من إِحدى الواوين ياء، ونقول: أُبدلت الواو بكسر ما قبلها[1].

وسبب تسميته ديواناً وجهان:

أحدهما: أنَّ كِسْرى اطلع يوماً على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال: (دوانت) أي مجانين، ثم حذفت الياء لكثرة الاستعمال.

والثاني: أن الديوان بالفارسية اسم الشياطين فسمي الكتَّاب باسمهم لحذقهم في الأُمور، وسرعة معرفتهم لها ووقوفهم على الجليِّ والخفي.

وذكر سِيْبَوَيْهِ في «كتابه» أيضاً أن أصله (دوان) واستدل على ذلك بقولهم في الجمع دواوين، وهذا قول حسن أبدلوا من إحدى الواوين ياء كما في «الصحاح» ونظيره دينار الأَصل فيه (دنَّار) وكذا قيراط الأَصل فيه قراط.

قال أبو جعفر النحاس: والدفتر اسم عربي، لا نعلم له اشتقاقاً، وكان أبو إسحاق يذهب إلى أن كل اسم عربي فهو مُشْتَقٌّ، إلا أنَّه ربما غاب عن العالِم شَيْءٌ وعرفه غيره يقال: دَفْتَر ودِفْتَرٌ وتَفْتَر ثلاث لغات، وقال الْجَوْهَرِيُّ: الدفتر واحد الدفاتر، وهي الكراريس.

وقال أبو جعفر: الكراسة معناها الكتب المضمومة بعضها إلى بعض، والورق الذي أُلْصِقَ بعضه على بعض، مشتقٌّ من قولهم رسْمٌ مُكَرَّس، إذا أُلصقت الريحُ الترابَ بهِ، وقال الخليل: الكراسة مأخوذة من كراس الغنم، وهي أنْ تبول في الموضع، شيئاً بعد شيء فيتلبّد. انتهى كلامه.

والصحيفةُ: الكتاب والجميع صحف وصحائف.

وأما السِّفْرُ فمشتَقٌّ من أسفر الشيْء إذا تبين، فهو الذي فيه البيان ومنه: أسفر الصبح، إذا تبيَّن، وأسفر وجهُ المرأةِ إذَا أَضاءَ.

وسمي القلم قلماً لأنه يُقْلَمُ أي يُقْطَع منه، ومنه قلمت أظفاري، وقيل: قطعه ليس

---

(١) انظر: لسان العرب [٢/ ١٤٦٢] [مادة: دون].

بقلم ولكنه أنبوب وقيل: القلم مُشْتَقٌ من الْقُلاَّم وهو نَبْتٌ ضعيف، وَاهِي الأَصل، فقيل: قلم لأنه خفف وأُضعف بما أخذ منه ويقال: حفي القلم، يَحْفَى حفوة وحفية وحفاوة وحَفَى مقصور، فأَما الْحَفَاءُ ممدودٌ فمشي الرَّجُل بلا نَعْلٍ، ويقال للقطعة التي تقع من الأُنبوبة شظية، مشتق من شظي القوم إِذَا تفرقوا، ويقال: قلم ذنوب، إِذَا كان طويل الذَّنَب، كما يقال: فرس ذَنوب، وأشْحمتُ القلم تركت شَحْمَهُ فلم آخذْهُ فإِن أَخَذْتُ شَحْمَهُ قلت: بَطَّنْتُه تبطيناً، ويقال: بَرَيْت القلم بَرْياً وَمَا سقط منه برايَةً، وقد يقال للقلم نفسه: براية، لأَنَّ العرب تجعل فُعَالَةً لكل ما نقص منه، فيقولون قُطَاعة وقوَارة، ذكره أبو جعفر: وقال الجوهريُّ: قوّره وأقاره بمعنى قطعه مُدَوَّراً ومنه قوارَة القميص والبطيخ، قال: والقطّاعة ـ بالضم ـ ما سقط عن القطع. قال أبو جعفر: يقال قَطَطْتُ القلم، أي قطعت سِنَّهُ، والقلم مقطوط، وقطيط، والْمِقَطُّ الذي تقطُّ القلم عليه، والْمَقَطُّ ـ بفتح الميم ـ الموضع الذي يقط من رأس القلم.

والدواة جمعها دويات في العدد القليل، كذا قال أبو جعفر، وفي الكثير دُوِيٌّ ـ بضم الدال ـ ويقال بكسرها ودُوِيٌّ ودوايا ويقال: أدويت دواة أي اتخذتها، ويقال لمن يبيعها: دَوَّاء، مثل تَبَّان للذي يبيع التبْنَ.

واشتقاق المِدَاد [من المدد] للكاتب وهو جمع مداده، يذكَّر ويؤنث، ويقال: أمددت الدواة إذا جعلت فيها المداد، فإن زدت على مدادها قلت: مددتها واستمددتُ منها أي أخذت فإن أخذتَ مدادها كُلَّهُ قلت: قعرت الدواة أقعرها قعراً، واشتقاقه أنك بلغت إلى قعرها.

وإذا لُصق القطن ـ يعني أو غيره ـ بالدواة فهو لِيْقة، مشتق من قولهم: ما يليق فلان بقلبي أي ما يلصق به، ويقال: ألقت الدواة إلاقة ولُقْتها ليقاً ولوقاً. قيْل للفرَّاء: لِمَ سُمِّيَ المداد حِبْراً؟ فقال: يقال للعالِم حِبْرٌ وحَبْرٌ وإنَّما أرادوا مِدَاد حِبْر فحذفوا مداداً ثم جعلوا مكانه حِبْراً كقوله ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهلها. وقال الأَصمعيُّ: هذا ليس بشيءٍ إنَّما هو للتأْثير، يقال: على أسنانه حبْرَة إذا كثرت فيها الصفرة، حتى تضرب إلى السواد، قال محمد بن يزيد: وأنا أَحْسِبُ أنه إنَّما سُمِّيَ حِبْراً لأنه تحبَّر به الكتب، ذكر ذلك العلامة ابن مفلح الحنبليُّ في «الآداب الشرعية الكبرى»(١).

الفائدة الثانية: أول مَن دوَّن الدواوين في الإسلام، وأرَّخ الهجرة، وختم على

(١) انظر: الآداب الشرعية [٣/ ١٧٠].

الطِّين، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأول مَن خطَّ الكتاب وخاط الثياب - وإنما كانوا من قبل يلبسون الجلود - هرمس، وهو إدريس عليه السلام، وكان سليمان يكتب لأبيه داود، وذكر أن آصفَ بنَ بَرْخيا كان يكتب لسليمان، وكان يوسف عليه السلام يكتب لعزيز مصر، وهو أول مَن عمل القراطيس ورقَّها، وهارون ويوشع يكتبان لموسى عليه الصلاة والسلام.

وأما كتاب الإسلام فجاء الإسلام وفيهم بضعة عشر رجلاً يكتبون بالعربية، وهم عمر، وعثمان وعلي وطلحة وأبان وعثمان ابنا سعيد، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب وابناه معاوية ويزيد، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، والعلاء بن الحضرمي، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، وحويطب بن عبد الْعُزَّى، وكان علي وعثمان رضي الله عنهما يكتبان الْوَحْيَ بين يدي النبيِّ ﷺ فإنْ غابا كتب أُبَيُّ بنُ كعب رضي الله عنه وزيد بن ثابت، فإن لم يشهدْ واحد منهم كتبه سائر الكتاب وقد كان خالد وسعيد بن العاص يكتبان بين يديه في حوائجه، وكان المغيرة بن شعبة ينوب عنهما إذَا لم يحضرا، وكان زيد بن أرقم ربما كتب عنه إلى الملوك مع ما كتب من الوحي، وكان معيقيب بن أبي فاطمة حليف بني أسد يكتب مغانم رسول الله ﷺ، وكان حنظلة بن الربيع بن صيفي خليفة كل كاتب من كتابه عليه أفضل الصلاة والسلام وكان ﷺ يضع عنده خاتمه.

وأوَّل مَن قال: أمَّا بَعْدُ - وهو فصل الخطاب - داود عليه السلام، وأول مَن نصبَ ديوان الخاتم معاويةُ وكان سبب ذلك أنَّ عَمْرو بن الزُّبير بن العوام قدم عليه فأَمر له بمئة ألف درهم كتب بها إلى زياد، فجعل عَمْرٌو المئة مئتين، فلما رفع زياد حسابه بإخراج المئتين قال معاوية: ما أمرنا له إلا بمئة ألف، وكتب إلى مروان يأمره باسترجاع المئة ألف من عمرو. ونصب ديواناً للخاتم بعد ذلك.

الفائدة الثالثة: ما ذكر في الليالي والأيام. روي أن النبي ﷺ قال: «خلق الله الخلق في ظلمة»[١] - وروي «في عما» - يعني ظلمة «ثم رشَّ عليهم ﷺ من نوره» وهذا يشعر بأنَّ الظلمة خلقتْ قبل النور وَكُلُّ ما جاء في القرآن من ذكر الليل والنهار والظلمات والنور إنَّما يبدأ بالليل قبل النهار، وبالظلمات قبل النور، والاهتمام بذكر الشيء أوَّلاً دليل على تقدمه، وإبرازه له من كنه عدمه، وبالدليل العقلي إنَّ الظلمة عَدَمٌ، والنهار وجود، وعدم المحدثات مُقَدَّمٌ على وجودها، فيلمح من هذا أنَّ الظلمة

---

(١) لم أجده في مظانه، والتقصير منا.

سابقةٌ، والأَنوار لاحقة، وهذا هو مذهب العرب، ولأَجل هذا يؤرخون بالليالي دون الأَيام، ومذهب الفرس أن النهار قبل الليل. ومن الناس مَن لم يُفَرِّق بين الليل والنهار، ومنهم مَن فرّق بينهما، فالذي لم يُفَرِّق اعتمد على قوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] فلمح من هذا أنهما اسمان موضوعان على مُدَّة، ابتداؤها الصباح وانتهاؤها المساء.

وحاصل الأَمر يرجع إلى قولين:

أَحدهما: أن يقدم الليل على النهار ويفتتح اليوم بغروب الشمس، وعليه عَمَلُ المسلمين أهل الكتاب، وهو مذهب العرب كما تقدّم، لأَنَّ شهورهم مبنية على أن يقولوا: عشر ليال أو يقولوا: عشرة أيام، وقد جاء في الكتاب العزيز: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝﴾ [الفجر: ١، ٢] وقال: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] فعبّر عن الأَيام بالليالي، لأَنَّ كل ليلة تتضمن يومها.

الثاني: أن يقدّم النهار على الليل، فيفتتح اليوم القابل بطلوع الشمس، ويختتم بطلوعها من اليوم الثاني، وهذا مذهب الروم والفُرْس.

قال الشاعر:

إنَّ اللَّيَالي لِلأَنَامِ مَنَاهِلٌ ... تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا الأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَع الْهُمُوْمِ طَوِيْلَةٌ ... وطِوالُهُنَّ مَعَ السُّرُوْرِ قِصَارُ

والليل الطبيعيُّ من لدن غروب الشَمس واستتارها بِحدبة الأَرض إلى طلوعها وظهورها. وأما النهار الشرعيُّ فَهُوَ ما بين انْفجار الفجر الثاني إلى غروب الشمس، والفجر فجران: صادق وكاذب؛ فالصادق بياض مستطير، والكاذب بياض مستطيل، وما أَلطف قول بعضهم في وصف يوم مسرور:

وَيَوْمِ سُرورٍ قَدْ تَكَامَلَ وَصْفُهُ ... سِوَى قِصَرٍ لاَ عَيْبَ فِيه سِواهُ
وعَهْدِي بِهِ كالرُّمْحِ طُوْلاً فَعِنْدَمَا ... هَزَزْنَاهُ بِاللَّهْوِ الْتَقَى طَرَفَاهُ

الفائدة الرابعة: في معرفة الأَيام المنقوطة من الشهر، وهو أن تقرأ هذا البيت فما كان فيه منقوطاً فهو في الأَيام كذلك وهو قولهم:

مُحِبُّكَ يَرْعَى هَوَاكَ فَهَلْ ... تَعُوْدُ لَيَالٍ بِضدِّ الأَمَلْ
فما كَانَ مَنْقُوْطهَا فَشَرٌّ بَدَا ... وما كَانَ مَهْمُولها فَخَيْرٌ حَصَلْ

وعدد حروفه ثلاثون.

وجمع بعضهم الأيام المنقوطة بقوله:

تَوَقَّ في الشَّهْرِ سَبْعاً قيل فَانْتَبِهِ   جه، يج، ثم يو كا كد و كه

وللصفي الحليّ وأجاد:

تَـوَقَّ سَـبْـعَـةِ أَيَّـام إِذَا اطَّـرَدَتْ   مِنْ كُلِّ شَهْر هلالي مناحسها

فثالث الشهر يوم، ثم خَامسهُ   وثالث العشرة الوسطى وسادِسها

ثم اخشَ حادي عشريه فخشيته   حَزْمٌ وَرَابِعُها يُخشَى وَخَامسها

وللعلامة الأَوحد عبد الرحيم العباسي تغمّده الله برحمته في ذلك قوله:

احْـذَرْ نـحـوسـاً دور شـهـر تَـرِدْ   عِـدَّتُـهـا فِـيـمَـا عَـدَا الْـمُـهْـمَـلا

الفائدة الخامسة: ما قيل في السنة والعام، والصحيح أنّهما اسمانِ موضوعان على مسمًّى واحدٍ، قال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] فالسنة الطبيعية قمريَّةٌ، وأولها استهلال القمر في غرّة المحرم، وانسلاخها ذو الحجة، وهي اثنا عشر شهراً، وعدد أيامها ثلاث مئة يوم وأربعة وخمسون يوماً وخُمُسٌ وسُدُسُ يَوْم تقريباً، ويتمُّ من هذا الخمس والسدس يومٌ في ثلاث سنين، فتصير السنة ثلاث مئة وخمسة وخمسين يوماً، ويبقى أيضاً شيءٌ يَتِمُّ منه ومن خمس اليوم وسدسه المستأنف في السنة السادسة يومٌ وَاحد، وكذلك إلى أن يبقى الكسر أصْلاً بأحد عشر يوماً عند تمام ثلاثين سنة، وَتسمى تلك السنين كبَائس العرب، إلا أنهم لا يستعملونها.

وأما السنة الاصطلاحية فشمسية، وعدد أيامها عند سائر الأُمم من الفرس والسريان واليونانيين والروم والقبط ثلاث مئة يوم وخمسة وستون يوماً ورُبُع يوم، فتكون زيادتها على العربية عشرة أيام وثمانية أعشار يوم وخمسة أسداس يوم.

وقال بعض حذّاق المفسّرين للكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٢٥]: إن جعلنا السنين قمريةً أقررنا بالآية على ما جاء به التنزيل، ولا حاجة إلى التّأويل، وإذا تَأَوَّلْنا جَعَلْنَا التِّسْع السنين الزائدة تكملة لثلاث مئة سنة شمسية، لا نُخِلُّ بالحساب البتة، ولهذا كانوا في صدر الإسلام يُسقطون عند رأس كل اثنتين وثلاثين سنة عربية سنة، ويسمونها سنة الازدلاف، لأَنَّ كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريباً. وإنما

حملهم على ذلك عدم استعمالهم النَّسِيْءَ الذي ذكر الله عنه أنَّه زيادة في الكفر، وتَحَرُّجُهم من فعله خَوْفاً من وقوعهم فيما كرهه الله تعالى.

وأما سنة العالم على ما اتَّفق عليه المنجِّمُون فهي من حين حلول الشمس رأس برج الحمل، وهو الاعتدال الربيعي، ومن الناس مَن يجعل أوَّلها من حين حلول الشمس رأس برج الميزان وهو الاعتدال الخريفي.

ثم إن الأُمم التي ذكرنا أنَّ السنة عندهم شمسية يختلفون في كَبْس الأَيام الخمسة الزائدة، فأما القبط فيجعلون شهورهم ثلاثين، فإذا انقضت الاثْنَا عشر شهراً أضافُوا إليها خمسة أيام ويُسَمُّونَها نسيئاً، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية، فإذا كانت السنة الرابعة أضافوا إلى الخمسة الأَيام المضافة يوماً، وهو مجموع الأَربعة أرباع المزيد كل ربع منها في كل سنة شمسية، وسموه كبيساً وأول سنتهم عند قطع الشمس اثنتي عشرة درجة من السُّنبلة، وابتدأُوا فعل ذلك ـ على ما ذكره أصحاب الزيجات ـ في زمن أغسطس وهو قيصر الأَول، وكانوا من قبل يتركون الربع إلى أن يجتمع منه أيامُ سنة كاملة، وذلك في ألف وأربع مئة وإحدى وستين سنة، فيسقطونها من سنيهم.

والمؤرخون من السنة الشمسية والقمرية خمس أمم وهم الهند والصِّين وترك المشرق والعرب في الجاهلية.

الفائدة السادسة: الكلام على النَّسِيْءِ، وكيف كان مذهب العرب فيه: قيل: إنَّ سني العرب كانت موافقة لسني الفرس في الدخول والانسلاخ، فحدث في أحوالهم انتقالات، فسد عليهم بها الكَبْس، إلى أول السنة السادسة من ملك أغسطس، وذلك بعد ذي القرنين بمئتين وثمانين سنة وأربعين يوماً، فَسَنُّوا كَبْسَ الرُّبْع من اليوم في كل سنة، فصارت سنوهم بعد ذلك الوقت محفوظةَ المواقيت ويقال: إن العرب كانت في جاهليتها على رسم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا تُنْسَأُ شهورهم، إلى أَنْ جاورتهم اليهود في يثرب، فأرادت العربُ أَنْ يكون حجهم في أخصب وقت من السنة، وأسهلها، للتردد بالتجارة، ولا يزول عن مكانه، فتعلَّموا الكبس من اليهود.

ويقال: إنَّ عَمْرَو بْنَ لُحَي ـ وهو من خزاعة ـ أولُ مَن نَسَأَ الشهور، وبحرَ الْبَحِيْرَةَ، وسَيَّبَ السائبة، وجعل الْوَصِيْلَةَ والْحَامي، وأول مَن دعا الناس إلى عِبَادَة هُبَل، قدم به مكة من هِيت.

ومعنى النَّسِيْءِ تأْخيرُ رَجب إلى شعبان، والمحرم إلى صفر، وأصله من نَسأْتُ الشَّيْءَ إِذا أَخَّرته.

وكان من جُمْلَة ما يعتقدونه من الدِّين تعظيم الأَشهر الحرم، فكانوا يَتَحَرَّجون فيها القتال، وكانت قَبائل منهم يستبيحونها، فإذا قاتلوا في شهر حرام جعلوا مكانه شهراً من أشهر الْحلِّ ويقولون: نَسِيءُ الشهر.

وحكى ابن إسحاق في «السيرة النبوية» أن أول مَن نسأ الشهور على العرب، فَأَحَلَّتْ منها ما أحلَ، وحَرَّمت منها ما حَرَّم، الْقَلَمَّسُ وهو حُذيفة بن عبد بن فقيم بن عَديٍّ بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة، ثم قام بعده على ذلك ولده عبّاد، ثم قام بعده ابنه قَلَعُ، ثم قام بعده ابنه أمية، ثم ابنه عوف ثم ابنه أبو ثمامة جنادة، وعليه قام الإسلام، فكانت العربُ إذا فرغتْ من حجها اجتمعتْ عليه بمِنَى، فقام إليها على جملٍ وقال بأعلى صوته: اللهم إنّي أُجابُ ولا أُعاب، ولا مَرَدَّ لما قضيت، اللهم إنّي أحللت شهر كذا ـ ويذكر شهراً من الأَشهر الحرم، وقع اتفاقهم على شن الغارات فيه ـ وأنسأْته إلى العام القابل ـ أي أَخَّرْتُ تحريمه ـ وحَرَّمْتُ مكانه شهر كذا من الأَشهر البواقي، فكانوا يُحِلُّون ما أحلَّ، ويُحَرِّمون ما حَرَّم، وفي ذلك يقول عُمير بن قيس بن جذْل الطِّعَانِ مفتخراً بقوله:

لَقَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ أَنَّ قَوْمِي ... كِرَامُ النَّاسِ، إِنَّ لَهُمْ كِرَامَا
فَأَيُّ النَّاسِ فَاتُونَا بِوِتْرِ ... وأَيُّ النَّاسِ لَمْ نُعْلِكْ لِجَامَا
أَلَسْنَا النَّاسِئِينَ عَلى مَعد ... شُهُورَ الْحِلِّ نَجْعَلُهَا حَرَامَا؟

وحكى السُّهَيْليُّ رحمه الله في «الروض الأُنُف» أَنَّ نَسِيْءَ العرب كان على ضربين: أحدهما: تأخير شهر المحرم إلى صفر، لحاجتهم إلى شَنِّ الغاراتِ، والثاني: تأْخير الحجِّ عن وقته تَحَرِّياً منهم للسنة الشمسية، فكانوا يُؤَخِّرونه في كل عام أحد عشر يوماً، حتى يدور الدور منه إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته.

فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة الشريفة النبوية حجَّ بالناس أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه في ذي القعدة، ثم حجَّ رسول الله ﷺ في العام القابل، حجَّته التي تُسَمَّى حجَّةَ الوداع، فوافق عود الحج إلى وقته في ذي الحجة، كما وُضِعَ أَوَّلاً، فلما قضى الحجَّة خطب فكان فيما قال من خطبته: «إِنَّ الزمان قد ٱستدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأَرض» يعني أن الحجَّ قد عاد في ذي الحجة. وقد تقدّم ذكر ذلك عند الكلام في ذكر حجة الوداع.

وقد فضّل الله عزّ وجل العرب على الأُمم الماضية ـ كما قدّمنا ذكره في مواضع ـ وورثها ثمرة مساعيها المتعبة وأجرى شهر صيامها ومواقيت أعيادها وزكاة

أهل ملتها، وجزية أهل ذمتها على السنة الهلالية، وتعبَّدَها فيها برؤية الهلال، إرادة منه أن تكون مناهجها واضحة، وأعلامها لائحة، فيتكافأ في معرفة الفرض ودخول الوقت الخاص والعام، والناقص الفطنة والتام، والأنثى والذكر، وذو الصغر والكبر، فصاروا حينئذ يجبون في سنة الهلال الجوالي والصدقات، والأرجاء والمقاطعات، وسائر ما يجري على المشاهرات، وفي سنة الشمس حاصل الغلات المقسومة، وخراج الأراضي الممسوحة، منّة عليهم من الله وفضلاً، ومنحة وتأهيلاً جزلاً، وتمييزاً لهم عمن سواهم وليشرفوا بخصائصهم على مَن عداهم، وليعرف كل فريق بسيماهم. وكيف لا يكونون كذلك وقد بعث لهم ولكافة العالمين رسولاً من أنفسهم أشرف المرسَلين. فمَن ادَّعى شرفاً وفضلاً عليهم فقُلْ ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ وقل لمَن يروم ذلك: لَيْسَ بِعِشِّكَ فَادْرُجْ، ولا تكن من الخاطئين.

الفائدة السابعة: في ذكر عدد ما اصطلحت عليه كتاب القبط من أسماء آلات دواة الكاتب التي لا يُسْتغنى عنها، وكلها أول حروفها ميم.

فأَولها: مجمع: وهي دواةٌ مربعة ذاتُ بَطْنٍ وسيعة من نُحاس أو غيره.

مِحْبَرَةٌ: اسم لوعاء الحبر.

مركب: وهو الحِبْر ويسمى أيضاً مداداً.

مشاق حرير: وهو اللّيقة.

مرملة: آلة للرمل الأَحمر معلومة.

منشأَة: آلة تقابلها للنّشا.

مفرشة: تُجعل في بطن الدواة كالوقاية تحت ما سيوضع فيها من آلات الكتابة والتي يوضع فيها.

ملزمة: آلة تحبس أوراق المكاتبات والرسائل عن ولوع الهواء بها حالة الكتابة.

مجردة: آلة تنظّف بها الدواة إذا علاها دنس وتغيّر لونها.

ملصقة: آلة تلصق بها المكاتبات إذا أراد ختمها بالنشا أو بغيره.

مِسَنٌّ: وهو معلوم، لإصلاح حدّ السكين.

مِمْوَهٌ: آلة ينقل بها الماء للدواة إذا أراد إصلاحها، وتارة تكون من النحاس ومن الحلزون وغيره.

مِقَصّ: لتسوية أوراق الدفاتر وغيرها وإصلاحها.

معككك: لأجل وضع الشمعة عليه ليلاً، لاحتمال أن يضطر إلى ذلك لأمر مُهم. مبرد: لتسوية رؤوس الجرائد والدفاتر. مِشحذ: أيضاً للسكاكين كالمسن.

ميقات: وهو بيت إبرة لطيف، لمعرفة القبلة والوقت لأجل الصلاة.

منقد لطيف: لاحتمال أن يكون كاتباً صَيْرَفِيًّا، ولا يخفى ما في ذلك من الثقل بالدواة لفظاً ومعنى.

محك: للذهب كما في المنقد.

مرآة عيون: إن كان الكاتب ضعيف البصر.

مقَطٌّ: آلة لِقَط الأقلام، معدّة لذلك.

ممسحة: للأقلام كذلك.

مِقْلَمَةٌ لطيفة: يوضع الأقلام داخلها، وهذا أيضاً من المستهجنات التي لا يحتاج إليها إذ في بطن الدواة كفاية ووقاية، اللهم إلا أن يراد بها تقليم الأظفار فتكون خارجة عن هذه المعاني المقصودة أيضاً.

مِلْقاط: يلقط بقايا ما يظهر بالورق من أثر الكشط.

مِكْشَطٌ: لمحو ما يريد إزالته من الكتابة.

مِزْبَرٌ: وهو القلم.

الثامن والعشرون منفذ: آلة تخرق الأوراق عند انتظامها وشَكِّها.

مِلَفٌّ: يحفظ الخيط لضبط الجرائد وغيرها.

مكثرة: كالمنشأة.

مزودة: وعاء لطيف يصنع فيه بعض الحبر لزيادة الدواة عند الاحتياج، وهذا أيضاً من الزيادات المستغنى عنها.

مصقلة لطيفة جداً: لإصلاح موضع الكشط حتى يناسب صقال الورق فلا يظهر أثره.

مِبْكَرَة: إذا كان الكاتب مما يحتاج إلى (البيكار) في كتابته، وهي من الزوائد.

مسْطرة: لتسطير الورق وهذه من غث الاحتفالات ببطن الدواة.

مِحْفظة: كذلك.

محكَّةٌ: لإصلاح رؤوس الجرائد والدفاتر كالمبرد ولا يخفى ما في ذلك أيضاً من الثقل.

وذكروا أيضاً من الآلات الخارجة عن تعلُّق الدواة وهم يعدونها: منكاش لأَسنانه.

ملعقة لتنظيف آذانه.

مِخياط: وهي الإِبرة توضع في الدواة لخياطة الدفاتر، ولعل ذلك ليس بخارج عن المعنى.

مؤذنة: كالملعقة للآذان.

ميزان لطيف: لوزن الذهب.

مسواك: يستاك به.

مشرطة: يشرط بها الكتب والرسائل المختومة، وقد يستغنى عنها بالسكين.

مرود: للاكتحال به.

مِيْبر: كالمنفذ.

ماسورة: كالملف.

مشط لطيف: لتسريح لحيته.

وقد نظم ذلك صاحبنا البليغ العلامة نخبة الفضلاء الشيخ نور الدين علي العسيلي فسح الله تعالى في مدته فقال:

حَمْداً لِمَنْ عَلَّمَنَا بِالْقَلَمْ ... وَعلَّمَ ألإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم

وخصَّهُ بالنُّطْق وَالْكتابَه ... كَيْمَا يَنالُ بِهِمَا آدَابَهْ

وَإن مِنْ أَشْرَفِ أَوْضَاعِ الْبَشَرْ ... رَسْمَ الْكِتَابِ فَهْوَ وَضْعٌ يُعْتَبَرْ

فمِن هنا تفنَّن الْكتَّابُ ... فِيمَا بِهِ يَنتظِمُ الْكِتابُ

فأَوْدَعوا دُوِيَّهمْ قدِيمَا ... لِمَا ذكرنا أَرْبَعِين مِيمَا

لكن فِيها الْغَثُّ والسَّمِينَا ... وَمَا نَرَى إِسْقاطَهُ يَغْنِينَا

كمِثْقلٍ ومِزْوَدٍ ومِكْحلَهْ ... وَالْحق أَنَّ مِقْلَ ذَا لا أَصْل لَهْ

فَالْعَزْم أَنْ نُبْدِلَهُ وَالنيهْ ... بِمَا لَهُ عِلاَقة قويَّهْ

حَتَّى يَرَى أَظْرَفَ مِمَّا اشْتَهَرَا ... وَهٰذِهِ عِدَّتُهَا كَمَا تَرَى

مِخْبَرَةٌ مُرَكَّبٌ مِلاقُ ... وهو الذِي في عُرْفِهِمْ مُشَاقُ

مرْمَلةٌ مِزْوَدَةٌ مُجَفِفُ ... لِرَمْلِهِم وَهوَ بِهذَا يُوْصَفُ

وَمِزْوَدٌ مُحَدَّدٌ وَمِزْبَرُ ... لِقَلَم ومِجْرَدٌ وَمِجْفَرُ

مِفْرَشَةٌ مِمْسَحَةٌ وَمِكْثَرَه وَمِفْرَزٌ ومِقْسَمٌ وَمِسْطَرَهْ

مِلْزَمَةٌ وَمِكْبَسٌ مِلَفُّ مِصْفَاةُ حِبْرٍ لِلأَذَى تَكُفُّ

وَمِنْفَذٌ وَمِكْشَطٌ وَمُدْيَهْ وَهْيَ بِرَسْمِ مَا تَرُوْمُ بَرْيَهْ

كَذَا مِسَنٌّ مُسْتَحَد ومِقَط وَقَلَمُ الطَّرْحِ يُسَمُّوْنَ مِحَطّ

وَمِلْزَمٌ وَمِخْيَطٌ مِشَكُّ مَقْطَعُ كُتْبٍ لَيْسَ فِيْهَا شَكُّ

وَمَرْكَزٌ لِمَا عَلَيْهِ يُوْضَعُ رُؤُوْسَ الأَقْلاَمِ لِئَلاَّ تُصْدَعُ

كَذَلِكَ الْمِمْوَهُ والْمِقَصُّ ثُمَّتَ مِحْرَاك عَلَيْهِ نَصُّوا

مِحْفَظَة مُجَمَّعٌ وَمِنْشَازْ لِقَطْعِ أَوْصَال الْيَرَاع يُخْتَارْ

كذاك ملقاطُ لِمَا شَانَ الْقَلَمْ مِصْقَلَةٌ تُكَمِّل النَّظْمَ وَتَمّ



الباب الثالث

فيمن ولي إمرة الحاج

وفيه فصلان:

الفصل الأول

فتح مكة المشرَّفة وتاريخ ذلك ملخصاً فنقول:

كانَ سببَ الفتح ما ذكره العلامة الفاسي من رواية ابن إسحاق ملخصاً: أنَّ بني بكر بن عبد مناة بن كنانة عَدَتْ على خزاعة، وهم على ماءٍ لهم بأسفل مكة يقال له الْوَتِير، فأصابوا رجلاً منهم وتحاربوا واقتتلوا، ورفدت قريشٌ بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش مَن قاتل بالليل مُسْتخفياً، حتّى جازوا خزاعة إلى الحرم، ثم خرج ناسٌ من خزاعة إلى النبي ﷺ يستنصرونه، لأَن خزاعة في صلح الْحُدَيْبية دخلتْ في عقد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكرٍ في عقد قريش، فوعدَ النبيُّ ﷺ الخزاعِيِّينَ بالنصر، وقدم المدينة أبو سفيان بن حرب ليشدَّ العقد، ويزيد في المدة، فلم ينل قصداً، ورجع إلى مكة، وأمر رسول الله ﷺ أهله أن يجهزوه، ثم أعلم الناسَ أنه سائر إلى مكة المشرفة، وأمرهم بالجدِّ والتأهب، وقال: «اللهم خُذ العيون والأَخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها»(١) فتجهّز الناس.

ولما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة المشرَّفة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش، يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأَمر بالمسير إليهم، ثم أعطاه امرأة قيل إنها من مُزَيْنَة، وقيل: إنَّها سارة مولاة بني عبد المطلب، وأعلم الله بذلك رسول الله ﷺ، فبعث عليَّ بن أبي طالب والزُّبَيْرَ بن العوام رضي الله عنهما لإحضار الكتاب، فأتيا به(٢).

ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره، وخرج لعشر بَقِيْن من شهر رمضان، فصام وصام الناس، حتى إذا كان بالْكَدِيْد، بَيْنَ عُسْفَانَ وأَمَج أَفْطَرَ، ثم مضى حتى نزل مَرّ

---

(١) عزاه الحافظ ابن كثير لابن إسحاق. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٤/ ٢٨٢].
(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٤/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤].

الظهران، في عشرة آلاف من المسلمين، وقريش لا تعلم بذلك(١).

ثم إنَّ أبا سفيان بنَ حرب حضر عند رسول الله ﷺ بِمَرِّ الظهران فأَسلم، وكان خرج يتجسَّس الأَخبار عن رسول الله ﷺ، وأَمَّن النبيُّ ﷺ مَنْ دخل دارَ أبي سفيانَ، ومَنْ أغلقَ عليه بابه، ومَنْ دخل المسجد، فلما جاء قومه أخبرهم الخبر وأن النبي ﷺ قد جاءهم بِما لا قِبَل لهم به، فتفرّق الناس إلى دُوْرهم، وإلى المسجد. ولما انتهى النبي ﷺ إلى ذي طُوى أمر الزبيرَ بْنَ الْعَوَّام رضي الله عنه أن يدخل في بعض الناس من كَدَاء، وكان الزبير على المجْنَبَة اليسرى. وأمر سَعْدَ بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كُدَى، وأمر النبي ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه فدخل مِن اللِّيْطِ أسفل مكة في بعض الناس، وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه على المجنبة الْيُمنى، وَفيها أَسْلَم وسُلَيم وغِفَار ومُزَينة وجُهَينة، وقبائل من قبائل العرب. وأقبل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بالصف من المسلمين ينْصَبُّ لمكة بَيْنَ يَدَيْ رسول الله ﷺ ودخل النبي ﷺ من أَذَاخِرَ، حتَّى نزل بأَعْلَى مكة، وضُربتْ هنالك قُبَّتُه، وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جَهْلٍ وسُهَيْل بن عَمْرٍو قد جمعوا أُناساً بِالْخَنْدَمَةِ ليقاتلوا، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد رضي الله عنه نَاوشُوهم شيئاً من قتال، فقُتِل كُرْزُ بن جابفُ أحد بني مُحَارِبِ بن فهر وحُبَيْش بن خالد بن ربيعة بن أصرم حليفُ بني مُنْقذ، وكانا في خيل خالد بن الوليد، فشذَّا عنه فسلكا طريقاً غير طريقه، فَقُتِلا جميعاً. وأصيب من جُهَيْنَة سَلَمَةُ بن الميلاء من خيل خالد، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثني عشر أو ثلاثة عشر، ثم إنهم انهزموا، وكان النبي ﷺ قد عهد إلى أمراء من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا أن لا يقاتلوا إلا مَنْ قاتلهم، إلا أنه قد عهد في نفر سماهم أمر بقتلهم، وإنْ وُجدوا تحت أستار الكعبة، فقتل بعضهم واستؤمن لِبَعْضهم ثم إن رسول الله ﷺ لما نزل مكة، واطمأَن الناسُ، خرج حتى جاء البيتَ فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بِمِحْجَنٍ في يده، فلما قضى طوافهُ دَعَا عثمانَ بن طلحة فأَخذ منه مفتاح الكعبة، فَفُتِحَتْ له فدخلها، فوجد فيها حَمَامَةَ عِيْدان فكسرها بيده، ثم طرحها ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف له الناس في المسجد، فخطب خطبته المشهورة وفيها: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل فيكم» فقالوا: خيراً أَخٌ كريم، وابن أخ كريم. قال: «اذهبوا فأَنتم الطلقاء».

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٤/ ٢٨٤ ـ ٢٨٦].

رضي الله عنه ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية - صلّى الله عليك - فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة»؟ فَدُعِيَ له فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بِرٍّ وَوَفاء»[(١)].

وأمر النبي ﷺ بلالاً أن يؤذِّن، وكان أبو سفيان بن حرب وعتَّاب بن أسيد، والحارث بن هشام جلوساً: بفناء الكعبة، فقال عتَّاب بن أسيد: لقد أكرم الله أَسِيْداً أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه. وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه مُحِقٌّ لا اتَّبَعْتُه. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأَخْبَرَتْ عني هذه الحصاة. فخرج عليهم النبيُّ ﷺ فقال: «قد علمت الذي قلتم» ثم ذكر ذلك لهم. فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

ولما طاف النبي ﷺ يوم الفتح على راحلته كان حول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] فما أشار إلى صنم منها في وجه إلاَّ وَقَع لقفاه، ولا أشار لقفاهُ إلاَّ وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلاَّ وقع، فقال تميم بن أسد الخزاعيُّ:

وَفـي الأَصْـنـامِ مُـعْـتَـبَـرٌ وعِـلْـمٌ لِمَنْ يَرْجُو الثَّوابَ أَوِ الْعِقَابَا[(٢)]

وأقام رسول الله ﷺ بعد فتحها خمس عشرة ليلة يَقصر فيها الصلاة، وكان فتح مكة لعشر من ليال بقين رمضان، سنة ثمان من الهجرة[(٣)]، واستخلف عليها عتَّابَ بن أَسِيد - بفتح الهمزة - ابن أبي الْعِيْص بن أُمية بن عَبْدِ شمس بن عبد مناف القرشيَّ الأَمويَّ أميراً على مَن تخلّف عن النبي ﷺ من الناس، حين خرج إلى حُنَيْن، وذلك في العشر الأُوَل من شوال سنة ثمان من الهجرة. ولم يزل عَتَّابُ أميراً على مكة إلى أن توفي بها بعد موت الصدِّيق رضي الله عنه، أو يوم جاء نعيُ الصدِّيق رضي الله عنه إلى مكة المكرمة[(٤)].

وفي «تاريخ ابن جرير» وابن الأثير ما يقتضي أنه وَلي مَكة لعمر رضي الله عنه. والله أعلم.

* * *

(١) عزاه الحافظ ابن كثير لمحمد بن إسحاق. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٤/٢٩٩ - ٣٠٠].
(٢) عزاه الحافظ ابن كثير لابن هشام هكذا. انظر: البداية والنهاية [٤/٣٠١].
(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٤/٣١٥].
(٤) انظر: تاريخ الطبري [٣/٧٣].

الفصل الثاني

فيمن وُلّي إمرة الحاج من ابتداء الفتح المكي في زمن المصطفى ﷺ وإلى تاريخ الشروع في كتابنا هذا وهو في سنة ستين وتسع مئة وبعده.

وإيراد بعض الوقائع بمكة المشرفة، والطرقات في بعض السنين على سبيل الاختصار، مما لا يستغنى عن ذكره فنقول:

إن هذه الإمرة كان مصدرُها وموردها في الصدر الأول البلدين الشريفين مكة المشرفة والمدينة المنورة والبداءة منها ثم من مكة المشرفة إذ كانت الخلفاءُ إذ ذاك تُجَهز الحجيج مِنْ ثَمَّ، فكانت ولايتها بالحجاز، ثم لما انتقلت الخلافة إلى بني أمية - وكانت دار ملكهم الشام - فكانت الإمرة والحجيج منهما والمعنى به الركب السلطاني المولَّى أمره من جانب الإمام الأعظم، وهو الذي تصحبه الكسوة الشريفة وتعلقات آل الحرمين من جانب الإمام.

وأما الركوب القاصدة للحج من الأقاليم المشهورة فمتعددة، كالكوفة ومصر في ذلك الزمان وغيرهما، فإنها كالقوافل الواردة من البلاد والقرى.

ثم لما كانت الدولة العباسية والخلافة الهاشمية وكان محل الخلافة بغداد والعراق فكان أمر الإمرة والمحمل والكسوة منها، وما يرد من مصر وغيرها من الركوب فلا تعلق لهم بولاية أمر الموقف والحج، وإنما هم كالتوابع لِلْمُوَلَّى من جانب الإمام - كما ذكرنا - لا يصحبهم كسوة ولا أمرٌ عام.

ثم لما قوي أمر الخلفاء الفاطميين وعظم شأنهم وبنى المعز القاهرة المعزية في سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة على يد مملوكه جوهر، وكانوا أهل الشوكة والقوة، وتداول ملكهم كابراً عن كابر، وكانت الإمرة ترد من مصر، والخطبة لهم بمكة تارة وتارة - وسيأتي ذكر ذلك - وكان مع ذلك ترد المحامل من مصر وغيرها.

ثم عاد الأمر إلى بغداد، بعود الشوكة والخلافة إليها.

ولما غلبت الأتراك على مصر وملكوها كان الأمر لهم، وكذا لمن بعدهم إلى تاريخه - وسيأتي أول مَن جهز الكسوة من الأتراك -.

وذكر المِقْرِيزيُّ أَنَّ حجاج مصر والغرب أقاموا زيادة على مئتي سنة لا يتوجهون إلى مكة - شرَّفها الله تعالى - إلا من صحراء عَيْذَاب، يركبون النِّيلَ من ساحل مدينة

مصر الفسطاط، إلى قُوص، ثم يركبون الإبل من قوص، ويعبرون هذه الصحراء إلى عَيْذاب، ثم يركبون البحر في الجلاب إلى جُدَّة، ساحل مكة، وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة، يردون إلى عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص، ومنها يردون مدينة مصر، فكانت هذه الصحراء لا تزال عامرةً آهلة، بما يَصْدر ويرد من قوافل التجار والحجاج حتى إن كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها، والقفول صاعدة وهابطة، لا يعترض بها أحد، إلى أن يأْخذها صاحبها، فلم تزل مسلكاً للحجاج في ذهابهم وإيابهم زيادة على مئتي سنة، من أعوام بضع وخمسين وأربع مئة، إلى أعوام بضع وستين وستَّ مئة وذلك قد كانت الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر بالله، أبي تميم معَدّ بن الظاهر، وانقطاع الحج في البر، إلى أن كَسَا الظاهر ركن الدين بِيْبَرْس البُنْدقداري الكعبةَ وعمل لها مفتاحاً، ثم أخرج قافلة الحج في البرّ في سنة بضع وستين وست مئة، فَقَلَّ سلوك هذه الصحراء، واستمرت بضائع التجار تُحْمَل من عيذاب إلى قوص، حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبع مئة، وتلاشى أمر قوص من حينئذ، وهذه الصحراء مسافتها من قوص إلى عيذاب سبعة عشر يوماً، ويفقد الماء ثلاثة أيام متوالية، وأكثر بيوتها الخصاص، وكانت من أعظم مراسي الدنيا وكان لأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت، فإنهم يبالغون في إشحان الْجَلَبَةِ بالناس، حتى يبقى بعضهم فوق بعض، حرصاً على الأُجرة ولا يبالون بما يصيب الناس في البحر، بل يقولون: ذَا علينَا بالألواح، وعلى الحجاج بالأَرواح. انتهى ملخصاً.

ونقلت من رحلة لبعض فضلاء أهل المغرب من أغرناطة، رحلها من مصر الفسطاط إلى عيذاب، وركب البحر منها إلى ساحل جُدَّة بيَّنَ فيها طرقات هذه المسافة ومياهها ومراحلها، لا بأس بذكرها هاهنَا فإنَّ الدروب الأربعة المشهورة لتوجه الحاج منها إلى مكة يأْتي ذكرها مفصلاً في محله، وإنما ذكرت دَرْبَ عيذاب وطريقه البحريَّ هُنَا لأنه لم يتوجه منه محامل كتلك، فأَفْرَدتُّهُ هنا للإحاطة به فقط.

وملخص ما ذكره أنه قال: كان انفصالنا من مصر الفسطاط، وصعودنا في النيل على الصعيد، قاصدين إلى قوص، يوم الأَحد سادس من محرم سنة تسع وسبعين وخمس مئة، والقرى في طريقنا مُتَّصلة في شَطي النيل، والبلاد الكبار.

فمنها قرية تُعرف بأسكور، في الضفة الشرقية من النيل مُيَاسِرَة للصاعد فيه، ويذكر أنه كان فيها مولد موسى الكليم، ومنها ألقته أُمُه فِيْ الْيمِّ، وهو النيل، وعلى اليسار في الصعود الجبل الذي كان مَرْقَى موسى عليه السلام، ومنه دعا على فرعون،

وفيه أثر بنيان كان على الموضع الذي كان مقاماً له، وذلك كله في يوم الإِقلاع المذكور.

وفي اليوم الثاني وصلنا المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصدِّيق ﷺ وبها موضع السجن الذي كان فيه، وكان في ذلك الآن يُنقَضُ وتُنْقَلُ أحجاره إلى بناء قلعة الجبل، وبهذه المدينة أهراءٌ للطعام، الذي اختزنه يوسف عليه الصلاة والسلام، وهي مجوفَة على ما يذكر.

ثم منْها إلى منْية ابنِ الْخَصِيب، وهو بلد على شط النيل، مُيَامِناً للصاعد فيه، كبير فيه الأَسواق والحمامات، وسائر مرافق المدن، اجتزنَا عليه ليلة الأَحد ثالث عشر المحرم، وكان الثامن من يوم الإقلاع من مصر لأَنَّ الريح سكنتْ عنَّا فَتَرَبَّصْنَا في الطريق، ولم نَذكر من البدان إلاَّ الأَكبر الأَشهر، ولو ذكرنا كُلَّ الرسوم لضاق الكتاب عنه (؟).

وعلى مقربة من هذا الموضع من جهة اليسار المسجد المنسوب لإبراهيم خليل الرحمٰن ـ صلوات الله على نبينا وعليه وسلامه ـ وهو مشهور مقصود، معلوم بالبركة ويقال: إن بفنائه أثر الدابة التي كان يركبها الخَليل.

ومنها إلى انْصنا من جهة اليسار قرية فسيحة جليلة، بها آثار قديمة، وهي في السالف مدينة عتيقة، وكان لها سور عتيق، هدمه صلاح الدين، وجعل على كل مركب منْحدر في النِّيل حمل شَيْئاً من صخْرِهِ إلى القاهرة، فنقل بأَسره إليها.

وفي اليوم التاسع من إقلاعنا من مصر اجتزنا بالجبل المعروف بجبل المقلة وهو بالشَّط الشرقي من النيل، مُياسراً للصاعد فيه، وهو نصف الطريق من مصر إلى قوص، ومنْ مصر، إليه ثلاثة عشر بريداً ومنه إلى قوص مثلها.

ومما يجب ذكره على جهة التعجب أنَّ حائط العجوز من حَيِّز مصر، في الشط الشرقي فصاعداً للصاعد فيه متصلاً قديم البنيان منه ما قد تهدّم، ومنه ما بقي أثره يتمادى على الشط إلى أسوان آخر صعيد مصر، وبين أسوان وبين قُوص ثمانيَة بُرُد، وخبر هذا الحائط مذكور مشهور.

ومن جبل المقلة إلى منفلوط منَ الشط الغربيّ مُيَامِناً للصاعد، وبه الأَسواق، وسائر ما يُحتاج إليه من المرافق، وقمح هذه القرية يجلب إلى مصر لطيبه ورزانة حَبّتِهِ.

ومنها إلى مدينة أسيوط وهي من مدن الصعيد الشهيرة، بينها وبين الشط الغربي

من النيل مقدار ثلاثة أميال، وهي جميلة المنظر، حولها بساتين النخْل، ومسجدها قديم.

ومنها إلى أبي تيْج، بلد فيه الأَسواق، وسائر مرافق المدن، وهو في الشط العربي من النيل.

ومنها إلى مدينة إخميم وهي من مدن الصعيد الشهيرة المذكورة بشرقي النيل، وبشطه، قديمة الاختطاط، فيها مسجد ذي النون المصريِّ، ومسجد داود أحد الصالحين المشهورين، ومسجدان آخران مشهوران بالبركة. وبهذه المدينة آثار مصانع من بنيان القبط، وكنائس معمورة بنصارى القبط.

وبها (البربا) المشهور ـ أحد عجائب الدنيا ـ وهو هيكل عظيم شرقي المدينة، وتحت سورها، طوله مئتا ذراع، وعشرون ذراعاً، وسعته مئة وستون ذراعاً، قد قام هذا الهيكل العظيم على أربعين سارية غير حيطانه، دَوْر كل سارية منها خمسون شبراً، وبين كل سارية وسارية ثلاثون شبراً، ورؤوسها في نهاية من العِظَم والإتقان قد نُحِتَتْ نَحْتاً غريباً. فجاءت مركبة، بديعة الشكل، كأَنَّ الْخَرَّاطين تَناولوها، وهي كلها مرشَّقة بأَنواع الأَصبغة اللاَّزَوَرْدِية، وسواها، والسواري كلها منقوشة من أسفلها إلى أعلاها، وقد انتصب على رأس كل سارية إلى رأس صاحبتها التي تليها لوح عظيم، من الحجر المنحوت، من أعظمها ما طوله ستة وخمسون شبراً، وعرضه عشرة أشبار، وثمانيَة أشبار، ارتفاعاً، وسقف هذا الهيكل كله من أنواع الحجارة المنتظمة ببديع الإلصاق، كأَنها فَرْشٌ واحد، وقد انتظمت جَمِيعَهُ التصاويرُ البديعةُ، والأَصبغةُ الغريبة حتَّى يخيل للناظر فيها أنها سَقْف من الخشب المنقوش، والتصاوير على أنواع، في كل بلاط منْ بلاطاته، فمنها ما قد جللته طيور رائقة، باسطة أجنحتها، توهِم الناظرَ إليها أنَّها تهمُّ بالطيران، وتصاوير آدمية رائقة النظر، رائعة الشكل، أُعِدَّتْ لكل صورة منها هيئة هي عليها، كَإِمْساكِ تمثال بيدها أو سلاح أو طائر أو كأْس، أو إشارة شخص إلى آخر بيده، أو غير ذلك مما يطول الوصف له، وداخل هذا الهيكل العظيم وخارجه وأعلاه وأسفله تصاوير كلها مختلفات الأَشكال والصفات، منها تصاوير هائلة المنظر، خارجة عن صور الآدمِيِّيْنَ، يستشعر الناظر إليها رهباً ويَتَمَلأُها عبرة وتعجباً، وما فيه مغرز إبرة إلا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمسند لا يُفهم، فسبحان الموجد للعجائب، لا إله سواه، وأعلى هذا الهيكل سطح مفروش بأَنواع الحجارة العظيمة، على الصفة المذكورة، وهي في نهاية الارتفاع، فيحار الوهم فيها، وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج، والمصاعد والمعارج،

والمسارب والموالج، ما تضل فيه الجماعات من الناس، ولا يهتدي بعضهم لبعض إلا بالنداء العالي، وعرض حائطه ثمانية عشر شبراً، وبالجملة هو من إحدى عجائب الدنيا التي لا يبلغها الوصف، ولا ينتهي إليها الحد، وإنما وقع الإلماع بنبذة من وصفه.

وبعد إخميم موضع يُعرف بمنشأة السودان، على الشط الغربي من النيل، وهي قرية معمورة، ويقال: إنها كانت قديماً مدينة كبيرة، وقد قام أمامَ هذه القرية بينها وبين النيل رصيفٌ عال من الحجارة كأنه السور، يضرب فيه النيل ولا يعلوه عند فيضه، وهذه القريةُ بسببه في أَمْنٍ من أَتِيِّهِ.

ومنها: موضع يُعرف بالبلينة قرية حسنة كثيرة النخل بالشط الغربي من النيل، بينها وبين قوص أربعة برد.

ومنها: موضع يُعرف برشنة، بالشط الشرقي من النيل، وهي مدينة مسورة فيها جميع مرافق المدن وبينها وبين قوص بريدان.

ومنها: موضع بغرب النيل، وعلى مقربة من شطه يعرف بدندرة، وهي مدينة من مدن الصعيد كثيرة النخل، مستحسَنَة المنظر، مشتهرة بطيب الرطب، وبينها وبين قوص بريد، وذُكِر لنا أنَّ فيها هَيْكَلاً عظيماً أجلَّ من الذي ذكرناه، عند إخميم.

ومنها: مدينة قنا، وهي من مدن الصعيد بيضاء أنيقة المنظر، ذات مبان جليلة، ومن مآثرها صون نساء أهلها، والْتِزَامِهِنَّ البيوت فلا تظهر في زقاق امرأة البتة، وكذلك نساء دشنة المتقدمة. وقنا في الشط الشرقي من النيل، وبينها وبين قوص نحو البريد.

ومنها: قفط وهي مدينة بشرقي النيل، وعلى مقدار ثلاثة أميال من شطه، وهي من المدن المذكورة في الصعيد حسناً ونظافة بنيان، وإتقان وضع.

ثم قوص وكان مقامنا في النيل ثمانية عشر يوماً ودخلناها في التاسع عشر، وهي مدينة جميلة الأَسواق، متسعة المرافق، كثيرة الخلق، لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار من الهند واليمن والحبشة، لأَنها محضر الجميع، ومحط الأَرحال، ومجتمع الرفاق، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين، ومَن يتصل بهم، ومنها يتوجهون بصحراء عيذاب وإليها انقلابهم من الحج.

قال: وكان نزولنا بفندق يُنسبُ لابن العجمي بالمنية، وهو ربض كبير خارج البلد، في حجرة على باب الفندق، وبرزنا منها بعد قضاء مأربنا من زاد وسواه إلى

المبرز، موضع بقبلي البلد، قريباً منه، فسيح الساحة، محدق بالنخيل فيه الحاج والتجار، ويوزن ما يحتاج إلى وزنه على الجمّالين، ويرحّلون منه إلى موضع يُعرف بالحاجر، تبيّت القافلة به، ومنه إلى موضع يُعرف بقلاع الضياع، وكان المبيت بموضع يُعرف بمحط اللقيطة (؟) كل ذلك في صحراء لا عمارة بها.

ثم رحلنا غدوة فنزلنا على ما يُعرف بالْعَبْدَيْنِ، يُذكر أنهما ماتا عطشاً قبل أن يَرِدَا فَسُمِّي ذلك المحل بهما، وقبراهما به، والإقامة به لتزود الماء ثلاثة أيام.

وسرنا في صحراء، نبيت منها حيث يجن النيل، والقوافل صادرة وواردة، والمفازة معمورة بالأَمن ثلاثة أيام بلياليها، وينزل يوم الرابع على ماءٍ يُعرف برقاش، وهي بئر معينة يرد فيها من الأَنام والأَنعام ما لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولا يُسَافَرُ في هذه الصحراء إلا بالإبل، لصبرها على الظمإ، وأحسن ما يركب عليها ذو الرفاهية الشقادِيف، وأحسن أنواعها اليمانية، وأكثر المسافرين يركبون الإبل على أحمالها فيكابدون من سموم الحر عناءً ومشقَّةً، والمقصد من قوص إلى عيذاب على طريقين: أحدهما يُعرف بطريق العبْدَيْن وهي المشروحة وهي أقصر مسافة، ولها طريق أخرى دون قنا، وهي قرية على شاطىء النيل، تسمى مرقه، ومُجْتَمَع هذين الطريقين بالقرب من ماء رقاش المذكورة، ولها مجتمع آخر على ما يُعرف بشاغب، أمام ماء دنفاش (؟) بيوم، والإقامة بدنفاش (؟) يوماً وليلة للتزوُّد من الماء، ويرحل منه إلى ماء شاغب، وهذا الماء من حفائر تُحفَر ويستقَى بها، يتزود منها الماء لثلاثة أيام إلى ماء بموضع يُعرف بأَمتان، وهناك طريق آخر، إلى ماء يُعرف بموضع آخر، يُعرف بالحميثرة، بينه وبين ساعب يوم واحد، غير أنَّ الطريق إليه وَعْر للإبل، وماء أَمتان المذكورة من بئر معينة، هي أطيب مياه الطريق، وأعذبها، فتروي القوافلِ النازلة عليها على كثرتها، لما فيها من البركة، ولكثرةِ القوافل التي لو وردت نَهْراً من الأَنهار لما وسعها لا سيَّما الواصلة من الهند إلى اليمن، ومن اليمن إلى عيذاب، وأكثر ما شاهدنا أحمال الفلفل وإنها لتوازي التراب قيمة، وأعجب ما شوهد بهذه الصحراء أنك ترى أحمال الفلفل والقرفة وسائر السلع مطروحة، لا حارس بها، تترك بهذه السبيل إما لإِعْيَاءِ الإبل الحاملة لها، أو لغير ذلك من الأَعذار فتبقى في موضعها إلى أن يتسلّمها صاحبها، مصونة من الآفات، على كثرة المارِّين عليها، من أطوار الناس، ورحلنا من أمتان إلى محل ما يعرف بمجاج، بمقربة من الطريق، وتزوّدنا الماء منه لأَربعة أيام، إلى ماء بموضع يُعرف بالعشراءِ، على مسافة يوم من عيذاب، ومن هذه المرحلة تسلك الوضح، وهي رملة تتصل بساحل بَحْرِ جدة، يمشي فيها إلى عيذاب وهي منها مَدَّ البصر يميناً وشمالاً.

فرحلنا من مجاج سالكين على الوضح، إلى أن صرنا بآخر الوضح، نحو ثلاث مراحل من عيذاب، ومنها إلى العشراءِ وهو مورد ماء، ومن إلى عيذاب مرحلتان، وبهذا الموضع كثير من شجر العشر وهو شبيه بشجر الأُترج، لكن لا شوك له، وماء هذا الموضع ليْس بخالص العذوبة، وهو في بئر غير مطويَّة، وألفينا الرمل قد انهال عليها، وغطّى ماءها.

ومنها: إلى منزلة تُعرف بالخبيب، وهو موضع بمرأى العين من عيذاب، وعلى ميلين منها، وماؤُه في بئر معينة، وهو جُبٌّ كبير، تستقي منه القوافل وأهل البلد.

وأما عيذاب فهي مدينة على ساحل بحر جدة غير مسوَّرة، أكثر بيوتها الأَخصاص، وفيها الآن بناء مستحدَث بالجص، وهي من أجَل مراسي الدنيا، بسبب أن مراكب اليمن والهند تحطُّ فيها وتُقلع منها، زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرين والواردين، وهي في صحراء لا نبات فيها، ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب، لكنَّ أهلها يرتفقون من الحجاج والتجار، ولهم على كل حِمْلِ طعام يحملونه ضريبة معلومة خفيفة المؤنة، وما مِنْ أهلها ذوي اليسار إلا مَن له الجلبة والْجلْبَتَان، تحمل الحجاج ذهاباً وإياباً، فهي تعود عليه برزق واسع.

وكان نزولنا فيها بدار تُعرف برمح (؟) أحد قوادها الحبشيين الذين تأَثَّلُوا بها الجلب والديار والرباع.

وفي بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ في جزائر، على مقربة منها، ويستخرج منه جوهر نفيس، له قيمة، يذهب الغائصون عليه إلى تلك في الزواريق، ويقيمون فيها فيعودون بما قسم لهم، لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق والمغاص بها قريب القعر ليس ببعيد، ويستخرجونه في أصداف لها أرواح كأَنها نوع من الحيتان أَشبه شيء بالسلحفاة، فإذا انْشَقَّت ظهرت الشقتان من داخلها كأنها مَحَّارَتَا فِضَّة، ثم يشقون عليها فيجدون بها الحبة من الجوهر، قد غَطَّى عليها لَحْمُ الصدف، فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ.

وعيذاب لا رَطْبَ بها ولا يابس، عيشهم بها عيش البهائم فسبحان محبِّب الأَوطان إلى أهلها، على أنهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الأَنس، والركوب من جدة إليها آفة للحجاج عظيمة، والأَقل منهم من يسلم، وذلك أَنَّ الرياح تلقيهم على الأَكثر في مراسي بصحارى تبعد منها مما يلي الجنوب، فتنزل إليهم البجاةُ وهم نوع من السودان، ساكنون بالجبال، فيكرون منهم الجمال، ويسلكون بهم غير طريق الماء،

فربما ذهب أكثرهم عطشاً، ومضوا على ما معهم من نفقة وسواها. ومن الحجّاج مَن يتعسّف تلك المجهلة على قدميه، فيضل ويهلك عطشاً، والذي يسلم منهم يصل إلى عيذاب، كأنه نُشِر من الكَفَنِ، لألوانهم المستحيلة وسحناتهم المتغيرة، وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسي، ومَن نجا وسلم وهم الأقل تحطُّ به الريح بمرسى عيذاب.

وجلاب هذا البحر لا يستعمل بها مسْمَارٌ البتة إنما هي مخيطة بأمراس من قشر جوز الهند المسمّى بالنارجيل، يبرمونه إلى أن يتخيَّطَ فيفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب، ويخللونها بِدُسُر من عود النخيل، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن، أو بِدُهْن الخروع، أو بدهن الْقِرْشِ وهو أحسن، وهذا القِرْش حوت عظيم في البحر، يبتلع الْغَرْقى، وإنما يدهنون الجلاّب لقصد لِين عودها، وترطيبها، لكثرة الشعوب المعترضة في هذا البحر، وأخشاب هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن، وشراعها حُصُرٌ منسوجة من خوص شجر الْمُقْل، فجميعها متناسبة في اختلال البنية ووهنها، فسبحان مسخرها على تلك الحال لا إله سواه.

ولأهل عيذاب في الحجيج أحكام الطواغيت، لأنهم يشحنون المراكب حتى يجلس بعضهم على بعض، كأنها أقفاص الدجاج، المملوء، حرصاً على الكراء، حتى يستوفي صاحب الجلبة ثمنها في طريق واحد، ولا يهتم بصنع البحر فيها.

وأهل عيذاب الساكنون بها طائفة من السودان يُعرفون بالبجاة، ولهم سلطان من أنفسهم، يسكن معهم في الجبال المتصلة بها ورُبّما جاء في بعض الأحيان، وقابل الوالي الذي من جانب الْغُزِّ، إظهاراً للطاعة.

وطائفة البجاة أضل من الأنعام سبيلاً، وأقل عقولاً، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة ما لا ينحصر وهم عراة يسترون عوراتهم بخِرق.

ومن عيذاب يكون ركوب الجلبة إلى جدة فكانت إقامتنا بعيذاب ثلاثة وعشرين يوماً في شَرِّ حال، وعيش رديء، واختلال من الصحة لقلة الغذاء، وهواء حار يذيب الأجسام، وما ظنك ببلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء، والحلول بها من أعظم المكاره التي حُفَّ بها السبيل إلى البيت العتيق.

ويذكرون أنَّ سليمان بن داود عليه السلام كان اتخذها سجناً للفراعنة.

وإنما منع الحجاج العدول عنها إلى الطريق التي هي من مصر على عقبة أيلة إلى المدينة المقدسة وهي مسافة قرية يكون البحر فيها يميناً، وجبل الطور المعظَّم يساراً لكون الفرنج بمقربة منها لهم حصن مندوب يمنع الناس من سلوكه.

وكان المسير من عيذاب في البحر، في يوم الثلاثاء، والريح مختلف تارة وتارة، فدخلنا مرسى جدة يوم الثلاثاء القابل، فالمسافة ثمانية أيام. انتهى ما ذكره في رحلته بعبارته إلا ما حذفته للإطالة.

فنعود إلى ذكر المحامل المشهورة وأقول: أول مَن كَسَا الكعبة من الأَتراك وجهّزها من المملكة المصرية الملك الظاهر بيبرس الصالحي في سنة إحدى وستين وست مئة، وعدة المحامل المشهورة الواردة من الأقاليم إلى الحجاز أربعة من العراق ومصر والشام واليمن، وفي نادر السنين حجّ الحلبيون بمحمل، وفي بعض حج الكركيون بمحمل، وقد انقطع محمل العراق ـ كما سيأتي ذكره ـ وانقطع محمل اليمن، ثم عاد على زمن مصطفى باشاه، واستمر إلى تاريخه كما سيأتي ذكره، فالمحامل في زمننا ثلاثة من مصر، وهو الذي تصحبه الكسوة، وتعلقات آل الحرمين وصدقاتها، ولذلك كان أميره مقدّماً في الرتبة والمنزلة، ومن الشام ومن اليمن.

وسيأتي ذكر منازل كل محمل ممن ذكرنا مفصلاً في بابه على حدة فلنرجع إلى ذكر الأمراء وبيانهم على تعاقب السنين.

وأول ذلك سنة ثمان من الهجرة قد مَرَّ قريباً أنَّ فتح مكة كان في شهر رمضان سنة ثمان، فلم يأذن رسول الله ﷺ تلك السنة في الحج، وذلك أنَّ الحج وقع تلك السنة في ذي القعدة، فلما جاء الحج أجمع المسلمون والمشركون فدفعوا معاً فكان عتَّابُ بن أَسِيدٍ مع المسلمين في ناحية يدفع بهم، ويقف بهم المواقف لأنه أمير البلد، فكان أولَ أمير أقام الحج في الإسلام، وكان المشركون ممن له عهد في ناحية يدفع بهم أبو سيَّارة العدواني على أتانٍ عوراء، حبلها ليف ـ كما قدّمنا ذكره في بابه ـ.

ولما فرض الله الحج في سنة تسع استعمل رسول الله ﷺ في ذي القعدة أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه على الحج، وأمره أنْ يُخالف المشركين لأنهم كانوا يقفون بِجَمْع، وهي المزدلفة، فيقف بعرفة ولا يدفع منها حتى الليل، ويدفع مَن جمع قبل طلوع الشمس. فخرج في ثلاث مئة رجل من المدينة الشريفة، وبعث النبيُّ ﷺ معه بعشرين بدنةً، قلّدها وأشعرها بيده، عليها ناجية بن جُندب الأَسلميُّ، وساق أبو بكر رضي الله عنه خمس بدنات، فلما كان بالْعَرْج وقيل بضجْنَان ثَوَّبَ الصُّبْحَ، فلما استوى التكبير سمع الرَّغْوَةَ خلف ظهره، فوقف عن التكبير، وقال: هذه ناقة رسول الله ﷺ الْجَدعاء، لقد تذكّر رسول الله ﷺ في الحج فلعله أن يكون رسول الله ﷺ، فَنُصَلِّي معه، فإذا علي ـ كرّم الله وجهه ـ فقال له أبو بكر

رضي الله عنه: أَمِيْرٌ أم رسول؟! فقال: لا بل رسول أرسلني رسول الله ﷺ ببَرَاءة، أَقْرَأُها على الناس في مواقف الحج. فقدموا مكة، فلما كان قبل التَّروية بيوم، قام أبو بكر رضي الله عنه فخطب الناس، فحدّثهم عن مناسكهم، حتى إذا فرغ قام علي رضي الله عنه فقرأ على الناس بَراءة حتى ختمها ثم كان يوم النحر فأفاضوا، فلما رجع أبو بكر رضي الله عنه خطب الناس قبل الجمرة فحدّثهم عن إفاضتهم وعن نَحْرهم وعن مناسكهم، فلما فرغ قام عليٌّ فقرأ على الناس بَرَاءَةَ حتى ختمها. فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر رضي الله عنه فخطب الناس وحدّثهم كيف ينفرون وكيف يَرْمون، وعلّمهم مناسكهم، فلما فرغَ قام علي رضي الله عنه وقرأ براءة حتى ختمها. ونَبَذَ علي كرّم الله وجهه إلى كل ذِيْ عَهْدٍ عهده فنادى بأربع حتى ضَجِرَ صوته: ألا لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة، ولا يحجّنّ بعد العام مشركٌ، ولا يطوف بالبيت عُرْيان، ومَن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عَهْدٌ فإن أجله إلى مدته، ومَن لم يكن بينه وبينه عهد فأجله إلى أربعة أشهر يسيحون فيها حيث شاؤوا، فإذا مضي الأَجل فإنَّ الله بريء من المشركين ورسوله، فقال المشركون أو بعضهم: بل الآن لا نبتغي تلك المدة، نبرأ منك ومن ابن عمك، إلاّ من الضَّرْب والطَّعْن. فلما رجعوا أرعب الله المشركين، فدخلوا في الإسلام طوعاً وكرهاً، وأرسل رسول الله ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه بمال يعمل به طعاماً للحجاج، كما كانت قريش تعمل في الجاهلية فعمله، وكان حج أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ذي القعدة، لأنهم كانوا يحجُّون في كل عام شهرين، فلما رجع أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه إلى المدينة قال: يا رسول الله مَا لِي؟! قال: «خير أنت صاحبِي في الغار، غير أنه لا يُبَلِّغُ غَيْرِي أَوْ رَجُلٌ مِنِّي» يعني عليًا رضي الله عنه[1].

السنة العاشرة من الهجرة: حجّ رسول الله ﷺ حجّة الوداع كما تقدّم، وحجّ معه الجمُّ الغَفير، فإنّه نادى لجميع الناس بالحج إلا مَنْ تَخَلَّف لعذر، كما تقدّم بيانه. وكان الحج في هذه السنة في شهر ذي الحجة، واستمر على ذلك إلى يوم القيامة.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال إن رسول الله ﷺ غَزَا تسع عشرة وأنه ﷺ حجّ بعدما هاجر حجّةً واحدة وهي حجّة الوداع[2] قال أبو إسحاق: وبمكّة أُخرى. رواه مسلم؛ وأبو إسحاق هو السَّبِيْعيُّ. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال إن

(١) أخرجه الإمام أحمد. وانظر: البداية والنهاية لابن كثير [٥/ ٣٤].

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد [٣/ ١٤٤٧] ح [١٤٤/ ١٢٥٤].

النبيَّ ﷺ حجّ ثلاث حجج حجتين قبل أنْ يهاجر وحجة بعدما هاجر قرن معها عمرة. رواه الترمذي وهذا لفظه[١] وابن ماجه[٢] والدارقطنيُّ والحاكم[٣] وصححه على شرط مسلم.

وقال ابن حَزْم: حجّ رسول الله ﷺ واعتمر قبل النُبوّة وبعدها قبل الهجرة حِجَجاً وعُمَراً لا يُعرف عددُها.

سنة إحدى عشرة من الهجرة: توفي فيها رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأوَّل، وقيل غير ذلك واسْتُخْلفَ أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه. وكان عامل مكة عتَّاب بن أَسِيد الأَمويُّ وحجّ هو بالناس[٤]، وقيل عبد الرحمٰن بن عوف الزهريُّ رضي الله عنه[٥]، وقال المسعودي في «مروج الذهب»: حجّ بالناس عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

سنة اثنتي عشرة: حجّ بالناس خليفةُ رسول الله ﷺ أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، كذا ذكره ابن جرير[٦]، وأبو الفرج بن الجوزيُّ[٧]، وقال ابن الأثير: إن الذي حجّ في هذه السنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٨]، أو عبد الرحمٰن بن عوف، لكنه قال في أول سنة ثلاث عشرة سنة: إن أبا بكر رضي الله عنه وجّه الجنود إلى الشام بعد عودهِ من الحج، وهذا مؤكد للأَول وفيها حجّ خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق سِرًّا، ومعه عدة من أصحابه، يعسف البلاد، فأَتى مكة، وحجَّ ورجع فما تَوَافَى جنده بالحِيْرة، حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدماها (؟) وخالد وأصحابه مُحَلِّقونَ، ولم يعلم بِحَجِّهِ إلاَّ مَنْ أعلمه، ولم يعلم أبو بكر رضي الله عنه بذلك إلاَّ بعد رجوعه، فَعتب عليه وكانت عقوبته إيَّاه أنْ صرفَهُ من العراق إلى الشام مُمِدًّا جموع المسلمين باليرموك.

---

(١) أخرجه الترمذي في الحج [٣/ ١٦٩ ـ ١٧٠] ح [٨١٥] وقال: حديث غريب من حديث سفيان.

(٢) في كتاب المناسك [٢/ ١٠٢٧] ح [٣٠٧٦].

(٣) في كتاب المناسك [١/ ٤٧٠].

(٤) انظر: تاريخ الطبري [٣/ ٢٤٢].

(٥) انظر: تاريخ الطبري [٣/ ٢٤٢].

(٦) انظر: تاريخ الطبري [٣/ ٣٨٦].

(٧) وذكره الواقدي. انظر: تاريخ الطبري [٣/ ٣٨٦].

(٨) أخرجه الطبري بإسناده عن ابن إسحاق. تاريخ الطبري [٣/ ٣٨٦].

سنة ثلاث عشرة من الهجرة: فيها مات الخليفة أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه لثمان بقين من جمادى الآخرة ويقال مات بعد أن استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي يوم موته مات عامل مكة عَتَّابُ بن أُسيد الأَموي، ودُفن يوم جاء نعيُ أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه. وفيه نظر.

وفيها حجّ بالناس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أو عبد الرحمٰن بن عوف، على ما ذكره ابن الزُّبير، وقال ابن الجوزي وابن جرير الطبريُّ: القول الثاني[١] وهو أصحُّ. وجزم به المسعوديُّ في «مروج الذهب».

سنة أربع عشرة: حجّ بالناس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٢].

وفي سنة سبع عشرة: حجّ بالناس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[٣]، وفيها أمر مَخْرَمة بن نوفل والأَزهر بن عبد عوف وحويطب بن عبد الْعُزَّى وسعيد بن يربوع بتجديد أنْصاب الحرم، واستأْذنه أهل المياه في أن يَبْنُوا منازلَ بين مكة والمدينة فأَذِنَ لهم، وشرط عليهم أن ابْنَ السبيل أَحَقُّ بالكلأ والماء.

وفيها وسَّع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسجد الحرام، بدور اشتراها ودُوْرٍ هدمها على مَن أبى البيع، وترك ثمنها لأَربابها في خزانة الكعبة حتى أخذوها بعد. وعمر الرَّدْمَ الذي بأعلى مكة صَوْناً للمسجد، بناه بالظَّفائر والصَّخر العظام، وكبسه ولم يعله سَيْلٌ منذ رَدْمه.

وكان حصل في هذه السنة سيل عظيم يُعرف بسيل أُمّ نَهْشَل لموتها فيه، فدخل مكة من أعلاها وعلا على المسجد الحرام، واقتلع مقام إبراهيم عليه السلام، وذهب به من موضعه حتى وُجد بأسفل مكة، وربط بلصق الكعبة ـ يعني مكانه ـ فكتب في ذلك لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأَقبل فزعاً، ودخل بعمرة في شهر رمضان، وأقام بها عشرين ليلة فدعَا بالناس فقال: أنشد الله عبداً عنده علم من هذا المقام، فأَخبره به المطلب بن أبي وداعة السهمي فوضعه في محله، وعلَّمه ببناء وحصَّنه تحت المقام ثم جوَّفه، فهو في مكانه هذا إِلى اليوم.

سنة ثماني عشرة: حجّ الناس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٤].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٣/ ٤٧٩].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٣/ ٥٩٧].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٤/ ٩٤].
(٤) انظر: تاريخ الطبري [٤/ ١٠١].

سنة تسع عشرة: حجّ بالناس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[١]، وحجّ أبو سفيان بن الحارث، فلما حلق رأسه قطع الحلاق ثُؤْلُولاً كان في رأسه فلم يزل مريضاً حتى مات بعد مقدمه الحج إلى المدينة في السنة بعدها.

سنة عشرين إلى ثلاث وعشرين: حجّ بالناس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي حجته الحادية عشرة من خلافته وفي هذه السنة اجتمع بِأُوَيْسٍ الْقَرَنِيِّ في أراكةٍ بعرفة، وهو في طِمْرَيْنِ من صوف أبيض، قد صفّ قدميه قديماً يُصَلِّي، والإبل ترعى حوله ومن كلامه له: يا أَبَا حَفْصٍ إِنَّ الدنيا غَرَّارَةٌ زائلة فانية، فمَن أمْسَى وهمته فيها اليوم مَدَّ عُنُقَهُ إِلى غَد، ومَن مدَّ عنقه إلى غَد علق قلبه بالجمعة، ومَن علق قلبه بالجمعة لم ييأس من الشهر، وأوشك أن يطلب السَّنَة، وأجله أَقرب إِليه من أمله، ومَن رفض هذه الدنيا أدْرك ما يريد غداً، من مجاورة الجبار، وجرت من تحت منازله الأَنهار، وتدلَّتْ من فوقها الثمار، وله قصة طويلة يأْتي ذكرها فيمن حجّ من الصحابة وآخرها: ثم ساق الإِبل وتوجه.

ولما صدر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من مِنَى، أناخ بالإِبطح، ثم كَوَّمَ كُوْمةً من البطحاء ثم ألقى عليه طرف ثوبه، فاستلقى، ومدَّ يده إلى السماء فقال: اللهم ضعفت قوتي، وكبر سني ورَقَّ عظمي وانتشرت رعيتي، فاقبضني إِليك غير مُضَيَّع ولا مفرط ولا مفتون. ثم رجع إِلى المدينة، فما انسلخ ذو الحجة حتى قُتل رضي الله عنه، وبويع عثمان بن عفان رضي الله عنه.

سنة أربع وعشرين: فيها حجَ بالناس أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه[٢].

وقيل: عبد الرحمٰن بن عوف[٣]، بأَمره، وفيها أو في سنة ست وعشرين: أمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه عبدَ الرحمٰن بن عوف أن يُجَدِّدَ أنصاب الحرم، فبعث عبد الرحمٰن نفراً من قريش، منهم حويطب بن عبد الْعُزَّى، وعبد الرحمٰن بن أزهر فجدّدوا أنصاب الحرم.

سنة خمس وعشرين: حجّ بالناس أمير المؤمنين عثمان بن عفان[٤] رضي الله عنه.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٤/١٠٣].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٤/٢٤٩].
(٣) قاله أبو معشر، والواقدي. انظر: تاريخ الطبري [٤/٢٤٩].
(٤) قاله الواقدي. انظر: تاريخ الطبري [٤/٢٥٠].

سنة ست وعشرين: فيها اعتمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من المدينة فأتى مكة ليلاً ودخلها، وطاف وسعى، ورَحَلَ قبل أن يصبح، ورجع إلى المدينة، وأمر بتوسيع المسجد الحرام، بدور اشتراها، ودور هدمها على مَن أبى البيع وترك ثمنها لأربابها في خزانة الكعبة، وأمر بهم فحُبسوا وقال: قد فعل ذلكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يصيحوا به، فكلّمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأطلقهم(١). وجدّد أنصاب الحرم، وحوّل ساحل مكة القديم وهو الشُّعَيْبَة إلى ساحلها الآن المعروف بِجدة لقربها من مكة، وخرج إليها واغتسل في بحرها وقال: إنه مبارك وأمر أن لا يدخله أحد معه [إلا] بمئزر، ثم خرج من جدة على طريق عسفان إلى الجار، وانصرف إلى المدينة وفيها حجّ بالناس هو أيضاً.

سنة سبع وعشرين إلى تسع وعشرين: فيها حجّ بالناس أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وضرب فسطاطه في سنة تسع وعشرين، بِمِنَى، وكان أول فسطاط ضربه عثمان بن عفان رضي الله عنه بمِنَى، وأتمّ الصلاة بها وبعرفة، فعاب ذلك غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم، وقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما حدث أمْرٌ ولا قدِم عهد. ولقد عهدت النبيَّ ﷺ وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما يصلُّون ركعتين، وأنت صدراً من خلافتك. فما درى ما يرجع إليه وقال: رأيٌ رأيته، وبلغ الخبر عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه وكان معه فجاءه وقال له: ألم تُصَلِّ فِي هذا المكان مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ركعتين وصليتهما أنت ركعتين؟ قال: بلى، ولكني أُخبرت أنَّ بعض مَن حجّ من اليمن وجفاة الناس قالوا: إنَّ الصلاة للمقيم ركعتان، واحتجوا بِصلاتي، وقد اتخذت بمكة أهْلاً، ولي بالطائف مالٌ، فقال عبد الرحمٰن: ما في هذا عذر، أما قولك اتخذت بها أهلاً، فإن زوجك بالمدينة تخرج بها إذا شئت، وإنما تسكن بسكناك، وأما مالك بالطائف فبينك وبينه ثلاث ليال، وأما قولك عن حجاج اليمن وغيرهم فقد كان رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحيُ والإسلام قليل، ثم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فصلُّوا ركعتين، وقد ضرب الإسلام بِجِرَانِهِ فقال عثمان رضي الله عنه: هذا رأيٌ رأيتُهُ، فخرج عبد الرحمٰن فلقي ابن مسعود فقال: إنَّ أبا محمد غَيّر ما تعلم، فقال: فما أصنع؟ قال: اعمل ما ترى وتعلم، فقال ابن مسعود: الخلاف شَرٌّ، وقد صليت بأَصحابي أَربعاً، فقال عبد الرحمٰن: قد صليت بأَصحابي ركعتين، وأما أنا فسوف أصلي أربعاً. وقيل: كان ذلك سنة ثلاثين.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٤/٢٥١].

سنة ثلاثين ـ إلى أربع وثلاثين ـ: حجّ بالناس أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

سنة خمس وثلاثين: حجّ بالناس عبد الله بن عباس رضي الله عنه بأَمر من أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو محصور بالمدينة.

سنة ست وثلاثين: فيها اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه محصور بالمدينة الشريفة.

وانصرفت من مكة، ومعها أزواج النبي ﷺ يُرِدْنَ المدينة فلما كانوا بسَرِف، لقي عائشة رضي الله عنها رجلٌ من أخوالها بني اللَّيث فقال لها: قُتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وأجمعوا على بيعة عليبن أبي طالب رضي الله عنه فأَنكرت ذلك، ورجعت إلى مكة، وجمعت جموعاً وتوجهت بها إلى البصرة، ومعها طلحة والزبير لقدومهما عليها بعد قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان عبد الله بن عمر قدم من المدينة ليسير معهم، فأَبى ومنع أخته حفصة من مرافقتهما وتخلّفت مع رفقتها وسافرت عائشة رضي الله عنها بمَنْ معها فوقع لها ما ذُكر في التاريخ من قصة الجمل.

سنة سبع وثلاثين: حجّ بالناس عبد الله بن العباس، بأَمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١].

سنة ثمان وثلاثين: حجّ بالناس عامل مكة، قثمُ بن العباس بن عبد المطلب[٢].

سنة تسع وثلاثين: فيها بعث معاوية رضي الله عنه يزيد بن شجرة الرهاوي في ثلاثة آلاف فارس، إلى مكة، ليقيم للناس الحج ويأْخذ له البيعة بها، وينفي عنها القثم بن العباس عامل علي رضي الله عنه فلما سمع قُثَمُ خطب الناس بمكة وعرَّفهم سَيْر الشاميين، ودعاهم إلى غزوهمْ فلم يجيبوه بشيءٍ، وأجابه شَيْبَةُ بن عثمان العبدري بالسمع والطاعة، فعزم على مفارقة مكة، واللحاق ببعض شعابها ومكاتبة أمير المؤمنين عليٍّ بالخبَر، فإن أمدّه بالجيوش قاتل الشاميين، فنهاه أبو سعيد الخدريُّ عن مُفَارقة مكة وقال: أَقِمْ فإن رأيتهم نيتهم القتال وبك قوة فاعمل برأيك، وإلاَّ فالمسير عنها أمامك،

(١) انظر: تاريخ الطبري [٥/ ٩٢].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٥/ ١٣٢].

فأقام وقدم الشاميون، فلم يتعرّضوا لقتال أحد، وأرسل قثم إلى أمير المؤمنين يخبره فسيَّر جيشاً فيهم الريَّان بن ضمرة بن هَوذة بن عليٍّ الحنفي وأبو الطفيل، أول ذي الحجة، وكان قدوم يزيد بن شجرة قبل التروية بيومين فنادى في الناس: أنتم آمنون إلاّ مَن تعرّض لقتالنا ونازعنا، واستدعى أبا سعيد الخدريَّ وقال له: إني لا أريد الإلحاد في الحرم، ولو شئت لفعلت، لما فيه أميركم من الضعف، فقل له: يعتزل الصلاة بالناس، وأعتزلها أنا، ويختار الناس من يصلي بهم، فقال أبو سعيد لقثم ذلك، فاعتزل الصلاة، واختار الناسُ حاجبَ البيت شَيْبَةَ بن عثمان بن أبي طلحة عبد الله بن عبد الْعُزَّى بن عثمان بن عبد الدار، فَصلَّى بهم، وحجّ بهم فلما قضى الناس حجّهم سار يزيد إلى الشام، وأقبل خيل عليٍّ فأخبروهم بعود أهل الشام فتبعوهم، وقيل: إنَّ الإمام عليًا رضي الله عنه بعث إلى الموسم عُبَيْد الله بن عباس فاجتمع بمكة مع يزيد بن شَجَرَة وتنازعا الإمارة، ولم يسلم أحدهما لصاحبه، ثم وقع الصلح بينهما على أن يعتزل كلٌّ منهما الأمر جميعاً، ويختار الناس مَن يصلي بهم، ويحج بهم، فاختاروا شيبة بن عثمان، وصلّى بهم وحجّ بهم وبهذا القول جزم المسعوديُّ في «مروجه»(١).

سنة أربعين: حجّ بالناس المغيرة بن شُعْبَة، وكان معتزلاً بالطائف، عن كتاب يقال: إنه افتعله على لسان معاوية رضي الله عنه أنه ولاه الموسم، ثم خشيَ أن يجيء أمير منهم للحج يوماً، فوقف بالناس يوم التروية على أنه يوم عرفة، وضحُّوا يوم عرفة، ودعا لمعاوية، وتخلّف عن المغيرة ابنُ عمر رضي الله عنهما ومعظم الناس، فكان ابن عمر رضي الله عنهما وأصحابه مَارِّيْنَ مِنْ مِنًى إلى عرفة، والمغيرة وأصحابه تستقبلهم مفيضين من جَمْع، فأقاموا بعدهم ليلة، وهذا إن صَحَّ عن المغيرة فلعله صحَّ عنده رؤية هلال ذي الحجة على وِفْقِ ما فعل، ولم يصح ذلك عند مَن خالفه والله أعلم، وقيل: إن فعل المغيرة ذلك أنه بلغه أنَّ عتبةَ بن أبي سفيان مُصبِّحه والياً على الموسم(٢).

سنة إحدى وأربعين: حجّ بالناس أمير مكة عتبة بن أبي سفيان الأمويُّ بأمر شقيقه أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه(٣).

---

(١) انظر: مروج الذهب [٣/ ٢٥٧]، تاريخ الطبري [٥/ ١٣٦].

(٢) انظر: تاريخ الطبري [٥/ ١٦٠].

(٣) هذا في قول أبي معشر، وأما الواقدي فقال: حجّ بالناس عنبسة بن أبي سفيان. انظر: تاريخ الطبري [٥/ ١٧١].

سنة اثنين وأربعين: كذلك[١].

سنة ثلاث وأربعين: حجّ بالناس أمير المدينة مروان بن الحكم الأَمويّ[٢].

سنة أربع وأربعين: حجّ بالناس أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أُمية بن عبد شمس القرشيّ الأَموي[٣]، وقدم معه بمنبر صغير، على ثلاث درجات، فخطب عليه، وهو أول مَن خطب بمكة على مِنْبَر، وكانت الخلفاء والولاة قبل ذلك يخطبون يوم الجمعة على أرجلهم قياماً، في وجه الكعبة وفي الْحِجْر، وقدَّم له هدية عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحيُّ أَلْفَي شاة، واشترى دار الندوة من أبي الدهين العبدريِّ بمئة ألف درهم، فجاءه شيبة بن عثمان العبدريُّ فقال له: إن لي فيها حقاً وقد أخذتها بالشفعة، فقال له معاوية: فأَحضر المال، قال: أدفع به إليك الْعَشِيَّة، وقال ذلك بعدما صدر الناس عن الحج، وكان معاوية تهيَّأ للخروج إلى الشام، فصلّى معاوية بالناس العصر، ثم دخل المطاف فطاف بالبيت سبعاً، وصلّى خلف المقام ركعتين، ثم انصرف فدخل دار الندوة، فقال له شيبة حينئذ: قد أحضرت المال، فقال له اثبتْ حتى يأْتيك رأيي، فأَحذف الباب، وأَرخَى الستر، وركب معاوية رضي الله عنه من الدار دوابه، وخرج من الباب الآخر مسافراً، ومضى إلى المدينة، وشيبة لا يشعر به، حتى جاء المؤذنُ، وآذنه بصلاة المغرب، فخرج والي مكة عبد الله بن خالد بن أسيد، فقام إليه شيبةُ وسأَله عن معاوية فقال: راح إلى الشام، قال شيبة: والله لا كلمته أبداً.

سنة خمس وأربعين: حجّ بالناس أمير المدينة مروان بن الحكم الأَمويُّ[٤].

سنة ست وأربعين: حجّ بالناس مروان بن الحكم الأَمويُّ، ويقال: سعيد، أبو الوليد عتبة بن أبي سفيان الأَمويُّ، أخو معاوية لأَبيه[٥].

سنة سبع وأربعين: كذلك[٦].

---

(١) وعند الطبري وقع في النسخة المطبوعة [عنبسة].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٥/ ٢١١].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٥/ ٢١٥].
(٤) انظر: تاريخ الطبري [٥/ ٢٢٦].
(٥) وهكذا قطع الطبري في تاريخه [٥/ ٢٢٨].
(٦) هكذا قال الواقدي، وقال غيره: بل الذي حجّ في هذه السنة عنبسة بن أبي سفيان. انظر: تاريخ الطبري [٥/ ٢٣٠].

سنة ثمان وأربعين: حجّ بالناس مروان بن الحكم الأمويّ[١]، ويقال: سعيد بن العاص.

سنة تسع وأربعين: حجّ بالناس أمير المدينة سعيد بن العاص الأَموي[٢].

سنة خمسين: حجّ بالناس أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان الأَموي[٣]، كذا قال العتيقيُّ. وقال المسعودي: إن الذي حَجَّ بِالناس في هذه السنة يزيد بن معاوية[٤]، واتّفق لمعاوية في حجته الثانية أنه بعث إلى شيبة بن عثمان أن يفتح بابَ الكعبة حتى يدخلها، ويصلي فيها، فأَرسل إليه المفتاح مع حفيدهِ شيبة بن جبير، وهو غلام حدث، ولم يَأْتِهِ، ولم يسلّم عليه، فلما رآه معاوية اسْتصْغَره، وقال له: مَن أنت يا حبيب؟ قال: أنا شيبة بن جُبَيْر، فقال: لا بَأسَ يا ابن أخي غَضِب أبو عثمان شيبة؟ وسبب غضبه ما تقدّم له من شراء دار الندوة في حجته الأولى، فكان حفيده شيبة يفتح له الكعبة فدخلها معاوية وأجاف عليه الباب، ولم يدخلها معه إلا حاجبه أبو يوسفَ الْحِمْيَرِيُّ فبينا معاوية يدعو ويصلي إذا بحلقة الباب تُحَرَّكُ تحريكاً خفيفاً، فقال معاوية: يا شيبة انظر هذا عثمان بن محمد بن أبي سفيان، فإن كان أتى فأَدْخله، ففتح الباب فإذا هو، فأَدخله، ثم تحركت الحلقة تحريكاً أشدَّ من الأَول فقال معاوية: انظر هذا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فإن كان إياه فأَدخله فلما فتح وجده، فأَدخله، ثم قال لأَبي يوسف الحِمْيَرِيِّ: انظر عبد الله بن عمر فإن رأيته خلف المقام، حتّى أسأله أين صلّى رسول الله ﷺ من الكعبة فطلبه فقال: يا أبا عبد الرحمٰن أين صلّى رسول الله ﷺ من الكعبة؟ قال: بين الْعَمُوْدَيْنِ المقدميْنِ، اجعل بينك وبين الجدار ذرَاعَيْنِ أو ثلاثاً. فبينما هم كذلك إذ رَجَّ الباب رَجًّا شديداً، وحركت الحلقة تحريكاً أشدَّ من الأَول فقال معاوية لشيبة: انظر هذا عبد الله بن الزبير، فإن كان إياه أَدخله، فنظره فإذا هو فأَدخله، فأَقبل على معاوية وهو مُغْضَبٌ فقال: إِيْهاً يا ابن أبي سفيان تُرْسل إلى عبد الله بن عمر تسأَلُ عن شيءٍ أَنَا أعلم به منك ومنه حسداً لي، ونفاسةً عليَّ؟! فقال له معاوية: على رِسْلِكَ يا أبا بكر، فإنما نرضاك لِبَعْضِ دُنْيَانا، فصلّى معه وخرج، فدخل معاويةُ زَمْزَم، ونزع منها دَلْواً فشرب منه، وصبَّ باقيهِ على رأسه وثيابه، ثم خرج فمرّ بعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه خلف المقام، في حلقة،

---

(١) وهو قول عامة أهل السير. انظر: تاريخ الطبري [٥/ ٢٣١].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٥/ ٢٣٣].
(٣) ذكره الطبري في تاريخه [٥/ ٢٤٠].
(٤) ذكره الطبري في تاريخه [٥/ ٢٤٠].

فنظر إليه محدقاً، فقال له عبد الرحمٰن: ما نظرك إليّ فوالله لأَبي لخيرٌ من أبيك، وأنا خير منك، فلم يُجِبْهُ بشيْءٍ ومضى حتى دخل دار الندوة فلما جلس مجلسه قال: عجلوا عليَّ بعبد الرحمٰن بن أبي بكر، فقد رأيته خلف المقام، فأُدخل عليه فقال: مرحباً بابن الشيخ الصالح، قد علمت أنَّ الذي خرج منك آنِفاً لجفاءِ نَابكَ، وذلك لِنَأيِ دَارِنا عن دارك، فارفع حوائجك فقال: عليَّ من الدين كذا، وأحتاج إلى كذا، وأَجْرِ لي كذا، وأقطِعني كذا، فقال معاوية: قد قضيت حوائجك، فقال: وَصَلَتْكَ رَحِمٌ يا أمير المؤمنين، إن كنت إلاّ بَرًّا بِنَا، وواصلاً لنا.

سنة إحدى وخمسين: فيها حجّ بالناس أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. كذا قال الواقدي.

وقال العتيقي وابن الأَثير: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة يزيد بن معاوية[1] ويقال: سعيد بن العاص. .

سنة أثنتين وخمسين: حجّ بالناس أمير المدينة سعيد بن العاص[2].

سنة ثلاث وخمسين: كذلك[3].

سنة أربع وخمسين: حجّ بالناس مروان بن الحكم[4]، ويقال: سعيد بن العاص. كذا قال يعقوب بن سفيان.

سنة خمس وخمسين: حجّ بالناس عتبة بن أبي سفيان. كذا قال الواقديُّ والمسعوديُّ، وقال ابن الأَثير: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة مروان بن الحكم الأَمويُّ[5].

سنة ست وخمسين: فيها اعتمر أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه في رجب، وفيها حجّ بالناس الوليد بن عقبة بن أبي سفيان[6].

سنة سبع وثمان وخمسين: كذلك[7].

---

(١) وبه قطع الطبري في تاريخه [٥/٢٨٦].

(٢) وهذا قول أبي معشر، والواقدي. انظر: تاريخ الطبري [٥/٢٨٧].

(٣) وهذا قول أبي معشر، والواقدي، وغيرهما. انظر: تاريخ الطبري [٥/٢٩٢].

(٤) وهو قول أبي معشر، والواقدي. انظر: تاريخ الطبري [٥/٢٩٨].

(٥) وبه قطع الطبري في تاريخه [٥/٣٠٠].

(٦) وذكره الطبري في تاريخه [٥/٣٠١].

(٧) انظر: تاريخ الطبري [٥/٣٠٩].

سنة تسع وخمسين: حجّ بالناس عثمان بن محمد بن أبي سفيان[١].

سنة ستين: حجّ بالناس عامل مكة والمدينة عمرو بن سعيد بن العاص الأموي[٢].

وقيل: الوليد بن عقبة، وقال سِبْط بن الجوزيّ في «مِرْآتِه»: قيل حجّ بالناس يحيى بن سعيد نيابة عن أخيه عَمْرٍو، ولم يذكره غيره.

وفيها خرج الحسين بن علي رضي الله عنهما سبط رسول الله ﷺ من مكة في يوم التَّروية، واعترضه رسل عمرو بن سعيد بن العاص وهو أمير الحجاز لمعاوية مع أخيه يحيى فأَبى عليهم، ومضى إلى جهة الكوفة حتى قضى الله عليه بالشهادة رحمه الله تعالى.

سنة إحدى وستين: فيها قُتل الحسين بن علي رضي الله عنهما بكربلاء في يوم عاشوراء، فقام عبد الله بن الزبير وعظَّم قتله، وعاب أهل الكوفة خاصة وأهل العراق عامة، وجمع الجموع فبلغ يزيد بن معاوية ذلك فأَعطى عهداً ليوثقنَّهُ في سلسلة، فبعثها من فضَّة مع أبي عضاة الأَشعريِّ، ومسعدة وأصحابهما ليأْتوه به، فيها، فامتنع ابن الزبير منهمْ، وكان عامل الحجاز عَمْرو بن سعيد الأَنصاري مع شدته على ابن الزبير يداريه ويرفق به فقال الوليد بن عقبة وناس من بني أمية: لو شاء عَمْرو لبعث إِليك ابن الزبير فعزل يزيد عَمْراً وولَّى الوليد بْنَ عتبة بن أبي سفيان على الحجاز أميراً، فأَقام يُريد غِرَّة ابن الزبير فلا يجده إِلا متحرزاً ممتنعاً.

وفيها حجّ بالناس الوليد بن عتبة[٣]، وأفاض من عرفة ومعه سائر الناس، وابنُ الزبير واقفٌ في أصحابه، ونجدة بن عامر الحنفيُّ في أصحابه، ثم أفاض ابنُ الزبير بأَصحابه، ونَجْدَةُ بأَصحابه، وكان نجدة يلقى الزبير فيكبّر، حتى ظنَّ الناس أنه سيبايعه، وقيل: إنما حجَّ بالناس عمرو بْنُ سعيد، لأَن الوليد لم يدرك الحج. قاله سبط ابن الجوزيِّ.

سنة اثنتين وستين: حجّ بالناس أمير مكة عثمان بن محمد بن أبي سفيان الأَمويُّ، كذا قال سبط بن الجوزي، وقال: ولم يمكنه ابن الزبير من دخول مكة، ويقال: إن الذي حجّ بالناس الوليد بن عتبة. كذا قال ابن الأثير، والمسعودي[٤].

سنة ثلاث وستين: فيها أقام الحج عبدُ الله بن الزبير رضي الله عنه وقيل:

---

(١) قاله أبو معشر والواقدي. انظر: تاريخ الطبري [٥/ ٣٢١].

(٢) بعدما نزع يزيد بن معاوية لعنه الله مكة من الوليد بن عتبة وولاها لعمرو بن سعيد. انظر: تاريخ الطبري [٥/ ٣٩٩].

(٣) انظر: تاريخ الطبري [٥/ ٤٧٧].

(٤) وهو قول الطبري. انظر: تاريخ الطبري [٥/ ٤٨١].

اصطلح الناس على أمير مكة عبد الرحمٰن بن زيد بن الخطاب الْعَدَوِيِّ فصلّى بالناس، وقيل: لم يحج.

سنة أربع وستين: حجّ بالناس عبد الله بن الزبير القرشيُّ[(١)] رضي الله عنهما ووقف بعرفة أربعة ألوية: لواءٌ لابن الزبير على الجماعة، ولواءٌ لابن عامر على الخوارج، ولواءٌ لمحمد ابن الحنفية على الشيعة، ولواءٌ لأهل الشام لبني أمية.

وفيها كانت وقعة الحرة بالمدينة الشريفة، وهتك حرمتها، وقتل الصحابة بها، في أول المحرم.

ثم وقعة المنجنيق بمكة وحرق غالب الكعبة الشريفة به، من عسكر يزيد بن معاوية، وبلغهم وفاته وهم محاصرون لعبد الله بن الزبير، وأهل مكة في المسجد الحرام ليلة الثلاثاء هلال ربيع الآخر، فتركوا الحصار، وتوجهوا إلى الشام، فهدم الكعبة ابنُ الزبير وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام، كما أخبرته به خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ.

وكان الفراغ منها في سابع عشر رجب، وخَلَّقَ جوفها بالعنبر والمسك، ولَطَّخَ جدرها بالمسك، وسترها بالدِّيباج، وقيل: بالقباطيِّ، وبلطَ المطاف حول البيت الشريف بباقي الحجارة، وأمر أهلَ مكة بالاعتمار منَ التَّنعيم، ونَحْرِ الْبُدنِ والشِّيَاهِ لمَن قدر على ذلك شكراً للّه عزّ وجل، ومَن لم يقدر على ذلك تصدّق بِقدر طَوْله، ونَحَر هو مئة بدنة بمكة وطريقهما، وخرج للاعتمار ماشياً حافياً، ومعه رجال من قريش مشاة، فأحرموا بالعمرة، ودخلوا من الحجون ملبِّين، حتى نظروا البيت الشريف، فلما طاف بالكعبة استلم الأركان الأربعة جميعها، لتمامها على قواعد إبراهيم عليه السلام، وكان يوماً مشهوراً لم يُرَ أكثر منه عتيقاً، ولا ذبيحة ولا صدقة، شكراً للّه تعالى، وبقيت هذه العمرة في رجل كل سنة عِيْداً لأهل مكة في كل عام.

وقيل: إنَّ الزبير لَمْ يهدم الكعبة الشريفة إلا بعد أنْ حضر الناسُ الموسمَ، في هذه السنة، ليشنع بذلك على [أهل] الشام، وفَرغ من عمارتها في سابع عشر رجب من السنة التي بعد هذه، والله أعلم.

وقال أبو عبيد البكريُّ في كتابه «المسالك والممالك»: فلما احترقت الكعبة الشريفةُ والركن الأسود، وتَصَدَّع حتى شدَّه ابنُ الزبير بالفضَّة ضعُفَتْ جُدْرانُ الكعبة حتى إنَّ

(١) انظر: تاريخ الطبري [٥/ ٥٨٢].

الحمام ليقع عليها فتتناثر حجارتُها وهي مُتَجَرِّدة مُتَواهية منْ كل جانب، ففزع لذلك أهل مكة وأهل الشام جميعاً، والْحُصَينُ بن نُمير مُقيمٌ يُحاصرها، فأرسل ابنُ الزبير رجالاً من أهل مكة وغيرهم، فيهم عبد الله بن خالد بن أسِيد، إلى الحصين، فكلّموه وعظّموا لديه ما أصاب الكعبة، وقالوا: إنكم رميتموها بالنفط. فأنكر ذلك، وقالوا له: قَدْ تُوُفِّيَ يزيد بن معاوية فعلامَ تقاتِل؟ ارجع إلى الشام حتى تنْظر هل يجتمع الناس على صاحِبك يعنون كذا في مغ أوْ على ابن الزبير، فلمْ يزالوا بهِ حتَّى لاَنَ لهم، ورجع إلى الشام، وكان خروجه من مكة لخمس ليال خلون من شهر ربيع الأَول سنة أربع وستِّينَ من الهجرة، فدعا ابنُ الزبير وجوه النَّاس، واستشارهم في أمر الكعبة، فأشار عليه أَقَلُّهُمْ بهدمها وأبى عليه أكثرهم، وكان أشدهم عبدَ الله بن عبَّاس فقال له: دَعْها على ما أقرَّها عليه رسول الله ﷺ، فإني أخشى أن يأتي بعدك مَنْ يَهْدمُهَا، ولا تزال تُهْدَمُ وتُبْنَى ويُتهاوَنُ بِحرمَتِها، ولكن رقِّعْها. فقال ابن الزبير: والله ما يَرْضَى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه، فكيف أُرَقِّع بيت الله تعالى وأنا أنظر إليه ينقضُ من أعلاه، حتى إنَّ الحمام يَقع عليه فتتناثر حجارته، وكان ممن أشار عليه بهدمها جابر بن عبد الله، وكان جاء معتمراً، وعبيد الله بن عمر، وعبد الله بن صفوان بن أمية، فأقام أيَّاماً يتشاور وينظر ثم أجمع على هدمها، وكان هو الذي يحبُّ أن يَرُدَّهَا على ما قال رسول الله ﷺ لعائشة، على قواعد إبراهيم عليه السلاَم، وأراد أن يبنيها بالورس ويرسل إلى اليمن في ورس يشترى له، فقيل له: إن الورس يذهب ولكن ابنها بالقَصَّة وأخبر أن قَصَّة صنعاء هي أجود قَصَّةٍ، فأرسل إلى صنعاء بأربع مئة دينار، يشتري له بها قَصَّة ويكتري عليها، ثم سأَل رجلاً من أهل العلم بمكة: من أين أخذتْ قريش حجارتها، فأخبروه بمقلعها، فنقل له من الحجارة ما يحتاج إليه، فلما أراد هدمها خرج أهل مكة إلى مِنَى، فأقاموا بها ثلاثة فرَقاً أن ينزل عليهم عذاب، فأمر ابن الزبير بهدْمِها، فما اجترأ على ذلك أحد، فلما رأى ذلك علاها هو بنفسه، وأخذ المعول وجعل يهدمها ويرمي بحجارتها، فلما رأوْا أنه لم يصبه شيء صعدوا وهدموها، وأرقَّاءُ ابن الزبير عبيد له من الحبش يهدمونها، رجاء أن يكون فيهم صفة الحبشي الذي رُوِي أن رسول الله ﷺ قال: «يخرب الكعبة ذو السُّوَيْقَتَيْنِ من الحبشة»[1].

وقال مجاهد: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: كأني به أُصَيْلع،

(١) أخرجه البخاري في الحج [٣/ ٥٣١] ح [١٥٩١]، ومسلم في الفتن [٤/ ٢٢٣٢] ح [٥٧/ ٢٩٠٩].

أُفَيْدِع، قائم عليه يهدمها بمسحاته، قال مجاهد: فلما هدم ابنُ الزبير الكعبةَ جعلت أنظر هل أرى الصفة التي قال عبد الله بن عمرو بن العاص فلم أرها، فهدموها، وأعانهم الناس فما ترحّلت الشمس، حتى ألصقها كلها بالأَرض من جوانبها جميعاً.

وكان هدمها يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة أربع وستين، ولم يقرب ابن عباس مكة حتى هُدمت الكعبة، فلما فرغ منها أرسل إلى ابن الزبير: لا تدع الناسَ بغير قبلة، انصب لهم حول الكعبة الخشب، واجعل عليها الستور، حتى يطوف الناس من ورائها، ويصلُّون. ففعل ذلك، فلما هدمها عبد الله بن الزبير وسوَّاها بالأَرض وكشف عن أساس إبراهيم، وجده داخلاً في الْحِجْرِ نحواً من ستة أذرع وشِبْر كأنها أعناق الإِبل، آخِذٌ بعضها ببعض، كتشبُّك الأَصابع، يحرك الْحَجَرَ من القواعد فتتحرك الأَركان كلها، فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً من وجوه الناس وأشرافهم، فأَشهدهم على ذلك الأَساس، وأدخل رجل من القوم كان أَيِّداً يقال له عبد الله بن مُطيع العدويَّ عَتَلَةً كانت في يده، في ركن من أركان البيت، فتزعزعت الأَركان جميعاً، ويقال: إن مكة رجفت رجفة شديدة حين تزعزع الأَساس، وخاف الناس خوفاً شديداً، حتى ندم كل مَن أشار على ابن الزبير بهدمها، وسُقِط في أيديهم[١]. ويقال: إن قريشاً لما هدمتها في الجاهلية، ووصلت إلى قواعدها نالها مثل ذلك فقال لهم ابن الزبير: اشهدوا. ثم وضع البناءَ على ذلك الأَساس، وبنى الكعبة وأَكملها.

سنة خمسة وستين: حجّ بالناس عبد الله بن الزبير الهاشمي رضي الله عنه.

سنة ست وستين: حجّ بالناس عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وقيل: إنه دعَا عبد الله بن عباس ومحمد ابن الحنفيَّة ومَن معه من أهل بيته ليبايعوه فامتنعوا وقالوا: لا نبايع حتى يجتمع الناس على إمام ثم نبايع، فإنك في فتنة، فعظم الأَمر بينهم، وغضب ابن الزبير من ذلك، وحبس محمد ابن الحنفية في زمزم، وضيَّق على ابن عباس في منزله، وقيل: إنه أراد إحراقهما، فأرسل ابن الحنفية رسولاً للمختار وَالِي الكوفة، فجهّزوا له عسكراً لخلاصه، فإنّ الشيعة صارت تدعو له فوصلوا له قبل الأَجل بيومين فخلّصوه، وأَرادوا قتال ابنِ الزبير فمنعهم ابنُ الحنفية وقال: لا أستحل القتال في حرم الله تعالى.

سنة سبع وستين: حجّ بالناس عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما[٢].

---

(١) انظر: أخبار مكة للأزرقي [١/٢٠٧].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٦/١١٨].

وفيها وفي السنة التي بعدها استوثقت البلاد لابن الزبير، وتضعضع حال محمد ابن الحنفية وأصحابه، فلازمه ابن الزبير، في البيعة له، فأَذِنَ لأَصحابه في الرحيل عنه ولا لوم عليهم، فأَبوا مفارقته، فبلغ خبره عبد الملك بن مروان فكتب إِليه: أن اقدم إِلى الشام إِنْ أردتَّ حتى يستقيم أمر الناس. فخرج ابن الحنفية إِلى الشام، ومعه كُثَيِّرُ عَزَّةَ وامتدحه بأَبيات، فلما وصل إِلى الشام تحدّث الناس بفضله، وكثرة عبادته وزهده، وبلغ عبد الملك قدومه الشام على ذلك فكتب إِليه: أن لا يكون في سلطاني مَن لم يبايعني. فارتحل ابن الحنفية إِلى مكة، ونزل بشعب آل أبي طالب، فأَمره ابنُ الزبير بالرحيل عنه، وألحَّ عليه في ذلك، فأَشار عليه أصحابه في قتاله، فلم يأْذنْ لهم وقال: اللهم ألبِس ابنَ الزبير لباس الذل والخِزي، وسلّط عليه وعلى أشياعه مَن يسومهم الذي يسوم الناس به، ثم سار إِلى الطائف، وتبعه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فأَقاما بها حتى ماتا رحمهما الله تعالى.

سنة ثمان وستين: فيها وافَى عرفات أربعة ألوية: لواءٌ لابن الحنفية وأصحابه، ولواءٌ لابن الزبير وأصحابه، ولواءٌ لبني أمية، ولواءٌ لنجدة الحروريّ، ولَمْ يجرِ بينهم حرب ولا فتنة، وكان أصحاب ابنُ الحنفية أسلمَ الجماعة، وكان نجدةُ صالح ابنَ الزبير على أن يصلي كل واحد بأَصحابه، ويقف بهم، ويكفَّ بأْس بعضِهم عن بعض. فلما صدر نجدةُ عن الحج سار إِلى المدينة الشريفة[١].

سنة تسع وستين: حجّ بالناس عبد الله بن الزبير[٢]، وقيل عمرو بن سعيد بن العاص، الأَشدق.

وفيها أو في التي بعدها حَكَّمَ رجل من الخوارج بِمِنَى، وسلَّ سيفه وكانوا جماعة فأَمسك الله أيديهم، فقتل ذلك الرجل عند الجمرة.

سنة سبعين: حجّ بالناس عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما[٣].

سنة إِحدى وسبعين: كذلك.

سنة اثنتين وسبعين: قوي سلطان عبد الملك بن مروان الأموي، فبعث الحجاج بن يوسف الثقفي في جيش كثيف من أهل الشام ثلاثة آلاف نفس، ويقال: ألفان، لقتال عبد الله بن الزبير بمكة المشرفة، وكتب معه أماناً له ولمَن معه إِن

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ١٣٩].

(٢) وبه قطع الطبري في تاريخه [٦/ ١٤٩].

(٣) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ١٥٠].

أطاعوا، فنزل الحجاج الطائف، وكان يبعث البعوث إلى عرفة من الْحِلِّ، ويبعث ابن الزبير بعثاً فيقتتلون هناك، وتَنْهزم خيل ابن الزبير، وترجع خيل الحجاج بالظفر، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره أن شوكة ابن الزبير قد كَلَّتْ وتفرق عنه أصحابه، وسأله في حصاره، ودخول الحرم عليه، ويستمده بعسكر، فكتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان أن يلحق بِمَن معه بالحجاز، فسار في خمسة آلاف من أصحابه، حتى لحق بالحجاج في ذي الحجة، وكان الحجاج قد رحل من الطائف وأحرم لحجه في ثلاث من ذي القعدة حتى نزل بِئْرَ مَيْمُون، وحصرَ ابنَ الزبير، ونصب المنجنيق على أبي قبيس، ورمى به الكعبة، وكان عبد الملك ينكر فعله في أيام يزيد، ثم أمر به فقال الناس في دينه، وكان عبد الله بن عمر حجّ في هذه السنة، فأرسل إلى الحجاج: أن اتَّقِ الله واكفف هذه الحجارة عن الناس، فإنَّك في شهر حرام وبلد حرام، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدُّوا الفريضة، ويزدادُوا خيراً، وإن المنجنيق قد منعهم عن المطاف فاكفف عن الرمي، حتى يقضوا ما عليهم بمكة، فبطل الرمي حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا. وحجّ بالناس الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن مُعَتِّبِ بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعيد بن العاص بن عوف الثقفي، إلاَّ أنه لم يطف بالكعبة، ولا سعى بين الصفا والمروة، لمنع ابن الزبير له من ذلك، وكان يلبس السلاح، ولا يقرب النساء ولا الطيب إلى أن قتل ابن لزبير.

فكان ابنُ الزبير لا يمنع الحجاج من الطواف أو السعي، ولم يحج هو ولا أصحابه، لأَنهم لم يقفوا بعرفة ولم يرموا الجمار، ونحر ابن الزبير بدنه بمكة، فلما فرغ الحاج من طواف الزيارة نادى منادٍ للحجاج: انصرفوا إلى بلادكم فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير الملحد، وأول ما رمى المنجنيق بالحجارة والنيران على الكعبة فاشتعلت أستار الكعبة بالنار، ورعدت السماء وأبرقت، وجاءت سحابة من نحو جدة يسمع منها الرعد، ويرى البرق، وعلا صوت الرعد على الحجارة، فمطرت فما جاوز مطرها الكعبة والطواف، واطفأَت النار، فأَعظم ذلك أهل الشام، وأمسكوا أيديهم، فأَخذ الحجاج حجر المنجنيق بيده فوضعها فيه، ورمى بها معهم، وأرسل الله عليهم صاعقةً فأَحرقت منجنيقهم، فتداركوه، وأحرقت تحته اثْنَيْ عشر رجلاً، فانكسر أهل الشام، فقال الحجاج: يا أهلِ الشام لا تنكروا. هذا فإني ابن تهامةِ، وهذه صواعقها، وهذا الفتح قد حضر فأَبشروا. فلما كان الغد جاءت صاعقة فأَحرقت المنجنيق واحترق معه أربعون رجلاً من أصحاب ابن الزُّبير فقال الحجاج: أَلا تَرَوْنَ

أنهم يصابونَ وأنتم على الطاعة وهم على خلافها؟ وكان الْحَجَرُ يقع بين يدَي عبد الله بن الزبير وهو يصلي، فلا ينصرف، وكان أهل الشام يقولون:

يا ابن الزبير طال ما عصيكا وطال ما عنيتنا إليكا

لا تَخْزَنَنَّ بالذي آتيكا

يعنون: عصيت وأتيت.

ولم يزل القتال بينهم دائماً حتى قُتل ابن الزبير رحمه الله تعالى في يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين، وقيل: في النصف من جمادى الآخرة. وبعث الحجاج برأسه إلى عبد الملك، وصلب جثته منكسةً على خشبة بالثَّنِيَّةِ اليمنى بِالْحُجُون، في مقبرة المعلا، ومحلها معروف ببناء حجارة منحوتة موضعها، ثم أنزل الحجاج جثته بشفاعة بأمر عبد الملك، وقيل: بشفاعة أخيه مصعب بعد ثلاثين يوماً، وغُسِّلَ وصَلَّى عليه أخوه عروة، وقيل: غيره، ودُفن بالحجون ـ رحمه الله وإيانا ـ قال البدر الزركشيُّ في كتابه «إعلام الساجد بأحكام المساجد» في القول الثالث والخمسين، عند ذكر تحريم مكة ومنع القتال بها، وعصمتها فإن قيل: فقد وقع في زمن ولد معاوية يزيد لمَّا أرسل الحصين بن نُمير السكوني فنصب المجانيق على أبي قبيس، وغيره من جبال مكة ورمى الكعبة المعظمة، وكسر الحَجَرَ الأسود، وأحرق الكعبة حتى انهدم جدارها، وسقط سقفها بأمر يزيد فلما جاء نعْيه انكبُّوا راجعين وكان موت يزيد بحوران من الشام سنة أربع وستين في نصف ربيع الأول وأول حجر من حجارة المنجنيق أصاب وجه الكعبة سُمِع لها أنين وتَأَوُّهٌ شديد، ذكره القاضي أبو بكر أحمد بن كامل بن شجرة في كتاب «البرهان» زَوْجيْن من حمام كان صبيانه يلعبون بهما، وكذلك فعلوا بغيره من الرجال والنساء، وقتلوا من المهاجرين والأنصار ألفاً وسبع مئة، ومن أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان، ومن حمَلَة القرآن من قريش سبع مئة، وأُكره الناس على مبايعة يزيد بن معاوية على أنهم عبيد له، إن شاء باع وإن شاء عتق، وذَكَرَ له يزيدُ بن عبد الله بن زمعة الْبَيْعَةَ على حكم القرآن وسنّة رسول الله ﷺ، فأمر بضرب عنقه. وأُمُّهُ حاضِرةٌ، فلم يَرْعَ حرمتها، وكانت من المهاجرات الأُول، وهي زينب بنت أم سلمة رَبيبة رسول الله ﷺ، فدعتْ على مسلم بن عقبة هذا، فابتلاه الله بِالْماء الأصفر في بطنه، فمات بعد الواقعة بثلاث ليال بِقدَيْدَ منزلة (من منازل الحاج) وهو يَنْبَحُ كالكلب.

وذكر صاحبنا الشيخ العلامة جارُ الله بن فهد القرشيُّ المكي في «تاريخه» فيما

نقله من «مناسك القاضي عز الدين بن جماعة» فيما رواه عن الشعبيِّ قال: كُنَّا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، فقال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم: ليقم كل رجل منا فيأخذ بالركن اليماني ـ يعني الملتزم ـ ويسأل الله حاجته، فإنه يُعْطَى من ساعته، قم يا عبد الله يا ابن الزبير فإنك أول مولود ولد في الهجرة، فقام رضي الله عنه وأخذ بالركن اليماني ثم قال: اللهم إنك عظيم ترجى لكل عظيم، أسألك بحرمة وجهك، وحرمة عرشك، وحرم نبيك ﷺ أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني الحجاز، ويسلِّم عليَّ بالخلافة. وجاء حتى جلس فقالوا: قم يا مصعب له، ثم تلا فعله الحجاج بن يوسف الثقفي فنصب الجانيق، ورمى البيت، ودخلها عنوة، وصلبَ ابن الزبير حَوَارِيِّ رسول الله ﷺ وابن عجائز الجنة مُنَكَّساً، ثم تلاه القرامطة، وأخذوا الحجر الأسود، واستباحوا الحريم، وقتلوا جميع مَن وجدوا، ولم يُمْنَعُوا كما مُنع أصحاب الفيل؟ فالجواب: إنما لم يُمْنَعُوا لأَنَّ الدعوة قد تَمَّت، والكلمة قد بلغت، والحجة قد ثبتتْ، وقد أَخبر ﷺ بوقوع الفتن بعده، وأَنَّ الكعبة ستُهدم، وأن المدينة سَتُغْزَى، فغزاها يزيد بن معاوية، أرسل الجيوش إليها مع مسلم بن عقبة الْمُرِّي، بعثه في عشرة آلاف فارس، وسبعة آلاف راجل، فأغاروا عليها ثلاثة أيام، ثم دخلها بالسيف، وقتل من بقايا المهاجرين والأَنصار نحو ألف وسبع مئة وخيار التابعين يوم الحرة، وكانت يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة، سنة ثلاث وستين من الهجرة.

وقال ابن حزم في المرتبة الرابعة: وبالت الخيلُ، وراثتْ بين القبر والمنبر ـ نستغفر الله ـ ولم يصلِّ أحد في المسجد تلك الأيام، ولا كان فيه أحد، حاشا سعيد بن المسيب، فإنه لم يفارق المسجد، ولولا شهادة عمرو بن عثمان بن عفان ومروان بن الحكم عند مسلم بن عقبة بأنه مجنون لقتله، وهتك مسلم ـ لعنه الله ـ الإسلامَ هتكاً، وأنهب المدينة ثلاثاً واستخفَّ بأصحاب النبيِّ ﷺ، ومُدَّتِ الأيدي إليهم ونُتفت لحية أبي سعيد الخدريِّ، وكان ممن لزم بيته، فأخذوا جميع ما في داره، حتى صوف الفرش، وحتى أخذوا [. . . . .][1] يا ابن الزبير فقام حتى أخذ الركن وقال: اللهم إنك رب كل شيء، وإليك كل شيء بقدرتك على كل شيء، أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني بِسُكَينة بنت الحسين، وجاء حتى جلس فقالوا: قم يا عبد الملك بن مروان فقام فأخذ الركن وقال: اللهم ربَّ

(١) بياض في الأصل.

السموات السبع، ورب الأَرض ذات النبات بعد القفر، أسأَلك بما سأَلَكَ به عبادك المطيعون لأمرك، وأَسأَلك بحرمة وجهك، وأسأَلك بحقك على جميع خلقك، وبحق الطائفين حول بيتك، أن لا تميتني حتى توليني شرق الأَرض وغربها، ولا ينازعني أحدٌ ألأَمْرَ إلاَّ أُتِيتُ برأسه، ثم جاء فجلس. فقالوا: قم يا عبد الله بن عمر فقام، حتى أخذ بالركن ثم قال: اللهم يا رحمٰن يا رحيم، أسأَلك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسأَلك بقدرتك على جميع خلقك أن لا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة. قال الشعبي: فما ذهب أحد منهم من الدنيا حتى رأيت كل واحد وقد أُعْطِي ما سأَلَ، ومر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بالجنة لِعَمَى بصره، ونازع عبد الله بنُ الزبير عَبْدَ الملك فأُتِي برأسه، ولله الأَمر من قبل ومن بعد.

سنة ثلاث وسبعين: حجّ بالناس أمير مكة الحجاج بن يوسف الثقفي[1]، وكان لما فرغ من قتال ابن الزبير دخل مكة، فبايع أهلها لعبد الملك بن مروان، وأمر بكنْس المسجد الحرام من الحجارة والدم وغير ذلك.

سنة أربع وسبعين: حجّ بالناس أمير الحرمين والطائف الحجاج بن يوسف الثقفي[2].

وفيها اعتمر عبد الملك بن مروان على ما قال المسعودي في «مروجه» وفيها حجّ بالناس عبد الملك بن مروان، ولم أَره لغيره وذكر صاحبنا المرحوم جار الله بن فهد المكيُ أنَّ جَدَّهُ لم يصحح ذلك في تاريخه.

وفيها كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان إن أبا خُبَيب عبد الله بن الزبير زاد في البيت ما ليس منه، وأحدث فيه باباً، فكتب إليه عبد الملك أن سُدَّ بابها الغربيَّ الذي فتحه ابن الزبير، واهدم ما زاد فيها من الْحِجْرِ، واكبس أرضها بالحجارة التي تفضل منها، على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ، فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشِبْراً مما يلي الْحِجْرَ، وبناها على أساس قريش التي كانت اقتصرت عليه، وسدَّ الباب الغربيَّ الذي في ظهرها، وما تحت عتبة الباب الشرقي وهو أربعة أذرع وشبر، وكبس أرضها بالحجارة الفاضلة، وترك سائرها على بناء ابن الزبير رضي الله عنه، إلا جدار الحِجْرِ، والدرجَة التي في بطنها، والبابان اللذان عليها من عمل الحجاج. فلما فرغ من ذلك كله وَفَدَ بعد ذلك الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميُّ على عبد الملك بن مروان فقال له:

(١) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ١٩٤].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٢٠١].

ما أَظُنُّ أبا خُبَيْبٍ ـ يعني عبد الله بن الزبير ـ سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها من أمر الكعبة، فقال الحارث: أنا سمعت ذلك منها مرفوعاً عن النبي ﷺ قال: «إنَّ قومكِ استقصروا في بناء البيت، ولوة حدثان قومك بالكفر أعدتُ فيه ما تركوا منه، وأعدته على ما كان عليه في زمن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام[1] وأراها قريباً من ستة أذرع، وجعلتُ لها بابَيْن موضوعينِ على الأرض: شرقيًّا يدخل منه الناس، وغَرْبِيًّا يخرج الناس منه» فقال عبد الملك: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا سمعت هذا منها!! فجعل يَنْكت منكساً بقضيب في يده ساعة طويلة ثم قال: وددتُ والله أني تركت ابن الزبير وما تحمَّلَهُ من ذلك.

سنة خمس وسبعين من الهجرة: حجّ بالناس أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان[2]، وطاف وهو متكيءٌ على كتف بعض أصحابه، وأرسل إلى أكبر شيخ يعلمه من خزاعة، وشيخ من بَكْرٍ، وأمرهم بتجديد أنصاب الحرم، وعزل الحجاج عن الحجاز وأَمَّرَهُ على العراق.

ولما انصرف عبد الملك من الحج وقيل: من العمرة في السنة قبلها، رافقه الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم إلى دمشق، فظهر للحارث من عبد الملك جفوة، وأقام ببابه شهراً لا يصل إليه فانصرف عنه، وقال فيه أبياتاً من الشعر أنشدت لعبد الملك بن مروان. فأرسل إليه مَن يرده عن طريقه، وعاتبه عليها وقال له: ما حملك على ما قلت وفعلت؟ قال: جفوة ظهرت في منك كنت حقيقاً بغيرها، قال: اختر إن شئت أعطيتك مئة ألف درهم، أو قضيت دينَك، أو وليتك مكة سنة. فولاه إياها، فحجّ بالناس وحجَّتْ عائشةُ بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرة التيمية، وكان يهواها فأرسلت إليه: أخِّر الصلاة حتى أفرغ من طوافي، فأمر المؤذن فأَخَّر إقامة الصلاة حتى فرغت من طوافها وجعل الناس يصيحون به، فلا والله ما قام إلى الصلاة حتى فرغت، فأنكر ذلك أهلُ الموسم، فبلغ ذلك عبد الملك فعزله وكتب إليه يُؤَنِّبُهُ فيما فعل، فقال: ما أهون غضبه إذا رضيت عائشة!! والله لو لم تفرغ من طوافها إلى الليل لأَخرت الصلاة إلى الليل.

سنة ست وسبعين وما بعدها: حجّ بالناس أبان بن عثمان الأَموي[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الحج [٣/ ٥١٣] ح [١٥٨٣]، ومسلم في الحج [٣/ ٩٦٩] ح [٣٩٩/ ١٣٣٣].

(٢) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٢٠٩].

(٣) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٢٥٦].

سنة ثمان وسبعين وما بعدها: حجّ بالناس أمير المدينة أبَانُ بن عثمان بن عَفَّان، قاله المسعوديُّ وابْن الأثير، وقال سِبْط بن الجوزيّ في «مرآة الزمان» وحجّ بالناس الوليد بن عبد الملك[١] وقيل: أبَان بن عثمان. وقال العتيقيُّ: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين الأموي..

سنة ثمانين: حجّ بالناس أمير المدينة أبان بن عثمان بن عفان[٢] رضي الله عنه.

وقال سبط بن الجوزي في «مرآة الزمان» حجّ بالناس سليمان بن عبد الملك وقيل أبان بن عثمان.

وفيها بينما الحجاج نازلون بوادي مكة وقد ضربوا الأَبنية يوم التروية قبل صلاة الصبح وهم آمنون غارون، إذ أتاهم سيل عظيم دفعة واحدة، ذهب بناس من الحجاج وأمتعتهم وكان يحمل الإبل عليها الأحمال والنساء والرجال، ما لأحد منه حيلة، ودخل المسجد الحرام، وأحاط بالكعبة، وبلغ الركن، وخرب دوراً كثيرة شارعة على الوادي، وقتل الهدم أناساً كثيراً، ورقا الناس الجبالَ واعتصموا بها وسمي بذلك الجحَّاف وقال فيه عبد الله بن أبي عمارة:

لَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَ يَوْمِ الاثْنَيْنْ ... أَكْثَرَ مَحْزُوْناً وأَبْكَى لِلْعَيْنْ

إذ خرجَ الْمُخَبَّئَات يَسْعَيْنْ ... شَوَارِداً إِلَى الْجِبَال يَرْقَيْنْ

ولم يكن بمكة إلاّ شيء يسير من المطر، وإنما كان شره بأعلى الوادي، وكتِب في ذلك إلى عبد الملك بن مروان، ففزع لذلك وبعث بمال عظيم إلى عامله بمكة، عبد الله بن سفيان المخزومي، وقيل: الحارث بن خالد المخزومي، يأمره بعمل ضفائر على الدور الشارعة على الوادي، وضفائر للمسجد الحرام، وردم الْجِزَامِيةِ وردْم بني جُمَح، وصحب المال مهندسٌ وجمالٌ عِرَاب نقلت الحجارة على عجل لذلك فاصرف الأموال عليها وربما أنفق على المسكين الصغير لبعض الناس مثل ثمنه مراراً - أثابه الله تعالى -.

سنة إحدى وثمانين: حجّ بالناس سليمان بن عبد الملك الأَموي[٣].

سنة اثنتين وثمانين: حجّ بالناس أبان بن عثمان[٤].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٣٢١].

(٢) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٣٢٩].

(٣) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٣٤١].

(٤) قطع به الطبري في تاريخه [٦/ ٣٥٦].

وقال سبط بن الجوزي: حجّ بالناس هشام بن إسماعيل المخزوميُّ.

سنة ثلاث وثمانين: حجّ بالناس هشام بن إسماعيل المخزومي[١].

سنة أربع وثمانين: حجّ بالناس هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي[٢].

سنة خمس وثمانين: كذلك[٣].

سنة ست وثمانين: حجّ بالناس العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الأَمويُّ، وقال العتيقيُّ وابنُ الأَثير وسبط بن الجوزي: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة هشام بن إسماعيل بن هشام المخزومي[٤].

سنة سبع وثمانين: حجّ بالناس أمير مكة عمر بن عبد العزيز بن مروان الأَموي[٥].

سنة ثمان وثمانين: حجّ بالناس عمر بن عبد العزيز الأُموي. كذا قال العتيقي وابن الأَثير[٦].

وقال أبو معشر: إنَّ الذي حجّ بالناس الوليد بن عبد الملك بن مروان[٧]، وكان قدوم عمر بن عبد العزيز من المدينة ومعه نفر من قريش فلما كان بالتَّنْعِيم لقيه بعضُ أهل مكة فأخبروه أنها قليلة الماء، ويخشى على الحاج العطش، فقال عمر: تعالوا نَدْعِ اللّهَ. فدعا ودعا الناس معه وألحُّوا في الدعاءِ فما وصلوا ذلك اليوم إلى البيت إلا مع المطر حتى كان مع الليل وسكنت السماء، وكان السيل على حافة أهل مكة، وأمطرت عرفة ومِنَى والمزدلفة، فما كانت إلاَّ أَعْيُناً، وكانت مكة في هذه السنة مخصبة ـ ولله الحمد ـ.

سنة تسع وثمانين: حجّ بالناس عمر بن عبد العزيز الأموي[٨].

---

(١) قطع به الطبري في تاريخه [٦/ ٣٨٤].
(٢) قطع به الطبري في تاريخه [٦/٣٨٨].
(٣) قطع به الطبري في تاريخه [٦/٤١٧].
(٤) وهو قول أبي معشر، قاله الواقدي. انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٤٢٦].
(٥) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٤٣٣].
(٦) وقدمه الطبري في تاريخه [٦/٤٣٧].
(٧) ذكره الطبري في تاريخه [٦/٤٣٨].
(٨) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٤٤١].

وقيل: إنه كان أمير مكة.

وقال ابن الأَثير: قيل ولي مكة في هذه السنة خالد بن عبد الله القسريُّ وقيل بعدها وفيها ـ على ما ذكر ابنُ جرير ـ حفر الوليد بن عبد الملك بِئْراً بالثَّنِيَّتَيْن ثنية طوى، وثنية الحجون وكان يُنْقَل مَاؤُها فتوضع في حوض من أَدَم إلى جنب زمزم ليعرف فضله على زمزم لكونه عذباً فراتاً، وماء زمزم مِلْحاً أُجاجاً. قلت: الجنون فنون!!

سنة تسعين: حجّ بالناس أمير مكة والمدينة والطائف عمر بن عبد العزيز الأموي[١].

وقال سبط بن الجوزي: إنه كان أمير المدينة فقط، وعلى مكة والطائف خالد القسريُّ.

سنة إحدى وتسعين: حجّ بالناس الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان الأَموي[٢] وقدم معه بكسوة للكعبة الشريفة فنُشرت وعُلِّقت على حبالها في المسجد، وهي من ديباج حسن، لم يُرَ مثله قَطُّ، نشرها يوماً ثم طويتْ ورُفعتْ.

وفيها كان أمير مكة عمر بن عبد العزيز.

وقيل: خالد بن عبد الله القسري.

سنة اثنتين وتسعين: حجّ بالناس عمر بن عبد العزيز[٣].

وقيل: حجّ بالناس عثمان بن الوليد بن عبد الملك الأَمويُّ.

سنة ثلاث وتسعين: حجّ بالناس أمير مكة عمر بن عبد العزيز الأمويُّ.

وقيل غيره[٤].

وذكر العلامة ابن فهد في كتابه «إتحاف الورى بأخبار أم القرى» أن في هذه السنة كتب سليمان بن عبد الملك بن مروان إلى خالد بن عبد الله القسري عامله بمكة أنْ أجْرِ عيناً تخرج من الثُّقبة من مائِها ماؤها العذب الزلال، حتى تظهر بين

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٤٤٧].
(٢) ذكره الطبري في تاريخه [٦/ ٤٦٥].
(٣) به قطع الطبري في تاريخه [٦/ ٤٦٨].
(٤) وذكر الطبري عن أبي معشر أن الذي حجّ في هذه السنة هو عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك. انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٤٨٢].

زمزم والركن الأَسود، وتضاهي بها ماء زمزم. قال: فعمل خالد البركة التي بفم الثقبة ويقال لها بركة القسري، ويقال لها أيضاً: بركة البردي بئر ميمون، وهي قائمة إِلى اليوم، بأَصل ثبير، فعملها بحجارة منقوشة، وأحكمها وأنبط ماءها. في ذلك الموضع، ثم شقّ لها عيناً تسكب من الثقبة وبنَى سَدَّ الثقبة وأحكمه، والثقبة بشعب يفرغ فيه وجهُ ثبير، ثم شقّ من هذه البركة عين تجري إِلى المسجد الحرام، فأَجراها في قصب من رصاص، حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقية من رخام، بين زمزم والركن والمقام، فلما أن جرت وظهر ماؤها أمر القَسْرِيُّ بجُزرٍ فَنُحِرَت بمكة، وقُسمت بين الناس، وعمل طعاماً فدعا إِليه الناس، وأمر منادياً فنادى: هلموا إِلى الماء العذب واتركوا أُمَّ الخنافس - يعني زمزم - ثم أمر صائحاً فصاح: الصلاة جامعة، ثم أمر بالمنبر فوضع في وجه الكعبة ثم صعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس احْمَدُوا الله تبارك وتعالى وادعوا لأَمير المؤمنين الذي سقاكم الماء العذب الزلال النقاخ، بعد الماء المالح الأُجاج، الذي لا يُشرب إلاّ صبراً - يعني زمزم - قال: ثم تفرغ تلك الفسقية في سرب من رصاص، يخرج إِلى وضوء كان عند باب المسجد باب الصفا في بركة كانت في السوق، فكان الناس لا يقفون على تلك الفسقية، ولا يكاد أحد يأْتيها، وكانوا على ماء زمزم أرغب ما كانوا فيها، فلما رأى ذلك خالد صعد المنبر فتكلم بكلام يُؤَنِّب فيه أهل مكة قلت: وإِن هذه الحادثة في الإِسلام لا تتوهمها الأَفكار ولا الظنون، وليست شعري إذا جهل أمير المؤمنين ونائبه على مثل مكة فضل ماء زمزم الذي شاع وذاع، وملأَ ذكره الأَسماع مع قرب العهد بالنبوّة وأخبار زمزم الواردة على لسان سيد المرسَلين يتلوها في ذلك العصر أكابر التابعين بل وبعض الصحابة فبأي حديث بعدها يؤمنون «إِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ ولكن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي في الصُّدُور».

ومما اتفق لخالد المذكور في إمرته على مكة أنه أحدث أيضاً حدثاً منكراً عن سليمان بن عبد الملك، فقام إِليه رجل من بني عبد الدار بن قصي يقال له طلحة بن عبد الله بن شيبة فأَمرهُ بالمعروف ونهاه عما فعل فغضب غضباً شديداً وأخاف الرجل، فجاء إِلى سليمان يشكو إِليه ويتظلّم منه، فكتب سليمان إِلى خالد أن لا يعْرِض له فامتنع عليه، ودعا به فضربه مئة سوط على ظهره، فجاء إِلى سليمان وكشف عن ظهره بين يديه وقال له: هذا الذي أوصيته بي!! فكتب إِلى محمد بن هشام إِن كان خالد ضربه بعد أن وصل إِليه كتابي وقرأه فاقطع يده، وإِن كان ضربه، ولم يقرأ كتابي فَأَقِدْهُ منه. فقدم بالكتاب على محمد بن هشام فدعا بالقسريّ فقرأه عليه فقال: الله

أكبر يا غلام ائت بالكتاب فأتى به مختوماً لم يقرأه فأخرجه محمد بن هشام إلى باب المسجد بمحضر من القرشيين والناس، وجرّده ثم أمر به أن يضرب مئة فلما أصابه الضرب كأنه تمايل بعد ذلك في ضربه، ثم لبس ثيابه وأتى إلى امرأته فقال الفرزدق:

لَعَمْري لَقَدْ صُبَّتْ علَى ظَهْرِ خَالِدِ شَآبِيبُ مَا اسْتَهْلَلْنَ من سَبَلِ الْقَطْرِ
أَيُجْلَدُ فِي الْعِصْيَانِ مَنْ كَانَ عَاصِياً وتَعْصِي أمِيرَ الْمؤمنين، أخَا قَسْرِ

وقال أيضاً:

سلُوْا خالِداً لاَ قَدَّسَ الله خَالِداً مَتَى وَلِيَت قَسْرٌ قُرَيْشاً تُهِينُها
أَبَعْدَ رَسُولِ اللّهِ أَمْ قَبْلَ عَهْدِهِ وَجَدْتُم قريشاً قَدْ أَغَثَّ سَمِينُها
رَجَوْنَا هُدَاهُ لاَ هَدَى اللّه قَلْبَهُ ومَا أُمُّهُ بِالأُمِّ يُهْدَى جَنِيْنها

وفي هذه السنة كتب الوليد بن عبد الملك إلى أمير مكة عمر بن عبد العزيز قبل عزله لخالد القسريّ، يأمره بضَرْب خُبَيْبِ بن عبد الله بن الزبير، ويُصَبُّ على رأسه ماءٌ باردٌ في يومٍ شات، ووقفه على باب المسجد فمات من يومه[١].

سنة أربع وتسعين: حجّ بالناس سليمان بن عبد الملك.

وقيل: مسلمة بن عبد الملك[٢].

وقيل: عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك[٣].

وقيل: عثمان بن حَيّان المُرّي.

سنة خمس وتسعين: حجّ بالناس الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان الأَموي.

وقيل: ولده بشر[٤].

سنة ست وتسعين: حجّ بالناس أمير المدينة أبو بكر بن محمد بن عَمْرو بن حزم الأَنصاري[٥].

وفيها حجّ الإمام أبو حنيفة النُّعمانُ بن ثابت الكوفي.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٤٨٢].
(٢) وهو قول أبي معشر. انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٤٩١].
(٣) قاله الواقدي. انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٤٩١].
(٤) وهو قول أبي معشر والواقدي. ذكره الطبري في تاريخه [٦/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤].
(٥) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٥٢٢].

سنة سبع وتسعين: حجّ الخليفة سليمان بن عبد الملك بن مروان الأَموي. كذا قال العتيقي[١].

وقال المسعوديُّ: أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

سنة ثمان وتسعين: حجّ بالناس أمير مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأَسدي. كذا قال ابن الأَثير[٢]، وقال المسعودي: هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأَنصاري.

سنة تسع وتسعين: حجّ بالناس أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأَنصاري[٣].

سنة مئة: كذلك[٤]، وقدم كتاب لعامل عمر بن عبد العزيز على مكة، وهو عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد، ينهي عن كراء بيوت مكة المشرفة، ويأْمره بتسوية مِنَى، قال: فجعل الناس يَدُسُّون الكراء إِليهم سِرًّا ويسكنون.

سنة إحدى ومئة: حجّ بالناس أمير مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأَسدي.

وقيل: أمير المدينة عبد الرحمٰن بن الضحاك بن قيس الفهري[٥].

سنة اثنتين ومئة، وثلاث مئة: حجّ بالناس أمير المدينة عبد الرحمٰن بن الضحاك بن قيس الفهري[٦].

سنة أربع ومئة: حجّ بالناس أَمِيرُ الحرمين عبد الواحد بن عبد الله بن كعب بن عُمير بن سبيع بن عبَّاد بن عوف بن نَصْر بن معاوية بن هوازن، النَّصْرِيُّ ـ بالنون بعدها صاد مهملة[٧] ـ.

وفيها ضُربت الأَميال من الكوفة إِلى مكة.

سنة خمس ومئة: حجّ بالناس إِبراهيم بن هشام بن إِسماعيل المخزومي، خل

---

(١) وبه قطع الطبري في تاريخه [٦/ ٥٢٩].
(٢) وقطع به الطبري في تاريخه [٦/ ٥٤٥].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٥٥٤].
(٤) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٥٦٣].
(٥) وهو قول أبي معشر، ومحمد بن عمر. انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٥٨٩].
(٦) انظر: تاريخ الطبري [٦/ ٦١٧، ٦٢٠].
(٧) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٢٣٩].

هشام بن عبد الملك[١]، وأرسل إلى عطاء بن أبي رَبَاح يقول له: متى أخطب بمكة؟ فقال له: بعد الظهر قبل التَّرْوية بيوم، فخطب قبل الظهر وقال: أخبرني رسولي بهذا عن عطاء فقال عطاء: ما أمرته إلا بعد الظهر، فاستحيا إبراهيم، وعدوه منه جهلاً.

سنة ست ومئة: حجّ بالناس إبراهيم بن هشام المخزومي كذا قيل.

وقال سِبْطُ بن الجوزيّ: الذي حجّ بالاتفاق أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان، وكتب له أبو الزِّناد سير الحج[٢].

وفيها مات طاوس بن كيسان قبل التروية بيوم، وصلّى عليه أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك.

سنة سبع ومئة إلى سنة إحدى عشرة ومئة: حجّ بالناس أمير الحرمين إبراهيم بن هشام المخزومي[٣]، واتّفق له في سنة تسع أن خطب بِمِنى الغد من يوم النَّحر بعد الظهر فقال: سَلُوني فأنا ابن الوحيد، فإنكم لا تسألون أحداً أعلم مني، فقام إليه رجل من أهل العراق فسأله عن الأُضحِية أواجبة هي أم سنَّة مستحبة؟ فما دري أي شيء يقول. فنزل.

سنة اثنتي عشرة ومئة: حجّ بالناس سليمان بن هشام بن عبد الملك وقيل: أمير الحرمين إبراهيم بن هشام المخزومي.

سنة ثلاث عشرة ومئة: اختلف فيمن حجّ بالناس فقال ابن الأثير: إبراهيم بن هشام المخزومي، وقال المسعوديُّ والعتيقي: سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقال سِبْطُ بْنِ الجوزيّ هشام بن عبد الملك.

وفي هذه السنة كسفت الشمس بعد العصر، وبمكة يومئذ الليث بن سعد، وابن شهاب، وأيوب بن موسَى، وعطاء بن أبي رباح وأبو الزبير، وعَمْرُو بن دينار، وابن أبي حسين النوفلي، وابن أبي مُليكة، وأبو بكر بنُ حزم، وعَمْرُو بن شعيب، وقتادة وغيرهم فقاموا قياماً يدعون. قال الليث: فقلت لأيوب بن موسى: ما لهم لا يُصلُّون، وقد صلّى النبيُّ ﷺ؟ قال: لأنَّ النهي قد جاء في الصلاة بعد العصر أن لا تُصلي، فلذلك لا يُصلُّون، وإنَّ النَّهيَ يقطع الأمر.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٢٤٣].

(٢) قطع به ابن كثير في البداية والنهاية [٩/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤].

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٢٥٤، ٢٧٠، ٢٧١، ٣١٤].

سنة أربع عشرة ومئة: حجّ بالناس محمد بن هشام المخزومي[١] وقيل: خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص الأموي.

سنة خمس عشرة ومئة: حجّ بالناس أمير مكة والطائف محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي.

وقيل: خالد بن عبد الملك[٢]. والأول أصح.

سنة ست عشرة ومئة: حجّ بالناس محمد بن هشام المخزومي، وقيل: الوليد بن يزيد. كذا قال المسعودي وابن الجوزي[٣].

وقال ابن الأثير وابن جرير وسبط بن الجوزي: إن الذي حجّ بالناس الوليد وحمل معه الخمور والملاهي والكلاب، وأراد أن يشرب بمكة المشرَّفة، وسيأتي ذكر ذلك فيمن حجّ من الخلفاء.

سنة سبع عشرة ومئة: حجّ بالناس أمير مكة خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص، أخو أمير المؤمنين هشام.

سنة ثمان عشرة ومئة: حجّ بالناس أمير الحرمين والطائف محمد بن هشام المخزومي[٤].

سنة تسع عشرة ومئة: حجَّ بالناس أمير مكة والمدينة والطائف محمد بن هشام المخزومي.

وقيل: إن الذي حجّ في هذه السنة أبو شاكر مسلمة بن هشام بن عبد الملك كذا قال العتيقي وابن الأثير وابنُ الجوزي، وقال ابن الجوزي: فأظهر النسك والوقار، وقسم بمكة والمدينة أموالاً وحجّ معه محمد بن شهاب الزهريُّ[٥].

سنة عشرين ومئة: حجّ بالناس محمد بن هشام المخزوميُّ[٦]، وقيل: سليمان بن هشام بن عبد الملك[٧]، وقيل: أخوه يزيد[٨]. وفيها كان سَيْلُ أبي

(١) ذكره ابن كثير في قول. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٣١٧].
(٢) وهو قول الواقدي وأبو معشر. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٣١٧].
(٣) وهو قول الواقدي. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٣٢٥].
(٤) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٣٣٣].
(٥) وبهذا قطع ابن كثير. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٣٣٧].
(٦) وهو قول أبي معشر. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٣٣٩].
(٧) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٣٣٩].
(٨) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٣٣٩].

شاكر، وذلك لأنه حَجَّ بالناس قبل هذه السنة وجاء السيل عقبه فَسُمِّي به.

سنة إحدى وعشرين ومئة: حجّ بالناس محمد بن هشام المخزومي(١).

سنة اثنتين وعشرين ومئة: كذلك.

سنة ثلاث وعشرين ومئة: كذلك. وقال ابن الأثير وابن الجوزي وابن جرير: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة يزيد بن عبد الملك.

سنة أربع وعشرين ومئة: حجّ بالناس محمد بن هشام المخزوميُّ أمير الحرمين(٢).

وحجّ في هذه السنة عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك(٣)، ومعه امرأته أم مسلمة بنت هشام بن عبد الملك، وكان على بابها أمير الحرمين محمد بن هشام يرسل بالسلام إليها.

سنة خمس وعشرين ومئة: حجّ بالناس أَمير الحرمين يوسف بن محمد الثقفيُّ(٤).

سنة ست وعشرين ومئة: حجّ بالناس عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز الأمويُّ. كذا قال الواقديُّ فيما ذكر ابن جرير وابن الجوزي. وقال المسعوديُّ والعتيقيُّ: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة عمر بن عبد العزيز بن عبد الملك بن مروان.

سنة سبع وعشرين ومئة: حجّ بالناس أمير مكة والمدينة والطائف أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأَمويُّ(٥).

سنة ثمان وعشرين ومئة: حجّ بالناس أمير مكة والمدينة والطائف عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز الأَموي(٦).

وفيها حَجَّ أبو حمزة الخارجيُّ واسمه المختار بن عوف الأَزديُّ السَّلِيمي البصري، وكان في كل سنة قبل هذا يوافي مكة، ويدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد، فلم يزل كذلك حتى وافى في هذه السنة عبد الله بن يحيىٰ المعروف بطالب

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٣٤١].

(٢) قاله الواقدي. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٣٥٤].

(٣) وقال الواقدي وأبو معشر إنه الذي حجّ بالناس. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٩/ ٣٥٤].

(٤) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٦].

(٥) وهو قول الواقدي وأبو معشر. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٢٧].

(٦) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٣٠].

الحق، فدعاه إلى خلاف مروان والتوجه إلى حضرموت وانطلق معه إليها فبايعه على الخلافة.

سنة تسع وعشرين ومئة: ولي إمرة الحرمين عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان الأَمويُّ[١]، وحجّ بالناس في هذه السنة ولم يشعروا إلا وقد طلعت عليهم من جبال عرفة من طريق الطائف أَعلامٌ وعمائِمُ سود على رؤوس الرماح، وهم عشرة آلاف، ويقال سبع مئة رجل، رسل عبد الله بن يحيىٰ الأَعور الكندي المسمى طالب الحق، ومقدمهم أبو حمزة المختار بن عوف الخارجي الأُباضِيُّ، ومعهم بلجُ بن عقبة الأَزدي الخارجي، ففزع الناس حين رأوهم، وسألوهم عن حالهم فأَخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان والتبرِّي منهم، فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك في المسأَلة وطلب منهم الهدنة حتى تنقضي أيام الحج، فصالحهم على أنهم جميعاً آمنون بعضهم من بعض، حتى ينفر الناس النفر الأَول فيُصبحوا من الغد، ووقفوا بعرفة على حدة، ودفع بالناس وركب عبد الواحد فنزل بمنى في منزل السلطان، ونزل أبو حمزة الخارجي مقدم الفريق الآخر بقرن الثعالب، فأَرسل عبد الواحد إلى أبي حمزة عبدَ الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وعبد الرحمٰن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وعبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وربيعة بن أبي عبد الرحمٰن في رجال أمثالهم، فتوجهوا إلى أَبي حمزة، وعليه إزارٌ قَطَرِيٌّ غليظ، فَتقَدَّمَ إليه عبد الله بن الحسن ومحمد بن عبد الله فنسبهما فانتسبا له، فعبس في وجوههما، وأظهر الكراهة لهما، ثم سأَل عبد الرحمٰن بن القاسم، وعبد الله بن عمر فانتسبا إليه، فهشّ إليهما، وتبسّم في وجوههما [وقال: والله ما خرجنا إلا لنسير سيرة أَبَوَيْكمَا، فقال له عبد الله بن حسن:] والله ما جئناك للتفضيل بين آبائنا، ولكن بعثنا إليك الأَمير برسالة، وهذا ربيعة يخبرك فلما ذكر له ربيعة نقض العهد قال أبو حمزة: معاذ الله أنْ نَنْقُضَ العهد، أو نَخِيس به، والله لا أَفْعَلُ، ولوْ قُطِعتْ رقبتي هذه، ولكن حتى تنقضي الهدنة بيننا وبينكم. فرجعوا إلى عبد الواحد، فَأَخبروه فلما كان يوم النفر الأَول خرج عبد الواحد كأَنه يفيض، حتى مضى على وجهه وترك فساطيطه، وثقله بمنى، وسار إلى المدينة وخلّى مكة، فدخلها أبو حمزة بغير قتال، فقال بعضهم في عبد الواحد:

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٣٦].

زَارَ الْحَجِيْجَ عصابةٌ قَدْ خَالَفُوا ... دِيْـنَ ألإلٰـه فَفَـرَّ عـبـد الـواحـد

تَـرَكَ الْـحَـلائِـلَ والإمـارة هَـارِبـاً ... وَمَضَى يُخَبِّطُ كَالْبَعِيْرِ الشَّارِد

ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم في العطاء عشرة عشرة وأمرهم بالتجهيز.

سنة ثلاثين ومئة: فيها حجَّ بالناس أمير الحرمين محمد بن عبد الملك بن مروان، كذا قال ابن الجوزي(١).

ويقال: عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وقال المسعوديُّ: إن الذي حجّ بالناس محمد بن عبد الملك بن محمد بن عطية السعديُّ.

وفيها وقع الحرب بين عسكر عبد الواحد وأبي حمزة لسبع مضين من صفر، وظفر أبو حمزة، وسار إلى المدينة فدخلها، في ثالث عشر من صفر، ومضى منها عبد الواحد إلى الشام، فأتى مروان بن محمد فأخبره، فانتخب من عسكره أربعة آلاف فارس، واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية بن عروة السعدي، وولاّه الحرمين واليمن. وأن يقاتل الخوارج، فإنْ ظفر بهم يبلغ اليمن، ويقاتل طالب الحق، فسار حتى أتى مكة، فالتقى مع جيش أبي حمزة بالأبطح. ومعه خمسة عشر ألفاً، ففرّقهم من أعلى مكة وأسفلها، وأتاها هو من أعلى الثنية، فسألهم أبو حمزة عن القرآن الكريم، واليتيم فقال له ابن عطية: نضع القرآن بين الجواليق، ونأكل مال اليتيم، ونفجر بأمّه، في أشياء سألوه عنها. فلما سمعوا كلامه قاتلوا حتى أمسوا، فصاحوا: يا ابن عطية إنَّ الله قد جعل الليل سكناً فاسْكُن، فأبى، وقاتلهم حتى غلبهم، وقتل أبا حمزة وخلقاً من جيشه، وانهزم بقيتهم، وسار ابن عطية إلى اليمن، واستخلف على مكة ابن ماعز رجلاً من أهل الشام فلما سمع طالب الحق الذي بعث أبا حمزة إلى مكة بخبره، سار في نحو ثلاثين ألفاً حتى نزل صعدة، فالتقى هو وجيش ابن عطية، فقتل طالبَ الحق ومَن معه، وبعثَ برأسه إلى مروان، فكتب إليه يأمره أن يسرع المسير للحج بالناس، فتوجه ابنُ عطية بعد حروب أخر، جَرَتْ له باليمن ـ في خمسة عشر رجلاً وقيل اثني عشر رجلاً من وجوه أصحابه ـ ليقيم الحجَّ والموسم، وخلف عسكره بصنعاء ومعهم ابن أخيه، فلما نزل ابن عطية الجوف أتاه ابنا جُمانة المرادِيَّان، في جمع كثير، وقالوا له ولأصحابه: أنتم لصوص، فأَخْرَج ابنُ

---

(١) وهو قول أبي معشر. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٣٩/١٠].

عطية عهده على الحج، وقال: هذا عهد أمير المؤمنين بالحج، وأنا ابن عطية. فقالوا: هذا باطل، وأنتم لصوصٌ، فقاتلهم حتى قُتل ـ عفا الله عنه وإيانا ـ.

سنة إحدى وثلاثين ومئة: حجّ بالناس عامل الحرمين والطائف الوليد بن عروة بن محمد بن عطية السعديُّ، من قبل عمه عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي.

سنة اثنتين وثلاثين ومئة: حجّ بالناس عَمُّ أَميرِ المؤمنين أبي العباس السفاح، وهو أمير الحرمين واليمن واليمامة أبو سليمان داود بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشميُّ العباسيُّ، وهي أول حجّة حجّها بنو العباس.

وفي هذه السنة رَفع داود بن علي العباسي إثر قدومه إلى مكة الفسقية التي جعلها خالد القسريُّ في ولايته بمكة بأمر سليمان بن عبد الملك، وقيل: بأمر من أخيه الوليد بن عبد الملك، بين زمزم والركن والمقام، وهدم البركة التي جعلها خالد أيضاً عند باب الكعبة، وصرف العين إلى بِرْكَة كانت بباب المسجد، فَسُرَّ الناس بذلك سروراً عظيماً.

سنة ثلاث وثلاثين ومئة: فيها وَلَّى الخليفةُ السفَّاحُ خالَه زيادَ بْنَ عبيد الله بن عبد الْمَدَانِ الحارثيَّ الحرمين والطائف، فحجّ بهم فيها[١].

وفيها قَتَلَ داودُ بنُ عليٍّ بن عبد الله بن عباس مَنْ ظَفِرَ به من بني أُمَيَّةَ بالحرمين[٢]، ولما أراد قتلهم قال له عبد الله بن الحسين بن الحسين: يا أخي إذَا قتلتَ هؤلاء فَبِمَنْ تُبَاهِي؟ أما يكفيك أنْ يروكَ غادياً ورائحاً فيما يسرُّك ويَسُوؤُهم!! فلم يقبل منه وقتلهم.

وفيها مات داود بن علي، أمير الحرمين، ليلة هلال ربيع الأول، سنة ثلاث وثلاثين ومئة بالمدينة، فولّى بعده زياد بن عبد الله خال السفاح.

سنة أربع وثلاثين ومئة: حجّ بالناس عامل الكوفة عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[٣].

وفيها ضربت الأَميال من مكة إلى الكوفة.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/٥٨].
(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/٥٨].
(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/٥٩].

سنة خمس وثلاثين ومئة: حجّ بالناس عامل البصرة سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس[١].

سنة ست وثلاثين ومئة: حجّ بالناس أبو جعفر المنصور[٢]، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشميُّ المطلبي العباسيُّ. قبل أَنْ يُسْتَخْلَفَ، وأخذَ له البيعةَ وهو في الحج عَمُّهُ عيسى، عقب وفاة أخيه أبي العباس السفاح، لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة تاريخه.

وحجّ معه أبو مسلم الخراسانيُّ، واسمه عبد الرحمٰن بن مسلم، ففعل أفعالاً حسنة ـ يأتي ذكرها في بابه ـ ولما صدر الناس من الموسم نفر أبو مسلم قبل أبي جعفر كراهة اجتماعهما على المياه، فيضر ذلك بالناس، طلباً للرفق بهم.

سنة سبع وثلاثين ومئة: حجّ بالناس إِسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس[٣].

سنة ثمان وثلاثين ومئة: حجّ بالناس الفضلُ بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي[٤]، وكان خرج من الشام حاجًّا، فأدركته ولايته على الموسم والحج في الطريق، فمرّ بالمدينة وأحرم منها.

وفي هذه السنة، أو في السنة التي تليها كما قال ابن الجوزيّ: زاد أميرُ المؤمنين أبو جعفر المنصورُ في المسجد الحرام من شقِّه الشمالي الذي يلي دَارَي الْعجَلَة والنَّدْوَةِ، وفي أسفله إِلى المنارة التي في ركنه اليوم، عند باب بني سَهْم المعروف الآن بباب العمرة، وعمل فيه الأَساطين الرخام، وفي وجهها الفسيفساء، وكان ذلك على يد أبي جعفر زياد بن عبد الله الحارثي، أمير مكة، وفرغ من عمارته في ذي الحجة سنة أربعين ومئة، أعظم الله جزاءه وأحسن ثوابه.

سنة تسع وثلاثين ومئة: حجّ بالناس العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي[٥].

وفي هذه السنة كانت وفاة أبي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي الخراساني في المحرم منها.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٥٩].
(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٦٠].
(٣) قاله الواقدي. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٧٥].
(٤) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٧٦].
(٥) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٧٧].

سنة أربعين ومئة: حجَّ بالناس ثاني خلفاء بني العباس أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي[١]، وأحرم من الحيرة.

وقيل: إنَّ الذي حج بالناس صالحُ بن علي بن عبد الله بن عباس، كذا قال المسعوديُّ.

وفي هذه السنة أمر أَبُو جعفرِ المنصورُ بتَرخِيْمِ الْحِجْرِ، بكسر الحاء المهملة وهو أول مَنْ رَخَّمَهُ.

سنة إحدى وأربعين ومئة: فيها حجّ بالناس إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشميُّ.

وقال العتيقيُّ وابنُ جرير وابن الجوزي وابن الأَثير: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة عامل دمشق وحمص وقنّسرين صالح بن علي بن عبد الله بن عباس[٢].

وقال ابن الوردي: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة الخليفة المنصور، وعاد إلى زيارة بيت المقدس، فتكون حجته الثانية وهو خليفة.

سنة اثنتين وأربعين ومئة: حجّ بالناس إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشميُّ.

سنة ثلاث وأربعين ومئة: حجّ بالناس عامل الكوفة عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشميُّ ابن أخي السفاح والمنصور[٣]، وكنيته أبو موسى، نشأَ بالبلقاءِ، ثم خرج مع أهله إلى العراق، وكان جليلاً جميلاً في أهل بيته، ولي إمرة الموسم في خلافة عميه أبي العباس وأبي جعفر.

سنة أربع وأربعين ومئة: حجّ بالناس أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشميُّ الحجة الثالثة وهو خليفة كما قال الحافظ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه «المنتظم».

وفي هذه السنة اجتمع بالخضر بالمطاف، لما سمعه يشكو إلى الله من ظهور البغي والفساد في الأَرض، وله حكاية مطولة أوردناها أول الكتاب.

---

(١) وبه قطع ابن كثير في [١٠/٧٧].
(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/٨٠].
(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/٨٢].

سنة خمس وأربعين ومئة: حجّ بالناس أَمِيْرُ مكة والطائف، السَّرِيُّ بن عبد الله بن الحارث بن العباس الهاشميُّ.

سنة ست وأربعين ومئة: حجّ بالناس عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[(١)].

سنة سبع وأربعين ومئة: حجّ بالناس أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور الهاشميُّ العباسيُّ، حجته الرابعة وهو خليفة.

وفي هذه السنة أو التي بعدها أمر النصور نائبه على مكة والطائف وهو عمه عبد الصمد بن عليٍّ، بأَنْ يَدْفِنَ سُدَيْفَ [بنَ إسماعيل بن] ميمون، المكيِّ الشاعِرَ حَيًّا، وكان سُدَيْفُ في سجن عبد الصمد، ففعل به ذلك وسببه أنه بلغ المنصورَ بيتان لِسُدَيْفٍ قال فيهما وهما:

أَسْرَفْتَ فِي قَتْلِ الرَّعِيَّةِ ظَالِماً ... فَاكْفُفْ يَدَيْكَ أخالَها (؟) مَهْدِيُّهَا
فَلَتَأْتِيَنَّكَ رَايَةٌ حَسَنِيَّةٌ ... جَرَّارَةٌ يَقْتَادُهَا حَسَنِيُّهَا

سنة ثمان وأربعين ومئة: حجّ بالناس جعفر بن أبي جعفر المنصور الهاشميُّ العباسي[(٢)].

سنة تسع وأربعين ومئة: حج بالناس أمير مكة والطائف محمد بن إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي[(٣)]. وقيل: الخليفة أبو جعفر المنصور.

سنة خمسين ومئة: حجّ بالناس عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي[(٤)].

سنة إحدى وخمسين ومئة: حجّ بالناس أمير مكة والطائف محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[(٥)].

وفيها أَغارت الحبشة على جُدَّةَ في البحر.

سنة اثنتين وخمسين ومئة: حجّ بالناس أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور العباسيُّ حجته الخامسة ـ وقيل السادسة ـ وهو خليفة، واستعدى عليه الجمّالون

---

(١) قاله الواقدي وغيره. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/١٠٦].

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/١٠٨].

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/١٠٨].

(٤) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/١١٠].

(٥) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/١١٢].

بالمدينة وحضر معهم عند الحاكم محمد بن عمران الطلحي التيمي فحكم لهم عليه.

سنة ثلاث وخمسين ومئة: حجّ بالناس المهدي بن عبد الله المنصور العباسي[١]، ولما عاد المنصور من مكة إلى البصرة جهّز جيشاً في البحر إلى الحبشة الذين أغاروا على جدة.

سنة أربع وخمسين ومئة: حجّ بالناس أمير مكة والطائف محمد بن إبراهيم بن علي بن عبد الله بن عباس[٢].

وفي هذه السنة سقطت صاعقة بمكة قتلت بالمسجد الحرام خمسة أنفس، وقيل: ستة، وانخسفت بئر بعرفة هلك فيها طائفة من الناس.

سنة خمس وخمسين ومئة: حجّ بالناس عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي.

سنة ست وخمسين ومئة: كذلك، كذا قال المسعودي.

وقال العتيقي وابن الجوزي: إن الذي حجّ بالناس العباس بن محمد بن عبد الله بن عباس[٣].

سنة سبع وخمسين ومئة: حجّ بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

سنة ثمان وخمسين ومئة: عزم الخليفة أَبو جعفر المنصور العباسيُّ على الحج، وهي حجته الأَخيرة. فحين خرج إلى مكة بعث الخشّابين لقتل سفيان الثوريِّ رضي الله عنه، فلما دخلوها نصبوا الخشب ونودي: يا سفيان!! فإذا رأْسه في حِجْر الفُضَيْل بن عياض رضي الله عنه، ورِجْلاَه في حجْرِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وقالوا له: يا أَبا عبد الله اتَّقِ الله ولا تُشمت بِنا الأَعداء!! فتقدّم إلى أستار الكعبة ثم أَخَذَها وقال: بَرِئْت مِنْكَ إِنْ دخَلها أَبُو جعفر، فَاستجاب الله له، ولم يدخلها وكان ذلك سَبَب موته - كما ذكرناه مبسوطاً في (من حج من الخلفاء) -.

وحجّ بالناس عَامِل مكة والطائف ابن أَخي المنصور إبراهيم بن يحيى بن محمد علي بن عبد الله بن عباس العباسيُّ، بوصية من عمه المنصور.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ١١٤].

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ١١٤].

(٣) وبه قطع ابن كثير في البداية والنهاية [١٠/ ١١٧].

سنة تسع وخمسين ومئة: حجّ بالناس يزيد بن منصور بن عبد الله بن سند الْحِمْيَرِيُّ، خالُ المهديِّ عند قدومه من اليمن، وكان المهديُّ قد كتب إليه بالقدوم عليه وتوليته الموسم(١).

وفي هذه السنة أَو في التي بعدها أَمر المهديُّ بنفي كل مَن بمكة من المغنِّين ومنع قينتها من الغناء، وأَخرج كلَّ مَن فيها من المتشبهينَ من الرجال بالنساء، ومن النساء بالرجال، ومنَع منْ لعب الشِّطرَنْج، وغيره من الأُمور التي تَجُرُّ إلى اللهو والطرب، ومنع أَشياءَ كثيرة من المباحات الملهية عن الصلوات.

سنة ستين ومئة: حجّ بالناس أَمير المؤمنين المهدي بن عبد الله بن محمد بن أَبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي، واستصحب معه ابنه الرشيد هارون، وجماعة من أَهل بيته.

سنة إحدى وستين ومئة: حجّ بالناس الهادي موسى بن المهدي أَمير المؤمنين محمد بن أَبي جعفر المنصور العباسي الهاشمي(٢).

وفيها اشترى قاضي مكة الأَوقص المخزوميُّ بأَمر أَمير المؤمنين المهدي الدور التي بين المسجد والْمَسْعى كل ذراع مكسراً فيما دخل في المسجد الحرام بخمسة وعشرين ديناراً، وما دخل في الوادي بخمسة عشر ديناراً، وهدم جميعها، ووضع المسجد على ما هو عليه شارعاً على المسعى، وأَمر المهديُّ بأَساطين الرخام فنقلت في السفن من الشَّام، حتى أُنزلتْ بجُدَّة، ثم حملت منها على العجل إلى مكة، فوضعت في المسجد الحرام، على ما هي عليه الآن.

وفيها أَمر المهديُّ بعمارة طريق مكة، وبنى القصور فيها، أَوسع من القصور التي بناها عمه السفاح، من القادسية إلى زُبَالَةَ، مع الزيادة في قصوره، وترك قصور والده أَبي جعفر المنصور التي كان بناها على حالها، وأَمر باتِّخاذ الْبِرَكِ وحفر الركايا، والمتولي لعمارتها بَقْطِينُ بن موسى، ولم يزل ذلك إليه إلى سنة إحدى وسبعين ومئة.

وفيها حَلَّى المهديُّ المقامَ لمكاتبة الحجبة له بأَنه رُفع فانثلم، ويخاف عليه أَنْ يَتَفَتَّتَ، فبعث أَلف دينار، ضُبِّبَ بها من أَعلاه إلى أَسفله. وبَلَّط أَمير الحرمين والطائف جعفر بن سليمان بن علي بطنَ الْحِجْرِ بالرخام الأَبيض والأَخضر والأَحمر.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/١٣٣].

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/١٣٦].

سنة اثنتين وستين ومئة: حجّ بالناس عليُّ بن المهديِّ أمير المؤمنين العباسي[١].

وقال العتيقيُّ وابنُ الجوزي وابن جرير: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة إبراهيم بن جعفر بن المنصور العباسي.

سنة ثلاث وستين ومئة: حجّ بالناس علي بن المهديِّ العباسي.

سنة أربع وستين ومئة: حجّ بالناس أمير المؤمنين المهديُّ محمد بن أبي جعفر المنصور العباسي الهاشمي، فلما رأى زيادته الأولى في المسجد الحرام وقد اتسع المسجد الحرام من أعلاه وأسفله، وشِقُّهُ الذي يلي دار الندوة، وضاق شقه اليماني الذي يلي الوادي والصفا، وكانت الكعبة في شق المسجد غير متوسطة فيه فقال: ما ينبغي أن يكون بيت الله هكذا، وأحب توسط الكعبة في المسجد، وذلك أن الوادي كان لاصِقاً به، وبيوت الناس من ورائه في موضع الوادي اليوم، فدعا المهدي المهندِسِيْنَ فشاورهم في ذلك، فقدروه وقالوا: لا يستوي من أجل الوادي والسيل العارم، وإنْ حَوَّلْنا الوادي من مكانه لا ينصرف لنا على ما نريد، مع ازوراره عن الدور والأماكن ولعله لا يتم، فقال المهديُّ: لا بُدَّ من التوسعة حتى أُوَسِّطَ الكعبة في المسجد على كل حال ولو أنفقتُ فيه ما في فيه بيوت الأموال. وعظمتْ في ذلك نِيَّتُهُ، واشْتَدَّتْ رغبَتُه ولَهِجَ بعمله فكان من أكبر همه، فقدروا ذلك وهو حاضر ونصبوا الرماح على الدور من أول موضع الوادي إلى آخره، ثم ذُرِعَ من فوقها، ووزنوه مرة بعد أُخرى وقدَّرُوا ذلك، ثم خرج المهدي إلى العراق، فخلف الأموال عند دولته، فاشتروا من الناس دُوْرَهُمْ، فكان ثمن كل ما يدخل في المسجد الحرام من ذلك كل ذراع مُكَسَّرٍ بخمسة وعشرين ديناراً، وكان ثمن كل ما دخل في الوادي بخمسة عشر ديناراً، وأرسل إلى الشام وإلى مصر، فَنُقِلتْ أساطين الرخام في السُّفن، حتى أُنزلت بجُدَّة، ثم نقلت على العجل منها إلى مكة، وابتدأوا في عمل ذلك سنة سبع وستين ومئة، كذا قال الأزرقي في تاريخه[٢].

وقال العتيقيُّ وابن الأثير: إنَّ المهديَّ خرج إلى الحج، فلما بلغ العقبة ورأى قلة الماء لا يحمل الناسَ، وأخذتْه أيضاً حُمَّى، فرجع وسيَّرَ أخاه صالحاً ليحج بالناس ولحق الناسَ عطشٌ شديد، حتى كادوا يهلكون، وغضب المهديُّ على يقطين لأنه

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/١٣٨].
(٢) انظر: تاريخ مكة للأزرقي [٢/ ٨٠].

صاحب المصانع[١] وقال المسعودي: إنَّ الذي حجَّ بالناس في هذه السنة صالح بن أبي جعفر المنصور الهاشمي العباسي.

سنة خمس وستين ومئة: حجّ بالناس صالح بن أَبي جعفر المنصور الهاشمي العباسي[٢].

سنة ست وستين ومئة: حجّ بالناس أَمير المدينة إِبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[٣].

وفيها ابْتُدِىءَ في توسعة المسجد الحرام، وهدمت الدور التي اشتريت جهة الصفا والوادي، ثم حَرفُوا الوادي في موضع الدور، حتى لقوا به الوادي القديم، بباب أَجياد الكبير، بفم خط الحِزَاميَّة، عند باب البقَّالِين، المعروف الآن باب حَزْوَرَة، وابتدأُوا من أَعلاه من باب بني هاشم المستقبل الوادي والبطحاء، المعروف بباب العباس، وقال المهندسون: إن جاء سيل عظيم فدخل المسجد خرج من باب البقالين المرعوف بِحَزْوَرَة ولم يعمل في شق الكعبة.

والذي زِيْدَ في المسجد من شق الوادي تسعون ذراعاً، ودخلت فيه دار أُم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها مع بئر جاهلي كان قُصَيٌّ حفرها، وحفر المهديُّ عِوَضها البئر التي كانتْ على باب البقالين في حَدِّ ركن المسجد الحرام ويُغَسَّلُ الطَّرحا من الأَموات فيها الآن، وعملت فيه أساطين الرخام وسُقِّفَ بالساج المذهَّب المنقوش، واستمر حتى توفي المهدي في سنة تسع وستين ومئة واستخلف موسى الهادي فكمل في خلافته، فبادر القوم بإِتمام المسجد، وأَسرعوا في ذلك، وبنوا أساطينه بحجارة ثم طليتْ بالجصّ، وعمل سقفه عملاً دون عمل المهدي في الإِحكام والحسن، على ما هو عليه الآن.

سنة ثمان وستين ومئة: حجّ بالناس علي بن المهدي بن أَبي جعفر المنصور العباسي، ويقال له ابنُ رَيْطَةَ[٤].

سنة تسع وستين ومئة: حجّ بالناس سليمانُ بن أَبي جعفر المنصور الهاشمي العباسي[٥] وقدم مكة الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أَبي طالب الحسني بعد

(١) قاله ابن كثير. انظر: البداية والنهاية [١٠/ ١٥٠].
(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ١٥١].
(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ١٥٣].
(٤) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ١٥٥].
(٥) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ١٦٢].

بيعته بالمدينة، وجمع الْعَبِيْدَ، فبلغ خبره الهادي، وكان حج في هذه السنة رجال من أَهل بيته فيهم سليمان بن المنصور، ومحمد بن سليمان بن علي، والعباس بن محمد بن علي، وموسى وإِسماعيل ابنا عيسى بن موسى، فكتب الهادي إِلى محمد بن سليمان بتوليته على الحرب، وكان قد سار بجماعة وسلاح من البصرة لخوف الطريق فاجتمعوا بذي طُوَى، وكانوا قد أَحرموا بعمرة، فلما قدموا مكة طافوا وسعوا وحلُّوا من العمرة، وعسكروا بذي طَوَى، وانضم إِليهم مَن حجّ من شِيَعِهم ومواليهم وقوّادهم، ثم إِنهم اقتتلوا يوم التروية بِفَخٍّ، فقُتل الحسينُ في أَزيد من مئة نفر من أَصحابه، وجرح بعضهم وانهزم بقيتهم فاختلطوا بالحاج، وبعضهم انهزم إِلى مصر، وانصرف محمد بن سليمان ومَن معه إِلى مكة ولا يعلمون بحال الحسين، فلما بلغوا ذي طَوَى لحقهم رجل من أَهل خراسان وهو يقول لهم: البشرى البشرى!! هذا رأْس الحسين، فأَخرجه وبجبهته ضربةٌ طولاً، وعلى قفاه ضربة أُخرى، فحمل إِلى الهادي مع رؤُوس القتلى وكانت مئة رأْس ونيِّفاً، ونودي بالأَمان بعد انقضاء الوقعة، فجاء أبو الوقت الحسين بن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسين بن علي بن أَبي طالب الحسني فوقف خلف محمد بن سليمان والعباس بن محمد فأَخذه موسى بن عيسى وعبد الله بن العباس بن محمد فقتلاه، فغضب محمد بن سليمان غضباً شديداً، وأُخِذَتْ أُخت الحسين فتُركت عند زينب بنت سليمان بن أَبي جعفر المنصور أَمير الحاج.

سنة سبعين ومئة: حجّ بالناس أمير المؤمنين هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي وهي حجته الأُولى وهو خليفة[١]، وفرّق بالحرمين مالاً كثيراً، وكان حَجُّه ماشياً يمشي على اللبود تُبسط له من منزل إِلى منزل.

سنة إِحدى وسبعين ومئة: حجّ بالناس عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي الهاشمي. كذا قال العتيقي وابن الأَثير وابن الجوزي[٢].

وقال المسعودي: إِن الذي حجّ بالناس في هذه السنة يعقوب بن أَبي جعفر المنصور العباسي.

وفيها قدمت الخيزران أم الرشيد إِلى مكة قبل الحج فأَقامت بها حتى حجّت، واشترت الدار المعروفة بها عند الصفا.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٣٤]، البداية والنهاية [١٠/ ١٦٥].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٣٥]، البداية والنهاية [١٠/ ١٦٧].

سنة اثنتين وسبعين ومئة: حجّ بالناس عبد الصمد بن علي العباسي. كذا قال المسعودي[١].

وقال العتيقي: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة يعقوب بن المنصور العباسي.

سنة ثلاث وسبعين ومئة: حجّ بالناس الخليفة هارون الرشيد العباسي، وأحرم من بغداد وهي حجته الثانية[٢].

سنة أربع وسبعين ومئة: حجّ بالناس هارون الرشيد العباسي وهي حجته الثالثة من خلافته[٣]، كان بمكة وباء فدخلها يوم التروية وطاف وسعى ولم ينزل، وخرج إلى عرفات، ثم عاد فدخلها فطاف طواف الزيارة وقفل راجعاً، وكان قد أفرد الحج وقسم بمكة مالاً عظيماً.

سنة خمس وسبعين ومئة: حجّ بالناس الخليفة هارون الرشيد العباسي[٤]، وهي حجته الرابعة.

وقيل: إن الذي حجّ بالناس عمه سليمان بن المنصور العباسي.

سنة ست وسبعين ومئة: حجّ بالناس الخليفة هارون الرشيد العباسي[٥]، وهي حجته الخامسة.

وفيها أرسل أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن المبارك مع محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة إلى الفضيل بن عياض أبياتاً من الشعر:

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا ... لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ

مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ ... فَنُحُورنا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ

أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ ... فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتْعَبِ

رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا ... رَهَجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارُ الأَطْيَبُ

وَلَقَدْ أَتَانَا عَنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا ... قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لاَ يُكْذَبُ

---

(١) وهو قول الطبري وابن كثير. انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٣٦]، البداية والنهاية [١٠/ ١٦٧].

(٢) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٣٨].

(٣) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٣٩]، البداية والنهاية [١٠/ ١٧٠].

(٤) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٤١]، البداية والنهاية [١٠/ ١٧١].

(٥) وهو قول ابن كثير. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ١٧٧] وقال الطبري: الذي حجّ في هذه السنة سليمان بن أبي جعفر المنصور. انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٥٤].

لاَ يَسْتَوِي ريحا (؟) خيل الله في أَنْفِ امْرِءٍ ودُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ
هٰذا كِتَابُ الله يَنْطِقُ بَيْنَنَا لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّت لا يَكْذِبُ

قال ابن سكينة: فلقيت الفضيلَ في المسجد الحرام بكتابه، فلما قَرأه ذَرَفَتْ عيناه، وقال: صدق أبو عبد الرحمٰن ونصح، ثم قال لي: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم يا أبا علي، قال: فاكتب هذا الحديث، جزاءً لحملك كتاب أبي عبد الرحمٰن إلينا. وأملى علي الفضيل رضي الله عنه قال: حدثنا منصور بن المعتمر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا نبيَّ الله علِّمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله، فقال له النبيُّ ﷺ: «هل تستطيع أن تُصَلِّيَ ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر»؟ قال: يا نبي الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك. قال: «فوالذي نفسي بيده لو طوقْتَ ذلك ما بلغتَ فضل المجاهدين في سبيل الله، أما علمت أنَّ فرس المجاهد يَسْتَنُّ في طوله فيكتب لصاحبه ذلك الحسنات»[١].

سنة ثمان وسبعين ومئة: والتي قبلها: حجّ بالناس أمير مكة محمد بن إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي[٢].

سنة تسع وسبعين ومئة: فيها اعتمر الخليفة هارون الرشيد العباسيُّ في شهر رمضان شكراً للّه تعالى على قتل الوليدِ بن طريف، وعاد إلى المدينة الشريفة فأقام بها إلى وقت الحج، وفرّق في الحرمين أموالاً كثيرة، وحجّ بالناس وهي حجته السادسة في خلافته، ومشى من مكة إلى منى إلى عرفات، وشهد المشاهد كلها ماشياً ورجع إلى طريق البصرة[٣].

سنة ثمان ومئة: حجّ بالناس [موسى بن][٤] محمد بن إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[٥].

سنة إحدى وثمانين ومئة: حجّ بالناس الخليفة هارون الرشيد العباسي[٦]، وهي السابعة من حجّاته وهو خليفة، وصدر معجلاً، وتخلّف عنه يحيى بن خالد البرمكي،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد [٦١٦] ح [٢٧٨٥].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٦٠]، البداية والنهاية [١٠/ ١٧٩].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٦١].
(٤) زيادة يصح بها الاسم. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ١٨١].
(٥) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٦٧].
(٦) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٦٨]، البداية والنهاية [١٠/ ١٨٣].

بعد أن استعفاه في الكعبة، ويقال: لحقه عند العمرة فاستعفاه من الولاية فأعفاه، وردّ إليه الخاتم، وسأله الإِذْنَ في المقام بمكة فأَذن له، فانصرف إليها وعاد مع الحجاج.

سنة اثنتين وثمانين ومئة: حجّ بالناس موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس(١).

سنة ثلاث وثمانين ومئة: حجّ بالناس العباس بن موسى الهادي(٢).

وفي هذه السنة جاءت الحبشة إلى جُدَّة فأوقعوا بأهلها، فخرج الناس من مكة إلى جدة، وأميرهم عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس غزاة في البحر.

سنة أربع وثمانين ومئة: حجّ بالناس إبراهيم بن المهدي محمد بن عبد الله بن محمد بن علي العباسي(٣).

وفي هذه السنة كان بمكة سيل يقال له سيل الْخَبَل، لأنه أصاب الناس بَعْدَهُ شِبْهُ الخبَل، مرض شديد في أجسادهم وألسنتهم، وكان سيلاً عظيماً دخل المسجد الحرام، وأحاط بالكعبة.

وفيها أيضاً جاء سيل عظيم، دخل المسجد، وذهب بالناس وأمتعتهم، وغرق الوادي في أثره.

سنة خمس وثمانين ومئة: حجّ بالناس الخليفة هارون الرشيد الهاشمي العباسي، حجته التاسعة.

وقال العتيقي: حجّ بالناس منصور بن المهدي(٤).

سنة ست وثمانين ومئة: حجّ بالناس أمير المؤمنين هارون الرشيد العباسي حجته العاشرة، وهو خليفة، وتبعه أولاده والفقهاء والقواد(٥)، وأنفق بمكة نفقاتٍ عظيمة، بلغ عطاؤه ألف ألف دينار، وخمسين ألف دينار، وكتب وَلِيَّا العهد: محمدٌ الأَمين، وعبدُ الله المأمون، كلُّ واحد على نفسه كتاباً بالعهد والميثاق بالوفاء لرفيقه، وعدم الغدر، والتعيير والتبديل. فيما شرط على كل منهما من ولاية أمور المسلمين، والتزم

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٦٩]، البداية والنهاية [١٠/ ١٨٦].

(٢) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٧١]، البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ١٨٩].

(٣) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٧٢]، البداية والنهاية [١٠/ ١٩١].

(٤) وهو قول الطبري، وابن كثير. انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٧٤]، البداية والنهاية [١٠/ ١٩٣].

(٥) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٢٧٧]، البداية والنهاية [١٠/ ١٩٤].

كلُّ واحد بأُمور مغلَّظة من الأَيمان والطلاق والعتاق فيما يملكه إلى ثلاثين سنة، والحج إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجة، حافياً راجلاً والتَّبَرِّي من الإسلام، ومن الخلافة وغير ذلك، وكتب فيهمَا مَن كان في الكعبة، وطويا وخُتما بخاتمَي ولي العهد، ثم أَمر أمير المؤمنين أن يعلَّقا في جوف الكعبة قبالة بابها مع المعاليق التي يراها الناس، وكللوهما بفصوص الياقوت والزبرجد واللؤلؤ.

سنة سبع وثمانين ومئة: حجّ بالناس عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي العباسي[(١)].

وقيل: منصور بن الهادي.

وفي هذه السنة مات الزاهد أبو علي الفضيل بن عياض التَّميمي اليربوعي في يوم عاشوراء.

سنة ثمان وثمانين ومئة: حجّ بالناس عبد الله بن العباس بن محمد بن علي العباسي.

وقيل: المنصور بن علي[(٢)].

سنة تسع وثمانين ومئة: حجّ بالناس أمير المؤمنين هارون الرشيد الخليفة العباسي حجّته الحادية عشرة، وهو خليفة[(٣)].

سنة تسعين ومئة: حجّ بالناس عيسى بن موسى الهادي بن أبي جعفر المنصور العباسي[(٤)].

سنة إحدى وتسعين ومئة: حجّ بالناس أمير مكة الفضل بن العباس بن محمد بن علي العباسي[(٥)].

سنة اثنتين وتسعين ومئة: حجّ بالناس عيسى بن موسى الهادي بن أبي جعفر المنصور.

---

(١) وبه قطع الطبري في تاريخه [٨/ ٣١٢].

(٢) وقال الطبري وابن كثير: إن الذي حجّ فيها الرشيد. انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٣١٣]، البداية والنهاية [١٠/ ٢٠٧].

(٣) وقال الطبري وابن كثير: إن الذي حجّ بالناس هو العباس بن موسى بن محمد بن علي. انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٣١٨]، البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٢٠٩].

(٤) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٢١١]، تاريخ الطبري [٨/ ٣٢٢].

(٥) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٣٣٧]، البداية والنهاية [١٠/ ٢١٤].

وقال العتيقي، وغيره: إنَّ الذي حجّ بالناس العباس بن عبيد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور[١].

وقال ابن الجوزي: حجّ بالناس أمير مكة الفضل بن العباس بن محمد بن علي العباسي.

سنة ثلاث وتسعين ومئة: حجّ بالناس أمير مكة داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[٢].

سنة أربع وتسعين ومئة: كذلك[٣]، وقيل: علي بن الرشيد هارون.

وفي هذه السنة أو في التي قبلها أو بعدها أرسل الخليفة الأَمين محمد بن هارون الرشيد العباسيُّ إلى سالم بن الجراح عاملٍ له على ضواحي مكة بثمانية عشر ألف دينار، ليضرب بها صفائح الذهب، على بَابَي الكعبة، فقلع ما كان على الباب من الصفائح، وزاد عليها من الثمانية عشر ألف ديار فضرب عليه الصفائح، والمسامير، وحلقتَي باب الكعبة، وعلى الفياريز والعتبة.

سنة ست وتسعين ومئة: حجّ بالناس العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد العباسي[٤]، وجَّهَه طاهر بن الحسين أميراً على الموسم من قِبَل المأْمون، ومحمد بن زبيدة الأَمين محصور، فدعا للمأْمون في الموسم بالخلافة، وهو أول موسم دُعِي له فيه بالخلافة بمكة والمدينة، واتفق في يوم الخميس لسبع وعشرين خلت من رجب الفرد أنَّ عاملَ الحرمين داود بن عيسى العباسي خلع بيعةَ محمد الأَمين، لظلمه وتعدِّيه على أخويه المأمون والمؤتمَن، وخلعهما عاصياً للّه تعالى، وبايع لابنه طفل صغير، رضيع لم يُفطم، واستخرج الشرطين من الكعبة فخرقهما [وأحرقهما][٥] بالنار، ونادى - أي الأَمين - بالصلاة جامعة فخطب الناس على المنبر، وذكرهم ما أخذ عليهم الرشيد، وأن محمداً - يعني الأَمين - بدأ الظلم والبغي، وقد حلَّ لنا خلعه، وأشهدكم أني قد خلعته من الخلافة كما خلعت قلنسوتي هذه من رأسي، ثم خلعها فرمى بها إلى خدمه، ولبس غيرها، ثم بايع لعبد الله المأْمون أياماً،

---

(١) وهو قول الطبري وابن كثير. انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٣٤٠]، البداية والنهاية [١٠/ ٢١٥].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٣٧٣].
(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٢٣٤].
(٤) وقال الطبري وابن كثير: إن الذي حجّ داود بن عيسى. انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٤٤٤].
(٥) زيادة من أخبار مكة للأزرقي [١/ ٢٤١].

وكتب لابنه سليمان عامل المدينة يأمره بخلع الأمين، ويبايع للمأمون، ثم سار على طريق البصرة إلى المأمون بِمَرْو، فأخبره بذلك، فَسُرَّ سروراً شديداً، وتيمّن ببركة مكة والمدينة، وكتب لداود عهداً عليهما، وزادهُ ولاية عَكٍّ، وكتب له إلى وَالِي الرَّيِّ بمعونة خمس مئة ألف درهم، وسيَّر معه ابنَ أخيه العباس بن موسى بن عيسى، وجعله على الموسم، فسارا حتى أتى طاهر بن الحسين ببغداد فأكرمهما وقرّبهما.

سنة سبع وتسعين ومئة: فيها حجّ بالناس العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي العباسي[1]، بتوجيه طاهر إياه على الموسم، بأمر المَأمون بذلك.

وفيها حجّ أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالي آخر حجّاته.

سنة ثمان وتسعين ومئة: حجّ بالناس العباس بن موسى بن عيسى العباسي، وقد اجتمع الناس على بيعة المأمون[2].

سنة تسع وتسعين ومئة: فيها لما استولى أبو السرايا بن منصور الشيباني داعية ابن طُبَاطُبا العلويِّ المكي وَلَّى الحسين بن الحسن الأَفطس بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب مكة، وجعل إليه الموسم، فسار إلى مكة فلما بلغ عاملها داود بن عيسى تَوَجُّهَ أبي السرايا الحسين الأفطس إلى مكة، لإقامة الموسم، جمع أصحابَ بني العباس ومواليهم والعبيد، وكان مسرور الخادم الكبير قد حجّ في هذه السنة، في مئتي فارس من أصحابه، فتعبَّأَ لحرب مَن يريد مكة من الطالبيين وقال لداود: أقم لي شخصك أو شخص بعض وِلدك، وأنا أكفيك قتالهم، فقال له داود: لا أستحل القتالَ في الحرم، والله لئن دخلوها من هذا الفَجِّ، لأَخْرُجَنَّ من هذا الفجّ فقال له مسرور: تُسلم مالك وولايتك إلى عدوك؟ فقال داود: أيُّ مالٍ لي؟! والله لقد أقمت معكم حتى شِخْتُ، فما وليت ولاية حتى كبرت، وفَنِيَ عمري، فولوني من الحجاز ما فيه القوت، وإنما هذا الملك لك ولأشباهك، فقاتل عليه أو دَعْ. ثم انحاز داود إلى جهة الْمُشَاشِ بأثقاله، وتوجّه منها على درب العراق، وافتعل كتاباً من المأمون بتولية محمد بن داود على صلاة الموسم، وقال له: اخرج فصلِّ بمِنى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح، واركب دوابك فانزل طريق عَرَفَة، وخذ على يسارك في شعب عمرو، حتى تأخذ طريق المشاش حتى تلحقني ببستان ابن عامر، فتفرّق الجمع الذي كان جمعهم وخاف مسرور أن يقاتلهم، فخرج في أثر داود، راجعاً إلى العراق، وبقي الوفد بعرفة فلما زالت الشمس حضرت الصلاة،

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٤٧١]، البداية والنهاية [١٠/ ٢٥١].

(٢) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٥٢٧]، البداية والنهاية [١٠/ ٢٥٥].

فتدافعها قومٌ من أهل مكة. فقال المؤذن أحمد بن الوليد الأَزرقي: إذًا لم يحضر الولاة وأهل مكة فَلْيُصلِّ قاضي مكة محمد بن عبد الرحمٰن المخزومي، وليخطب بهم قال: فلمن أَدْعُو وقد هرب هؤلاء؟ قال: لا تَدْعُ لأحد قال: بل تقدَّم أنت. فأبى الأَزرقيُّ حتى قدموا رجلاً من عرض الناس على الصلاتين بلا الخطبة، ثم مضوا فوقفوا بعرفة، ثم دفعوا بلا إمام حتى أتوا مزدلفة، فصلّى بهم المغرب والعشاء رجل من عرض الناس، من أهل مكة، وكان حسين بن حسين الأَفطس لما بلغ سَرِفَ خاف دخولَ مكة فتوقَّفَ، خوفاً من بني العباس، حتى خرج إليه قوم يميلون إلى الطالبيين، فأخبروه أن مكة قد خلتْ من بني العباس، فدخلها قبل المغرب في عشرة أنفس، فطافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، ومضوا إلى عرفة، فوقفوا ليلاً، ثم رجعوا إلى مزدلفة، فصلّى بالناس الصبح، ووقف بهم عند المشعر، ودفع بهم غداة جَمْع، وسار إلى مِنَى، وأقام بها أيام الحج، وسار إلى مكة فلم يزل مقيماً بها حتى انقضت السنة هذه ونصف السنة التي بعدها، وجرت له فيها أمور: منها أنه أمر بالكعبة فَجُرِّدَتْ من الثياب، وكانت قد كثرتْ عليها فجرّدها حتى بقيت حجارة مجرّدة، ثم كساها كسوتين بعث بهما أبو السَّرَايا من الكوفة إحداهما صفراء والأُخرى بيضاء مكتوب عليها: (بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى أهل بيته الطيبين الأَخيار، أمر أبو السَّرَايا الأَصغر بن الأَصغر داعية آل محمد ﷺ، بعمل هذه الكسوة لبيت الله الحرام، وأن يطرح عنها كسوة الظَّلَمة من ولد العباس، لتطهر من كسوتهم) ثم أخذ ما في خزانة الكعبة ونقله إليه وقال: ما تصنع به ونحن أحق به للاستعانة، فقسمه مع كسوتها على أصحابه، وتتبّع ودائعَ بني العباس وأَمتعتهم، وأخذها مع أموال الناس بحجة الودائع، وعاقب بعض الرجال بسببها، وهرب بعضهم فهدم دورهم، ونظر أصحابه إلى قلع شبابيك الحرم وزمزم، وصاروا يحكون الذهب من رؤوس أَساطين المسجد الحرام، ويبيعونه، فتغيّر الناس عليه لسوءِ سيرته، وسيرة أصحابه.

سنة مئتين: فيها استولى على مكة الحسين الأَفطس، من جهة أبي السرايا، فلما بلغه أنه قُتِل وطُرِدَ الطالبيون من البصرة والكوفة ورجعت الولاية لبني العباس أرغب الديباجة محمد بن جعفر العلوي في المبايعة له بمكة، ومخالفة بني العباس، فبايعوه ووصلهم عسكر لقتالهم فانهزم الطالبيون ودخلها العباسيون في جمادى الآخرة.

وحجّ بالناس أبو إسحاق المعتصم محمد بن هارون الرشيد الهاشمي العباسي(١)، وكان إبراهيم بن موسى بن جعفر أخو علي بن موسى الزيدي وجّه من

---

(١) انظر: البداية والنهاية [٢٥٨/١٠].

اليمن رجلاً من ولد عَقِيل بن أبي طالب، في جيش كثيف ليقيم الحج بالناس، فسار العقيلي حتى أتى بُسْتَانَ ابن عامر، فبلغه أن أبا إسحاق المعتصم ولد الرشيد هارون قد حجّ في جماعة من القوّاد، فعلم العقيلي أنه لا قدرة له بهم، فأَقام ببستان ابن عامر، واجتاز عليه قافلة من الحاج، ومعهم كسوة الكعبة وطيبها، فأَخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطِيْبَها، وقدم الحاج مكة عراة منهزمين، فاستشار المعتصم أصحابه فقال الجلودي: أَنا أكفيك ذلك، فأَخذ مئة رجل وسار إلى العقيلي وأصحابه، فصبّحهم وقاتلهم، فانهزموا، وأَسر أكثرهم، وأخذَ كسوة الكعبة مع كثير من الأَموال المنهوبة، وأكثرَ أموال التجار، إلا ما كان مع مَن هرب قبل ذلك، فردُّوه، وأَخَذَ الأُسارى فضرب كُلَّ واحد منهم عشرة أسواط وأطلقه، فرجعوا إلى اليمن يستطعمون الناس، فهلك أكثرهم في الطريق، ولله الحمد.

سنة إحدى ومئتين: حجّ بالناس إسحاق بن موسى بن عيسى العباسي[1]، وفيها وصلت هدية الكعبة وهي صنم من ذهب في صورة إنسان، لملك من ملوك التبت، كان يعبده، وتاج كان على رأس الصنم على سرير من فضة مربّع، مرتفع عن الأَرض، على قوائم وعلى السرير فرشه الديباج، وعلى أطراف الفراش أزرار من ذهب وفضة مرخاة، والأزرار على قدر الفرش في وجه السرير، وسبب إرسال ذلك إلى الكعبة أن الملك لما أسلم أهدى الصنم والسرير إلى الكعبة، وبعث بذلك إلى المأمون، والمأمون يومئذ بمرو، من خراسان، فبعث بذلك إلى الحسن بن سهل بوَاسِط، وأمره أن يبعث به إلى الكعبة، فبعث به مع نَصْر بن إبراهيم الأَعجَميّ رجل من قواد أهل بلخ، فقدم به مكة مع الحاج، ولما صدر الناس من منى نصب نصر السرير وما عليه من الفرش والصنم في وسط رحبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الصفا والمروة. فمكث ثلاثة أيام منصوباً ومعهم لوح من فضة مكتوب فيه: (بسم الله الرحمٰن الرحيم هذا سرير فلان ابن فلان، ملك التبت، أسلم وبعث بهذا هدية إلى الكعبة فأَحمد الله الذي هدانا للإِسلام)، وكان يقف على السرير محمد بن سعيد بن أخت نصر فيفرج عليه الناس، ويحمد الله إذ هدى ملك التبت للإِسلام. ثم دفعه إلى الحجبة، وأشهد عليهم بقبضه، فجعلوه في خزانة الكعبة في دار شيبة بن عثمان.

سنة اثنتين ومئتين: حجّ بالناس إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن

(١) انظر: تاريخ الطبري [٨/٥٥٦]، البداية والنهاية [١٠/٢٥٩].

محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي الطالبي العلوي[١]، ودعى لأَخيه بعد المأمون بولاية العهد، وهو أول طالبي أقام للناس الحج في الإِسلام، على أنه كان متغلباً، لا متولياً من قبل الخليفة، وكان قدم من اليمن وبعث إلى الحجبة، أخذ منهم السرير الذي بعث به المأمون إلى الكعبة، وما عليه، وقال: أمير الؤمنين يخلفه لها. وضربه دراهم ودنانير، وغلب إبراهيم على مكة وقَتَل يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي في أول شعبان في المسجد الحرام، وسعى في الأَرض الفساد، ثم مضى إلى اليمن بعد الحج.

وفي هذه السنة جاء سيل عظيم ملأَ الوادِي وعلاه قَيْد رُمْح، ودخل هذا السيل المسجد الحرام، وأحاط بالكعبة، وكان دون الحجر الأَسود بذراع، وخيف منه على المقام أن يذهب به، فَرُفِعَ من مكانه، وهدم للناس دوراً كثيرة، وذهب بكثير من الناس، وأصاب الناس بعده مرض شديد، من وباء وموت فاشٍ، ويسمى هذا السيل سيل ابن حنظلة.

سنة ثلاث ومئتين: حجّ بالناس سليمان بن عبيد الله بن جعفر بن سلمان بن علي بن عبد الله بن عباس[٢].

سنة أربع ومئتين: حجّ بالناس أمير الحرمين عبيد الله بن الحسن بن عبد الله بن عباس العلوي[٣].

سنة خمس ومئتين: كذلك[٤].

سنة ست ومئتين: كذلك[٥].

سنة سبع ومئتين: حجّ بالناس أبو عيسى بن الرشيد هارون العباسي[٦].

سنة ثمان ومئتين: حجّ بالناس صالح بن الرشيد هارون العباسي[٧]، ومعه زبيدة ابنة جعفر زوجة أبيه، ووافَى العمرة في رمضان قوم كثيرون من الحجاج من أهل

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٥٦٧]، البداية والنهاية [١٠/ ٢٦٠].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٥٧٣]، البداية والنهاية [١٠/ ٢٦١].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٥٧٦].
(٤) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٥٨٠].
(٥) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٥٩٢].
(٦) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٥٩٦].
(٧) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٥٩٧].

خراسان وغيرهم فجاء مكة في شوّال سيل عظيم، والناس غافلون فملأ سَدَّ الثقبة حتى فاض منه واقتحم المسجد، وأحاط بالكعبة، وبلغ الحجر الأسود والباب، وذهب بناس كثير، وهدم دوراً كثيرة، مشرفة على الوادي أكثر من ألف دار، ومات نَحْو من ألف إنسان، ورُفِع المقام من موضعه خوفاً من ذهابه، وكبس المسجد والوادي بالطين والبطحاء، وذهب بما في السوق من صناديق السوقة ومقاعدهم فألقاه في أسفل مكة. فلما رأى الناس من الحجاج وأهل مكة ما بالمسجد من الطين والتراب اجتمع الناس والنساء والعواتق بالليل، فكانوا يعملون بأيديم، ويستأجرون من أموالهم، ينقلون التراب، لأجل البركة والثواب، حتى رفع من المسجد الحرام، وكتب والي الحرمين عبيد الله بن الحسن العلويُّ إلى المأمون في أمر السبيل، وشكا إليه ما جرى لأهل مكة، من قبله، فكتب إليه المأمون: أمَّا بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله تعالى إلى أمير المؤمنين فتلافاهم بفضل رحمته، وأنجدهم بسبب نعمته، وهو مُتْبِع ما أسلفه إليهم بما يخلفه عليهم عاجلاً وآجلاً، وأرسل مع الكتاب بمالٍ عظيم فكان الكتاب أسَرَّ إلى أهل مكة من المال الذي جهّزه لهم، وأنفذه إليهم.

سنة تسع ومئتين: حجّ بالناس والي مكة صالح بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[١].

سنة عشر ومئتين: كذلك[٢]. وكتب إلى المأمون يستأذنه في عمل البرك الصغار التي في فجاج مكة، لاستعمال أهلها والحاج منها، وأن يكون ذلك منه. فكتب إليه يأمره أن يتخذ له بركاً في السوق خمساً لئلا يتعَنَّى أهل المسفلة والثَّنية وأجيادين إلى بركة أم جعفر بالمعلاة، وأجرى عيناً من فضلة مائها في عين تسكب في بركة البطحاء عند شعب عليٍّ أمام المولد النبوي، ثم تمضي إلى بركة عملها عند الصفا، ثم إلى ثلاث برك بأسفل مكة، ثم إلى مَآل أبي سلامة في سَرَب تحْت الأرض، فلما فرغ من ذلك، وأجرى الماء فيها، جاءت وجوه أهل مكة فوقفوا عليها حين جرى الماء ونَحَر على كل بركة جزوراً، وقسم لحمها على الناس، وبلغ ذلك أمَّ جعفر زبيدة فاغتمَّتْ لذلك.

سنة إحدى عشرة ومئتين: حجّ بالناس أمير مكة صالح بن العباس الهاشميّ[٣]

(١) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٦٠١].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٦١٤].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٦١٨].

وحجّت زبيدة بنت أبي جعفر المنصور، فأتاها أمير مكة صالح فسلّم عليها فلامته في أمر البرك التي عملها في سنة عشر، وقالت: هَلاً كتبت إليّ حتى كنت أسأل أمير المؤمنين أن يجعلَ ذلك إليّ، فأتولّى النفقة فيها كما أنفقت في البركة التي عملتها بالمعلاة، حتى أَسْتَتِمَّ ما نويت في أهل حرم الله عزَّ وجلَّ؟! فاعتذر إليها صالح من ذلك.

سنة اثنتي عشرة ومئتين: حجّ الخليفةُ المأمون، عبد الله بن هارون الرشيد الهاشمي العباسي، وهي حجّته الأولى وهو خليفة، هكذا قال الذهبيُّ في «العبر» وحجّ بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي العباسي[١].

سنة ثلاث عشرة ومئتين: حجّ بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس العباسي[٢].

سنة أربع عشرة ومئتين: حجّ بالناس إسحاق بن العباس بن محمد بن علي العباسي[٣].

سنة خمس عشرة ومئتين: حجّ بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي[٤].

سنة ست عشرة ومئتين: حجّ بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس المعروف بقعاقيع، وكان فصيحاً خطيباً لَسِناً. كذا قال ابن جرير[٥] وابن الجوزي وسبطه.

وقيل: حجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن عبيد الله العباسي وكان المأمون ولاّه اليمنَ، وجعل إليه ولاية على كل بلدة حتى يصل إلى المأمون، فخرج من دمشق حتى قدم بغداد، فصلّى بالناس ببغداد يوم الفطر، وشخص منها يوم الاثنين لليلة خلت من ذي القعدة، وأقام الحج بالناس، ثم مضى بعد انقضاء الحج والياً على اليمن[٦].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٦١٩].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٦٢١].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٦٢٢].
(٤) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٦٢٤].
(٥) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٦٢٦].
(٦) ذكره الطبري في تاريخه [٨/ ٦٢٦].

سنة سبع عشرة ومئتين: حجّ بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي العباسي[1].

سنة ثمان عشرة ومئتين: حجّ بالناس أمير مكة صالح بن العباس بن محمد بن علي[2].

سنة تسع عشرة ومئتين: كذلك[3]، وقال المسَبِّحي في «أخْبار مكة»: وفيها وصل طاهر بن عبد الله بن طاهر حاجًّا، في عدد كثير من الجند، بقفل فيه ألف مثقال من الذهب، قفل به البيت، ونزع قفلهُ الذي كان عليه وكان مطلِيًّا، ويقال: إنَّ الحجاج عمله.

وقال الفاكهي: فيها بعث المعتصم بالله العباسي للكعبة بقفل فيه ألف دينار، وعلى مكة يومئذ صالح بن العباس، فأَرسل صالح إِلى الحجبة، فدعاهم ليقبضهم القفل، فأَبى الحجبة أن يأْخذوه، فأَجبرهم على ذلك، وأراد أن يأْخذ قفلها الأَول، ويرسل به إِلى الخليفة، فكلّموه فتركه عندهم، وأذن لهم في الخروج إِليه، فخرجوا إِليه فكلّموه فيه، فترك قفلها، وأعطاهم القفْل الذي بعث به إِليها فقسموه بينهم.

سنة عشرين ومئتين: حجّ بالناس إِسحاق بن العباس بن محمد بن علي العباسي[4].

وفيها حجّ الإِمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج الْقُشَيْرِيُّ صاحب «الصحيح» وفيها غير عمر بن فرج الرخجي الرُّخَام الذي على زمزم، وأرضها وعلى الشباك، وعمل فيه ضَفيرة على موضع البئر، وكانت مكشوفة، وعلى موضع جلس ابن عباس في ركنها الذي يلي الصفا على يسارك، وسقَّف زمزم كلها بالساج المذهَّب من داخلها، ومن ظهرها الفسيفساء، وأشرع له جناحاً صغيراً يدور بتربيعتها، وجعل في الجناح سلاسل فيها قناديل يُستصبح بها في الموسم وغير ذلك، من عمارة سقاية العباس بن عبد المطلب بقناة من رصاص، يصل إِلى الحوض الداخل في السقاية، يصب منه إِلى الحوض الداخل في القناة أيام التشريق وأيام الحج، وبين الحوضين ستة أذرع.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٦٣٠].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٨/ ٦٦٨].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٩].
(٤) وقال الطبري وتابعه ابن كثير: إن الذي حجّ بالناس هو صالح بن علي بن محمد. انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٢٢]، البداية والنهاية [١٠/ ٢٩٥].

سنة إحدى وعشرين ومئتين: فيها حجّ بالناس أمير مكة محمد بن داود بن عيسى بن موسى، كذا قال العتيقي، وسِبْطُ بْنِ الجوزيّ[١]. وقال المسعودي: إن الذي حجّ بالناس صالح بن العباس.

سنة اثنتين وعشرين ومئتين: كذلك[٢].

سنة ثلاث وعشرين ومئتين: حجّ بالناس صالح بن محمد بن داود بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب.

وقال العتيقي وابن الجوزي: إنَّ الذي حجّ بالناس محمد بن داود[٣].

سنة أربع وعشرين ومئتين: كذلك[٤].

سنة خمس وعشرين ومئتين: كذلك[٥].

سنة ست وعشرين ومئتين: حجّ بالناس بأمر أساتكين[٦] التركي: محمد بن داود بن عيسى العباس[٧].

وقيل: صالح بن محمد.

وفي هذه السنة حجّ أشناس التركي أحد كبار قوّاد المعتصم، وعقد له المعتصم الولاية على مكة، وعلى كل بلد يدخلها، وخُطِب له على منابر مكة والمدينة وغيرهما من البلاد التي اجتاز بها بالإمرة إلى أن أتى سَامَرًا. وفيها اتفق في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة أقبل طائر أشف من اللعيب لونه لون الحبرة بريشة حمراء، وريشة سوداء، دقيق الساقين، طويلهما، له عنق دقيق المنقار طويله، كأنه من طير البحر، حين طلعت الشمس، والناس إذ ذاك في الطواف كثير من الحاج وغيرهم، من ناحية أجياد الصغير، حتى وقع في المسجد الحرام، قريباً من مصباح زمزم، مقابل الركن الأسود ساعة طويلة، ثم طار حتى صدم الكعبة في نحو من وسطها بين الركن اليماني والركن الأسود وهو إلى الركن الأسود أقرب، ثم وقع على منكب رجل في

---

(١) وهو قول الطبري في تاريخه [٩/ ٢٨].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٥١].
(٣) وهو قول الطبري وابن كثير. انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٧٩]، البداية والنهاية [١٠/ ٣٠٢].
(٤) وقال الطبري: إن الذي حجّ بالناس هو محمد بن داود. انظر: تاريخ الطبري [٩/ ١٠٢].
(٥) وقال الطبري: إن الذي حجّ هو محمد بن داود. انظر: تاريخ الطبري [٩/ ١١٠].
(٦) وقال الطبري بأمر أشناس. انظر: تاريخ الطبري [٩/ ١١٤].
(٧) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ١١٤].

الطواف عند الركن الأَسود من حاج أهل خراسان محرم يُلَبِّي، وهو على منكبه الأَيمن، فطاف الرجل به أسابيع والناس يدنون منه، وينظرون إليه وهو ساكن غير مستوحش منهم، والرجل الذي عليه الطير يمشي في الطواف في وسط الناس، وهم ينظرون إليه ويتعجبون، وعينا الرجل تدمعان على خَدَّيْه ولحيته.

قال محمد بن عبد الله بن ربيعة: طفت ثلاثة أسابيع كل ذلك أخرج من الطواف، فأَركع خلف المقام ثم أعود وهو على منكب الرجل، ثم جاء إنسان من أهل الطوافِ فوضع يده عليه فلم يطر، وطاف به بعد ذلك ثم طار هو من قِبل نفسه، حتى وقع على يمين المقام ساعة طويلة، وهو يميل عنقه، ويقبضها إلى جناحه، والناس يستكفون له، وينظرون إليه عند المقام إذ أقبل فتى من الحجبة فضرب بيده فيه ليريه رجلاً منهم كان يركع خلف المقام، فصاح الطير في يده في أشد صياح، وأوحشه، لا يشبه صوتاً من أصوات الطير، ففزع منه وأرسله من يده، وطار حتى وقع بين يدَي دار الندوة خارجاً من الظلال في الأَرض، قريباً من الأُسطوانة الحمراء، واجتمع الناس ينظرون إليه وهو مستأنس على ذلك كله غير مستوحش من الناس، ثم طار هو من قبل نفسه، فخرج من باب المسجد الذي بين دار الندوة ودار العجلة نَحْو قُعَيْقِعَان.

سنة سبع وعشرين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن داود بن عيسى العباسي.

وقال العتيقي وابن الجوزي وسبطه: إن الذي حجّ بالناس المتوكل أبو الفضل جعفر ابن أمير المؤمنين المعتصم العباسي[١].

سنة ثمان وعشرين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن داود بن عيسى العباسي[٢]، وعطش الناس بطريق مكة، فبلغت الراوية أربعين درهماً، وغلا الخبز فبيع كل رطل بالبغدادي بدرهم، وأصاب الناس يوم عرفة بالموقف حَرٌّ شديد أَضَرَّ بهم، ثم أصابهم مطر فيه برد، واشتد البرد عليهم فَأَضَرَّ بهم وذلك كله في ساعة واحدة، ومطروا بمنى يوم النحر مطراً شديداً لم يروا مثله، وكان الناس وقوفاً عند جمرة العقبة يرجمونها، فوقعت قطعةٌ من الجبل الذي عندها قتلت جماعة من الحجاج، وكان في الحجاج سليمان بن طاهر بن الحسين.

سنة تسع وعشرين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن داود بن عيسى[٣] وفيها هدم

(١) وهو قول الطبري في تاريخه [٩/ ١٢٣].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ١٢٤].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ١٢٨].

عمر بن فرج الرخجي بيت الشراب، وهو بقبة زمزم، وبنى أسفله بحجارة بيض منقوشة، وبنى أعلاه بآجُر، وألبسه رصاصاً، وجعل فيها شباكاً من حديد، وأبواباً، وفوقها ثلاث قباب صغار، وأكبسها بالفسيفساءِ، وجعل في بطنها حوضاً كبيراً من ساج في بطن الحوض خَوْصٌ من أدم عند قبة الشراب للحاج أيام الموسم.

سنة ثلاثين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن داود بن عيسى العباسي(١)، وحجّ إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وإليه أحداث الموسم، وحجّ في هذه السنة بُغا الكبير التركي بعد قتاله عَرَبِ سُلَيْم.

سنة إحدى وثلاثين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن داود بن عيسى العباسي(٢)، وحجّ والي اليمن جعفر بن دينار وكان معه أربعة آلاف فرس، وقيل: ستة آلاف وألفا راجل، ثم سار إلى اليمن متولياً عليها من قبل الواثق، فكان الواثق الخليفة العباسي أراد الحجَّ فوجّه عمر بن فرج الرخجي لإصلاح المناهل، فرجع، وأخبره أنَّ الطريق قليل الماء فتركه.

سنة اثنتين وثلاثين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن داود(٣)، وأصاب الحجاج في عودهم من مكة عطش شديد بلغت الشربة فيه عدة دنانير، ومات منهم خلق كثير من العطش.

سنة ثلاث وثلاثين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن داود بن عيسى العباسي(٤).

وفي سنة أربع وثلاثين ومئتين: كذلك وحجّ [إينال الخوزي](٥) مولى المعتصم وأحد كبار قواد المتوكل، وعقد له المتوكل الولاية على مكة، وكل بلد يدخلها ودُعي له على المنابر بالحرمين(٦).

سنة خمس وثلاثين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن داود(٧).

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ١٣١].

(٢) وبه قطع ابن كثير. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٣١٥].

(٣) انظر: تاريخ الطبري [١٠/ ١٥٥].

(٤) انظر: تاريخ الطبري [١٠/ ١٦٣].

(٥) هكذا في الأصل وفي تاريخ الطبري [٩/ ١٦٦]، البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٣٢٤] [إيتاخ الخزري].

(٦) والذي حجّ بالناس في هذه السنة هو محمد بن داود بن عيسى بن موسى. انظر: تاريخ الطبري [٩/ ١٦٧]، البداية والنهاية لابن كثير [١٠/ ٣٢٥].

(٧) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ١٨٢].

سنة ست وثلاثين ومئتين: حجّ بالناس الخليفة المنتصر بالله محمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بن الرشيد هارون العباسي[١] وحَجَّتْ معه جَدَّته شجاع أم المتوكل جعفر.

سنة سبع وثلاثين ومئتين: حجّ بالناس أمير مكة علي بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور العباسي[٢].

سنة ثمان وثلاثين ومئتين: حجّ بالناس أمير مكة أبو العباس عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عباس الهاشمي[٣].

سنة تسع وثلاثين ومئتين: حجّ بالناس أمير مكة عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى العباسي الملقّب ترنجة، وحجّ جعفر بن دينار على الأحداث بطريق مكة والموسم[٤].

سنة أربع ومئتين: حجّ بالناس أمير مكة عبد الله بن محمد بن داود العباسي، وحجّ جعفر بن دينار على الأحداث بطريق مكة والموسم[٥].

وفيها وقع هميان الخراساني في المطاف الشريف أيام الحج، وكان له شأن عظيم، وملخصه: أنَّ محمد بن جرير الطبري في سنة ثلاث مئة قال: كنت بمكة في سنة أربعين ومئتين فرأيت خراسانيًا ينادي معاشر الحجاج: مَن وجد هِمْيَاناً فيه ألف دينار فردَّهُ عليَّ أضعف الله له الثواب، فقام إليه شيخ من أهل مكة كبير، من موالي جعفر بن محمد فقال له: يا خراساني وكم تعطيه؟ قال: لا يا بابا، ولكن نحيله على الله تعالى، فكرر ذلك أياماً، والشيخ الذي من موالي جعفر بن محمد يكلمه في شيء يرده وهو يقول: لا يا بابا، ولكن نحيله على الله عزّ وجل، فأنزله إلى عشرة دنانير ثم إلى دينارٍ واحدٍ وهو يمتنع، فلما تعب الشيخ منه طلب الخراسانيَّ وقال له: تعالَ خُذْ هميانك. قال محمد بن جرير الطبري: فمشى وتبعتهما ودخل الشيخُ ونبش تحت درجةٍ له، فأخرج منها الهميان، فنظر إليه وقال: هذا همياني، وصبَّ المال وَرَدَهُ بيده

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٩/١٨٦].

(٢) انظر: تاريخ الطبري [٩/١٩١].

(٣) وقال الطبري: إن الذي حجّ بالناس فيها هو عليّ بن عيسى بن جعفر بن أبي جعفر. انظر: تاريخ الطبري [٩/١٩٥].

(٤) انظر: تاريخ الطبري [٩/١٩٦].

(٥) انظر: تاريخ الطبري [٩/١٩٨].

اليمنى، حتى استوفاه، ثم شدَّه شدًّا سهلاً، ووضعه على كتفه، وأراد الخروج، فلما بلغ باب الدار تأمل أَمْرَ الشيخ فرجع، وقال: يا شيخ! مات أبي وترك من هذه ثلاثة آلاف دينار، وقال لي: أَخرِجْ ثُلُثَها ففرقه على مَن هو أحقُّ الناس عندك، وتبيع رحلي وتجعله نفقة لحجك، ففعلت ذلك، وما رأيتُ منذ خرجت من خراسان إلى هنا رجلاً أَحَقَّ به منك، خذه بارك الله لك فيه، ثم ولَّى وتركه.

قال محمد بن جرير الطبري: فوليت خلف الخراساني فلحقني الشيخ أبو غياث، وكان شيخاً مشدودَ الوسط بشريط، معصب الحاجبين، ذكر أن له ستة وثمانين سنة، وإنما الفقر والجوع أنهكه، فقال: اجلس فقد رأيتك تبعتني من أول يوم، ثم قال: يا لُبابة وقتيبة ووشية وسمَّى الباقيات فَكُنَّ أربع بنات وأختان وزوجة وأمها، وهو وأنا، فحلَّ الهِمْيَان وعدَّ لكل نفر منا مئة دينار. قال أبو جعفر محمد الطبري: فأَصابني مئة دينار، فداخلني من سرور غناهم أشدَّ مما داخلني من سروري بالمئة دينار وهدية الله عزّ وجل لي، ولهذه القصة خبر يطول، ثم ذكر الشيخ بعد ذلك ما كان فيه هو وأولاده وأَهله من شدة الفقر، ومقاساة الضر والغلبة وقد اختصرنا منها هذا القدر ملخصاً.

سنة إحدى وأربعين ومئتين: حجّ بالناس أمير مكة عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى العباسي[(١)].

وفيها عُمِرتْ أماكن بالمسجد الحرام وغيره، منها رخام الْحِجْرِ الشريف الذي عمر في خلافة المهدي لرثاثته، وبعث أحمد بن طريف مولى العباس بن محمد الهاشمي الرخامة الخضراء التي في الْحِجْرِ من الكعبة من مصر مع غيرها هدية للحِجْرِ، وعمر أمير مكة مسجد السيدة عائشة رضي الله عنها بالتَّنْعِيْم وجعل على بئره قبة.

سنة اثنتين وأربعين ومئتين: حجّ بالناس أمير مكة عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى العباسي.

وقال ابن الأَثير وغيره: عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام العباسي، وكان أمير مَكة، وخرج بالحاج جعفر بن دينار وهو والي طريق مكة وأَحْدَاث الموسم[(٢)].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٢٠٦].

(٢) وهو قول الطبري في تاريخ [٩/ ٢٠٨].

وحجّ إِبراهيم بن مطهر الكاتب.

سنة ثلاث وأربعين ومئتين: حجّ بالناس أمير مكة عبد الصمد بن مَوسى[(١)].

وقال العتيقي: محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إِبراهيم الإِمام.

وحجّ جعفر بن دينار وهو والٍ على الطريق وما يحدث في الموسم.

سنة أربع وأربعين ومئتين: حجّ بالناس عبد الصمد بن موسى[(٢)].

سنة خمس وأربعين ومئتين: حجّ بالناس والي مكة محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإِمام العباسي[(٣)].

وفيها غارت عَيْن مُشاش، عين مكة، فبلغ ثمن القربة درهماً، فبعث المتوكل على الله جعفر بن المعتصم مالاً فأَنفق عليها، وهذه العين من عمل زبيدة، وهي عين بازان ظَنًّا.

سنة ست وأربعين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن سليمان بن عبد الله الزينبي[(٤)].

وفيها حجّ محمد بن عبد الله بن طاهر فولي أعمال الموسم.

وفيها حجّ محمد بن عبيد الله الكلاعي.

سنة سبع وأربعين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد العباسي[(٥)].

سنة ثمان وأربعين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن سليمان الزينبي وكانت الوقفة الأَربعاءِ[(٦)].

وفيها خرج عبيد الله بن يحيى بن خاقان إِلى الحج، فبعث المستعين رسولاً بنفسه إِلى برقة ومنعه من الحج.

وفيها مات الخليفة المنتصر بالله بالخوانيق في ربيع الآخر.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٢٠٩].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٢١١].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٢١٨].
(٤) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٢٢١].
(٥) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٢٣٩].
(٦) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٢٦٠].

سنة تسع وأربعين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن سليمان الزينبي. وقال ابن الجوزي: إن الذي حجّ بالناس والي مكة عبد الصمد بن موسى العباسي[(١)].

سنة خمسين ومئتين: حجّ بالناس والي مكة جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى العباسي الملقب شاشات[(٢)].

سنة إحدى وخمسين ومئتين: ظهر بمكة إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الحسني العلوي، فهرب عنها عاملها جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى العباسي، ونهب إسماعيل منزله ومنزل أصحاب السلطان، وقتل الجند وجماعة من أهل مكة نحو ثلاث مئة رجل، فقال بعض بني عُقَيْل:

عَـلَـيْـكَ ثَـوْبَـانِ وَأُمِّـي عَـارِيَـهْ فَـأَلْـقِ لِـيْ ثَـوْبَـيْـكَ يَـا ابْـنَ الـزَّانِـيَـهْ

وفعل بمكة أفعالاً قبيحة من القتل والنهب والإحراق، وأخذ مال إصلاح العين، وما في الكعبة من عينٍ وَوَرِق وطيبٍ وكسوتها، وأخذ من الناس نحو مئتي ألف دينار، وخرج منها بعد أن نهبها، وأحرق بعضها في ربيع الأول بعد خمسين يوماً، فسار إلى المدينة وتوارى عنه عاملها، فرجع إلى مكة في رجب فحاصرها حتى مات أهلها جوعاً وعطشاً، وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم، وشربة الماء بثلاث دراهم، ولقي أهل مكة منه كل بلاء، ثم رحل بعد مقامه سبعة وخمسين يوماً إلى جُدَّةَ، فحبس عن الناس الطعام، وأخذ أموال التجار وأصحاب المراكب، فوجّه له الخليفة المعتز بن المتوكل العباسيُّ جماعة، مقدمهم محمد بن أحمد بن عيسى بن المنصور، المعروف بكعب البقر، وأخذ جعفر بن الفضل العباسي الذهب الذي حُلِّيَ به مقام إبراهيم، في خلافة المتوكل، وضربه دنانير لحرب إسماعيل العلويِّ، فوافى إسماعيل الموقف بعرفة في يومها، فقاتلهم وقتل من الحاج نحو ألف ومئة، وسلب الناس، فهربوا إلى مكة فلم يقفوا بعرفة لا ليلاً ولا نهاراً، ووقف هو وأصحابه، وسمعوا بالليل تلبية القتلى، ثم مضى إلى جدة فأفنى أموالها[(٣)].

سنة اثنتين وخمسين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن أحمد بن عيسى ـ كعب

---

(١) وهو قول الطبري في تاريخه [٩/ ٢٦٥].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٢٧٧].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧].

البقر - بن جعفر المنصور. كذا قال ابن الجوزي[١]. وقال العتيقيُّ: حجّ بالناس إسماعيل بن يوسف العلوي الخارجي.

وفيها مات بالجدريِّ إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون الهاشمي.

سنة ثلاث وخمسين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن أحمد بن عيسى، كعب البقر.

وقال المسعودي: إن الذي حجّ بالناس عبد الله بن محمد بن سليمان الزينبي[٢].

وفيها جاء سيل إلى مكة، وأحاط بالكعبة، وبلغ قريباً من الركن الأسود، ورَمى بالدُّوْر، وذهب بأمتعة الناس إلى أسفلها، وملأ المسجد غباراً وتراباً، وأمر أمير مكة بتنظيفه.

سنة أربع وخمسين ومئتين: حجّ بالناس علي بن إسماعيل بن الحسين بن إسماعيل بن العباس العباسي[٣].

وقال العتيقي: حجّ بالناس عبد الله بن محمد بن سليمان الزينبي.

سنة خمس وخمسين ومئتين: حجّ بالناس كعب البقر محمد بن أحمد بن عيسى بن جعفر المنصور.

وقال ابن الجوزيّ: علي بن الحسن بن إسماعيل الهاشمي[٤].

سنة ست وخمسين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن أحمد كعب البقر[٥].

وفيها عمر المعتمد بن المتوكل العباسي ما تشعث من مسجد الخيف.

وفي خلافة المهدي بالله قدم خادم يقال له يسر على عمارة المسجد الحرام، فغيّر أرض القُبَّة التي بين زمزم وبيت الشراب، وجعل فيها بركة صغيرة يخرج فيها الماء من الفوارة التي في بطنها، وجعل عليها شباكاً من خشب بأبواب تغلق.

---

(١) وهو قول الطبري في تاريخه [٩/ ٣٧٢].
(٢) وهو قول الطبري في تاريخه [٩/ ٣٧٧].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٣٨١].
(٤) وهو قول الطبري في تاريخه [٩/ ٤٣٧].
(٥) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٤٧٥].

وذكر الحجبة لأَمير مكة أَنَّ المقام وَهَى، وتسلَّلتْ أحجاره، ويُخاف عليه، وسأَلوه في تجديد عمله وتصليبه حتى يُشدَّ فأَجابهم إلى ما سأَلوا.

سنة سبع وخمسين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن أحمد كعب البقر. كذا قال العتيقي.

وقال ابن جرير[(١)] والمسعودي وابن الجوزي: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن العباس بن حسين بن إسماعيل بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي.

سنة ثمان وخمسين ومئتين: حجّ بالناس الفضل بن العباس[(٢)].

سنة تسع وخمسين ومئتين: كذلك[(٣)].

وفيها أرسل ملك من ملوك الهند لما أسلم إلى الكعبة الشريفة طوقاً من ذهب، فيه مئة مثقال، مكللاً بالزمرد والياقوت وبالماس، وياقوتة خضراء وزنها أربعة وعشرون مثقالاً فدفع إلى الحجبة، فكتبوا في أمره إلى أمير المؤمنين المعتمد على الله، وأخذوا الدرّة فأَخرجوها، وجعلوها في سلسلة من ذهب، وجعلوها في وسط الطوق، مقابلة الياقوت والزبرجد، فجاء الكتاب من أمير المؤمنين بتعليقها، فعلقت مع تعاليق الكعبة.

وقال ابن جرير والمسعودي: إن الذي حجّ بالناس إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي العباسي المعروف بِبُرَيْهٍ.

سنة ستين ومئتين: حجّ بالناس إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بِبُرَيْه[(٤)].

سنة إحدى وستين ومئتين: حجّ بالناس الفضل بن العباس بن حسين بن إسماعيل[(٥)]، وقدم معه كتاب فيه بيعة جعفر بن محمد ابن أمير المؤمنين، وبيعة أبي أحمد الموفق بالله أخي أمير المؤمنين، وما عقد لهما أمير المؤمنين فعمل في قصبة من فضة، وزنها ثلاث مئة وخمسون درهماً، وفي رأسها ثلاث رزات، وجعل في كل رزة (؟) سلاسل من فضة، وعلق ذلك في الكعبة الشريفة.

---

(١) في تاريخه [٩/٤٨٩].

(٢) انظر: تاريخ الطبري [٩/٥٠١].

(٣) وقال الطبري: إن الذي حجّ بالناس هو إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس المعروف ببُريه. انظر: تاريخ الطبري [٩/٥٠٧].

(٤) انظر: تاريخ الطبري [٩/٥١١].

(٥) هكذا جاء في الأصل وفي تاريخ الطبري [٩/٥١٥] الفضل بن إسحاق بن الحسن بن إسماعيل بن العباس محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

سنة اثنتين وستين ومئتين: حج بالناس الفضل بن العباس[١].

وفي يوم التروية وقع بين الحناطين والجزارين قتال، قتل فيه سبعة عشر رجلاً من الفريقين، حتى خاف الناس أن يعطل الحج، ثم تحاجزوا إلى أن حجّ الناس.

وجاء سيل عظيم ذهب بحصباء المسجد حتى عري منها.

سنة ثلاث وستين ومئتين: حجّ بالناس الفضل بن عباس[٢]، وورد كتاب من أبي أحمد الموفق بالله إلى أمير مكة محمد بن عيسى المخزوومي يأمره بتجريد الكعبة، فقرأ الكتاب في دار الإمارة لسبع ليال بقين من ذي الحجة، ثم أمر بإحضار التُّجّار والعامّة، حتى يسمعوا ذلك.

وفيه أمره بتجريد الكعبة وأن يقسم كسوتها على ثلاثة أثلاث: ثلث للقرشيين لقرابتهم من النبيّ ﷺ، وثلث للحجبة، وثلث على أهل الخلَّةِ من أهل مكة، فجردت فكان لون جدرانها كلون العنبر الأَشهب من الغالية وقسمت أثلاثاً.

سنة أربع وستين ومئتين: حجّ بالناس هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[٣].

سنة خمس وستين ومائتين: كذلك[٤].

سنة ست وستين ومئتين: كذلك[٥].

وفي يوم التَّرْوِية قدم محمد بن أبي الساج مكة فحاربه ابن المخزومي فهزمه محمد، واستباح ماله.

وفيها وثب الأَعراب على كِسوة الكعبة وانتهبوها فصار بعضها إلى صاحب الزِّنج، وأصاب الحجاج فيها شدة شديدة وكان بمكة غلاء.

سنة سبع وستين ومئتين: حجّ بالناس هارون بن محمد العباسي[٦]، ورجع خلق كثير من الحجاج من طريق مكة لشدة الحر، ومضى خلق كثير، فمات منهم عالمٌ عظيمٌ من الحرِّ والعطش، وذلك في البيداء.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٥٢٩].
(٢) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٥٣٢].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٥٤١].
(٤) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٥٤٨].
(٥) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٥٥٦].
(٦) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٦٠٠].

وأوقعت فَزارة فيها بالتجار فأَخذوا فيما قيل سبع مئة حمل بُر.

سنة ثمان وستين ومئتين: حجّ بالناس هارون بن محمد.

سنة تسع وستين ومئتين: حجّ بالناس عامل مكة هارون بن محمد العباسي(١).

وفيها سَيَّرَ أحمد بن طولون جيشاً إلى مكة مع قائِدَيْنِ، فلما سمع بهم عامل مكة فارقها خوفاً منهم، ومضى إلى بستان ابن عامر، فوصل الجيش إلى مكة، وجمعوا الحنَّاطين والجزارين، وفرّقوا فيهم مالاً، ثم أتى مكة جعفر الباعمروي في ذي الحجة فتَلَقَّاهُ هارون بن محمد عامل مكة، في جماعة، فقوي بهم جعفر، والْتَقَوْا هم وأصحاب ابن طولون، فقتلوا نحواً من مئتي رجل وانهزم الباقون، وسُلِبوا وأُخِذت أموالهم، وأخذ جعفر من القائدين نحو مئتي ألف دينار، وأَمَّنَ المصريين والجزارين والحناطين، وقرىء كتاب في المسجد يلعن أحمد بن طولون، وسلّم الناس وأموال التجار، ولله الحمد(٢).

سنة سبعين ومئتين: حجّ بالناس هارون بن محمد(٣).

سنة إحدى وسبعين ومئتين: كذلك(٤). وكان والي مكة يوسف بن أبي الساج، فوثب على بَدْر غلام أحمد بن محمد الطائي، وكان أميراً على الحاج، فحاربه على أبواب المسجد وأَسرهُ، فثار الجندُ والحاجُّ بيوسف فقاتلوه، واسْتَنْقَذُوا بدراً، وأسروا يوسف، وحملوه إلى بَغْداد، وكانت الحرب بينهم على أبواب المسجد.

سنة اثنتين وسبعين ومئتين إلى سنة ست وسبعين ومئتين: حجّ بالناس هارون بن محمد بن إسحاق العباسي(٥).

وفي السنة الأَخيرة عاد حجاج اليمن من مكة فنزلوا وادياً فأَتاهم سيل فحملهم جميعهم فألقاهم في البحر.

سنة سبع إلى تسع وسبعين ومئتين: حجّ بالناس هارون بن محمد(٦)، وقيل: في السنة الأَخيرة حجّ بالناس أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى الهاشمي.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٦٥٣].
(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١١/ ٤٦ ـ ٤٧].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [٩/ ٦٦٧].
(٤) انظر: تاريخ الطبري [١٠/ ٨].
(٥) انظر: تاريخ الطبري [١٠/ ١١، ١٣، ١٥، ١٧].
(٦) انظر: تاريخ الطبري [١٠/ ١٨، ٢٧، ٣١].

وهذه السنة آخر حجة حجها هارون بن محمد.

وفي سنة تسع وسبعين: أصاب مكة أمطار كثيرة وسال الوادي أسيالاً عظاماً فكثر ماء زمزم، وارتفع حتى قارب رأسها، فلم يكن بينه وبين سُقَفِها العليا إلاَّ سبع أذرع أو نحوها، وعذبت جدًّا حتى كأَنَّ ماءَها من مياه مكة التي يشرَبها أهلها، ولم يعلم ذلك قبل ذلك. وكذلك كان في السنة التي بعدها، وكانت فجاج مكة وشعابها في هاتين السنتين تتفجر ماء.

سنة ثمانين ومئتين: حجَّ بالناس محمد بن عبد الله بن محمد بن داود.

وقال ابن الأَثير: أبو بكر محمد بن هارون بن محمد المعروف بابن ترنجة(١).

وفيها أصاب مكة أمطار كثيرة، وسال واديها بسيول عظيمة فكثر ماء زمزم وارتفع.

سنة إحدى وثمانين ومئتين: حجّ بالناس أبو عبد الله محمد بن داود بن عيسى العباسي(٢)، وقدم مع الحاج أبو بكر ابن قاضي بغداد يوسف بن يعقوب وكان يقدم في كل سنة على حوائج الخليفة ومصالح الطريق وعمارتها. وقدم معه بمال أنفذه أمير المؤمنين المعتضد بالله بن أبي أحمد الناصر لدين الله بن جعفر المتوكل على الله العباسي لعمل ما رُفع إليه من عمرة بطن الكعبة الشريفة، والمسجد الكبير. وبعمارة دار الندوة مسجداً يوصل بالمسجد الكبير ويعزق الوادي والمسعى وما حول المسجد، وقدم معه برجل يقال له أبو الهياج عميرة بن حبان الأَسدي له أمانة ونيّة حسنة، فَوكله بالعمارة، وخلف معه عمالاً وأعْواناً لذلك، فعمله مع عمارة زيادة دار الندوة على ما هي عليه الآن.

سنة اثنتين وثمانين ومئتين: حجّ بالناس أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن ترنجة(٣).

سنة ثلاث وثمانين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن عبد الله بن داود المعروف بابن ترنجة.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [١٠/ ٣٥].

(٢) وقال ابن كثير: إن الذي حجّ بالناس هو محمد بن هارون بن إسحاق. انظر: البداية والنهاية [١١/ ٧٥].

(٣) وقال ابن كثير: إن الذي حجّ بالناس هو محمد بن هارون بن إسحاق. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١١/ ٧٧].

وفيها غلظت ماء زمزم بعد تلك العذوبة في سنة تسع وسبعين وما بعدها وكان الماء من الكثرة على حاله.

سنة أربع وثمانين ومئتين: كذلك[١].

سنة خمس وثمانين ومئتين: كذلك[٢].

سنة ست وثمانين ومئتين: كذلك.

سنة سبع وثمانين ومئتين: كذلك.

وجمعت طَيِّئٌ مَن قدرتْ عليه من الأَعراب، وقصدت ركب العراق في رجوعه من الحج ليأخذوه، وكانوا في ثلاثة آلاف، وأمير الحاج أبو الأَغَرِ، فوافقهم بالمعدن، وقاتلهم يومين هما الخميس والجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة، والتحم القتال وخذلت الأَبطال، ثم أيّد الله الوفد وقتل رئيس طَيِّئٍ صالح بن مُدرك، وجماعة من أشراف قومه وأُسِر خلق، وانهزم الباقون، وسلم الحاج، ودخل الركب بالأَسرى بالرؤوس على الرماح بغداد ـ ولله الحمد ـ.

سنة ثمان وثمانين ومئتين: حجّ بالناس محمد بن هارون بن العباس العباسي.

وقال ابن الأَثير: إن الذي حجّ بالناس هارون بن محمد[٣].

وفيها صلَّى الناس العصر بعرفة في أيام الصيف، ثم هبَّتْ ريح باردة إلى أن لبس الناس الْفِرَاءَ، وجمد الماء، وكان محمد بن أبي الساج الملقب بالأَفشين ولي إِمْرَةَ الحرمين وطريق مكة.

سنة تسع وثمانين إلى ثلاث وتسعين ومئتين: حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك العباسي.

وقال ابن جرير وابن الجوزي: إن الذي حجّ في السنة الأَخيرة محمد بن عبد الملك الهاشمي[٤].

---

(١) انظر: تاريخ الطبري [١٠/ ٦٦].

(٢) انظر: تاريخ الطبري [١٠/ ٦٩].

(٣) وهو قول الطبري في تاريخه [١٠/ ٨٥].

(٤) بل الذي في تاريخ الطبري [١٠/ ١٢٩] أن الذي حجّ بالناس سنة ثلاث وتسعين ومئتين هو الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

سنة أربع وتسعين ومئتين: حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمي[(١)]، وعاد الحج فطم زكرويه القرمطيُّ وجماعته الآبار والبِرك بالْجِيَفِ والتراب والحجارة بواقصة والعقبة والثعلبية وغيرها من المناهل في جميع طرقه، ونهبوا الحاج، وقتلوا الناس قتلاً ذريعاً، ونهبوا أموالهم، وجملة ما أخذوه ألف ألف دينار، وهلك من الحجيج عشرون ألف إنسان، ووقع البكاء والنواح في البلدان، وعظم هذا على المكتفي فبعث الجيش لقتاله فَقُتل زكرويه وخلق من أصحابه.

سنة خمس وتسعين ومئتين: حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك العباسي[(٢)].

وفي يوم عرفة وقت صلاة الظهر وصل الخبر بوفاة المكتفي وبَيْعَةِ المقتدر فدعي للمقتدر بعرفة، ثم كانت وقعة بين حجاج الترك وبين الأَجناد بمنى، في ثاني عشر الحجة، فقتل منهم جماعة، لأَنهم طلبوا جائزة بيعة المقتدر، وهرب الناس إِلى بستان ابن عامر وأصاب الحجاج في عودهم عطش عظيم مات منهم جماعة، وحُكيَ أن أحدهم كان يبول في كفه ثم يشربه. وقال السروجي الحنفيُّ في باب زكاة المال من كتاب «الغاية شرح الهداية»: وفي أيّام المقتدر بالله من سنة خمس وتسعين ومئتين إِلى أواخر سنة عشرين وثلاث مئة في وزارة حامد بن العباس رتب علي بن عيسى من الخراج لأَهل الحرمين الشريفين، وإِلى المجاورين بهما، وإِلى أرباب الوظائف بمكة والمدينة في كل سنة ثلاث مئة ألف دينار، وخمسة آلاف دينار وأربع مئة وستة وعشرين ديناراً. وقال سبط بن الجوزي: كان المقتدر يصرف كل سنة في طريق مكة والحرمين ثلاث مئة ألف دينار ونيفاً وخمسة عشر ألف دينار.

سنة ست وتسعين ومئتين إِلى سنة إحدى وثلاث مئة: حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك العباسي[(٣)].

سنة اثنتين وثلاث مئة: حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك العباسي[(٤)].

وفيها خرجت الأَعراب من الحاجر على الحاج، فقطعوا عليهم الطريق، وأخذوا ما معهم من العين والأَمتعة، ومن الجِمال ما أرادوا، وأخذوا مئتين وخمسين ـ أو ثمانين ـ امرأة حرائر، سوى المماليك والإِماء ـ والمستعان بالله ـ.

---

(١) وبه قطع الطبري في تاريخه [١٠/١٣٦].
(٢) وبه قطع الطبري في تاريخه [١٠/١٣٩].
(٣) انظر: تاريخ الطبري [١٠/١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨].
(٤) انظر: البداية والنهاية [١١/١٣٠].

سنة ثلاث، إلى سنة خمس وثلاث مئة: حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك[١].

سنة ست وثلاث مئة: حجّ بالناس أحمد بن العباس بن محمد بن عيسى بن سليمان بن محمد بن إبراهيم الإمام العباسي المعروف بأخي أمِّ موسى الهاشمية، قهرمانة شعث أم المقتدر.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: حجّ بالناس الفضل بن عبد الملك العباسي[٢].

وفيها عمر القاضي محمد بن موسى الزيادة المعروفة بزيادة باب إبراهيم وهي ما بين دَارَي زبيدة، وأوصلها بالمسجد الكبير، وعملها بأروقة وطاقات وصحن، وجعله شارعاً على الوادي الأعظم بمكة، فانتفع الناس به، وصلُّوا فيه ـ ولله الحمد ـ.

سنة سبع وثلاث مئة: كذلك حجّ بالناس أحمد بن العباس بن محمد بن عيسى بن سليمان العباسي[٣].

سنة ثمان وثلاث مئة: حجّ بالناس إسحاق بن عبد الملك بن عبد الله بن العباس الهاشمي.

وقال العتيقيُّ وابن الجوزي: حجّ بالناس أحمد بن العباس بن محمد بن عيسى بن سليمان العباسي[٤].

سنة تسع وثلاث مئة: حجّ بالناس إسحاق بن عبد الملك العباسي وقيل: أحمد بن العباس.

سنة عشر وثلاث مئة: حجّ بالناس إسحاق بن عبد الملك العباسي، وقيل: أحمد بن العباس.

وفيها أَمرت أمُّ المقتدر الخليفة غلامها أَن يُلَبِّس جميع الأسطوانة الأُولى التي تلي الكعبة الذهبَ لأَن التي تليها كان ملبساً صفائح الذهب وبقيتها مموهاً.

سنة إحدى عشرة وثلاث مئة: حجّ بالناس إسحاق بن عبد الملك العباسي.

وقيل: أحمد بن العباس الهاشمي واعترض أبو طاهر سليمان بن الحسن القرمطي الحاجَّ عند عودهم من مكة بعد انقضاء الحج بِالْهَبِير في المحرم سنة اثنتي

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١١/ ١٣١، ١٣٧].
(٢) وهو قول ابن كثير. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١١/ ١٣٧].
(٣) وبه قطع ابن كثير. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١١/ ١٣٩].
(٤) وهو قول ابن كثير. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١١/ ١٤٠].

عشرة فأَوقع بقافلة تقدمت، فيها معظم الحاج، وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم فنهبهم، واتصل الخبر بباقي الحاج، وهم بِفَيْد، فأقاموا بها حتى فني زادهم فارتحلوا مسرعين، وكان أمير الحاج يومئذ أبو الهيجاء عبد الله بن أحمد بن أبي بكر بن حمدان، فأشار على الحاج بالعود إلى وادي القرى، وأنهم لا يقيمون بِفَيْد، فاستطالوا الطريق، ولم يقبلوا منه، فأَوقع بهم القرامطة وأخذوهم وأسروا أبا الهيجاء، ومَن كان معه من القواد مثل أحمد بن كشمِرد ونحرير (؟) وأحمد بن بدر، عَم والدة المقتدر، وأخذ أبو طاهر جِمال الحاج جميعها وما أراد من الأَمتعة والأَموال والنساء والصبيان، وعاد إلى بلاده هجر، وترك الحاج في مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً ومن حر الشمس.

سنة اثنتي عشرة وثلاث مئة: حجّ بالناس الحسن بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، وعارض أبو طاهر القرمطي صاحب الأَحساء ومعه ألف فارس وألف راجل ركب العراق، فوضعوا السيف [فيهم] واستباحوا الحجيج، وساقوا الجِمال بالأَموال والحريم، وأسروا أمير الركب أبا الهيجاء بن حمدان، وكان إليه طريق مكة وجماعة ممن كان معه من القواد، وقتل من الحجاج ألفي رجل ومئتين، ومن النساء ثلاث مئة، وأسر مثلهم، وترك بقية الناس والأَطفال بالبريَّة فهلكوا جوعاً وعطشاً ونجا مَن نجا بأَسوإِ حال، ثم أطلق القرمطيُّ أبا الهيجاء بن حمدان، وأرسل معه يطلب من المقتدر البصرة والأَهواز، ولم يحج في هذه السنة أحدٌ من الغرباء.

سنة ثلاث عشرة وثلاث مئة: فيها تقلَّد إمرة الحج بالناس الحسن بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبيد الله العباسي، ورجع من العقبة، وخلفه بالحج بالناس ابن أخيه أبو طالب عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز، واعترض القرامطة حاجَّ العراق وكانوا في ألف فارس بزبالة وناوشوهم القتال، فقاتلهم أصحاب الخليفة وانهزموا ووضع القرامطة على الحجاج قطيعة أخذوها وكفُّوا عنهم، وساروا إلى مكة، كذا قال ابن الأَثير، وقال سبط بن الجوزي: إنَّ الحاج رجعوا إلى بغداد ولم يحجُّوا، ولم يحج أحد في هذه السنة خوفاً من القرمطي.

سنة أربع عشرة وثلاث مئة: فيها رُدَّ حاج خراسان من بغداد خوفاً من القرمطي، وتأَخر الحاج من العراق خوفاً منه، فحجّ بالناس بمكة ابن عبد العزيز العباسي على قلّة من الناس وخوف ومعه أُنيسه أبو بكر. كذا قال العتيقي. وقال غيره: إن الذي حجّ بالناس عبد الله بن سليمان بن محمد الأَكبر ابن عبد الله بن عبيد الله بن

العباس بن محمد المعروف بأبي أحمد الأزرق، خليفة الحسن بن عبد العزيز العباسي. وقال سبط بن الجوزي في «المرآة»: حجّ بالناس عبد السميع بن أيوب. قال العلامة ابن فهد: والأول أصح ـ يعني تأخر الحاج ـ وفيها وسّع أهل مكة بأموالهم وأهاليهم من مكة إلى الطائف خوفاً من القرمطي لقربه منهم.

سنة خمس عشرة وثلاث مئة: لم يحج إلى مكة أحد من العراق ولا من خراسان للخوف من القرمطي، ولم يبطل الحج من مكة وحجّ بالناس بمكة الحسن بن عبد العزيز العباسي ومعه ابنه علي، وقال صاحب «المرآة»: لم يحج أحَدٌ من العراق وقيل: إن الذي حجّ بالناس عبد الله بن عبيد الله بن سليمان بن محمد، ويُعرف بالأزرق.

وفيها عمرت العجوز والدة المقتدر خمس بِرَك بأرض عرفة للحجاج.

سنة ست عشرة وثلاث مئة: لم يحج أحد من العراق للخوف من القرمطي، ولم يبطل الحج من مكة، وحجّ بالناس من مكة عبد الله بن عبيد الله بن سليمان بن محمد الأكبر، أبو محمد الأزرق.

سنة سبع عشرة وثلاث مئة: حجّ الناس من بغداد وأميرهم منصور الدَّيْلمي، وسلموا في الطريق من القرمطي ودخلوا مكة سالمين. وحضر عمر بن علي بن الحسين بن عبد العزيز لإقامة الحج خليفة لأبيه علي، فلم يشعر الناس في يوم الاثنين يوم التروية ـ وقيل: في اليوم السابع من ذي الحجة ـ إلا وقد وافاهم صاحبُ البحرين عدو الله أبو طاهر سليمان بن أبي ربيعة الحسن القرمطي مكة، في تسع مئة رجل من أصحابه، فدخلوا المسجد الحرام، وأبو طاهر سكران، راكب فرساً له وبيده سيف مسلول، فصفر لفرسه فبال عند البيت، وأسرف هو وأصحابه في قتل الحجاج وأسرهم ونهبهم، مع هتكه لحرمة البيت فكان الناس يطوفون حول البيت والسيوف تأخذهم من كل مكان، وكان علي بن بَابَوَيْه الصوفي يطوف بالبيت والسيوف تأخذه فما قطع طوافه رضي الله عنه إلا وهو ينشد:

تَرَى الْمُحِبِّيْنَ صَرْعَى فِي دِيَارِهِم ... كَفِتْيَةِ الْكَهْفِ لاَ يَدْرُوْنَ كَمْ لَبِثُوْا

قلت: ومن هذه القصيدة:

قَوْمٌ إِذَا هُجِرُوْا مِنْ بَعْدِ مَا وُصِلُوا ... مَاتُوْا وإِنْ عَادَ مَنْ يَهْوَوْنَه بُعِثُوا

وَالله لَوْ حَلَفَ الْعُشَّاق أَنَّهُمُ ... صَرْعَى مِنَ الْبَيْنِ يَوْمَ الْبَيْنِ ما حَنَثُوا

وقُتل في المسجد الحرام ألفٌ وسبع مئة، وقيل: ثلاثة عشر ألفاً من الرجال والنساء، وهم متعلقون بالكعبة، ورَدَمَ بهم زمزم حتى ملأَها، وفرش بهم المسجد الحرام وما يليه، وقيل: دُفن البقية في المسجد بلا غسل ولا صلاة، وجعل الناس يصيحون: تَقْتُل جيران الله في حرم الله؟! فيقول: ليس بِجار مَن خالفَ أوامر الله ونواهيهِ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣] الآية. وصعد أبو طاهر بنفسه على باب الكعبة واستقبل الناس بوجهه وهو يقول:

أَنَا بالله وَبالله أَنا ... يَخْلُقُ الْخَلْقَ وأُفْنِيهِمْ أَنَا

وضرب بعض أصحابه الحجر الأَسود بِدَبُّوسٍ فتكسر.

وقيل: إن الذي ضرب الحجر الأَسود بالدبوس هو عدو الله بنفسه وصاح: يا حمير، أنتم تقولون: ومَن دخل هذا البيت كان آمناً، فأَين الأَمن وقد فعلت ما فعلت؟! وعطف دابته ليخرج، فأَخذ بعض الحاضرين بلجام فرسه وقال وقد استسلم للقتل: ليس معنى الآيةِ ما ذكرت، وإنما معناها مَن دخله فَأَمِّنُوْهُ، فلوى القرمطي فرسه وخرج ولم يلتفت إليه، وقُتِل في سكك مكة وظاهرها وشعابها من أهل خراسان والمغاربة وغيرهم زهاء ثلاثين ألفاً، وسُبِي من النساء والصبيان مثل ذلك، فكان ممن قتله بمكة أميرها ابن محارب، والحافظ أبو الفضل محمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عمار الجارودي، الهروي، أخذته السيوف وهو متعلق بيديه جميعاً بحَلقتي الباب حتى سقط رأسه على عتبة الكعبة، وأخوه محمد، وشيخ الحنفية ببغداد الفقيه أبو سعيد أحمد بن الحسين البردعي وأبو بكر عبد الرحمٰن بن عبد الله بن الزبير الرهاوي، وعلي بن بَابَويْهِ الصوفي، وأبو جعفر محمد بن خالد بن يزيد البردعي نزيل مكة المشرفة، وخلق من الأعيان، وهرب قاضيها يحيى بن عبد الرحمٰن بن هارون الزهري القرشي بعياله إلى وادي رَهجان، وأخذ له القرامطة حينئذ ما قيمته مئة ألف وخمسون ألف دينار، ولم يُسْمَع حاكِياً ولا ذاكراً شيئاً مما أُخِذ له. ولم يقف أحد هذه السنة بعرفة ولا في نسكها إلا قوم يسير، غرّروا بأَنفسهم فتمّموا حجَّهم دون إمام وكانوا رجالة.

وأخذ أبو طاهر أموال الناس وحُلِيَّ الكعبة، وهتك أستارها، وقسم كسوتها بين أصحابه ونهب دور مكة، وقلع باب الكعبة، وأمر بقلع الميزاب، وكان من الذهب الإبريز، فطلع رجل يقلعه فأُصِيب من أبي قبيس بسهم في عجزه، فسقط فمات، ويقال إن الرجل وقع على رأسه فمات، فقال القرمطي: اتركوه على حاله فإنه

محروس حتى يأتي صاحبه - يعني المهدي - وأراد أخذ المقام فلم يظفر به، لأَن سدنة المسجد غَيَّبُوهُ في بعض شعاب مكة، وتألم لفقده فعاد عند ذلك إلى الْحَجَر الأَسود، فقلعه جعفر بن أبي علاج البنَّاء المكيُّ بأمر القرمطي، بعد صلاة العصر من يوم الاثنين لأَربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، وقال عند ذلك شعراً يدل على عظيم زَنْدَقته حيث يقول لعنه الله، وضاعفَ الله عليه عذابه.

فَلَوْ كَانَ هٰذَا الْبَيْت لِلّه رَبِّنا لَصَبَّ عَلَيْنَا النَّارَ مِن فَوْقِنَا صَبا
لأَنَّا حَجَجْنَا حِجَّةً جاهِلِيَّةً مُحَلَّلَةً لَمْ تُبْقِ شَرْقاً ولاَ غَرْبا
وَأَنَّا تَرَكْنَا بَيْنَ زَمْزَمَ وَالصَّفَا جَنائِزَ لاَ تَبْغِيْ سِوَى رَبِّها رَبَّا

وقيل: إن بعضهم ضرب الحجر الأَسود بدَبُوس فكسره ثم قلعه وقلع القرمطيُّ قبة زمزم، وأقام هو وأصحابه بمكة أحد عشر يوماً، وقيل: ستة أيام.

وقيل: سبعة أيام، ثم انصرف إلى بلده هجر، وحمل معه الْحَجَرَ الأَسودَ، يريد أن يجعل الحجَّ عنده فهلك تحته أربعون جملاً، وبقي موضع الحجر من الكعبة خالياً يَضَعُ الناسُ فيه أيديهم للتبرك.

ودخل عمر بن الحسن بن عبد العزيز بغداد هارباً ولم يَتمَّ الحج، وكان القرمطيُّ يخطب بمكة لعبيد الله المهدي، صاحب المهديَّة، فبلغ المهديُّ ذلك فكتب إليه: والعجب منْ كتبك إلينا مُمْتَنًّا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه، بالأَماكن التي لم تزل الجاهلية تحَرِّم الدماءَ فيها وإهانة أهلها، ثم تقدمت إلى أن قلعت الْحَجَر الذي هو يمين الله في الأَرض، يصافح بها الله عبادَه، وحملته إلى أرْضِك، ورجوتَ أنْ نشكرك على ذلك، فلعنك الله ثم لعنك، والسلام على مَن سلم المسلمون من يده ولسانه، وعمل ما في يديه ما عمل (؟) فيه حساب غدِه.

فانحرفت القرامطة عن طاعة الْعُبَيْديِّين، وأقام الْحَجَرُ بالأَحساء عشرين سنة يستميلون الناس إليهم ثم يئسوا وردُّوه[1].

وللصلاح الصفدي رحمه الله تعالى من قصيدة له ذكرت منها ما قاله في الحجر الأَسود:

إِذَا لاَحتْ لَنَا ذَاتُ السُّتُور فَأَهونْ بِالشُّمُوْسِ وَبِالْبُدُوْرِ
لأَنَّ جَمَالَهَا فِي الْعَيْن أَحْلَى وَأَعْلَقُ بِالْقُلُوب وَبِالصُّدُوْرِ

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١١/ ١٧١ - ١٧٤].

سَوَادُ سُتُوْرِهَا يَحْكِي سَنَاهَا كَلَيْلٍ زيْنَ بالشِّعْرَى الْعَبُوْرِ
وَمَا لِلصَّبِّ إنْ وَافَى حِمَاهَا سِوَى حُسْن التَّأَدُّب مِنْ ظَهِيْرِ
وتَعْفِير الْخُدُوْدِ عَلَى ثَرَاهَا وَإِسْبَال الدُّمُوع عَلى النُّحُورِ
وإِدْمَانُ الْخُضُوع بلاَ مِلاَلٍ بقَلْب مِنْ خَطَايَاه كَسِيْرِ
وتكرارُ التَّمَلِّي بالتَّجَلِّي لِيَرْجعَ وَهْوَ ذُوْ بَصَر حَسِيْرِ
أَلَمْ تَرَ خَالَهَا الْمُسْوَدَّ أَضْحَى يَفُوْقُ عَلَى الصَّبَاحِ الْمُسْتَطِيرِ
تُقَبِّلُهُ الطَّوَائِفُ طَائِفَاتٍ فَيَا شَرَفَ الْمَبَاسِم والثُّغُورِ
تَكَوَّنَ دُرَّةً بَيْضَاءَ لكن تَسَوَّدَ مَنْ ذُنُوب أُولِي الْقُصُوْرِ
فيا ويح القرامطة الذين استطالوا بالعُتُوِّ وَبالْفجُورِ
لقد نقلوه عُدْوَاناً وظُلْماً إلَى هَجَرٍ، وجَدُّوا فِي الْمَسِيْرِ
أَتَوْا أَمْراً عَظِيْماً فَاسْتَحَلُّوا بذلِكَ حُرْمَةَ الأَمْرِ الْخَطِيْرِ
تَغرب عِنْدهُمْ عِشْرِيْنَ عَاماً تَلَتْ عَامَيْن مِنْ بَعْد الْكُسُوْرِ
ولكنَّ الْمُطِيعَ شَرَاهُ مِنْهُمْ بخَمْسِيْنَ أَلْفَ دِيْنَارٍ نَضِيْرِ
وَجَاءَ لأَخْذِهِ ابنُ عكيم وَكَانَ بأَمْرِهِ عَيْنَ الْبَصِيْرِ
وَمِنْ خبْثٍ ومَكْرٍ شَبَّهُوْهُ بآخَرَ فِعْلَ بُهْتَان وَزُوْرِ
وَجَاؤُوا وَالْعَبِيْرُ يَضوْعُ مِنْهُ وَقَدْ لَفُّوْهُ فِي خِرَق الْحَرِيْرِ
فَرَدُّوْهُ إلَى أنْ كَانَ حَقّاً وأوضح ذاك بالْعِلْم الضَّروري
وَقَالَ: لَنا أَمَائِرُ فيهِ جَاءَتْ رَوَيْنَاهَا بإِسْنَادٍ شَهِيْرِ
عَلاَمتُهُ عَلَى الأَمْوَاهِ يَطْفُو ولا يَشيَطُّ مِنْ نَارِ السَّعِيْرِ
وَيُحْكَى أَنَّ أَجْمَالاً ثَلاَثاً تَفَسَّخُ تَحْتَهُ عِنْدَ الْمُرُوْرِ
وحِينَ أُعِيْدَ جَاءَ عَلَى بَعِيْرٍ ضَعِيْف طابَ هَذَا مِن بَعِيْرِ
أُقَبِّلُهُ لَعَلَّ فَمِيْ يُلاَقِي مَكَاناً فَازَ بالْهَادِي الْبَشِيْرِ
مُحَمَّدُ الَّذِي سَادَ الْبَرَايَا وَأَخْجلَ طَلْعَةَ الْقَمَرِ الْمُنِيْرِ
تَقَدَّمَ أَنْبِيَاءَ اللّهِ طُرّاً وَإِنْ يَكُ جَاءَ فِي الزَّمَنِ الأَخِيْرِ
وَكُلٌّ فِي السِّيَادَةِ مَدَّ بَاعاً ولكنْ ضَاقَ فِتْرٌ عَنْ مَسِيْرِ
وجَاءَ بِشِرْعَةٍ عَمَّتْ وَطَمَّتْ أَيَادِيْهَا بِتَضْعِيْفِ الأُجُوْرِ
فراحَ فَقِيرُ أُمَّتِهِ يُسَاوِي بِفِعْلِ الْبِرِّ أَصْحَابَ الدُّثُورِ
ونَالَ الْمُؤْمِنُون عُلُوَّ مَجْد وَأَهْلُ الكفرِ خُصُّوا بالدُّحُورِ

وذكر أبو عبيد البكريُّ في كتابه «المسالك والممالك» أنَّ الله عزّ وجل رمَى القرمطيَّ بِعِلَّة في جسده فطال عذابُه حتى تقطّعت أوصاله، وأراهُ الله عزّ وجل عبرةً في نفسه.

ومن فضل الحجر الأَسود ما روي أن رسول الله ﷺ لما قبَّل الحجر الأَسود فاضتْ عيناه وقال: «هاهنا تُسكب العبرات يا عمر»[1] ليس معناه كما تفهمه الناس وإنما معناه أن الْحَجر الأَسود يمين الله في الأَرض وضع لمبايعة الخلق مع الله تعالى، فمَن بايعه مبايعةً صحيحة كان شاهداً له يوم القيامة، فهو كالشجرة في مبايعتهم مع النبيِّ ﷺ تحتها ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] فكان مظهراً يظهر عنده ذلّ العبودية، وهو ﷺ أفضل من الْحَجَرِ بالإجماع، لأَنه أفضل عالم الحضرة القدسية، فضلاً عن الكونية، فلما قبَّله بذل العبودية وقال: «هاهنا تُسكب العبرات» أي عبرات ذل العبودية حتى تخضع لمن دونها.

وَضَعْتُ خَدِّي لأَدْنَى مَنْ يُطِيْفُ بِكُمْ وَضْعَ احْتِقَارٍ وَمَا مِثْلي بِمُحْتَقَر

فلهذا فهمها عمر رضي الله عنه فقال: إني أعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت محمداً ﷺ يقبلك لما قبّلتك.

ولبعضهم:

فِي الْحَجَرِ الأَسْوَد كم أُودِعَتْ أَسْرَارُ أُنْسٍ مِنْ عُلُوْمِ الْغُيُوبْ
تَزْدَحِمُ الأَفْوَاهُ فِي لَثْمِهِ كأَنَّها تَلْقُط قُوْتَ الْقُلُوبْ

غيره:

لِلْحَجَرِ الأَسْوَدِ كَمْ لاَثِمٌ وَسَاجِدٌ مُرْغِمٌ فِيْهِ الْجِبَاهْ
تَزْدَحِمُ الأَفْوَاهُ فِيْ وِرْدِهِ كَأَنَّهُ يَنْبُوْعُ مَاءِ الْحَيَاةْ

غيره:

لِلْحَجَرِ الأَسْوَدِ سِرٌّ خَفِيْ وَقَدْ بَدَا لِلْعَيْنِ مِنه شُهُوْدْ
عَلَيْه قدْ ضُمَّتْ قُلُوْبُ الْوَرَى لأَنَّهُ سَوَادُ قَلْبِ الْوُجُوْدْ

والحكمة في تسويده دون غيره للعهد الذي فيه والميثاق، وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وكل مولود يولد على الفطرة، وأبواه يُهوِّدانه أو يُنَصِّرَانِه أو

(١) أخرجه ابن ماجه في المناسك [٢/ ٩٨٢] ح [٢٩٤٥].

يُمَجِّسانه، فقلبه الذي كان أبيض وهو على العهد والميثاق الذي فطره الله عليهما، اسوَد بالشرك، فناسب سواد الحجر ذلك، فإن قيل: لِمَ لا يُبَيِّضُهُ توحيد أهلِ الإيمان؟ فالجواب: أنه لو بَيَّضَتْهُ حسنات المؤمنين لبقي على أصله ولم يتحمّل عنا خطايانا، ولم يكن له فضل علينا بالتحمُّل ولا مِنَّةٌ، ودفع المفاسد عنا أقوى من جلب المصالح له، إذْ لا حاجة له بمنّتنا، لأنه لما كان الله تعالى مُنَزَّهاً عن الجارحة نَزَّل الحجر الأسود بمنزلة يمينه، وصار استلامه كتقبيل يد الملك الْمُنْعِم بالقرب منه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقيل: إن السواد صار كالحجاب، والسواد يصبغ ولا ينصبغ، والبياض ينصبغ ولا يصبغ، وبقاء سواده فيه إشارة إلى العلم بأن الخطايا إذا كان لها هذا التأثير في مثل هذا الحجر ـ خصوصاً وهو ليس من أحجار هذه الدنيا ـ فتأثيرها في القلوب أعظم، ويشهد لذلك قوله تعالى في كتابه العزيز ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: ١٤]، الآية المذكورة، والأحاديث الواردة في تسويد القلب الصحيحة المشهورة، وبهذه الصبابة هنا غناية والله أعلم.

سنة ثمان عشرة وثلاث مئة: حجّ بالناس من مكة سليمان بن علي بن عبد الله العباسي[(١)]، خليفة الحسن بن عبد العزيز على خوف شديد، ومن بغداد مؤتمن الورقاني الخادم. أخرجه السلطان لمعرفته بالطرق، فمضى بالحاج، ورُزق السلامة، فحجّ بهم وعاد في سنة تسع عشرة متحرزاً عن الطريق الجادّة، على وادي القرى وأرض ثمود والْحِجْرِ والشام، لما بلغه أنَّ القرمطي على الطريق، إلى أن أوصلهم إلى الرُّهَيْمة بظاهر الكوفة، ووجد آثاراً عظيمة عجيبة وعظاماً مفرطة في الكبر وصوراً للناس من حجارة، وحمل له بعضها إلى الخليفة ورأى امرأة قائمة على تَنُّور وهي من حَجَر، والتَّنُّور والخبْز من حجارة.

وقال سبط بن الجوزي عن غيره: أن الذي حجّ بالناس الحسن بن عبد العزيز الهاشمي، خليفة لأبيه الحسن وقال عن ثابت بن سنان، وكذا قال ابن الجوزي: إن الذي حجّ بالناس عبد السميع بن أيوب الهاشمي.

سنة تسع عشرة وثلاث مئة: حجّ بالناس من مكة جعفر بن علي بن سليمان

---

(١) وقال ابن كثير: إن الذي حجّ بالناس هو عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز الهاشمي. انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١١/ ١٧٧].

خليفة الحسن بن عبد العزيز الهاشمي، وخرجت رفاق من بغداد من الحاج بغير أمير فلقيهم الأَعراب بالْقاع، فقتلوهم.

سنة عشرين وثلاث مئة: حجّ بالناس قاضي كة ومصر عبد الله بن عبيد الله العباسي.

وفيها بطل الحج من العراق لإِفضاء الأَمر إلى القاهر أبي منصور بن المعتضد في آخر السنة، وعدم مَن ينظر في أمر القوافل، وحجّ الناس من بلاد المغرب واليمن ودُعِيَ للمقتدر على منبر مدينة الرسول ﷺ، لما لم ينتظم الدعاء للقاهر، لاضطرب القوافل لِقُرْبِ القرمطي منهم، ودُعي للقاهر بمكة في اليوم التاسع من ذي الحجة ليتم الصلاة.

سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة: حجّ بالناس قاضي مكة عمر بن الحسن بن عبد العزيز العباسي وفيها أنفذ السلطان مؤتمن الورقاني الخادم أميراً لأَهل القوافل - قوافل الحج - ولم يتعرّض لهم القرمطي، وقيل لم يحج أحد خوفاً منهم.

سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة: حجّ بالناس قاضي مكة عمر بن الحسن بن عبد العزيز الهاشمي وأرسل حاجب الخليفة إلى أبي طاهر القرمطي يسأَله الكف عن الحاج جميعهم، وأن يَرُدَّ الحجر الأَسود إلى موضعه بمكة، فأَجاب: أنه لا يعترضُ الحاجَّ وساروا إلى مكة، وعادوا، ولم يتعرّض لهم القرامطة ولم يُجِبْ إلى رد الحجر الأَسود.

سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة: حجّ بالناس من مكة قاضيها عمر بن الحسن بن عبد العزيز العباسي.

وفيها بطل الحج من بغداد لاعتراض القرمطي لهم في الطريق فيما بين القادسية والكوفة، واستيلائه على أمتعة الناس وأحمالهم، فخرج جماعة من العلويين بالكوفة إلى أبي طاهر القرمطي، وسأَلوه أن يكف عن الحج فكفّ عنهم، وشرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد، فرجعوا ولم يحج من العراق أحد.

سنة أربع وعشرين وثلاث مئة: حجّ بالناس قاضي مكة عمر بن الحسن بن عبد العزيز العباسي ولم يحج من العراق أحدٌ.

سنة خمس وعشرين وثلاث مئة: كذلك، ولم يحج من العراق أحدٌ، وفيها أمر الراضي العباسي بعمارة العلمين الكبيرين اللذينِ بالتنعيم بالأرض لا بالجبل.

سنة ست وعشرين وثلاث مئة: حجّ بالناس قاضي مكة عمر بن الحسن.

وفيها خرج من بغداد نفرٌ يسير من الحجاج رجالة وقوم اكتروا من العرب وتخفّروا إلى مكة، وحجُّوا وعادوا على طريق الشام وعاد قوم منهم على طريق الجادة.

سنة سبع وعشرين وثلاث مئة: حجّ بالناس أبو علي عمر بن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن هاشم بن عبد مناف العلوي.

وقال المسعودي: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة قاضي مكة عمر بن الحسن بن عبد العزيز العباسي.

وقال الصولي: وكان الحج قد بطل من سنة سبع عشرة وثلاث مئة إلى هذه السنة، وكاتب أبو علي عمر بن يحيى العلوي القاضي من العراق أبا طاهر القرمطيَّ ـ وكان يُحِبه لشجاعته وكرمه ـ أن يخلي سبيل الحاج على مكس يأخذه، ويعطيه على كل جمل خمسة دنانير، وعن المحمل سبعة دنانير، فأجابه إلى ذلك، فخرج من العراق رفقتان: إحداهما على طريق الكوفة والأخرى على طريق البصرة، وأخذ أبو طاهر منهم على كل محمل عشرين درهماً، وهي أول سنة مُكِس الحاج فيها، ولم يعهدْ ذلك في الإسلام، فنفذ الحاج وليس معهم أحد من أصحاب السلطان إلا رجل علويٌّ من أهل الكوفة وهو أبو علي عمر بن يحيى بن الحسن بن الحسين بكتاب القرمطي إليه ودمامه، وكان أمير القافلة، يسيرون بسيره وينزلون بنزوله، إلى أن عادوا سالمين. وكان خرج في هذه السنة القاضي أبو علي بن أبي هريرة الشافعي فلما طولب بالخفارة لَوَى رأس راحلته ورجع وقال: لم أرجع شُحًا على الدراهم، ولكن سقط الحاج بهذا المكس.

سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة: حجّ بالناس عمر بن يحيى العلوي من العراق وكان الذي يحج بالناس من مكة عمر بن الحسن العباسي.

سنة تسع وعشرين وثلاث مئة: حجّ بالناس قاضي مكة عمر بن الحسن بن عبد العزيز العباسي وفيها خُطب للمطيع بن المقتدر، بعد موت أخيه الراضي، وتوالي تعطيل الركب، وفيها حجّ الناس ولم يدخلوا المدينة لأجل طالبيٍّ خرج بناحيتها.

سنة ثلاثين وثلاث مئة: حجّ بالناس قاضي مكة عمر بن الحسن، وقيل القرمطي، وقيل لم يحج أحد.

سنة إحدى وثلاثين وثلاث مئة: كذلك بشرحه قبله.

سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة: حجّ بالناس قاضي مكة عمر بن الحسن، وبطل الحج من العراق لبُعد المتقي عنها، واضطراب البلاد وموت أبي طاهر القرمطي.

سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة: حجّ بالناس قاضي مكة عمر بن الحسن، وخطب للمكتفي بن المستكفي بعد خلعِ ابن عمه المتقي، وحجّ أميرُه بإعطاء القرامطة، وكان أبو طاهر قد مات وولي أخوه أحمد بن أبي سعيد القرمطي.

سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة: حجّ بالناس وولي الصلاة قاضي مكة العباسي وخطب بمكة للمطيع بعد المقتدر وبعده لمعز الدولة بن بويه، وبطل الحج من العراق بسبب القرامطة.

سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة: لم يحج من العراق أحد، وحجّ بالناس عمر بن يحيى العلوي.

سنة ست إلى ثمان وثلاثين وثلاث مئة: كذلك.

سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة: قلّد الخليفة المطيع لصلاة الحرمين عبد الواحد بن أحمد بن الفضل بن عبد الملك العباسي، وكان إليه يومئذ الصلاة، فحجّ بالناس ولم يحج أحد من العراق، وحجّ بالناس عمر بن يحيى العلوي، فلما كان يوم النحر وهو يوم الثلاثاء وافى سنبر بن حسن القرمطيُّ مكة ومعه الحجر الأسود، فلما صار بفناء الكعبة ومعه أمير مكة أظهر الحجر من سفط وعليه ضباب فضة قد عملت من طوله وعرضه، تضبط شقوقاً حدثتْ عليه بعد إقلاعه، وأحضر معه جصًا يُشَدُّ به فوضع سنبر الحجر بيده، ويقال: إن الذي أعاد الحجر بيده في مكانه حسنُ بن المزرق البَنَّا، وشدَّه الصانع بالجص. وقال سنبر لما رده: أخذناه بقدرة الله تعالى ورددناه بمشيئته. ويقال إنه قال: أخذناه بأَمرٍ، وأعدناه بأَمرٍ، ونظر الناس إلى الحجر فتبيّنوه وقبّلوه، واستلموه، وحمدوا الله تعالى، ودخل الكعبة محمد بن نافع الخزاعيُّ فيمن دخلها لينظر إلى الحجر الأسود لما كان في الكعبة بأثر ردِّ القرامطة له، وأنه تأَمل الحجر الأَسود فإذا السواد في رأسه دون سائره، وسائره أبيض، وكانت مدة إقامته عند القرمطي وأصحابه اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام، وكان المنصور بن القاسم أرسل إلى أحمد بن سعيد القرمطي أخا أبي طاهر لأَجل الحجر، وبذل له خمسين ألف دينار ذهباً، فلم يفعل ويقال: إن بجكم التركي مدبِّر الخلافة في بغداد بذل للقرامطة على رد الحجر الأَسود خمسين ألف دينار فأبوا، وقالوا: أخذناه بأَمر ولا نرده إلا بأَمر، ولما أعيد الحجر الأَسود إلى مكة حُمِل على قعود هزيل فسمن.

وفيها حجّ محمد بن عبد الملك بن صفوان الأَندلسيّ وشهد رَدَّ الحجر الأَسود إِلى مكانه ـ ولله الحمد ـ.

سنة أربعين وثلاث مئة: حجّ بالناس من مكة أحمد بن الفضل بن عبد الملك العباسي، وعارضه أهل مصر أصحاب ابن طغج، مع عمر بن الحسين بن عبد العزيز العباسي، وصحّت الصلاة لأَحمد بن الفضل، وكان أمير الحاج من بغداد عمر بن يحيى العلوي.

وفي هذه السنة قلع الحجبة الحجر الأَسود وجعلوه في الكعبة خوفاً عليه، وأحبُّوا أن يجعلوا له طوقاً من فضة يُشَدُّ به كما كان قديماً، حين عمله ابن الزبير، فأَخذ في إِصلاحه صائغان حاذقان فعملا له طوقاً من فضة وزنته ثلاثة آلاف وسبعة وتسعون درهماً ونصف، وأحكماه.

ووقع بين عمر بن يحيى العلوي وأبي الحسين محمد بن عبد الله العلوي وكان حاجًّا وبين المصريين قتال عظيم، وخطب أحمد بن الفضل بن عبد الملك علي صناديق السوقة المصريين عوض المنبر بعرفة، وأقام الحج عمر بن الحسن بن عبد العزيز ناحية بالأَتراك المصريين.

سنة إحدى وأربعين وثلاث مئة: حجّ بالناس أحمد بن الفضل بن عبد الملك العباسي، وكان حرب شديد بين أمير الركب العراقي وأمير الركب المصري بسبب الخطبة، لابن بويه صاحب العراق، وابن الإِخشيد صاحب مصر، فانهزم المصريون وظفر العراقيون، فأَقاموا الخطبة لمعز الدولة بن بويه بمكة، وتوالى وصول الحاج، فلما خرج العراقيون من مكة لحقهم عسكر مصر، وقاتلوهم فظفر بهم العراقيون أيضاً، وكان مع الحاج العراقي أبو الحسن محمد بن عبد الله العلوي وأبو عبد الله أحمد بن عمر بن يحيى العلوي.

سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة: حجّ بالناس محمد بن عبد الله العلوي، ومن مكة أحمد بن الفضل بن عبد الملك الهاشمي، وجرى بين المصريين والعراقيين قتال بسبب الخطبة، وكان الغلب لأَصحاب معز الدولة بن بويه، فخطب بمكة والحجاز لركن الدولة ولولده عز الدولة بختيار، وبعدهما لابن طغج، ومنع أصحاب معز الدولة أصحاب الإِخشيد من الصلاة بمنى والخطبة، ومنع أصحاب الإِخشيد أصحاب معز الدولة من دخول مكة والطواف.

سنة أربع وأربعين وثلاث مئة إلى سنة سبع وأربعين وثلاث مئة: حجّ بالناس محمد بن عبد الله العلويُّ، وعلى الصلاة عمر بن الحسن الهاشمي، ومضى إِلى مصر في

هذه السنة ومات بالقرب منها ودُفِنَ بها وقُلِّد بعده الصلاة ابنَيْه عبد العزيز وعبد السميع.

سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة: حجّ بالناس من بغداد محمد بن عبد الله العلوي ومن مصر عبد السميع بن عمر بن الحسن العباسي وهو أصغر من أخيه، وفيها اتفق أمير مصر وأمير بغداد على إفراد الخليفة بالخطبة وترك ابن بويه وابن الإخشيد، وكان أمير الركب البغدادي محمد بن عبد الله العلوي، فمكر بهم وحضر حول الخطيب باستعداده فخطب لابن بويه وتمت الحيلة وعاقب كافور أمير الحج المصري وأغرقه. ووقع ابن بويه لمحمد بن عبد الله العلوي بإمارة الحاج دائماً. وفيها غرق من حجاج الموصل في الماء بضعة عشر زورقاً.

سنة تسع وأربعين وثلاث مئة: حجّ بالناس من العراق اللبط (؟) العلوي الحسيني وولي الصلاة عبد العزيز بن عمر بن الحسن العباسي، ولما انصرف حجاج مصر من الحج نزلوا وادياً وباتوا به، فأَتاهم السيل ليلاً فأَخذهم جميعاً مع أثقالهم وجِمالهم، فألقاهم في البحر.

سنة خمسين وثلاث مئة: حجّ بالناس محمد بن عبد الله العلوي وَوَلي الصلاة عبد السميع بن عمر بن الحسن العباسي.

سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة: كذلك، وولي الصلاة عبد العزيز.

سنة اثنتين وثلاث وخمسين وثلاث مئة: كذلك.

سنة أربع وخمسين وثلاث مئة: حجّ بالناس من بغداد أبو أحمد الحسين بن موسى، وولي الصلاة عبد السميع.

سنة خمس وخمسين وثلاث مئة: حجّ بركب العراق أبو أحمد الموسويّ نقيب الطالبيين الأَشراف، والد الشريف الرَّضِي، وولي الصلاة عبد السميع، ونهب بنو سُلَيْم حاجَّ مصر والشام، وكانوا عالماً كثيراً، وأُخذ جميع ما كان معهم من الأَموال، وكان مالاً لا حدَّ له، لأَنَّ كثيراً من الناس من أهل الثغور والشام هربوا من خوفهم من الروم بأَموالهم وأهليهم، وقصدوا مكة ليسيروا منها إلى العراق فَأُخِذُوا، وقُتِل أمير الركب، وهلك من الناس ما لا يُحْصَى، وتمزّقوا في البراري، ولم يسلم إلا القليل، ورُدَّ على الحاج بعض ما أُخِذَ منهم في السنة التي بعدها.

سنة ست وخمسين وثلاث مئة: حجّ بالناس أبو أحمد الموسوي. وخطب بمكة لبختيار، بعد موت أبيه معز الدولة، وولايته بغداد، والخليفة يومئذ المطيع، ووصل أبو أحمد بركب العراق، وولي الصلاة عبد السميع.

سنة سبع وخمسين وثلاث مئة: حجّ بالناس من بغداد أبو أحمد الموسويُّ وولي الصلاة عبد السميع، وهلك أكثر الحاج الخراساني، وهلكت جِمالهم بالعطش، ومَن سلم منهم ـ وهم القليل ـ لم يلحق يوم عرفة، ولم يتم لهم الحج، وإنما تَمَّ لنفر يسير من أهل بغداد.

وفيها لم يحج أحد من الشام ولا من مصر، قاله الذهبي وقال ابن الجوزي: ولم يرد من مصر غير الإمام ونفر يسير معه، ولم يحج من أهل الشام أحد، وورد من اليمن نفر يسير.

سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة: حجّ بالناس من بغداد نقيب الطالبيين أبو أحمد الحسين العلويُّ. وولي الصلاة عبد السميع بن عمر بن الحسن العباسي، وخُطِب بالحرمين واليمن للمعز أبي تميم مَعَدّ بن إسماعيل المنصور العبيدي، صاحب مصر، وبطلت الخطبة لبني العباس وفرّق فيها قائد مَنْ حجّ من مصر أَمْوَالاً عظيمة بالحرمين.

وفيها قتل سابور بن أبي طاهر عَمُّ أحمد بن سَعيد القرمطي، بعد أن كان مقدماً على اعتراض ركب العراق، وقطع الخطبة لبني بويه بمكة، فاشتغل القرامطة بالحرب بين ولد أبي طاهر وولد عمهم أحمد، وأصلح المطيع بينهم، وقدم عليهم الحسين بن أحمد، وكانت الخطبة في الموسم للمطيع وللحسين القرمطي بالإمارة.

سنة تسع وخمسين وثلاث مئة: حجّ بالناس نقيب الطالبيين أبو أحمد الحسين بن موسى الحسيني، وحجّ أبو علي الحسين بن أحمد القرمطي، ولم يتعرّض للحاج، ولا أنكر الخطبة للمطيع، وخطب بمكة للمطيع بالله، وللقرامطة الهجريِّيْنَ من بعده، وقطعت خطبة المعز لدين الله العلويّ من مكة، وخطب له بالمدينة، وخطب للمطيع بظاهرها خطب له أبو أحمد الموسوي والد الشريف الرضي، وعلّق خارج البيت قناديل وصلت من قبل المطيع الله، كان واحد منها ذهباً وزنه ست مئة مثقال، والباقي فضة، عُلِّقت خمسة أيام حتى رآها الناس ثم أُدْخِلَتْ البيت، ونُصبت الأَعلام الجدد التي حضرت، حملها أبو أحمد الموسوي، وعليها اسم الخليفة.

وفيها بطل الحج من العراق والمشرق فلم يحج من هذه الجهات أحد، لاختلاف كان وقع بين جهة القرامطة.

سنة ستين وثلاث مئة: حجّ بالناس أبو أحمد النقيب، وبطل الحج من العراق والمشرق كما ذكرنا.

سنة إحدى وستين وثلاث مئة: حجّ من بغداد أبو عبد الله أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الله العلوي.

وفيها أُخذَ ركبُ العراق، اعترضة بنو هلال، وقتلوا خلقاً كثيراً، وبطل الحج ولم يسلم إلا طائفة نجت ومضت مع أمير الركب الشريف أبي أحمد الموسوي، والد الشريف الرضي، على طريق المدينة النبوية، وتمّ حجهم ـ ولله الحمد ـ.

سنة اثنتين وستين وثلاث مئة: حجّ بالناس ابن القرا العثماني صاحب القرامطة، أنفذوه لذلك.

سنة ثلاث وستين وثلاث مئة: حجّ بالناس أحمد بن محمد العلوي.

وقال ابن كثير: حجّ بالناس الشريف أبو أحمد الموسوي، ولم يحج أحد من العراق لأنَّ المعز الْعُبَيْدِيّ صاحب مصر سلّط العرب بني هلال وغيرهم على الركب العراقي، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وضاق الوقت، وبطل الحج ولم يسلم إلا مَن مضى مع الشريف أبي أحمد الموسوي، والد الشريف الرضي، على طريق المدينة، ووصل أهل المدينة إلى مكة ونفوا عنها بني الحسين، وأُقيمت الدعوة بالحرمين للمعز الْعُبَيْدي، وقُطِعتْ خطبةُ بني العباس.

وفيها بينما الناس في وقت القيلولة وشدة الحر وما يطوف إلا رجل أو رجلان، فإذا رجل عليه طِمْرَانِ، مشتمل على رأسه، يسير رويداً، حتى دنا من الركن الأَسود، ولا يعلم أحد ما يريد، فأخذ مِعْوَلاً وضرب الركن ضربة شديدة حتى خفته الْخَفْتَةَ التي فيه، ثم رفع يده ثانياً يريد ضربه وإذهابه، فابتدره رجل من السكاسك من أهل اليمن، حين رآه وهو يطوف فطعنه طعنة عظيمة بالخنجر، حتى أسقطه، فأَقبل الناس من نواحي المسجد، فنظروه فإذا هو رجل رُوْميٌّ جاء من أرض الروم وقد جُعِل له مالٌ كثير، على ذهاب الركن، ومعه مِعْوَلٌ عظيم، قد حُدِّدَ، فأُخْرِج من المسجد الحرام، وجمع الحطب الكثير فأُحرق بالنار.

سنة أربع وستين وثلاث مئة: قال ابن الأَثير وابن الجوزيّ: بطل الحج من العراق وخراسان والكوفة والبصرة مع توجههم من هذه الأَقاليم إلى الحج، وإنما أخروا عن الميعاد المعتاد، ففاتهم الحج، وسبب ذلك أنهم رأوا هلال الحجة على نقصان من القعدة، بموضع يقال له سَمِيْرَا، والعادة جرت برؤية الهلال بعدها بأَربعة أيام، فعدلوا إلى المدينة الشريفة فوصلوا إليها سادس الحجة فبركت الجِمال، ولم تنهض، فعرفوا في المسجد النبويّ، وصلُّوا صلاة العيد في مصلى النبيِّ ﷺ، وكان

أمير الحاج أبا منصور محمد بن عمر بن يحيى، وورد الناس الكوفة في أول المحرم بعد أن لحقهم جهد شديد، وأقاموا بالكوفة لفساد الطريق، ثم خفروا أنفسهم وأموالهم حتى دخلوا بغداد في آخر الشهر.

وحجّ بالناس ابن القمر صاحب القرامطة كذا قال العتيقي. وقال غيره: إن الذي حجّ بالناس النقيب الموسوي.

وفيها وصل عسكر الدولة وطردوا أصحاب المعز عن مكة، وخطبوا للطائع.

وقال ابن الأَثير وابن كثير: إن الذي أقام الحج في هذه السنة أصحاب المعز الفاطمي، وخُطب له بالحرمين الشريفين دون الخليفة الطائع.

سنة خمس وستين وثلاث مئة: حجّ بالناس أبو منصور محمد بن عمر بن يحيى العلوي، وبطل الحج من العراق والمشرق لاضطراب أمر البلاد، وكان العزيز بن المعز العبيديُّ بعَث أميراً علويًّا إلى مكة عند ولايته وموت أبيه، ومعه جمع فحصروا مكة وضيّقوا على أهلها، ومنعوهم الْمِيرة، فغلت الأَسعار بها، ولقي أهلها شدة شديدة ودعي للعزيز بالحرمين.

سنة ست وستين وثلاث مئة: حجّ بالناس ابن القمر صاحب القرامطة وقال ابن الجوزي: ومن العراق أبو عبد الله أحمد بن أبي الحسين محمد بن عبد الله العلوي.

وكذلك إلى سنة ثمانين وثلاث مئة.

وفيها حجّت جميلة بنت الملك ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل.

وفيها جاءت جيوش العزيز صاحب مصر مكة والمدينة، وضيّقوا عليهم، وذلك بسبب الخطبة، ولا زالوا محاصريْهم حتى خطب للعزيز بمكة، ثم بعث الحسين بن أحمد عساكره إلى الحرمين فقطع الخطبة للعبيدين، وجاء أمير علويٌّ من قِبل الطائع إلى مكة فأَقام له الخطبة.

سنة سبع وستين وثلاث مئة: حجّ بالناس أبو الفتح محمد بن عمر بن يحيى العلويُّ، وبطل ركب العراق، وكان العزيز أنفذ من مصر على الركب باديس بن زيري الصنهاجي، أرسله العزيز بالله، فاستولى وأقام الخطبة للعزيز بالحرمين، ولما وصل مكة أتاه اللصوص بها فقالوا له: نتقبل منك الموسم بخمسين ألف درهم، ولا تتعرض لنا، فقال لهم: أفعل ذلك، اجمعوا لي أصحابكم حتى يكون العقد مع جميعكم، فاجتمعوا وكانوا نيّفاً وثلاثين رجلاً فقال: هل بقي منكم أحد؟ فقالوا: لا، فقطع أيديهم كلهم وأراح المسلمين منهم.

سنة ثمان وستين وثلاث مئة: حجّ بالناس أبو الفتح محمد بن عمر بن يحيى العلوي، وحجّ أبو أحمد الموسويُّ بركب العراق، وخطب لعضد الدولة، ولم يُقَمْ بعدها خُطْبةٌ للعباسيين بمكة، وعادت لخلفاء مصر.

سنة تسع وستين وثلاث مئة: كذلك.

سنة سبعين وثلاث مئة: كذلك.

سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة: كذلك.

سنة اثنتين وسبعين وثلاث مئة إلى ثمان وسبعين: كذلك، وفي الأَخيرة حجّ العراقيون وكانوا قد انقطعوا من سنة إحدى وسبعين، واعترض الحاج عند عوده من مكة الفرج بن دعبل المعروف بابن الجراح، بِعَقَبَة واقصة، فحاصرهم حتى صالحوه على مالٍ أخذه منهم.

سنة تسع وسبعين وثلاث مئة: حجّ بالناس كذلك، وخرج على الحاج في عودهم ابن الجراح الطائي بين سَمِيْرا وفَيْد، ونازلهم، فصالحوه على ثلاث مئة ألف درهم وشَيْء من الثياب، فأَخذها وانصرف.

سنة ثمانين وثلاث مئة: حجّ العراقيون، وحجّ بالناس أبو عبد الله أَحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الله العلويُّ، واعترض الحاج الأُصَيفر محمد بن حسين بن حماد، ودفع القرمطي عن طريق مكة، وطلب من الحاج ما كان يأْخذه القرمطيُّ، فاستنظره أحمد بن محمد العلوي إلى حين عود الحاج من مكة، فانصرف وعاد ونزل الثَّعْلَبِيَّة إلى أن وافى الحاج واستوفى منهم المال، وزال أمر القرامطة وكانت مدتهم ثلاثاً وخمسين سنة من مقاطعتهم على أمراء الحاج في أيام الراضي.

سنة إحدى وثمانين وثلاث مئة: حجّ بالناس أحمد بن محمد بن يحيى العلوي، وقال ابن الجوزيّ: إن الذي حجّ بالناس في هذه السنة وفي سنة اثنتين وثلاث وثمانين أبو الحسن محمد بن الحسن بن يحيى العلوي.

وفيها جلّ قدر أبي الفتوح الحسن بن جعفر بن أبي هاشم الحسن بن محمد بن سليمان بن داود بن حسن المثنّى بن الحسن السبط الحسني أمير مكة، وكاتبه القادر بن المقتدر في الطاعة، ووعده بِاتِّصال الإمارة في بنيه، وأرسل إليه بمال وخُلَع، فقسمها في قومه وكسا الكعبة بالخلعة البيضاء، وتوالى الحاج من مصر وانقطع ركب العراق.

سنة اثنتين وثمانين وثلاث مئة: حجّ بالناس أحمد بن محمد بن يحيى العلوي.



سنة ثلاث وثمانين وثلاث مئة: حجّ بالناس محمد بن الحسن بن يحيى العلوي وأبو الحسن النشابشي واعترضه في مقصده إلى مكة الأُصيفر، فطالبه بالرسم في المال، وأعطاه دنانير هَرْجَة، فأَطلقه ومضى بالحاج إلى مكة وعاد إلى العراق وقد تبيّن للأصيفر ما فعله معه.

سنة أربع وثمانين وثلاث مئة: لم يحج أهل الشام واليمن، وإنما حجّ أهل مصر والمغرب خاصة، وخرج العراقيُّ حتى بلغ الهبير، وزبالة والثَّعْلبية، فاعترضهم الأُصيفر، وصدّهم عن الطريق، ومنعهم الجواز وحاربهم وقال: إنَّ الدنانير التي أرسلها السلطان عام أول كانت دراهم مطليةً وأريد العوض، فلا أفرج عن الطريق إلا بعد أنْ آخذ من الحاج رسم سنتين، وطالت المخاطبة والمراسلة إلى أن ضاق الوقت عن الحاج ولم يكن لهم به طاقة فعادوا، وكان الذي سار بهم أبو الحسن محمد بن الحسن العلوي.

سنة خمس وثمانين وثلاث مئة: حجّ بالناس أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله العلوي، وبعث فيها أبو النجم بدر بن حسنويه تسعة آلاف دينار لتُدْفع إلى الأُصيفر، عوضاً عما كان يأخذه من الحاج، وجعل ذلك رسماً له من ماله، وبعث له ذلك إلى سنة ثلاث وأربع مئة، واستقام أمر الطريق ـ ولله الحمد ـ.

سنة ست وثمانين وثلاث مئة: حجّ بالناس أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن عبد الله العلوي، ورغَّب القادر من بغداد أميرَ مكة أبا الفتوح في حال العراق، فأَجابه على أن الخطبة للحاكم صاحب مصر، وخاطب الحاكم ابْنَ جَرَّاح أمير طيِّيء، فاعترضَهم ولاطفَهم الشريف الرضيُّ وأَخوه المرتضى فترك سبيلهم ثم منَعهم بعدها، وحمل أبو النجم بدر بن حسنويه وكان أمير الخيل (؟) خمسة آلاف دينار من وجوه القوافل من خراسان لتُدفع إلى الأُصَيفر عوضاً عما كان يُجْبَى له من الحاج في كل سنة، وجعل ذلك رسماً زاد فيه من بعد حتى بلغ تسعة آلاف دينار ومئتي دينار، وواصل حمل ذلك إلى حين وفاته.

سنة سبع وثمانين وثلاث مئة وسنة ثمان: حجّ بالناس أبو عبد الله العلوي.

سنة تسع وثمانين وثلاث مئة: حجّ بالناس أبو الحارث محمد بن محمد بن محمد بن عمر بن يحيى العلوي، وذلك إلى سنة ثلاث وتسعين، وحجّ الشريفان الرضيُّ والْمُرْتَضَى، فاعتقلهما ابن الجراح الطائي، فأَعطياه تسعة آلاف دينار من أموالهما.

سنة تسعين وثلاث مئة: حجّ بالناس أبو الحارث محمد بن محمد بن عمر بن يحيى العلوي.

وفيها أشار الزنادقة على الحاكم العبيديّ صاحب مصر بنبش قبر النبيّ ﷺ وصاحبيه، وحملهم إلى مصر، وزيّنوا له ذلك وقالوا: متى تمّ هذا الأمر يشدُّ الناس رحالهم من أقطار الأرض إلى مصر، وكانت منقبة يعود جمالها على مصر وساكنيها، فدخل ذلك عقل الحاكم، وأرسل إلى أبي الفتوح أمير مكة يأمره بذلك، فسار أبو الفتوح إلى المدينة، وأزال عنها إمرة بني مُهَنَّا من بني الحسين لما بلغه عنهم من القدح في نسب العُبَيْديِّين، وجلس أبو الفتوح في المسجد، وحضر إليه جماعة من أهلها، لأنه كان بلغهم ما قدم بسببه، وكان من الحاضرين قارىء يُعرف بابن الركباني، فقرأ بين يدي أبي الفتوح في المجلس: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ﴾ [التوبة: ١٣ ـ ١٥] الآية قال: فماج الناس وكادوا أن يقتلوا أبا الفتوح ومَن معه من الجند، وما منعهم من الشرعة في ذلك إلا أن البلاد كانت للحاكم، فلما رأى أبو الفتوح ما الناس عليه قال لهم: الله أحق أن يُخْشَى! والله لا أتعرّض لشيء من ذلك، ودع الحاكم يفعل ما أراد. ثم استولى عليه ضيق الصدر وتقسيم الفكر كيف يجيب، فما غابت شمس ذلك اليوم حتى أرسل الله ريحاً كادت الأَرض تُزَلزل من فوقها حتى تدحرجت الإبلُ بأَقتابِهَا والخيل بسروجها كما تدحرج الكرة على وجه الأَرض، وهلك من الناس خلق كثيرون، وانفرج هَمُّ أبي الفتوح، وذهب روعه من الحاكم، لما أرسل الله تلك الرياح التي شاع ذكرها في الآفاق، ليكون له حجة عند الحاكم من الامتناع من نبش القبور الشريفة. ثم عاد أبو الفتوح إلى مكة وعاد بنو مهنا إلى المدينة الشريفة.

سنة إحدى وتسعين إلى ثلاث وتسعين: حجّ بالناس أبو الحارث، وبطل الحج من المشرق لبُعد السلطان منها، واختلاف بين العرب.

وفي سنة ثلاث وتسعين رجع الركب العراقي خوفاً من ابن الجراح الطائيّ، فدخلوا بغداد قبل العيد، وأما ركب البصرة فأَجازه بنو زغْبِ الهلاليُّونَ، وقال ابن الجوزيّ: إنهم أخذوا من الركب ما قيمته ألف ألف دينار.

سنة أربع وتسعين وثلاث مئة: حجّ بالناس أبو الحارث العلوي. وخرج حاج

العراق واعترضهم الأُصيفر المنتفقي وحصَرهم بالبطانية، وعزم على أخذهم، وكان فيهم أبو الحسين الرفَّاء، وأبو عبد الله الزجاجي، وكانا يقرآن القرآن بأَصوات لم يُسمع مثلها، فحضرا عند الأُصيفر وقرآ عنده فقال لهما: كيف عيشكما ببغداد؟ فقالا: نِعم العيش، يصلنا من أهلها الخلع والصِّلاَت والهدايا، فقال: وهبوا لكما ألف دينار في صرة؟ فقالا: لا! ولا ألف دينار في موضع، فقال لهما: قد وهبت لكما الحاج وأموالهم وذلك يزيد على أَلْفِ أَلْفِ دينار، فشكروه وانصرفوا من عنده، ووفى للحاج بذلك، ولما قرأوا بعرفات على جبل الرحمة قال أهل مكة وأهل مصر والشام: ما سمعنا عنكم يا أهل بغداد بتدبير مثلِ هذا، يكون عندكم مثل هذين الشيخين فتصحبونهما معاً، فإن هلكا فبأَيِّ شيء تتجمّلون؟ كان ينبغي أن تصحبوا في كل سنة واحداً، ولما حجُّوا عوَّل الأَمير على ترك زيارة المدينة، واعتذر بقعود الأعراب في طريقه، وما يلازمه من الخفارات عند تعويقه، فتقدما الحاج ووقفا عن يسار الجبل الراجع من مكة، ويرى من بعيد كأَنه عنق طائر، ومنه يعدل القاصد من مدينة النبيِّ ﷺ ويسير في سبخة، من ورائها صُفَيْنَة، فقرأ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة: ١٢٠] الآية، فعند ذلك ضجّ الناس ولوت الجِمال أعناقها نحوهما وقصد الأَمير المدينة.

سنة خمس وتسعين وثلاث مئة: حجّ بالناس جعفر بن شعيب السلاَّر، ولحق الناس عطش شديد في طريقهم، وهلك خلق كثير، ولحق قوم منهم الحج، وأصاب حاج العراق رياح وأهوال، وطرحت العرب من خفاجة الحنظل في المياه، فهلكوا عطشاً، ثم أخذوهم ونهبوهم.

وفي هذه السنة أرسل الحاكم صاحب مصر الحسن بن نزار إلى صاحب مكة أبي الفتوح سِجِلاً ينتقص فيه بعض الصحابة، وجرح فيه بعض أزواج النبيِّ ﷺ، فأرسل به الأَميرِ إلى القاضي الموسويِّ، قال ابن فهد الكبير: وأَظنه إبراهيم بن إسماعيل وهو يومئذ قاضي مكة وما والاها، وأمره بقراءته على الناس، فلما فشى ذلك عند الناس من المجاورين والقاطنين بمكة والمنتجعين وغيرهم من قبائل العرب المجاورة هُذَيْل ورواحة (؟)، زحفوا إلى المسجد، غضباً للّه تعالى، ولنبيه ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، فلما بلغ ذلك القاضي أخّر الخروج وتباطأ، فطال انتظار الناس له حتى قال قائل: قد صعد المنبر فرماه الناس بالحجارة وزحفوا إليه، فلم يجدوا عليه أحداً وتكسّر المنبر فصار رضاماً، وكان يوماً عظيماً ومشهداً مهيباً، ولم يقدر أحد بعد ذلك يعلن بذلك المذهب.

سنة ست وتسعين وثلاث مئة: حجّ بالناس أبو الحارث العلوي.

وفي هذه السنة أُمِر الناسُ في الحرمين بالقيام عند ذكر صاحب مصر في الخطبة لأَن ذلك عادتهم بمصر والشام، بل كانوا إِذا ذكر قاموا وسجدوا في السوق وموضع الاجتماعات.

سنة سبع وتسعين وثلاث مئة: حجّ الركب المصريُّ، وبعث الحاكم صاحب مصر كسوة الكعبة، ومالاً لأَهل الحرمين، ولم يحج الركب العراقي مع توجههم لأَنهم رجعوا من الثعْلَبية وواقصة، إِلى مدينة السلام، وكانت هبت على الحاج ريح سوداء بالثعلبية أَظلمت بها الأَرض ولم يرَ الناس بعضهم بعضاً، وأَصابهم عطش شديد، كان سبب رجوعهم، ومنعهم ابن الجرَّاح الطائي من المسير ليأْخذ منهم مالاً، فضاق الوقت عليهم فعادوا إِلى الكوفة ولم يحجُّوا.

سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة: حجّ بالناس أَبو الحارث محمد بن يحيى العلويُّ، ولم يحج الركب العراقي، فإِنهم رجعوا من الطريق خوفاً من ابن الجراح الطائي، فدخلوا بغداد قبل العيد، وأَما ركب البصرة فأَجازه بنو زُغْبٍ الهلاليون، وكان حاج البصرة ستٍ مئة رجل، وأَخذوا منهم زيادة عن أَلف أَلف دينار.

سنة تسع وتسعين وثلاث مئة: حجّ بالناس أَبو الحارث محمد بن محمد بن عمر العلوي.

سنة أربع مئة: كذلك.

سنة إحدى وأربع مئة: لم يحج الركب العراقي لفساد الوقت، ورجع الحاج من بغداد، وكان أَبو الفتوح أَمير مكة خرج عن طاعة الحاكم العبيدي صاحب مصر ودعا إِلى نفسه، وخُطب له بالخلافة وتلقب بالراشد بالله، وأَيد ذلك أَن الحاكم قتل أَبا الوزير أَبي القاسم بن المغربي لتهمة له، وهرب أَبو القاسم فقصد ابن الجراح الطائي بالرملة، ولزم حسان بن مُفَرِّج فأَجاره، ومنع الطلب منه، فأَرسل له الحاكم عسكراً لمحاربته، فقاتلهم وأَسر مقدمهم، وأَمر الوزير أَبا القاسم بالتوجه إِلى أَبي الفتوح إِلى مكة ليفسد نِيَّته على الحاكم، وقدم مكة على أَبي الفتوح وأفسد نيته على الحاكم، وأطمعه في الرياسة والمُلك، وحرّضه على طلب الخلافة، وضمن له الوفاء بما يبذله حسان بن مفرج من الطاعة، فأَصْغى إِلى قولِه، وأَشار عليه بأَخذ ما في خزانة الكعبة وغيرها من أَموال التجار ففعل ذلك، وسار معه إِلى الرملة في أَلف فارس، وأَلف عبد، بعد المبايعة له، فلما قرب من الرملة تلقاه مفرج وأَولاده وسائر

وجوه العرب، وترجّلوا له، وسلّموا عليه بالخلافة، ومَشَوْا في ركابه، وكان متقلّداً سيفاً يزعم أنه ذو الفقار، وفي يده قضيب يزعم أنه قضيب رسول الله ﷺ، ونزل في دار حسان، وتغلّب على أكثر بلاد الشام، وخُطب له على المنابر. فلما بلغ الحاكم ذلك انزعج وقلق، وعلم أنَّ أبا الفتوح أهْلٌ لما أُهِلَّ له بالخلافة، فكتب إلى أبي الطيب ابن عم أبي الفتوح فولاّه الحرمين، وأنفذ له ولشيوخ بني حسن مالاً وعدل عن حرب ابن مفرج إلى الخدعة، وأخذهم بالملاطفة، وبذل لهم مالاً على خذلان أبي الفتوح، وأن يدفع له خمسين ألف دينار عيناً، ولكل واحد من إخوته كذلك سوى الهدايا والثياب والحظايا، وسيّرها إليهم، فمالوا عن أبي الفتوح، ودخلوا في طاعة الحاكم، فلما أحس أبو الفتوح بذلك ورأى تغيير رأيهم، ركب بنفسه إلى الوزير أبي القاسم وقال له: أنتَ أوقعتني، وأخرجتني من بلدي، وجعلتني في أيدي هؤلاء ينفقون سُوْقَهم بي عند الحاكم، ويبيعوني بيعاً بالدراهم، فيجب عليك أنْ تخلصني كما أوقعتني، وتسهل طريقي بالعود إلى الحجاز، فإني راضٍ من الغنيمة بالإياب، فشجّعه وثبّته، وأخذ يفكر في خلاصهِ، وطال الأمر على أبي الفتوح، فركب إلى المفرج، والد حسان، سِرًّا، وأخبره بخبر أولاده، فقال له: ما تريد مني؟ فقال: أُريد أن تبعث معي مَن يوصلني إلى مكة، ولا تحوجني إلى أن أركب فرساً أملس، وأهرب، فيختطفني العرب، فضمِن له مُفرِّج ذلك، ووعده بالسلامة، وبعث معه جماعة من طيِّىءٍ، ولم يزالوا معه حتى بلغوا مكة وقيل: إنَّ مُفرِّجاً ركب معه، وسيَّره إلى وادي القرى، فتلقاه أصحابه، وكاتب الحاكم واعتذر إليه فعذره، ويقال: إنَّ آل الجراح شفعوا له عند الحاكم فولاّه مكة.

سنة اثنتين وأربع مئة: حجَّ بالناس أبو الحارث محمد العلوي، وهاجت عليهم ريح سوداء، عند حصول الحاج بزبالة، وفقدوا الماء فهلك منهم خلق كثير، وبلغت المزادة من الماء مئة درهم، واعترضهم من عودهم حماد بن عُدَي الخفاجي، الملقب بالثائر، وحبسهم بالعقبة ثلاثة أيام، وعفّرت المصانع، وطرح في الآبار الحنظل، وأحرق العلوفة وأقام الحاج على قتاله إلى أن قصروا عنه وعطشوا فمات أكثرهم عطشاً، ونهبوا ولم يسلم من الحاج إلا اليسير، وعاد أبو الحارث ووجوه الحاج بعد أن تخفّروا ببني خفاجة إلى الكفوة بأسوإ حال، وبلغ الوزير ببغداد فأرسل في طلب العرب فظفروا بهم قرب البصرة وقتلوا منهم خلقاً، وكذا أسروا وأخذوا ما وجدوا من أموال الحاج، وأرسلوه مع الأسرى إلى الوزير فحسن موقع ذلك عنده.

سنة ثلاث وأربع مئة: بطل الحج من خراسان والعراق لمسير رجل من القرامطة

يُعرف بأبي عيسى المنتفقي، والثائر الخويلدي وجماعة من العرب إلى ظاهر الكوفة، فحاصروها وانصرفوا وقد فات الحج فعادوا من الكوفة إلى بغداد.

سنة أربع وأربع مئة: حجّ بالناس أبو الحسن محمد الأَقساسي.

سنة خمس وأربع مئة: كذلك، وبطل الحج من العراق لخراب الطريق، واستيلاء العرب عليه، وهلك خلق كثير من الحجاج، وكانت جملتهم عشرين ألفاً، سلم منهم ستة آلاف، وإِنَّ الأَمْرَ اشتد بهم حتى شربوا أَبوال الجِمال، وأَكلوا لحومها.

سنة ست وأربع مئة: حجّ بالناس أَبو الحسن الأَقساسي، وبطل الحاج من العراق لخراب الطريق واستيلاء العرب عليه.

سنة سبع وأربع مئة: لم يحج أَحد من العراق لتأَخر أَهل خراسان.

سنة ثمان وأربع مئة: حجّ بالناس عمر بن مسلم بن محمد بن عبد الله العلوي، ولم يحج من العراق أَحد.

سنة تسع وأربع مئة: خرج الحاج من بغداد مع عمر بن مسلم، فاعترضهم العرب فيما بين القصر والحاجر، والتمسوا منهم زيادة رسومهم، فرجعوا من القصر، وبطل الحج في هذه السنة.

سنة عشر وأربع مئة: بطل الحج من العراق بتأخر ورود أَهل خراسان عن الحضور في هذه السنة، وقتل المجاورون بمكة هادي المستجيش وكان ظهر في آخر أَيام الحاكم العبيديِّ، صاحب مصر، وصار يدعو إِلى عبادة الحاكم، فحكي عنه أَنه سبّ الرسول ﷺ، وبصق على المصحف الشريف، وسار في البوادي يدعوهم إِلى أَن قتله الله تعالى بمكة، وذلك أَنه لما وصل مكة نزل على أَبي الفتوح وأَعطاه الذمام وصار يطوف بالكعبة فلما رآه المجاورون مضوا إِلى أَبي الفتوح وذكروا له شأْنه، فقال: هذا قد نزل عليَّ وأَعطيته الذمام فقالوا له: إِنه سبّ وبصق فسأَله عن ذلك، فأَقر به، وقال: قد تبت. فقال المجاورون: توبة هذا لا تصح، واستشهدوا بقتل ابن خطل وهو متعلق بأَستار الكعبة، وقالوا: مثله لا يصح أَن يعطى الذمام، ولا ينبغي إِلا قتله، فدافعهم أَبو الفتوح عنه، فاجتمع الناس عند باب الكعبة وضجُّوا إِلى الله تعالى وبكوا، فقضى الله تعالى بإِرسال ريح سوداء حتى أَظلمت الدنيا وصار للكعبة نور كنور الترس فلم يزل كذلك يُرَى ليلاً ونهاراً على حاله مدة سبعة عشر يوماً فلما رأَى أَبو الفتوح ذلك أَمر بالغريم وغلام له مغربي إِلى باب العمرة وضُربت أَعناقهما

وصُلبا، ولم تزل المغاربة يرجمونهما بالحجارة حتى سقطا إلى الأرض، فجمعوا لهما الحطب وأحرقوهما ـ ولله الحمد ـ.

سنة إحدى عشرة وأربع مئة: بطل الحج من العراق بتأخر وورود أهل خراسان.

سنة اثنتي عشرة وأربع مئة: حجّ بالناس عمر بن مسلم بن محمد بن عبد الله العلويُّ.

وقال ابن الأثير وابن الجوزي: أبو الحسن الأقساسي. وحجَّ ركب العراق بعد انقطاعه سنين، وسبب ذلك أنَّ جماعة من أعيان خراسان قصدوا أمير الدولة محمود بن سبكتكين وقالوا له: أنت سلطان الإسلام، وأعظم ملوك الأرض، وأثرك في الجهاد مشهور، وأنت في كل سنة تفتح من بلاد الكفر قطعة، والحج قد انقطع كما ترى، والثواب في فتح طريقه أعظم، والشغل به أوجب، وقد كان بدر بن حسنويه قد سيّر الحج بتدبيره وماله عشرين سنة، وما في أصحابك إلاَّ مَن هو أعظم شأناً منه، فانظر لله واجعل لهذا الأمر حظًا من اهتمامك، فتقدّم السلطان محمود إلى قاضي القضاة في مملكته، أبي محمد المناصحي للتأهُب للحج، وأعطاه ثلاثين ألف دينار، يعطيها للعرب، سوى ما سيّره للقربات، ونادى في سائر أعمال خراسان بالحج، واجتمع خلق عظيم، وساروا فلما بلغوا فَيْدَ حصرهم، فبذل لهم المناصحي خمسة آلاف دينار، فلم يقتنعوا وصمّموا العزم على أخذ الحجاج، وكان مقدمهم رجل يقال له حماد بن عُدَي ـ بضم العين ـ من بني نَبْهَان، وكان جباراً فركب فرسه وعليه درعه وسلاحه وجال جولة يُزْهب بها وكان في جماعة السمرقنديين شاب يعرف بابن عفان يوصف بجودة الرمي، فرماه بسهم فوصل إلى قلبه فسقط ميتاً وتفرّق أصحابه، وسلم الحاج، فحجُوا وعادوا سالمين.

سنة ثلاث عشرة وأربع مئة: بطل الحاج من العراق لتأخر أهل خراسان.

وفيها على ما قال ابن الذهبي وابن الجوزي ـ أو في التي بعدها على ما قال ابن الأثير ـ في يوم الجمعة يوم النفر الأول ولم يكن رجع الناس من مِنى، عمد بعض الملحدة من المصريين الذين هم شيعة الحاكم العبيدي وقد أفسد أديانهم، وكان أحمر اللون، أشقر الشعر، تام الخلقة، جسيماً طويلاً، وبإحدى يديه سيف مسلول، وبالأُخرى دَبُوس، بعد ما فرغ الإمام من الصلاة، قصد الحجر الأسود كأنه يستلمه، فضرب وجه الحجر الأسود في وسطه فتقشر من تلك الضربات، وتساقطت منه ثلاث شظايا، واحدة فوق الأُخرى فكأنه ثقب ثلاث، تدخل الأَنْمَلَةُ في كل ثقبة، وخرج

مكسره أَسمر يضرب إِلى صفرة محبباً مثل الخشخاش، وقال: إلى متى يعبد الحجر الأَسود ومحمد وعلي، فليمنعني مانع مما أفعله فإِني أريد اليوم أَنْ أَهدم هذا البيت فأَرفعه، فاتقاه أكثر الحاضرين وخافوه، وتراجعوا عنه، وكاد أَن يفلت، وكان على باب المسجد عشرة من الفرسان، على أَن ينصروه، فاحتسب رجل من أَهل اليمن أَو من أَهل مكة أَو غيرهما، وقاربه فوجأَه بخنجر، واحتوشه الناس فقتلوه، ثم تكاثروا عليه فقطعوه وأَحرقوه بالنار، وكان الظاهر منهم عشرين رجلاً غير ما خفي منهم، فثارت الفتنة واختبط الوفد، وأَلح الناس في ذلك على المغاربة والمصريين بالنهب والسلب، وعلى غيرهم في طريق منى إِلى البلد، ثم ركب أَبو الفتوح أَمير مكة فأَطفأَ الفتنة، وردّهم عن المصريين، فلما كان الغد ماج الناس واضطربوا، وأَخذوا أَربعة من أَصحاب ذلك الرجل فقالوا: نحن مئة رجل، فضربت أَعناق هؤلاء الأَربعة، وأَقام الحجر الأَسود على ذلك يومين، ثم إِن بعض بني شيبة جمعوا ما وجدوا مما سقط منه، وعجنوه بالمسك واللُّكّ وحشيت الشقوق، وطليت بطلاءٍ من ذلك، فهو بَيِّنٌ لمن تأَمله، وهو على حاله اليوم.

سنة أربع عشرة وأربع مئة: حجّ بالناس أَبو الحسن محمد الأَقساسيُّ العلوي، وعاد على طريق الشام لاضطراب العرب.

سنة خمس عشرة وأربع مئة: حجّ بالناس أَبو الحسن محمد الأَقساسي العلوي، وعاد على طريق الشام، وحجّ الركب الخراساني، ومقدمهم أَبو علي الحسن بن محمد المعروف بحسنِك، نائب أَمير الدولة محمود بن سبكتكين والخصيص به، وفي صحبته ما يدفع إِلى العرب في طريق مكة وغيرها عن رسومهم، فدفع كل مَن استضعفه ووعد مَن قوي جانبه وخيف أَذيته بإِزاحة علتهم عند رجعته، واجتمع عليهم بالوقت وضيّقه وخيّفه العرب، فلما قضى الحج، وعاد ومَن معه إِلى المدينة النبوية اجتمع هو وأَبو الحسن الأَقساسي العلوي أَمير الحاج البغدادي، وعدة من وجوه الناس، للنظر في أَمر العرب، واستقر رأْيهم على المسير إِلى الرملة من وادي القُرَى، والمضي على الشام إِلى بغداد، وذلك لما فعلوه مع العرب في مجيئهم، فخافوا أَن يصيروا في أَيديهم وحكمهم، وخرجوا إِلى هذه الطريق لطلب السلامة، فساروا إِلى الرملة، وقدم الخبر بقدومهم إِليها على الظاهر العبيدي، صاحب مصر في ثاني عشر صفر سنة ست عشرة، وأَنهم في ستين أَلف جمل، ومئتي أَلف إِنسان، بكتاب بعث به إِليه الأَقساسي، يستأْذنه فيه على عبور الشام، فَسُرَّ بذلك، وكتب إِلى جميع ولاة الشام بملاقاتهم، وإِنزالهم وإِكرام مقدمهم، وعمارة البلاد لهم بالطعام والعلف، وإِطلاق الصلات للقراء والفقهاء، وإِقامة الأَموال الكثيرة

لحسنك صاحب أمين الدولة، والتناهي في إكرامهم، وتقدم إلى مُقدَّمي عساكر الشام بحفظهم، والمسيرة في صحبتهم، وأنْ يتسلمهم من دمشق صالح بن مرداس، ويوصلهم الرحبة ويدفع إلى الأَقساسي أَلفَ دينار، وعدة كثيرة من سياب، وإلى حسنك مثل ذلك، ويقدم إليه فرساً بمركب رهب، وأعطى لكل رجل من الصحبة جملة من المال ليظهر لأَهل خراسان ذلك، فساروا من الرملة موقرين مجبورين شاكرين، حتى وصلوا إلى بغداد، وعرج حسنك عنها خوفاً من الإنكار عليه من دار الخليفة إلى خراسان، وورد كثير من الحاج في السفن من طريق الفرات، وجاء قوم على الظهر إلى أَوَّانَا، واشتد ما فعله الظاهر على الخليفة القادر بالله، وأنكر عودهم إلى الشام، وتهدد الأَقساسيَّ، وصرفه عما كان إليه، ووَبَّخَه، فمرض فمات، وأنكر على حسنك وكتب فيه إلى يمين الدولة محمود بن سبكتكين، واستدعى منه الفرش والقماش والخلع الواصلة إلى حسنك، لتحرق ببغداد، فبعث بها في جمادى الأُولى سنة ست عشرة، فأُحرقت على باب التوني بمحضر من الناس، وسُكَّ الذهب، وفرق على الفقراء، وغنم الظاهر حسن الثناء عليه من حاج خراسان، وما وراء النهر لما كان لحسنه إليهم، وزيارتهم لبيت المقدس.

وفي هذه السنة حفر بين الْحِجْرِ والأَوضام فانتثرت هناك جماجم وعظام كثيرة، فلما رأَوا ذلك أَعادوهما، وأَعادوا ما نبش من التراب عليها.

سنة ست عشرة وأربع مئة: فيها تأَخر الحاج من العراق لتأَخر أهل خراسان.

سنة سبع عشرة وأربع مئة: بطل الحج من العراق لتأَخر أَهل خراسان، وحجّ محمد بن المظفر بن سكران الحموي الشامي.

سنة ثمان عشرة وأربع مئة: بطل الحج من العراق لتأَخر أَهل خراسان.

سنة تسع عشرة وأربع مئة: لم يحج ركب بغداد لتأَخر أَهل خراسان وتأَخر أَهل مصر، ومضى قوم من خراسان إلى مكران فركبوا البحر من هناك لجدة، فحجُّوا ـ ولله الحمد ـ.

سنة عشرين وأربع مئة: بطل الحج من العراق لتأَخر أهل خراسان.

سنة إحدى وعشرين وأربع مئة: حجّ من الكوفة قوم ركبوا على جِمال البادية في قافلة كبيرة، وتخفَّروا من قبيلة إلى قبيلة، وبلغت أُجرة الراكب إلى فَيْدَ بأَربعة دنانير، ورجعوا سالمين إلى الكوفة في آخر المحرم، وبطل الحج من العراق لتأَخر أَهل خراسان.

سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة: فيها حجّ من الكوفة قوم من الرجالة، ومات منهم خلق كثير في الطريق، وبطل الحج من العراق لتأَخر أَهل خراسان.

سنة ثلاث وعشرين وأربع مئة: لم يحج أحد من العراق لتأخر أهل خراسان، وخرج نفر يسير من الرجال، وعمرت الطريق في هذه السنة، وتأخر المصريُّون خوفاً من البادية، وخرج أهل البصرة بخفر، فغدروا بهم ونهبوهم وارتهنوهم.

سنة خمس وعشرين: لم يحج العراقيون لتأخر أهل خراسان، ولا المصريون خوفاً من البادية، وحجّ أهل البصرة مع مَن تخفرهم فغدروا بهم ونهبوهم.

سنة ست وعشرين: لم يحج أحد من العراق وخراسان.

سنة سبع وعشرين: لم يحج أحد من العراق.

سنة ثمان وعشرين: لم يحج أحد من العراق لفساد الوقت، واختلاف الكلمة، وحجّ على الصُّلَيْحيُّ وحَالَفَ بمكة ستين رجلاً على الموت والقيام بالدعوة العبيدية، وكل منهم له قوم وعشيرة ومنعة.

سنة تسع وعشرين وأربع مئة: لم يحج أحد من العراق.

سنة ثلاثين وأربع مئة: لم يحج من خراسان والعراق ومصر والشام كبير أحد. كذا قال الذهبيُّ. وقال ابن كثير: وفيها لم يحج أحد من العراق وخراسان ومات أمير مكة أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن محمد بن الحسن الحسنيُّ المكيُّ، وولي مكة بعده ابنه شُكْر.

سنة إحدى وثلاثين: لم يحج أحد من العراق.

سنة اثنتين وثلاثين: كذلك.

سنة ثلاث وثلاثين: لم يحج أحد، وقال عليُّ بن أنجب الخازن: إلاَّ مُتَخَفِّراً بالعرب، وذكر أبو عُبيد البكريُّ في كتابه «المسالك والممالك» أنه في سنة ثلاث وثلاثين انكسرت من الركن اليماني فِلْقَةٌ قدر الإصبع وغفِلَ عن شَدِّهَا فصارت عند قوم من أهل مكة من الحسنيين، فوقع في مكة وباء عام وموتان، حتى لا يلبث المريض فوق ثلاثة أيام، وهلك من أهل الدار الذي اتهم أنَّ الفلقة فيها ثمانية عشر إنساناً فرأى بعض الصالحين المجاورين من أهل خراسان في قومه أن يُفْتَقد مَا ذهبَ من الكعبة فيُرَدّ، فيدفع الله عنهم الوباء فرُدَّتْ إلى موضعها فارتفع الوباء.

سنة أربع وثلاثين: لم يحج أحد إلا متخفراً.

سنة خمس وثلاثين إلى سنة سبع وأربعين وأربع مئة: لم يحج أحد إلا مُتَخَفِّراً، وانقطع الركب العراقي.

وفي سنة أربعين: كان بمكة غلاءٌ ووباء.

وفي سنة سبع وأربعين: كان بمكة غلاء شديد، بلغ الخبز عشرة أرطال بدينار مغربي، ثم تعذّر وجوده فأشرف الناس والحاج على الهلاك فأرسل الله تعالى عليهم الجراد حتى ملأ الأرض، فتعوّضوا هذا الغلاء، وسببه عدم زيادة النيل بمصر فلم يحمل منها الطعام إلى مكة.

سنة ثمان وأربعين وأربع مئة: لم يحج أحد من العراق، وكان بمكة غلاء.

سنة تسع وأربعين: لم يحج أَحد من العراق إلا مُتَخَفِّراً.

سنة خمسين: لم يحج أَحد من العراق.

سنة إحدى وخمسين: لم يحج أَحد من العراق، وكان بمكة رخاء لم يشاهد مثله وبلغ التمر والبر مئتي رطل بدينار وهذا غريب.

سنة اثنتين وخمسين: لم يحج أَحد من العراق، غير أَن جماعة خرجوا إِلى الكوفة وذهبوا مع طائفة من الخفر.

سنة ثلاث وخمسين: لم يحج إِلا متخفراً ومات أَمير مكة شكر بن أَبي الفتوح الحسنيُّ في رمضَان، وولي بعده إِمْرَةَ مكة عَبْدٌ لَهُ. هكذا ذكر ابن حَزْم في «الجمهرة» وقال صاحب «مرآة الزمان» نقلاً عن محمد بن هلال الصابي أنه ولي مكة بعد شكر بنو أَبي الطيب الحسنيُّون، وفيها لم يحج أَحد.

سنة أربع وخمسين: لم يحج أَحدٌ إِلا متخفراً.

سنة خمس وخمسين: فيها في سادس الحجة دخل علي بن محمد بن علي الصُّلَيْحِيُّ صاحب اليمن مكة وملكها، وفعل أَفعالاً حسنة، واستعمل الجميل مع أَهلها، وأَظهر العدل والإِحسان، ومنع المفسدين، وطابت به قلوب الناس، وأَمِنَ الحج أَمْناً لم يُعْهدْ مثله، لإِقامته السياسة والهيبة حتَّى كانوا يعتمرون ليلاً ونهاراً، وأَموالهم محفوظة، ورحالهم محروسة.

سنة ست وخمسين: حجّ بالناس أَبو الغنائم المعمر بن محمد بن عبيد الله نقيب الطالبيين، ومَنَع الصُّلَيْحِيُّ الحجَّ منَ اليمن، فغلتِ الأَسعارُ بمكة، وزادت البليَّة وكان خرج من مكة في يوم عاشوراء، وقيل: في شهر ربيع الأَول، ورتَّب في الإِمارة أَبَا هاشم محمد بن جعفر الحسنِيَّ، صهر شُكر بن أَبي الفتوح على بنته، وأَمَّرَهُ على جماعته، وقيل: كان مُتَخَوِّفاً من الأَشراف العلويين، لموت غالب أَصحابه لوقوع الوباء فيها، فلما سار إِلى اليمن قصد الحسنيون ومعهم حمزة بن أَبي وَهَّاس،

وحاربوا محمد بن جعفر أَبا هاشم الحسني، فلم يكن له بهم طاقة فَحاربهم، وخرج من مكة إلى ينبع، وقطع الطريق، والقوافل عن مكة ونَهبها بنو سليمان.

سنة سبع وخمسين وأربع مئة: حجّ بالناس النقيب أَبو الغَنائم المعمر بن محمد العلوي.

سنة ثمان وخمسين: حجّ بالناس نور الهدى، أَبو طالب الحسين بن نظام الحضرتين، أَبي الحسن محمد بن الزينبي، وجاور بمكة.

وحجّ عَلِيُّ بن محمد الصُّلَيْحِيُّ على عادته، وتكلم في الموسم مع همدان، وكانوا معه ستين رجلاً، فبايعوه وحالفوه على النصر والقيام معه، وعادوا وأَقَامَ في يسار جبل حِرَاء.

سنة تسع وخمسين: حجّ النقيب أَبو الغنائم العلوي وخطب أَمير مكة محمد بن أَبي هاشم للقائم العباسيّ، ثم قطع خطبته فأَرسل إليه مالاً، وعاتبه على قطع خطبته، فخطب له في أَيام الموسم، من سنة اثنتين وستين، واعتذر إلى المستنصر.

سنة ستين وأربع مئة إلى سنة اثنتين وستين: حجّ بالناس النقيب أَبو الغنائم العلويُّ، وقطع أَمير مكة أَبو هاشم الحسنِيُّ خطبةَ المستنصر العبيديِّ صاحب مصر، لاشتغاله عنه بِالقحط والوباء الذي لم يُسْمَعْ بمثله في الدهور، حتى أَكَلَ أَهلُ مصر بعضهم بعضاً، وتشتتوا في البلاد، وأَعاد الخطبةَ العباسيةَ بعد قطعها من الحجاز من نَحْوِ مئة سنة.

وخطب للخليفة القائم بأَمر الله، بن القادر بالله، بن المقتدر العباسي، ثم للسلطان عضد الدولة أَرسلان بن داود بن سكال بن سلحون، وترك الأذان بـ(حيَّ على خير العمل)، فأَرسل رسولاً ومعه ولده إلى السلطان إِلب رسلان يخبره بذلك، فأَعطاه ثلاثين أَلف دينار، وخلعةً نفيسة، وأَجرى له في كل سنة عشرة آلاف دينار، ووعد أَمير المدينة مُهَناً بمثل ذلك إذا دعا له.

سنة ثلاث وستين وأربع مئة: حجّ بالناس الشريف نور الهدى أَبو طالب القرشي، وخطب للقائم بأَمر الله، وقطع خطبة المصريين، وكانت الخطبة أُقيمت لهم من مدة مئة سنة إلى هذا الوقت. قاله ابن الخازن.

سنة أربع وستين إلى سنة ست وستين وأربع مئة: حجّ بالناس النقيب أَبو الغنائم العلويُّ، وكُسِيَتِ الكعبة كسوةً من الديباج الأَصفر، عملها صاحب الهند السلطان محمود بن سبكتكين، ثم ظفر بها نظام الملك وزير السلطان ملك شاه السلجوقي،

فأَرسل بها إِلى مكة وجعلت فوق الكسوة التي كساها بها أَبو النصر الأستراباذي فخر الرؤساء، وكان قدم مكة في هذه السنة فعمر بها وبظاهرها عمائرَ حسنة، منها أَماكن في المسجد الحرام، والمسجد الذي أَحرمتْ منه أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالتنعيم، المعروف بمسجد الهليلِجة لشجرة كانت فيه، وسقطت، وأجري الماء من عرفات إِلى مكة في قُنيٍّ كانت عملتها زبيدة، ووجد البيت عرياناً منذ سنتين فكساها ثياباً بيضاء، من عمل الهند كانت معه لذلك، وفضض الميزاب، وقال: لَو أَنّي إِذا عملته ذهبا سلم، لعملته، وتَصَدَّقَ على الحرمين بمالٍ جزيلٍ، وأَعطى فقراء مكة والمدينة جرايةً حسنةً، ولذلك لقب مغيث الحرم.

وفيها أَرسل صاحب مصر المستنصر العبيديُّ رسولين إِلى أَمير مكة محمد بن أَبي هاشم، يقبحان عليه خطبته للخليفة العباسيِّ، وللسلطان إِلب رسلان، وبذل له مالاً على قطع الخطبة لهما، فلم يلتفت إِليهما وأَقصاهما، لأَنه كان وصل إِليه ولأَصحابه صحبة السلار من المال مَا مَلأَ عينيه وقلبه، وأَخذ السلار من الحاج الذين اتبعون دنانير فدفعهما إِليه، وإِلى العبيد معه.

سنة سبع وستين وأربع مئة: حجّ بالناس أَبو طالب الحسن بن محمد الزينَبيُّ، وأَخذ البيعة لْلمقتدي بأَمر الله، ولم يَصِل من جهة الخليفة العباسي ما كان يصل لأَمير مكة فقطع خطبَةَ المقتدر العباسي لموته وموت السلطان إِلب رسلان، وصادف ذلك قوة أَمْرِ المستنصر بالله صاحب مصر، ورخص أَسعارها، وأَرسل لصاحب مكة رسالة وهدية جليلة وتحفاً، وطلب منه أَن يعيد له الخطبة بمكة، وقال له: إِنَّ أَيمانك وعهودك كانت للقائم والسلطان إِلب رسلان وقد ماتا، واجتمع إِلى أَمير مكة أَصحابُهُ وخوّفوه، وقالوا: إِنَّما سلمنا الأَمْرَ لبني العباس لعدم المعونة من مصر، ولما رَجَعَتْ إِلينا المعونةُ لا نبتغي بابن عَمِّنا بدلاً، فأَجابهم الأَميرُ على كُرْه منه، وخطب للمستنصر بالله العلويِّ، صاحب مصر، وقطع خطبة المقتدي بأَمر الله.

وكانت مدة الخطبة العباسية أَربع سنين وخمسة أَشهر، وفرّق المال الذي بعث به صاحب مصر.

سنة ثمان وستين وأربع مئة: كان أَمير الحاج أَبي منصور ختلع لتكتين المعروف بالطويل، وهو أَول تركيٍّ تأَمَّر على الحاج، وكان بين أَمير الحاج العراقي وعبَيْدِ مكة فتنة كان الظفر فيها لأَمير الحاج.

وفي ذي الحجة قطع أَمير مكة محمد بن أَبي هاشم خطبة المستنصر، وخطب

للمقتدي عبد الله بن محمد الذخيرة بن القائم الخليفة العباسي وكان السبب أَن سلار الحاج قرر مع أَبي هاشم أَن يزوجه أُخت السلطان جلال الدولة ملك شاه، فتعلّق طمعه بذلك، وأرسل له يخبره بأنه قرر أَمر الوصلة وقد أَعطى للسنين الماضية والآتية عشرين أَلف دينار، عزل منها عشرة آلاف للمهر، فرأى ابن أَبي هاشم أَن دنانير المهر قد أُخذت، والوصلة قد تمت، فسرَّ بذلك وصار يخطب تارة لبني العباس، وتارة لبني عُبَيْد.

سنة تسع وستين وأربع مئة: كان أَمير الحاج أَبو منصور ختلع التركي.

سنة سبعين: كذلك.

وصل إلى مكة من بغداد منبر كبير، منقوش عليه بالذهب (لا إله إلا الله محمد رسول الله الإمام المقتدي بأمر الله أَمير المؤمنين، مما أَمر بعمله محمد بن محمد بن جهير) فاتفق وصوله إلى مكة صحبة أَصحاب محمد بن أَبي هاشم أَمير مكة العلويِّ، وقد أُعيدت خطبة المصريين، وقطعت الخطبة لبني العباس، فكُسِرَ المنبرُ المذكور، وأُحْرِقَ، وكان المتولي لعمارته الوزير فخر الدولة أَبو المنصور بن جهير، عمله في داره بباب العامة.

سنة إحدى وسبعينَ إلى سبع وسبعين: كان أَمير الحاج أَبو منصور ختلع التركي، وشكى الحاج من ختلع لشدة سيره، وأَنه سار بهم من الكوفة إلى مكة في تسعة عشر يوماً، وأَنه يأخذ منهم مَكْساً كثيراً فَعُزِل، وولى خمار تكين.

سنة ثمان وسبعين وأربع مئة: حجّ بالناس الأَمير أَبُو منصور ختلع التركي، وزار في إسعاده وانحداره النبيَّ ﷺ، وقال: أَطَأُ المدينة آخر حَجي، وأُريد أَنْ أَختمها بزيارة الرسول ﷺ، وأَبتدئها. فعاد فتوفي.

وفيها خرج قوم من العرب على حاج مصر، فقتلوا خلقاً كثيراً منهم، وأَخذوا أَموالهم، وعاد من سلم ولم يحج، وعمَّ الطاعون جميعَ البلاد حتى الحجاز.

سنة تسع وسبعين وأربع مئة: حجّ بالناس نجم الدولة خمارتكين الحسباني التركي، ووقعت العرب على الحاج، فقاتلوهم يومهم، وأمسوا يسأَلون الله النجاة، فبلغ العرب أنَّ قوماً منهم عمدوا لِخُلو أبياتهم فاستاقوا مواشيهم، فولُّوا عن الحاج، وقُطِعَتْ خطبة المصريين عن مكة والحرمين، وخُطب للمقتدي بأَمر الله.

سنة ثمانين وإحدى وثمانين: حجّ بالناس نجم الدولة خمارتكين الحسباني، وحجّ الوزير أبو شجاع وزير الخليفة، وأَسقط السلطان ما كان يؤخذ من الحجاج من الخفارة.

سنة اثنتين وثمانين إلى سنة أربع وثمانين: حجّ خمارتكين على حاله، وهرب أمير مكة محمد بن أبي هاشم إلى بغداد، لاستيلاء التركمان الذين أرسلهم السلطان ملك شاه بن إلب رسلان السلجوقيُّ على الحجاز واليمن، وإقامة الدعوة له هناك.

سنة خمس وثمانين: حجّ بالناس خمارتكين، وخرجت خَفَاجَة على الحاج، وطمعوا فيهم ونهبوهم، وقتلوا منهم خلقاً، فردُّوا منهزمين إلى الكوفة، ودخل بنو خفاجة الكوفة فأغاروا ونهبوا فرماهم الناس بالنُّشَّاب، ونفذ من بغداد عسكر، فانهزموا، وخطب بمكة للسلطان محمد بن السلطان ملك شاه السلجوقي.

سنة ست وثمانين وأربع مئة: انقطع الحجُّ من العراق، وحجّ الناس من الشام، فلما قضوا حجهم وعادوا سائرين، سَيَّرَ إليهم أمير مكة محمد بن أبي هاشم عسكراً لينهبوهم، فلحقوهم بالقرب من مكة، فنهبوا كثيراً من أموالهم وجِمالهم، فعادوا إليها مستغيثين به، وأخبروه وسألوه أن يعيد إليهم ما أُخِذ منهم، وشكوا إليه بُعْدَ ديارهم، فلم يُجبْهمْ بما فيه كبير جدْوى، وأعاد بعض ما أُخذ منهم فلما يَئِسُوا منه ساروا من مكة عائدين، على أقبح صفة، فلما بعدوا عنها ظهر عليهم جموع من العرب، في عدة جهات، فضايقوهم على مال أخذوه من الحاج، بعد أن قتل منهم جماعة وافرة، وهلك كثيرة بالضعف والانقطاع، وعاد السالم منهم على أقبح صورة في حالة عجيبة.

سنة سبع وثمانين وأربع مئة: لم يحج أحد من الناس، لاختلاف السلطان، ومات أمير مكة أبو هاشم محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبي هاشم الحسني، فولّى بعده ابنه قاسم، ثم استولى على مكة أصبهبذ بن ساركتين عنوة، وهرب منها الأمير قاسم، فجمع له جمعاً وكبسه بِعُسْفَان، وجرى بينهم قتال، في شوال، وانهزم أصبهبذ، ومضى إلى الشام، وقدم إلى بغداد، ودخل قاسم بن أبي هاشم مكة.

سنة ثمان وثمانين: لم يحج العراقيون.

سنة تسع وثمانين وأربع مئة: كان أمير الحاج خمارتكين الحسباني.

قال صاحب «المرآة»: فيها حكم المنجمون أن يكون طوفان نوح عليه السلام، وكان ببغداد ابن عيشون المنجم فقال: أخطأ المنجمون، طوفان نوح كان قد اجتمع في برج الحوت الكواكب السبعة، والآن فقد اجتمع ستة، وزحل لم يكن معها، ولكني أقول: إنَّ بقعة من البقاع يجتمع فيها عالَمٌ كثيرٌ من بلاد كثيرة فيغرقون، فقيل: ما ثم أكبر من بغداد يجتمع فيها ما لا يجتمع في غيرها وربما كانت هي، فقال ابن عيشون: لا أدري غير ما قلت، فأمر الخليفة بإحكام المسنَّيَات وسدِّ الفروج، وكان

الناس يتوقعون الغرق، فوصل الخبر بأَن الحاج قد نزلوا في واد عند نخلة يُسَمى وادي المناقِب فأَتاهم سيل عظيم فاجتاح جِمالهم وأخذ الرجال والنساء، وما نجا إِلا مَن تعلّق برؤوس الجبال، فخلع الخليفة على ابن عيشون، وأجرى له جراية وأمن الناس من الغرق.

وحجّ القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المالكي.

سنة تسعين وأربع مئة: كان أمير الحاج خمارتكين.

وحجّ الإِمام أَبو حامد الغزاليُّ من الشام ظنًّا، فإِنه كان في سنة ثمان وثمانين ترك الدنيا وتوجّه من بغداد إِلى بيت المقدس، ثم حجّ في هذه السنة وعاد إِلى بغداد، بعد أن سار إِلى خراسان، نقل ذلك العلامة ابن فهد القرشي المكي في تاريخه «إِتحاف الورى».

سنة إحدى واثنتين وتسعين وأربع مئة: حجّ بالناس خمارتكين الحسباني.

سنة ثلاث وتسعين: حجّ بالناس الأَمير البوساس التركي وكان شافعيَّ المذهب.

سنة خمس وتسعين: حجّ بالناس حميد العمريُّ، صاحب سيف الدولة.

سنة ست إلى ثمان وتسعين: حجّ بالنار خمار تكين الحسباني.

سنة تسع وتسعين: حجّ بالناس من العراق رجل من أقارب سيف الدولة.

سنة خمس مئة: حجّ بالناس أمير تركماني من جهة السلطان محمد بن ملك شاه.

سنة إحدى إلى خمس وخمس مئة: حجّ في الأُولى الأَمير قايماز، وفي الأَخيرة نظر الخادم أبو الحسن.

سنة ست وخمس مئة: حجّ بالناس قطز الخادم، ونالهم عطش شديد.

سنة سبع وخمس مئة: حجّ بالنابس زنكي بن سويق أخي البرشقي.

سنة ثمان: حجّ بالناس يمن الخادمُ وشكر الناس حجهم.

سنة عشر وخمس مئة: حجّ بالناس أمير الجيوش يُمْنٌ الخادم الحبشي المستظهري، ودخل مكة وعلى رأسه الأَعلام، وخلفه الكوسات والبوقات، والسيوف في ركابه، وإِنما قصد إِذلال أمير مكة والسودان. قال ابن الجوزي في «المنتظم»: قال ابن عقيل: فحكى لي أمير الجيوش أنه دخل إِلى مكة تَخفق البنود، وتُضْرَب الكوسات ليذل السودان، وأميرهم قال: وحكاه لي متبجحاً بذلك، ذاهلاً عن حرمة

المكان، فسمعته منه متعجباً وشهد قلبي بأَنه آخر أمره، لتعاظم الكعبة عندي، وقلت لما رجعت إلى بيتي: انظر إلى هذا الحبشيِّ، ولم ينهه أحدٌ ممن كان معه من عالِم بالشرع أو السيرة، ذكرت قولهم: خَلأَتِ الْقَصْوَاء فقال رسول الله ﷺ: «بل حبسها حابس الفيل» فلما أعطاهم ما أراد أطلقت ناقته، وقد نُهِيَ في المسجد عن إنشاد الضالة، حتى قيل لصاحبها: لا وَجَدْتَّ! فكيف بحبشِي يجيء بِدَبَادِ بهِ، ويدخلها معظماً لنفسه، فلم يعد إليها وأعقبه الله سبحانه وتعالى النكال والاستئصال. انتهى.

وقال سبطُ بن الجوزي: لا وجه لإنكار ابْنِ عقيلٍ، لأَنَّ النهْيَ إنما هو عند دخولها محارباً، تاركاً لحرمة البيت والحرم، وهذا الحبشيُّ ما دخلها إلاَّ مُعَظِّماً، لأن أَمِيْرها والسودان كانوا عصاةً على بني العباس، لا يرون إمامتهم، ويخطبون لغيرهم، فقصد بذلك الطاعة والإِذعان، لا الهوان والعصيان، وليس في الحكاية أَنه دخل المسجد الحرام الذي فيه كيفية الإجلال والإعظام، وإنما دخل البلد على ذلك الوصف الذي فيه الإرهاب الخاص والعام. قُلْتُ: تَوْجِيْهُ حَسَنْ.

سنة إحدى عشرة وخمس مئة: لم أعلم من خبر الحاج شيئاً.

سنة اثنتي عشرة وخمس مئة: حجّ بالناس الأَمير قطز الحبشيُّ وكان أمير مكة قاسم بن أبي هاشم الحسني، عمر مراكب حربية وشحنها بالمقاتلة، وسيرهم إلى عيذاب، فنهبوا مراكب التجار، وقتلوا جماعة منهم، فحضر مَن سلم منهم إلى باب الأَفضل ابن أمير الجيوش وزير الديار المصرية، وشكوا ما أُخذَ منهم.

سنة ثلاث عشرة وخمس مئة: حجّ بالناس الأَمير قطز الخادم.

سنة أربع عشرة وخمس مئة: منع الأَفضل ابن أمير الجيوش وزير الديار المصرية الناسَ أن يحجُّوا وقطع الميرة عن الحجاز، فغلت الأَسعار، وكان الأَفضل قد كتب إلى الأَشراف بمكة يلومهم على فعل صاحبهم، وضمن كتبه التهديد والوعيد فضاقوا بذلك ذَرْعاً، فكتب الشريف قاسم إلى الأَفضل بِعَوْدِ ما أخذه من التجار إلى أربابه، ومن قتل من التجار ردَّ ماله لورثته، وأعاد الأَموال في السنة التي بعدها.

سنة خمس عشرة وخمس مئة: حَجَّ بالناس قطز الخادم.

سنة ست عشرة: كذلك ولم يحج العراقي على ما حكاه بعض المكيين.

سنة سبع عشرة وخمس مئة: مات أمير مكة قاسم بن أبي هاشم في سابع عشر صفر، وولي بعده ابنه فُلَيْتَةُ، فأَحسن السياسة، وأَسقط المكوس، وأحسن إلى الناس، وسار سيرة حسنة.

سنة ثمان عشرة وخمس مئة: حجّ بالناس إِقبال الشرابيُّ.

سنة تسع عشرة وخمس مئة: حجّ بالناس قطز الخادم.

سنة عشرين وخمس مئة: لم أَعلم عن خبر الحج شيئاً.

سنة إحدى وعشرين: حجّ قطز الخادم.

سنة اثنتين وعشرين: كذلك.

سنة ثلاث وعشرين: حجّ بالناس أحد مماليك برتغش الزَوِي وكان اسمه قجاجق نيابة عن سيده.

سنة أربع وعشرين إلى سبع وعشرين: حجّ بالناس قطز الخادم.

سنة ثمان وعشرين: حجّ بالناس كرمان التركي.

سنة تسع وعشرين: لم يحج أمير، بل حجّ ناس قليل على التجريد.

سنة ثلاثين: لم يحج العراقي.

وقال صاحب «المرآة»: حجّ بالناس قطز الخادم.

سنة إحدى وثلاثين: حجّ بالناس قطز الخادم.

سنة اثنتين وثلاثين: لم يحج العراقيون.

وقال ابن كَثِير: حجّ نظر الخادم.

وفيها كَسَا أبو القاسم رامشت بن الحسين الفارسي - صاحب الرباط المشهور بمكة - الكعبة المعظّمة كسوة حسنة، قُوِّمَتْ بثمانية عشر ألف مثقال، من الذهب مصرية، وقيل بأَربعة آلاف، لما لم يصل إِليها كسوة من جهة الخليفة، لاشتغاله بالحرب الذي كان بينه وبين الملك السلجوقي[1].

سنة ثلاث إلى سبع وثلاثين وخمس مئة: حجّ بالناس قطز الخادم.

ووصل في السنة الأَخيرة إلى مكة تابوت بجنازة الشيخ أبي القاسم بن الحسين الفارسي المعروف برامشت صاحب الرباط، وكانت وفاته في شعبان سنة ست وعشرين، فدفن بالمعلاة، وصحبته خادمه مثقال، ووصل معه ميزاب الكعبة الشريفة، كان عمله في حياته، فركب بالكعبة في سنة سبع وثلاثين.

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [٢٢٨/١٢].

سنة ثمان وتسع وثلاثين وخمس مئة: حجّ بالناس قطز الخادم[١]. وكان بينه وبين أمير مكة هاشم بن فليتة وحشة أفضت إلى نهب أهل مكة للحجاج، وهم في المسجد الحرام، يطوفون ويصلّون، ولم يرقبوا فيهم إلاً ولاَ ذمّةً.

سنة أربعين وخمس مئة: حجّ بالناس قايماز الأرجواني[٢]، مملوك أمير الحاج قطز الخادم، واحتج نظر بأَنَّ بركه ودوابه نهبت في كسرة الحلة وأن بينه وبين أمير مكة من الحروب ما لا يمكنه معه الحج.

سنة إحدى وأربعين: كذلك[٣] وحجّ الوزير نظام الدين بن جهير وكان في الطريق متواضعاً، وعادله أبو نصر الكرخي، وأشرفت المواشي على العطب من قلة العشب، وظهر بالناس انتفاخ الحلق، فمات به خلق كثير، وغارت المياه من الآبار والأنهار.

وفيها حجّ الحافظ أبو الفرج بن الجوزيّ، ومعه أولاده وعياله وهي أولى حجاته.

وقُلع الميزاب الذي عمله رامشت في الكعبة وعوض بميزاب أنفذه الخليفة المقتفي العباسي.

سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة: حجّ بالناس قايماز، ولم يزوروا قبر النبي ﷺ حذراً من قلة الماء في الطريق.

سنة ثلاث وأربعين: حجَّ بالناس قايماز.

سنة أربع وأربعين: كذلك، لأَن قطز الخادم قد سار بالحج إلى الحلة فمرض واشتد مرضه فاستخلف عن الحج قايماز وعاد قطز إلى بغداد مريضاً فتوفي في ذي القعدة، فلما وصل الحاج إلى مكة طمع أمير مكة فيهم، واستزْرَى بقايماز، فطمعت العرب ووقفت في الطريق، وبعثوا يطلبون رسومهم، فقال قايماز للحاج: المصلحة أن تعطوهم ونستكفي شرهم، فامتنع الحاج من ذلك، فقال: فَإِذَنْ لا تزوروا هذه السنة رسول الله ﷺ فاستعانوا عليه وقالوا: نمضي إلى سنجر نشكو منك فسار بهم إلى أن وصلوا إلى مضيق بين مكة والمدينة، خرج عليهم العرب من بني زغب،

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٢/ ٢٣٥].

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٢/ ٢٣٦].

(٣) وقال ابن كثير: إن الذي حجّ هو قطز الخادم. انظر: البداية والنهاية [١٢/ ٢٣٨].

بعد العصر يوم السبت رابع عشر المحرم فقاتلوهم، فكثرت العرب، وظهر عجز قيماز، فطلب لنفسه أَماناً، واستولوا على الحاج، فأَخذوا من الأَموال والجمال والثياب ما لا يُحْصَى، وأخذوا من الدنانير أُلوفاً كثيرة، فتحدّث جماعة من التجار، أنه أُخِذَ من هذا عشرة آلاف، ومن هذا عشرون ألفاً، ومن هذا ثلاثون ألفاً، وأخذوا من خاتون أخت مسعود ما قيمته مئة ألف دينار، وتقطّع الناس، وهربوا على أقدامهم يمشون في البرية فماتوا من الجوع والعطش والعُرْيِ، وقيل: إِنَّ النِّسَاءَ طَيَّنَّ أجسادَهُنَّ لِسَتْرِ الْعورة، وما وصل قايماز إِلى المدينة إِلا في نفر قليل، وتحمّلوا منها إِلى البلاد، وأقام بعضهم مع العرب حتى توصل إِلى البلاد.

سنة خمس وأربعين إلى سنة تسع أربعين: حجّ بالناس قايماز الأرجواني.

ومات أمير الحرمين هاشم بن فليتَة الحسني وولّى بعده ولده.

وفي سنة سبع وأَربعين: وقع بمكة مطر عظيم، سال منه وادي إِبراهيم ونزل بَرَدٌ بقدر البيض وزن مئة درهم.

وفيها: أرسل الوزير الجواد رجلاً من جهته يُقال له إِي زن ومعه خمسة آلاف درهم لعمل صفائح الذهب والفضة في داخل الكعبة وفي أركانها ففعل ذلك.

سنة خمسين وخمس مئة: حجّ بالناس قايماز الأَرجواني، وجدّد الْوزير جمال الدين الجواد صاحب الموصل باب الكعبة الشريفة من ساج، وحلاّه بالفضلا، وطلاه بالذهب، بحيث كان يستوقف الأَبصار لحسن حليته، وكتب عليه اسم الخليفة المقتفي بأَمر الله، وورد أمر الخليفة إِلى أمير الحرمين قاسم بن هاشم أنه يركب على باب الكعبة ويأخذ حلية الباب القديم لنفسه، ويسير إِليه خشبةُ ليجعله تابوتاً يُدفن فيه عند موته، فركب على الكعبة في السنة التي بعد هذه.

وفيها ـ أو في التي بعدها ـ جدّد الوزير أبواب الحرم كلها.

سنة إحدى وخمسين وخمس مئة: حجّ بالناس بالعراق قايماز الأرجواني، ومن الشام نجم الدين أيوب.

وفيها أرسل أمير الحرمين قاسم بن هاشم بن فليتة الفقيه عمارة الشاعر اليمنيّ إِلى الملك الصالح بسبب جناية جناها خدمه على حجاج مصر والشام، وهو لم ينل أَحداً منهم في مكة، فخرج الأَمر من عند الصالح إِلى الوالي بقوص أن يعوق الرسول بقوص، ولا يأْذن له بالرجوع إِلى مكة، ولا القدوم إِلى باب السلطان، حتى يَرُدَّ أمير الحرمين ما أخذه من مال التجار.

وفيها جلب الوزير الماء إلى عرفات وقاطع عليه بني شُعْبَة، سكان تلك الناحية المجلوب منها بقطيعة من المال كثيرة، على أن لا يقطعوا الماء عن الحجاج.

وعمر الوزير الجواد الأصفهانيُّ منارة باب العمرة ـ جزاه الله خيراً ـ.

سنة اثنتين وخمسين: حجّ بالناس قايماز الأرجواني(١).

وفي ربيع الأول سار حجاج خراسان، فلما رحلوا عن بسطام أغار عليهم جمع من الجند الخراسانية، قد قصدوا طبرستان، فأخذوا من أمتعتهم، وقتلوا نفراً منهم، وسلم الباقون، وساروا من موضعهم، فبينما هم سائرون إذْ طلع عليهم الإسماعيلية، فقاتلهم الحجاج قتالاً شديداً، وصبروا صبراً عظيماً، فَقُتِلَ أمِيْرُهم فخذلوا، وألقوا ما بأيديهم، واستسلموا، وطلبوا الأمان، وألقوا أسلحتهم مستسلمين، فلما كان الغد طاف شيخ إسماعيليٌّ في القتلى والجرحى ينادي: يا مسلمين يا حجاج ذهب الملاحدة فأبشروا، وأنا رجل مسلم، فمَن أراد الماء سقيته، فمَن كلّمه قتله، وأجْهز عليه، فهلكوا أجمعين، إلا مَن سلم، وولّى هارباً، وقليل ما هُمْ!!

سنة ثلاث وخمسين: حجّ بالناس قايماز الأرجواني وعاد بالحاج، فلما وصلوا المدينة الشريفة أتاهم الخبر أنَّ العرب قد اجتمعت، وقعدوا على الطريق، يرصدون الحاج ليأْخذوهمْ، فتركوا الطريق وسلكوا طريق خَيْبَرَ، فوجدوا مشقة شديدة ونجوا من العرب.

وفيها حجّ الحافظ أبو الفرج بن الجوزيّ البكري الحنبلي.

سنة أربع وخمسين: حجّ بالناس قايماز الأرجواني(٢).

سنة خمس وخمسين: كان أمير الحاج برغش التركي.

وحجّ أسد الدين شيركوه بن شادي مقدم جيوش نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الرحبة، فتصدّق وفعل كل خير، وأغنى أهل الحرمين، وأمر ببناء رباطه في مدينة النبيّ ﷺ، وأوصى إذا مات أنْ يُحْمَلَ ويدفن فيه.

وحجّ نور الدين علي كوجك، نائب قطب الدين صاحب الموصل، وما فعل خيراً قطُّ، ولا تصدّق بدرهم على كثرة ماله وبلاده.

سنة ست وخمسين وخمس مئة: كان أمير الحاج برغش التركي على حاله.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٢/ ٢٥٤].

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٢/ ٢٥٨].

وحجّ السلطان نور الدين محمود بن زنكي الشهيد، صاحب دمشق وغيرها، وزين الدين علي بن تكتكين صاحب جيش الموصل، ومعه طائفة صالحة من العسكر، ولما سمع أمير مكة قاسم بن هاشم بن فليتة العلوي بقرب الحاج من مكة صادر المجاورين، وأعيان أهل مكة، وأخذ كثيراً من أموالهم، وهرب من مكة، خوفاً من أمير الحاج برغش، فلما وصل أمير الحاج المذكور إلى مكة رتب مكان قاسم بن هاشم بن فليتة عمَّهُ عيسى بن فليتة.

سنة سبع وخمسين: كان أمير الحاج برغش[1].

وكانت فتنة بمكة بين أهلها والحجاج العراقيين، سببها أن جماعة من عَبيد مكة عاثوا في الحاج بِمِنَى، فنفر عليهم أصحاب أمير الحاج برغش فقتلوا منهم جماعة، ورجع مَن سلم إلى مكة، وجمعوا جمعاً، وأغاروا على جمال الحاج وأخذوا منها قريباً من ألف جمل، فنادى أمير الحاج جنده، فركبوا بسلاحهم، فوقع القتال بينهم، فقتل جماعة ونهب جماعة من الحجاج أهل العراق وأهل مكة وجمع أمير الحاج ورجع، ولم يدخل بهم مكة، خوفاً عليهم، فلم يقدروا من الحج إلا على الوقوف بعرفة، ودخل الخادم ومعه الكسوة، فعلقها بأَستار الكعبة، ولم يقم الحاجُّ بالزاهر غير يوم واحد، وعاد كثير من الناس رجالة لقلة الجِمال، فلقوا شدة، ورجع بعضهم قبل إتمام حجه وهم الذين لم يدخلوا مكة يوم النحر للطواف والسعي، ثم إنَّ أمير مكة بعث إلى أمير الحاج يستعطفه ليرجع، فلم يفعل، ثم جاء أهل مكة بخرق الدمٍّ فضربت لهم الطبول ليعلم أنهم قد أطاعوا.

سنة ثمان وخمسين: فيها كان أمير الحاج برغش الكبير المقتفوي.

سنة تسع وخمسين وخمس مئة: كذلك.

وحجّ الناس ورجعوا، ولقوا شدة فانقطع منهم كثير، في فيد والثَّعلَبيَّة وواقصة، وهلك خلق كثر في البرية لتعذر الظهر والزاد، ولم يمضِ الحاج إلى مدينة النبيِّ ﷺ لهذه الأَسباب، ولشدة الغلاء فيها، وعدم ما يقتات ووقع الغلاء والوباء في البادية، فهلك منهم خلق كثير لا يحصون، وهلكت مواشيهم، وكانت الأسعار بمكة غالية جدًّا.

وفيها وصل تابوت فيه الجواد أبو جعفر محمد بن علي أبي منصور الأصفهاني

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٢/٢٦٣].

الموصلي إلى عرفة، فخرج أهل مكة باكين عليه، لما كان يصلهم من كثرة بِرِّه، وطلعوا به الجبل، ثم نزلوا به إلى منى، ونحروا عنه جمالاً، وطافوا به حول البيت، واشتغل الناس بالبكاء والصراخ عليه عن المبيت، ثم حمل إلى المدينة ودُفن بها.

سنة ستين وخمس مئة: حجّ بالناس برغش الكبير[1]، ولقي الحاج شِدَّةً من العرب، ورجعوا على غير الطريق، خوفاً منهم.

وفي اليوم الثاني عشر من ذي القعدة دخل الأَديب فخر الدين بن يوسف العراقي، وكان مجاوراً بمكة على أميرها أبي فُلَيتة، وكان نازلاً بالمربع، فوجد عنده أخاه مالكاً، فتذاكروا الحاجَّ، وتوجههم إلى مكة، فأَنشد الفخر بن يوسف قصيدة أولها:

حَمَلْتَ مِنَ الشَّوْقِ عِبْئاً ثَقِيْلاً ... فَأَوْرَثَ جِسْمِي الْمُعَنَّى نُحُوْلاً
وَصَيَّرَنِي كَلِفاً بِالْغَرَا ... مِ أَنْدُبُ رَبْعاً وأَبْكِي طُلُوْلاً
نَشَدتُّكَمَا اللّهَ يَا صَاحِبَـ ... ـيَّ إِنْ جُزْتُمَا بِلِوَي الطَّلْحِ مِيْلاً
نُسَائِل عَن خِيَم بِالْعِرَا ... قِ هَلْ قُوِّضَتْ أَمْ تَرَاهُمْ حُلُوْلاً

فقال عيسى بن فليتة ـ عند إنشاد هذا البيت: لا ـ إن شاء الله قوّضهت وتوجهت، إن شاء الله، بالسلامة، إلى أن انتهى منها إلى قوله:

كَفَاكُم فَخَاراً بِأَنَّ الْوَصِـ ... ـيَّ جَدُّكُمُ وَالطَّهُوْرَ الْبَتولا
وَحَسْبُكُمُ شَرَفاً فِي الأَنَا ... مِ أَنْ بَعَثَ اللّهُ مِنْكُمْ رَسُوْلاً

سنة إحدى وستين وخمس مئة: فيها كان أمير الحاج برغش الكبير[2]، وأطلق الحاج من غرامة المكس، إكراماً لصاحب عَدَن، عماد الدين أبي موسى عمران بن محمد بن أبي جِمْيَر، نَسَباً الهمداني، فإنه حُمِيل ميتاً في هذه السنة، لكونه كان شغوفاً بالحج، وأُحْضِرَ تابوته في عرفة والمزدلفة، وصُلِّيَ عليه خلف المقام، ودفن بِالْمعْلاة، وكان المتولّي لذلك الأديب أبو بكر بن أحمد الْعَنَدِيُّ، فإنه لما مات السلطانُ طلاه بما شده، ثم احتمله إلى مكة، وهذا من صحة صحبة العنديِّ وحسن وفائِه، ولَمَّا عاد العراقيون عادوا على غير الطريق، خوفاً من العرب ولكنهم لقوا شدة.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٢/٢٦٨].
(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير [١٢/ ٢٧٠].

سنة اثنتين وستين وخمس مئة: فيها لَمْ يَبعِ التجارُ في مكة شيئاً على عادتهم، لأَن حاجّ مصر لم يَأتوا، لاشتغالهم بما حدث عندهم من القتال بين نور الدين وشيركوه، ولما رجع الحاجُ خرج عليهم خفاجة من طريق الْحِلَّة، فقطعوا قطعة من الحجاج، أخذوا أموالهم وقتلوا جماعة.

سنة ثلاث وستين وخمس مئة: كان أمير الحاج برغش، ولم يحج المصريون لما في ملكهم من الوباء والاشتغال بحرب أسد الدين.

سنة خمس وستين وخمس مئة: كان أمير الحاج برغش.

وحصل بين عيسى بن فليتة وأخيه مالك اختلاف في إمرة مكة ولم يحج عيسى في هذه السنة وتخلّف بمكة، وحَجَّ مالك، ووقف بعرفة، وبات الحاج بها إلى الصبح، متخوفين خوفاً شديداً.

سنة ست وستين وخمس مئة: حجّ بالناس طاستكين المستنجدي وهو الأَمير الكبير مجد الدين أبو سعيد المستنجدي، ثم صار لولده المستضيء - أمير ركب العراق عدة سنَوات - يَأتي ذكرها مفصلاً تزيد عن عشرين حجة وولّى الْحِلَّةَ الْمَزْيدِيَّة وتستر، وخوزستان، وكان سمحاً كريماً حسن السيرة، وافر الحشمة، شجاعاً حليماً، وكان شيعياً، وتوفي سنة اثنتين وست مئة، وكان أول ولايته على الركب سنة ست وستين وخمس مئة، وكان قليل الكلام، يمضي عليه الأسبوع ولا يتكلم، استغاث إليه رجل يوماً فلم يكلمه فقال الرجل: الله كلّم موسى فقال: وأنت موسى؟ فقال الرجل: أحمار أَنت؟ فقال طاستكين: لا. قال ابن التعاويذيّ:

وَأَمِيـرٌ عَـلَـى الْـبِـلاَدِ مُـوَلَّـى … لاَ يُجِيبُ الشَّاكِيْ بغَيْرِ السُّكُوتِ
كُـلَّـمَـا زادَ رِفْـعَـةً حَـطَّـنَـا الـلّـهُ … بِـتَـغْـفِـيْـلِـهِ إِلَـى الْـبَـهَـمُـوْتِ

وقام يوماً إلى الوضوء فَحَلَّ حِياصَتَهُ وتركها موضعه، وكانت تساوي خمسة آلاف دينار، فسرقها فراش، وهو يشاهده، فقال (استاداره): اجمعوا الفرّاشين، وهاتوا المَعَاصِر فقال طاستكين: لا تعاقب أَحَداً فإِنَّ الذي أخذها ما يَرُدُّها والَّذِي رآه مَا يَنِمُّ عليه. فلما كان بعد مدة رأى على ذلك الفراش ثياباً جميلة وبزةً ظاهرة فاستدعاه سِرًّا وقال: بحياتي هذا من مالك؟ فخجل. فقال: لا بَأس عليك، فاعترف فلم يعارضه، وكان طاستكين قد جاوز تسعين سنة، فاستأْجر أرضاً، وقفاً مدة ثلاث مئة سنة، على جانب دجلة، ليعرها داراً، وكان في بغداد رجل محدث يحدث في الخلق، يسمى فتيحة، فقال: يا أصحابنا يهنيكم مات ملك الموت!! فقالوا: وكيف ذلك؟ قال

طاستكين عمره تسعون سنة، وقد استأجر أرضاً ثلاث مئة سنة، فلو لم يعلم أن ملك الموت قد مات ما فعل هذا! فتضاحك الناس، وتوفي بتستر، وأمر أن يحمل إلى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويدفن هناك ذكر ذلك صاحب «فوات الوفيات».

سنة سبع وستين وخمس مئة: كذلك.

وكان بمكة غلاءٌ ثم فرج الله عن الناس بوصول جَلْبتين مشحونتين بالحبِّ صدقة من السلطان صلاح الدين بن أيوب.

ومات مالك بن فليتة وهو متوجه إلى الشام من المدينة الشريفة.

سنة ثمان وستين: كذلك.

وخطب بمكة للسلطان محمود بن زنكي صاحب دمشق وغيرها، بعد استيلاء المعظم توران شاه بن أيوب أخي السلطان صلاح الدين بن أيوب على اليمن.

سنة تسع وستين: كذلك.

وكان بمكة غلاء كثير، أكَل الناس فيه الدَّمَ والجلودَ، والعظام، ومات أكثرُ الناس، ثم فرّج الله عنهم بصدقات وصِلاَت من المستضيء العباسي لأهل مكة والمجاورين بها.

ووقع سَيْل عظيم كثيرٌ دخل باب بَنِي شيبة، ودخل دار الإمارة، ولَمْ يُرَ سَيْلٌ قطُّ قبله مثله في دخوله من هذه الجهة.

سنة سبعين وخمس مئة: كان أمير الحاج طاستكين، وتأخر الناس عن الحج، ثم ساروا من الكوفة إلى عرفات في ثمانية عشر يوماً، وهذا شيء لم يسمع قبله بمثله، ووصلوا إلى عرفة في يوم عرفة.

ثم وقع بين الحاج العراقي وأهل مكة قتال يسير بعد الحج بالزاهر، وذلك عند الوداع، قتل فيه من أصحاب أمير الحاج رَجُل، وجُرِح أناس من أهل الحجاز.

ووقع بمكة أمطار كثيرة وسيول، سال فيها وادي إبراهيم خمس مرات.

ومات أمير مكة عيسى بن فليتة بن قاسم الحسني في ثاني شعبان، وعهد بالولاية لابنه داود بن عيسى بن قاسم بن أبي فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم محمد بن الحسن بن محمد بن موسى الجون، فولّى بعده، وأحسن السيرة وعدل في الرعية.

سنة إحدى وسبعين وخمس مئة: خرج خوارج على أمير مكة داود بن عيسى بن فُلَيْتَة، فتوجه إلى وادي نَخْلَة، فتولَّى أخوه مكة عوضه، ولم يتغير أحدٌ عليه بشيءٍ، فلما كان ليلة النصف من شعبان قدم من اليمن إلى مكة شمسُ الدولة بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين، قاصداً بلاد الشام، فاجتمع به الأمير داود، والأمير مُكْثِر، ظاهر مكة بالزاهر فأصلح بينهما.

فلما كان في اليوم السابع من ذي الحجة وصل الخبر إلى مكة الشريفة بأَنَّ أمير الحاج طاشتكين وصل بعسكر كثير وسلاح، وعدد من المنجنيقات والنفَّاطين، وغير ذلك، فجمع أمير مكة الأشراف والعرب على قدر وسعة لضيق الوقت، ولم يحج من مكة إلا قليل، ولم يوفِ أكثرهم المناسك، لأنهم باتوا بعرفة ولم يبيتوا بمزدلفة، ولم ينزلوا مِنَى، ولم يرموا الجمار، وإنما رَمَى بعضهم وهو سائر، ولا بات بها ليلة، ونزل الحاج يوم النحر بالأبطح، فخرج لهم ناس من أهل مكة فحاربوهم في بقية يوم النحر والثاني والثالث، وقوي القتال على أهل مكة، وقتل بين الفريقين جماعة، ثم آل الأمر إلى أَنْ صِيْح في الناس: الغزاة إلى مكة المشرفة، فهجموا عليها، فهرب أمير مكة مكثر، وصعد على الحصن الذي بناه على جبل أبي قبيس، ويقال: إنما بناه والده عيسى، فحاصروه فيه ففارقه، وسار عن مكة ودخل الناس مكة، وأمر أمير الحاج بهدم الحصن المذكور، وقصد قوم لا خلاق لهم النهب من الحاج، فنهبوا كثيراً من الدور التي على أطراف البلد من ناحية المعلاة، وأخذوا من أموال التجار المقيمين بها شيئاً كثيراً، وأحرقوا دوراً كثيرة، ومن أعجب ما جرى أن إنساناً زرّاقاً بالنفط ضرب داراً بقارورة من نفط فاحترقت هي وما فيها، وكانت تلك الدار لأيتام يستغلونها كل سنة إذا جاءَ الحاج، ثم أخرج قارورة أخرى فسوَّاها ليضرب بها فجاءه حَجَرٌ فكسرها فعادت عليه، فاحترق هو بها، وبقي ثلاثة أيام بسفح الجبل، يتعذَّب بالحريق، ورأى بنفسه العجائب ثم مات، وسلمت مكة إلى الأمير قاسم بن مُهَنَّا أمير المدينة وكان صحبة الحاج لأنه كان مسافراً إلى العراق. وأقامت مكة بيد الأمير قاسم ثلاثة أيام فظهر عجزهُ عن إمرة مكة، وقال لأمير الحاج وللحاج: لا أتجاسر أن أقيم بمكة بعد الحج، فسلمت مكة لداود بن عيسى، وأسقط جميع المكوس بمكة ورحل الحاج بعد أن أخذ على داود العهود والمواثيق أن لا يغيِّرَ شيئاً مما عاهد عليه ويقال: إن الخليفة أمر فتاه طاستكين بعزل أمير مكة بسبب بنائه القلعة على جبل أبي قُبيس وإقامة أخيه داود مقامه.

سنة اثنتين وسبعين وخمس مئة: كان أمير الحاج العراقي طاشتكين، وأمير مكة

المشرفة مكثراً، وأبطل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المكس الذي كان يؤخذ من الحجاج في البحر إلى مكة، علىَ طريق عيذاب، وكانت سبعة دنانير ونصف مصرية على كل إنسان، على يد الشيخ علوان بن عبد الله بن علوان الأَسدي الحلبي، وعوّضه عن ذلك نقداً وغلالاً وإقطاعاً بالصعيد، وقد ذكرنا ذلك مستوفىً فيمن حجّ من الأَعيان عند ذكر الشيخ علوان.

سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة: كان أمير الحاج طاستكين، وأمر أَمِيْرُ المؤمنين المستضيء بعمارة الأَميال الخضر بالمسعى المعظّم.

سنة أربع وسبعين: كان أمير الحاج طاستكين، وحَجَّ مَنْ حَجَّ على خَطرٍ، ورجعتْ طائفة فبرز عليهم عربٌ فأَخذوا أكثر الأَموال وقتل جماعة.

سنة خمس وسبعين وخمس مئة: كان أمير الحاج طاستكين.

وحجّ القاضي الفاضل من دمشق، وعاد إلى مصر، فقاسى في الطريق أهوالاً.

سنة ست وسبعين: كان أَمير الحاج طاستكين.

وفُرش الْحِجْرُ ـ بكسر الحاء ـ بالرُّخام بأَمر أمير المؤمنين الناصر لدين الله العباسي.

سنة سبع وسبعين: كان أمير الحاج طاستكين.

سنة ثمان وسبعين: كذلك، ونَحَرَ رَجُلَيْنِ مِنَ الفرنج، بِمِنى كما تُنْحَرُ الْبُدْنُ، وهما من الذين توجّهوا إلى المدينة النبوية.

سنة تسع وسبعين وخمس مئة: وصل أمير الحاج طاستكين في ليلة الجمعة ثامن الحجة إلى عرفات، ومعه حاجٌّ لم يصل قطُّ مثله من أُمراء العجم الخراسانية، ومن النساء العقائل المعروفات بالخواتين ثلاث: إحداهن ابنة الأَمير مسعود، والثانية أُمُّ معز الدين صاحب الموصل، زوج يانك أخي نور الدين، والثالثة ابنة الدقوسي صاحب أصبهان، من بلاد خراسان، ومن الستَّات بنات الأُمراء، ومن سائر الأَعاجم فضربوا أبنيتهم مما يلي الجانب الأَيمن من جبل الرحمة، في استقبال الليل، فأَصبح يوم الجمعة في عرفات جمعٌ لا شبيه له إلاّ المحشر، وزعم الكبار من أهل مكة والمجاورين أنهم لم يُعاينوا قطُّ في عرفات جمعاً أحفل منه، وحجّ في هذه السنة جمع كثير من التتر واليمانيين، ولما كان يوم الخميس ثامن ذي الحجة بكّر الناس من مكة بالصعود إلى منى، وغدوا منها إلى عرفات، وتركوا المبيت بها لخوف الأَعراب المغيرين على الحاج في طريقهم إلى عرفات، واجتهد الأَمير عثمان الزنجبيليُّ،

صاحب عدن القادم بَحْراً في حفظ الحاج، اجتهاداً يبقى له به المغفرة لجميع خطاياه.

ووقع في الثالث عشر من ذي الحجة بين سودان أهل مكة وبين الأَتراك العراقيين جفلة وهوشة، وقعتْ فيها جراحات وسُلَّتِ السيوف، وفُوِّقَتِ الْقِسِيُّ، ورُمِيَتِ السهام، وانْتُهِبَتْ بعضُ أمتعة التجار، ثم سكنت الهوشة سريعاً.

سنة ثمانين وخمس مئة: حجّ بالناس طاستكين.

سنة إحدى وثمانين: كذلك.

ومات في الكعبة الشريفة من الزِّحام أربعة وثلاثون نفساً.

وفي رمضان قدم مكة الملكُ العزيزُ سيف الإِسلام طغتكين بن أيوب، صاحب اليمن، فاستولى عليها، وخَطب بها لأَخيه صلاح الدين بن أيوب، وضرب الدنانير والدراهم باسم أخيه، وقتل جماعة من العبيد الذين كانوا يؤذون الناس وشرط على الباقي منهم أن لا يؤذوا الحاج، ومنعَ الزَّيدية من الأَذان في الحرم بـ(حيَّ على خير العمل) وعمل أعمالاً حسنة ـ جزاه الله خيراً ـ.

سنة اثنتين وثمانين: حجّ بالناس طاستكين.

سنة ثلاث وثمانين: كذلك.

ووقعت فتنة في يوم عرفة بين العراقيين والشاميين، وكان قد اجتمع في هذه السنة حاج عظيم بالشام، من بلاد العراق والموصل والجزيرة وخلاط، وبلاد مصر، وغيرها ليجمعوا بين زيارة القدس ومكة، وكان الأَمير عليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك بن محمد المعروف بابن المقدم، أحد أكابر الأُمراء الصلاحية، فساروا حتى وصلوا إِلى عرفات سالمين، فلما كان عشية عرفة ضرب كُوْسَاتِه، ورفع علم السلطان صلاح الدين، فأَرسل إِليه أمير الحاج العراقي طاستكين ينهاه عن الإِفاضة من عرفات قبله، ويأْمره بكف أَصْحابه عن ضرب كوساته، وقال له: هذا موضع لا يُرفع فيه إِلا علم الخليفة. فقال المقدم: السلطان مملوك أمير المؤمنين، ونحْن مماليك السلطان، وليس لك معي تَعَلُّقٌ، أنت أمير الحاج العراقي، وأنا أمير الحاج الشاميّ، وأطلع العلم، وسار ولم يقف.

فلما رأى طاستكين إِصراره على المخالفة ركب في أصحابه وأجناده، وتبعه خلق كثير من غوغاء الحاج وبَطَّالتهم، وقصدوا حاج الشامِي مُهَوِّلِين عليه، فلما قربوا منه ركب ابن المقدم أيضاً بمَن معه من الشاميين، فالتقوا واقتتلوا، وقتل من الفريقين جماعة، وخرج الأَمر عن الضبط، وعجزوا عن تلافيه، فهجم طمَّاعَةُ العراقيين على

حجاج الشام، وقتلوا منهم جماعةً، ونُهِبَتْ أموالهم، وسبيت جماعة من نسائهم، إلا أنهن رُدِدْنَ عليهم، وجرح ابنُ المقدم عدة جراحات، وكان يكف أصحابه عن القتال، ولو أذن لهم لانتصف فيهم وزاد، لكنه راقب الله تعالى، وحرمه المكان واليوم، وأُثْخِن بالجراحة، وأصابه سهم في عينه فخرّ صريعاً، فأخذه طاستكين إلى خيمته، وأنزله عنده ليمرضه، ويستدرك الفارط في حقه، وسار تلك الليلة من عرفات، فلما كان يوم عيد الله الأكبر مات ابن المقدم بمنى، وصُلِّي عليه بمسجد الخَيف، وحمل إلى المعلاة، ودُفن بها، ورُزق الشهادة بعد الجهاد، وشهود فتح البيت المقدس - رحمة الله عليه - وأخذ طاستكين شهادة الأعيان أنَّ الذنب لابن المقدم، وقُرِئَ المحضر في الديوان، وأقام الحاج الشاميُّ بمنى على أَسْوَءِ حال.

سنة أربع وثمانين: حج طاستكين.

سنة خمس وثمانين وخمس مئة وما بعدها: كذلك.

وفي هذه السنة أخذ أمير مكة داود بن عيسى بن فُليتة ما في الكعبة من الأموال، وطوقاً كان يمسك الْحَجَر الأَسْود لِتَشَعُّثِهِ لما ضربه الباطنيُّ، بعد الأربع مئة بالدَّبُوس، فلما قدم الركب عزله أمير الحاج، وولّى أَخَاه مُكْثِراً، وذهب داود إلى نَخْلَةَ، وأقام بها إلى أن مات.

سنة سبع وثمانين: حج طاستكين.

سنة ثمان وثمانين: كان أمير الحاج فلك الدين إيليا. وحجّ بالناس من الشام دنانير الكردي.

سنة تسع وثمانين وخمس مئة: حجّ بالناس سنجر مملوك الخليفة ووقف دهمش للحاج وسلم.

سنة تسعين وخمس مئة: حجّ بالناس سنقر الكبير الناصري.

ووقع بمكة أمطار كثيرة وسيول سال منها وادي إبراهيم خمس مرات.

سنة إحدى وتسعين وخمس مئة: حجّ بالناس سنجر الناصري.

سنة اثنتين وتسعين: حجّ بالناس قرا مملوك طاستكين، ومن مصر الشريف إسماعيل بن تغلب الجعفري الطالبي، وبعد خروج الحاج من مكة هبت ريح سوداء عَمَّتِ الدنيا ووقع على الناس رمل أحمر، ووقع من الركن اليماني قطعة، وتجرّد البيت الحرام مراراً.

سنة ثلاث وتسعين وخمس مئة: حجّ بالناس شمس الدين إصكيه.

سنة أربع وتسعين وخمس مئة: حجّ بالناس أيضاً.

وعَمر ابنُ المظَفَّرِ صاحب إربل عين عرفة، والبرك التي فيها وكان نائبه في ذلك الشيخ أبو العباس الخضر بن علي الإربلي.

سنة خمس وتسعين وخمس مئة: حجّ بالناس من العراق سنقر الناصري، ويُعرف بوجه السبع، وعمر الناصر العباسي مولد النبي ﷺ.

سنة سبع وتسعين وخمس مئة: حجّ بالناس الأَمير مجير الدين طاستكين المستنجدي.

وفي هذه السنة انقرضت دولة الهواشم بنو فليتة في انهماكهم على اللهو، وإعراضهم عَمَّنْ يريد مكة بسوء، اغترارا منهم بما هم فيه من العز، والعسف لمَن عارضهم، وإن كان ظلماً أو غيره، فتوحش لذلك خواطر جماعة من قوادهم، فلما عرف ذلك الشريف قتادة أبو عزيز بن إدْريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن سليمان بن عبد الله أبي الكرم، بن موسى الجون بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه استمالهم إليه، وسأَلهم المساعدة على استيلائه على مكة، وتجهز إلى مكة في جماعة من قومه، فما شعر به هل مكة إلاَّ وهو بها معهم، وولاتُها على ما هم فيه من الانهماك في اللهو، فلم يكن لهم بمقاومته طاقة، فملكها دونهم وقال ابن محفوظ: إنه لم يأت إليها بنفسه في ابتداء ملكه لها، وإنما أرسل إليها ابنَه حنظلة، فملكها، وخرج منها مُكْثِرُ بن عيسى بن فُلَيْتَة، إلى نخلة، فأَقام بها إلى أن مات ـ رحمه الله تعالى ـ.

سنة ثمان وتسعين وخمس مئة: حجّ بالناس طاستكين.

وقال صاحب «المرآة»: حجّ بالناس وجه السبع.

سنة تسع وتسعين وخمس مئة: حجّ بالناس طاستكين المستنجدي.

وفي هذه السنة من أول رجب إلى شهر رمضان حلَّ الوباء بالطائف، حتى ما بقي فيها ساكن، وكان الطاعون الذي نزل بهم، ظهرت علامته في أبدانهم، لا يتجاوزون خمسة أيام، ومَن جاوزها لم يهلك، وامتلأَت مكة بأَهل الطائف، وبقيت ديارهم مفتَّحة، وأَقمشتهم مطروحة، ودوابهم في مراعيها. وكان العرب في تلك المدة إذا مَرَّ بأَرضهم وتناول شيئاً من أمتعتهم، أصابه الطاعون من ساعته، وإذا مَرَّ ولم يأْخذ شَيْئاً سَلِم من ذلك، فحمى الله أموالهم في تلك المدة لمن بقي منهم ولمن

دونهم، وتابوا إلى الله، وفي تلك السنة وَرَّثُوا البناتِ، وكانوا من قبل لا يورثونهن، ولما نجاهم الله من ذلك الطاعون عادُوا إلى ما كانوا عليه من الإدبار.

سنة ست مئة: حجّ بالناس الأَمير مجير الدين طاستكين المستنجدي.

سنة إحدى وست مئة: حجّ بالناس سنقر الناصري، المعروف بوجه السبع.

وفيها زحف أبو عُزَيِّز قتادة من مكة، وحاصر صاحب المدينة سالم بن قاسم الحسيني، فأَلحَّ في حصاره، ثم إن سالم قصد الحجرة النبوية فصلّى عندها ودعا، وسار فلقيه فانهزم قتادة، وجاء المدد لسالم من بني لام، فاتبعه سالم وانتشب الحرب بينهما ببدر، وقيل بذي الحُليفة، وهلك كثير من الفريقين، وانهزم أبو عزيز، وَأَخذ سالمٌ سليمانَ بن عبد المحسن التميمي الدرامي وزير قتادة، وكان سليمان أسود اللون، ضخم الجسم، قبيح الصورة، فلما حضر سليمانُ بين يدَي سالم قال سالم لسليمان: مَن كان دَبَّرَ رأيه مَنْ هذه صورته فيجب على خصمه أنْ لا يُمسكه عنه متى حصل في يده، فاذهب إلى صاحبك، فقال سليمان لسالم: ضاع الشكر أيها الأَمير بحسن المبادرة، فقال سالم: وتَوْرِيَتُك أحسن منها. ثم أحسن سالم لسليمان وخلّى سبيله. فلما عاد سليمان إلى الشريف أبي عزيز فسأَله: ما كان من فضل سَالم معكم؟ فقال له سليمان: يا أمير!! الفاطميون يحسنون إلى الناس ويُسِيءُ بعضهم إلى بعض، فطرب أبو عزيز لذلك لما سمعه.

سنة اثنتين وست مئة: كذلك.

سنة ثلاث وست مئة: كذلك.

[كان أمير الحاج مظفر الدين سنقر، المعروف بوجه السبع مملوك الخليفة].

وفي عوده فارق الحاج من موضع يقال له المرجوم، ومضى في طائفة من أصحابه إلى الشام، وسار الحاج ومعهم الجند، فوصلوا سالمين، وأميرهم مجاهد الدين ياقوت الرومي الناصري، ووصل سنقر إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فأَقطعه أقطاعاً كثيرة، وأقام عنده إلى أن عاد إلى بغداد في جمادى الأُولى سنة أربع وست مئة لما قبض على الوزير وأمن على نفسه، وأرسل يطلب العود، فأُجيب إليه فلما وصل أكرمه الخليفة وأقطعه الكوفة.

سنة أربع وست مئة: حجّ بالناس ياقوت الرومي الناصري.

سنة خمس وست مئة: كذلك وأَنشأَ الأَعلام الثلاثة التي هي بين منتهى أرض عَرَفَةَ وعُرَنَةَ المظفر ككبري بن علي بن كوكبري، صاحب إربل، وعَمَرَ بِئْرَيْن بعرفة لا

ماء فيهما الآن والموضع الذي يقال له المنتهى بطريق التنعيم، مع إصلاح العقبة به.

سنة ست وست مئة: حجّ بالناس ياقوت النصاري، ونهب الحاج اليماني، وقتل صاحبُ مكة السيد قتادةُ الحسني إِمَامَ الحنفية وإِمامَ الشافعية بها.

سنة سبع وست مئة: حجّ بالناس محمد ولد الأَمير مجاهد الدين ياقوت أمير الحاج، وكان أبوه قد ولاه الخليفة خوزستان، وجعله هو أمير الحاج، ومعه ابن أبي فِراس الحلّي لأَنه كان صبياً. وكانت بمنى وقعة بين الحاج العراقي وأهل مكة قتل فيها عبدٌ للشريف قتادة يسمى بلالاً، وهذه السنة تُعرف عند العرب بسنة بلال.

وكان مجاوراً بمكة ابن النجّار، وقرأ على إِمام الحنابلة نصر بن محمد الحصري كثيراً.

سنة ثمان وست مئة: حجّ بالناس من العراق علاء الدين محمد بن ياقوت الناصري وهو صبي نيابة عن أبيه كما قدمنا، ومعه الحسين بن أبي فراس يدبره، وكان أمير الحاج الشامي الصمصام إِسماعيل أخو مياروح النجمي، وأمير حاج القدس الشجاع علي بن سلار، وكانت ربيعة خاتون أخت الملك العادل في الحج، فلما كان يوم النحر بعد رمي الناس الجمرة وقع بمنى ومكة فتنة عظيمة، قتل فيها الحاج العراقيون، ونهبوا نهباً ذريعاً، وكان معظم الفتنة بمنى، وسببها أنَّ بعض الإِسماعيلية من أهل العراق ويسمى الحسيني وثب على رجل شريف، من بني عَمِّ الشريف قتادة، يسمى هارون، وكنيته أبو عزيز، وهو يشبه قتادة صاحب مكة، وظنه إِياه، فقتله عند الجمرة، ويقال: إِنَّ الذي قتله كان مع أم جلال الدين، فلما سمع قتادة بذلك قال: ما كان المقصود إِلا أنا، والله لا أبقيتُ من حاج العراق أحداً، واتهم أمير الركب بذلك، فجمع الأَشراف والعرب والعبيد وأهلَ مكة، وقصدوا الحاج، وصعدوا على الجبلين بمنى، وهلّلوا وكبّروا، وضربوا الناس بالحجارة والنبل والنُّشّاب والمقاليع، فقيل بعض الأَعيان، وخلق كثير من الفريقين، وقتل الحسيني القاتل، ونهب من الحاج مَن كان في الأَطراف يوم العيد وليلته واليوم الثاني، وفعل بمَن كان من الحاج بمكة ما فعل بهم بمنى، وبات الحاج بأَسوإِ حال من شدة الخوف ومن القتل والنهب، فقال ابن أبي فراس لمحمد بن ياقوت: ارحلوا بنا إِلى منزلة حجاج الشام، فأَمر الناس بالرحيل، فرفعوا أثقالهم على الجِمال واشتغلوا بذلك، فطمع العدو فيهم، وتمكّن من النهب كيف ما أراد، وكانت الجِمال تؤخذ بأَحمالها، ونهب الحاج من آخره ولم يسلم منه إِلا القليل، والتحق مَن سلم بحجاج الشام، وجاء محمد بن

ياقوت أمير الحاج العراقي، فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيراً بها، ومعه خاتون أم جلال الدين، ثم رحلوا إلى الزاهر، ومنعوا من دخول مكة، فبعثتْ ربيعة خاتون مع ابن السلاَّر إلى قتادة تقول له: ما ذنب الناس؟ قد قتلت القاتل، وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين، واستحللت الدماء والأَموال في الشهر الحرام في الحرم. وقد عرفت مَن جَنَى، والله لئن لم تَنْتَهِ لأَفْعلنَّ ولأفعلن. فجاء إليه ابن السلار فحذّره وهدّده وقال: ارجع عن هذا وإلا قصدك الخليفة من العراق ونحن من الشام، فكفّ عنهم، وطلب منهم مئة ألف دينار، فجمعوا له ثلاثين ألفاً من أمير الحاج العراقي ومن خاتون أم جلال الدين، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين قتيل وجريح ومسلوب وجائع وعريان، وقال قتادة: ما فعل هذا إلا الخليفة، ولئن عاد يقرب أحد من بغداد إلى هنا لأقتلن الجميع، ويقال: إنه أخذ من المال والمتاع وحده ما قيمته ألف ألف دينار، وأذن للناس في الدخول إلى مكة، فدخل الأَصِحَّاءُ والأَقوياء فطافوا وأيَّ طواف!! وتمموا حجّهم، ومعظم الناس ما دخلوا ورحلوا إلى المدينة، ودخل حاج بغداد على غاية الفقر والذل والهوان، ولم ينتطح فيها عنزان!!

سنة تسع وست مئة: حجّ بالناس حسام الدين بن أبي فراس، نيابة عن محمد بن ياقوت أمير الحاج، لصغر سنه، ووصل مع الركب العراقي من الخليفة الناصر إلى الشريف أبي عزيز قتادة مال وخلع، وكسوة البيت الشريف على العادة، ولم يظهر الخليفة إنكاراً على ما تقدم من نهب الحاج، وجعل أمير الركب حسام الدين يستدرجه ويخادعه بأنه لم يحصل عند الديوان العزيز إلا أنَّ الأَشراف وأتباعهم نهبوا أطراف الحاج، ولولا تلافيك أمرهم لكان الاصطلام: ويقول لك مولانا الوزير: ليس تمام الخدمة الإمامية إلا بتقبيل العتبة العلية، ولا عزَّ الدنيا والآخرة إلا بنيل هذه الرتبة، فقال له قتادة: انظر في ذلك، ثم تسمع الجواب. واجتمع ببني عمه الأَشراف، وعرفهم أنَّ ذلك استدراج له ولهم حتى يتمكن من الجميع، وقال: يا بني الزهراء عزكم إلى آخر الدهر مجاورة هذه البنيَّة، والاجتماع في مصالحها، واعتمدوا بعد اليوم أن تعاملوا هؤلاء القوم بالشر، يوهنوكم من طريق الدنيا والآخرة، ولا يرغِّبوكم بالأَموال والعدد، وإنَّ الله قد عصمكم وعصم أرضكم بانقطاعها، وأنها لا تدرك إلا بشق الأَنْفُس. ثم غَدا أبو عزيز قتادة إلى أمير الركب الركب وقال له: اسمع الجواب، ثم أنشد ما قاله من ذلك شعراً:

بِـلاَدِيْ وَإِنْ هَـانَـتْ عَـلَـيَّ عَـزِيْـزَةٌ وَلَـوْ أَنَّـنِـي أَعْـرَى بِـهَـا وَأَجُـوْعُ
وَلِـي كفُّ ضِـرْغَـامٍ أَصُـوْلُ بِـبَـطْـشِـهَـا وَأَشْـرِيْ بِـهَـا بَـيْـنَ الْـوَرَى وَأَبِـيْـعُ

تَـظَـلُّ مُـلُـوكُ الأَرْضِ تَـلْـثِـمُ ظَـهْـرَهَـا وَفِـي بَـطْـنِـهَـا لِـلْـمُـجْـدِبِـيْـنَ رَبِـيْـعُ
أَأَجْـعَـلُـهـا تَـحْـتَ الـثَّـرَى ثُـمَّ أَبْـتَـغِـي خَـلاَصـاً لَـهَـا؟ إِنِّـي إِذَنْ لَـوَضِـيْـعُ
وَمَـا أَنـا إِلاَّ الْـمِـسْـكُ فِـي كُـلِّ بَـلْـدَة أَضُـوْعُ، وَأَمَّـا عِـنْـدَكُـمْ فَـأَضِـيْـعُ

فقال له أمير الركب: يا شريف أنت ابن بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام، والخليفة ابن عمك، وأنا مملوك تركيٌّ، لا أعلم من الأُمور التي في الكتب ما علمت، ولكنني قد رأيتُ أنَّ هذا من شرِّ العرب الذين يسكنون البوادي وقُطَّاع الطريق ومُخِيفي السبيل، حاشا لله أن أحمل هذه الأبيات عنك إلى الديوان، فأكون قد أحدثت على ابنِ بنت نَبِيِّ الله ﷺ ما أُلْعَنُ عليه في الدنيا والآخرة، وأُحْرَقُ بسببه في الآخرة، والله لو بلغ هذا إليه لجعل جميع الوجوه إليك حتى يفرغ منك، وما لهذا من ضرورة، إنه قد خطر لك أنهم استدرجوك وإنك لا تسير إليهم فقل قولاً حميداً، وإن كان فعلك ما قد علمت. فأَصغى إليه أبو عزيز قتادة، وعلم أنه رجل عاقل ناصح، ساع بخير لمرسله وللمسلمين، فقال له: كثَّر الله في المسلمين مثلك، فما الرأي عندك؟ فقال له: أن تُرسل من أولادك مَن لا تهتم إذا جرى عليه ما تتوقعه، ومعاذ الله أن يجري إلا ما تحبه، وترسل معه جماعة من ذوي الأَنساب والهيئات من الشرف، فيدخلون مدينة السلام بأيديهم أكفانهم، وسيوفهم مسلولة، ويقبِّلون العتبة، ويتوسلون برسول الله عليه الصلاة والسلام، وبِصَفح أمير المؤمنين، وسترى ما يكون لك من الخير من أمير المؤمنين ومن الناس. والله لئن لم تفعل هذا لتركبنَّ الإِثْمَ العظم، ويكون ما لا يخفى عليك. فشكره ووجه صحبته ولده وأشياخ الشرفاء، ودخلوا بغداد على تلك الهيئة التي رتبهم فيها، وهم يصيحون ويبكون ويتضرّعون والناس يبكون لبكائهم، واجتمع الخلق كأنه المحشر، ومالوا إلى باب النوبي من أبواب المدينة للخليفة، فقبلوا هناك العتبة، وبلغ الخبر الناصر، فعفا عنهم وعن مَن أرسلهم، وأُنزلوا في الديار الواسعة، وأُكرِموا الكرامة التي ظهرت واشتهرت، وعادوا إلى أبي عزيز قتادة بما أحب، وكان بعد ذلك يقول: لعن الله أَوَّل رَأْيٍ عند الغضب، ولا أعدمنا عاقلاً ناصحاً ويقال: إن قتادة أرسل إلى الخليفة ولده راجح بن قتادة، في طلب العفو بأَثر الفتنة، هكذا ذكر ابن الأَثير وابنُ محفوظ. وقيل: إن الخليفة كتب إلى قتادة يستدعيه ويقول له: أَنْتَ ابنُ العم، والصَّاحِبُ وقد بلغني شهامتك وحفظك للحاج، وشرف نفسك، وعفتك ونزاهتك، وأُحِبُّ أني أَراك، وأشاهدك، وأُحسن إليك. فكتب إليه الأَبيات الأَربعة المتقدمة. والله أعلم.

سنة عشرة وست مئة: حجّ بالناس أبو فراس بن جعفر بن أبي فراس الحلّيُّ نيابة عن أمير الحاج محمد بن ياقوت أمير الحاج، [ومنع ابن ياقوت من الحجّ] لصغره، ولما جرى على الحاج في ولايته.

وفيها جاء أبو الحسن علي بن مظفر بن علي الشهير بابن الحسين الهيتي لمشيخة الحرم ولم يزل متوليها إلى أن مات في سنة خمس وعشرين.

سنة إحدى عشرة وست مئة: حجّ بالناس أبو فراس نيابة عن محمد بن ياقوت، وعادوا سالمين شاكرين.

وحجّ المعظم عيسى بن العادل بن أيوب صاحب دمشق، والتقاه أبو عزيز قتادة أمير مكة.

سنة اثنتي عشرة وست مئة: حجّ بالناس أبو فراس أيضاً.

سنة ثلاث عشرة وست مئة: حجّ أبو فراس على حاله.

سنة أربع عشرة وست مئة: كذلك. وعلا سعر الحبِّ بمكة مدة شهرين، فبِيْعَ كل ربع مُد بدينار ذهب، وتعرف هذه السنة بسنة أم لحم.

سنة خمس عشرة وست مئة: حجّ بالناس الأَمير (الدوادار) نور الدين أقباش الناصري.

سنة ست عشرة: كذلك.

سنة سبع عشرة وست مئة: كذلك، ووصل معه بتقليد وخلعة للشريف حسن بن قتادة بإمرة مكة عوضاً عن أبيه لوفاته، وقيل: قتله ولده حسن، وحارب أخاه راجحاً، فأَقام عند العرب بظاهر مكة يُفسد وينازع أخاه في ملك مكة. فلما كان في أيام الموسم تعرّض راجح لقطع الطريق بين مكة وعرفة، فمسكه أمير الحاج العراقي أقباش الناصري، وأقام معه تحت الحوطة، فأَرسل إليه صاحب مكة يقول: سلمه لي وأسلّمُ إليك ما لا جزيلاً، فاتفقا على ذلك، ثم إنَّ راجحاً قال للأَمير: أنا أدفع إليك أكثر مما دفع إليك وسلّم لي مكة، فأَجابه إلى ذلك، وعزم أقباش على دخول مكة ويسلمها لراجح، فمنعه حسن من دخوله مكة وأغلق أبوابها، فنزلوا الزاهر، فتقدّم أقباش إلى مكة مقاتلاً لصاحبها حسن، وكان حسن قد جمع جموعاً كثيرة من العرب وغيرهم، فخرج إليه حسن من مكة وقاتله، وتقدّم أمير الحاج من عسكره منفرداً وصعد جبل الحبشي إذْلالاً بنفسه، وأنه لا يقدم عليه أحد، وأحاط به العرب أصحاب الحسن فقتلوه في يوم الأَربعاء خامس عشر ذي الحجة، وحملوا رأسه إلى حسن،

ونصبوه على رمح بالمسعى عند دار العباس، ثم دُفن بقية جسده في المعلاة، وانهزم عسكر أمير الحاج بعد قتله، وأحاط أصحاب حسن بالحاج لينهبوهم، فأَرسل إِليهم حسن عمامته أماناً للحاج، فعاد أصحابه عنهم، ولم ينهبوا منهم أحداً وسكن الناس، وأَذِنَ لهم حسن في دخول مكة، وفِعْلِ ما يريدونه من المناسك والبيع والشراءِ وغير ذلك بعد أن كان أراد نهبهم، فمنعه أمير الحاج الشامي المبارز المعتمد والي دمشق، وخوّفه من الأَخوين الكامل صاحب مصر، والمعظم صاحب دمشق، فأَجابَ، وكفّ عن ذلك، وهرب راجح إِلى جهة اليمن، ثم توجه إِلى المسعود ملك اليمن، وأقام الحاج بمكة عشرة أيام، وعادوا مع الركب الشامي، فوصلوا العراق سالمين، وعظم الأَمر على الخليفة، وحزن على أقباش حزناً عظيماً، ولم يخرج في الموكب للقاء الحاج على العادة، ووصلت رسل الحسن بن قتادة يعتذر، ويطلب العفو منه فأُجيب إِلى ذلك.

وفي تلك السنة مات جماعة من الحجاج في المسعى من الزحام، نقله أبو شامة في «ذيل الروضتين».

سنة ثمان عشرة وست مئة: حجّ بالناس من العراق حسام الدين أبو فراس بن جعفر بن أبي فرأس، ولم يحج أحد من بلاد الأَعاجم ولا من همذان ولا من أصبهان لخوف الطريق من انتشار الكفرة في البلاد وما يليها، وكان أمير الحاج الشامي كريم الدين الخلاطي، وحضر الملك المسعود من اليمن إِلى مكة، ومنع أعلام الخليفة من الصعود إِلى عرفات، ومنع حاج العراق من الدخول لمكة يوماً واحداً، ثم بعد ذلك لبس خلعة الخليفة واتفق الأَمر، وفتح باب مكة، وحجّت الناس وطابت قلوبهم.

سنة تسع عشرة وست مئة: كان أمير الحاج العراقي ابن أبي فراس، ودخل إِلى مكة الملك المسعود يوسف بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، في شهر ربيع الأَول، وقاتل صاحبها الشريف حسن بن قتادة، فانهزم حسن وفارق مكة، فنهبها عسكر المسعود إِلى العصر وسفكوا الدماء، ثم صاح المسعود بالأَمان لهم، وردّ على أهل الحجاز جميع أموالهم ونخلهم وما كان أخذ من الوادي ومكة من الدور استناب على مكة الأَمير نور الدين عمر بن علي ابن رسول، ومات بالمسعى جماعةٌ من الزحام لكثرة الخلق الذين حَجُّوا في هذه السنة من العراق والشام.

سنة عشرين وست مئة: حجّ بالناس ابن أبي فراس، وحجّ الملك الجواد

والملك الكامل من ديار مصر وتأدباً مع أمير الركب العراقي، وقدَّمَا علم الخليفة على علم الملك الكامل في طلوع الجبل.

سنة إحدى وعشرين: حجّ بالناس ابنُ أبي فراس الحلي.

وفي هذه السنة أخذ غُزُّ مصر يَنْبُعَ مِنَ الأَشْراف، وكان الْغُزُّ اشتروا القلعة من الأَشراف بأَربعة آلاف مثقال، وامتنع الأَشراف من تسليمها فأَخذوها قهراً، وأقاموا لهم فيها نائباً، ولم تزل تحت أيديهم إلى سنة ثلاثين وست مئة.

سنة اثنتين وعشرين وست مئة: كان أمير الحاج العراقي حسام الدين بن أبي فراس الحلي الكردي، وهو ابن أخي الشيخ وَرَّام، وكان عَمُّه من الصالحين الأَخيار، من أهل الحلة السيفية فهرب أمير الحاج، وفارقهم من مكة والمدينة، وسار إلى مصر، وحمله على ذلك المضايقة وكثرة الحرج في الطريق، وعدم ما يدخل إليه، ولما فارق الحاج خافوا خوفاً شديداً فأَمَّنَ الله تعالى خوفهم، ولم يذعرهم ذاعر في جميع الطريق، ودخلوا مكة آمنين، إلاَّ أنَّ كثيراً من الجمال هلكت بِغُدَّةٍ وقعت فيهم، ولم يسلم منها إلا القليل.

سنة ثلاث وعشرين: لم أخبر فيها من خبر الحاج شيئاً.

وفي هذه السنة توجه المسعود من مكة على طريق عيذاب إلى مصر، زائراً والده، فامتدحه البهاءُ زهير كاتبُ أخيه الصالح بقصيدة مطلعها:

لَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ مَكَانٌ وَإِمْكَانُ ... وَمُلْكٌ له تَعْنُو الْمُلُوْكُ وسُلطان

ومنها:

ضَرَبتمْ مِنَ الْعِزِّ الْمَنِيْعِ سُرَادِقاً ... فَأَنْتُمْ لَه بَيْنَ السِّمَاكَيْنِ سُكَّان

قَدِمْتَ قُدُوْمَ اللَّيْثِ واللَّيْثُ بَاسِلٌ ... وَجِئْتَ مَجِيْءَ الْغَيْثِ والْغَيْثُ هَتَّانُ

ومَا بَرِحَتْ مِصْرٌ إِلَيْكَ مَشُوْقَةٌ ... وَمِثْلُكَ مَنْ يَشْتَاقُ لُقْيَاكَ بُلْدان

ومنها:

فحَسْبُك قَدْ وَافَاكِ يا مِصْرَ يُوْسُفٌ ... وَحسْبُكِ قَدْ وَافاكِ مَا قيْلِ طُوْفَانُ

وفي هذه السنة وصل حسن بن قتادة إلى بغداد، فهمَّ أهل بغداد بقتله قوداً بأقباش الناصريّ الذي قتله أصحاب حسن بمكة في سنة سبع عشرة، فعاجلت المنيَّةُ حسَن بن قتادة قبل قتلهم، في الجانب الغربي، على دكة، فلما عُلم به غُسّل وجُهِّز وصُلّيَ عليه، وحُمل إلى مشهد موسى عليه السلام فدُفن هناك.

سنة أربع وعشرين: حجّ بالناس شمس الدين قيران مملوك الخليفة، وحجّ من مَيَّافَارِقِين فخرُ الدين غازي بن العادل بن أيوب. وقال صاحب «المرآة»: وحجَّ من الشام علي بن السلار.

سنة خمس وعشرين وست مئة: لم يحج أحد من الشام.

سنة ست وعشرين: لم يحج أحد من الشام، وقدم إِلى مكة صاحبها الملك مسعود من اليمن، ولم يصل إِلى مكة إِلا وقد فُلِجَ، ويبست يداه، ومات ودفن بالمعلاة، وولي إِمرة مكة الملك الكامل صاحب مصر، واستناب فيها شجاع الدين طغتكين.

وفي هذه السنة سال وادي فَخٍّ أربعين مرة، فوقع في الناس الوباء والحُمَّى والموت، ورخص الشعير حتى لم يقم الحمل بكرائه إِلى مكة، وحزن الناس وكثر من ثقيف الطُّغْيان والأَشر.

وفيها عمر الأَمير جوبان نائب السلطنة بالعراقين عين بازان.

وحجّ بالناس من العراق الأَمير شمس الدين أصلان تكين الناصري نيابة لا استقلالاً، ولم يحج أحدٌ من الشام.

سنة سبع وعشرين وست مئة: حجّ بالناس من العراق الأَمير شمس الدين أصلان تكين الناصري ولم يحج أحد من الشام.

سنة ثمان وعشرين وست مئة: حجّ بالناس شمس الدين أصلان تكين الناصري.

سنة تسع وعشرين: حجّ بالناس أصلان تكين الناصري.

وجهّز الملك المنصور نور الدين عمر ابن رسول صاحب اليمن الشريف راجح بن قتادة ومعه حرابة كثيرة، مقدمهم ابن عبدان، فنزلوا الأَبطح، وحصرُوْا أمير مكة من قبل الملك الكامل صاحب مصر، فهرب إِلى نَخْلة، واستولى راجح على البلاد، وخطب للمنصور صاحب اليمن، وهي أول خطبة له فيها. ثم إِن طغتكين كاتب الملك الكامل من يَنْبُع، وعرّفه الخبر، فجهّز إِليه جيشاً كثيفاً من مصر، مقدمهم الأَمير فخر الدين يوسف المعروف بابن الشيخ، وأمر الكامل أَمِيْرَيْ الينبع والمدينة أن يكونا مع عسكره ففعلا، ووصل العسكر في شهر رمضان فحاصروا راجحاً وابن عبدان، وقاتلوهم، فقتل ابنُ عبدان، وانكسر أهل مكة واستولى عليها طغتكين، وقتل منهم مقتلة عظيمة عند الدَّرْب، ونُهِبَتْ مكة ثلاثة أيام، وأُخيف أَهْلُها خوفاً شديداً، وتُعرف هذه السنة عند العرب بسنة الدَّرْب.

سنة ثلاثين وست مئة: كان أمير الحاج أصلان تكينَ الناصري، وأمير الحاج المصري علاء الدين بن سنقر الزاهدي، وصحبته سبع مئة فارس، أرسلهم الكامل صاحب مصر بسبب راجح بن قتادة، فلما علم راجح بقدومهم خرج عن مكة، فدخلوها من غير محاربة، وطيّبوا قلوب أهلها، وعدلوا فيهم، وأحسنوا إليهم، بخلاف ما فعله راجح لما ولي مكة.

سنة إحدى وثلاثين وست مئة: رجع حج العراق وأميرهم شمس الدين أصلان تكين من منزلة لِيْنَةَ ـ بكسر اللام ـ لعدم الماء، وقاسوا مشقة عظيمة، فإن العرب الأَجاودة طمُّوا الآبار في منزل السلمان في طريق الحجاز، وتحاوروا هم وإياهم على البذل إلى أن ضاق الوقت، وعادوا وكان معهم تابوت الملك مظفر الدين كوكبري صاحب إربل، لأنه أوصى أن يُدفن في قبة بمكة، كان أَعَدَّها لذلك، فردُّوه ودفنوه بالكوفة، بالقرب من المشهد.

وحجّ في هذه السنة نور الدين عمر ابن رسول صاحب اليمن على النجب، وعادوا إلى اليمن، وهو متغير من راجح بن قتادة لكونه لم يواجهه. وكان بمكة غلاءٌ يُعرف بغلاء ابن محلي.

سنة اثنتين وثلاثين وست مئة: كان أمير حاج العراق، حسام الدين أبو فراس، ووصلت كسوة الكعبة الشريفة من بغداد، ومعها رسول إلى السلطان عمر بن علي ابن رسول أن يعلق الكسوة، ودخل اليمن وأعلمه أن التشريف وحُكْماً بالنيابة يصلان إليه في البحر على طريق البصرة، وكان كذلك.

وفي هذه السنة جهّز المنصور عمر بن علي ابن رسول إلى مكة خزانة كبيرة إلى راجح بن قتادة، على يد ابن النصيري، وقناديل من ذهب وفضة تُعلَّق في الكعبة الشريفة، وأمره باستخدام الجند والرجال ليمنعوا العسكر المصريَّ الواصل إلى مكة من دخولها، فوصل ابن النصيري إلى راجح في وقت لم يمكنه فيه من استخدام مَنْ يقوى به على مقاومة العسكر المصريِّ، وعلّق القناديل في الكعبة الشريفة، فخرج الشريف راجح وابن النصيري ومَن معهما من العسكر إلى اليمن، وكان العسكر المصريُّ ألف فارس.

وقيل: سبع مئة.

وقيل: خمس مئة فارس فيه خمسة من الأُمراء وهم وجه السبع، والبندقي وابن أبي زكيال، وابن برطاس وابن أبي المعالي يحيى بن عبد الرحمٰن الشيباني.

سنة ثلاث وثلاثين وست مئة: لم يحج العراقيون، وعمر الأمير إقبال الشرابي بأَمر أستاذه الْعَلمَيْن اللذَيْنِ هما حَدُّ عرفة، وعينَ عرفة، وأَجْرى المياه من الطائف إلى عرفات، وعَمَّرَ الْبِرَك التي بأَرض عرفة، بعد تعطيلها وخرابها عشرين سنة.

وفي هذه السنة جهّز المنصور صاحب اليمن عسكراً من المين مقدمهم الأمير شهاب الدين بن عبدان، وبعث معه خزانة إلى الشريف راجح ابن قتادة، وأمره أن يستخدم العسكر، ففعل فلما صاروا قريباً من مكة خرج عليهم العسكر المصريُّ فالتقوا بمكان يقال له الحريفيس بين مكة والسَّرَّيْنِ فانهزمت الأعراب أصحابُ راجح، وأُسِر ابْن عبدان، فقيَّدَه الأَمير طغريل، وبعث به إلى الديار المصرية مقيداً.

سنة أربع وثلاثين وست مئة: لم يحج العراقيُّ بسبب أن التتر دخل بغداد، فجمع المستنصر العلماءَ، وسأَلهم في ترك الحج للجهاد، فأَفتوه بذلك، وجمع مئة ألف فارس للمرابطة ببغداد، إلى أن تمّ أمر الله في تفرقتهم.

سنة خمس وثلاثين وست مئة: لم يحج أحد من العراق.

وتوجّه السلطان نور الدين عمر بن علي ابن رسول إلى مكة في ألف فارس، وأرسل إلى راجح بن قتادة فواجهه من أثناء الطريق، ووصل الخبر بوفاة الملك الكامل صاحب مصر، فدَعا للمنصور بمكة بعد موت الكامل، وجعل فيها رتبة مئة وخمسين فارساً، مقدمهم ابن الوليد وابن التغري فأَقاموا بها مع راجح بن قتادة وتوجه السلطان نور الدين إلى اليمن بعد الحج.

سنة ست وثلاثين: لم يحج العراقي.

سنة سبع وثلاثين وست مئة: جهّز الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى مكة ألف فارس، عليهم الشريف شِيْحَةُ أمير المدينة، فلما سمع بهم عسكر المنصور، خرجوا من مكة، فأَخلوها فدخلها شيحةُ، وملكها ونهبها، ولم يقتل أحداً. ولما سمع المنصور صاحب اليمن بذلك بعث ابنَ النصيري والشريف راجح إلى مكة في عسكر جرّار، ففرَّ الشريف شيحةُ بمَن معه وقدم القاهرة.

سنة ثمان وثلاثين وست مئة: قدم مكة عسكر جهزه الملك الصالح بن أيوب مع الشريف شِيحة أمير المدينة، وفيهم علم الدين الكبير وعلم الدين الصغير، فأَخذوها من عسكر صاحب اليمن، وحجُّوا بالناس.

سنة تسع وثلاثين وست مئة: لم يحج العراقي، وكان المنصور صاحب اليمن قدم مكة لما بلغه أنَّ صاحب مصر جهز عسكراً، وأخرج نائب المنصور عنها، فتجهز

بنفسه في عسكر جَرَّار، ودخلها في شهر رمضان، فلما علم المصريون بقدومه وَلَّوْا هارِبِيْنَ، وأحرقوا دار السلطنة بمكة على ما فيها من عدد وسلاح وغيرها، ثم دخلها السلطان نور الدين عمر ابن رسول، وأبطل سائر المكوسات والجبايات والمظالم، وكتب بذلك مُرَبَّعَةً، وجعلتْ قبالة الْحَجَرِ الأَسود، على زمزم، واستناب بمكة مملوكه الأَمير فخر الدين، وابنَ فيروز وتوجه إِلى اليمن.

سنة أربعين: حجّ الركب العراقي، بعد انقطاعه سبع سنين، ووصل الشهاب ريحان خادم الخليفة، وجاور بمكة، وعمر بها المسجد المعروف بمسجد الراية.

سنة إحدى وأربعين: جهّز المعتصم الحاج إِلى مكة مع والدته و(دواداره) وكان جملة ما صحبهما من الجِمال ألف وسبع مئة ونيف وثلاثون جملاً منها سبع مئة إِلى الكوفة، وكانت سنة كثيرة الصدقات، والخلع على الأُمراءِ، وأهل الدولة المقيمين بمكة، وما وفر مع الحاج الشهاب ريحان العباسي، بعد أن عَمَّر بمكة رباطَ موكله الأَمير إِقبال بن عبد الله الشرابي العباسي، عند باب السلام، وعين عرفة، وعمر الملك المنصور عمر ابن رسول مدرسته التي بالجانب الغربي من المسجد الحرام، للفقهاء الشافعية، وغَبَطَهُ ملوك الأَرض عليها، ومن سبع سنين لم يُرَ أكثر من هذه السنة خيراً، واشترى أهل مكة الأَملاك، وعمروا القصور، وَحَلَّوْا نِساءهم بالذهب والفضة، وتظاهَرُوا بالنعم.

سنة اثنتين وأربعين وست مئة: لم أعلم من خبر الحاج شيئاً.

سنة ثلاث وأربعين: وفيها أو في التي بعدها عُرِّيَتْ الكعبة من الكسوة، لتقطع الكسوة من ريح شديدة، هاجتْ بمكة، فأَراد صاحب اليمن المنصور ابن رسول أن يكسوها، فقال له شيخ الحرم الفقيه منصور بن منعة البغداديُّ: لا يكون هذا إِلا من جهة الديوان ـ يعني الخليفة العباسي ـ ولم يكن عند ابن منعة شيء لأَجل ذلك، فاقترض ثلاث مئة مثقال، واشترى بها ثياباً بيْضاً قُطْناً، وصبغها بالسواد، وركّب عليها الطُّرُزَ القديمة التي كانت في كسوة الكعبة، وكساها بذلك.

وفي هذه السنة ضرب تركيٌّ شرِيْفاً فكاتب فيه راجح بن عزيز الخليفة فقُطعتْ يده.

سنة أربع وأربعين وست مئة: لم يحج العراقي، وحجّ أهل اليمن، ومعهم زوجة صاحبها، وعمرت مسجد الهُليلجة بالتنعيم، المعروف بأُم المؤمنين عائشة وبقربه بئراً عَذْبَةً.

سنة خمس وأربعين: حجّ ابن حُذَيفة بعرب من جهة الشام، ولم يحج العراقي.

سنة ست وأربعين: لم يحج من العراق أحد، وعزل المنصورُ صاحب اليمن إمرة مملوكةِ فخر الدين السلحدار، وولّى عوضه محمد بن المسيب اليمني، على مال يقوم به، فأقام بها هذه السنة والسنة التي بعدها، وأساء السيرة وأعاد الجبايات والمكوس، واستولى على صدقة اليمن، وأخذ مال السلطان، واستخلف هُذَيْلاً وبَنَى حِصْناً بنخلة، ومنع الجند النفقة، وتفرّقوا عنه، ومكر مكراً، فمكر الله به.

سنة سبع وأربعين وست مئة: لم يحج العراقي وولي مكة الشريف حسن بن علي بن قتادة بعد قتال أميرها علي بن المسيب، نائب صاحب اليمن، وأَخَذَ ما كان معه من خيل وعدة ومماليك، وقيَّدَه، وأحضر أَهْلَ الحرم وأعيانه وقال: ما لزمته إلاَّ لتحققي الخلاف على مولانا السلطان، وعلمت بهربه بهذا المال إلى العراق، وهو محفوظ عندي حتى يصل مرسوم السلطان، فوردت الأَخبار بعد أيّام بوفاة السلطان.

سنة ثمان وأربعين: لم يحج من العراق أحد.

سنة تسع وأربعين وست مئة: حجّ الملك المظفر يوسف بن المنصور، صاحب اليمن وكسا رؤساء الحرم، وبذل الصدقات والمعروف لكل أحد، حتى لحاجٍّ مصر والشام، وعمر المسجد الذي بقرب المجزرة الكبيرة. من أعلاها، على يمين الهابط إلى مكة ويسار الصاعد منها يقال: إن النبي ﷺ صلّى فيه المغرب.

وكان بمكة غلاء عظيم أقام جميع السنة.

سنة خمسين: قوي أمر المرطيُّ الزيديُّ باليمن، وضاق به ذرع المظفر، وبعث إلى بغداد يحرّض على الحج، بسبب أنَّ المرطيَّ عزم على الحج، وقطع الخطبة العباسية، فحجّ من العراق فلك الدين التركي، وكان حاج العراق انقطع عن مكة من سنة ست وأربعين.

وقال سبط بن الجوزي: وحجّ الناس من بغداد بعد عشر سنين بطل الحج فيها منذ مات المستنصر أحمد إلى هذه السنة.

وقال العلامة جار الله بن فهد: والأَرجح أنها تسع سنين من سنة اثنتين وأَربعين، وأما تقييده بموت المستنصر فغير صحيح، فإنه مات سنة تسع وثلاثين فليعلم ذلك. انتهى كلامه.

وفيها حُمِل مع الحاج تابوت الحسن بن محمد الصاغاني من العراق، ثم رجع الحاج إلى بغداد، فأودعوا التابوت عند العرب، إلى قابل، ثم نُقل إلى مكة ودُفن بها.



سنة إحدى وخمسين وست مئة: كان الحاجُّ عالماً كبيراً من البر والبحر، لم يسمع بمثله فيما مضى، وحصل للناس في أيام الموسم عطش شديد، وكانت الوقفة يوم الجمعة، ومات فيها كثير من جِمال الحاج.

وكان الغلاء بمكة حتى بيعت الشربة من الماء بدرهم، والشاة بأربعين درهماً، وبيع بالطائف الشعير والدخن كُلُّ مُدٍّ وربع بدينار، ثم جاء مكة سيل عظيم انفرج أهلها، وتوجه الشريف جَمَّاز بن حسن بن قتادة الحسني إلى دمشق، فطلب من الناصر بن العزيز بن الظاهر أنْ يعينه على ملك مكة من ابن عمه أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة، ويقطع خطبة المظفر صاحب اليمن، فأنزله ومطله، ثم جهّز له عسكراً مع الركب وشيّعه بنفسه، وتقدّم أمام الركب ففتك بابن عمه أبي سعد المذكور، وقتله في الحرم، لثلاث خلون من شعبان على خلاف في التاريخ واستولى على مكة، ونقض عهد الناصر، وخطب للمظفر صاحب اليمن، وحجّ بالناس وأقام بها إلى آخر يوم من ذي الحجة فتسلّمها منه عمه راجح بن قتادة بلا قتال، وفرّ أمامه إلى ينبع.

سنة اثنتين وخمسين وست مئة: في شهر ربيع الآخر أخرج غانم بن راجح والده من مكة بلا قتال، وأقام بها إلى شوال، فجاءه الشريفان أبو نُمَيٍّ محمد بن أبي سعْد حسن بن علي بن قتادة وعم أبيه إدريس بن قتادة وأخذَا مكة من غانم بعد قتال قُتل فيه ثلاثة أنفس، وأقاما بها إلى خامس عشر من ذي القعدة فجاء مبارز الدين الحسين بن علي بن برطاس في مئتي فارس من قِبل المظفر صاحب اليمن، فلقيه الأَشراف بالسرجة من قوز المكاسة خارج مكة فقتل جماعة من الأشراف، ودخل ابن برطاس مكة وحجّ بالناس، ولم يزل مقيماً بمكة إلى آخر السنة، وكان بها عطش شديد، وخطب فيها لصاحبه الأشرف موسى بن الناصر يوسف بن المسعود ولاقى بمكة المقر أيبك التركماني الصالحي.

سنة ثلاث وخمسين وست مئة: وقع بين أمير الكرب العراقي وأمير مكة تنافر، فركب أمير الركب العراقي للقتال، ثم سكنت الفتنة بسعي الناصر داود بن المعظم عيسى بن العادل صاحب الكرك، لأنه أحضر أمير مكة لأمير الحاج، وفي عنقه عمامته فرضي عليه أمير الحاج وزاد في الرسم الذي جرت العادة به، وشكر الناس صنع صاحب الكرك. وحجّ نجم الدين مظفر محمود ابن عساكر الدمشقي فأدركه الأَجل بعرفات في يومها، ودُفن بها قريباً من الصخرات.

وفي أولها جمع الشريفان أبو نُمَيٍّ وإدريس ابنا قتادة جمعاً عظيماً، وقصدوا مكة

فحاصروا أميرها مبارز الدين بن برطاس حصاراً عظيماً، ودخلوا عليه مكة من رؤوس الجبال لأَربع بقين من المحرم، وتقاتلوا في وسط مكة، وكسروا ابن برطاس وأسروه، ففدى نفسه بعد قتل جماعة من أصحابه، وسُفكت الدماء في الحِجْر من المسجد الحرام ولم يُصَلِّ في المقام أحدٌ ممن حضر إلاَّ الشيخ أبو مروان معلم قرآن، وعاد ابن برطاس والذين معه إلى اليمن.

سنة أربع وخمسين وست مئة: حجّ الركب العراقي، ووقع المطر بعرفة ولله الحمد، وكان توجه الشريف إدريس بن قتادة إلى أخيه راجح بالسُّرَّيْن، فتغلّب الشريف أبو نُمَيٍّ على مكة، ثم جاء إدريس مع أخيه راجح إلى مكة، وأصلح راجح بين إدريس وأبي نُمَيٍّ، واشتركا في الإِمْرَةِ كما كانا.

سنة خمس وخمسين وست مئة: لم يحج من الآفاق ركب سوى حجاج الحجاز، ولم تُرفع راية لملك من الملوك وقت الوقوف بعرفة.

سنة ست وخمسين: لم يحج العراقي.

سنة سبع وخمسين: كذلك. وتولى الملك المظفر يوسف بن المنصور عمر ابن رسول أمر الحرم الشريف وعمارته، وإقامة منارِهِ، وخدمهِ وجوامكهم.

سنة ثمان وخمسين: لم أعلم بها من خبر الحاج شيئاً.

سنة تسع وخمسين وست مئة: فيها كانت الوقفة يوم الجمعة.

وحجّ الملك المظفر بن المنصور صاحب اليمن، فلما قارب مكة خرج عنها الشريفان أميرا مكة خوفاً منه، ودخل مكة بعساكره، وقضى ما يجب عليه من النسك، ولم يزل مدة إقامته بمكة يصلي المغرب على قبة زمزم، ثم يطوف وَارداً وصادراً، وتخالف هو والوزير القاضي إليها في مقام إبراهيم، وخدم البيت الشريف، وأخذ المِكْنَسَة فكنسه وتأبَّطَ الْقِرْبَةَ فغسله، ثم ضمَّخه بالغوالي الفاخرة فقال فيه الشاعر:

مَقَامٌ يَحُقُّ لِذي الكبريا ... ءِ بهِ أنْ يُبَدِّلَهُ بالْخُضُوْعْ
رأَيْنَا بِهِ الْملكَ رَبَّ الحِجَا ... أَبَا عُمَرٍ ذَا النَّوَال الْهَمُوْعْ
خَشُوْعاً مُرَاعاً لتقوى الإلـ ... ـه وما كان من قبْله بالْمَرُوْعْ

وأقام بمكة عشرة أيام يفرّق الصدقات، حتى ملأَت صدقاته كل منزل بمكة، وعمَّتْ جميع الحاج على اختلاف أنواعهم، وكسا الكعبة الشريفة ولم يكسها ملك قبله بعد العباسيين ببغداد، واستمر يكسوها مدة سنين مع ملوك مصر، ثم ودّع البيت

مُسْتَعبِراً باكياً، وعاد إِلى بلاده ـ وقد ذكرنا حجته في مَن حجّ من الملوك بأَبسط من هذا فليراجع هناك ـ.

سنة ستين وست مئة: لم ترفع فيها راية لملك من الملوك وقت الوقوف بعرفة.

سنة إحدى وستين وست مئة: كسا الملك الظاهر بيبرس الصالحي الكعبة الشريفة، وهو أول مَن كساها من ملوك مصر الترك.

سنة اثنتين وستين وست مئة: لم أعلم فيها شيئاً من خبر الحاج.

سنة ثلاث وستين وست مئة: فيها مات أمير الحاج المصريُّ علم الدين قيصر عتيق الأَمير شمس الدين الدمر، أستاذ الملك العادل.

سنة أربع وستين وست مئة: كان أمير الحاج المصري جمال الدين نائب دار العدل.

سنة خمس وستين وست مئة: حجّ من مصر الأَمير الحلي من قِبل الظاهر بيبرس وتصدّق على أهل مكة وكان بمكة غلاء فكان الشعير بها ربع وشطر بدينار، وغارت مياه الآبار غاية الغور.

سنة ست وستين: حجّ العراقي من بغداد، وهي أول حجّة حجُّوا فيها بعد غلبة التتار على بغداد في سنة خمس وخمسين، وحجّ الصاحب محيي الدين بن الصاحب بهاء الدين بن حنًّا، وأرسل المظفر صاحب اليمن بكسوة البيت، وكسوة للحجرة النَّبوية، ووجّه على يدي التغري مئة ألف دينار لعمارة البيت، وحلية باب الكعبة بالذهب والفضة، فأَخذ منها الشرفاءُ نحو خمسة وثلاثين أَلفاً وحُلِّيَ الباب بصفائح فضة زنتها ستون رطلاً، وعمر مولد النبي ﷺ.

سنة سبع وستين وست مئة: كانت الوقفة يوم الجمعة.

وحجّ الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر على الخيل البلق، وصحبته جماعة من الأُمراء، ونحو ثلاث مئة مملوك، وأجناد من الحلقة ـ كما ذكرنا ذلك فيمن حجّ من الملوك ـ وبطل المكس على الحجاج من تلك السنة وكان يؤخذ المكس والجباية من التاجر من كل ما يكون معه، ومن الحاج الذي ليس معه مَتْجَر كان يؤخذ منه جباية على كل حمل، ويُوقف الركب عند قبر أبي لهب وما يتعدّى جملٌ إلا بعد أن يؤخذ منه ما كان مقرَّراً عليه قبل حج الملك الظاهر، وكان الحج المصري والشامي قد انقطع عن مكة فلم يحج من شدة الظلم والخوف الذي يجده الناس من متولي مكة في تلك السنين الماضية، وَوَلَّى (باش مكة) وهو أول مَن جهزه بها. وقال ابن محفوظ: لا نعلم أنه حَجَّ فيها أحد من مصر لا في البر ولا في البحر ولعله غير مَن ذكرنا.

سنة ثمان وستين وست مئة: حجّ بالناس أمير يقال له التنيسي، وجاء بكسوة الكعبة من جهة الملك الظاهر صاحب مصر.

سنة تسع وستين وست مئة: لم يحج أحد من مصر، وحجّ ركب كبير من بغداد وعُريت الكعبة وقاست الناس شدة من العري فجاءت الكسوة بعد حج الناس، وفي ربيع الأَول تحارب الشريف أبو نُمَيٍّ وعمه إدريس، بخُلَيْص، فطعن أبو نُمَيٍّ عمه يحيى، ألقاه عن جواده، ونزل إليه وجَزَّ رأسه واستبدّ بالأَمر. وأبو نُمَيٍّ هذا كان بينه وبين الملك الظاهر بيبرس من ملوك الترك بمصر نفرة، وكتب إليه في بعض أيامه: (من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحسيب النسيب أبو نُمَيٍّ محمد بن أبي سعد، أما بعد: فإن الحسنةَ في نفسها حسنةٌ، وهي من بيت النبوة أحْسَنُ، والسيئة في نفسها سيئةٌ وهي منْ بيت النبوة أوحش، وقد بلغنا عنك أيها السيد أنك آويت المجرم، واستحللت دم المحرم ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] فإن لم تقف عند حَدِّكَ، وإلاَّ أغمدنَا فيك سيف جَدِّكَ، والسلام).

فكتب إليه: (من محمد بن أَبي سعد إلى بيبرس سلطان مصر، أما بعد: فإنَّ المملوك مُعْتَرِفٌ بِذَنْبه، نائب إلى ربِّه، فإنْ تأْخذْ فيدكَ الأَقْوَى، وإنْ تعْفُ فهو أقربُ للتقوى، والسلام).

وفي نصف شعبان دخل مكة سيل عظيم لم يُسمع بمثله في هذه الأَعصار، ومات فيه خلق من الهدم والغرق ومات منهم عالم عظيم حملهم السيل وكان ذلك بعد صلح ثقيف على قسمة العيون بأَشهر.

سنة سبعين وست مئة: في آخر شهر صفر وصل الأَمير جماز بن شيحة الحسيني صاحب المدينة وغانم بن إدريس بن حسن بن قتادة، وأخذا مكة، وخرج الشريف أبو نُمَيٍّ منها. ثم بعد أربعين يوماً رجع الشريف أبو نُمَيٍّ إلى مكة وهزم جمازاً ومَن معه ولم يتفق للكعبة الشريفة كسوة لنفرة الملوك من الجور الذي وقع بمكة، ولعله لم يأْتِ فيها حاج من الآفاق.

سنة إحدى وسبعين وست مئة: فيها نهب العرب حاج المغاربة، وبعث المظفر صاحب اليمن كسوة البيت المعظّم على يد قاسم بن محفوظ، وكان بمكة فناء عظيم بلغت الموتى في بعض الأَيام اثنتين وعشرين جنازة وفي بعضها خمسين، وعَدَّ أهلُ مكة المشرفة ما بين أول رجب إلى السابع والعشرين ألف جنازة.

سنة اثنتين وسبعين: حجّ فقيه علماء اليمن الفقيه سليمان بن محمد بن الزبير ولا أعلم خبراً عن حجاج مصر والشام وغيرهما.

سنة ثلاث وسبعين: كذلك.

سنة أربع وسبعين: أقام الحاج المصريون بمكة ثمانية عشر يوماً، وبالمدينة عشرة أيام، وهذا شيء لم يعهد.

سنة خمس وسبعين وست مئة: فيها في تاسع عشر ربيع الآخر كانت وقعةٌ بمَرِّ الظَّهْرَان، بين أبي نُمَيٍّ صاحب مكة وبين جماز بن شيْحَة صاحب المدينة، وبين إدريس بن حسن بن قتادة، صاحب الينبع، فظهر عليهما أبو نُمَيٍّ، وأَسَرَ إِدريس، وهرب جماز، وكان عدة مَن مع أبي نُمَيٍّ مئتي فارس ومئة وثمانين رجلاً، ومَنْ مع إِدريس وجماز مئتين وخمسة عشر فارساً وست مئة راجل، وكانت الوقفة بالجمعة.

وقال الميورقي: زعم الشيخ شكران بن شهوان والشيخ عبد الجليل أنها تمام مئة وقفة جمعة، من بعد رسول الله ﷺ، وكان غيرهما قد ادَّعَى ذلك في وقفة الجمعة سنة العطش، وموت الجمال عام إِحدى وخمسين، وكلا الجمعتين كان فيهما العطش الشديد، وزادت هذه بالقحط والغلاء، شعيرها رُبْعٌ وشطر بدينار ذهب ولا أعلم في هذه السنة شيئاً من خبر حاج مصر والعراق.

سنة ست وسبعين: لا أعلم شيئاً عن خبر الحاج بالآفاق، وكان الغلاء بمكة.

سنة سبع وسبعين: كان أمير الحاج المصري الأَمير علم الدين الشيخي الخياط، وكان الحاج فيها أربعين ألفاً سوى الشامي والعراقي، وحجَّ نفر قليل من عصبة اليمن.

وفي يوم الخميس رابع عشر الحجة حصلت مزاحمة بين الحاج، عند خروجهم إلى العمرة من باب المسجد الحرام المعروف بها، بعد صلاة الصبح، فاعترضهم جمل في فم الزقاق في آخره، وهو زقاق ضَيِّقٌ جدًّا، فدفع بعضهم بعضاً، وزاحم الآتي الواقف، وترادف عالم لا ينحصر، إِلى أنْ دَهَك الناسُ الْجَمَلَ، وأَوائلَ النَّاس حوله، فخرج منهم القليل، وبقي الآخرون، يموج بعضهم في بعض فمات الجمل، ومات حوله جمع كبير، ما بين رجل وامرأة فقيل: اثنان وثلاثون، ويقال: أربعة وثلاثون، ويقال: خمسة وثلاثون، ويقال: ثمانية وأربعون، وقيل: اثنان وخمسون، وقيل: خمسة وسبعون، ويقال: سبع وسبعون، ويقال: نحو الثمانين، وقتِل منفرداً اثنا عشر ميتاً في موضع واحد، لم يدفنهم أحد إِلى آخر النهار، وأما مَن نُقل إِلى منزله وفيه الروح ومات عند أهله فكثير جدًّا، وبقي منهم أقوام بحشاشة الروح، إِلى أن مات بعيداً من الناس، ومنهم مَن حُمِل في أول الأَمر، قبل أن تأْتي أعوان أمير مكة، وقال بعض مَن خرج من تحت الموتى وعاش: عددت خمسين ميتاً إِلا اثنين،

وتعجب أهل مكة من هذه الواقعة، وقالوا: ما سمعنا بمثل هذا في الخروج إلى العمرة قطّ، وما هذه الكائنة إلا إشارة من الله تعالى تدل على جهل عظيم وقع في الأُمة، ويقتضي أمراً وبيلاً، وقع في الغاية، وفي كل شيء حكمة بالغة، وكان أبلغهم المصريين، وتكلم الناس في حَقِّهم، هل فرّطوا في أنفسهم، وعلى مَن دِيَتُهُم أَوْ دمهم هُدر؟ فقال مفتي مكة أبو محمد عبد الله البجائي في هؤلاء الأموات: ماتوا عصاةً، وهم شهداء النار، من تعمد منهم الدخول في زحمة فغلب فيها الهلاك فقد مات لا دنيا ولا آخرة وقال المحب الطبريُّ: هم شهداء ودمهم هدر، ومَن قَتَلَ منهم بالزحمة صاحِبَه فهو قَتْلُ خَطإٍ. وقال ابن مسعود: مَن ظهر له التَّغْرير فركبه فهو عاص، والأُوَل مطيعون، والمتوسطون يحتمل حالهم القَولين.

وفيها حجّ نفرٌ قليلٌ من عصبة اليمن.

وفي هذه السنة وقع على الحاج الشامِيِّ ما بين تبوك والعلا بَرَدٌ مثل بيض النعام، تقع الواحدة على الآنية النحاس فتكسرها، وكان الناس في معطشة فسقاهم الله بذلك.

سنة ثمان وسبعين: حجّ بالناس الأَمير جمال الدين الساحلي أقش، وكان قاضي الركب فخر الدين عثمان ابْن بنت أبي سعد.

سنة تسع وسبعين: كان أمير الحاج السابق.

سنة ثمانين وست مئة: حجّ بالناس العزي، ووقف الناس بعرفة يومين لاختلاف وقع فيها.

سنة إحدى وثمانين: حجّ بالناس ناصر الدين الطنبغا الخوارزمي، ومعه كسوة الكعبة، وحجّ الأَمير علاء الدين البندقداري (استادار) الملك الظاهر في ركب كبير، وأَمرهُ السلطانُ المنصور قلاوون الصالحي أن يُحَلِّفَ الشريف أبو نُمَيٍّ فَحُلف.

وحجّ من الشام الأَمير بدر الدين عبد الله الصواني قال صاحب «الذَّيل على المرآة»: أنه أول أمير ولي إمرة الحاج من الشام، وقام من ماله بما كان يؤخذ من الحجاج على طريق الشام، بسبب مداراة العربان يكون تقدير ذلك نحو ثلاثة عشر ألف درهم، وذلك سنة إحدى وثمانين وست مئة، وكان يلحق كل جمل عشرون درهماً، وذلك من ديوان الملك الظاهر، كانوا يكتبون الجمال في الكرك، ويجبون من الحجاج طول الطريق، ويفرق أَوّلاً بأَوّل على أهل الطرقات والمجاورين، فلما كانت سنة إحدى وثمانين وست مئة قام بذلك من ماله، وأسس هذه السنة الحسنة وبقي كل

أمير تولى إمرة الحاج بعده يقوم من ماله بالمغارم إلى الآن. انتهى ما قاله.

سنة اثنتين وثمانين: حجّ علاء الدين الأعمى، وكان الحاج قليلاً، والرخاء كثيراً.

سنة ثلاث وثمانين وست مئة: كانت الوقفة بالجمعة، وكان الحاج كثيراً، ووقع الغلاء بمكة، ووقعت فتنة بين الشريف أبي نُمَي صاحب مكة، وبين أمير الحاج المصري علم الدين الباشقردي، وذلك أن الشريف أبا نُمَيٍّ كان يأخذ من حاج اليمن على كل جمل مبلغ ثلاثين درهماً ومن حاج مصر على كل جمل خمسين درهماً، مع كثرة النهب والعسف في جبايته، فأزاله الله على يد الظاهر بيبرس حتى صار يؤخذ من حاج مصر على كل جمل ثلاثين درهماً، فلما انفرد أبو نَمَيٍّ وحده بأمر مكة، وأخرج عسكر اليمن، اشتدّ على الناس في الجباية، فرسم سلطان مصر بسفر ثلاث مئة فارس صحبة أمير الحاج علم الدين سنجر الباشقردي، وكتب بخروج مئتي فارس من الشام، فتوجهوا صحبة أمير الشامي، علاء الدين يوسف بن عز الدين القيمري، فوقع كلام بين الشريف أبي نُمَيٍّ وأمير الحاج المصري، فغلق الشريف أبو نمي أبواب مكة، وصدّ الحاج عن دخولها، فنقب الحاج السور، وأحرقوا باب المعلاة، ودخلوا مكة هجماً بعد فرار أبي نَمَيٍّ، وجمعه منها وكان ذلك في يوم التروية، ثم وقع الصلح بين الفريقين على يد الصاحب بدر الدين بن السنجاري وقيل: إنَّ سبب هذه الفتنة أنَّ الشريف أبا نُمَيٍّ تَخَيَّل من بعض أمراء بني عُقبَة ممن حجّ في هذه السنة أنه إنَّما جاء ليأخذ مكة، فَغُلِّقَتْ أبوابُها، وجرى ما ذكرناه.

[**سنة أربع وثمانين وست مئة**: حجّ بالناس الأمير (السلحدار) وكان فيها الرخاء والمطر].

سنة خمس وثمانين وست مئة: حجّ الحسيني، وكان الحاج قليلاً.

سنة ست وثمانين وست مئة: حجّ الأَمير قطز، وحصل الغلاء بمكة بعد دخول الركب.

سنة سبع وثمانين وست مئة: لم أعلم من خبر الحاج شيئاً.

[**سنة ثمان وثمانين وست مئة**: كان أمير الحاج يقال له الشالق، وقيل ابن الفركاح. وحجّ ركب كبير من العراق، ولم يصل ركب اليمن، وإنما جاء منهم آحاد].

سنة تسع وثمانين وست مئة: كان أمير الحاج الفارقاني، وقال ابن الجوزي: إنَّ

الذي حجّ بالناس سنجر الباشقردي، وكانت فيها فتنة بين أهل مكة والحجاج، وجماعة من المكيين فاقتتلوا عند درب الشُّبَيْكَة وانتهى الأَمر أَنْ شهر بالمسجد الحرام من السيوف نحوٌ من عشرة آلاف سيف، وقُتل من الفريقين جمع كثير. يقال: فوق أربعين نفساً، وجُرح خلق كبير، ونُهبَتْ أموالٌ، ولو أراد الشريف أبو نَمَيٍّ أخذ الجميع لأَخذهم، ولكنه تثبَّت.

وقال ابن الجوزي: كان حجّ مع أمير الشام الأَمير عبيَّة أمير بني عقبة، وكان بينه وبين صاحب مكة معاداة فتخيل منه، فوقعت الفتنة بسببه، ثم إِنهم راسلوا صاحب مكة، ودخلوا فطافوا، وقضوا حجهم.

وفيها توفي المنصور قلاوون الأَلفي.

سنة تسعين: حجّ بالناس من مصر بكتوت العلائي، من جهة الأَشرف خليل بن قلاوون، ومن الشام الطواشي بدر الدين الصوامي ولم يحضر أمير مكة لما وقع بينه وبين أهل مصر من الوحشة في السنة الخالية.

سنة إحدى وتسعين: كان أمير المصري مكتوب العلائي وأمير الشامي الأَمير سيف الدين الباسطي، وحجّ معه جمع كثير، وحجّ الشريف أبو نميٍّ وناس قليل من أهل مصرِ ومعهم ثلاثون فرساً، وحصل بعرفة جفلة هَيِّنة، وكانت الوقفة بالخميس، ورحل الركب يوم الثلاثاء، ولم يصلُّوا الجمعة، ولزم أمير الحاج مكتوب راجحَ بنَ إِدريس مِن ينبع، وراحَ به إِلى مصر، وانباعت الراوية بأَربعة دنانير وستة عشر مسعودياً، وحصل الغلاءُ على الناس من أول السنة وخطب بمكة للأَشرف خليل بن المنصور قلاوون، ثم خطب للمظفر صاحب اليمن.

سنة اثنتين وتسعين: حجّ بالناس من مصر طُطخ، ومعه ثلاثة أمراء، وبعض بيوتات، وكان أمير الحاج الشامي بدر الدين مسك المنصوري المعروف بالطيار، وكان الحاج كثيراً، ووقف الناس بعرفة يومي الاثنين والثلاثاء، ولم يصلُّوا الجمعة من خوف العطش، ورحل الحاج من مِنَى ثاني النحر، واستخْلف أَمير الحاج الشريف أَبَا نُمَيٍّ أنه يروح إِلى مصر في ربيع الأَول، وأَعطاه ألف دينار عيناً، فخطب للأَشرف خليل، بعدما خطب فيها لصاحب اليمن، ونقش السكة أيضاً باسمه، وجهّز بذلك محاضر مع ابن القسطلاني.

سنة ثلاث وتسعين وست مئة: كان حج مصر قليل، وتقدمه ملوك من (الخاصكية)، وأمير الحاج الشاميّ عز الدين أيبك الطويل المنصوري، ووصل حاج

اليمن مع الفقيه أحمد بن موسى الْعُجَيْل في خلق كثير، فبلغت الراوية أربعة دنانير، واستسقى الناس من عرفة، ثم رحم الله الناس بالمطر والسيول، وامتلأَت بركة المسلمات، وبركة سوق الليل، وكانت الوقفة الأَحد، وحصل بعرفة جفلة هينة ثم حصل بمنى جفلة شنيعة، وكان سببها أنَّ بعض أولاد أبي نمَيٍّ نهى مملوكاً، فاخطأ عليه المملوك، فجفل الناس، ونزلوا من منى يوم الأَربعاء، ورحلوا يوم الخميس، وعزم الشريف أبو نمَيٍّ أن يتقدم إلى مصر حتى يلتقي بالأَشرف، لأَنه حلف على ذلك فلما بلغ الينبع جاء العلم من مصر بأَن الأَشرف قتِل، فعاد إلى مكة بعد أن دخل عليه راجح بن إدريس، وأعاد عليه ينبع.

وفيها غلا الملح بمكة، صار كل رُبْع بستة دراهم وكل مُد بستة دنانير، وقلّت المياه.

سنة أربع وتسعين وست مئة: حجَّ ولد صاحب مصر المجاهد أنص بن العادل كتبغا المنصوري، في جماعة من الأمراء و(الأُدُر) السلطانية، وكان أمير الحاج الشامي بهاء الدين قره أرسلان المنصوري، وحجّت معه عَمَّة صاحب مَارِدِين.

سنة خمس وتسعين وست مئة: كان أمير الحاج الشامي سيف الدين بهادر العجمي، وكان الغلاء بمكة شديداً.

وفي رجب وقعت صاعقة على مِئْذَنة باب عليٍّ من المسجد الحرام، مات فيها المؤذن علي بن محمد بن عبد السلام الكازروني.

وفي هذه السنة نقل صاحب «الذَّيل على مرآة الزمان»: أن في العشر الأُول من المرحم حكى جماعة كثيرة من أهل دمشق، واستفاض ذلك في دمشق، وكثر الحديث فيه عن قاضي جبة أغسال من قرى دمشق، أنه تكلم ثَوْرٌ من قرية جبة أغسال وملخصها: أن الثور خرج يشرب مع صَبي مَاة من هنالك، فلما فرغ حمد الله، فتعجّب الصَّبيُّ وحكى لسيده ما قال الثور، فشكَّ في قوله، وحضر في اليوم الثاني بنفسه، فلما شرب الثور حمد الله، وفي اليوم الثالث حضر جماعة وسمعوه يحمد الله، فكلمه بعضهم فقال: إن الله كان كتب على الأُمة سبع سنين جَذْباً، ولكن لشفاعة النبيّ ﷺ أَبْدَلَها بالخصب، وذكر أنَّ النبيَّ ﷺ أمره بتبليغ الأَمْر وقال: علامة صِدْقِك أن تموت عقيب الإِخبار، قال الحاكي لذلك: ثم تقدّم الثور إلى مكان عال فسقط ميتاً فَأُخِذَ من شعره للتبرك، وكُفِّنَ، ودُفِن.

سنة ست وتسعين وست مئة: كان أمير الحاج الشامي عز الدين كرجي.

وجهّز المؤيد داود بن المظفر يوسف بن عمر ابن رسول صاحب اليمن علمه المنصور، ومِحْمل الحج السعيد، صحبة العابد بن زنكي، فتلقاه الشريف صاحب مكة بالإجلال والإكرام، وخفقت ذوائب العلم المنصور على جبل التعريف، وأعلن مُؤَذِّنه على قبة زمزم بمناقب السلطان، على رؤوس الأَشهاد، ووصل إلى الشريف ما اقتضته المواهب السلطانية مما كان قرره الخليفة المظفر، والد المؤيد، من العين والغلة والكساوي، والمسك والعود والصندل والعنبر، والثياب الملوَّنَة والخلع النفسية، وكان مبلغ العين ثمانين ألف غرارة، ومئتي غرارة مكية وذلك في ذلك العصر.

سنة سبع وتسعين وست مئة: حجّ بالناس من مصر الخليفة الحاكم بأمر الله، أبو العباس أحمد ابن الأَمير أبي علي بن أبي بكر بن المسترشد بالله العباسي، وحجّ معه عياله وأمير العرب مُهَنَّا بن عيسى بن مهنا، وشكِرتْ سيرته، فإنه تصدّق بشيء كثير، وأطعم العيش للناس كافة، وحمل المنقطعين.

وكان أمير الشامي الأَمير عز الدين أيبك الطويل، ودخل حاجُّ محمل الشامي إلى دمشق في ثامن وعشرين المحرم، وهم يشكون من أميرهم عز الدين أيبك، وأنه عسفهم في السير، وأنَّ المُشاة هلك منهم خلق كثير، بسبب عجلته وسُوْء خلقه، وشحِّ نفسه، وعاد الأَمير حسام الدين مُهَنَّا ابن الأَمير شرف الدين عيسى بن مُهَنَّا إلى بلاده، بعد بلوغ حجه ومراده، وشكِرَتْ سيرته، وأنه تصدّق بأَشياء كثيرة وحمل المنقطعين، وأطعم الناس، وأحسن إلى أهل مكة والمدينة والمجاورين بهما ـ أحسن الله إليه ـ.

سنة ثمان وتسعين: كان أمير الشامي شمس الدين الغساني، أحد أُمراء دمشق، ومن الديار المصرية الأَمير عز الدين أيبك (الخازندار) كان أمير خازندار، المنصوري، وحصل للركب ضرر في سفرهم، من العطش والجوع، وذكر صاحب «الذيل على المرآة» أن الذين قتلوا أحد عشر نفراً، منهم امرأتان وتسعة رجال بمكة، في الهوشة الواقعة بها وأن المجاورين امتنعوا من أكل لحم الجمال فإنها من النهب، وكان يباع لحومها بعد النزول، وحصل للحاج تشويش في عرفات، وهوشة في نفس مكة، ونهبَ خلق كثيرون، وأُخِذَتْ ثيابهم التي عليهم، وقتِلَ خلق، وجُرِحَ جماعة، ويقال: إنَّ المقتولين في هذه القضية أحد عشر نفراً، وحصل لأَبي نُمَيٍّ صاحب مكة من الجِمال المنهوبة خمس مئة جمل.

سنة تسع وتسعين وست مئة: لم يحج من الشام أحد، وحجّ الناس من الديار المصرية.

سنة سبع مئة: فيها كان أمير الحاج بكتمر (الجوكندار)، وأنفق في حجته خمسة وثمانين ألف دينار، ولم يحجَّ من الشام أحد، إلاَّ أنه حجّ جماعة من دمشق إلى غزة، ومنها إلى عقبة أَيْلَة، وصحبوا المصريين منها.

سنة إحدى وسبع مئة: فيها وصل الحاج المصري، وأميرهم بيبرس المنصوري (الدوادار) وكان أمير الشامي علاء الدين بن صبرة الحاجب.

وحجَّ في تلك السنة الأَمير بيبرس الجاشكير، خرج من القاهرة أول القعدة ومعه ثلاثون أميراً، وأدركوا الحاج وساروا رَكْباً بمفردهم، ومن ورائهم بقية الحاج، في ركبين.

وتوفي صاحب مكة الشريف أبو نُمَيٍّ الحسنيُّ بِالحُمَّى من خُرَّاج في مقعدته، وفي مواضع من بدنه، بوادي الجديد، من أعمال وادي مَرِّ الظَّهْران، في رابع صفر، وحُمِلَ إلى مكة، وطيف به حول البيت، وقام بالأَمر بعده ولداه حمَيْضَةُ ورُمَيْثَة وكان قد دُعِيَ لهما على قبة زمزم قبل موت أبيهما بيومين، واستمرا شريكين في الإِمرة، والخطبة في الجمعة والدعاء، واختلف القواد والأشراف عليهما في الإِمرة فطائفة مالتْ مع عطيفة وأبي الغيث على أخويهما، ووقعت فتنة وكان حُميضَة الغالبُ، واعتقل عُطيفة وأبا الغيث، وأقاما في الحبس مُدَّةً، ثم احتالا وخرجا إلى ينبع، ولما وصل الحاج المصريُّ حضر الشريفان أبو الغيث وعُطَيفة إلى الأُمراء وشكوا أَخَوَيْهما حميضَة ورميثة أنهما وثبا عليهما بعد موت أبيهما، واعتقلاهما، ففرَّا من الاعتقال فمال الأُمراءُ إليهما، وحجّا صحبة الأُمراء، فلما انقضى الموسم اقتضى رأي الأُمراء القبضَ على حميضَة ورميثةَ تأديباً لهما على ما صدر منهما في حَقِّ أَخويهما من الإساءَة، فلزمهما الأَمير بيبرس وسَارَ بهما الأمير بيبرس مُقَيَّدَيْنِ إلى مصر، فحبسا وأَمَّرَ بمكة المشرفة أَبَا الغيث وعُطيفة وحلفهما لصاحب مصر.

وفيها أُزِيْلَتِ البدعةُ التي كانتْ بالكعبة الشريفة، يقال لها الْعُرْوَة الوثقى، وهي من وضع الفجرة المحتالين عمدوا إلى موضع عالٍ من جدار البيت، المقابل لبابه، وأوقعوا قلوب العامة أنَّ مَن ناله فقد استمسك بالعروة الوثقى، فأَحوجوهم إلى أن يقاسوا في الوصول إليها شدَّةً وعناءً ويركب بعضهم فوق بعض، وربما صعد النساء فوق الرجال، ولامَسْن الرجال ولامسوهن، فلحقهم بذلك أنواع الضرر دِيناً ودنيا،

وسبب إزالة هذه البدعة أن الصاحب زين الدين أحمد بن محمد بن حَنًا قدم مكة فرأى هذه البدعة فأَمر بقلع هذا المثال، وزالت هذه البدعة ولله المنّة.

سنة اثنتين وسبع مئة: كان أمير الحاج برلقي الأَشرفي، وكتب صحبته الملك الصار صاحب مصر إلى أميرَي مكة أَبي الغيث وعُطيفة أن لا يمكنوا من الأَذان بـ(حي على خير العمل)، ولا يتقدّم في الحرم إمام زيديٌّ، ولا يمكن أحد من مس المسمار الذي كان في وسط الكعبة، ويقال له سُرَّةُ الدُّنيا، وشكا أمير الحاج بعد عودهِ من الحج إلى السلطان قلة مهابة الشريفين أبي الغيث وعُطيفة وكثرة طمع الْعَبِيد في المجاورين بمكة، فأَفرج عن الشريفين حُميضة ورُميثة من السجن، وأُحْضِرا إلى المجلس السلطاني، وخلع عليهما بكفتان مزركش فلم يلبسهما حُميضَة إلا بعد التمنُّع والتشديد، والتهديد بالعود إلى الحبس وأُجلسا فوق جميع الأُمراء، ونزلا إلى منازلهما، وحمل إليهما سائر ما يحْتاج إليه، وهاداهما الأُمراء، وأُجْرِيَتْ لهما الرواتب والجرابات والكسوات، وركبا مع السلطان في الميدان، ولعب حميضة مع السلطان بالْكرة.

سنة ثلاث وسبع مئة: حجّ الأَمير سلار نائب السلطنة بمصر، ومعه نحو ثلاثين أميراً، منهم سنقر الكمالي، وعلم الدين سنجر الجاولي، وسنقر الأَقرش وكوري وسودي، وبكتوت القرماني وبكتوت الشجاعي، والطواشي شهاب الدين أحمد مرشد، وتأَخر بعد خروج الركب مع الأَمير سيف الدين أتاق الحسامي أمير الركب، ثم توجه إلى القاهرة فوصلها في نصف صفر من السنة بعدها، وكان أمير الحج الشامي الأَمير فخر الدين أقبجا الظاهري.

سنة أربع وسبع مئة: خرج الركب المصري في عالم كبير، مع الأَمير عز الدين أيبك (الخازندار) زوج ابنة الظاهر بيبرس، فلكثرة الحاج قسموه ثلاثة ركوب: ركب مع الأَمير بيبرس المنصوري، (الدوادار)، وركب مع الأَمير بهاء الدين يعقوب، وركب مع الأَمير أيبك.

وحجّ الأَمير بيبرس الجاشنكير الحجة الثانية، وتوجه من القاهرة في أول القعدة، ومعه علاء الدين ايدغدي الشهرزوري، رسول ملك المغرب وجماعة كثيرة من الأُمراء فوجد الحاجُّ عِدَّةَ مشاق: منها قلة الماء، وغلاء الأَسعار، وهبوب سموم محرقة هلك منها خلق كثير من جفاف قِرَبِ الماء، وأخذ الحاجُّ من وادي النار على طريق أخرى، فتاهوا، وهلك منهم عالم كبير، وبلغ الشعير كل وَيْبَةٍ بأَربعين درهماً

والدقيق كل وَيْبَة بستين درهماً، فلما انقضى الحج أحضر الأمير ركن الدين بيبرس أبَا الغيث وعُطيفة، وأعلمهما أن ملك مصر قد أعاد أخويهما إلى ولايتهما. فلم يقابلا بالسمع والطاعة، وحصلت منهما المنافرة، فقبض عليهما وتوجه بهما إلى مصر، فرتّب لهما ما يكفيهما، وصارا يركبان مع الأُمراء، واستمر حيمضة ورميثة في الإمرة، يظهران حسن السيرة، وجميل السياسة، وأبطلا شيئاً من المكوس.

سنة خمس وسبع مئة: حجّ من مصر ونواحي المغرب والعراق، والعجم خلق لا يحْصيهم إلا الله تعالى، وكان أمير الحاج المصري سيف الدين الغية، وهو كافر النفس، مقدام على الجرائم، سفك دماء جماعة من السرّاق ووسطهم وجعل نحرهم عند الجمرة عوض البدن، وكان بمنى جفلة عظيمة حصل الحرب فيها بين المصريين والحجازيين كما ذكره مؤرخ اليمن في «بهجة الزمن».

سنة ست وسبع مئة: كان أمير الحاج المصري سيف الدين الغية: قفجق (السلحدار) ووقع في أيام الحج بمنى قتلٌ ونهب، بين المصريين والحجازيين، وكان ابتداءُ ذلك هوشة وقعت في السوق بمنى ونهب شيء، ثم تفاقم الأَمر، ولم يحصل ذلك إلا بالسوق خاصة، وانطلق العسكر خلف مَن فعل ذلك فلم يعلم، وهرب المكيون في الجبال وانطلق منهم جماعة من السوق إلى ذَيْل الجبل، فحصل فيهم من العسكر قتل نَفَرٍ يسير، عند الجمرة، لتسكين الأَمر، وإظهار الهيبة والقدرة، فسكن الناس، ولكن بقي عندهم خوف ووجل.

سنة سبع وسبع مئة: كان أمير الحاج المصري سيف الدين بوهاي القبجاني ووقع حرب بينه وبين العبيد الذين بمكة، وذلك أنهم أكثروا تخطفهم أموال التجار وأخذهم من الناس بالغصب ما أرادوا، فلما وقف بعضهم على تاجر ليأْخذ قماشه، فمنعه فضربه ضرباً مبرحاً، فثار الناس وتصايحوا، فبعث أمير الركب المصري مماليكه إلى الْعَبِيد، فمسكوا بعضهم، وفرَّ باقيهم بعدما جُرحوا، فركب الشريف حُميضة والعبيد للحرب، وركب أمير الحاج بمَن معه، ونادى أن لا يخرج أحدٌ من الحجاج، وليحفظ كل متاعه، وساق فإذا طائفة من السَّرَوِيِّيْنَ، قد فَرُّوا من الخوف إلى الجبل، فَقتل منه جماعة ظنًّا منه أنَّهم من الْعَبِيد، فكفَّ حُميضَةُ عن القتال، وما زال الناس بأَمير الركب حتى أمسك عن السَّرْو.

سنة ثمان وسبع مئة: ظهر من الشريفين حُمَيضة ورُميثة من التعسف ما لا يمكن شرحه.

سنة تسع وسبع مئة: لم يحج أحدٌ من الشام على العادة، إلا أن طائفة يسيرة من التجار وأهل الحجاز خرجوا من دمشق إلى غزة، ومنها إلى عقبة أَيْلَةَ، ولاءموا المصريين فصحبوهم.

سنة عشر وسبع مئة: حجّ من الديار المصرية عسكر قويّ فيه أمراء (طبلخاناه) يريدون لزوم الشريفين حُميضة ورميثة لما ظهر منهما من التعسُّف، فلما علما بذلك هربا من مكة ولم يحصل العسكر على قبضهما، فلما توجه العسكر عادا إلى مكة.

سنة إحدى عشرة وسبع مئة: حجّ الشاميون وأميرهم علاء الدين طنبغا، ومعهم أربع محفّات: المحمل السلطاني، ومحفة لأَمير الحاج، ومحفة بنت الأَمير سيف الدين كجكي، ومحفة للأَمير علاء الدين أمير عقلة.

سنة اثنتي عشرة وسبع مئة: حجّ الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك، ومعه نحو أربعين أميراً، وستة آلاف ملوك على الهجن، ومئة فارس، وكان أمير الحاج المصري الأَمير مظفر الدين قيدان الرومي، وهرب أميرا مكة حُميضَة ورُميثةَ من مكة لما قدمها الناصر تخوفاً منه لما فعلاه من نهب التجار وما لا ينبغي ذكره، ثم عادا إليها بعد ذهاب الناصر.

سنة ثلاث عشرة وسبع مئة: كان أمير الحاج المصري بليان الشمسي، واتصل بالملك الناصر شَكْوَى المجاورين والحجاج من أميرَي مكة حُميضَة ورُميثة، فندب السلطان إلى مكة عسكراً جَرَّاراً، فيهم من المماليك الأَتراك ثلاث مئة وعشرون فارساً، ومن أشراف المدينة خمس مئة فارس خارجاً عما يتبع هؤلاءِ من المتخطفة والجراميَّة، ومقدمهم سيف الدين فقصيٌّ الناصري، والي قوص وجماعة من الأُمراء، وجهّز معهم أبا الغيث بن أبي نُمَي، وجاء من دمشق الأَمير سيف الدين بلبان البدري فلما علم حُميصة ورُميثة بأَمرهم خرجا من مكة وتوجها إلى حَلْي بْنِ يعقوب، فلما انقضى الموسم وخرج الحاج توجه جميع الأُمراء المجردين صحبة أمير الحاج بلبان الشمسي، وكان كثير الطمع، مفرطاً في أمر الحاج، سَيِّىءَ السيرة، وأقام الأَمير فقصي بالعسكر، حتى رتب الشريف أبا الغيث في إمارة مكة، وأقام معه بها.

سنة أربع عشرة وسبع مئة: وقع بمكة حروب بين الأَخوين حميضة وأبي الغيث في ذي الحجة بالقرب من مكة، وخرج أبو الغيث بِخَيْفِ بني شديد بأَمر أخيه حُميضة، وكانت جماعة أبي الغيث أكثر عدداً، ولكن رُزِق حُميضة النصر واستقر بمكة.

سنة خمس عشرة وسبع مئة: كانت الوقفة بالجمعة، وأمير الركب المصري عز الدين أيدمر الكرندي، وحجّ معه الأمير سيف الدين أرغون النائب، وكان الشريف رُميثة بن أبي نُمَيّ تجهّز إلى الأبواب السلطانية بالقاهرة، وأظهر التوبة والاعتذار عن سالف ذنوبه، وسأل العفو عنه وإنجاده على أخيه حُميضة، فقبل السلطان عذره وعفا عنه، وجرّد معه طائفة من العسكر مقدمهم الأمير مجد الدين ذمرخان بن قرمان، والأمير سيف الدين طندمر الجمدار، فتوجها هما والشريف رميثة إلى الحجاز في ثاني شعبان، ورحلوا من بركة الحاج في أربعة أيام، وكان الشريف حميضة مرض في شعبان وتغيّر سمعه، وحضر إلى بيت الله الحرام وتاب، وذكر عنه أنه ما يتعرّض لأحدٍ من المجاورين ولا التجار، ثم بلغه وصول العسكر مع أخيه رُميثة وأنهم قاربوا مكة، فخرج قبل وصولهم بستة أيام وأخذ المال النقد والبُرّ وهو مئة حمل، وأحرق الباقي في الحصن الذي في الجديد بوادي مَر الظهران، وقطع ألفي نخلة ثم توجه إلى الخلف والخليف، وهو حصن بينه وبين مكة ستة أيام، والتجأ حميضة إلى صاحبه وصاهره لعله يحتمي، ثم وصل العسكر إلى مكة، وأقاموا بها ثلاثة عشر يوماً، وتوجّهوا إلى الخلف والخليف، فواقعوا حميضة وصاحب الحصن بها وأخذوا جميع أموال حُميضة وخزائنه، ونُهِبَ الحصن وأُحْرِق، وأُسر ولد حميضة، وعمره اثنتا عشرة سنة، وسُلِّمَ إلى عَمه رَميثة، ثم رجع الجيش إلى مكة واستقرّوا إلى أن حضروا الموقف، ورجعوا مع المصريين، واستقر الأمير رُميثة بمكة، ونجا أخوه حُميضة بنفسه، ولحق بالعراق.

سنة ست عشرة وسبع مئة: كان أمير الحاج سيف الدين أرغون (الدوادار) الناصري، نائب السلطنة المعظمة بالقاهرة، وتصدّق بصدقات كثيرة بمكة والمدينة.

سنة سبع عشرة وسبع مئة: كان أمير الحاج المصري سيف الدين قحليس ومعه جماعة من الأمراء، وقدم الشريف حُمَيضة من بلاد العراق، على فرس واحد، مسافة عشرين ليلة، ومعه اثنان من أعيان التتار، هما روقيدي وملك شاه، ومعه ثلاثة وعشرون راحلة فضلت من العسكر الذين خرجوا صحبته من أبي سعيد بن خرْبَنْدَه، ملك التتار، وساعده الرافضة لنصرة حميضة وغزو مكة، ونبش قبرَي الشيخين من جوار النبي ﷺ، فحاربهم الأمير محمد بن عيسى أخو مُهَنّا، وكان ببلاد التتار قد خرج عن طاعة السلطان لما بلغه الخبر، فكسرهم ونهبهم، فأقاموا بوادي نخلة بعد أن لقوا في طريقهم شدة، واستأذن حُميضة أخاه رُميثة في دخول مكة فمنعه من ذلك، إلا بعد إذْن من السلطان فأرسل له يخبره بذلك، فكتب السلطان إلى حميضة ومَن معه من دوقيدي وملك شاه

يطلبهم بالحضور بين يديه بالأَمان وجهّز لهم عسكرا صحبة الأمير سيف الدين إينمش المحمدي، وسيف الدين بهادر العبدي أمير علم، فوصلوا إلى مكة، وأرسل الأميران إلى حميضة في معاودة الطاعة والتوجه معهما إلى الأَبواب السلطانية، فاعتذر من قلة النفقة، فأعطياه مالاً، فلما قبضه تغيَّب، وعاد الأَميران إلى القاهرة.

وفيها ـ أو في التي بعدها ـ بعد عود الحاج من مكة وثب الشريف حُميضة على أخيه رُميثة بموافقة الْعَبِيد، وأخرجه من مكة، فتوجه رُميثة إلى نَخْلَةَ، واستولى حميضةُ على مكة، وقطع الخطبة السلطانية، وخطب لملك العراقين أبي سعيد بن خرْبَنْدا، وأخذ أموال التجار.

سنة ثمان عشرة وسبع مئة: كان أمير الحاج المصري مغلطاي الجمالي.

وحجّ من العراق محمل، وكان المقدم عليه رجل شجاع ولم يمكن العربان لأَخذ شيء من الحجاج، وبعث معهم الوزير علي شاه وزير السلطان أبي سعيد خرْبَنْدا ملك التتار، على يد الحاج هولاواج نائب السلطنة بالعراق، حَلقَتَيْنِ من ذهب، مُرَصَّعَتَيْنِ باللؤلؤ والبلخش، كل حلقة وزنها ألف مثقال، وفي كل حلقة ست لؤلؤات فاخرات، وبينها ستُّ قطع بَلَخْش، فاخر، ليعلقا في الكعبة فعارض أمير الركب المصري في تعليق ذلك، إلا بإِذن صاحب مصر، فقال الحاج هولاواج إن الوزير علي شاه كان نذر متى ظفر بخواجا رشيد الدين وقتله أن يعلق على باب الكعبة هاتين الحلقتين. فيقال: إنه أذن في تعليقهما زمناً قليلاً، ثم رُفعتا وأخذهما أمير مكة إذ ذاك رُمَيْثة بن أَبي نُمَيٍّ، قيل قبض أمير الحاج عليه، بسبب مباطنته لأَخيه حُميضة على العسكر المجهّز له في ربيع الأَول، لما اتصل العلم بالناصر صاحب مصر، مما فعله لأَخيه حُميضة ومباطنة مقدم العسكر سيف الدين بهادر الإِبراهيمي، لكونهما ركنا إِليه، وتقاربا من بعضهما بعضاً، وباتا على ذلك، ولم يقدر الإِبراهيمي على مراجعة حميضة، والقبض عليه، فاقتضى رأيُ أمير الحاج المصري بالقبض على الإِبراهيمي وعلى رُمَيْثَةَ، وكان القبضُ عليهما في رابع عشر ذي الحجة وحُمِلا إلى مصر تَحْتَ الاحتفاظ، فسار بهما إلى القاهرة، وحصل للناس مشقة كبيرة لعجلته في السير، فإنه دخل بالمحمل إلى القاهرة في ثاني عشر المحرم، وكانت العادة أولاً أن يقدم المحمل في ثامن عشر المحرم، ثم استقر دخوله في الأَيام الناصرية يوم الرابع والخامس والعشرين فأَنكر عليه السلطان ما فعله، وجهّز محمد الرديني بمئة جمل عليهما الماء والزاد، برسم حمل مَن انقطع من الحاج، فسافر من يومه فحملهم ـ جزاه الله خيراً ـ.

سنة تسع عشرة وسبع مئة: حجّ صاحب مصر الناصر محمد بن قلاوون حجته الثانية، ومعه المؤيد صاحب حماة، ونحو خمسين أميراً من المقدمين و(الطبل خاناه) والعشراوات، وجماعة من أهله، وأعيان دولته، وذلك في تاسع ذي القعدة، وأبطل سائر المكوس من الحرمين، وعوَّضَ أميرَي مكة والمدينة عنها أقطاعاً بمصر والشام، وأحسن إلى أهل الحرمين، وأكثر الصدقات، وعمل معروفاً كثيراً في الحرمين.

وكان أمير الحاج المصري شمس الدين طواشي أمير مجلس.

وحجّ الركب العراقي فخرجت عليه العرب ونهبوه، وأخذوا من الحاج شيئاً كثيراً، فسأل أبو سعيد بن خَرْبَنْدا عن قدر ما يأخذون من الركب، فقيل له: نحو ثلاثين ألف دينار فرتّب لهم ستين ألف دينار.

سنة عشرين وسبع مئة: كانت الوقفة الجمعة، قال البرزالي وابن الجوزيّ: فيها وقف الناس بعرفة يوم الجمعة بلا خلاف وهذه تكملة مئة جمعة وقفها السلمون من الهجرة النبوية إلى الآن.

وكان أمير الركب المصريّ بهاء الدين أضلم، وجعل حجاج مصر ستة ركوب، رحل أولهم من القاهرة يوم الاثنين سادس عشر شوال، ورحل آخرهم يوم الجمعة ثاني عشر شوال، وسار الأمير أرغون النائب أول القعدة في جماعة، ثم توجه الفخر ناظر الجيش في جماعة، وسار من القاهرة إلى مكة في مدة اثْنَيْ عشر يوماً؛ وتوجه من البحر خلائق، وحجّ أرغون (الدوادار) النائب ماشياً من مكة إلى عرفة كهيئة الفقراء، وحضر الموقف عالم كبير من جميع الأقاليم والبلاد، حتى أنه اجتمع بها ما يزيد على ثلاثين رَكْباً، قال الشيخ رضي الدين الطبريُّ إمام المقام: من عمري أحج، ولم أَرَ مثلَ هذه الوقفة. ووقف محمل العراق خلف محمل المصري ومِنْ خلفه اليمانِيُّ.

واعتنى أبو سعيد بن خَرْبَنَدا بأمر حاج العراق عناية تامة، وغشَّى المحمل بالحرير، ورصّعه بالذهب، وباللؤلؤ والياقوت، وأنواع الجواهر، فقوم ذلك بمئة تومان، قال الذهبيُّ المؤرخ: وحَسَبْنَا ذلك بمئتي ألف دينار وخمسين من الذهب المصري، وجعل للمحمل خَزَا ينصب عليه إذا وُضِع، فلما مَرَّ ركب العراق بقرب الْبَحْرَيْنِ خرج عليهم ألف فارس يريدون أخذهم، فتوسّط الناس بينهم على أن يأْخذوا من أمير الركب ثلاثة آلاف دينار، فلما قيل لهم: إنا جئنا من العراق بأمر الملك الناصر صاحب مصر، وكتابه إلينا بالمسير أعادوا المال، وقالوا: لأَجل السلطان

الملك الناصر نخفركم بلا شيء. ومكنوهم من المسير، فبلغ ذلك السلطان فَسُرَّ به، وبالغ في الإنعام على العربان، ودُعِيَ لأبي سعيد بعد الدعاء للسلطان بمكة، وكان السلطان قد بعث إلى أُمراء المغل وأعيانهم الخلع، فلما انقضى الحج خلع عليهم الأَمير أرغون، وتصدّق الأَمير ناظر الجيش في الحرمين بعشرة آلاف دينار، وكانت مكة في هذه السنة طيبة من كثرة المياه والخير والأَمن، وأُرْسِل إليها من الغلال ما له قيمة كبيرة.

وجاء في هذه السنة من اليمانيين والكارم خلق كثير إلى مكة، بسبب عدل عُطَيْفَةَ، وكان السلطان أطلق أخاه رُمَيثة من الحبس، وأرسله إلى مكة شريكاً له فيما قيل، فتألم أهلُ مكة بوصول رُميثة، لأنهم مجمعون على حُبِّ عُطيفة، وقتل بعضُ المماليك المقيمين بمكة حُمَيْضَة، فقتل السلطان قاتله، فوراً به.

سنة إحدى وعشرين وسبع مئة: حجت خَوَنْد طغاي، جارية الملك الناصر أُم ولده أَنوك، ولم يعهد سفر امرأة من نساء الملوك مثل سفرها، وسافر معها أَمير مجلس والقاضي كريم الدين الكبير، وخرج النائب والحجّاب في خدمتها إلى بركة الحاج، حتى رحلت في يوم الأَربعاء سابع عشر من شوال وحجّت وعادت، فخرج السلطان إلى لقائها ببركة الحاج، وحجّ نائب دمشق تتكن الناصري، وكان بمكة وما حولها غلاء شديد في الحَب والسمن واللحم، وعدم التمر بالكليَّة، وحلف بنو حسن لرميثة، وأظهر رُميثة مذهب الزيدية، فكتب أَمير مكة عُطيفة للسلطان بذلك فخرج من هذا الأَمر فاشتد غضبه على رميثة لذلك.

سنة اثنتين وعشرين وسبع مئة: توجه صاحب مكة عُطيفة بن أبي نمَيٍّ إلى القاهرة، وأَخبر بقحط الحجاز لعدم المطر، وأَنهم استسقوا ثلاثاً فلم يُسْقَوْا، فرسم السلطان بحمل أَلف إردَبّ، و[حمل] النائب أَلف إردب والحاج آل ملك أَلف [إردب] فوصلت إلى مكة، وتُصُدِّق بها، فانحلَّ السِّعْرُ، وأُغِيثُوْا بعده، وأَسقط الناصر صاحب مصر المكس المتعلق بالمأكول بمكة فقط، وعوض أَميرها ثلثي بلدماميل، من صعيد مصر - جزاه الله خيراً -.

سنة ثلاث وعشرين: كانت الوقفة بالجمعة، وعدة ركوب الحج من مصر ستة ركوب، على كل ركب أَمير، القاضي بدر الدين بن جماعة وابنه عز الدين، والأَمير سيف الدين آل ملك، والأَمير بيبرس (الدوادار) نائب السلطنة، والفخر ناظر الجيش، والأَمير سعد الدين طشتمر حمص أَخضر الساقي.

سنة أربع وعشرين وسبع مئة: كان أَمير الحاج أَيتمش المحمدي، وحجّ ملك التكرور موسى بن أَبي بكر الأَسود ومعه أَكثر من خمسة عشر أَلفاً من التكاررة، ودخل إِلى السلطان بالقاهرة فسلّم ولم يجلس ثم ركب حصاناً، وأَهدى هو إِلى السلطان أَربعين ألف مثقال وإِلى نائبه عشرة آلاف، وكان أَميرا مكة رميثة وعطيفة ابنا أبي نُمي.

سنة خمس وعشرين وسبع مئة: كان الركب المصري قليلاً بسبب قلة الماء في المنازل، ورجع أَكثرهم، وحجّ الركب العراقي وكان ركبه كثيراً، وكان بمكة رخاء، بيع الإِردب القمح المصري بثمانية عشر درهماً كاملية، والشعير بِاثنيْ عشر درهماً.

سنة ست وعشرين: حجّ الأَمير أَرغون (الدوادار) نائب السلطنة بمصر.

وقدم السيد رميثة إِلى مصر، وكان السيد عُطيفة منفرداً بإمرة مكة، فوصل إِليه مرسوم السلطان بتعطيل مقام الزيدية، والإِنكار عليه في ذلك، وفي أُمور جرت بمكة، فدخل السيد عُطيفة المسجد، وأَخرج إِمام الزيدية إِخراجاً عنيفاً، ونادى بالعدل في البلاد، وحصل بذلك السرور للمسلمين.

وفيها عمر بازان جوبان نائب السلطنة بالعراقين [عين عرفة] وكان الناس في جهد عظيم، بسبب قلة الماء بمكة، فإِن الراوية كانت تباع بها في الموسم بعشرة دراهم مسعودية، وفي غير الموسم من ستة إِلى سبعة، فقصد الأَمير جوبان عمل خير بمكة فَدَلَّهُ بعضُ الناس على عَيْنٍ كانت تجري في القديم تعطلت، فندب لذلك بعض جماعته، وأَعطاه خمسين أَلف دينار، وجهّزه في سنة خمس وعشرين، فلما قضى حجهُ تأَخر بمكة واشتهر أَمره بها، وأَصرف على العمال كل واحد ثلاثة دراهم، ولم يَشقّ على أَحد منهم في العمل، بل يعملون باختيارهم، فأَتاه جمع كبير من العرب حتى النساء، إِلى أَن جرى الماءُ بمكة بين الصّفا والمروة، في ثاني جمادى الأُولى من تاريخه، فكانت مدة العمل أَربعة أَشهر، فكثر النفع بها، وعمّ، حتى زُرع بها الخضروات، وكان جملة مصروفها مئة ألف دينار وخمسين أَلف درهم، فلما فرغ بازان من عمارتها قدم إِلى مصر، واجتمع بالسلطان، وعرّفه خَبَر العين، فشقّ عليه ذلك، وقال له: مَنْ أَذِنَ لك فيه؟ وَلِمَ لاَ شاورتني؟ فقال: إِنَّ جوبان فعل ما فعل من الخير، وبقي الأَمر للسلطان إِنْ شاء يخرب أَو يعمر فأَمره إِليه!! فلما سمع السلطان كلامه سكت، واتفق في إِجراء هذه العين قضية ملخصها: أَنَّ الشيخ خليفة الكيلاني مباشر عمارتها ذكر أَنَّ الماء كان يغور في موضع لا يُدْرَى أَيْنَ يذهب، ففي بعض

الأَيام خرج بعض العمال من تحت الحفر مصروعاً، ويقول: يا مسلمين لا يحلُّ لكم أَن تظلمونا فسَأَلْتُهُ: بأَي شيءٍ ظلمناكم؟ قال: نحن سكان هذه الأَرض ولا فيهم مسلم غيري، وتركتهم ورائي مسلسلين، وإِلا كنتم لقيتم منهم شرًّا. وقد أَرسلوني إِليكم يقولون: لا ندعكم تمرون بالماء حتى تبذلون لنا حقًّنا، قلت: وما حقكم؟ قال: تَأْخذون ثوراً فتزينونه بأَعظم زينة وتلبسونه، وتزفُّونه من داخل مكة إِلى هنا، فاذبحوه ثم اطرحوا لنا دمه وأَطرافه ورأسه في بئر عبد الصمد، وشأْنكم وما أَنتم فيه، وإِلا فلا ندع الماء يجري في هذه الأَرض أَبَداً، فقلت: نعم أَفعل ذلك. ثم إِنَّ الرجل أَفاق ومسح وجهه وعينيه وقال: لا إِله إِلا الله، أَين أَنا؟ وقام ليس به شيء، فذهبت إِلى بيتي، فلما أَصبح جاءَني رجل لا أَعرفه وأَخبرني أَنه رأَى البارحة في النوم ثوراً والناس يزفونه، حتى مرُّوا به على داري، وخرجوا به من مكة فذبحوه، وأَلقوا رأْسه في البئر، فحكيت الواقعة والمنام لأَهل مكة وكبرائهم، فاشتروا ثوراً ولبسوه وزيّنوه وأَخرجوه يزفونه، حتى انتهينا إِلى موضع الحفر فذبحناه، وأَلقينا رأْسه وأَطرافه ودمه في البئر التي سماها، فما هو إِلا أَن طرحنا ذلك في البئر فكان من أَخذ بيدي فأَوقفني على مكان وقال: احفروا هاهنا، فحفرنا، وإِذا بالماء يموج فيه، وبجانبه طريق منقورة في الجبل يمرُّ تحتها الفارس بفرسه، فأَصلحناها، وجرى الماء فيها يسمع هَدِيره، فلم يكن إِلا أَربعة أَيام وإِذا بالماء بمكة وبالبئر المذكورة، وكان مَنْ حولها لا يعرفون بها ماء فصارت مورداً، ولله الحمد.

سنة سبع وعشرين وسبع مئة: كان الحاج المصري قليلاً، وأَميرهم جمال الدين أَقوش نائب الكرك، وصلّى الحاج الشامي بمنى خمس صلوات وساروا إِلى عرفة بعد طلوع الشمس من يومها، وحجّ العراقيون ومعهم تابوت جوبان نائب السلطنة بالعراق، وحضروا به الموقف وطافوا به حول البيت ليلاً، وذهبوا به إِلى المدينة ليدفنوه بالتربة التي بناها بمدرسته فيها عند باب الرحمة أَحد أَبواب المسجد النبويِّ، فلم يُمَكَّن من الدفن بها، ودُفن بالبقيع.

سنة ثمان وعشرين وسبع مئة: كانت الوقفة بالجمعة باتفاق، وأَمير الركب المصري شهاب الدين أَحمد بن (المهمندار) وصحبته الأَمير طغز دمر، والفخر ناظر الجيش، وست حذق، وعملت معروفاً كثيراً وكانت مكة رخية الأَسعار، في القمح والدقيق، واللحم والعسل والسمن.

وعمر ابن هلال الدولة الشبابيك الحديد، المطيفة بمقام إِبراهيم الخليل عليه السلام، من جوانبه الأَربعة وكانت خشباً قبل ذلك، وَسَطْح المسجد، وأَبوابه،

والمِطْهَرَةَ الناصرية عند باب بني شيبة، وعَيْن الثقبة وأَجراها في عين بازان وامتلأت البِرَكُ، وزرع بها الخضروات وغيرها، وكان جملة المصروف عليها خمسة آلاف درهم وذلك بأَمر الملك الناصر صاحب مصر.

سنة تسع وعشرين وسبع مئة: لم أَعلم من خبر الحاج شيئاً.

سنة ثلاثين وسبع مئة: كان أَمير الحاج المصري سيف الدين خاص ترك، ومعه الأَمير سيف الدين الدمر (أَمير خازندار) والأَمير أَحمد ابن خالة السلطان، والأَمير علم الدين سنجر الجاولي.

وحضر الشريف عُطيفة، ولبس خلعة السلطان، ولم يحضر أَخوه رُمَيثة، ولا اجتمع بالأُمراء، ولكنه حضر الوقف بعرفة مع أَخيه.

وحجّ العراقيون ومعهم فيل بعثه أَبو سعيد بن خَربَنْدَا ملك العراقيين، يحمل المحمل فتشاءم الناس به وقالوا: هذا عام الفيل!!

ووقع بمكة فتنة سببها أَن أَمير الركب العراقي كان يسمى محمد الجويج من أَهل توريز قرابة أَولاد جوبان، فترقّى بهم إلى معرفة السلطان أَبي سعيد، فعظم أَمره، وجعله من ندمائه، وبعثه رسولاً إلى مصر غير مرة، فأُعجب به السلطان، ولاق بخاطره، إلى أَن بلغه عنه أَنه يُعَرِّض في مجلس أَبي سعيد بشيءٍ ذكره مما يكرهه السلطان، فتنكّر له، وأَسَرَّ ذلك في نفسه، فلما بلغه عنه أَنه تعرض، وسار أَمير الركب العِراقي كتب إلى الشريف عُطيفةَ سِرًّا أَن يتحيَّل في قتله، فلم يجد بُدًّا من امتثال الأَمر، وأَطلع ولده على ذلك مباركَ بن عُطيفةَ، ومَن يثق به، وتقدّم إليهم بإعمال الحيلة فيه، فلما قضى الحج والنسك، عاد منهم الأَمير علم الدين سنجر الجاولي إلى مصر، ومعه جماعة في ثاني عشر ذي الحجة وتأَخر أَمير الحاج الأَمير سيف الدين خاص ترك، والأَمير الدمر، أَحمد ابن خال السلطان، ليصلُّوا بمكة صلاة الجمعة ومعهم بقية حجاج مصر، فلما حضروا الجمعة، وصعد الخطيب المنبر، أَراد الشريف أَن يعمل مَا رُسِمَ، فأَخذ العبيد في إثارة الفتنة بين الناس، ليحصل الغرض بذلك، وأَول ما بَدَأُوا أَن عبثوا ببعض حاج العراق، وخطفوا شيئاً من أَموالهم بباب المسجد الحرام، المعروف بباب إبراهيم، وكان الشريف عُطيفةُ جالساً إلى جانب الأَمير خاص ترك أَمير الحاج، فصرخ الناس بالأَمير الدمر، وليس عنده عِلمٌ بما كتب السلطان للشريف عُطَيفة، وكان مع ذلك شجاعاً حادَّ المزاج، قويَّ النفس فنهض ومعه جماعة من المماليك، وقد تزايد صراخ الناس، وأَتى الشريف رُميثة، وقبض

بعض قواده وأَحدق به فلاطفه الشريف فلم يَكُفَّ، واشتد صياح الناس، فركب الشريف مبارك بن عطيفة في قواد مكة بآلة الحرب، وركب جند مصر فبادر خليل ولد الأَمير الدمر ليطفىء الفتنة، وضرب أَحد العبيد، فرماه العبد بحربة فقتله، فلما رأَى أَبوه ذلك اشتد غضبه، وحمل عليه بنفسه لأَخذ ثأْر ولده، فرمى الآخر بحربة فمات، ويقال: بل صدف الشريف مبارك بن عطيفة وعمه رميثة وقد قصد أمير الركب العراقي وعليه آلة الحرب، فقال له رجل: ويلك تريد أَن تثير فتنة، وهمّ أَن يضربه بالدبوس، فضربه مبارك بحربة كانت في يده أَنفذها من صدره، فخرَّ صريعاً، وقضى الله بالشهادة لجماعة آخرين، منهم مملوك الأَمير الدمر، وأَمير عشرة يُعرف بابن الباجي وجماعة أُخر، فركب أَمير الركب عند ذلك، ونجا بنفسه، ورُميَ مباركُ بن عطيفة بسهم في يده فَشُلَّتْ، وركب أَهلُ مكة سطحَ الحَرم، ورموا الأَمير أَحمد ومَن معه بالحجارة، وقد أَفرغ نُشَّابَهُ بين يديه، هو ومَن معه، ورمى بها حتى تخلص أَيضاً، وفرَّ أَمير الركب العراقي، ودخلت الخيلُ المسجدَ الحرام، وفيه جماعة من بني حسن ملبسين غائرين، واختبط الناس بأُسرهم، وتفرّق الناس، وركب بعضهم بعضاً، ونُهبت الأَسواق، وقُتلت جماعة من الحجاج وغيرهم، قتلهم عبيد الأَشراف، وغوغاء أَهل مكة، ونُهبت للناس أَموال كثيرة، وجرت أُمور عجيبة. وصلّى الناس الجمعة والسيوف تعمل، وخرج الناس إِلى المنزلة والخيل في أَثرهم، يُضْرَبُون بالسيوف يميناً وشمالاً، وما وصلوا إِلى المنزلة وفي العين قطرة، ودخل الأُمراء بعد الهزيمة إِلى مكة لطلب بعض الثأْر، وخرجوا فَارِّيْنَ مرة أُخرى، ثم بعد ساعة جاء الأُمراء خائفين وبنو حسن وغلمانهم أَشرفوا على ثنية كُدَا من أَسفل مكة، وتحيَّر الشريف عُطيفة في أَمره، وما زال يداري الأَمر حتى خرج الحاج جميعهم من مكة، وأُمروا بالرحيل، وتوجهوا إِلى بلادهم، ولولا أَن سلّم الله تعالى لكانوا نزلوا عليهم ولا بقي من الحاج مُخبر، ووقف أَمير المصريين في وجوههم فأمر بالرحيل، فاختبط الناس وجعل أَكثر الناس يترك ما ثقل من أَحمالهم، ونهب الحاج بعضهم بعضاً، وكان من غريب الاتفاق أَن في يوم الجمعة الذي قُتل فيها الدمر كأَنما نودي في القاهرة ومصر وقلعة الجبل بقتل الدمر في فتنة كانت بمكة في هذا اليوم، وتحدّث الناس بذلك حديثاً فاشياً إِلى أن بلغ السلطان وأُمراء الدولة فلم يَعْبَأُوا به، وجعلوه من تُرَّهات العامة، وسلم أَمير الحاج العراقي الذي كان السبب، وحضر بالفيل المواقف كلها، وسار به إِلى المدينة النبوية، فلما وصل إِلى الفُرَيْش الصغير، قُبيل البيداء الذي يُنْزَل منه إِلى ذي الحليفة وقف وتقهقر، وصار كلما يقدم رجلاً تأَخر مَرَّةً بعد أُخرى، فضربوه ليسير وهو يأْبى

الرجوع إلى القهقرى، فصار كلما أكره على أن يتقدم إلى جهة المدينة تأخر إلى ورائه، هذا وهم يضربونه وهو يتأخر، إلى أن سقط ميتاً في يوم الأحد الرابع عشر من ذي الحجة. ويقال: إن المصروف عليه من حين خروجه من العراق إلى أن هلك زيادة على ثلاثين ألف درهم، ولم يُعْرف مقصد أبي سعيد في بعثِهِ الفيل إلى مكة المشرفة.

وفي سادس عشر ذي الحجة جاء سيل عظيم بلا مطر، وامتلأت فيه الْبِرَكُ التي في المعلاة، وعند المولد النبوي، وخَرَّبَ البساتين، وملأ المسجد الحرام بالأوساخ.

سنة إحدى وثلاثين وسبع مئة: حجّ الأمير علاء الدين مُغلطَاي، ومات في رجوعه في سابع عشر المحرم من السنة بعد هذه بسطح عقبة أَيْلَةَ، وحمل إلى القاهرة، وكان السلطان لما بلغه صحة قتل الدمر شَقَّ عليه ذلك، وكتب بإحضار أمير مكة الشريف عطيفة [وولده وقواده، فلما قدم الحاج أُخبر بكثرة الفتن بمكة بين الشريفين عطيفة ورميثة، وقوة رميثة على عطيفة] ونهبه مكة وخروجه عن الطاعة، فلما بلغهما المرسوم خرجا عن الطاعة، فشقَّ ذلك على السلطان، وعزم على إخراج بني حسن من مكة، وجهّز لهم عسكراً مقدمهم الأمير سيف الدين ايتمش، أمير مئة، مقدم ألف، وأوصاه في دار العدل بحضرة القضاة أن لا يدع بمكة أحداً من الأشراف والقواد وغيرهم، وأن يحرق نخلهم، ويخرِّب مساكنهم، ويُخْرِج حريمهم منها، فوعظ السلطان قاضي القضاة جلال الدين القزويني وذكره بوجوب تعظيم الحرم، فاستقر الأمر على كتابة تقليد لرميثة بإمرة مكة، وسار العسكر إليها في ست مئة فارس، فوصلوها في العشر الأُوَل من شهر ربيع الآخر، فوجدوا الشريف عُطيفة ورميثة وأولادهما وعسكرهما هربوا إلى جهة اليمن، كان الشريف رميثة جمع عسكراً للمحاربة، فكتب له الأمير أيتمش يعرِّفه بأمان السلطان له، تقليده لإمرة مكة، ويحضه على الحضور إليه، ويرغّبه في الطاعة، ويحذره عاقبة ذلك، فلما وقف على كتابهِ اطمأنَّ إليه، وأخبره بما كان عزم عليه من الحرب، وطلب منه أن يحلف له ومَن معه أن لا يغدروه، وأن يقرضه خمسين ألف درهم، يتعوّضها من إقطاعه، فتقرّر الحال على أربعين ألفاً وغير ذلك ثمن السكر والزاد، فتقدّم وزيره يحلف العسكر وأميرهم، فاجتمع مشايخ الحرم وأعوانه، فحلفوا أيماناً مؤكدة للشريف رُميثة إذ جاءهم لا يؤذونه، وسيَّروا له أماناً ومنديلاً، فلما جاء الأمان ركب إلى مكة، ولاقاه الأمير بالإكرام، وألبسه تشريف السلطان وقُرِىءَ تقليده بإمارة مكة دون أخيه عُطيفة، وعزم على تقدمة شيءٍ لِلأُمراء فامتنعوا من قبول الهدية منه، وكتبوا إلى السلطان بعوده إلى

الطاعة، وأقاموا بمكة إحدى وثلاثين يوماً، ثم توجّهوا منها إلى المدينة، ثم إلى القاهرة بعد أن تأخر منهم بمكة خمسون نقيباً بسبب الحج ويعودون مع الركب، وحصل بفعلهم خير كثير ـ بحمد الله تعالى ـ ولم تُرَقْ بسببهم مِحْجَمَةٌ ولا آذوا أحَداً من الخلق، فلما وصل العسكر إلى القاهرة في سابع جمادى الآخرة دخل الأمير أيتمش على السلطان، فشكره على ما كان منه، وكان القاضي جلال الدين القزويني حاضراً فأثنى عليه وقال: هذا الذي فعله هو الإسلام، وكانت مدة غيبتهم أربعة أشهر إلا ثمانية أيام ـ ولله الحمد ـ.

قال المقريزيُّ في كتابه «المواعظ والاعتبار»: إنه لما بلغ السلطان خبر قتل الدمر غضب غضباً شديداً، وصار يقوم ويقعد، وأبطل السِّمَاط وأمر فجرد من العساكر ألف فارس، كل منهم بخوذ وجوشن، ومئة فردة نُشَّاب، وفأس برأسين أحدهما للقطع والأُخرى للهدم، ومع كل منهما جملان وفرسان وهجين، ورسم لأمير هذا العسكر أنه إذا وصل إلى ينبع وعَدَّاهُ، لا يرفع رأسه إلى السماء بل ينظر إلى الأرض، ويقتل كل مَن يلقاه من العربان إلا مَن يعلم أنه أمير عرب، فإنه يقيده ويسحبه معه، وجرّد معه من دمشق ست مئة فارس على هذا الحكم، وطلب الأمير ايتمش أمير هذا الجيش ومَن معه من أُمراء والمقدمين وقال له بدار العدل يوم الخدمة: إذا وصلت إلى مكة لا تدع أحداً من الأشراف ولا من القواد ولا من عبيدهم يسكن مكة، ونادِ فيها: مَن أقام بمكة حلَّ دمُه، ولا تدع شيئاً من النخل حتى تحرقه جميعه، ولا تترك بالحجاز دمنة عامرة. وخرِّب المساكن كلها، وأقم في مكة بمَن معك حتى أبعث إليك بعسكر ثان، وكان القضاة حاضرين، فقال قاضي القضاة جلال الدين القزويني: يا مولانا السلطان هذا حَرَمٌ قد أخبر الله عنه أنَّ مَن دخله كان آمِناً، وشَرَّفَهُ. فردّ عليه جوابه في غضب فقال الأمير ايتمش: يا خوند فإن حضر رميثةُ وعطيفةٌ للطاعة وسألا الأمان؟ فقال: أمِّنْهُ. ثم لما سكن عنه الغضب كتب باستقرار أهل مكة وتأمينهم، وكتب أماناً نسخته: (هذا أمان الله سبحانه وتعالى، وأمان رسوله ﷺ، وأماننا للمجلس العالي الأسدي رُميثةَ بن الشريف نجم الدين أبي نُمَيٍّ محمد، بأن يحضر إلى خدمة (الصنجق) الشريف، صحبة الجناب العالي السيفي، ايتمش الناصري، آمِناً على نفسه وماله وأهله وولده، وما يتعلق به، لا يخشى حلول سطوة قاصمة، ولا يخاف من أَخْذَةٍ حاسمة، ولا يتوقع خديعة ولا مكراً، ولا يحذر سوءاً ولا ضرراً، ولا يستشعر مخافة ولا وَجلاً، ولا يرهب بَأساً وكيف يرهب مَن أحسن عملاً، بل يحضر إلى خدمة (الصنجق) آمِناً على نفسه وماله وأهله، مطمئناً واثقاً بالله ورسوله،

وبهذا الأَمان الشريف المؤكد الأَسباب، المبيض الوجه، الكريم الإِحسان، وكلما يخطر بباله أننا نؤاخذ به فهو مغفور، ولله عاقبة الأُمور، وله مِنَّا الإِقبال والتقديم، وقد صفحنا الصفح الجميل، وإنَّ ربك هو الخلاَّق العليم، فليثق بهذا الأَمان الشريف، ولا يُسِيءْ به الظنون، ولا يصغي إلى الذين لا يعلمون، ولا يستشير في الأَمر إلاَّ نفسه، فيومه عندنا ناسخ أَمْسَه، وقد قال ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي خيراً» فتمسّك بعروة هذا الأَمان فإنها وثقى، واعمل عمل مَن لا يضل ولا يشقى، ونحن قَدْ أَمَّنَّاكَ فلا تخف، وراعينا لك الطاعة والشرف، وعَفا الله عما سلف، ومَن أَمَّنَّاهُ فقد فاز، فَطِبْ نَفْساً وقَرِّ عَيْناً فإنَّك أمير الحجاز الشريف والحمد لله وحده).

سنة اثنتين وثلاثين وسبع مئة: كان أمير الحاج المصري عز الدين ايدمر الخطيري، وحجّ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حجته الثالثة، ومعه نحو سبعين أميراً، والأَفضل صاحب حماه، والقاضي جلال الدين محمد القزويني، وعز الدين بن جماعة، وموفق الدين الحنبلي، وعز الدين بن الفرات الحنفي، وفخر الدين النويري المالكي، وجماعة من الأَعيان وغيرهم، وكان القاضي عز الدين بن جماعة والثلاثة بعده ينزلون في خيمة واحدة، فإذا قُدِّمَتْ إليهم الفتوى كتبوا عليها، فلما وصل السلطان إلى ينبع تلقاه الأَشراف من أهل المدينة بحريمهم، وقدم عليه الشريف أسد الدين رُميثة أمير مكة، ومعه قواده وحريمه، فأكرمهم السلطان، وأنعم عليهم، وساروا معه إلى خُلَيْص، وفَرَّ نحو ثلاثين مملوكاً إلى جهة العراق، فلما قدم مكة أكثر فيها من الإنعام على الأُمراء، وأنفق في جميع مَن معه من الأَجناد والمماليك ذهباً كثيراً، وعمَّ بصدقاته أهْلَ الحرم، وفوّض للقاضي شهاب الدين قضاءَ مكة بموت والده نجم الدين الطبريِّ، وأَهْدَى القاضي شهاب الدين للسلطان تمراً وكعكاً في أطباق الخوص، فاستحسن ذلك منه السلطان، وقال: هذا قاضٍ فقير!؟ واجتمع القاضي شهاب الدين الطبري بالسلطان، فسأله عن المراسيم التي تصل مكة من جهته فقال له: كثير منها لا أعرفه، وذكر له الناصرُ أمارة يعرف بها الصحيح من ذلك، وأنَّ القاضي شهاب الدين قطع سبب ذلك نَيِّفاً وأربعين مرسوماً، واجتمع شهاب الدين والناصر وابن هلال الدولة في الكعبة الشريفة، فقال ابن هلال في الكعبة الشريفة للناصر: يا مولانا السلطان هذه الأَساطين التي في جوف الكعبة من سَفِينة نوح. فقال الناصر للقاضي شهاب الدين: هذا صحيح؟ فقال القاضي شهاب الدين للسلطان: كذا قِيْل. فعرف السلطان الناصر أنه أراد السَّتْر، وأن لا يظهر

لابن هلال الدولة منه سوء فعاتبه ابن هلال الدولة بعد ذلك، على كونه لم يُصَرِّحْ بتصديقه، وقال: هؤلاء مُلُوكٌ، ولاَ بُدَّ من الترويح عليهم في القول.

وسأَل السلطان الناصر القاضيَ شهاب الدين الطبريَّ وقال له: سمعنا بمكة فِسْقاً من اللهو واللعب وغيره فقال القاضي شهاب الدين للسلطان: بلدنا هذه كسائر بلاد الله، بها البر والفاجر.

وفي آخر ذي الحجة وقع بمكة أمطار وصواعق، منها صاعقة على أَبي قبيس قتلتْ رجلاً، وثانية بالخيف قتلت رجلاً، وثالثة بالجعرانة قتلت رجلين أيضاً.

سنة ثلاث وثلاثين وسبع مئة: حجّ من مصر الأَمير برسيغا الحاجب، بطلب الشريف رُميثة، ومن العراق باسور أحد عظماء القان، وقتل وقت رمي الجِمَار، وكان من خبره أن ملك الشرق أبا سعيد بن خرْبَنْدَا لما قتل جوبان أراد إِقامة باسور، فَخُوِّفَ من شجاعته، وأَن جوبان كان يريد إِقامته على الملك، فنفر منه أبو سعيد، ثم إِنه استأْذنه في الحج، فَأَذِن له، وقام له بما يليق به، ثم طلب أبو سعيد المجد السلامي، وكتب إِلى صاحب مصر يسأَله في قتله، لتَخوُّفِه منه أن يجتمع عليه المغل، فدفع كتابه إِلى مملوكه قطلوبك السلامي، فقدم إِلى السلطان أول ذي القعدة، فأَركبه النُّجُبَ في عاشره إِلى مكة، ومعه كتاب إِلى الأَمير برسيغا الحاجب، وموافقته سِرًّا على قتل باسور فقدمها سِرًّا أولَ ذي الحجة، فلم يوافقه رُمَيْثَةُ على ذلك، واعتذر بالخوف من عائلته، فأَعد برسيغا بعض بطانته من العربان على ذلك، ووعده مالاً ملأَ عينه، فلما قضى الحاجُّ النُسُكَ، من الوقوف والنَّحْر، ركب باسور في ثاني يوم النحر، ليرمي الجمار، وركب برسيغا أيضاً. فعندما قارب الجمرة وثب عليه النَّجَّاب، وضربه فأَلقاه إِلى الأَرض، وهرب نَحْو الجَبَل فتبعه مماليك برسيغا وقتلوه أيضاً، خشية من أن يعترف عليه، فاضطرب حجاج العراق، وركبوا فرسانهم، فأَخذوا باسور قتيلاً في دمائه، وساروا إِلى برسيغا، منكرين ما حلَّ بصاحبهم، فَتَبَرَّأَ من ذلك، وأظهر الترحُّم، وقرّر عندهم أنَّ هذا الذي قتله إِنما هو ممن له عليهم ثأْرٌ، وقصد أحد غرمائه، وأنكم قد كفيتم أَمْرَهُ، فإِني قد أخذتُ لكم بثأْره، وقتل قاتله، فانصرفوا عنه، وفي نفوسهم منه شيء، وما زالوا له بالمرصاد، وهو يَتَحَرَّز عنهم حتى افترق ركب الحجاج العراقيين من الحجاج المصريين بالمدينة الشريفة، فَأَمِن برسيغاً على نفسه، وتقدّم الخبر إِلى السلطان مع المبشرين بذلك.

وفيها عمر الناصر بن قلاوون باباً للكعبة الشريفة مُحَلًى بالفضة، وركب عليها

بعد قلع باب المظفر صاحب اليمن في ثامن عشر ذي القعدة، وكان عليه صفائح فضة، صارتْ لبني شَيْبة بعد قلعه.

سنة أربع وثلاثين وسبع مئة: جاء الشريف عُطيفة بن أبي نُمَي من مصرَ، متوليًا نِصْفَ إمْرَة مكة، تشريكاً لِرُمَيْثَةَ، ودخلها، فلما كان ليلة النَّفْر من منى أخرجه الشريف رُميثة من مكة بلا قتال، فتوجّه عطيفةُ إلى مصر صحبة الحاج، وعاد مع الحاج القابل.

سنة خمس وثلاثين وسبع مئة: كانت الوقفة الجمعة، وكان خبر أَهل الرَّجبية أنَّ الشريف عطيفة بمصر، مَلْزُوْماً هو وولده مبارك، ثم قدما مكة صحبة الحاج، وهو على نصف البلاد، ومعه خمسون مملوكاً شِرَاءً مُسْتَخْدَمِيْنَ، وأَخذ نِصْفَ الإِمْرَةِ بلا قتال، وتوافق هو وأُخوه ـ ولله الحمد ـ.

سنة ست وثلاثين: لم يحج العراقيون لموت سلطانهم أَبي سعيد بن خَرْبَنْدَا، واختلاف الكلمة بعده، وقام انقطاعهم سنين كثيرة.

[وفيها تخلّف عن الحج أَمِيْرَا مكة لوحشة بينهما، وتحاربا بمكة في ثامن عشري رمضان بعد الظهر، ولم يحصل لرميثة ظفر، وقتل من أصحابه وزيره واصل بن عيسى الرباعي، وابنُ عمه حُشيفة، ويحيى بن ملاعب، وولَّوْا راجعينَ إلى الْجديد، وقُتِل من أصحاب عُطيفةَ عَبْد أو عبدان ـ فيما قيل ـ وعمرت أساطين المطاف].

سنة سبع وثلاثين وسبع مئة: كان أمير المصري شمس الدين آق سنقر السلاري، واتفق الشريفان عطيفة ورميثة على المشاركة في إمرة مكة، وأقاما بها مدة، ثم توجها إلى ناحية اليمن، بالواديين، وترك عطيفة ولده مباركاً بمكة، ورميثة ولده مغامساً بالجديد، ثم استدعى صاحب مصر الأَخوينِ عطيفة ورميثة للحضور بين يديه، فتوجه إليه رُميثة في ثالث عشر شعبان المكرم، ثم توجه بعده عطيفة فعاد رُمَيْثَة في يوم الخميس سادس عَشرَي ذي القعدة، وهو مُتَوَلٍّ على مكة وحده، ومعه ابناه عجلان ومغامس، وقُبِضَ على أخيه عطيفة بالقاهرة، ولم يزل بها حتى مات، وأَمِنَ الناسُ بمكة.

سنة ثمان وثلاثين وسبع مئة: فيها حجّ كثير من أهل مصر وأميرهم سيف الدين طنبغا المحمدي، وحصل لهم عطش في الْوَجه، ومات به عدة من الخلق، ونحو من أربع مئة حمار، وحجّ من أهل المغرب الحرّة أم السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، صاحب فاس، ومعها خلق عظيم من المغاربة، وكانت في

ركب لها بمفردها قدام المحمل، وكان في خدمتها جمال الدين والي الجيزة والوقفة بالاثنين، وكانت البلاد رخية، بيعت الْوِيْبَةُ الدقيق العلامة الفاخرة بتسعة دراهم، والسمن خمسة أرطال بدرهم، والعسل أربعة أرطال بدرهم، واللحم أربعة أرطال بدرهم، والتمر اثني عشر رطلاً بدرهم، ولذلك لِحُصول السيول من كل وجهٍ، ومعظمها من جهة وادي إبراهيم، ودخل المسجد الحرام حتى بلغ عند الكعبة قامةً وبسطةً، ودخلها من خلال بابها، وعلا الماء على عتبتها أكثر من نصف ذراع، ووصل إلى قناديل المطاف، وأخرب دوراً كثيرة بنحو ثمانين بيتاً، وغرق بعض أهلها، ومات بعضهم تحت الهدم، وكان ذلك في ليلة الخميس عاشر جمادى الأولى، ولو دام إلى الصباح لغرقت مكة ـ والعياذ بالله تعالى ـ ويُعرف هذا السيل بسيل القناديل.

سنة تسع وثلاثين وسبع مئة: كانت الوقفة يوم الجمعة، وهي سنة رَخِيَّةٌ كثيرة الخير.

وحجّ الأَمير يشبك الناصري وصحبته عدة أمراء، منهم الأَمير ناصر الدين محمد بن بكتمر الحاجب، وتصدّق يشبك على الحاج والمشاة من مصر إلى مكة ومن مكة إلى مصر بالماء والكعك، وفعل خيراً كثيراً.

سنة أربعين وسبع مئة: كان أمير الحاج بغا الخضري، وخرج من القاهرة في رابع عشر من شوال، وكانت العادة أن يرحل الحاج من القاهرة في سادس عشر من شوال، فقصد السلطان أن لا تطول إقامة الحجاج بمكة رفقاً بأهلها، وحجّ الأَمير سيف الدين آقبغا عبد الواحد، وعمل بمكة خيراً عظيماً.

سنة إحدى وأربعين وسبع مئة: حجّ بالناس الأَمير سيف الدين أرغون، وكانت الوقفة الثلاثاء.

سنة اثنتين وأربعين وسبع مئة: حجّ الملك المجاهد صاحب اليمن، وكان توجه إلى مكة في عسكر كبير، وفي خدمته الشريف ثُقَبَة بن صاحب مكة ـ وقد ذكرنا ذلك مستوفى، في ذكر مَن حجّ من الملوك ـ وحجّ الركب المصري وكان حجه قليلاً، وحجّ الركب الشامي، وكان الحج هنيئاً.

سنة ثلاث وأربعين: حجّ المصريون، وكان بين الحاج وأَهل مكة فتنةٌ بعرفة في يومها، من قبل الظهر إلى غروب الشمس، قُتِل فيها جماعة، وسببها أنَّ السيد رُمَيْثَة صاحب مكة شكا إلى أمير الحاج المصريّ ما يلقاه من بني حسن، فاقتضى رأْيُ الأَمير الركوب عليهم، فركب، والتقى مع بني حسن، فَقُتِلَ مِنَ الترك نَحوَ ستة عشر

نفراً، ومن أتباع الأَشراف ناسٌ قليل، وظفر الأَشرافُ على الترك، ولم يتعرّضوا للحاج بنهبٍ، ونفر الناسُ من عرفة خائفين، قبل غروب الشمس، وسلك الأَشراف في نفرهم من عرفة طريق البئر المعروفة بالمظلمة، وتوجهوا إلى مكة وتَحَصَّنوُا بها، وتركوا الحضور بمنى في أيامها، خوفاً من الحجاج، ورحل الحجاج جميعهم من منى وقت الظهر يوم النفر الأَول، ونزلوا بالزاهر، وقيل: في باب الشُّبَيْكَة، وأقاموا به ليلة، ثم رحلوا في يوم النفر الثاني، ولم يعتمر أكثر الحاج، ولم يطوفوا طوافَ الوداع، خوفاً على أنفسهم، وتُعرف هذه السنة عند أهل مكة بسنة المظلمة لكونهم سلكوا طريقها عند نفرهم من عرفة.

سنة أربع وأربعين: كان حجاج مصر والشام كثيرون، وحصل للحاج في سفرهم مشقّات كثيرة، من قلّة الماء، وغلو الأَسعار، وهلك كثير من المشاة، وحجّ بالناس البرناق، ووقع بينه وبين أهل مكة وقتل منهم بعض ناس، وسلم الحاج من الشرفاء، لكلام السيد رميثة، وحصل بمكة في أيام الحج غلاء عظيم، بحيث بيعت الويبة من الشعير بأَربعين درهماً عنها ديناران، والويبة الدقيق بخمسين درهماً، والرطل البقسماط بثلاثة دراهم، والأَردب القمح بمئتي درهم، والحمل إلى أربع مئة وخمسين درهماً، لمنع السيد عجلان جُلاَّبَ اليمن من الوصول إلى مكة، ولم يصل فيها إلا القليل، لأنه كان هو وأخوه ثَقَبَةُ اشتريا إمرة مكة من والدهما رُمَيْثَةَ بستين ألف درهم، لكبر سنه وضعفه، وعجزه عن البلاد وعن أولاده، وبقي كل منهم له فيها حكمٌ، فاستدعى الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون الشريفَ رُميثَةَ فلما علم بذلك عجلانُ خرج إلى نَاحية اليمن، وأقام بها حتى رحل الحاج عن مكة، فوصل السيد عجلان من جهة اليمن، ونزل الزاهر، وأقام به أياماً، ثم بعد ذلك اصطلح هو وأبوه، وأخذ من التُّجَّارِ مالاً جزيلاً.

سنة خمس وأربعين وسبع مئة: عمر نائب السلطنة بمصر البركة المعروفة ببركة السَّلَم، بطريق مِنَى، وأجرى العين من منى إليها، على يد ولده أحمد، وابن أخيه فارس الدين.

سنة ست وأربعين: حجّت الْحُرَّةُ من بلاد المغرب، وتولى ملك مصر الكامل شعبان، وكان دخلها السيد عجلان، فولاه إِمْرَةَ مكة، دون أبيه رُميثة، فعاد إليها وقبضها من غير قتال في سابع عشر جمادى الآخرة، فأَظهر العدل والأَمان للحاج، والمجاورِين، الذي لم يعهد مثله في طول الزمان، وردَّ المظالم والسرقات، وبطل القتل والنهب، وطرح ربع الجبايات، ورفع المظالم، فمرض والده رميثة ومات في

يوم الجمعة ثامن القعدة وطيف به وقت صلاة الجمعة، والخطيب على المنبر على عادة أُمراء مكة ودفن بالمعلاة.

سنة سبع وأربعين وسبع مئة: كانت الوقفة الجمعة، وثبت ذلك عند قاضي مكة بحضور قاضي القضاة عز الدين بن جماعة [وغيره] من حجاج مصر والشام والعراق، وكان يوم عرفة بمصر وإسكندرية يوم الخميس، فأنكر الشيخ علاء الدين ـ علي بن عثمان التركماني الحنفي بعد حج الناس ـ على القاضي عز الدين بن جماعة، وأفتى أنَّ حج الناس فاسد، ويلزم من وقف الناس يوم الجمعة بعرفة جميع ما أنفقهُ الحاجُّ من الأموال، وأنه يجب على الحجاج كلهم أن يقيموا مُحرِمينَ، لا يَطَأُوا نساءَهم، ولا يَمَسُّوا طيباً، حتى يقفوا بعرفة مَرَّةً أخرى، وشنَّع بذلك عند الأُمراء، وأظهر الحزن على الناس، والأَسف على ما أنفقوه من أموالهم، فشقّ ذلك على الأَمير طغتمر (الدوادار) من أجل أَنَّ زوجته حَجَّت فيمن حج، وأُخِذ خطُّ ابنِ التركماني بما تقدم ذكره، فغضبت الشافعية، وأنكروا مقالته ورَدُّوها، وقصد ابن جماعة أن يعقد مجلساً في ذلك، ويطلب ابن التركماني ويَدَّعِيَ عليه بما أفتى به، مما لا يوجد في كتب الحنفية، فرجعه الناس عن ذلك، مخافة الشناعة.

وكان بمكة غلاء بلغت الغرارة الحنطة بمئة وستين درهماً، والذرة بمئة وأربعين، وعز الفلفل بالقاهرة، حتى بلغ الرطل ستة وأربعين درهماً، ولم يعهد مثل ذلك فيما سلف، وبيع عند قدوم الحاج بخمسة دراهم الرطل.

سنة ثمان وأربعين وسبع مئة: كان الحج كثيراً من العراق بخلاف مصر والشام، وحجّ الركب العراقي بعد انقطاعه من الحج إِحدى عشرة سنة وكان بمكة غلاء، وانقطعت عين بازَانَ، ووصل لمكة من مصر السيد ثُقَبَةُ بن رُمَيثة وأَخَوَاهُ سند ومغامس، وابن عمهم محمد بن عُطَيْفة، وأخذوا فيها نصف البلاد من عجلان بغير قتال.

سنة تسع وأربعين وسبع مئة: فيها كانت عدة جمال الرجبية، الذين نزلوا عقبة أيلة، حصرهم الأَمير فارس، وعَدَّهُم واحداً واحداً، أحد عشر ألف جمل، وخمس مئة جمل، وقف يعدُّهم وأقاموا ينزلون ثلاثة أيام، وأقاموا في رابغ إلى أن هلّ رمضان، وقصد المجاهد صاحب اليمن الحج، فأرسل بعض أزواده فسمع بكثرة أهل مصر، فبطل.

ووقع بمكة وغالب بلاد الحجاز ونواحيها وبواديها وباءٌ عظيم حتى جافت

البوادي، وهلك كثير من الجمال وقيل: إنه لم يبق بِحَدَّةَ ـ بالحاء المهملة ـ سوى أربعة أنفس، وخلت الطائف ولم يبقَ بها إلا القليل، وكان يموت بمكة كل يوم نحو من عشرين نفساً، ودام مدة ثم ارتفع، وكان الوباءُ عامًّا في جميع البلاد، وفي ديار مصر أعظم.

سنة خمسين وسبع مئة: كان أَمير الحاج فارس الدين، ومعه عدة من مماليك من الأُمراء، وحاجٌّ كثير جدًّا، ومال من بيت المال، من موقع الحكم لعمارة عين جوبان بمكة، وحجّ محمد بن يوسف، أحد مقدمي الدولة على ستة قُطُر جمال وستة قطر هجن بطبل وزمر، كما يحج الأُمراء، بحيث كان معه نحو مئتي عليقة.

وفي خامس شوال قدم من مصر أمير مكة السيد عجلان متقلداً بها بمفرده، واشترى أربعين مملوكاً، واستخدم جماعة تكملة المئة، ووقع يوم وصول السيد عجلان بمكة مطر وصاعقة، وريح سوداء، أوقعت جميعَ الأَعمدةِ المتجددةِ حول المطاف التي جدَّدها فارس الدين في سنة تسع وأربعين، ولم يبقَ منها إلاَّ عمودين، وانكسر منها جملة.

سنة إحدى وخمسين: حجّ من مصر بيبغاروس، نائب السلطنة بها، وأُردِفَ بالأَمير سيف الدين طاز، أتابك الجيوش الإسلامية، فساس الأمر، وتلطّف بالأمير بيبغا غاية اللطف، حتى قبض عليه، ولما وقعت الفتنة بمعنى هذا العام قبضَ على المجاهِد صاحب اليمن، وطُفَيْل صاحب المدينة النبوية، وقدم بالجميع إلى مصر من غير تكلف، حتى وطأُوا بساط السلطان، وكان المجاهد صاحب اليمن قصد الحج، فسار إلى مكة بمئة، وأولاده في سبع مئة فارس وثمان مئة رام بالقوس، وخلائق كثيرة من المقاتلة الصناديد، الذين استخدمهم من أهل اليمن وأهل صنعاء وما والاها، ومعه كسوة للكعبة الشريفة، وكان أمير الركب المصري بُزلاَر، أمير سلاح، وكان مع الحاج سبعة عشر أَميراً ويقال: أربعون أميراً، ما بين كبير وصغير، منهم بيبغاروس نائب السلطنة، وكان خرج بتجمُّل زائد، ومعه مئة وخمسون مملوكاً معدّة بالسلاح، ومنهم الأَمير سيف الدين طاز، أتابك الجيوش، وخرج طلبه وفيه ستون فارساً، وكان بيبغا خرج من القاهرة قبل طاز بيومين، ثم رحل الأَمير طاز وحده، ثم رحل بزلار بالحاج في عشرين شوال، ثم إن السلطان أرسل الأَمير قردم إلى الأَمير طاز، والأَمير بزلار بكتاب يتضمن القبض على الوزير سجك، وأنهما يحترسان على الأَمير بيبغاروس، فلما بلغ بيبغاروس إلى العقبة، ونزل منها بلغه أن الأَمير طاز والأَمير بزلار ركبا للقبض عليه، فركب بمَن معه من الأُمراء والمماليك بِآلة الحرب، فقام الأَمير

عز الدين أزدمر الكاشف بملاطفته، وأشار عليه أن لا يعجل، ويكشف عن الخبر فبعث نَجّاباً في الليل لذلك، فعاد، وأخبر أنَّ الأمير طاز، مقيم بركبه، وأنه سار بهم وليس فيهم أحد لابس آلة الحرب، فقلع السلاح هو ومَن معه، وتلقَّى طاز ومَن معه وسَأَلَهُ عما تخوّف منه، فأوقفه على كتاب السلطان إليه، فلم يَرَ فيه ما يكره، فاطمأنَّ، ورحل كل منهما من العقبة بركبه، فأتت الأخبار إلى الأمير باتفاق طاز وبزلار أمير الركب على القبض على بيبغاروس، قبل دخول مكة، ثم كتب لبيبغاروس أن يتأخر لسماع مرسوم السلطان، حتى يكون دخولهم مكة جميعاً، فأَحَسَّ بالشَّرّ، وهمَّ أن يتوجه إلى الشام، فما زال أزدمر الكاشف به حتى رجَّعَهُ عن ذلك، وعند نزوله الْمُوَيْلِحة قدم طاز وبزلار فتلقاهما، وأسلم نفسه من غير ممانعة، فأخذوا سيفه وأرادوا تسليمه لطيلان، حتى يحمله إلى الكرك، فرغب إلى طاز أن يحج معه فأخذه صحبته متحفظاً به، وكتب بذلك فتوهم السلطان ومُغَلطَاي أنَّ طاز قد مال مع بيبغاروس، وتشوّش تشوُشاً زائداً، ثم أكد ذلك ورود الأمر بعصيان أحمد في صفر وظنوا أنه مباطن لبيبغاروس، فأخرج طيلان يقيم في الصفراء، حتى يرد الحاج إليها، فيمضي بِبَيْبغاروس إلى الكرك، ودخل المجاهد مكة في رابع الحجة، ودخل معه السيد ثُقَبَة وأخواه سند ومغامس، بغير رضا السيد عجلان، لأنه كان منعهم، والمجاهد من دخول مكة، فلقوه ودخلوها، فلم يسهل ذلك بالسيد عجلان، ولا فعل المجاهد بمكة خيراً، ولا معروفاً لأحد من أهل الحرم ولا قومه، ولا التفت إلى السيد عجلان ولا أنصفه، ولا التفت إلى أحد من الأشراف والقواد، ولا إلى أمير الحاج المصري بزلار، وإنما أقبل على الأمير طاز أحد الأمراء، فنقل إلى السيد عجلان أنه إذا سافر المصريون من مكة يولِّي صاحبُ اليمن أخاكَ ثُقَبَة، ويترك معه قطعة من العسكر، وربما أنه يريد إمساكك ويسيِّرك معه معتقَلاً، فأثَّر الكلام في قلبه فدخل على أمير الركب المصري بزلار والأمراء المصريين وقال لهم: إنَّ صاحب اليمن يريد أن يقيم في مكة بعد توجهكم، ومراده أن ينزع كسوة البيت، ويكسوه بكسوة جاء بها من اليمن معه، ويريد أن يولي في مكة والياً من جهته، ويترك معه جنداً من اليمن، ويغير أوضاعكم، ولا يترك لكم في مكة أمراً، وهو في جمع يسير من اليمن، ولكن لا طاقة لنا بهم، ومن المصلحة أنه لا يفوت، وإن لم تفعلوا قَدِمْتُ معكم إلى مولانا السلطان، وتركت مكة له، وبرئت من العهدة. فأثر هذا الكلام في قلوبهم، فاتفق رأيهم ورأي عجلان على الإقدام على المجاهد، فقال الشريف وأهل مكة: نحن نجعل عيوننا عليه حتى إذا افترق عسكره في مِنَى لقضاء حوائجهم

أشعرناكم فلا تكونوا إلا على أُهبة، فافترقوا على هذا الرأي فلما كان صبيحة يوم الثاني عشر ذي الحجة ـ وهو يوم النفر الأول ـ وقد افترق عسكر صاحب اليمن عنه، افترقوا في منى يتجهّزون للسفر، أَرسل الشريف إِلى أمير الركب يستحثه على الركوب وقال: هذا وقت قضاء الحاجة. فركب أمير الحاج بزلار ولفيفه، ومَن انضم إِليه من الأمراءِ وغيرهم خلا الأَمير طاز، واستعانوا بالسيد عجلان، وبني حسن والعوام، وتلاهم الطماعة فقصدوا المجاهد، وهو نازل بمنى، وكان غافلاً عنهم، وفي قلة من غلمانه، والمحطة على حين غفلة من أَهلها وأَحاطوا بخيم السلطان، وكان عنده جماعة من أَصحابه، فقاتل بعضهم فقتل منهم جماعة، وتوقف هو عن الحرب، رعاية لحرمة الزمان والمكان، فَفَرَّ إِلى جبل بمنى، واستمر القتال فرأى السلطان أَنه إِذا استمر القتال قُتِلَ أَصحابُه، فاستسلم للقضاءِ على أَنهم لا يتعرّضون لأَحد غيره ففعل وفعلوا فلما لزم الجميع أَيديهم نزل إِليهم، فنزلوا بأَجمعهم مترجّلين، وأَركبوه بغلة، وساروا بين يديه إِلى محطتهم، واحتفظوا به مع الكرامة والتبجيل والتعظيم، وضربوا له مخيماً خاصاً به ثم بعد مسكه رَدُّوا على أَهْل اليمن وعلى المجاهد ما قدروا على رجوعه من الخيل وغيرها، وأَسلموا ذلك لأُمِّهِ ولولده، وأَودعوهم الشريف عجلان، وسأَلوا المجاهد أَن يستصحب معه من غلمانه مَن أَراد، فاستصحب الأَمير فخر الدين زياد بن أَحمد الكاملي، وسافروا بالمجاهد في اليوم الرابع عشر من ذي الحجة وسط النهار، وقد أَركبوه على إِكديش، ورسموا عليه ـ الأُمراءُ ـ فاجتمع الأَشراف وقت رحيلهم على أن ينهبوا أَهلَ مصر ويقتلوهم، ويخلصوا المجاهد، فردهم الشريف عجلان، وسلم أَهل الركب، وقتل مَن كان متأَخراً وفي طريق الحرم، وأَما الأَشراف ثُقَبَةُ وسند ومغامس فهربوا إِلى جهة اليمن، وأَقام السيد عجلان بمكة، وتوجه أَمير الحاج ومعه المجاهد متحفظاً به، وبالغ في إِكرامه، وصحب معه أَيضاً الأَمير بيبغاروس مقيَّداً، وبعث الأَمير طغطاي مبشراً، ولما قدم الأَمير طاز المدينة قبض على الشريف طفَيْل، ولقي طيلان الحاجَّ بينبع، فتسلّم الأَمير بيبغاروس من الأَمير طاز، وتوجه به إِلى الكرك. وأَسقط الشريف عجلان ثُلُث الجباية عن الناس.

سنة اثنتين وخمسين: كانت الوقفة يوم الجمعة، وكان أَمير الحاج المصري الأَمير طنبغا المحمدي، والحاج عالم كثير، من أَهل الصعيد والفيوم والوجه البحري، وجماعة كثيرة من أَهل المغرب، ومن التكرور ومعهم رقيق كثير، وفيهم ملكهم، فسار بقومه من القاهرة إِلى الحج، مستهل القعدة فتلقّى السيد ثُقَبَةُ أَمِيْرَ الحاج، وطلب منه أَن يُحارب معه عجلان، وكان السلطان طلبهما إِلى الأَبواب الشريفة، وتخلّف

عجلان بمكة، وتوجّه الشريف ثُقَبَةُ بمفرده إلى القاهرة في مستهل رمضان، فخلع عليه السلطان، واستقر في إِمْرَةِ مكة وَحْده، وأنعم عليه الأمراءُ والتجار بقرض دراهم، فاشترى الخيل والسلاح والمماليك، واستخدم عدة أجناد، ورسم السلطان بسفر الحسام لاجين العلائي ومملوك آقبغا الجاشنكير و(أستادار) العلاءِ في صحبته لتقلده مكة فلما نزلوا بَطْنَ مَر تقدم حسام الدين لاجين، وعرف الشريف عجلان بانفراد أخيه ثُقَبَة بإمرة مكة، فامتنع من تسليمه مكة، وعاد الحسام إلى ثقبة، فأقاموا ببطن مَر، حتى قدم الحاج المصريُّ صحبة الأمير طنبغا المحمدي فطلب منه محاربة أخيه عجلان فلم يوافقه على محاربته فأسمعه ما لا يليق وهَدَّه بأنه لا يمكِّنُ الحاج من دخول مكة، وقام عنه وقد اشتدَّ غضبه، وألبس مَن معه من العربان وغيرهم السلاح، فاجتمع أمير الحاج والقاضي عزُّ الدين بن جماعة وكان صحبة الركب، واتفقا على إرسال الحسام لاجين إلى عجلان ومعه ابن جماعة فجرت لهم معه منازعات آخرها أن تكون الإمرة شركة بينهما نصفين، وعادا إلى بطن مَر وقررا ذلك مع ثقبة، وأنعم عليه، وساروا جميعاً إلى مكة فتلقاهم عجلان على العادة، وأنصف ثَقبة، وأنعم عليه بسبعين ألف درهم، وحجّ الناس، ولقوا من العبيد بمكة شرًّا كثيراً.

وفي ثامن عشر ذي الحجة وصل الملك المجاهد إلى بلاد زَبيد على طريق عَيْذَاب، وكان لما وصل إلى مصر أكرمه صاحبها الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، وسيّره إلى بلاده، من طريق الحجاز، وفي خدمته بعض الأمراءِ فلما كان بالدَّهْناءِ قريباً من الينبع قُبِضَ عليه لأنه نقل عنه ما غَيَّرَ الخواطر عليه فأمر السلطان بالذهاب به إلى الكرك فاعتقلوه بها مع الأَمير بيبغاروس الذي كان نائباً بالقاهرة، ثم أُطلق بشفاعة الأمير بيبغاروس، وزار المجاهد القدس والخليل، ثم عاد إلى مصر، وتوجه منها إلى بلاده وسلّمه الله تعالى.

سنة ثلاث وخمسين وسبع مئة: حجّ الأَمير بكتمر المومني شادّ الدواوين، ومنع المجاهد صاحب اليمن التجار السفر إلى مكة غيظاً من أُمرائها، لما فعلوا معه، وكانوا السبب في قبضه.

وفيها اتفق بين أَميرَي مكة تنافُرٌ، وتوجه عجلان إلى ناحية اليمن وأَخذ بعض الجُلاَّب فبلغ ذلك أَخيه رُميثة، فركب إليه، ووجده في قلة من أَصحابه فغدر به وقيّده، وأَخذ جميع ما معه من الخيل والإبل، واستقل بالإمرة بمفرده، فهرب عجلان في الليل، ودوّروا عليه فلم يجدوه، وراح إلى بني شَعْبَةَ، حتى قدم الحاج، وعاد معهم، ولم يجدوا بمكة أَحداً من بني حسن، ولا من العبيد، وغلت الأَسعار حتى

بلغ الإردبُّ القمح ثلاث مئة درهم، والشعير مئتي درهم، والراوية من الماءِ أربعة مسعودية، ثم أغاث الله الناس بالمطر في أول المحرم، فانحلّ السعر، وجرت عَيْن حُنَيْن.

سنة أربع وخمسين وسبع مئة: حجّ الخليفة المعتضد بالله أبو بكر العباسي، وقاضي القضاة عز الدين بن جماعة، والشيخ بهاءُ الدين بن عقيل، وجماعة من الأُمراءِ منهم الأَمير سيف الدين تكلي، وسيف الدين بزلار، وسيف الدين سقطاي، وشهاب الدين أَحمد بن ال ملك، وناصر الدين محمد بن بكتمر الساقي، وركن الدين عمر بن طقز دمر، وأَمير الحاج المصري الأَمير ركن الدين عمر شاه الحاجب، فلما قرب وصول الحاج مكة توجه السيد عجلان إِلى الحردة لما سم أَن البلاد لأَخيه ثَقَبَة فبعث إِليه أميرُ الحاج أَماناً، وأَمره أَن يصل إِليه، ليُصلح بينه وبين أَخيه، وتوجه عجلان، وثَقَبَةُ بِالْجَمُوم من وادي مَر، وأَخلع أَمير الركب على عجلان وسار معه إِلى مكة وقيل: إِن السلطان والأُمراءِ مُؤيدي دولته أَسَروا إِلى أَمير الحاج ومَن صحبته من الأُمراء أَن يقبضوا على ثَقَبة، ويقرروا عجلان بمفرده على إِمارة مكة، فلما قدم الحاج بطن مَر، ومضى عجلان إِلى لقائهم شكا على الأُمراءِ من أخيه ثَقَبَة، وذكر ما فعله معه، وبكى فطمّنوا قلبه، وساروا به معهم، حتى لقيهم الشريف ثَقَبَةُ ومعه أَخواه سند ومغامس وابن عمهم محمد بن عطيفة، وقوادهم وعبيدهم، بالزاهر، على جارِي العادة بملاقاة أمير الحاج، فأَلبسوه خلعته على العادة، ومضوا حافِّيْنَ به نحو مكة، وهم يجادلونه في الصلح بينه وبين أَخيه عجلان ويحسنون له ذلك فأَبَى إِلاَّ أَن يكون السلطان رَسَمَ بذلك وصمّم عليه، فلما أَيِسُوا منه مَدَّ الأَمير كشكي يده إِلى سيفه، قبض عليه، وأَشار إِلى مَن معه، فأَلقوه عن فرسه، وأَخذوه ومَن معه من إِخوته وابن عمهم، وجعلوهم في الحديد، فَفَرَّ القواد والعبيد، وأُحْضِرَ عجلانُ وأُلْبس التشريف، وعبروا به إِلى مكة فلم يختلف عليهم اثنان، وسُلِّمَ عقبةُ إِلى الأَمير أَحمد آل ملك، فَسُرَّ الناس بذلك، وذهب أَمير الحاج بالأَشراف بحسب الحوطة إِلى مصر، ولم يتفق قبل هذا فيما سبق.

وهلك جماعة من المشاة، واعتقل الأشراف بالقاهرة، ودام عجلان بمفرده، وكثر جلب الغلال وانحطّ السعر وقُبض على إِمام الزيدية أَبي القاسم محمد بن أَحمد اليمني، وكان يصلي في الحرم بطائفة، وتجار، ونصب له منبراً في الحرم فخطب عليه يوم العيد وغيره بمذهبه، فَضُربَ بالمقارع ضرباً مبرحاً، ليرجع عن مذهبه، فلم يرجع، وسُجِن ففر إِلى وادي نَخلَةَ، وقد ضُرب الأَمير عمر شاه مَؤَذِّن الزيدية حتى مات.

سنة خمس وخمسين وسبع مئة: فيها انقضَّ كوكب قدر الهلال، من قبل جبل أَبي قُبَيس، وهبَّت ريح من قبل اليمن أَظلم عقيبها الحرم، وفشا المرض بمكة حتى عمّ أَهلها، وكان سليماً يحصل الْبُرْءُ منه بعد أُسبوع، وكان الرخاءُ كثيراً، وبيعت الغرارة القمح بثمانين درهماً والغرارة الشعير بخمسين درهماً إلا أَنَّ الماءَ قليل، ونزحت الآبار، وانقطعت عَيْن حُنَيْن، وأَغاثهم الله تعالى بمطر عظيم رووا منه.

وكان أَمير الركب عز الدين أَزدمر (الخازندار) وفي الموسم حضر أَبو القاسم إِمام الزيدية المضروب في الخالية إِلى قاضي القضاة عز الدين بن جماعة تائباً مما كان عليه من مذهب الزيدية فعُقِدَ له مجلسٌ بالحرم الشريف، وحضره أَمير الركب وعامة أَهل مصر ومكة، وأَشهدهم أنه رجع عن مذهب الزيدية، وتبرأ إِلى الله من إِباحة دم الشافعية وأَموالهم، وأَنه يواظب على الجمعة والجماعة مع أَئمة الحرم فقال بعضهم:

اسْتَتوبُوا الزَّيْدِيَّ عَنْ مَذهَبٍ   قَدْ كَانَ مِن قَبْلُ بِهِ مُعْجَبَا
لَوْ لَم تَدَارَك نَفسَهُ تَوْبَةٌ   لَعَجَّلَ اللهِ بِهِ مَذهَبَا

ولم يحج العراقيُّ وحجّ في السنة التي بعدها.

سنة ست وخمسين وسبع مئة: أَفْرَج السلطانُ عن ثقبة وأَخويْهِ وابنِ عمهم بشفاعة الأَمير فياض بن مهنا، فأَقاموا بالقاهرة، ثم فرُّوا منها في خمسة أَفراس، والتمّ عليهم ثلاثة وخمسون فرساً، ونزلوا الْمَعَابِدَة، علو ظاهر مكة في اليوم الثالث عشر من ذي القعدة، وأَقاموا بها محاصرين السيد عجلان، وجرى بين العبيد بعضُ قتال فتضرّر الناس بهم كثيراً. ثم ارتحل ثقبة إِلى الجديد، في رابع عشر ذي القعدة ثم رحلوا إِلى ناحية بَنْدَرِ جُدَّة. فلما رحل الحاج من مكة توجهوا بالجُلاَّب ونجّلوها، ونزلوا الجديد وحجّ العراقي، وكان قليلاً.

سنة سبع وخمسين: كان أَمير الحاج الهذباني، ونهب السيف ثقبة قافلةَ الفقيه البركاني، وأَخذ ما معهم من البضائع والقماش، وكان مالاً كثيراً، وحجّ العراقيون في غاية الكثرة، وحجّ بعض العجم، وتصدّق بذهب كثير في الحرمين على أَهلها.

سنة ثمان وخمسين: كان حجاجُ مصر والشام قليلين، وكان بمكة غلاءٌ في جميع المأْكولات، وكان مع الحجاج العراقيين مِحملاَن: واحد من بغداد، والآخر من شيزار، ولما وصل الحاج اصطلح الشريفان عجلان وثقبة، واشتركا في الإِمْرَة، وحج الناس طيبين.

سنة تسع وخمسين: كان حجاج مصر والشام والعراق قليلين.

سنة ستين وسبع مئة: كانت الوقفة الجمعة، وحجّ العراقيون، ووصلت كسوة الكعبة من الملك الناصر الداخلية، وهي حرير أَسود مطرّز مذهّب، جامات، ووقع الوباءُ بجِمال المصريين فمات منهم شيءٌ كثير. ثم في قافلة اليمن بعد توجههم من مكة، وفي جِمالهم فمات منهم خلق كثير، وجِمال كثيرة ولزمهم الشريف ثَقَبَةُ في الوادِيَيْنِ، وطلب منهم جَبَا بطريق الظلم، وكان هو وأَخوه عجلان عُزِلاً من مكة، وجهز الناصر جيشاً من مصر صحبة محمد بن عُطَيْفَة نحو من مئتي مملوك، وتسعين فرساً فيهم أَربعة من الأُمراءِ هم: حاجب الحجّاب سيف الدين جوكتمر الماردينى، وقطلوبغا المنصوري، وعلم دار، وناصر الدين أَحمد بن أَصلم المنصوري، فخلعوا على محمد بن عطيفة، وسند بن رميثة، ودُعِيَ لهما على زمزم، وانصلح حال مكة وارتفع منها الجور، وانتشر العدل، وأُسْقِطَ المكس في المأْكولات، فجُلبت الأَقوات ورخصت الأسعار، وانقمع أهلُ الفساد، ولم يتجاسر أحد منهم على حمل السلاح بمكة لأَنَّ مقدم العساكر أَمر بذلك، وأَقام بمكة بعد الحاج إِلى آخر السنة، وتوجه الشريف عجلان بولديه أَحمد وكبَيْش فاعتقلوا بقلعة الجبل، لحنق الناصر على عجلان وابنه أَحمد، لأُمور منها صدُّ الضياءِ الحمويِّ عن الخطابة بعد أَن برز إِلى المسجد الحرام بشعار الخطبة، رعاية للقاضي شهاب الدين الطبريِّ. ثم مات في شعبان، وباشر الضياءُ الحمويُّ الخطابة في جمادى الآخرة، عند وصول العسكر مع توليهِ المشاركة في نظر الحرم.

سنة إحدى وستين وسبع مئة: كان أَمير الحاج المصري الأَمير أَرغون أزكي، وأَمير الشامي ناصر الدين بن قراسنقر قطلوبغا الكرخي، في جماعة على نية المجاورة، ويقيمون بمكة عوض العسكر الذين قدموا مع ابن عطيفة، وأَن يتولى جوكتمر إِمرة الركب الشامي مكان ابن قراسنقر.

وحجّ في هذه السنة صحبة الرجبية الأَمير ركن الدين بيبرس الأَحمدي، ومعه بنت السلطان محمد بن قلاوون الست زهرا، أُخت الناصر حسن، وقاضي القضاة تاج الدين الأَخنائي، ونوابه المازوتي، ونجم الدين حمزة، وحجّ القاضي نصر الله الحنبلي، والقاضي زين الدين بن السراج الحنفي، وجماعة من العلماءِ والفضلاءِ، وأَرسل السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون كسوةَ البيت الشريف الداخلة، وهي من حرير أَسود، بها جامات، مزركشة بالذهب، ما خلا شقة من الشقق، بين الأُسطوانتين اللتين تليان الباب، فإِنها كمخا حرير أَحمر، وفي وسطها جامة كبيرة كبيرة مزركشة بالذهب، وأَرسل أَيضاً بابا الكعبة الشريفة من خشب الساج النقي، وكانت الوقفة الأَربعاء.

ثم وقعت فتنة في منى فهرب بنو حسن كلهم ولم يبقَ منهم إلا محمد بن عطيفة وغلمانه لا غير، وتوجهوا في الليل من منى إلى نَخْلَة فبلغ الترك هروب سند فأنكروا أن يكونوا همُّوا له بسوءٍ فاستدعوه إليهم، هو وجميع بني حسن عند سفرهم من باب الشبيكة فحضر، وقيل: سبب الفتنة أن بعض الأتراك نزل بدار المضيف، فطالبه بعض الأَشراف بالكرا، فضرب التركي الشريف، فقتل الشريف التركيَّ فثار جماعة من الترك على الشريف ليقتلوه، فصاح الشريف بأصحابه فاجتمع إليه بعض الشرفاءِ، وبلغ ذلك التُّرْك بِمِنى، فقصد الأَشرافَ أَجْيَاداً ووجدوا في ذهابهم إليها خيْلاً على باب الصفا للأَمير ابن قراسنقر، يسعى عليها بعد طوافه، فإنه كان معتمراً من التَّنعيم، فركبها الأَشراف، وبلغه ذلك وهو يطوف فقطع طوافه، وتقدّم للمدرسة المجاهدية ليحفظها، فإنه كان نازلاً بها، وتحصَّن هو وبعض التُّرْك في المسجد، وإغلقوا أَبوابه، وهدموا الظلة التي على رأْس زقاق أَجياد الصغير، ليرموا مَن قصدهم من بني حسن، ويمنعوه من الوصول إليهم بالنشاب وغيره، وعملوا في الطريق عند المجاهدية أَخشاباً كثيرةً، لتحول بينهم وبين مَن يقصدهم من الفرسان من أجياد الكبير، هذا ما كان من خبر الترك، وأما ما كان من بني حسن فإنهم لما توجهوا لأَجياد، استولوا على إصطبل ابن قراسنقر، وقصدوا الأَمير قندس، وكان نازلاً ببيت الرباع بأَجياد، فقاتلوه من خارجه حتى غلبوه، ودخلوا عليه الدار، فقتلوا من أصحابه سبعة عشر مملوكاً، وسبعة من غلمانهم، وهرب هو من جانب منها فاستجار هو وأَولاده ونساؤه ببيت السيد مبارك بن رُميثة، وببعض الشرائف فأَجارته ونهبَ منزله بنو حسن، وأَخذوا جميع الحواصل، ولم يُبقوا له شيئاً، والخيل والدراهم والثياب والزاد والعلف، وجاءَ الشريف مغامس بن رُمَيثة من أَجياد راكبا، ومعه بنو حسن ليقاتلوا الترك الذين بالمسجد الحرام، وعند المدرسة المجاهدية، فحصل الحرب بينهم فتعرّض بعض هجّانة الترك لفرس مغامس بما أَوجب نفورها فأَلقته فقُتل.

وقيل: إن فرسه رُمِيَت بنشابة فتكعكعت به فطرحته بين الترك فقتلوه، وبقي مرميًا في الأَرض من ضحى إلى المغرب. ثم دُفن بالمعلاة وقت المغرب، ويقال: إن التُّرْك أَرادوا إحراقه فنهاهم عن ذلك قاضي القضاة تقي الدين الحرازي، وقتل معه من سراة بني حسن القائد كاسب بن حسب الله وشريف من الأَدارسة، وخرج خلق كثير منهم قاسم بن أَبي سويد بن دُعَيج، وأَقام به حتى مات، وأَراد محمد بن عطيفة أن يتعصّب التُّرْك فتهدّده لذلك بعضُ بني حسن بالقتل، فتخلّى عنهم وقوّى عَزْمَه على ذلك قتْل الترك لمغامس بن رميثة، فلما كان ليلة الخميس سابع عشر ذي الحجة دخل

السيد ثقبَةُ مكة المشرفة وولى إمْرتها هو وسند، وانقطع النداءُ لابن عطيفة، ونادوا لثقبة وسند خاصة، وأراد السيد سند الاجتماع بالترك، لإصلاح حالهم، فلم يمكنه الترك من الدخول عليهم، وأسر جماعة من الأتراك ونودي عليهم بمكة للبيع فَبِيْعُوا بأبخس الأثمان، وأَخذ قندس فعُذِّب عذاباً أشفى منه على الموت، ثم نودي عليه وبيع بدرهمين، فشفع القاضي تقي الدين الحرازي في قندس حتى أُخرج من مكة، ومعه جميع الأتراك، وقد اقترض ما يبلغه إلى ينبع، فخرجوا قهراً على وجوههم، في ثامن عشر ذي الحجة بعد أَن استجاروا بالشريف ثقبة على أَنفسهم وأهلهم وأموالهم على وجه مؤلم، ولم يخرجوا من مكة إلا بما خفّ من أموالهم على هجن خفاف وساروا متوجهين إلى مصر، وقيل: إنه لم يبقَ بمكة إلاّ أَمير قندس وأَولاده فاقترض قندس دراهم، وسافر على جِمال قليلة، هو ومَن بقي من جماعته إلى مصر، وبعد خروج الأُمراءِ وقع نهْبٌ في بعض الترك ثم سلم الله تعالى، ونادوا بالأَمان، وأَقام الشرفاءُ وبنو حسن بمكة، وتقاسموا أَموال الأُمراءِ، وهرب مَن كان يُعرف بالمال من أَهل مكة والمجاورين إلى نخْلة، وإلى المدينة الشريفة، وأَقاموا بها واستقر حال أَهل مكة، وفرَّ الشريف محمد بن عُطيفة بعد الترك إلى ينبع قاصداً مصر خائفاً بسبب ما كان بين ذوي عطيفة والقواد العُمَرَة من القتل، والتجأ السيد سند إلى الشريف ثقبَة، وصار من جملة أَصحابه، فلما قدم الحاج من المدينة إلى ينبع وجد فيها الأمير قندس، ومَن بقي من الأَتراك المجرَّدين، ومحمد بن عطيفة فساروا مع الحاج إلى القاهرة.

سنة اثنتين وستين وسبع مئة: لما بلغ السلطان الناصر حسن صاحب مصر، قتال الأَشراف بمكة، وخروج الترك من مكة على وجه مُؤْلِم، عظم ذلك عليه، وأمر بتجهيز عسكر إلى الحجاز، لتمهيد أمره، والفتك بكل مَن يوجد فيه من بني حسن، ومَن يتخيل منه الخلاف من أعراب الحجاز، فلم تكن إلاّ مُدَّة، حتى قُبض على السلطان حسن وقُتل، وتولى الملك المنصور محمد بن المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون، فأَطلق السيد عجلان وولديه، وولاه إمْرةَ مكة، وأَشرك معه أَخاه ثقبَة بسؤاله، وتوجه بجماعته إلى مكة بعد الإعراض عن تجهيز العسكر الذي كان الناصر حسن عزم على تجهيزه إلى مكة، وصحبته ثمانون فرساً، ومماليك، وليس معه من الحاج إلاّ ثلاثة أَنفس من مصر، وبعض معارفه، وكان الشريف ثقبَة وغالبُ جماعته مَرْضى في غالب السنة بمكة ثم سافر الجنب والوادي، وجاءَه الشريف عجلان إلى أَرض خالد من وادي مَر في العشر الأَخير من رمضان فقصد السيد ثقبَة للسلام عليه،

فحمل إلى الجديد من وادي مَر، ويقال: إلى خيف بني شديد، وهو مريض، فقصده الشريف عجلان وسلّم عليه فأظهر ثقبة له القوة والجَلَد، حين حضر إليه، وأنكر عليه نزوله بأرض خالد. فقال له السيد عجلان: نرتحل منه، وأقام أربعة أيام فمات الشريف ثقَبَة فحمل إلى مكة، والشريف عجلان معه يُظهر الحزن والأَسف والبكاءَ. فدفن عند قبر أبيه رُمَيْثَة، داخل القبة عند قبر السيدة خديجة الكبرى بالمعلاة، والسيد عجلان قائم على قبره حتى دُفن، فعزاه الناس في أخيه، وهَنَّؤُوْهُ بوصوله إلى مكة وولايته بها، ودخل مكة وطاف ودَعَا له المؤذن، على زمزم، وانقطع نداءُ سند وثقبة فانتقل سند إلى المدينة ثم إلى ينبع، وتوجه السيد محمد بن عطيفة إلى مصر من غير حاجة، لأن العسكر وأهل مكة لم يحمدوه، ولم يزل مقيماً بها حتى مات في هذه السنة أو التي بعدها بقليل.

سنة ثلاث وستين وسبع مئة: كان أمير الركب المصري طيبُغا الطويل أمير سلاح، وكان في تجمُّل زائد، ووصلت إليه الإقامات إلى عرفة حملها إليه الأمير يلبغا.

وفي هذه السنة اتفق الشريف عجلان مع ولده على إعطاءِ النصف من حاصل البلاد بسؤاله لابنه في ذلك بعد امتناعه، فإنه كان مع ولده أحمد الربع فقط، فصار لأحمد نصف المتحصل، ولأبيه مثله، ولكل منهما نواب لقبض ما يخصه.

سنة خمس وستين: لم أعلم من خبر الحاج شيئاً.

سنة ست وستين وسبع مئة: كان أمير الحاج المصري محمد بن قندس، وحجّ السلطان عبد الرحيم من المغرب في تجمُّل زائد.

وفي هذه السنة اتفق الحال مع الشريف عجلان، على أن يَرَتَّبَ له من بيت المال في كل سنة مئة وستون ألف درهم نقرةً، تُحمل إليه من مصر، وألف أردب من القمح، ويُترك الجبا بمكة في كل ما يؤكل، ويُجلب من الحبوب والخضروات والثمار والغنم والخشب، وكل ما يباع فيها من السمن والعسل والثياب وغير ذلك، إلا جبَا بندر جدة وجبا تجار الكارم، الذين يأتون من اليمن، ومكس ركب العراق الذين يَأتون في الموسم، ومكس الخيل، فله أخذ مرتبه منهم على عادته، وأشهد على نفسه بذلك، وكتب به ثلاثة محاضر أثبت منها واحداً بمكة وواحداً بالمدينة والثالث بمصر وقُرِّر ذلك في ديوان السلطان الملك الأشرف شعبان، وأمضاه الولاة بعد ذلك، والساعي في هذه القضية الأمير يبلغا الخاصكي، مدير المملكة بالديار المصرية،

والمكس الذي أُبْطل كان مُدًّا مَكِّيًا، وربع مُد مَكِّي على كل جمل يصل من جهة الطائف وبَجِيلة، ومُدًّا جَديدًا على كل حمْلٍ يصل من جدة، وثمانية دنانير مسعودية على كل حمل من التمر الواصل إلى مكة، وثلاثة دنانير مسعودية على كل مد تمر محشى يصل إليها، وستة مسعودية على كل شاة، وسدس قيمة ما يباع بمكة من السمن والعسل والخضر، وغير ذلك، وطابت بها نفس صاحب مكة الشريف عجلان، وعَمل بها هو ومَن بعده من أُمراءِ مكة.

سنة سبع إلى تسع وستين وسبع مئة: لم أعلم من خبر الحاج شيئاً.

سنة سبعين: حجّت خَوَنْد بركة، خاتون، والدة السلطان الأَشرف شعبان، في تجمُّل خارج عن الحدِّ، وفي خدمتها جماعة من الأُمراء الكبار، وخرج السلطان إلى لقائها لما قدمت إلى الْبُوَيْب.

سنة إحدى وسبعين وسبع مئة: كان أمير الحاج المصريِّ علاء الدين علي بن علبك التركماني، شادُّ الدواوين بمصر، وأمره السلطان أن يتأخر بمكة لعمارة باب الْحَزْوَرَةِ، ويعود بالحاج الطواشي سابق الدين مثقال الأنوكي مقدم المماليك فعاد بالحاج، وكانت الْمِئْذَنَة سقطت في ثاني جمادى الأُولى في ليلة مطيرة ـ وكفى الله تعالى شرها ـ فلم تَضُرَّ أحَداً.

سنة اثنتين وسبعين وسبع مئة: لم أعلم من خبر الحاج شيئاً.

وفي سنة ثلاث وسبعين: كان مولدُ الشهاب قاضي القضاة ابن حَجَرِ العسقلانيِّ، وفيها أمر السلطان الأَشرف شعبان بن حسين ابن الملك الناصر بن قلاوون الصالحي جماعةَ الأَشراف أنْ يمتازوا عن الناس بعمائِم خُضْر، على العمائم، ففعل ذلك بمصر والشام وغيرهما. وفي ذلك يقول أبو عبد الله بن جابر الأَندلسي الأَعجمي نزيل حلب:

جَـعَـلُـوا لأَبْـنَـاءِ الـرَّسُـوْل عَـلاَمَـةً   إنَّ الْـعَـلاَمَـةَ شَـأْنُ مَـنْ لَـمْ يُـشْـهَـرِ
نُـوْرُ الـنُّـبُـوَّةِ فِـي كَـرِيْـمِ وُجُـوْهِـهِـمْ   يُـغْـنِـي الـشَّـرِيْـفَ عَـنِ الـطِّـرازِ الأَخْـضَـرِ

وقال في ذلك جماعة من الشعراء، ومن أحسنها قول الأَديب شمس الدين محمد بن إبراهيم بن بركة الدمشقي:

أَطْرَافُ تِيْجان أَتَتْ مِنْ سُنْدِسٍ   خُضْـر بِـإِعْـلاَم عَـلَـى الأَشْـرَافِ
وَالأَشْرَفُ السلطانُ خَصَّهُمْ بِهَا   شَـرَفـاً لِـيَـفْـرِقَـهُـمْ مِـنَ الأَطْـرَافِ

وفيها قدم رجل مفرط الطول، أربعة أذرع بالحديد، وعرضه ذراعان.

وفيها شكا الحجاج من أمير الركب الدمشقي لنائب الشام، فرسم عليه فدخل الحمام وجَبَّ ذَكَرَهُ وأُنْثَيَيْه بالموسَى، فَحُمِل مغشياً عليه فلما رآه النائب أمر بإطلاقه إلى منزله، فبقي متمرضاً ثم أفاق وعاش وهو ابن أقجا.

وفي سنة أربع وسبعين: اشتدَّ الحرُّ بوادي الأَخْضَر، وفيها كان الغلاء الشديد بمكة.

قال المقريزيُّ: حتى أبيعت الغرارة القمح - وهي مئة قدح مصري - بأربع مئة وثمانين درهماً، وعزَّ وجود الأَقوات بها، فهلك جماعة كثيرة جوعاً، وبرَح أكثر أهلها عنها، فجهز الأَمير يلبغا الأَتابك في جمادى الآخرة إلى مكة أَلْفَيْ إردب قمحاً، وواصل الأَرسال حتى حمل من مصر إليها اثني عشر ألف إردب، فُرِّقت كلها في الناس فعمّ النفع بها على الحاج الشامي، وهم رجوع، فمات منهم جماعة عطشاً، وكان السبب في ذلك أن أمير الحاج في الذهاب ضرب الموكلين على الفساقي بسبب قلة ما بها من الماء، فلما عاد الحاج لم يَجدوا أولئك مَلأُوا الفساقي أصلاً، حقداً منهم على ما صنع بهم، وكان الحجاج اعتمدوا على مَلْءِ الفساقي فمنهم مَن فرط فيما معه من الماء، ولما وصلوا ولم يجدوا الماء اقتتلوا على البئر فمات منهم خلق كثير من الزحمة ومن العطش، ومات منهم بعد ذلك أكثر ممن قُتل بالعطش.

وفي سنة ست وسبعين: صادف الحاج سيل عظيم بِخُلَيْص، أَتْلف شيئاً كثيراً في الذهاب، ثم صادفهم به في الرجعة هواءٌ عاصف، وكان الغلاء في الذهاب كثيراً.

سنة ثمان وسبعين وسبع مئة: فيها توجه الأَشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون للحج، في أُبَّهَةٍ عظيمة، فثار عليه جماعة من مماليكه وأمرائه في عقبة أَيْلَةَ، فتوجه إلى القاهرة راجعاً، فرجع غالب الناس من العقبة، فدخل القاهرة مختفياً، لأَنَّ الأُمراء الذين تركهم بها سلطنوا ولده المنصور علي، وظفروا به، واستشهد في بقية السنة، وحجّ بالناس مع المحمل الأَمير بهادر الجمالي.

سنة تسع وسبعين: لم أعلم من خبر الحاج شيئاً.

سنة ثمانين: كان أمير المصري الأَمير بهادر الجمالي، وصحبته أمير مجلس، والأَمير قراد مرداش الأَحمدي، وحجّ الشيخ إبراهيم الشافعيُّ صحبة الرجبية، ولما وصل ركب الحاج إلى مكة بلغهم قدوم محمل من اليمن، وكسوة الكعبة، جهّز ذلك صاحب اليمن الأَشرف إسماعيل بن الأَفضل عباس بن المجاهد، وكان قد انقطع المحمل اليماني من دهر طويل، يكون مقدار ثمانين سنة. فمنع الأَمير قراد مرداش

حجاج اليمن من دخول مكة، ولم يزل السيد أحمد بن عجلان يتوسط بين حاج اليمن، وحاج مصر، حتى دخل أهلُ اليمن بمحملهم، ووقفوا بعرفة، ولم تكن فتنةٌ - بحمد الله تعالى - ولما كسا الكعبة الأَمير قراد مرداش في يوم النحر على العادة خرج من مكة عائداً إِلى مصر، واتفق للحجاج في عودتهم محن شديدة من موت الجمال، وتزايد الأَسعار، فلما نزلوا بالأَزْلَم، وفي ظنهم أنهم يجدون ما جرت به العادة من الشعير والبقسماط المحمول إِليهم من القاهرة، فلم يجدوا شيئاً من ذلك، لأَن العربان تَعَرَّضَتْ لِلإِقَامَاتِ تُريد نهبها، فلم يتجاوزوا مغارة شعيب، فاشتد الأَمر على الحاج، وعلفوا جِمالهم بما معهم من زادهم، الذي هو قوتهم، وانقطع كثير في الطرقات جوعاً وتعباً، ووصلت الْوَيْبَةُ الشعير إِلى خمسين درهماً فضة، ثم تزايد سعرها حتى بلغت مئة درهم، وغَلاَ عامة ما يباع أيضاً.

سنة إحدى وثمانين وسبع مئة: حجّ محمل لصاحب اليمن الملك الأَشرف إِسماعيل ابن رسول، في البر، وأراد بعض الأُمراء المصريين تَوْهِيْنَ حرمة هذا المحمل، فلم يمكنه من ذلك صاحبُ مكة السيد أحمد بن عجلان، وكان أمير حاج اليمن الأَمير فخر الدين أبو بكر بن بهادر السنبلي، ومعه علم، وكان ذلك متروكاً من سنين كثيرة، وهذا المحمل ليس هو أول محمل حجّ من اليمن، فإِنه قال الفاسِيُّ في «شفاء الغرام»: وقد رأيت ما يدلُّ على أنَّ في السنة التي ولى فيها الملك المؤيد السلطنةَ ببلاد اليمن حجّ له محمل إِلى مكة.

سنة اثنتين وثمانين: قال العلامة ابن فهد جد الشيخ جار الله في تاريخه «إتحاف الورى»: وفيها انقطع المحمل من اليمن إِلى سنة ثماني مئة، وفيها وصل الموكب إِلى الأَزْلَم فلم تَرِدْ بها الإِقامة على العادة، فوقع بينهم الغلاء الشديد، وكان السبب في تأخيرها تخوُّف العرب الذين يحملونها من عرب بلي، فإِنه بلغهم أنهم أرادوا أن يبتغوا الإِقامة، فتأَخروا بمغارة شعيب، فوصل الحاج إِلى المويلح وإِلى عيون القصَب، ولم يجدوا شيئاً، فغلا السعر حتى أُبيعت الويبة الشعير بمئتي وتسعين درهماً، قيمتها يومئذ تزيد من خمسة دنانير هرجة، ومات من الجِمال شيء كثير، وقاسى الحجاج مشقَّةً زائدة، وتأَخروا عن العادة خمسة أيام.

وفي هذه السنة أمر بَرَكَة بِسَلْسَلَة القناطر، لئلا تدخل فيها شخاتير المتفرجين، في بركة الرطلي وغيرها، فعمل على قنطرة فم الخور سلسلة، وعلى قنطرة الفخر سلسلة أخرى ووكَّلَ بهما للمراكب الكبار التي تجلب البضائع ويمنع المتفرجين. فقال في ذلك الشهاب ابن العطار:

هُمْ سَلْسَلُوا الْبَحْر لاَ لِذَنْبٍ وَأَرْسَلُوا لِلْحِجَاز باشَهْ

يثير بذلك إلى إرسال سودون باشا إلى الحجاز، لإصلاح الطرقات في هذه السنة.

سنة ثلاث وثمانين وسبع مئة: قدمت الحجاج الرجبية إلى مكة، والأسعار غالبية، فانْحَلَّتْ حتى أبيعت الويبة الدقيق بعشرين درهماً، والويبة الشعير من ثلاثين إلى عشرين مع غلاء كل ما يؤكل. فلما قدم الحاج في الموسم ارتفعت الأسعار، وبلغت الويبة الدقيق إلى خمسين درهماً وما فوقها، والويبة الشعير إلى أربعين درهماً، وعظمت المشقة في الرجعة إلى القاهرة، من غلاء الأسعار، وحصل بالحرمين وغيرهما من بلاد الحجاز قحط عظيم، ومات كثير من الأشراف وغيرهم جوعاً، وأُكِلَتِ الجلودُ.

سنة أربع وثمانين: حجّ الركب الشامي، ومعه الأمير الطنبغا الجوباني، وعاد الأمير [الطنبغا] بعد الحج إلى القاهرة، فوصَلها في سابع عشر ذي الحجة.

وفي هذه السنة كان الحج بمكة كثيراً. قال الشهاب بن حجر في «إنباء الغمر» بحيث مات من الزحام بباب السلام أربعون نفساً، أخبر الشيخ ناصر الدين بن عشائر أنه شاهد منهم سبعة عشر نفساً موتى، بعد أن ارتفع الزحام، وأنَّ شيوخ مكة ذكروا أنهم لم يروا الحاجَّ أكثر منهم في تلك السنة. وكانت الوقفة يوم الجمعة بلا ارتياب عندهم.

سنة خمس وثمانين: تعذّر حَجُّ أهل اليمن لفتنة اشتغل بها السلطان عن تجهيز المحمل، ونُهِبَ حاج شيراز والبصرة في الْحَسَا، خرج عليهم قريش ابن أخي زامل في ثمانية آلاف نفس، فأخذ ما معهم من اللؤلؤ وغيره، وكان مبلغاً عظيماً، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ورجع مَن بقي منهم ماشياً عارياً، وقدم بعضهم إلى مكة صحبة حاج بغداد، وجَبَا قريش ركبَ العراقي، أخذ منهم عشرين ألف دينار عن أخيه، حساباً عن كل جمل خمسة دنانير حتى مكّنهم من الحج، ونزل الشريف سعد بن أبي الغيث الحسنيُّ أمير ينبع على حاج المغاربة بوادي الْعُقَيِّق، وسألهم أن يعطوه شيئاً فأمسكوه، وربطوا كتفيه، وأخذوه معهم ماشياً، فأتاهم كثير من عربه وقاتلوهم، فَقُتِل من المغاربة عدد كثير، وأُفْلِتَ منهم سعد، فأدركهم حجاج التكرور، وقاتلوهم فقتل كثير من التكرور، وأُخذَتْ أمْوالَهُمْ وأموال مَن كان معهم من الصعايدة وغيرهم.

سنة ست وثمانين وسبع مئة: كان أمير الحاج المصري أبو بكر بن سنقر

الجمالي، المعروف بِبَهادر، ولما تم الحجّ سافر من مكة فمات أميرهم بمنزلة عَيْنونَةَ، فقام بِإِمْرَةِ الحاج الأَمير عبد الرحمٰن ابن الأمير منكي بغا الشمسي.

سنة سبع وثمانين: حجّ الأَمير أحمد ابن الأَمير يلبغا الخاصكي، وحجّ الحلبيون بمحمل على صفة المحامل، ولم يُعْهَد ذلك قبل تاريخه، وكانتْ مكة رَخِيَّةَ الأَسعار، وجهز الأَمير جهاركس الخليلي قمحاً كثيراً إلى مكة، لِيُعْمَلَ خُبْز قرصه، ويفرَّق كلَّ يوم للفقراء الآفاقية، عن غير مرتبات ولا تعيين، خمس مئة رغيف.

سنة ثمان وثمانين: كان أمير الحاج المصريُّ الأَمير أقبغا المارديني، ومعه الأَمير جركس الخليلي (أمير آخور) الملكي الظاهري، والأَمير كمشبغا الخاصكي، ومحمد بن تنكر بغا، وجركس المحمودي، وأذن السلطان للسيد عنان بن مغامس أن يتوجه صحبة أمير الحاج، وكان هرب من الحبس بمكة، وجرى له مع صاحبها الشريف أحمد بن عجلان غرائب، وتوجه إلى مصر من ينبع في جمادى الأولى في سِتَّةَ عشر راحلة، من بني حسن وغيرهم، وأقبل عليه الظاهر، فوصل إليه كتاب من أحمد بن عجلان يسأله في رَدِّ عنان إليه، فكتب إليه الجواب: إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٥] وأمره السلطان بإطلاق الأَشراف فامتنع من ذلك. ثم قدّر الله تعالى موت السيد أحمد بن عجلان في عشري شعبان، وأُقِيم عوضه ولده محمد، وعضده عمه كُبَيش بن عجلان. ثم بعد عشرة أيام كحل السيد كبَيْشٌ الأَشرافَ وهم: محمد بن عجلان، وحسن بن ثُقَبَة، وأخاه أحمد، وولده عليًا، وتألم لذلك الناس، وما حصل للفاعل راحةٌ من قبل الله، لأَنه توهم حسم مادة شَرِّهِمْ عنه، وعن ابن أخيه فلم يَتِمَّ لَهُ مُرادُهُ، وكتبَ محضراً لسلطان مصر فيه فأَجاب السلطان إلى ذلك، ثم بلغه كحل الأَشراف فتغير على كُبيش وابن أخيه محمد، وأضمر السلطان تولية عنان بمكة عوضاً عن محمد بن أحمد، وكتم ذلك على عنان، وخادع محمداً بأَن أرسل إليه العهد والخلعة بولاية مكة، مع رسوله في آخر شوال، أو في نصف القعدة، فلبس محمد الخلعة، وقرأ تقليده بالإِمرة، وزينت مكة وبقيت على ذلك، حتى دخل الركب المصريُّ إلى الزاهر، وكان عنان صحبة أمير الحاج، وأمره السلطان بقلة مراعاته في طريق مكة، فكان لا يلتفت إليه، وربما أهانه، لئلا يتشوّش محمد بن أحمد بن عجلان، فينفر ويفوت المراد منه، وتمَّتْ عليه هذه الخديعة لما قضى الله له به من الشهادة، وعرف السلطان الأَمير جركس الخليلي بما في نفسه من حق محمد وعنان، فلما وصل جركس إلى مكة خدمهُ محمد وأمه السيدة فاطمة بنت ثُقَبَة، وبعثت إليه أمه

تسأَله عن حال ابنها وعنان، فذكر لها أنه لا يعلم على ابنها سوءاً وقيل: وربما حلف لها على ذلك، فانشرح لذلك خاطرها، وحَسَّنَتْ لابنها الإقدام لملاقاة المحمل المصري على العادة، وكان مُحْجماً عن ذلك، لإشارة عمه كبيش له بذلك، من عدم ملاقاة المحمل، وما زالت به أمه حتى وافقها على مرادها، فخرج في عسكره يوم الاثنين مستهل ذي الحجة، إلى أنْ واجه أمير الحاج والمحمل، فأَحاط به التُرْك الذين حوله، فلما أخذ يُقَبِّلُ خُفَّ المحمل على العادة، وثب عليه باطنيان، فجرحاه جراحات مات بها من فوره، وحُمل إلى المعلاة بمكة فدُفن بجوار جَدِّه، ولما رأى عمه كُبيش إِحاطَتَهُمْ بابن أخيه فرَّ إلى جهة بندر جُدَّة، وكان مُنْعزِلاً عن ابن أخيه بمقربة منه، لأنه كان أشار عليه أن لا يقابل، لما بلغه من إضمار الشرّ من أمير المحمل لابن أخيه، وتبع بعض الترك كُبَيْشاً فلم يظفروا به، وظنَّ أنَّ ابن أخيه لا يصلون إليه بغير القبض عليه، فلما بلغه قتله، تألم عليه وودَّ أنه كان حضر عنده وقاتل دونه، وساق في يومه حتى بلغ ساحل جدة، فأَقام بها ثلاثة أيام، ولما قُتل الشريف محمد بن أحمد بن عجلان أشعر أمير الحاج بولاية السيد عنان لإمرة مكة، عوض المقتول، وخدم السيد عنان المحمل، ودخل مكة متولياً مع الترك وهم متسلحون، حتى انتهوا إلى أجياد فحاربوا مَن ثبت لهم من جماعة السيد محمد بن أحمد، ثم ولُّوا، وترك الترك الحربَ مع التيقُّظ من مخافة العدو، ويقال: إنَّ السيد أحمد بن عجلان رأى في المنام أنَّ عناناً جَبَّ ذكره، فذكر ذلك أحمد لبعض الناس فقال له: يقطع عنان ذِكْر ولدك لذكور، فكان كذلك، لأَن محمداً قُتِلَ، ولم يترك ولداً ذكراً، ونودي لعنان بالولاية في البلد، وأُلبس الخلعة السلطانية، وقُرِىءَ على قبة زمزم توقيعه، وأُظْهِر كتابُ السلطان بولايته، وإِلزام بني حسن من الأَشراف والْقُوَّاد بطاعته، وكان بين كتابة تقليده، وكتابة تقليد محمد بن أحمد بن عجلان نحو أربعة أيام، أو ستة، لا غير، فقام السيد عنان بخدمة الحاج حتى رحلوا، وحجّ الناس وهم خائفون، وسمح السيد عنان لبني شيبة سدنة الكعبة المعظمة مما كان يأخذه أمراء مكة قبله، وذلك جانبٌ كبير من كسوة الكعبة، في كل ستة أو خمسة آلاف درهم، عوضاً عن ذلك، مع ستارة باب البيت، وثوب مقام إبراهيم، ولما فارق كُبيش جُدَّةَ جمع جمعاً كثيراً وقصد طريق الحاج، وتعرّض للقاء الأَمير جركس الخليلي. وقال له: أنا تركت التعرُّض للحاج إكراماً لك، وسأَله المساعدةَ على ما يعود نفعه على آل عجلان، إذا وصل إلى الديار المصرية، فوعده الأَمير بذلك، ثم إِنَّ كُبَيْشاً جمع القواد، والأَعراب والْعُمَرَةَ وقصد جدة، فملكها هو ومَن معه، ونزل عند صهارِيجها،

فسمع بذلك عنان، وخرج من مكة ومعه محمد بن عجلان المكحول، ونزل الحدية قرب جدة، وحصل له ولأصحابه عطش شديد، لاستيلاء كبيش ومَن معه على صهاريج جدة، وأقام هناك ثلاثة عشر يوماً، ولم يقع بينهم قتال، لأن كل يوم يشير كل واحد من الفريقين بترك القتال في ذلك اليوم. ثم ظهر لكبيش انْحِلال القواد العُمَرَةِ عن القتال، واحتجُّوا عليه، فلما رأى ذلك منهم عاد لأمِّ الدِّمن عند خُلَيص، ورتب السيد عنان بجدة نائباً محمد بن عجلان، لملائمته له من السجن، ولوحشة من كبيش بسبب قيامه في كحله، واستدعى جماعة كثيرة من عبيد أحمد بن عجلان، فأَحسن إِليهم. وقال: أنا عوضكم في مولاكم. فأظهروا له الرضا عنه وجعلهم بجدة، ومعهم مولَى أبيه مغامس، محمد بن كركي، عيناً، على محمد ومَن معه من آل عجلان، وتَمَّ له الأمر.

سنة تسع وثمانين وسبع مئة: كان أمير الحاج المصري الأَمير قرقماش الطشتمري الخازندار، وحجّ الناس وهم خائفون، لما وقع بين عنان بن مغامس وذوي عجلان بمكة في شعب أذاخر تاسع عشري شعبان، وقُتِل فيها كُبَيْش بن عجلان، وجماعة من الفريقين، وكان بنو عجلان نهبوا ثلاث جلاب بجدة، وأخذوا أموال التجار وغيرهم، من الغلة المخزونة للأمير جركس الخليلي، وحواصل السلطان، من الغلال والقماش وغير ذلك، وهو شيء كثير، فرفع حاله وأعطاه لبني حسن عسكره، فلما بلغ السلطان عجز عنان ومشاركة جماعة له في إِمرة مكة، أشرك معه في النصف علي بن عجلان، لكونه توجه لمصر بعد وقعة أذاخر، فأَقبل السلطان عليه، وولاه نصف إِمرة مكة، وشرط حضور عنان لخدمة المحمل المصري، فبلغ ذلك عناناً فتهيأ للقاء المحمل، حتى كاد يصل إِليه، فبلغه أن آل عجلان يريدونه بسوءٍ، عند لقائه، ففر، ودخل السيد علي بن عجلان مع الحاج وقُرِىءَ توقيعه على مقام الحنابلة. ثم سار السيد علي وطائفة من جماعته إِلى السيد عنان وجماعة الأَشراف، فوجدوهم محاربين لقافلة بَجِيْلَة، في خامس الحجة، فلما عُرِفوا هربوا خوفاً من سهام الترك فلحق بعضهم، وقُتِل وأخذ من خيل الأَشراف خمسة، ومن دروعِهم ثلاثة عشر، وتوصلت قافلة بجيلة إِلى مكة، فانتفع بها الناس، ثم سافر الحاج فأَصابهم سيل عظيم في ثغرة حامد، ثم وادي القباب في ليلة تاسع عشر المحرم، فمات فيه عدد كبير، عرف منهم من دفن مئة وسبعة أنفس، وتلف من الأَمتعة شيء لا يعبَّر عنه كثرةً.

ثم بعد سفر الحاج توجه السيد حسن بن عجلان إِلى مصر، لتأْييد أَمْرِ أَخِيه علي في إِمرة مكة، ونزل السيد عنان وأصحابُه وادي مَر، واستولوا عليه وعلى جُدَّةَ،

ونهبوا بعض تجار اليمن، وأفسدوا في الطرقات، وكتب السيد عنان إلى السلطان يعتذر له عن ترك خدمة المحمل لما بلغه من قصد آل عجلان له بالسوء، وشكاهم إليه. فكتب إليه السلطان يقول له: أنت على ولايتك فافعل ما تقدر عليه. فما تَمَّ له فيهم مرادٌ لاختلاف أصحابه عليه.

سنة تسعين وسبع مئة: كان أمير المصري أقبغا المارداني، وأمير الأَول جركس الخليلي (أمير آخور)، وكان الحج ستة ركوب لكثرتهم، سوى رَكْبَي المغاربة والتكاررة، وكان السيد حسن بن عجلان قدم من مصر لمكة في جُمادى الآخرة، ومعه جماعة من الترك نحو خمسين فارساً، استخدمهم لأَخيه السيد علي، وخلعة من السلطان باستمراره، وقدم معه من مصر بعض حجاج يريدون العمرة والمجاورة، فحصل بين مُقَدَّم الأَتراك، وبين الشريف حسن تنافر بالمروة فقال المقدم للشريف حسن: أنت صغير. فأَجابه السيد حسن: إن كنت عندك صغير فأَنا عند الله كبير.

وتوجّه الشريف عنان بن مغامس إلى مصر فما وجد بها الإقبال الذي كان يجده أولاً، واستجار بالأَمير الكبير أيتمش فشفع فيه، وأحضره إلى السلطان فعفا عنه.

سنة إحدى وتسعين وسبع مئة: كان أمير الحاج المصري أبو بكر بن سنقر الجمالي.

سنة اثنتين وتسعين: كان أمير الأَول الأمير مبشق الشيخوني (أمير آخور)، وأمير المحمل الزيني عبد الرحيم بن منكلي بغا الشمسي، وحجّ الأمير محمد بن أبي هلال الرسول وفقيه بلاد المغرب أبو عبد الله محمد بن عرفة، وشيخ القراء القاضي شمس الدين بن الجزريّ، وخلق كثير جدًا، وعملت (خَوَنْد) عائشة أم بيبرس أخت السلطان، كسوة للحجرة النبوية، بالغت في تحسينها، وجعلت بَابَها مطرزاً بذهب.

ولما وصل الركب عُجْرُود أصابهم عطش شديد، بحيث أُبيعت قِربة الماء بنحو مئة درهم، ورجع كثير من الحاج.

وفي عود الحاج من مكة إلى القاهرة أصابهم مشقات بسوء سيرة ابن منكلي بغا، وفساده، بخلاف الركب الأَول فإن أميره كان مشكور السيرة، ومع ذلك فنزل بالجِمال وباء كبير، أفنى كثيراً منها، وكان السيد عنان لما استقر الظاهر برقوق بالقلعة، شفع فيه أحد أعيان الأُمراء فأعطاه نصف إمرة مكة، شريكاً لعليّ بن عجلان كما كان، وجُهِّزَ إلى مكة وحصل بينهما خلاف، ومشى الناس في الإلفة بينه وبين آل عجلان، ويكون القواد مع عناد والأَشراف مع علي، ثم دُعي لهما على زمزم في خطبة الجمعة.

سنة ثلاث وتسعين: كان أمير الحاج المصري أبو بكر بن سنقر الجمالي، وحصل للحجاج وبقية الناس ضرر كبير، من أعوان الشريفين علي وعنان، وقلة الأمن وخطف الأموال، ونُهب حجاج اليمن بالمعابدة، بطريق مِنى نهباً فاحشاً، ونُهب أيضاً بعض الحجاج المصريين، وكان الوباء والغلاء بمكة بحيث بلغ الموتى فيه أربعين نفراً في بعض الأيام، وبلغت الغرارة القمح بخمس مئة درهم كاملية وأزيد، وأكل الناس سائر الحبوب حتى القطاني وحب التمام، وعملوها خبزاً. ثم فرّج الله عنهم بصدقة قمح بعث بها الملك الظاهر برقوق صاحب مصر ـ جزاه الله خيراً ـ.

سنة أربع وتسعين وسبعة مئة: لما سمع الظاهر برقوق ما اتفق للحاج بمكة في السنة التي قبلها، استدعى الشريفين عليَّ بن عجلان، وعنانَ بن مغامس، وغيرهم من أعيان الأشراف والقواد، وجهّز للشريفين خلعتين فأعرض الأشرافُ والقواد عن الوصول لباب السلطان، غير علي وعنان فإنهما لم يجدا بُدًّا من ذلك، فتجهّز السيد عنان من مكة في جمادى الآخرة، وسافر إلى مصر، وتلاه السيد علي، وترك بمكة أخاه محمد بن عجلان مع العبيد، وقصد المدينة الشريفة فزار جَدَّهُ المصطفى ﷺ، وجمع الناس بالحرم النبويّ لقراءة ختمة شريفة للسلطان، والدعاء له عقبها، وكتب بذلك محضراً يتضمّن ذلك، وما اتفق لعنان من منافرة العسكر له، وإخراجه من مكة كُرْهاً، وإزالة شعار ولايته بها، وكان عنان قصد من بَدْرٍ إلى الينبع، ليسبق بها عليًّا إلى مصر، فلما وصل السيد علي أهدى للسلطان وغيره هدايا حسنة، واجتمع بالسلطان بالموكب بالإيوان، يوم الخميس خامس شعبان المكرم، فأقبل عليه السلطان كثيراً، وأمره بالجلوس فوق عنان مع شيخوخته، وكان جلس تحته. ثم في حادي عشر شعبان فوّض السلطان إمرة مكة لعلي بمفرده من غير شريك له، وأعطاه أربعين فرساً، وعشرة مماليك من الترك، وثلاثة آلاف أردب من القمح، وألف شعير، وألف فول، وفرس خاص، وسرج معرّق بالذهب، وكنبوش ذهب، وسلسلة ذهب، وأحسن إليه الأمراء لإقبال السلطان عليه، فحصل غلماناً من الترك نحو مئة، وخيلاً مثلها، ونفقة جيدة، وخلع السلطان على السيد عنان خلعة الإنعام، وأمره بالإقامة بمصر، ورتّب له شيئاً يصرفه، وتوجه السيد علي مع الحجاج إلى مكة المشرفة، فدخلها وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً، وأقام بخدمة الحاج في أيام الموسم، وحجّ ناس كثير من اليمن بمتاجر وانكسر من جلابهم بمكة ستة وثلاثون جلبة منها فيما قيل، من ريح عاصف، وسافر الحاج من مكة بعد قضاءِ وَطَرِهم منها في قافلتين، وأطلق القافلة الثانية من المكس المأخوذ منهم بمكة، وكان غالب الأشراف

آل أَبي نُمَيٍّ لم يحجُّوا في هذه السنة، لانقباضهم من السيد علي، فاستدعاهم، في آخر ذي الحجة فحضر إِليه جماعة منهم فقبض على ثلاثين شريفاً، وثلاثين قائداً، وطالبهم بما أَعطاهم من الخيل والدروع، فسلّمها له غالبهم، وسجن بعضهم حتى سلّم الباقي بعد ثلاثة أَشهر.

سنة خمس وتسعين: كان أَمير المصري سيف الدين فارس بن قطلوا شاه، أَحد أُمراءِ (الطبل خاناه) ولم يحج أَحدٌ من العراق، وطمع الأَشراف والقواد على أَمير مكة السيد علي بن عجلان، وأَرادوا أَخذته بجدة لأَجل وصول مركب إِليها من مصر فيه ما أَنعم السلطان عليه من المغل فاتفق على إِعطائهم أَربع مئة غرارة قمح، فلم يرضوا فزادهم مئة غرارة، حتى رحلوا من جدة، وصاروا يعملون في البلاد أَعمالاً غير صالحة اقتضت أَنَّ التجار أَعرضت عن مكة وقصدوا ينبع لقلة الأَمن بمكة وجدة، فلحقه مع أَهل مكة لأَجْلِ ذلك شدة، فكان يجتهد في رضاهم بكل ما تصل إِليه قدرته، وقنع منهم بترك الفساد في البلاد، فما أَسعفوه بمراده، وبلغ السلطان الملك الظاهر برقوق أَن السيد عنان يريد الهرب إِلى مكة، على نجب أَعدها فسجنه السلطان ببرج القلعة في ثالث جمادى الأُولى.

سنة ست وتسعين وسبع مئة: كان الحاج المصرْي ركباً واحداً، وأَميرهم الأَمير قدير، وحصل بمكة رخاءٌ أُبيعت فيه الغرارة لحنطة بسبعين درهماً كامليّة في زمن الموسم.

سنة سبع وتسعين: كان أَمير الحاج محمد بن أيتمش، وحجّ به الحلبيون بمحمل على صفة المحامل، وأَميرهم ابن الزين، وحجّ العراقيون بمحمل على العادة بعد انقطاعه سنتين، وكان قدومهم يوم الصعود، ومعهم خمس مئة جمل للحاج، وهم قليل جداً، وقام بخدمة الحاج الشريف محمد بن عجلان، لأَنَّ أَخاه السيد عليًا قتله بعض الأَشراف في البر، فحمل إِلى مكة، ودفن على قبر أَبيه بالمعلاة يوم الخميس ثامن شوال، وحمى الله مكة وأَهلها من نهب الأَشراف، وانتصب السيد محمد بن عجلان والسيد محمد بن محمود لحفظ البلاد، حتى يصل أَميرها من القاهرة المحروسة.

وكان السيد حسن بن عجلان نافر أَخاه عليًا، وسافر إِلى مصر لطلب إِمرة مكة، فاعتقله الظاهر بقلعة الجبل في شهر رمضان، ثم بلغه قتل أَخيه فأَطلقه وولاه عوضه إِمْرَةَ مكة، وجعل إِلى الأَمير يلبغا قائد السيد حسن الإِمرة بمكة، وكان يظن أَنه يدرك

الحج، فما قدر ذلك، ووصل الخبر بولايته في أثناءِ العشر الأَخير من ذي القعدة، وحصل في يوم التروية جفلةٌ في المسجد الحرام، سببها منافرة وقعت بين القواد الْعُمَرَة، وبين أمير الركب الحلبِيِّ بن الزين، وهو أن بعض القواد اختطف شيئاً من المسجد الحرام، واحتمى ببعض أصحابه، فجرى بينهم وبين الحجاج مقتلة في المسجد الحرام، وشُهِرت السيوف فيه وفي خارجه، ونُهبت الأَموال، وجاءَ أَمير الحاج الحلبي بن الزين غائراً من الأَبطح، في خيل ورجل، فلقيه بعض القواد بأَسفل مكة إلى جهة الشُّبَيْكة، وجرى بين الفريقين قتالٌ كان الظفر فيه للقواد، وطمع الحرامية في الحجاج، فنهبوهم نهباً ذريعاً في خروجهم إلى منى، ونهبت عَرَبُ هُذَيْلٍ الحاج في ليلة عرفة بطريق عرفة عند الْمَأْزِمَين، ورحل الحاجُّ بأَجمعهم منْ مِنى في النفر الأَول فكان بمكة بعد سفر الحاج غلاءٌ أُبيعت فيه الغرارة الحنطة بثلاث مئة وثلاثين درهماً كاملية.

سنة ثمان وتسعين: فيها بعد توجه الحاج إلى القاهرة بنحو نصف شهر توجه السيد حسن بن عجلان، ومعه جماعة من الترك نحو مئة وثلاثين، وقيل سبعين، ومن الخيل تسعون فرساً - بتقديم المثَنَّاة - وغير ذلك مما يحتاج إليه، ولما وصل إلى ينبع طالب أَميرها وُبَير بن نخبار، بما عنده من القمح مما أَنعم به عليه السلطان، ثم على السيد حسن، فتوقف وُبَير، في تسليم ذلك، فأَراد السيد حسن قتاله، فأَرضاه بخمسة وثلاثين أَلف درهم. ثم رحل عنه إلى مكة، فلما سمع الأَشراف والقواد بإِقباله رحلوا من عسفان إلى غَرَان، على طريق الماشي، فتبعهم السيد حسن يوماً وليلة، فلم يلحقهم لارتفاعهم في الجبال، فأَمر بقطع نخيلهم في خيف بني شديد، ثم أُشير عليه بالإِعراض عن ذلك فترك، ثم تحرك للأَخذ بثأر أَخيه علي بن عجلان، وجمع السيد حسن أَلف رجل ومئتي رجل من الترك والمولدين، وأَهل مكة والأَعراب فالتقى الفريقان بمكان يقال له الريَّان، قرب أَبي عروة بوادي مَرِّ الظهران، في خامس عشري شوال، وبادر الأَشراف بالحرب، لاستخفافهم بالقواد، فحملوا عليهم حملة منكرة، زالت بها القواد من أَماكنهم، وكادوا ينهزمون، فعطف عليهم السيد حسن، ومَن معه، وكان في القلب يكسرهم، وقتل من الأَشراف سبعة، ومن أَتباعهم نحو ثلاثين، وما قتل من أَصحاب السيد حسن فيما قيل غير مملوك وعبد، وأَجار على حلة الأَشراف من النهب واستفحل أمر السيد حسن بعد هذه الواقعة، وأَقام بالجديد، حتى أتى الموسم، وما أتى إلى جدة في هذه السنة من تجار اليمن غير قليل، ومضى أَكثرهم إلى ينبع، وكان مقدمهم القاضي وجيه الدين عبد الرحمٰن بن علي بن جميع، لأَنهم

أَتوا جدة أَيام الحرب، فعدلوا عنها إِلى ينبع، فعاقبهم السيد حسن على فعلهم السنة الآتية، ولم أَعلم من خبر الحاج فيها شيئاً.

وفي هذه السنة ـ أَو في التي بعدها ـ جعل طراز الكعبة من حرير أَصفر، وكان قبل ذلك أَبيض. ذكره العلامة ابن فهد في تاريخه «إتحاف الورى».

قلت: وفي نيف وخمسين وتسع مئة في ولاية المرحوم داود باشا على مصر، نيابة عن السلطان الملك المظفر سليمان، أَوحد ملوك بني عثمان، أَعلى الله تعالى ذِكره في الخافقين، وأَنْمَى بِرَّهُ لأَهلِ الحرمين الشريفين، جعل الطرازَ الذي كان حريراً أَصفر مزركشاً بفضة مطلاة بالذهب، ويسمى هذا النوع بالمخايش فكان بهجة للناظرين، واستمر على ذلك بعده.

ولداود باشا ـ رحمه الله تعالى ـ نظائر استجدّ بها في ولايته تلحق بذلك منها زيادة الفضة بثوب المحمل من المخايش، وإِتقان عمله بعد أَن كان ضعيفاً خفيفاً، وإِبدال الرصافيات التي به، وكانت من النحاس المطلاة بالذهب فجعلها من الفضة الخالصة المطلاة، وكذلك أَعلام المحمل؛ وسأَلني ـ رحمه الله تعالى ـ عن صفة أَعلام المنبر المصطفوي ﷺ، فأَخبرته أَنها من الحرير الأَسود والأَبيض بمشلشل من الحرير كذلك، فأَبدلها بأَعلام من المزركش لمخايش المتقن الصنعة ومنها (الشماعدون) التي بالحجرة النبوية، وكانت من النحاس المطلاة الصنعة، فجعلها من الفضة، وله في مثل ذلك أَعداد وافرة ـ أَثابه الله تعالى ـ.

سنة تسع وتسعين وسبع مئة: كان أَمير الحاج الأَمير ببسق الشيخي (أَمير آخور) الظاهري برقوق وجددت القبة التي بجبل عرفة، بعد سقوطها في السنة التي قبل هذه، بمال أَنفذه الظاهر برقوق صاحب مصر وتولى القاضي عز الدين النويري عقب وفاة والده في تاسع عشري رجب قضاءَ مكة، وخطابتها وحِسْبَتَها، ونظر المسجد الحرام والأَوقاف والربط والأَيتام.

سنة ثماني مئة: كانت الوقفة يوم الجمعة، وحجّ أَهل اليمن بمحمل من البر ناس كثير، وعليهم أَمير طواشي من جهة صاحب اليمن، الأَشرف إِسماعيل بن الأَفضل، وجهّز معه السيد محمد بن عجلان وكان قدم اليمن فأَكرمه الأَشرف، وناله بِرٌّ طَائِلٌ وأَصابهم عند القرب من مكة عطش شديد، هلك فيه ـ فيما قيلَ ـ أَلف نفس بالقرب من يَلَمْلَم، وتوجه في ثاني عشري ذي الحجة المحمل ومَن معه، وفي خدمته السيد محمد بن عجلان ليأتي به ثانياً فاقتضى رأي صاحب اليمن عدم إِرساله فعاد

السيد محمد بن عجلان إلى مكة، واتفق قبل يوم التروية بليلة أو ليلتين، توجه السيد حسن بن عجلان بأُمراءِ الحاج كلهم، وجماعة من الترك والمغاربة إلى وادي مَر، وقصد الأَشراف بسبب سوءٍ بلغه عنهم فانهزموا إلى الْهَدَة، وما ظفر إلا بأحمد بن فياض بن أَبي سُويد، فقتل وعاد إلى مكة، كان السيد حسن قبيل الموسَم كحَّلَ بعض غلمان ذوي عُمَرَ، لتَنْجيْلِه بعض الجُلاَّب، قبل بلوغها إلى ساحل جُدّة، وحصل من ذلك رعب في قلوب بني حسن، وما جسر أَن يفعل مثل هذه بعد ذلك.

سنة إحدى وثمان مئة: في هذه السنة حجّت الرجبية، وكانت بطلت من سنة ثلاث وثمانين وسبع مئة، وكان أَميرها الأَمير بيشق الشيخي، ومعه خمسون فرساً ومئة مملوك، وكان أَمير الحاج الأَمير شيخ المحمودي، وأَمير الركب الأَول الطواشي سيف الدين بهدار، مقدم المماليك، وكان حصل لهم في الطريق مشقة لشدة الحر، وموت الجِمال، وشكا السيد حسن إلى أمير الحاج من الأَمير ببشق أَمير الرجبية، والمتحدّث على العمارة، وأَخبره أَنَّ العبيد هَمُّوا بقتله غير مرة لثقله عليهم، فاستدعاه وأَصلح بينهم وبينه، ولما وصل أَمير الحاج إلى الينبع وهو راجع، نادى في الحاج: مَن كان فقيراً فليحضر إلى خيمة الأَمير، يأْخذ عشرة دراهم وقميصاً، فاجتمع عنده عدة من الفقراءِ فقبض عليهم وسلّمهم إلى أَمير الينبع، وأَمره أَن يُنزلهم في مراكب البحر إلى الطور، ورحل بالحاج من فوره، وتأَخَّرَ الفقراءُ بينبع، ووقع في الركب الشامي من الموت فَجْأَةً أَمرٌ عجيب، حتى كان الرجل يمشي بعدما أَكل وشرب واستراح، فيرتعد ويقع ميتاً. فمات منهم خلق كثير.

سنة اثنتين وثمان مئة: كان أَمير الحاج المصري الأَمير ببشق الشيخي، ووقع بمكة في عاشر جمادى الأُولى سيل عظيم كأَفواه القرب، وسال وادي إبراهيم، وهجم على مكة وخالط سيل أَجياد فصار ذلك بحراً زاخراً دَخل المسجد الحرام من غالب أَبوابه فكان عمقه فيه خمسة أَذرع ودخل الكعبة من شق بابها، وعلا فوق عتبتها ذراعاً وأَكثر، وأَخرب عمودين في المسجد بما عليهما ودوراً كثيرة ومات تحت الهدم وفي الغرق نحو ستين نفراً، وفي ثامن عشر شوال ظهرت نار من رباط رَامشْتْ بالجانب الغربي من المسجد الحرام فتعلقت بسقف المسجد وعمّت الحريق جميع الجانب الغربي وبعض الرواقين المقدمين من الجانب الشامي إلى محاذاة باب دار العجلة مع السقوف والأَساطين وجملتها مئة وثلاثون أسطوانة وصارت قطعاً وأَكواماً عظيمة تمنع من الصلاة في موضعها ومن رؤية الكعبة وهال الناس ذلك وتحدّث أهل المعرفة بأَن هذا منذر بحادث جليل، يقع في الناس، فكان ذلك لوقوع المحن العظيمة بقدوم تمرلنك بلاد الشام وخرابها ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

سنة ثلاث وثمان مئة: كان أَمير الحاج قظلوبك العلائي وأَمير الأَول بيشق الشيخي ورسم السلطان لأَمير أَول أَن يقيم بعد انقضاءِ الحج لعمارة ما احترق من المسجد الحرام وعمل أَساطين من حجارة منحوتة في غاية الحسن، لتكسر أَساطين الرخام، وكملت العمارة في شعبان، إلاَّ السقف لتعذر خشب الساج، فعمل من الخشب العَرْعر، في سنة سبع وثمان مئة، ولم يحج أَحد من الشام على طريقهم المعتاد لخرابها، وما أَصاب أَهل دمشق من القتل والنهب والعذاب والأَسر واحتراق دمشق، بعد أَن صُودر أَهلُها ودام انقطاعهم عن الحج سنين ثم حجُّوا.

سنة أربع وثمان مئة: كان أَمير الحاج المصري الأَمير بكتاي الأَزدري أَحد أُمراء (الطبل خاناه) وتوجه الأَمير بيشق الشيخي إلى مصر، في تاسع عشري جمادى الأُولى، ووكل في عمارة المسجد الحرام جماعة من غلمانه، وكان واجداً على أَهل مكة وأَهان كثيراً منهم وأَمر بوابي المسجد بملازمة أَبوابه، وتنظيف الطرقات والأَوساخ والقمائم، وأَن لا يُحْمَلَ السلاحُ بمكة، وإِخراج بنات الخطإِ والمخنثين، وغيرهم من أَهل الفساد عن مكة.

سنة خمس وثمان مئة: كان أَمير الحاج المصري أَزبك الرمضاني، ولم يحج أَحد من الشام والعراق ولا اليمن، وكان بمكة غلاءٌ بلغت فيه الغرارة إلى خمس مئة درهم كاملية، والذرة نحو ثلاث مئة درهم، والمن والسمن بمئة وخمسين درهماً.

سنة ست وثمان مئة: كان أَمير الحاج طولون الناصري وحجّ معه من الأُمراءِ أَشرباس رأس نوبة، وثمانية أُمراء وببشق الشيخي، وحجّ الركب الشاميُّ بمحمل من طريق الشام المعتاد، وكان المصروف على ثوب المحمل، وهو حرير أَصفر مُذَهَّبٌ نحو خمسة وثلاثين أَلف درهم فضة.

وفيها ولي القاضي شهاب الدين أَحمد بن الضياءِ الحنفيُّ قضاءَ الحنفية بمكة من قِبل الناصري فرج، ولم يلِ القضاءَ بمكة قبله أَحد مستقلاً، وباشر أَياماً قلائل، ثم عُزِل، وناب في الحكم عن القاضي جمال الدين بن ظَهيرة.

سنة سبع وثمان مئة: كان أَمير الحاج المصري كزل العجمي، وحجّ الشاميون من طريقهم المعتاد، وحجّ العراقيون بمحمل، وكان أُشِيع في سادس عشري ذي القعدة أَن ركب العراق قدم صحبة ابن تـمُرْلَنك، متولي بغداد ومعه [عسكر] فاستعد صاحب مكة لذلك وإِلى لقائه، وكشف عن الخبر فتبيّن خلاف ذلك، وأَن الحاج ضعيف بغير عسكر، ومجهزهم من بغداد شخص متولي من قِبَل تِمُرْلَنْك وكان

الحاج قد انقطع من بغداد سنة سبع وتسعين وأَسَرَّ إلى السيد حسن رجلٌ ممن حضر معهم من بني حسن، بأن تمرلَنْك كان قد عزم على بعث جيش عدتهم عشرة آلاف صحبة المحمل، فَخُوِّفَ من عطش الدرب فأَخّرهم، وبعث يكشف الطريق ليبعث مَن قابل عسكراً وكسوة للكعبة، فقدّر الله تعالى وفاته في هذه السنة في سابع عشر شعبان بعلة الإسهال، وأُعيد القاضي شهاب الدين بن الضياءِ لقضاة الحنفية.

سنة ثمان وثمان مئة: لم يحج الشاميون، ولا حجّ لهم محملٌ، وإنما حجّ من الشام تُجَّارٌ جاؤوا إلى غَزَّة، ومنها إلى أَيْلَةَ، وتوجهوا مع المصريين وحجّ العراقيون.

سنة تسع وثمان مئة: كان أَمير الحاج المصري شهاب الدين أَحمد ابن الأَمير جمال الدين الأُستادار وأَحدث في الحاج أُموراً لم تُعْهَد، وهو أَنه لما خرج الأَمير جمال الدين لوداع ولده بالبركة فوقف وقت الرحيل من البركة، وَعَقَّبَهُ ورَتَّبَهُ، فجعل جميع الحاج قطارين متحاذَيَيْنِ لا غير، جعل ناساً بعد ناس ليسيروا ذهاباً وإياباً فاستمر هذا ولم يتغير، وكان الحاج قبل ذلك يسيرون كيف شاؤُوا، فإذا دخلوا إلى مضيق وقف أَمير الحاج بنفسه، وعَقَّبهم، فساروا قطاراً وقطارين بحسب الحال، حتى يخلصون من المضيق بغير قتال، فإذا خلصوا ساروا كيف شاؤوا من غير تعقيب ولا ترتيب ـ وقد قدمنا ذكر ذلك في أَول الكتاب بما يغني عن إعادته ـ واتفق في هذه السنة أَن المغاربة انضم إليهم عند عودهم من مكة حاج الإسكندرية وغزة والقدس، فَنُهِبُوا جميعاً ونزل بالمغاربة بلاءٌ كبير، وحجّ العراقيون والشاميون بمحمل على العادة وسأَل أَمير الحاج المصري شهاب الدين بن (الأُستادار) أَمير مكة السيد حسن بن عجلان في القبض على أَمير الشامي، فمكّنه من ذلك وصورة ما فعل أَنه أَتى إلى أَمير الشامي في جماعة من أَصحابه، وهو عند مقام إبراهيم الخليل عليه السلام، لصلاة ركعتي الطواف، في نفر قليل جداً فقال له: تذهب تسلّم على أَمير الحاج المصري. فقال له: في غير هذا الوقت. فما مكّنه السيد حسن بن عجلان من ذلك، ومضى به إلى أَمير الحاج المصريّ فقيده، كذا ذكره الشيخ العلامة ابن فهد في «إتحاف الورى» وسقطت مِئْذنة بني شيبة من المسجد الحرام.

سنة عشر وثمان مئة: كانت الوقفة يوم الجمعة، وحجّ العراقيون، وكان أَمير الحاج المصري بيشق الشيخي، وقبض على قرقماس أَمير الركب الشامي، ونفر الحاج جميعهم في النفر الأَول، وعطف الحجاج المصريون ـ غير قليل منهم ـ عن زيارة رسول الله ﷺ إلى ينبع، لأَن أَمير الحاج المصري قبض على أَمير الشامي. فتخوّف أَن يبلغ خبره إلى الأُمراءِ بدمشق، فيبعثون إليه مَن يستنقذه منهم، فيما بين العقبة

ومصر، فعجّل السير، ولم يعرج على المدينة الشريفة، وهلك جماعة كثيرون من الضعفاءِ، لِعُنْفِ السير، وكان صورة القبض عليه أن المصريين كلموا مع أَمير مكة في القبض عليه فقصده أَمير مكة في المسجد الحرام بعد طوافه بالبيت يوم قدومه، وقبل سعْيه، وأَشار على أمير الحاج الشامي أَن يمضي معه للسلام على أَمير المصري، فلم يجدْ بُدًّا من الموافقة على ذلك، لانفراده عن عسكره، فسار إِلى أمير المصري، فقبض عليه، وحجّ معه متحفظاً به، وذهب به تحت الحوطة إِلى مصر.

وفيها أُحْدث في كسوة الجانب الشرقيّ من الكعبة الشريفة جامات منقوشة بالحرير الأَبيض، مكتوب فيها (لا إِله إِلا الله محمد رسول الله) بالبياض وصنع ذلك في أَربع سنين متوالية.

سنة إحدى عشرة وثمان مئة: كان أَمير الحاج الأَمير أَحمد ابن الأَمير جمال الدين (الأُستادار) وغَرم والده على حجته هذه زيادة عن الأوُلى أَربعين أَلف دينار، وحجّ العراقيون وفي الموسم أَبطل الناصر فرج صلاة المالكي والحنبلي والحنفي في صلاة المغرب، لأَنهم كانوا يصلُّونها في وقت واحد، وبِسَبَب اجتماعهم في هذه الصلاة يحصل للمكبرين لبسٌ كبير، لاختلاف أصوات المبلِّغين، وهذا الفعل ضلال في الدين، وصار الشافعي يصلي بمفرده بالناس المغرب واستمر ذلك إِلى الموسم سنة ست عشرة.

سنة اثنتي عشرة وثمان مئة: حجّ ركب العراقي ومصر والشام وكان أَمير المصري بيشق الشيخي، وكان في هذه السنة حادثة اختصرنا ذكرها وهو أَن السلطان الناصر صاحب مصر أَسَرَّ إِلى أَمير الحاج أَن يقبض على الأَمير حسن بن عجلان أَمير مكة، وولديه بركات وأَحمد، بسبب أَحرف الناصر وغيره على السيد حسن، فاستعد أَمير الحاج لحربه وحصل مدافعاً وسلاحاً كثيراً، وأَظهر أَن قصده بذلك الدخول إِلى اليمن، وسار الحاج إِلى ينبع، فلما وصل أَمير الحاج إِليها أَعلن الناس فيها أَنَّ صاحب مكة معزول، وأَنه محارب فبلغ ذلك السيد حسن في عشري ذي القعدة، فجمع أَعراب مكة وأَهل الطائف وغيرهم، فما انقضى شهر القعدة حتى اجتمع عنده خلق كثير جدًّا يزيدون على ستة آلاف نفر، ومن الخيل نحو ست مئة فرس، والباقي من بني حسن والمولدين والعبيد، وتوقّع الناس لأَجل ذلك فتنة عظيمة، فضاقت لذلك منهم الخواطر، حتى كادت النفوس تبلغ الحناجر، وكان السيد حسن يكره القتال، مخافة أَن يصيب الحاج بسوءٍ من مضرّة الجيش، فأَرسل إِلى أَمير الحاج مَن يعظّم عليه أَمر الحرم وأَهله، وأَنه إِذا كان قصده القتال فليتقدّم الحجيج قبله بيوم، أَو

يتقدّم هو قبلهم بيوم فجاءَ الله بالفرج، وزال ما كان عند الناس من الحرج، فإن الملك الناصر فرج أرسل خادمه الخاص به بعد ذلك، بخلع وتقاليد للسيد حسن وولديه، وعَوْدَهم إلى ولايتهم، ومنع أَمير الحاج من التعرُّض لقتالهم، وكان وصول هذا الخبر إلى مكة في تاسع عشري ذي القعدة.

وفي اليوم الموفي ثلاثين قدم إلى مكة جماعة من الحجاج من الترك فلقيهم الشريف بعسكر فإنَّ المقدم فيروز أرسل مَن يعلم بوصوله في هذه الليلة، فوصل إلى مكة وقُرِىءَ التقليدُ بعود الشريف حسن وأَخيه إلى ولايتهما وسأَل الشريف أَن لا يتعرّض لأَمير الحاج ويطمئنه ويعفو عنه ليدخل مكة، فأَجاب بشرط أَن يسلم أَمير الحاج ما معه من السلاح وآلات الحرب، فأَجاب أَمير الحاج إلى ذلك، بعد توقف، وأَن يكون ذلك برباط ربيع بـ(أَجياد) إلى أَن تنقضي أَيام الموسم، ثم يتسلّم ذلك، ودخل الحجاج مكة في ثاني الحجة وقت الظهر، ودخل أَمير الحاج في ثالث الحجة وطاف بالبيت، وتوجه للشريف حسن للسلام عليه في منزله، فأَحسن لقاءَه، ثم خرج من عنده وانفضَّ كل منهما عن الآخر بغير اجتماع، حتى انقضت أَيام الحج، وخرج أَمير الحاج من مكة يوم التروية إلى مِنَى، بعد أَن تقدمه طائفة من الحجاج، وبلغ الشريف حسن أَن بعض الأَعراب عزموا على التعرُّض للحاج، فبعث إليهم مَن زجرهم عن ذلك، فعصوا وتغلّبوا على الحجيج، فقتلوا ونهبوا، وعقروا الجِمال عند الْمَأْزِمَيْنِ، وهو الموضع الذي يسميه الناس المضيق، وتوقف الشريف حسن وغالب مَن معه عن الحج خيفة أَن يقع بينهم وبين أَمير الحاج قتال، فيلحق الحجيج من ذلك مشقة، وحجّ ولده السيد أَحمد في نفر قليل، ووقع بمنى في ليلة النحر قتل ونهب، ورحل الحاج بأَجمعه يوم النفر الثاني إلى الأَبطح، وأَمر أَمير الحاج أَن يسلك الحجاج المصريون شعب أَذاخر، ويخرجوا منه إلى وادي الزاهر، ففعلوا ذلك، ووصل إليه بالزاهر ما كان أَودعه من السلاح بمكة، ولولا مراعاة الشريف حسن في هذه الفتنة للحجيج لكثر عليهم العويل، مع الحرب الطويل.

وتأَخر الخادم فيروز من الحاج بمكة لقبض ما التزم به السيد حسن من الخدمة السلطانية، وذلك أَلف زكيبة للسلطان غير ما لفيروز، ومضى فيروز بعد أَيام إلى جدة فشحنت الزكائب بحضوره، ووصلت سالمةً من طريق الطُّور إلى مصر، وبيعت بخمسين أَلف مصقال من الذهب، فيما يقال، وذكر الحافظ ابنُ حجر في «إنباءِ الْغُمر» أَنَّ في هذه السنة مات داود بن سيف أرعد ملك الْحَطِي ـ بفتح الحاءِ وكسر ما بعدها ـ الحبشي الأَمْحريُّ، صاحب الحبشة وعظيمها، وقدمت رسله على الظاهر

بهدية وجهّز له الظاهر هدية ورسولاً وهو برهان الدين الدمياطي، فذكر أنه رآه حاسر الرأس عرياناً، وعلى جبينه عصابة حمراء، وكذلك كان سلفهم، فلما مات داود قام ابنه تدروس فهلك سريعاً فأُقيم أخوه إِسحاق فسلك سبيل الملوك وتزيّا بزيّ أَهل العصر.

وسبب ذلك أَنّ نصرانياً كاتباً يقال له فخر الدولة حصلت له كائنة بمصر، ففرَّ إِلى الحبشة، فقرّبه إِسحاق، فرتّب له المملكة وأَشار عليه بأَن يتزيّا بغير زي قومه، وجبا له الأَموال وضبط الأَمر، ودخل إِليه مملوك يقال له الطنبغا، فعلم من عنده صناعة الحرب، والرمي بالنشاب، واللعب بالرمح، ورتّب له (زرد خاناه) فقرّبه وحظي عنده، وصار يركب وبيده صليب جوهر كبير، إِذا قبض عليه برز طرفاه من كمه، وكان شديد البأس على مَن يجاوره من الذين من الْجَبَرْت وغيرهم، وكان سعد الدين رأس الْجَبرْت يحاربه، وفي الغالب يكون سعد الدين منه في ضيق، وقتل من المسلمين في تلك الوقائع، فلم يزل كذلك إِلى أَن مات إِسحاق، في ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين، وقام من بعده أندراس فهلك لأَربعة أَشهر من موت أَبيه، فقام من بعده عمه حرساي فهلك في رمضان سنة أَربع وثلاثين، فأُقيم بعده سلمون بن إِسحاق، وفي غضون ذلك تحايا (؟) جمال الدين بن سعد الدين ملك المسلمين، ودهم الحبشة وأَوقع بهم وصاروا منه في حصر شديد. انتهى.

سنة ثلاث عشرة وثمان مئة: كانت الوقفة يوم الجمعة، وأَقام الحجاج المصريون والشاميون بمنى يوماً ملفقاً بعد يوم النفر الثاني لرغبة التجار في ذلك، وحجّ صاحب كلوة، الملك المنصور حسن، وتصدّق على أَعيان أَهل الحرم وزار بعد الحج، وركب من البحر في أَثناءِ الطريق إِلى بلاد اليمن، ليتوصل منها إِلى بلاده عدن، ولم يحج العراقيون من بغداد بمحمل على العادة لمحاربة بين السلطان أحمد أُويس، وقرا يوسف، ودام انقطاع حجاج العراقيين من بغداد سنين بعد هذه السنة، وحجّ في هذه السنة من عراق العجم جماعة على طريق الحساءِ والقطيف بلا محمل.

وفي سنة تاريخه دعي للخليفة المستعين بالله أَبي الفضل العباسي بن المتوكل محمد بن المعتضد أَبي بكر بن المستكفي أَبي الربيع سليمان بن الحاكم أَبي العباس أَحمد العباسي، دعاءً مختصراً كما كان يفعل قبل الملك المؤيد، وصار يدعي له في الخطبة، وعلى زمزم بعد المغرب مع الأَمير شيخ، لكونه في مقام السلطنة بالديار المصرية والشامية بعد قتل الناصر فرج بسيف الشرع في سابع عشر سفر سنة خمس عشرة.

سنة أربع عشرة وثمان مئة: فيها لم يحج العراقيون بركب، وحجّ منهم ناس قليل من شيراز وغيرها من طريق الحسا والقطيف، مع الحاج الْعُقَيْلِيِّ، وكان أمير الشامي الأَمير مؤمن.

وفي سنة تاريخه قطع صاحب اليمن هديته وصلته الواصلة لأَمير مكة وخطيبها ومؤذنيها، التي جرت بها العادة، لتشويشه من صاحب مكة، وإِعراضه عنه.

سنة خمس عشرة وثمان مئة: كان أمير الحاج المصري يبلغا المظفري، ولم يحج ركب العراق وحجّ جماعة مع الركب العُقيلي كالخالية.

وفي هذه السنة دخل جمل إِلى المسجد الحرام ولم يزل يطوف بالبيت، حتى كمل ثلاثة أسابيع، والناس يريدون إِمساكه فلم يستطيعوا ذلك، وكان إِذا دَنَا منه شخصٌ دَقَّهُ بِفِيْهِ، فلما مضى ثلاثة أسابيع قال الناس لبعضهم: اتركوه. فتركوه، فجاء إِلى الحَجرِ الأَسود وقبّله بفِيْهِ ساعة، ثم راح إِلى تجاه الميزاب فبرك عنده، وبكى ساعةً، وألقى نفسه على الأَرض فمات فحمله الناس إِلى الصفا ودفنوه هناك، ذكره في «الإِتحاف».

ووقع بعرفة في يومها جفلة كبيرة بين عرب آل جميل وغيرهم قتل فيها جماعة من آل جميل، وركب السيد حسن وجماعة الحاج وبنو حسن وفرعوا بينهم، فانكسر آل جميل، وخشِيَ على الحاج، فسلّم الله تعالى، وكان بمكة غلاء بلغت فيه الغرارة الحنطة عشرين أفلوريا ذهباً، وبلغ المن التمر بعد الموسم بثمانية مسعودية، وكان الغلا عامًا في جميع المأكولات، أبيع الدقيق كل وَيْبَة مصرية بأَفلوريين وعشرة الدراهم، والأَرز كل ويبة بعشرة أفلورية، والرطل البقسماط بعشرة دراهم فضة وويبة النَّوَى لعلف الجمال بأَفلوري، والبطيخ الأَخضر كل رأس بأفلوري، وربما زاد عليه ذلك وعزَّ في مكة أيضاً الفلفل لطلب التجار له فإِنه قَلَّ بديار مصر، حتى بلغ الجمل إِلى مئتين وعشرين مثقالاً.

سنة ست عشرة وثمان مئة: كانت الوقفة يوم الجمعة وحجّ الناس من بغداد بمحمل على العادة، ومعهم ناس من خراسان، وحجّ من اليمن جمع كبير ومعهم متاجر كبيرة ومقدمهم القاضي مفلح، وورد أمر المؤيد صاحب مصر أن الأَئمة الثلاثة يصلُّون المغرب جميعاً كما كانوا يصلُّون قبل ذلك، ففعلوا ذلك، وترك الدعاء للخليفة، لكون الدعاء لم يعهد بمكة من بعد المعتصم ـ فيما قيل ـ ثم أُعيد الدعاء للخليفة قبل المؤيد، وكان بمكة غلاء في هذه السنة دون الغلاء الذي قبله.

سنة سبع عشرة وثمان مئة: كان أمير الحاج المصري جقمق المؤيدي، وحجّ ركب من بغداد بمحمل على العادة، وتخوّف صاحب مكة السيد حسن بن عجلان من أمير الحاج المصري، وتوقف عن ملاقاة المحمل بنفسه فما قنع منه أمير الحاج بغير حضوره بنفسه، فوافق على ذلك لما لم يجد بُدًّا بعد أن توثّق من أمر الحاج، والتزم له بما يحسن من الخدمة له وللسلطان، وخلع عليه أمير الحاج وعلى ولديه، ووقع بين أمير الحاج المصري وبين القواد والْعُمَرَةِ قتالٌ في المسجد الحرام وخارجه، بأَسفل مكة انتهكت فيه حرمة المسجد لما حصل فيه من القتال بالسلاح والخيل، وإِراقة الدماء فيه، وروث الخيل وطول مقامها فيه.

قال العلامة ابن فهد في تاريخه: ولا نعلم أنَّ المسجد انتُهك نظير هذا الانتهاك من بعد الفتنة المعروفة بفتنة قندس في آخر سنة إِحدى وستين وسبع مئة فلا حول ولا قوة إِلا بالله العلي العظيم، وسببها أن أمير المصريِّ أدَّبَ بعض غلمان الْقُوَّاد على حمله السلاح بمكة، وسجنه فرغب مواليه في إِطلاقه وتشفّعوا بالسيد حسن فامتنع الأَمير من ذلك فكانت الفتنة بعد صلاة الجمعة بالمسجد، فإِنه هجم جماعة من القواد راكبين خيولهم إِلى مقام الحنفية فلقيهم الترك والحجاج واقتتلوا فخرج القواد ومَن معهم من المسجد فتتبعهم الترك والحجاج، فقاتلوهم بسوق العلاّفة، بأَسفل مكة، وظهر المصريون على القواد، وحصل في الفريقين جراحات كثيرة مات بها غير واحد من الفريقين، وانتهب بعض العوام من المصريين سوقَ العلاّفة بأَسفل مكة، والسوق الذي بالمسعَى، وبعض بيوت المكيين، ورام بعضُ القواد ومَن انضم إِليهم نهب الحجاج الذين بالأَبطح وخارج المسجد، فمنعهم السيد حسن من التعرُّض للحجاج، ولولا ذلك لتمَّ على الحاج بلاءٌ عظيم، فسبحان المسلم، واجتمع القواد بموضع يقال له الطنبُدَاوِي بأَسفل مكة قريباً منها، فلما كان آخر النهار أمر أميرُ الحاج بتسمير أبواب المسجد الحرام إِلا باب بَني شيبة وباب الدُّريبة الذي عند المدرسة المجاهدية، لأَن أَمير الركب ومَن في خدمته يدخلون منه إِلى المسجد، ويخرجون لسكناهم بالمدرسة، وأدخل أمير الحاج خيله المسجد الحرام، وجعلها بالرواق الشرقي قريباً من منزله برباط الشرابي، وهو منزل أَمير الحاج المصري، وباتت الخيل في المسجد، وأوقدت فيه مشاعل الأَمير، ومشاعل المقامات الأَربعة وبات فيه جميع كثير من الحجاج المصريين وفي وجل كبير، فلما كان بكرة يوم السبت سادس الحجة انضم السيد حسن إِلى القواد بالطنبداويِّ، وحضر إِليه جماعة من أعيان أهل مكة والحجاج، فبدا منه ما يدل على كراهته لما وقع من الفتنة، ورغبته في إِخمادها، وبعثوا بذلك إِلى

أمير الحاج فعرفوه بذلك، فبدأ منه مثل ما بدأ من صاحب مكة. وأجاب إلى ما سُئل فيه من إطلاق الذي أدّبه على أن يفعل السيد ما يحصل به الطمأنينة للحجاج من رعايتهم والحث عليها وغير ذلك فوافق السيد حسن على ذلك، وبعث ولده السيد أحمد إلى أمير الحاجّ، مُطَمئناً له، فخلع عليه، وأطلق مَوْلَى الْقواد جراد، وسكنت الخواطر لذلك وباع الناس واشتروا، وفي هذه الواقعة يقول الأديب زين الدين شعبان بن محمد الأبياريُّ:

وقَـــع الْـــغَـــلاءُ بِـــمَـــكَّـــة ... والـنَّـاسُ أمْـسَـوْا فـي جـهَـادْ

والْـــخُـــبْـــزُ قَـــلَّ فَـــهَـــا هُـــمُ ... يَـتَـقَـاتَـلُـوْنَ عَـلَـى جَـرَادْ

وتخلّف صاحب مكة السيد حسن عن الحج في هذه السنة بغالب عسكره وكذا القواد، فقام بحفظ الحاج من أهل مكة وغيرهم أمير الحاج وحصل اختلاف كبير في تعيين يوم الوقفة فوقع الاتفاق على أن الناس يخرجون إلى عرفة في بكرة يوم الثلاثاء تاسع الحجة، على مقتضى قول مَن قال: إنه رُؤيَ بالاثنين، وأن يقيموا بعرفة ليلة الأربعاء ففعل ذلك وسار معظم الحاج إلى عرفة بعد طلوع الشمس من غير نزول بمنى، فلما كانوا بالمَازِمَيْنِ خرج عليهم بعض الحرامية فقتلوا وجرحوا ونهبوا، وعقروا الجمال، وسلم الناس فوصلوا إلى عرفة، ونفروا إلى المزدلفة، ثم رحلوا إلى منى، وما تعرض لهم في سيرهم من عرفة إلى منى أحد بسوء، لعناية أمير الحاج بحراستهم، وحصل بمنى في ليلتين نهب كثير، وجراحات في الناس، ولم يحج في هذه السنة من أهل مكة إلاّ القليل، ورحل الحاجُ بأجمعه وطافوا للوداع، ولم يتمكنوا من الخروج من أسفل مكة، لإغلاق باب الشُّبَيْكَةِ دونهم، فخرجوا من باب المعلاة وتأثر الأمير وأعيان الحج لذلك، وكان من أعيان الركب القاضي عبد الباسط بن خليل، وهي حجته الأولى، وفي العشر الأُوَلِ من ذي الحجة تسبّب الأمير تغري بريش في إزالة الخلوة التي إلى جانب زمزم قبالة الحجر الأسود، مع البركة المقبوة التي فيها، والزبازيب التي تحتها والأحجار التي يجلس الناس عليها ويتوضؤون من هذه الزبازيب حتى بلغ بجميعها الأرض لِمَا قِيْلَ: إنَّ بعض الجهلة يستنجي هناك وَعَمَّرَ حوض السبيل الموجود الآن المؤيد شيخ، قبالة الْحَجَرِ الأسود.

سنة ثمان عشرة وثمان مئة: كان أمير الحاج المصري يشبك (الدوادار) الصغير وأبيع القمح مع الحاج كل ويبة ونصف بدينار، وحجّ العراقيون بمحمل من بغداد على العادة، وكان المؤيد صاحب مصر عزل أمير مكة السيد حسن بن عجلان وولديه

أحمد وبركات حنقاً عليهم وولى مكة لابن أخيه رميثة بن محمد بن عجلان فمنعه عمه من دخول مكة، فأَقام بجدة هو وأصحابه ثم اندفع إلى جهة الشام، ووصل الحاج في أثر ذلك فلائم رمَيْثَةُ الحجاج، ووصل معهم مكة لتقرير المؤيد له على ولايته، وهو بحلب، وكان خرج إليها لقتال بعض أعدائه، فظفر بهم وبعث مبشراً بالنصر إلى السيد رُمَيْثَةَ، فوصله في شوال وهو بجدة، واستمر الدعاء للسيد حسن وابنيه في الخطبة إلى استهلال ذي الحجة لاستيلائه على مكة إلى هذا التاريخ، ثم فارقها وقصد الشعاب وتفرّق ما في الجلاب فجباه، وأمرهم بالتدبير أو المضي إلى ينبع، وكان بعضهم نفر منه لما سمع باستيلائه على الجلاب ودبر إلى اليمن قبل أن يصل إليه ودخل السيد رميثة مكة في مستهل ذي الحجة وقُرِىء تقليده وفيه التصريح بولايته لنيابة السلطان بالحجاز عوضاً عن عمه، وإمرة مكة عوضاً عن ابنَي عَمِّه، وتاريخه رابع عشري صفر، وفي رابع ذي الحجة كسيت الكعبة المعظمة أسدالاً على نصفها الأعلى سَتْراً لجميعها وكانت قبل هذه السنة تكسى في يوم النحر.

سنة تسع عشرة وثمان مئة: كان أمير الركب الأَول المصري صلاح الدين محمد الحاجب ابن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله ناظر الخواص وأمير المحمل الأَمير أزدمر شايا وحجّ من الأَعيان القاضي جمال الدين عبد الله بن مقداد الأَقفهسي المالكي و(خوند) خديجة زوجة السلطان المؤيد وحجّ مع الركب الشامي (خاتون) زوجة الأَمير أَيدكي صاحب الدست وفي خدمتها ثلاث مئة فارس، وحجّ ركب التكرور ومعهم ألف وسبع مئة رأس من العبيد والإماء وشيء كثير من التبر ولهم أمير وتصدّق بمال كثير على أهل مكة وحجّ العراقيون بمحمل من بغداد على العادة ولم يعملوا فيها ختمة بالمسجد الحرام، وقاسى الحاج شدة من موت الجِمال وغلاء الأَسعار في الطريق ومكة وزاد بها بعد الموسم، وكانت مدته قصيرة وأبيعت فيه الغرارة الذرة بثلاثة عشر أفلورياً، بعد أن كانت بثلاثة قبل الموسم، مع الرخاء في جميع الأَقوات.

وفيها جعلت الجامات المنقوشة بالحرير الأَبيض في جميع الكسوة من الجانب الشرقي من تحت الطراز وإلى أسفل بعد أن انقطعت أربع سنين، واستمرت الجامات في كسوة الكعبة خمس سنين متوالية بعد هذه، وعمل لبابها في هذه السنة ستارة عظيمة الحسن أحسن من الستائر الأَول، وفي شهر رجب بعث السيد حسن بن عجلان ولده السيد بركات ومولاه القائد شكر لاستعطاف السلطان المؤيد صاحب مصر ومعه خيل وغيرها فقدمها، وقبلت منه، والتزم لِلْمُؤَيِّدِ عن والده بثلاثين ألف

مثقال، فأكرمه السلطان وأنعم على والده بإمرة مكة، وكتبَ له توقيع ومثال، في ثامن رمضان، وجهزا له مع خلعه، صحبة بعض (الخاصكية) المؤيدية والنجابة السلطانية وانتهوا إلى السيد حسن، وهو في ناحية جدة، في أوائل العشر الأُوَل من شوال فبعث إلى القواد والْعُمَرَةِ، وكانوا بانوا عنه وانضموا إلى ابن أخيه السيد رُمَيْثة، فأَمرهم بالخروج من مكة فتوقفوا في ذلك، فقصدهم وانتهى إلى وادي الزاهر، في ثاني عَشْرَي شوال في عسكر جاء له من الينبع مع صاحبها مقبل بن مخبار بن وُبَير، غير مَن في خدمته من عبيده والترك وهم ثلاث مئة فارس وألف راجل، والذين بمكة على نحو الثلث منهم فأَرسل السيد حسن إلى مشايخ القواد وخوّفهم داهية الحرب فسأَلوه في إمهال يوم أو يومين، وصمّم أكثرهم على عدم الخروج منها، فركب عليهم السيد حسن في بكرة يوم الثلاثاء خامس عَشْرَيْ شوال، وتوجه إلى مكة لقتالهم عند باب المعلاة بالنُشَّاب والأَحجار، ثم أطلق النار ونقب السور حتى دخل منه بعض الفرسان، ووصل إليه جماعة من القضاة والفقهاء، والصالحين المقيمين بمكة ومعهم ربعات شريفة، وسأَلوه في الكف عن القتال. فأَجابهم إلى ذلك بشرط أن يخرج معانده من مكة فأَخبروهم بذلك، وتأَخروا عنه إلى جوفها بعد التوثق في إجازة كف القتال فدخل السيد حسن من السور بجميع عسكره وخيم حول بركة المعلاة وأقام هناك إلى صباح يوم الأَربعاء وفارق السيد رميثة مكة في ليلتها ثم دخل السيد حسن بكرة النهار لابساً الخلعة والعسكر في خدمته فطاف بالكعبة ودُعِي له على زمزم كالعادة، وقُرِىء توقيعه بإمرة مكة جهة باب الصفا، وحضره القضاة والأَعيان، وخلق لا يحصون كثرة، وكان يوماً مشهوداً ثم ركب ودَار البلد، ونادى بالعدل والأَمان، وبعث لابن أخيه رُمَيْثَةَ بِزُوَّادَةٍ ومركوب، فانتهى رُمَيثة ومَن معه إلى قرب حَلْي، ثم استماله عمه حتى دخل في طاعته، وأقام بمكة في كنفه وعمر السيد حسن باب المعلاة وسورها، ولاقى الحاج في موسمها.

سنة عشرين وثمان مئة: كان أمير الحاج المصري الأَمير يشبك (الدوادار) وحجّ العراقيون بمحمل من بغداد وكُسيت الكعبة في ثالث الحجة أسدالاً ولما انقضى الحج زار المدينة الشريفة أمير الحاج المصري وتوجه صحبة الركب العراقي، خوفاً أن يصيبه من السلطان بمصر ما أصاب أقباي نائب الشام.

سنة إحدى وعشرين وثمان مئة: كانت الوقفة الجمعة بالاتفاق، وكان أمير الحاج المصري الأَمير جلبان أمير (آخور) ولم يحج العراقيون، وفي ثالث الحجة كُسِيت الكعبة الشريفة أسدالاً، وكسيث في ثلاث سنين بعد هذه السنة قبل اليوم السادس من

ذي الحجة، وكان المؤيد صاحب مصر أرسل إلى أمير مكة السيد حسن كتاباً في ربيع الأول يعلمه بقوة عزمه على الحج في هذه السنة، وأمره بتسليم ما وصل من الغلال إلى جدة، ونقله إلى مكة ومطالبته بما التزم به للخزانة لما سأل العودَ إلى إمرة مكة ثم انثنى عزم السلطان عن الحج في شعبان وكتب له بِبَيْع الغلال المجهزة في البحر، وعمر المؤيد عَيْنَ حُنَيْنٍ لقلة مائها وما لقي الناس من الشدة بسببها، وتطوّع بألفي مثقال من الذهب لعمارتها فنُظِّفَت ووصلت إلى مكة في شعبان، وحصل بها نفع كبير للحاج، ولم يبقَ فيها بعد سفر الحاج ما فيه كثير نفع، وغلا الماء كثيراً، وشقَّ ذلك على الناس.

سنة اثنتين وعشرين وثمان مئة: كان أمير الحاج المصري الأمير التاج وكانت الوقفة الأربعاء وحج قاضي بلاد الروم شمس الدين محمد بن حمزة بن محمد الفتوي القروي الحنفي وكمال الدين بن البارزي ولد كاتب السر وشهاب الدين الأذرعي إمام السلطان والأمير الكبير الطنبغا القرمسي وطوغان (أمير آخور) ولم يحج العراقيون من بغداد بمحمل.

وفيها كان الغلاء بمكة عامًّا في سائر المأكولات بلغت الغرارة الحنطة عشرين أفلورياً زائداً والذرة قريباً من ذلك والحمل الدقيق خمسة وعشرين أفلورياً وفحش في السمن كثيراً لأن المن بلغ في آخر القعدة ستة أفلورية ونصف وعدمت الأقوات وأُكلت القطط والكلاب حتى فُقِدت، فأكل بعض الناس الآدميين وكثر الخوف منهم حتى امتنع الكثير من البروز إلى ظاهر مكة خشية أن يؤكلوا وهلك الفقراء وافتقر الأغنياء وكان الموجود في الأسواق الفول والحمص والعدس، فأكل ذلك الناس وبلغت الويبة الفول أربعة عشر أفلورياً والحمص سبعة عشر.

وعمرت عين بازان بمكة ما لم يعمر في النوبة الأولى، حتى كثر الماء وعظم النفع به، وبلغ إلى بركة الماجن أسفل مكة، وابتيعت الراوية بنصف مسعودي وبدرهم، وهذا أكثر ما ابتيعت به الراوية بعد العمارة هذه.

سنة ثلاث وعشرين وثمان مئة: لم يصل المحمل العراقي وحجّ الشيخ بدر الدين الأقصرائي وقال العلامة ابن فهد جدُّ صاحبنا المرحوم جار الله بن فهد في تاريخه «إتحاف الورى»: أنه حجّ الركب المصري وخدم أمير مكة أمير الحاج بألف أفلوري فردّها السلطان له فيّ موسم السنة التي بعدها.

سنة أربع وعشرين وثمان مئة: كانت الوقفة الجمعة، وأمير الحاج تمرباي

اليوسفي الألَفي، وسار في الحاج بسيرة حسنة، وأحيا السنة المتروكة بمنى، ولم يحج من العراق واليمن أحد.

وفيها مات صاحب مصر المؤيد شيخ وتولى الملك بعده المظفر أبو السعادات أحمد ومدبر المملكة نظام الملك ططر، ثم خلع وتولى عوضه ططر ولقب بالظاهر وذلك في تاسع عشري شعبان وجهز للسيد حسن بن عجلان تعويض إمرة مكة له ولابنيه بركات وإبراهيم والأَمر بمراعاة مصالح الناس وتعظيم أمر حكام الشرع وإعادة ما أخذ من التجار إليهم وإسقاط ما جدد من المكوسات وإعفاء السيد حسن من تكليف شيء لأَمير الحاج وسأَل أمير مكة في تقرير ولديه فيها عنه لعجزه فلم يجب لقصده وكتب إليه السلطان ططر ما معناه: لا نثق في إمرة مكة إلا بك، ولكن استنب مَن شئت وأمره بإسقاط المكس المأْخوذ في الخضروات وغير ذلك من المأْكولات، وبعث الظاهر ططر للسيد حسن بأَلف أفلوري أو نحوها وكان خدم بها أمير الحاج في العام الماضي وكتب في سواري المسجد الحرام من ناحية باب السلام وباب الصفا بإسقاط السلطان المكس المأْخوذ في الخضروات والمأْكولات وأن لا يكلف التجار بمكة قرضاً بموافقة السيد حسن لذلك وخطب للظاهر ططر في ثاني ذي الحجة واستمرت الخطبة إلى أن تحققت وفاته في ربيع الأَول من السنة بعد هذه.

سنة خمس وعشرين وثمان مئة: كان أمير الحاج الطواشي ياقوت مقدم المماليك وأمير الركب الأَول استدمر الأشقردي وأمير الركب الثاني جانيك وكانت هذه السنة مشقة على الحجاج إلى الغاية، توالت فيها الأمطار الخارجة عن الحد زيادة على أربعين يوماً وأتت سيول مهولة مع غلاء الأَسعار وأبيع الحمل الدقيق بخمسة وثلاثين أفلورياً وأبيعت ويبة الشعير في الأَزْلَم بخمسين مُؤَيَّدِياً فيكون الإردب الشعير على ذلك بأَلفين ومئة درهم من نقد القاهرة، وكثر موت الجِمال، ومشى النساء والصبيان عدة مراحل، ومات كثير من الناس واشتد الحرُّ، ثم اشتد البرد، ومع هذا كله كثر الخوف. ووقع بمكة في ليلة ثاني عشر ذي الحجة مطرٌ عظيم بقوة عظيمة، ودخل السيلُ المسجدَ من الجهة اليمانية والشرقية، وقلَّ أَنْ يُعْهَدَ دخولُ السيل الجهةَ الشرقية، وأَلقى السيلُ في المسجد من الأَوساخ والوحل والطين ما كثر التعب بتنظيفه، وأفسد أَمْتعة الناس في الدور التي من ناحية المسيل مسيل وادي مكة، وما مات فيه إلا أربعة أنفار بالطنبداوي وخارجها، بصاعقة وقعت عليهم هناك، فسبحان الفعّال لما يريد.

وفيها خلع الصالح بن الظاهر ططر، وتولى الأَشرف برسباي تخت مصر.

سنة ست وعشرين وثمان مئة: كان أمير الأَول اينال الششماني، وأمير المحمل ياقوت مقدم المماليك، وأزيلت كسوة الناصر حسن من داخل الكعبة، وعوضت بكسوة جديدة حمراء، أنفذها الأَشرف برسباي على يد المعز الزيني عبد الباسط، ناظر الجيوش المنصورة.

وفيها اتفق أن الشيخ عمر بن محمد العرابي سأَل الشريف حسن بن عجلان في شفاعة عنده فخالفه فتأَثر لذلك خاطر الشيخ عمر العرابي وأَفهم أنه يتغير حال الشريف حسن في ولايته، فبلغه ذلك فأَتاه مستعطفاً له، وسأَله في أن لا يتغير عليه حال فقال له: فَاتَ الأَمر، فَقَدَّر أنَّ الشريف حسن تخوّف من الأُمراء الذين قدموا للحج في هذه السنة، فبان السيد حسن عن مكة لصوب اليمن، وقدم مكة جماعة من الأُمراء المقدمين الأَلوف بمصر و(الطبلخاناه) وغيرهم من المماليك السلطانية، ما لا يُعهد مثله في الكثرة، وأرسلوا للشريف حسن في الوصول إِليهم بمكة، فلم يصل، واعتذر بالضعف، وحضر إِليهم ولده السيد بركات، فأَكرموه، ولاقى أمير الركب الأَول، ثم أمير المحمل وخلع عليه من عنده ولم يمكنه من خلْعَة إِمْرة مكة المجهزة لوالده، وشاع في الناس أنَّ الأَمير قرقماش أحد الأُمراء الواصلين بمكة يقيم بها علي بن عنان بن مغامس، وبلغ ذلك السيد حسن، فبعث السيد رُمَيْثَةُ بن محمد بن عجلان قريبه يستمدُّ عونه سرًّا، وأوعده بولاية مكة، وذلك في يوم عرفة فلم يستطع الوصول إِليهم لأَنه كان مقيماً عند عمه حسن، وحرس الأُمراء الحجاج حراسة حسنة.

وفي يوم النحر اجتمع السيد بركات ببعض الأُمراء وخدمهُ بخمسة آلاف أفلوري من الذهب ـ فيما قيل ـ وكان الأُمراء يرجعون في مصالح الحج والرعية إِلى رأي المقر الزَّينِيِّ عبد الباسط بن خليل، ناظر الجيوش المنصورة، وكان الأَشرف فوّض إِليه أمر مكة وعمل المصلحة فيها، لكفايته وعظيم رُتْبَتِهِ، فمشت الأَحوالُ بمكة على السداد، وبدت منه على عادته بمكة صدقات مبرورة، وأعمال مشكورة، وهذه حجته الثانية، وانقضت أيام الحج، وأحوال الناس من الحجاج وغيرهم مستقيمة، وسافر الأُمراء من مكة، ولم يحدثوا فيها حدثاً، ولكن بعضهم مُتَغَيِّرٌ على الشريف حسن.

وفي هذه السنة ذكر الحافظ ابن حجر في «إنباء الغمر»: أَنَّ في العشر الأَواخر من المحرم وقع بنواحي حوران بَرَدٌ كبار، على صور خشاش الأَرض والماء كخنفساء وَوَزَغة وضِفدع، وحية وعقرب وسرطان، وغير ذلك وقال: هكذا ذكر علاء الدين بن أبي الشوارب وذكر الحافظ علم الدين البرازلي في حودات سنة ست عشرة وسبع مئة أنه وقع بميادين من عمل حماة بَرَدٌ كبار على صفة حيوانات مختلفة مثل حية وسبع

وعقرب وطيور مختلفة وصفة رجال في أوساطهم شبه حوائص، وأنه ثبت بمحضر على قاضي الناحية واتّصل ذلك بقاضي حماة.

سنة سبع وعشرين وثمان مئة: كان أمير المصري قراسنقر كاشف الفيُّوم، وحصل للحاج الشامي مشقات عظيمة بالرجعة بحوران، من تراكم الرياح فخرج إلى الحاج تنبك النجاشي نائب دمشق بنفسه، وأحسن إلى الحاج بأنواع الزاد، وفرّق عليهم حتى البغال، وخرج معه بشيْءٍ وافر فانتفع الغني والفقير، وأفرطوا في الدعاء - جزاه الله خيراً -.

وفيها حنق السلطان على السيد حسن، وقَوّى ما في خاطره بعض الأُمراء الحاجّين قبل هذه، لما وصل الحاج إلى مصر فعزله عن إمرة مكة بالسيد عليٍّ بن عِنان بن مُغامس بن رُمَيْثَةَ الحسني، في المحرم، وجهزه مع عسكر من الترك فجاء الخبر للأمير قرقماش بينبع أنَّ السلطان رسم بتجهيز العسكر لمكة، وأمر أهل الينبع والصفراء والمدينة بالمسير معهم إلى مكة، ففي ليلة الخميس سادس جمادى الأُولى دخل مكة كثيرٌ من العسكر المصريين وغيرهم، وفي صباحها دخلها باقي العسكر وجملة الواصلين من مصر مئة وأربعة عشر فارساً، وخيلهم كذلك غير مَن انضم إليهم من التُّرْكِ وأهل ينبع، ومعهم الأميران قرقماش وطوخ، الشريف علي بن عنان، بمن انضم إليه من الأشراف والقواد والمولدين، وهم في تجمُّل عظيم، وعرضة هائلة، والشريف علي لابس خلعة إمرة مكة، ودخل المسجد الحرام، وطاف سبعاً، ودُعيَ له على زمزم وقُرِئ توقيعه في الحطيم، عوضاً بالولاية عن السيد حسن، ونُودي للناس بالأمان لمن دخل تحت طاعته، ومَن لم يدخل فلا أمان له بعد شهر، ونزل إلى جُدَّة، ونَجّل المراكب الهندية، وعاد إلى مكة، فقدم عليه السيد رُميثة بن محمد بن عجلان الحسني من اليمن فقبض عليه الأمير قرقماش، واحتفظ به إلى وصول الحاج، فجهزه مع أميره قراسنقر، محتفظاً عليه في الحديد، فوصل إلى القاهرة وأُرسل إلى الاسكندرية في السنة بعد هذه، وحصل بمكة سيل دخل المسجد الحرام، حتى قارب الْحَجَرَ الأَسود، وكان بها وباءٌ عظيم عامٌّ، دام أشهراً بلغَ الموت فيه ممن يعرف اسمه أو مكانه يزيدون على ألفين، ويجتمع في كل يوم بضع وعشرون ميتاً غير الموتى الذين يؤتى بهم من البادية إلى مكة وكان ابتداؤه في صفر.

سنة ثمان وعشرين وثمان مئة: حجّ الناس وهم طيبون، وكانت الوقفة الاثنين، وعزل السلطانُ الأَشرفُ برسباي الشريفَ عليَّ بنَ عنان عن إمرة مكة، ورسم بطلب السيد حسن بن عجلان إلى الأَبواب الشريفة وتَقدم له بذلك القاضي نجم الدين

محمد بن أبي البركات بن ظَهيرة، من عقبة أَيْلَةَ، ومعه (دوادار) أمير المحمل تغري بردي المحمودي، فذهبا إلى السيد حسن بالليل، وأخبراه برضا السلطان عليه، وبشّراه بالبلاد إنْ قابل المحمل وَوَطِىءَ البساطَ، وطَمّنَا خاطره، فبعث معهما ولده الشريف بركات، فاجتمع بأَمير الحاج بوادي مَرٍّ، فدخل به معه مكة، وحَلف له على الْحَجَر الأَسود وبالملتزم أنَّ أباه لا يناله مكروهاً من قبلي ولا من قبل السلطان، فعاد إلى أبيه وقدم به معه مكة يوم الأَربعاء رابع ذي الحجة، وخرج للقائه أميرُ الحاج والأَمير قرقماش مقدم الترك بمكة، وأمير الأَوَّل، وجماعة من أعيان المملكة، ودخل مكة في خدمته الأُمراء والأَعيان، فابتدأ بالطواف، وحلف له أمير الحاج ثانياً، والتزم له رضا السلطان عنه، وألبسه التشريف السلطاني، وقرره في إِمرة مكة على عادته، ثم خرج من الطواف إلى صوب المدرسة المنصورية يسلّم على (خوند) زوجة الملك الأَشرف برسباي، وكانت ضعيفة، وتوفيت بالمدينة المنورة بعد رجوعها من الحج، ثم حجّ الشريف حسن في مَحَفَّةٍ أعطاها له أمير الحاج، وتوجه إلى القاهرة فيها صحبته، ورافق السيد حسن عتيقه شكر، واستخلف ولده السيد بركات على مكة، وأقام معه الأَمير أرنبغا رأس نوبة الأَشرفي، ومعه مئتا مملوك وهو (باش العسكر) وتجهز الأَمير قرقماش وبعض الأَتراك وصحبتهم السيد علي بن عنان إلى القاهرة، وتوجه سعد الدين إبراهيم بن المرة مباشر جدَّة، صحبة الركب في خدمة المحمل، بالمال الذي تحصل من عشور مراكب الهند الواصلة لجدة في سنة تاريخه وعدتها أربعة عشر مركباً، وعشورها زيارة على سبعين ألف دينار، وكانت المراكب الهندية تدخل إلى عدن فتركوها لضعف حال متملك اليمن.

وقال صاحب «إتحاف الورى»: إن في هذه السنة بلغ صاحب مصر وصول مراكب من الهندية إلى بندر جدة فأَحب أخذ مكوسها فبعث بعض مَسَالِمَة القبط، وهو سعد الدين بن المرة فقدم مكة وصادف وصول أربعة عشر مركباً موسقة بضائع من الهند، فأَخذ منها الْعُشْرَ، وهذا أول ما أُخِذ العشرُ لصاحب مصر بجدة، وكانت المراكب تأْتي إلى عدن وتنجل فيها، فكثر الظلم عليهم في عدن فتركوه، وصاروا يُعَدُّون إلى جدة، إلى أن ضعف بسبب ذلك صاحب اليمن، وقلّ دخوله. انتهى.

وقال المقريزي عند ذكر عيذاب: إنها كانت من أعظم مراسي الدنيا، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع، فلما انقطع ورود مراكب الهند واليمن صارت المرسى العظمى عدن من بلاد اليمن، إلى أن كانت أعوام بضع وعشرين وثمان مئة صارت جدة أعظم مراسي الدنيا، واستجدُّوا بندر جدة عوضها، فعظم أمرها وصار

نظرها وظيفة سلطانية، يُخلع على مَن يتولاها، ويتوجه كل سنة إلى مكة في أوان ورود مراكب الهند، ويأخذ ما على التجار من عشورها، ويحضر إلى القاهرة وبذلك غُيِّرتِ العوائد من قديم الدهر في الجاهلية والإسلام، لأَن عادة الملوك تحمل الأَموال الجزيلة إلى مكة لتفرّق في أشرافها ومجاوريها، فانعكس الحال، وصار المال يُحمل من مكة، ويلزم أشرافها بحمله، وما كفاهم ذلك حتى منعوا التجار أن يسيروا في الأَرض، يبتغون من فضل الله، وكُلِّفُوا أن يأتوا إلى القاهرة، حتى تؤخذ منهم المكوس على أموالهم، فإنَّ في هذه السنة في أيام الموسم مُنِعَت التجار أن يتوجهوا من مكة إلى بلاد الشام وغيرها بما ابتاعوه من أصناف تجارات الهند، وأُلْزموا أَنْ يسيروا مع الركب إلى مصر، حتى تؤخذ منهم مكوس ما معهم، فتوجهوا مع الحاج فلما نزل الحجاج الْبِرْكَةَ خارج القاهرة خرج مُباشِرو الخاصّ وأعوانهم واستقصوا تفتيش محاير القادمين من الحجاج والتجار وأحمالهم، وأخرجوا سائر ما معهم من الهدية، وأخذوا مكسها حتى أخذوا من المرأة الفقيرة مَكْسَ النطع الصغير، عشرة الدراهم فلوس. انتهى.

قلت: وقد استجدَّ في الدولة العثمانية أَخذ فائِض مال أوقاف المدارس والربط، المحبس ذلك على العلماء والفقهاء والفقراء والخدمة للسلطان، ويضيفون ذلك جميعه إلى مال الخزانة السلطانية، وهو قدر وافر، خصوصاً ما يتعلق بوقف (البيمارستان) المنصوري وأشباهه من الأَوقاف الجليلة، ولم يوزعوا ذلك على فقهاء المدارس وفقرائها وضعفاء (البيمارستان) والمستحقين في كل مكان، المقرر لهم المعتاد بالتمام على حاله، براءة ذمتهم من مال الأَوقاف، شحًّا منهم، ومنعاً للخير، وليتهم يعطون المستحقين المقرر لهم، المعتاد بالتمام، على أحسن حال، بل يوجهون له وجوهاً من العمائر التي لا أصل لها، ولا نفع، وغير ذلك من ترّهاتهم، ويأكلون ذلك أكلاً لَمًّا، ويجمعونه جمعاً جَمًّا، كما لا يخفى ذلك في زماننا، وتلاشى حال الفقيه والفقير والضعيف والمسكين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي سنة تاريخه خرج السيد زهير الحسيني على حاج عُقَيْل ونهبهم وسلبهم، وأخذ أموالهم وجِمالهم وممن كان مع القفل ونُهِبَ قاضي مكة سراج الدين عبد اللطيف بن أبي الفتح الفاسي الحنبلي، وعمر بن عبد المجيد، وكانا وصلا من بلاد العجم.

وفي ليلة التاسع من ذي الحجة خرج قطّاع الطريق من صَاهِلة وهذيل ودَعْد والنَّدَوِيِّينَ، على الحجاج بمضيق منى، وأخذوا قاضي مكة بهاء الدين أبا البقاء

محمد بن أحمد بن الضياء الحنفي العمري وعياله، وسلبوهم وأخذوا جمالهم، وخلوهم على الأرض. وكان معهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن جار الله بن صالح الشيباني، فضربوا ساقه بسيف، وتلاحق بهم الناس، فركبوا معهم إلى عرفات، خلا أحمد بن جار الله وأخاه عليًا فإنهما أقاما بمنى، وهما محرمان وفاتهما الحج، ثم مات أحمد في ليلة الحادي **عشر** من ذي الحجة وهو على إحرامه وَحُمل إلى مكة، ودُفن بالمعلاة ووصل إلى مكة الأمير كزل العجمي، بعد أن عَمَّر مناهل بدرب الحجاز: عُجْرُود، والأَزلم، ومغارة شعَيْب والوجه، وكان صحبته نور الدين الطنبدي.

وفي موسمها صرف القاضي تقي الدين محمد بن أحمد الحسي الفاسي مؤرخ مكة عن قضاء المالكية بها بالقاضي كمال الدين محمد بن محمد بن الزين القسطلاني.

وفي هذه السنة كانت وقعة الْفَأْر باللجون من طريق الشام، وكان قد كثر فراخه حتى شاهد بعض الناس كثيراً منها تخرج بأولادها الصغار فيتركونها عند البيوت، ويأتونها بالقمح في سنبله فيدخله الأَولاد في البيوت، ومَن رجع فوجد شيئاً من القمح لم يحول إلى البيت ضربه الضرب المبرح، وتسلّط الفأر على زرع الناس، وتضرروا من ذلك ضرراً كثيراً.

قال العلامة ابنُ حَجَرٍ: قرأتُ ذلك بخط قاضي الحنابلة محب الدين، ثم عقب ذلك وقع بين الفئران مقتلة عظيمة، وشاهد الناس منها جملة كثيرة، البعض مقطوع الرأس، ومقطوع الرِّجْل ومقطوع اليد، ومنها الموسط وصار منهم أكوام كبيرة.

سنة تسع وعشرين وثمان مئة: كان أمير الحاج شرباش حاجب الحجاب، ومعه الشيخ أمين الدين الاقصرائي الحنفي والعلامة علاء الدين بن علي بن عبد الله بن محمد بن سَلاَّم ـ بالتشديد ـ الدمشقي، والإمام بدر الدين محمد بن يوسف التبريزي، والخواجا فخر الدين التوريزي مباشر الديوان بساحل جدة، ووصل مع الحاج الطواشي ياقوت مقدم المماليك، وتأَخر بمكة بعد الحج حتى قبض من أميرها السيد بركات مبلغ ثلاثة عشر ألف دينار، مما التزم به للسلطان عند ولايته بمكة، عقب وفاة والده بالقاهرة، وكان اتفق دخول السيد حسن بن عجلان إليها لما توجه مع الحاج فأَكرمه السلطان بالخلع والإنعام، وأركان الدولة بالتقادم والضيافات، وقرره السلطان في إمرة مكة بثلاثين ألف دينار، وبعث عبده شكر إلى مكة لحفظ متحصل جدة، ثم

رسم له بالتوجه إلى مكة، فبرز ثقله خارج القاهرة فاعترضه الضعف فعاد إليها، ومكث بها أياماً يسيرة ثم مات في سابع عشر جمادى الآخرة، وأرسل السلطان نَجَّابَةً بمراسيم لولديه السيد بركات وإبراهيم، يأمرهما بالحضور لديه، يُؤَكِّدُ عليهما في ذلك فتجهزا إليه وحضرا بين يديه في ثالث عشري رمضان، فأكرمهما وخلع عليهما، وفوّض إمرة مكة للسيد بركات، على أن يقوم بما التزم به والده من المال، بموافقة أخيه السيد إبراهيم، وأخذ عليهما العهد والمواثيق بالطاعة، وعدم المخالفة، وخلع عليهما وتجهزا إلى مكة فوصلاها في العشر الأوسط من ذي القعدة وأقاما على الطاعة.

سنة ثلاثين وثمان مئة: كان أمير المحمل قراسنقر، وأمير الأوَّل خُشْقُدم مقدم المماليك، وفي ثاني عشري ذي القعدة تقدّمهم إلى مكة الأمير خشقدم زمام (الأدر) الشريفة والأمير مرادقجا أحد مقدمي الألوف بالقاهرة في ركب قدر مئتي جمل، وصحبتهم حجاج وطبل، وسكن خشقدم المدرسة المنصورية، وتولى قضاء الشافعية بمكة شيخ السدنة محمد بن علي الشيبي، ونظر للمسجد الحرام عوضاً عن القاضي أبي السعادات بن ظَهيرة، وورد حكم سلطانيٌ بمنع الباعة من بسط البضائع أيام الموسم في المسجد الحرام، ومن ضرب الناس الخيام في المسجدِ الحرام، وأن يترك المنبر الذي يخطب عليه الخطيب يوم الجمعة في مكانه المعتاد مُسَامِتاً لمقام إبراهيم الخليل، ومقام الشافعي، ولا يُجَرُّ إلى جانب الكعبة، لأنه عند جره على عجلاته يزعج مَن عند الكعبة ويزعجها إذا أسند إليها، وأن يخطب الخطيب عليه هناك وأن تُسَدَّ أبواب المسجد بعد انقضاء الموسم إلا أربعة أبواب: باب السلام، وباب العمرة، وباب إبراهيم، وباب الصفا لا غير، وأن تسَدَّ الأبوابُ الشارعة من البيوت إلى سطح المسجد، فامتثل جميع ذلك، ولم يعرف قَطُّ أنَّ أبواب المسجد غُلِّقتْ إلا في هذه الحادثة، فتضرّر الفقراء والصالحون، والمتعبِّدون في الحرم الشريف، وصعب عليهم بُعْد الأبواب فروجع السلطان في ذلك، فأمر بفتح باب الزيادة وباب الجنائز.

وقال الأديب شهاب الدين أحمد بن سعد بن أحمد الحنفي يخاطب أهل مصر في غلق أبواب المسجد، وعود منبر الخطيب للكعبة وعود قاضي مكة لمنصبه:

يـا أَهْـلَ مِـصْـرَ يـا كِـرَامَ الْـوَرَى ... ما بَالكُمْ جِئْتُمْ بِأَمرٍ عَجيْبْ؟

أَغْـلَـقْـتُـمُ الأَبْـوَابَ عـن طـائِـفٍ ... وعَـنْ مُـصـلٍّ دَاخِـلٍ مِـنْ قَـريـبْ

وَمِـنْـبَـرُ الْـخُـطْـبَـةِ أَضْـحَـى إذاً ... مِنْ فُرْقَةِ الْبَيْتِ حَزيناً كَئِيْبْ

وَمَنْصِبُ الشَّرْعِ الرَّفِيْعِ الذُّرَى — شَيَّبْتُمُوهُ قَبْلَ وَقْتِ الْمَشِيْبْ
فَبِالَّذِيْ شَرَّفَكُمْ دَائِماً — بِخِدْمَةِ الْبَيْتِ وَقَبْرِ الْحَبِيبْ
مُنُّوا عَلَى سُكَّانِ أُمِّ الْقُرى — بِعَوْدِ قَاضِيْهِمْ وَقخرْبِ الْخَطِيْبْ
وَفَتْحِ الأَبْوَابِ الَّتِي أُغْلِقَتْ — حتَّى يُرَى مَا كَانَ صَكًّا رَحِيْبْ
فَضْلاً فَقَدْ أَصْبَحَ جِيْرَانُهَا — فِي حَيْرَةٍ عُظْمَى وأَمْرٍ عَجِيْبْ

ثم جاءَ في الموسم الثاني مرسوم صحبة الركب بأَن تُفتح الأَبواب كلها، ويُعزل البوابون القديمون، وكانوا قضاة وفقهاء، ويولّى على أبواب الحرم بوابون ليس لهم حرفة ولا صناعة ولا شغل، فقراء مساكين، فقرر لكل باب بَوَّاب، وعزل مَن كان بواباً قبل ذلك، وأُلزم البواب بملازمة باب الحرم ليلاً ونهاراً، وأَن لا يغيب عنه إلا للضرورة وأَن يتعاهد البوابُ بابه بالكنس والرش والتنظيف، ومنع الكلاب والْجوارِي الحاملات لقِرَب الماءِ، والجِمال من الدخول في المسجد الحرام واستطراقه، والمرور فيه بغير حاجة، ورسم السلطان أَن يقرر لكل بواب عشرة أَشرفية معلوماً كل عام، تحمل إليه من أَوقاف الحرمين، فقال الأَديب شهاب الدين الحنفي لما ورد أَمر السلطان بفتح الأَبواب منها:

فَفَتْحُ الأَبْوابِ رَسَمْتُمْ بِهِ — فَصَارَ ما قَدْ صَارَ صَكًّا رَحِيْبْ
وابْتَهَلَ الْخَلْقُ لَكُمْ بِالدُّعَا — مُنْتَظِرِي لُطْفَ الْقَرِيبِ الْمُجِيْبْ
في الْخَصْلَةِ الأُخْرى الَّتي بَعْدَهَا — فكُلُّهُمْ مِنْهَا حَزِيْنٌ كَئِيبْ
وَهْيَ الَّتِي شَقَّتْ بِكُلِّ الْوَرَى — وَاهْتَالَ مِنْهَا كُلُّ حُرٍّ لَبِيْبْ
فَبِالَّذِي شَرَّفَكُمْ دائِماً — بِخِدْمَةِ الْبَيْتِ وَقَبْرِ الْحَبِيْبِ
وَبِالنَّبِي الْهَاشِمِيِّ الَّذِي — قَاصِدُه بَيْنَ الْوَرَى لاَ يَخِيْبْ
شَفَاعَةَ ما رَدَّها مُفْلِحٌ — وَلاَ لَهُ فِي نَيْلِهَا مِنْ نَصِيْبْ
رُدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا — وَراقِبُوا فِيْهَا الْحَبِيْبَ الرَّقِيْبْ
وَبَادِرُوا سُكَّانَ أُمِّ الْقُرَى — بِعَوْدِ قَاضِيْهِمْ وقُرْبِ الْخَطِيْبْ
فَضْلاً فَقَدْ أَصْبَحَ كُلُّ الْوَرَى — فِي حَيْرَةٍ عُظْمَى وخَطْبٍ عَصِيْبْ
لاَ زَالَ طُوْلَ الدَّهْرِ سُلْطَانُكُمْ — فِي نِعَمٍ تَتْرَى، وَعيشٍ خَصِيْبْ
وكُلَّمَا جَاهَدَ نُوْدِي لَهُ: — نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيْبْ

وفيها نُهبَ قفلُ عُقَيْل، وفيهم سلطان (لار) فانهزم ورجع إلى بلاده، وكان مع

القفل الشريف أَحمد بن حسن بن عجلان، وأَخوه علي، وكان لهما مدة بالعراق، وصحبتهما مال جزيل، نهب جميعه، وأَموال كثيرة للحجاج.

واتفق في يوم عرفة مَشَاعَلِيٌّ والناس بذلك الموقف العظيم يسأَلون الله مغفرة ذنوبهم فنادى: معاشر الناس كافَّةً مَن اشترى بضاعة من بضائع التُّجَّار، وسافر بها إِلى غير القاهرة حلّ دمه وماله للسلطان، فسافر التجار القادمون من الأَقطار مع الركب المصري ليؤخذ منهم مكوس بضائعهم، ثم إِذا ساروا من القاهرة إِلى بلادهم أُخِذَ منهم المكس ببلاد الشام والبصرة، فلا حول ولا قوة إِلا بالله العلي العظيم.

سنة إحدى وثلاثين وثمان مئة: كان أَمير المحمل الشريف قراسنقر كاشف الجيزية، وأَمير الأَوّل إينال الششماني المحتسب، وأَحد رؤوس التدرب، وجهز معهما السلطان عشرة آلاف أَفلوري إِلى الأَمير مقبل القديري ليعمر عَيْنَ حُنَيْن بخمسة آلاف، ويتصدّق على أَهل الحرمين بخمسة آلاف، فتسلّمها مقبل، وعمل بمقتضى ذلك.

وفي هذه السنة حجّ محمل من العراق، ومعه ركب قليل نحو أَربع مئة جمل، وحَمَلَ الحاجَّ من مشهد عليٍّ والمجهز له سلطانُ الحِلَّة حسين بن علي ابن السلطان أَحمد بن أَويس، وكان انقطع محمل العراق قبل هذه السنة مدة تزيد على عشر سنين، منذ قتل أَحمد بن أُويس سلطان بغداد، ووليها بعده الظالم بن قرا يوسف وخربت في زمنه لزائد ظلمه على سكانها، فتفرّقوا في البلاد، وانتقلوا من أَوطانهم، واستوطنوا بلداً نائياً، وبرز أَمر السلطان في هذه السنة بأَن يُجَرَّ المِنْبَرُ إِلى الكعبة وأَن يمشي على العوائد القديمة، وحجّ في هذا العام مع الركب الشامي القاضي عبد الكريم بن عبد الجبار الرومي شارح «الكشاف» للزمخشري.

سنة اثنتين وثلاثين وثمان مئة: فيها ورد مرسوم مع حجاج الرجبية على يد سعد الدين بن المرة مباشر جدة بالإِنعام على صاحب مكة السيد بركات بن عجلان بثلث المتحصل من عُشُوْر تجار الهند الواصلين إِلى جُدَّة، وكان أَمير الحاج المصري الأَمير قراسنقر، ورسم بتوجه حمل ببضائعهم إِلى مصر لأَجل العشر.

سنة ثلاث وثلاثين وثمان مئة: وفيها كان أَمير الحاج المصري قراسنقر وأَصاب الحاجَّ في قدومهم فيما بين الأَزلم والينبع مشقة عظيمة من الحرّ والعطش، مات فيها ثلاث آلاف نفس، ويقال: خمسة آلاف نفس، وقدم صحبة الحاج الأَمير فارس أَحد الأُمراء العشراوات، وصحبته خمسون مملوكاً، يقيمون بمكة عوض الأَمير أَيبغا ومَن في صحبته من المماليك.

سنة أربع وثلاثين وثمان مئة: توجه حجاج الرجبية إلى مكة المشرفة من القاهرة في يوم الثلاثاء ثامن عَشْرَيْ جمادى الآخرة في جماعة كثيرة ممن يريد الحج والعمرة، منهم العلامة المؤرخ تقي الدين أَحمد بن علي المقريزي، وكانت عدة جِمالهم أَلف وخمس مئة جمل، ومقدمهم سعد الدين بن المرة، ناظر جدة فوجدوا فيما بين الوجه وأَكْره عدة أَموات ما بين رجال ونساءٍ، ممن هلك في عطشة الحاج، فدفن منهم نحو أَلف، وعارض عرب زُبَيْد الرجبيةَ فأناخوا في غير وقت النزول، وكادت الفتنة أَن تثور، حتى صولحوا على مئة دينار، وقام بها سعد الدين بن المرة من ماله، ولم يكلف أَحداً وَزْنَ شيءٍ فلما نزل الركب برابغ أَهلُّوا بالعمرة وساروا وهم متخوفون، فبينما هم بين الجُرَيْنات وهم سائرون ضحى، أَغار عليهم زهير بن سليمان بن زيان بن منصور بن جمَّاز بن شيحة الحسني، في نحو مئة فارس، وعدة كبيرة من المشاة وقاتلهم وقاتلوه صدراً من النهار والجِمال مناخة بأَحمالها فقتل من الركب رجلان، ومن العرب نحو عشرة وجرح كثير، ثم وقع الصلح معه على أَلف ومئة دينار أَفلورية، وعلى ثياب صوف وجوخ وعبيٍّ بنحو أَربع مئة دينارٍ، فكفَّ الناس عن القتال بعدما تعين الظفر لزهير، وبات الركب بأَنكدٍ ليلة من شدة الخوف والمال يُجْبَى من كل أَحد بحسب حاله، فمِنهم مَن جُبيَ منه مئة دينار، ومنهم مَن أَخذ منه دينارٌ واحد، وحمل ذلك من الغد وسار الركب متوجهاً إِلى مكة، وقلَّ الماءُ بمكة فمُلِئَتْ بركة الحاج في شوال والقعدة من البئر المعروفة بالسليمة والبئر المعروفة بالمنقوش وهي ببستان السلطان بدرب المعلاة، وقلّ الماءُ في أَيام الموسم، وأُبيعت الراوية بمكة في أَيام الصعود إِلى عرفة بأَشْرفيٍّ.

وفيها في ربيع الآخر أَرسل الأَشرف برسباي الأَمير شاهين العثماني الطويل، إِلى طريق الحجاز الشريف، ومعه كثير من الناس والفعَلة والحجَّارين والآلات والزوّاد والأَمتعة في نحو مئة بعير لإِصلاح المياه التي بين مكة والقاهرة، وحَفْر آبارٍ في الأَماكن المعطشة، فحفر بموضع يقالُ له زاعم وقَبْقَاب بئرين، وكان أَمير الحاج قراسنقر كاشف الجيزية وعسف الناس في المسير، مع ما أَصابهم من العطش في توجههم، وكان أَمير البشائر سنقر الغري، فسافر عوضه الأَمير فارس أَمير الرتبة بمكة ومات بينبع، وأَقام سنقر أَمير الرتبة بمكة عوضه، وحجّ القاضي زين الدين عبد الباسط ناظر الجيوش وهي حجته الثالثة، وصحبته (خوند) جلبان زوجة السلطان أُم ولده. وكانت في تجمُّل كبير، بحسب الوقت، وأَمر القاضي عبد الباسط في ذي القعدة بحفر بئر في عيون الْقَصَب، من طريق الحجاز، فعظم النفع بها، قلت:

البئر المذكورة موجودة غير أنها للاستغناءِ عنها بما ينبع من العيون أُهْمِلَتْ وَرَدَمَها الترابُ والرمل وفيها بقية، واشترى القاضي عبد الباسط بمكة المشرفة الدور التي على يسار الداخل من المسجد الحرام من باب الْعَجَلة، وأمر (استاداره) ركن الدين عمر الشامي بأَن يقيم بمكة ويعمرها مدرسة وهي مشهورة به الآن.

سنة خمس وثلاثين وثمان مئة: فيها في شهر رجب الفرد توجه إلى مكة سعد الدين بن المرة ناظر جدة، ومعه أَلزامه وحاشيته، ومنع السلطان حجاج الرجبية من السفر معه خوفاً عليهم من العرب وكان أَمير الحاج الأَمير قراسنقر، وعمر الخواجا سراج الدين محمد بن محمد بن المزلق الدمشقي أَحد التجار عين حنين المعروفة بعين بازان، فجرت في شهر رمضان، ودخلت مكة ووصلت لبركة الماجن بأَسفلها، فعمّ النفع بها لشدة احتياج الناس إليها لقلة الماءِ بمكة، وكان مصروفه عليها خمس مئة دينار فقط، وذلك لعظم نيته فإِنه قال له بعض الناس: لا تعمرها فإِنك تصرف عليها مالاً كثيراً ولا ينتفع بها، فلم يلتفت إليه وقال: أَصرف عليها جميع ما معي من المال. فأَعانه الله وأَجراها ولله الحمد.

سنة ست وثلاثين وثمان مئة: كان أَمير الحاج اينال الششماني الناصري فرج، تأَمر في أَيام أُستاذه وتأَمر عشرة بعد المؤيد فصار من رؤوس النوب في أَيام الأَشرفية وحجّ أَميراً على الركب الأَول في سنة ست وعشرين وولي إمرة المحمل في سنة ـ تاريخه ثم صار أَميراً (طبلخاناه) ورأس نوبة ثاني ثم ولي نيابة صفد، ثم أَحد المقدمين بدمشق ثم أَتابكها بعد قانباي البهلوان، إلى أن مات في ربيع الثاني سنة إحدى وخمسين وثمان مئة، وكان فيه تديُّنٌ وتعفُّف، مع جُبْنٍ وَشُحٍّ، وذكروا أن الحجاج شكوا من جَوْره ووهنه في هذه السنة، والحاج ركبٌ واحدٌ لقلتهم. ولم يعهد الحاج فيما سلف بهذه القلة، وجدد الأَمير سودون المحمدي مقام الحنفية بمكة أَمتن مما كان، وجعل عليه قبة من خشب، مبيضة بالجبس، ومحراباً في الجانب القبلي.

ومن الحوادث بمصر ما ذكره الحافظ ابن حجر في «إنباءِ الغمر» منها في أَوائل شعبان دخل سائل إلى سوق الحاجب فسأَل فقال له تاجر: يفتح الله! فتناول من التاجر أَوراقَ حسابٍ خَطْفاً، وخرج هارباً فتتبعه وضربه بِمُدْيَةٍ فخطف من جزار سكينة وضرب بها التاجر، فمات في الحال، فأَظهر الفقير التجانُنَ، فحمل إلى (البيمارستان) وذهب دم التاجر هدراً، وفي رمضان تخاصم أَقسماوي ولحام على نصف فضة فخنق أَحدهما الآخر فغشي عليه ومات بعد يومين، وتخاصم اثنان من المسحرين فضرب أَحدهما الآخر فسقط ميتاً وطلق عجميٌّ زوجته ثم ندم فتبعها في زقاق فضربها بسكين فماتت، وتزوّج بعض

مساتير البزازين بنتَ أمير، فعشقت عبداً أسودَ فأدخلته في زيِّ امرأة، وقالت لزوجها: إنها بنت أمير كبير، فعمل لها ضيافة، وجلست يومها مع ذلك العبد، والزوج لا يجَسر على دخول البيت إكراماً لها، فلما دخل الليل سألته أن يبيت في طبقة وَحْدَه، وتبيت هي مع (خوند) إكراماً لها فقبل ذلك، وباتت هي مع محبوبها. فسوّلت لها نفسها أن اتفقت معه أنْ يقتل زوجها. فهجم عليه بسكين فضربه فخابت الضربة، فاستغاث فَأُمْسِكَ العبدُ وضرب فأقرَّ فأُمْضِي فيه الحكم، وأما الزوجة فحلفت لزوجها أنها هي وبنت الأَمير باتا تلك الليلة، وما علمتا بقضية ذلك العبد أصلاً فصدّقها واستمر معها.

سنة سبع وثلاثين وثمان مئة: كان أَمير الحاج قراسنقر. وحجّ في هذه السنة حاج كبير من بلاد المغرب والتكرور والإسكندرية وأعمال مصر، وأدرك الأَمير جقمق أمير سلاح بأن قدم مع المغاربة بعد سفر الحاج بنحو ستة أيام فإنه انقطع الحاج المغربيُّ في هذه السنة، وحصل بمكة سيل عظيم جاءَ من وادي إبراهيم وغيره، بعد عشاءِ ليلة الجمعة، سادس عشري جمادى الآخرة، فدخل المسجد الحرام، وبلغ عُلُوُّهُ محاذاة باب الكعبة الشريفة، وهدم دوراً كثيرة يقول المكثر: زيادة على ألف دار، ومات تحت الهدم اثني عشر إنساناً، وغرق ثمانية أنفس، ودَلَف سقف الكعبة، وابتلت الكسوة من داخلها، وامتلأت القناديل التي بها وحدث عَقِبَهُ وَبَاءٌ بمكة وَفَدَ من اليمن في شعبان، حتى بلغ مَن يموت بها كل يوم خمسين نفساً.

ومن الحوادث المصرية أن امرأة طلقت وهي حامل فكتمت حملها وتزوجت ثم طلقها الزوج فتزوجت بثالث، ثم بعد ذلك أخذها الطلق ووضعت ولداً صورته صورة الضفدع، في قدر الطفل، فستره الله بأن أماته. نقله الحافظ ابن حَجَرٍ عن التقيِّ المقريزي.

وفي هذه السنة عملت مكحلة لرمي المنجنيق بمصر من نحاس، زنتها مئة وعشرون قنطاراً بالمصريِّ، ونصب خارج باب القرافة، ورموا بها إلى جهة النِّيل بأحجار زنة بعضها تقدير ست مئة رطل.

سنة ثمان وثلاثين وثمان مئة: كان أمير الحاج المصري تمرباي (الدوادار) وأَمير الركب الأوّل صلاح الدين محمد بن حسن بن نصر الله، وحجّت (خوند) بنت الملك الظاهر جقمق، زوجة السلطان الأَشرف برسباي، وحجّ الملك الناصر حسن بن أَبي بكر بن حسين بن بدر الدين، متملك دمرة التي تسميها العامة دِيْبَة، وهي جزيرة في البحر تجاور سيلان، وكانت الوقفة بالأَربعاءِ.

ووصل الأَمير سودون المحمدي شاد العمائر بمكة، وناظر المسجد الحرام، وهو أَول تركي أَخذ النظر عليه أَحكام سلطانية بهدم سقف الكعبة، فهُدم، وأَقامت مدة بلا سقف ثم عمرها وهدم منارة باب سويقة الصاحب كريم الدين عبد الكريم وأَعادها.

سنة تسع وثلاثين وثمان مئة: فيها قدم حجاج الرجبية وفيهم (القاضي) ولي الدين محمد بن قاسم الصاحب كريم الدين عبد الكريم كاتب المناخ، وبلغ ركبهم ست مئة حمل، وجهز توقيع لابن قاسم باستقراره في نظر المسجد الحرام وعمارته عوضاً عن سودون المحمدي وفي مشيخة الْخُدَّام الطواشية بالمسجد الحرام النبوي، عوضاً عن بشير التيمي. قال العلامة ابن فهد في تاريخه «إتحاف الورى»: وكانت ولايته حدثاً من الأَحداث، وبليّة تُسَاق إلى أَهل الحرمين، ولم يعهد ولاية مشيخة المسجد النبوي يليها من عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أَيوب إلا الخدم الطواشية.

وتوقيع باستقرار كريم الدين عبد الكريم الصاحب في نظر جدة وأَنَّ إليه أَمر قضائها وحسبتها.

وجهّز السيد بركات أَمير مكة سرية ومعها من الأَتراك جماعة لحرب بِشْرٍ من بطون حَرْب، نازلين حول عسفان يأْخذون السابلة من المارّة عليهم فقتلهم العسكر، واْستاقوا الإِبل حتى كانوا في نصف الثنية التي تُعرف اليوم بمدرّج عثمان، ويقال بمدرج علي، ركب القوم عليهم الجبال، يرمونهم بالحراب والحجارة، فانهزم الأَتراك وقُتل منهم ثمانية، ومن غيرهم زيادة على أَربعين رجلاً وجرح كثير منهم، وغنم القوم منهم اثنين وثلاثين فرساً، وعشرين دِرْعاً، وغير ذلك، مما تبلغ قيمته خمسة آلاف دينار، ثم دخلوا مكة منهزمين، وتأَخر منهم - سوى مَن قُتل - أَربعة عَجْزاً لشدَّة جراحاتهم وكان أَمير الحاج المصري الأَمير طوخ بازي أَحد الأُمراءِ (الطبلخاناه) وأَحد رؤوس النوب وكانت الوقفة بالاثنين.

سنة أربعين وثمان مئة: كان أَمير الحاج خليل الخياط نائب إسكندرية، وكانت الوقفة الجمعة، وحضر من القاهرة قاصدُ أَميرِ مكة السيدِ بركات بن حسن بن عجلان، وهو أَحمد بن حنيش، ومعه كتاب من السلطان إليه، يخبره فيه بأَنه أَنعم عليه بنصف عُشور مراكب الهند.

سنة إحدى وأربعين وثمان مئة: كان أَمير الحاج أَقبغا الناصري التركماني أَحد أُمراءِ (الطبلخاناه) وكانت الوقفة يوم الثلاثاءِ، وقدم التاجر بدر الدين حسن بن

شمس الدين بن المزلق الدمشقي عوضاً عن الأَمير المجرد إِلى مكة، وبعث السلطان معه خمسة آلاف دينار، بسبب عمارة عَيْن حُنَيْنٍ. قال ابن فهد: ولم أَعلم وصول أَحد من حجاج الرَّجَبية في هذا العام، وأَرسل السيد بركات صحبة الحاج على يدَي ابن فلاح إِلى السلطان الأَشرف قردا، فوافق موت السلطان الأَشرف برسباي في ثالث عشر ذي الحجة. فقدم لولده العزيز، ونزل بركب الغزاوي، ومَن انضم إِليه من أَهل الرملة والقدس وبلاد الساحل، وأَهل ينبع لما نزلوا في عودهم من مكة بوادي عنتر، قريب من الأَزلم بلاءٌ عظيم خرج عليهم من عرب بَلِيٍّ نحو من أَربعين فارساً، ومئة وأَربعون راجلاً يطلبون منهم مالاً، فأَما الينابعة فإِنهم جَبَوْا لهم مبلغاً من الذهب دفعوه إِليهم، فكفُّوا عنهم، وتركوهم، وأَما الغزاويون ومَن معهم فاستعدّ مقدمهم، ورمى العرب بالنُّشّاب، وقتل منهم ثلاثة، فحملوا عليه حملة منكرة أَخذوه فيها، ومالوا على الركب يقتلون ويأسرون وينهبون. فما عفوا ولا كَفُّوا، فيقول المكثر: إِنهم أَخذوا ثلاثة آلاف جمل بأَحمالها، وعليها من المال ما بين ذهب وفضة وبضائع وأَزودة الحاج ما لا يقدر قدره كثرة، وخلص مَن تَفَلَّتَ من الركب، وهم عُراة حفاة، يريدون اللحاق بالمحمل فمات منهم عدة، ووصل منهم في البر والبحر إِلى القاهرة مَن تأَخرت منيته فيما بعد بأَسْوَإِ حال، وفقد الناس من الرجال والنساءِ والصبيان والبنات عدداً كثيراً وقال صاحب: «إتحاف الورى»: إِن هذه الحادثة من أَبشع ما ذكرناه، ولم يتغمّض لها أَحد لإِهمال أَهل الدولة الأُمور، وإِعراضهم عن العمل الصالح، فلا حول ولا قوة إِلا بالله العلي العظيم.

سنة اثنتين وأربعين وثمان مئة: كان أَمير الحاج المصري تنبك البردنكي الظاهر برقوق كان خاصكياً في الأَيام المؤيدية، ورأس نوبة الجمدارية، ثم من بعد موته أَمير عشرة، ومن رؤوس النوب. ثم نائب القلعة في أَيام الأَشرف برسباي، وأَنعم عليه (بطبلخاناه)، ثم قدمه في آخر أَيامه ثم نقله إِلى حاجب الْحُجّاب، تأَمر على الحاج غير مرة، وصار في آخر أمره (أَتابكاً)، وكان شيخاً وقوراً مهيباً هيِّناً لَيِّناً، متوقياً، توفي في ذي القعدة سنة اثنتين وستين وثمان مئة، وأَمير الأَول آقبردي الظاهري، وكانت الوقفة السبت، وتوفي الأَشرف برسباي، وتولى بعده الملك العزيز ابنه يوسف، ثم خُلِع وتولّى عوضه الظاهر جُقْمُق، في تاسع ربيع الأَول من هذه السنة.

سنة ثلاث وأربعين وثمان مئة: كان أَمير الأَول شجاع الناصري، وأَمير المحمل شاد بك، وقيل الركب الأَوَّلِ ركبٌ آخر، مقدمه الأَمير جرباش قاشق الكريمي، وصحبته ابنته (خوند) زوجة السلطان، وكانت الوقفة يوم الأَربعاءِ، وحصل للحجاج

في رجوعهم مشقة بحيث مات جماعة كثيرون في الطريق، من حَرٍّ سموم محرق، وهلك معظم الجِمال بحيث مشى مَن لم يَعْتَدِ المَشْيَ، ورمى الناس أَمتعتهم لعجزهم عن حملها، مع عسف أمير الركب. فكانت رجعتهم مشقة لما نزل بهم من البلاءِ.

قال صاحب «إتحاف الورى»: وورد للشريف بركات حكم يتضمن إعفاءَه من تقبيل خُفِّ جمل المحمل، فشكر هذا من فعل السلطان، وأَن لا يُؤْخَذَ من التجار الواردين في البحر إلى جُدَّةَ إلاَّ العشر فقط، ويُؤْخَذُ صنف المال، من كل عشرة واحدة، ويبطل ما كان يؤخذ من رسوم المباشرين ونحوهم، وأَن يمنع الباعة من المصريين الذين سكنوا مكة وجلسوا بالحوانيت في الْمَسْعَى، وحكروا المعاش، وتلقوا الجالب من ذلك، وأَن يُخْرَجُوا من مكة، فشكر ذلك أَيضاً لأَن هؤلاء البياعين كثر ضررهم، وتقووا بحماية المماليك لهم، فغلت الأَسعار، وحصل بمكة ما لم يعهد بها، وعجز الحكّامُ عن منعهم لتقويتهم بالمماليك بما يأخذونه منهم من المال، ووصل أَيضاً صحبة الحاج فتاوى بسبب أَخذ العشور من التجار بجدة، وهو أَن بعض الفقهاءِ نمّق سؤالاً يتضمن بأَن التجار الواردين إلى مكة من الهند والصين، وهم كانوا يترددون إلى عدن من بلاد اليمن، فَيُظْلَمُوْنَ بأَخذ أموالهم، وأَنهم رغبوا في القدوم إلى جُدّة، ليحتموا بالسلطان، وسألوا أَن يدفعوا عُشْرَ أَموالهم، فهل يجوز أَخذ ذلك منهم فإن السلطان يحتاج إلى صرف مال كثير في عسكر يبعثه إلى مكة؟! فكتب القضاة الأَربعة بالقاهرة بجَوَاز أَخذه، وصرفه في المصَالح، وتَمَحَّلُوا لذلك ما قووا به فتواهم فَقُرِئَتِ الفتاوى بالحرم الشريف على رؤوس الأَشهاد، بحضور القضاة والأَعيان، فانطلقت الأَلسنة بالوقيعة في القضاة، وأَنهم اعتادوا اتِّباع أَهواءِ الملوك، خوفاً على مناصبهم أَن يُعْزَلُوا منها، وأَيُّ فرق بين ما يؤخذ من أموال التجار الواردين، وبين ما يؤخذ بالإسكندرية من التجار، وما يؤخذ بالقاهرة ومصر ودمشق، وسائر بلاد الشام من الناس، عند بيعهم العبيد، والإماءِ والخيل والبغال والحمير والجِمال، وما يؤخذ من التجار الواردين من بلاد الشام والعراق، وكل واحد يعلم أَن هذا مَكْسٌ لا يحل تناوله، ولا الأكل منه، وأَن الآكِلَ منه فاسق لا تُقبل شهادته لسقوط عدالته، ولكن الهوى يُعْمِي ويُصِمُّ، وما كفتهم ولا أغنتهم هذه الفتاوى بمصر، حتى بعثوا بها فَقُرِئَتْ بالحرم الشريف، على رؤوس الأَشْهاد، ليقضي الله أَمراً كان مفعولاً، والعجب من السلطان الظاهر كيف أَحدث هذا الحادث الشنيع، وهو يريد أَن تكون تصرفاته على مقتضى فتاوى أَهل العلم، وهو يعلم أَن (شاه رخ) ملك الشرق كان يبعث بالإنكار على الأَشرف برسباي لأَخذه العشور بساحل جُدَّةَ. انتهى.

وفي أولها عمر الأَمير سودون المحمديُّ سطح الكعبة الشريفة لِدَلْقِهِ بالماءِ، وجرّدها عن ثيابها يومين وليلتين، لرثاثة الخشب التي تشد فيه حتى يصلحه، وبيّض مِئْذَنَةَ باب السلام، وباب العمرة، وباب حَزْوَرَةَ، وعُلُو مقام إبراهيم، وعُلُو مقام الحنفية، وعمر سفل مِئذنة باب عليٍّ لخرابه، والميل المقابل لها مع الميلين الملاصق لدار العباس، والمقابل له وغير ذلك.

سنة أربع وأربعين وثمان مئة: كان أَمير الحاج تمرباي (الدوادار) وكان الحاج المصري ثلاثة ركوب وكانت الكسوة في هذه السنة الشقة التي فيها الباب بجامات بيض، والثلاث شقق الأُخرى كل نصف شقة بجامات بيض وسود، والباقي سود، وكتب السلطان لأَمير مكة والمدينة والينبع بإعفائهم مما كانوا يقومون به من المال لأَمير ركب الحجاج في كل سنة، وأَكَّدَ السلطان على الأُمراءِ أَن لا يأْخذوا منهم شيئاً. قال العلامة ابن فهد: فما أَحسن هذا وأَجمله لو عُمل به، وبلغ السيد بركات أَنَّ السلطان أَمر أُمراءَ الحج بالقبض عليه، فجمع وحشد ولاقى الحاجَّ الأَول، والمحمل والشامي، واحترز منهم بحرز الله، ولم يجتمع بأَحد من الأُمراءِ في منزله بعد وصول المحمل، وكان الأُمراءُ الحاجُّون في هذه السنة أَربعة عشر أَميراً منهم الأَمير تمراز أَمير سلاح، وكان السلطان طلب السيد بركات في أَول السنة إِلى الأَبواب الشريفة فأَراد السفر، واجتمع به التجار والمجاورون، وأَهل مكة، وسأَلوه في الإِقامة، ورغّبوه عن السفر لعدم أَمنهم في غيبته، وأَنهم يعرضون ذلك على الأَبواب الشريفة، فكُتِبَ بذلك مَحْضَرٌ كتب فيه الأَمير سودون المحمدي، وأَشار بالمصلحة في إِقامته، وخدم الشريف بركات الخزانة بعشرة آلاف دينار عن نفسه، وخمسة آلاف عن ذوي شُكْرٍ وشُمَيْلة. فوصل خبر ذلك للسلطان فأَعفاه من الحضور، وأَذن لذوي شُكْرٍ وشُمَيْلة أَن يدخلوا مكة وجدة على جاري عادتهم، ثم جَهَّزُوا في البحر عوض المال قُلْقُلاً بخمسة عشر أَلف دينار، وكان وقع قرب خليص بين أُمراءِ الركب الكركيِّين، وبين حجاج ينبع وقعة قتل فيها من الينابعة زيادة على عشرين رجلاً ونُهبتْ أَموالهم، وسلّم الله الركب.

سنة خمس وأربعين وثمان مئة: كان أَمير الحاج المحمل تغري برمش اليشبكي الزردكاش، وأَمير الأَول الأَمير يونس الأَقبائي البواب أمير عشرة، وقيل هذه السنة كان العادة أَن أَمير المحمل يبرز إِلى الرَّيدانية، ثم في ثاني يوم يرحل إِلى الْبِرْكَة، فرحل في هذه السنة إِلى البركة دفعة واحدة، ذكر ذلك ابن تَغْرِي بَرْدِي في تاريخه: «الذيل على السلوك في دول الملوك» وولي مكة السيد علي بن حسن بن عجلان قدم إِليها

من القاهرة في شهر شعبان عوضاً عن أَخيه السيد بركات، وكانت زحمة بالمطاف يوم الجمعة ثاني الحجة مات بها سبعة أَنفس.

سنة ست وأربعين وثمان مئة: كان أَمير المحمل تنبك البردنكي الظاهري برقوق، حاجب الحجّاب وأَمير الأَول مقدم المماليك الأَمير الطواشي عبد اللطيف المنجكي العثماني. وفي هذه السنة حضر حكم من السلطان صحبة الرجبية للأَمير أَقبردي الظاهري مقدم الأَتراك بمكة، والأَمير تبراز بالقبض على الشريفين علي بن حسن، وأَخيه إِبراهيم، وتجهيزهما، وكان الأَمير تمراز حضر إِلى مكة في مستهل شوال، فأَرسل الأَمير أَقبردي إِلى السيد عَلِيٍّ أَن يحضر هو وأَخوه السيد إِبراهيم للبس خلعهما فتخيلا من ذاك، واقتضى رأْيهما أَن يقيم السيد إِبراهيم بوادي الآبار، ويتوجه لهم السيد علي فوصل إِلى مكة في عشاءِ ثالث شوال، وخرج في صباحها فسأَلوه عن أَخيه السيد إِبراهيم، فاعتذر عنه بخوفهم على الحلّة من جماعة أَخيه السيد بركات، وكان حاربهما في أَول السنة عند الحدية خارج جدة وظهر عليه، وتوجه إِلى جهة اليمن فلبس السيد علي خلعة حمراءَ أَطلس متمراً بطرازين وحياصة، وقرئ مثال من السلطان: أَنه بلغه أَن السيد علي متشوش الخاطر لتغييره عن إِمرة مكة فليطبْ نفساً ويقر عيناً، فإِننا لا نغير عليه أَبداً، لما بيننا من العهود والمواثيق ما دام على طاعة السلطان، وأَنه عنده أَعز من الولد، واختاره بإِرسال تشريف له على العادة، ولأَخيه إِبراهيم بكاملية فَرْوٍ، تامٍّ، فقرّت بذلك عين السيد علي، وطابت نفسه، فطاف وتوجه إِلى منزله مطمئن الفكرة، وعاد للسلام على الأَمير تمراز، وكان نازلاً بالباسطية، فأَلزمه بحضور أَخيه السيد إِبراهيم ليلبس خلعته طاعة للسلطان. فأَرسل إِليه وطيَّب خاطره فحضر في يوم الثلاثاءِ رابع الشهر، واجتمع هو والقضاة والأَمير تمراز، والأَمير تنم المؤيدي، وأَرسلوا إِلى الأَمير أَقبردي فذكر أَنه شرب دواءً فأُلبس السيد إِبراهيم الكاملية، وتوجه هو وأَخوه السيد علي، والأَمير تنم وتمراز للسلام على الأَمير أَقبردي بإِشارة من الأَمير تنم، فدخلوا عليه بداره بالصفا فسلّموا عليه ثم أَخرج الأَمير تمراز مرسوماً، وسلّمه للأَمير أَقبردي مقدم المماليك، فناوله لموقعه، فتأَمله وقرأَ لهم معناه بلسان الترك وهو يتضمن القبض على الشريفين علي وإِبراهيم، ويُجَهَّزَا في البحر المالح إِلى القاهرة فقبض الأَمير تمراز على السيد إِبراهيم، وقبض الأَمير أَقبردي على السيد علي، ثم جعل في عنق كل منهما (باشة)، فتفرّق أَصحابهما الذين كانوا صحبتهما بمكة لضعف قلوبهم، ولم ينتطح في مسكهما عَنْزَان، وعُدَّ ذلك من الحوادث العجيبة، فسبحان الفعال لما يريد، ونادى الأُمراءُ بالأَمان والاطمئنان، وأَن

البلاد للسيد أَبي القاسم بن حسن بن عجلان، حسب ما رسم به السلطان، وهو مقيم بالقاهرة، وأَرسلوا لولده السيد زاهر بمرسوم والده، وأَمان له، فتوقفت الشريفة أُم الكامل في إرسال ولد زوجها أَبيَ القاسم إليهم، فحلف الأُمراءُ على المصحف أَن البلاد بلاد الله، ولا أَضْمَرُوا له سوءاً فحضر إليهم بالحطيم وقرأَ توقيع والده بإمرة مكة عوضاً عمن بها، وأنه واصل عقب ذلك، وأَن ولده زاهراً متقدم بجمع العربان وحفظ البلاد، وخلع عليه خلعة عمه بعد أَخذها منه، وطاف ودُعيَ له على زمزم، وخرج من باب السلام إلى الْمُدَّعَا، وعاد إلى منزله من طريق السويقة، وحمد الناس له هذا الفعل، لكيلا يمر على عميه أمام باب الصفا، واستمر الشريفان عندهما تحت الحفظ إلى ثامن شوال، فتوجه الأَمير أَقبردي وتمراز وجماعة الأَتراك ملبَّسين بالسلاح في نحو مئة فارس غير أَتباعهم، ومعهم السيد زاهر وصحبتهم الشريفان علي وإبراهيم في شقدفين، وعديل كل واحد منهما مملوك في عنقه باشة، وفي عنق عديله طرفها الآخر، وتوجهوا بهما إلى جدة، فأَركبوهما على الفور، ومعهم عشرة مماليك، وفُكَّ الشريفان من الأغلال، وثقلت أرجلهما بالقيود، وكتب على المماليك إشهاد بتسليمهما، وهما طيبان، وأَرسلوه مع قاصد في البر إلى القاهرة، وأَنشد في هذه الواقعة العلامة الأَديب أَبو الخير محمد بن عبد القوي المكي المالكي شعراً:

مَـا جَـاءَنَـا قَـطُّ وَلَـمْ يـأْتِـنَـا ... مِـثْـلُـكَ يَـا تَـمْـرَازُ فِـي الْـفَـتْـكِ

تَـسِـيْـرُ بِـالأَخْـشَـبِ مِـن مَـكَّـة ... والأَخْشَبُ الثَّانِي عَلَى الْفُلْكِ

وَمِـثْـلُ هٰـذَا لَـمْ يَـكُـنْ قَـطُّ فِـيْ ... مُـلْـكِ بَـنِـي الْـعَـبَّـاسِ والـتُّـرْكِ

أَنَّ شَـرِيْـفَـيْ مَـكَّـة يُـمْـسَـكَـا ... مِـنْ غَـيْـرِ مَـا طَـعْـنٍ وَلاَ سَـفْـكِ

هٰـذَا بِـتَـقْـدِيْـرِ الَّـذِي قَـهْـرُهُ ... يَـنْـزِعُ مَـنْ شَـاءَ مِـنَ الْـمُـلْـكِ

ثم في سابع عشري ذي القعدة وصل لمكة من القاهرة السيد أَبو القاسم بن حسن بن عجلان، فخرج له الأَتراك الذين بمكة إلى الزاهر، ولبس خلعته، ودخل المسجد الحرام فَقُرِىءَ توقيعه، وطاف وَدُعِي له على زمزم، وزينت مكة لقدومه، وكانت الوقفة يوم الأَربعاءِ.

سنة سبع وأربعين وثمان مئة: كان أمير الحاج شاربك، والوقفة بالاثنين، وحجّ السيد حسن نظار إسكندرية، وفعل بمكة معروفاً كثيراً من الصدقات بالذهب والقمح والدقيق والحلوى السكرية على الفقراءِ والمنقطعين بالحرم ـ أَجزل الله ثوابه ـ وحجّ ركب كبير من التكرور، وفعل بمكة خيراً كبيراً.

سنة ثمان وأربعين وثمان مئة: كان أَمير المحمل تمرباي التمر بغاوي رأس نوبة النوب، وأَمير الأَول قانم التاجر أَمير عشرة. وفي هذه السنة أَبطل السلطان الظاهر برقوق دوران المحمل فشقَّ ذلك على الناس، وكانت حجاج الرجبية بكثرة نحو أَربعة آلاف جمل، وقال العلامة جار الله بن فهد القرشي: إن أَمير ركب الرجبية في هذه السنة قراجا الوالي، ووصل مع أَمير الحاج رسول ملك الشرق (شاه روخ)، ومعه كسوة للكعبة الشريفة من داخلها فكسيت في يوم العيد، ووصل مع الرسول أَيضاً صدقة قليلة، ففُرِّقت على النَّاس من أَهل الحرم، وكانت الوقفة يوم الجمعة، وحصل في يوم عرفة عند شَدِّ النَّاس للوقوف مطر شديد تعطل النَّاس بسببه، ونزلت صاعقة على امرأة وجمل، فماتا من فورهما.

سنة تسع وأربعين وثمان مئة: كان أَمير الحاج دولات باي المحمودي في هذا العام، وحجّ ركب المغاربة ومقدمهم سياج بن أَبي غرارة وصحبته السليماني وزير صاحب تونس، ولم يفرقوا بمكة شيئاً كما جرت به العادة، وحجّ جمع من التكاررة، وكان الحاج من مصر كثيراً.

سنة خمسين وثمان مئة: كان أَمير الحاج سونجبغا الناصري أَحد الأُمراءِ العشراوات، وأَمير الأَول الأَمير همام الحسني أَحد الأُمراءِ العشراوات أَيضاً، وعاد السيد بركات وولده محمد إِلى إِمرة مكة، وكان ولده محمد عوضاً عن أَخيه أَبي القاسم، وقرىء تقليدهما بذلك، وحجّ من مصر خلق كثير منهم القاضي كاتب السر كمال الدين البارزي، وأُخته (خوند) زوجة الظاهر، و(خوند) بنت ابن عثمان وهما في تجمُّل زائد، ودخل السيد بركات ماشياً قدامهم من باب المعلاة، نزل عن فرسه، وحجّ محمل من بغداد في هيئة عظيمة أَرسله أَحمد شاه ابن يوسف صاحب توريز، لاستيلائه على بغداد في هذه السنة وصحبته في الركب نحو أَلف زاملة، لم يكن فيها كجاوة ولا محارة، وأَميرهم شخص شاب من التركمان المغل يسمى جعفراً، وكانوا لما وصلوا رُكُبَةَ خرج عليها عَرَبٌ يسمون مُطَيْر، في مئة وخمسين فارساً، ونحو أَلفي راجل وأَرادوا أَخذ الحاج، فحاربهم الأَمير في نحو خمس مئة قوّاس، كانوا في الركب، فظهر من الأَمير شجاعة عظيمة ظهر بها أَنه من فرسان الإِسلام، فنصرهم الله على العرب، وردَّ كيدهم في نحرهم، وكان قاضي الركب قاضي توريز مجد الدين بن برهان الدين الأَليجي، وأَخبروا أَنه كان تجهّز للحج من المشهد وتلك النواحي خلق كثير، فقال لهم الأَمير والقاضي: هذا الدرب لم نسلكه قبل هذه السنة وما نعرف ما تلقى من الموارد والعربان، فإن سلمنا في هذه السنة فنكون جميعاً في السنة الآتية فبطلوا وذكروا أَن امرأة (شاه روخ) تحج في العام الآتي،

وحجّ ركب كبير من التكاررة، وحاج من المغاربة، واتفق على حجاج البحر أَهل اليمن أَمر عظيم، وهو أَنهم لما وصلوا الرياضة خالف عليهم الريح، فرجعوا على طريق البر، فضلّ بهم الدليل عن الماءِ، فمات منهم خلق كثير لا يحصون، ويقال: إِنهم فوق مئتي نفس ورجع إِلى البحر أُناس فما رأَوا الجلاب على الساحل، وتعوّق في البحر نحو الثلاثين جلبة، لم يدركوا الحج فما شاءَ الله كان، وحجّ وزير ابن عثمان، ومعه مال جزيل، فرقه في الحرمين على بعض المستحقين والأَغنياءِ، وأَذاب في فسقية قبة العباس ثلاث مئة وستين قِمْعاً من السكر المصري فلم يُحَلُّوا فزاد قنطارين عسلاً، وملأَ قرب السقائين فخرجوا بذلك إِلى المَسْعَى فسقوا الحاج واختلف في الوقفة فوقف الحاج في يوم الخميس، ويوم الجمعة.

سنة إحدى وخمسين وثمان مئة: كان أَمير الحاج تنبك البرديكي، وأَمير الأَول الطواشي عبد اللطيف العثماني مقدم المماليك، وحجّ العراقيون بمحمل على العادة وكانت الوقفة الأَربعاءَ، وفي ضحى يوم عرفة كانت جفلة سببها أَن الأَتراك تعدُّوا على غنم بني سعد وأَخذوها فحصل بينهم قتال، فسمع الشريف بركات فجاءَهم، ومعه عسكر ففرّ العرب ونهب الغوغاءُ كثيراً من إِبلهم وغنمهم وأَثاثهم، وسكن الأَمر، ونودي بالأَمان والبيع والشراءِ فأَمن الحجاج.

وفي هذه السنة توجه أَمير مكة السيد بركات بن حسن بن عجلان إِلى مصر لمقابلة الملك الظاهر برقوق صاحبها، في ثامن جمادى الآخرة، فنزل السلطان إِلى المطعم ببركة الحاج، ولاقاه ملاقاة حسنة، وارتجت القاهرة لدخوله فكان يوماً مشهوداً، وسلّم عليه القضاة والأُمراءُ والأَعيان وحدَّث بها، سمع منه بعض الطلبة، وأَجاز لهم، وعاد إِلى مكة في ثامن عشر رمضان المعظَّم، ولم يصلْ أَحد من حجاج الرجبية في هذه السنة.

سنة اثنتين وخمسين وثمان مئة: كان أَمير المحمل سمنجيعا اليونسي وأَمير الأَول قانم التاجر، وحجّ العراقيون بمحمل على العادة، وكانت الوقفة يوم الاثنين، ووصلت كسوة لِحِجْر إِسماعيل من داخله، ولم توضع على الحِجْر.

وفي يوم عرفة وصل الخبر بأَن الشريف أَبي القاسم بن حسن بن عجلان توجه إِلى القاهرة، ومات بها في السنة الآتية مع أَخيه علي، ولم يحج الرجبية في هذه السنة أَيضاً ووصل إِلى مكة جاني بك الظاهري (شادّ) جدة في ليلة الثلاثاءِ من عشر ذي القعدة.

قال العلامة ابن فهد جار الله: فتلقي بأربعة عشر مشعلاً من الحجون، وبفوانيس المسجد الحرام، وشموع كثيرة من مسجد الراية، وأُوقدت له دكاكين المسعى بالشموع، وكذا الأَميال الأَربعة والمشعرين الصفا والمروة بالقناديل والثريات وقت سعيه، وعاد إِلى الزاهر كأَمير الحاج، وسار منه في الصباح، ودخل بعرضة وقُرِئَتْ مراسيمه بالحطيم.

سنة ثلاث وخمسين وثمان مئة: كان أَمير المحمل الطواشي فيروز الزمام، وأَمير الأَول تمربغا، ووصل صحبة الحاج كسوة الْحِجْرِ الشريف من داخله، وأُلبست مع الكسوة التي وصلت في السنة الخالية، في العشر الأَخير من ذي الحجة، وحجّ العراقيون بمحمل على العادة، وكانت الوقفة يوم الجمعة، وحجّت الحجاج الرجبية، وكان وصولهم إِلى مكة في خامس عشر شوال، بعد أَن زاروا قبر النبي ﷺ، وفيهم قاضي القضاة بدر الدين الحنبلي، والأَمير جرباش، والقاضي عبد الباسط بن خليل، والقاضي علم الدين شاكر بن الجيعان، وجدّد ناظر الحرم بيرم خجا عدة من البرك بأَرض عرفات كانت دائرة، قدْ رَمَى فيها الريح التراب، حتى امتلأَت، ولا يظهر منها إِلا يسيراً، فأَخرج ذلك، وعمر ما كان خراباً ونوره، وساق فيهن الماء من آبار بأَرض عرفة، وعمر جانباً كبيراً من عين عرفة، مع المسجد المعروف بِنَمِرة.

قلت: وله البستان الذي بالمعلاة المعروف به قديماً، وجدّده الآن قاضي مكة محمد بن محمود بن كمال الرومي الحنفي، في عشر الستين وتسع مئة في ولايته الأُولى وذكر أَنه جعله باسم (الخاصكية) والدة السلاطين ولا أَدري ماذا صنع بالوقفية ورأَيت لسواقي هذا البستان معلوماً لعلوفة أَثْوَارٍ تصرف في كل عام من ديوان الذخيرة السلطانية على يديَّ، لمستحقه مقرر ذلك من قديم الزمان ولا أَعلم سبب إِضافته إِلى ديوان الذخيرة فلعله من جملة الأَوقاف المضافة قديماً.

سنة أربع وخمسين وثمان مئة: كان أَمير المحمل تمربغا الظاهري (الدوادار) الثاني، أَبو سعيد البردني الظاهري جقمق، والمذكور أَنه قدم به بعض تجار الروم إِلى البلاد الشامية في سنة اثنتين وعشرين وثمان مئة فملكه شاهين الزردكاشي نائب طرابلس، إِلى أَن ملكه الظاهري، وهو (أَمير آخور) فأَحسن تربيته، وأَدّبه وهذّبه، ثم اختص به وقربه، وتنقّل عنده في المناصب، إِلى أَن صار أَمير عشرة، ثم حجّ أَمير الأَوّل غير مرة، ثم أَمير المحمل، ورقاه إِلى (الدوادارية) [الثانية وارتقى في [.......][1] من منصبه، فلما تسلطن ابن أُستاذه نقله إِلى (الدوادارية)] الكبرى

(١) بياض في الأصل.

وصار هو المدبر للمملكة، فلما استقر الظاهر خُشْقُدم عَمِلَهُ رأسَ نوبة النوب، فلما تسلطن بلباي صار أَتابك العساكر، ثم صار بعده سلطاناً، في آخر يوم السبت سابع جمادى الأُولى سنة اثنتين وسبعين قبل الأَشرف قايتباي، وسُرّ بِهِ جمهورُ الناس، لوفور عقله ورياسته وفصاحته وفهمه، ولم يلبث أَن خلع في يوم الاثنين سادس رجب من السنة بالأَشرف قايتباي ثم أُرسل إِلى دمياط بدون ترسيم، إِلى إسكندرية، ليكون بها بغير ترسيم في بيت العزيز يوسف، فاستمر بها إِلى أَن مات في يوم الجمعة ثامن ذي الحجة سنة تسع وسبعين وكان ملاكاً لائقاً فقيهاً فاضلاً، يستحضر كثيراً من المسائل الفقهية، مع المشاركة في فنون كالتاريخ والشعر، وحذقٍ وذكاءٍ ورأْيٍ وتدبير، وفصاحة لسان، وأَدب وحشمة وتجمُّل زائد في ملبسه ومأْكله ومركبه ومسكنه، وله في ذلك اختراعات، ولما تسلطن تواضع جدًّا، وهو من أُمراءِ الحاج الذينَ وَلُّوا السلطنة بعدها كالمؤيد شيخ المحمودي، فلنرجع إِلى ذكر بقية تلك السنة فنقول: وكان أَمير الأَول خير بك المؤيدي، أَحد الأُمراءِ العشراوات، وحجّ الرجبية ومقدمهم الأَمير جاني بك (شادّ) جدة، وكان المتولي قبله تمراز هرب في تاسع عشر جمادى الآخرة في مركب إِلى بلاد الهند، ومعه من مال السلطان نحو خمسين أَلف دينار، وكانت الوقفة بالأَربعاءِ.

سنة خمس وخمسين وثمان مئة: كان المحمل سُونْجُبَغَا الناصري أَحد الأُمراءِ العشراوات، وأَمير الأَوّل عبد العزيز بن محمد الصغير، وكان الحاج قليلاً إِلى الغاية، لغلوّ الأَسعار، وقلة الجِمال، والوقفة يوم الأَحد.

وفي اليوم الأَول من ذي الحجة كُسِيَتِ الكعبة الشريفة، كسوة فوق الكسوة الأُولى قصيرة، وهي بيضاءُ وسوداءُ، فلما كان سادس عشر الشهر أُخْرجت الكسوة، ودخل بها إِلى جوف الكعبة فكسيت بها من داخل، وفي رابع عشر الحجة كانت وقعة بين القواد ذوي حسن والقواد ذوي عمر، وأُصيب فيها القائد بردي بكائنة مات فيها، وغلت الأَسعار بمكة ثم حصل الفرج من الله تعالى.

سنة ست وخمسين وثمان مئة: كان أَمير المحمل دولات باي المحمودي المؤيدي، (الدوادار) الكبير. وأَمير الأَول السيفي فارس (الدوادار) الثاني بخدمة دولات باي المذكور، فَإِنَّ الركب لما خرج من القاهرة صحبة أَمير المحمل ركباً واحداً برز أَمر السلطان أَن يتقدم (دواداره) بجماعة من الحاج أَول الركب، ويكون أَميرَ أَوَّل، ففعل ذلك وسافر في هذه السنة المقام الْغَرْسِي خليل ابن الملك الناصر فرج، صحبة المحمل، وكان رحيل الأَمير فارس (الدوادار) أَمير أَول من البركة يوم

السبت حادي عشر شوال وقت الظهر، ورحل أُستاذه أَمير المحمل في ليلة الأَحد ثاني عشر شوال بعد طلوع القمر، ذكر ذلك ابن تَغري بَرْدِي في تاريخه، وكانت الوقفة الخميس، ووصل حكم من الظاهر جقمق إِلى مكة بإِخراج ما في داخل الكعبة الشريفة من كسوة داخلها الكسوة المنسوبة إلى الأَشرف برسباي والكسوة المنسوبة إِلى (شاه روخ) وإِبقاءِ الكسوة المنسوبة إِلى الملك الظاهر.

سنة سبع وخمسين وثمان مئة: قال ابن تغري بردي: فيها كانت وفاة الملك الظاهر جقمق، بين المغرب والعشاءِ في شهر صفر وسنهُ تسعون سنة ونيف، وتولى ولده الملك المنصور فخر الدين عثمان قبل وفاته بأَيام، في حال تمرضه بأَمر والده، ثم خلع من السلطنة وتولى الملك الأَشرف أَينال في ثامن شهر ربيع الأَول، ورسم بدوران المحمل في شهر رجب ولعب الرماح على عادة من تقدمهُ من الملوك في السنين الخالية، وكان ذلك بطل من نحو عشر من السنين، وعين معلم الرمح بالمحمل الأَمير جاني بك (الخازندار) وعين باشات أَربعة، وهم الأَمير جاني بك الأَشرفي المعروف بِقَلْقَسِيز، والأَمير قانصوه المحمدي الساقي، أَمير عشرة، والأَمير كسباي الششماني أَحد الأُمراءِ العشراوات، وكان الملك الظاهر أَبطله، فَسُرَّ الناسُ به سروراً عظيماً، وكان أَمير المحمل جاني بك بن برسباي (الخازندار) الظريف.

وفي يوم الخميس ثاني عشر رجب الفرد نودي بزينة القاهرة، لأَجل دوران المحمل، فزينت القاهرة أَحسن زينة، ودار المحمل في سادس عشره بالقاهرة ولعبت الرماحة بالرملة بين يدَي السلطان، على عادة السنين الماضية، وكان محملاً بهجاً إِلى الغاية وتغالوا في اكتراءِ البيوت والحوانيت والأَسطحة مغالاة كبيرة، ومما وقع فيه من اللطائف أَنهم لما زينوا القاهرة، وشرعت عفاريت المحمل تُضْحِك الناس على العادة، وهم جماعة من الأَجناد وغيرهم، يغيرون صفتهم بهيئة مزعجة مهولة إِلى الغاية، ويركبون خيولاً بالقلاقل والأَجراس والشرابخ، ويعبثون على العوام، فلما كان يوم المحمل خرج شخصٌ من التجار المشارقة يسمى سليمان، على فرس له وقصد جهة من الجهات، فلما صار في وسط الحلقة قصده عفريت وطعنه برمحه، حتى رماه عن فرسه بعد أُمور وقعت بينهما، فضحك الناس من ذلك، وقال في هذا المعنى شخص من الفضلاءِ يسمى الشيخ حسن ابن الشيخ إِبراهيم البلوي الحصني بيتين:

أَرَى كُلَّ شَيْءٍ يَسْتَحِيلُ لِضِدِّهِ وَلَمْ أَرَ شَيْئاً فِي الزَّمَانِ كَمَا كَانَا

سُلَيْمَانُ كَمْ أَرمِيَ الْعَفَارِيْتَ فِي بَلاَ وعِفْرِيْتُ هٰذَا الدَّهرِ أَرْمَى سُلَيْمَانَا

وفي عصر يوم الجمعة سابع عشر رمضان ركب الأمير جاني بك الأشرفي (الخازندار) أمير المحمل للمسايرة ودار الرملة، ثم توجه إلى خارج الصحراءِ، وعاد بعد عشاءِ الآخرة من يومه قال المؤرخ ابْنُ تَغْرِي بَرْدِي: وكانت هذه المسايرة من المحاسن، التي أبطلها الملك الظاهر جقمق، وكان أمير الأول عبد العزيز بن محمد الصغير، أحد الأجناد الحجّاب.

وفي هذه السنة كان فتح مدينة إسطنبول عنوةً، وأخذها من الفرنج بعد قتال عظيم في يوم الثلاثاءِ العشرين من جمادى الأولى، بعد أن أقاموا في محاصرتها من سادس عشر ربيع الأول وكان الفتح على يد (خوندكار) محمد بن مراد بن عثمان، متملك بُرصا وغيرها من بلاد الروم.

وفي هذه السنة نُهِبَ الحاج العراقي، وقتل غالب مَن فيه شخص من الخوارج، يدعى شعشاع المدعي أنه المهدي بنواحي العراق، وهو رجل خارجيٌّ، له أكثر من عشرين سنة، يزعم أنه شريف، وأنه المهدي، واجتمع عليه خلائق كثيرة، وعجز عنه ملوك الشرق، وهو أنه متى قصدوه بالعساكر هرب، واختفى في جزائر، وليس له دأب إلا هذا مع قطع الطريق، وإخافة السبيل، وقتل مَن ظفر به من أهل السنة، وهو شيخ كبير رافضي خبيث، بل كان لا يقتدي بدين، وكان أمير الحاج بدمشق في هذه السنة الأمير علان المؤيدي، المعروف بحلق، أحد مقدمي الألوف، وأمير حاج حلب الأمير يشبك البجاسي، ولم تسافر الرجبية في هذا العام وكانت الوقفة بالاثنين، ولم يحج ركب العراقي لما ذكرناه.

سنة ثمان وخمسين وثمان مئة: قال ابن تَغْرِي بَرْدِي: كان أمير المحمل الأمير بُرْد بك البَشْمَقْدار الظاهري جقمق، أحد أُمراءِ (الطبلخاناه) ورأس نوبة، وأمير الأول الناصري محمد ابن الأمير جَرِبَاش (أمير آخور) الكبير، وسنه دون العشرين سنة بكثير، وسبب ذلك أن والدته (خوند) شقر، بنت الملك الظاهر فرج، عزمت في هذه السنة على الحج، في (يرك) هائل، ولا بد من سفر ابنها معها، فولاّه السلطان إِمرة الركب الأول، فهذا المقتضي وكانت الوقفة يوم الجمعة.

سنة تسع وخمسين وثمان مئة: كان أمير المحمل جاني بك (الخازندار) الأشرفي، أحد أُمراءِ (الطبلخاناه) وهو رجل حدث السن، وفيه طيش وخفة، مع عدم معرفة بالحروب والأُمور، مع تِيهٍ وشمم، فاتفق في تلك السنة أن الحاج قاسى شدائدَ من كثرة السيل، وموت الجِمال، وقطع الطريق، فأُخذ من الحاج في هذه السنة

خلائق لا تحصى حتى أنه أُخذ ركب التكروري بكماله، ولم يرجع من التكاررة ولا الرجل الواحد، وكانوا في كثرة إلى الغاية وأما المغاربة فقاتلوا مع العرب قتالاً عظيماً، وأخذوا من العرب وأَخَذَتْ منهم بخلاف ركب التكروري فإنه أُخِذَ جميعُه، لأنهم افترقوا، وأُخِذُوا على حين غفلة فَأُسِر الجميع، وقتل من قتل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والسبب في ذلك عدم اكتراث السلطان بأمر الحاج، ولضعف مَن يلي الإمرة، وكان أمير الركب الأول خاير بك (الدوادار) الأشرفي أحد (الخاصكية).

وفي هذه السنة تكلم السيد بركات بن حسن بن عجلان مع الأمير جاني بك بأن يسأل السلطان في ولاية إمرة مكة لولده الشريف محمد لضعف بدنه وقلة حركته، فجهّز له قاصداً يسأل في ذلك، فأقام بجدة إلى أن فرغ الموسم الهنديُّ وأبطأ عليه القاصد، فتوجه الأمير جاني بك إلى وادي مَرٍّ للسلام على السيد بركات، وكان نازلاً بأرض حامد، ضعيفاً فزاره وأقام عنده يومين، وتوجه إلى القاهرة في تاسع عشر شعبان، فتوفي السيد بركات عقيب سفره في عصر يوم الاثنين، تاسع عشر شعبان، فحمل إلى مكة ودُفن بالمعلاة في صبح يوم الثلاثاءِ عشري الشهر، فلما كان في عصر تاريخه وصل قاصد من الأمير جاني بك (شاد) جدة ومعه مرسوم وخلعةٌ للسيد محمد بن بركات، بإمرة مكة عن والده، وكان القاصد الذي جهزه تلاقى مع الأمير جاني بك حال وصوله من القاهرة بِعُسْفان، فَعُدَّ هذا الاتّفاق من سعد السيد محمد بن بركات، وكانت الوقفة مختلف فيها فوقفت الناس الأربعاءَ والخميس ووقع بمكة سيل عظيم، حاذى الحجر الأسود.

سنة ستين وثمان مئة: كان أمير المحمل قَانَم من صفر خجَا المؤيدي، المعروف بالتاجر أحد مقدمي الألوف، وأمير الأول عبد العزيز بن المعلم محمد الصغير، أحد أجناد الحلقة وعليه ديون مستكثرة وكانت الوقفة الاثنين، وفي ليلة عاشر ذي الحجة حصل للحجاج بالمزدلفة مطرٌ عظيم، ووقع فيه بَرَدٌ كبار كل واحدة قَدْر الحنظلة، وأقام البَرَدُ إلى جمعتين لم ينحل.

سنة إحدى وستين وثمان مئة: كان أمير الحاج سيدي أحمد ابن السلطان الملك الأشرف اينال، وحجّت معه والدته (خوند) زينب الخاصكية زوجة السلطان وهي ابنة العلائي علي بن أحمد خاص بك، وحجّ صحبته أُختاه في تجمُّل زائد عن الوصف، قال العلامة جار الله بن فهد: وفرقوا شيئاً قليلاً بمكة ولم ينل أحد منهم سوءاً، وكانت الوقفة بالجمعة، ونقل عن تاريخ الحافظ شمس الدين السخاوي المسمى

بـ«التبر المسبوك في الذيل على السلوك» أن في يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الأَول خلع السلطان على ولده أَحمد خلعة هائلة بإِمرة المحمل الشريف ونزل بخلعته في موكب حافل لبيت بكتمر الساقي تجاه الجاولية بالقرب من الكبش، وكان يوماً مشهوداً ولم يعهد لابن ملك حج في سلطنة والده. انتهى.

قلت: وقد حجّ الناصري محمد ابن سلطان قانصوه الغوري وصحبته والدته في سلطنة والده في آخر دولة الجراكسةِ ـ كما سيأْتي ذكره في محله ـ وكان أَمير الأَول يشبك الأَشرفي والذي خرج صحبة أمير المحمل محفتان له ولأَخيه الناصري محمد، وثلاث محفات لـ(خوند) الكبرى وهي أَوسط الثلاثة ولابنتيها، ومع ذلك مئة وثلاثون زوجاً من المحاير ما بينها في الميمنة لزوجة ابن السلطان (خوند) التي كانت زوجة الظاهر قبله، وفي الميسرة لزوجته الأُخرى ابنة دولات باي المحمودي وفي وصف أغشيتها وحليها وحللها التي اشتملت على الزركش والذهب والجواهر واللآلي مع العيدان وسائر الثقل المحمل، وعمرت المدرسة العطيفية، ببناءِ قاعة عظيمة فيها مرافق كثيرة، وشبابيك خمس، مطلة على المسجد الحرام، لِحَجِّ زوجة السلطان.

سنة اثنتين وستين وثمان مئة: كان أَمير الحاج المصري برسباي البجاسي، والوقفة يوم الأَربعاءِ.

سنة ثلاث وستين وثمان مئة: كان أَمير المحمل برد بك (الدوادار) وحجّت معه زوجته بدرية ابنة السلطان الملك الأَشرف أَينال، وهو مملوك والدها في تجمُّل زائد، وفرّق صدقة قليلة على أَهل الحرم، وكانت الوقفة يوم الأَحد والحجة هنية، لكن الأَسعار غالية أُبيعت الغرارة الحنطة بسبعة دنانير ونصف، وكذا الذرة والدخن، وبلغ المن السمن ثلاثة أَشرفية في ربيع الآخر.

سنة أربع وستين وثمان مئة: كان أَمير الحاج تمرباي ططر المؤيدي وكانت الوقفة يوم الأَربعاءِ والخميس، وكسيت الكعبة في يوم عيد النحر، وكانت كسوة الجانب الشرقي بيضاءَ بِجامات.

سنة خمس وستين وثمان مئة: كان أَمير الحاج مغلباي طاز، والوقفة يوم الاثنين، وتوفي في هذه السنة الملك الأَشرف اينال وولي ولده المؤيد أَبو الفتح أَحمد، ثم قبض عليه وعلى أَخيه وحبسا بالإِسكندرية وتولى الظاهر خشقدم، في تاسع عشر رمضان، وحصل بمكة مطر كثير سالت منه الأَودية، ودخل الكعبة وعَلا عَتَبَتها نصف ذراع وملأَ بِئر زمزم، وعلى خرزتها نحو ذراع ولم يعهد مثله.

سنة ست وستين وثمان مئة: كان أمير الحاج برد بك البشبقدار، والوقفة يوم الجمعة، ونَهَبَ الحجاجَ الشاميين في عودهم عَرَبُ حَرْب بالموقد، بالقرب من وادي مَرٍّ فلما سمع السيد محمد بَن بركات بذلك جهز مئة فارس فخلّصوا كثيراً من أموال التجار، وأعادوها لأصحابها ـ جزاهم الله خيراً ـ.

سنة سبع وستين وثمان مئة: كان أمير الحاج الشريف المقر الشهابي أحمد بن عبد الرحيم ابن القاضي بدر الدين العيني الحنفي، وحجّ صحبته (خوند) الأَحمدية جدته لأُمه، زوجة السلطان خشقدم في تجمُّل زائد، يحاكي المؤيد أحمد بن الأَشرف أينال، وأمير الأَول الشرقي يحيى سبط المؤيد شيخ ابن (الدوادار) الكبير يشبك ومعه أبوه وزوجته ابنة قاضي الحنفية المحيي بن الشحنة، وأبوها وأخوها وكانت الوقفة يوم الاثنين.

سنة تسع وستين ثمان مئة: كان أمير الحاج بلقيس، وحجّ الكركيون بمحمل لطيف، وكانت الوقفة يوم الجمعة.

سنة سبعين وثمان مئة: كان أمير المحمل خاير بك (الخازندار) الظاهري خشقدم، أَصله من مماليك بهودون قرقاش، فاشتراه الظاهر في أيام إمرته وعمله بعد مدة (خازنداره) ولما تسلطن جعله من جملة (الخازندكارية) الصغار ثم أَمَّره عشرة، ثم نقله إلى (الدوادارية) الثانية في شوال سنة تاريخه، وسافر أمير المحمل بعد أن تزوج ابنة الجمالي ناظر الخاص ابن كاتب جكم، واستولدها، وحجت معه، ثم نقله الظاهر تمر بغا إلى (الدوادارية) الكبرى فكافأه بالوثوب عليه وأَخذ [أَتباعه] منه [.......][1] صاحب الترجمة [.......][2] وأجلسوه موضع السلطان ويقال: إنهم سلطنوه وقبلوا له الأَرض ولقّبوه بالعادل [.......][3] إلى الأَسطبل السلطاني [.......][4] فغيّر ألقابه، والتفت إلى جهة الظاهر حين علم العجز والغلبة كل ذلك ليلاً وكفّ عنه الظاهر مَن رام قتله، ولكن حبسه بالخزانة الصغيرة من المقعد، وا تحرك إلا والأَشرف قايتباي سلطاناً، وبادر فحبس خاير بك بالبركخاناه، وأخذ في جلب الأَموال من قبله، ثم أرسل به إلى اسكندرية ثم نقل منها إلى مكة، ثم إلى بيت المقدس، وكانت وفاته فيه في سنة تسع وسبعين وثمان مئة.

فلنرجع إلى ما كنا بصدده من أمور تلك السنة فنقول: وكانت الوقفة يوم الثلاثاء

(١، ٢، ٣، ٤) بياض في الأصل.

أو الأَربعاء، وعاد الحجاج وأميرهم وهم شاكرون من الشريف محمد بن بركات أمير مكة، وزار في هذه السنة جَدَّهُ المصطفى ﷺ في قافلة عظيمة، ومعه أهله وعسكره، والقضاة وخلق من أعيان التجار والمجاورين، وعمرت فسقية الحاج الصُّغرَى التي في المعلاة.

سنة إحدى وسبعين وثمان مئة: سافرت الرجبية بعد انقطاعها ست عشرة سنة وزاروا المصطفى ﷺ قبل توجههم إِلى مكة، وكان أميرها برسباي من ططح صاحب السبيل ببركة الحاج وممن بها من الأَعيان القاضي كاتب السر أبو بكر بن مزهر وأولاده، ووالدته وزوجته وعياله، ونجم الدين يحيى ابن القاضي بهاء الدين بن نجم الدين عمر بن حجر، وزين الدين عبد الرحيم بن أحمد بن البارزي وأمير حاج إيلا، وعبد الرحمٰن بن الجيعان، وأبو البركات عبد الرازق بن الجيعان الشهير بأَبي الجواد، وجمال الدين عبد الله الكوراني، وشمس الدين محمد بن قاسم، وزين الدين عبد الرحيم ابن قاضي عجلون، ونور الدين بن الحارس الجبرتي، ورفيقه شهاب الدين اليماني ويحيى القباني والبدر المارداني، وعلي حفيد يوسف العجمي، وولد الشيخ عبد السلام البلقيني وولد الشيخ مدين والفخر بن جوشن والفقيه هارون والكمال بن السراج العبادي وولد الشيخ نور الدين التلواني وابن المعين الأَشقر ويوسف وإِبراهيم ولدا الملكي وأختهما زوجة الأَنصاري، وماتت بمكة، وابن (الأُستادار) وشهاب الدين بن القوصي، ونور الدين بن ناصر الدين الجبيلي، ومن القضاة الشافعية محيي الدين الطوخي وولده، وجلال الدين بن الأَمانة، وبدر الدين البرماوي، وشهاب الدين الصيرفي، والنجم بن عرب، وبدر الدين الدميري، ومعه ولده، ومن الحنفية القاضي شمس الدين الأَمشاطي وربيبه، ومعين الدين الطرابلسي، وولده كمال الدين، وابن عبد الرحيم الدميري، ومن المالكية الشهاب القمني، وأبو سهل بن عماد، ومن الحنابلة الشهاب بن قطب الشيشيني، ومن الشهود صدر الدين الشيشني الحنفي ونور الدين المالكي المنوفي، وعلاء الدين الدمنهوري وابن السبكي، ومن المباشرين إِبراهيم بن الجندي وابن نميلة، ومن قُرَّاء الجوق ابن عبد العزيز وشجاع وإِبراهيم بن الفوال ومن الأَطباء شمس الدين التقهمي الكحال، والشيخ يحيى الدماصي والبدر محمد بن إِبراهيم المليجي الموقع، وفَرَّق القاضي كاتب السر ابن مزهر صدقةً على الفقراء والفقهاء، ولوقف الرباط الذي أنشأه بمكة في الصفا، وكان طَارحَ التَّكلف، يمشي ويحمل سجَّادته، وكان أمير الحاج الأَمير نافق، وحجّ العراقيون بمحمل بعد انقطاعهم سبع عشرة سنة وكانت الوقفة يوم السبت.

سنة اثنتين وسبعين وثمان مئة: فيها تولى سلطنة مصر خمسة ملوك، لأن في عاشر ربيع الأول مات السلطان الظاهر خشقدم، وتولى الظاهر أبو سعيد، وخلع في سابع جمادى الأولى، وتولى الأمير تمربغا ولقب بالظاهر أيضاً، ثم خلع في سادس رجب، وتولى عوضه (الدوادار) الكبير خاير بك العادل، ثم نزل عن الكرسي وأُعيد إليه تمربغا فلم يرضَ الجلبان بذلك وقالوا: الأمير الكبير قايتباي، فحينئذ خلع تمربغا، وتولى السلطان الملك الأشرف قايتباي، وكان أمير الحاج المصري تنبك المعلم، وأمير الأوَل تنبك الأشقر، والوقفة يوم الخميس. وخرج سَبُع بن هجار بالْحُرِيْرَة، فِي جمعٍ كثيرٍ، على الشريف علي بن بركات وقاضي جُدَّة كمال الدين بن ظَهيرة، وركب الحجازيِّين ومعهم من التجار الإسكندرانيين فنهبوا أحمالهم وجِمالهم فوصل الخبر لصاحب الينبع خنافر بن وُبير، فأرسل جمعاً كبيراً في طلبهم، فأدركهم وقد اقتسموا بعضها، فقتلوا أَخَوَيْنِ لِسَبُع، هما سُبَيْعٌ وسبَّاع، وجاؤوا بغالب ما نهبوه.

وتخلّف من القافلة السيد علي وقاضي جُدَّة، وبعض التجار لسماع خبر الفزع، فلما عادوا بحوائجهم وحوائج غيرهم أخذوها وجاؤوا إلى مكة.

سنة ثلاث وسبعين وثمان مئة: وكان أمير المحمل يشبك جن، وأمير الأوَل يشبك الجمالي.

وغزا السيد محمد بن بركات بن حسن بن عجلان عَرَبَ زُبَيد اليمن، ذوي مالك بن رومي، بقرب خُلَيص ورابغ، فقتل منهم سبعين رجلاً منهم شيخهم رومي وأخوه مالك، وغنم أموالهم يقال: إنها ثلاثة آلاف بعير وغير ذلك.

وحجّ الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق، ولاقاه صاحب مكة السيد محمد إلى الوادي، ودخل معه مكة، وكذا أمير أول، ومشى أمامه من المُدَّعَا، و(باش) المماليك مغلباي، والأتراك من الزاهر وأبَى علي الشريف أن يمشي، وخلع على الشريف خلعةً سنية وكذا على القاضي الشافعي وغيره وكان أمير الشامي جان بلاط، والوقفة الثلاثاء.

سنة أربع وسبعين وثمان مئة: كان أمير المحمل يشبك الجمالي، وأمير الأوَل كزل الأشرفي، وحجّ المحمل العراقي وكانت الوقفة يوم السبت.

وفي هذه السنة عُمِّرَ مسجد الْخَيْف، على ما هو عليه الآن، وجملة المصروف عليه على ما ذكره العلامة جار الله بن فهد: ثمانية آلاف ومئتان وتسعة وعشرون ديناراً وثلثا دينار، وعمر مسجد نَمِرَةَ المعروف بمسجد إبراهيم بعرفة، في نحو ثلاثة أشهر

ونصف، والمصروف عليه ألفان وخمس مئة وثمانية وأربعون أشرفياً ونصف وربع وثمن.

سنة خمس وسبعين وثمان مئة: كان أمير المحمل يشبك الجمالي محتسب القاهرة، وهو أحسن أبناء جنسه سِيرة، وأمير الأَول كزل الأَشرفي، وحجّ المحمل العراقي وكانت الوقفة يوم الخميس وحصل على الحاج في هذه السنة شدائدُ من موت الجِمال والعطش وقلة الكراء، وانقطع أناس بعقبة أَيْلَةَ، وقطع عليهم بنو عَطِيَّةَ الطريق بنخل، ورجعت أناس من العقبة صحبة الركب، ووقع بين أمير الينبع المتولي وهو الأَمير سَبُع وبَيْن خَنَافِرِ المعزول عنها فتنةٌ قتل فيها خنافر، وأقام الركب بينبع خمسة أيام بزيادة يومين عن العادة، وكان الغلاء في هذه السنة بحيث أبيع الْوَيْبَةُ الفول المجروشة بدينار، والمأكولات قليلة، وعمر الأَمير سنقر الجمالي عينَ عرفة، وأصلح الفساقي التي بها، ووجدت فساقي أُخر خافية فحُفرت وأُصلحت، وحصل بها خير كبير، فإنه كان يحصل للفقراء وغيرهم بعدم الماء ما يفضي إلى الهلاك فكان ذلك من أعظم خير أمر به السلطان قال الشيخ جد جار الله في تاريخه: وهذه العين لا نعلم لها خبراً من مدة مئة وخمسين سنة فإن شيخنا المؤرخ تقي الدين المقريزي ذكر في «السلوك» أن جوبان عمرها، وأجرى فيها الماء.

سنة ست وسبعين وثمان مئة: كان أمير المحمل برسباي الأشرفي (استادار) الصحبة وأمير الأَول أحمد بن تنبك، وحجّ المحمل العراقي، وحصل بجماعته إهانة بالضرب من جماعة المحملين المصري والشامي، فإنهم أرادوا التقدم بمحملهم على محمل المصريين فأُخروا، ثم أرادوا المسير ميمنة فأُخروا للميسرة، وتصدّقوا على أهل الحرم صدقة يسيرة، وحجّ ابنُ جَبْرٍ في خلق كثير جدًّا جاؤوا صحبة العراقي من المدينة، وتوجهوا بعد الحج من جهة بلاد بَجِيلة.

سنة سبع وسبعين وثمان مئة: كان أمير المحمل برسباي الأَشرفي المعلم، والوقفة الجمعة، وحجّ العراقيون بمحملهم فصدّهم أمير المصري عن الدخول إلى مكة، وأمر أمير الحاج الشامي أن ينزل بجميع الحاج الشاميين بين الحجونَيْنِ، لئلا يدخل الحاج العراقي مكة، فلما كانت ليلة السابع توجه أمير المصري و(باش) المماليك وجميع الأَتراك وصاحب مكة السيد محمد بن بركات ومعه جمع كثير من عسكره، وفيهم مَن هو لابس آلة الحرب، إلى حاج العراقي، وأمروا جميع حجاج العراق بالدخول إلى مكة، وخلفوا المحمل بقبر أُمّ المؤمنين ميمونة، بِسَرِف، واحتاطوا على أمير الحاج العراقي، فمسكوه مع (دواداره) وزنجروهما ودخلوا بهما

كذلك مكة المشرفة راكبين على راحلتين، وحجُّوا بهما على هيئتهما، ثم ذهب بهما أمير الحاج المصري إلى القاهرة المحروسة، وصحب معهما المحمل العراقي بعد أن كان احتاط على كسوة المحمل وزينته.

سنة ثمان وسبعين وثمان مئة: كان أمير المحمل جاني بك (الدوادار) وعُزِل صاحب ينبع عن ولايتها وفوض أمرها إلى الشريف محمد بن بركات، وكانت الوقفة يوم الثلاثاء.

سنة تسع وسبعين وثمان مئة: كان أمير المحمل جاني بك (دوادار) السلطان. كان، وأمير الأَول يشبك الحسني، وقيل: الأَمير جانيك الخشن، وحجت في هذه السنة (خوند الخاصكية) زينب بنت العلائي علي بن خليل بن علي بن أحمد بن خاص بك، ودخلت مكة وفي خدمتها الأَمير الكبير أزبك، وصاحب مكة السيد محمد بن بركات، وولده بركات، وقاضي القضاة الشافعيين برهان الدين بن ظهيرة وأمراء المحمل، وأزبك (الخازندار) والعلائي بن خاص بك والدها، وكان معها في تلك السنة أخت الملك الأَشرف قايتباي في محفة فاخرة و(خوند) زوجة الأَتابك أزبك وهي بنت الملك الظاهر جقمق، و(خوند) زوجة الملك الظاهر جقمق، ومَن بعده بنائب الشام، وحجّ في هذه السنة الشيخ مجد الدين الأَقصرائي الحنفي، عالم مصر والقاهرة وولده، والسيد الشريف عفيف الدين الذي أفتى بهدم كنيسة اليهود وهدمت، والخواجا جمال الدين الظاهر وأولاد ابن الجيعان، والقاضي سالم مباشر الأَمير الكبير أزبك، وهم راكبون وعليهم خلع، وقاضي المحمل عليه طرحة في أبهة جميلة ومحاير جليلة، ولما وصل الراكبون الذي ذكرناهم إلى الْمُدَّعا ترجّلوا بأَجمعهم، ما خلا قاضي المحمل، وساروا إلى أن وصلوا إلى باب السلام إلى مَحَل سَكَنِها بالعطيفية، ولم يُرَ مثلُ مَحَفَّة جِهَة المقام الشريف، وجاءها بقية القضاة وسلّموا عليها، فأَلبستهم خلعاً، وكانت الوقفة بالأَحد، ووصل منبر للمسجد الحرام ووضع فيه.

سنة ثمانين وثمان مئة: في غرتها مولد المرحوم الوالد محمد بدر الدين بن عبد القادر الْجَزِيري في شهر الله المحرم منها، وكان أمير المحمل لاجين أمير مجلس، وحجّ معه ناظر الخواص الشريفة المقر البدري بن مزهر، والشهابي أحمد بن الجيعان، وحجّ العراقيون بمحمل، لكنهم لم يصعدوا به إلى عرفات، فإن أمير المصري أمر أن يُنْزَل ببطن مَرٍّ، ثم إنهم جاؤوا بالمحمل إلى مِنى ليلة العيد وكانت الوقفة يوم الخميس.

سنة إحدى وثمانين وثمان مئة: كان أمير المحمل ينبك الجمالي المعلم، أحد المقدمين الظاهري جقمق، ويُذْكَرُ بعقل ووقار، وميل للعلماء والصالحين، وربما قَرَّبَ بعضَ الأَسقاط، وأحرم قارناً، ولم يتعرض لأَحد بمكروه، وحجّ قبلها في حياة أستاذه في جملة أهل الركب، وحجّ أميراً أيضاً في سنة سبع وتسعين، وحجّ العراقيون بمحمل على العادة، لكنهم لم يدخلوا به مكة عند القدوم، بل أمر أمير الحاج أن يتركوا بالزاهر فتركوه به، ثم اجتمع الشريف والأُمراء والقاضي و(باش) مكة وتشاوروا في أمر المحمل العراقي فيقال: إنهم أرشوا أمير الحاج والواسطة قاني بك اليوسفي (باش) الترك حتى تركهم وقفوا بمحملهم في عرفة، وكانت الوقفة في عرفة يوم الثلاثاء، ولما انقضى الحج رسم الشريف محمد بن بركات على أمير العراقيين لأَجل خلعته في السنة الماضية والحالَّة، ولعادته فيما يأْخذه من الذهب في العام الماضي، ولأَجل أنه جاء بصدقة لم يُعْطِهِ ثلثها على عادته في الصدقات، واعتذر عن الخلعتين بأَنه لم يلاقه، وإنما هي له بشرط الملاقاة، وعن عادته في الذهب أنه رده، وعن الصدقة التي جاء بها: إنما هي لحمل الضعفاء، وأنه اشترى ببعضها زرابيل للفقراء، ثم إنهم أرضوا الشريف وتخلّصوا، ووردت أحكام من السلطان قايتباي إلى مكة مضمونها: أن الواصل إلى مكة من المرجان وغيره مما هو من بضائع الهند لا يترك شيْءٌ منه يُذْهَبُ به إلى اليمن، حتى لا تدخل المراكب الهندية إلى اليمن، فَتُعَشَّرُ هناك، والواصل من اليمن من بضائع الهند يكون بين السلطان وبين الشريف نصفين - ولم تَجْرِ بذلك عادة قبل تاريخه، بل كان ذلك مما يختص بالشريف - ومَن مات بجدة ومكة ولم يكن له وارث يكون من أَشْرَفِي إلى ألف أشرفيّ للشريف، وما فوق ذلك للسلطان، ومَن مات وله وارث غائب فلا يختم على مال الميت القاضي على العادة، بل ذلك إلى الأَمير قراجا نائب جُدة، والفلفل الواصل إلى جُدَّةَ من الهند يكون منه للسلطان سعر العام الماضي، ولا يعارض نائب جدة في شيءٍ مما يريده.

سنة اثنتين وثمانين وثمان مئة: كان أمير الحاج جاني بك الفقيه، أمير سلاح من ططح الظاهري جقمق، ويدعى الفقير، صار في أيام الملك الأَشرف أينال (خاصكيا) ثم أمره الظاهر خشقدم عشرة. و(طبلخاناه) وعمله (أمير آخور) ثاني ثم مقدماً ثم (أمير آخور) أول ثم صار أمير سلاح، وحجّ بالناس وهو كذلك، فلم يحمد تصرفه في سيره، وأمسك في الْعَقَبَة في رجوعه، وتوجه إلى القدس مَنْفِيًا فلم يلبث أن مات في رجب.

سنة ثلاث وثمانين وثمان مئة: كان فيه خير وبِرّ، وتواضع مع العلماء والصالحين، وعمل سبيلاً عند رأس سويقة فمنع وهدم.

وفي هذه السنة وردت أحكام من السلطان قايتباي بطلب نصف العدني، فراجع الشريف السلطان في نصف العدني فلم يُفِذْ، بل أمر بضبطه ثم راجع نائب جدة السلطان في ذلك فجاء الخبر بالأَخذ فأَخذه، قلت: ثم رسم السلطان قايتباي به له، على ما أخبرني السيد الشريف أحمد بن الشريف أبي نُمَيٍّ بن بركات من لفظه بمنزله بأَجياد في سنة ثمان وخمسين وتسع مئة لما برز أَمر السلطان سليمان بن عثمان ـ دامتْ معدلته ـ على لسان نائبه بمصر، علي باشا، بعدم تناولهم لِمتحصل العُشْر العدني، وأن يضاف ذلك إلى السلطان أن سبب تناولهم لذلك كمَلاً، بعد بروز أمر السلطان قايتباي بالمقاسمة بالنصف، هو أن السلطان قايتباي لما سافر للحج بذل الشريف محمد بن بركات مجهوده في حسن تلقي السلطان، والقيام بخدمته، فاستشار السلطان قايتباي بني الجيعان فيما ذا ينعم به على الشريف محمد جَدِّهِ، في مقابل خدمته وكم يعطيهِ من ألوف الدنانير وكان من حسن جوابه: يبرز أمركم بسؤاله عما يريد من المال أو غيره فأَمر بذلك فكان من جواب السيد محمد بن بركات: إن الموسم العدني برز أمر السلطان بأَخذ نصفه، وهو لنا عادة قديمة كملاً، فإن سمح السلطان بما يخصه كان ذلك أوفى إنعام، فلما عاد الجواب على السلطان بما ذكره الشريف محمد أمر بكتابة حكم سلطاني بذلك وشملِه بالعلامة بمكة، وجهزه إليه وصار المتحصل كملاً للشريف على عادته القديمة، ثم سمح السلطان سليمان بإجرائه على العادة القديمة أيضاً.

ووقف الناس بعرفات يوم الجمعة ويوم السبت وفي آخر ذي الحجة ابتدىء في هدم رباطي السدرة ومراغة، وغيرهما بجانب الرواق الشمالي من المسجد الحرام، لعمارة مدرسة السلطان قايتباي ورباطه، كما رسم به، ووقع بمكة المشرفة وباء كبير مات فيه جماعة كثيرون يكون وجعهم فيه أقل من جمعة، وحصل بجدة ساحل مكة طاعون بلغ فيه عدة من يموت مئة نفس وأكثر، وكان يُصَلَّى في بعض الأَيام على ستين ميتاً في الجامع، وغلقت أبواب كثيرة، وغزا صاحبُ مكة السيد محمد بن بركات أهل جازان في سابع ربيع الأَول ونهبها، وأحرق حصنها وخرب سورها، وقتل كثيراً من الرجال والنساء والولدان، واستأْسر كثيراً من النساء الشرفاء وغيرهم، وحملهم عسكره إلى بلدانهم، فكانت نازلة شنيعة عاد وَبَالُهَا على أهل مكة، فإنها أقحطت سنين عديدة.

سنة ثلاث وثمانين وثمان مئة: كان أمير المحمل قجماس الظاهري (أمير آخور) وكملت عمارة المدرسة الأَشرفية قايتباي بمكة، وتولى (باش) الترك بمكة بيبرس

الظاهري عوضاً عن قاني باي اليوسفي، وجهزت كسوة للكعبة الشريفة من داخلها، وكان بمكة غلاءٌ عظيم جدًّا، بحيث أبيعت الغرارة القمح الزيلعية بأَربعة عشر ديناراً، ولم يتيسر لكل واحد، والغرارة الذرة والدخن بتسعة أشرفية، ووقعت أمطار جيدة متعددة سال منها وادي إبراهيم مرتين، ونبت بمكة مراعي جيدة، فجاءها جراد، ولم يُرَ مِثْلُهُ فأكل جميع النبات، وقلع النخيل، وكان سبب الغلاء بمكة، وأبيعت الغرارة القمح بعشرين ديناراً.

سنة أربع وثمانين وثمان مئة: كان أمير الحاج المصري خشقدم الزمام، وحجّ محمل من الكرك، وفي هذه السنة كانت حجة السلطان الملك الأَشرف قايتباي ـ وقد ذكرناها مبسوطة فيمن حجّ من الملوك آخر الكتاب فلتراجع من ثَمَّ ـ وكان الحج هنيئاً، والوقفة يوم الاثنين، ولم ينحر السلطان شيئاً من البُدن، وأمر بصدقة كبيرة ففرقت على أعيان الناس.

سنة خمس وثمانين وثمان مئة: كان أمير الأَول يشبك بن حيدر الوالي بمصر، وأمير المحمل تغري بردي من ططر، أحد مقدمي الأُلوف، وورد حكم للشريف محمد بن بركات من السلطان قايتباي بالإنعام عليه بجميع عشور اليماني، من استقبال سنة ست وثمانين، فإنه كان أخذ منه النصف من سنتين وكان أمير الشامي (دوادار) نائب الشام وكانت الوقفة الجمعة، وحصل بمكة فناء، مات فيه خلائق كثيرة وغالب أوجاعهم ذات الجنب.

سنة ست وثمانين وثمان مئة: كان أمير المحمل يشبك بن حيدر الوالي بمصر، وأمير الأَول سيدي أحمد بن ناظر الخاص يوسف بن كاتب الحكم، وحجّ جمجمة ابن السلطان محمد بن عثمان، وكان قدم إلى مصر خائفاً من أخيه، وجاء الخبر بوصول المحمل العراقي على العادة، فاجتمع الشريف محمد والأَعيان بأَمير الحاج، واتفقوا على منع دخول المحمل العراقي ملبساً بثوبه إلى مكة، ويكون أميره مع أمير المصري، حتى يذهب به معه إلى مصر، فلما وصلوا تركوا محملهم في سبيل الْجوْخِي بأَمر الشريف محمد وأمير الحاج.

وفي ثامن الشهر دخل بالمحمل غير ملبس إلى المسجد الحرام، ووضع عند باب أمير الحاج المصري، وسافر أمير المصري ومعه أمير العراقي بمحمله، وأركب فيه خدمه وكانت الوقفة الثلاثاء.

سنة سبع وثمانين وثمان مئة: وأمير المحمل أزبك (الخازندار) أحد مقدمي

الأُلوف وأمير الأَول دولات باي شاد الشون، وأمير الشامي جاني بك أمير أربعين، وجهز السلطان قاصداً للشريف محمد بن بركات يقال له خشقدم، يخبره بما أشيع بمصر أن أولاد حسن بك صاحب العراق قصدهم إرسال عسكر لمكة المشرفة، وصحبتهم محمل وكسوة الكعبة الشريفة، وأن الشريف يتحفّظ، ويجمع العساكر، ويرسل لابْنِ جَبْر يقول له: لا يحج في هذه السنة، وكانت الوقفة يوم الأَحد والحج هنيئاً ولم يظهر للحج العراقي خبر، وحصل بمكة سيل عظيم بلغ في داخل الكعبة نحو قامة وبسطة، ومن خارجها في بعض الجهات سبعة أذرع، وفي بعضها أقل، وغطّى أساطين المطاف، وملأَ بئر زمزم، وأتلف وذهب بمنبر الخطيب إلى جهة باب إبراهيم، ومات فيه خلائق لا يحصون، منهم ممن غسل بزمزم من النساء ومن الرجال مئة ونيف وعشرون شخصاً، ومن الأَموات فيه الشيخ ياسين بن إسماعيل الزمزمي، وكان في قبة السقاية ورفع بعض الكتب والحوائج على رَفٍّ بها، وخرج منها والماء إلى نحو وسطه، فقوي عليه السيل فغرق عند مقام الخليل، ففاز بالشهادة في هذا المقام الجليل، ومات خارج المسجد بسقوط منزله بالسيل القاضي سراج الدين عمر ابن القاضي أبي اليمن النُّوَيْرِيُّ، ووجد في ناحية باب الماجن، فجهز وصُلِّي عليه عند الحجرِ الشريف، وهدمت دور كثيرة مات تحتها خلق منهم الشريفة خديجة ابنة أحمد الشطبي والدة الشيخ معمر بن عبد القوي المالكي وأُصيب الناس في هذا السيل، وحصل للحاج في عودهم مشقة زائدة، من غلو الأَسعار، وشدة البرد، وموت كثير من الجمال، وهروب الجمالين، حتى رمى الناس أحمالهم، ووقع بمصر غلاء في جميع الحبوب، وأَخذ أمير الحاج عادته من الشريف محمد، ومن أمير الينبع.

سنة ثمان وثمانين وثمان مئة: فيها حجّ من اليمن الشيخ الكبير، والولي الشهير، القطب الرباني، أَبو بكر بن عَيْدَرُوس اليماني من طريق البرِّ، وكان أَمير الأَول أزدمر، وأَمير المحمل أَزدمر أَحد مقدمي الأُلوف ونهب من أَمير أَول بالطريق شيءٌ كثير يقال: إِنه نحو مئة حمل، وحجّت بنت الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق، وكان أَمير الشامي جاني بك أَحد المقدمين بالشام، وكان الحاج هنيئاً ولم يحصل لأَحد تشويش مع كثرته، خصوصاً جماعة بني جَبْرٍ، فإنهم كانوا نحن عشرين أَلف زاملة وكانت الوقفة يوم الخميس.

سنة تسع وثمانين وثمان مئة: كان أَمير الأَول برسباي الظاهري، أَمير عشرة، وأَمير المحمل الأَمير أَزدمر أَحد مقدمي الأُلوف، عرف بتمساح من بلباي، من مماليك الظاهر جقمق، ولقب بذلك لضربه له بين يدَي أُستاذه. وحجّ في هذه السنة رأْس

الكتاب بالديار المصرية القاضي أَبو العباس بن الجيعان، ولاقاه أَمير مكة، والقاضي الشافعي من فوق العمرة، ونزل بالمدرسة الأَشرفية قايتباي، وأَخو صاحب التكرور وناظر جيش غزة المحروسة، وقاضيها ابن النحاس، والحاج مثقال الساقي، لغضب السلطان عليه في عمل الزغل، وركب المغاربة، وفيهم الحرة زوجة صاحب المغرب، والقاضي كمال الدين بن ناظر الخاص يوسف، وهو ناظر الجيش، وتمرض بمكة وانقطع بها، وتوفي ودُفن بالمعلاة، وكان أَمير الشامي نائب قلعتها علاَ الدين بن علي بن شاهين، والوقفة بالثلاثاءِ.

سنة تسعين وثمان مئة: كان أَمير الحاج أَزدمر المسرطن من محمود شاه الظاهري، وأَمير الأَول برسباي الظاهري، وكان الحاج قليلاً وليس فيه أَحد من الأَعيان، وخرجت تجريدة من مصر لسوار، وكان أَمير الشام نائب قلعتها علاء الدين ابن شاهين، وكانت الوقفة بالسبت.

سنة إحدى وتسعين وثمان مئة: فيها انتصر العسكر المصري على سوار، وكسرهم عسكر ابن عثمان صاحب الروم، وكان الغلاءُ بمصر وبمكة، وكسفت الشمس والقمر، وتوفي القاضي برهان الدين بن ظهيرة الشافعي وتولى ولده القاضي أَبو السعود لقضاءِ الشافعية عوضه، وكان أَمير الأَول خاير بك الأَشرفي كاشف الغربية وأَمير المحمل أَزدمر تمساح، أَحد المقدمين، وكان الحاج قليلاً والوقفة الأَربعاء والحاج هنيئاً.

سنة اثنتين وتسعين وثمان مئة: كان أَمير الأَول خاير بك الأَشرفي كاشف الغربية وأَمير المحمل أَزدمر تمساح أَحد المقدمين، وحجّ في هذه السنة حافظ العصر الرحلة الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن الخساوي المحدّث، وحجّت زوجة نائب حلب صحبة الركب الحلبي، وفي خدمتها الخواجا عمر بن علي بن أَحمد النيربي الحلبي، وكان أَمير الشام برد بك الأَشرفي قايتباي أَمير ميسرة، وحجّ العراقيون بمحمل على العادة، وخرج للقائهم السيد محمد بن بركات من الزاهر وأَوصلهم إِلى المعلاة وكانت الوقفة يوم الأَحد.

سنة ثلاث وتسعين وثمان مئة: كان أَمير الأَول كرتباي الأَحمر، وأَمير المحمل جان بلاط الأَشرفي قايتباي، وهو من الخواص عند أُستاذه، والناظر على أَوقافه، أَصله لدولات باي المحوجب، فقدمه حتى كان نائباً بملطية للدوادار يشبك، ثم قدمه مع غيره للأَشرف قايتباي، فأَعتقه وعمله (خاصكياً) ثم (دواداراً) صغيراً عوضاً عن

أزبك ققص، وغير ذلك من الوظائف رغبة في تنميه ومحبة لترقيه، ثم أَمرَّه عشرة، عوضاً عن (شاد) بك أاخ ولما عاد من الحج أعطاه إمرة أربعين، وألبسه إمرة الحاج ثانياً فلم تتم له، بل سافر مع المجردين إلى حلب وباشهم قانصوه الشامي.

وحجّ في هذه السنة أمير عربان بني هوارة بالوجه القبلي داود بن عمر وتصدّق بمكة صدقة يقال: إنها أَلف دينار، ويقال: غير ذلك وحصل بها نفع للفقراءِ.

وحجّ الأَمير أجود بن زامل، أَمير بني جَبْر، في نحو خمسة عشر أَلفاً من الرجال، ونزل بِالْمُنْحَنَا قرب جِرَاءِ، وكان أَمير الشامي جان بلاط، وحجّ ركب العراقي بمحمل، وكانت محطته بين سبيلي جاني بك والكواز متوسطين بين حاج الشامي وبني جَبْر، والوقفة الجمعة بلا خلاف.

سنة أربع وتسعين وثمان مئة: فيها هدمت قبة الشرابي التي يقال لها سقاية العباس، وأُعيدت شاهقة على حالها الآن، وكان أَمير الأَول كرتباي الأَشرفي، وأَمير المحمل أَزدمر تمساح، أَحد المقدمين، وأَمير الشامي برد بك الأَشرفي، وحجّ العراقي بمحمل وأَميرهم يسمى الزين كمونة ولاقاه الشريف من الزاهر، وكان سُكْنَى أَمير أَول بالمدرسة الكبرقية بالصفا، وأَمير المحمل في المدرسة الشرابية بباب السلام وكانت الوقفة يوم الثلاثاءِ.

سنة خمس وتسعين وثمان مئة: حصل بمكة سيل عظيم ورخاءٌ، بحيث أُبيع اللحم الضاني كل أَربعة أَرطال بِمُحَلَّق، والخريز والقثا لم تصل قيمته بكرائه، والمن السمن بعشرين مُحَلَّقاً، وعزل شاهين الجمالي عن نيابة جدة، وتولى عوضه الأَمير تنم الفقيه الأَشرفي، وأَما أُمراءِ الحاج فأَمير الأَول اينال الفقيه الأَشرفي، وأَمير المحمل كرتباي الأَشرفي، وحجّ العراقيون بالمحمل على العادة، وكانت الوقفة يوم الأَحد والحج هنيئاً.

سنة ست وتسعين وثمان مئة: كان أَمير الأَول شاهين الجمالي، وأَمير المحمل أَزدمر تمساح الظاهري.

وحجّ من مصر جماعات، منهم خاتمة الحفاظ الشمس السخاوي، وصهر أَمير الحاج زوج بنته منصور بن الظاهر خشقدم، وابنة السلطان بلباي، وابنة البرهان الكركي، وجماعة التاج عبد الغني بن الجيعان والشهاب المنهلي شيخ رواق الأَزهر، والخواجا محمد بن الزمن والشمس الشرنقاشي أَحد فضلاء الشافعية، والنقيب علاءُ الدين المحلي، والشيخ شهاب الدين أَحمد بن الصايغ الحنفي، والشيخ

عبد الرحمٰن بن كمال الدين ابن إِمام الكاملية، والشمس بن هدم الحنبلي، والبدوي حسن السنباطي، وهو الناظر على المواريث الحشرية في الركب، والشيخ تقي الدين أَبو بكر الظاهري، ومعه صَرُّ الحرمين على النصف، وتشوش أَهل الحرمين لنقص صرهم، وكان أَمير الشامي برد بك الأَشرفي أَمير ميسرة بالشام، وحجّ معه الخواجا علي بن عيسى القاري، ووصلت صدقة كبيرة من الروم مقدارها خمسة آلاف دينار وست مئة وعشرون ديناراً، وحصل بها الخلف عما نقص من وقف الشافعي، ذكر ذلك العلامة جار الله بن فهد القرشي في تاريخه وكان الحجُّ هنيئاً، مع كثرة الحجاج جدًّا حتى أَنهم نزلوا تحت عقبة الجمرة الأُولى وفي الشعوب التي تحت ذلك، ولم يحج في هذا العام ركب العراقيين ولا الأَروام ولا المغاربة ولا بني جبر ولا عُقَيْل، ومع كثرة الحاج كانت الأَسعار رخِيَّةً جدًّا، بحيث أُبيع الحمل الدقيق المصري بأَشرفيين وستة عشر مُحَلَّقاً، بل ابتيع الربع بمُحَلَّق واحد، وكان اللحم والحب والعسل كذلك في الرخاءِ، وكانت الوقفة بالخميس، وتعوّق أَمير ركب المحمل في هذه السنة بعد رحيل الحاج، لقبض عادته من صاحب مكة، وهي خمسة آلاف دينار فيقال: إنه دفع له أَربعة آلاف دينار، والخامسة أَحاله بها على أَمير الينبع.

قلت: والعادة المذكورة باقية لأَمير الحاج إِلى يومنا على هذا الحكم، غير أَن أَمير مكة يزن الأَلف عن أَمير الينبع.

سنة سبع وتسعين وثمان مئة: كان أَمير الأَول تنبك الجمالي، وأَمير المحمل كرتباي الأَشرفي، ولما صعد الركب الأَول إِلى سطح العقبة خرج عليهم بنو لاَم، ونهبوهم، فلما صعد أَمير المحمل وركبه وجدوا المواهي والحوائج مرمية بالسطح، ولما وصل الركب إِلى الينبع وجد المراكب المجهز ضمنها حمل البحر لم تصل، فتعطّل الحال من عدم العليق، وصار الناس في أَمر مريج بسبب ذلك، وأَرسل أَمير الحاج إِلى نائب جُدَّة وأَمير مكة، و(باش) المماليك بها يخبرهم بذلك، وأَنهم يجهروا الندا بأَن كل مَن كان عنده شيءٌ من الغلال يحتفظ عليه لأَجل الحاج وحصل بعرفات ريح شديد ومطر، فنزلت صاعقة قتلت رجلين من العرب، وكانت ساعة مهولة، وحصل للحجاج في رجوعهم تعب شديد، بسبب هروب كثير من الجمَّالة وكان الفصل والوباءُ بالقاهرة، وكانت الوقفة يوم الثلاثاءِ، وحصل بمنى زحمة قوية عند الجمرة الأُولى الكبرى بالقرب منها، ونزل كثير من الحجاج وراءَ عقبة الجمرة لكثرتهم.

سنة ثمان وتسعين وثمان مئة: كان أَمير الأَول الشهابي أَحمد بن الأَتابك أَزبك

الظاهري، وحجّ معه أخوه الشرفي يحيى، والقاضي سالم مباشر ديوان والده، وكان أمير الحاج قانصوه، خمس مئة وبصحبته القاضي عبد البر بن الشحنة، وقاضي المحمل شهاب الدين بن إسماعيل السيوطي، ونزل أمير المحمل بمدرسة أُستاذه الأشرف قايتباي وكان مستقره بالشرابية بجانبها، وحصل للركبين في أثناءِ الطريق في آخر التِّيْهِ وبالقرب من الأَزْلَم سيَّما بِحَذْرَةِ دَامَةَ بالقرب من الأَزْلَم عطش شديد، وموت جِمال ورجال، وهروب مُقَوِّمِيْن، وكان الرخاءُ معهم في أَوَل الأَمر، ولكن حمل الدقيق في الينبع بثلاثة عشر ديناراً وأكثر، والويبة الفول بدينار، ولم يحصل من أَعيان الركب لأَحد خير، ولما دخلوا مكة لم يحصل لأَحد من المكيين والمجاورين منهم خير، بل حرموا الفقراءَ من خلاوي المدرسة وبيوت الكراءِ قهراً، وكسروا الأَبواب والضبب، وأَهانوا، وما احترموا أَحداً، ولا صانوا، وغصبوا ما ظفروا به من الدقيق وربما أخفوا بعضه، وتزايد الفحش من قِبَلِهِمْ، وارتفع السعر بمكة فلما سمع أَمير الحاج بغلو أَسعار البلاد أَمر منادياً ينادي على الحمل الدقيق بعشرة أَشرفية، وعلى الفول ويبة ونصف بأَشرفي، فلم تسمع السوقة له، وأَخفوا الدقيق، فاستخبر العتَّالين عن أَصحابه، فدلُّوه على ناس قليل، فأَمر بحمل المتحصل عندهم، إلى باب السلام، فكان سهلاً واجتمع الناس لشرائه، فلم يتيسر لأَحد شيءٌ إلا القليل جدًّا ثم رفع الدقيق والحب في غالب أيام الموسم، وأُبيع الدقيق على رطلين بِمُحَلَّقٍ، ثم رطل ونصف ورطل حتى وصل الحمل الدقيق إلى ثلاثين أَشرفياً فما دونها، وأُبيع الحب الربعية اللُّقَيْمِيَّة بِمُحَلَّقين، والزيلعية بنقص ربع وأَزيد، حتى بلغت الغرارة بأَحد عشر أَشرفياً، وكذا الحب الذرة، وأَما الربعية الشعير فبمحلقين بل عدم، والربعية الدخن بمحلَّقيْنِ ونصف، والرطل الخبز بمُحَلَّق، والرطل البقسماط كذلك، والرطل التمر كذلك، والربعية والزبيب بمحَلَّقَيْن، والقدح الفول بِمُحَلَّقٍ ونصف، حتى بلغت الويبة والربع منه بأَشرفي، والويبة الأُرز بأَشرفي وثلث، وكل ربعية بمحلَّقَيْن نصف، والرطل السمن بستة محلَّقة، والسيرج بثلاثة محلَّقة والرطل السكر المكرر بسبعة مُحَلَّقة، والمد الْخَبَطُ بعشرة مُحَلَّقَة، وكان بمحلقين أَو ثلاثة، واشتدت الأَسعار بعرفة ومنى، ودخل الركب الغزاويُّ مستهل الحجة، وتأَخر عن عادته لخروج العرب عليهم، وكان الظفر بحمد الله لهم، ومعهم جمع كثير من الأَرْوام ونحوهم، وأَدركهم السموم في أَماكن أَشدها قبل وادي مَرٍّ، وهلك فيه جمع كثير من الأَروام خاصة، ولم يحج غالب أَهل المدينة لسماعهم بغلو الأَسعار، وكان أَمير الشامي برد بك المعتاد، ولم يرَ جمعاً قط أَكثر مما اجتمع في هذه السنة هذا مع كثرته في العام الماضي،

ولكن هذا أكثر جدًّا مع كونه لم يَجِيءْ حَجُّ العراق ولا [حَجُّ] بني جبر ولا زيلع والسرو، وغيرهم ووقف الناس بعرفة الجمعة والسبت، ووقفت الناس كلهم في اليوم الثاني، وكان السعر بعرفة ومنى في غاية الشدة، وتوجه أمير المحمل في رابع عشر الشهر، والشاميون في سادس عشر الشهر، ونهبوا جملة من الأَرِقَّاءِ عند سفرهم، وتخلّف كثيرون من الحجاج عجزاً عن الكِراءِ، أَو لهرب مقومهم بعد أَخذ الكراءِ لشدة الغلاءِ، فبيع الحمل الدقيق بمنى بثلاثين ديناراً، والغرارة القمح بخمسة عشر، ولازم غُلو الأَسعار بمكة، وطريق الحاج، حتى إنَّ جمال الناس صارت كلها في غاية الضعف، وكل يوم يقع منهم شيءٌ كثير، وعطش حاجُّ المحمل عشية دخول بدر.

وقيل: إنه مات به بعض الفقراءِ وتخلّف كثير من الحاج عن السفر معهم في الْبَرِّ، وعدلوا عن الزيارة النبوية لجهة البحر، منهم الخطيب شمس الدين الوزيري المالكي، توجه من بدر إلى ينبع فقيل فيه:

حَجَّ الْوَزِيرِيُّ بَيْتَ اللّهِ فَاجتَمَعَتْ ... مِمَّا جَنَى فِيهِ لِلأَوْزَارِ وْزَار

وَخَالَفَ النَّاسَ فِي بَرٍّ وَفِي نُسُكٍ ... وَفَارقَ الْجَمعَ لَمَّا الْمُصْطَفَى زَارُوا

ويقال: إنه تخلّف جماعة من الحجاج بمغارة نَبْطٍ وبِالْحَوْرَاءِ، بل في كل رحلة، وحصل للركب الشامِيِّ أَيضاً من المشاقِّ ما لا يمكن وصفه، ومات خلق من الناس والجمال مما لا يتهيأُ حصرهم، وأَمر أمير الحاج بإقراض الجمّالين مع غلبته بموت هجّنه وجماله، ولم يلقَ هو ولا غيره بالمدينة جِمَالاً تنفعهم، بحيث رام المثقلون ترك أَحمالهم بها، وصار الناس في جهد من ارتفاع الأَسعار، وكثرة المتخلفين من الحاج، وعموم الأَذى بكثرة المرضى منهم، بحيث ضاقَتِ الطرقات بمكة، وردَّ أَمير الشامي خلقاً من الفقراءِ ونحوهم من المدينة الشريفة، وبالجملة فقد قاسى الحاجُّ من الشدة ما لا يوصف، بحيث أَنَّ منهم مَن لم يتمكن من الزيارة، ومنهم مَن رجع في البحر، أَو مع الشامي أَو الغزاوي أَو مع العرب، وخرج عليهم طائفة أُخرى وهلكوا ثم مَنَّ الله عليهم بالسلامة، والرجوع إلى الأَوطان وَمَحلِّ الإِقامة، ولله الحمد.

سنة تسع وتسعين وثمان مئة: كان أَمير الأَول محمد بن العلاءِ علي بن خاص بك، وصحبته الشيخ شهاب الدين أَحمد بن إسماعيل بن الصايغ الحنفي شيخنا، وكان إمام أَمير الحاج، وأَمير المحمل اينال الفقيه الصوفي الظاهري جقمق، وصحبته الأَمير شهاب الدين أَحمد بن العيني، والقاضي بدر الدين بن المحب

المالكي وجماعات، ووردت أَحكام من السلطان قايتباي بأَن الهنديَّ إذا تعذَّر دخوله لجدة، ودخل عدن أَو غيرها، ثم دخل جملة واحدة يكون للسلطان والشريف محمد ابن بركات، ولا يختص به الشريف وحده.

وفي هذه السنة كان خروج العربان على ركب الحاج المصري في محل يقال له سَمَاوة، قبل الأَزْلَم بمرحلة، وهم في سنة وستين فارساً، وخمسين راحلة مردوفة، وأَربعين راحلة، وانتزعوا من الساقة نحو مئتَيْ جمل بحمولها، وذهبوا بها، وكان أَمير الحاج في أَول الركب فما وصل إليه الخبر، وأَتى إلى الساقة إلا وقد فازوا بما ظفروا به، وخرجوا أَيضاً في هذه السنة على الركب الغزاوي فوقف الركب بأَجمعه واكتنف القوّاسة الحاجَّ فحماه الله منهم وسلم جميع مَن فيه وما فيه، ثم إنَّ العرب المذكورين خرجوا على الركب الشامي أَيضاً فأَخذوه بأَجمعه في محل يقال له الْحَسَا، ولم يُقْتَلْ أَحدٌ من الحجاج، وإنما قبضوا على بعض تجاره، ومنهم الخواجا علي القارىءُ، وابن المزلق، والخواجا إبراهيم بن الزمن، وابن الخواجا عمر النيربي، فاشترى كل واحد منهم نفسه من العرب بأَلف دينار، ومات كثير من الحاج بالطرقات من الجوع والْعُري، ولم يصل منهم إلى الشام إلا القليل، ويقال: إنَّ أَمير الحاج الشامي استجار ببعض العرب فسلم.

سنة تسع مئة: كان أَمير المحمل في هذه السنة تنبك الجمالي أَمير مجلس وأَحد المقدمين، وأَمير أَول الأَمير كرتباي الأَشرفي من مماليك الأَشرف قايتباي، وأَحد المقدمين، وفي هذه السنة حجّ القاضي بدر الدين بن مزهر، وصحبته أَخوه وعياله، وكان أَمير الشامي بكتباي، وكان توجه أَمير الركب الأَول في ثاني عشر ذي الحجة، وتبعه أَمير المصري، وكان توجه أَمير الشامي في سابع عشر ذي الحجة.

سنة إحدى وتسع مئة: كان أَمير الأَول برد بك الأَشرفي، وأَمير المحمل باني بك قرا أَمير رأْس نوبة كبير، وقبض عليه من عقبة أَيلة، وقُيِّد وجُهِّز في الترسيم مع اصطمر (باش) الملاقاة، وجهّز إلى الثغر السكندري، وكانت وفاة الأَشرف قايتباي في يوم الأَحد سابع عشري ذي القعدة الحرام سنة إحدى وتسع مئة، وفوضت السلطنة الشريفة إلى ولده الناصر أَبي السعادات بن قايتباي، قبل وفاته بيوم.

سنة اثنتين وتسع مئة: كان أَمير الأَول مصرباي (شادّ الشراب خاناه) وأَمير المحمل كرتباي من تمراز قريب المقام الشريف، واتفق في تلك السنة أَن يحيى بن سَبُع أَمير الينبع حضر إلى الأَبواب الشريفة، وسعى في إمرة الينبع لأَنها كانت مع

والده، فلم يُجَبْ إلى ذلك لأَن الأَشرف قايتباي أَضافها لأَمير مكة المشرفة، فتوجّه حَنِقاً إلى بلاده، ومرّ على عُجْرُودَ فذبح الأَثوارَ التي بالسواقي جميعها، ورمى بعضها في الفساقي فساق الله تعالى قافلة حضرت إلى المنهل فرأت هذه البهائم مذبوحة فتعاونوا على إزالتها من الماءِ، ولم يحصل للحجاج في تلك السنة أَدنى ضرر.

سنة ثلاث وتسع مئة: فيها كانت وفاة الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان أَمير مكة، وكان رأى قبل موته باثْنَيْ عشر يوماً أَنَّ باب الكعبة هُدِمَ، فَأَولَهُ لنفسه بموته، فطلب ولده بركات، وأَوصاه، وأَعتق ما كان له غرض في عِتْقِهِ، وقسم ماله بين أَولاده، وقُبِضَ - رحمه الله - في آخر المدة المذكورة، وكان أَمير المحمل تنبك الجمالي أَمير سلاح، وأَمير الأَول طومان باي (الدوادار) الثاني، وتولى يحيى بن سبع إمرة الينبع رابع جمادى الآخرة من السنة المذكورة بعد أَن أَضاف السلطان قايتباي هذه الوظيفة لأَمير مكة، وكان الرخاءُ في هذه السنة والأَمن للحجاج زائداً.

سنة أَربع وتسع مئة: كان أَمير المحمل قرقماش بن ولي الدين رأْس نوبة كبير، وأَمير الأَول أَزبك المكحل، ثم عُزل واستقر عوضه الناصري محمد بن خاص بك، ووقع بمكة فتنة بين الشريف بركات، وأَخيه هزاع بن محمد، وشر كبير، وارتحل هزاع من الحجاز، وصُحبته أَخوه عبد القادر الجازاني وجماعتهم قيل: نحو خمس مئة فارس، ونزلوا الينبع، وكاتبوا السلطان في إمرة مكة بمئة أَلف دينار، وكانت الدولة فرقتين: مع بركات، ومع هزاع، فبرز أَمر السلطان بتعيين البدري بن مزهر كاتب السر إلى مكة المشرفة، لإخماد الفتن بينهما، وحصل في تلك السنة مطر عظيم وثلجٌ بِنَخْل، قتل بعضَ جمال ورجال ونساء، وأَقاموا بنخل أَياماً، وأَكرت الحجاج كراءً ثانياً مع بني سليمان، وكان الحج كثيراً في هذه السنة.

سنة خمس وتسع مئة: كان أَمير المحمل قانصوه الغوري المحمدي أَمير مجلس، وأَمير الأَول جان بلاط ناظر الحسبة الشريفة.

سنة ست وتسع مئة: كان أَمير الأَول دولات باي بن ولي الدين قرموط، وأَمير المحمل سودون بن جاني بك العجمي أَحد المقدمين، وفي هذه السنة تولى السلطان قانصوه الغوري بن ولي الدين تخت مصر، بعد خمس ملوك بعد وفاة الأَشرف قايتباي، وجهز للشريف هزاع بن محمد خلعة بإمرة مكة صحبة أُمراءِ الحاج، فلاقاهم من الينبع، وأَلبسوه التشاريف، وسبقهم إلى مكة المشرفة، فحين بلغ الشريف بركات هذا الأَمر خرج من مكة، ومَن معه من تابعيه لملاقاة أَخيه، فتلاقوا بالمنحنا، فكانت

الكسرة على هزاع فلحق بأُمراءِ الحاجِ، فأَعانوه، وولى الشريف بركات هارباً إلى جدةَ، وقيل: إنه نهب غالب بيوتها لأَن أُمراءَ الحاج ومَن معهم نهبوا جواريه وأَثقاله، ودخلت الحجاج مكة المشرفة على خوف كبير، وغالب أَهل مكة عزموا على عدم الحج، خوفاً على أَنفسهم وأَموالهم، وحصل للناس شدة عظيمة، وأَراد هزاع أَن يتوجه إلى قتال بركات فمنعه بنو حسن. ثم إن الشريف جمع جموعه إلى أَن وصل إلى بدر فحين علم هزاع بوصول بركات وَلَّى هارباً إلى الينبع، ولحق الحاج الشامي، واستمر الشريف بركات بمكة، وهزاع عند يحيى بن سبع أمير الينبع، وكانت بينهما حروب يطول شرحها.

سنة سبع وتسع مئة: كان أَمير المحمل اصطمر من ولي الدين، وأَمير الأَول محمد بن العلاء علي بن خاص بك، وورد للسلطان أَخبار من نائب الكرك بأَنَّ العربان قد أَجمعوا لملاقاة الركب والحاج تجمّعوا، فمولانا السلطان يكون لذلك على بصيرة، فإني قد أثرت خاطره الشريف بهذه النذيرة، فعيّن السلطان فرقة من الأَتراك، وجهّزهم صحبة ملاقاة الحاج، فكانت هذه من أَشر السنين وأَشدها على الحجاج، فإنهم قاسوا شدائد عاقتهم عن دخول مصر، إلا في ثامن صفر، ولم يزوروا النبي ﷺ لأُمور حصلت لهم، وسنورد بعض ذلك ملخصاً.

وفي هذه السنة توفي السيد الشريف هزاع بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، وكان صاحب مكة يومئذ، فإنَّ السلطان قانصوه الغوري جهّز إليه التشريف كما قدمنا ذكره.

وكانت وفاته بالسَّمرات بين وادي الآبار والعِدّ، في خامس عشر شهر رجب الفرد، وحمل في شقدف إلى مكة، وجهّز بداره، وحمل إلى المسجد وطيف به أُسبوعاً، وصلَّى عليه القاضي أَبو السعود، ودُفن، وبعد دفنه اجتمع القضاة والأَعيان والأَتراك والأَشراف في الحطيم، وفيهم مالك بن رومي، وجازان، فتفاوضوا في مَن يلي إمرة مكة فقال مالك من بينهم: إن ما سلطان مكة إلا جازان، وإنما كان هزاع إلا بجازان، وأَن بركات ما له إلا السيف، فسكت الحاضرون، وقال القاضي: فالبلاد في وجه السيد جازان وبني إبراهيم، فقالوا: نعم في وجهنا، فتفرّق النّاس، ونُودي في شوارع البلاد: إن البلد لجازان، فكان ما كان، وأَما أَحوال الحجاج فإن أُمراءَ الحاج لما أَن وصلوا إلى الينبع في الطلعة حضر إليهم يحيى بن سَبُع أَميرها، وصحبته الشريف الجازاني، وسأَل أَن يكون عوضاً عن أَخيه بركات، فامتنع الأَمير إصطمر من ذلك، فكرّر عليه السؤال في إلباسه تشريفاً، ويخدمه بمال له صورة وأَلحُّوا عليه في

ذلك، وأخافوه إن لم يفعل نهبوا الحاج، فسمع منهم، وألبس الجازاني تشريفاً بإمْرة مكة، وأضمر في نفسه أن يمسكه عند دخول مكة، وأنه يكاتب الشريف بأنه يحضر إليه، ويكون عوناً عليه، ويمسك أخاه، فبينما هم في ذلك إذ قد حضر قاصد من الشريف بركات فوضعه أمير الحاج في الحديد فَأَمِنَ الجازاني لذلك، وفرح به، وارتحل الشريف الجازاني ويحيى بن سبع، ومَن معهم من زُبَيْد ولفيف العربان، قبل رحيل أمير الحاج بيومين، ثم ارتحل أمير الأول محمد بن خاص بك، وبعده اصطمر أمير المحمل، فلما وصل الجازاني إلى بطن مَرٍّ، وكان أُمراءُ الحاج ومَن معهم في الدِّيسة، أطلق أمير الحاج قاصد الشريف، وأعلمه أنه يتوجه بسرعة يركب بركات، فيلاقيهم بمَن معه من العسكر، وأن يكون الجميع على الشريف الجازاني، فلما أن توجه القاصد وكان مع أمير الحاج جماعة من جهة الجازاني فأرسلوا عرفوه عما وقع، وأن المكيدة قد تَمّتْ عليه، فوقف قريباً من وادي مَرٍّ، وآسيا على الحجاج، وعلى أُمرائهم، إلى أَنْ مَرَّ عليه جميع الحاج رد الجازاني ومَن معه إلى أن وصل إلَى بَدْرٍ وَحُنَيْن، فوجدوا الحاج الشاميّ بها، فأرسلوا قاصداً من عندهم يسألون في أخذ شيءٍ من المال، فامتنع الشاميون من الإعطاء، وتجرّدوا للقتال، فوقع بينهما القتال، وقتل من زُبَيد ثمانية أنفارٍ، وأُخذ منهم أربعة رُؤوس من الخيل، واستمر القتال من باكر النهار إلى الظهر، والشامي منتصر على الجازاني وجماعته، فساقوا الجمال الشعارة على الجِمال المقاطرية، فهجت الجمال والتهت الرجال بها، فنهبهم بنو إبراهيم وزُبَيْد ومَن معهم، وقتلوا الرجال والصغار والأَطفال والنساء، وأخذوا جميع ما معهم، وكل مَن مسك من الحاج الشاميين رجلاً أو امرأة يذبحها، وكذلك الأطفال، ولم يسلم منهم إلا مَن طال عمره، ولم يصل إلى مكة إلا بعض أناس قلائل.

هذا ما وقع للشامي على سبيل الاختصار، وأما المصري فإنه لما قضى المناسك، وأراد الرجوع سألوا الشريف بركات في خروجه مع الحاج، وأنه يكون معهم إلى أن يجاوز الينبع، فأمهلهم إلى أن يجمع جيوشه وأعوانه وأغراضه مدة أيام، ثم ركب معهم، ولم يتم جمعه، فحين وصلوا إلى بَدْر سأل الشريف بركات أُمراءَ الحاج في الإقامة، إلى أن يحضر إليه بقية أعوانه الذين أرسل الشريف بركات طلبهم، فَأَبى أُمراء الحاج، واستعدُّوا للقتال، فلما أن وصلوا إلى الدهناء وقصدوا الينبع سمع بهم الجازاني والشريف يحيى بن سَبُع فركبوا، وركب معهم جميع أعْوانهم، ولاقوا أُمراء الحاج فوقع بينهم القتال، فكانت الكسرة على أُمراء الحاج وعلى الشريف بركات، وقتل من مماليك السلطان نحو الخمسة وسبعين نفراً.

وقيل: أكثر، وقتل من العوام والحجاج خلق لا تحصى، ونُهِبَ الركبان الأَول والمحمل، وأخذوا المال والجِمال والقماش والأثاث، وهرب اصطمر أمير الحاج، دخل بيت القاضي أبي السعادات محمد بن زبالة قاضي الينبع، واستجار به، فرسم الجازاني بالترسيم عليه، إلى أن يقوم بمال له صورة قيل ثلاثين أَلف دينار، وقيل خمسة آلاف دينار، وهي التي كان خدم في الطلعة حين لبس الخلعة، وأقام الحاج بالينبع خمسة أيام حتى رحلوا، وأُبيع جميع نهب الحجاج بحضورهم على بعضهم، وليس لأَحد قدرة على أخذ ماله، وعند وصولهم إلى الأَزْلم حضر إليهم عامر بن مشعل شيخ بَليّ، ومنعهم من النزول بالأَزْلَم، وَرَدَمُوا أبياره فاستغاث الحجاج وأيقنوا بالهلاك من العطش، فتجرّد جماعات، وحفروا الأَبيار من باكر النهار إلى الزوال، حتى طلع الماء، والنَّاس في غاية الشدة من العطش، منهم جماعة ماتوا عطشاً قبل أن يشربوا، ومنهم جماعة شربوا وماتوا، ومنهم مَن طال عمره مدة ومات بالطريق، ولما استقوا وسقوا، ركب عليهم عامر بجماعته، وطلب منهم مالاً، فجبوا له ما قدروا عليه، وحصل لهم من الشدائد ما لا ينحصر وصفه، ولما وصلوا إلى الْمُوَيْلِحَةِ خرج عليهم عربان بني لاَمٍ، وبني عُقْبَةَ، وبني عَطِيَّةَ، وجماعات لا تحصى، كلهم طالبون للغنيمة.

قيل: إن معهم أربعة آلاف قوس خلاَف الخيالة والرواحل المردوفةَ والمشاة، ووقفوا للحجاج وأرادوا أن ينهبوهم فتوجه إليهم جماعة من الحاج فيهم شخص يقال له ابن شويته تاجر بسوق جامع ابن طولون، ذكر أن بينه وبين العربان معاملة ومعرفة، فوقع الصلح بينهم بواسطة المذكور أن على كل جمل ديناراً، وقعد الأَمير اصطمر واستخرجها من النَّاس فالذي له قدرة وزن، والذي ما له قدرة وهو فقير فإن كان بقي معه شيء من الهدية يأُخذها أمير الحاج، ويضعها تحت فخذه، ويخرج الفقير ببيع جميع موجوده، ويزنه بالْقَدْرِ المطلوب منه، ورحلوا من المويلح بعد الإقامة به خمسة أيام. فكان وصولهم إلى بركة الحاج في ثاني صفر في أَشدِّ حال، وكانت الملاقاة كثيرة الصراخ على الأَموات والأَموال وأمر السلطان بالترسيم على اصطمر، وعلى أمير أول، وشكت المماليك حالهم، وذكروا أن ذلك جميعه لعدم معرفة أُمراء الحاج وسوء تصريفهم، فأَمر السلطان بتوجه اصطمر إلى ثغر دمياط منفيًا، وأما أمير أول فطلب منه السلطان عشرين ألف دينار فوزنها.

وفي هذه السنة كانت نكبة القاضي أبي السعود ابن قاضي القضاة برهان الدين بن ظهيرة الشافعي من الشريف بركات بعد عَصْرِهِ، وأخذ أمواله، ونهب

بيوته، ونفيه إلى جزيرة الصبايا إلى أن أمر بتغريقه فغرق، لأَنه نسبه إلى مباطنة أخيه الشريف الجازاني، وأحضر له أوراقاً بخطه، وسببه أنه كان يباطن أخاه الشريف الجازاني. فقيل إنه كاتبه، وأحضروا أوراقاً بخطه يعرفه فيها أنَّ الشريف بركات جمعه قليل، وهو خفيف العون، ويحثه على الركوب، وجمع العساكر، ويحضر بهم إلى مكة فإنه إذا حضر إلى مكة لا يقابله الشريف بركات لقلة جموعه، فلما رأى بركات الأَوراق دخل الحرم، وطلب أعيان القضاة والفقهاء والتجار وأعيان مكة، فلما حضروا أخرج الأَوراق، وأعطاها للقاضي أبي السعود، وقال له: هذا خطك أم لا؟ فحين رآها عرفها فسكت، فأَخذ الشريف بركات يُوبِّخُه ويحط عليه، ثم أمر أعوانه أن يقيموه من المجلس، فأَقاموه بعد أن شكُوه، وضربوه ضرباً مؤلماً. ثم أَمَر بِعَصْرِهِ بين لَوْحَيْنِ من خشب، بِلَوَالِبَ حتى بال دَماً، وهم يقررونه على الأَموال، وما عنده من الذخائر. ثم أمر بنفيه في الجزيرة المذكورة، وكان القاضي أبو السعود عمل ختان ولده الصغير، فأَصرف على الأَسمطة أموالاً لها صورة، بحيث أنه فرّق الحلاوات والأَطعمة على جميع مَن في مكة، وأوقد شموعاً على عجل، وعمل أشياء غير واحدة، فاق بها مَن تقدمه من الفازات، وظَنَّ أن الدهر صفا له، ولم يعلم أن عاقبة كل صفاءٍ إلى تكديرٍ فيقال: إن الشريف بركات وضع يده على موجود قيمته ثلاثين ألف دينار، وقيل ثلاث مئة ألف دينار، وأخرج من التحف والذخائر ما لا قدرة لأَحد على وصفه، وكان والده قاضي القضاة برهان الدين رجلاً عارفاً بأُمور دينه ودنياه، مع مزيد العلم في كل آن، وحسن التصرف مع أهل مكة، وكانوا يحسدونه ويوصلونه الأَذى، فيقابلهم بالإِحسان والسماح، مع ديانته، وكثرة عبادته، وكثرة صدقته لمن يعرفه، ومَن لا يعرفه، وكان يحب صدقة السر ـ رحمهما الله ـ.

سنة ثمان وتسع مئة: كان أمير المحمل و(باش) التجريدة قيت الرجبي أتابك العساكر المنصورة، ومعه ست مئة مملوك من مماليك السلطان بعد أن أنفق عليهم لكل شخص مئة دينار، وأمير أول الأَمير انسباي بن ولي الدين، وأنعم مولانا السلطان على هجار بن دَرَّاج بإمرة الينبع، والكسوة والنفقة له ولجماعته، وتوجهوا في خدمة الأتابكي فإنه وردت الأَخبار بأَن الجازاني قويت شوكته، وطرد أخاه بركات عن مكة واستولى عليها، وصادر أهل مكة، ومَن بها من الأُمراء، وأخذ من ابن العيني خمسة وعشرين ألف دينار، وأن بني إبراهيم تحكّموا في أهل مكةِ بِالْبَلْصِ والفساد، وأن يحيى بن سبع هو رأس الأَذى في ذلك، وضجّت المجاورون، وأهل مكة، وقصدوا الهروب منها في أربعين مركباً من جدة فمنعهم الجازاني، ومَن معه، وعرض الأَتابكي

العساكر المنصورة المتوجهة صحبته ببركة الحاج، باللبس الكامل، والخيول الملبَّسة، وكان عليهم أبهة وموقع في النظر، ووردت كتب من الشريف بركات لأمير الحاج يذكر فيها أنه بمكة، وأن الجازاني هرب وتسحب بعد أن كُسِرَ، وقتل معه جماعة من بني إبراهيم بموجب أن أهل مكة ومَن بها من الناس والمماليك السلطانية كاتبوا الشريف بركات، وهو بأطراف اليمن، وطلبوا حضوره، ويكونون كلهم عوناً معه له على أخيه الجازاني، فلما حضر كانت الكسرة عليه من بركات وأهل مكة، ثم حضر قاصد الأمير يحيى بن سبع يعتذر عن أفعاله، وأنه واقف على قدم الطاعة، فَجُهِّزَ إليه مِنْدِيلُ الأمان، وأنه يكون مع الأُتابكي (باش) العساكر، ولما وصل مبشر الحاج أخبر أنَّ الجازاني، ويحيى بن سبع لم يقابلوا، وحضر ولد يحيى بن سبع، وأخلع عليه الأَتابكي وأَمَّنَهُ، وحضر الحجيج صحبة الأَتابكي ومعه الشريف بركات، وأخوه قايتباي، وأبو الخير والشريف عنقا في الحديد، وطلعوا إلى المواقف الشريفة، ونزلوا بالخلع، ووردت الأخبار بعد ذلك أنَّ الشريف الجازاني قتل بالحرم بمقتضى أن الأَمير (بكباي باش) مكة صار يؤمنهُ، ويظهر له محبة وشفقة، حتى تردد إلى الحرم، وصار يطوف فحضر يوماً من الْخَيْف إلى مكة، ولما فرغ من الطواف حضرت إليه جماعة من المماليك، وضربه شخص بسكين في جنبه، وآخر رمى عنقه، وأما الشريف بركات فإنه توجه هو وأخوه الشريف قايتباي والشريف عنقا من القاهرة إلى جهة الحجاز، من غير إذْن السلطان، فرسم السلطان للأَمير قايتباي (أمير آخور) بتتبع آثاره فلم يحصله، وأعاد الجواب بذلك، وكان توجهه يوم عيد الفطر، ففي عقيب ذلك حضر قاصد من عند الشريف بركات بمطالعة يذكر فيها أنه عَبْدُ مولانا السلطان، وأنه ما توجه إلاَّ خوفاً من الوباء وقلة ما في يده، وأنه فارغ عن إمرة مكة، ولا يحصل لأَحد من الحجاج سوءٌ منه، فإن أخاه حُمَيضة ألبسه (باش) مكة الإمرة بعد قتل الجازاني فمنع السلطان عياله من التوجه إليه.

سنة تسع وتسع مئة: كان أمير المحمل أنسباي أحد المقدمين، وأمير الأَول تاني بك النجمي أحد المقدمين، وساروا على تخوُّف من الشريف بركات، فلما كانوا بِعيُون القصب أرسل إليهم الشريف بركات أنهم يسافرون على خيرة الله تعالى، ولا شرَّ عليهم، وأن العربان قصدوا يأخذون الحاج، وأنه منعهم من ذلك، فلما بلغ السلطان ذلك أطلق حريمه، وجهّزهم إليه صحبة الأَمير الكبير الطواشي (مختص أغا)، وكانت الوقفة الجمعة، وما توجه أهل مكة إلا بكرة يوم عرفة خوفاً على أنفسهم من بركات فإن أمير الحاج ألبس أخاه حُميضة عند ملاقاته له بالينبع صحبة

يحيى بن سبع، وسافر أمراء الحاج، وتخلّف حميضة بعدهم بأيام. ثم حضر الشريف بعد أيام في عشرين فرساً ورواحل من بني إبراهيم، وقتلوا ونهبوا ما قدروا عليه من الحجاج، وارتفع الأمن في الحجاج، وفي أهل مكة، وصاروا في شدة من الخوف والنهب، وهو السبب الذي عاقهم عن الصعود إلى عرفة يوم التروية، ووقف الشريف حميضة بعرفات يراه الناس من بعد هو وجماعته، وأما الشريف بركات فوقف بالجبل، وتوافقوا أن لا يقع بينهم حرب إلا بعد مضي شهر صفر الخير، وأن حميضة يعطي بركات خمسة آلاف دينار.

سنة عشر وتسع مئة: كان أمير الحاج قايتباي (أمير آخور)، وأمير الأول جان بردي من ولي الدين، ووصلت أخبار أن بني إبراهيم دخلوا إلى مكة، وكان قايتباي في الخبت، فكان من ألطاف الله تعالى أن الباش ركب وجماعته، ودخلوا إليهم الحرم فقتلوا من أعيان بني إبراهيم أربعة أنفس، وعادت بنو إبراهيم مكسورين، وأن الشريف حميضة ضعيف. ثم وردت أخبار بعد ذلك أن جدة ومكة في غاية الخوف من بني حسن، والشريف حميضة نازل هو وابن سبع بالينبع، وهم في جمع عظيم. فرسم السلطان بالقبض على بني إبراهيم الصيارف الذين بالقاهرة، والقصبة والشوارع وباعة العطر واللبان، الذين يدورون بالأخراج على أكتافهم، وحُبِسُوا، وصار الوالي يدور على حواصلهم، ووجدوا مع جماعة منهم سلاحاً وزرديات يريدون تجهيزها إلى يحيى بن سبع.

سنة إحدى عشرة وتسع مئة: فيها كان مولدي كما رأيته بخط الوالد ـ تغمّده الله برضوانه، وسقى عهَاده صوب الرحمة ـ في الليلة المسفر صباحها عن يوم الأربعاء سادس عشري شهر شعبان المكرم من السنة المذكورة.

وفي هذه السنة أيضاً كان مولد السيد الشريف نجم الدنيا والدين أبي نُمَيٍّ بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة المشرفة، والأقطار الحجازية ـ جعل الله تعالى عمره أطول الأعمار، ولا زال نجم سيادته في فلك السعادة بتلك الأقطار ـ كما أخبرني ـ أطال الله بقاه ـ شفاها عند اجتماعي به بِمِنًى المعظم، يوم عيد الله الأكبر، في عام ستين وتسع مئة أن مولده الميمون كان في تاسع ذي الحجة من السنة الذكورة، فبين المدتين والتاريخين ثلاثة أشهر، وثلاثة عشر يوماً.

ففي مستهل شهر رمضان سنة إحدى عشرة عيّن السلطان الأمير خاير بك

السيفي اينال الأَشقر - كاشف الغربية وأحد المقدمين - باشا على العساكر المتوجهين إلى مكة والينبع، ومعه جماعة من الأُمراء، وفرقة من العسكر المنصور، ووصل قاصد من يحيى بن سَبُع يسأَل في إبطال التجريدة، وأنْ يزن عشرين ألف دينار فقال السلطان للقاصد: أصدقني الحق: العرب مجتمعون أم متفرقون؟ فقال: هم مجتمعون، وما للترك عليهم قدرة فإنهم تجمّعوا بكثرة، وكان السلطان أنعم على هِجَارٍ بإمرة الينبع، عوضاً عن يحيى بن سَبُع. فقال القاصد لمولانا السلطان: هِجَار ليس له قدرة عليها، وهو عاجز لا مال معه، فرسم السلطان بحبس القاصد، وبطل الحج من القاهرة في تلك السنة فلم يحجَّ أحد من أُمراءِ الحاج.

سنة اثنتي عشرة وتسع مئة: فيها رسم السلطان بتوجه الفرقة التي من العسكر المنصور صحبة الأَمير خاير بك كاشف الغربية، وأحد أُمراء (الطبلخاناه) السلطانية، والأَمير قاني بك، رأس نوبة ثاني أمير أول، وصُحْبَتُهُما من الأُمراء (الطبلخاناه) والعشراوات نحو عشرين أميراً، ومن المماليك السلطانية ست مئة نفر، للفتك بيحيى بن سَبُع أمير الينبع، وبني إبراهيم، ولبس هِجَار بن دَرَّاج، عوّضه أميراً بالينبع، فكان خروجهم من القاهرة إلى الريدانية يوم الاثنين مستهل شهر رجب الفرد، قاصدين الأَقطار الحجازية، لتمهيد البلاد، فالتقوا مع يحيى بن سَبُع، ومالك بن رُوْمي شيخ زُبَيْدِ، وحُمَيْضَةَ أخي بركات وجميع بني إبراهيم، ووردت الأَخبار إلى مكة في ثامن شوال أن بني إبراهيم بلغهم أن العسكر تفرَّق فذهب بعضه إلى المدينة، وبعضه إلى ينبع الساحل، وبعضه إلى مكة، وأن العسكر المقيم بالينبع قليل، فعزموا على كبسهم ليلاً لكونهم في قلة، فجاؤوا إلى التجريدة ليلاً في نحو سبعين فرساً، وألف راجل، فبلغ السيد بركات علم ذلك، وكان في الدَّهْناء فركب طرداً إلى أن وصل فوقع القتال بينهم، وتلاحق العسكر، واستمر القتال من الظهر إلى الليل في يوم الثلاثاء ثالث شوال، ففرّ أهل الخيل، ووقع القتل في الرجال، واقتلع أكثر خيل بَني إبراهيم، ولم ينجُ منهم إلاَّ القليل، ولَوْلا الليل لم يبقَ منهم أحد، وكانت الدائرة على المفسدين، وقُطِع دابِرُ القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين، وتوجه العسكر ومَن معهم إلى مكة حادي عشري القعدة، وجهزت الكسوة الشريفة بَحْراً مع بشير الخادم، وحجّ في هذه السنة أجود بن زامل صاحب الحساء في جمع كبير جداً يقال: إنهم نحو ثلاثين ألفاً فأَكثر.

سنة ثلاث عشرة وتسع مئة: كان أمير أول قانصوه - المعروف بأَبي سنة - الوالي، وأمير المحمل طراباي رأس نوبة النوب، وحجّ في هذه السنة القاضي

صلاح الدين بن الجيعان، و(خوند) زوجة الملك الظاهر خال الناصر، وكانت الأَسعار عالية في المطعومات في أول الحجة. ثم رخصت بعد ذلك.

وفيها قتل مالك بن رومي الزُّبَيْدِي، الذي كان سبباً في نهب مكة وجدة، وقتل أولاده الثلاثة مقرض وقادم وداغر، وأخوه مُشَهْوِن بن رومي، وطائفة كبيرة منهم، ومن أتباعهم من ذوي زوايا (؟) وذوي جماع (؟) قتلهم السيد بركات يوم السبت رابع عشري جمادى الأُولى بجبل الروحاء بالقرب من المدينة، وفرح الناس بقتلهم فرحاً شديداً، وطيف برؤوسهم في البلاد، وأُرْسِلَ بها إلى مصر فَنُصِبَت على أبوابها، وحجّ الناس حجّة هَنِيَّةً، وطابت الخواطر واطمأَنت القلوب.

سنة أربع عشرة وتسع مئة: كان أمير أول قاصنوه (استادار) الصحبة، وأمير المحمل ماماي جرمش أحد المقدمين، وجهزت مراسيم سلطانية إلى مكة المشرفة أن يؤخذ من القاضي صلاح الدين بن ظهيرة عشرة آلاف دينار للسلطان، وإِنْ لم يزنها يُحمل إلى الأَبواب السلطانية، فطلب منه ذلك فأَنْعَم بأَلفين أو ثلاثة فامتنعوا، وخرج في ترسيم (خاصكي) وأُغلظ عليه، وحجّ وعليه الترسيم، ولم يحج أحد من أهله، وسافروا به معهم إلى مصر مُرَسَّماً عليه، وتسحّب معهم الشريف راجح بن محمد بن بركات إلى القاهرة في ثلاثين راحلة وفرسين.

سنة خمس عشرة وتسع مئة: كان أمير الحاج الأَول مغلباي (الزردكاش) الأشرفي قايتباي، وأمير المحمل طقطباي الأَشرفي الأَشرفي قايتباي، أحد مقدمي الأُلوف، ونائب قلعة الجبل.

وفي هذه السنة توفيت (خوند) أم الناصر أخت الملك الظاهر، وذلك من القهر للتحكم في رزقها والطمع في مالها، وكانت وفاتها بمكة يوم الأَحد ثاني ربيع الأَول، وختِم على جميع حواصلها، ولم تنفذ وصاياها.

وفيها توجه السيد عرار بن عِجْل النَّمَويُّ إلى القاهرة قاصداً عن الشريف بركات بن محمد، ومعه رقيق وخدّام للهدية، وعشرون ألف دينار نقدية خاصة للسلطان، وثلاثة آلاف لـ(لدوادار) الكبير، وخيل نحو العشرين، فلما وصل إلى القاهرة أقبل عليه السلطان إقبالاً كبيراً، وأسكنه بيت العيني وفرشه بجميع احتياجه، ونزل (خاسكي) للضيافة ثلاثة أيام، وصار الغداء والعشاء ينزلِ إليه من القلعة، وألبسه السلطان خلعة القدوم، وخلعة ثانية لما طلع بالهدية، وحلف له السلطان أنّ ما عنده أَعَزَّ من السيد بركات، وصار يتفقده كل يوم بأَنواع الافتقادات إلى أنْ رجع معززاً مكرماً.

سنة سبع عشرة وتسع مئة: رجع الشريف راجح بن محمد من القاهرة، ومعه الشريف عرار بن عجل بن رميح، وتوجه به إلى الشريف بركات، ثم إلى أخيه السيد قايتباي، واصطلحوا صلحاً شافياً، وكان أمير الأول بكتباي وأمير المحمل طومان باي (الدوادار) الكبير ابن أخي السلطان الغوري الذي تولى السلطنة بعده وصلب بباب زويلة في سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة.

وتوفي في هذه السنة قاضي القضاة الحنفي بمكة نور الدين علي بن أبي الليث بن الضياء، فطلب المنصب ولده القاضي بديع الزمان، ولم يتم غراره بعد، وطلبه أيضاً قاضي القضاة نسيم الدين المرشدي فتباحثا بحضور أمير الحاج، فسأل القاضي نسيم الدين بديع الزمان عن أول ما يجب، فلم يُجِبْ وانفضّا. ثم وليها القاضي نسيم الدين، وكان ديِّناً خيِّراً لطيف العبارة، ولا يتكلم إلا بالنحو، فلمَّحَ به وبالقاضي قوام الدين شخص من لطفاء أهل اليمن، يقال له أحمد الجبلي، وكان لقوام الدين عمامة كبير جداً، فقال يصف محبوبه مُلَمِّحاً بهما شعراً:

الـرِّدْفُ مِـنْـهُ بَـارِزٌ مُـسْـتَـثْـقَـلٌ كَـعِـمَـامَـةِ الْـقَـاضِـي قِـوَام الـدِّيْـنِ
والْـخَـصْـرُ مِـنْـهُ نَـاحِـلٌ مُـسْـتَـلْـطَـفٌ كـعِـبَـارَةِ الْـقَـاضِـي نَـسِـيْـم الـدِّيْـنِ

وللشهاب أحمد الجبلي المذكور أشعار رقيقة، وكان له اتصالٌ بالأكابر، وبالشهاب أحمد بن الجيعان في زمنه، وكان لنا به صحبة وأُنسٌ بمكة المشرفة ـ رحمه الله تعالى ـ.

سنة ثمان عشرة وتسع مئة: كان أمير الركب الأول في هذه السنة يوسف الناصري (شاد الشراب خاناه)، وأمير المحمل تمر الحسني (الزردكاش) أحد الأمراء المقدمين الأشرفي.

وتوفي في هذه السنة السيد قايتباي بن محمد بن بركات، شريك الشريف بركات بن محمد في إمرة مكة، في يوم الأحد حادي عشر ربيع الأول بأرض حَسَّان، وحُمِل على أعناق الرجال إلى مكة، وطيف به أسبوعاً على عادة أمراء مكة، وصُلِّيَ عليه عند باب الكعبة بعد أن نادى الرئيسُ بالصلاة عليه فوق قبة زمزم، وشيّعه خلق كثير كأسوة الملوك، وأخذ في العزاءِ أخوه الشريف بركات.

وفيها توفي السلطان بايزيد خان بن محمد خان بن عثمان، وتولى عوضه السلطان سليم خان ولده.

وفيها توجه السيد الشريف أبو نُمَيٍّ بن بركات ـ أدام الله تعالى نصرته ـ إلى

مصر صحبة القاضي علاء الدين ناظر الخواص الشريفة، ومعه القاضي صلاح الدين بن ظهيرة، والقاضي نجم الدين بن يعقوب المالكي وولداه القاضي محمد، والقاضي تاج الدين، وجاءتهم الملاقاة بعد مرحلة من نَخْل، ولقيهم القاضي أحمد بن الجيعان من فوق الْبُوَيْب، بفرس وسرج معزق وكنبوش مذهب، وكاملية مخمل مفري سمور، من عند السلطان، ثم بعد قليل تلقاهم أمير كبير، و(باش) العساكر خاير بك، و(الدوادار) الثاني، وجمع كبير من الأُمراء والقضاة، والمباشرين من كاتب السر إلى مَن دونه، ومُدَّ لهم سماط عظيم سلطاني، بالبركة، ثم بعده الطاري ثم المشروب، ثم ركبوا بذلك الموكب إلى أن وصلوا إلى الأَشرفية الغورية، ومُدَّ لهم سماط عظيم، ومن بعده الطاري والمشروب، وفي صبيحته طلعوا إلى السلطان بالميدان بالمقعد، فلما أقبل عليه الشريف أبو نُمَيٍّ قام ألفاً، واستمر واقفاً إلى أن قبّل يده، فاحتضنه السلطان، وسلّم عليه في خده، وأجلس الشريف بجانبه، والقضاة أمامه وجبر خاطر الشريف بكلام كثير، وقال له: إيش اسمك؟ فقال له: أبو نُمَيٍّ الغوري: فضحك السلطان وقال: غوري غوري!! أَنْتَ والله أشطرُ من أبيك، رأيتَ وجه السلطان، والتفت إلى القضاة، وجابرهم ثم ألبس الشريف كاملية ثانية تماسيح ذهب بمقلب سمور، من خواص الذخيرة، لم يلبس مثلها إلا ولد ابن عثمان، وقام بالسلطان ثانياً وسلّموا على يده، ونزل جميع الأُمراء في خدمة الشريف إلى الغورية، واستمر السماط السلطاني إلى أن عزموا، والافتقادات كل قليل، ولما عزم أمر السلطان للشريف بمبلغ له صورة يقال ثلاثة آلاف ذهباً، وللقضاة ومَن معه بمبلغ، وأذن لهم لحصول الفصل في القاهرة.

سنة تسع عشرة وتسع مئة: كان أمير أول طومان باي الأَشرفي من بكيرار أمير أربعين، وأمير المحمل قانصوه كرت أحد المقدمين، وكان أمير الركب الشامي سنبطاي، حاجب الحجّاب بدمشق المحروس، وفيها تسابق محمل الشامي والمصري فسبق الشامي، فشقّ ذلك على المصريين، فعقروا جمل المحمل الشامي وقتلوه، فجاء أمير أول ووقف عنده، وجاء بجمل من عنده، وحمل محمل الشاميين، وقال أمير الشامي: أنا ما بقيت أرجع بالمحمل خلوهم يرجعوا به!. فأَصلحوا بينهم في منى، وكان المصلح الشريف بركات.

سنة عشرين وتسع مئة: حجّ في هذا العام سيدي محمد ابن السلطان الغوري في تجمُّل عظيم مع والدته، وجهّزهم السلطان جهازاً يليق بالملوك، وكان أمير الحاج طقطباي نائب القلعة، وخرجوا من القاهرة في أكمل الزينة، من الأَكوار المذهّبة

و(اليرق) العظيم، وسافر في هذه العام الشريف بركات صحبة ابن الغوري إلى القاهرة فحصل له عز عظيم، وأقبل عليه السلطان إقبالاً كبيراً، وأنعم عليه أضعاف ما أنعم على ولده، وكانت هديته للغوري عشرة آلاف من النقد، وعشرة حوالةً على بندر جدة وخادمين، وعشرين عبداً، وستة عشر فرساً وأربع مئة شاش، وأنعم عليه الغوري بثلاثة آلاف من النقد وعشرين مملوكاً أبيض، وخيل وحياصات وغير ذلك، وأذن له في العود، فعاد في السنة القابلة فكان دخوله إلى مكة في ثامن رجب الفرد سنة إحدى وعشرين وأضافه الأمير حسين ضيافة هائلة وزُينت له البلاد.

سنة إحدى وعشرين وتسع مئة: كان أمير أول سيدي أحمد ابن السلطان المؤيَّد، وأمير المحمل علان الأشرفي (الدوادار) وعزل فيها القاضي نسيم الدين المرشدي بالقاضي بديع الزمان بن علي بن أبي الليث، وفيها وصل الأمير سلمان في عسكر لأجل قتال الفرنج، وصحبته الأمير حسين، وعزموا إلى اليمن، وقاتلوا صاحب اليمن الشيخ عامر بن عبد الوهاب، وكان من أمره ما كان.

سنة اثنتين وعشرين: لم يتوجه من الحجاز إلى القاهرة بَرًّا رَكْبُ في هذه السنة، لوفاة السلطان قانصوه الغوري عند كسرته وعساكره بوقعة مرج دابق من أعمال حلب، على يد السلطان المؤيَّد بعناية الرحمٰن سليم بن عثمان، وفوضت السلطنة بمصر باجتماع مَن بها من هل الحل والعقد من الأُمراءِ وغيرهم على يد أَمير المؤمنين هارون ابن أَمير المؤمنين المتوكل على الله محمد أَبي العز عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله أَبي عبد الله محمد بن المعتضد بالله أَبي الفتح أَبي بكر بن المستكفي بالله أَبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أَبي العباس أَحمد بن أَبي علي الحسن بن علي بن أَبي بكر بن المسترشد بالله أَبي منصور الفضل بن المستظهر بالله أَبي العباس أَحمد بن المقتدي بأمر الله أَبي القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله أَبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أَبي العباس أَحمد بن إسحاق بن المقتدر أَبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أَبي العباس أَحمد ابن ولي العهد الموفق طلحة بن المتوكل على الله أَبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أَبي إسحاق محمد بن الرشيد أَبي جعفر هارون بن المهدي أَبي عبد الله محمد بن المنصور أَبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي ابن حبر الأُمة، وترجمان القرآن عبد الله ابن عم سيد المرسَلين العباس ابن عبد المطلب بن هاشم المصطفى من ولد قريش، المصطفى من ولد كنانة، المصطفى من ولد إسماعيل الذبيح، أَفضل ولد إبراهيم خليل الرحمٰن.

نَسَبٌ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى ... نوراً، ومِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودَا

الهاشمي العباسي، لغيبة والده في الأَقطار الحلبية صحبة السلطان المرحوم قانصوه الغوري للسلطان طومان باي ابن أَخي السلطان الغوري في يوم الجمعة رابع عشر رمضان المعظم سنة اثنتين وعشرين، وكثرت الأَرجاف بوصول السلطان الملك الظفر سليم خان بن عثمان إِلى القاهرة، واشتغال النَّاس ببعضهم بعضاً، فجهزت الكسوة الشريفة من طريق البحر، صحبة الطواشي الكبير أَغا مرهف، فإِنه توجه من طريق الطُّوْر، في الجُلاَّب إِلى الحوراءِ، وصحبته بعض مشائخ الأَدراك منهم الشيخ جلاس بن نصار بن جماز صاحب درك الوجه والرحبة من أَحَامِدَةِ بَلِيٍّ، وأَحضر له العربان جِمالاً ركبها إِلى الحجاز، أَخبرني بذلك الشيخ تريم من بني حسان، وكان معه، فكان دخول السلطان سليم إِلى القاهرة بغتة على حين غفلة من أَهلها، بعد وقعة لطيفة بالرِّيدانِيَّة لَمْ يثبت فيها أَحد من الجراكسة، وتسحب السلطان طومان باي، وتمزقت الجراكسة كل ممزق، في صبيحة يوم الخميس سلخ ذي الحجة الحرام ختام سنة تاريخه، وخطب له بالمنابر يوم الجمعة مستهل شهر الله المحرم، افتتاح عام ثلاث وعشرين وتسع مئة، وتولى الخطابة والصلاة به في ذلك اليوم الخطيب العلامة المجيد البارع الشيخ محب الدين الطوخي بالجامع الأَزهر، وهو السلطان الأَعظم، والخاقان المكرم، عين السلف الكرام من ملوك الإِسلام، نابغة ذوي المجد والمعالي والاهتمام، المظفر بعناية الملك العلاّم. السلطان سليم ابْن السلطان أَبي يزيد ابن السلطان محمد ابن السلطان مراد خان أَوحد ملوك بني عثمان، صاحب الممالك الرومية، والحصون والقلاع والمعاقل الإِسلامية والمآثر والمفاخر الملوكية، نقلت من «تذكرة» صاحبنا العلامة الشيخ محب الدين بن علاءِ الدين النهروالي مما نقل ذلك ممن يثق بصدقه، وعدالته، بالمملكة الرومية، حين توجه إِلى تلك الأَقطار، أَن أَول مَن ولى من آل عثمان السلطنة السلطان ثمان أَرطغلر بن أَغور، وكانت ولايته في سنة تسع وتسعين وست مئة، وتوفي في عام عشر وسبع مئة فكانت مدة ملكه إِحدى عشر سنة.

ثم ولي بعده ولده أَرخان بن عثمان، وهو الذي افتتح بُرُوسا، في سنة ست وعشرين وسبع مئة، وتوفي سنة إِحدى وخمسين وسبع مئة.

فكانت مدة ملكه ستاً وثلاثين سنة. ثم تولى بعد ولده مراد الغازي، قتل شهيداً في حرب الكفار سنة إِحدى وتسعين وسبع مئة، وهو الذي فتح أَدرنة، في تلك السنة، ثم ولى بعده السلطان يلدرم بايزيد توفي مسموماً عام ثلاث وثمان مئة، ثم ولي ولده السلطان محمد، وتوفي عام أربع وعشرين وثمان مئة، ثم ولى بعده

السلطان مراد توفي في عام خمس وخمسين وثمان مئة، ثم ولى ولده السلطان محمد، وفتح (استانبول) يوم الثلاثاءِ عشري شهر جمادى الأُولى عام سبع وخمسين وثمان مئة، وتاريخه بحساب الجمل: (بلدة طيبة)، وتوفي في سنة ست وثمانين وثمان مئة، ثم ولى السلطان بايزيد، ومولده في سنة خمسين وثمان مئة، ووفاته في سنة ثمان عشرة وتسع مئة مسموماً، ثم ولى نجله السعيد السلطان سليم خان، ومولده سنة سبع وسبعين وثمان مئة، وكان استيلاؤه على مملكة مصر في التاسع والعشرين من الحجة عام اثنين وعشرين وتسع مئة كما ذكرنا، وتاريخ استيلائه بحساب الجمل: (شوي شوي السلطان سليم) ووفاته في شوال سنة ست وعشرين وتسع مئة، وولى بعده نجله مولانا السلطان سليمان بن سليم، ومولده سنة تسع مئة، فمولانا وسلطاننا الآن هو السلطان سليمان بن سليم بن بايزيد بن محمد بن مراد بن محمد بن بايزيد بن أَرخان بن عثمان بن أَرطغلر بن أَغور، وهذا النسب هو الذي تعتمد عليه الطائفة الرومية وتصححه، ونقل المقريزي في تاريخه «جواهر العقود الفريدة في تراجم الأَعيان المفيدة» فقال: يقال إن أصل بني عثمان من الحجاز، وأَن عثمان الأول قدم من المدينة النبوية إلى بلاد قرمان، ونزل قونيا فارًّا من غلاءٍ كان بالحجاز والشام، واتصل ببني قرمان، وبأَتباع السلطان علاءِ الدين كيقباذ بن كيخسرو، في أَعوام بضع وخمسين وست مئة، وتزيًّا بِزِي أُهل قونية، وصار يخرج مع السرايا إلى بلاد الروم ويغزوهم، ويغنم منهم، فولد له بقونية سلمان بن عثمان، فسلك طريقة أبيه في الغزو مع السلجوقية والقرمانية وعرف بينهم، وظهرت له فروسية، فافتتح عدة حصون، وولد له عثمان بن سلمان فعظم شأنه، وصارت له أَتباع كثيرة، فخرج عن طاعة السلجوقية والقرمانية، وواصل غزو الكفار، وافتتح برصة في حدود الثلاثين والسبع مئة، واستوطنها وافتتح ما يليها من الحصون، والبلاد فاتسعت أَحواله، وكثرت أَواله، ومات عن ابنه أَردن علي بن عثمان فأَربَى على أبيه، وفتح الله على يديه الحصون والبلاد التي تلي خليج قسطنطينية فحسده ملوك الروم وخشوا تسلطه عليهم، وكانت مملكة الروم إذ ذاك منقسمة بين جماعة وهم أَولاد أَيدين أَصحاب أَبا مسلوق، وبنو أَرتنا أَصحاب قيصرية وسيواس، إلى أَطراف الآذاع، وبنو قرمان أَصحاب قونية إلى تخوم طرسوس، وبنو تكي أَصحاب أنطياليا والعلايا، وبنو كرميان أَصحاب طنغزارا وبلاطية، وبنو أَبي يزيد أَصحاب قستمونية، وبنو إبراهيم أَصحاب أَزريكان فنشر أَردن علي العدل في أَعماله، وقرب العلماءَ والصلحاءَ، وعمر الخوانك والزوايا والتكايا، وقام من بعده ابنه أَرخان بن أَردن علي فمعظم شأنه، وهاجر النَّاس

إليه، وكثرت التجار وغيرها ببلاده حتى مات، وترك ابنه مراد بن أَرخان، وكان طُوَالاً أَسمر اللون، أَقنَى الأنَف أَجنى، فلم يرضَ بما في يده مما فتح آباؤه، وركب البحر ولم يركبه أَحد من آبائه، وأَخذ ما يقابل (كالي بولي) من البلاد التي هي قبلي خليج قسطنطينية، وعدى إلى كالي بولي ونازلها، حتى أَخذها وبثّ جيوشه فيما وراءِ الخليج ففتح أَراضي قسطنطينية شيئاً بعد شيءٍ، حتى نزل عليها وحصارها أَشَدَّ حصار، فأَتتها نجدات الروم والفرنج والأَفلاق والأَنكر والروس والبلغار، والأَرنؤوط في عدة طوائف أُخر، فأَيده الله عليهم، حتى أَجابوه إلى حمل الجزية إليه، وقرروا في كل عام مبلغاً يقومون به، وعدة من الخيل والرقيق، وأَن يقيم بداخل قسطنطينية قاضياً يحكم بين الروم والمسلمين بشريعة الإسلام، وشرط عليهم أَن قاضيه يحكم فلا ينقض حكمه، وأَن له نقض ما حكم به الملك، فالتزموا له ذلك، ثم تطاول، ووالى إرسال الجيوش والعساكر لغزو طوائف الكفر حتى قام غالبهم بالجزية له عن يد وهم صاغرون، وصار لا يقيم ببلدة بل لا يزال في الغزو والقتال، وبالغ في إظهار العدل، وحمل الكافة عليه، وجعل سائر الأُمور مفروقة بأَحكام الشرع، فكان لا يتعاطى هو ولا أَحد من الحكام شيئاً سوى القضاة، ورتَّب للقضاة وكتابهم ونوابهم حتى رسلهم، ما يكفيهم بمعاليم مقررة على بيت المال، فكان الرجل إذا شكا غريمه إلى القاضي يأْتي بعلامة القاضي، فلا يستطيع أَحد مخالفة تلك الورقة، وتسمى عندهم (نيشان) القاضي أَي علامته، ولا يستطيع مخالفتها لو كان السلطان هو المطلوب بل يبادر عندما يراها، ويحضر مع غريمه إلى القاضي حتى يمضي فيه حكمه، وشرط على القضاة ونواب الأُمراءِ أَن مَن ولي عملاً في شهر من السنة فإذا أَدركه ذلك الشهر مَن قابل جلس بجامع البلد، وطلب أَكابر أَسواق البلد التي هو قاضيها أَو أَميرها، فيحضر كبير من كل سوق، ومعه أَهل سوقه، وتحضر سائر الطوائف بأَكابرها، ويكتبون جميعهم محضراً بسيرته فيهم أَيام ولايته عليهم، ثم يتوجه بالمحضر إلى السلطان فإذا قُرىءَ عليه إما يعيده إلى عمله أَو يصرفه عنه ويولي غيره، وأَكثر ما كان يستمر الحاكم في بلد من أَعماله عامين، وأَخرج حكمه بأَن مَن ظهر عليه أَنه ظلم أَحداً في قليل أَو كثير ولو كان العامل أَو أَمير البلد، فإنَّه يُعَلَّقُ منكوساً حتى يموت، ويؤخذ ماله لبيت المال، فلذلك تناهى كافة النَّاس عن الظلم في جميع مملكته، وكان مع ذلك حسن الاعتقاد في أَهل الدين والعلم من الصلحاءِ والعلماءِ، يبالغ في ذلك حتى يخرج في اعتقادهم عن الحدّ. ثم تولى بعده أَبو يزيد بن مراد، فزادت رفعته وأَخذ ممالك قرمان، وقتل ملكها علاءَ الدين، واستولى على مملكة منتشا وصاروخان، وقويت

شوكته واتسعت مملكته من حدود جبل بلقان من ممالك النصارى إلى ممالك أذربيجان، ومات أَبو يزيد في أَسر تيمورلنك ـ بعد خبر طويل لا يليق بهذا المختصر ذكره فليراجع من أَصله ـ لأَيام من ذي القعدة سنة خمس وثمان مئة، فكان ملكه بعد أَبيه تسع سنين وكانت عادة أَبي يزيد أَن لا يتعرّض لأَموال أَحد من رعيته، من مات ولا وارث له يتولى القاضي أَمر ما خلفه، وقام من بعده بمملكته أَولاده، ومَن بعدهم، إلى السلطان سليم بن أَبي يزيد بن محمد بن مراد خان. انتهى ما ذكره المقريزي ملخصاً.

ولما ملك السلطان سليم تخت مصر، وقتل مَن بها ممن وجده من أُمراءِ الجراكسة وعساكرهم وأَنفذ حكم الله تعالى في السلطان طومان باي شنقاً بباب زويلة، واستقامت له مملكة مصر وأعمالها، أَقام بمصر إلى ثاني عشري شهر شعبان المكرم سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة، وتوجه إلى تخته بالقسطنطينية العظمى مؤيداً منصوراً.

سنة ثلاث وعشرين وتسع مئة: قد ذكرنا استيلاً السلطان على مملكة مصر وأَعمالها، في مستهل المحرم سنة ثلاث وعشرين، ففوض نيابتها إلى ملك الأُمراءِ بحلب الشهباءِ في الدولة الجركسية، هو خاير بك أَحد المقدمين في تلك الدولة، وهو من طائفة الجراكسة، والباعث له على ولايته النيابة دون غيره من الأَرْوام أَنه كان مباطناً معه على السلطان الغوري، وأَنه كان وعده بنيابتها، فلما ظفر وملك أَوفى بوعده كما هو شأن الملوك ـ هكذا قيل ـ ثم إنَّ ملك الأُمراءِ شرع في تجهيز الْمُهِمِّ الشريف، على جاري العادة لتلك السنة التي هي أَول الدولة، وباكورة السلطنة، فعين لإمرة الحاج القاضي علاَ الدين ابن الإمام ناظر الخواص الشريفة، والباعث على ولايته دون غيره من الأُمراءِ الأَتراك عدم معرفة الأَرْوام بسياسة درب الحاج وعربانه، في ذلك الزمان، لعدم مخالطة العرب، وجهلها بأَحوالهم، وطَلَب الوالد، وعُيِّنَ لمباشرة الْمُهِمّ على حاله لترداده على السفر صحبة الأُمراءِ في ذلك، وخبرته بتلك العوائد والمظاهر، وجعل ملك الأُمراءِ الركبين ركباً واحداً، وبطلت إمرة الأَوَّل، واخْتُصِرَ الْمُهِمُّ الشريف في تلك السنة حملاً وأَصنافاً بقدر الحاجة، وكان الحاج قليلاً، توجه صحبة القاضي علاءِ الدين أَمير المحمل بالسلامة، وعاد بحال الاستقامة، قال صاحبنا المرحوم الشيخ جار الله بن فهد في ذيله على ذيل «إتحاف الورى بأَخبار أُم القرى»: وفي يوم الأَحد ساس شهر الحجة فرقت الذخيرة السلطانية بحضرة أَمير الحاج المعز العلاءِ ابن الإمام، بحضور الأَمير الكبير مصلح الدين الرومي، بالمدرسة الأَشرفية قايتباي، وأَخذ المذكور المقتطع وأَقبض الأَشرفي بثلاثة وعشرين مُحَلَّقاً،

وقُرِئ في عصر تاريخه، ودُعِي بالمسجد الحرام لمولانا السلطان سليمان، وكانت الوقفة بالأَربعاءِ، والحج هنيئاً، وفي صبح ثان عشر الشهر بمنى وسط الأَمير مصلح الدين الرومي بأَربعةَ أَنفارٍ من مماليك سلمان القبطان الرومي في شوارع مِنَى، وكان السبب في ذلك هربهم منه عند سفره من الطور، بغراب لسيدهم.

وفي ضحى يوم تاريخه وقع بمكة جفلة، وسببها أَن الأَمير قاسم الشرواني نائب جدة المعمورة قبض على سارق يقال: إِنه من شيوخ بني شَعْبَة، وضربه ليقر بالسرقة فقال: هي بجياد. فوضعه في الحديد وأَرسل معه فئة من غلمانه ومماليك الأَمير مصلح الدين إِلى أَجياد، حارة الشريف بركات زعيم الحجاز، فصادفهم الشريف غرم صهر السيد بركات بن محمد، فأَراد خلاص السارق منهم فمنعوه من ذلك، فساعده جماعة من بني حسن، فحينئذ ضرب الأَروام السارقَ بالسيف حتى سقط إِلى الأَرض. ثم انهزموا عنه فركب جماعة من بني حسن على خيولهم، وأَرادوا إِيقاع فتنة مع الأَروام، فسمع السيد الشريف بركات بذلك فخرج من منزله وركب فرسه، وتهدد جماعة، وضرب بعضهم، وأَمر بشنق السارق بعد موته من ضرب الأَروام تسكيناً للفتنة، وكان أَمير الحاج شرع في السفر من منزله عند باب الصفا، ودقّ الطبل، فظن الأَمير مصلح الدين أَن السيد بركات له غرض في إِقامة الفتنة، فأُمر الأَروام بركوبهم على الخيل، فجاءَه المعز الشهابي بن الجيعان، وقال له: الشريف عاقل ولا يرضى فعل جماعته. فلما بلغه صنيع الشريف وشنقه السارق ميتاً، وإِنكاره على جماعته، أَمر الأَروام بعودهم، وسكنت الفتنة، وسافر الركب المصريُّ يوم تاريخه صحبة المعز العلاءِ ابن الإِمام وأَعطاه الشريف معلوم أُمراءِ الحاج المعتاد، وهو ثلاثة آلاف دينار، أَخذ منها الأَمير مصلح الدين خمس مئة كبار، ووقع بينهما تشاجر على ذلك. انتهى ما قاله في ذيله ملخصاً.

سنة أربع وعشرين وتسع مئة: كان أَمير المحمل الشريف القاضي بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة، ومعنى الحسبة في تلك الدول وما بعدها أَن يكون حاملاً للدولة على ما يحصل من المقررات والمشاهرات على السوقة، وجماعة الباعة، الحادثة في الدين، الخارجة عن ملة المؤمنين، وعما شرعه المصطفى ﷺ مما يؤخذ لبيت مال المسلمين، إِذ هذه من أَنواع المكوسات، وما تقرر قديماً في الدول المنوعة الظلامات، والقاضي بركات المشار إِليه هو ثاني متعمم من أَولاد العرب ولي إِمرة المحمل في الدولة (الخندكارية) المظفرية، يقال: إِنه كان في ابتداءِ أَمره يحمل الصقور، وتنقلت به الأَحوال إِلى أَن اتصل بخدمة السلطان الملك الأَشرف قانصوه من

بيردي الغوري، وكان من جملة العوانية، ثم صار من أَعيان الظلمة المرافعين عنده، الذين يشترون الأَنفس بالأَموال، ظلماً وعناداً، ويستخرجها ممن يقدر الله تعالى عليه بالنقم، وإِزالة النعم، كما هي كانت عادة الجراكسة ودَأْبُهُم ثم انتقل إِلى نظر الحسبة وغيرها من الوظائف الدنيوية، وكان من جهَلة العامة أُمِّيًا موصوفاً بالجهل والسرعة، والتهور والإِقدام على الأمور، من غير نظر إِلى العواقب، وكانت هذه الخصال والأَوصاف سبباً لموته قتيلاً في واقعة المرحوم جانم من دولات باي، الآتي ذكره قريباً.

وحصل بمكة والطرقات في السنة غلاءٌ شديد، أُبيع فيه الحمل الدقيق بمئة دينار، وأَكثر، معاملة ذلك التاريخ، وقِسْ على ذلك غيره، وكان الركب كبيراً فتعبوا في تحصيل الجِمال لقلتها عنهم مع حصول الضعف فيها بالطريق، وخرج على ساقة الركب قوم من بني عَطِية، قبل وصولهم إِلى عقبة أَيْلَةَ، فأَخذوا نحو المئتي جملاً، وفيهم زيت الحرم الشريف، وكان صحبة القاضي فضيل بن ظهيرة، ومعهم أَمير الحاج، فمسك منهم ثلاثة أَنفار قتلهم، وفازوا بما معهم ولم يحصل من النهب على شيءٍ، وتهدّد شيخ العايد، فإِنه كان بصحبته فقال: لا عِلْمَ لي بهم، ورجع من هناك إِلى مصر جماعة من الحاج، وغلا الكِراءُ، فكان كل جمل بخمسين ديناراً، وحملت صرر الحرمين في هذه السنة صحبة شخص من أَهل حلب، حتى صرر الذخيرة جهزها ملك الأُمراءِ صحبته، وكانت العادة صحبة أُمراءِ الحاج، ووصل القاضي بركات بالركب إِلى مكة يوم الخميس سابع عشري القعدة، وطوفه القاضي فضيل بن ظهيرة، ولما فرغ سعاه ماشِياً الإِمام إِسماعيل الطبريُّ، وكان لاقاه من ينبع، والقاضي فضيل حضر صحبته من القاهرة كما ذكرنا، ونزل أَمير الحاج بالمدرسة الأَشرفية قايتباي، وفُرِّقت الذخيرة في ثالث الشهر بحضرته، وقاضي القضاة الشافعي على يد الخواجا محمد ابن شيخ سوق الدهشة الحلبي، لكونه من المقربين عند ملك الأُمراءِ، كُلُّ دينار ثلاثة وعشرون مُحَلَّقاً، وكان أَمير الشامي في هذه السنة أَصلاً (دوادار) خان بردي الغزالي نائب الشام وحجّ معه عماد الدين إِسماعيل بن الأَكرم الشامي (استدار) نائب الشام، وكان حركة أَمير الحاج وكان الخطيب في تلك السنة وجيه الدين عبد الرحمٰن النويري، وكانت الوقفة بالاثنين، والحج هَنِيئاً مع وجود الغلاءِ في جميع الأَقوات بحيث أُبيع الرطل السمن بعشرة مُحَلَّقَة، والكبش بدينار، وأَكثر من ذلك، والبطيخ الأَخضر الواحدة بربع دينار وأَكثر، والشكوة اللبن الصغيرة بدينار ونحوه، فقاسى ركب الحاج من ذلك شِدَّةً أَزالها الله بوجود الأَمن والبركة في الحجاز، وعمل

أَمير الركب المصري إحراقة عظيمة بمنى، وفرّق على المتفرجين عُلَبَ الحَلْوى، وسقاهم السكر المذاب، ولم يعهد فعل ذلك لغيره قبله، ورحل الركب المصري من مكة في يوم الجمعة ثالث عشر شهر الحجة، وتعرّض جغيمان شيخ بني لاَم للركب الشامي بالرجعة، بمنزلة الْعُلا، ووقع بينهما محاربة، ثم اصطلحوا على ثلاثة آلاف دينار دفعوها إِليه، وقيل: ثلاثين أَلفاً عوضاً عن ضُرره في السنين السابقة، وكان قتالهم عند محفة زوجة نائب الشام، وقتل من الشاميين نحو سبعين نفراً، وأَخذتِ العربُ منهم أَلفاً وثمان مئة جملاً بحمولها، وصالح الحلبيون والأَروام عن أَنفسهم بخمسة عشر أَلف دينار حتى سلموا من النهب، وكان في هذه السنة ابتداءُ تعيين الملاقاة الأَزْلَمِيَّةِ في الدولة العثمانية، وتوجه الركب بالسلامة وعاد كذلك.

سنة خمس وعشرين وتسع مئة: كان أَمير المحمل الأَمير برسباي الجركسي (دوادار) ملك الأُمراءِ خاير بك، نائب السلطنة بالمملكة المصرية، وهو أَول تركيٍّ استقر في هذه الأُمرة للدولة العثمانية، واعتنى ملك الأُمراءِ بجميع أُمور الْمُهِمِّ الشريف، ورتبه في تلك السنة على أَحسن قانون، بمباشرة الوالد ـ تغمده الله برحمته ـ واحتفل في حسن (الْيرَق)، وقيام نظام الهجن وأَكوارها الفاخرة، ومن تلك السنة بعد الدولة الجركسية استقر نظام هذه الإِمرة على طريقة جليلة ناضرة.

وفي هذه السنة كان الغلاءُ بمكة شديداً، وحصل أَول السنة في جدة سيل عظيم من غير مطر، امتلأَت منه الصهاريج جميعها، وانتفع به أَهل البلد، وحصل بوادي مَرّ الظهران سيول كثيرة لم يعهد مثلها، قلعت الزرع وتهدم كثير من الأَصايل، وغرق في السيل أَكثر من سبعين نفساً، وكثر الجرادُ في مكة وضواحيها بحيث أُبيع في السوق كل ثمان جرادات بدرهم، ونزل سعر السمن إِلى عشرة محلقة الرطل بعد اثني عشر، ومات في شهر الله المحرّم من الفقراءِ الطرحا، في الأَزقة جوعاً وبرداً مئة وتسعون نفساً صغاراً وكباراً، ضبط الشيخ محمد الحطاب المالكي، وشنق الحاكم بمكة مبارك بن بدر، عبداً لبعض العرب في الْمُدَّعَا يقال: إنه قتل صغيراً في الوادي كان يرعى بقرة وأَخذها منه وذبحها، وكان أَمير الشامي في هذه السنة السيفي جان بلاط بن عبد الله نائب السلطنة بغزة المحروس، و(دوادار) المعز الكاملي خان بردي الغزالي نائب الديار الشامية كان، وكان ركبه قليلاً بالنسبة إِلى العادة، وكان دخوله إِلى مكة في ثامن عشر شهر القعدة، وفي هذه السنة كانت هوشةٌ بين جماعة الشريف والأَروام، ثم أَخمد الله تعالى الفتنة، وسببها أَنَّ شخصاً روميًا من جماعة نائب جُدَّةَ اشترى من بعض العبيد بأَجياد حشيشاً للدواب، ولم يوافقه على البيع،

فَسَطَا عليه الروميُّ فاحتمى بجماعته العبيد، واجتمع الأَروام، وبنو حسن لذلك، وتقاتلوا بالنُّشَّاب ومدافع النفط، وغير ذلك، من بعد العصر إلى قريب العشاءِ، فتشوش الشريف، وأَمير الحاج برسباي لذلك فقام بنفسه، وتوجه إليهم وأَرسل الخواجا شرف الدين ابن شيخ الدهشة، والخواجا عباس المصري إلى الشريف بركات، فوجداه مُتَأَلِّماً لذلك، وهو مقيم في منزله يخفض جماعته، وكان يظن أَن الفتنة لها أَصل من أَمير الحاج ونائب جدة، فلما تحقق براءته من ذلك ركب بنفسه وردَّ جماعته، وردَّ أَمير الحاج جماعة الأَروام، وأَصابته نشَّابة في يده لكنها سليمة، ثم أَرسل الشريف وإليه الجنيد علي يقول: أَنا طائع (للخندكار)، ونادى في البلد بالأَمان والاطمئنان، وحصل أَلطاف الله تعالى تلك السنة، وقتل في هذه الوقعة جماعة من بني حسن منهم محمد العزيز بن الحسني أَحد الفرسان، وعلي بن شكر، وجرح ولد الشريف حُمَيضة، والعفيف عبد الله التقر وغيرهما، وجرح من الأَروام جماعة، ولولا ظلام الليل حصل ما لا خير فيه، وكان قاضي المحمل في هذه السنة بشر الحنفي، وكانت الوقفة الجمعة.

سنة ست وعشرين: فيها كان أَمير الحاج جانم من دولات باي، كاشف الجسور السلطانية، بإقليمي الفيُّوم والبهنساوية، وكان من أُمراءِ الجراكسة ذوي الشجاعة والبأْس ومحاسن الأَخلاق، وكرم النفس وبُعْدِ الهمة، ووفور النعمة، إلا أَنه كان سفاكاً للدماءِ، متهوِّراً في ذلك، وكان يجعل إشارته لذلك لون ثيابه وخيامه وسرواله، فإنه كان أَحمر كلون الدماءِ، وسلك في تجهيز الركب الشريف في تلك السنة على أَحسن قانون، وأَجمل سيرة تكون، من مكارم الأَخلاق وسعة الأَرزاق، والتوسع في سائر أُموره، وتناول الأُمور بميسوره لا بمعسوره، بهمة ملوكية وطريقة كسروية. فأَما حسن (يرقه) وأُبهة نظامه ومحاسن سنيحه، وتنويع مطابخه في إقاماته وترويحه. فهو فيها أَول، وعلى اهتماماته في ذلك معول، وكان يفرق على البيوتات وجماعة العسكر المنصور المسافرين بصحبته على الطبالي ذهاباً وإياباً من أَنواع الأَطعمة الفاخرة، واللحم الضأن والدجاج الطريِّ المحمول بصحبته، وله خدمة خاصة به، وأَصناف الحلاوات المتنوعة، والكلاج المفرَّق في الأَصحن الهائلة الموسّعة، وبالجملة فكان من محاسن أُمراءِ الحاج وكرمائهم، وسافرت في هذه السنة المذكورة مع الوالد أَول حجاتي، وكنت شابًا في أَول البلوغ كثير الرغبة في ركوب النياق السريعة والولوع، فكنت أَتبع في بعض الأَحيان زمن المسير ركابه، وانظر حاشيته وركابه، فما حلّ بمحل إلا ومَدَّ سماطه، وأَبْدَتْ غلمانه وأَتباعه من محاسن المأْكولات المحمولة

بصحبته ما يبعث الْعَيَّانَ على النشاطه، وأتذكر أنني أرسلت يوماً فَتَايَ إلى مقدم عكامته بالسنيح، أَطلب بصلاً فلما ذكر له الفتى ذلك قال: ليس سيدك من أُولئك، وأَخذ بشته وملأه من خاص (الخشكنانك) المعمول ظاهره وباطنه بالسكر النهاية، وحمله وأَرسله مثقلاً إلى الغابة، ولما رأيته من بُعْد أنكرتُ كثرة ما حمل في عبائه، وقلت: ما نَصنع بهذا البصل الكثير الرديءِ في غذائه؟ فقال: إن العكام والخازن امتنعا من إعطائه وأَرسلا ما ستراه في وعائه، وذكرا أَنه لا يليق بك مأكوله، وكان قصدهما أَن يجهزا أَحسن من ذلك، فخاب من الشاد مأْمُوله، فلمته على ما أَتى به من غير المقصود، وأَمرته بسرعة الإتيان بالبصل وأمّا ذلك (الخشكنانك) فمزقته أَيدي الخدمة والغلمان، ولقد تطلّب البصلة الواحدة من السنيح في هذا الزمان، فإما لا توجد لقلة حمله، ولعدم الاهتمام بشأنه ونقله وإما شجاعته فإلى الغاية لقد تعرّض للركب في تلك السنة سلامة بن فَوَّاز شيخ بني لأم المفارجة، عرف بِجغيمان، ومعه من لفيف العربان نحو عشرة آلاف نفر، ولم يك إذْ ذاك بصحبته في الركب من العسكر إلا فئة قليلة، وكان ذلك ببوادي سماوة، بالقرب من الأَزلَم فقوي عزمه ولبس لامة الحرب، وجعل قنطاريته على كتفه، وأُجهر النداءُ في الركب: مَنْ معه سلاح فليأْخذه بيده، ويسير صحبة جماله لا يخرج عنها، وأَمر أَن لا أَحَداً يتعدّى الدليل، ولا يمر من الساقة، واستمر الركب سائراً سيراً منتظماً، والْقتال تارة وتارة، والطبول حربية، وبرز بالمحمل جعله مع العلم تبركاً به من سحر ذلك اليوم إلى الظهر فبحمد الله تعالى، ومعونته أَظهر همته العالية وشجاعته المتدانية، وعزماته التي غير فاترة ولا متوانية، وصار يقتل منهم ويطردهم كرة بعد كرة، ومرة بعد مرة إلى أَن نفذ سَهْمُ الله تعالى بندقة من الرصاص أَصابت ابنة عمه فانهزم، وكانت الكسرة عليه، وولوا جميعهم مدبرين، وصاروا يلتفتون إلى ورائهم مسرعين، وافتقدت الحجاج فلم يضع لفرد من أَفرادهم عقال بعير، ولم يصب أَحداً منهم أدنى جراحة من ذلك الجم الغفير، فمن تلك السنة عينت (البلوكات) من العسكر الركبان على جِمال مقدمي النفر بالأُجرة السلطانية، وتجدّد تجهيز العربان و(الزردخاناة) الرومية، وتعيّن لهم أجر من ديوان السلطنة، وجرايات ومصاريف استمرت إلى هذا الأَوان، والمتوفر من ذلك بالديوان الشريف في ولاية خسرو باشا ـ كما قدمنا ذكره ـ مئة وعشرون جملاً وما عدا ذلك على حاله.

ومن تلك السنة أيضاً ترتب لسلامة بن فواز المذكور في كل سنة من الخزائن السلطانية ألف دينار راتباً له ولأَولاده من بعده، ليكف عن الركب المصري ودربه،

وليكن من حراسه وحزبه، وضمنه فيما يأتي منه صهره الشيخ عمرو بن عامر بن داود، أمير بني عُقْبَة المتاريك العوامرة والمزايدة، وجعله وكيلاً عنه في قبض ذلك، وجرى الأمر على ذلك إلى أن توفي سلامة المذكور. ثم صارت أولاده خلفاً عنه في تناول المعلوم، وعمرو بن عامر على ضمانته وتناوله كما هو معلوم، وفي هذه توجه الشريف ثَقَبَةُ بن بركات بن محمد أخو أبو نُمَيٍّ إلى القاهرة، واجتمع بمولانا ملك الأُمراء، بعد أن أرسل لملاقاته عند حضوره جماعة العساكر منهم الأمير فرحات بن قرا موسى، وخير الدين نائب القلعة و(الصناجق)، ولما صعدوا به إلى القلعة تلقاه ملك الأُمراء وأكرمه غاية الإكرام، وأخلع عليه، وعلى الشريف عرار بن عجْل، وعلى الواصلين بصحبته، وأَغدق عليه وعليهم الإنعامات والهدايا، وأنزله بالسبع قاعات، في دار المقر الشهابي أَحمد بن الجيعان، وكان والده سأل في تفويض إمرة مكة لولده أبي نُمَيٍّ، وأشرك معه أخوه ثَقَبةً في لبس الخلعة الثانية، وأن يُعْفَى الشريف بركات من لبس الخلعة عند حضور أمير الحاج فأُجيب إلى ذلك، وعاد من القاهرة إلى مكة في شهر رمضان، في قافلة يسيرة من طريق البر معظماً مكرماً، وصحبته قفطان ولاية أبي نُمَيٍّ عن والده بركات، كما شرح، وكان قاضي المحمل في هذه السنة فتح الدين أبو الفتح الوفائي المالكي، ودخل مكة بالخلعة والطرحة على العادة. وفي هذه السنة أول لبس الشريف أبو نُمَيٍّ لخلعة السلطنة المجهزة صحبة أمير الحاج، وتوجه الشريف بركات إلى جهة اليمن خارج مكة ليبعد عن الحاج.

وفي مستهل الحجة اجتمع الشريف أبو نُمَيٍّ والقضاةُ الأَربعة للسلام على أمير الحاج، بالمدرسة الأَشرفية، وقُرِئت المراسيم بها، وأُفِيضت التشاريف على أبي نُمَيٍّ وأخيه ثقبة، والقاضي الشافعي ونائب جدة، وكانت العادة أن تُقرأ المراسيم بالمدرسة على هذا النمط، ثم تمدّد بعد ذلك اجتماع العساكر والأعيان بالحرم الشريف، وتجلس الأُمراء اتجاه الكعبة في ظاهر زمزم، ويقرأ القارىء الأَحكام على كرسي عال، ويلبس الشريف التشريف، ويتوجه بعد طوافه بقفطانه أُسبوعاً والدعاءِ له على زمزم في كل شوط. وكان أَمير الحاج الشامي جان بلاط نائب غزة الجركسي على عادته، وكانت الوقفة يوم الأَربعاءِ والحاج في هناءِ.

وفي هذه السنة كانت وفاة مولانا (الخندكار) القائم بسلف آبائه من العدل والعمار، السلطان سليم شاه بن عثمان ـ بوأه الله أعلى غرف الجنان ـ في شهر شوال من السنة، وأشرقت شمس ولاية مولانا السلطان سليمان في سماء عدله وطوله، من مِنَن الرحمٰن، مالكاً لأَزِمَّة العدل والأَمان، ناشراً لواءَ الفضل والإِحسان، جعل

الله تعالى عمره أطول الأعمار، وثناؤه الحسن الجميل منشوراً على كل منبر و(حصار).

سنة سبع وعشرين إلى تسع وعشرين: ففي سنة سبع وعشرين: كان عصيان جان بردي الغزالي نائب الشام على السلطان، وانهزم إلى حلب، وحاصر أهلها ثلاثة عشر يوماً، ووقع له ما وقع من غير تطويل، وكان أمير المحمل الأمير جانم من دولات باي، على حاله إلى بعض أشهر من سنة تسع وعشرين، اتفق من الأحوال ما أنكرته السلطنة، واقتضى الحال عصيانه ببلاد الكشف، وجرت له تجاريد، وكانت له وقائع وأمور اقتضت أن قتل، وقطعت رأسه وعُلِّقت بباب زُوَيْلَة، بد أن تعيّن بعده الأمير فارس من أزدمر لإمرة الحاج، فتولاها الأمير فارس كاشف البحيرة في تلك السنة، ونقلت إليه أسباب الأمير جانم ـ أمير الحاج ـ التي هي للحاج معينة، فسافر في تلك السنة أميراً على الركب، وكان جركسيًا أحمق عسوفاً، ظالماً عظيم العنف، شرس الأخلاق، سَيِّءَ السيرة، وعاد من الحج في تلك السنة مصادفاً لتغيير أحوال أحمد باشاه، وقتله الأُمراء وأخذهم واحداً بعد واحد فنقم عليه أنه كاتب الأمير إسماعيل بن عامر أخي جويلي أمير عربان البحيرة مما يقتضي تنفيره وخروجه عن طاعة السلطنة، فأمر بقتله فضُربت عنقه تحت الجميزة التي بالرملة، وأخذه أحمد باشاه اغتيالاً من جملة مَن قتله صبراً لمفاسده التي شهرت وادعائه السلطنة، وقتله الأُمراء الأروام، وجماعة العسكر كما جرت واقعته واشتهرت.

سنة ثلاثين وتسع مئة: كان أمير المحمل الأمير جانم الحمزاوي الحلبي، يقال: إنه كان في ابتداء حاله خيّاطاً بمدينة حلب، ولا أعلم صحة ذلك، وتنقّلت به الأحوال إلى أن اتصل بخدمة ملك الأُمراء خاير بك لما كان نائباً لها، واستمر بصحبته إلى أن قدم إلى الديار المصرية مع السلطان سليم، وأخبرني بعض الثقات أن والده كان أمير الحاج بحلب، واستمر الأمير جانم في خدمة ملك الأُمراء لما كان نائباً عن السلطان بالقاهرة والديار المصرية إلى أن توفي، فكان من جملة الأُمراء، وترقّى بعد ذلك إلى أن صار من أعيان أكابر المملكة المصرية، ومن ذوي الرّأي والمشورة، صاحب عقل وسياسة، وتدبير ورئاسة، ولما تمكن بالديار المصرية، ورسخ قدمه بها فاشترى الرزق والبلاد وأوقفها وملك من البيوت والربوع والمطابخ التي للسكر والمعاصر والفنادق والغيطان، وترددت إليه الصناجق والأُمراء والأعيان، وسعت إلى أبوابه أقدام مَن يلوذ بالسلطنة الشريفة من الخاص والعام والقاصي والدان، وانفرد بتدبير أُمورِ المملكة المصرية، وانتظام أمر الديوان، ورجوع نواب السلطان إلى قوله ورأيه، خصوصاً في

زمن المرحوم سليمان باشاه، وقبله بحيث أنه منع مماليك سليمان باشا أن يَؤَدُّوا إليه الخدمة بعد العصر، تحت المقعد الأَشرفي قايتباي، وحجر عليه في أمور عديدة، وكاتب الأَبواب السلطانية بذلك، وعادث إليه الأَجوبة مما يختار، وانقادت إليه أحوال الدولة، ومشى في قتل شرف الدين بن الجزري عُرف بالصغير، وكان صاحب ديوان السلطنة ومرجعها، واتهمه بالخيانة، مكيدة ليخلو له الجو بالكلية، ولا يَرَى مَن ينتقد عليه في شَيءٍ من مقاصده القاصية والدانية، فأُخِذ وعوقب، وقُتِل خَنْقاً بالبرج، ودُفن، ثم قُتل بعده ولد أخيه القاضي منصور، كاتب الخزائن السلطانية، والقاضي شمس الدين محمد بن محاسن، زوج أخت شرف الدين، وكان كاتب الخزانة سابقاً، والقاضي صفي الدين بن إسرائيل نائبه بالديوان، وميخائيل النصراني، عرف بابن فليس أحمر، وغيره من النواب المتعلقين به، وتتبع آثاره وأنشأ له دولة جديدة من الكتَبة، وتردد إلى الباب الشريف السلطاني مراراً، ويعود في غاية العظمة، ونفوذ الكلمة وقوة الجاه. ثم ترقَّى إلى نظر الأَموال السلطانية بالديار المصرية. ثم صار في أعيان (الصناجق) العثمانية، وعين لخدمته من الباب السلطاني جماعة من (الحصارليه)، و(صوباشي) للسعي في خدمته إذا ركب، والوقوف على بابه حجبه إذا نزل وحجب، وانحصرت فيه المملكة، ومَن خالفه أرداه وحلَّتْ به التهلكة، وظن أنَّ الدهر يصفو له، ومتى كان ذلك؟! حتى إذا دنَا حِمَامُهُ، وانقضت أيامه، سَلَبَتْ منه الدنيا ما وَهَبَتْ، وأخرجته من سرير عزه بغتة كأَنها لا أعارته ولا جلبت، وسيأتي ذكر مقتله، وولده في محله، ولما أن ولى الأَمير جانم في هذه السنة جهز الْمُهِمَّ الشريف بهمة عالية، وأصرف أموالاً لها صورة، بحيث أن الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ جمع مصروفه بعد حضوره من الحج فكان جملته مئة وثلاثين ألف دينار مصرية، وكانت جماله في غاية الحسن، والكثرة في العدد، وغلو الأَثمان، وجدد لعربان الأَدراك عوائدَ وإنعامات من ديوان السلطنة ومن ديوانه، وفصل لهم الجوخ الخاص المثمن، الذي به الْجِمَال والنفع ما لم يفعله غيره، وبالجملة فكانت إمرته على الحاج وولده من بعده كالشامة في الزمان، وحصل في تلك السنة للحجاج عطش شديد، ومعظمه بالْوَجْهِ، بحيث أنه مات من العطش بمنزلة الْوَجْه وقبله خلقٌ لا ينحصر عددهم، ومن الحمير والبغال والجِمال عدد وافر، وصارت تلك العطشة علماً على تلك الحجة في سالف الأَزمان، فإذا ذكروا واقعة من تلك السنة قالوا: سنة العطْشَةِ بِالْوَجْهِ، والوقفة بالجمعة.

وفي هذه السنة خرجتْ بنو لاَمٍ على الركب، من المخرس الذي هو أول

الْعُقَيِّق، من شمال المتوجه إليه في ابتداء حالة الذهاب عند ذلك الفضاء، ولم يظفروا منه بطائل، وأمَّنَ شيوخُهُم، وأنعم عليهم أميرُ الحاج من ماله، وأعطاهم نحو الثلاثين ألف نصف، فرّقها على شيوخ بَدَنَاتِهم.

وفي هذه السنة أيضاً كان بمصر حوادثُ شنيعةٌ جدًّا وأُمور هائلة، مخالفة للدين والشريعة، بسبب عصيان أحمد باشا، وانفراده بالمملكة المصرية، وقتله لأَعيان الأُمراء ولجماعة العساكر و(الإنكشارية) صبراً، ومصادراته المهولة للرعايا، وأخذه بالجور والعنف في الأَحكام والقضايا، وآل أمرُهُ إلى قتله، ونصب رأسه بباب زُوَيْلَةَ كغيره من القضاة، وكان مع ذلك بمصر وأعمالها طاعونٌ عظيم، مات فيه عدة وافرة من أهل الديار المصرية، وأعمالها، وذكر المنجمون أنَّ سبب ذلك اقتران الكواكب السبعة فكان دليله ما وقع من الفناء والسيف، والله أعلم بحقيقة ذلك.

سنة إحدى وثلاثين وتسع مئة: كان أمير المحمل الشريف الأَمير جانم الحمزاوي، على حاله، وأمير الحاج الشامي مصطفى الرومي، وكانت الوقفة بالأَربعاء، ومات صاحب مكة الشريف بركات في رابع عشري ذي القعدة، بعد استعفائه من الإِمْرَة، وجعلها لولده أبي نُمَي كما ذكرنا، وفيها كان وصول المقام العالي الأَعظمي البرهاني إبراهيم باشاه الوزير الأَعظم إلى الديار المصرية، فكان دخوله في يوم السبت التاسع من جمادى الآخرة، لإِخماد الفتن الحاصلة في زمن أحمد باشاه الخارجي، ولعمارة البلاد، وقمع المفسدين. فكان لدخوله محل لائق، وسلوك لعمارة الإِقليم أزهى وأزكى من عرف المسك في رياض الحدائق، فأَنفذ حكم الله تعالى شَنْقاً في جماعة من الأَعيان بباب زويلة، منهم الأَمير داود بن عمر أمير عربان هَوَّارة بالوجه القبليّ، والأَمير أحمد بن بَقَرٍ أمير عربان جُذَام بالشرقية، والقاضي الشهابي أحمد بن الجيعان، والقاضي ابن عوض، وجماعات من مشايخ عربان الإِقليم، ومن أعيان كتاب الديوان وغيرهم من المتكلمين، وأظهر سطوة وصولة استقامت بها أحوال الرعايا، بعد حصول عامة البلايا، من أحمد باشاه المشار إليه أعلاه، ولي في معنى ذلك أقوالٌ نظماً ونثراً فمن مَقَامَة قولي: لما وردتْ علينا الأَخبار بوصول المقام الشريف، تزايد السرور بالقلوب، وأزمعت الهموم على الهروب، وعد قدومه من المنن، ورُجي لدفع ما بُليت به الرعايا من المحن، واسْتُنْظِر انتظار الظمآن للزلال، وتَيقن أنه مع حلول البرهان ليس للظلم مجال، واستبشرت بقدومه العامة والخاصة، وآثروه بالدعاء دون أنفسهم ولو كان بهم خصاصَةَ، ولما دخل مصر ـ إن شاء الله ـ مُؤَيَّداً آمِناً، وأظهر من خفايا عدله ما كان للمجرمين كامناً،

وسل الصارميُّ صارمه، ونشر محامده ومكارمه، وأضحت الرعاء آمنين، وقُطِع دابر القوم الذين ظلموا وقيل الحمد للّه رب العالمين، هذا وكان قد رأى قبل قدومه أن يسير بسيرة الإنصاف، وقمع المفسدين، ونودي ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]، وظهر برهان الملك المظفر وما خفي، وتمكن المظلوم من ظالمه واشتفى، وطلع بدر جماله بقلعة الجبل، ولهج لسان مقاله بحيَّ على الفلاح لا على خير العمل، ووضحت شمس عدله كل حالك، وَوَطَّأَتْ يدُ سطوته الطريقَ لكل سالك، وظهر نجم سعوده في فلك مقصوده، فكان على الأعداء سعدَ الذابح، وعلى الأولياء سعد السعود، وأطفأ الله به ما اشتعل من نار الظلم، ولا ينكر من إبراهيم إطفاؤها وكونها سريعة الخمود، فيا لعمري ما حلّ بمصر من الشرف والتعظيم، إذ صارت مقامَ إبراهيم، ولما ورد عليها كتاب قدومه الميمون قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩] فتعطّرت عند وروده بورودها، وتيقّنت دوام عزها وسعودها، ونفش الْبَان أذنابه وأظهر من عَرْفِهِ مكنونه، وفتح النَّرْجِسُ عند رؤيته عيونه، ولم يغمض جفونه، ونشر الآس والنسرين ريحه وفاح، واهتزَّتِ الأَغصانُ بنسيم الافتنان طرباً لرؤية تلك الوجوه الصباح، وابيضّ وجه الياسمين بتعطير نباته، ليقدمها إلى المقام الشريف في أيام حياته، وتهلل وجه الربيع بأَخضر عذاره، وترنم شحروره المجيد بأطيب سماره، وطاب عرف النَّسيم وتنسَّمَ، وأفصح الهزار بفنونه ولم يتلعثم، واحمر وجه الجُلُنَارِ مذْ عقد عقده على ذات النهود، فتلوَّن المنثور عند ذلك، وكان اللون عاقداً، ومن الخضرة شهود، ونظر الشتاء إلى نفسه حال انقضائه نظر مغبون قائلاً: إنّا لله وإنا إليه راجعون، فضحك وجه الربيع وفتح الأُقحوان عيونه وبان، فقال: البنفسج ربنا أَبْقِ علينا إبراهيم باشاه إنك أنت الحنان المنان، فللّ دَرُّ مِصْر حيث أقبلت بوجهها إليه، وبسطت يدها له بكثرة دعائها له وثنائها عليه، وابتهلت بقولها: ربِ أصلح المعاملة بين المسلمين، وأدم علينا الوزير إبراهيم يا رب العالمين.

وفي هذه السنة كان ابتداءُ ولاية المرحوم سليمان باشاه للمملكة المصرية، وتوجه إبراهيم باشاه عائداً إلى القسطنطينية العظمى بعد صلاح الأُمور، وشرح الصدور.

سنة اثنتين وثلاثين وتسع مئة: كان أَمير الحاج سنان باشاه سيواس وصل من المملكة الرومية بنية الحج، في غاية العلو والرفعة والحرمة، وكان شيخاً مهيباً، كثير المال، من أَعيان السادة الأَرْوام، وأَكابرهم سنًا وقدراً، ومكانة، وكان سليمان باشاه

يتردّد إِلى محل سكنه بحارة عبد الباسط مراراً عديدة لمجابرته، وكذلك عيسى باشاه ناظر الأَموال بمصر في ذاك التاريخ، وجهز الْمُهِمّ الشريف على أَتم العوائد، وأَكمل القواعد، واتفق في تلك السنة أَن الحاج المصري والشامي كان قليلاً، وكان دخل إِلى مكة المشرفة قبل ذلك أَروام كثيرة جماعة سلمان القبطان، وكان الشريف أَبو نُمَيٍّ برز عن مكة خوفاً من حصول فتنة بين الأَروام وعسكره، فكان الشريف بوادي الجموم، فلما حضر سنان باشاه أَمير الحاج المصري إِلى الوادي، عرض له الشريف بخيله ورجاله بالوادي وطلب منه القفطان، فسأَله أَن يتوجه إِلى مكة ويلبس، فامتنع من ذلك وقال له: أَنا لا أَدخل مكة ما دام العسكر المجهّز مع سلمان القبطان فيها، ومصلح الدين نائب جدة، وعلي جاووس، ووقف بعسكره أَمام الحاج ولم يقربهم، فأَرسل له أَمير الحاج خلعته، على رأْس حامل بها فلبسها وهو على فرسه، وتوجه إِلى فريقه بالقرب من وادي أَبي عروة، ودخل سنان أَمير الحاج إِلى مكة المشرفة بعرضة لطيفة فيها عسكره فقط، وكذلك وقع لأَمير الشامي أُويس الرومي من الكشاف، فإِنه أَرسل الشريف أَخذ منه خلعته من الوادي، ودخل مكة بعرضة فيها عسكره إِلى محطة الأَبطح، لما سمع أَن أَمير المصري أَرسل له بالخلعة، وعتب على أَمير المصري بعدم إِخباره بذلك، ولم يحضر الشريف أَبو نُمَيٍّ إِلى مكة لقراءَة المراسيم، ولبس التَّشْرِيف على العادة، بل أَرسل بعض جماعته، وقاضي الشافعية، ونائب جدة، وقُرئت المراسيم بحضورهم، وجهزت للشريف خلعته إِلى الوادي، وفي خامس الشهر توصل لمكة سلمان القبطان بعرضة كبيرة من عسكره، وشقَّ الْمَسْعَى من باب الصفا فسعى أَمير الحاج سنان في الصلح بينه وبين الشريف أَبي نُمَيٍّ، وتوجه أَمير الحاج صحبته إِلى محطة الشريف أَبي نُمَيٍّ عند جبل حراءٍ بأَسفل مكة. ثم دخلها في صباحها وتوجه النَّاس لعرفة في يوم الثمان، وهم خائفون وَجِلُوْنَ، من إِحْدَاثِ العسكر فتنةً، فسلّم الله تعالى ببركة الشيخ محمد بن عراق، وكانت الوقفة بالاثنين وتوجه الحاج بعد تمام حجهم بالسلامة، وحصل في تلك السنة بالحجاز والطرقات غلاءٌ عظيم مفرط، بلغ الحِمْلُ الدقيق إِلى مئة دينار وأَكثر، ويقاس عليه غيره من سائر الأَصناف.

سنة ثلاث وثلاثين وتسع مئة: فيها كانت ولاية الخطيب محيي الدين العراقي المعروف بالحمصاني لخطابة الحرم الشريف، ووفاة الشيخ محمد بن عراق برياح القولنج في خامس الشهر، وهو يتلو آيات من القرآن عديدة، وفيها كان فتح بلد روس، وأَخذها من يد الفرنج، وكان أَمير المحمل الشريف تنم بن مغلباي ناظر

الدشايش الشريفة، وما معها، وكان شيخاً جركسي الجنس، مُقْتَصِداً في أُموره مع ميل إِلى الشح المفرط.

وفي هذه السنة جلس الشريف أَبو نمَيٍّ لقراءَة المراسيم، ولبس التشريف بالحطيم وجمع بني حسن، وانتقل فعل ذلك عن المدرسة الأَشرفية قايتباي محل إِقامة أُمراءِ الحاج، ويقال: إِنَّ سبب ذلك كان تخوف الشريف من نائب جدة، وكانت الوقفة بالجمعة والحج هنيئاً بمكة، ورحل الركب من مكة في يوم الجمعة سادس عشر، وتبعه الشامي. وفي زمنه صادف الحر الشديد المفرط المهلك، والريح السموم المحرق المنشِّف للقرب، الآيِل إِلى الموت فَجْأَةً، وكان أَكثر الموت في الغلمان والمشاة والفقراءِ، ومزيد المشقة لغيرهم. وأَما السُّرَّاقُ والمتحفظة من جوانب الركب فكانوا في ولايته لا انقطاع لهم ولا امتناع، وكذلك النشالون وأَهل الفساد، فإِنه لم يُقِمْ حدًّا من حدود الله تعالى، بل كانتْ عقوبته الضرب لا غير، فلذلك طمع في زمانه أَهلُ الفساد.

سنة أربع وثلاثين: كذلك وفيها مات مصطفى نائب جدة في ثامن عشر القعدة، وجهز في ليلته وشيعه الشريف أَبُو نُمَيٍّ، وَوُجِد في تركته عدة مراسيم تتعلق بأُمور يحصل بها الضرر على أَمير مكة وغيره، وحجّ في هذه السنة الشيخ جلال الدين البكريُّ، ومعه ولده جمال الدين محمد بأُمه وأُخته أسما على نية الحج، والعود بولده الشيخ أَبي الحسن، وحجّ أَيضاً قاضي القضاة نور الدين الطرابلسي الحنفي. وفي هذه السنة لم يعمل الشريفُ عمامَته طِبَقاً في مَوكب أمير الحاج، كعادته بل طِرَازَيْنِ فقط، وترك أَميرَ الحاجِّ والحجاجَ بالمعلاة، ودخل الشريفُ إِلى مكة وجدة، ونودي لجميع الحاج أَنهم يسكنون خارج مكة، ومَن خالف انتقم منه، فنزلوا عند أَمير الحاج بأَجمعهم ما عَدَا بعض الأَعيان كوالد الشيخ أَبي الحسن، نزل عند ولده جهة باب حَزْورة، والقاضي الطرابلسي عند القاضي بديع الزمان، وتضرر الحاج بنزولهم هناك لشدة الحر، ووضع أَمتعتهم في البر، وأَهل البلد بتعطيل بيوتهم من الكرا، ويقال: إِنَّ السبب في ذلك سكنى الأَروام في بيوت أَهل مكة بِلاَ أُجرة، أَو لتخيل الشريف من العسكر، وقصده حسم الشر، وفرقت الذخيرة في (الوطاق) المعلاة، وكان أَمير الشامي نائب عين تاب المدعو إِبراهيم حلبي الرومي، وسلك أَهل الشام من دربهم القديم الذي بطل سلوكه من مدة سبع وعشرين سنة، وعجلوا دخول مكة عن عادتهم بيومين. وفي هذه السنة كُسيت الكعبة من داخل، ووصل حاجُّ اليمن من البر صحبة الشيخ عفيف الدين بن مرزوق، والوقفة بالأَربعاءِ والحج هنيئاً.

سنة خمس وثلاثين وتسع مئة: كذلك، وكنت مسافراً معه صحبة الوالد ـ تغمّده الله تعالى برحمته ـ كاتباً على العليق، فشاهدت من الحرّ المفرط والهواءِ الشديد الحارّ ما أوجب لي عند النزول من نقب عقبة أَيْلَة عطشاً شديداً، فسأَلت السقائين وغيرهم عن شربة بدينار، ولو من الذهب، فلم تحصل لي، وأُبيعت قربة الماءِ بمنزلة التّيْه بدينار من الذهب، وحجّ في هذه السنة الأَمير كيوان ولد أخي سليمان باشاه في غاية الرفعة، وحصل بمناخ الحاج بِعُيُوْنِ الْقَصَبَ ذهاباً حَرٌّ مفرطٌ جداً، وهواءٌ حارٌّ، أُحْصِي من مات في وقت المغداة فجاءَه بكرة النهار نحو السبعين نفراً، وكان الرجل يتغذّى ويسقط ميتاً، ويشرب ويسقط كذلك، وقِسْ على ذلك في غالب المنازل الشديدة الحر، كالسبع وَعْرات، ووادي النّار، ومنزلة خُلَيْصٍ ووادي مَرِّ الظهران. ولقد وقفت بمغارة شُعَيْب، لتفرقة العليق بكرة ففي أَسرع وقت حُمِل من جوانب المعلف من مشاة الحجاج، وغالبهم من الأَروام جماعة أَمواتاً فوق العشرة أَنفار، وكان الرجل يهرول ويسقط بحذاءِ المعلف، ليستريح من الحر، فتخرج روحه سريعاً. قلت: وكما شاهدت شدة الحر في هذا الدرب شاهدتُ شِدَّةَ البرد أَيضاً، فلقد كان الركب يصبح في مسيره فترى اللبود السود على الأَحمال بَيْضَاءَ. ولقد نام بمنزلة التِّيْهِ بالطلعة ثمانية أَنفار من الفقراءِ، صبيحة النهار، فحركوا، فإِذا هم أَموات جميعاً من شدة البرد، وذلك في سنة ست وعشرين وتسع مئة، وكثرت السرّاق والمتخطفون من جوانب الركب، فلم يتجاوز في إِحكامه الضرب مطلقاً ذهاباً وإِياباً، وإِذا بالغ في العقوبة ضرب نحو الأَلف عصاه، ويصيح المضروب له مقسماً بوجه الله تعالى بالنبي ﷺ، فلا يزيده ذلك إِلاَّ حَنَقاً ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٧٤].

وفي هذه السنة نزل أَمير الحاج بالمعلاة كالتي قبلها، ودخل جميع الحاج مكة المشرفة، ولم يمنعوا من ذلك، وكان قاضي المحمل في هذه السنة الشيخ زكريا الأَنصاريّ، وسُرِقَتْ أَمتعته بالطريق، ولم يسافر أَميراً على الحج بعد هذه السنة إِلى أَن توفي.

وفي هذه السنة اتفق لأَمير الركب أَنه طلب مشايخ بني عَطِيَّة أَن يحضروا إِليه من الجبل بالأَمان، فامتنعوا خوفاً من القبض عليهم، فجهز لهم كسوة صحبة الشيخ شمس الدين السمديسي شاهد المحمل، وكان متردداً على درب الحاج في هذه الرتبة، وذكر له أَن يؤمنهم، ويحسن لهم المقابلة، لخير يفعله بهم، فظنّ السمديسي أَن ذلك منه على حقيقته فتوجه إِليهم بالجبل، ولا زال يلاطفهم إِلى أَن حضروا إِلى

مخيم أَمير الحاج معه بالأَمان، ومن أَعيانهم شاهين بن حسين، فلما حضروا قبض عليهم أَمير الحاج، وأَودعهم الاعتقال، ومشَّام إِلى الأَزْلَم فحبسهم بالخان، إِلى أن عاد الركب أَخذهم بصحبته في الاعتقال إِلى أَن صعد السطح، أَطلقهم حينئذ. فمن ذلك التاريخ لم يقابل شاهين أَحداً من الأُمراءِ إِلى حين وفاته ما أَبقوا له، وكان أَمير الشامي بالي الرومي نائب البيرة، والوقفة بالأَحد، وخلف تنم من بعده في نظر الدشيشة ولده يوسف، وكان أَرشد ولديه، فحسنت سيرته مع مسكه على الدنيا كوالده. وتوفي في طاعون سنة ست وخمسين أَو في الذي قبله، وخلفه أَبوه مصطفى، فكان من الذين أَضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فبدّدَ ما ضبطه أَبوه وأَخوه من المال جميعه، في أَيْسَرِ مدة على غير وجهه، وافتقر حاله، وعُزِل من مناصبه، ولزم داره فاستمر مقيماً بها إِلى أَن تَمَرَّضَ، ومات، ولم يبقَ من ذرية تنم المذكورة سوى ولد ليوسف، وهو شاب فقير، لم يداخل الحكام في شيءٍ من أُمور الدنيا، مع اشتغاله بالبرش كأَهل البطالة.

سنة ست وثلاثين وتسع مئة: كان أَمير الحاج المقر العالي، واسطة عقد المعالي، يوسف نجل المقر العالي عظيم الدولة جانم الحمزاوي، رحمهما الله تعالى، وكان شابًا بعيد الهمة، كثير النعمة، ذا صرامة وشهامة وشجاعة، فلقد ركب فرساً في بعض الأَيام وحوله جماعة من شجعان العسكر وشبابهم المعدودين، فراهنهم لكل مَن قدر على أَن يزحزح رجله من الركاب خمسة من الذهب، فحاولوا ذلك واحداً بعد واحدٍ، فلم يقدروا عليه، وتغالى والده في حسن نظامه و(يرقه) وكثرة جماله، واعتدال أَحواله، بحيث أَن زمن إِمرتهم على الحج كان عين الزمان في الدولة المظفرية، وبالغ في التوسُّع في جمال النفر والشعارة وكثرة المصروف، وسعته، والتفنن في أَنواع (اليرق) من الأَكوار المنقشة والأَقمشة المزركشة؛ وتعبئة أَصناف المأكولات، والإِكثار من حمل السكر والحلاوات، وأَنواع ما يصحبه أَعيان الايكابر وأَكابر الأَعيان من الطيبات، مع سماحة النفوس، وجمال الهيبة وبُعْد الهمة في كل أَمر جليل منفوس، وتوجه ركابه في تلك السنة من القاهرة، على أَكمل حالة فاخرة، بطلعة بهية ومراكب كسروية، في غاية الجمال والجلال جارية رواتبه وإِنعاماته الغزيرة على أَهل (وطاقه) ومعارفه وذويه في كل غُدُوٍّ وآصال.

وكتبتُ في تلك السنة إِلى الوالد من القاهرة من جملة مكاتبة جَهَّزْتُها إِليه أَقول - بعد ذكر والده -: ويمتعنا كافة بدولة أَميرنا نجله الذي تَعَطرت بذكر حسن سياسته المناصب، وامتلأَتْ بكرمه وجوده الركائب، وتزايدت الأَدعية الصالحة بسببه لهذه

الدولة المظفرة من كل جانب، وبث الثناءِ من الركبان السائرة ولو سكتوا أثْنَتْ عليه الحقائب فلقد تواترتِ الأَخبار ـ لا سيما من كتبكم ـ بأَنه جعل للمشاة مركباً ميسوراً، وللجياع طعاماً موفوراً، ولِلْعَطْشَى شراباً طهوراً، وأَظهر آثار همته العالية، وأَكثر عند طلب المياه الرُّوَاءَ من كل قِربة وراوية، فالله تعالى يجري مساعيه من السعد على أَجمل العوائد، ويزين الدولة المظفرة بسيفه الذي في قبضته ـ إن شاءَ الله ـ النصر، وفي حليته المحامد، ويقر عيون المعالي باعتلاءِ مراتبه، ويرفع مجده عن وصف الواصفين لمناقبه.

وفي هذه السنة كان الحج هنيئاً.

وفي هذه السنة تجهّز صاحبنا درويش محمود العجميُّ المجذوب، من طريق البحر إِلى مكة المشرفة، وعلى يده مرسوم سلطاني للسيد الشريف أَن يشتري عشرة عبيد وعَشْرَ جوارٍ لتزويجهم ويكونوا لكناسة الْمَسْعَى، وتكون إِقامتهم عند ناظر العمارة الشيخ مصطفى الرومي، فاشترى ذلك من مال (الخندكار) بجدة، وجهزهم إِلى عَيْنِ حُنَيْنٍ، ليشتغلوا فيها، وأَحضر حُكْماً ثانياً بالفحص والتفتيش على أَحوال الأَوقاف والربط بمكة، وفتح في ذلك باباً كبيراً فحصل بسبب ذلك عليه الإِنكار والغوغاءِ من أَهل مكة، ودرويش هذا هو الذي كان السبب للسلطان في تجهيز السحابة للفقراءِ، بطريق مكة في عام ثمان وثلاثين وتسع مئة.

وفي هذه السنة أَيضاً لم يدخل أَمير الحاج بالعرضة إِلى المدرسة الأَشرفية بل نزل أَمام درب الْمعلاة، بالغرب من بِرْكَةِ الشاميِّ، ودخل جميع الحاج مكة، ونزلوا في البيوت وكانت الوقفة بالخميس.

سنة سبع وثلاثين وتسع مئة: كان أَمير المحمل الشريف المقر الجمالي سنان يوسف الحمزاوي على حاله، سائراً على مثل سيرته السابقة، جارياً على أُسلوبه وطريقته الحسنة المتناسقة.

وكتبتُ إِلى الوالد أَيضاً من مكاتبة بعد ذكر والده أَقول: ويمتعنا كافة بدولة أَميرنا نجله الذي اعتصم بعروة الشجاعة، فأَوطأَه التوثق بها رقابَ الْعِدَى، واتَّصف بمحاسن الشيم فأَضحى فَتِيَّ السن، كهل الحلم، يَهْتَزُّ للندى، أَمير سحابة السيف والقلم، والمجد والكرم، فلقد أَشْبَهَ أَبَاهُ رأْياً وسياسة، ومَنْ أَشْبَه أَبَاهُ فما ظَلَم، فمولانا إِن كان فَرْعَ هذا الأَصل فقد صار للسيادة أَصلاً، وإِنْ أَصْلَى الحسود بنار الغيظ، فإِن العيون لا ترى مثله أَصلاً، وإِن أَفْنَى الواصفُ الفصولَ الأَربعة في وصف

فصول صفاته لم يدرَك منها فَصْلاً، وليس بعجيب فإن أَحَقَّ الناس بالمعالي مَن كان فيها عريقاً، ولا يكون المرءُ بالكرمات خليقاً إلاَّ إذَا كان أَبوه لها حقيقاً، وإذَا طابت أُصولُ الشجر زكتْ فروعه، ولا يَعْذُبُ مذاق الْمَاءِ إلاَّ إذَا طاب ينبوعه.

أَمِيْـرٌ إذَا ٱهْـتَـزَّتْ غُـصُـونُ رِمَـاحِـهِ غَـدَتْ مِـنْ دِمَـا الأَعْـدَاءِ تُـزْهِـرُ بِـالْـوَرْدِ
أَمِيْـرٌ لَـهُ فـي الْـجُـوْدِ بَـاعٌ وَفـي الـثَّـنَـا ذِرَاعٌ فَـفـي الْـحَـالَـيْـنِ يَـوْصَـفُ بِـالْـفَـرْدِ

والفقير يدعو لحجاج بيت الله الحرام ببقائه، فلقد بسط قلباً ويداً، وَبَوَّأَهُمْ من إحسانه حيث شاؤوا رغداً، فكان لِشابُهِمْ أَخاً، ولكبيرهم ولداً، فهم من دولته فيما تشتهي الأَنْفسُ وتَلَذُّ الأَبصار، وقد جمع لهم بين المحبوبات الثلاث: الرفق والأَمن والإِكثار.

وَسِـعَ الـحـجـاج صـدراً وبِـهِـمْ أَحْـسَـنَ سَـيْـرا
فَـجَـزَاهُ الله عَـنَّـا وعَـنِ الْـحُـجَّـاج خَـيْـرا

والله تعالى يحرس ركابه السعيد أَينما سار، ويُجَدِّدُ له في حركاته وسكناته أَنواع الْمَسَارِّ، بمحمد وآله.

وكان الحج في هذه السنة أَيضاً هنيئاً مشكوراً، وبالخيرات موفوراً.

سنة ثمان وثلاثين وتسع مئة: كان أَمير المحمل الشريف الجناب العالي مصطفى بن عبد الله الرومي، عرف بالسراج، كاشف الجسور السلطانية بإقليم الغربية، يقال: إنه كان في ابتداءِ أَمره سرَّاجاً، يحمل الغاشية للأَمير خير الدين، نائب القلعة في أَول الدولة العثمانية، ثم ترقَّى إلى كَشْفِ الإطفيحية وإلى كشف الجيزية وإلى الشرقية ثم إلى الغربية. وهذه السنة أَول ولاياته لإمرة الحاج ـ كما سيأْتي ذكره ـ فإنه وليها إحدى عشر، وجهز الْمُهم الشريف على حالة متوسطة، وسار مع الفقراءِ والحجاج على أَحسن سيرة وأَتم طريقة، بعقل ودراية وسياسة ومعرفة، وتواضع مع الله تعالى وابتهال في كل حالة، وفي هذه السنة حجَّ معه جعفر جلبي أَمين إسطنبول، وصهر إسكندر جلبي (الدفتدار) الأَعظم بها.

وفي هذه السنة أَيضاً دخل أَمير الركب مع الشريف أَبي نُمَيٍّ إلى مكة المكرمة، ونزل على باب المدرسة الأَشرفية بالمحمل الشريف، وتوجه الشريف منها إلى منزله، وعادت الخيول والزينة من سوق الليل إلى المِعْلاة، وكانت إقامة أَمير الحاج بالمدرسة الأَشرفية قايتباي.

وفي هذه السنة أَيضاً بطل حضور الشريف إلى المدرسة لقراءَة المراسيم، وكان الاجتماع في الحطيم أَيضاً للقراءَة، وكان أَمير الشامي في هذه السنة حاجي بك الرومي نائب صفد ونابلس، وهو الذي كان أَمير الشامي في عام ست وثلاثين، وكانت الوقفة الجمعة والحاج هنيئاً، والحاج كثير، وسائر الأَسعار رخية خصوصاً الفاكهة من العنب والخوخ والرمان والبطيخ، والأَغنام بكثرة، بحيث أَنه كان يباع الكبش بعشرين نصفاً ودون ذلك، والبرك ملآنة بالماءِ أَيضَ في الجيد وكذلك برك عرفة، وابتهج الناس بالحج في تلك السنة، وأَقام الركب المصري بمكة تسعة عشر يوماً، وكان توجهه في ليلة الاثنين ثاني عشر شهر ذي الحجة إلى الوادي.

وفي هذه السنة كانت وفاة الخطيب عبد الرحمٰن النُّوَيْري الذي كان شاركه فيها الخطيب محيي الدين العراقي الحمصاني.

وكان يرجع في سائر أَحواله وأَقواله إلى ما يشير به الوالد ـ أسكنهما الله تعالى الفردوس ـ بحيث أن الحجاج جميعهم في تلك السنة حمدوا طريقته، وشكروا سيرته، فلم يختلف فيه اثنان، ولم يشك في حُسن سيرته إنسان، ولقد رأَيته رحمه الله تعالى في المضيقات والوعرات ينزل عن دابته، ويقود جِمال الحجاج في الزحام والاصطلام بيده، حتى يخرجها من المضيق إلى السعة، ويسوس أُمور الرعايا بتواضع ورفق، لم يشاهد ممن كان قبله مع اطِّراح النفس، والابتهال إلى الله تعالى في حسن العاقبة، ورضاءِ الحجاج قاطبة، ولعمري فقد حصل له منهم حسن الثناءِ الذي لا مزيد عليه، وأَتذكر من شفقته على الحجاج في تلك الأَيام أَنه كان في زمن الْحَرِّ يتربَّصُ بهم في الدار إلى أَن يهبَّ الهواءُ الباردُ، فإذا كان في داخل خيمته ولم يعلم بحال الهواءِ أَخرج يده من الخيمة، وقصد بها محلَّ هبوب الريح، فإن وجد النسيم رحلَ، وإلا صبر بهم عن الرحيل في حالة المقيل، وأَما اعتناؤه في أَمر الحراسة والذَّبِّ عن الحجاج وركوبه بنفسه لتتبع السرّاق والمفسدين، وقتلهم وردعهم، وانتخاب العسكر، وتفرقتهم كميناً في المحال التي هي مظنة خروجهم على الساقة فيها كمناخ عقبة أَيْلَةَ عند الرحيل منه سحراً، في بلاد بني عَطِيَّة، ولقد كانوا يرمون بأَنفسهم في البحر الملح، حيث لا يجدون مَحِيصاً، فيتبعهم في البحر، ويضيق عليهم ويقطع رُؤوسهم ويشهرها، واصطنع لهم المنشار فكان ينشر السارق من رأْسه إلى دبره ويرمي كلَّ شقٍّ في ناحية.

ولقد شاهدته في هذه السنة وقد وجد سارقاً من بني عَطيةَ عرياناً، ومعه سيف ماضٍ مطويٌّ على وسطه، وهو يسبح في البحر ليلاً بمناخ أَيلة، وكان قد قصد إلى

(وطاقه) ومخيمه فقبض عليه وعذبه بأنواع العذاب على أن يعترف بذنبه، وأنه من أيِّ العربان، فلم يعترف، وأَمسك عن ذلك وأَحجم إِلى الغاية، فأَمر بإِحضار نارٍ أُجِّجَتْ وَلُوِّحَ عليها كالشاة، فلم يعترف فأَمر به أَن تُلْقى له نخلتان مع بعضهما وتشد كل رجل في نخلة شدًّا وثيقاً ويطلقان ففعل به ذلك، فكان كل شق في نخلة منهما، واشتهر بين العربان وغيرهم بمصطفى النشار، وبهذا الوصف كان يتميز اسمه من الأَسماءِ، وقيل: إِن أَول مَن فعل النَّشْرَ، وأَمر به في درب الحجاز وطريقه الأَمير طراباي من أَمراءِ الجراكسة في الدولة الغورية، وقد قدمنا أَنَّ المُثْلَةَ في القتل غير جائزة، وكان يقال له ذلك عند أَمره به، فيجيب بأَنَّ قصده في ذلك شدّة ردعهم، والكف عن وفد الله، وليدخل عليهم من الروع والفزع مَا يَكفُّهُمُ عن الفساد، ولقد خافه البريُّ وهابه البحريُّ، وتحاماه المفسد في ذلك الزمان، وكان إِذا وقع له أَحد من الغلمان النفر أَو غيرهم واتهم بالسرقة كواه بالنار في جبهته، وأَطلقه، فإِن وجد ثاني مرة أَتلفه وقتله، وأَما اعتناؤه بِأَمْر الفقراءِ وإِطعامهم، والرفق بهم وتفقدهم بسقاية الماءِ في أَوقات الحر والقيلولة ومظنَّات العطش، فإِلى الغاية، لا يدرك اعتناءَهُ في ذلك أَحدٌ غيره وكان يتولَّى أَمر ذلك بنفسه، كما قدمنا ذكره في باب إِمرة الحاج، ويساوي بين القويِّ والضعيف في وصول الإِحسان والرفق إِليه، وكان يشتري القصاع من ماله ويفرقها على الفقراءِ في وقت الحاجة، ويسقي فيها حميرهم، وإِن رأَى محتاجاً جابره بلطف، ورسم له بما هو محتاج إِليه من الزاد والعليق، أَو منهما جميعاً، فعاد الركب إِلى القاهرة وجميع الوفد أَلسنتهم رطبة بكثرة الثناءِ عليه، والدعاءِ له ـ أَثابه الله تعالى ـ.

سنة تسع وثلاثين وتسع مئة: كان أَمير الحاج مصطفى كاشف الغربية المعروف بالنشار على حاله، وكانت سيرته على ما وصفنا وزيادة، وهاتان السنتان هما عَيْن إِمْرَته على الحاج في حسن صنيعه، واهتمامه بكسب حسن الثناءِ، والذكر الجميل، وفي هاتين السنتين كان الْحَرُّ موجوداً بالطرقات، والهواءِ الشديد الحرارة ووقوع الموت الفجأة في بعض المشاة والغلمان، وأَهل الكدّ، في أَماكن مشهورة بشدة الحر كمغارة شُعَيْبٍ، وعُيُون الْقَصَبِ، ووادِي النَّار، والسَّبْع وَعْرَات وأَمثال ذلك، وأَتذكر وقوع حرٍّ شديدٍ بعد القيام من دار المغداة بعيون القصب طلعة، وحصول هواءٍ حارٍّ شديد جدًّا لم يُعْهَدْ مثله وكان الركب سائراً بجانب البحر الملح، فلما رأى أَمير الحاج المذكور شدة ما فيه الحجاج، وعدم قبولهم لتلقي هذا السموم المحرق، أَمر الدلاءِ والرَكب بالنزول، وكان الوقت قريباً من صلاة العصر، وافتقد المشاة وبعض الفقراءِ

فإذا هم قد مات منهم جماعة، فأمر بدفنهم، واستمر أهل الركب بمحطّهم إلى أن انقطع ذلك الهواءُ في أول الليل، فرحل بهم حينئذ على استقامة وراحة، فلولا أَلهمه الله تعالى أن فعل ذلك لكان الرحيل بالركب في تلك الشدة سبباً لموت مفرط، يَحِلُّ بهم، فإنَّ الرجل كان يلقي بوجهه وبدنه أشدَّ من لهب النار، وحصل أيضاً في تلك السنة في الوعرات حَرٌّ مفرط جدّاً مات فيه فجأة جماعة من الغلمان والمشاة، وكانت السحابة السلطانية والصدقة (الخندكارية) في تلك الأيام على أول بروزها، والأَمر بها، والاهتمام بحال فقرائها، وكان الوالد - أسكنه الله تعالى أعلى غرف الجنة - هو المرتب لها، والمباشر على أُمورها فذكر لي تلك الليلة أنه كفّن منها نحو سبعين ميتاً، والعهدة في ذلك على المقابلين، فَإن ذلك كان بدار العشاة ليلاً، ولم يتوجه الوالد تلك الليلة إلى السحابة بل اعتمد على الشّادّ بها، فإنه كان ظاهرةُ الصلاح.

وفي هذه السنة تواترت الأَخبار بمكة بوصول غُرَابِ إلى جزيرة كَمَران باليمن، فيه طائفة من الفرنج المخذولين، للكشف على أحوال المسلمين، وارتجت مكة لذلك، ثم جاءَ الخبر بتوجه الغراب لجهة الشحر، ثم في شهر جمادى الأُولى وصل إلى مكة المشرفة مركب صغير، فيه أَربعة أَنفار وثلاثة مغاربة، والرابع ولد يوسف الحانوتي، وأَخبروا أَنهم سافروا من الديبو ببلاد الهند، وقد أَحاط عليها ثمانية وثلاثين مركباً للفرنج المخذولين، غير الأَغربة، وأَنه واصل بعدها مئة وخمسون مركباً أَيضاً، وأَنهم أَخذوا في هذه السنة من مراكب جدة اثنين، وغراب، وأَن الناس رموا بأَنفسهم صوب البر، فبقي الموج يحملهم ويرميهم على الشعب، ومات منهم نحو مئتي آدمي منهم والد الخواجة قادر الدين العجمي، وولد الخواجة زين الدين الناظر وجملة من الأَعجام، وأَهل الهند منتظرون عمارة من (الخندكار) تأْتي من مصر وإلاَّ راحت الهند وغيرها.

وفي هذه السنة شرع الشريف أَبو نُمَيٍّ في عمارة دارٍ بجانب داره المعروفة بدار السعادة لولده السيد الشريف أَحمد، وفي هذه [السنة] يوم وصول أَمير الحاج بالعرضة إلى قريب المدرسة الأَشرفية اتفق أَن بعض الأَرْوام بمسعى رَمَى مكحلة فأَحرقته مع مَن بجانبه فارتَجَّ الناس لذلك، وظن الشريف أَبو نُمَيٍّ وجماعته أَن ذلك لطلب الشر معهم، فسلت السيوف، واجتمعوا على الشريف إلى منزله بعد أَنْ أُشيع مسكه وخاف أَهل مكة من الفتنة فأَطفأَها الله، وكان قاضي المحمل الشيخ زكريا الأَنصاري وهو مريض، وكانت الوقفة الأَربعاءَ، والحج هنيئاً، والأَسعار رخيصة، والماء كثير في البرك، وأُبيع الكبش الكبير بعرفة بخمسة عشر نصفاً، والفواكه بكثرة ورحل الحاج في ليلة الجمعة ثامن عشر الحجة وتأَخر أَمير الركب وقاضي المحمل إلى بعد صلاة الجمعة.

سنة أربعين وتسع مئة: كان أمير الحاج سليمان (دوادار) سليمان باشا، واحتفل مخدومه بأمره احتفالاً زائداً إلى الغاية، بحيث أن الذي فعله له من (اليرق) ومهمات هذه الإمرة في السنة المذكورة كان من محاسن الاهتمامات، فمن الذي أنشأه جديداً ستون كوراً جديداً مقادمها ومواخرها من الفضة الخالصة، المنقوشة المطلاة، وكتب في نقش الفضة (مما عمل لسليمان من عبيد سليمان باشا) وزن فضة كل كور ستون درهماً، وأما المياثر التي عملت لهذه الأكوار فمنها من المزركش المخايش على القماش المخمل الملون الخاص، ثلاثون كوراً ونوعها بألوان الحرير العال الفاخر المشلشلات، والشباك المقصبة، والشراريب والقلائد والمجرّات، ومنها من المخمل السادج الملون والأطلسات، والمنقشات المذهبة والقطني والمسوحات الأصفر السلطاني، والوردي والأبيض باقي ذلك وشهرها أيضاً بأنواع الحرير الملون الخاص، فكانت في أبدع هيئة وأجل زينة فاخرة، ومن ذلك الإنشاء أربعون لبساً منتخبة للخيول الحربيات، في غاية الجمال والتنويع والشهرة، مكملة بالألباب الحربية، والقطارات البحرية، ومن السروج المذهبة والمزركشة ما يليق بأكابر الملوك، وجهز صحبته للمراكب أربعين أسكفاً، مزركشة بالذهب المعرّق، للمماليك التي بصحبته مكملة بالريش المذهّب، المصنوع ببديع النقوش، كما هي عادات أكابر باشات الروم، وأربعين كمراً من الفضة المطلاة بالذهب العريض الصياغة، وهو كناية عن الحياصة، وبلغت عدة جِماله بمناخاته ما يزيد عن ألف وست مئة جمل، منها من الجِمال الكبار المنتخبة المسماة بالنفر الحسنة القد والشيات والألوان ست مئة، وباقي ذلك فَهجنٌ وشعّارة، وكان أستاذه سليمان باشا يسأل من الوالد عما تقدّم لأكابر الأمراء عند سفرهم في هذه الإمرة، ويزيد عليه من الزيادات اللائقة بمقامه، وكان يسأل في غالب أحواله عن ضريبة المقر الجمالي يوسف الحمزاوي ويزيد عليها، فإنَّ والده إذ ذاك كان من عظماء الدولة، وأعيان أكابر المملكة المصرية، واعتنى بولده اعتناءً زائداً ـ كما قدمنا ذكره ـ وبالجملة فهو آخر مَن رأيناه من الأمراء القائمين بنظام هذا المُهمّ الشريف، السالكين أسلوب مَن تقدم في الدولة الجركسية في سعة المصروف، والإنفاق والاعتناء، بما فيه حسن الذكر وكثرة الأرزاق، مع قيام الناموس والحرمة والمهابة، وعموم الرعاية لأمور هذا المُهمّ وجماعته وعربانه، ولغلمان الأتباع بدلاً عن أكابرهم وفَصّل لعربان الأدراك من الجوخ السمسني والركة الخاصّ والكرزي وغيره مُفَصّلاً بدوانياً كبيراً مفرداً ما عدته خمسة مئة وخمسون جوخة، ومن الملاليط المبعلبكيات الكبار ما يزيد عن مئة وعشرين، ومثلها من العجلونيات المفصلة من الملحم المصبوغ الأصفر، وبلغت النفقة على هذا المُهمّ في

تلك السنة ما يزيد عن ستين كيساً، عنها من الأَشرفية معاملة الديار المصرية ما يزيد عن مئة وخمسين ألف دِينارٍ، وعمّ جميع جماعته وخاصته وحواشيه وخدمته بإنعاماته، وغمرهم بتفضلاته لكل أحد بما يليق به من النقود والقفطانات والجوخ المفضلات والمخيوط والسكر والحلوى، وغير ذلك.

وأتذكر ما كان يحتوي عليه ديوان الحاج في أوقات المصروف بالقلعة بمحل سكنه، من النظام الملوكي والأُبهة الزائدة عن الحدِّ، واحتفاف الديوان بالمماليك الحسان المجملة بأَنواع الملبس الفاخر، وعلى رؤوسها الأَساكف الذهب، وفي أوساطها المناطق المذهبة العراض، ووقوفها صفوفاً للخدمة بأَدب وعقل وافر، إلى أن ينتهي ذلك المجلس، فسبحان من يدوم عزه وبقاؤه، لا إله إلا هو.

واتفق في تلك السنة حصول الطاعون بالديار المصرية وأعمالها، فتوجه أمير الحاج إلى الطور، هرباً من الوباء، واستمر بالطور فلم يجتمع على الركب إلا بساحل البحر بعقبة أَيْلَةَ، محل رتبة أمير الحاج، فكان حضوره من الطور ذلك اليوم، فأَمر بسماط عامٍّ كبير من الحلاوات المنوعة ومَلْءِ القرب بالسكر النقيِّ المذاب لجميع العسكر، ومَن حضر من الأَكابر والأَصاغر، وعامة الحجاج، وسقاهم السكر بدلاً من الماء حتى عمّهم به، ثم ركب بطبله وزينته إلى المناخ بأَيْلَةَ.

وأتذكر من حسن سيرته أنه لما وصل إلى مكة المشرفة وحضر حمله من البحر إلى مكة سأَل عن أسعار الدقيق، وبكم يباع الحمل منه، فأُخْبِرَ أَنَّهُ بلغ إلى نيف وأربعين ديناراً، ففي الساعة والوقت أمر بإجهار النداء بمكة المشرفة: من كانت له حاجة بالدقيق فليحضر إلى شونة أمير الحاج ويشتريه بخمسة وعشرين ديناراً مصرية من غير زيادة على ذلك، وفعل ذلك، وقِسْ عليه مثله في سعره من الأَصناف، وكان بشوشاً حليماً ذا أناةٍ وعفو وكرم نفس، وسماحة، وميل إلى عدم الظلم وإلى المحمدة وحب الثناء، وكان له بي وبوالدي عناية تامة، ورعاية عامة، وكان عليق جماله وخيوله ورواتبه في كل يوم نيفاً وستين أردباً من الفول، خارجاً عن الشعير، وحجّ الناس معه حجة هنيّة إلى الغاية، ولقد أمرني بمكة المشرفة أن أجلس بفسحة باب المدرسة الأَشرفية قايتباي من جهة المسعى، وأفرق على غلمانه وخدمته وجماعته ومَن يحويه المُهِمُّ الشريف من النقد الفضة عن ثمن الإحرامات برابغ الإحرام، تكرماً منه ففرقت لمن حضر ذلك في أول مجلس فوق الأَلف دينار ولم أَرَ غيره أجرى ذكر ذلك على لسانه فضلاً عن إعطائه.

وأتذكر أنه لما نزل بمنزلة خُلَيْص، وكانت الفسقيَّةُ بها قد جددت، وعمل عليها

قبّة لطيفة، وبيضت وكملت العمارة وإجراء العين على يد أمير جُدَّة من مالها، فجلس داخل القبة المشرفة على الفسقية التي هي منهل أهل الركب، وأمر بإحضار عدد وافر من السكر المكرر والبطيخ، فاستمر يرمي به للحجاج الواردة على الماء، فلما رأوا كثرة ذلك صاروا يرمون بأنفسهم في الماء بثيابهم، لأجل حصول ذلك، وهو مسرور بأفعالهم منبسط بما يبدو من أحوالهم، فلقد كان من محاسن الزمان، ومن أهل الجود والمكارم والإحسان، تقبّل الله تعالى منه وأثابه.

وتوفي في هذه السنة رجل من أعيان التجار الأعاجم وأكابرهم ينعت بصاحب الحجر، يقال: إنه كان عنده حجر من الماس، قيمته ست مئة ألف دينار من الذهب البندقي، وكانت وفاته بأَبْيَارِ العلائي، فدُفن بالقبة هناك بعد وصية أسندها إلى أمير الحاج، وفرق ذهباً كثيراً في حال وفاته على جميع حواشيه، وأوصى لأمير الحاج ولقاضي المحمل وشهوده بمبلغ معين، وللحكيم الرئيس نور الدين علي القوصوني، وكان صحبة الركب بمئة دينار من الذهب، وكانت عِلَّتُهُ الطاعون، أصابهُ بعد سفره، وخلف موجوداً كثيراً من النقود والقماشات العال المثمنة، البديعة النسيج، فتوجهت أحماله بخزمها إلى مكة المشرفة صحبة الركب، وأعيدت صحبته أيضاً بخزمها بحكم ورد من سليمان باشاه بأن تعود بختمها إلى القاهرة، فكان ذلك.

واتفق في هذه السنة أن سُرِقَ لأحد العسكر بمنى ليلاً جملٌ وعليه حمل من الأقفاص، فلما أصبح الركب حضر الشريف نجم الدين والدين أبو نُمَيّ بن بركات، أمير مكة إلى مخيم أمير الحاج للسلام عليه، فابتدره الأمير محمود (كيخيا) حضرته - وهو في الحقيقة (كيخيا) الباشا أستاذه - بكلام غليظ ملخصه: أن الحاج أحوالهم ضائعة، وأن في زمنك يضيع ويسرق من عسكر السلطان بمنى، فحصل للسيد الشريف من كلامه ما أوجب حدة الشرف، وسَلَّمَ وتوجه، فلما أصبح الحجيج في صبح الليلة الثانية إذا على الجمرة الأولى إحدى عَشْرَ نفراً من بني شُعْبَةَ أصحاب الشعور، مصلوبين صفًّا واحداً، وجهّز الجمل والأقفاص إلى الأمير بعينها، فإنه ركب وكبس عليهم بنفسه، ورأى الجمل بحمله معهم، فكان ما كان.

وفي هذه السنة كانت حركة مولانا السلطان سليمان لجهة العجم، ومحاربة ملكهم ابن الخارجي شاه إسماعيل الصفوي، وتوجهت أكابر الروم إلى جهة حلب.

وفي ثاني القعدة كانت وفاة قاضي القضاة محب الدين بن ظَهِيرة - رحمه الله تعالى -.

وفي هذه السنة حجّ القاضي بمصر المعزول بير أحمد الرومي، وكان قاضي لمحمل زكريا على عادته، ومطوف أمير الحاج الشيخ عبد القادر، عُرف بابن المزين الشافعي، وفي هذه السنة كُسيت الكعبة من داخلها وجَلَسْت في جوف الكعبة مع النجارين الذين يعلقون الكسوة من أول النهار إلى قريب العصر، وكان أَمير الشامي محمد بك الدالي الرومي، واتفق أنه جلس في دار الندوة لتفرقة الصرر الشامي على كرسي لطيف، علوه دون الذراع، محاذياً للقضاة، فألقى الله عليه النوم، بل يقال: إنه حُمَّ في المجلس فقام منه إلى آخر الزيادة، ونام هناك حتى فرقت القسمة بحضرة قاضي محمله، وبعض جماعته وعُدَّ ذلك من لطف الله بجيرانه وقمع المتكبرين.

وفي هذه السنة نادى الرئيس بزمزم بعد صلاة الجمعة والصلاة على أُمّ السلطان سليمان، لوفاتها في عام تاريخه، ولقبت بألقاب عظيمة لها ولولدها حالة النداء بزمزم.

وفي هذه السنة وصل صحبة الحاج الشامي الشيخ العلامة المسلك، العارف بالله تعالى علي بن أحمد بن محمد الكيرواني، الصوفي الحلبي، بنية الإقامة بمكة المشرفة.

وفي هذه السنة ولي قضاء مكة القاضي إبراهيم ابن قاضي المسلمين شهاب الدين بن ظَهيرة، الشافعي، وحجّ في هذه السنة ابن سلطان الشرق مبارك بن الشيخ راشد في نحو عشرة آلاف نفس وكانت الوقفة بالاثنين والحاج هنيئاً، وكان سفر أمير الحاج ليلة الثلاثاء ثاني عشر شهر الحجة.

سنة إحدى وأربعين وتسع مئة: كان أمير الحاج الجمالي يوسف الحمزاوي بعد أن كان تولى الأَمير سليمان أميراً على حاله، وشرع في عمل أكوار مزركشة زيادة على الأَول، وشرع في تجهيز الحمل إلى بندر الطُّوْر. فاتفق ورود عزل سليمان باشا عن ولاية الديار المصرية، وولاية خسرو باشا الذي كان نائباً بحلب الشهباء، عوضه وولاية الأَمير يوسف سنان الحمزاوي لإمرة الحاج، عوضاً عن سليمان، وكانت هذه الولاية من أَعظم النقم على الحمزاوي من سليمان باشا، فإنه كتم له ذلك مع أشياء تقدمت، وأشياء تأخرت، وعرض في قطع رأسه وولده كما يأْتي ذكر ذلك في محله، وكان مهم الركب الشريف في هذه السنة حافلاً جدًا فإن الأَمير يوسف الحمزاوي تلقاها عن الأَمير سليمان بقلب وعزم وهمّة، وقصد الشهرة بالزيادة عما تقدّم ذكره فاعتنى هو ووالده بأُمور المهم الشريف، وكان عدة الخيول المسافرة معه لنفسه مئة، منها كاملة اللبوس

الفارس والفرس باللبوس المنوعة والجواشن والْخُوَذ والزرد والعينات والمرافق ستون، وباقي ذلك بسروجها، وكان بصحبته من الخيول الأَصايل ما تظله سحابة تنصب له، ويطعم اللوز الغزي، ويسقي ماء الورد الشامي، عوضاً عن الماء، وأما تفننه في أنواع المأكولات والمشروبات والحلاوات الفاخرات فلا يضاهيه في ذلك أحد من أُمراء الدولة، وأتذكر أن والده الأَمير جانم الحمزاوي أملى من فمه أسماء أنواع من الحلاوات، ليقوم معلم الحلاوة بطبخها وتعبئتها لحماً القلب، فكان ما ذكره لي وعينه ستين نوعاً، ولقد عجبت من حفظه لأَسماءِ هذه الأَنواع وإِملائها سرداً من خاطره في وقت واحد، ولو سُئِل عن ذلك جماعة المعلمين المعروفين بعمل الحلاوات لم يأْتوا بالنصف من هذه الأسماء ـ رحمه الله تعالى ـ فلقد كان من نوادر الزمان عقلاً ومعرفة.

وفي تلك السنة أيضاً جلس الأَمير يوسف في قبة خُلَيْص المستجدة البناءِ، بدار المعشاة طلعة، فرأى كثرة الناس على ورود الماء والفسقية المذكورة في غاية الملءِ والتدفق، وحسن المنظر، فأَحبَّ أن يفعل ما تقدمه فيه الأَمير سليمان فأَكثر من السكر والحلوى والبطيخ، بحيث أنه رمى الرامي بالفسقية ما يُسْتَحْيَى من ذكره لكثرته، وصار يرميه بالبركة، وهم يتسارعون إِلى خطفه عراة وبثيابهم، فإِنَّ منهم مَن يرمي نفسه في الماء بثيابه ليسرع لملاقاة ما يرميه بالبركة قبل سقوطه في الماء، واستمر على ذلك إِلى غروب الشمس، وهو مسرور بما يفعل، مبسوط بما يصل إِلى الناس من ذلك، والعامة والرعايا يكثرون من الدعاء له ويمدون أيديهم نحوه لتلقِّي ما يسقط من ذلك، وهو يحادثهم ويمزح مع بعضهم، وهو معهم كأَحدهم، وأتذكر ما تحصّل لي من تكرماته وإِعطائه في تلك السنة، فلقد كان من نوادر الزمان كرماً وجوداً وشجاعة، ولقد وقف له شخص من الحجاج بالطلعة في درك بَني عَطِيَّةَ بالقرب من نَخْل، وذكر أنه سُرِق جمله، وعليه خرجٌ فيه زاده وأسبابه فسكت، ولم يعدْ له جواباً، ثم في تلك الليلة عين جماعة من الفرسان المشهورة، ووجههم سرًّا ليلاً لتتبع المفسدين، وأن يعملوا كميناً فما أَصبحوا إِلاَّ وقد حضروا بالجمل الضائع بعينه، بما عليه من الخرج والزاد كما ذكره مالكه، وتِسْعَةَ عشر رأساً من بني عَطيَّةَ، وشبانهم وفرسانهم على الرماح، ومعهم رواحل المقتولين من أَحسن الرواحل غنيمة، فأَمر بنصب الرؤوس على هدف بوادي القريص، وأَمر المنادي أَن يحضر صاحب الجمل، فلما حضر سلّمه جمله وخرجه بعينه، لم يضع منه شيء، وغنم الرواحل المحضرة، وأَجزل العطاء لجماعة العسكر المحضرين لها، وكانت هذه الحجة آخر حجاته، واشترى في تلك السنة بمكة المشرفة من العود العال، والصندل الذي كالصواري، ومن الأَحجار

والشاشات والتحف والهدايا بنحو الستين أَلف دينار مصرية، وظهر منه في تلك السنة همة عالية إلى الغاية، لكن لما خرج من القاهرة وهو بذلك الجمال والجلال، والقوة والمهابة وسعة المال، ولم يكن متصفاً بالخضوع، ولا متلبساً بنية الانكسار والذل والخشوع، إلاَّ لله عزّ وجل، ودخل مكة المشرفة بتلك الخيول والطبول، وصعد إلى عرفات المعظم على تلك الحالة، فمرّ بمنى، ونزل من منى وهو مضطجع في المحفة على حاله، وخرج من مكة على تلك الحالة، وكان عمه الشرفي يحيى الحمزاوي بنية المجاورة بمكة المشرفة، فخرج معه حينئذ من مكة إلى الينبع، ولما عوفي من ذلك المرض ابتلاه الله تعالى بضيق الصدر، وسرعة سوءِ الأخلاق، إلى حين انقضاءِ سفره، ولما وصل إلى القاهرة كان خسرو باشا قد تغير حاله على والده، وبحث عنه بحثاً كبيراً في سائر أَحواله، وطلب حساب مصروف الحج في تلك السنة، فكتب لهم ذلك، وتوجه هو ووالده هرباً من خسرو باشا وخشية من تمكنه منهما بالقاهرة، فطلبا التوجه صحبة مال الخزانة إلى الأَبواب السلطانية، وعادا بعد عزله صحبة سليمان باشا، وكانت وقائع وأُمور يطول شرحها.

وفي هذه السنة كانت وفاة صاحبنا الشيخ الصالح القدوة المعتقد أَفضل الدين رفيق الشيخ الصالح المعتقد علي البرلسي الخواص المنتقل بالوفاة قبله بسويقة اللبن من حارات القاهرة، وكان من عباد الله الصالحين، وكان الشيخ أَفضل يذكر عنه أَنه يعمل الكيمياء بقدر ما يحج به ويتصدّق، فقط لا يزيد عليه، وسافر بصحبتنا مراراً إلى مكة المشرفة، وفي هذه السنة كان معنا أَيضاً، وتوفي بمعشاة واسط فحملته إلى بَدْرٍ وحُنَيْنٍ، وتوليت تجهيزه ودفنه داخل البلد، وكان من المعتقدين وللقلوب إليه ميل وارتياح، وكانت له أَحوال منها أَنه كان يصبر عن شرب الماء الأَيام العديدة لا يطلبه، ويعرض عليه فيمتنع عن شربه، ويطرأ عليه في بعض الأَوقات أَنه يتكرر شربه للماء مراراً عديدة في وقت واحد ـ رحمه الله تعالى ـ.

وفي هذه السنة قُتِلَتْ زوجة الشريف ملك التجار شاه ببندر جُدَّة، على يد ثلاث جوارٍ سود يَخْدِمنها، وشنقوا الثلاث بالحبال، على سبيل البستان الذي بجانب بركتي المصري بالمِعْلاَة.

وفي هذه السنة توفي السيد الشريف عبد الله بن محمد البخاري إمام الحنفية، بمرض الفالج، وعمره نحو السبعين سنة، وكانت الوقفة بالجمعة، وقاضي المحمل الشيخ زكريا الأَنصاري، وقاضي محمل الشامي القاضي معروف الدمشقي، وكان سفر الركب في يوم الثلاثاء عشري شهر الحجة.

سنة اثنتين وأربعين وتسع مئة: عاد الأمير مصطفى كاشف الغربية لإمرة الحاج، وهذه ولايته الثانية، وحصل له في هذه الولاية، ولي معه مِحَنٌ وأكدارٌ من خسرو باشا، أراد هضم هذا المُهِمِّ، واختصاره جدًّا وقطع عوائده، وتغيير أحواله، وأمرني بذلك، فلم أوافقه على شيءٍ منه، لأن أُمور إمرة الحاج من شعائر الإسلام الظاهرة، وفي هضم أحواله واحتقاره، والإجحاف بقانونه ضرر كبير للأُمراء والخدمة والحجاج، ومَن سنَّ سُنَّةً سيئة فعليه وزرها ووزر مَن عمل بها إلى يوم القيامة، وكانت محن ووقائع يطول شرحها، إلى أن منَّ الله تعالى بورود حكم من السلطان بإجراء أُمور الحج على أكمل العوائد، وأتم القواعد، أجرى الله على يده ولسانه الخيرات، وألهمه نيل الجنات والمبرات، ولي في هذه الواقعة مقامة مخصوصة، ذكرت فيها شرح هذه القضية، وبعض ما اتفق في الأيام الخسروية، منها قولي مخاطباً لمن سألني عن انفرادي وقت السحر حيث خاطبني بقوله: (وما طرق سمعَك من الأخبار حتى درجت في الأسحار أخوف من غريم ملازم، وخصم غير مسالم؟ أم حادثة تدْهِش، مَن قاسم المفتِّش؟ أم مظلمة وفية من المظالم الخسروية، أم طارق شيطان، أم خوف سلطان، فإنَّ اهتمامك بالبكور في هذا المحل، يخبر بأمر قد جلَّ، واعتناؤك بالانفراد، يدل على خاطر تيّمه البعاد)، فقلت: ليس الخبر كالعيان، ولا احتياج إلى الإنباءِ عن حوادث هذا الزمان، أو مَا تشاهد في هذا العصر، ما كثر عن الحصر، أم خفي عنك فعال هذه الدولة، وما حدث من الأُمور المهولة، وجور هؤلاء الحكام، وما تجدد من الأحكام، وتمسكهم بالقول الزور، واتصال جورهم إلى الأموات في القبور، ودهمتهم على المقام (الخنداكاري) فيما يكتبون، ونسوا أنهم إلى ربهم راجعون، واختلاف المغربي قاسم، وما انفرد به من قبائح المظالم، وبحثه عن البدع الخفية، والقيادة للفرنوي والطائفية، أسَرَّتْك أقوالهم، أم بَسَرت عندك أفعالهم، أما كان الناس في أمان، لا يتلاشا، في مدة ولاية سليمان باشا، وبعده عن المساوىء، وموافقته للأمير جانم الحمزاوي، سالكاً طريق العدل والإنصاف، لا يعدل عن الجماعة ولا يلوي إلى الخلاف، يسأل عن العوائد ويؤكدها، ويميل إلى المحاسن ويجددها، قد نوّر الله بصيرته، فاتضحت له الأُمور على أحسن أحوالها، وجلا عنه غياهب الشكوك فلم يعبأ بالوشاة ولا بأقوالها، مُبْعد لكل كذاب مهين، همّاز مَشَّاءٍ بنميم، منّاع للخير معتد أثيم، قامعاً لكل مبتدع ومخالف، سائلاً عن كل عمل جميل سالف، معظِّماً لشعائر الله فإنها من تقوى القلوب، عاملاً فيها بمهمته جارياً على أحسن أسلوب، وما شوهد من اهتماماته بأُمور الحج إلى بيت الله العتيق، وتوسعته

على أُمرائه وإزاحة أَعذارهم لِسَوَاء الطريق، واهتمامه بأُمورهم أَتم اهتمام، والأَمر بما فيه تعظيم هذا الْمُهمّ فتبجيله على الدوام، وتجديد العوائد به على أَكمل أَحواله، وعدم النظر إلى ما أَنفقه عليه من ماله، حتى ذكرت محاسنه ما مضى في غابر الأَزمان، وأَثرت حسناته في جنان كل إنسان، وهو مع ذلك يرى أَنَّ أَفعاله قاصرة، ويرغب إلى الله تعالى في كمال التوفيق لأُمور الدنيا والآخرة، ولو لم يكن سوى تعطُّفه على الرعايا، وأَخذه بالرفق والإنصاف في الأَحكام والقضايا، وتفقُّد أَحوالهم في كل وقت وآن، ونقلهم إلى ما يزيل عن قلوبهم الغبن والران، وموافقته لكل ذي رَأْي مصيب، وأَخذه من أَحاسن المحاسن بنصيب.

مَلَكَتْ مَحَاسِنهُ الْقُلُوبَ وأَكَّدَتْ ... فِي كُلِّ قَلْبٍ حُبَّهُ ومُنَاهُ
مَلِكٌ إِذَا مَا سَلَّ صَارِمَ عَزْمِهِ ... فَهُوَ الْهُمَامُ ولَيْسَ ثَمَّ سِوَاهُ
خَضَعَتْ لِسَطْوَتِهِ الأَنَامُ وَعَدْلُهُ ... فَالأُسْدُ فِي غَابَاتِهَا تَخْشَاهُ
أَحْكَامُهُ قَدْ أُيِّدَتْ وَزَمَانُهُ ... عَيْنُ الزَّمَان وَرَبُّنَا يَرْضَاهُ
عَمَّتْ رَعَايَاهُ مكَارِمُهُ وَقَدْ ... طَرِبَ الْوُجُوْدُ بِهِ وَمَا أَبْدَاهُ
مَا مَسَّ مَيْتَ الْفَقْرِ يَوْماً جُوْدُهُ ... إلاَّ وَنَالَ مِنَ النَّوال شِفَاهُ
إِنْ رُمْتَ شَرْحَ نَوَالِهِ وصِفَاتِهِ ... فَنِيَ الْمِدَادُ وَكَلَّتِ الأَفْوَاهُ
هذا (سُلَيْمَانُ) الْعَلِيُّ مَقَامُهُ ... و(الْجُنْدَكَار) وَفَى بِمَا يَهْوَاهُ
وَجُنُوْدُهُ سَادَتْ بِحُسْنِ صِفَاتِهِ ... وَسِمَاتُهَا ذَلَّتْ لَهَا الأَشْبَاهُ
وَهُوَ الْمَقَامُ الْكَافِلِيُّ بِأَمْرِهِ ... يَا رَبُّ وَالِي مُخْلِصاً وَالاَهُ
وَأَعِدْ لَنَا أَيَّامَهُ وَمَقَامَهُ ... وَأَفِضْ مِنَ الْخَيْرَاتِ نَحْوَ رُبَاهُ

ولم تكن أَيامه إلاَّ منام أَضغاث أَحلام، وإذا بليل خَسْرو باشا قد عسعس، عن ذلك الصبح إذا تنفس، وبينما الناس في عِزٍّ لا يُهان، إِذْ قيل: عُزِل سليمان، فكان أَشدَّ ما ورد على القلوب من الخطوب، وأَحرق على الفؤاد، من قدح الزناد، وتباكت لفقده العامة والخاصة، وآثروه بالدعاء على أَنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، فلا تقل الرعايا ودعته، ولكن قلوبها ودعته، ورحل سليمان بجنوده، وأَقبل خسرو، بوفوده.

فَلاَ والـلّهِ مَا نَظَرَتْهُ عَيْنِي ... ولٰكِنْ حَالَ فِي الْمَعْنَى قَتَامُهْ

فَمِنْ ثَمَّ تقاحمت الكروب على القلوب، وتعاظمت الهموم والخطوب ـ إلى آخر ما ذكر في المقامة من تعداد مَاجريَّات زمنه التي هي على غير الاستقامة ـ وانتدب قاسم المغربي المفتش في ولايته لإيذاء الخاصة والعامة، وفي سرد هذه المقامة تطويل

فلنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول: واتَّفق أَن خسرو باشا لما شدّد في اختصار أُمور المهم فكأَنه فتح للمرحوم مصطفى باشا باباً دخل منه إلى توفير ما أَراد من ذلك، وسلك بواسطته إلى هذه المسالك، فإن الباشا نكل به، وحبسه بالبرج بالقلعة بعد أَن أَمَرَ بتكتيفه، وزَأَرَ فيه ونهره، وكانت تلك الوقائع بسبب الفحص عن أَحوال الأَمير جانم الحمزاوي، فإنَّ منها أَنه تولّى إمرة الحاج وولده يوسف خمس سنوات، ولم يظفر من ذلك بطائل، والله تعالى غالبٌ على أَمره، وقد أَرقدهم الموت جميعاً، وصاروا إلى التراب، وتعرض قضاياهم في يوم السؤال والحساب على رب الأَرباب.

وفي هذه السنة ثامن ربيع الأَول وصل إلى مكة قاضي الشافعية الجديد الشيخ عبد المعطي باكثير الحضرمي اليماني، وهرع الناس للسلام عليه، وسمي (قاضي بدعة) ولم يستقم له حال القضاء بعد ذلك، فإنه أَبطل ما كان يعمل ليلة المولد بمكة من زفة المولد النبوي، والخروج إلى محل المولد بالشموع المفرعات والأَعلام والذكر، وذكر أَن ذلك بدعة مع أَن بعض العلماء أَفتى بعمل هذه الزفة، وأَنه يجوز فعلها لتعظيم المولد الشريف، وقال الشيخ الجنيد المشرع: الأَولى أَن تسمى هذه الزفة سرور المسلمين بمولد سيد المرسَلين.

وفي هذه السنة في عاشر جمادى الأُولى يوم الجمعة وصل إلى جدة ستّة مراكب من بلاد الهند، في غير أَوان السفر منها فإنه يقال: إنهم يخرجون من الهند في العشرين من النيروز، والعادة في السبعين منه فتعجب التجار من ذلك، وسببه لطف الله تعالى، وسلامة أَهلها، وذلك أَنَّ سلطان كنباية وابن سلاطينها بهادر شاه بن مظفر شاه بن محمود شاه أُخذت غالب مملكته على يد سلطان الهند هامون بن بابر صاحب دلي، ويقال: إنه من ذرية تمرلنك الطاغية، وهرب السلطان وريثه إلى الديو بعد دخوله إلى تخت مملكته سابير، وأُخذت غالب تحفه منها من الجواهر والنقود، وأَتلف ما فيها، وأَشحن ما أَخذه في هذه المراكب وغيرها، وأَركب فيها، ومنها زوجته وجماعة من أَهله وخواصّه وعسكره نحو أَلفي نفس، صحبة وزيره عبد العزيز بن حميد الملك الملقب بـ(آصف خان) فَنُجّلت المراكب في الفرضة السلطانية، وذكر أَن فيها ثلاث مئة وخمسون صندوقاً من التحف والنقد الذهب المضروب وغيره، وفتح بعضها فوجد فيه سبعة آلاف دينار، وفي بعضها عشرة آلاف، فوضعها نائب جدة في حواصل الفرضة، ومنعهم من الوصول إليها، حتى يأْتي جواب من (الخندكار) أَو من نائبه بالديار المصرية، لكثرة ما رأى من النقود التي هالته، ومن جملة ذلك حياصة مكللة بالجواهر الثمينة، عينت للسلطان سليمان، وسيف مثمن

لنائب مصر، وغير ذلك للوزراء وأَركان الدولة، وصاحب مكة، ولم يمكنهم نائب جدة إِلا من الدبش والفرش، وعملوا فيه ما أَمكنهم من الفرصة لمعرفتهم بعملهم في بلادهم من أَركان دولتهم، فكان الجزاء من جنس العمل، ودخل (آصف خان) مكة في خامس عشر الشهر، واستأْجر منازلاً بمكة له ولعياله ولعيال سلطان الهند منها ما هو بثلاث مئة دينار، وما هو بمئتين، وما هو بمئة، وهرع الناس للسلام عليه ومهاداته، وجازاهم على ذلك.

وفي هذه السنة صلّى السيد حسين بن أَبي بكر بن إِبراهيم البيساني الخواجا ولد أُخت القاضي تاج الدين التراويح بالناس في شهر رمضان.

وفي هذه السنة كانت وفاة القائد جوهر المقري قتلاً، ووصل صحبة أَمير الحاج حكم من الباشا بمصر لإِطلاق (الخندكار) لأُمور الهند، وإِكرام (آصف خان)، وكان قاضي المحمل في هذه السنة رضي الدين الدهانة، وأَمير الشامي قاسم الرومي نائب البيرة، وكانت الوقفة الثلاثاء، وفي هذه السنة كانت وفاة إِبراهيم باشا قتلاً من السلطان.

سنة ثلاث وأربعين وتسع مئة: كان أَمير الحاج مصطفى باشا وهو كاشف الغربية على حاله.

وفي سنة ثلاث وأَربعين كانت وفاة السلطان بهادر خان بن مظفر بن محمود شاه الدالي الكجراتي على يد الفرنج المخذولين في ثالث شهر رمضان، فلما سمع بذلك نائب جدة حضر إِلى آصف خان وزيره وتكلم معه في الختم على حواصل مال السلطان بهادر شاه، ويترك جماعة من الأَروام للحراسة حتى يصل أَمر من السلطان سليمان بما يفعل به، فقال له الوزير: خُذِ المال عندك، ولا يجلس أَحدٌ من الأَروام عند عيال السلطان بهادر، ففرح بذلك نائب جدة، ونقل ذلك على جمال أَحضرها إِلى سكنه بالقصر عُلُوّ باب إِبراهيم، وعدة الصناديق مئتان وخمسون، وقال الوزير: إِنه يُصرف منها بإِذنه سلطانه على عياله مئةُ صندوق، ومنها هدية (الخندكار) وغيره فيقال: إِن في كل صندوق سبعة آلاف من الذهب كل أَلف بأَربعة آلاف، وأَن نائب جدة وزن الجميع فجاء وزنها مئة وخمسة وعشرين قنطاراً، وأَن جملة ذلك سبعة لكوك.

وفي هذه السنة أُشيع عزل قضاة مكة والمدينة ـ أَولاد العرب ـ وولاية قضاة من الروم، وكان قاضي المحمل في عام تاريخه رضي الدين بن الدهانة وأَمير الشامي

محمد بك بن سنان باشا، الذي كان أَمير الحاج في عام اثنين وثلاثين، ووصل صحبته قاضي مكة الجديد، وهو القاضي مصلح الدين مصطفى بن إدريس الرومي، وكان قاضياً بحلب، ونقل منها إلى مكة، وهو أَول ولاية قضاة الروم ورتب له في كل عام أَلفاً وخمس مئة دينار من الذهب الجديد، وستون إردبًّا من القمح، وكانت الوقفة يوم السبت والحج هنيئاً، والأَسعار رخية، وسافر الركب المصري في يوم الاثنين ثامن عشر الشهر، وكانت إقامته بمكة عشرين يوماً، وسافر مع الركب المصريّ آصف خان وزير الهند، والشيخ محمد البخاري إمام الحنفية قاصداً للديار المصرية.

وذكر العلامة ابن فهد في تاريخه أَن في هذه السنة وقع الطاعون في بلاد بجيلَة، ووصل إلى العقيق وما حولها من بلاد الطائف حتى خلت بعض القرى، وصارت أَغنامهم ومواشيهم للورى، كما اتفق ذلك في تمام مئة سنة هنالك، وخشي أَهل مكة من دخول الطاعون وكذلك أَهل المدينة، وهما آمنان بإخبار سيد المرسلين من دخوله، وحجّ في العام الماضي قاضي العسكر المنصور رابع جلبي، وجاور بمكة في عام ثلاث وأربعين بالمدرسة المظفرية المجاورة للرواق اليماني من المسجد الحرام.

وفي يوم الثلاثاء سادس عشري شهر الحجة كانت نصرة السيد الشريف أَبي نُمَيٍّ صاحب مكة على الشريف عامر بن عبد العزيز أَبي الغواير أَحمد بن دُرَيْب بن خالد بن قطب الدين الحسني صاحب جازان.

سنة أربع وأربعين وتسع مئة: كذلك، وفي هذه السنة في شهر ربيع الثاني كان وصول الأَمير جانم الحمزاوي إلى الينبع لتسليم الخزانة الهندية من نائب جدة، والتوجه بها إلى القاهرة، وكان توجهه من القاهرة في ثاني عشري ربيع الأَول، وصحبته عسكر مجرد، وبعض حجاج من طريق البر، وتوجه إلى المدينة الشريفة للزيارة قبل دخول مكة، وكان وصوله إلى الزاهر عصر يوم الثلاثاء تاسع عشر الشهر فخرج لملاقاته السيد أَحمد بن أَبي نُمَيٍّ، وأَكابر مكة، وعمل له الشريف سماطاً في منزله، وهاداه، وجهز إليه نقداً، يقال عشرة آلاف دينار، وأَربعين جملاً، ولم يدخل نفسه في قضية من قضايا مكة، وتردد بجماعة من العلماء والصلحاء، وتسلّم الخزانة الهندية من مصطفى نائب جدة، وكان توجّه بها إلى جدة ثم ردّها إلى مكة عند سماع وصول جانم الحمزاوي لأَجلها، وتركها بالمدرسة الأَشرفية قايتباي، فلما قبضوا بعض الصناديق وجدوها مختلفة الوزن فقال له الأَمير جانم: دعها في تسلمك حتى تصل بها إلى مصر وإلى باب السلطان، واعزم بالعسكر صحبتك، وأَمره بالتجهيز لذلك، فشرع

في بيع موجوده إلى أهبة السفر، وكثرت الشكوى منه عند الحمزاوي بما لا يفيد، ثم أحضر العود الهندي بعد أن اتهم بعض المماليك بسرقة جانب منه وقُبِّنَ، فجاء حملاً ونصف حمل، وفضل منه ثلاث قطع وزنها ألفُ مَنٍّ بنحو سبعة آلاف دينار، فحمل إلى المدرسة الأشرفية عند الصناديق وعدتها مئتان وخمسون كل اثنين منها حمل، وبرزت الصناديق في سابع الشهر إلى المعلاة، ودخل في ثامنه إلى الديار المصرية.

وفي هذه السنة كانت وفاة والدي ـ رحمه الله تعالى ـ بعد تمرُّضه بالفالج مدة مديدة في رابع عشر القعدة من السنة، وكان انقطاعه عن الحج متمرضاً نحو السنتين.

وفي آخر ليلة من هذه السنة كانت وفاة الأمير جانم الحمزاوي وولده يوسف معاً، ضُرِبَتْ أعناقهما في الليلة المذكورة وقت الغروب بالقلعة بأمر السلطان، وعروض سليمان باشاه، وملخص السبب في ذلك أن المذكورين لما تمكنا من المملكة المصرية وصار لهما الأمر النافذ بها، ومعظم ذلك في ولاية سليمان باشا، فكان الأمير جانم، ربما يعرض للباب منكراً على سليمان في أمر من الأُمور، ولا يَتَّقي العاقبة، ثم إنه كان من جملة مَن مشى في عزله وولاية خسرو وولاية ولده الحج عوضاً عن سليمان (دوادار) سليمان باشا، ولما وقع ذلك كان خسرو باشا المطلوب أكبر الأعداء لجانم، ولكن لم يتمكن منه فكان أمر سليمان باشا، وجانم كقول القائل: مَن حفر لأخيه المسلم قَلِيْباً، أوقعه الله فيه قريباً، وخرج سليمان باشا من القاهرة وهو من الحنق من الحمزاوي إلى الغاية، فلما توجه الأمير جانم إلى الباب في ولاية خسرو باشا، كما ذكرنا، خوفاً من دخوله في قبضته بالقاهرة كان من جملة تدبيره أنه ذكر للسلطنة أمراً بداله، وحسَّنَ لهم تجهيز عمارة كبيرة من نحو السويس، لأخذ بلاد اليمن والهند، وأن يكون القائم بتدبير العمارة والسفر معه سليمان باشا، وتولى سليمان ثاني مرة، وجاء معه جانم الحمزاوي، وهو من أعيان (الصناجق) والمدولب للعمارة المتوجهة للهند واليمن ودخلا القاهرة بعد خروج خسرو منها في غاية من المهابة والحرمة، وزينت لهما القاهرة وكان يوم دخولهما يوماً مشهوداً، وكنت بصحبتهما من طريق الشام، لأمرٍ اقتضى خروجي من الوطن للأقطار الرومية، فلم يتفق لي التوجه من الشام، ورجعت منها مع المشار إليهما على حالة مكرمة ـ رحمهما الله تعالى ـ.

وحين دخلا إلى القاهرة أخذ جانم الحمزاوي في التدبير، فأول ما دبّر جانم الحمزاوي أنه مشى مع سليمان باشا في التفتيش على قاسم المفتش، وشنقه بباب زويلة ـ وقاسم هذا كان من أخِصَّاءِ جانم الحمزاوي ومن الملازمين لمصاحبته ليلاً

ونهاراً ـ فلما تولى خسرو باشا مملكة الديار المصرية وكان بينه وبين قاسم المغربي صلة كبيرة، لما كان بحلب، فانضم إليه وصار خصيصاً به، وسعى حينئذ في بعد جانم الخمراوي وصار من كبار أعدائه لأنه كان صديقاً له، ومشارفاً على أحواله في أُمور المملكة فكان كما قال القائل:

إِحْـذَرْ عَـدُوَّكَ مَـرَّةً واحْـذَرْ صَـدِيْـقَـكَ أَلْـفَ مَـرَّهْ
فَـلَـرُبَّـمَـا انْـقَـلَـبَ الـصَّـدِيـقُ فَـكَـانَ أَخْـبَـرَ بِـالْـمَـضَـرَّه

فأوقع سليمان باشا القبض على قاسم المفتش. وكان ناظراً على نظار الأَوقاف بالديار المصرية، ثم أُضيف إليه زمن خسرو باشا أن كان ناظر الأموال في غيبة جانم الحمزاوي في بلاد الروم عوضاً عنه. ثم فتش عليه وتكرر إجهار النداء بالقاهرة لمن ظلمه أَو بلصه يحضر يَدَّعِي، ثم بعد أَيام يسيرة صلب بباب زُويلةَ بثيابه وعمامته، ويقال: إن قاسم المذكور كان بواباً قديماً بحلب في خدمة كاتب السر ابن أَجا هكذا قيل، واستمر بعد ذلك سليمان باشا، وجانم الحمزاوي في عمل المراكب الحربية بالسويس، وتجهيز آلاتها وآلة الحرب ومؤونة العسكر، وقبض الرجال من الرعايا والفلاحة للمقاديف، وحصل بسبب ذلك غاية الضرر للإقليم والرعايا المفرط، إلى أن قارب الأمر الفراغ، وتأهب سليمان باشا، وجانم الحمزاوي وولده للسفر في المراكب، فلما تحقق الحمزاوي ذلك ندم حيث لا ينفعه الندم، ودبّر في عدم سفره، وأنه يستمر بالقاهرة، ويسافر سليمان باشا بمَن معه من الأُمراء والعسكر إلى الهند، وكتب عروضاً سرًّا يذكر أنه صار شيخاً كبيراً عاجزاً، وأَنه لا يقدر على حركة البحر الملح، وطلب الإِذْنَ بالإقامة بالقاهرة، وكان تدميره في تدبيره، فاتفق أَنَّ أَحد أَعيان جماعة سليمان باشاه كان راجعاً من الباب السلطاني إلى القاهرة إِذْ وجد (أَولاق) الحمزاوي متوجهاً فلما حققه قبض عليه وعلى ما في يده من العروض، وأَتى بهم إلى أُستاذه سرًّا، فلما تحقق سليمان باشا مخامرته عليه في السفر، بعد أن كان هو السبب فيه أَثار غضبه، وحرك ما كان كامناً عنده، وكتب عروضاً سرًّا في الحط عليه بما يختار، فعاد إليه الجواب أَن يفعل به ما يختار بنفسه، وقبض عليه بعد أَن طلب ولده يوسف بالحيلة، وقطعت رأْسه بمنزل سليمان (دوادار) وبحضرته، وكان جالساً يلعب معه الشطرنج في أَكمل هيئة، وأَجمل زيٍّ، ولم يعلم أَمر الأَقدار ثم جيءَ بالرأْس إلى جانم الحمزاوي، وهو بمحل بالمقعد السلطاني، فرآها ليكون ذلك أَشد حسرة له، ثم قطعت رأْسه وسُلِخَا جميعاً وحُشِيَا بالقطن، وعلقا على باب زويلة، وسُحبتْ جثتهما بحالة الهوان بعد العز إلى الحوش فحملا في المزابل إلى تربة ملك الأُمراءِ خاير بك، ليغسلا فغسلاً وكفنا، وأُعيدت رُؤُوسهما بعد إِشهارها بباب زويلة

إلى الجثث، ودفنا بالتربة التي أنشأها جانم الحمزاوي بالقرافة داخل باب الإمام الشافعي رضي الله عنه وزالت عنهما تلك العزة والوجاهة، وصارا أحاديث.

وهكذا تَقَلُّبُ الدنيا بأهلها، فسبحان الفعّال لما يريد، ومن الاتفاق العجيب أن في يوم مستهل المحرم سنة خمس وأربعين وهو صبحية الليلة التي قتلا فيها اتفق وصول الركب الشريف من الزيارة إلى الينبع، فكنت أول الركب وصولاً، فسألت أهل القرية عما ورد من أخبار الديار المصرية، فأجابني إنسان بأنه سمعنا يوم تاريخه من إنسان جاءَ من ينبع الساحل، وأخبر أن جانم الحمزاوي وولده قتلا، فحدثت بذلك أمير الحاج مصطفى فقال لي: مَن جاءَ بهذا الخبر لعله من أكاذيب العامة، فلما كان الركب ببين الْجُزْفَيْنِ عشيَّةً، وهي الليلة التي يصبح فيها الركب عنها بعقبة أَيْلَةَ، طلبني أمير الحاج، من محلي، فجئت إليه فقال: ما ذكرته لي بالينبع قد صحّ خبره، وهذه المكاتبات والقاصد فقرأتها فإذا قتلهما في تلك الليلة المصبحة لدخولنا الينبع، وبين التاريخين عشرون يوماً، ومن القصاص العجيب، وتصرف الدنيا بأهلها أن الأمير جانم الحمزاوي كان سبباً لقتل القاضي شرف الدين الصغير، صاحب ديوان المملكة المصرية، وولد أخيه القاضي منصور وجماعته، وسألته أُمُّ القاضي منصور أن يهب لها وَلَدَهَا ويعفيه من القتل لكونه شابًا ولا ذنب له عنده، فامتنع فقالت: أراك الله في ولدك ما أريتني في ولدي!! فكان كذلك فإنه قُطِعتْ رأس ولده قبله ثم حُملت إليه وهو في الترسيم بالقلعة حالة قتله فرآها ثم ضُربت عنقه ثم وقع بعد عود سليمان باشا من الهند وزيراً أعظم تخاصم وترافع بين خسرو باشاه، وسليمان باشاه وهو إذ ذاك وزير أعظم بالباب السلطاني فغضب عليهما السلطان، وماتا أشرَّ موتة بالروم، وكان سليمان باشا أسوأ حالاً في موته من الآخر، فإنه سُلبَت نعمته وماله جميعاً، ونفي إلى أضيق بلد ومحل مات به طريداً فريداً حزيناً كئيباً بعد مدة يسيرة.

ولنرجع إلى أخبار الحاج فنقول: وكان ركب الحاج في هذه السنة قليلاً، وأمير الشامي خسن بك الرومي، نائب عجلون والصلت من أعمال دمشق الشام، ووصل في هذه السنة صحبة الحاج الشامي وزير سلطان الهند مظفر شاه المدعو آصف خان واصف من الروم وزار القدس والخليل، وصحبته إمام الحنفية السيد محمد البخاري، والشيخ العلامة تقي الدين بن فهد، وهرع أهل مكة للسلام على الوزير ورتب للوزير من مال الجوالي في كل يوم من الفضة مئة نصف، وكانت الوقفة يومَي الأربعاء والخميس للخلاف في أول الشهر، وأُبيعت الأقوات بأسعار رخية، وأقام الناس بمنى ثلاثة أيام وهم آمنون، وتوجه الركب من مكة يوم الأحد تاسع عشر الشهر.

سنة خمس وأربعين وتسع مئة: وفي هذه السنة كانت وفاة السيد عبد الله السمهودي قاضي المدينة الشافعي وهو أَول قضاة الروم، فوليها شخص منهم يسمى محيي الدين بن حليم أُغْلِي الحنفي قاضي طرابلس، وكان وصوله مع الحاج الشامي، قال صاحبنا الشيخ جار الله بن فهد القرشي في تاريخه الذي ذيله على ذَيْل والده لتاريخ جَدِّه «إتحاف الورى»: واتفق في صبح يوم الثلاثاءِ رابع عشري الحجة عام خمس وأَربعين واقعة لأَمير الشامي شنيعة، مع صاحب مكة السيد أبي نُمَيٍّ الحسني، وملخص ذلك أن أَمير الشامي قبض هلمان بن محمد بن علي بن نصر القائد الذي كان والده وجدهُ قُصَّادَ صاحب مكة للديار المصرية بسبب أَنه وجده في شِعْب النُّور بالمعلاة، وفي يده شمعتان لقطهما من الأَرض، وادَّعى بعض الأَروام عليه أَنه سرقهما مع أَسباب له ليلاً، وذهب به إِلى أَمير الشامي فتهدده بحضرة قاضي حجهم، فقال لهم: لا تحملوهم حوائجكم هي في دَرَكي ودرك أُستاذي، وتحضر إِليكم فقال له: قد اعترفت بها فأَمر أَمير الحاج بوضع الزنجير في عنقه فبلغ ذلك على الجنيدب الوالي، فجاءَ لأَمير الشامي وقال له: هاذ من أَكابر قواد صاحب (الصنجق) فتهدده وضربه فخرج من عنده، وتوجه إِلى سيده أَبي نُمَيٍّ بن بركات، وأَخبره بالواقعة، فأَرسل لأَمير الشامي القاضي تاج الدين بن يعقوب المالكي. فاجتمع به في مدرسة قايتباي فأَغلظ له في القول، وتهدّده بقتل الممسوك عنده فلم يمكنه جوابه فقام من عنده، وتوجه إِلى مرسله السيد أَبي نُمَيٍّ، فبلغ عسكره ذاك فاجتمعوا عند بابه من القواد وغيرهم، وصار الشريف أَبو نُمَيٍّ مُجْبَراً في أَمره، فأَرسل إِليه ثانياً القاضي إِبراهيم بن ظهيرة الشافعي، ثم أَرسل بعده قاضي مكة المعزول مصلح الدين الرومي، وتكلما عنده في إِطلاق المحبوس عنده، ويجتهد الشريف في تحصيل حوائجهم فلم يقبل ذلك، فاتفق أَنَّ بعض حاج الشام قبضوا على عَبْد سرق لهم سرقة، وأَرادوا شكايته إِلى حاكم الشريف القائد مرشد الحسني، فتوجهوا به إِلى أَجياد حارة سيده، فضرب الماسكين له عَبِيْدُ الشريف مُرْشد، وخلصوا العبد منهم فهرب أَخصامه، وتبعهم بعض العسكر إِلى جهة المسعَى، فوجدوا أَمير الحاج الشامي في المدرسة الأَشرفية فكبّروا عليه وأرموا بالحصَى من المسجد والمسعى، وبأَيديهم الرماح والسيوف مسلولة، وأمر أَمير الحاج أَن يرموا عليهم بالنفط، فأَرمى بعض الرماة بندقته فأَصاب بعض القواد قتله، فحينئذ سَطَا عسكر الشريف على قتل مَن وجدوه من الأَروام سواءَ كان عسكراً أَو حاجًّا فقتل منهم انكشاريين، وتاجر رومي دلال، وغيرهم نحو السبعة أنفار، ومن بني حسن يقال شريف وقائدان، فسمع السيد أَبو نُمَيٍّ

بالواقعة، وهو بمنزله فأرسل السيد أحمد لإخماد الفتنة وردّ العسكر، فصار يضربهم بعصاة في يده، وهو راكب على فرسه، وأراد بعض الأروام أن يرميه ببندقة فحذّره بعض المجاورين فأحرف فرسه فجاءت البندقة في عبده وسلّمه الله، وانطفأت بِرَدِّ عسكر أبيه، ثم إنَّ أباه أرسل القاضي تاج الدين المالكي، وقاضي الحنفية الرومي، وحذّروه وقوع الفتنة فوجدوه في (الوطاق) فبالغ معه القاضي الرومي، وقال له: نيتك تخرب البلد وتهلك الحاج بفعلك، فذل وأطلق الممسوك عنده كرهاً، ولولا سياسة صاحب مكة برد عسكره وإطفاءِ الفتنة لهلك كثير من العباد، وبعد ذلك أرسل أبو نُمَيٍّ عدة فرسان بخيولهم إلى جهة الوادي وجدة لحفظ الطرقات، وكان شيخ العرب ابن طراباي بالشام، فوجه بجماعة من الحاج إلى الوادي لضيقهم من طول الإقامة، ورحل أمير الشام في يوم الجمعة سابع عَشْرَي الحجة قبل صلاة الجمعة، وصحبته قاضي مكة المعزول مصلح الدين بعياله وحريمه إلى الروم، ثم إن صاحب مكة السيد أبا نُمَيٍّ جهز ولده السيد أحمد، وعمره نحو سبعة عشر سنة للسفر إلى جهة القاهرة ليلحق سليمان باشاه في الينبع، ويكون بصحبته إلى الأعتاب السلطانية فخرج من باب الشُّبَيْكة بعد سفر الشامي بيوم، ومعه القاضي تاج الدين المالكي، والقاضي إبراهيم بن ظَهِيرة، ووزير صاحب الهند آصف خان، وجماعة من الأشراف، وقواد أبيه وغيرهم من العسكر، وجعل أُموره إلى القاضي تاج الدين المالكي، والشريف عرار بن عِجْلِ النَّمَوِيّ، وأشار الشريف علي القاضي إبراهيم بعدم السفر لكون خصمه عبد اللطيف بن أبي كثير تقدّم للسفر إلى الروم خوفاً من وقوع الخصام بسبب القضاءِ فذكر إنما قصده مرتباً في الجوالي لا المنصب.

وفي هذه السنة جَدَّتْ عدة بساتين بعرفات على يد جماعة من الأقوياءِ كالأمير يحيى الحمزاوي وصندل السليمي شيخ الحرم، والزيني مصطفى المنشوي نزيل مكة وشاد العين، فحصل الضرر بسد الطرقات بمناخ الحاج، وهم أول مَن أحدث البساتين فيها، وتملّك عينها ما عدا بساتين ابن عامر التي ذكرها الفقهاءُ في مناسكهم، ولم تكن في محطة الحاج ومنازلهم، وهذه البدعة كمثل أرض منى وما حدث فيها من بناءِ الدور والخانات والبساتين والأحوشة مع ضيقها ومشاهدة الآية في اتساعها.

وفي هذه السنة يقال: تكلّف الشريف لسليمان باشا من النقد والجِمال والخيل والمأكولات أزيد من خمسين ألف دينار، ووزع بعضها على أركان دولته، وأرضوه خفية، إلا وزيره محمد بن أبي علي فتيبِّس، فَأُشيع أنه جعل عليه خمسين ألفاً أشرفيًا ثم نزلت إلى عشرين بعد أن مسك عبده سعد الزنجي (خازنداره)، وضربه ضرب

التلف ليدله على نقد سيده فلم يفعل، ثم اتفق الحال على تسليم اثْني عشر أَلفاً ديناراً معجلة، وثمانية آلاف مؤخرة، وعزل محتسب مكة محمد النقرة، ورد المحتسب الذي كان قبله، وهو علي بن المهتار، بمبلغ ستة آلاف دينار ـ على ما يقال ـ وجعل على الدلالين في جميع المبيعات أَربعة آلاف أَشرفي، وعلى القبانية أَلف وخمس مئة، وعلى دلالي الرقيق خمس مئة دينار. انتهى.

وكان أَمير الحاج الشريف المصري مصطفى كاشف الغربية على حاله، وهي السنة السادسة من ولايته، وفي هذه السنة أَمر داود باشا بقتل الأَمير حجازي بن بغداد، وأَسرَّ ذلك للأَمير مصطفى كاشف الغربية، واتفق أَنني توجهت إِلى داره وقت الظهر، وكان مضطجعاً فقال لي: ما سمعت من الأَخبار؟ فأَجبته: سمعت بعض العامة ملهج بأَن الباشاه داود يريد قتل ابن بغداد أَمير عربان المنوفية، وكنت في ذلك اليوم سمعت ذلك حالة توجهي إِليه، فجلس وأَظهر الإِنكار لقول العامة، وحصل عنده من ذلك شيء، فلما جئت إِلى منزله في اليوم الثاني وجدته قد توجه ليلاً إِلى الغربية، وعمل الحيلة في قتله، وذلك أَنه أَراد عزومته، وعمل الضيافة له بطريق الصداقة له، والمحبة، فشرع في مدة عظيمة ورتب جماعة الطبَّاخين لذبح الأَغنام، وعمل ذلك فجاءَ الأَمير حجازي بخيوله ورجاله ورماحه، فخرج إِليه الأَمير مصطفى، وتلقاه، وأَخذ بيده وأَدخله قاعة له وحده، ليخاليه في سرٍّ عرض له، وكان تقدم أَمره للبواب بغلق الأَبواب حالة دخوله، ورتب جماعة لقتله، وهيأهم داخل القاعة، فبمجرد دخول حجازي قُبِّض عليه وأَخذ سيفه، وتلقاه الموصَى على قتله، فذبحه كالشاة على طرف الإِيوان، وخرج الكاشف مسرعاً بالرأْس على رمح نصبه على الباب، فولى جماعته منهزمين لا يلوي أَحد على أَحد، وجاءَ الخبر بذلك وبرأْسه إِلى داود باشا فاحتيط على أَمواله وغلاله وبَهائمه وسعيه وخدمه فكان شيئاً كثيراً إِلى الغاية، فلما انتهى أَمر ذلك، وحضر الأَمير مصطفى إِلى القاهرة، واجتمعت به، قال: إِن الكلام الذي أَخبرتني به على لسان العامة هيّج عندي سرعة التوجه لذلك، ثم قال: وما تعجبت إِلا من إِشاعة ذلك بالأَسواق، والسر كان مكتوماً بيني وبين داود باشا، ولم يعلم به أَحد مطلقاً، ثم إِن داود باشا عرض لمصطفى في (صنجق) سلطاني، وأَن يكون أَمير الحاج على حاله، فأُجيب إِلى ذلك، وتوجه في تلك السنة أَميراً على الحاج و(صنجقاً).

وأَما سليمان باشا، فقال صاحبنا العلامة ابن فهد المؤرخ: إِنه كان دخوله بالعمارة إِلى جدة ضحى يوم الخميس رابع عشر الشهر المبارك صفر الخير سنة خمس

وأربعين، وصحبته من المراكب والأَغْربة قطعة فاضطربت البلاد، وارتجّت العباد، وكان الشريف أَبو نُمَيّ شرع في تحصيل هدية فجمع كثيراً من العسل والسمن، ومن الغنم نحو الألَفين، وغير ذلك من المأكولات، ومن التحف، ثم إن السيد الشريف جزم بإرسال أَكبر أَولاده، وهو السيد أحمد مع بعض جماعته وغيرهم من عوام مكة، وتوجه الشريف إِلى الوادي، لتجهيز هدية من الأَطعمة وغيرها فعملت الحلوى بمكة، وجهزت مع الأَغنام والسمن والعسل والفاكهة، على ثلاثين جملاً في يوم السبت سادس عشر الشهر، وواجه السيد أَحمد الباشا سليمان، وطلع له إلى مركبه مع السيد عرار بن عجل، ومحمد المريسي، وبعض أَكابر القواد نحو العشرة، وجلس بقية جماعته في مرسى أَبي صليف، فأكرمه الباشا بالقيام له عند قدومه، وذهابه وسأَله عن أَبيه، وطلب الدعاءَ منه، ثم أخلع على السيد أَحمد، والسيد عرار بن عجل، ومحمد المريسي، ونزلوا من عنده، ولم ينزل الباشا من مركبه حفظاً لعسكره، ولم يُبْدِ مكروهاً. لكنه طلب الماءَ والحطب فَنُجلت جميع الصهاريج التي بجدة، وكانت إِقامته بجدة خمسة أَيام فَعُد سرعة سفر الباشا من سَعْد صاحب مكة، ويقال: إن الشريف جهز إِليه من النقد ستة آلاف ذهباً، وتوجه إِلى جهة الهند واليمن، وأَخذ مدينة زبيد، بمباطنة بعض عسكرها، ودخوله هَجْماً لها في خامس شوال، وأَقام بها مدة، وقتل أَميرها الناخوذة أَحمد الرومي مع غيره من أَكابرها، واستناب بعض الأَروام فيها.

وفي يوم الجمعة ثاني عشري شهر القعدة جاءت الأَخبار بمكة بوصول الباشا سليمان إِلى جدة، ومعه نحو الأَربعين مركباً، وكان دخوله إِلى مكة ليلة الأَربعاءِ ثاني عشري الشهر، فبات بالزاهر، ودخل من أَعلا مكة بعَرْضَة لطيفة، ومعه السيد أَحمد بن أَبي نُمَيّ، وقاضي مكة مصلح الدين، والوزير آصف خان، ونزل بمنزل ملك التجار، وعمل له الشريف سماطاً لائِقاً به، وسعى راكباً، وأَجهر النداءَ بالأَمان، ومن ظُلِم عليه بالباشا، وجلس على كرسي من حديد تجاه الكعبة، والشريف أَحمد والقضاة تحته جميعها الرومي وأَولاد العرب، ونادى في الطواف: مَن ظُلِم؟ مَن له شكوى؟ فأَنكرت الناس ذلك عليه بقلوبهم، وهو جالس على حالته في مقام الحنفية، منتهكاً لحرمة المسجد الحرام، ولم يفعل ذلك أَحَدٌ من الملوك السابقة، وصادف أَمير الحاج في هذه السنة رجوع سليمان باشا من مملكة الهند، بالعمارة إِلى مكة بعد عجزه عن مملكة الهند، واستيلاؤه على بعض ممالك اليمن كَزَبيد وعَدَن، وشنق الشريف نائب عدن بها، واستولى على مملكته، فحصل منه غاية الحنق والغيظ المؤلم على مصطفى أَمير الحاج، بسبب قتله لابن بغداد، وحلّ عليه من الإِهانة والسخط

والوعيد ما لا ينحصر ذكره، ثم رضي عنه بعض الرضا وصافاه بعد حضوره إلى القاهرة، وتوجه إلى المملكة الرومية، فصار وزيراً أعظماً، وكان الحاج في تلك السنة هنيئاً ولله الحمد، وأمير الحاج الشامي حسين بك أمير عينتاب.

وكانت الوقفة بالاثنين والأسعار متوسطة.

سنة ست وأربعين وتسع مئة إلى سنة إحدى وخمسين: كان أمير الحاج الشريف الأمير جانم بن قصروه (دوادار) سيدي محمد ابن السلطان قانصوه الغوريّ كان، وكاشف إقليم الفيوم والبهنساوية إذْ ذاك، واستمرت متوالية، وكان ـ رحمه الله ـ من أجواد الأمراءِ الجراكسة، أصله من مماليك السلطان الغوريّ ولديه رئاسة ومعقول، ومكارم أخلاق، إلى الغاية، بحيث أنه لم يُرَ بعد انقضاءِ دولة الجراكسة مثلُهُ في جنسه من الكرم ومحاسن الأخلاق، وحب الرئاسة، وبُعد الهمة، وشرف النفس، وتوالت أسفاره أميراً على الركب كما ذكرنا، وفي كلها مشكور السيرة، محمود الطريقة، وكان يشهر نفسه بالأمير في سائر أقواله وأفعاله، فيقول: الأمير قال أو فعل أو رأى، لا يترك الإتيان بلفظ الأمير، وحصل في بعض هذه السنين عطش شديد بالْوَجْهِ، وما قبله وما بعده إلى الأزْلَم سببه فقدان الماءِ وقلّته صحبة أهل الركب في هذا الرُّبعْ، وعظم بالوجه جِدًّا فأدّى ذلك إلى موت جمَاعات بكثرة بالطرقات بحيث أنَّ مَن رأى حال الفقراءِ والعادمين الماءَ في المرحلة التي قبل الأَزْلَمَ قَلِقَ قلبُه، واقشعرَّ جسده شفقة وحزناً على عباد الله، وما أصابهم من شدة العطش والتلهف.

ولقد كانوا يجتمعون حول مخيمه، ما بين باكٍ ومنقطع النفَس عطشاً، ويصيحون: يا أمير الحاج هلكنا العطش، فلا يجابون لعدم وجود الماءِ فإن الذي كان عنده من الماءِ سقاه لِلْعَطْشى، وعادة هذا المورد المسمى بالْوَجهِ إذا كان ممطراً يحصل به عامة النفع والإنعاش والريّ التام للوفد، وماؤه أطيب مياه مناهل الحجاز، وأمرأُها وأخفها، وأصبرها على الأيام كماء مغارة شعيب، فإذا نزحت آباره لقلة المطر أو لعدمه ـ كما في زمننا هذا ـ فإنه استمر به الْمَحل نحو العشر سنوات لم يقع بتلك الأرض، وما حولَهَا مطر مطلقاً، فبمقتضى ذلك يؤول أمر الحجاج إلى المشاقّ والشقاق، ومقاسات العطش الْمُرِّ المذاق، خصوصاً لمن فرط فيما معه من الماءِ، إما ثقة بوصوله إليه أوْ لإهْمَالِهِ بجماعة الغلمان بخدمته من غير ضبط، فإن وجوده حينئذ عدم، ولمقاساته ألم، وكان الأمير جانم الحمزاوي ـ تغمّده الله تعالى برحمته ـ لما حصل في إمرته تلك العطشة المشهورة في سنة ثلاثين، جهّز معماريةً صحبة أمين على العمارة يقال له الشهاب أحمد الأزبكي، لإصلاح الآبار التي هناك، ونزحها

وتوسعتها، فإن المعهود بها قديماً هي البئر المالحة جدًا التي في الرحبة، وهذه المستجدات نُسبت إلى إبراهيم باشا بمقتضى بروز أمره بإصلاحها على يد الأمير جانم الحمزاوي من مال إبراهيم المشار إليه.

ثم بعد العمارة والإصلاح رتب لمشايخ بليٍّ الأَحامدة، أَصحاب الدرك به عن خدمة هذا الماءِ والآبار وتنظيفها. والاجتهاد في ذلك، من الفضة الكبار أربعة آلاف نصفاً، خوفاً من مشاقّ العطش الواقعة في هذا المحل، وما والاه، واستمر بعد هذه العمارة مدة مديدة، والحجاج تردُهُ، وتروى منه، ويرحلون منه، وهم في غاية من الدعة والانبساط بالرواءِ، والأَمن من مقاساة أَلم الشكوى، إلى أن أَخذت الآبار في النقص، وتوالي قلة المطر الذي كان وارداً إلى ذلك الوادي، ثم احتبس سنوات عديدة فصار الحجيج تارة يسقون دون جِمالهم، وتارة يبيتون به، ويراعون أَحوال الماءِ قليلاً قليلاً، طول الليل إلى أَن يحصل لهم الريُّ أَو دونه، فلما حبس المطر عن الوادي وتوالى ذلك إلى نيف وستين وتسع مئة وكذلك ما حوله قرب وبعد منه من قبل الأَزلم، وإلى بعد الينبع بمراحل، فصار في سلوك تلك الحجة مشقات:

منها: - وهو الأَهم - عدم الماءِ بالوجه مطلقاً إلا البيرُ المالحة جدًا التي بالرحبة.

ومنها: شدة ملوحة الماءِ الذي في غير هذا المنهل لقلة المطر أَو عدمه، كماءِ أَكْرَه، والأَزلم والحوراءِ، فإنه عند حصول السيول والأَمطار ومخالطتها لتلك المياه يسوغ شربها، ويطيب رحبها.

ومنها: عدم نبت الحشيش لمرعى الإبل بتلك النواحي والأَودية، وإن وُجد فهو كالمحرق من شدة الجفاف وعدم النفع.

ومنها: عدم وجود السمن واللبن وما عساه أَن يوجد في تلك الأَودية زمن الخصب لما ذكرنا، ولكون أَن في الغالب ترحلُ عربان ذلك الوادي منه، ويمتنع أَيضاً الجالب من غيرهم في تلك الأَودية والمنازل، لمشقة سلوكها إليها والحالة هذه.

ولقد تعطّل نقل حب الدَّشيشة إلى المدينة المنورة، لقلة الجِمال وهزالها، وشرود العربان إلى غير محالها، بواسطة شدة الْمَحْل، وعدم الأَمطار إلى أَن منَّ الله تعالى بحصولِ أَمطارِ نَافِعةٍ، في محال الجدب المذكور، كان ابتداؤه في سنة ثلاث وستين وتسع مئة، وتوالى في سنة أَربع وستين، فعمَّ النفعُ بتلك الأَودية من وجود المياه وريِّ الأَرض، وإنبات الحشيش لمرعَى الجِمال، فحصل - ولله الحمد -

في سنة أَربع وستين عامة النفع بذلك الوفد، وكان الوفد في تلك السنة قليلاً، وعمّ الرخاءُ بعد عموم المشقات في السنين السابقة زمن المحل، والله المسؤول أن يديم ذلك، ويسقي تلك الرُّبا والمنازل والأَودية، غيثاً طبقاً غدَقاً مَريًا نافِعاً ليعود الرفق والهناءُ لوفد الله تعالى في تلك الأَماكن ويتهلّل ذلك الْوَجْهُ المقبول بصوب من الحياءِ لإحياءِ الوارد والساكن، وقُلتُ لما مَرَرْتُ بذلك الوادي زمن المحل، ولم ينزل به الركب بل عدّاه إلى غيره ومرَّتِ الحجاج، وبعضهم توجّه داخل الوادي بقِربهم فعادوا بها وهي فارغة:

سقى اللّهُ صَوْب الْوَجْهِ مُزْناً مضاعَفاً	مُكَلَّلَةٌ أَرْجَاؤهُ سُحُبَ الْحَيا
لِيَحْيى بِهِ ذاكَ الْعِهادُ ورَهْبُه	بِريٍّ وُفودٍ طال مَا ابْتهلَتْ هَيَا
وَأَبْقَى لِذَاكَ الْوَجْهِ رَوْنَقَ مَائِهِ	مُصَاناً عَنِ التَّغْييْر زَاهٍ مُضَاهِيا

وقلت في المعنى مضمناً:

مَرَرْنَا بِوَادِي الْوَجْهِ وَهْوَ مِنَ الْحَيَا	عَدِيْمٌ وَقَدْ خَابَتْ ظُنُوْنٌ وآمَالُ
وَقَدْ كَانَ لِلْعَافِيْنَ أَطْيَبَ بُغْيَة	يَسُوغُ بِهِ لِلْوَفْدِ وِرْدٌ وَتِرْحَالُ
إذا أَمَّهُ الصَّادِي أَتَى كَلُّ صَالِحٍ	وَقَدْ عَمَّهُ أُنْسٌ وَرِيٌّ وإِقْبَالُ
فَمَا بَالُهُ لاَ غَيَّرَ الله حَالَهُ	وعَادَتُهُ بِالْفَخْرِ يَزْهُو ويَخْتَالُ
تَبَدَّلَ بَعْدَ الأُنْسِ خَيْبَةَ آمِلٍ	وَجَفَّ لَدَيْهِ مَا صَفَى وَهْوَ سَيَّالُ
وَأَوْحَشَ هَذا الْوَجْهُ بَعْد نَدَائِه	وَمَا ذَاكَ إلاَّ أَنَّ أَهْلَ النُّهَى قَالُوا:
وإِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ	وَعَنْ حَيِّهِ أَهْلُ الْمَوَارِدِ قَدْ حَالُوا

وللشعراءِ في حال الرّيّ عند نزولهم بذلك الوادي أقوال يأْتي ذكر بعضها ـ إن شاءَ الله تعالى ـ عند ذكره في باب المنازل والمناهل.

وفي بعض هذه الأَعوام قصد السيد الشريف نجم الدنيا والدين أَبو نُمَيٍّ بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان ـ أَدام الله تعالى له البقاء ـ أَن يُحسن المصاحبة مع الأَمير جانم أَمير الحاج المذكور، فلما نزل الركب بِخُلَيْصٍ، جهز إلى مطالعته صحبة أَحد ثقاته يذكر لي أَنه نازل بوادي عُسْفَانَ وراءَ جبلٍ هناك، وأَنّه قصده أَن يضيف أَمير الركب. وقد جهزت أَحد أَولادي للسلام عليه بِخُلَيصٍ، وأن يذكر له ذلك بحضرتك، وجهزت له من الصَّيْدِ نيفاً وعشرين غزالاً فتشارك ولدي في الكلام معه، وأَن يكون في صبيحة غدٍ تاريخه عندنا بالوادي، ونحن إن شاءَ الله تعالى نجهز لكم في صبيحة غَد مَن يلقاكم من أَكابر الشرفاءِ بني حسن، ويأْتي

بكم. فذكرت ذلك لأمير الحاج فأجاب أَحسن الجواب، وسَرَّهُ ذلك، فلما أُصبحنا وحاذينا بِئْرَ عُسْفان، وإذا بالشريف باز أَمير المدينة، وهو ولد خُزَيمة أُخت الشريف بركات بن محمد، استقبلنا ومعه خيول بني حسن، فدخل بنا الوادي، وإذا بالمضارب والبيوت منصوبة، فنزلنا صحبة أَمير الحاج، وسلّم علينا السيد الشريف وحيَّانا، وأَمير الحاج أَكرم محاياه، فكان أَول ما أَتى به لبن الجِمال في الأَقداح الخشب المبخَّرة بالعود، وبعضها بالقفل فشرب وسقى أَمير الحاج، وناولني بيده قدحاً فشربت بعضه، ثم قمنا إلى مضرب كبير، باطنه من المخمل القطيفة، وفي صدره من الفرش الجليلة، وإذا بسماط ممدود كبير، جميع أَوانيه من الصحون الصيني الفاخرة المشتملة على أَنواع الحلاوات، وجعل بدائر السماط بدل الخبز نارجيلاً، وهو الجوز الهندي، فحزرت ما يحتوي عليه عدد الصحون فكانوا مئة وخمسين صحناً على سماط هندي كبير، حسن النقوش، فجلس السيد الشريف، وأَمير الحاج بجانبه في صدر السماط، وجلست بجانب مولانا السيد الشريف من يساره، وأَذِنَ لِلتُّرْكِ ومَن بصحبة أَمير الحاج من الغلمان والهجانة فأكلوا قليلاً ثم تناهبوه، فأذن لهم الشريف في ذلك، ففرغت هذه الصحون في البرد والفوط وغيرها، وكذلك الجوز الهندي، حتى أَتوا على آخر السماط. ثم إن السيد الشريف ذكر سرًّا أَنه يريد أَن يلبس أَمير الحاج قفطاناً شيباً مذهباً، ويركبه حصاناً من خيار خيوله، مكملاً بالسرج والعدة، وكان الأَمير جانم ـ رحمه الله تعالى ـ رئيساً حسن العشرة فقال لي وللشريف: لا تَتَّفِقَا علينا إلا في خَيْرٍ. فذكرت له ذلك الكلام، فأَجاب على لبس القفطان بعد امتناع. فقلت له: لا تنقص منزلتك بإجابتك إلى ذلك، فإن الشريف ولد الرسول ﷺ وهو أَمير مكة، ومن أَعيان (صناجق) السلطان فقبولك ذلك منه ليس عليك فيه لوم، ولبس تشريفة وأَحضر إليه ذلك الحصان، وركب، وتوجهنا صحبته إلى محطة الركب بالديسة بالقرب من طارف الْمُنْحَنَى، وجهّز إليه السيد الشريف أَيضاً بعد وصوله إلى الدار صحبة الشمسي محمد المريسي بخدمته بشمامة من عنبر ـ خام فاخرة ـ ولي صرة لطيفة مختومة ضمنها خمسون ديناراً، وحصل لنا ولأَمير الركب وحاشيته ومَن كان معه في ذلك المجلس من البسط والارتياح ما يجل وصفه، وكانوا يتحدثون بمحاسن هذه الضيافة بعد ذلك عدة سنين.

وفي سنة إحدى وخمسين نقل حمل إمرة الحاج المجهز إلى بندري جدة والينبع من طريق الطور إلى بندر السويس، ومن الجلاب والزعيمات المتعددة التي للرعايا إلى المراكب الكبار السلطانية، وكان سبب ذلك كثرة شكوى أَهل الجلاب والزعيمات من

ظلامات جماعة الجاويشية على الحمل، ومن إيذاءِ جماعة المفسرين عليه لهم بكثرة البلص والأذى، وشحن حمولهم في جُلاَّبهم بغير أُجرة، واختلاس الحمل وكتابته نقصاً على النواخيد، ويستخرجون ثمن ذلك منه نقداً وغير ذلك من المظالم مع حقير الأُجرة جدًا فإن العادة الظلمية المقررة لهم عن حمل أَمير الحاج لكل حمل من الطور إلى جدة اثني عشر نصفاً، وإلى الينبع عشرة أَنصاف وجميع المصاريف من ثمن الحصر وأُجرة السنابيك، وثمن الفروق، وأُجرة الكلاب وغير ذلك على جماعة النواخيد، والرُيسا، من باطن الأُجرة المذكورة، فكان تغيير المراكب والبندر فيه مصلحة لعدم الظلم للنواخيد بالطور، ومضرّة بالغة لأُمراءِ الحاج، فإنه لم تؤمن عاقبة هذا الحمل في بندر السويس، بمقتضى أَن الحمل كان يشحن في نحو ثلاثين جلبة وزعيمة وأَكثر، ومع ذلك فهو آمن من المرور في باحة بركة الغرندل التي ذُكر أَنَّ الله تعالى أَغرق بها فرعون وقومه، فإن هذه البركة مشهورة بشدّة الخوف، عند المرور بها لبُعد قعرها وقوة الموج، وذلك على خطر، والجلاب والزغيمات إنما تسير قريباً من البر، وعددها كثير، ومراكب السلطنة من اثنين في الغالب إلى ثلاثة، ويشحنون جماعة السلطنة مع حمل أَمير الحاج ما يقدرون عليه من حمول الرعايا والحجاج بالبندر، وبعض مهمات السلطنة، ولا يعتبرون شحنة السلامة كما هو العادة في ذلك، فإن حصل إصلاح للمراكب في بعض السنين ـ والعياذ بالله تعالى ـ كان الأَمر عظيماً كما لا يخفى على ذي لُبٍّ، بخلاف ما إذا انصلح قليل من ثلاثين جلبة، والفرق مثل الشمس ظاهر، ففي هذه السنة التي هي أَول نقل الحمل إلى السويس غرق نصف الحمل بمركب سلطانية، وحصل بذلك غاية الضرر، وتكرر بعد ذلك في ولاية الأَمير حسين كاشف البهنساوية، وتوالى الغرق ثلاث سنين:

أَولها: سنة إحدى وستين ولاية مصطفى باشا، وهي آخر ولاياته فغرق في تلك السنة جميع حمل جدة بتمامه وكماله، وكان أَضاف إليه عند توجهه باشا باليمن تلك السنة من لبوس الخيول و(الزرد خاناه) وآلة المطبخ والبسط المثمنة، ومن الجوخ الغالي وغيره مما قصد تجهيز ذلك إلى مملكة اليمن، فلولا كان عاقد الأَمير محمد بن عمر أَمير عربان هوارة على تجهيز فول من إقليمه إلى جدة، ودفع إليه الثمن معجلاً بالقاهرة فجهز من ذلك ما حصل به غاية النفع بعد غرق المحمل.

وثانيها: سنة اثنتين وستين ولاية الأَمير حمزة بن إسكندر كاشف الغربية، فإنه غرق أَيضاً حمل جدة بتمامه وكماله، ولولا لطف الله تعالى في تلك السنة لما عاد من أَهل الركب أَحد، كما سيأْتي ذكره عند ذكر ولايته.

وثالثها: في سنة ثلاث وستين ولاية الأَمير عيسى بن إِسماعيل أمير عربان بني عونة بالبحيرة، فإِنه غرق أَيضاً حمل جدة بتمامه وكماله، وحصل له غاية الضرر كما سيأتي ذكره.

وكان الأَمير جانم ـ رحمه الله تعالى ـ له محاسن وتكرمات مذكورة وأُعطيات مشهورة مشكورة، وكان لنا به أُنس ونفع وعوائد، رتب لي بعد عزله من إمرة الحاج في كل سنة عند توجهي إلى بِرْكَةِ الحاج للسفر مئة دينار مصرية، فكان ـ أثابه الله تعالى ـ يجهزها صحبة فتاه مرجان، ثم يأتي إلى خيمتي بِالْبِرْكَةِ راكباً، ويسلّم علي ويوادعني ويسأَلني الدعاء، وهل وصلت العادة؟! فأُجيبه بنعم، فلقد كان من محاسن الزمان والأُمراء به جمال، وأَخبرني أنه ما تصرّف في زراعاته بإقليمه مع كثرتها ببيع مطلقاً، وإِنما كانت تفرق لأَصحاب العوائد والأَكابر بجملتها، وأَتذكر من محاسن تكرماته وجميل حالاته أنه في يوم من الأَيام حضر للغداءِ، وكانت عادتي أَن لا أَتوجه من منزله إلا بعد الغداءِ فجلست على السماط، وكان في زمن الحرّ، وبالسماط شيْءٌ من اللحم والجبن الطريّ والحالوم، ومن البطيخ على اختلاف أَنواعه، فمالت النفس إلى أَكل الجبن الحالوم، والبطيخ الأَصفر، ثم بعد رفع السماط قصدتُ التوجه إلى منزلي، فذكر لي أَنه في ذلك اليوم ليس عنده مَن يأْنس به، ويحب أَن يلعب الشطرنج معي، وكنت قليل العناية بالشطرنج المذكور، فجلسنا على بركة القُرابيين بمنزله، في محل نَزِهٍ، فلعبنا فغلبني، فكان من قوله: تَصَبَّحْت بالأَمير في هذا اليوم، ولم تَحْمد صباحَه فإِننا أَطعمناك من الجبن القديد، وغلبناك في لعب الشطرنج. ثم طلب مباشرة القاضي عبد الرحمٰن بن قرادة البهنسي، وقال له: اكتب وصولاً على سعديه الصيرفي بأَنه يدفع للقاضي من الفضة الجديدة مئة دينار، وختم على الوصل بخاتمه فأَخذته، وتوجهت ولم أَجلس إلى الظهر، وتناولت المبلغ بتمامه من الصيرفي المذكور في نهاره، ولم أَر بعده مثله، أَحسن الله تعالى مثواه، ولم يزل على محامده وأَوصافه الحسنة المشكورة إلى أَن حصل له غاية الجور من داود باشا والأَمير محمد جلبي ناظر الأَموال، فإِنهما حسداه، وركنا إلى إيلامه بكثرة ما يأْخذان منه بطريق مال السلطنة المكتتب عليه بالإِقليم، وبالحيلة والخداع عليه طمعاً في مكارم أَخلاقه، إلى أَن أَجحف ذلك به إلى الغاية وعزل عن الجهتين، وأَقام بمنزله برهة بطّالاً متأَلماً من عزله ظلماً من تلك الطريقين إلى أَن مات فجأَة في سنة أَربع وخمسين وتسع مئة، سقى الله ذلك العهاد صوب الرحمة.

ومن الحوادث بالحجاز وغيره: وفاة قاضي المدينة الرومي الجديد بمرض

الفالج في رابع عشر ربيع الثاني عام ست وأربعين، وهو أول رومي استقل بقضاءِ المدينة في الدولة العثمانية.

وفي هذه السنة كان الحريق الكبير بمدينة (اسطنبول) يقال إنه احترق فيه زهاء عن ألفي بيت ووفاة الوزير الأعظم إياس باشا، يقال حريقاً ويقال: مطعوناً لحدوث الطعن والزلازل.

سنة اثنتين وخمسين وتسع مئة: تولى إمرة الحاج الأمير أيدمر بن عبد الله الرومي، يقال: إنه كان في ابتداءِ أمره دلأّلاً بسوق خان الخليلي، وترقّى، واتصل بالدولة إلى أن كان (كيخية) لجماعة العساكر الجراكسة بالديار المصرية. ثم تولى باشاه على العسكر صحبة الملاقاة الأزلمية مراراً عديدة. ثم كان (صوباشا) في ولاية داود باشا، ثم تولى كاشف الغربية ثم ترقى إلى إمرة الحاج، عوضاً عن الأمير جانم بن قصروه المعروف ببطيخة ـ المقدَّم ذكره ـ وكان الأمير آيدين المذكور رجلاً عاقلاً رزيناً، من أهل المعرفة والتؤدة، والمعروف والمكافأة على الجميل، وسعة الباطن والاحتمال، الخبرة بأمور الدنيا، وجمع المال ومحبة ذلك، وكان محقاً في معاملته، حسن الوفاءِ طارحاً للتكلف، وكان في غالب أحواله يلبس القفطان الواحد من أي جنس كان، لا يغيره مدة سنة كاملة بغيره، ورأيت له أخاً على دين النصرانية شيخاً طاعناً في السن، وحاوله للاهتداءِ إلى الإسلام فلم يفعل، ولشدة حبه للدنيا وتمكن ذلك في قلبه والحرص على جمعها من أي وجه كانَ كانت له في إمرته على الحج بعضُ أفعال أُنكرتْ عليه، وزاد فيها القائلون والمتعصبون والمبغضون ما أرادوا، حتى كان من أمره في ولايته ما سنذكره من الحوادث فمما ذكر عنه، وذُمّ فعله أنه تناول البلص على القطار في بعض الأحوال على ما قيل.

ومنها: أنه أَجّرَ محفة ركابه للمعلم محمد بن بليحة الزيات ركب فيها مدة الرجعة بخمسين ديناراً من الذهب. وأعرض عما في ذلك من الدناءة والفحش وكونها سائرة مع العلم السلطاني، والعسكر محيطون بها، وحرمة ذلك والمهابة للسلطنة الشريفة لأنه نائب عن السلطان، فوقع بمثل ذلك في الحضيض الأسفل من الألسنة ولم ينتبه من هذه السُنَة، واتفق في هذه السنة وقائع من مقدورات الله تعالى، التي لا قدرة للعبد على دفعها، أضافتها العامةُ إلى وقائع هذه الحجة، وسلكوا بها في كل محجة، منها أنه في الذهاب ساعة ورود الركب إلى الأزلَم كان انقطع بِحَدْرَةِ دَامة المعروفة بأُمّ الْبُسَيْس بعض جمال من الربائع عليها حَمل جماعة من التجار منهم الخواجا يحيى بن الجمال، وابن السالوس بسفل الربع للظاهري وغيرهما، كما هو

عادة الربائع في التأُخير عن جمال القطار، واللحاق بأَهل الركب في الدار، ولم يشعر أَمير الحاج بذلك، لكون أَن العادة جارية بمثله فصادفهم مرور دويفر من مشايخ بني لاَم، ومعه نحو السبعين فرساً على ما قيل، فاستاق الجِمال بأَحمالها، وكانوا نحو العِّشرين أَو دونها، فصاح أَهل الركب: أُخِذَتْ السَّاقة!! فلما سمع أَمير الحاج بذلك حصل عنده رعب شديد، وكان رجلاً جسيماً، فأَراد أَن يمشي نحو خيمته فسقط إِلى الأَرض فَثَبَّتُهُ وفحصت عن تحقيق القضية، وكان معنا في ذلك المجلس عمرو بن عامر بن داود أَمير بني عقبة، وهو ملتزم بما يأْتي من بني لاَم، فأَشرت عليه سرًّا بالقبض على المذكور وعلى ولده صالح، وفعلنا ذلك، ثم أَطْلقت عَمْراً لإِحضار الجِمال والأَحمال، وتركت ولده رهينة عنه فتوجه وأَحضر غالبها، وغرم ما ادَّعوا ضياعه من باقي ذلك الأَمير آيدين من ماله لجماعة اُلتجار بعد الشكوى منهم لداود باشاه، والإِفحاش في ذكر ثنا أَمير الحاج إِلى الغاية.

ومنها: حصول غلاءٍ عظيم أُبيع الربع الفول المجروش بمنزلة أكرى بعد حضور الملاقاة بستة عشر نصفاً كبيرة، والرطل البقسماط أَو الدقيق بنصف وقسْ على ذلك، ومنها الفناءُ الشديد في الجِمال إِلى الغاية حتى مشى النساءُ والصبيان، ومَن لا اعتاد المشي، ورميت الأَحمال بالبرية، فلم يوجد ما تحمل عليه، فكانت هذه السنة محتوية على مشاق شديدة خصوصاً في حالة الإِياب، ومنها تسلُّط المقدم محمد بن العظمة على جِمال الرعايا بالنهب، ورمي أَحمالهم في المحلات الضيقة، التي لا قدرة لهم على تحصيل حمل بالأُجرة بها، ومعاملة الرعايا والضعفاءِ بالعنف والشدة، ومعه أَعوان من أَقاربه ورجالته أَسوأُ حالاً منه وأَشد ظلماً، ولم يستطع أَمير الركب دفعه عن أَهل الركب ولا منعه مطلقاً، وكان الناس في بلاءٍ شديد منه مع الفناءِ الشديد في الجِمال، والغلبة المتزايدة في ذلك، ولقد سمعت المقدم محمد بن العظمة وهو يقول لأَمير الحاج صرحياً مشافهة بمنزلة إِقامة عقبة أَيْلَةَ بالرجعة: أَنت كنت كعباً مشؤوماً على أَهل الركب، قد أَراد الله لك بذلك، فتأَلم في نفسه لذلك وأَسَرَّ ما سمعه، ولم يعد إِليه جواباً.

ومنها: أَن في آخر مدة السفر هبّت على الحجاج رياحٌ شديدة عاصفة جدًا أَثارت الحصى والرمل وتراباً أَحمر في وجوه الرجال، وغمّهم من حيث لا يستطيعون التوقِّي عن ذلك بركوب المحاير ولا بغير ذلك، وابتدأَت بذلك من الدار الحمراءِ، واستمرت إِلى أَن نزل الركب بركة الحاج أَذان المغرب، وهي على تلك الحالة من شدة الريح العاصف، وتقطعت الركوب، وتاه كل أَحد عن جماعته، وعن المحضرين

بالملاقاة، وبات الركب بالبركة على غير نظام ولا ترتيب، في حالة شديدة المشقة على المسافرين وأَهل الملاقاة، ولما أَصبح الركب بالْبِرْكةِ اشتدَّ أَمر هذه الرياح في وجوه أَهل الركب بقوة شديدة، بحيث أَنه لم يستطع أَحدٌ أَن يفتح ناظره إلاَّ بجهد، وذهب الحجاج وأَهل الملاقاة عن بعضهم بعضاً، وتاهوا يميناً وشمالاً، وأَلقتهم الرياح وذلك الحصى والتراب بكل ناحية، ولقد رأَيت بدهليز البِرْكَةِ علم أَمير الحاج، وقد أَلقته الرياح من يد حامله إِلى الأَرض فَلُفَّ وحُمل منكوساً، وللصلاح الصفدي:

أَيَـا شَـعَـثـاً قـام فِـي وَجْـهِـنَـا ... وزَادَ وَعَـنْ ضَـرِّنَـا مـا انْـتَـهَـى

سَفَـيْـتَ الـرِّمَـالَ عَـلَـى وَجْـنَـتَـيَّ ... ومِـنْ مَـاءِ عَـيْـنَـي صَـوْلَـتَـهَـا

تَـخَـيَّـلْـتُ أَنَّ جُـفُـوْنِـي عَـلَـى ... عُـيُـوْنِـي سُـطُـوْراً فَـرَمَّـلْـتَـهَـا

وتاهت الحجاج ومَن معهم لشدة الرياح، والتراب الضارب وجوههم وأَعينهم عن طريق القاهرة من البركة، وذهب الناس يميناً وشمالاً، ولم يعهد مثل ذلك في هذا القرن قبل هذه السنة فكانت جميع الأَلسنة واقعة بالذم المفرط لأَمير الحاج بهذه الاتفاقيات وتشاءَموا به، ولم يثنِ عليه أَحد، وكثرت الشكوى منه من خواص الناس وعوامهم، كقاضي إِقليم الخانقاه السرياقوسية وغيره، وبالغوا في الشكوى بالقصص حتى أَن شخصاً من أَهل الفيوم طاعن السن كان يتردد إِلى الدرب الشريف متولياً أَمر الحسبة على السوقة أَنْهَى في قصته أَن أَمير الحاج ضربه في زحام الناس بنقب عَقَبَةِ أَيْلَةَ، وكان معه حمار فمات الحمار من شدة الزحام، فأَلْزمَ أَمِيْرُ الحاج على يد جاويش من القلعة بدفع ثمن حماره، حسب ما أَنهاه، وكنت حاضراً في ذلك المجلس عند أَمير الحاج فقلت لصاحب الحمار: اتقِ الله أَيها الشيخ ما حملك على هذه الشكوى؟ فقال لي سِرًّا: الإِفلاس، ورأَيت مَن شكاه لا يبرح بلا دراهم، فعلمت أَنَّ الذي جرى عليه ـ والعياذ بالله تعالى ـ كان عقوبة له وانتقاماً لطوية أَو حال يعامله الله تعالى منه، وإِلا فكان ظاهره في الحقيقة لا بأس به ما عدا حُبّه للدنيا فإِنه رأْس كل خطيئة، وكانت له مكارم أَخلاق يضعها في محلها لمَن يختار، وحصل لنا منه كل فعلة حميدة، ومكرمة طارفة وتليدة ـ رحمه الله تعالى ـ.

وكان عاقبة أَمره أَن عزل من الإِمرة واستمر ممقوتاً عند داود باشا إِلى أَن جهز في مراكب القبطان المتوجه للكشف على أَحوال البحر الملح، وأَخبار الفرنج فعاد مريضاً فيقال: إِنَّ الباشا دَسَّ عليه سُمًّا مع مَن يثق به فأَقام بالقاهرة مريضاً أَياماً، وكانت وفاته في مستهل شهر شوال سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة، ومن عجيب حبه

للدنيا أنه كان له في ذمة المقدم محمد بن العظمة مال له صورة من قرض وثمن فول وغيره فاتفق أنني سلّمت عليه يوم عيد الفطر فوجدته في سياق الموت، وقد ثقل لسانه جداً وقارب السكوت، فبينما أنا عنده إذ دخل علينا المقدم محمد بن العظمة يسلّم عليه أَيضاً فتذكر ما عنده من البلغ في تلك الحالة، فحاول أَن يقول له: هات ما عندك من الدين، فلم يستطع لثقل لسانه، فصار يعالج الكلام بعسر، ففهمت منه أن كان يقول: يا محمد فلوس!؟ ولم يفهم محمد ما يقول، فأَجبته عنه تسكيناً لحاله أنه في همة ذلك، وعن قريب يأْتي بهم، فسكت وقمنا عنه فمات بعد ذلك، وكنت إِمام الصلاة عليه بسبيل المؤمني بالرميلة، وبمجرد موته ختم على جميع موجوده بمنزله، ووضع في خيمة نُصبت له بحوشه غسل في داخلها، وحضر غسله المرحوم الأَمير جانم من قصروه أمير الحاج قبله، فلما غسل طلب الغاسل محكة لرجليه فلم يجدها، وأرادوا تنشيف أعضائه بعد الغسل فلم يجدوا المنشفة، ولم يجدوا طاسة أو إِناء يصب به عليه الماء لأَن ذلك جميعه ختم عليه، ولم يكن له قبر يُدفن فيه، فأَخذه مباشر ديوانه القاضي محمد القرافي، ودفنه بقبر بتربته تجاه الشبكية كالغرباء، ولم يخلف من الأَولاد سوى بنت قاصرة عن البلوغ إذ ذاك ـ رحمه الله تعالى وسامحه ـ والذي أقوله من حاله أنه كان ظاهره جميلاً في سائر أحواله، ومقاصده حميدة، وكان يحب أن يُحمد ويُشكر في تلك السنة التي تولاها، غير أنه كان عنده من حب الدنيا والطمع في تحصيلها ما ذكرته أولاً، ولعل كانت نيته فيما بينه وبين الباري عزّ وجل غير مستقيمة، فعوقب لعدم مساعدة الأَقدار، واتفق له أيضاً ما حصل للوفد في ولايته من المضار، والله أعلم بدقيق أحواله ـ كفر الله عنه خطاياه، وأسكنه الجنة ـ. وكنت في تلك السنة بالرجعة معادِلاً لصاحبنا الشيخ العلامة العمدة عبد الباسط بن أيوب المكي الشافعي خطيب بلد الله الحرام، وحصل لنا من مشاق الجِمال جانبٌ كبير، بحيث إنني لم أجد جملاً لحمل محارتي، وركوبي فيها ثلاث ليال، فتذكرنا واقعة المشاق الحاصلة لعامة الحجيج في تلك السنة، وكانت عامة الحجاج ينسبون ذلك إلى تدبير أمير الحاج، وطمعه وسوءِ تصريفه وإِهماله للأُمور. فلما تجاذبنا أهدابَ مشاقّ تلك الحجة، وقاربنا قطع سلوك تلك المحجة، وتجارينا ذكر ما غير، وأخذنا في تذكر ذلك الورد والصدر، تناشدنا هذه الأَبيات ارتجالاً في حالة ركوب المحاير، ومسايرة الجِمال.

قُلْ لِدَاودَ قَوْلَ نُصحٍ مُحَرَّرْ ... قَدْ أَضَعْتَ الْحَجِيجَ الله أَكْبَرْ!

ثُمَّ كَرِّرْ لَهُ الْكَلاَمَ مِراراً ... وَأَعِدْهُ لَعَلَّهُ يَتَدَبَّرْ

أيَّ دِيـنٍ بَـدَا لأيـدِيـنَ حـتَّـى … سَارَ بَيْنَ الْحَجيجِ وهو الْمؤَمَّرْ
كَيفَ يرْجَى مِن مِثلِ آيدِيْنَ عَقلٌ … وَهوَ فِي الظُّلم عنه هناد وقَصَّرْ
فَلَعمْري لأنت إحْدَى الْمصِيبَا … ت ولَئِن عَادَ فَهيَ أدهَى وأكبَرْ
أيُّ وَجه تَلقَى به اللّه لَمَّا … تحشَر النَّاسُ وَالصَّحَائِفُ تنشَرْ
عَدِّ عَنه وانظرْ أمِيراً سِوَاه … وَلَكَ الأجرُ وَالدُّعَاءُ موَفَّرْ
أوْ فَخذ فِي الدُّجا سِهَامَ دُعَاءٍ … وابْتِهَالٍ مِن كلِّ أشْعثَ أغْبَرْ
ولَكَ ألأمْرُ فَاقْضِ مَا أنْتَ قَاضٍ … فِيْه واعْدلْ فَالظُّلْمُ إن دَامَ دَمَّرْ
إن ترد وَصْفَه فَخذهُ اختِصَاراً … هوَ نَذلٌ والطَّبْع لاَ يَتَغَيَّرْ
جَمَعَ الْبُخلَ وَالْوَقَاحَةَ واللُّؤ … م وأوْصَافهُ الْقَبِيْحَةُ أكثَرْ
إن تَسَل عَنهُ قَاضِيَ الرَّكب تلقَ … عِندَه مِن أمُوْرِهِ كُل مُنكَرْ
أوْ تُرد حَالَهُ فَسَل عَنهُ قَاضِي الْـ … خَانِقَاهُ فَهو بالْمصائِب أخبَرْ
أوْ فَسَل عَنهُ مَن أرَدتَّ مِنَ النَّا … س فَأحوَالُهُ مِنَ الشَّمْسِ أظهَرْ
لاَ يَغُرَّنكَ مِنه إظهَارُ نسْكٍ … وخضوع فَذَاكَ أمْرٌ مُزَوَّرْ
سِفلَةٌ أرْكَبَ الْمَحفَّةَ شَخصَاً … سَوَقِيًا لأجل خَمْسِيْنَ أحمرْ
أحمَقٌ إن أتَاه يَوْماً فَقِيْرٌ … يَرْتَجي فَضلَه طَغَى وتَجَبَّرْ
وَجَبَانٌ إذا رأى الْقَوْمَ وَلَّى … عَنهمُ وَهْوَ هَاربٌ يَتَعَثَّرْ
لَسْت أنسَى ارْتِعَادَهُ مِنْ بَنِي لاَ … م وَلاَ وَجْهَه وَقَدْ صَارَ أصْفَرْ
حِيْنَ أضْحَى مُهَزولاً لِهرُوْبٍ … زَلَّ حَتَّى ظننته قد تكسرْ
يَا لَهَا فَعْلَة تسَوِّد وَجْهَ الْحـ … رِّ أمَّا الْخَسِيْسُ لاَ يَتَأثَّرْ
بَشَّرُوْهُ بِأنَّهَا أرِّخَتْ عَنـ … ه وأضْحَتْ مَدى الدُّهوْر تكَرَّرْ
لَوْ تَكون الْجمال تَنطِق كَانَتْ … كَتَبتْ بِالَّذِيْ تقَاسِيْه مَحْضَرْ
كَمْ مضِيْق تَزاحمتْ فِيْه لَمَّا … لَمْ يَكنْ فِي ألأمُوْر مَنْ يَتَبَصَّرْ
وَقَدِيْماً كَانَتْ تبَرَّز حَتَّى … تَسْلك النَّاسُ مُقْطَراً بَعْدَ مُقْطَرْ
لَيْتَ عَيْنَيْكَ أبْصَرَتْ مَا تلاَقِي … حِيْنَ كَادَتْ أكْبَادُهَا تَتَفَطَّرْ
كَمْ حمول أضْحَتْ بنقْب عَلِيٍّ … ساقِطاتٍ وَأهْلهَا تَتَحَسَّرْ
كم نِسَاء قَدْ هتِّكتْ وَصِغَارٌ … رُمِيَتْ فِي الْقِفَارِ والْمَوْت أسْتَرْ
و(دُوَيْدَارُهُ) عَلَى دِيْنِ مَوْلاَ … هُ ولا تَنْسَ يشْبُكا فَهْو أفجَرْ
بَلِّصَ الْحُرَّ وَالرَّقِيْقَ وأضْحَى … بدعَاءِ الْمَظْلوْمِ يَهْزَا وَيَسْخَرْ

سَوْفَ تَأْتِيهِ غَيْرَةُ اللهِ حَتَّى ... يَتَمَنَّى لَوْ كَانَ عَنْ ذَاكَ قَصَّرْ
هَاكَ مِنِّي نَصِيحَةً لَكَ جَاءَتْ ... وَهْيَ فِي حُلَّةِ الْبَهَا تَتَبَخْتَرْ
نَظَمَتْ غيرةً لِحُجَّاجِ بَيْتِ اللّهِ ... والزَّائِرِينَ قَبْرَ الْمُطَهَّرْ
سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ خَيْرِ الْبَرَايَا ... مَنْ لِنَهْجِ الصَّوابِ وَالْحَقِّ أَظْهَرْ

وكتبت أيضاً في تلك السنة إلى صاحبنا القضائي الشهابي أحمد الراشدي، كاتب ديوان أوقاف الجيش ـ أسبغ الله عليه ظلاله ـ أذكر بعض تلك الوقائع بعد الوصول إلى الأزلم في الإيَاب من الرجز أقول:

يُقَبِّلُ الأَرْضَ مُحِبٌّ لم يَزَل ... مُبْتَهِلاً لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلّ
بأَن يُديمَ لِلْجَنَابِ الْعَالِي ... عِزٌّ مَدَى الأَيَّامِ وَاللَّيَالِي
وَأَن يَزِيدَ مَجدَه ورفعَتَه ... فِي دَعَةٍ تَضَمَّنَتْ مَسَرَّتَه
زَاد إِلَهِي قَدرهُ عُلُوًّا ... وَمَجدَهُ عَلَى الْوَرَى سُمُوًّا
وَأَسْأَلُ الرَّحمَن أن يُتِمَّ لَهْ ... مِن خَيْرَيِ الدَّارَيْن ما قَدْ أَمَّلَهْ
أُنْهِي إِلَيْكَ كَثْرَةَ الأَشْوَاق ... وأَلَم الْبُعَادِ والْفِرَاقْ
وأَنَّنِي بَاقٍ عَلَى الدُّعَاءِ ... مَعَ الثَّنَا وخَالِصِ الْوَلاَءِ
وذاكَ لاَ يَحْتَاجُ لِلدَّلِيل ... وَلاَ لِبُرْهَانٍ وَلاَ تَعْلِيلِ
وَيَعْرِضُ الْفَقِيرُ لِلْمَخْدُوم ... أَنَّ وُفُودَ رَبِّنَا الْعَظِيم
فِي نِعْمَةٍ وَصِحَّةٍ وَعَافِيَهْ ... لٰكِنْ مِنَ الأَكْدَارِ لَيْسَتْ صَافِيَهْ
فَالْحَمْدُ لله عَلَى الأَحْوَال ... جَمِيعِهَا يَا صَاحِبَ النَّوَال
سابع عَشِرْ الشَّهْر جِئْنَا الأَزْلَمَا ... نَسْأَلُهُ بالْخَيْرِ أَنْ يُتَمِّمَا
مِنْ فَضْلِهِ وُجُودِهِ السَّلاَمَهْ ... بِجَاهِ مَنْ ظُلِّلَ بِالْغَمَامَهْ
وَهَاكَ مِنْ أَخْبَارِ وَفْدِ الله ... بَعْضَ الْحَدِيثِ يَا عَلِيَّ الْجَاهِ
أَمَّا الْغَلاَ فَإِنَّهُ قَدْ عَمَّمَا ... أَرْضَ الْحِجَازِ بَلْ تَعَدَّى وَنَمَا
بِحَيْثُ رُبْعُ الْفُول سَاوَى عَشَرَهْ ... وَسِتَّةً مِنْ فِضَّةٍ مُحَرَّرَهْ
وقِسْ عَلَيْه الْبُقْسُمَاطَ والْعَسَلْ ... والسَّمْنَ والْجُبْنَ وَلاَ تَنْسَ الْبَصَل
كَذَا الْجِمَال قَدْ فَشَا فِيهَا الْفَنَا ... وأَهْلُهَا فِي تَعَب وفي عَنَا
فَمَات في يَوْمٍ مِنَ الْمِئَاتِ ... أَرْبَعَةٌ بِرُؤْيَةِ الثِّقَاتِ
قد عَدَّها الشَيْخ الْجَلِيل الفاضل ... يَحْيَى بن عبدِ الحقِّ وَهْوَ النَّاقِل

وَقَدْ أَتَى مِنْكُمْ كِتَابٌ عَالِي ... حَوَى فُنُونَ الْجَبْرِ والإِفْضَالِ
فَكَانَ لِلْفَقِيرِ فيهِ الشَّرَفُ ... والأُنْسُ والْجَبْرُ الَّذِي لا يُوْصَفُ
قُوبِلَ بالإِجْلاَلِ وَالتَّكْرِيمِ ... وَوَافِرِ ٱلإِقْبَالِ والتَّعْظِيمِ
أَثَارَ وجْداً وَاشْتِيَاقاً وَشَغَفْ ... وانَّ لِلْمُحِبِّ أَعْظَمَ التُّحَفْ
وَاسْتَنْشَقَ الْفَقِيْرُ عَرْفَ حَضرَتِهِ ... إِذْ هُوَ يَحْكِي الْمِسْكَ عِنْدَ نَفْحَتِهِ
أفَادَ عَنْكُمْ أَنَّكُمْ فِي عَافِيَهْ ... وَصِحَّةٍ وَنِعْمَةٍ مُوَافِيَه
وَذَاكَ عِنْدِي أَطْيَبُ الأَخْبَارِ ... فَالحَمْدُ لله الْجَلِيْلِ الْبَارِي
مَخْدُومنا عبدُ الْمَجِيْدِ لَمْ يَزَلْ ... فِي صِحَّةٍ سَالِمَةٍ مِنَ الْعِلَلْ
كذا أَخُوهُ والْعِيَالُ كُلُّهُمْ ... وَبَلَّغ الْفَقِيْرُ ذِكْرَكُمْ لَهُمْ
وَجَمِيْعِ مَنْ غَدَا مَوْلاَنَا ... مُصَرِّحاً بِذكْرِه إِعْلاَنَا
وَكُلُّهُمْ مُبْتَهِلُوْنَ بِالدُّعَا ... جَهْراً وزَارُوا قَبْرَ خَيْرِ الشُّفَعَا
وَبَلَغُوا الآمَالَ والأَوْطَارَا ... وَقَبَّلُوا ٱلأَرْكَانَ وٱلأَسْتَارَا
لَكِنَّهُمْ مُذْ قَلَّتِ الْجِمَالُ ... فِي تَعَبٍ قَدِ اقْتَضَاهُ الْحَالُ
وَلَمْ نُشَاهِدْ قَطُّ مَاجَرِيَّهْ ... قَدْ حَصَلَتْ كَهٰذِهِ الْقَضِيَّهْ
مَوْتُ الجِمَال حَيَّرَ ٱلأَلْبَابَا ... مِنَّا وَأَبْدَى عَجَباً عُجَابَا
وأَكَّدَ الْعَجْزَ لِوَفْدِ الْحَرَمِ ... هُرُوْبُ أَصْحَاب جِمَال ٱلأَزْلَمِ
قَدْ حَمَّلُوا النَّاسَ مِنع الْمَشَقَّهْ ... أمراً عَظِيْماً مَعَ بُعْدِ الشُّقَّهْ
عِلَّتُهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَظْمَهْ ... إِذْ لَيْسَ فِيْه لِضَعِيْف رَحْمَهْ
بَلْ يأْخُذُ الْجِمَالَ بِالْعُدْوَانِ ... والظُّلْمِ والْغِلْظَة والْبُهْتَانِ
فَشَرَدَتْ جَمَاعَةُ الرَّبَائِعِ ... مُذْ وَصَلُوا ٱلأَزْلَمَ بِالْبَضَائِعِ
وذاكَ خَوْفَ أَنَّهُ حِيْنَ يَصِلْ ... يُشْبِعُهُمْ سَبًّا ويَخطَى بِالإِبِلْ
وامْتَنَعُوا أَنْ يَصْحَبُوا عَلِي قَرَا ... لأَكْرَةٍ، لِخَوْفِهِم مِمَّا جَرَى
وصَمَّمُوا فِي عَزْمِهِم وَشَدَّدُوْا ... واعْتَصَمُوا بِالْبَرِّ لَمَّا شَرَدُوا
فَكَانَ ذَا مِنْ آكَدِ ٱلأَسْبَابِ ... لِرَمْيِ حَمْلِ النَّاسِ بِالتُّرَابِ
نَسْأَل رب الْعَرْشِ لُطْفاً وَمَدَدْ ... يَحُفُّهُمْ فَالصَّبْرُ مِنهُمْ قَدْ نَفَدْ
والْعَسْكَرُ الْوَاصِلُ بِالإِقَامَهْ ... لَمْ يُجْدِ نَفْعاً لاَ وَلاَ كَرَامَهْ
لَمْ يَصْحَبُوا عَلِي قَرَا لِلنَّفْعِ ... لِلنَّاسِ بَلْ لِبَيْعِهِمْ وَالْجَمْعِ
هَذا وأَحْوَالُ الْفَقِيْرِ لاَ تَسَلْ ... عَنْهَا فَعَادَ الْحَالُ غَيْرَ مُحْتَمَلْ

لا يَخْطُر النَّفْعُ لَنَا بِبَال ... وَلَمْ نَرَ كَهٰذِهِ ٱلأَحْوَال
مَشَقَّةٌ وَكُلْفَةٌ وخِدْمَهْ ... وَتَعَبٌ لَمْ يَمْتَزِجْ بِنِعْمَهْ
مَخْدُوْمُنا الطنبغا فَقَدْ فَقَدْ ... مُصَاحِباً كمشبغا ولاَ وَجَدْ
وَعَادَتِ الخِدْمَةُ بِالْجِرَايَهْ ... مَعَ الْعَلِيق بَلْ وَذَاكَ الْغَايَهْ
وكُلُّ مَا نَحْتَاجُهُ عَلَيْنَا ... شِرَاؤُهُ فَانْظُرْ لِمَا قَضَيْنَا
وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يَخْدِمَ ٱلأَنَامَا ... يَوماً يَقُلْ: يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا!!
تَغَيُّرُ ٱلأَحْوَال أَمْرٌ يَصْعُبُ ... والْحُرُّ مِمَّا فِيْهِ ذِلٌّ يَهْرَبُ
غَرامَةُ الْمَال بِغَيْرِ طَائِل ... يَمْنَعُهَا كُلُّ لَبِيْبٍ عَاقِل
بُعْدٌ عَنِ ٱلأَوْطَان لاَ لِمَصْلَحَهْ ... وَلاَ لِنَفْعٍ حَاصِلٍ مَا أَقْبَحَهْ
الْحَجُّ لاَ يُفْرَضُ إلاَّ مَرَّهْ ... وَلاَ يَسُوْغُ فِي حَيَاة مُرَّهْ
مِمَّا يرى مِنْ أَعْظَمِ الشَّدَائِد ... الدَّيْنُ والأَسْفَارُ لاَ لِعَائِد
مُرور أَيَّام وَدَهْر فِي تَعَبْ ... يُقَارِنُ الْخُسْرَانَ مُوجِبَ الْعَطَبْ
يَا ضَيْعَةَ الأَعْمَار لاَ لِطَائِلِ ... وَلاَ لِنَفْعٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِل
مَشْغَلَة عمَّا يُفِيْدُ النَّفْعَا ... رَذِيلَةٌ تُدْنِي لِقُبْحِ الْمَسْعَى
لٰكِنَّ فَضْل الله خَيْرُ مُرْتَجَى ... ومَنْ يَكُنْ مُعْتَصِماً[٢] بِهِ نَجِي
وَجُوْدُ مَوْلاَنَا الْمَقَرُّ النَّاظِرِ ... نَرْجُو بِهِ حُصُوْلَ خَيْرٍ وَافِرِ
فَإِنَّه مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ ... لِلْخَيْرِ دَام عَالِيَ الْجَنَابِ
مُؤَيَّداً عَلَى الْعِدَا مُظَفَّرَا ... مُسَدَّدَ ٱلأَحْوَالِ كَهْفَ ٱلأُمَرَا
مُرْتَقِياً لأَعْظَمِ الْمَرَاتِبِ ... مُقَلَّداً لأَفْخَمِ الْمَنَاصِب
مِنْ نَفَعَ الْعِبَادَ دَامَ مَجْدُهُ ... وَنَجَحَتْ آمَالُهُ وَقَصْدُهُ
مَن قَلَّدَ ٱلأَعْنَاقَ أَطْوَاقَ الْمِنَنْ ... كَانَ خَلِيْقاً بِوِقَايَةِ الْمِحَنْ
مَنْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى مَحَبَّتِهِ ... كَانَ جَدِيْراً بِتَمَام نِعْمَتِه
مَا زَالَ مَرْفُوْعاً لِخَفْضِ حَاسِدِ ... مُنْتَصِباً لِقَمْعِ كُلِّ حَاسِدِ
مُلاَزِماً لِلْجَزْم فِي ٱلأُمُوْرِ ... بِكُلِّ خَيْرٍ حَسَنِ التَّدْبِيْرِ
فِي رَابِعِ الْعِشْرِيْنَ قَدْ وَصَلْنَا ... مَنَاخَ أَيْلاَ وَبِه نَزَلْنَا
وَطَابَ فِيْه الْوِرْد وَالْمَقِيْل ... وَحَسُنَ النُّزوْل والرَّحِيْلُ
فِي ثَالِثِ الشَّهْر الَّذِيْ مِنْ بَعْدِهِ ... سَيَنْتَهِي سَفَرُنَا لِجِدَّهْ
هَذَا كَلاَمُنَا وَنَرْجُو اللَّهَ أَنْ ... يُتِمَّ مَا نَرْجُوْهُ فَهْوَ ذو الْمِنَنْ

ثُمَّ سَلاَمٌ عَاطِرٌ مُطَيَّبُ عَلَى جَمِيعِ مَنْ إِلَيْكُمْ يُنْسَبُ
وَمَنْ يَسَلْ عَنَّا مِنَ الأَصْحَابِ وَسَائِرِ الإِخْوَانِ وَالأَحْبَابِ
وَقَدْ أَطَلْنَا فِي الْكَلاَمِ فَاحْتَمِلْ وَاسْتَوْفِ نَظْمَنَا وَعنه لاَ تَحُلْ
وَارْقَ عَلَى فَرْقِ الْعِدَا مُؤَيَّدَا مُعَظَّماً مُكَرَّماً مُمَجَّدَا
فِي عِيْشَةٍ رَاضِيَةٍ مُخَلَّدَهْ وَنِعْمَةٍ صَافِيَةٍ مُجَدَّدَهْ
واسْلَمْ ودُمْ وَلاَ تَخَفْ سُوْءاً يَرِدْ وَكُنْ عَلَى فَضْلِ الإِلٰه مُعْتَمِدْ
واهْنَ بِأَهْلٍ وَصِحَابٍ وَوَطَنْ وكَيْدِ أَعْدَاءٍ عَلَى مَرِّ الزَّمَنْ
أَنْهَى إِلَيْكُمْ ذَا عُبَيْدُ الْقَادِرِ خَادِمُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَحَابِرِ
ابنِ الْجَزِيْرِي الْحَنْبَلِي الأَنْصَارِي وَقَاهُ مَوْلاهُ عَذَابَ النَّارِ
مُحِبُّكَ الْمُخْلِص فِي وَلاَئِهِ الشَّاكِرُ الْمُكْثِرُ مِنْ ثَنَائِهِ
يَحْمَدُ رَبَّ الْعَرْشِ مَا هَبَّ الصَّبَا مُصَلِّياً عَلَى النَّبِي الْمُجْتَبَى
والآلِ وَالصَّحْبِ بِهٰذَا أَخْتِمُ قَوْلِي واللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ
فِي رَابِعِ الْعِشْرِيْنَ مِنْ مُحَرَّمِ رَقَمْتُ نَظْمِيْ بِلِسَانِ الْقَلَمِ
عَامَ ثَلاَثٍ بَعْدَ خَمْسِيْنَ مَضَتْ مِنْ بَعْدِ تِسْعِ مِئَةٍ قَدِ انْقَضَتْ
وَنَسْأَلُ الرَّحْمَنَ حَسَنَ الْخَاتِمَةْ والْعَفْوَ فِيْمَا قَدْ غَدَوْتُ نَاظِمَةْ
فَهُوَ وَلِيُّ كُلِّ جُوْدٍ وَكَرَمِ وَصَاحِبُ الْخَيْرِ ومُعْطِي النِّعَمِ

عدتها ٩٢ بيتاً.

سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة: تولى إمرة الحاج حسين بن عبد الله كاشف إقليمَي الفيوم والبهنساوية، وهو جركسي الجنس من أباظا، يقال: إنه كان مملوكاً للصارمي إبراهيم المرقبي الذي أنفذ فيه حكم الله تعالى أحمد باشاه شنقاً بباب زُويلة على حين غفلة من أمره، وأخبرني صاحبنا الجناب العالي المحيوي بن أبي أصبع أنه باقٍ على رقِّ إبراهيم المرقبي إلى حين وفاته فإنه مات بغتة، ولم يُعْتِقْهُ ثم إنه فاز بنفسه، وخدم الكشاف في ولايات الأعمال والبلاد، إلى أن ترقى في زمن داود إلى كشف الفيوم والبهنساوية، وكان من الفروسية والشجاعة والهمّة العالية والكرم النفسي بمحل كبير، ولما أن تولى هذه الإِمْرَةَ استنابني في تجهيز هذا المهم الشريف السني، وتوجه إلى بلاد الكشف، وأوصى على ما يريد أن يفعله من حسن (اليرق) والتأنق في مأكولات السنيح، فكان ترتيباً حسناً على نمط ما كان يفعله أعيان الأكابر وأكابر الأعيان، وانتخب من كل شيءٍ أحسنه وأَجَدَّهُ، لا كما يفعله بعض الممسكين في هذا

الزمان، من الخيام المعتبرة، والأكوار بالقماشات المنوعة المشتهرة، وأما سنيحهُ فإلى مائة ما كان يفعل في قدم الأيام، من محاسن التعابي ونظافة أصنافها أَكْثَرَ من حمل السكر والحلوى والسواقة، وأَطايب أصناف المأكولات، والجبن الجاموسي المملوح في الزيت الطيب المطيب، عوضاً عن القايات، والعسل النحل المصري المنقّى، عوضاً عن العسل الأسود، ومن القاورمة على اختلاف أنواع من اللحوم، فمن الدجاج المعلوف ما يزيد عن خمس مئة طائر، ومن الأوز المعاليف السمان نحو مئة زوج، ومن الأغنام الثقال ذوات اللوايا المعتبرة مقدار ما كان يذبحه غيره مراراً، ومن الأبقار المعلوفة كذلك، وجعل جميع أسبابه وثقله وما عساه أَن يحتاج إليه مستجد الإنشاءِ، على أَتم ما يعمل، غير أَنه ـ رحمه الله تعالى وعفا عنه ـ كان سفّاكاً للدماءِ، مولعاً بقتل النفس في الحل والحرم، وحالة الإحرام، وفي تلك المواقف العظام، والمشاعر الكرام، سواءً كان المقتول يستحق القتل أَم لا، وسواءً كانت جريمة المقتول تافهة جدًّا ثبَتَتْ أَم لم تثبت، واتفق له بمنزلة عُيُونِ الْقَصَبِ ذهاباً أَنْ وجد جماعة من عربان الحمل وغيرهم في طرف الحج، فأَمسكهم، ونَوَّع لهم القتل فعلّق بعضهم في حديدة على شجر العِضاه الكبار وهم أَحياءٌ، وأَطلق تحتهم النيران الشديدة، بعد أَن أَمر بجمع الأَحطاب الكثيرة الصلبة، وأَجّج النار إِلى أَن أَحرقهم وذاب لحمهم، وأَمر المشاعليَّ أَن ينادي تحتهم: يا لَحم مشوي كل كذا وكذا رطل بنصف، فلقب حينئذ بحسين الشَّوّى، وكانت الحجاج يقولون: امْشي ولا تَتَلَوّى، واحذر من حسين الشَّوّى، وأَتذكر أَنَّ عند دخوله إِلى مكة المشرفة، وهو متلبس بإِحرام العمرة مسك بوادي طارِف الْمُنْحَنَا وقت الغروب خمسة أَنفار من عربان الحجاز ليست لهم جريمة، وطلب السيّاف فلم يجده في ذلك الوقت فرمَى أَعناقهم بيده وتركهم، وكان قد تقدّم له بِخُلَيْص قَبْلَ قتله لهؤلاءِ أَنه أُحْضِر إليه بمخيمة شابٌ صغير، من الفلاَّحة الحجاج مَا طَرَّ شاربه، ومعه شخص يذكر أَنه كان في يده ثلاثة أَنصاف أَو ستة من الفضة ـ أَشكُّ في هذا العدد الحقير ـ فما وجدتها في يدي، ولم يكن بالقرب منّي سوى هذا الشاب، ولا أَعلم هَلْ أَخذها أَم لا. فأَمر بضرب عنق الشّابّ مسرعاً، ولم يبحث عن ذلك بوجه، فضربت عنقه. ثم في أَثناءِ ذلك أَحْضَرَ إِليه بعضُ القوّاسة بخدمته عبداً حبشياً أَمرد، صغير السن، ذكر العبد أَنه من عبيد أَولاد مالك بن رُومي، أَهل الدرك بالمنزلة، وأَنه كان واقفاً على رأْس حدرة السّوِيق، لمنع مَن يتخطّف، أَو يُؤْذي الحجاج لكونه عبد أَصحاب الدرك، وقال القوّاس: رأَيته يعري الحاج هناك والحال أَن العبد يضعف فعله عن مثل ذلك لصغره، فلعلَّ القوَّاس طلب منه سكينة أَو غيرها

فلم يُعْطِه فكافأه بذلك، فبمجرد سماع أَمير الحاج لذلك أمر بِرَمْي عنقه بحذاءِ الْفَلاَّح، فراجعته في ذلك، وأَخبرته بحالة الإحرام، وأَنَّ الصيد في هذه الحالة وأكله والدلالة عليه ممنوع، [فراجعته فامتنع، وقتل العَبْد] من غير شاك، ولا جريمة، ومن ذلك أَيضاً أنه اتفق في ليلة المبيت بعرفة المعظم، أنه ركب ليلاً ليطوف على الحجاج، ولا يخفى أَن ليلة عرفة يستمر أَهل مكة وعربانها يأتون إِلى عرفات شيئاً فشيئاً لا يمنعهم من ذلك مانع، فلما طاف خارج (الوطاق) رأى أَربعة عشر نفراً من عربان الحجاز، يمشون فقبض عليهم، وقطع رؤُوس بعضهم وأَشهرها ليلاً، وترك بعضهم في الحديد إِلى أَن يصبح الصباح يفعل بهم في يوم الموقف الأَعظم ما يريد، فبلغ قاضي مكة، وكان إِذ ذاك عبد الباقي بن العربي الرومي، فبلغ الشريف صاحب مكة، وكان مصطفى باشا قد حضر من المملكة اليمانية في تلك السنة معزولاً عنها، بأزدمر باشا فبلغه أَيضاً ذلك، وكان قد بدا من الأَمير حسين بعض إِهمالات تتعلق برعاية جانب مصطفى باشا، منها عدم سلامه عليه لما دخل مكة في أَول يوم، فإِنه كان من بعض خدمته في إِقليم الغربية لما كان كاشفاً بها، وعُدَّتْ عليه بعض أَلفاظ مهملة في حقه فحنق عليه، وأَجمعت هؤلاءِ الأَكابر على الإِنكار عليه، ومزيد القدح في دينه وأَفعاله وتَجرُّئِهِ على عباد الله تعالى في ذلك الموقف المكرم، وحرضهم مصطفى باشا على ذلك أَشد تحريض لمصادفة ذلك ما في نفسه منه، فأَرسل إِليه قاضي مكة يتوعده، وأَطلق بقية العربان الذين في حديده وتكرهت من أَفعاله الشرفاءُ أُمراءُ مكة تكرهاً زائداً، ولما اجتمعت بالسيد الشريف بقية السلالة الطاهرة طراز العصابة الزاهرة، أَبي نُمَيٍّ بن بركات بعد النزول من مِنى بمنزله شكا كثيراً من أَحواله، وعدّد له أَفعالاً قبيحة، منها تكبره على الأَشراف والوقيعة في جانبهم، ومنها استحلال قتل النفس المحرّمة في الحل والحرم ظلماً، ومنها أَلفاظ نُقِلَتْ عن الأَمير حسين إِلى السيد الشريف تقتضي الاستخفاف بمقامه عند السلطنة، وامتنع السيد الشريف من إِعطائه عادته الجارية لأُمراءِ الحاج المرة بعد الأُخرى فتلطّفت في أَجوبة ذلك، واعتذرت عنه بأَعذار في الجملة، وحسَّنتْ له أَن يراعي أَحواله ويعطيه العادة لكونه من أَغراض داود باشا وكان داود باشا في تلك الأَيام من المنكرين على السيد الشريف أَشدَّ الإِنكار بسبب عدم تجهيز هديته إِليه، وتكرارها في كل وقت فاستصوب رأْيي، ودفع له العادة، وفي النفس ما فيها من الكوامن له، وكتب القاضي بمكة محضَراً بما بدا من الأَمير حسين فكتب عليه الشريفان أُمراءُ مكة وهما بقية النسل الكرام الشريف أَبو نُمَيٍّ وولده الشريف أَحمد ـ أَدام الله تعالى بقاءَهما ـ وكتب أَيضاً

أعيانَ من مكة قضاتها وأكابرها، وجهّز العرض إلى الأبواب العالية، وصادف مع ذلك توجه المقام العالي مصطفى باشا إلى الأبواب الشريفة في تلك السنة، فزاد في جراحاته، وأكثر من الحط عليه في جميع أفعاله وحركاته، ورضي بأن يكون أميراً على الحاج عوضه بعد ارتقائه إلى تلك الذروة العليا. فعزل حسين حينئذ، وتولى إمرة الحاج مصطفى باشا بعد مملكة اليمن، لأجل حظ النفس الثائرة من الأمير حسين، ونقص من عادة هذه الإمرة أربعة أكياس وخمسة آلاف نصف، وجهّز إليَّ مكاتبته في المملكة الرومية يخبرني بذلك، ولما حضر من الأعتاب الشريفة أميراً على الحاج، شقَّ ذلك على داود باشا لفعله لكون أنَّ الأمير حسين من أتباعه وأغراضه، وأكثر من اللوم لمصطفى باشا، لفعله ذلك، وانحطاط منزلته لأجل حظ النفس، وعوّقه عن التمكن عمّا جاءَ بصدده. وجهّز عروضاً من تلقاءِ نفسه يسأل في إعادة الأمير حسين إلى الحج اتباعاً لغرضه، بعد أن ألبسه تشريفاً بإمرة الحاج، ودفع إليه العادة من الديوان الشريف، واستمر الأمير حسين في عمل (اليرق) وجهز الحَمْل إلى البنادر، جدة والينبع، إلى أن عاد الجواب من الباب السلطاني في يوم عيد الفطر من سنة أربع وخمسين بمنع الأمير حسين، واستمرار ولاية المقام العالي مصطفى باشا اليمن على إمرة الحاج، فكان ذلك من أشدِّ ما ورد على داود باشا من الأكدار المؤلمة، لأجل حسين، بحيث أنه تمرّض لذلك، واستمر يعاوده المرض، ويطيب، إلى أن توفي بالقاهرة بقلعة الجبل في سنة ست وخمسين وتسع مئة، ودفن بالقرب من مشهد الإمام الليث بن سعد بالقرافة، ولما حضر الحكم والجواب باستمرار مصطفى باشا على إمرة الحاج مدة اختياره لا يعزل إلاَّ إن اختار ذلك، وانقضى إربه من الإمرة من تلقاءِ نفسه فعينت حينئذ من الباشا، والدفتدار، لنقل الأمتعة التي تقوم بالثمن بحكم الضرائب المتداوَلة، وتؤخذ من ديوان الأمير حسين إلى ديوان مصطفى باشا كان، وعُيِّنَ بصحبتي الأمير مصطفى (كتخداي) جماعة (الجاويشية) إذ ذاك، والأمير يحيى (جاويش) فتوجهنا إلى منزل الأمير حسين، وأخذنا ما يحتاج إليه أمير الحاج من الأسباب والجِمال، وحوسب بذلك من العادة، وشقَّ ذلك جدًّا على الباشا كما قدّمنا ذكره، واستمر الأمير حسين المذكور على وظيفة الكشف الذي كان بيده، إلى أن توفي داود باشا، وحضر علي باشا من الأبواب الشريفة متولّياً لإقليم الديار المصرية، بعد أن جلس مصطفى باشا على تخت المملكة، وسار أحسن سيرة في الرعايا، وكفَّ عنهم أسباب الضرر في سائر الأحكام والقضايا.

ولما حضر علي باشا لم يحضر إليه الأمير حسين كما هي عادة الكشاف ولم

يقابله إلا بعد مدة طويلة، واحتج باشتغاله بأُمور الإقليم، وأَنه لا يمكنه إهمال الإقليم، ويحضر إلى القاهرة، فتأَثَّرَ علي باشا في نفسه، وحرّك هذا التأْثير مصطفى باشا مما هو كمين عنده من جهة الأَمير حسين، ونسب إلى العصيان على السلطان، وأَنه اتفق مع بعض مشايخ عربان الإقليم على ذلك، فأَحضر بالحيلة إلى قلعة الجبل، وقابل علي باشا فاعتقله بالبرج، وعرض أَمره إلى الأَبواب السلطانية فعاد الجواب بقتله فشنق على الجميزة بالرملة، يوم قطعت رأْس الأَمير محمد جلبي ناظر الأَموال بمصر، كان، وذلك في صبيحة اليوم الرابع عشر شهر رجب الفرد سنة سبع وخمسين وتسع مئة ـ رحمه الله تعالى، وعفا عنه ـ.

فلقد كان مع ما ذكرنا عنده من سماحة النفس، والحلم لجماعته وذويه، ومَن يلوذ به إلى الغاية، ولقد حلف لي يوماً من الأَيام بمقامة الأَزْلم بالرجعة، في إعادة كلام سبق لغيري: والله يا قاضي وحق سيف السلطان لو رأَيت مَن يخدمني يحصل له مِلءُ خيمتي هذه ذهباً حتى يصل إلى العمود، ولم يحصل لي شيء منه لكان ذلك مما يسرني، ولا أَحسده عليه ـ عفا الله عنه ـ.

سنة أربع وخمسين وتسع مئة: تولى إمرة الحاج مصطفى باشا، كما ذكرنا، وهي السابقة من ولايته ولم تحمده أَهل الدولة على ذلك، لانحطاط رتبته، وكان في غاية الرفعة والعظمة، وتردد أَرباب الوظائف بالديوان الشريف إليه، من الجاويشية والأُمراءِ وغيرهم، وصارت عروضه ترد إلى الأَبواب السلطانية وترد إليه الأَجوبة (الخاقانية) على يد مملوكه يوسف (كتخداي) خدمته، وعلت رتبته عن مقام إمرة الحاج وزهت نفسه في الحقيقة عنها، واستصغر كل كبير، لتمكنه من الأَبواب الشريفة، وكان للرعايا ولأَرباب الدولة به نفع عام، لأَنه كان مرجعاً في الأُمور المهمة والوقائع الحادثة بمصر، وأَعمالها، وكان محبوباً عند جميع أَهل القاهرة، ولهم في أَوصافه، وعند ذكره أَثنية باهرة.

وفي تلك السنة اُتفق يوم السابع من ذي الحجة الحرام بمكة المشرفة أَنَّ الحجاج بينما هم في الحرم يطوفون، ويشاهدون سحراً إذ رأَوا دخاناً صاعداً من جانب باب الكعبة الشريفة، فبادر الأَكابرُ من الشريف أَبي نُمَيٍّ وولده الشريف أَحمد، ومصطفى باشا، وأَكابر الحجيج يسعون إلى باب الكعبة، وفتحوه بعد أَن حصل عند عامة الناس غاية الوجل، فوجدوا النار في عقب الدَّرْفَةِ اليمنى، ففكت الدرفة، وأُطفئت النار، وأُعيد الباب إلى حاله، وسكنت هذه الحادثة ولله الحمد، وكتبت بهذه الواقعة إلى الشيخ العلامة العمدة قطب الملّة والدين النهروالِيِّ مفتي السادة الحنفية

أذكره هذه الواقعة، وكان في تلك السنة توجه إلى القاهرة، أقول من الرجز:

يُقَبِّلُ الأَرْضَ وما يَخِيبُ مَنْ ... فازَ بتقبيلِ ثَرَى غَوْثِ الزَّمَن

سيدنا عَيْنِ أئِمَّةِ الهُدَى ... فازَ الذي يوماً بعلمه اقْتَدَى

محقق العلوم للطلاب ... وعمدة المعقول والآداب

وما الذي أَقوله في وَصف مَنْ ... رقا العُلا لمَّا حوى كُلَّ حسنْ

أُنهي إليك كثْرَةَ الأَشواقِ ... وأَلَمَ البَعادِ والفراق

فالبُعْد للعَبْدِ أثارَ الوَجْدَا ... وكامن الأشواق أبْدَى وَقْدا

فَحَالُه أودَتْ به المشقَّة ... يَودُّ أَنْ لَوْ طُويَتِ ذِي الشُّقَّة

إنْ تَسْأَلُوا عَنْ خَبَرِ الحِجَاز ... فإنَّني أُبْدِيهِ بالإيْجَازِ

فِي سابع الثَّمان كانَتْ واقِعَة ... تُذْكَرُ لِلْمَوْلَى وَلَيْسَتْ فاضِعَة

تَلْخِيصُها رُئِي دخانُ مرتفعْ ... من باب بيتِ اللّه ليسَ ينقطِعْ

فبادرتْ جماعة الأكابر ... وَفَحَصُوا عَنْ سَبَبٍ مُغادِر

مُنْتَشِرين بالْمياهِ الوَافِيَة ... وفَتَّشُوا لِلْبَيْتِ كلَّ ناحِيَة

فَلَمْ يُرَ غَيْرُ دخان قدْ سَطَعْ ... من جانِبِ البَاب اليَمِين وارْتفَع

فَفُكَّتِ الدَّرْفَةُ في الحال وقَدْ ... شُوْهِدَ عَقْبُ البَابِ كَانَ قَدْ وَقَدْ

مِنْ غَيْرِ فُحْش ونَمَى لِقَائِمَة ... بجانِبِ الباب ولكنْ سَالِمَة

فَأَصْلَحُوا مِنْ ذاكَ كُلَّ ما فَسَدْ ... وأَعْلَنُوا بالشُّكْرِ لِلّهِ الأَحَدْ

فإِنَّهُ لبيتِهِ يُحَامِي ... مِنْ كُلِّ مَكْروه عَلَى الدَّوَام

وَعَلَّ نَارَ الشَّمْعِ بِالْبَاب سَمَتْ ... بِحَرِّهَا لِعَقْبِهِ قَدْ أَضْرَمَتْ

وكلُّ أَهْلِ البَلَدِ الحَرَام ... فِي نِعْمَةٍ وَافِيَةِ الأَقْسَامِ

وصِحَّة سالمةٍ من الغَلاَ ... وَمِنْحَةٍ فَالْحَمْدُ لِلّهِ عَلَى

وَمَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا العَام ... فِي كَثْرَةِ الرَّخَاءِ والإنْعَام

فَسَائِرُ الأقْوَاتِ عَمَّتْ وَنَمَتْ ... وَالْمُزْنُ مِنْ سَمَائِهَا لَقَدْ هَمَتْ

وابْتَسَمَ الحِجَازُ بِالْمَسَرَّة ... وآذنَ الرخا بِكُلِّ قَرَّة

والرَّوْضُ زاهٍ والرَّبِيعُ زاهِرُ ... والعَرْفُ بادٍ والنَّسِيمُ عَاطِرُ

والغَيْثُ قد غَاثَ بِذَاكَ الوَادِي ... وَمَاجِدٌ مُغْلِنَةٌ تُنَادِي

أَعْنِي تُشِيرُ بلسانِ الحَالِ ... كأَنَّهَا تُفْصِحُ بِالْمَقَال

تَنَزَّهُوا عِنْدَ رياضِي وارْتَعُوا ... واَنْتَشِقُوا عرف نَسِيمِي وارْبَعُوا

أَخْبَرَنا بذَلِكَ الثِّقَاتُ وأَنَّهُمْ مَضَتْ لَهُمْ أَوْقَاتْ
وكَانَتِ الوقْفَةُ يومَ الجُمُعَه في مَشْهَدٍ زكى وَطَابَ مَجْمَعُهْ
ولَمْ نشَاهِدْ قطُّ حَجًّا قدْ جَمَعْ خَلائِقَ اللّهِ هَكَذَا الْمُجْتَمَعْ
سادس عَشْرِ الشَّهْرِ جِئْنَا الأَزْلَمَا نَسْأَلُهُ بِالْخَيْرِ أَنْ يُتَمِّمَا
فِي صِحَّةٍ تَصْحَبُها السَّلاَمَهْ وَوَافِرِ الإِحْسَانِ وَالْكَرامَهْ
في مستهلِّ صَفَرِ الْمَذْكُورِ خِتَام هذَا السَّفَرِ الْمَبْرُورْ
وإنْ تَرَ عَيْباً فَسَامِحْ وَاغْتَفِرْ فَإِنَّهُ سُطِّرَ في وَقْتٍ عَسِرْ
والوقْتُ ضَاقَ عَنْ بيان مُشْتَهِرْ وأَنَّهُ قَدْ جَاءَ: مَنْ سَتَرْ سُتِرْ
ونَسْأَلُ اللّهَ الْعَظِيمَ المِنَّهْ يُدْخِلُنَا مَعَ الْكِرَام الْجَنَّه
والحمدُ للّهِ مُصَلِّياً عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ ذَوِي الْعلاَ

سنة خمس وست وخمسين وتسع مئة: كان أمير الحاج مصطفى باشا، على حاله، وبهذه السنة الأخيرة تَمَّ له تسع سنوات أميراً على الحج منها خمس وهو كاشف الغربية، وسنة واحدة أمير (الصنجق) قبل توجهه إلى اليمن، وثلاث سنوات بعد عودته من المملكة اليمانية، وقد صار مرجعاً يرجع إليه، ويعول في مهمات أمور المملكة المصرية عليه.

سنة سبع وخمسين وتسع مئة: تولى أولاً مصطفى باشا زَبيد على حاله، وجهز الحمل، وقضى غالب أشغاله، ثم في عشري رمضان المعظم من السنة وردت أحكامٌ سلطانية مظفرية منها: أن يتوجه مصطفى باشا إلى مملكة اليمن، وصحبته من (بلكات) العسكر المنصور سبع مئة نفر خارجاً عن (الجاويشية) والأتباع شَدًّا لعضد أَزدمر باشا على الإمام الزيدي، وكان السبب في ذلك أن مصطفى باشا ثقلت إقامته بالقاهرة على علي باشا، لكون أَنَّ المذكور كان باشا باليمن، وكان أكابر الديوان يترددون إلى منزله ويعرض إلى الباب كعلي باشا، فأعرض إلى الباب الشريف في أَمره، وذكر في عرضه أَنَّ أزدمر باشاه يريد عسكراً لمساعدته وحسَّنَ لهم أن يكون الباش عليهم مصطفى باشا، لخبرته سابقاً بأحوال اليمن، فإنَّ أزدمر باشا كان كاشفاً بجازان في ولايته، وهو الذي عرض له في استحقاقه للعلم السلطاني، فعزل من إمرة الحاج، وشَرَع في أَسباب التوجه إلى اليمن من طريق البحر، وورد حكم شريف بِعرض من علي باشا أَيضاً باستقرار الأَمير محمود بن عبد الله الرومي (كخية) داود باشا كان ـ في إمرة الحج الشريف لسنة تاريخه، عوضاً عن مصطفى، فإن

المذكور تقدّم له أنه توجه لملاقاة علي باشا ـ عند حضوره من الأَعتاب الشريفة إلى الأَقطار الشامية، وقدم له مَحَفًا وذخائر من مخلفات المرحوم (خشكلدي) أَمير جدة المعمورة، لأَنه تزوج بجاريته أُم أَولاده من بعده، والمذكور حسن الشكل والملبس، له ميل إلى الشهامة والناموس، وحب التَّرفُّهِ، فأَظهَرَتْهُ على جانب من ذخائره، ولم يكن له وظيفة سابقة، ولا منصب، وإنما كان غالب اشتغاله بالزراعة من القصب وغيره، فكانت ولاية الأَمير محمود لإمرة الحاج في ثامن عَشْرَي شهر رمضان المعظم سنة تاريخه كما ذكرنا، وطلبني علي باشا لإيصال الأَصناف و(اليرق) المنقولة من ديوان مصطفى باشا إلى محمود أَمير الحاج، وأَكَّدَ في بذل الهمة مع الأَمير محمود، وأَظهر غرضه في إمرته، وعين الزيني قيت بن عبد الله عتيق السلطان المرحوم قانصوه الغوري عرف بالداوودي (دواداراً) في خدمته فإن المذكور جركسي الجنس، وكان تقدّم له السفر إلى الحجاز (دواداراً) مع المرحوم جانم من قصروه مراراف، وسافر معه (شادًا) على السنيح أيضاً. وله شهرة بالفروسية، وحسن التصرف في أَشغال الإمرة، فجهز الأَمير محمود في تلك السنة على أَحسن قانون، وعاد الناس عنه راضون، وله شاكرون، وبدا منه من شهامة النفس والسماحة والحلم والأَناة وكرم الأَخلاق، وعدم التلفُّتِ إلى أُمور الدنيا، والإعراض عن الطمع، فأَثنى عليه عامَّةُ الحجاج، وكان سفراً هنيئاً بحيث أَنه لم يحصل لفرد من أَفراد الحجاج أَدنى ضرر، ذهاباً وإياباً.

سنة ثمان وخمسين وتسع مئة: تولى الأَمير محمود إمْرَةَ الحاج على جاري عادته، وعزل قيت الداوودي من (دواداريته) وذكر أَنه يستبد بالأُمور دونه، ولم يعرض عليه ما يفعله وعيّن عوضه حسين كيلاني، من نفر العسكر لأَن في الخالية كانت العامة تقول: ما أَمير الركب إلا قيت (الدواداري) وأَمير الحاج عاجز عن حراسة الركب، وأُمور الحكم والتقطير، فلأَجل ذلك غيره.

وفي هذه السنة كانت واقعته مع الأَشراف بمكة كما سنذكره، ولولا عَمَّ لُطْفِ الله تعالى بوفده لما عاد من الحجاج في تلك السنة أَحد، وذلك أَن السيد الشريف أَبا نُمَيٍّ بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلانَ دامت معاليه، وأُيدت حركاته وسكناته بعز الله ونصره له في سائر أَيامه ولياليه لما قصد تعيينَ ولده السيد الشريف أَحمد، وتقديمه على بقية أَولاده، فإنه أَكبرهم أَسند إليه إمرة مكة المعظمة في حياته، وحال وجوده، كما فعل والده ـ أَتمّ الله عليه بذلك النعمة كما أَتمها على أَبيه من قبل ـ فلما أَراد إظهاره لذلك، جهّزه بـ(أَرمغان) حافل إلى الباب السلطاني

لمقابلة السلطان سليمان والوزراءِ، وأَهل الدولة وذلك في ولاية سليمان باشا للوزارة العظمى، ليكون ذلك تقريراً له، وتأْكيداً لما قصده السيد الشريف أَبو نُمَيٍّ - أَنجح الله تعالى له المطالب وبلّغه جميع المقاصد والمآرب - وجهّز صحبته وزيره الشريف عرار بن عِجْل بن رميح، وقاضي القضاة التاجي تاج الدين عبد الوهاب بن يعقوب المالكي، وهو عين أَخِصاءِ السيد الشريف، ومعهما جماعة من أَعيان القواد والحفَدة، وتوجه إِلى تلك الأَقطار تصحبه العزة والسلامة، والصحة والكرامة، فبلغ تلك الأَعتاب السلطانية، واجتمع بالحضرة الخاقانية (الخندكارية) في دار ملكه وانتظم بذلك في خواص سلكه، فقرّبه وأَدناه، وأَكرمه وحيّاه، وبجميع ما يحب ويريد ويقصد حَبَاه، وفوّض إِليه إِمْرة مكة المشرفة وتوابعها، على عادة أَسلافه الطاهرة، وأَنعم عليه بعلم مكمل (بطبلخاناه) رومية على أَكمل هيئة فاخرة، وأَن يكون والده السيد الشريف نجم الدنيا والدين أَبو نُمَيٍّ (صنجقاً) جليلاً بالأَقطار الحجازية، يرجع إِليه في تدبير أُمور تلك المملكة الإِسلامية، ويعول عليه في سائر مهماتها السنية.

وعاد السيد الشريف أَحمد أَمير مكة من الأَبواب الشريفة، وهو في غاية الرفعة والجلالة، متولياً ما كان والده يتولاه من الأُمور الظاهرة، كملاقاة أُمراءِ الحاج، ولِبْس التشاريف السلطانية الواردة من الأَبواب الشريفة، ومن المملكة المصرية، وغير ذلك، فَبِمقْتَضَى ذلك صار السيد الشريف أَبو نُمَيٍّ بن بركات في منعة وحمى ورفعة، عن مَن يرد إِلى الأَقطار الحجازية من أُمَراءِ الحاج وغيرهم من أَكابر أُمراءِ السادة الأَروام، ومَن أَراد الاجتماع به من أَكابرهم يتوجه إِلى منزله، ومحل عزه، منفرداً أَو مع بعض جماعته فيقصده للسلام ويتوجه، وأُمور الموسم الظاهرة جميعها منوطة بالسيد الشريف أَحمد، أمير مكة، ومَن يوليه على ذلك.

واتفق أَن السلطان لما أَمر بأَخذ ممالك اليمن وفَتْحِها، وانتزاع ما في يد الإِمام الزيديِّ من ذلك، وتكررت التجاريد من مصر وغيرها إِلى تلك الممالك، وسلكوا فيها وفي طرقها كل مسلك من المسالك، وملكوا صَنعَاءَ، التي هي دار ملك الإِمام، وصارت تلك الدائرة اليمانية غالبها للسادة الأَروام، بعد مُقاساة جُهْد كبير، وتبدد أَموال ورجال من الجم الغفير، والخطبة والسكة للسلطان سليمان، كسائر ممالكه، والنوّاب بها من أَكابر أُمرائه، وصناجقه، والمتولي إِذْ ذاك على تلك الدائرة جميعها أَزدمر باشا، وهو مترجم بالمملكة في الجهاد، وفتح تلك الحصون والبلاد، فإِنه استولى على بلاد الإِمام وما والاها، وعادت تلك البلاد رومية إِلى قريب منتهاها، وصار السيدُ الشريف أَبو نُمَيٍّ وأَولاده في مملكة الحجاز كالشامة البيضاء في الثور

الأَسود، وكالنجم الساطع ضياؤه في حالك ظلام الليل لمن تَهَجَّد، وهو شريف جليل النسب، عريق الحسب، من أولاد الإمام علي ـ كرّم الله تعالى وجهه ـ فإنه أبقاه الله تعالى أَبو نُمَيٍّ بن بركات بن محمد بن بركات، بن حسن بن عجلان بن رُمَيْثَة ـ واسم رُمَيثَة مُنْجد ـ بن أَبي نُمَيٍّ محمد بن أَبي سعد حسن بن علي بن أَبي عمرو قتادة بن إدريس بن مُطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله الْمَحْض بن موسى بن الحسن بن الحسن بن علي بن أَبي طالب بن هاشم بن عبد مناف الحسني الهاشمي.

وأما الأَمان الحاصل بواسطته في تلك الأَقطار الحجازية فلا يُعبَّرُ عنه، فقد أَرْبَى على جميع أَسلافه في ذلك، وكشف القناع لكل مُفْسد وحذَّره عاقبةَ ما هنالك، فمن ذلك أَن صاحبَ المال يسير وَحْدَهُ في تلك الأَقطار، ومعه ما شاءَ من النقود والأَحجار الثمينة وغيرها. ويقصد أَيَّ بلد أَراد من بلاد الحجاز، وتمر عليه طوائفُ العربان وتجوز عليه المشاة والركبان، فلا يتعرّض إليه أَحدٌ بغير السلام، ولا يحصل له منهم أَدْنَى إلمام، فضلاً عن الإيلام، وتنقطع أَحمال التجّار بين مكة وجدَّة وغيرها من بلاد الحجاز، ويتوجه أَربابها لإحضار ما يحملها على ظهره، وتتركها محفوظة بحراسة الله وأَمانه، إلى أن تحمل فلا يتعرض أَحد إليها، ولا يعول بمكروه عليها.

وأما سلوكه لطريق العدل والإنصاف، وخلاص المظلوم من ظالمه، وأَمنه من كل ما يحذر ويخاف، فقاعدته في ذلك حكم الشرع الشريف، وقانون الدين الحنيفِيِّ المنيف، على مُشَرِّعِهِ أفضل الصلاة والسلام، لا يتعدَّى ذلك، ولا يتجاوز في حكم من الأَحكام، ولا يخرج حكمه عن ذلك، بغرض، لفرد من أفراد رعاياه على الدوام.

وأما الراحة والسكون والطمأْنينة الحاصلة للمجاورين بمكة المشرفة، وعدم التعرُّض لفرد من أفرادهم، ولا لشخص من آحادهم، فقد سارتْ بذلك الركبان، ولا تزال الأَلسنةُ رطبة بالثناء عليه بمقتضى ذلك وغيره في كل بلدة ومكان، ومَن طالع كتابنا هذا رأى واطَّلع ما اتفق بمكة في زمن أسلافه من الوقائع، وشدة الخوف للحجاج والتجار، والمجاورين المقيمين بتلك الأَقطار، إلى باكورة زمن والده، مما يتعجب عند ذكره القارىءُ والسامع، وفي الحقيقةَ أطال الله تعالى بقاءه هو عَيْن تلك الكتيبة الشريفة الزاهرة، ونابغة مَن تقدم من أسلافه الطاهرة، وقُطْب دائرتهم، وضوء نَيِّرِهم، وهو الخيِّر بن الْخَيِّر من خَيِّرهم، فكلما حاموا حول حماه، حرسه الله تعالى من كيدهم وحماه، وكلما أَوْقدوا ناراً للحرب أطفأَها الله، فلما دَنَا لهم ما كان بعيداً من مملكة اليمن، واستولى أمرهم على زَبِيدَ وتَعِزَّ وصَنْعَاءَ وعَدَن، شرهت النفوس

كما هي عادتها إلى قبيح إراداتها، وحرّكهم على ذلك فيما بلغني مكاتبات أزدمر باشاه، بكل قول لائق بأصله لا يتحاشاه، ومن جملة القول: إنَّ عسكر صاحب مكة لا يزال يُمِدُّ الإمام، وأنَّ محاباته له لا تنقطع على طول الأيام، وغير ذلك من تُرَّهاته، وما أبداه من زخارفه وتمويهات، فحرَّكَ عندهم بذلك ما كان كائناً، وسوّل لهم الشيطان أمراً كان لديهم كامِناً، فبرز أمرُ السلطان ـ على ما قيل ـ بأَن يَجُوسُوا خلال الديار، فإن بدا لهم أمْرٌ أوقدوا النار، فأبرموا بأن يتكتموا ذلك إلى الغاية، وتقدّموا بالتلطُّف وحسن البداية، بحيث أن ذلك التكتم لم يرد قط على الأفهام، ولا حصل في الفكر ولا جال في الأوهام، وقَدِموا إلى ما عملوا من عمل فجعله الله هباءً منثوراً، وما حصل لوفد الله في ضمن هذه الوقعة من الخلل سيلقونه في القيامة مسطوراً، ولم يكن القائم بهذه الفعلة حميداً ولا نبيهاً، ووقى الله السيد الشريف سيئَات ما مكروا وكان عند الله وجيهاً.

وملخص هذه الماجِريَّة، والإفصاح عن هذه القضية البذية، أَنَّ الأَقطار الحجازية لما كانت في حيز مملكة السلطان سليمان ـ نصره الله تعالى ـ وكان نائبه بها السيد الشريف كما هي عادة آبائه وأسلافه أمدّه الله بإسعافه، وهو ـ بلّغه الله المأمول ـ عربي شريف ولم يكن بها (صنجق) من (صناجقهم) كما هي عادة ممالكهم إلا ما تجدد ببندر جدة في أيام ولايتهم، والسيد الشريف يذكر اسمه على المنبر بعد السلطان، ولم يكن ذلك في مملكة من نياباتهم إلا مكة المشرفة، فإنَّه عادة السادة الأَشراف من قديم الدول والزمان، وسالف آبائهم، وإذا متحصل البندر الذي هو بجدة عن الهندي مقسوم بين الشريف والسلطان نصفين أيضاً، بحكم توالي أمرهم على ذلك من قبل الملك الأَشرف، يتوارثه الخلف عن السلف، فحاولوا الخلاف لأَجل ذلك، وأعملوا النظر فيما هنالك، فإذا المضارُّ الحاصلة عند بلوغ مقاصدهم تزيد عليه أضعافاً مضاعفة، وإذا المطلوب إزالته شريف نسيب، من آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم المصطفى أَشرف المرسلين ﷺ، وليستْ له جنحةٌ ولا طريق يتطرقون إليه بها إلا ما يأنفون منه من ذكره على المنبر، وقسمه لمتحصل البَنْدَر، وهو عريق في هذه الولاية، مالك لأزِمَّتِها، مُحْتَوٍ على تلك الأَقطار كاحتياط الخاتم بالأَصبع، والبَلْدَة المظلومةُ قد رسخ في محل التعظيم والتشريف والتبجيل قدَمُ مَجْدِها، وصرَّحَ التنزيل الجليل والحديث والدليل بعظيم حرمتها وإجلال حَرَمِها، وجيرانِها وَوَفْدِها، وهي حجريَّةٌ صخريَّةٌ جبالية، قليلة الماءِ والْمَرْعَى، ثم الأمر الأَعظم، والحكم المحتَّم أن الله حرم القتال فيها، ولم تُحَلَّ لأَشرف المرسَلين عليه

أفضل الصلاة والسلام إلا ساعةً من نهار، لإظهار دين الإسلام، وخذلان أهل الكفر والنفاق والأَصنام، فلما حركهم أزدمر باشاه ـ فيما بلغني ـ قصدوا عمل الحيلة على صاحبها السيد الشريف، وحاولوا تكتُّمَ ذلك، حسب الجهد والطاقة، وكتِبَ حُكْمٌ شريف بعرض من علي باشا بولاية الشريفين زاير وخير بك أخيه، أولاد الشريف محرم بن هزاع بن محمد بن بركات، وهما ابنَا عم السيد الشريف أبي نُمَيٍّ، وجهزا قبل توجه الركب في مركب سلطاني من طريق البحر إلى جدة، على وجه التكتم مع الإشاعة بأَنهما قد برز أمر السلطان بأن يتوجها مع (جاويش) ليصلح بينهما وبين مولانا الشريف ولد عمهما، فإنهما كانا خرجا من مكة إلى القاهرة على حالة انحراف، أوجب لهما ذلك، ولم يعلم بذلك سرًّا سوى أمير الحاج فقط، وقرر مع الباشا ـ فيما بلغني ـ أنه يتوجه إلى منزل السيد الشريف في يوم عيد الأَضحى، فإنه يكون إذْ ذاك في قلة من عسكره وذويه وجماعته، لتفرقهم لرمي الجمار وأداءِ النسك وغير ذلك، ويكون توجه أمير الحاج كالضيف أو المسلم بطريق المودة والصحبة، في حالة تلك الغفلة، ويغتاله بغتةً، ويقبض عليه، ومَن يقدرون على مسكه من أولاده وذويه، بلا ضرب ولا طعن، فإذا تمت الكيدةُ على الشريف نصبَ عَلَمُ أولاد الشريف محرم، وأظهر ولايتهم ليجتمع عليهم مَن هو من أغراضهم، ويحصل بذلك وفقَ مرادهم، فكان من عناية الله تعالى بالسيد الشريف أنْ تعوقت المركب التي بها أولاد الشريف محرم إلى بعد اليوم المعين الموعود، واستمر أمير الحاج يكتم ما تلقاه من علي باشا، لا يكاد يظهره لأَحد من خلق الله مطلقاً، ولا يعلم ما في ضميره إلاَّ الله تعالى، ولما دخل مكة المشرفة وأخذ في الملاطفة مع السيد الشريف، وإظهار الخداع والمحبة والتغالي في ذلك إلى الغاية، وكان من جملة ما قَصَد به التبعيد عن الأَوهام أنه توجَّهَ في تلك السنة لم يصحبه شيْءٌ من لبوس الخيول، ولا من آلة الحرب مطلقاً، فلم يُظَن به ما وقع، ولا هجس في الضمير فلما كان يوم عيد الله الأَكبر، توجه إلى مكة المشرفة لكسوة الكعبة المعظمة على العادة، ونزل سَعَى، وركب من فوره إلى منى، وكان بصحبته من جملة العسكر شخص يدعى محمد جركس، أصله من جماعة الشريف أبي نُمَيٍّ، وله معرفة بخدمته، وكان ترك خدمته وخدم السلطنة بمصر من جملة نفر العسكر، فبلغني أنَّ محمود أمير الحاج أرسله طليعةً إلى منزل السيد الشريف، للكشف على مَن عنده، وما يصنع بدسيسة وهو أنْ يقول له: الأَمير واصل إليك للسلام والمحبة لا غير، فأُخْبِرتُ أنه توجه إليه وعاد مسرعاً، فأَخْبَرَهُ أنَّ النفر الذين هناك قليلون، وأن الشريف الكبير في سطح منزله،

يشرف على إطعام الصقور بحضرته، وكنتُ إذ ذاك جئتُ من مكة إلى قصبة مِنَى، على قلب غافل عن ذلك، إلى الغاية، فإنه لم يكن لي علم بذلك الضمير، ولا هجس في خاطري مطلقاً، فلما أخبره محمد جركس بذلك، ركبَ من فوره، ومعه مشاة قليلون من العسكر، ومعه الأَمير رمضان بن سيف، أمير عربان العائد بالشرقية، راكباً، وهو على حال الغفلة من ذلك أيضاً، و(كيخية) جماعة العسكر (التفكجية) و(دواداره) حسين كلابي وبعض جماعة، ولم يكن لبس زَرَدِيَّةً ولا لامَةَ حَرْبٍ مطلقاً، وإنما لبس شاية قصيرة بيضاء من (اليرق) كلها مكتوبة آيات وأوفاق وطلاسم، ولبس فوقها قفطانه، فقيل لي: إنه أول ما توجه راكباً صوب بيت السيد الشريف، كان من ألطاف الله تعالى بالشريف أن ساق (دواداره) حسين فرسه، وأشهر سيفه، وهجم على بَوّاب الشريف، وهو جالس بالباب، رَمَى عنقَه، فتحركت الغوغاءُ بسبب ذلك، فنظر مولانا الشريف مُشْرفاً من شبَّاك داره بمنى، فأَوجس منهم خيفة، وتيقّن أنها مكيدة من تلك العقول السخيفة، وبادر مَن كان هناك من عبيد بني حسن، والفروخ والعسكر الحجازي، إلى سيوفهم، فشهروها وأطلقوا الجِمال التي كانت حول المنزل لتكون مشوشة في وجوه القوم ومعوقة، فقتل من عسكر السلطان الذين مع أمير الركب نحو ستة أنفار من المشاة، ضربهم الفروخ بالسيوف، واجتهدوا في حماية باب السيد الشريف، بكل طريق، وألقى الله عزّ وجل الرعبَ والخوفَ في قلب أمير الحاج ومَن معه، وجميع عسكره المصاحبين له، فتقهقر إلى الْخَلْف، وأمر جماعة الْعَجل أن تَرْمي بالأَحجار والرصاص على السطْح، فبادرت الجوار التي في عُلُوِّه إلى الرَّمْي بالأَحجار، وأصاب أمير الركب من ذلك حَجَرٌ في رأسه لولا العمامة لأَوْدَى به، ثم كان من رأيه الضعيف، ومعقوله السخيف، أنْ أمر المنادي أن يُجْهِر النداءَ على باب الشريف وَبِمِنَى، بأَنه قد برز أمر السلطان بعزل الشريف أحمد بن أبي نُمَيٍّ وأن المتولي بمكة أولاد الشريف محرم بن هزاع، وهما واصلان من البحر قريباً، فكانت هذه المناداة من الإشاعات الرديئة والفواحش البذيئة، وباباً للنهب والأَذى للحجاج ولأَهل مكة، ثم حضر قاضي مكة المشرفة محمد بن محمود بن كمال، وأمير الشامي وأمير اليماني واجتمعوا بالقرب من باب الشريف، وحصل منهم غاية اللوم والمشاعة لأَمير الحاج في فعلته تلك، على الصورة المشروحة، وبرز أمر السيد الشريف لجماعته وعبيده وعسكره، بعدم التعرض للحجيج مطلقاً، وأجهرَ النداء بمنى بالأَمان والاطْمِئنان لجميع الوفد، وكان من حسن خطابه: السمع والطاعة للسلطان إذا برز أمره برفع يَدَنا عن مكة، فإني وأولادي من عبيد السلطان، وفي طاعته وأمره، وإنما

الكلام في الحجاج وحراستهم، فإمَّا أن يحضر المتولي يتسلم بلاده، أو يلتزم الأَمير محمود أمير الحاج بحراسة الحاج، وكفِّ أسباب الأذى والضرر عنهم، وأتوجه أنا حينئذ إلى حال سبيلي، فأَعاد إليه أمير الحاج الجواب بأَنَّ السلطان أمر بعزلك، وقد تولَّى أولاد محرم وهم واصلون قريباً، فارحل أنت عن بلاد السلطان، فأَجابهم بالسمع والطاعة، وعاد أمير الحاج ـ بعد أن أَخرج المرسوم وكتب لهم صورته ـ من حيث أَتى خائفاً خائباً يترقب ما يرد من شرورهم لهذا المقتضي، وكفى الله الأَشراف أمره، فإنَّ خيول الشريف وجنوده جاءَتْ من كل ناحية، بمجرد سماعهم لهذه الواقعة، وارتجَّتْ تلك الجهات بما فيها، وامتلأَت الجبال وبطون الأَودية بالعربان، وأهل الفساد ينتظرون النهب والقتل، واشرأَبَّتْ أعناقُهم إلى ما كان يقع قديماً في أيام أسلافِه السابقين، من نهب الحجاج وقتلهم صَبْراً، وسقط في يد أمير الحاج، وندم حيث لا ينفعه الندم، وكثرت عليه الملامات من العسكر والأُمراء، والأَكابر والأَصاغر، وانطلقت الأَلسنة بالوقيعة فيه ولم يستصوبه أحد فيما فعل، وأما الحاج المصري فقد حَلَّ به من الخوف والفزع ما لا ينحصر ذكره، وتذكرت الشيوخ الذين أدركوا صدراً من الزمن الأَول ما كان يحصل سابقاً فزاد الخوف، وبلغني أن أولاد الشريف أبي نُمَيٍّ وأكابر بني حسن والأَشراف والقواد تشاوروا على نهب الحجيج وقتلهم، فكفهم السيد الشريف عن ذلك، وحذّرهم من سوء عاقبة هذه الفعلة، وخرج من منزله بمنى وقت العشاء الآخرة ومعه حريمه وأولاده وجماعته، وترك بمنزله جميع ما كان فيه من الفرش والهوادج وزينتها، والمأْكولات والدبش الذي جرت عادتهم بحمله إلى منى زمن الموسم من الخيام الكبار الهندية الحسنة النقوش، اللائقة بهم، وَالبسط الرومية الكبار، والصناديق والأَسِرَّة وغير ذلك وبعض جوارٍ يحرسْنَ المتاع وغير ذلك، فبمجرد خروجه من منزله، وترك بعض حراس من الفروخ، وبعض رقيق وخدم، فهجمت جماعة الفساد من الأَرْوام والجمالة رجالة المقدم محمد بن العظمة وغيرهم، وأحاطوا بجميع ما تركه بمنزله، وتناهبته الأَيدي من جليل وحقير، ورقيق وخيام، وكسروا الهوادج التي للزينة في كل سنة، ونهبوا أقمشتها وجلاجلها وريشها، وحرقوا أخشابها، ولم يدعوا بالدار إلا الحجارة، ولم يكفهم أمير الركب عن ذلك، ولم يمنعهم. ولما سمع بذلك لم يجهر النداء بعود ما أخذوه من بيت الشريف، ولم يتكلم في ذلك بكلمة سوى أن قال: ذلك بغير علمي. فلما وقع ذلك توجه إلى الشريف بعض فروخه الذين كانوا حُرَّاساً بالمنزل، وأعلموه بما وقع، فعاد ومَن معه مسرعاً من وراء الجبال، وكان صوب عَرَفة، إلى بيته بمكة المشرفة، خوفاً على ما فيه

من أمواله وأمتعته، فكانت هاتان الفعلتان الشنيعتان مع جميع ما وقع من آكد الأَسباب على نهب الحجاج وجِمالهم، وبيوت أهل مكة، والإفحاش في ذلك إلى الغاية، وهما: إجهار النداء بِمِنَى على باب منزله بعزله، وولاية الغائِبَيْنِ ولَدي عمه، ونهب منزله، وهو أشدُّ من النِّداء مع غيبة المتولي، ولما حلّ بمنزله بمكة ألبس خيوله، ونصب على باب بيته ودَقَّ طبلاً حَرْبياً وحول جميع ما بمنزله والحريم والعيال والجِمال بالقرب من بركة ماجد وأستعدَّتْ حينئذ بنو حسن للحرب والنهب، وأصبح الشريف بمكة لابساً لامة حربه في غاية الحنق، هو وأولاده وذويه وجميع حزبه، فطاف طواف الإفاضة وخرج يسعى هو والسيد أحمد، وبينما هو يسعى وإذا بمحمد جركس الذي كان عَيْناً عليه وتوجه إلى منزله بالأَمس ليعرف أمير الحاج ما هو عليه، فأَمر بالقبض عليه، فتبادرت إليه الفروخ، فنزل عن فرسه، وتوجه مهرولاً نحو الْحَجَرِ الأَسود، يتحامى به، فأَسند ظهره إليه، وتمسك بالكعبة المعظمة ـ على ما قيل ـ فاجتمعوا عليه وداروا به وضربوه بالسيوف والخناجر، وقتلوه عند الْحَجَرِ، وتعلق بأَحجار الكعبة بعض دمه وسحبوه برجله ميتاً إلى خارج المسجد، وطرحوه تحت الميل الأَخضر بسوق القماش، وجمعوا الأَحطاب وحرقوه في ذلك المشعر. وبلغني أن السيد الشريف لم يأمر بقتله، وإنما قصد أن يقبضوا عليه ليعاتبه على ما صدر منه، لأَنه كان في خدمته سابقاً، ويُعَدُّ من جماعته وقد بدا منه خلاف المعروف والله أعلم بحقيقة الحال.

ولما وقع ذلك كثرت الأَراجيف، وشاع في الحج بمنى كلُّ قول مخيف، وكان الركب في تلك الليلة على أَسْوإِ حال، وهم يتوقعون القتل والنهب في كل ساعة، والأَقوال والأَراجيف متصلة من كل ناحية، وبطل تدبير أمير الحاج ورأيه، وكثر خوف العسكر الذين بصحبته من الشريف وأهل مكة.

وأما أمير الشامي فكان فيما بلغني من أَشد المتعصبين على أمير المصري وعلى أهل ركبه المصريين، واتفق أنَّ الشريف أمر بعض جماعته أن يُسَخِّرَ جمالَ الحجاج المصريين لنقل أسبابه إلى بركة ماجد، فوقع القبض على بعض الجِمال، فظنت العربان وفروخ بني حسن أن الشريف أمر بالنهب، فوضعوا أيديهم ينهبون فما عَفُّوا ولا كَفُّوا، وكانوا يسلبون المرأة حتى السراويل ومنهم مَن يضع يده داخل فرجها، كأَنه يفتش على شيءٍ وضعته فيه، ومنهم مَن يرى حلقاً في أذن بعض النسوان فيقطع أُذُنَها بما فيها، ولا يمهلها حتى تقلعه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وتفاحش النهب في المصري والشامي واليماني وأهل مكة، وفي السرح المشهورة

والبيوت فكان أمراً عظيماً بمكة، وطريق منى، فإن جميع أهل مكة ومَن كان معهم بمنى من الحجاج نزلوا من منى إلى مكة ليلاً، واستمروا يدخلون إلى مكة شيئاً بعد شيءٍ في ذلك النهار، فنهبوا، ونهبت جمالهم وأسبابهم، ولم يسلم من النهب إلا مَن كان في (وطاق) أمير الحاج بمنى، فقط، وتمادى النهب بطريق منى وبمكة إلى قريب من وقت العصر، ففي ذلك الوقت قصدوا حارَةَ القاضي تاج الدين المالكي رئيس مكة وعين أعيانها من القضاة المتعممين، فلما وقع ذلك أرسل إلى الشريف أبي نُمَيٍّ يسأله في كف ذلك عن المسلمين المرة بعد الأُخرى، وكان الشريف مشغولاً بمنزله في أمر خاص به، في حالة الانفراد عن جماعته، فلما أحاط بذلك علماً ركب بنفسه، ونادى بالكف عن النهب، وقطع أيدي بعض جماعة من النهّابة وأجهر النداء بالأمان وبات الناس في الليلة الثانية بمنى ومكة في أمر مريج، لا يكيف ما نال المسلمين والحجاج من ذلك، هذا والأراجيف متزايدة، والأقوال شائعة بكل فعلة فاسدة، وصار مَن اشتد خوفه من الحاج المصري يقصد النزول في (وطاق) الحاج الشامي للحماية في ضمن حجاجه، فيطردونهم أشد الطرد، ويسمعونهم غليظ القول، وأرسل الشريف يقول لأمير المصري: ارحل عن مكة سريعاً، ولا يدخل أحد من الترك مكة وأنت لا تدخل مطلقاً، ومَن دخل إلى مكة قابلناه بالسيف. فاشتد الأمر على أمير الحاج والحجاج ونزلوا من منى إلى الأبطح شَرَّ نزول، فَحَسَّنتُ لأمير الحاج أن أكتب للسيد الشريف على لسانه بالتلطف، وأشرت عليه أن يأخذ في تسكين الفتنة، وأمانِ الوفد بأن يقول في مكاتبته: إنّي عَبْدٌ مأمور من السلطنة، ولا ذنب لي ولا للحجيج، وأن المعزول ولدك أحمد لا غيره، وأولادك بحمد الله متعددة، وأنت أمير علم من السلطان، ولم تُعْزَل عن البلاد، ولم يؤخذ منك (الصنجق)، فما وقع للوفد بمكة وما يكاد يحصل يكون عائدهُ عليك، والأوْلى بك تدارك الفارط، وتأمين الحجاج إلى حين رحيلهم من مكة، وغير ذلك من التلطفات المسكنة للفتنة، فكان ما كتبته من أسباب بعض الأمن لوفد الله تعالى، وأجاب الشريف عند ذلك بكل جميل، وأعاد جانباً كثيراً من الجِمال المنهوبة ممن أخذها إلى أربابها.

وكانت في تلك السنة مع الحاج الشامي أخت السلطان سليم أم محمد باشا مصر، وكان ولدها إذْ ذاك نائباً بحلب، فمشت أيضاً في تسكين الفتنة، وأرسلت صاحبنا الشيخ الإمام علامة الزمان قطب الدنيا والدين النهروالي الحنفي، مفتي مكة، إلى الشريف لتطييب خاطره، وأوعدته بكل جميل من السلطان، والكلام في ذلك يطول، ثم بعد أيام ورد الخبر بوصول أولاد محرم إلى جُدَّةَ، وكانت جدة وما والاها

مربوطة بعساكر من جانب الشريف، صحبة الشريف عجل ابن عرار، لانتظارهم، والإِيقاع بهم، فأَرسل أمير الحاج إِليهم سرًا بأَنهم يرحلون من حيث أَتوا بسرعة، في البحر، ويتوجهون من صوب سواكن، وكانت أمور مطولة وأحوال ووقائع مهولة، فلا نطيل بها، وعاد الركب المصري تلك السنة وهو يتوقع النهب والقتل بالطرقات وفي منازل الحجاز، فإِن الأَرجاف كانت قوية بمكة بذلك، فمنّ الله تعالى بالسلامة بعد المهالك، ومنح الله الركب الأَمن بالطرقات، إِلى أن وصل إِلى الديار المصرية على غير قياس، وبالجملة لما تغيرت نِيَّةُ الحكام لأَذى سادة أشراف من سلالة عبد مناف، وسار الركب مع أمير الحاج من الْبِرْكَة وهو محتوٍ على خُبْث الطوية، وعَمَّ البلاءُ ذهاباً وإِياباً في تلك السفرة سائر الحجاج والرعية، فلقد حصل لهم عطش شديد، وموت الجِمال من أول رحلة افتتح بها مسيرهم من البركة إِلى نخل، وأقام الركب بعقبة أَيْلة بهذا المقتضي أربعة أيام، ولقد حصل بالينبع غوغاءٌ وفتنة بين القواد وبني حسن، جماعة الأَمير دَرَّاج، أدت تلك الغوغاء إِلى قتل إِحدى عشر نفراً من القواد، وجراح كثيرة للباقين، ولولا لطف الله تعالى بعباده حتى سكنت دهماؤها وإِلاَّ كان اشتد بلاؤها.

ولقد حصل بطريق المدينة المنورة بمفَرّح وما بعده برد شديد، وجد عند رجعة الركب من المدينة من تساقط الفقراء بالركب أمواتاً طرحاً بقارعة الطريق، وتحت شجر أم غيلان بصخر الجبال مما عدته تسعة وعشرون نفراً، ولقد توالى على من نهبَتْ جِماله بمكة من الفلاحة والفقراء مَزيد التعب والجوع، لعدم الموجود معه وللغلاء الحاصل بسبب الفتنة والثاني لعدم الجِمال التي يحمل عليها الزاد، لأَنها نهبت فآل أمر مَنْ قضَى الله تعالى عليه بالغلبة من المشي والجوع إِلى الهلاك، فتساقطوا بساقة الركب وجوانبه أمواتاً في كل موضع ورحلة، مما لا يحصر ولا يُعَدُّ كثرة، فقد أخبرني بعض مشايخ الدرك الثقات أنه رأى نحو رمل الْمنصرف والقباب بعد توجه الركب ما يقارب الأربع مئة نفر موتى، طرحاً، وأخبرني الخولي زين الدين بن شهاب بالسواقي - وعادته أن يعود من نخل بعد الحج - أنه دفن في عُجْرود إِلى الْبُوَيْب ممن وجده في طريقه المسلوكة ستة وسبعين نفراً من أروام وأعجام ومغاربة وغيرهم، ولقد حصل بمنزلة الْبُوَيْب برد شديد جدًا وثلج مفرط، لم يعهد مثله فمات بسببه مع ما لاقوا من الضر قبله خلائق كثيرة، وأخبرني إِمام زاوية الشيخ المتبولي ببركة الحاج أنه صلّى بالبركة والمتبولي على مَن دفن هناك بعد نزول الحاج وعدتهم مئة وستة وخمسون نفراً، فكانت هذه السنة من غريب ما وقع من المشاق.

وأما الغلاء العام الذي حصل بمكة فلا يوصف، لأَن حمل أمير الحاج وصل وخزن قبل قدوم الركب، وأما بقية المراكب المسمارية وغيرها فتأَخر حضورها إلى بعد النزول، فلما حصلت هذه الكائنة امتنع السلوك من طريق جُدَّة إلى مكة لشدة الخوف، فباع حينئذ أمير الحاج حَمْلَه بأَغلى الأَسعار، فوصل الربع الفول إلى ثمانية أنصاف وأكثر، والدقيق والبقسماط بأَغلى ثمن، بحيث أنه لم يحصل لأَحد من أُمراء الحاج شيء حال حمله بالنقد الحاضر كمحمود هذا.

ومن غريب الاتفاق أن الفيل الذي كان مقدم الأَفيال في صحبة أبرهة الأَشرم لما أراد هدم الكعبة اسمه محمود، ذكره الجلال الْمَحَلِيُّ في «تفسير القرآن» وغيره، وقد نظم الناس في هذه الحادثة الشنيعة قصائد متعددة وألطف ما سمعت فيها قول القائل:

أَبَى الله والْخَطِّيَّة السُّمْرُ والظُّبَى ... وكلُّ كَمِيٍّ لاَ يَرى الذُّلَّ مَذْهَبا
بأَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَ مكةَ حاكمٌ ... سِوَى مَنْ لَه سَيْفٌ صَقِيلٌ له شَبَا
يَذبُّ به عَنْها إِذَا فِتْنَةٌ عَرَتْ ... كما فَعَلَ اللَّيْث الْهمَامُ تَحَسُّبَا
هوَ الْمَلِك الْعَدْلُ الَّذِي فِي زَمَانِهِ ... تَرَى الذِّئْبَ يَرْعَى الشَّاةَ وَالأَسَدَ الظَّبَا
هوَ ابنُ رَسُولِ الله صَفْوَةُ هَاشِمٍ ... أَجَلُّ بنِي الْعَلْياءِ قَدْراً ومَنْصِبَا
لَقَدْ شَاهَدَتْ عَيْنَاكَ وَالنَّاسُ فِي مِنىً ... صَبِيْحَةَ يَوْمِ النَّحْر أَمْراً مُشَيِّبا
وَقَدْ تَرَكوا فيْهَا الْمَبِيْتَ مَخَافَةً ... وكلُّ غَدا للأَمْن يَطلبُ مَهْرَبا
فَلَوْلاَ أَمانُ الله ثم أَمَانُهُ ... لَمَا خلْتَ طِفْلاً في الْحَجيْجِ وَشُيَّبا
أَرَادَ بهِ الْمَذْمُومُ شَرًّا وَلَمْ يَكُنْ ... لَدَيْهِ بهِ عِلْمٌ ولا مُتَحَزِّبَا
فَحاق به الشرُّ الذي أَمَّهُ بهِ ... وخَابتْ مساعيْهِ وعَادَ مُخَيَّبا
ويَكْفِيْكَ ما شاهدتَّ فِي أَمْر جَرْكَسٍ ... غداةَ غَدَا بالْمُرْهَفَات مُضَرَّبَا
فَلاَ تَخْشَ مِنْ كَيْدِ الْعَدُوِّ ومَكْرِهِ ... فكَمْ جَمْرةٌ للْمَكْر تسْعِرُها صَبَا
ودمْ وابْق في عِزٍّ ومجْد مُؤَثَّل ... وَمُلْك به تَزْهو الأَباطحُ والرُّبا

وقلت أخاطب محمود:

مَذْمُومُ جُوزِيْتَ بسُوءِ الْجَزَاءْ ... ودَعْوَة مِنْ أَشْعث مُبْتَهِلْ
بفَعْلَة سَارَت بقبْح الثَّنَاءْ ... رَذيلةٌ مَا يَرْتَضِيْهَا خَمِلُ
تَرُوْمُ أَنْ تَغْدُرَ نَجْمَ الْعُلاَ ... سَيِّد مَنْ يَحْفَى وَمَن يَنْتَعِلْ
فِي بَلَدِ اللّهِ الْحَرَام الَّذِي ... مَنْ يُرِدِ الإِلْحَادَ فيه عُضِلْ

فِـيْ يَـوْمِ عِـيْـدٍ أكـبَـرٍ فَـضـلُـهُ ... جَـاءَت بـِهِ الآثَـارُ فِـيْـمَـا نـقِـلْ
وتـشـهـرُ الإمْـرَةَ فـي (زَائِـر) ... وَهـوَ إذاً عَـنْ شَـأنِـهَـا مُـنـفَـصِـلْ
وَاقِـعَـةٌ عـادَت بِـسَـبِّ الْـوَرَى ... عـلـيـك يَـا وَالِـهُ أو مُـخْـتَـبِـلْ
فَـعَـمَّ سُـوْءُ الـنَّـهْـب وَالابْـتِـلاَءْ ... وَكَـانَ فِـيْـهَـا (زائِـرٌ) مُـرْتَـحِـلْ

وقلت:

قُـلْ لِـمَـذْمُـوم وَهْـوَ فـيه مُـخَـيَّـرْ ... لاَ تُـعـانـي لإمْـرةِ الـحـاج تُـقْـبَـرْ
عَـدِّ عَـنْـهَـا وانْـظُـرْ لِـزَرْعٍ وَبَـذْرٍ ... فَـالـتَّـعـامِـي مِـنَ الْـبَـلاءِ الْـمُـقَـدَّرْ
لاَ يَـغُـرَّنْـكَ صَـوْتُ طَـبْـلٍ وَزَمْـرٍ ... لاَ وَلا قَـوْلُ هَـازلٍ بِـكَ يَـسْـخَـرْ
أَنْـتَ شَـهْـمٌ وأَنْـتَ سُـلْـطَـانُ بَـرٍّ ... إنَّ هٰـذا عَـيْـنُ الْـمَـقُـوْلِ الْـمُـزَوَّرْ
هــذِهِ إمْـرَة تَـسَـامَـتْ مَـحَـلاً ... وَلَـهَـا فـي الْـقُـلُـوبِ مَـا لَـيْسَ يُـنْـكَـرْ
لَـسْـت مِـنْ أَهْـلِـهَـا وَلاَ مِـنْ حِـمَـاهَـا ... وَبِـقَـوْلـي فَـأَنْـتَ أَدْرَى وأَخْـبَـرْ
يَـا أَمِـيْـرَ الْـحَـرِيْـمِ والْـخُـبْـزِ بِـالـسَّـمْـن ... وسِـمَـانِ الـكِـبَـاشِ والأُرز الأَصْـفَـرْ
وتَـغَـال بِـحُـسْـنِ لِـبْـسٍ وَشَـكْـلٍ ... وَرِكَـابِ مُـكَـفَّـتٍ وَمُـدَنَّـرْ
لاَ تُـفَـارقْ حَـوْشَ الْـحَـرِيْـم فَـعِـنْـدِي ... إنْ تُـفَـارِقْـهُ سَـاعَـةً تَـتَـفَـطَّـرْ
خَـلِّ عَـن رُتْـبَـةِ الْـفُـحُـول وَدَوِّرْ ... نَـحْـوَ بَـاب الْـحَـرِيْـم والْـمَـوْت أَسْـتَـرْ
لَـسْـت أنـسَـى اغْـتِـيَـالَـهُ لِـشَـرِيْـف ... قَـدْ زَكَـى عُـنْـصـراً وَطَـابَ مَـخْـبَـرْ
فَـحَـمَـاهُ الإلٰـهُ مِـن كـلِّ سُـوْءٍ ... وتَـرَقِّـي بِـجَـدِّهِ كـلَّ مَـظْـهَـرْ
يَـا قَـبِـيْـح الْـفَـعَـال مَـهـلاً رُوَيْـداً ... إنَّ قُـبْـحَ الْـفَـعَـال يَـنْـمُـو وَيُـنْـشَـرْ
لاَ أعَـادَ الإلٰـهُ حَـجَّـكَ دهـراً ... وَكَـفَـاهُـمْ لِـرُؤيَـة مِـنْـكَ تَـطْـهَـرْ
سَـارَ وَفْـدُ الإلٰـهِ فِـي جِـيْـرَة الـلَّـ ... ـهِ ولـعـمـري أجـار والـلّـهُ أَكْـبَـرْ
فَـاحْـمَـدِ الله حَـيْـثُ كَـانَ سَـلِـيْـمـاً ... لاَ بِـفِـعْـلٍ ودُرْبَـة عَـنْـك تُـشْـهَـرْ
وَتَـقَـلَّـدْتَ فِـي الْـجَـحِـيْـمِ عِـقَـابـاً ... أَوْجَـبَـتْـهُ ضَـلالَـةٌ عَـنْـكَ تُـذْكَـرْ

ولما وقعت هذه القضية الشنيعة، أرسل السيد الشريف مكاتبات وقُصَّاداً إلى الباب الشريف، يشتكي أمير الحاج، وما وقع منه فجهز ماماي أحدَ مماليكه ليسبق بالمكاتبات فجعل عليه محمود أمير الحاج عيوناً في الطرقات، فَمُسِكَ وأُتي به إليه، فحبسه بالأَزْلَم، بعد أن أخذ المكاتبات منه، فجهز السيد الشريف إلى الديار المصرية الخواجا محمد بن الخواجا مجد الدين العجمي اللاري الشهير بالمكي، إلى المقام

العالي علي باشا بهدية نَقْدٍ وغير ذلك تقارب ثلاثة آلاف من الذهب، يستعطف خاطره، وأرسل صهره السيد عِجْل بن عرار، والقاضي جلال بن خضر الحنفي قاضي المدينة المنورة إلى الأبواب العالية، وصحبتهما هديةٌ من أنواع الأقمشة والتُّحَفِ والمعدن والطيب، للسلطان ـ نصره الله تعالى ـ ولأركان دولته وغيرهم، إلى أن جاءت الأخبار السارة برضا السلطان، وبرضا المقام العالي علي باشا عنه أيضاً، فاطمأنَّتْ خواطر الناس، وسكن خوفهم واضطرابهم، وحصل الأمن والسكينة ولله الحمد.

سنة تسع وخمسين وتسع مئة: كان أمير الحاج المصري إبراهيم بن عيسى باشا نائب الشام كان والده، وأمير الشامي فرخ بك (كيخية) خسرو باشاه، الذي كان نائباً بمصر سابقاً، ووصل صحبة الشامي قاضي مكة المشرفة أمير حسن ابن السيد سنان، عوضاً عن محمد بن محمود بن كمال، بحكم عزله عن مكة، وكان الناس في وجل عظيم بمكة، لكثرة العساكر التي كانت بها من كل جانب ومكان، فكان حج الناس ولله الحمد في غاية الهناءِ.

ووصل الشريف عجل بن عرار بن رُميح ـ وزير الشريف وزوج ابنته ـ صحبة الركب الشامي، وتقدم عنه فدخل مكة المشرفة في سلخ القعدة وقرئت المراسيم الشريفة المحضرة صحبته من الأبواب العالية عند باب الحزورة، وهي تتضمن غاية الرضا عن السيد الشريف، وتفويض عامة أُمور الحجاز إليه، وإجراءَه على عوائده وعوائد أسلافه، وأن لا يمكن أمير الحاج من الرمية على الناس، ولا ينزل زمن الموسم في المدرسة الأشرفية قايتباي، ولا يلقاه صاحب مكة للبس التشريف إلاّ على ظهر جواده، وأن لا تُسَيَّبَ المدافع الكبار المُسَمَّاة بالعجل عند الملاقاة، وأن يكون القاضي تاج الدين المالكي ناظر الحرم الشريف وإمام الموقف بعرفة، وقُرِئَتْ هذه المراسيم بحضرة مصطفى باشا، وكان مجاوراً بمكة قدم إليها من اليمن بحضور إسكندر نائب جدة، ولبس القاضي تاج الدين خلعةَ النظر، ومشى أمامه الفقهاءُ إلى بيته وهنأَه الناس، وشرع في تقرير الصُّرر، وتوزيع الصدقات وتصرَّف في جميع ما يكون لنظار الحرم، ونزل أمير الحاج المصري في المدرسة الباسطية لما ورد من الأحكام، ولأجل أن مصطفى باشا لما حضر من المملكة اليمانية نزل بها، فلم يمكن أمير الحاج النزول بها خصوصاً وقد قُرِئت المراسيم السلطانية في تلك السنة بعد تمكين أُمراء الحاج من النزول فلم يجسر أن ينزل بها.

وفي هذه السنة لم أتوجه صحبة أمير الحاج بل جهزته وقضيت أسبابه ومهماته

كغيره وامتنعت عنه في حادي عشر شهر شوال، بعد استئذان حضرة علي باشا ـ كافل المملكة المصرية ـ في ذلك لما رأيته من تغير أَحوال أَمير الحاج، وعدم ثقته بأَحد، ولا بولده وتلفته إِلى قطع العوائد المَقرة بديوان الحاج، وشدة تعاظمه في نفسه، بحيث أَنه لا يتكلم مع أَحد إِلا بترجمان، مع بخل شديد، وشكوى فقر مديد، فتنزهت عن رفقته، ولله عاقبة الأُمور، فسافر ولما عاد من السفر كثرتْ شكوى عربان الأَدراك منه، وأَهل الصرر والمرتبات، وكثرت الغوغاءُ عليه من العلماءِ والفقهاءِ والصلحاءِ بالحرمين الشريفين، فبرز أَمر علي باشا بأَن أَنظر في أَحوالهم وعوائدهم ليدفع لكل ذي حق حقه، فكان ذلك ولم يُثْن عليه أَحدٌ من الناس من خدمة إِمرة الحاج ولا من المقدمين فحمدت الله تعالى على ما مَنَّ به من العافية منه، والبُعد عنه في تلك السفرة، مع توالي أَسفاري بعد تلك السنين المتفرقة من عام ثمان وثلاثين فلم يتيسر لي الانقطاع مرة، وكان دخول المحمل الشريف صحبة أَمير الحاج إِلى البركَة في ثامن شهر صفر الخير سنة ستين، ولم يقع ذلك قبلها. وكان الحاج في هذه السنة قليلاً جدًّا، والرخاءُ متوسط، وأُبيع الربع الفول على باب خيمة أَمير الحاج ويده بخمسة أَنصاف من الفضة.

وفي هذه السنة أَيضاً تبادَى بالقاضي تاج الدين بن يعقوب المالكي رئيس الأَقطار الحجازية وصَدْرُها مرض السُّلِّ، ولازمته الحمى والسعال وانقطع بعد النزول بعد أَن حجَّ في غاية العظمة، ووقف بالناس بعرفة وخطب على جبل عرفات إِمَاماً، وأَفاض بالناس، وكان متمرضاً بمنى، إِلا أَنه يَتَجلَّد، فلما نزل من منى انقطع بمنزله، وكان يعوده السيد الشريف وأَولاده في كل يوم، ويكاد يعودونه في اليوم الواحد مرتين فأَكثر، وجميع الأُمور منوطة به من التقرير والخلاوي، وغير ذلك، ولقد وقع مِراراً أَنَّ السيد الشريف أَبا نُمَيٍّ عنده جالس في الأَرض وهو فوق السرير ممدودة رجله مستند إِلى الْمَسْنَد، والشريف يحلف عليه أَن يمد رجله، ويترك التكلف، وجميع العروض والمكاتبات تُسرد بين يديه، والهدايا تُعرض عليه، ووصل إِلى مرتبة في العز لم يصل إِليها أَحدٌ غيره من المتعممين بمكة، وعاقبة كل كَمَالٍ إِلى زوال، وكل عِزٍّ وجاه إِلى الفناءِ والانتقال، فانتقل رحمه الله تعالى من دار الفناءِ إِلى دار البقاءِ ليلة الاثنين تاسع محرم سنة ستين وتسع مئة، إِليه انتهت رئاسة المتعممين بتلك الأَقطار الشريفة، وأَسِف الناس على فقده، ورُثِي بقصائد وكانت جنازته حافلة جدًّا، ولازمَ السيد الشريف وأَولاده وسائر الفقهاءِ والأَعيان وغيرهم الطلوع إِلى المعلاة في كل يوم مرتين، للختم عليه بعد قراءة ربعة شريفة بالحرم الشريف بحضورهم أَجمعين، في كل

يوم مرتين مدة ثلاثة أيام متوالية، وألطف ما قيل في تاريخ وفاته أبياتٌ، وكتبت على قبره رحمه الله تعالى وهي:

إِمَامُ الْعَصْرِ تَاجُ الدينِ أَضْحَى ... حَلِيفَ الرَّمْسِ يَرْجُو عَفْوَ مولاهُ
وكانَ بِمَكَّةَ الْغَرَّا مَلاذاً ... يَذُبُّ عَنِ الضَّعِيْفِ بِهَا وَيَرْعَاهُ
وَكَهْفَاً لِلأَرَامِلِ والْيَتَامَى ... وَغَوْثاً لِلَّهِيفِ يُزِيلُ شَكْواهُ
سَقَى الرَّحْمنُ مَضْجَعَهُ بِغَيْثٍ ... مِنَ الرِّضْوَانِ يَغْمُرُهُ وَيغْشَاهُ
لَقَدْ أَحْيَى الشَّرِيْعَةَ وهْوَ حَيٌّ ... وَلَمَّا أَنْ دَعَاهُ اللهُ لَبَّاهُ
وأُنْزِلَ فِي جِنَانِ الْخُلْدِ فَضْلاً ... ونَالَ مِنَ الْمُهَيْمِنِ مَا تَمَنَّاهُ
فَتَارِيْخُ الْوَفَاةِ لَهُ بِصِدْقٍ ... (جِنَانُ الْخُلْدِ مَنْزِلُهُ وَمأْوَاهُ)

والمصرع الأخير منها لصاحبنا العلامة الشيخ محب الدين بن مُلاً حاجي المكي الحنفي، وهو التاريخ، وكان ـ رحمه الله ـ مَرْجِعاً كبيراً يعتمد على قوله ورأيهِ وفعله في تلك الأقطار الشريفة، مع عقل زائد وتَثَبُّت في الأُمور، وحسن البصيرة، والبشاشة وجميل الملقى، ولنا به صحبة كبيرة، واجتماعات بمنزله في ليالي المواسم غزيرة، قلَّ أَن ترى العيون مثله، جعله الله تعالى في أَعلى عليين، وختم لنا بالخير أجمعين.

سنة ستين وتسع مئة: كان أَمير الحاج المصري مصطفى باشا زَبِيد سابقاً، وتمَّ له بهذه السنة في إمرة الحاج عشر سنوات، وأَمر في هذه السنة بمنع استصحاب الصحون النحاس والفقس والطبالي التي كانت للتفرقة مساءً وصباحاً لمأكولات العسكر وجماعة البيوتات على أَيدي جماعة الطباخين، المسافرين بالصحبة، وذلك من قيام الناموس والمهابة بمكان، وأَمر العسكر وغيرهم أَن يحملوا معهم لأَنفسهم من القصاع والصحون ما يجهزونها إلى السَّنيح والمطبخ، على أَيدي غلمانهم وهجانتهم، لأَخذ مأكولاتهم لا على أَيدي الطباخين، فتضرر العسكر بذلك، وغلمانهم أَيضاً وبرز أَمره بعمل مَخَالِي شعير، لعليق الجِمال للنفر والشعارة، لكل جمل مخلاة فعملت من الخيش الأَبيض فكانوا بعد فراغ الجِمال من العليق ينفضون المخالي مما فضل فيها من التراب ويغربلونه بعد جمعه فيتحصل من مجموع ذلك عن دفعة واحدة مقداراً يزيد عن الأَردب فصار ذلك معدلاً، وأَمر بكتابته في ديوانه ولله عاقبة الأُمور، وأَراد أَن يبطل سفر (الطبلخاناه) المصرية من الطلب، فراجعته في ذلك مراراً حتى أَقرها على حالها، ولم يسر في هذه السنة على السير السابق في عادة الرحيل والنزول في المنازل المعتادة، بل خالف في ذلك بحسب اختياره، حتى أَنه غير منزلته السنيح بالدار،

وعادته بالميمنة، فنقله إلى الميسرة مدة الذهاب، وأعاده في الإياب على حاله، وكان أمير الركب الشامي فرخ بك، الذي كان في العام الماضي أميراً على الحاج، وصحبته خيل كثيرة عن العادة السابقة، لتخوفه من عربان بني لاَم وغيرهم من بني مُدْلج لعصيانهم، فيقال: إن معه مئة وخمسين فرساً وثلاث مئة (ينكشاري).

وفي هذه السنة حصل للحاج المصري عند نزوله من نَقْب عقبة أَيْلَةَ مشاقٌ شديدةٌ جدًّا لم تعهد قبل تاريخه، وسببها أن غالب أهل الركب لم يحصل لهم الرَّيُّ التام من منهل نخل، ولا لجمالهم، فلما وصلوا إلى مضيق النقب كانت العادة أَن أَمير الحاج يتقدم نزول جِماله الربائع والشعارة، قيل جِمال المقاطر، ليخف على أَهل المقاطر نزولهم، بعدهم من غير ارتباك ولا مزاحمة، فتقدّم أَمير الحاج ونزل من النقب سَحَراً، وترك جميع الحجاج والربائع والشعارة على حالهم، وكان الموجب لذلك نزوله إلى معشة السطح عشاءً، والعادة أَنهم ينزلون نهاراً، فاقتضى الحال أَن ساقت الربائع والشعارة جمالها على المقاطرة، فارتبكت الجِمال في بعضها مع بعض لعدم مَن كان يسير بها أولاً فأَول على حالة الطمأنينة، من غير ازدحام، فما أَشرقت الشمس إلا وقد حميت الجِمال من الازدحام في بعضها، والعطش واشتد الارتباك، فوقعت الأَحمال، وبركت الجِمال، وسُدَّت الطرق على السالكين فصارت مهلكاً لا مسلكاً، وغلب الحر والعطش على الجِمال والرجال، فترك غالبُ الناس جمالَهم وأحمالهم وذهبوا يطلبون الماءَ لحياة أنفسهم، فلما بلغ أَمير الحاج ذلك عاد ثانياً إلى النَّقْب فلم يستطع إذ ذاك أَمراً، وقال له لسان حال إهماله: سأنبئك بتأويل ما لم تَسْتَطِعْ عليه صبراً، وعُدَّتْ هذه الواقعة من الجوائح العظام، ففي ساعته أَرسل الجِمال والْقِرَبَ لملءِ الماءِ من سهل العقبة، واللحاق بالنقب لإغاثة الحجاج من شدة العطش، واستمر بنفسه يسقيهم ويسرب الجِمال قليلاً قليلاً، ويخلصها من الارتباك من صبح أول يوم إلى ظهر ثاني يومه، وبات أَمير الحاج تلك الليلة بالنقب مع المتأخرين به من الحجاج وأَحمال التجار، وبات باقي أَهل الركب بالمناخ، وطمعت بنو عَطيَّةَ في الحجاج السائرين ليلاً بالنخل بين المحطة والدار الحمراءِ، فنهبوا وسلبوا، وأَخذوا من الجِمال والأَحمال ما قدروا عليه من غير مبالاة، وافتقدت الكسوة الشريفة فإذا قد ضاع منها حمل مخزوم، ضمنه شقتان متكاملتان من الكسوة، فمنَّ الله تعالى بعوده من عربان بني عَطيَّة بعد أَن أَخذوه وحفروا له حفيرة وطَمُّوه فيها، وكادوا يخفون أَمره لاعتقادهم أَنه من حمل التجار، أَو من جنس الخيام، فلم يسمع بمثل هذه الواقعة، ولولا لطف الله تعالى بالحجاج لأَخَذَهم بنو عَطيَّة بالنقب ليلاً ونهاراً عن آخرهم،

والله تعالى يكفينا شر الأَشرار، وكيد الفجّار، ويُؤَمِّننا في الأَوطان والقفار، وكانت الوقفة بالخميس بعد أَن وقع الخلاف في أَول الشهر أَي يوم هو، واستفاض من جماعة من أَهل مكة أَنهم رأَوه ليلة الثلاثاءِ فتكون الوقفة على هذا بالأَربعاءِ، لكن لم يثبت عند قاضِي مكة ذكرهم وحَجَّ هذه السنة بالي باشا الركب الشامي.

وفي هذه السنة أَيضاً برز السلطان بعساكره المنصورة، وراياته المنشورة إِلى جهة (قزل باش) لقطع دائرة الطائفة الرافضة، ويشتي بحلب، ووردت المراسيم إِلى مكة المشرفة بقراءَة كتاب الله تعالى بها والدعاءِ، والسؤال في نصرة (الخندكار) كما وردت إِلى سائر ممالكه فقرئت الختمات بالمدينة المشرفة، وبمكة المعظمة، وحضر الشريف أَبو نمَيٍّ وأَولاده وقاضي مكة وأَمير جدة والفقهاءُ على طبقاتهم، بعد صلاة العصر أَمام باب أُمِّ هَاني، من أَبواب الحرم الشريف، وقرأُوا وابتهلوا وفُرِّقَتْ أَجزاءُ الربعات، ودُعيَ لمولانا السلطان ـ نصره الله تعالى ـ وذلك في سادس الحجة عام تاريخه.

وفيها حضر قاصدُ الشريف، المتوجه إِلى الباب في العام الماضي وهو أَحمد (الدوادار) بالأَحكام السلطانية في سلخ القعدة، وصحبتها خلع سلطانية، فَقرئتْ بالْحَطيم، ومضمونها: غاية الرضا عن الشريف أَبي نمَيٍّ، وتفويض أُمور قطر الحجاز إِلى رأْيه الصائب، والإِنعام عليه بجميع العدني، سواء كان متاعه من قماش الهند وأَصنافه، أَو من نوع الحيوانات والمأكولات. ولبس السيد أَحمد التَّشريف السلطاني، وطاف البيت أُسبوعاً كعادته، ودَعَا له الرئيس على زمزم، وذهب إِلى البيت وهنأَه الفقهاءِ والأَعيان.

وفيها توفي إِلى رحمة الله تعالى صاحبنا الشيخ الإِمام العلامة عبد الباسط بن أَيوب الشافعي، وحُمدتْ سيرته، وأَثنت عليه الناس.

وفيها أَقام الناس بمنى ثلاثة أَيام، ورحلوا يوم الرابع بعد الظهر إِلى مكة وأَحيوا هذه السنة المتروكة، وكان ابتداءُ فعل ذلك بإِشارة قاضي مكة والسيد الشريف في السنة التي قبلها، وأَراد قاضي مكة في هذه السنة أَن يبيت بمنى ويصعد منها إِلى عرفات بعد شروق الشمس، ويفعل السنة المتروكة أَيضاً فلم يوافقه على ذلك أَمير الحاج مصطفى باشا، ورحل إِلى عرفات يوم التروية، ولم يتم له ذلك وكان الرخاءُ بمكة في الدقيق والطعام كثيراً والمواشي والنبات في غاية التغير لقلة المطر، وتزايد ذلك بأَرض الينبع وما والاها جدًّا، وفي غالب قرَى الحجاز، بحيث أَن الكلأَ والأَغنام عدمت في بعضها جدًّا وهَزلت الإِبل، وضعفت لعدم القوت والمرعى وكان دخول

الركب الشريف إلى القاهرة بالمحمل يوم السادس من صفر الخير، وصعد أَمير الحاج لمقابلة الباشا بالقلعة في ذلك اليوم، وهو يوم الجمعة من غير ديوان، على غير سابقه في ذلك تناسباً لتغيير العوائد.

وفيها كان ما قدره الله تعالى من وفاة السلطان السعيد الشهيد، مصطفى ولد مولانا السلطان الكبير المترجح لولاية الملك بعد والده خنقاً، بأَمر السلطان بعد خروج (الخندكار) من المملكة الرومية قاصداً إلى حلب لغزو قزل باش، فلما حضر ولده بالطريق لملاقاته ومقابلته فيحكون لسبب قتله أَوْجُهاً أَقربها تمكن رستم باشا من السلطان بوزارته العظمى ولكونه زوج ابنته التي هي من غير والدة السلطان مصطفى، فكان هو وأُم زوجته التي تلقب بـ(خاصكي) وبقية أَولاد السلطان منها حلفاء على السلطان مصطفى لكونه من غير أُم (خاصكي) فخشوا بتواتر التوعك للسلطان أَن يموت ويتسلّط عليهم السلطان مصطفى بالعداوة حينئذ، والتمكن منهم لكونه أَكبر أَولاد السلطان، وكافة العساكر والرعايا يميلون إليه طبعاً وغرضاً، فدبّروا مكيدة على والده فَهِمَ منها أَنه يريد استبداده بالمملكة فخشي من غائلته، وأَن أَعوانه القائمين بنصرته كثيرون فيقال: إن رستم باشا دسّ على السلطان كتباً مزورة من قضاة الأَعمال والأَقاليم، تتضمن هذا المعنى، والله أعلم بالحقائق، فيقال: إن حالة قدومه على (وطاق) والده أَمر بخنقه بوَتعرٍ، ساعة دخوله لأَول خيمة، فخنق، ومات بعد أَن كرر عليه الخنق، فقضى نحبه في ثالث مرة، وارتجت لموته أَقطار الأَرض، وكثر القال والقيل. كما هي عادة العامة في تقويلها على السلاطين، وتباكت لفقده العامة والخاصة، فذكروا أَنه بعد وفاته تبين افتراؤهم عليه وزورهم، ونسبتهم ما نمقوه إليه، فعزل رستم باشا من الوزارة العظمى وأُبْعد، وتولى عوضه أَحمد باشا وجعل ثانيه إبراهيم باشا، وعزل علي باشا من المملكة المصرية، واستقر وزيراً ثالثاً وولي عوضه محمد باشا الذي كان نائباً بحلب، وهو من ذوي رحم السلطان ابن عمته، فإن والدته أُخت السلطان سليم، وكانت أُمُّهُ بمكة المشرفة في موسم سنة ثمان وخمسين، صحبة الركب الشامي - وقد قدمنا ذكر ذلك في واقعة الشريف - ثم وردت الأَخبار أَيضاً بوفاة ولد السلطان مصطفى خنقاً بعد والده أَيضاً، وأَن (جهان كير) ولد السلطان سليمان الأَصغر قتل أَيضاً، ويحكى في سبب قتله أَنه دَسَّ على والده السلطان سُمًّا بعد قتله لأَخيه مصطفى حَنَقاً على أَخيه ويقال غير ذلك.

ومن الحوادث في هذه السنة غَضب الشريف أبو نميّ على أهل بجيلة فجهز لهم تجريدة حافلة من الدروع والبنادق وثلاث عجلات، وقيل خمس مدافع لهدم

حصونهم، وأَمر عربان تلك الجهة هذيل والكباكبة وظهران وعدوان وصاهلة وبعيد ثقيف، وغيرهم بالمسير عليهم فلما كبر الأَمر عليهم جاء بعض شيوخهم إِلى السيد الشريف أبي نُمَيٍّ بن بركات وطلب الصلح فقال لهم: إِن أحضرتم البنادق والدروع صالحناكم. فمشى مشايخهم في ذلك وأتوا بالبنادق وعدتها ثمانون بندقة، فوقع الصلح، وكان اشتهر عندهم معرفة الرمي بالبندق وإِجادة ذلك بحيث أن جماعة منهم صاروا يحررون على الطير ويعملون عمل البارود والسبك وهم طائفة في غاية الكثرة، فخشي الشريف من غوائلهم بسبب ذلك وكان ما كان إِلى أن وقع الصلح ويقال: إِن طائفة منهم يقال لها ناصِرة لم تصالح إِلى الآن.

وفي العشرين من رمضان من هذه السنة وقع لصاحبنا شرف الدين بن السيرجي وهو مجاور بمكة أنه دخل إِلى زوجته وهي من طائفة المراشدة بنت عبد الواحد المرشدي، فوجد عندها رجلاً من البدو من أهل الوادي، فأَراد مسكه فسحب عليه الْجَنْبِيَّة فأَقدم عليه ولم يصبه، فجرحه جراحات ولزمه من وسطه، وصاح، فاجتمع الناس عليها فجاء الحاكم وقبض على الرجل والمرأة وحبسهما.

وأما شرف الدين بن السيرجي كاتب الكسوة الشريفة فجرح جراحات هينة، وطلبت منه زوجته الطلاق فطلب منها خمسين ذهباً فدفعت له ذلك القدر، وتفارقا وغرم البدوي المحبوس سبعين سلطانياً فيما يقال، كما نقلت ذلك من تاريخ صاحبنا الشمس الشيخ السلمي الكي، سامحه الله تعالى.

وفي هذه السنة كانت وفاة بيري القبطان، الذي كان توجه لأَخذ هرموز، فنهبها وظهرت خيانته، فضرب عنقه علي باشا تجاه باب البرج الذي كان معتقلاً فيه وأخذت جميع أسبابه للسلطنة.

وفي هذه السنة ظهر في شهر رمضان وما بعده نقص كبير في العين، وكان الناس يتهمون نظار العين أنه ربما لم يَسْعَ في تنظيفها، فيسدُّ بعضَ مجاريها ليقِلَّ الماء، فيُبْذَل له من ديوان جدةَ مصروفٌ لذلك.

فلما كان رابع عشر شوال ركب نائب جدة إِلى رأس العين وصحب معه بعض أرباب الخبرة، وشخص يقال له ابن عبيد، له خبرة بأَمر العين، وتفحصوا كثيراً فلم يجدوا خللاً، فأَمر بتركيب السواني على الآبار التي بالمعلاة، وسَحْبَها في مجرى العين لتمتلىءَ البرك التي بالمعلاة، وهي بركة الشامي وبركتا المصريِّ، وغالب شرب الناس من الآبار التي خارج مكة، كآبار الزاهر والجوخِي في طريق العمرة، وآبار

العسيلات بأَعلى المنحنى، ويظفر بعضهم بشيء من ماء العين، وقد ملح لجفافها وتغير عن الحلاوة الأُولى.

وتحدّث الأَمير إسكندر نائب جدة بعرض أمر الماء على السلطان، وإجراء عين عرفات، والإتيان إلى مكة من طريق عمل زبيدة، وأصل العين المتقدم ذكرها الواردة إلى مكة عين حُنَيْن فيه الماء، ومبدأُها عين الشهداء، في موضع يقال له الملحا تحت الثنية التي صوب الدرج، ثم ينضاف إليه عين الميمون فيه الماء، وأنه من المشرعة ثم عين مشاش فيه الماء، يضم إلى عين حُنين من مقابلة البرود، ونصفه ضائع في خراب، ونصفه ينضم إلى عين حنين، ثم بعد الزعفرانة عين أبي رخم فيه ماء نازل في عين حنين من عند المنحنى، ثم عين الحرين ماء فيه ينصب على وادي إبراهيم، ثم ينصب في الدبل، ثم بقية ما فيه من ماء ينصب إلى الدبل من تحت جبل حراء، ثم عين الطارفي من جهة الشمال يصعد إليها بجبل يقال له الطارفي من بلاد قريش فوق جبل حراء، ثم فوق الطارفي مصعداً عين يقال لها الحاشة فيها ماء أَسفل جبل يقال له الحمراء، ينضم إلى الديل من فوق حراء، ثم شحاحيذ في ميمون نحو ثلاثين شحاذاً وحنين فيها نحو عشرة شحاحيذ.

وفيها بعد العيد شرع ناظر الحرم في تتمة بلاط المطاف، وأضاف إلى ذلك أنه جعل صبغاً مركباً من الزيت وبعض الحوائج وصبغ به النورة البيضاء التي بين أحجار البيت الشريف مما يلي الأَرض، من جهة الباب والْحَجَرِ الأَسود، وزعموا أن مرادهم بذلك أن يكون لون أحجار البيت الشريف وما بينهما واحداً متناسباً فكثرت الأَسئلة عليهم من الشيبيين وغيرهم في ارتكابهم ما لا يحتاج إليه، وذلك من أنواع سوء الأَدب لأَن البيت منزَّه عن تلك الأَغراض الفاسدة.

وقد قدّمنا قول مالك للرشيد: أَنْشُدكَ اللّهَ يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبةً للملوك.

وفي هذه السنة كانت وفاة أمين كوسة قاضي بغداد، وولي بعده قضاء بغداد فضيل جلبي وتولى موضعه تدريس آيه صوفية حامد جلبي المعزول من قضاء مصر، وجمعوا بين قضاء الغلطة وأيوب الأَنصاري لعراك زادة، الذي كان مفتشاً على أوقاف مصر سابقاً، وتوفي يونس أغا شيخ الترك بمكة في يوم السبت سابع عشري شوال سنة تاريخه.

وفيها قتل بهرام بك أمير اللواء وناظر أموال اليمن، عند توجهه صوب القاهرة،

نزل عليه بنو عَطِيَّة فيما بين القصير وقنا وقتلوه ومَن معه، وأحس بذلك ابن عمر فركب خلف بني عطيَّة فأدرك جماعة منهم وهرب الباقون.

وسبب توجه بهرام بك إلى مصر حصول شنآنٍ كبير بينه وبين أزدمر باشا مملكة اليمن، بحيث قصد كلٌ منهما قتل الآخر فضبط بهرام ما أخذه أزدمر باشا من مملكة اليمن وعرضها على الأبواب خارجاً عن جميع المصاريف، من الذهب تسعون ألف دينار، فلما أحس بذلك أزدمر أرسل (كيخية) إلى الباب لإطفاءِ ذلك، فوصل إلى الأبواب، واجتمع مع علي رستم باشا، وذكر له أن هذا منشأُه حظوظ النفس وشكر من بهرام، فقال له الوزير: هذه مسألة متعلقة بالمال، ولا بد من التحرير، فليحضر ناظر الأموال و(المقاطعجي) فرج شاه وجميع أهل العلم هناك، ويحررون ذلك فإن ظهر كذب بهرام وإلا لا فائدة في ضياع مال السلطان، وكتب مراسيمَ بطلبهم إلى الباب، وتحرير مال السلطان، ووصل علم بذلك إلى أزدمر باشا فعلم أن بهرام إذا توجه إلى الباب كشف أموراً كثيرة، فعمل على قتله، وأرسل فرج شاه (المقاطعجي) الشكوى من بهرام، فتوجه فرج شاه فأحس بهرام بذلك فهرب من اليمن، وجاء إلى مكة واجتمع بفرج شاه في مكة وأراد الفتك به، فتوجه فرج شاه بَرًّا، وتوجه بهرام بحراً، فلما وصل بهرام إلى القُصَيْر خاف أن يسبقه فرج شاه فتوجه من القصير إلى قنا بغير رفيق، وهذا المكان مقطعة للحرامية، ولا يسلك إلا بالخفر، فخرج عليه طائفة من بني عَطِيَّة وقتلوه وقتلوا مَن معه، ويقال: كان معه من النقد ثلاثون ألفاً ذهباً، وتمّ بذلك مراد أزدمر باشاه، فإنه لو سلم كان كشف جميع أموره ومدخولاته ومأكله، ويقال: إنه كلما حصل شيئاً من الخزانة أرسله إلى مصر لعياله، خوفاً من عسكر اليمن أن يفجأُوه بالقتل كما فعلوا بأُوِيْس باشا، فلا يبقى عنده شيء. ذكر ذلك الشلح السلمي في تاريخه.

وفي يوم الاثنين خامس عشر القعدة أجهر النداء بمكة لجميع أصحاب الدكاكين بالمسعى أن لا يبسطوا أسبابهم إلا في نفس الدكاكين في الجدر، ولا يخرج قُدَّام دكانه شيئاً ولا يضع دكة خشب ولا غيرها.

وفي ثاني المناداة ركب قاضي مكة ونائب جدة وأزالوا جميع الدكك التي بالمسعى ليتسع المسعى، وقد كان قديماً واسعاً ثم ضيّق بالأبنية لتسامح الناس للكرا من هذا المشعر تَعَدِّياً وظلماً، فقد ذكر في التاريخ أَنَّ عرض المسعى كان ستة وثلاثين ذراعاً وقد ضاق في زمننا خصوصاً وقد وضع فيه الدكك فيحصل الأذى أيام الحج.

سنة إحدى وستين وتسع مئة: كان أمير الحاج مصطفى باشا على حاله، وهي آخر حجة حجّها، ثم وردت عليه الأحكام الشريفة ومعها قفطان وسيف بولايته مملكة اليمن، عوضاً عن أزدمر باشا وذلك في غرة شهر رجب، وأنه يستمرُّ أميراً على الركب إلى بعد النزول من عرفات، فيتوجه إلى مملكته باليمن، ويعود بالركب غيره، فكان في تلك السنة من الحجاج معه الأمير مراد أمير اللواء، فعاد بالركب كما سيأتي ذكره، وكان آخر العهد بمصطفى باشا رحمه الله تعالى فإنه توجه إلى اليمن باكياً يحدّث نفسه بالموت وبفراق أولاده وذويه وصرح لي بذلك مَن رآه، فكان كذلك، ولم يلبث إلا بعض أشهر وتمرّض مرض الوفاة، وأقام متمرضاً مدة من الأيام فأُمر بحمله في محفة إلى زَبيْد فمات بها ودفن في مدرسته بالقبة التي بنا بها مدفناً له قبل تاريخه وتأَسَّفَتِ الناس عليه، وأكثروا من الثناء على سيرته الحميدة، رحمه الله تعالى، فإنّه كان من أعيان الأكابر، الذين للدهر وأهله إليه حاجات.

ذكر بعض الحوادث في هذه السنة: ففيها كان وصول محمد باشا إلى مملكة الديار المصرية، ودخوله إلى القاهرة في مستهل شهر صفر الخير، وصحبته أبي يزيد جلبي أحد أمراء (الصناجق) (دفترداراً) وناظراً على أموال مصر، عوضاً عن أحمد جلبي، الذي كان بها، ولما أن وصل محمد باشا خرج علي باشا من القلعة المنصورة والقاهرة، وجعل (وطاقه) بين قناطر بني وائل والمطرية، وأقام بذلك الموضع لقضاء مأْربه مدة وسلّم عليه محمد باشا في (وطاقه) وكان رحيله إلى الباب العالي بحلب في العشرين من شهر صفر الخير، معزّزاً مكرّماً، وتباكت لفقده العامة والخاصة، وآثروه بالدعاء دون أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، كتب الله تعالى سلامته.

وفيها استهلت هذه السنة بطاعون عظيم استمر شهراً وكان يعد من الفناء الكبير، بطول مدته، وممن درج فيه من الأعيان ولد محمد باشا وزوجته ـ أعني بها والدة المتوفى ـ والأمير محمد ابن المرحوم الجمالي يوسف بن جانم الحمزاوي في ثامن جمادى الأُولى بعد ولايته (صوباشا) القاهرة لمدة شهرين وأربعة وعشرين يوماً، والأمير قانصوه من خاير بك كاشف الغربية، كان بعده بأيام يسيرة، والأمير محمد بن عمر أمير عربان هوارة بالوجه القبلي، وحضر إلى القاهرة أخوه يونس ليولّى عوضه فوضع بالبرج وولي أمير هوارة محمد بن داود بن عمر، الذي كان متولياً قديماً، وأنفذ فيه حكم الله تعالى سليمان باشا شنقاً بباب زويلة، والأمير كشكي وأولاده وإخوته، نحو الثمانين نفراً على ما قيل من ذويه وجماعته، وأنه لم يفضل سوى نفر واحد من أولاده، راعاه الجراكسة بالديار المصرية، وولي عوضه الأمير محمود، الذي

كان أمير الحج، ووقع له مع الشريف ما وقع، وكان أكثر الفناء في أولاده كباراً وصغاراً، وفي الرقيق والأعراب والنساء، وجاءت الأخبار بأنه أخلى دوراً كثيرة بالصعيد وغيره.

وأما أخبار الهند فذكروا أن الفرنجي المخذول منتشرٌ في البحر، وقصد جماعةٌ منهم إلى هرموز والبصرة، ويقال: إنهم انكسروا على البحرين من صاحب البصرة، وتوفي نظام الملك صاحب الدَّكَن وكان رافضياً أظهر شعار الرفض بذلك القطر، وأهان أهل السنّة، فأخذه الله في هذا العام، والسبب في ولايته للدَّكن أن أباه كان من عبيد السلاطين بها، يقال لهم البهيميون فلما ضعفوا استولى كل من العبيد على قطعة من البلاد وكان هذا فوصل إليه شخص من الأرفاض يقال له شاه طاهر فحسن له مذهب الشيعة فترفض، وأظهر شعار الرفض بذلك القطر وآذى أهل السنة فأخذه الله تعالى في هذه السنة وقد خلف أربعة أولاد، ووقع بينهم الخلاف العظيم، فأحدهم هرب إلى ناحية هاد لجان خصم نظام الملك والثاني أقيم في مملكة أبيه، والثالث استقل بقلعة فيها خزائن أبيه، والرابع مقيد عنده، واتفق أن الخطيب عبد الباسط بن محمد بن أيوب الشافعي بعد صلاة الجمعة صلّى على نظام الملك صاحب دابول من مملكة الدَّكَن المذكور، بعد أن ترحّم له الرئيس على زمزم، ولقبه بنظام شاه، فوقع الاعتراض من الأعاجم وغيرهم لكونه رافضيًا سبّاباً، وشافه بعضهم الخطيبَ بذلك في مجلس قاضي مكة فقال: ما صليت عليه إلا بأمر هذا الرجل، وأشار إلى القاضي، فقال القاضي: لم يثبت رفضه عندنا. وذُكِر عنه أنه كان يلعن الصحابة على المنابر، وفي المحافل والمشاهد، وإذا قدم عليه أحد من الروافض عظّمه وأنعم عليه، بحيث أنه قدّم عليه شخص من أشراف بني حُسَيْنٍ القاطنين بالمدينة يسمَّى علي بن شَدْقَم من كبار الشيعة فأعطاه في أول ملاقاته عشرة آلاف من الذهب، وعند وداعه كذلك، وكذا جميع مَن قصدوه.

وفيها أخبروا بوفاة الراو، وهو ملك بيجا نكر، وهو من ملوك الكفرة هناك، وأخبروا أيضاً بوفاة إسلام شاه بن شير شاه، وكان ملكاً عظيماً، لا يقاوم بتلك الأقطار، ووردت الأخبار أيضاً بأنَّ همايون شاه ملك المغفل ظفر بأخيه كامزان، فأكحله، فجاء وهو مكحول إلى صاحب الكجرات السلطان محمود، فأنعم عليه بمئة ألف محمودي، وأكرمه، فتجهّز إلى مكة، للانقطاع بها، وفي شهر رجب الفرد وردت الأخبار بقتل السلطان محمود، ملك الهند والكجرات، وأعيان وزراء مملكته منهم آصف خان الذي كان حضر بخزانة الهند إلى مكة المشرفة، وأُخِذت منه

للسلطان سليمان، وأقام بمكة مدة ثم طلبه السلطان محمود ملك الهند للوزارة، فتوجه إليه، وكان صاحبنا ولنا به اجتماعات لما كان مقيماً بمكة، وهو من أهل العلم، حنفي المذهب، ولديه فضيلة تامة، وكان السبب في قتل السلطان محمود وجماعته كما ذكروا أنَّ أحد مماليكه أراد أن يظفر بالملك، وسوّلت له نفسه فعلاً يكون سبباً لذلك، فذكر لي صاحبنا الشيخ العلامة عبد الله بن ظَهيرة الحنبليُّ، وكان عنده يوم قتل في وليمة صنعها للفقهاء والعلماء بالهند، وتولى خدمتهم السلطان محمود بنفسه، وذكر لي القاضي عبد الله أنَّ السلطان بالغ في إكرامهم إلى أن انفرد بنفسه في حمل الطشت والإبريق لغسل أيديهم، عند الفراغ من الطعام، فلما توجهوا من ذلك المجلس دخل السلطان إلى محلٍ له منفرداً، ليستريح من مشقة التعب، فنام على سريره، وذكروا أن عادة ملوك الهند تربية شعورهم وتطويلها، فلما دخل عليه ذلك المملوك، وكان من خاصته وجده نائماً، وشعره على طرف السرير، فاغتنم الفرصة وربط شعره بالسرير، وشدّه شدًّا محكماً، وذبحه بسكينٍ ماضٍ، وردَّ الباب عليه، وخرج ووقف على باب الحجرة، وطلب الوزراء واحداً بعد واحد على لسان السلطان، ثم إنه قتلهم على الترتيب، وأصبح جالساً على تخت الملك ظنًّا من عقله الخبيث أنَّ الملك صفا له، فلما اجتمع أعيان العسكر الذين بقوا سأَلوا عن السلطان، فلم يروا له خبراً وعن الوزراء كذلك فعلموا أنه غدر بهم، فتواثبوا عليه وقتلوه، وأجلسوا شخصاً من بيت الملك يقال له أبو خان، ويلعب بالسلطان أحمد، وسِنُّه عشر سنوات، فكانت وفاة السلطان محمود في ليلة الجمعة المسفرة عن ثالث عشر ربيع الأَول، وقتل معه وزيره الأَعظم آصف خان وأخوه الوزير (خدايريد خان) والوزير أفضل خان، وكان قتلهم في ربع الليل الأَول، وسكن أمر الرعايا بالهند بعد أن حصل بها رَجٌّ عظيم لما وقع من قتل السلطان ووزرائه جميعاً في ليلة واحدة من شخص من أقل الناس، فتك بالملك وصار يستدعي واحداً بعد واحد، على لسان السلطان ويقتلهم إلى أن أَتى على كثيرين، أخبرني القاضي عبد الله أَنَّ المقتول في تلك الليلة نحو عشرة أنفار ثم تواثبوا إليه وقتلوه، فكانت هذه الواقعة من الغرائب.

ورأيت في قطعة من تاريخ صاحبنا العلامة محمد الشلح السلمي المكي، وفي يوم الجمعة ثالث جمادى الأُولى وصلت مراكب من الكجرات بالهند، وأخبروا أن جماعة من (مخلد أرية) السلطان محمود اتفقوا مع واحد منهم يقال له برهان الدين أن يولوه سلطاناً على الكجرات، ويقتلوا السلطان ووزراءه، فقصدوه وهو نائم في ليلة الجمعة، ثاني عشر ربيع الأَول، وضربوه بالسيوف وقتلوه، فأَرسلوا للوزير آصف خان

وقالوا له: السلطان يطلبك، فجاء ولما وصل إليهم قتلوه، ثم إلى أخيه الوزير حليم خان، وفعلوا به كذلك، ثم إلى الوزير المعزول أفضل خان وفعلوا به كذلك، ثم اجتمعوا إلى برهان الدين وأجلسوه على التخت، ولقب نفسه سلطان فيروز، فدخل عليه شروان خان، فضربه بالسيف فطار عنقه، فسحبوه برجليه ورجموه، واضطربت الناس واجتمعوا على ولد صغير للسلطان، من جارية حبشية يقال له السلطان خليل، وأجلسوه على التخت، ونادوا بالأمان للناس، وعمد الإفرنج إلى الديور، فأخرجوا مَن كان به من المسلمين، ونهبوهم واستولوا على البلد وحصونها، واضطرب أمر الهند، وضعف المسلمون بالخلاف فيما بينهم، واستولى الفرنج المخذول، وفي ذلك يقول صاحبنا الشيخ العلامة عبد الباقي بن عراق الحنفي فسح الله في مدته:

لاَ تَحْقِرَنَّ صَغِيْراً فِي ٱلأَنَامِ وَلَوْ ... عَايَنْتَهُ فِي الَّذِي يَأْتِيْهِ مَخْذُوْلاَ
قَدْ قِيْلَ من واحدٍ فِي الهند مُحْتَقَرٍ ... أبدى بصنع إِلٰهِ الْعَرْشِ تَهْوِيْلاَ
فِي لَمْحة الطَّرْفِ هَدَّ التَّخْتَ أَجْمَعَهُ ... وَصَيَّرَ السَّيْفَ فِي ٱلأَعْنَاقِ مَسْلُوْلاَ
فَيَا لِحَادِثَةٍ فِي الْهِنْدِ قَدْ عَظُمَتْ ... (لِيَقْضِيَ اللّهُ أمْراً كَانَ مَفْعُوْلاَ)

وكان الرخاء بمكة كثيراً بحيث أنَّ الأردبَّ القمح بسبعين نصفاً، والعسل النحل كل عشرة أرطال بخمسة عشر نصفاً، والسمن بنصفين الرطل، وقس عليه غيره.

وفي سلخ رجب الفرد سنة تاريخه وصل من مكة قاصد السيد الشريف أبي نُمَيٍّ بن بركات، وعلى يده عروضات للباشا، أخبر بما قدّره الله تعالى من وفاة السيد الشريف أحمد بن أبي نمَيٍّ بن بركات، في ثاني شهر رجب الفرد، وكان سبب وفاته إسهال ونَزْفُ دمٍ، فانتقل بالوفاة بعد مُضيِّ ربع الليل من الليلة المسفرة عن يوم الأحد ثاني رجب الفرد سنة إحدى وستين بالخَلْصِيَّة، وحمل في شِقْدِف إلى مكة المشرفة، فوصلت جنازته إليها عند أذان العصر، وارتجت البلد، وقفلت الأسواق، وقامت النوائح على ساق، وكانت ساعة مهولة، فغسل في بيته وكفن، وحمل إلى باب الكعبة وتقدّم للصلاة عليه السيد عبد الله الحضرمي، فصلّى عليه بعد النداء على زمزم، وطيف بجنازته أسبوعاً كعادة أُمراء مكة وحمل إلى المعلاة، ودفن بجانب قبة جَدِّهِ السيد بركات بن محمد، مما يلي القبلة وفرغ من الدفن وقت المغرب، وكان مشهداً عظيماً لم يرَ الراوون مثله، ولبس غالب أهل البلد لباس الحزن، وترك الفقهاء المناديل إلى يوم الختم، وكان يوم الخميس سادس يوم رجب الفرد، فجاء في ذلك

اليوم قاضي مكة وكان غائباً بِجُدَّة، وكذلك أمين جُدَّة، ووصل السيد أبو نُمَيٍّ بعد الختم من جهة المشرق، وكان لم يحضر الجنازة، فهرعت الناس إليه، وقدمت إليه المراثي وأخذوا في العزاء، وكان رحمه الله تعالى في موسم هذه السنة متوعكاً، فإنني لما توجهت إلى منزله للسلام عليه وجدته نائماً في غير وقت النوم، وكان ذلك يوم لبسه التشريف السلطاني على يد مصطفى باشا، ولما سلمت عليه عند الوداع كان ملازماً للفراش في داخل مبيته، وحريمه عنده يمرضنه، ثم أخبرت أنه حصل له بعض الشفاء، ثم عاد إليه التوعك والحُمَّى بالشرق، فعاد إلى مكة، فكانت وفاته بالخلْصِيَّة، تغمّده الله برحمته وأسكنه الله فسيح جناته مع النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، فلقد كان من محاسن الأُمراء وذوي الأَقدار العلية بهمة ملوكية هاشمية، وكان عنده من الحلم والتُّؤَدَةِ والسكون والتواضع ولين الجانب، ومحاسن الأَخلاق، والتودد لذويه وخدمته ومعارفه، ما لا ينحصر، وكان له إليَّ ميل وإحسان، وليانة وفي خدمته اجتماعات حسان، طيّب الله ثراه.

قال صاحبنا العلامة شمس الدين محمد الشلح السلمي المكيّ في قطعة من تاريخه، اطلعت عليها بعد وفاة مؤلفها المذكور: وفي ليلة الأَحد الثاني من رجب الفرد توفي السيد أحمد بن أبي نمَيٍّ - رحمه الله تعالى - في الخلصية، بعد مضي ربع الليل، ووضع في شِقْدِفٍ وعُوْدِلَ بفقيهٍ جبرتي، وجهز إلى مكة، فوصل الخبر إلى مكة والإمام في صلاة الظهر، فارتجّت البلد، وماج أهل السوق، وعزلَتِ الدكاكين، وحصل في الناس رَهَجٌ عظيمٌ، وامتلأَت الأَزقة والشوارع بالبكاء، واجتمعت النساء سِرْباً سِرْباً يبكين ويندبن، وخرجت الجنازة فوصلت عصراً إلى المعلاة، وبرك الجمل عند سبيل المعلاة بعد أن غَيَّروا في الطريق نحو خمسة جِمال، فحمل الشقدف من المعلاة على أعناق الرجال، إلى أن أتوا به إلى بيت الشريف، واجتمع الحفَّارون، وحفروا له قبراً كبيراً مُتَّسِعاً في واجهة قبة الشريف بركات، إلى ناحية القبلة، واجتمع سائرُ الفقهاء في بيت الشريف بلا مناديل، وهم بعمائم صغار، وكذلك جميع الأَعيان والأَشراف، وباشر الغسلَ الشيخ بركات الحطاب، والخطيب عبد الباسط بن أيوب، وأدرج في الأَكفان، ووضع في النعش، وأدخل المسجد من باب حَزْوَرَةَ، وقد امتلأَ المسجد بالخلق، بحيث خرجت المخدرات، ومَن لم يَعْتَدِ الخروج، وقدم إلى الباب الشريف، ونادى الرئيس من قبة زمزم: الصلاة على ملك الحجاز وابن ملوكها إلى غير ذلك من الأَلقاب، فأَبكى العيون، وأحرق القلوب، وتقدّم للصلاة عليه السيد عبد الله الحضرمي، ثم لما فرغ من الصلاة عليه طيف به أسبوعاً كعادة أمراء مكة، ثم

تقدم للعزاء إخوته وهم حسن وبركات وثقبَة، وأما السيد أبو نميٍّ فكان متأخراً بالشرق، ولم يحضر إلى مكة، ولكنه مشى مع الميت وهو محمول في الشقْدفِ نحو ثلاثة فراسخ، ثم عاد، وكانت الجنازة حافلة جدًّا، لم يتخلف عنها أحد من الرجال ولا النساء، ومشى مشايخ البلد مع فقرائهم وهم يذكرون ويهللون، إلى أن وصلوا إلى القبر، فألحدوه وفرغوا من دفنه عند غروب الشمس، وتقدّم للعزاء إخوته الثلاثة أيضاً، فلما فرغوا ركبوا وعادوا إلى بيوتهم، واجتمعوا في ثانيه صبحاً بالمسجد عند باب حزورة، وحضر سائر الفقهاء والأعيان، وقرأوا الربعة، وبعد الفراغ توجهوا إلى المعلاة وقرأوا هناك أيضاً الربعة وفعلوا ذلك ثلاثة أيام، وأما النساء فصرن يندبن كل يوم بالمعلاة، ثم يرجعن في الضحى إلى البيت، فَيُعَزِّلُ أهل السوق لأَجلهن، ويتقدمهن جوار سود، في يدِ كل واحدة جريدة يضربن الناس، ووقع الختم في يوم الخميس سادس رجب الفرد، وبعد الفراغ من الختم وصل الشريف أبو نُمَيٍّ من الشرق، وعزاه الناس، وولى عوضه إمرة مكة أخوه مولانا السيد الحسيب النسيب بدر الدين والدنيا، الصاعد معنى بعريق حسبه وعلو همته إلى الذروة العليا، حسن ابن مولانا الشريف أَبي نُمَيٍّ بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، أطال الله تعالى في العز بقاءَه، وصان من غير الأَيام نعماءَه، فإنه من ذوي الهمم الْعلية، والشجاعة الهاشمية التي لا تضاهى، والفروسية، فلما ورد عرض السيد الشريف إلى محمد باشا بتعيين ولده المشار إليه الإمرة، وأن يعرض إلى حضرة مولانا (الخندكار) بذلك لتكون الخواطر مستقرة، وكان السلطان قد توجه من حلب إلى غزو قزل باش فجهزت العروض إلى الأبواب (الخاقانية) بعد أَن أَقره محمد باشا أَيضاً وجهز إليه أحكاماً سنية، ثم وردت الأَحكام العالية من الأبواب الشريفة، مع التشريف للشريف بولايته على تلك الأَقطار المنيفة، وتعطّرت بحسن سياسته ومعدلته سائر الجهات الحجازية، وعلت كلمته في فلك السيادة فأشرق نور تلك النفحات المكية.

وأَما مملكة اليمن فيقال: إنه وقع بها خياط بين أَزدمر وشخص يقال له النُظَاريّ، وقتل جماعة من (الفئتين) وجهز في تلك السنة عسكر إلى اليمن، فعاث بجدة، وكاد أَن تقع الفتن بها مرتين وثلاثاً، ولبس الناس السلاح، وكانت الأَخيرة أشدَّ ذلك جميعه، وسببها أَنهم أَخذوا من جماعة إسكندر نائب جدة عشرة أَنفس، كتبوهم معهم في العسكر، فأَرسل الأَمير إسكندر خلفهم فقالوا له: ونحن لنا عندك أَيضاً ناس هربوا من عندنا. فأَغلظ عليهم وأَغلظوا، وأَدَّى الحالُ إلى سل السيوف، وأَرسل إسكندر إلى صاحب البرج أَنْ يرمي عليهم المدافع وأَرسل إلى جماعة الشريف

أن يحفظوا البندر، فامتلأت شوارع جدة بالسيوف والخيل، فرفعوا هم شراعهم، وتوجهوا ولم يحصل لأحد سوءٌ سوى أنهم أيُّ مركب لقوه في الطريق بلصوا أهله، وفعلوا ذلك بطول الطريق.

وفيها توفي إسكندر أمين جدة بها. وفي موسم سنة تاريخه اتفق أنَّ جماعة من بني حسنٍ ذوي محمد، نحو الثلاثين نفراً وكبيرهم الشريف قايتباي بن راجح تعاهدوا على قتل الشريف أبي نُمَيٍّ بن بركات، حين يعود من الصيد من ناحية بركة ماجد، فإن عادته أن يكون في فئة قليلة فيقال: إنَّ محمد بن هزاع أخا محرم كان عاهد الشريف أن لا يخونه، ولا يوالس عليه وهو أحد الجماعة، فذكر له الواقعة بالحرف، ففي الساعة أمر السيد الشريف أبو نُمَيٍّ بخروج قايتباي بن راجح من منزله مَنْفِياً فأخرج به حافياً ماشياً، مسلسلاً صحبة الأتراك إلى جهة بركة ماجد، وكفى الله السيد الشريف أمرهم.

وهذا آخر ما كتبناه في هذا الباب بالمسودة إلى سنة إحدى وستين.

ولما منّ الله تعالى بالفسيحة في العمرَ ـ وله الحمد ـ فنذكر ما تجدّد من ولاية إمرة الحاج بعد ذلك فنقول:

سنة اثنتين وستين وتسع مئة: تولّى إمرةَ الحاج حمزةُ بن إسكندر الرومي، كاشف الغربية عُرِف بمقار عجمي لأنه كان يسرع على لسانه في غالب حكمه: مشاعلي عرى مقارع، وكان ذلك دأبهُ في استخراج مال الإقليم.

ولقد وقع له بالدرب الشريف أنَّ فقيرين اختصما، فرفع أحدهما خصمه إليه وادّعى أنه شتمه فعراه وضربه شبوباً، ويقال: إنه كان في ابتداءِ أمره من الفقراءِ الآفاقية، ثم اتصل بخدمة مصطفى الدالي كاشف الغربية كان، فجعله (خازندارا) ثم انتقل في أخذ الأمانات من باطن الكشاف والزراعات بالأقاليم، إلى أن أثرى واتفق عصيان سليمان بن قرطام أمير عربان بني حرام، بالشرقية وخرَّب ونَهَبَ، وتمادى في فساده، في ولاية داود باشا ومحمد جلبي ناظر الأموال، فاستعطفته الدولة بالأمان وحلفوا له، فلما أمِنَ وقابل الباشا أنزله محمد جلبي بداره بخط جامع قوصون، وأحسن نُزُلَهُ ثم دَسُّوا عليه حمزة المذكور، وباطنوه بأنَّه أي موضع رآه فيه يقطع رأسه، فبينما حمزة المذكور في شارع القربيين وخط المحمودية خارج باب زويلة مارًّا إذا بسليمان بن قرطام قد مرّ بالشارع، راكباً، هجم عليه حمزة المذكور، وكان بصحبته أخوه في المودّةِ، علي أدنوت (جاويش)، فبادره حمزة وقطع رأسه، وعاونه

أَخوه على ذلك، وحمل حمزة المذكور رأسه إلى الباشا، فجعله (جاويشاً) ثم انتقل إلى كشف الغربية، وكان السبب في ولايته لإمْرَة الحاج أَنه لما توجه مصطفى باشا إلى المملكة اليمانية من مكة المشرفة وعاد الأَمير مراد ـ أَمير اللواءِ ـ بالركب، وكان معه على العوائد ومأكولات العسكر وجرايات الغلمان، مراد (كيخيا) مصطفى باشا المشار إليه مع مشاركتي له في ذلك، فلما عاد الركب بالسلامة عرضت إمرة الحاج على مراد ـ أَعني الأَمير ـ على رجعة الحاج، فامتنع منها، واحتج بفقره، ثم عرضت على أَولاد مصطفى باشا فامتنعوا، وعرضت على بقية (الصناجق) فلم يقبلوها، ثم ورد حكم شريفٌ عال من الباب بولاية الأَمير إبراهيم بن المهمندار لإمرة الحاج، وكان أَحد أُمراءِ اللواءِ الشريف، فأَرسل إليَّ وذكر لي ذلك وكتبت أَوراقاً بما يصرفه على المهم، وترددت إليه في ذلك نحواً من ستة أَيام، ثم بدا له عدم القبول لهذا المنصب، وطلب أَن يكون (دفتردارا) كبيراً بمملكة مصر.

وكان محمد باشا نائب مصر يغضُّ منه باطناً، فخشي أَن لا تجري أُمورُ إمرته على ما يريد، فلذلك لم يظهر المرسوم، وامتنع من قبولها، فعين لذلك الأَمير حمزة المذكور، وكان من أَغراض محمد باشا وخواصه، وطلبه من الإقليم، وأَلبسه تشريفاً على العادة، وعرض له بما فعل، فأُجيب، فلما أَلبسوه واجتمعت عليه بمنزله، ذكر لي أُموراً يقصد فعلها، يضيق عنها الحصر في المصروف:

منها: أَنه يجعل للفقراءِ ذهاباً وإياباً من البقسماط خمس مئة حمل، حساباً عن كل يوم خمسة أَحمال، وذلك خارج عن احتياج المهم المعتاد، ومن الشقادف لحمل الفقراءِ نَيِّفاً وثلاثين حمْلاً، وعدَّ أَصنافاً كثيرة بمقدار زائد عن المعتاد أَضعافاً مضاعفة، ثم توجَّه إلى الإقليم بالغربية، بعد أَن أَحاط علماً بما يحتاج إلي عمله بالإقليم، وكتبت بذلك أَوراقاً بيد كاتب ديوانه، وجعل إليَّ بالقاهرة أَمر تجهيز الحمول إلى البنادر، وصرف أُجْرتها على العربان، فلما توجه إلى الإقليم شرع في عمل الأَسباب به، بمباشرة صاحب ديوانه المدعو عبد البر بن موفق، والمذكور شابٌّ غِمْرٌ بالأُمور قد رُبِّيَ في حال صغره على أَحوال لا يليق ذكرها بهذا الكتاب، فحسَّنَ له أَن يقطع جريد النخل الذي بالإقليم، ويأْخذ الليف أَيضاً، فجعل من الجريد الأَقفاص، ومن الخوص قُفَفَ السقَّائين وغير ذلك، ومن اللِّيف الحبال، فتقدّم بأَخذ ذلك غَصْباً من أَربابه بغير ثمن، فكان ذلك أَول الإشاعات عليه بالظلم، ومن سوءِ التدبير، ثم إنه استعمل المعلمين لعمل (الحوائج خاناه) وغيرها من المهمات، ولَمْ يُوَفِّهِمْ الأجرَة على حكم ضرائب أَمر الحاج، وفعل كذلك فيما اشتراه من الزكايب الشعر، والمسوح

والبطاين، وغير ذلك واستعمل المحابيس عنده في خياطة الزكايب الشعر سخرة، وسخَّر أَهل سوق المحلة الأَسكافيين في خياطة مراكيب الصدقة كذلك، فكان ذلك العمل سبباً لكثرة الشناعة عليه والأَشلَّة في (يرق) المهم الشريف، مع ما يشاع من أفعاله بالإِقليم، كرميه البيض نيئاً، ويأْخذ عوض كل بيضة فروخاً، وكذلك الغلال، وغير ذلك حتَّى الكزبرة الخضراء، واستخراج ذلك بالظلم والعنف والشدة والمقارع، فكثرت الشكاوى لمحمد باشا، ولم يأْخُذْ بقول أَحد منهم، لاتفاق غرضه معه، ثم إِنه أَبطل ما كان ذكره من البقسماط والزيادات جميعها، فكان الذي زاده عن عادة أَمير الحاج في البقسماط ستين حملاً، وأَبطل الشقادف وغيرها غير أَنه اعتنى بتعبئة المأْكولات بالسنيح وكان حسناً بالنسبة إِلى ما كان يفعله بعض الأُمراء في هذا الزمن، فكان جملة أَحماله مئة وثلاثين جملاً، من العسل النحل عوضاً عن القطارة والمرسل، وجهز السكر والحلوى بزيادة أَيضاً، ومن الأَغنام لعمل القاورمة مئة وخمسين معلوفاً، وعشرين بقرة، وغير ذلك من المأْكولات، وقصر في تحصيل الجِمال كغايته، ثم حضر إِلى القاهرة في ثالث شوال، وأَراد يَشْتَرِي الجِمالَ من القاهرة وكانت قليلة بأَغْلَى الأَثمان، فاشترى ما قدر عليه، وخرج من القاهرة بدون الكفاية من الجِمال، فكان ذلك سبباً لأَول الضرر الحادث على الحجاج في تلك السنة، فإِنه ركب ليلة الرحيل من البِرْكَة وقبض على نيف وعشرين جملاً، فأَخذ الجِمال الطائفة من عربان أَولاد عيَّاد، شيَّالة الدشيشة، وأَجْبرهم ظلماً بغير أُجرة ولا ثمن، ثم عاد على جِمال عربان الترابين، بالقرب من نخل كذلك، ثم أَخذ جِمالاً من جِمال حجاج غَزَّة، ورمى أَحمالهم، واحتج بأَن جمالتهم من بني عَطيَّة وهم عُصَاة، وقبض على عشرين نفراً من جمالتهم، وهم من بني عطية وغيرهم ومشَّاهم في الحديد، إِلى ٱلأَزْلَم، وأَودعهم بالخان إِلى الرَّجعة، ثم ركب وقت العشاء الآخرة وكبس على عربان الربائع، فنهب لهم نحو المئة جمل، بغير ثمن ولا أُجرة كذلك، وعاد إِلى مخيمه بالجِمال، فحضر إِليه المقدم محمد بن العظمة وذكر له أَن غالب العسكر بدون جِمال، وحاوله على إِحدى وخمسين جملاً منها، وأَلحّ عليه في ذلك، فدفع له منها خمسين جملاً ذهبت ضياعاً على أَربابها، ولم ينتفع هو بها و(دَوَّغ) باقي الجِمال، وأَضافها إِلى شعارته، واستمر على ذلك إِلى أَن وصل إِلى مَرِّ الظهران، وكان عاقبة سوء فعله غاية الذل والهوان.

وكانت هذه السنة من أَعظم السنين بلاءً ومشقة على الحجاج، وابتلاه الله تعالى بالمقت من قبل خروجه من القاهرة، وشدة المشقات، والعجز في سائر أَحواله، فمن

ذلك أَن عربان الحمل الأَزْلمية والعقابية كان منهم مَن قبض أُجرة ما يحمل، ومنهم مَن لم يقبض، ثم اتفقوا جميعاً على الشرود عن حمل أَمير الحاج، إلى الأَزْلَم والعقبة، وامتنعوا بالبَر الامتناع الكليّ، فاحتاج أَن شاور الباشا بمعرفة مقدمي القوّاسة وجهز جاويشاً بمثال إلى الكشاف، بالقبض على مَن بجُدَّة من العربان وجِمالهم، سواء كانوا عربان الحمل أَم لا، ففعل ذلك، وقبضوا على جِمال العربان ظُلْماً وتركوها بمنزل (أَقبردي) محبوسة بغير عليق ولا ماء، أَياماً متعددة، ولم يحضر أَحد من أَصحابها خوفاً من الظلم أَيضاً. فحملت من القاهرة وهي بدون الكفاية، وضاعت على أَربابها، ومن ذلك ابتداء الرابحة في الجِمال وموتها من القاهرة، واستمر يتزايد وعظم الأَمر جداً بمكة المشرفة حتى خرج عن الحدّ، فكان ذلك سبباً لطرح الحجاج وأَمتعتهم بالطرقات، وموتهم حتف أُنوفهم، بحيث أَن السالك امتنع من أَزقة مكة وطرقها، لكثرة ما بها من الجِمال الموتى وشدة نتنها، ولكثرتها صاروا يجعلون بعضها فوق بعض، فرميت للحجاج بمكة، وانقطع خلق لا يحصرون كثرة، فإِن الحاج الذي توجه من القاهرة في هذه السنة كان عدده وافراً جدًّا إلا أَنه كان نحو ستة ركوب، وأَكثر من ذلك، وغرقت مراكب حمل أَمير الحاج، المتوجه إلى جُدَّة بجميع ما فيها، فكان ذلك أَيضاً من أَسباب البلاء العظيم، وتأَخرت مراكب الرعايا والتجار عن الحضور إلى جُدَّةَ زمن الموسم، لما أَراده الله تعالى، فاشتدّ الغلاء وموت الجِمال، وانقطعت الحجاج بمكة والطرقات جدًّا بحيث أَنه لم يسمع بمثل واقعة هذه السنة مطلقاً، ولله عاقبة الأُمور.

وسارت أَحوال أَهل الركب في التَّلاشي، فالذي معه شيء من النقد أَو معه ما يبيعه بالثمن عاد من مكة إلى جُدَّةَ وركب البحر وتوجه.

فلقد أَخبرني السيد الشريف أَبو نُمَيٍّ بن بركات أَمير مكة، يوم توديعه أَنه كان متوجِّهاً إلى الصيد في طريق جُدَّةَ فرأَى في الطريق خلائق لا تحصى كثرة، فقال لأَحدهم: إلى أَين يتوجه هذا الركب؟ فأَجابه: يا مولانا هؤلاء من الذين ماتت جِمالهم، فهم يتوجهون من البحر، ثم قال: إني متعجب كيف يسير الركب من مكة إلى بلاده، وماذا يكون حاله بالطرقات؟ وكان كذلك، وأَما مَن ليس معه شيء من الحجاج وماتت جِمالهم مع فقرهم فقد انقطعوا بمكة المشرفة من الفلاحة وآحاد الناس، فصاروا يسأَلون الناس الصدقة، فأُخْبرتُ بعد ذلك أَنه مات منهم بأَزقة مكة وطرقها ـ بعد توجه الركب والمسعى ـ عدد وافر من الجوع والعري والهوان ـ نسأَل الله تعالى العافية ـ ومَن استطاع التوجه وعزم عليه فسار مع الركب وهو في غاية

الجهد والخوف على جِماله، فانقطع برابغ الإحرام جماعات بأَحمالها في البرية، ينتظرون مَن يمرُّ من المراكب، ينزلون بها من الساحل، وكذلك بمنزلة بَدْر وحُنَيْن، وبالمدينة المنورة جماعات كثيرة، ومنهم مَن خرج منها إِلى آبار عليٍّ وعجز من ساعته فعاد إِليها وانقطع بها.

وأَما أَمير الركب فحسَّنَ له المقدم محمد بنُ العظمة أَن يركب بالمدينة المنورة وينهب ما يجده من جِمال عربان المدينة، جيران حضرة المصطفى ﷺ، ففعل ذلك وقبض على ثمانية وثلاثين جملاً، وعلى عدة أَنفار من أَصحابها، وادَّعَى أَنهم سُرَّاقٌ، ووسط أَحدهم بالمدينة، وضرب شيخهم وهو شيخ من بني حُسين، من أَقارب الشريف مانع أَمير المدينة، فاقتضى الحال أَن أُقفلت أَبواب المدينة المنورة في حال الوقت، وركب أَمير المدينة بسلاحه وخيله فزعاً، ودخل الحرم، واجتمع على قاضي المدينة وأَكابرها، وكانت واقعة كبيرة آلت إِلى إِجهار النداء بالأَمان، واستمر على أَخذ الجِمال والرجال، فماتت الجِمال بالطريق، وأَما الرجال فأَطلقها يوم رحيله من الينبع، وكان عاقبة هذه الفعلة الشنيعة أَنه لما وصل إِلى القاهرة ادَّعَى عليه وكيلُ الشريف أَبي نُمَيٍّ بالجِمال، فصالحه على ذلك بمئتي دينار ذهباً، ثم جهّز الشريف وقاضي مكة عرضاً للسلطان، يشكون أَمير الحاج، ويكثرون من ذكر قبائحه، فَأُمرَ بالتفتيش عليه بالمدينة، ثم يُشنق فافْتَدَى نفسه من إِسكندر باشا بمبلغ كبير من الذهب، حتى أَنه عرض للباب بأَنه لم يثبت عليه شيء من ذلك، وساعده على ذلك قاضي المدينة وهو عبد الرحمٰن جلبي، بالبرطيل.

فلنرجع إِلى ذكر أَحوال الركب في بقية الرجعة، فإِنه لما وصل الركبُ إِلى الينبع، حصل له غايةَ الغلبة من كل ناحية، وهو موت الجِمال، والغلاء الفاحش الذي لم يُسْمَعْ بمثله، وتسلط محمد بن العظمة هو والعسكر على مَن بقي تحته شيء من الجِمال، يأْخذونها منهم، ويرمون أَحمالهم في البرية، وإِذا شكوا إِلى أَمير الحاج فلا يَرُدُّ لهم جواباً، فنزل إِلى ساحل الينبع للتوجه في البحر خلق لا يحصون كثرة، ولقد رأَيتهم ليلة وقت المغرب وهم جمع كثيرون، من النساء والأَطفال والرجال، وفيهم من النساء المخدرات يصيحون ويبكون على خيمة أَمير الحاج ويقولون: ماتت جِمالنا، والذي فضل نهبه العسكر منا، وانقطعنا بالبريَّة فارحمنا يرحمك الله، فلم يجبهم بكلمة واحدة فلهجوا بقراءة الفاتحة والدعاء عليه في وجهه، فلم يستطع أَن يرد جواباً، نعوذ بالله من ذلك، واستمر الركب على هذا الحال مَن معه شيء نزل من البحر، أَو انقطع بالطرقات حتى تمر عليه المراكب فانقطع الحجاج في منزلة اصطبل

عنتر، وبالْحَوْرَاء والمُوَيْلح، وبالأَزْلَم، وبعُيُون الْقَصَبِ وجميعهم أَمرهم إلى الله تعالى، فإنهم منقطعون بالبرية ولا يخفى أمرهم من عدم الزاد وأمر العربان، والمتحفظة وأهل الفساد، فمَن سلمَ ركب البحر ومَن عطب أَو نُهب مات حتف أَنفه، هذا والمنقطعون بالطرقات من مكة إلى القاهرة عجزاً من المشاة والضعفاء والمتغلبين فلا يحصون في كل منزلة ومحلٍّ، حتى امتلأَت الطرق من الأَموات ورممهم، فلقد رأينا من عظامهم في السنة التي بعدها في كل منزلة عدداً وافراً، ولقد ذرفت العيون وحزنت القلوبُ لشدة ما نالهم، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وبلغني أنَّ المرأَة تكون ماشيةً، ومعها ولدها الصغير على يدها، فتعجز عن حمله فتتركه تحت شجرة أُمِّ غيلان وتتوجه.

ولقد أُخْبِرْتُ أَنَّ امرأَة عادت إلى ولدها مراراً وهي تودعه وتبكي، ثم توجهت وتركته لعجزها عن حمله، هذا وأَخْذُ أَمير الحاج لما يجده من جِمال العربان وغيرهم ورَمْيُ أَحمال التجار وبهارهم لا ينقطع ولا يمتنع في غالب المنازل، وتفاحش الغلاء جدًّا بالرجعة فأُبيعت كل عليقتين بدينار ـ أعني ذهباً بندقياً ـ وكل رطل من البقسماط بنصفين وعثماني، وقس على ذلك، ورُفع إلى قاضي المحمل بمغارة شُعَيْبٍ رجلٌ يُدَّعَى عليه أَنه باع رطلاً وثلثاً من العجين بستة أَنصاف من الفضة، واثني عشرة حبة من التمر بنصف، فأَطلقه القاضي لعزة وجود المأْكولات، وعاد مَن بقي من الركب إلى القاهرة ـ وهم فئة قليلة ـ في أَسْوإِ حالٍ، فكثرت الشناعات على أَمير الحاج جدًّا، وكثرت الشكاوى والقصص، ولم يفدهم ذلك شيئاً، واستمر الحجاج المنقطعون يردون من طريق البحر شيئاً فشيئاً، إلى آخر السنة، وإلى أَوان توجه الركب في السنة المستقبلة.

ولما حضر الركب إلى القاهرة جهز محمد باشا جمالاً وماءً وزاداً لحمل المنقطعين بالطرقات الموجودين على الحياة، من عجرود إلى القاهرة، وذلك على يد الخولي زين الدين، وكانوا نحو المئتين من الجِمال فحضروا بعد أَيام إلى القاهرة وهم عدد وافر، وعرضوا على الباشا فكساهم، وتوجهوا ولم يسمع بهذه الشدائد العظيمة الواقعة لوفد الله تعالى في هذه السنة وإليه الأَمر كله، فكانت تلك السنة إذا ذكِرَت يقال: سنة الشِّدَّةِ العظمى.

وفي هذه السنة ورد الخبر من اليمن بوفاة مصطفى باشا زبيد، وكان القاصد المخبر لذلك في حادي عشري شوال سنة اثنتين وستين وتسع مئة.

سنة ثلاث وستين وتسع مئة: كان أمير الحاج عيسى بن إسماعيل بن عامر بن عامر أَخو جويلي بن سليمان بن عيسى بن عطية بن شبيب أَبو حبيش أَمير عربان بني عونة بالبحيرة، على غير قياس لأَن رتبته ومحله من الولايات دون ذلك.

وكان السبب في ولايته لهذه الإِمرة أَنه كان يواصل بالهدايا و(الأَرمغانات) والتقادم الحافلة في كل سنة إِلى الأَبواب السلطانية، ويبالغ في إِيصال الْبِرِّ والهدايا إِلى الوزراء والأَكابر ولفيفهم، حتى إِلى (الأَدُرِ) السلطانية، فصار له بالباب السلطاني حسن الثناء ونَمَى ذكره بهذه الواسطة، وصار يكاتب الأَبواب السلطانية من الوزراء وغيرهم، فحسده على ذلك مَن يلي أَمر مصر من الباشات، وصاروا يظهرون البغض والشنآن، ويتعرضون له بالأَذى حَسَداً من عند أَنفسهم، لكونه يكاتب الوزراء كما يكاتبون هم مع طمعهم في جانبه أَيضاً، وإِعطائه لهم العطاء الجزيل من النقد والأَصناف، فاتفق له أَن جهز عروضاً يسأَل في أَن يحج في هذا العام، واتفق أَيضاً أَن في هذه السنة توجه محمد باشا معزولاً من المملكة المصرية، ووليها إسكندر باشا (بستان جي) السلطان وترقى إِلى أَن صار (قابجي باشا) حضرة السلطان سليمان، ثم نقله إِلى ولاية مرعش، فأَقام بها دون السنة، وهي قرية صغيرة جدًّا فنقل سريعاً إِلى المملكة المصرية، على غير قياس، لأَن رتبته دون ذلك وهو أَيضاً غِرٌّ بأَحوال هذه المملكة وتدبيرها، لأَنه لم يسبق له ولاية إِقليم بسوس إِليه الرعايا الكثيرة، ويمر على فكره به الأَحكام والوقائع الغزيرة، ولما أَن دخل القاهرة كان ممن لاقاه خارج القاهرة واجتمع عليه وعرفه بعض أَحوال الإِقليم حاجي أَحمد (كيخيا) داود باشا سابقاً، فاتصل به وتقرّب من خاطره، ومن أَصحاب المذكور والمترددين عليه ومن جماعته شخص يقال له الخواجا خضر بن عبد الله الرومي، أَصله مملوك شخص من تجار خان الخليلي، يدعى خُجَا خليل، ثم أَعتقه وترقى إِلى أَن صار كاشف القليوبية، كما سيأْتي ذكره في محله فتوجه أَحمد (كيخية) داود إِلى حضرة إسكندر باشا، وتقرّب من خاطره، وأَثنى عليه صاحبه المشار إِليه عنده، ثم ذكرا له ما اتفق للركب في العام السابق من البلاء والموت والغلاء، وجعلا سبب ذلك ومن أَعظم موجباته الأَمير حمزة أَمير الحاج سابقاً، فكان من قول إسكندر باشا لحاجي أَحمد (الكيخية) قد عزلته من الإِمرة وخُذْ أَنت مكانه، فامتنع، وقال: إِن يكن ذلك فالخواجا خضر أَوْلَى لقدرته على هذا المهم، وأَما أَنا فلا غرض لي في ذلك، فتقدّم حينئذ الخواجا خضر وخدم إسكندر باشا على ولايته لهذه الإِمرة، بقدر وافر من الذهب فولاه إِمرة الحاج وأَلبسه التشريف، وأَجهر النداء بذلك بالقاهرة، وشرع الخواجا خضر في عمل (اليرق) على

عادة مَن تقدمه في ذلك، ثم كتب إسكندر باشا عرضاً إلى الباب بولاية خضر المذكور، وأنه ليس بالبلدة مَن يستحق ذلك إلا من عرضنا على المسامع العلية ولايته، وكان عرض عيسى شيخ العرب سبق عرض الباشا بأيام، فاتفق الوزراء على ولايته لإمرة الحاج، وأنه لا يسافر إلا أميراً، ولأجل أن يحصل للفقراء والحجاج النفع بسفره لما اشتهر من ذكره بالعطاء، وعرض ذلك على مسامع مولانا السلطان، فبرز أمره بولايته أميراً على الركب لسنة تاريخه، وكتب له الحكم الشريف، وجهّز إليه، وأما عرض إسكندر باشا للخواجا خضر فإنه لما وصل إلى الباب وعرض على الوزراء لم يلتفوا إليه مطلقاً لما تقدم للأمير عيسى من الولاية، فلم يشعر إسكندر باشا إلا وقد ورد عليه حكم الشيخ عيسى صحبة جاويش من الباب السلطاني بولايته، فحصل عنده من شدة الحنق والغيظ والكدر ما لا يوصف لأسباب: منها كسر خاطر خضر المتولي بعد وزنه مبلغاً ذكر لي من لفظه أنه خمسة آلاف دينار ذهباً، ومنها: كون بَدَويٍّ شيخ إقليم يعرض لنفسه ويعود له الجواب بما فيه نقض كلمة باشا مصر، واقتضى الحال أن عمل بحكم السلطان، خوفاً على نفسه، فتولّى عيسى إمْرة الحاج، رغماً على أنف إسكندر باشا، وبغير رضاه، فكان ذلك من أسباب معاكسة الباشا للشيخ عيسى في أحوال مهمات الحج من الجمل وغيره كما سيأتي ثم حضر بعد ذلك (أولاق) الباشا إسكندر من الباب وهو ذليل مما رأى من إعراض الوزراء عن عروضه فكاد خضر أن يموت غيظاً وأسفاً، واشتدت عداوته لعيسى بما لا يفيد، واقتضى الحال أن الأمير عيسى شرع في تجهيز حمولٍ زائدة عن المعتاد برًّا وبحراً، وتسلّم من الأمير ما كان عنده من (اليرق) المستجد من مال إمْرَة الحاج لسنة تاريخه، وقصد التغالي في هذا المهم لكون أن السلطان اختاره وعيّنه فجهز حمولاً من السويس ومن القصير على حالة السعة الزائدة من البقسماط والدقيق، والعسل النحل، والسكر والأجبان، والأرز والباسلاء والكشك، وسائر الأصناف لقصد السرعة والإشاعة، ودفع أُجرة ما زاد عن حمل العادة لأمير الحاج بالسويس أُسوة بالرعايا، وهو عن كل حمل مئة نصف.

ثم شرع في أسباب المهم بالقاهرة من عمل الأكوار المزركشة، والمنقشة المكملة الاحتياج من فضة الأكوار والحرير العال، والشباك المنوعة، ثم شرع في تَعْبِئة سنيح هائل، كبير جدًا عن عادة مَن تقدّمه من الأعيان في الدولة العثمانية، كالجمالي يوسف الحمزاوي وغيره، فجعل فيه من العسل النحل النقي ومن القطر المكرر والمعاد والنبات ومن السمن البقري نحو الستين قنطاراً، وأكثر من ذلك ومن السكر

والحلاوات المنوعة، بكثرة زائدة عن الحدود، وذبح من الأغنام لعمل (القاورمة) نحو مئتي رأس، ومن البقر قدراً حافلاً، ومن الحبوب على اختلاف أجناسها ومن الكعك والشهد النقي ويغره، وكان عدة أحمال سنيحه ببركة الحاج مئتين وخمسين جملاً، منها على جمال النفر الكبار مئة وخمسون، وعلى جِمال الشعارة مئة، ثم أبطل مقاطعة السقاية التي كانت متداولة بديوان إمرة الحاج، واشترى ألفاً وخمس مئة قِرْبَة من الحلبيات الكبار، وعمل من الأحواض الكبار خمسة بزيادة واحد عن العوائد وأصرف على فرع السقاية نحو ألف من الذهب، ثم اعتنى بالجِمال فاشترى وجمع عدداً حافلاً، وقصد الشهرة في سائر أحواله، فلم تساعده الأقدار، ولم يكن من أهل هذه الوظيفة عند أُمراء الدولة ولا إلى هذا المقدار، وتعمّد له إسكندر باشا بالأذى، والتوصية على معاكسته في سائر أفعاله، فأما حمول المهم المجهزة من طريق البحر إلى جدة والينبع فعيَّن إسكندر باشا لشحنها رجلاً من خاصته وأوصاه على وسق المراكب شحنة العطب، فأكثر من الشحنة خلاف عرف البحر، فانصلحت الجلاب المتوجهة إلى جدة بجملتها، ورمى غالب حمل الينبع في البحر تخفيفاً على المركب، وجاء الخبر إليه بذلك في شهر شوال، فجهز في ليالي الرحيل ألف جمل بأُجرة المثل الزائدة المقدار، ولم تحصل موسم الحاج، واحتاج اشترى من مكة المشرفة عليقَ جماله، ومأكولات مضافاته بأعلى القيم.

واتفق له بعد سفره كائنة بالطريق، ذكرت عنه بأخبث السير، وهو أنه أغرض مع عمر بن شاهين شيخ بني عَطِيَّة الْوُحيْدَات، صاحب درك نَقْبِ عَقَبَة أَيْلَةَ وأقبضه معلوم بني لاَم، المقرر له بديوان السلطنة بطريق الوكالة عنهم، وكان الوكيل والضامن عند السلطنة ما يأتي منهم عمرو بن عامر بن داود أمير بني عُقْبَة وهو أيضاً من صُهُوْرَتهم، فلما أغرض مع بني عطية في الصرة المذكورة حصل عند عَمْرو أمير بني عُقْبة ما أَخْرجه حتى تعرَّض لملاقاة الأزْلَم، بالرجعة، وحاش الجِمال والعسكر، وكان أمير الحاج على قلب غافل، فقتل من عسكر السلطان نفرين، وحاز جميع الحمل والعليق والجِمال، وأرسل لأمير الحاج يقول له: إن لم ترسل بدل الصرة التي أَغرضت بها مع عُمر شيخ بني عطية وإلا فما أَعَدتُ من الملاقاة عقال بعير. فاحتاج أنه غرم ذلك من ماله، وجهزه إليه واتفق له بمكة أن الشريف خشي من ولايته على الحاج أن يكون مكيدة عليه ليتمكن من القبض عليه فمنعه من نزول المدرَسَة الأشرفية قايتباي، وأنزله بـ(وطاقه) وجماعته عند بستان جانبك، بطريق منى، وكان إذا أراد الدخول إلى مكة ينزل في بيت الخواجا ابن خوبان، أو بيت الشيخ محمد البكري،

يقيم ما شاء من النهار ويتوجه كأحد الرعية استخفافاً به، ووقع الفناء في جماله من الْحوْرَاءِ في الذهاب، إلى قريب من غاية إقامته بمكة المشرفة، ثم ارتفع وعاد الفناء في الجمال بالربيع وهي على البرسيم الأخضر فقطع من (الداغات) في يوم واحد ماتنبل فيه وعدة ذلك مئتان وثمانون جملاً ولولا أنه اكترى جمالاً من الينبع والأزلم وعقبة أَيْلَة بِأَدْنَى أُجرةٍ حتى عاد بأثقاله إلى القاهرة، وما فضل من الجمال تنبل بالربيع كما ذكرنا ولم تحمد له خطة في الركب تلك السنة إلا إطعامه البازين للفقراء ذهاباً وإياباً، ورفقه وعنايته بأصحاب الأدراك، وصرفه لهم مرتباتهم بالتمام، وإعطاؤهم من ماله زيادة على ذلك، ولم يحصل للركب في تلك السنة تعقيب ولا ترتيب، بل كان الفلاح والغوغاء أول الركب ووسطه من غير نظام، كما كان قبل ذلك، فإن أمير الركب كان سيره في أعقاب الحج ذهاباً وإياباً لقصد السمعة، وأنه يركب العيّان بالساقة وكان يفعل ذلك مع أهل الفظاظة ومَن يَتَّقِ لسانه قصد الشهرة والصيت، وبلغني أنه فرق من الشاشات والثياب عدداً وافراً، بعجرود، والبُوَيْب عند العود، وأمرهم أَنْ ينصبوا الشاشات على الأعواد، ويجعلها رايات، لحسن الثناء عليه يوم دخوله إلى القاهرة، ففعل ذلك وشاع له بذلك ذكر كبير بلغ أقصى مملكة الروم، وكان سبباً لحصول اللواء وولايته ذلك مع الإقليم، والله أعلم.

سنة أربع وستين وتسع مئة: كان أميراً على الركب الخواجا خضر بن عبد الله الرومي، عتيق خليل التاجر بخان الخليلي، ذَكَرَ لي مَن أثق بقوله من الأعيان أنه تَرَبَّى ذليلاً حقيراً، وكان دأبهُ أن يحمل مع أُستاذه ما يشتريه من الأسواق لمأكولاته من الخضار وآلة الطعام، وكان كثير السفه على السوقة في زيادة القدر التافه، يأخذه منهم على ما يشتريه إظهاراً أُستاذه نوع شطارة، قال: ولذلك اعتاد السفه واستمر على ذلك في حال كبره، ولم يكن أُستاذه المذكور من أكابر التجار أهل الثروة والدنيا الشائعة، والترافة والترفُّه، فكان مملوكه خضر المشار إليه على الغاية من رثاثة الحال ودناءة الأفعال، حال خدمته له حتى صار ذلك له طبعاً، فإن اكتساب الآداب في الصغر كالنقش في الحجر، وكان أعظم ذلك مقاساته الفقر والقلة من سيده، الموجب له النشأة على حُبِّ المحصول، الطمع في الشيء التافه من غير مبالاة بالعاقبة.

فلقد بلغني من الثقات أنه كان يوالس على السُرَّاق بالدرب الشريف ويحرِّضهم على إتيان ما يسرقونه إليه ذهاباً وإياباً، وإذا أمسك النفر منهم يَأْمر بوضعه في الحديد ظاهراً مع الغشامة، ثم يأخذ ما معه، ويطلقه ليلاً، وإذا طلب منه فتارة يذكر أنه تسحب من الاعتقال وتارة يطاعن في أمره، ولم يسمع عنه أنه قتل سارقاً من

المشهورين بالسعي في درب الحاج بالفساد وأذى العباد، ولا عاقبهُ، فإن اتفقت عقوبته فيكون ذلك قبل أخذ العهد عليه والاتفاق معه، وأخبرني أحمد بن سعود نجار الكُور: أنه بَعدَ أنْ بلغ مبالغ الرجال كان يأتي إلى دكانه لمشترى الأقتاب التكرورية لأستاذه لابساً ثوباً من الطرح الغزل الخشن وبركوبه حمار العلاف القصير، بحيث أنَّ رجليه يصلان إلى الأرض، فكان يجلس على دكانه نهاره، حتى ينتهي من عمل الأقتاب، ويتوجه بها فنشأ حاله على القلة وكسوف البال، وموت القلب، والبخل، والاقتصاد في الأُمور جدًّا، ورذالة النفس وسوء الظن بالناس، ولما ملك أمر لم يخرج عن طبعه، ولم يحل عن سفالته ووضعه، فهو في جميع أوصاف اللآمة، ألأَمُ من فَعْلةِ أبي دُلاَمة، وفي الطمع يفوق أشْعب في التّلامة وأبخل من مادر في الفتيل، وأظلم من هناد في جميع السحت واختلاق الكذب والأباطيل، أخْصر ما يذكر في صفاته الوضيعة أنه كسراب بقيعة:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

ولم ينفرد الخواجا خليل بملكه، بل كان شريكه فيه ولد أخيه بالسوية، فلما أَعتق خليل حصته منه امتنع ولد أخيه عن عتق باقيه وبلغني أن خضر بعد أن ملك أمره سأله في ذلك بمال له صورة، فامتنع، لكن بحكم الشرع يسري العتق في جميعه، ويكون ثمن حصة الشريك دَيْناً في ذمة المعتق الأول لتشوف الشارع - صلوات الله عليه وسلامه - إلى فَكِّ الرقبة من الرق، مع أن خليل المعتقَ له مات فقيراً، ونشأ خضر المذكور على ما كان عليه سيده من السفر إلى بلاد التكرور، والمشاركات معهم في الخيول وغيرها، ثم عُني بالزراعات في إقليم القليوبية، وشارك مشايخ الناحية، وتزوج من أولادهم ونَمَى ماله، وأثرى، وأكثر من الزراعة فسمت نفسه إلى كشف القليوبية، ودأب في السعي على ولايته بمال، حتى وليه، واستولى على الإقليم حكماً وزراعةً ونهباً لأنوار الفلاحين به، وأسبابهم، وتنكر لهم في ولايته، وطمع في تلك الناحية نهباً لأموالهم وأبقارهم، وعسفهم ومَن جاورهم من العربان، حتى بلغني أنه كان يقبض على المارِّين بالطريق، ويأخذ أمتعتهم وعصيَّهُمْ، ويضعهم في السجن، فلا يطلقهم إلا على مال يقرره عليهم، ظلماً من غير جناية، ولقد ذكر لي أنَّ عنده حاصل كبير من جنس العصيّ الشُوم الذي أخذها من المارة بالطرقات فكيف بغير ذلك، واستمر على تمرده إلى أن ولي علي باشا إقليم مصر، فشكت أهلُ تلك النواحي منه، ورفعوا إليه القصص الكثيرة، ذكر لي من أثق بقوله من أهل الديوان السلطاني أن علي باشا أمر بجمع قصص الشكاة منه فكان عدتها ألف

ونيفاً وثلاثين، بل أَظنه ذكر أَكثر من ذلك، فعزله وأَراد قتله، فترامى على بعض مَن يلوذ به وافتدى نفسه بمال له صورة، وعاد إلى الإقليم بعد ذلك، وأَضاف إليه الشرقية ثم إنه كتب الإقليمين على مملوكين له ـ أَحدهما يدعى يوسف والثاني حمزة ـ صورة ظاهرة، وضمنها في المال السلطاني، ليبعد عن نفسه ما يقع منه من المفاسد بالإقليم، ولطمأْنينة أَهل الإقليم ببعده عنهم في الصورة، لبغضهم له، بمقتضى سابق أَفعاله، ثم انتقم من بعض الشكاة بالإقليم قتلاً بمقتضى إغراء بعضهم ببعض، ممن يكون بينهما العداوة، مع إظهاره البعد عن ذلك والإنكار على فاعله، وتفويض أَمر ذلك إلى مملوكه الذي هو كاشف في الصورة الظاهرة، ولم يراقب الله تعالى، وسمت نفسه بعد ذلك إلى إمرة الحاج، فأَحبَّ السفر أَولاً صحبة الركب، لينظر كيف سيرة أُمراءِ الركب ليتمرّن على معرفة ما يستعين به إذا ولي الإمرة، فاتفق أَنه حج في عام اثنين وستين وتسع مئة، وهي سنة الشِّدَّة العظمى، على الركب ولاية الأَمير حمزة بن إسكندر كاشف الغربية، وكان صديقاً له وخصيصاً به. وسافر في مَحَفَّة مصاحباً للأَمير حاجي أَحمد (كيخية) المرحوم داود باشا، وهو الآخر في مَحَفَّةٍ ثانيةً، وكان من أَمر الحاج ما تقدّم ذكره فعاد ساخطاً على صديقه حمزة المشار إليه كثير الذم له والشناعة عليه، إلى أَن عينه إسكندر باشا أَميراً على الحاج في سنة وثلاث وستين، فلم يسافر تلك السنة بولاية الأَمير عيسى أَمير عربان بني عونة بالبحيرة، من الباب السلطاني ـ كما قدّمنا ذكره ـ وكان تقدّم له خدمة على ولايته إمرة الحاج بمبلغ ذكر لي من لفظهِ أَنه خمسة آلاف دينار من الذهب، للرغبة في انتقاله من الحضيض الأَسفل إلى الجلوس مع الباشا بالديوان الشريف الأَنبل، فلما عاد الأَمير عيسى من الحج لم يكن لخضر همة إلا في ملازمته إسكندر باشا في بث أَمر ولايته، وبلوغه مقصوده من ذلك، بجميل رعايته، فعرض له إلى الأَبواب السلطانية، فعاد إليه الجواب إن لم يكن للشيخ عيسى غرض في ولايته لها ثانياً وإلا فقد قلدناك ولاية من تختاره، فأَلبسه قفطاناً على العادة ـ كما شرح ـ من غير مرسوم سلطاني أَتى إليه من الباب الشريف كما هو المعتاد، وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه من أُمور المهم على حالة غير مشكورة، ولا طريقة مرضية مخبورة، بل سلك طرق الشُّحُ المفرد والاقتصاد في سائر الأَمر المعتاد، والسفه على جماعة العاملين، والمستعملين والجمالة والمقدمين، وجعل على إقليمه جمالاً متعددة، بغير أَثمان يخص كل قربة جملاً، وكذلك ما يحتاج إليه من الجبن والسمن، وزعه على قرى إقليمه بعدد البيوت، على كل عتبة قدر معلوم، حتى البصل وجنح إلى المناقصات المجحفة بأَحوال العاملين

والمستعملين، بعد الاقتصاد والاقتصار والاختصار، وعاملهم بسوء السيرة والسفه ونقص الأَسعار، ولم يرجع في أَمر من أُموره إلى حكم ضريبة معتادة، وقلَّ خوفهُ من الباشا بسبب ما دفعه إليه من النقود وما خَصَّه به من الإفادة، فكانت ولايته في مقام الانتقام لمَن لم يرضَ بأفعاله من الأَنام، وأَظهر خبث طويته الكامن في سجيته وقريحته، وعامل خدمة إمرة الحاج ومعامليه ومقدميه بقبيح الأَلفاظ التي لا تصدر إلا من أَهل السفالة، وربما ضرب بعضهم ظلماً وأَهان بعضهم، لا يعدل عن هذه الحالة، فكثر الذم له من الأَلسنة، ولم تحمد مقاصده وأَفعاله بنافلة ولا حسنة، وبالغوا في مذمته والوقيعة، وحكوا من أَفعاله كل رذيلة وشنيعة، وتشدّد في أَنواع الشح والبخل إلى الغايةِ، ولم يُصْغ إلى لَوْم لائم في بداية ولا نهاية، وكان كما قيل:

يَطْوي عَلَى الذَّرَّةِ الصغرى أَنَامِلَهُ فَمَا تُخَلِّصُهَا مِنْهُ الْكَلالِيبُ

وأَكثر من السفه في مخاطباته للخدمة والعاملين، وبدا منه قبائح الأَلفاظ واتَّبع الأَسافل والأَرذلين، وكانت ولايته على وفود الله من عين إمارات الساعة، قد تحصل له فيها من قبح الثناء وشنيع المقول أَخبث بضاعة، وعمد إلى اختصار سائر أُمور المهم وعوائده بهمة غير مشكورة، ولم تكن القلوب بولايته مسرورة ولا مجبورة، وبالغ في الجمع والتحصيل، وطمح إلى الطمع في القدر التافه والرذيل، ووفّر لنفسه من المرتبات والإنعامات السلطانية، وكان ذلك دأبه في كل مهم وقضية، وانفرد برأيه جمعاً لوافر البلص وخبيث المحصول، ورَضِيَ من ولايته والحالة هذه بقبائح الأَفعال ومفاحش المنقول فكان كما قيل:

مَــنْ كَــانَ يَــأْمَــلُ أَنْ يــرى مــن ســاقــط أَمــراً سَــنِــيّــا
فــلــقــد رَجَــا أَن يــجْــتَــنــي مِــنْ عَــوْسَــج رُطَــبــاً جَــنِــيّــا

ولما رأيته مكبًّا على هذه الأَفعال والصفات المذكورة، وأَفعاله غير محمودة ولا مشكورة، فارقته من ثامن شوال، ولم أُجب على صحبته بسؤال، بل كتبت للسلطنة دَفْتَراً بما يفعل، وعرجت عن سلوك طريقه والمعول، وحمدت الله تعالى على ما أَلهمني منذ لك وبعدي عن موافقته ومرافقته في هذه المسالك، وأَخذتُ طريقاً غير طريقه، ويسّر الله تعالى ذلك بتسديده وتوفيقه، وتوجه أَميراً على الركب في هذه السنة سائراً على أَقبح سجيَّة وأَشنع طوية، فتجافت عنه غالب الخدمة والغلمان، وتحامت عن السفر معه بعض أَعيانها من أَهل المروءة شروداً بكل مكان، وكثرت عليه من الأَلسنة الشناعة، وحصل له من عواقب فعله ما لم يَجِدْ إلى تلافيه استطاعة، وسار

بتلك السيرة الخبيثة مع أَهل الأَدراك بالطرقات، وعمد إلى الطمع في صُرَرِهِمْ وعَمَلِ الحيلة في أَكلها بأفعاله القبيحات، وكذلك فعل في جوخهم وما لهم من العوائد، وأَوهن قوى تلك القواعد، بنقص ما لهم من الأَوابد، فعصى عليه عمر بن أَجود، من مشايخ عربان بَليٍّ وأعيانها، ومال إلى طرق المفاسد التي قد غُذِّيَ بلبانها، وقبض على (جاويش) متوجه في بعض المهمات السلطانية إلى مملكة اليمن، وجعله رهينة عنده على ما له من العوائد والمرتبات من قديم الزمن، فلم يسع أَمير الحاج إلا المبادرة إلى مراضاته بكل طريق، حذراً من بلوغ السلطنة أمر (الجاويش) وسبب التعويق، وجهز له جميع ما له من الطارف والتليد، وأَطلق (الجاويش) مصحوباً بشناعة على أَمير الحاج ما لها من مزيد، ثم ركب عمر المذكور بخيوله الملبسة ورجاله، وقصد خيانة أَمير الركب مقابلة له على أَفعاله، فلولا أَنه كان في الركب أَولاد الباشا مع (كيخية) بابه لأَذاقه من آلام العصيان عليه غاية أوصابه.

وأَما عَمْرُو بن عامر أَمير بني عُقبة فلما عامله أَمير الحاج بسوء المعاملة، ولم يوفه مرتباته ولا اعتمد معه المجاملة، امتنع من مقابلته والحضور إلى بساطه، وحركته أَفعاله الذميمة إلى الأَخذ بالعصيان، والشروع فيه بهمة نشاطه، فمرّ على ساقةِ الركب بالأَزْلَم بخيوله ولبوسه وأَولاده، وقصد العبث بها مقابلة لإفساده، فمنعهُ ما منع من الأَول من العزيمة واختار شكواه إلى الباشا وبثّ أَفعاله الذميمة، فلما حضر الركب إلى القاهرة المعزية، وحضر قاصده لشكواه إلى الأَبواب العلية، وتقدّم إلى حضرة الباشا وذكر له في مكاتبة عمرو أَنه قاسمه في الصرة، ولولا خوف السطوات السلطانية لأَوقع به أَنواع المضرة، فلأَجل ما سبق للباشا من البرطيل، مع تحققه لأَفعاله، أَخذ في حُسْنِ مداراة القضية والتلطُّف بالوكيل، وبرز أَمره إلى خضر بتلافي أَمره والمصالحة، ولم يَمِل في معاتبته على مثل ذلك إلى نوع من المقابحة، والعجب من شهادة شهود المحمل، ورسم علامة القاضي على دفتر الطريق بالوفاء التام وعدم خوفهم من الله تعالى، واعتماد شهادة الزور، لأَجل الدنيا والسحت الحرام، وأَما بنو عَطِيَّة مع صحبتهم له، ونزولهم له بإقليم القليوبية، ومراعاته لهم بالقاهرة في أَوقات الغضب عليهم، ومنعهم كيل القمح منها بالأَوامر السلطانية، وإظهار الغرض لهم في كل مُهمٌ وقضية، أَنفوا من أَفعاله الذميمة، وجنحوا إلى مخالفته واعتماد مفسدة عظيمة، وقصدوا أَخذ الملاقاة العقابية بما حوت من الرجال والجِمال، وبرزوا لفعل ذلك وصمموا عليه بكل عزيمة ومقال، فلولا أَنَّ الخوليَّ زين الدين كان مع الملاقاة لمكارمة أَولاد الباش، وأَخذوا في استعطاف خواطرهم، وضمن لهم ما عند أَمير

الحاج من عوائدهم، وحاش ما تركوا من الملاقاة بجميع ما فيها باقية، وكانت عاقبتهم إلى سوء من غير يَد تكفُّهُمْ عنهم ولا واقية، ومع ذلك فهجموا على الآبار التي بالنخل بعد نزول الركب، وقتلوا نفراً من العسكرية، ونهبوا من الجِمال، وتوجهوا على حمية، وكان الحاج في هذه قليلاً جداً، ومنَّ الله تعالى بالرخاء في سائر أسعار المأكولات، وعدم العلة والفناء في الجِمال، فضلاً من الله تعالى، وأنزل الله القطر بعد احتباسه عدة من السنين فكان المرعى للجِمال بالطرقات من المنّة التي عظم قدرها الثمين، وفتح الله بها لعباده أبواب السلامة بعد المحل والجهد والبلاء المبين، وذلك من جزيل منن الله تعالى على عباده، واللطف في المقدور، إذ لم يجمع لهم في هذا العام من مشاق الدّرب وولاية خضر المذكور.

وأما أَسعار مكة على ما قيل فالحمل الدقيق غاية ثمنه سبعة من الذهب، والبقسماط بعثماني الرطل، والعسل النحل بنصف الرطل، والسمن بثلاث عثامنة، وأَما الخضار والبطيخ فلا يقدر قدره، والعنب لوجود الموسم كل ثلاثة أَرطال بنصف، واللحم الضأن رطلان بنصف، وكان دخول أَمير الحاج إلى القاهرة في يوم الخميس عاشر شهر صفر الخير سنة خمس وستين وتسع مئة بعد أَن أُشيع وفاته بالطريق، وتمت الإشاعة مع الكبير والصغير، كما هو حال الأَخبار في هذا الزمن، فاتضح بعد دخوله للقاهرة أنه كان حصل له مرض شديد، أَقام به نحو الخمسين يوماً، وعوفي منه.

ذكر ما تجدّد في هذه السنة بالحجاز والقاهرة

فمن ذلك بالأَقطار الحجازية أُمور:

منها: عزل قاضي مكة أَمير حسن ابن السيد سنان، وولاية حسن بن عبد الله، مملوك رستم باشا الوزير الأَعظم عوضه، وأَثنت أَهل مكة على حسن سيرته معهم، وعدم التعرُّض لهم في الأُمور التي اعتادوا فعلها كزيارة النساء القبور، وكالتماشي إلى مِنًى وغيره، مما منعه مَن كان قبله.

وفيها: حجّت شاهي خوبان ـ ومعناه سلطان الملاح ـ صحبة الركب الشامي، في تجمُّل هائل، يقال: إنها (كيخية) والدة السلطان، ويقال أَيضاً: إنها من موطوءات السلطان سليمان نصره الله تعالى ـ وقد ذكرتها فيمن حجّ من النساء الأَكابر ـ.

وفيها: غَزَا السيد حسن بن أَبي نُمَيٍّ بن بركات طائفة بني لامٍ، والظَّفِير.

وكانوا أَخذوا قافلة المدينة زمن الموسم سنة اثنتين وستين وتسع مئة فظفر بآل ظفير، وقبض على شيخهم (أَبو ذراع) وتمزقت طائفته، وتشتت بنو لام، وتمزقوا كل ممزق في أَطراف الحسا، وتتبع آثارهم، وهذه أول غزوة غزاها وحدها، ومعه أَخوه السيد ثقبَةُ، وكان معه من الخيول ما يقارب الألف، ومن البنادق والرجال ما لا يُحْصى، وزُيِّنَتْ مكة وجُدَّة سبعة أَيام، ثم توجه السيد حسن ومَن معه إلى المدينة الشريفة فدخلها في خامس جمادى الثاني، في موكب عظيم لم يعهد مثله، فزار الحجرة الشريفة المصطفوية واستمد من مدد جَدِّه ﷺ.

وأَما أَخبار الهند فذكروا أنها في غاية الخباط من بعد قتل السلطان محمود، ولم يستقر لهم أَمرٌ إلى الآن، فإنَّ سلطانهم أحمد باشا ولد صغير، فيقال: إنه استولى عليه عماد الملك من جماعته، وطرد عنه اعتماد خان فهربا، والحرب بينهم قائم، والله تعالى يصلح أَحوال المسلمين في سائر الأَقطار والجهات.

ويُذكر أَن الفرنج المخذولين خرج منهم تجريدة في عدة أَغربة، وعاثوا في بَرِّ عَجَم فالله تعالى يخذلهم.

وكان المولد الشريف بمكة المشرفة في غاية الحسن، فإن القاضي حسن أكثر في إيقاد القناديل والشموع عن المعتاد، واجتمع الفقهاء والعلماء بالحرم الشريف إلى أَن تَمَّ المولد، ولم يمشِ إلى محل المولد كمن تقدم من القضاة.

وفيها انتقل بالوفاة الشيخ أَبو السعود الشيبي فاتح بيت الله الحرام، وولّى المفتاح بعده الشيخ عبد الواحد ونائبه الشيخ يحيى، وتوفي الشيخ العلامة أَبو السرور بن أَبي الليث الحنفي، وفيها تزوج السيد الشريف أَبُو نُمَيٍّ بن بركات بابنة السيد محمد بن أَبي الغيث، ودخل بها في عشري شهر جمادى الآخرة، سنة تاريخه، وحصل له من السرور بها ما لا يوصف، وأَنعم على الفقهاء الحاضرين للعقد بخمسين من الذهب لكل نفر، إلى خمسة، وجلس جلوساً عامًّا للتهنئة بالطيب والكحل لكل وارد.

وفيها وقع بين الشيخ العلامة عبد الباسط بن أَيوب الشافعي ـ خطيب الحرم الشريف ـ وبين الشيخ باوزير الحضرمي ـ وهو رجل معتقد ـ واقعة غريبة، وذلك أَنهما اجتمعا بمنزل الشيخ الكبير عبد الكبير، فاستطال باوزير على الخطيب إلى أن قال له الخطيب: هذا لا يجوز لك فقال باوزير: يجوز ولعن أَبو من شرع!! واستفتى الخطيب عليه، فأَفتاه الشيخ العلامة ابنُ حَجَرِ والعلامة قطب الدين الحنفي بتكفيره،

فبلغ ذلك قاضي مكة الشريف حسن، فطلب الخطيب وقال له: يقع مثل ذلك ولا تعلمني به؟ فَإِنَّ ذلك في حق الشارع، ثم عقد مجلساً عاماً وجمع الفقهاء من المذاهب، وأَرسل لإِحضار باوزير فاختفى، وانفضَّ المجلس في ذلك اليوم، ثم بعد ذلك توجه الشيخ ابنُ حجر والشيخ محمد بن عبد الكبير بالشيخ باوزير إلى القاضي وجَدَّدُوا إِسْلامه، وعقدوا له على زوجاته، وما سلم الخطيب في هذه الواقعة من لائم، فاكترى ثلاثة عشر جملاً، وتوجه إلى زيارة المدينة الشريفة، واستناب عنه في الخطابة الإمام عبد القادر بن أَبي الْيُمْن الطبري.

وفيها مَرَّ صاحبنا فخر الدين الشاذليّ على مجلس قاضي مكة وهو ينفح بكمه، كعادة فقهاء مكة، فأمر القاضي نائبه أَن يطلب فخر الدين، ويقصر أَكمامه، ويهدم عمامته، فطلبه النائب وترفق به وقال له: افعل أَنت هذا بنفسك ففعل، ثم إِنَّ القاضي أَمر السيد حسين المالكي أَن ينظر في أَمر الفقهاء، فمَن استحق وكان من أَهل العلم يترك فطلب ولد عبد القادر المزين ولد تقي الدين بن فهد وجماعة، وأَمروا بتصغير العمائم، فحصل بذلك غاية القلقات بمكة ولله عاقبة الأُمور.

واتفق بعد ذلك أَن القاضي مرض بالعروق مدة شهرين، وكان أَمر أَن لا يُدْخِل البوابون الأَطفال والصغار في المسجد، وأَن لا يبيت أَحد في المسجد من الفقراء، ولا من غيرهم، وبالغ في عدم طلوع النساء إلى المعلاة مطلقاً، إلى أَن انحصرت النفوس من ذلك، فلما حصل له هذا العارض سمح للناس ما كان حصره عليهم.

وكان الموسم الهندي في هذا العام كبيراً جدًّا.

وفيها لم ينزل الأَمير خضر أَمير الحاج المدرسة الأَشرفية قايتباي، بمقتضى نزول شاهي خوبان خاتون بها وكان بها أَسبابه. فلما حضرتْ صحبةَ الركب الشامي نقل أَسبابه إِلى منزل بجوار مدرسة السيد الشريف أَبي نُمَيٍّ، ودفع أُجرته خمسين ديناراً ذهباً.

وفيها توفي السلطان همايون أَخو السلطان الذي بمكة وولي بعده ولده ودانت له بلاده، وتوفي أَخوه أَيضاً المكحول الذي كان مقيماً بمكة ووصلت مراكب مراسي وتحت الرِّيح غالب أَصنافها الفلفل.

وفيها اتفق للشيخ محمد زرعة ابن الشيخ شهاب الدين المنوفي أَحد العدول بمكة مع قاضيها ما أَوجب منعه من تعاطي الشهادة، فتوجه زرعة إلى المدينة المنورة وعاد منها متوعكاً فقال بعضهم:

قـــولُـــوا لِـــزَرْعَـــةَ إنْ بَـــدَا ... أَنَّ الأفـــنْـــــدِي شَـــدَّدَا

مَـــا بَـــيْـــنَ زَوْجِـــكَ وَالـــرَّدَى ... شَـــيءٌ سِـــوَى أن تَـــشْـــهَـــدَا

وفيها أَمر إسكندر باشا بعمارة مُدَرَّج من ذَيْل جبل عرفات إلى موقف المحامل، وأَن تعمر دكَّةٌ كبيرة بالموقف الشريف موضع الحامل بحيث أَنَّ المحامل إذا كان النفرة تنزل من الموقف على الدرج، إلى بطن الوادي على هيئة وقوفهم، فلا يكون فيها تقديم ولا تأْخير، وذلك لحسم مادة الشرور الواقعة في ذلك سابقاً، فأَمر قاضي مكة بجمع الفقهاء والعلماء والصلحاء لتحرير موقف النَّبيِّ ﷺ، وأَن يجعل لذلك علامة وشَرَعَ في العمارة.

وفيها توجه صاحبنا الشيخ العلامة مفتي بلد الله الحرام قطب الدين النهروالِيُّ الحنفيُّ صحبة (أَربخان) الشريف صاحب مكة إلى الباب السلطاني مع الركب الشامي، وعاد بغير طائل مطلقاً، ولم تُقْضَ لعامة الفقهاء بالحرمين هذه السنة حاجة من الحوائج، وامتنع رستم باشا من التقرير ولا لفرد من أَفرادهم ـ عامله الله بعدله ـ.

ذكر شيء من حوادث الديار المصرية

منها: أَنه وقع بناحية من نواحي المنزلة بَرَدٌ كِبارٌ على صور حيوانات مختلفة، فهلك الزرع الذي كان بتلك الناحية جميعه. وذكر أَن البرد المذكور لم يقع إلا بتلك الناحية فقط، وأَن ذلك الزرع المخصوص بالتلف دون غيره كان لأَمين المنزلة، وهو رجل مُتَّصِفٌ بالظلم.

وفيها: تلاشى أَحوال القاهرة والأَقاليم جدًا وفشا ظلم الحكام حتى عمّ إِقليم مصر، وأُهملت أُمور الرعايا، فلم يقاصَصْ أَحدٌ بذنب جناه على أَحد، وأَكل الناسُ بعضهم بعضاً بالباطل، ومال جانبُ الرُّشَا على جانب الحق الواضح، حتى أَدحضه، وكثر القتل جهاراً ليلاً ونهاراً، في شوارع القاهرة ونواحيها وأَزقتها وضواحيها، من غير نكير ولا مطالبة بدم مقتول، ولا فحص عن قاتله، وعدم التفات إسكندر باشا إلى الأَخذ بثأر أحد مطلقاً، وعمّ القتل بالأَقاليم المصرية وكثر الهَرْج.

وفيها: عمّ البلاد من تواتر ورود المناسر والحرامية إلى أَطراف حارات القاهرة وداخلها أَيضاً، وهم بالشموع والسّلاح، والقوة، ومعهم مناد ينادي: الباب المفتوح لا يُقْفل، والمقفول لا يفتح وَأَيُّ درب وجدوه مقفولاً بادروا إِلى كسره، ونهبت جميع بيوت ذلك الخط، ولا يستطيع الْعَسَسُ مقابلتهم ولا مقاتلتهم وكفهم عن المسلمين،

بل إن صادفهم قتلوا من الترك الذين معهم من أراد الله بانقضاء أجله وشرد باقي مَن معهم لا يلوي على أحد، ولم يزالوا على ذلك في غالب خطط القاهرة وضواحيها كالحسينية وباب البحر والأزبكية والميدان بالقرب من باب القنطرة، ولم يعبأ إسكندر باشا بشيء من أمورهم، وتمادى الأذى منهم للمسلمين، حتى خلت أطراف الحارات، كمنازل بركة الرطلي وأوائل الأزبكية والحسينية وما أشبه ذلك، وصار المنزل الذي كان يكتري بمبلغ له صورة إنْ وجد من يسكنه كان بأبخس أجرة.

وفيها: كسر باب قاعة الذهب بخط الغورية. وقيل: فتح بمفاتيح مصنوعة وأُخذ ما فيه من السبائك الذهب وأشغال الناس ونقود الصيّاغ، ثم في أثناء ذلك ظهر أن الفاعل لذلك شَخْصٌ كان أوّلاً (صو باشا) ببولاق ثم عمل (دوادار صو باشا) القاهرة فقبض عليه من محل سكنه بالدرب المجاور لحبس الرحبة، وعوقب وأخذ الحكام ما معه، وشنق هو ومَن معه بباب زُويلة.

وفيها: عمّ الغلاء المفرط بإقليم مصر في سائر المأكولات، بمقتضى أن الباشا اتَّجر في أصناف المأكل وخزنها، وحَرَّجَ على بيعها بما يختاره من السعر، وأهمل الحِسْبَةَ والتغيير بمقتضى ذلك، وصار أمر الناس شورى بينهم، فكل مَن أراد شيئاً فعله من غير نكير، وقلّ ما بأيدِي الناس، وعمّ الظلم والتفات الحكام وأكابر المملكة وأُمرائها إلى تحكير سائر البضائع، وأصناف ما يباع من السمن والعسل والجبن والأغنام والغلال، فيتحرّجون على ذلك بأدنى سعر، ثم في أوانه يخزنونه بحواصلهم، ويبيعونه بما يختارون، ومن جماعة العسكر مَن يتلقى الركبان بما معهم من البضائع، ويضع يده على ذلك بالقوة والعناد، ويمنع منه الفقراء والمتسببة وآحاد الرعايا، فمَن أراد أن يشتري صنفاً من الأصناف دفع مَبْلَغاً لشخص من الترك يستعين به على شراءِ ذلك المطلوب من الصنف، ولو كان قدراً تافهاً، وعمَّ البلاءُ بذلك، حتى في شراء البرسيم الأخضر لعلف الدواب، فإنه بمقتضى تلقي ذلك وأخذ حميرهم بالظلم والضرب، امتنعوا من دخولهم إلى القاهرة إلا ليلاً أو بمن يخفرهم من الأروام ومواليهم لهم في ذلك، والحكم للّه تعالى والأمر بيده.

وأمّا أرباب المناصب ومشايخ العربان والعمال، فعمّهم البلاء من الباشا ومَن دونه في الرتبة وعمَّ منهم البلاءُ لعامة الرعية، وأهل الأقاليم، فصارت المناصب والوظائف تباع كالسلعة بعد نهاية الرغبات بما يختاره باشا مصر ومَن دونه، وكثر الطمع في ذلك إلى ما لا نهاية له، ولا سمع بمثله قبله، فيحتاج الأمير أو الكاشف أو القاضي أو العامل أو غير ذلك من مشايخ العربان ومَن يتولى ولاية وقدر الله عليه

بذلك إنما يخلص ما غرمه على ذلك المنصب وقام به للحكام، من رعيته وأهل إقليمه بسائر وجوه الظلم والعناد، وإذا شكى المظلوم إلى الباشا فلا يلتفت إلى شكواه، ولا يأخذ بيده، ورُبَّما جهزه وقصته مع (جاويش) يغرمه مبلغاً على توجهه معهم إلى ذلك الحاكم، ليتحكم فيه بما يختار من غير نكير في ذلك على فرد من أعفرادهم مطلقاً، فلا ترى مَن يلقاك من الرعية سواء كان جليلاً أو حقيراً، أميراً أو مأموراً، إلاَّ وهو مكثر من شكوى زمانه ومن جور موليه وطمعه، أو من ظلم حاكمه أَو مَن يتكلم على أَمر من أُموره، لاهجاً بالوقيعة فيهم، كَثِيْر الدعاء والتضرُّع إلى خالق المخلوقات أن يريح البلاد والعباد من أَفعالهم، أو يذكر قضية اتفقت له بالخصوص أو لغيره أو عموم أَحوال الرعايا فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها لم أَتوجه صحبة الركب لسوء سيرة أَميره، كما قدمنا ذكره، ومَنَّ الله تعالى بالراحة من رفقته، فإن جميع من توجه بصحبته عاد كثير الذم له، لأَن أَخلاق التجار مباينة لأَخلاق الأُمراء، كما لا يخفى ذلك على ذي لُبٍّ، حتى بلغني من إفحاشه في ذلك أَنه كان يصالح صاحب الدرك على بعض جوخه بعد قطع ما يريده من مرتبه النقد، ثم يضع ذلك الجوخ المصالح عليه تحت فخذه على حلوان له في إعطائه فما لم يعطه البدوي ما طلبه لا يسلمه الجوخ، وكان ذلك الحلوان لغلمان (الطشت خانة) عادة كما قدمنا ذكره، فحسدهم على ذلك القدر التافه وتعاطاه لنفسه، وهذا من أَقبح ما حكي عنه.

ولقد حكى صاحبنا الشيخ محمد أَبو شعرة الواعظ الميقاتي بالركب - بعد انقطاعه عن السفر بصحبته في سنة خمس وستين - مع ملازمته للتردد إلى تلك الأَقطار الشريفة نَيِّفاً وثلاثين سنة، وسؤالي له لمَّا رأَيته بالقاهرة بعد خروج الركب متعجباً من انقطاعه، ما السبب في عدم توجهك مع الركب؟ فقال: إنَّ أَمير الركب غضب عليَّ لزلة اقترفتها كانت سبباً لمنعي من السفر معه، قلت له: وما ذلك الذنب؟ قال: دخلت يوماً إلى مخيمه فوجدته جالساً يتغدَّى، فجلست كما كنت أَجلس على سماط من قبله، وأَكلت يسيراً من غدائه، ونظرت إليه، فإذا هو قد تغيّر وجهه غضباً، وتكلم مع مملوك له يدعى بمحمود وليس هو كذلك، فإنه معد للانتقام ممن أَراد، فقال له باللسان التركي، ففهمت من فحوى كلامه له أَنه أَمره بإهانتي وتقريعي بسبب أَكلي معه، ومنعي من ذلك، فقمت مبادراً إلى الخروج عنه وقطعت الأَكل معه، فتبعني مملوكه، ووبخني توبيخاً فاحشاً ثم قال لي: أَما أَخذت جرايتك من البقسماط من الربع إلى الربع، فكيف تطمح عينك إلى الأَكل مع الأَمير، أَما تستحي؟! فلزمت من

بعد ذلك الانقطاع عن خيمته وقت أَكله، وتبين لي من ذلك التاريخ كراهته لي وكانت لي عادة على قراءة المولد بالحرم الشريف فقطعها، لذلك لم أستمرَّ على ذلك، ومنعني من السفر معه ثانية، ولما واجهته عند أَوان السفر أَعرض عني قائلاً: تسافر معنا بلا (جامكية) وإلا فاذهب، عندنا غيرك.

وحكى لي الشيخ مسعود الدلاّل بالنّحاس ـ وهو من أَهل الخير والصلاح لم يزل يتردد إلى الحج صحبة الركب ماشياً فقيراً آفاقيًا كالشيخ محمد الجوخي ـ لما عاد من السفر في سنة خضر الأُولى وهو مقلوع العين، قد جعل على عينه رفادة تسترها، على غاية من التأَلم لما حصل له من ذلك، وسأَلته عن حاله، فقال لي: أَنت تعلم عدم ترددي إلى أَحد بالدرب فشرهت نفسي يوماً إلى التوجه إلى مطبخ أَمير الحاج، لآخذ من بعض الطعام المرق، الذي يطبخ بالمناهل للناس، فلما توجهت ومعي قصعتي لذلك فأَخذ مملوكه قصعتي رَمَى بها، وضربني قلع عيني وذهبت هدراً، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، آجرني الله على مصيبتي.

ولقد حكى لي مَن أَثق بقوله ما يدل على عدم مروءته جدًا وهو أَنه رآه بعد ولاية الحاج لعامين، وهو عائد من قليوب، وقدامه جملان عليهما من قطع الأَثل الأَخضر يقودهما مملوك له على فرس وأَمير الحاج بنفسه وراء الجملين يسوقهما من قليوب، إلى أَن مَرَّ على هذه الصفة بأَزقة القاهرة وشوارعها إلى منزله بالجامع الأَزهر، وهذا الحال في زمننا يدل على غاية الدناءة وسقوط المروءة.

سنة خمس وستين وتسع مئة: كان فيها أَمير الحاج الخواجا خضر بن عبد الله الرومي على حاله، بسبب استناده إلى إسكندر باشا من غير تعيين له من الباب السلطاني، كما كانت عادة مَن تقدمه من الأُمراء، والسبب في ذلك ما يعطيه من الرُّشَا على سفره، كما هو عادة إسكندر باشا في حب جمع الحطام على أَيِّ وجه كان، ولم تَحْمَدْ خَدَمَة مُهِم الحاج سيرةَ خضر أَيضاً فإنه زاد على ما كان عليه من الشح واختصر الأُمور جميعها وقطع العوائد، ووفر كل ذلك لنفسه حتى أَنه جهز الحمل إلى بندر السويس على جِماله وبلص في مقابل ذلك عربان الحمل في نظير فلاحتهم لحمله المقرر عليهم، ثم وافق حضور بهار وحمل كثير من اليمن والحجاز للتجار بالسويس، فأَمر بنقله على جِماله عند عودهم فراغاً من السويس إلى القاهرة، وأَخذ أُجرة ذلك بالمبلغ الوافر، وتسحبت منه عند توجهه من البركة غالبُ الغلمان فراراً من بخله وسوء صنيعه معهم.

وفي هذه السنة كان رحيل الركب من البركة في صبيحة السادس والعشرين من شهر شوال من غير عادة في تأخيره لمثل هذا التاريخ، والسبب في ذلك أن قافلة التكرور وردت والركب في البِرْكة، فأرشوا باشا مصر بمبلغ على أن يُؤَخِّر الركب إلى ما ذكرنا، وكذلك أرشوا أمير الحاج على التأخر، وقد قدّمنا في الواجبات على أمير الحاج أن لا يُؤخِّرَ الرحيل عن وقته المعتاد، وبَيَّنَّا وجه الضرر في ذلك بما يغني عن إعادته.

وفيها: كان الغلاءُ بالركب ذهاباً بمكة المشرفة وغالب الرجعة إلى عقبة أَيْلة، فأُبيع الدقيق بمكة كل حمل باثني عشر ديناراً، والفول كل ربع مجروش بستة أنصاف وأكثر منها، والبقسماط كل عشرة بعشرة أنصاف، وقس على ذلك، وحصل الفناء في الجمال من استقبال وصول الركب الشامي لمكة وإلى غالب الرجعة، مع قلة الواصل صحبة ملاقاة الأَزْلَم من الجِمال وغيرها، ولولا أن الملاقاة العقابية كانت كبيرة جدًّا فأغاث الله الحجِ بها، وكذلك لولا رجوع قاضي مكة، المعين للديار المصرية صحبة الركب، حتى أنه منع فساد المقدم محمد بن العظمة وتسليطه العسكر على الرعايا، يأخذون جِمالهم ويرمون أَحمالهم، وإلاّ فما كان رجع من الركب إلا القليل، وكثرت الشكاة من أَمير الحاج في قطع رواتبهم وعوائدهم، مَعَ مُوَالَسَتِهِ مع السُّرَّاق والمفسدين في كل مَن وقع في قبضته بلصه وأَطلقه، وسلك في سبل السفالة والرذالة ليبلغ من الحطام والحرام والآثام آماله، فعاد الركب جميعه وهو بالصفات الذميمة عنه منطلق الأَلسنة، ولم نَرَ فرداً من أَفرادهم ذكر عنه وله مندوحة فعل ولا حسنة.

وأَما عربان الأَدراك فميلهم إلى الفساد بموجب أفعالهم، فهم على شفا جُرُفٍ هَارٍ، وإن سأَلتهم عنه ذكروا كل قبيحة مخلدة في صدورهم ورذيلة وشنار، وكان دخوله إلى القاهرة المحروسة وصعوده إلى قلعة الجبل لمقابلة الباشا على العادة في يوم الأَربعاء ثاني شهر صفر الخير، كما كان رحيله منها يوم الأَربعاء ثامن عشري شوال، وكانت له حوادث مخالفة أضربنا عن الإطالة بذكرها.

ومنها: أَنه لما نزل المزدلفة أَقام حَرَساً من تلقائه ولم يكن ذلك له ولا لمن تقدمه بل ذلك لصاحب البلدة المكرمة ونائبها، فلما دار الحرس قطعوا رؤوس جماعة من عسكر الشريف أَو من لفيفه نحو أَربعة أَنفار، فلما بلغ الشريف أَبو نُمَيٍّ ذلك تغير تغيراً فاحشاً، وأَنكر إقامة الحرس ولم تكن جرتْ بذلك عادة سابقة، وقتل جماعته بغير جريمة، فتوجس في نفسه خيفة، وظنّ أَنها مكيدة له صدرت من هذه العقول السخيفة، فكتب عروضاً ومحضراً وجهزه إلى الأَبواب السلطانية يشكو من هذه

الواقعة، ويترقب الجواب (الخندكاري) عن ذلك وكان دخول الحاج إلى القاهرة يوم الثلاثاء عاشر شهر صفر الخير وطلوع الأَمير إلى الديوان السلطاني يوم الأَربعاء حادي عشر، كما كان خروجه من القاهرة يوم الأَربعاء ثامن عشر شوال ولم تحمد أَهل الركب سيرته في هذه السنة مطلقاً لما رأَوه من الشدائد بالغلاء وموت الجِمال، وتواتر السُّرَّاق، وعدم سياسته لأَحوال الحجيج، مع ركوبه غالب أَوقاته داخل الْمَحَفَّة، كما بلغني ذلك من أُناس متعددة، وحصل له من ربح المبيعات من الحمول المجهزة بواسطة الغلاء مال جزيل، من غير حمد الرعايا ولا ثنائهم ولله عاقبة الأُمور.

ذكر متجددات أَحوال القاهرة وأَعمالها

منها أَنه ظهر أَوان الزيادة للنيل بجانب البحر بمصر القديمة عين نبعت ليلاً، وأَصبح الناس وهي تفور وتصعد، فذكر أَهل مصر أَنَّ شخصاً رأَى رسول الله ﷺ في تلك الليلة في ذلك الموضع، وأَنه ضرب تلك النبعة برجله فنبع الماء، وأَصبح على ذلك، وحكي هذا القول لنائب مصر، فأَجهر النداء بزيارة ذلك المحل، وتلك العين، فهرعت الناس أَفواجاً إِليها ونصبت الخيام حولها عليها، وبدلوا نعمة الله كفراً، وأَحدث كلٌ منهم من المعاصي أَمراً، وغلا سعر الجرار لازدحام الناس لمشتراها ومَلْئِهَا من تلك العين تبركاً بمائها، وصار مَن لا يشتري جرة ويملأُها منها يلام على تركه لذلك.

ولما كثر التهاجر إِليها والتجاهر عندها بالأَفعال المخالفة، أَجهر النداء ثانياً بردعهم، وتوجه (الصوباشاه) إِلى ذلك المحل، فهدم الخيام ومنع الآثام، وانتهت زيادة النيل في تلك السنة إِلى تسعة أَصابع، بتقديم التاء من ثلاثة وعشرين ذراعاً، ولم يسمع قبل ذلك في الدولة (الخندكارية) فإِن نهاية ما وصل إِليه الزيادة في أَيام ولاية خسروه باشا إِلى ثلاثة وعشرين أَصبعاً من اثنين وعشرين ذراعاً، وغرق بعض البلاد وما بها من المغل بالريف، وانقطعت غالب الطرقات بالأَرياف، لفيض الماء وعلوه، ومع ذلك فحكر الباشا سائر الأَصناف ونمى أَسعاره، ومنع المتسببة من الترخص في شيء منها، فكان سعر القمح مع كثرته من ثلاثين إِلى ثمانية وعشرين، وأَما اللحم فلم يمتنع وجوده من القاهرة كامتناعه في هذه السنة بحيث إِن اللحم الضأن المخلوط بالمعز بعظمه يباع كل رطل بنصف، ولحم البقر في دونه كل رطل ونصف بنصف، واتجر إِسكندر باشا في سائر أَصناف المأكولات، ومنع الباعة من بيعها إِلا بسعر

يرتضيه، واشتدت الأَحوال على الرعايا بسبب ذلك، وأَظهر لهم البغض بأَفعاله الشنيعة، حتى أَنه منع المتعممين بها من ركوب الخيل، وشِرَاء رقيق الترك والتَّزيِّي بزيّ العسكر، وأَجهر النداء بذلك وشدّد فيه ثم أَمر (الصوباشاه) بردعهم عن ذلك وأَخذ خيلهم وضربهم، وفحص عن الذي عنده من رقيق الترك فأَرسل وأَخذه منه، ثم خوطب في ذلك فكفّ، فقلت في ذلك:

مَنعُوا رُكوبُ الْخيْل كلُّ مُعَمَّم ... من آل مِصْرَ وَلبْس زيِّ الْعسْكر
وشِرَى رَقِيْق التُّرْكِ أَو يَتقلَّدُوا ... عِنْدَ الْمَسيْر بصَارم أَو أَبْتر
وغَدا النِّداءُ بكُلِّ قُطْرٍ شَائعا ... وتعَدَّدُوْه مِنْ قبيح الْمُنْكَر
وَتَعمَّدُوا لخُيُولهِمْ وَرَقيقهم ... أَخْذاً وَنَهْباً كَي يَكُفَّ الْمُجْتَري
مَعْ إِذْنهمْ لِلْمُشْركيْنَ بمثْله ... حَتَّى يُرَى في مَحْفلٍ بتَبَخْتُر
لو أَنَّهُمْ مَنَعُوا الْفَوَاحشَ كُلَّهَا ... وَتَشَدَّدُوا فِي مَنْع بَيْع الْمُسْكِر
كَانَ الصَّوَابُ مَعَ الثَّوَاب وَلَمْ يَكُنْ ... إلاَّ مِنَ الدِّيْن الْقَويْم الْمُظْهَر
لٰكِنَّهُمْ قَدْ بَالَغُوا في مَقْتِهِمْ ... وَتَقَصَّدُوْهُ بكُلِّ فِعْلٍ يَزْدَري
مَا ذَاكَ إلاَّ أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا ... إِذْلاَلَهُمْ دِيْنا به يَقْضِي الْجَري
وَرَأَوْا إِبَاحَة مَالِهِمْ وَنَوَالِهِمْ ... حَتْماً يُسَوِّغُهُ الْخَبِيْثُ الْمُفْتَري
خَافوا الْتِباساً بالسِّمَات فَأَكَّدُوْا ... فِيْ مَنْعِهَا إِذْ لَمْ يَرَوْا مِنْ مُنْكِر
هَذَا قَضَاءُ اللّهِ جَلَّ جَلاَلُهُ ... فِيْ خَلْقِهِ وَالصَّبْرُ مِنْ فِعْلِ السَّرِي

وبالغ في التضييق على معايش عامة أَهل مصر وخزن غالب مأكولاتها ليتجر ويتكسب منها من الغلال والغنم والسمن والعسل، وسائر البضائع حتى البصل خزن منه مقداراً حافلاً، وبلغني أَنه تلف منه ثلاث حواصل وما بها، وطلب الرُّمَّان من إقليم البحيرة قبل أَوان نهايته وظهوره، وجعل عليه التخريج، وتصرف فيه مما يراه في بيعه من الحظ والمصلحة، وكذلك البلح ولم يدع فرداً من أَفراد المأكولات وغيرها حتى اتجر فيه وخزنه، وبالغ في ذلك، إلى أَن منع أَصحاب البساتين من بيع الليمون في زمن كثرته، إلا بعد معرفته وحيازته له، وتثمينه بأَضعاف ثمنه، حتى بلغني أَنه أَمر بجمع زَبْل الحمام واتَّجر به، وأَما اللحم وسائر المأكولات فمنعتْ من أَسواق الباعة، إلى أَن ضجرت العامة ووافق دخول القاضي حسن إلى القاهرة صحبة الركب، فاجتمعت سائر العامة والرعايا، وتلقوه من بِرْكَةِ الحاج، إلى داخل منزله، وهم يصيحون بلسان واحد: مصر خراب!! ومن أَلفاظهم: يا مولانا أفندي إذا اتَّجَرَتِ

الملوك هلك الصعلوك!! وكان لهم غوغاء وألفاظ شنيعة في الشكوى من الباشا يطول شرحها، فكان يهز رأسه عجباً، وبجانبه نائب القلعة يقول له: انظر كيف حال الناس وما هم فيه من الشدة بغلاء الأسعار ومنع المأكولات!!

وفي هذه السنة كانت وفاة (الخاصكية) والدة السلاطين، بعد تمرض بمدينة (اسطنبول)، وورد الخبر بوفاتها في العشر الأوَل من شهر شعبان المكرم، وصلي عليها صلاة الغيبة في سائر جوامع القاهرة ومصر.

وفيها: عزل برويز قاضي مصر ووليها حسن بك عتيق رستم باشا، وكان قاضياً بمكة، فتوجه برويز قاضياً بأدرنة وأقام نائب حسن بك بالقاهرة نحو نيف وثمانية شهور، إلى أن حضر صحبة الركب كما قدّمنا ذكره قريباً.

سنة ست وستين وتسع مئة: فيها كان أمير الحاج خضر بن عبد الله على حاله، لكثرة الاضطراب الواقع بالإقليم، بسبب ما اتفق من تشويش خاطر السلطان سليمان، من قتل ولده أبي يزيد، فإنه أظهر الخلاف لأخيه سليم المترشح للملك بعد والده، وبلغ السلطان أنه يريد التوجه إلى المملكة المصرية، ويقتصر عليها ويملكها، ويتحصّن من أخيه، فشق ذلك على السلطان، ثم بلغه بعد ذلك أن إسكندر باشا مصر وأغوات العسكر أظهروا المباطنة مع أبي يزيد، وكاتبوه وجهزوا إليه باروداً وغير ذلك، مما كثر فيه الكلام، واختلفت الروايات وتعددت الأقسام فحصل عند السلطان عند ذلك ما أزعجه لعزل إسكندر باشا عن الديار المصرية، وتغيير أغوات العسكر، وتجهيز علي باشا من أغوات الباب الشريف مَبْدَأً، ثم تنقلت أحواله إلى أن صار من أعيان (الصناجق) ببعض الممالك الرومية، ثم ترقّى إلى الديار المصرية، وجهز بصحبته ثلاثة أغوات العساكر السلطانية بالقاهرة وهم نائب القلعة وهو أغا جماعة (الحصارلية)، وأغا الكملية، وأغا (التفكجية) ونحو ألف وست مئة من جماعة (الانكشارية) لحفظ مصر، وكان دخول علي باشا إلى القاهرة من طريق البحر الرومي إلى الإسكندرية، ثم من بحر النيل إلى سيوس وشبرا، ثم من البرّ إلى القاهرة في يوم الاثنين ثامن شهر شعبان في موكب حافل جدًا فصحبه العساكر (الانكشارية) الواصلة بصحبته من طريق البحر، وكان إسكندر باشا تقدّم خروجه من القاهرة، مارًا بموكبه بالشارع الأعظم وباب النصر إلى الريدانية في يوم الخميس سابع عشري رجب الفرد، فأرسل إليه حكماً بمنعه من السفر برًا، وأنه يتوجه بحراً في (يسق) من عدد (الحصارلية) الواصلة صحبة علي باشا وعدة المتوجهين صحبة إسكندر باشا أربع مئة نفر، فعاد إلى شبرا، ونزل منها في بحر النيل، متوجهاً من طريق إسكندرية إلى الباب

الشريف، في غاية من الخوف والجزع من السلطان، لما بلغه عنه، وتصدّق بصدقات كثيرة من جنس ما قيل:

وَمُطْعمة الأَيتام من كسْبِ هَنِهَا　　فَوَيْحَكِ لاَ تَزْنِي وَلاَ تَتَصَدَّقِي

ولم يأسفْ أَحدٌ من القاهرة وأَعمالها على عزله إلاَّ مَن كان محتوياً على مثل أَفعاله في مدة ولايته، ولما استقر علي باشا بقلعة الجبل كثرت إليه القصص والشكاوى من الكشاف والأُمراء ومشايخ العربان والعمال جدًّا فَأَلاَنَ لهم القول، وأَظهر التلطف بأَهل مصر، وأَن السلطان أَوصاه بهم خيراً فعزل ابن طبيلة عن الحِسْبة والتجرين وغيرهما وتعددت القصص في الشكوى من يوسف كاشف القليوبية عتيق خضر أَمير الحاج فطلبه الباشا فتسحّب خوفاً على نفسه، وأَكثر الباشا من غلظ القول على خضر بسبب كثرة الشكاوى الفاحشة، حتى قال له يوماً: أَجد عندك جملين قادرين على الحمل؟ فقال له: مهما تطلب مولانا من الفقير تجده، فقال: لا أُريد إلا جملين لهم قدرة على حمل القصص التي وردت إلى الديوان بالشكوى منك ومن مماليكك!! فأُسْقِط في يده ولم يُحِرْ جواباً. وبلغني أَنه في يوم من أَيام الشكاة في غير ديوان، أَمر بوضعه الأَرض ليضربه، ويقال: إنه ضربه ولم يدع إمرة الحاج في يده إلا لضيق الوقت عن ولاية غيره، وعدم وجود مَن يسعى في ولايتها في هذه السنة.

وفي شهر شعبان سعر علي باشا القمح من الشونة بأَحد وعشرين نصفاً الأَردب من البحر بزيادة نصف واحد، وكان الساحل والشون مملئة بالمغل، فلما وقع ذلك تسحبت باعة الغلال بما معها في كل جهة، وعُدِم القمح حتى أَنه إذا طلب الإنسان أَردباً واحداً لِمأْكوله امتنع وجوده من ساحل بولاق، ولما دخل شهر رمضان وهلّ بالأَربعاء قلَّ وجود المأْكولات وآلة الطعام من اللحم والخبز وغيره والخضار، إلا بجهد كبير، وزحام وسباق لذلك، ولم يعهد ذلك قبل ولاية إسكندر باشا وعلى كل حال فالظاهر من أَفعاله أَن مقصده جميل للرعايا مع تطلعه إلى قطع دابر المفسدين والسرّاق والحرامية وأَهل الفساد والله تعالى المسؤول أَن يصلح أَحوال المسلمين.

وفي يوم السبت خامس عشري شهر رمضان المعظم كانت وفاة المقدم محمد بن العظمة مقدم رجال النفر والجمّالة في ليلة اليوم المذكور، وسِنُّهُ سبع وأَربعون سنة، مرضه بزيادة خلط الدم، ومدة تمرضه خمسة عشر يوماً، وصلي عليه بباب جامع الست بسكة سويقة السباعين، وكانت جنازته جامعة لغوغاء العامة من الجمّالة والسقائين وأَشباههم، ودفن تجاه منزله على أُمه وأُخته.

وفي هذه السنة حصل لأمير الحاج ما يعتاد من مرض الفتق والقيلة وتجدد عليه مرض ذات الجنب، فشنَّع بموته العامَّةُ في غالب حارات القاهرة وشوارعها، في العشر الأول من شهر شوال، ثم أشرف على الموت في العشر الثاني وتحدّث صاحبه حاجي أحمد (كيخية) داود باشا، بأن يسافر عوضه فلمَّا بلغه ذلك أمر بمَن حمله وأَجلسَه بمقعده، تجلداً، ونظر في بعض أُموره بطريق الغلبة، وضرب بعض غلمانه ضرباً شنيعاً، ولم يلبث غير ساعة واشتد عليه مرضه فحمل وأُلقي على فراشه، ثم أَمر بعلم مسايرة في ليلة التاسع عشر من شوال، وأَركب فيها ولده ليخف الغوغاء والتشنيع عليه بالموت، ثم استقر الحال على سفره من القاهرة إلى البِرْكَة: في يوم الجمعة ثاني عشري شوال فخرج بالطلب في اليوم المذكور، وركب مع الركب في حالة الشدة، وأَحد مماليكه يحاذيه، وبيده خُرْجٌ مشعر يناوله، وأَخذ بواحدة وهو يأْكل ذلك عند مروره بالشارع الأَعظم أكلاً ذريعاً، ولما وصل إلى تربة العادل بالصحراء أَلقى بنفسه من على الفرس، فَحُمِلَ وأُرْقد بالقبة ذلك اليوم بليله، وتوجه جميع الطلب إلى البركة، ثم في صبيحة يوم الثالث والعشرين فيقال: إنَّ قرحة ذات الجنب انفجرت بمنزلة نخل وتبادت به الصحة من ثَمَّ وكان الركب قليلاً جداً في عام تاريخه.

ووردت قافلة حاج التكرور في نحو ثمان من الخيام فنزلت بالرملة، وأَما الجِمال فكانت في هذا العام بكثرة زائدة وأَثمان رخيصة لقلة الحاج.

وفي هذه السنة كان وصول عبد الرحمٰن بن أَبي علي وزير مكة من المملكة الرومية، وعلى يده حكم سلطاني براءة باستقرار ولاية الشريف حسن أَمير مكة ونفوذ كلمته، واطلعت عليه وقرأْته مجملاً وبصحبته حكم ثاني، لأُمراء الحاج بعدم إقامتهم بمكة بعد النزول من منى، وتوجه الوزير صحبة الركب إلى مكة ولم يحج في هذا العام من الأَكابر سوى أَحد أُمراء اللواء الواصل صحبة علي باشا وبلغني أَن بيده حكماً سلطانياً بإمرة الحاج، وامتنع منها لعدم ما في يده من المصروف لذلك، وتوجه الركب صحبة الأَمير خضر بن عبد الله على حاله فهبَّتْ على الحجاج رياح حارة وسموم في مظنات الحرّ، حصل لهم منهم غاية المشاق ومات مَن انقضى أَجله فجأَة بسبب ذلك، وذكر لي مَن أَثق بقوله أَنه كان شدة ذلك بمغارة نَبْط وما بعدها، وأَنه هبّت عليهم سموم حارة، وكان الماء بالأَبيار قليلاً ومتغيراً، فأَوجب موت جماعات من الفقراء والمشاة ومَن أَثر فيه ذلك، واستمر ذلك إلى مكة المشرفة، وكان السعر في بعض المأْكولات والعليق متوسطاً، وفي بعضها غالياً، فإنَّ الحمل الدقيق كانت نهاية بيعه ثمانية من الذهب الجديد، والفول كل عليقة بأَربعة أَنصاف، وبالمدينة

المنورة بستة أَنصاف، والجبن بأَربعة أَنصاف الرطل، والعسل النحل كذلك، والسمن المخلوط بغيره بخمسة أَنصاف وقس على ذلك، وذكر لي القائل أَنه لولا لطف الله تعالى بإِحضار مراكب إِمرة الحاج والدشيشة لكان غلاء شديداً، ووقع بعرفات جفلة بين أَمير الشامي والمصري وكان البادىء بذلك أَمير الشامي، وبدأَ بذلك من ليلة المبيت بعرفات فإِنه حرر على تنورة أَمير الحاج المصري صاروخين كبيرين، وقع الأَول والثاني بعده على خيمة فخرقها، ونزل على رأسه وهو في داخلها.

ثم في اليوم الثاني وقت الصعود والوقوف ركب ومعه نحو الأَربعين فارساً من العسكر ملبسة الخيول والرجال، ولم تجرِ بذلك عادة لأَن ذلك الوقت وقت الخضوع، وانسكاب الدموع، ثم في وقت النفر من عرفات تقدم بمحمله وعلمه وضرب طبله وسبق المصري من غير عادة فلما وقع ذلك تعرض له بعضُ العسكر المصري يمنعه من السبق فَسُلَّتِ السيوف، وكادت تكون قتلة فتقهقر أَمير الحاج بلوائه وعسكره تسكيناً للفتنة، واستمر الشاميُّ على حاله إِلى المزدلفة وأَمير المصري متأَخر في سيره، وكلما شعر من الشامي وقوف العلم والطلب يتأَخر عنه حتى يبعد عنه، فشكرت سيرة المصري حيث مشى في تسكين الفتنة، فإِنه قيل: لولا فعل ذلك لكانت هوشة بين الفريقين كبيرة، وكان دخول المصري إِلى القاهرة على ظهر واحد من البركة إِلى منزله بعد مقابلة الباشا في يومه وهو يوم الخميس الثامن من صفر الخير سنة سبع وستين وتسع مئة.

وأَما أَحوال القاهرة ففي غاية التلاشي من كل جانب فما كان من جانب علي باشا أَغا: فلم يُرَ منه غير انهماكه على سفك الدماء، وَأُحْصِي من أَمر بقتله في ولاية ماماي (الصو باشاه) ـ ومدتها نحو الشهرين ـ ستة وثمانون رجلاً ثم عزل، وولي كشف الغربية على حاله، وولي عوضه (الصو باشاه) الساقي الملقب بأَبي ذقن، فمشى أَمر الباشا على ما كان عليه ماماي من سفك الدماء، وإِرهاب العامة والمفسدين، فلم تعرض على الديوان فعلة فاعل إِلا وأَنفذ فيه القتل في الغالب، وعرض عليه رجل تعرض لصبي صغير لاط به غصْباً فأَمر أَن يرمي من مِئْذنةِ مدرسة السلطان حسن، فلم يفعل به ذلك، لكونه (طانمشن) قاضي العسكر وهو القسام، وسرق بعض العامة حلقة من باب الجامع الأَزهر، فأَمر بقطع يده فقُطعت وحرض الكشاف على قتل المفسدين، فكان ذلك باباً لقتل مَن اجترأ قتله وله ميل إِلى التنزه في المحال الفرجة كالمعلقة، والمنازل البسكية ببولاق، ويحب إِقامته بهذه الأَماكن في بطالات الديوان.

وأَما القحط في أَصناف المأْكولات وتوابعها ففاحش جدًّا، بحيث أَن اللحم الضأن إِن وجد رطل بنصف كان في غاية الشدة عند وجدانه، واللحم البقري رطل ونصف بنصف، وزنة الرغيف أَربع أَواق يرجح، وعدم الحَطب، فلم يوجد مطلقاً، ولم يعهد ذلك قبل تاريخه، وسائر الأَصناف على هذا الشرح، والفاكهة في هذا العام قليلةٌ وغالبها تالف، ويذكرون أَن سبب ذلك حصول الرياح العاصفة المزعجة في خامس عشر شهر رجب، بحيث أَنها أَرمت نخلاً كثيراً جدًّا، أَخبرني فقيه ناحية منية طي بالضواحي أَنه عد من بلده إِلى منزلي مئة وخمسين نخلة ساقطة فليُقسْ على ذلك.

وأَما جانب الشرع فغلب عليه الهزل والسخرية، فإِن قاضي مصر حسن عتيق رستم باشا عوّل في أَحكامه على المحصول، فسعى بمبلغ له صورة جماعة من آحاد الناس ومهلهم في ولات القضاء بالمحاكم، فظهر من ذلك العجب العجيب، فكان ممن ولي القضاء كمال الدين بن أَسد الشافعي وأَخوه رضي الدين، وهو في غاية الإِهمال، وعبد الرحمٰن الفتوحي الحنبلي، وأَبو السرور المالكي، وأَبو بكر بن الغرابي ولم يعلم متى تفقه، وابن الأَحمدي كذلك وابن الشهاب العثماني، وابن عقيل، وبدر الدين بن يحيى القرافي بالباب.

وأَما مَن تصدّر للتدريس بالجامع الأَزهر في سنة تاريخه فجماعات منهم صفي الدين بن يحيى الغزي وله إِجادة في الغناء والسماع، ومحمد ابن الخطيب الشربيني، ومحمد ابن الشيخ عبد الحميد وهو أمرد، وعبد الباسط المطواعي، وموفق الدين بن تقي الدين الحنبلي، ومحمد بن حسين العبادي، والبدر بن يحيى القرافي وتلاعب بأُمور الدين كل مهوس بليد، وبكى على أَحوال الشريعة المطهرة كل بادر معيد، فإِنا لله وإِنا إِليه راجعون.

سنة سبع وستين وتسع مئة: عُزِلَ أَميرانِ من إِمرة الحاج، ووليها ثالث، فحجّ بالناس، وسبب ذلك أَنه لما عاد الخواجا خضر بن عبد الله الرومي من الحج، ووافق قدومه من الإِشاعة بعزل إسكندر باشا من الديار المصرية، فكان توجهه معزولاً بعلي باشا من جملة أَغوات الأَعتاب السلطانية في شهر رجب الفرد، وكان وصوله من طريق البحر إِلى ثغر إسكندرية، وصحبته أَلف وأَربع مئة من (انكشارية) الباب السلطاني، وكان السبب في حضورها بصحبته الإِشاعة بالروم بأَنه وقع اضطراب أَمر مصر، من جهة أَبي يَزِيْد ابن السلطان سليمان، الخارج عن طاعة والده لميل السلطان إِلى أَخيه سَلِيم، وترشيحه للملك بعده، وتخوف بايزيد على نفسه من القتل مِمَّا فيه تطويل الإِخبار به.

فلما استقر قدم علي باشا بمملكة الديار المصرية، وتوجه إسكندر باشا لإسكندرية في (يسق) نحو أربع مئة من الانكشارية الواصلة، وركب البحر من طريق إسكندرية فكانت همة علي باشا في إصلاح أمر الإقليم، والرعية والنظر في أحكام العدل والسياسة، والأخذ بيد المظلوم، وكان من أمر المكثرين للشكاية وسوءِ المظالم، وأخذ أموالهم بغير حق فيصرخون عليهم، أهل القليوبية، التي هي ولاية يوسف بن عبد الله الرومي عتيق الخواجا خضر أمير الحاج سابقاً، فتغير خاطر علي باشا على خضر المشار إليه إلى الغاية. ومن مبالغته له في بعض الأيام أنه قال له: أُريد قِطاراً من الجِمال القادرة، فأجابه من غير علم بمراده: عندي إنْ أردتم مئة جمل فأَجابه: لا أُريد إلاّ قطاراً واحداً نحمله قصص الرعايا بالشكوى منك لتعرض على السلطان!! فَسُقِطَ في يده، ولم يُحِرْ جواباً فلذلك نقص مقداره لديه، وأعرض عنه، ومقته، وقصد عزله من إمرة الحاج في هذه السنة، فلم يتَّفق ذلك لضيق الوقت، وعدم مَن يقبل تسلم أسباب الإمرة من خضر المشار إليه، بما يريد من الثمن فأبقاه مُتَكَرِّهاً لولايته عليه حتى حج، وعاد فعزله، وعرض حينئذ الإمرة على جماعة أُمراءِ اللواءِ بالقاهرة، بعد أن طلب مني دفتراً بصورة ما يصرف، ومعرفة أنواع الأَسباب، واطلع على ذلك من أول شهر ربيع الأول، فوقع اختياره على الأمير أحمد شلبي، الذي كان كاتباً لخزانة إبراهيم باشا في ذلك الزمن، كما كان وزيراً أعظم وتنقلت به الأحوال إلى أن أُحضر إلى القاهرة في ولاية داود باشا، فولي أمانة شُوَنِ الغلال السلطانية، وتزوج أُخت محمد حلبي الذي كان ناظراً على أموال مصر، ثم صار (أغا) العساكر الكملية، ثم أمير اللواءِ، و(دفتر دار) على مصاريف العسكر المتوجهة لقتال الحبشة، صحبة أزدمر باشا مملكة اليمن سابقاً، وتوجه لذلك، وعاد بعد شرور وفتن بين العسكر وأزدمر باشا، يطول شرحها، وسأله الباشا أن يكون أميراً على الركب في السنة المذكورة، فأجابه مع فقره وفراغ يده من النقد، الذي يقوم بأحوال هذه الإمرة فإنه كان موصوفاً بالعفة والديانة، إلى زيارة أهل الخير والعلم، ولَبس التشريف في تاسع عشريْ ربيع الأول، وعرض الباشا على الباب في اختياره لذلك، ثم استأذن الباشا في إلزامي بالسفر معه على عادتي كاتباً، فأمر الباشا بحضوري إليه بالديوان الشريف، صحبة جاويش، واستعطفَ خاطري، ووعدني بالجميل، وألزمني أن أكون كاتباً على مهمات الإمرة على عادتي السالفة، فأجبت بعد امتناع مني، رضاً لِخاطره، وكنت سُئِلْتُ بكتابة ديوان الشُّوَن السلطانية وغيرها مَرَّاتٍ فامتنعت من ذلك، ولم ينشرح الصدر لهذا المعنى. ثم شرع أمير الحاج في عمل

(اليرق) وتسلم العادة من الخزائن السلطانية، وقدرها أَربعة عشر كيساً فأَصرفها، وزاد عليها يسيراً، وكان من مقدور الله تعالى وصول (جاويش) من الباب السلطاني، وعلى يده حكم بأَن تزاد علوفته، ويتوجه إِلى قرية اللجون بالأَقطار الشامية، فحصل بذلك عنده تشويش من جهة تأَخره عن الحج إِلى بيت الله الحرام، وفرح من جانب عدم ما في يده من النقود، فتأَهَّبَ للسفر إِلى اللجون، وعرض الباشا ثاني مرة إِمرة الحاج على أُمراءِ الأَلوية، بمقتضى أَنَّ السلطان برز أَمره أَنه لا يُولَّى ٱلإِمْرَةَ على الركب إِلاَّ لمنْ يكون أَمير لواء، لمقتضى الخلاف الواقع بين خضر بن عبد الله، وبين أَمير الشامي عند الوقوف في السنة الخالية.

لأَنَّ أُمراءَ الشامي من أَصحاب الأَلوية، وحق لمن هذه حالته التقديم في الوقوف، وخضر مَعْدود من التجار، وإِنْ كان يذكر بالكشف فليس أَمير لواء، وإِن كانت العادة الجارية أَن أَمير المصريِّ مقدم على الشامي لوروده بالكسوة الشريفة، وغالب الأَحكام السلطانية الواقعة في ذلك العام، ومعظم الصدقات لأَهل الحرمين الشريفين الرومية والمصرية.

فلما خَلاَ هذا المنصب من أَميريهِ السابقينِ، سأَل في ذلك عثمان بن أَزدمر باشاه مملكة اليمن سابقاً، والمتولي لغزو الحبشة بعدها والده، وكان ولي إِمرة اللواءِ في ذلك الشهر بعد أَن كان (أَغا) لجماعة العسكر الجراكسة ووالده أَزدمر المذكور جركسي، أَصله من مماليك الأَمير خذا وردي نائب إسكندرية في الدولة الجركسية.

ولما كان الفتح العثمانِيُّ شرد مع مَن شرد من الجراكسة، خوفاً من القتل، وتنقلت به الأَحوال، فنزل بإِقليم البحيرة لقربه من إسكندرية محل وطنه سابقاً، فاستوطن بالإِقليم، والتجأَ إِلى أَمير بني عونة، وهو إِذ ذاك إِسماعيل وولده عيسى، فولى كشف الطرانة التي يجلب منها النطرون، وهي من جانب أَمير بني عونة، وشاعت حاله، وتزوج من بنات الفلاحين بقرية إِتْرِيس ـ بكسر الهمزة وسكون التاءِ المثناة الفوقية ـ بنتاً تدعى فاطمة بنت يوسف، فأَنجبت له عثمانَ هذا، وبنتاً أُخرى وهي التي تزوج بها عثمان بن يوسف بن جانم الحمزاوي، ومات عنها بأَرض الحبشة في الغزو. ورأَيت خال عثمان بن أَزدمر المذكور مسافراً مع ولد أَخيه في الركب من الآحاد، يُدْعى عمر بن يوسف، وهو بزِيِّ عرب أَهل البحيرة، يلتحف بإِحرام، ويغطِّي رأسه به، وهو فقير، بحيث أَنه بلغني أَنه مات له جمل بالطريق، فغدت زوجته تبكي على فقد ذلك الجمل.

وذكر لي شفاهاً أَنَّ أُخْتَهُ وأَولادَهَا لم يعْبَأُوا به في الإحسان إليه إلاَّ بالنزر اليسير، وأَنَّ أُخْتَهُ تَزَيَّتْ بِزِيِّ الترك، ولم يبقَ من أَمارة الفلاحة سوى الوسم الذي يسمونه بالوشام الأَخضر بها، وذلك من أَمارات الساعة كما صرّح به المصطفى ﷺ في حديث جبريل عليه الصلاة والسلام ثم إن أَزدمر باشا تنقلت به الأَحوال إلى إقليم اليمن من جملة العساكر السلطانية، المتوجهين لقتال الإمام الزيديّ، واستمر هناك، فلما ولى مصطفى باشا المعروف بالنَّشَّار مملكة اليمن، رقَّاه وجعله كاشفاً بقرية جازان، ثم عرض له بعد ذلك إلى الباب السلطاني وسأَل أَن يكون أَمير لواءِ من أُمراءِ الأَلوية هناك، فأُجيب إلى سؤاله، واشْتَدَّت شوكته بإِمرة اللواءِ، فلما وقع بإقليم اليمن عصيان العساكر [. . . .][1] أزدمر باشا الموكب بعد مصطفى النشار، وآل الأمر إلى قتله، وفساد أَحوال المملكة انتدب أَزدمر باشا لنصرة الدولة العثمانية، وقام في ذلك أَشد قيام وحمى إقليم اليمن من الخلاف على السلطان، ودبره تدبيراً حسناً، فشكرت سيرته بالباب السلطاني، فأَنعم عليه السلطان بولاية إقليم اليمن، وأَن يكون باشا بها، جزاءً لمناصحته، فوليها، وكانت حروب كثيرة بينه وبين الإمام الزيديّ وأَولاده، وآل الأَمر في ذلك إلى انتزاع صنعاءَ، وكانت كرسيَّ الإمام، وانتزع غيرها من الحصون والقلاع، والبلاد اليمانية، وشرد الإمامُ الزيدي، واعتصم ببعض الحصون الجبالية، وملك أَزدمر باشا غالب تلك المملكة، واشتهرْ صيته بالفروسية والشجاعة، وأَقام بالمملكة سنين عديدة، ثم وقع بينه وبين مصطفى النشار مرافعاتٌ إلى الباب، تؤدي إلى الخيانة من الجانبين، فآل الأَمر إلى عزله من مملكة اليمن، وإعادة مصطفى النشر إليها، والتفتيش على أَزدمر باشا بها، فبلغ أَزدمر تلك الأَخبار من بعض حواشيه، فإِنَّ مصطفى النشار أَسَرَّ أَحواله وولايته، وقصد التوجه في تلك السنة أَميراً على الحاج، وأَضمر أَن يتوجه من مكة سرًّا، ويقبض عليه، ويفتش بعد ذلك، وكانت حالته على هذه فإنه جهز المهم أَميراً على الحاج، وتوجه ـ كما ذكرنا ـ فلما بلغ أزدمر باشا ذلك أَحسن التدبير لنفسه بأَن جهز أَثقاله وأَمواله سرًّا من البحر، على هيئة نقل المتاجر، ثم خرج من المملكة سرًّا ليلاً، ونزل البحر، ولم يشعر به أَحد من أَهل مصر إلا وهو قد وصل بغتة، وصعد قلعة الجبل في القيلولة منفرداً ولم يعلم به أَحد، إلاَّ هو يقول للبوابين والحجّاب بالقلعة: أَعلموا الباشا أَنني وصلت.

وأَما مصطفى باشا النشار فإنه توجه إلى اليمن فلم [. . . .][2] ولا [. . . .][3] لما له خبراً وقابل أَزدمر باشا مصر فأَكرمه وعظّمه وطيّب خاطره بعد أَن أَهدى إليه

(١، ٣) بياض في الأصل.

هدايا سنية، من المملكة اليمانية فكتب له عروضاً بما أحبَّ واختار، وتوجه إلى الباب السلطاني فحصل له غاية القبول، وقُضِيَتْ جميعُ مآربه وأحواله، وكان صحب ولده عثمان معه، فولي (أَغاة) جماعة العسكر الغرب ثم الجراكسة.

وسُئِل أَزدمر باشا في ولايته كما أَحب من الممالك الإِسلامية فاختار قتال الحبشة، وأَن يتوجه بالعساكر السلطانية والإسلامية لذلك، فأُجيب إلى سؤاله، وعاد إلى القاهرة مظفراً مسروراً، ومعه ولده، (أَغاة) العرب فكان يوم دخوله ورود سيف مصطفى باشا ولوائه، والإِخبار بوفاته بعد مرضٍ شديدٍ، ودفنه بالمدرسة التي عمرها بزبيد سكنهما وذلك الأخبار في ثاني عشر شوال عام اثنين وستين وتسع مئة، وكان محل سكناهما بمنزلين مطلّين على بركة الفيل، فكان في منزل مصطفى النشار من العزاءِ والصراخ واللطم، تجاهه في منزل سكن أَزدمر باشاه التهاني والفرح والطبول والبشائر.

ثم إنَّ أَزدمر باشاه جمع العساكر من القاهرة، وعمل (اليرك) وأَصرف الجوامك على العساكر المجرّدة لقتال الحبشة، وحصل من العساكر المذكورة من الفساد وأَذى العباد ما هو معلوم ومشهور في ذلك الزمن، وتوجه إلى جهة الحبشة من طريق سواكن [....][1] وكيكوا ودَهْلَك وغير ذلك من الجزائر التي يسلك منها إليهم فلم يفز بطائل، وفَنِيَته العساكرُ على اختلاف أعدادها وأَمدادها مراراً عديدة، وبني حصناً جعل فيه خزائنه وسلاحه، فآل الحال إلى قوتهم وعودهم عليه فقتلوا رجاله ونهبوا خزانته وأَسبابه، وهدموا الحصن الذي أَنشأه، وكانت حروب وأَحوال عاد بسببها أَزدمر إلى عاقربا من سواكن فارًّا بنفسه، ومعه فئة قليلة من العسكر وامتنع السلطان بعد ذلك من إمداده بالعساكر لما فني في الحروب على يده منها، حتى بلغني أَنَّ بعض الوزراء بالروم قال: إن الأَمير من جنس الجراكسة، ونحن أَخذنا الملك منهم، فجعل أَزدمر باشاه هذه الحروب مكيدة على السلطان، حتى تفنَى عساكره، ويكون فناؤهم أَخْذاً لِثَأْر الجراكسة من بني عثمان، مع ما صرف مع هذه العساكر من الأَموال السلطانية التي لم يظهر منها نتيجة من جهاده، ولأَخباره طول وليس هذا المؤلف لسرد أَخباره.

وأَما ولده عثمان فاستمرَّ بالقاهرة (أَغا) لجماعة العساكر الجراكسة، بعد الحرب مدة سنوات، ثم في عام سبع وستين وتسع مئة ولي إمرة اللواءِ ثم بعد إمرة اللواءِ بدون الشهر ولي إمرة الحاج كما شرحنا، وكان استقراره فيها في سابع شهر جمادى

(١) بياض في الأصل.

الآخرة، ومدة الأمير أَحمد شلبي شهران ونصف، وتسلم الأَسباب التي اشتريت بعادة إِمرة الحاج من مال المقاطعة بمعرفتي، ثم شرع في تتمة أَسبابه، وأَظهر ما يقضيه صِغَرُ السن من حُب الرئاسة والكبرياءِ والشهامة، والميل إِلى الزينة، وحب الفنون، مع اعتداده برأي نفسه، والميل إِلى الشبان وأَهل الخلاعة، ومَن لا خبرة له بالأمور، وحُب اللعب بالنيران كَالإِحراقات بالنفط.

وتوجه من الميدان الشاهاني إِلى بركة الحاج بالزينة على العادة في البروز، في يوم السبت عشريْ شوال عام سبع وستين، ورحل منها سادس عَشْرَيْهِ، وكان (دواداره) أَقطوه من خاير بك، الذي كان (دوادارا) عند خضر بن عبد الله الرومي السابق في الإِمرة، فسار به على سيره في المنازل والمراحل وعلى سيرته في قطع عوائد العربان، وأَرباب الأَدارك.

ورحل من عجرود نصفَ الليل بغير تعقيب، فقطع السبْخَةَ وغدًا، ورحل منها فعشَّى بالقرب من حدرة المنصرف، وغدًا وادي السدرة، وعشى جبل حُسين بالتيه، وغدًا بالقرب من راحل ورحيل، وعشَّى بنخل وبات وأَقام إِلى الظهر، ورحل منها.

ولما أَن حلَّ الركب بعقبة أَيْلَة هَبَّتْ على الحاج رياحٌ حارة وسموم مفرط، استمرَّ مدة الإِقامة، وبعد رحيلهم منها، فأَثر ذلك في قلوب الحجاج والجِمال حرارة مفرطة، خصوصاً المشاة، وذوي المهن، ومَن يتلقَّى الحر والشمس.

ولما حلَّ بظهر الحمار بدأ فعل التوعك لمن غلب السموم على مزاجه والحر، فسقط شاب من (الإِنكشارية) من ظهر من جمله ميتاً فجأَة، وتأَثرت الجِمال أَيضاً، وزاد عطشها، واتفق أَنه لما سافر الركب من المظلة ليلاً انكسرت عجلة من العجل، فوقف الركب حتى أُصْلحت وطال وقوفه، فأَوجب ذلك تأَخر دخوله إِلى مغارة شُعَيْب إِلى ضحوة النهار عالية، وقوي سلطان الحر والشمس على الوفد، خصوصاً أَنَّ الوقت صائف، والشمس في برج الأَسد، والمنهل نازح من الماءِ إِلاَّ أَن تُحْفَرَ الحفائر مع أَن الوادي كان معطشاً، لعدم المطر وتوالي المحل، بحيث أَنَّ الحفرة تحفر نحو القامتين، وأَكثر، والماءُ نازح ويظهر الماءُ وهو متغير، مشوب بالحرارة والرداءَة، فما هو إِلا أَن شربت الجمالُ من ذلك الماءِ، وكذلك الرجال والوفد، فحصل الموت الْوَحِيُّ، وتساقطت الجِمال على الحفائر، وحولها أَموات لا روح فيها، ومات لأَمير الركب في أَسرع وقت عددٌ من الجِمال، وكذلك الرعاء، وبدأَ الموت الوحيّ في الوفد فكان الرجل يسقط ميتاً من غير سبب إِلاَّ ما ذكرنا، ومنهم شخص يقال له

فروانة وهو بوّاب أَمير الركب، بينما هو واقف على مخيم أُستاذه، وبيده العصا إذْ سقط مقلوباً عليه، وقضى نحبه، وشخص يدعى خبان فلج، من الجراكسة، وامرأة التحفت وخرجت أنها تُريد أَصحاباً لها فسقطتْ ميتة، وتواتر الرَّجِيفُ بالموت الْوَجيّ في الرجال والنساءِ، وفقد أَمير الركب جزءاً كبيراً من جِماله، فاحتاج أَنه أَقام بالمغار يومين وليلة، ولم يقع مثل ذلك قبل تاريخه.

ورحل من المغار عشية اليوم الثاني، والحال كما وصفنا من الْحَر المفرط، وظهور الضباب والظلمة والغيم ليلاً ونهاراً، وقتامة الجو الموجب ذلك جميعه للموت الْوَجيُّ، وأَصبح الركب بِمَغْدَة عيون القصب، فاشتد الحال بها ووقع الإِرجاف المفرط والموت الْوَجي، وممن تُوفي زوجة (الدوادار) أَقطوه، وأُمُّها وقواسه، وحيا في وقت واحد، واشتدَّ وَهْم النفوس بتواتر الموت الْوَجي، ومن أَهل الوفد مَن أَوصى بغير مرض ولا سبب، ومنهم صاحبنا على المرخم الشكري وصار الحجاج يوصي بعضهم بعضاً مع تواتر الغيم والضباب والظلمة المشاهدة في الجو الغالبة على ضوءِ الشمس والقمر، وكل ما تزايد ذلك زاد الحال بزيادته وتُوفي جماعة من (الإِنكشارية) ومن (الطبجية) وعريف سوق الصاغة بالقاهرة وأَعداد من الغلمان والمغاربة والمشاة.

ونزح ماءُ العيون، فاستقى الركب من بقية في بئر عبد الباسط التي أَنشأَها داخل عيون القصب في زمن الأَشرف برسباي.

وأَخبرني الشيخ عمر بن عقبة أَمير بني عقبة أَن عين الشرب نزحت بواسطة الْمَحْل، غير أَن الرخاء موجود، واستمر ذلك يتواتر إِلى أَن حلّ الركب بالينبع [. . . . . .][1] خلق وافر وتوفي بالينبع وَجِيًا صاحبنا أَحمد بن سوار التاجر بخان الخليلي في أَصناف الفِراءِ المثمنة والبسط وغير ذلك.

عن الوفد في بقية الذهاب، وفي مدة الإِياب فأَخبرني جماعة المواريث الحشرية أَنَّ عدة الأَموات في الإِياب عشر أَنفار.

وعن الحوادث في هذه السنة وصول مصطفى اليمن معزولاً عنها إِلى مكة بمحمود باشا، الذي كان أَمير الحاج سابقاً، ووقع له مع الأَشراف بمكة ما تقدّم ذكره، وكان دخوله إِلى مكة قبل وصول الحجاج بيومين، فنزل في المدرسة الأَشرفية قايتباي، فلما وصل أَمير الحاج إِلى وادي الزاهر أَرسل إِلى الشريف يعلمه بأَنه ينزل

---

(١) بياض في الأصل.

بالمدرسة على عادة أُمراءِ الحاج، فأَعاد له الجواب أَن مصطفى باشا بها، ونحن قد عَيَّنَّا له المنزل المطل على الحرم المعروف بالسلطان سليم، بالقرب من أَجياد، وأُجْرَته في مدة الموسم مئة من الذهب. فأَجاب إِلى ذلك، ونزل به هو ومَن معه من الحريم وهي أُمه فاطمة بنت يوسف الإِتريسية، وأُخته ومَن معها، وكان الحريم في علوه، ونزل هو في سفله، فلما كان قرب التوجه من مكة طالبه أَصحاب الولاية على المكان بالأُجرة فدفع إِليهم مئة من الذهب، وتوجه مبرزاً بوادي الزاهر، فأَقام به ثلاثة أَيام، ورحل منه يوم السادس والعشرين من شهر الحجة، فقبل توجهه أَتى إِليه الشريف عِجْلُ بن عرار بن عِجْل بن رميح صهر الشريف أَبي نُمَيٍّ زوج ابنته، ووزيرهُ أَيضاً، وعلى يده مئة دينار من الذهب، وذكر له أَن الشريف جهزها إِليه عن أُجرة المنزل الذي كان به، فأَثار ذلك عنده كامِناً من الحنق الذي يكون في أَول سنِّ الحداثة في الغالب، لا مزيد عليه، وردَّها ردًّا شنيعاً قائلاً: وعاملتموني في معاملة التجار لأَفْعَلَنَّ ولأَفْعَلَنَّ! وهدده بكل قبيح، وأَغلظ عليه، ومن جملة كلامه: أَني آمر بقطع عنقك حتى أَنظر ماذا يفعله شريفك، وظهرت منه أَلفاظ الحداثة، وأَخلاق الْعُجْب والشراسة، وكان قتل بمكة رجلاً مُوَلَّداً من فروخ أَقارب الشريف، يدعى يحيى، قطع يديه ورجليه جميعاً فمَات، على كره من الأَشراف لذلك، بحيث أَنه بلغني من ثقات أَن بعض حريم الأَشراف توجه يوم موته إِلى قبره للبكاء عليه والعزاء.

فلما تهدد الشريفَ عِجْلَ توجه بَعْض خدمه إِلى مكة، وذَكَر أَنَّ أَمير الحاج قبض على عجل، ووضعه في الاعتقال، فركبت بنو حسن خيولها، وسَلَّتْ سيوفها، وفزعت آحادها وصفوفها، فكادت مكة أَن تنهب لِوقتها، وأَسرعت التجار مبادرة إِلى تعزيل حوانيتها وغلتها، وبادرت الحجاجُ الذين بمكة، وأَهل البلد إِلى النجاة بداخل الحرم، وأَغلق مصطفى باشاه اليمن باب المدرسة الأَشرفية، وجلس داخلها ينظر من الشبابيك أَحوال هذا الفزع، فبادر الشريف أَمير مكة إِلى الركوب، ومَرَّ بالمسعى، والنداء معه بالأَمان لأَهل مكة والحجاج، وسكَّنَ الفتنة، ودخل المدرسة إِلى مصطفى باشاه، وأَزال ما عنده من ذلك، وبينما هم في ذلك الهرج، وأَهل مكة منهم القائل: قُتِلَ ابنُ عرار، ومنهم القائل: وضع في عنقه غِلٌّ من حديد، وإِذا به أَقبل عليهم راكباً سليماً غير أَنه في غاية من التأَثر من أَمير الحاج، وما صدق لنفسه بالنجاة وعُدَّ كل ذلك من أَمير الحاج سوء تدبير، ومن عدم الخبرة بملاطفة بني حسن لصغر سنه، ولولا أَن الله تعالى سكَّنَ الفتنة بلطفه، ومبادرة الشريف حسن بن أَبي نُمَيٍّ إِلى الركوب والنداء، وإِلاَّ كانَ النَّهْبُ عَمَّ أَهْلَ مكة.

ومن الوقائع طمع أَمير الركب في غالب مرتبات العربان من السلطنة، فبعضهم دفع

إليه البعض، وبعضهم لم يدفع إليه شيئاً. واستعان في حراسة الركب بسفك الدماء، فكان يقتل كُلَّ مَن وجده سواء كان سارقاً أو غير سارق، فلم يقابله غالب العربان، واعتمد في حكمه على ضرب المقارع، فكان يَأمر به لكل مَن شكا إليه منه، ولقد وجد رجلاً من الصعيد ليلاً خرج من قطاره ليتبوّل، فقال له: أَنت سارق فأَنكر، وذكر أنه لم يكن بسارقٍ، وإنما خرج ليتبوّل، فأَمر بضرب عنقه. ثم استشعر أنه ليس بسارق فضربه مئة سوط من المقارع حتى توهم أنه مات، ثم سلّمه إلى جماعة الاعتقال، وهو لا يَعِي، فلما أَصبح الركبُ بالدار فإذا الرجل شريف من الحجاج، ولم يكن بسارق - فيما بلغني - فتوجه الرجل من البحر مَرِيْضاً، ولم يَعُدْ بصحبة الركب.

وشكا له المقدم محمد بن المقدم طعيمة وهو شريك المقدم علي بن العظمة في نصف العسكر وغيرها. وذكر الشاكي أن جمله ضعيف، ولم يغيره، فقال له: غيِّره أَو أَدِّيه أجرته. فأَجاب: أَما الجمال فعاجز عن تحصيلها الآن، وأَما الأُجرة فإلى الظهر أُعطيه، فلما كان الظهر قال له: أَين الدراهم؟ فأَجاب بأَني عجزت عن تحصيلها، فضربه مقارع على جنبيه، ولم يتقدمه أَحد من الأُمراء بمثل ذلك، لأَنَّ عادة المتقدمين الاحترام لما عليهم من حمل العسكر وغيره، وكان ذلك سبباً لفراره في ثاني عامه، زمن الموسم من مكة المشرفة، ولم يعلم له خبر.

ومن الحوادث واقعة التاجر الأَعجمي، ويسمى علي بن قمير الشراوني، الذي قدم من الهند تاجراً في المعادن، وهي من أَنواع فصوص الجواهر، قصد بذلك عدم التثقيل على الجِمال بكثرة الحمل، وعدم أَخذ المكس والتفتيش، والمذكور ذكر أنه أَقام ببلاده الهند أَربعة عشر سنة، وكان توجه إليها ومعه من النقد أَلفا دينار فأَقام يتجر بها هذه المدة إلى أَن أَثْرَى، واشترى بجميع ما يملكه أَحجاراً نفيسة من المعدن، وجعلها في كيس، وأَوثق خياطته، وأَتى إلى مكة، فلم يتكلف لحمل بضائع، ولا لِعُشرٍ، بل اكترى بعض جِمال له ولزوجته، ولحمل مَأكولاته، ومائه، وخرج من مكة في بعض قُطْرِ جمالة السنيح المتعلق بأَمير الحاج، وجَمَّالَهُ يدعى بالشريف الصغير من رجال علي بن العظمة مقدم النفر، فلما كان بمغدة فِسْقِيَّة طاز من طريق المدينة المنورة، شكا إلى أَمير الحاج أَن عكّاماً له اختلس خمس قطارات محريه وتَسَحَّب، ثم لما كان في الليلة المسفر صباحها عن دخول مغارة نَبْط قريب الفجر، وكان ذلك قبالة [. . . .][1] بيسير، وإذا بالقطار الذي فيه جَمَّالُهُ، وقد اضطرب اضطراباً أَوجب قطع العقوب، وما حولها ثم إنَّ جمله نفر نفوراً

(١) بياض في الأصل.

شديداً، ورمى ما على ظهره وهو زوج محاير ضمنها هو وزوجته وولد له صغير بالأرض، ورأيت هذا التاجر عقيب ذلك وهو يفتش في الأرض، ويصيح [. . . .][١] ويبكي، فمرت عليه العقوب، وهو بالأرض على هذه الحالة، ثم لما استقر الركب بالدار وإذا به مكشوف الرأس مشقوق الثوب، حافٍ خائر، يضرب بحجر في يده على صدره، وينوح بلسان فارسي نياحاً يُحزن القلب، وتدمع له العين، وتوجه إلى أمير الحاج وهو بتلك الحالة، وكان عنده علي جلبي بن عبد الرحمٰن قاضي الجيزية كان، وقاضي المحمل في هذه السنة، فقالا: ما بالك؟ فأجابهما أني قدمت من الهند بتجارتي، وهي من صنف المعادن لا غير، ومعها لنفقة السفر مئتان وأربعون ديناراً ذهباً، وقد وضعت الجميع في كيس مضبوط بالخياطة، وجعلته مخيوطاً في قائم المحارة فلم أشعر إلاّ والجمل عثر فوقع الحمل وسقط الكيس بما فيه وفتشت عليه فلم أجده، وفيه ما يساوي أكثر من سبعة آلاف ذهباً، فقال له أمير الركب: لك غريم إذَنْ نعاقبه؟ قال: لا. قال له: لك على أحد دَعْوى؟ فأجاب بِلاَ إنما سقط مالي وضاع، فأشْهَدَ على لفظه قاضي المحمل، وأخذ منه حجة شرعية بذلك، وأن التاجر اعترف أن ماله سقط، ولا غريم له، واستمر هذا الرجل ماشياً عارياً حافياً يضرب صدره بأحجار الصوّان في كل منزلة ثم يرمي ولده في بعض المنازل، وكان يحمله من رِجليه حيناً ويلف به في الهواء كالمجنون، وينوح بلسان فارسي بكلام معناه: ذهب مالي وولدي. بحيث أن الخواطر السليمة من حوادث الدهر تأثرت لمصابه، وبكت على جليل أوصابه، ودخل القاهرة على هذه الحال، ونزل بخان الخليلي، وجلس يستعين على قوته بخياطة الأثواب بالأُجرة بعد تلك الثروة، فلما كان مستهل رجب الفرد ورد كتاب من إقليم المنوفية على بعض التجار يتضمن أنَّ شخصاً يقال له محمد بن عبد الرحمٰن من أهل قرية النجارية تعلق به، وأخذ منه برطيلاً نحو المئتي دينارٍ ثم علم به عبد الله بن بغداد أمير عربان المنوفية فأحضره، وأزعجه وأخذ ما أرضاه به، وأطلقه فحضر قراءة هذه الرسالة كمال الشامي شاهد المحمل، وهو الذي سطّر الإشهاد عليه كما ذكرنا، فأتى إلى أمير الحاج، وأخبره بذلك، وكان التاجر لما حضر إلى القاهرة أغراه الناس على شكاية أمير الحاج، وإلْزَامِهِ بإحضار ما ضاع له فَإِنْ أنصف منه، وإلاّ استعدى إلى السلطان في خلاصة ضائعه، وذكر أنَّ أمير الحاج سلط عليه رجالَ النفر الذين هم خدَمَة جماله، أخذوا المبلغ منه ودفعوه إليه، وكثر القال والقيل على أمير الحاج، بسبب ذلك فمن مصدِّق، ومن مكذِّب، فلما سمع ذلك أمير الركب أعلم باشاه مصر بذلك،

---

(١) بياض في الأصل.

وجهز جاويشاً لإحضار محمد بن عبد الرحمٰن المذكور، فأَحضره وطولب بما معه فاعترف، وكان عبد الله بن بغداد لما أَخذ منه ما أَخذ علم بذل قاضي الإقليم فختم على باقي الكيس واستلم ما وجده، فذكر له أَنه تصرف في ذلك ببيع لفلان ولفلان أَسماء ذكرها، فتوجه التاجر والطحّان وهو مع الجاويش إلى النجارية لأَجل استخلاص باقي ماله وانقلب إلى الفرحة والثروة، بعد ذلك الضيق، وذكر الرجل النجراوي أَنه وجد الكيس مرميًا في الأَرض، وبَرِيء أمير الحاج ممَّا اتهم به، وكان رجوع ماله إليه من الفرج بعد الشدة.

وكانت الأَسعار بمكة، في هذه السنة متوسطة، والمأْكولات والعليق بكثرة، بحيث أَنَّ أَمير الكرب خزن غالب حموله المجهزة للتجارة والبيع، بحواصل خان السلطان قايتباي بمكة وعاد.

وأَما أَخبار القاهرة والمتجددات بها فولاية محمود باشاه مملكة اليمن عوضاً عن مصطفى، وأَراد أَن يتوجه بَرًّا صحبة الركب فتوهم الناس حصول فتنة بمكة لكون واقعته مع الأَشراف سابقاً، وتكلموا مع علي باشاه مصر فمنعه من ذلك، فأَمره أَن يتوجه من طريق البحر بعد توجه الركب لمكة، فتوجه بحراً، وكان مروره على الينبع السفلي بعد توجه الركب من القرية، في الإياب بعد أَن غرقت مركب من مراكبه بما فيها من آلات السلاح واللبوس وغيره.

وذكر عنه أَنه غضب على أَحد خدمته الخاصة فغرقه في البحر الملح ومعه نفران أَو ثلاثة ـ الشك من القائل في العدد ـ فلم تَحْمد الناسُ فعلته تلك، وارتحل على بندر جدة، فحضر إليه السيد الشريف حسن بن أَبي نَمَيٍّ بن أَبي بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان أَمير مكة، والتقاه أَحسن ملتقى، ونزل من الركب وركب معه ودخل مكة المشرفة، ونزل بمدرسة الأَشرف قايتباي، أَقام بها يومين، وحضر إليه الشريف أَبو نُمَيٍّ بن بركات، وسلّم عليه، وتعاتبا وتصافيا، وأَعْطَاه الشريف أَبو نُمَيٍّ هدية حسنة وأَلفاً من الذهب، ومدّ له سماطاً حافلاً، وأَكرم نُزُلَه، ثم ركب وتوجه معه الشريف حسن لوداعه إلى جدة، وأَنزله بالمركب وعاد إلى مكة، وكانت بنو حسن في غاية من الوجل والتخوف من مكيدته، ولكن الله تعالى سكَّنَ خواطرهم باجتماعه بالشريف.

ومن الحوادث وفاة علي باشا مصر في الليلة المسفرة عن يوم السبت سادس شهر صفر الخير، وجاء نَجَّابٌ لإخبار أَمير الحاج بذلك في عجرود، فزل أَمير الركب

إلى البركة، ومعه مصطفى باشا اليمن المعزول، فلم يجدا مَنْ يتلقاهما لاشتغال العسكر وأكابر الدولة (. . .) ودخل أَمير الركب في يومه إلى القاهرة، ولم يعمل له بالبركة ما جرت العادة به من السماط، فإنه لما سمع بوفاة علي باشا دخل البركة بغتة قبل اليوم المعيَّن لدخوله، فَنُقِلَتْ أَصنافُ المدة إلى منزله، وكان دخوله يوم الثلاثاء تاسع صفر.

وكان المُدبِّر للمملكة وأَحوال الرعايا، والنظر في المظالم القاضي حسن عتيق رستم باشاه الوزير الكبير، والأَعور الدجال إبراهيم بن خذاوردي (المهمندار) ناظر أَموال مصر، و(دفتر دارها) وهو فيمن انهمك على جمع الأَموال من غير وجهها، وسدّد أَبواب الخير عن أَهلها، ونظر في تدبير مصالحه وتجاراته وجمع مالاً وعدده، يَحْسَبُ أَنَّ ماله أَخلده.

ولما دخل مصطفى باشا إلى القاهرة أَراد أَن يجلس للمظالم، والنظر في أَحوال الرعايا، إلى أَن يرد عليه من الباب ما يستمد عليه؟ فامتنع إبراهيم من ذلك، وانفرد بأَحوال المملكة إلى سابع عشري شهر ربيع الأَول، ورد حكم سلطاني بجلوس مصطفى باشا حاكماً بمصر، عوضاً عن المنوفي، فلما بلغه موت الباشا، أَسرع بتجهيز عرض بطلب ولايته على مصر من الوزير الكبير، وأَن يدفع له على ذلك ستين أَلفاً من الذهب، فَأُجِيبَ إلى ذلك، وجلس في يوم الثلاثاء ثامن عشريْ ربيع الأَول، وتحول من منزل سكنه بخط جامع قوصون إلى الديوان السلطاني وهرعت الأَكابر والأَصاغر للسلام عليه، فكان يغضُّ من إبراهيم بن (المهمندار) ومن قاضي مصر لكونهما منعاه من الجلوس أَوَّلاً، فأَحسن التدبير معه إبراهيم ولاطفه، وأَهدى إليه ثم زوج ابنته بنت مصطفى باشا النشار لابن أَخيه محمود، واتفقا على كلمة واحدة في منع فعل الخير، وإسداء المعروف للرعايا، وجمع الأَموال الغزيرة من الكشاف والولاة والعمال، بحيث أَنه لم يعهد قط بيع الرعايا والإقليم بالأَثمان الغالية إلاّ زمن انفرادهما بتدبير مملكة مصر، وشَرَعَا في عزل الكشافة والعمال وولاية غيرهم، والتغيير والتبديل، بحسب ما يرغبون به من الذهاب الأَصيل، فعزلا أَمين الدين أَبو جريدة الطولوني من نظر الحسبة وعمالة مكسها، والناس راضية عنه، وحال الأَسعار في زمنه بالنسبة لغيره أَحسن، بحيث أَنه أَقام الحسبة حتى عاد على باعة الدجاج وأَشهرهم، ولم يترك شيئاً من أَحوال الباعة إلاّ فَنَظَر فيه، ويجمع لنفسه مالاً من ذلك بِحُسْن تبديره مع رضا العامة عليه، فإنه كان يتوجه إلى المذابح بنفسه، ويحضر بالأَغنام، ويقسمها على الباعة، ويفرض عليهم في البيع للرعية على حكم ما اشترى به من

السعر، وكذلك يفعل في الخبز، ويتوجه إلى الأفران لإحضاره إلى مقاعد الباعة بنفسه، وكذلك غيره من المَأكولات، وكان يدور لعمل الحسبة، والنظر في موازين الباعة، وفي يده جريدة لا يُفارِقُهَا إلى وقت من العتمة.

وَوَلِّيَا عوضه ابن طبيلة على مال أَخَذَاهُ منه، وغيرا كاشف كل إقليم، وبدَّلاه أو أقاماه مكانه على مال له صورة، فبلغني أنهما يَأْخذان عن ولاية كشف واحد كالغربية والبهنساوية وغير ذلك بحسب أحواله، فولّيا الكشف الكبير من عشرة آلاف ذهباً إلى خمسة عشر، والذي دونه بحسبه، وأفحشا في الطمع المفرط، والبلص الشديد، ولم يذكرا أحوال الإقليم، والمذكور نشأ صغيراً بين أقاربه فإنَّ عمه كمال حضر إلى القاهرة صحبة خاير بك ملك الأُمراء بحلب سابقاً، (مهمندارا) أول الفتح العثماني، وهو من أهل حلب، واستمر على وظيفته إلى حالة وفاته، فولي بعده أخوه خذاوردي، وهو والد إبراهيم هذا، فاستمر أيضاً، ونشأ إبراهيم صغيراً مع فقهاء مصر، وأولاد بعض أعيانها كآحادِ أولاد الناس، ولما بلغ مبلغ الرجال كتب في تلك (الجاويشية)، وتزوج بنت مصطفى باشا المعروف بالنشار، فترقى بواسطته، وجُهِّزَ إلى الباب السلطاني بالهدايا من جانبه، ثم جهزه قبيل وفاة داود باشا، وسأل في ولايته على مصر، فقصر في توجهه إلى الباب إلى أن عين السلطان علي باشاه الوزير الكبير قبل حضوره، فلما حضر دفع ما معه، فعين (كيخية) صهره مصطفى باشاه، وكان يتعمد الفتن بينه وبين علي باشا وأخباره في ذلك يطول شرحها، فنقله إلى (أغا) جماعة العرب، وتنقّل إلى ولاية (الصنجق) ثم ورد عليه حكم شريف بولاية إمرة الحاج بعد عزل علي باشا، وولاية محمد باشا، فلم يرضَ بذلك وسمت همته إلى العلو، وسافر في تلك السنة أميراً على الحاج حمزة بن إسكندر كاشف الغربية ـ كما قدمنا ذكره ـ وذكر لي إبراهيم من لفظه بمنزله بالسبكية بخط بولاق: إنني لا أرى إمرة الحاج منزلة، وإنما أطلب نظر أموال مصر، فلم يكن غير قليل حتى ورد عليه حكم شريف سلطاني (دفتردارا) ناظراً على الأموال، فساس النَّاس بحلاوة اللسان، في صدر من الزمان، وبُعْدٍ عن الإحسان، وتلطف في عبارته مع أهل الوجاهة والرعية، واستعمل في سائر أحواله الأَخلاق الثعلبية، ونظر إلى جمع المحصول فانفرد بتدبير أحواله لما يختاره، وعَزَلَ وَوَلَّى وثَبَّتَ قدمه في هذا المنصب مدة مديدة عزل فيها محمد باشا، وولى عوضه إسكندر باشا، ثم علي باشا، واستمر في مدة علي باشا إلى أن دَسَّ عليه سُمًّا عند تَمَرُّضِهِ، كما يشاع ذلك عنه، فمات، وولى مصطفى المشار إليه، فدانت له الرجال، ولانت له المقاصد، وكان مخصوصاً بالمصالح

والإقليم الرعايا بالمفاسد، وأخذ من عمل الدنيا دون الآخرة بنصيب، ولم يكن بالعارف ولا بالمصيب، وفي معنى ذلك أقول مضمناً للبيت الأخير:

مُـؤَمِّـلُ إِبْـرَاهِـيـمَ قَـدْ ضَـلَّ سَـعْـيُـهُ ... حليفَ ضَناً في دَهْرِهِ لَنْ يَرَى الشِّفَا
مـواعـيـد عُـرْقُـوب تَـمُـرُّ بِـسَـمْـعِـه ... كَـأَضْـغَـاثِ أَحْـلاَم تـريـك ولا تَـبْـقَـا
فَحَسْبُكَ يا مَنْ أَشْغَلَ الْوَهْمُ فِكْرَهُ ... ومَـقْـصَـدُهُ فـي ذُرْوَة الـنُّـجْـح لا يَـرْقَـا
رُوَيْـدَكَ قَـصِّـرْ عـنـه أَوْ صِـرْ لـمـبـلـغ ... عديدٍ ودَعْ عَنك الْمُنى لَنْ تَرَى خُلْقَا
وعَنْهُ فَمِلْ وانْظُرْ أَخَا الْعَزْم ماجداً ... لَهُ عزماتٌ في الْعُلَى تَمْنَحُ الصِّدْقَا
أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـلَّـهَ جَـلَّ جَـلاَلُـهُ ... عـلـى يـدِهِ لَـمْ يُـجْـرِ خَـيْـراً ولا رِزْقَـا

سنة ثمان وستين وتسع مئة: فيها كان أَمير الحاج عثمان بن أَزدمر باشاه على حاله، وكان لما حضر من الحج جهز (ارتقاباً) إلى الباب السلطاني أَحد ثقاته يسمى يعقوب جاويش من الجراكسة، وسأَل أن يكون ناظر أَموال مصر، عوضاً عن إبراهيم صاحبه، فلم يُجَبْ إلى ذلك، وكُتِبَ له حكمٌ بإمرة الحاج على حاله، وزيدت له العادة ممَّا قطع في زمن مصطفى باشاه كيسان عنهما خمسون أَلف نصف، فتجهز للحاج على غير انشراح صدر، ولم تسعه المخالفة، وكان المتنبل له من الجِمال في السنة السابقة ست مئة جمل ونيف، فاشترى عوضها، وسافر في تلك السنة سائراً في رحيله، ونزله على ما تقدّم ذكره في السنة الماضية، وأَفحش السيرة مع أَهل الدرك، فقطع عوائدهم ومرتباتهم، فلم يقابله غالبهم، ومَن أَتى إليه لم يَفُزْ منه بطائل، وحال بينه وبين عوائده كل حائل، فغضبت بنو عَطِيَّة، واستمر عصيانهم، وعصت عربان الأَحامدة والعزايزة في الذهاب الإياب.

وفي هذه السنة جُهِّزَ حَمْلُ ٱلأَزْلَم من طريق الطور على العادة المستجدة مُتَأَخِّراً عن أَوانه، في مركب كبير للشريف حسن أَمير مكة، وظُلِم (ناخوذَتُها) وأُهِين بالطور، فسار قليلاً، وانصلحت الجلبة بجميع ما فيها من الغلال والمأكولات.

وفي هذه السنة كان الحرُّ شديداً بمكة والطرقات.

وكان توجهه من القاهرة يوم الخميس عَشْرَيْ شوال، ورحل منها سحر يوم الأَربعاء سادس عشري شوال وهو آخر أَربعاء من الشهر، ويذكرون أَنه اليوم الذي أَهلك الله فيه قوم عاد، لأَن بعض المفسرين ذكر في تفسير قوله تعالى عند ذكر قصتهم وهلاكهم ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] كان يوم الأَربعاء، فوصفه بالنحوسة والاستمرار.

وكان رحيله إلى عجرود على غير كفاية من الجمال، والوصول إليها بعد

العصر، فأَقام بها إِلى قريب من ثِلث الليل، فَغَدًا بالقرب من السَّبْخَة.

والعادة المستمرة، والقاعدة المستقرة، أَن يرحل منها صبحاً بعد الشمس بنحو العشرين درجة ليتم رِيُّ الجمال من المنهل، وكذلك في الرجوع، فالذي كسل عن المبادرة إِلى مَلْءِ قُرَبِهِ، وظنَّ أَن الرحيل على العادة سافر بلا ماءٍ، أَو بغير كفاية تامة، فَابتدأَ فقد الماء للوفد في أَول رحيله من عجرود، واشتد الاحتياج إِلى الريِّ للجمال والرجال، فما وصل الركب إِلى وادي القباب إِلاَّ وقَدِ اشْتَدَّ العطش خصوصاً والوقت في شدة الحر، والقرب من انتقال الشمس إِلى برج الأَسد، فتساقطت الجِمال والرجال والأَحمال، وعظم ذلك بوادي الثغرة والخرنوبة، فتقطعت العقوب، وانقطع أَعداد من الجمال والحجاج بأَحمالهم، وبركوا هناك عجزاً وعطشاً، ورمي المتغلب؟ حينئذ إِما لطائر؟ أَو ببعض الزاد والعليق، وارتبك الركب، وكان الوقت على استقبال من الغروب، والمحل موحشٌ لفساد عربان بني عَطِيَّة، وكثرتهم فيه، وعدم إِنصافهم من أَمير الركب في عوائدهم المقررة من السلطنة، وشدة طمعه فيها اقتداءً بمَن كان قبله، وكثر الإِرجاف من الحجاج بانقطاع غالب الركب بالطرقات عطشاً، فبادر أَمير الحاج بتجهيز السائقين إِلى نخل، ليحضروا من المنهل المياه لتدارك أَهلِ الركب، فنقلوا من ذلك مراراً، وكذلك جهز الخولي زين الدين جمالاً لإِحضار الماء من المنهل لتزويد الركب، وطمعتْ عربان العائد فيمن انقطع وانفرد من الحجاج، فنهبوا من الجِمال والأَسباب بالثغرة ما قدروا عليه، وكذلك الترابين من بني عَطِيَّة، وحما الله غالب الوفد من أَعيان المفسدين منهم.

وحجّ في هذه السنة من الأَعيان من القاهرة الأَمير قاسم بن مصطفى باشاه الشام سابقاً، وترقى إِلى الوزارة، ولما توفي جعل لولده (تمار؟) فقط، ولم يكن من أرباب الأَلوية، وحجّ بمحفة، والأَمير يحيى بن إِبراهيم الحمزاوي في محفة، وحجّ الشيخ العلامة الشمس محمد ابن شيخنا أبي الحسن البكري الصديقي الشافعي على جاري عادته من الجلالة.

ولما رحل الركب من عقبة أَيْلَةَ قبيل الفجر جعل كميناً مع يعقوب الروادان، فإِنه عينه في هذه السنة عوضاً عن أقطوه الذي كان بصحبته في السنة الخالية، لما رآه على غير استقامة في أحواله، ثم إِن الكمين قبض على عربان الحويطات لما تبعوا ساقة الركبِ، فقطع رؤوس ستة أنفار، وتجرّح نحو عشرة، وظفر بشخص من أعيانهم يسمى مسري، من أولاد عمران الحويطي فقطع رأسه، وكان أبوه قطع رأسه حسين أَباظا أمير الحاج في عام ثلاثة وخمسين، وكان أمير الحاج الشامي القاضي مراد حلبي

أمير اللواء، و(دفتردار) الأَقطار الشامية والحلبية، والديار بكرية، وغير ذلك سابقاً، الملقب من يلي هذا المنصب بـ(دفتر دار عرب عجم) وحضر صحبته ثلاثة آلاف من الذهب صدقة لأَهل الحرمين، من جانب السلطان سليمان، فأَمر لأَهل المدينة على يد نعمة الله بن روشني زاده قاضيها ـ المتوني عام تاريخه بعد عبد الرحمٰن الشهير ببال زاده ـ ألف وثلاث مئة دينار، وذكر أنه أمر بالكشف على المواضع التي تحتاج إِلى مياه بالحجاز، ودرب الشام، فمن درب الشام بركة المعظم، وتنظيفها، وذات حَجٍّ، ومعان، والحجاز إِيصال عين عرفة بعين مكة، وذكر لي في عام تاريخه الشريف حسن أمير مكة أن الإِيصال ممنوع، ووجه له وجوهاً مانعة منه، وأن الطرقات غير مستعملة، ثم بعد ذلك رأيت في أواخر أيام الموسم المعلم الرومي الذي هو كبير المعمارية، ومن صناعة عمل الرخام بالحرم المكي، فذكرت له ذلك فقال لي: أنا ألتزم بإيصال عين عرفة بعين مكة بمصروف على النصف، ممَّا يبرز به أمر السلطان، ورأيته في رغبة شديدة في العمل بذلك، وحجّ من الشام علي باشاة سيواس، الشهير بمتمرد زاده، وكان قبل ولاية سيواس باشاة ببغداد، فلما عزل من سيواس استأذن في الحج فَأُذِنَ له في ذلك، ورأيته بمكة مقتصداً في أحواله ومعيشته.

وحجّ أيضاً محمد جلبي القرماني، كاتب أوقاف الحرمين الشريفين من الشام في محفة، وهو رجل موصوف بحسن السيرة في أوقاف الحرمين الشريفين، بل جعل أوقافاً من تلقائه لأَهلها، مَغَلُّهَا في كل سنة نحو الألفي دينار، وذكر أن أمير الشامي لما عاد شكت منه الحجاج إِلى السلطان، فأَمر بقتله فشُنق، وعزل نائب الشام بسببه، وكان أمير الحاج اليماني حسن كفلي الرومي أمير الشونة بِزَبِيد المعمور، الذي كان أميره أيضاً في العام الماضي.

وفي هذه السنة حجّ من طريق البحر رئيس مطبخ السلطان المدعو في اللغة الرومية بـ(أَشْجِي)، وكذلك الخباز الملقب بـ(إِكْمكجي باشي)، فتوفي الخباز أواخر القعدة [مرض] نحو اليومين، وتوفي في الثالث وهو سلخ القعدة، وصعد الطباخ إِلى عرفة يوم التروية وهو صحيح لا مرض به، فخرج من خيمته راجلاً، قاصداً خيمة بعض أصحابه، فسقط ميتاً في الخيمة التي قصد، حال وروده إِليها، ودفن عصر يوم التروية بعرفات محرماً، وهذا من الاتفاقات الغريبة.

وأما أخبار الأَقطار الحجازية، فنزوح عين بازان فإِنَّهَا جَفَّتْ جدًا، وحصل بسبب ذلك لأَهل مكة والحجاج مشقات كبيرة لعدم الماء، واكْتَرَى أميرُ مكة جماعةً بمبلغ نحو الأَلفي دينار لتفريغ الماء، ونقله من الآبار إِلى فساقي الحجاج، ووكَّلَ

بذلك جماعات من ثقاته، فملؤوا من ذلك نحو الثلث، ودخل الركب فاستعمل ذلك في أيام يسيرة وما [. . .][١] وقد نزحت الفساقي فاحتاجوا إلى شراء الماء، فكانت أهل البادية من فقراء الأَعراب يتسببون بنقل الماء من الآبار إلى مكة على حميرات، في صحون صغار تباع كل نقلة وهي حمل الحمار بثمانية من الفضة، فكان الحجاج، وأهل مكة يستعملون ذلك للشرب والاستعمال.

وأما سقاية الجمال والبغال والخيول في الغالب فيتوجهون إلى عين عرفة، وإلى آبار الزاهر، وغالب بغال أهل الركب يسقونها من تلك الصحون التي تباع من المتسببة على الحمير، وكنت في أواخر الموسم أشتري منهم الماء لسقاية البغلة، فكان المصروف في كل يوم أشتريها خاصة ثلاثة من الفضة، ولحق أهل الموسم من ذلك مشقة شديدة، وكان الغلاء موجوداً في الأَسعار، فَأُبيع الحمل الدقيق بمكة المشرفة بثلاثة عشر ديناراً أَفلورياً، والبقسماط بنصف كل رطل، والسمن المخلوط بستة من الفضة، والعسل النحل بأَربعة أنصاف، والجبن كذلك، ولا يوجد منه إلاَّ العتيق المخزون، وطعمه في غاية الحدة والحراقة وأما اللحم فلا يوجد، وإن وُجِدَ كان عظماً وجلداً كل رطل بنصفين وعثماني، والقدح الأَرز بثلاثة أنصاف وعثماني بالفضة، وبالذهب بأَربعة أنصاف، والبسلة والكشك بثلاثة أنصاف الكيلة، وهي القدح الواحد، وأما العنب والرمان والبطيخ والخوخ فموجود، وكل رطل من العنب بنصف، وقِسْ عليه ما ذكرنا، وكان عامة ما يؤكل في الموسم الخضر المسلوق والعنب، إذ اللحم لا يطيب أكله لشدة الهزال مِنَ الْمَحْلِ العام، واستولى المَحْلُ على القرى التي بأَراضي الحجاز كَبَجِيْلَةَ وزهران، وما والاها، وهلكوا من الجوع، فتركوا القرى، وخرجوا من ديارهم إلى مكة المشرفة، وقد استولى على غالبهم مرضُ الجدريِّ فكانوا مطروحين بجوانب مكة، وفي الحارات والمسعى، ما بين رجال ونساء وأطفال وصغار، قد أَنْحَلَ الجوع أجسامَهم جدًّا مع ما هم من المرض، وعدم وجود الماء لشربهم، فكانت مشاهدتهم، وهم مطروحون على هذه الحالة، ممَّا يخشع له القلب، وتدمع له العين، وكاد أن يتصدّع لرؤية ذلك الفؤاد، فما شاء الله كان.

وكان في كل يوم يموت من هذه الأَجناس أعدادٌ يحملون في النعوش إلى مغسل الصدقة بمكة كل اثنين، وأكثر في نعش، والحيُّ منهم لا وجود له إلاَّ كالهباءِ أو كالْخَيَال، وهم ما بين ميت ومحتضر، وجَيْعان، لا يجد القوت لعدم الإِغاثة

(١) بياض في الأصل.

بالغذاء، وعطشان لا يجد ماء يشربه، وإنْ وُجِد فدون الكفاية لِرِيِّهِ، وكان أَجَلُّ بغيتهم شَرْبَةً مِن الماءِ لا هم به من حرارة الجوع والعطش والجدريِّ، واشتد الحر في انتقال الشمس إلى برج الأَسد بمكة جدًا، حتى ظهر سببُ ذلك على غالب أبدان الحجاج وغيرهم قروح ودماميل وحكة لفرط الحرارة.

وفي هذه السنة لم يحج الشريف أبو نُمَيٍّ لمرض شديد أرجف بوفاته قبل دخول الحجاج. ثم خفّ عنه حال المرض، فتوجه في المحفة إلى الطائف لبرده وطيب هوائه، فإن مرضه كما يقال كان حُمَّى دقٍّ، واستمر بالطائف زمن الموسم، وتوجه إلى زيارته الشيخ جمال الدين محمد بن أبي الحسن البكريُّ بالطائف، وعاد، وأخبرني عنه أنه قد أخذ في التوجه إلى الصحة، وأنه ركب الفرس [.....][1] إلى محل بالطائف، ألبسه الله تعالى أثواب عافيته، وكفاه شر الأعداء والحاسدين، فإنه في الحقيقة زمام العمار والصلاح بالأَقطار المكيَّة.

وتأَخر في هذه السنة جماعات عن الحج بواسطة الغلاء، وعدم حضور الشريف إلى الموسم، ولم يرد في هذه السنة الموسمُ الهِنْدِيُّ على عادته بل تأَخر فقلَّتِ الأَصناف التي تُجلب من الهند واليمن، ويقال: إن بعضها وصل إلى باب المندب ورجع لقلة الريح المناسب للسفن، فَعَلَتْ بضائعُ الهند وأصنافها من الشاشات والقطنيات، وما كان يُشْتَرَى من البهار والقماش، ويُحمل إلى البلدان والأَقطار.

ووصل من محمود باشاة اليمن صحبة الركب اليماني خُيُولٌ جهزها إلى السلطان على يد (أمير آخور) بَابِهِ، وحضر من القاهرة وَكيلُه على مهماته بالقاهرة والريف، والمعصرة ببولاق، وهو حسن الرومي من المتفرقة صحبة الركب المصري لتسليم ذلك، ويقال: إنه جهز خزينة من اليمن وهو بهار من طريق البحر له جرمٌ كبير، ولم يجهز أحد من باشات اليمن خزينة إلى الباب قبله، بل كانوا يقترضون في كل سنة من خزينة مصر عشرة آلاف من الذهب لتكملة مصاريف العسكر، وجهات اليمن، وكتب ذلك في أصوله بحساب المملكة اليمانية في زمن مصطفى باشاة النشار سابقاً، بطريق المساعدة، ونقل الحساب [....][2] علي باشا من صاحب ديوان زَبيد.

وفي هذه السنة ورد مكة خبر وفاة رستم باشا الوزير الكبير، في آخر موسم الحج، وقريب من الرحيل من مكة، وأنه توفي في ثاني عشر شوال، وولي عوضه

(١، ٢) بياض في الأصل.

الوزارة العظمى علي باشا، وهو الذي كان نائباً بمصر سابقاً، وصُلِّيَ عليه صلاة الغائب بمكة في يوم الجمعة خامس عشري الحجة، واجتمع للصلاة عليه عند باب الكعبة بعد صلاة الجمعة الشريف حسن أمير مكة، والقاضي عبد الباقي بن عبد العزيز، ونادى للصلاة عليه رئيس المؤذنين بزمزم بترجمة كتبت له في [. . .][1] بمعرفة القاضي حسين المالكي ريِّس (؟) مكة المشرفة، وكنت تأخرت عن البروز إلى الزاهر صحبة أمير الحاج والوفد، لأَجل صلاة الجمعة، فصليتها قبالة زمزم، وحضرت الصلاة على الغائب المذكور، وتوجهت إلى الزاهر عشيًّا، وكان توجه أمير الحاج، والوفد إلى وادي الزاهر في يوم الخميس، والرحيل منه عشاءَ يوم الجمعة إلى وادي مَرِّ الظهران، وكان بروز الركب الشامي من مكة المشرفة يوم الثلاثاء تاسع عشري الحجة، واتفق اجتماعه مع الركب المصري بالمدينة المنورة يوم بروزه منها وهو عاشر المحرم، ودخل [المدينة] ليلاً، والمصريُّ فيها قبل الرحيل.

ثم لما أسفر الصبح كان المصريُّ خارجاً، والشاميُّ داخلاً، واجتمع الركبان خارج المدينة، وكانا يسيران في طريق واحد من بعيد (؟) الجمال أحدها يميناً، والأخرى من الجانب الشامل وهو الشامي الداخل إلى المدينة، ولم يعهد اجتماعهما في ذلك المحل، ولا تأخير المصري إلى عاشر المحرم قبل تاريخه، والسبب في ذلك تأخير الركب المصري بالمدينة لصلاة الجمعة، ولتصرف الصدقة المجهزة على يد أمير الركب للحرمين الشريفين، عن والدة السلطان المتوفاة قبل تاريخه، وهي أربعة آلاف من الذهب، ما فرق بمكة بمعرفتي ألفان، وما فرق بالمدينة كذلك، فكانت إقامته أربعة أيام بزيادة يوم عن العادة.

وفي هذه السنة كان الخطيب بنمرة، السيد أبو [. . . .][2] البخاري الحنفي، فإنَّ الخطيب يحيى بن فائز بن ظَهيرة الشافعي خطب يوم التروية، وهو السابع من ذي الحجة بالحرم على العادة وهو الذي استقر خطيباً شافعياً، بعد صاحبنا الخضيري الشيخ عبد الباسط بن محمد بن أيوب الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ فإنه توفي في العشر الأَخير من شهر ربيع الأَول سنة تاريخه بمرض الزَّحِيْرِ.

وفيها أشار قاضي مكة، وإمام الموقف الأَعظم عبد الباقي بن علي الغربي بالإِفاضة، وكان الوقت قبل غروب الشمس بثلاث درج، فترتَّبَ لزوم دَم على مَن جَاوَزَ حدود عرفة إلى عَرَنَة قبل غروب الشمس، والسبب في ذلك أنَّ العادة وقوف

(١، ٢) بياض في الأصل.

المفتي وهو صاحبنا الشيخ الإمام الأَوحد العلامة قطب الدين النهروالي الحنفي، مع إمام الوفد إلى وقت النَّفْر، واتفق في هذه السنة عدم حضوري لعذر، فتعجل القاضي لعدم تحقيق معرفته بمناط الحكم الشرعي.

واتفق في هذا العام أن الإمام وقف بجانبه شخص من آحاد الشهود يتعاطى شهود المحمل، وهو غير محمود السيرة، وساقط العدالة، ومتصف بأَخبث أوصاف الفسق والرذالة، [....][1] وذلك من فعلاته (؟)، ومن تلاشي أمور الدين، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

وبلغني أنه قرر لأَحد المؤذنين بزمزم خمسة دنانير ليكون مُلَبِّياً معه وقت إقامة الموقف ومُعِيناً، ولم يسمع بذلك قبل تاريخه.

ولم يجاور الشيخ محمد البَكْرِيُّ في هذا العام بل عاد صحبة الركب، ولَمَّا وَصَلَ إلى قريب من السبيل العلائي (؟) الذي خارج البلد خرج إلى لقائه قاضي مصر، وهو حسين جلبي عتيق رستم باشاة، وسايره يسيراً ثم توجه، وبلغني أنه أتى إلى منزله ثاني يوم قدومه مسلماً أيضاً، وجهز له (أرمغانا) يشتمل على سكر وأغنام محاليب وشمع ركَّب في [....][2] ولم يعهد سلام قضاة مصر الأَرْوام على أحد من فقهاء مصر أولاد العرب، فعدت هذه من العناية الربانية للشيخ محمد البكري بمصر.

وكان دخول الركب إلى القاهرة في تاسع صفر الخير كالسنة الخالية.

ذكر المتجددات بالديار المصرية

وفي هذه السنة ولي عتيق الخواجا خضر بن عبد الله الروميُّ المدعو يوسف، نظر الدشايش الشريفة، عوضاً عن حمزة بن إسكندر، وعُدَّ ذلك من أكبر علامات انقراض الصالحين، وفساد الزمان، والسبب في ولايته لذلك ما بين أستاذه خضر، وبين حمزة بن إسكندر من العداوة، فأَراد نكايته بسعيه في وظيفته لعتيقه، ليكون أبلغ فيها، كما سعى حمزة في ولاية مملوكه بهرام لكشف القليوبية، وأخذها من يوسف المذكور، وليس العجب من تلاعب هذه الأَسافل بالمناصب، وإنما العجب من تمكين السلطنة لهم، والرضا بمماليكهم حكاماً على أرواح الرعايا بالإِقليم (؟) وأموالهم رغبة في الجمع والتحصيل، وفيما يحمل إليهم من الذهب الأَصيل، فإنا للّه وإنا إليه

(١، ٢) بياض في الأصل.

راجعون.

لَقَدْ هَزِلَتْ حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا ... كُلاَهَا، وَحتَّى سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسِ

وفيها تلاشى أمر قضاة المحاكم، وولاية التداريس بالمدارس، والجامع الأزهر، وتصدر لذلك كل بليد مهووس، وكل فاسق ومهمل وبَرَّاش مفلس، فإن قاضي مصر حسن بن عبد الله عتيق رستم باشاة نظر إلى جمع المحصول أيضاً كغيره، ففوض إلى كل مَن طلب القضاء بعد أن كثرت الشناعة على القاضي عبد الباقي بن الغربي عند ولايته له بالباب فعزله، واقتضى الحال أيضاً أن القاضي حسن عزله أول مرة عزلاً شنيعاً ثم أعاده، وعزله ثانياً عزلاً عنيفاً بسبب إشهاد حَكَم فيه لأولاد عفير، إبراء ذمة على شخص من أهل الذمة ادَّعى أن له دَيناً في ذمتهم، وأنهم زوّروا ذلك المستند، وأثبتوه على قاضي بولاق، وهو عبد الرحمٰن الفتوحي، وطلبه مصطفى باشاة مصر طلباً مزعجاً، ولولا مساعدة قاضي مصر له - فيما بلغني - لأَمر بقتله، واستمر معزولاً، ثم لما عزل حسن بن عبد المحسن من قضاة القاهرة بعرب زاده، ورد الخبر بغرقه بالقرب من رُوْدس، وفوّض الباشاة أمر ولاية القضاء لصاحبنا القاضي درويش الرومي، نيابة إلى أن يرد قاضٍ من المملكة الرومية، وعين عبد الرحمٰن أيضاً في أن يكون قاضياً بالباب، وخدم الباشاة على ذلك بمبلغ [.....][1] نائباً بالباب الحكمي، وليكون رفيقاً لصاحبنا الشيخ عز الدين المجولي، والبدر القرافي المالكي.

وعلى كل حال فالأَهلية معه لذلك غير آهلة، وسيرته التي هي غير حميدة، بينه وبين المحامد فاصلة.

وممَّن ولي القضاء أبو بكر بن البدر الغرابلي عامل مكس الحسبة والده، مع ما اتصف به من الرذائل التي منها محبة البرش وغيره، وشخص يسمى ابن [.....][2] وشهرته عند ذوي معارفه تغني عن ذكرها، وأعاد شخصاً يدعى بابن عقيل مع صغر سنه، وكان ولي لها سابقاً وعزل، والبدر يحيى القرافي بالباب الحكمي، وهو أحسنهم سيرة، وأجملهم طريقة، ودرس في الفقه مع صغر سنه.

والمحب ابن المحرَّقيّ - بتشديد الراء - الشافعي، وكان أحد شهود الصالحية، ولم تحمد سيرته ولم يكن من أهل العدالة، فعزله ثم أعاده درويش إلى القضاء أيضاً.

ومن المدرسين صفين الدين بن يحيى بن تقي الدين العزي التاجر بسوق

(١، ٢) بياض في الأصل.

الهرامزة والده وجده مع اتصافه بأشياء في مجالس اللهو منها الغناء، وعبد الرحمٰن بن الخطيب الشربيني، وهو صغير السن لم يلتحِ، وولد العلامة ناصر الدين الطبلاوي، وهو كما طرّ شاربه، مع أنه أقرب إلى العلم؟ من غيره، وأحمد ابن الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق السنباطي، وهو شاب في سِنٍّ لم يقتضِ خدمة العلم عند أهله، ومحمد ابن الشيخ عبد الحميد فيما بلغني، وهو أمرد، وشخص يسمى عبد الباسط الطواهي، وموفق الدين الحنبلي، ولد التقوى الفتوحي ابن شيخنا قاضي القضاة، وعلي الطحلاوي المالكي، ومحمد بن الحسين العبادي، وهو شاب أمرد مع صغر سنه، وعبد الكريم البقري المالكي، وأشباه ذلك.

وفيها عزل القاضي بن قايتباي من الترجمة بالديوان السلطاني، ووليها رجلٌ كان والده رايساً ببحر الهند، وتوجه في زمن سليمان باشا بصحبته إلى العمارة الهندية، وذلك لأنه خدم بمبلغ له صورة ثم عزل بعد شهور يسيرة، وأعيد صاحبنا القاضي محمد بن قايتباي على حاله، ونِعم الرجل هو.

وعزل الأمير يونس ابن الأمير طقطباي نائب القلعة، كان في (كيخية الجاويشة)، وهو من الاتصاف بحسن الأخلاق، وجميل السيرة والتواضع مع الكبير والصغير، ولطف التبليغ من الرعية إلى الحكام بالديوان مع البشاشة، وطلاقة الوجه، وحلاوة اللفظ ومهم (؟) إلى الرعية، ووليها شخص من الأروام كان قبل ذلك (سو باشاة) القاهرة مدة يسيرة، فلم تُحمد سيرته، ونسب إلى اتفاقه مع السرّاق، وأهل الفساد، فتأسفت الناس على عزله غاية التأسف، ولم يلبث المتولي عنه إلاّ مدة يسيرة، وعُزِل وأعيد الأمير يونس على حاله، فَسُرَّ بعوده غالب النَّاس بالقاهرة لواسطته بالخير، وفيما حسّن الله عاقبته.

وولي يحيى الذي كان محضراً بالقاهرة نظر المدرسة الأشرفية بخط العنبريين، بحكم من الباب الشريف، عوضاً عن يحيى جاويش المتوفى عنها، وولي المحضر الذي كان بعده (سوباشا) القاهرة بحكم من الأبواب السلطانية، فانتقل من العمل على مكوس القضاة المترتبة في دين الله على الأحكام الشرعية [. . . . .][1] على الله إلى الشريعة، وتولى أمر الربا (؟) وبلص أرباب الجرائم والتهم، فرجع القهقرى، وكان سيره إلى وَرَاء.

---

(١) بياض في الأصل.

وفيها ورد من بلاد السودان من طائفة الفُنْج ـ بضم الفاء الموحدة وسكون النون المعجمة وجيم معجمة أيضاً ـ شاب أسود يقال إنه من أقارب ملكهم، في جماعة من قومه، ومعه (أرمغان) لأَكابر مصر، وشاهدته مارًّا من شارع القنطرة المعروف بآق سنقر، إلى الخط المعروف بجامع قوصون إلى الساحة، وهو شاب خفيف اللحية جدًّا، وعليه ثوب أبيض وعمامته رومية، وهو راكب على فرس وحده، وحوله جماعة من السودان عراة، بخرق تستر عوراتهم فقط، ومعه أصناف من الوحوش تسير أمامه من نوع الهدية، فرأيت زرافة وأَسَداً كبير الخلقة، ونمراً في داخل قفص كبير من حديد، وبقرة ماء غريبة الشكل، بنفسجية اللون، ملساء الجلد كبيرة الرأس، ولها وجه مدور، وفم واسع جدًّا عريضة الجثة من الطول، وقصر البدن والرجلين جدًّا، يكاد بطنها يمس الأَرض، ويلازمها شخص من السود يصب الماء على ظهرها كُلَّ قليل، لتعود إليها حركتها لأَنه من خلق الماء (؟)، ورأيت بصحبته الوحش المسمى بالخرتيت، المنسوب إلى أكل الحيات، في قدر البغال الكبار الخلقة، وله قرن واحد في رأسه، لكنه قد مات معه بالطريق، ونزل هذا الشاب بدار (السوباشاة) التي بباب زويلة بعد مقابلة الباشاة، ويقال: إن النزول في هذه الدار عادة لهم.

وفيها كان مُهِمُّ زواج ابن مصطفى باشاة مصر على ابنة إسكندر باشاة مصر سابقاً، واجتمع الجم الغفير لذلك بالميدان الذي هو مجاور للرملة، ونُصِبت خيام كبار مُدَّت فيها الموائد، وتغالى الباشاة في عمل الإحراقات المتنوعة الصور، منها صورة الفيل، وسائر الوحوش والطيور والإنس والجن، ومُدَّت هذه الصور بالشارع الأَعظم، بحركات صُنِعَتْ لها، ومعها من الطبول والزمور والخزعبلات ما اجتمع للفرجة عليه غوغاء أهل مصر وعامتها، وقبض (السوباشاة) لحمل هذه الصور ولشحنها بالطرقات من المارين بالشارع مع الضرب والإهانة لهم إلى محل عملها بالميدان.

وهذه الإحراقات التي تجردت في زمننا عند عمل الأفراح والولائم الكبار، لم تكن تعهد قبل ذلك إلاَّ في تَحِلَّةِ القسم في بركة الحاج، لياليِ رحيل أُمرائه من البركة، وفي بعض المهمات، وفي الحقيقة إن فعل ذلك من تعلقات الحرب، فَإِنَاطَتُهَا في عمل الأَفراح والولائم فيه من عدم المناسبة ما لا يخفى، خصوصاً وقد بالغوا في هذا الزمن، فمشوا بالنفط مع العريس، والمظاهر في حالات الزفف ليلاً بين المشاة من أعيان النَّاس وغيرهم، فيثور بِسبب ذلك من الدخان الذي ينشأُ عن النفط ما له رائحة كدرة منكرة، يستقذرها من له أَدنى معقول، مع ما في ذلك من الضرر الحاصل

من النوع المسمى بالصواريخ التي تُرْمَى، وتقع بغتة، فربما فقأَتْ عيناً أو أَدَّتْ في بدن أَو ثوب، وهم مع ذلك يستبيحون هذه الأفعال، ويتفاخرون بها في هذا الزمن، وربما أَكثروا من التعاليق بأَعداد القناديل مع ذلك، وجعلوا ذلك في الشارع الأَعظم، وأما [....][1] التي [....][2] إلى محل أَفراحهم، ومثل ذلك من الإسراف الذي لا طائل تحته، وربما تشبّه بالمجوس في كثرة إشعال النيران وهذا معدود من البدع الفاحشة، وليس من اللطف في شيء.

وفيها في غرة شعبان المكرم ورد حكم شريف على يد شاويش من باب السلطان، يقضي بمنع المنكرات والمسكرات والمحرمات، وبغلق أبواب الحانات والخانات، وإبطَال أَسواق الفساد إلى الكساد وزجر مَن اشتهر بها من العباد، ومنع استعمال القهوة والتجاهر بشربها، وهدم كوانينها، وكسر أَوانيها، وردع باعتها وذويها، والتشديد في بيعها، ومنعها إلى الغاية، والتحريض على ذلك إلى النهاية، وركب لذلك (سوباشاة) القاهرة وصاحبنا قراكر (؟) أحد أمراءِ (الجاويشة) بالديوان الشريف، ومعه طائفة من العسكر يمشون بركابه لمنع الباعة، والتجسس على مَن عنده من القهوة أدنى بضاعة، فكانت [.....][3] المبالغة [.....][4] المشروبات القهوة التي أحلها الشارع، إذ هي داخلة في عموم قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥] الآية، فتقرر بذلك أن أَصلَ كُلِّ مطعوم من نبات وغيره الحلُّ إلاَّ ما استثناه الشارعُ بالنَّصِّ، أَو أَدَّى إلى ضَرَرٍ في بَدَن أَوْ عقل، دون ما حرّمه الله من المحظورات كما [....][5] هي عادتهم، وكان العسس على الفحص وبيوتها وباعتها شديداً جداً، وضربوا وأَشهروا، وهدموا البيوت، وكسروا أَوانيها المحترمة الطاهرة التي هي مال لرجل مسلم، يحصل بها وبثمنها الانتفاع، ولم يبلغنا فعلهم مثل ذلك في أَواني الخمر والبرش، والحشيشة، واستمروا على ذلك وقتاً دون وقت، ثم أَذنوا لباعة البرش والحشيشة في فتح حوانيتهم، وبيع ذلك من غير نكير، وتعللوا بأَن منع بيع البرش يؤدي إلى هلاك آكله إذا عدم وجوه، وأَما بيع الخمر فهو فاشٍ من غير تحريم شديد إلاَّ كَتَحِلَّةِ القسم، معللين ذلك بأَن منعه يؤدي إلى إبطال المقررات السلطانية التي على باعته، وذلك محظور، إذ مال السلطان مقدم على غيره عندهم، وقلت في معنى ذلك:

(١ ـ ٥) بياض في الأصل.

منعوا القهوة لا عن حرمة بل لوصف وتواصوا [....][1]
وحكوا زوراً من القال ولم يهتدوا للشرع من ذلك [....][2]
واعتنوا بالبرش في ترك ولم يمنعوه مُذْ رَأَوْا فيه الحشيشه
رَبِّ سَلِّمْ أَنْ يُبِيحُوا في هَوى وَضل مَحْظُورِ لِصَبٌ فِي عريشه

وقلت حين أُجْهِر النداءُ بإبطال المنكرات والمحرمات والاجتماعات على ذلك:

سلطاننا عين ملوك الورى [....][3] بالخير كما هو [....][4]
قد أبطل القهوة [... ...[5] ... ...] يوجب المفسده
وشدد التحريج في فعلها [... ... ...[6] ... ...] أرصده
له أداءُ الفرض [... ... ...[7] ... ...]
والكشف في الأوقات تارك للفرض أو معتمد موجده
وعن بنات الفحش في [....][8] القرية [... ...[9] ... ...]
ينهى عن المنكر [... ... ...[10] ... ...]
رب أدم بالخير أيامه [... ...[11] ... ...]

وقلت معرضاً:

لا بدع أن [....][12] سليمانا [....][13] عن أب الشياطين
عن المنكر
ولا ينل
الخير
رب أدم أيامه للورى وافتح له نصراً بتمكين
ومن يلي..
وأكفنا يا ربنا أمر [....][14] واصرفه للهند أو الصين

وقلت:

قد منع المنكر سلطاننا أثابه الله على فعله
والجهر بالفسق وأنواعه [....][15] إلى شكله
وطاف [... ... ...[16] ... ...]

(١ ـ ١٦) بياض في الأصل.

وهدم حانات بها منكر | ونفى مَن خالف في أمره
قوم من العسكر في رتبة | مَن يمّموه هان في أهله
قضية عمّ بها ملكه | لا زال يبدي الدين في قطره

والقهوة قد اشتهرت في عموم الأَقطار والأَمصار، وتفننوا [....][1] لا كما وضعت له، وهو السهر في مجالس العبادة والذكر وقراءة القرآن، كما هي في أَصل نشأَتها على يد العلماءِ والصلحاءِ، أَهل الحقيقة والشريعة بالأَقطار اليمانية، بل إِنما يستعملوها في الغالب أَهل الخانكات، وفي اجتماع الجماعات، إِلا أَنهم يزعمون أَن تواتر شربها يحرك عندهم في شهواتهم (؟) خصوصاً إِن كان عادة أَحوال البرش التي اشتهر الابتلاءُ به وعم، وصار مستحبًّا لمن اعتنى به في [....][2] وعقله وقواه وماله الجم، وكثر جدًّا من بعد سِنِي الأَربعين، وفسدت به أَحوال كثير من غواته ممّن استهوتهم الشياطين، وكان الأَوْلَى بتأْكيد القول في حرمته، والفتوى لما يشاهد من فساد عقول مستعمليه وأَحوالهم، وعموم البلوى، ولعمري لو ظهر في عصر النبوة لكان أَمر التحريم فيه شديداً، ولكان بينهم وبين [....][3] أَمداً بعيداً، فما ظنك بفاحش [....][4] يبين بالأَموال، وأَن [....][5] بأَن [....][6] والروح، [....][7] وتلوح، والعجب من التظاهر باستعماله، والاعتماد بما يبدو من رذائله ومفاحش أَحواله، فإِن المغالطة في الحشيشة وفيه، والتغاضي عن بيعها واستعمالها غير ممكن تلافيه، فإِذا شربت القهوة ـ كما ذكرنا (؟) ـ من مخالطة وصف خبيث، كما فشا الاجتماع عليها في البيوت و(الخانكات) في هذا الزمن، وعمت به البلوى وتواتر المحن، من الانهماك في حانات ولهوهم على ما يؤثر في فسادهم ومحوهم (؟)، متصفين بقبائح أفعالهم الشنيعة، وأَحوالهم المخالفة لأُمور الشريعة، كخلط القهوة بالحرمات، وإِدارتها كالمسكرات، والتوسع في الغيبة والنميمات، وقذف أَعراض المحصنات والمؤمنات، وانبعاثهم في اختلاق الأَكذاب التي لا حقيقة لها، وباطل الإِشاعات، وما لا خير فيه من الأَعمال والمقاصد القبيحات، فلا خلاف في حرمتها بتلك، فَأُولئك الذين حبطت أَعمالهم، وتمت أَوزارهم والسيئات، ويجب على ولاة الأُمور ردعهم وزجرهم ومنعهم من خبائث هذه الاجتماعات، ولهذا المنفرد والمجتمع على شربها، السالم من شوئاب أَفعال المخلطين في دَأْبها، فلا يمنع من استعمالها سواءٌ كانت مستعملة للاستعانة على العبادة أَو أَمر مباح، كسفر في صناعة

(١ ـ ٧) بياض في الأصل.

أَو نشاط في عمل مباح، لأَنها حينئذ من أَحل الحلال بالنص والإِجماع، ومَن زعم أَن شربها منفردة يسكر أَو يغير فقد افترى بهتاناً، وإِثماً عظيماً.

وقد أَلفت في حلها مؤلفاً فريداً في بابه، وسميته بـ«عمدة الصفوة في حل القهوة» وبينت فيه النَّص بالحل الصريح، وبطلان قول المخالف لذلك ممّن هو لشربها غير مبيح، فليراجع ثمة، ففي مطالعته كفاية لمن رام الوقوف على إزالة شبهة القائلين بحرمة شربها منفردة، ولا يحتمل هذا المؤلف الإِطالة في معنى ذلك إِذْ لم نضعه لهذا المعنى (؟) وقلت في حلها وإِطرابها شعراً:

أَضَوْءُ أُنْسٍ بَدَا يَهْدِي لِذي كَرَم ... أَمْ نَارُ قَهْوَةِ قِشْرٍ فِي دُجَا الظُّلَم؟
موضوع صفوة أَقوام قد اجتهدوا ... في حفظ أَوقاتهم ليلاً على قدم
فانهضْ إِلى حانِها، واشهد مَنَصَّتَها ... والمم بكاساتها إِلمام منسجم
فيها منافع لا إِثْمٌ يمازجها ... ولا تَصُدُّ عن الطاعات أَوْ تعصِم
ولا تُخَذِّر كَالأَفيون إِنْ شربت ... أَو كالحشيش وما فيه من النقم
ولا كَبَرْشٍ يُؤَدِّي مَسْخَ مدمنه ... في الذات والعقل والأَحوال والشيم
سمراءِ لا تنزل الأَكدار ساحتها ... تَشْفِي من النَّوْمِ أَو عِرْقٍ بذا نعم
وللحصاة مع الإِدرار ثِقْ بشفا ... وللصداع ففيها أَيُّ معتصم
تنشف البلة الرّطباءَ في مِعَد ... وللبلاغم قُلْ ما شئت إِن تدم
وفعلها في بواسير تداوله ... أَهلُ التجارب حتى صار كالعلم
وفي الجماع لمرطوب المزاج تزد ... حتى يرى ذاك في فعل وفي عدم
تفيد في اللون إِشراقاً حرارتها ... وتذهب الغم في بدءٍ ومختتم
لا عيب فيها سوى تنشيط شاربها ... وفي العبادة مفتاح لذي الهمم
يفعلها في نشاط لا يعادلها ... فيه سواها ومشفاة من السقم
أَكرم بها من شراب طاب مورده ... إِلْهَامُ آل طريق الله إِن ترم
حلو نكاهتُها مُرٌّ مذاقتُها ... حِلٌّ مساغتها في الحكم فاحتكم
بها من البسط ما يعنون مرتحة ... وهو ارتياح لنفس الشارب النهم
وخفة عند أَسباب تعالجها ... مع اقتدار على الأَعمال بالهمم
إِن قلت فيها حرام وهو مجتنب ... قلنا: المضرة فيه أَيسر القسم
فتور أَعضاءِ مُدْمِنِهَا إِذا فُقِدَتْ ... فَإِنْ وَفَتْ آب ما قد كان من عدم
وإِنْ تصفها بِيُبْسٍ للمزاج فقلْ ... كل الكثير عدو الطبع بالسقم

فدع مقالة مَن قد ظلَّ يمنعها ... بحرمة ولشرع عن هداه عَمِي
ولا تكنْ عن أُصول الشرع في دهش ... فالحق يظهر من معنى ومن كلم
والأَصل في مطعم حِلٌ بلا شَبَه ... فيما عدَا النص كالميتات أَو كدم
وزعمه أَنها كالخمر مسكرة ... عنادُهُ ظاهرٌ فيها بلا وهم
إذْ لَمْ يُرَ شاربٌ منها يُعَرْبِدُ أَوْ ... يميل سُكْراً بقول غير منتظم
نعم إذا اقترنت بالوصف أَو جمعت ... فواحشاً فاجتناب غير منفصم
وحيث شيبت بمحظور تعاطيها ... محرم لا لذات فاصغ واستقم
وادخلْ لِحاناتها واشربْ وكن لهجا ... بالذكر فيه طريق الصادق الفهم
واسْتَجْلِ في خَانِها واغنم مَسَرَّتَها ... في مجلس صادق للّه ذِي الكرم
مع البخور أَو الريحان في ملأٍ ... تدفع بدعوتهم ما خفت من نقم
ولا تكن بالحديث اللهو مشتغلا ... ففي البطالة أَنواع من الوصم
وقل بها في عبادات وفي سهر ... وفي نشاط وفي علم وفي حكم
فإنها الحلُّ ما دامت منزهة ... عن الخبائث في حل وفي حرم
وكل مَن رام إعداماً لمشربها ... فقد تعرّض للبلوى وللعدم
لأَنَّها نخبة السادات في سهر ... كشاذليِّ المحاذي (؟) الدين والقدم
وكالمُساوي وكالشَّيخين في يمن ... هما المزجِّد والريحان في أَمم
وقلَّ مَن عادها إلاَّ وقد وصفت ... لدائه فغدت تشفيه من أَلَم
قد قِيْل: إنَّ بها سر الوليِّ فدع ... ذكر النقيصة بالتسليم واستلم
وكنْ بها جذِلاً وانجحْ بها عملا ... ولا تكن كسلاً في ساحة الندم
فقد جلوت عروس الشرع وانقشعت ... غياهب الشكِّ عن نور من الرقم
ثم الصلاة على المختار من مضر ... خير البرية من عُرْبٍ ومن عجم
لابن الجزيري يا مولايَ جُدْ برضَا ... واغفر له يا عظيم العفو والكرم

وقد أُلف فيها من أَهل العصر بمكة والقاهرة وغيرهما مؤلفات، منهم مَن سلك منهج الصواب، المجرّد من هوى بغض وحب ظهور ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] وأطنب الشعراءُ في مدحها، وحلها نظماً على اختلاف القوافي والرَّويِّ، وفيما ذكرنا هاهنا كفاية، وبهذه الصبابة غناية.

وفيها ورد على باشاه مصر أَخبار عن ملك الفرنج البنادقة يتضمن مكاتبة يذكر

فيها حدوث أَمْرٍ سماويٍّ عجيب في هذه السنة، وهو أن السماءَ أمطرت دماً عظيماً أحمر، مدة ثلاثة أيام حتى سالت أوديتهم منها، ثم ظهر في الثالث صورتان عجيبتان يتقاتلان بين السماءِ والأرض كل صورة ترمي على الأُخرى شهباً وسهاماً [. . . .][1] فإذا سقطت على الأرض ينقلب لونها إلى الصفرة، فيصير رميها كالقصر [. . . .][2] ثم ظهر بين الشخصين نجم (؟) في مقدار القمر ثلاث مرات، وصار يرمي على الشخصين المذكورين، إلى أن افترقا، وارتفع المطر، أَخبرني بذلك ترجمان قاضي مصر، كمال الدين الشاميّ شاهد المحمل في سابع عشري شعبان المكرم، ثم سمعت الخبر متواتراً على الأَلسنة فكان من أعاجيب الأَخبار.

سنة ثمان وستين وتسع مئة: وفيها كانت واقعة أَولاد غفير البرالسة بخط بولاق، مع المعلم عبد الرحمٰن ابن القاضي الخشاب، وشكايتهم إلى مصطفى باشاة مصر، وحسن قاضِيْها، وقذف أَعراضهم بما يخرجهم عن الملة الإسلامية من استحلالهم الحرام والزنا بالمحصنات، وأَخذ أَموال النَّاس بالباطل، والزور والغش للمسلمين، في مبايعاتهم وأَقوالهم وأَحوالهم وجمعه لأُناس عديدة بالقصص المتنوعة بأَحوالهم إلى الديوان السلطاني وتكبير الوقاحة عليهم في كل محل فأَمر الباشاة بإجهار النداء عليهم والتفتيش على أَحوالهم فَفُعِلَ ذلك، وأُخِذَتْ أَموالهم، إمَّا لرد ظلامة أَو لبلص وغرامة، ثم أُشهروا على [. . . .][3] بحالة شنيعة من كيِّهم بالنار في جباههم، وتسويد وجوههم، ووضع الكروش على رؤوسهم، وغير ذلك. وطيف بهم بشوارع مصر والقاهرة وبولاق، على هذه الصفة، وأُجْهِرَ النداءُ بعدم معاملتهم، وسماع دعواهم بالمحاكم، والحكم لهم على خصم، واجتمع لرؤيتهم الجمُّ الغفير، وحُشدت النَّاس من كل أَوب ومكان، لذلك، وكان السبب في ذلك أَنه كان تعصب عبد الرحمٰن القاضي لشخص كان عريفَ العتَّالين تلامه (؟) وتعصب أَولاد غفير لشخص آخر، وقوي جانب عبد الرحمٰن، بمقتضى أَن حسن قاضي مصر حلَّ وقفيَّة المنزل المعروف بالبراعية (؟) واشتراه بثمنٍ بخسٍ، وهدمه، وأَنشأه بعمارة جليلة على ما هو عليه الآن، وأَخذ من عبد الرحمٰن الخشاب ما احتاج إليه من أَصناف الخشب، على يد زين الدين بن شهاب، خولي السواقي السلطانية، وهو مِمَّن تَعَدَّى طوره جدًّا، وتقرّب إلى خواطر الأَكابر، وأَهل الدولة، بما يحمله إليهم، ليروج أَمره عندهم، وكان هو المتولي للعمارة المذكورة، وهدم بسببها أَماكن من جزيرة الروضة،

(١، ٢، ٣) بياض في الأصل.

ما بين [.....][١] ورخام وأَحجار بغير عِلْمه ملاكها، وحملها إِليها في السفن ليلاً تقرُّباً إِلى خاطره، فاستعدى القاضي على خصمائه، وبذل له ما أَحَبَّ، وكذلك للباشاة، وساعده على ذلك، وورود الحكم في غرة شعبان من السلطان بإِبطال المظالم والمنكرات، فكان ذلك طريقاً إِلى إِغراءِ ذوي الأَغراض للشكاية بالقصص ووقوع ما تقدم ذكره.

وركب عبد الرحمٰن معهم حالة الإِشهار يُوَبِّخُهُمْ، ويُغْري بهم العامة، والله أَعلم بحقيقة أَحوالهم، وبين يدَي الله تلتقِي الخصوم، ويقال: إِن عبد الرحمٰن بَرْطَلَ بمالٍ جزيلٍ أَهل الولاية على ذلك.

سنة تسع وستين وتسع مئة: فيها كان أَمير الحاج عثمان بن أَزدمر باشاه على حاله، وكان لما حضر إِلى القاهرة مع الحج الشريف بادر بتجهيز (أَرمغان) إِلى الباب السلطاني صحبة يعقوب جاويش، المتوجه أَيضاً في السنة الخالية، فتوجه من القاهرة في ثاني عشر صفر، ونزل في المركب المالحي من الإسكندرية في ثاني عَشْرَيْه، ولما وصل إِلى الأَبواب السلطانية برز بكتابة حكم شريف بولايته على الحاج على حاله، وأُنعِمَ عليه بزيادة علوفته عشرة آلاف نصف، تَمَّ له بها مئة أَلف وثلاثون أَلفاً من الفضة السليمانية في كل سنة، عنها من الذهبِ البندقي، والجديد ثلاثة آلاف ومئة وسبعون ديناراً، ومن الفضة ثلاثون نصفاً، وكان وصول يعقوب جاويش إِلى القاهرة بذلك من طريق البحر، في يوم الجمعة حادي عَشْرَيْ جمادى الأُولى، ووردت عليه الأَكابر للتهنئة بذلك في ذلك اليوم، وكان تاريخ كتابة تذكر الْمَغَلِّ عادة إِمرة الحاج في يوم الاثنين من عَشْرَيْهِ، واستقرَّ في الإِمرة على غير حالة إِصلاح لسلوك الدرب الشريف بمقتضى قطْعِهِ لعوائد العربان، ونفورهم منه بسبب ذلك، وعصيان أَكابرهم عليه، والله المسؤول أَن يؤمن وفده من شر الأَشرار، وكيد الفجار.

ومن مُتَجَدِّداتِ هذه السنة بالقاهرة: عزل القاضي حسن عتيق رسم باشاه، من قضاءِ مصر، وولاية عرب زاده، المدرس بمدرسة السلطان سليمان عوضه، وورد المتسلم من جانبه بَحْراً من طريق إسكندرية، في يوم الثلاثاءِ ثلاث عشري ربيع الأَول بغتةً، فلم يشعر القاضي حسن إِلاَّ وقدْ ورد عليه خبر العزل، وكان حَكَمَ بالديوان في يوم الأَحد من الشهر المذكور قبل خبر العزل بيوم بقتل شخص متسبب بالأَسواق ادُّعِيَ عليه أَنه سبَّ الشيخين رضي الله عنهما فبلغني أَنَّ مصطفى باشاه بمصر سأله عن

---

(١) بياض في الأصل.

الشيخين في مجلس الديوان فذكر الترضي عنهما، فتعصب عليه جماعة، وأَغروا به وقطعوا كلامه، وقُتِلَ ضَرْباً من الغوغاءِ والمتعصبين بالسكاكين وغيرها، وسُحِب من القلعة في رِجْل جَمَلٍ، إلى باب الصالحية النجمية، فَأُجِّجَتْ له نارٌ تجاه الباب بالشارع، وأُكْثِرَ من نقل الأَحطاب والكبريت والزيت وأُلْقِي في النار، وصُبَّ عليه من الزيت، وأُحرِق حتى فني الرماد، ولم يبقَ إلا النزر.

وأَخبرني صاحبنا يحيى الرفاعي من تجار سوق خان الخليلي، أَنَّ في الليلة المقبلة من إحراقه بَيْنَما مؤذن المدرسة الناصرية في حال نومه، إِذْ رأى رسول الله ﷺ والشيخين جلوس (؟) عن يمينه وشماله، إذ أَقبل رجل مسدول على رأسه إحرام، حسن البياض فتبسّم ﷺ في وجهه، وأَجلسه بينه وبين الإِمام أَبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ولاطفه، وقال ما معناه: هذا المقتول ظلماً، الشك في لفظة من الْمُخْبر، وأَنَّ المؤذن توجه إلى قاضي مصر، وأَخبره بذلك، فوجم لذلك، وكان كثير الاعتقاد في صدق المؤذن ودِينه وأَمانته.

ولما حضر المتسلم جلس بالمدرسة الكاملية دار الحديث بين القصرين وأُذِنَ للبدر بن يحيى القرافي المالكي في الجلوس عنده، ثم أَذِنَ لصاحبنا الشيخ عز الدين المجولي الشافعي في جلوسه عنده أَيضاً، وكان تقدّم له محنة كبيرة مع القاضي حسن، بواسطة الغيط الذي أَصله عمالة داود باشاه ببركة الحاج، وادَّعى زين الدين بن شهاب خولي السواقي السلطانية أنه هو الْمُنْشِيءُ له دون داود، وأُحْضِرَتِ المستندات الشرعية من الجانبين إلى الديوان السلطاني، واتهم الخوليُّ الشيخَ عِزَّ الدين بتزوير مستند داود الذي بيد (كيخيته) بيده كان، وهو الشهابي أَحمد المدعو حاجي (كيخية) وأُمر بالشيخ عز الدين إلى السجن، فأَقام به أَياماً، وطُلِبَ يوماً من السجن طلباً عنيفاً فظنَّت العامة أَنه أُريد تعزيزه، فاجتمع الغوغاءُ من كل جهة، فَأُعِيد من منزل القاضي إلى السجن سالماً من كيده، بعد أَن رَدَّ سؤال القاضي ردًّا عنيفاً، ثم اجتمع أَكابرُ علماءِ الشافعية بمنزل قاضي مصر، وتكلموا في عدالته، وأَنه لم يُعْلم منه ما ينقص العدالة، وضمنوا عليه في إطلاقه، فأَمر بذلك، واستمر بمنزله بالصالحية النجمية مدة مطولة أَودت بحاله، وشكا منها ضعف حال عياله من الفقر، فاتفق من أَلطاف الله تعالى أَن القاضي طلبه، وفوّض إليه القضايا بباب زويلة قبل عزله بجمعة. ثم نقله المتسلم إلى مجلسه بالمدرسة الكاملية، لما اتصف به من المعرفة التامة في الأَحكام الشرعية، ومعرفة صحيح المكاتيب من سقيمها مع زهده في زهرة الحياة الدنيا، ونِعم الرجل هو فضلاً وعلماً وزهداً، ولنا به صحبة سنين كثيرة، ومرافقة في طريق الحجاز ـ أَحسن الله عاقبته ـ.

ثم إن المتسلمَ عزل جميع القضاة الذين كانوا بالمحاكم العديدة سابقاً، ما عدا محكمة بولاق والمحكمة التي بحضرته بالكاملية والصالحية النجمية، ومحكمة باب زويلة. ثم أذن لمحكمة خامسة بخط مصر الفسطاط لا غير، وذكر أَن القاضي المتولي أَمرَهُ بذلك، وأَنه أَمره بترك ثلث ما كان يؤخذ على الأَحكام الشرعية عند كتابة الحجة، وأَن السجل لا يؤخذ إلا من الدعوى الصحيحة الثابتة. هذا ما ذكر ـ ولله عاقبة الأُمور ـ.

ومن الحوادث حصول خصومة شديدة بين الأَمير أَحمد البرصوي أَمير اللواءِ الذي كان ناظر أَموال مصر سابقاً، وبين إبراهيم بن خذا وردي ناظرها الآن، أَدَّتْ هذه الخصومة إلى أَخذ شديد بينهما فإنهما تشاحنا وتشاتما، فأَفحش إبراهيم في إغلاظه بأَلفاظ شنيعة، لثقته بما جمعه من ولايته هذه، وظنّ أَنَّ ماله أَخلده، وترافعا في الديوان بحضرة مصطفى باشاة مصر، ومَنْ بِهِ، فلم يكن من الباشاة إلاّ العرض على السلطان بما ذكراه، فإنه من متعلقات الأَموال السلطانية، لذكر أَحمد أن إبراهيم في كل سنة يأخذ من أموال السلطان خاصة مئة ألف من الذهب، والتزم بصحة ذلك، والخروج من عهدة تفصيل إجادة وجاهته (؟) واحتاج أحمد البرصوي أنه صمّم على ما ذكره من المرافعة، وزاد عليها، وجهز عرضه إلى الباب بذلك، وكذلك إبراهيم، فلما وصلت العروض إلى الأَعتاب السلطانية، وبُثَّ ما فيها على الحضرة الخاقانية، برز أمره بعزلهما عزلاً شنيعاً، بأَن يؤخذ لواء كل واحد منهما، وتُقطع مرتباته من الخزائن، ويفتش عليهما، ويعرض ما يقع من ذلك على المسامع السلطانية، ونُدِبَ لذلك قاضي مصر الجديد المدعو عرب زادة، وشخص من أكابر كتاب الديوان السلطاني يدعى عبد الرحمٰن شلبي، يقال إنه كان (مقابلجياً) ثم كانت وظيفته بعد ذلك رأس كتاب الإنشاء بالديوان السُلطاني، وهو الذي يقرأ القصص على الوزير الأَعظم بالديوان، ثم ترشّح لولاية (الدفترداريةِ) بالباب، وأنه من أكابر أعيان (السناجق) وعلوفته في كل سنة أربع مئة ألف من العثامنة الرومية، وأنه من توابع أعيان الكتاب، فولاه النظر على أموال مصر، وكتابها، عوضاً عن إبراهيم بن المهمندار فأَرجف بذلك مدة، ثم ورد عليه خبر عزله في يوم الجمعة حادي عَشْرَي جمادى الأُولى، فَتَأَهَّبَ لمقاساة الشدائد، ومكابدة ما كان في غفلة عن وروده غاية من المكائد، وفرح بعزله غالب الخاصة والعامة [....][1] زمن ولايته عن صنائع المعروف والإحسان مع الجَمْع الجم، وبذاءة اللسان.

---

(١) بياض في الأصل.

وفيها أُشْهِر عَبْدٌ حبشيٌّ على جمل، ذُكر عنه أنه قتل سيده، وهو شابٌّ روميٌّ، فطيف به في شوارع القاهرة، وكُسِرَ بباب زويلة، فأقام يومين حَيًّا ثم قُتل ليلاً، ودُفن.

وفيها كانت وفاة عبد الله بن بغداد شَنْقاً بباب زُويلة في ليلة السبت المسفرة عن تاسع عَشْرَيْ ربيع الأَول بثياب من غير عمامة، بل نزل على رأسه عَرَقية بيضاء، وعليه فَرْجية من الصوف بعد أن قُبض عليه، وأقام مدة في الاعتقال بالبرج بقلعة الجبل، وفُتِّشَ عليه بإقليم المنوفية، وجُهِّزَ لذلك الأَمير حمزة بن إسكندر الذي كان أميراً على الحاج في سنة اثنتين وستين، والقاضي أحمد بن شعبان، وثلاثة قضاة من أعيان قضاة الأقاليم.

وأخبرني الأَمير حمزة من لفظه لما عاد، أنه ثبت عليه قتل ثلاثة نفر ظلماً ـ والله أعلم بحقيقة ذلك ـ وأُحِيْط على أمواله وغلاله وأثواره وخيوله، ورقيقه، فأخبرني شاهد الضبط لذلك أن جميع ما كتب [. . . .][1] اثنين وأربعين ألف دينار كبيرة، ثم إن الباشا زاد على ذلك احتياطاً ثمانية أكياس صارت الجملة التي كتب في تسليم الأَمير حسن بن حمَّاد المتولي بعد، خمسين كيساً ديوانية (؟) وأما أسْبابه التي هي بمنزله، وخدمه، فأُبيعت بسوق خان الخليلي، وخربت دوره، فوجد في محلٍّ عِدَّةُ جِرار من الفخار صغار القدر، عُرضت بالديوان وضُبطت، فكان داخلها خمسة وأربعين ألفاً من الذهب الجديد الوازن، وهو رابع مَن قتل من أمراء عربان المنوفية في مدة خمسة وعشرين عاماً، فإن والده حجازي بن حسام الدين بن بغداد قُطعت رأسه بالمحلة الكبرى، بدار مصطفى النشار كاشف إقليم الغربية إذْ ذاكَ في عام خمسة وأربعين وتسع مئة، في ولاية داود باشا، ثم وليها ولده محمد بن بغداد، وشُنق بباب زويلة بعد الاحتياط على موجوده، كوالده في العشر الأَخير من ربيع الآخر عام سبع وخمسين وتسع مئة في ولاية علي باشاة الذي صار وزيراً أعظم، ومن جملة موجوده سِتُّ جِرَار فخار كبار، من النقد الذهب، فيها من السلطاني والفرنجي خمسة، والسادسة من الذهب السليمي، ثم ولي أخوه عامر بن حجازي بن بغداد، فأقام مدة وشُنِقَ بباب زويلة في ولاية محمد باشا في خامس ربيع الآخر عام اثنين وستين، ثم ولي أخوه عبد الله بزيادة ثلاثين كيساً في المال السلطاني، واستمر إلى أن شُنِق في التاريخ المذكور، ثم ولي عوضه حسن بن حماد بن بغداد، وتأَسَّفَت النَّاس على

---

(١) بياض في الأصل.

عبد الله لأنه قُتِل افتياتاً، وكان من أعيان العصبة على قتله عيسى بن إسماعيل أمير عربان بني عونة بإقليم البحيرة، وإبراهيم بن (المهمندار) لأرضٍ كانت بينه وبين عيسى، ولقوله لإبراهيم لما اعْتُقِلَ، وطلب منه أمواله وأيقن بالقتل: أي مال أبقيْتَه عندي يا إبراهيم؟ وقد أخذت مني برطيلاً في سبع سنوات سبعين ألفاً من الذهب ـ ولله عاقبة الأمور ـ وبين يدَي الله تلتقي الخصوم.

وفيها عُزل عيسى بن إسماعيل من ولاية إقليم البحيرة، بتوجه ولد عمه حبلص إلى الباب السلطاني بحراً ومراجعته وتنقصه لعيسى، وذكره بكل قبيح ورذيلة، على التزامه وهو من النقد خمس وستون كيساً، وكان السبب في ذلك معاملة عيسى له بالعسف والنقص، وقلة العطية، كما يُشاع ذلك بين أقاربه، ويذكرون أنه طالبه بمال وحبسه، فتشفّع عنده ببعض الأمراء بمصر، فلم يقبل فحضر بها له، ولما أُطْلِق بعد ذلك توجه خلسة إلى الروم بحراً، ويقال: إن الذي أغراه على ذلك، وأعانه عليه بما هو عبد الله بن بغداد، فكان ذلك سبباً لقبول قوله بالأعتاب السلطانية [....][1] وقد زاد قَدْراً وافراً في المال السلطاني فعاد مظفراً منصوراً يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الآخر، وطلع إلى باشاة مصر، وعرض عليه ما بيده من الأحكام فألبسه تشريفاً مذهباً، ومرّ بالشارع العسكري، ومعه من العسكر مشاة وركباناً عدداً وافراً، وخلفه طبلخاناه الباشاه إلى أن وصل إلى داره بخط جامع قوصون، وسقط في يد عيسى بن إسماعيل غريمه، واستعدى حبص بالديوان بغليظ القول فلم يستتم لأمره [....][2] واستمرَّ عيسى أَمير لواء فقط مَأموراً بلزوم داره بالقاهرة المعزية، ممنوعاً من توجهه إلى إقليم البحيرة هو وأقاربه الذين هم عصبته كعامر أخيه، وأحمد بن دراز، وأشباه ذلك.

وفي يوم الأَحد ثالث عشر جمادى الأُولى، وُضِع ماماي كاشف البهنساوية والفيوم بالبرج مُغَلّلاً، بعد عزله من الكشف، والسبب في ذلك أن المذكور له رغبة في قتل النفوس المحرَّمة بغير حق، ونهب أموال الرعايا، كما هو مشهور عنه، ومعروف به، وكان دفع للباشا و(الدفتردار) ذهباً له مقدار كبير، على ولاية الإقليمين المذكورين، فلما استقر في ذلك لم يكن له دأب إلاّ النظر فيما يأخذه افتياتاً من أموال الرعايا، فتعدَّى من إقليمه إلى إقليم البحيرة، وصحبته عسكر في عدد وافر، وزعم أنه بإقليم البحيرة قرية تدعى سِيْوَا ـ بكسر السين وللياء نقطتان ـ وأهلها من ذوي المنعة

(١، ٢) بياض في الأصل.

والقوة، وهم عصاة على السلطنة بزعمه، فجرد نفراً من العسكر، ومعه ما ينيف عن المائتين من الْغَزْب، وقصد سِيْوا، فتحصّنوا بحصارهم، واستمر يحاربهم إلى أن ظفر منهم بعدد وافر، فقتلهم ونهب منهم جِمالاً وأموالاً، وظنّ أن فعله ذلك يروج عند أهل الدولة، فلما أرسل البشائر إلى الباشاة بما فعل كان ممَّن نَمَّ عليه وقبح فعله عيسى بن إسماعيل، وذكر للباشاة أن أهل هذه القرية أهل طاعة، وفي كل سنة يعطوني للمحاباة ثلاثة أكياس، و(للدفتردار) مثلها ولشيخ العرب محمد بن الخبير مثلها، وأن ماماي مُزَوِّرٌ مُفْتَرٍ على السلطنة بما يختاره، وأن ممَّن قُتل على يديه في رحلته هذه ثمانية وعشرون نفراً من صلحاء الفقراء المطاوعة، ويقال: إن جملة مَن قتله صبراً من أهل قرية سِيْوا مئة وخمسون نفراً، ولم يتم ذلك الكلام إلاّ وقد حضر أهل سِيوا إلى الديوان بالقصص، يطالبون بدماء أهاليهم وأولادهم وأموالهم، ويستغيثون من تفاحش أفعال هذا الخبيث وظلمه، فاهتاج الباشا و(الدفتردار) وأرسلا إليه أنه يتوجه من خارج (؟) إلى البهنساوية، ويرمي ما معه من الرؤوس المقطوعة ظلماً في البحر، ويناسي (؟) بدخوله مصر إلى مدة، فإن طلب من الغرماء [....][1] ففعل ذلك، ولما دخل القاهرة استغاثت الشكاة، وأكثروا من الغوغاء عليه، فقصد الباشا أنه يصالحهم بمالٍ فتمرّد عن القبول، فلما يئسَ الباشا منه خشي أن ينسب إلى الموالسة على الرعايا معه، فعزله وحبسه بالبرج، وولّى الأَمير عامر بن إسماعيل أمير بني عونة لإقليمي البهنسا والفيوم عوضه وذلك في رابع عشر شهر جمادى الأَول، فسُرّ عيسى بولاية أخيه، وأمدّه بفرق ومماليك وجهّز ما له من أغنام وسبقه معه إلى الإقليم، وولى علي بن أزبك كاشفاً بإقليم الفيوم من باطنه.

وفي هذه السنة تواتر ورود المناسر إلى القاهرة من ظواهرها كقنطرة الدكة والأَزبكية، والحسينية، وخط بولاق، وفي بعض الليالي شنقوا المقدم ليلاً ببولاق، وقتلوا من الغفراء عدة المرة بعد الأُخرى، وبلغني أنهم يولون من أنفهسم مثال باشاة، و(دفتردار) وقاضي عسكر، استهزاءً وخفة بحكام مصر بتلاشي أحوالها جدًّا، فقد تُوجد القتلى في الأَخطاط المرة بعد الأُخرى، ولم يعلم قاتل، ويذهب دمها هدراً، وأما النظر في أمر الحسبة على السُوقة، فأَمر ذلك بيد الباعة، يتصرفون في الأَسعار والأَوزان كيف شاؤوا، وقد ركنوا جميعهم إلى إعطاء الرُّشى للحكام، ورفعوا عنهم بواسطة ذلك التقدير والتحرير، فوصل السيرج إلى نصفين الرطل في الجمادين، ولم

---

(١) بياض في الأصل.

يسمع بمثل ذلك، واللحم الضأن في زمن الربع والخصب يباع كل رطل ومع عظمه بنصف، والجبن المقلي بنصف، والسمن فلا يوجد إلاَّ بمشقة في زمن الربيع، وقس على ذلك، وإن أجهر الحكام النداء بأسعار ظاهرة فلا تعمل السوقة بفرد من أفرادها.

وفي يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة، وردت مكاتبات من الأقطار الحجازية، على يد أحمد العقبيّ، من بني عُقْبة، وفيها من أخبار اليمن أن محمود باشا حاصر حصن النظاري، وضيّق عليه لخروجه من الطاعة، وفي مدة الحصار اتهم شخص من أعيان (الصناجق) هناك يدعى إسكندر فرماني بأنه كاتب النظاري وتواصل معه، وأنه يريد يخرج عيال النظاري من الحصن خفية، وقيل: إنه اطلع على أوراق مجهزة من النظاري إليه، تقضي الموالسة معه على السلطنة، فقرئت بالديوان اليمانيّ بحضور العسكر وأمر حينئذ بقطع عنقه فقُطع، وكذلك فعل بكيخيه وبأحدِ المقاطعجية بلا [. . . .][1] خيانة فقطع عنقه، وكتب إليَّ الشيخ محب الدين النهروالي قاضي جازان من بلاد اليمن يقول: وأما محمود باشا فهو في هرج ومرج، لأنه قتل بعض (الصناجق) وهرب بعضهم، وهو محاصر لشيخ عربيٍّ يقال له النظاري في موقع يقال له حصن حبٍّ، وهو محيط به، ولكن لم يظفر به إلى الآن، والعسكر في فناء عظيم، والحاصل أن في اليمن من الفتن ما لم يعلم حقيقته إلاَّ الله.

وأما أخبار الحجاز فاستمرار الغلاءِ المفرط بعد خروج الحاج من مكة في العام السابق، حتى أفحش جدًّا، فأخبرني أحمد القاضي المذكور أنه تَنبَلَ بَغْلُ بمكة فأكل الفقراءُ لَحْمَه من شدة الجوع والقحط، ووجد شَخْصٌ قد سلخ هِرَّةً ليأكلها، وأَنَّ عُرْبَانَ البادية في شدة بالغة من الْمَحْل بحيث أن بعضهم قصد ذَبْحَ ابنته ليأكلها فَشَقَّ ذلك على أُمِّها لما عِنْدها من الحنو فقالت: نصبر ونخرج نجول في البادية لعلنا نرى رِمَّةً أو شيئاً نسدُّ به رمقنا، ونترك البيت، ويقال: إنَّ البنت خرجت إلى الفضاء لتجمع حطباً بأمر أبويها، فإنهما أَصَرَّا على ذبحها وأَكْلِهَا، فلما أَنْ خرجت لتجمع الحطب وجدت بقرة وحشية قد اشتبك وارتبط قرناها بشجرة عاتية، فتوجهتْ بسرعة إلى أبيها وأَعلمته بِمَحَلِّهَا، فذهب واقتبضها وأتى بها وذبحها، فكانوا يأْكلون منها، وكانت فداءً لابنتهم، وهذا من غريب ما يحكى.

وكتب إليَّ صاحبنا الشيخ العلامة القطب النهروالىُّ مفتي مكة: أن الأَسعار بعد سفر الحاج كما تعهدونه في الموسم، وأَضَرَّ بالناس استمرار هذا الغلاء ـ والله يلطف

---

(١) بياض في الأصل.

بالمسلمين ـ ولم يَنْزل سعر القمح عن نِصْفَيْنِ القدح، مع كثرة الجلاب والسمارية (؟) لأَنَّ عُربان البادية كلها صارت تمتار من مكة، وتخرج قوافل القمح إلى بجيلة وغيرها من المواضع التي كان يجلب منها القمح إلى مكة قبل ذلك، فضاق الأمر بسبب ذلك على الناس جداً.

وفي كتب بعض أصحابنا أنه وصل من الهند مركب كبير، غاية في الكبر يعرف بالفتح، فبموجبه انحلت أسعار القماش إلى الغاية من أصناف سائر ما يَجِيءُ من الهند، وأخبروا أنهم كانوا خمسة عشر مركباً فالأَربعة عشر رجعت إلى الهند، وعرض ناخوذة المركب الفتح أن يعود إلى الهند، فجعل له التجار نَوْلاً آخر من بلد سُقُطْرَا إلى بندر جدة أربعة عشر ألف دينار ذهباً، وغالب ما في مركبه مغل، وفيه ألفان سندة من النيل الهندي، وثلاث مئة بندار (؟) من القماش، وأن لهم في البحر ثمانية أشهر.

وكتب إليَّ صاحبُنا العلامة محب الدين الحنفي النهرواليُّ قبل توجهه إلى قضاءِ جازان في وسط ربيع الثاني يقول: إن سألتم عن أَخبار الحجاز فقد نزلت الأسعار بعد تكرر الأمطار، وموت غالب أهل الحجاز، حتى أُخْبِرْت أَنَّ الطَّرْحَا جاوزت التسعة آلاف وفاة.

وفي ثالث المحرم عُزِل القاضي يحيى بن عبد الحق النويريُّ المالكي من القضاءِ، وأُعيد السيد الشريف حسين المالكي كما كان.

وأَخبروا أَن السيد أَبا نُمَيٍّ صاحب مكة قد نَقَهَ من ذلك المرض الذي كان اعتراه وهو في صحة وعافية.

وأَما أَسعار البلد فالأَردب القمح المكي بثمانية عشر ديناراً عنها من الفضة مئة وثمانون نصفاً، والسمن كل رطل بأَربعة أَنصاف وعثماني، وقد مَنَّ الله تعالى بالمطر الجيِّد في سائر جهات مكة، ومشتِ العينُ بعد نزوحها، والمرجو من فضل الله تعالى نفع ذلك المطر.

ومِمَّن توفي بمكة القاضي يحيى بن فاز بن ظهيرة الخطيب الشافعي، المتولي من المرحوم عبد الباسط بن أَيوب، ووفاته في شهر ربيع الأَول، كوفاة عبد الباسط في السنة الخالية، ولم تَطُلْ مدته في الخطابة، ومحمود بن جلال البرغشي، والشيخ عبد القادر بن علي بن الزين الشافعي، وضياءُ الدين ابن القاضي بديع الزمان الحنفي، وقاضي المدينة المنورة نعمة الدين روشن، الآخذ عن عبد الرحمٰن جلبي قريباً ولم تطل مدته.

ولم يزل انقراض أكابر مكة والحجاز متواتراً كغيرها من البلدان.

وفيها أُرْجف بحصول الطاعون بإقليم مصر، إرجافاً كبيراً، وذكروا أنه ظهر في إسكندرية، ووصل مُصَلى يوم الجمعة بها من الأموات إلى ستة وثمانين نفراً، وكذلك في البوادي حولها، وأخبرني الأمير عيسى بن إسماعيل أنه بدأ الطاعون بدمنهور - أيضاً - وَعُدَّ بها في يوم واحد ثلاثة عشر نفراً أمواتاً بالطعن، وأنه نَمَى إلى الحوش بإقليم البحيرة، وقصد بعض الأكابر أن يجهز أولاده، وكذلك جمع من اليهود والنصارى إلى جهة القدس والطور، فمنعهم باشاه مصر من ذلك، ويقال: إنه جعل على كُلِّ آدميٍّ خرج من مصر هرباً من الطاعون من جنس اليهود والنصارى ديناراً ذهباً، وإلاَّ فلا يَأْذن لنفر من طائفتهم في السفر، ولم يظهر بالقاهرة موت بطعن، وإنما فشا الموت في الأطفال والأولاد بمرض الجدريِّ، ومضى العشر الأول من جمادى الآخرة، ومن الشهور القبطية أمشير والناس على ذلك - والله لمسؤول أن يعم عباده بلطفه ورحمته -.

وفي سحر يوم الأربعاءِ السابع من جمادى الآخر ورد من قطنا (أولاقان) على فرسين مجهودين وأخبرا بوصول الأمير عبد الرحمٰن شلبي المولَّى عن إبراهيم، ناظراً على الأموال والكتاب، ففرش له المنزل المعروف بأزبك المكحل، خارج باب زويلة، وتهيأت الأكابر لملاقاته، وفي يوم الخميس ثامنه برزت أثقال القاضي حسن المعزول عن مصر بعرب زاده، وأخذ في التوجه إلى المملكة الرومية، وبرز من القاهرة في يوم الجمعة، ولم يمتعه الله عزَّ وجل بالمنزل الذي أبطل وقفيته، وهدمه، وجعله قصوراً عالية، ومنازل سامية، وهو مجاور للمدرسة الجيهانية ببولاق، وكان هذا المنزل مُعَدًّا في المدرسة الجركسية، وبعدها لنظر الأكابر من بني عثمان وغيرهم - فسبحان الذي لا ربَّ سواه -.

ومن الحوادث وصول شاويش باشاة بخدمة باشاة مصر بحراً في يوم السبت عاشر شهر جمادى الآخرة وأخبر أنه وصل في المركب التي كان بها قاضي مصر عرب زادة، الواصل إليها من الروم عوضاً عن حسن بن عبد المحسن المتوجه من القاهرة قريباً، وأن القاضي غرق بالبحر الملح، ومعه طائفة من (الطانشمانية) وقاضي إقليم المنوفية، المتولي جديداً عوضاً عن القاضي درويش المعين في سنة تاريخه لقضاء المحمل، وذكر أنهم لما ساروا من مدينة رودس ليلاً فثارت ريح عاصف، وكان قاضي مصر عرب زاده جالساً في مقعد المركب المجاور للدفة، وهو قطعة واحدة، ولم يكن يتقن التركية مع أمير المركب، فاقتضى الحال شدة ثوران الريح

فَقَوِيَ الموجُ، وجاءتْ موجةٌ عاتيةٌ مع الريح، أدخلت الماء إلى مُؤَخَّرِ المركب، ثم قويتْ فقلعت المقعد الذي كان فيه القاضي، ومَن معه، والدَّفَّةَ والرايس، لأنه كان عندها، ورمتهم إلى البحر، فغرقوا، وسلم مَن كان في داخل المركب، ومنهم (شاويش باشاة) المخبر بذلك، وذكر أن قاضي مصر لما ذكر له بالروم أن السلطان أنعم عليه بقضاء مصر، قال: ليس لي بذلك حاجة، فقيل له: لا يفيدك الامتناع فقد عَيَّنَكَ السلطان، ولا تسعك المخالفة، فقال: اللهم اجعل الموت سابق القضاء. فكان كذلك. فيقال: إنه كان رجلاً متديِّناً، ومن ديانته جعله لمعلوم الحجة ثمانية من الفضة، ونصفين للدعوى الصحيحة، وهذا المعلوم - وإن لم يكن له أصل شرعي - وممنوع تناوله على ما فيه، فكان قصده الرفق بالرعية في أحكامه، والناس متأسفة على فقده، واصفة له بالدين والتقوى، وبين مَن يصفه بالشدة والغلظة، فقد ذكر بعضهم مِمَّنْ كان في صحبته أنه صرح بالإنكار على الشيخ إبراهيم الصوفيّ، المدفون خارج باب زويلة، وأنه قال: إن دخلت مصر نَبَشْتُ قبره، وحَرَّقْتُ عظامه، وصرح بالإنكار على الشيخ العلامة جمال الدين محمد ابن شيخنا غوثِ عصره أبي الحسن البكريِّ الصِّدِّيقي الأَشعريِّ الشافعي فيما يظهره من زينة الدنيا، وأنه يقطع من معاليمه ما يزيد على كفايته بحسب العادة، هكذا قيل.

ولما ورد الخبر في يوم تاريخه طلب مصطفى باشاة مصر القاضي درويش المعزول عن قضاء المنوفية، والمتولي لقضاء المحمل في سنة تاريخه، وعَيَّنَهُ لقضاء مصر نيابة في مدة غيبة مَن يوليه السلطان، وأُعيدت جميع المحاكم وقضاتُها كما كانت عليه في زمن حسن بن عبد المحسن وقبله، وأُعيد مبلغ الحجة على ما كان عليه أولاً، وكذلك مبلغ الدعوى.

ويقال: إنَّ أمير اللواء في بلاد رودس عرض إلى الباب بوفاة قاضي مصر قبل عرض الباشاة.

وفي يوم تاريخه صُلِب بباب زويلة شابٌّ أمرد من طائفة (الإنكشارية) ذكر عنه أنه قتل ثمانية في أوقات متفرقة، ومنها في السنة الخالية شاب أمرد قتله بأحد بيوت القهوة، فَقُطِعَتْ (جامكيته) وأطلق، ثم إنه في ليلة تاريخه قتل امرأةً كانت تحبه، ويذكر أنها دفعت إليه سبعين ديناراً ذهباً، وأراد السفر مع ولد مصطفى باشاة إلى القدس فتهيَّأَ وذبح المرأة، ورمى بها في البئر بثيابها، وخرج في تلك الحالة يريد السفر، فأزال الله عنه ستره، وأُمْسِكَ وكُشِفَ عن المرأة فإذا هي ذبيحة، فأمر الباشاة بصلبه، واتفق قبلها بأيام أنَّ شابًا روميًا عُرف بالحرام والسرقة، فَأُمْسِكَ وقُطِعَتْ يَدُهُ، ثم سرق، فوضع في السجن مدة

كبيرة. ثم شفع فيه بعض أهل الخير، فَأُطْلِق من الحبس، فاتفق أنه سرق في تلك الليلة، ومُسِكَ بما معه فَأُمِرَ بصلبه فصُلب على باب زويلة أيضاً.

وفي العشر الأُول من شهر تاريخه، وجد رجل روميٌّ جسيم ظاهر الشيب وهو مقتول، ورُمِي في بركة الفيل، مربوطة أصابع يديه ورِجله، وقد قَذَفَ به الهواءُ والماء إلى جدار الأمير عثمان بن أزدمر باشاة، فطلب (السوباشاة) وكشف عليه، ولم يعلم قاتله، ولم يقع على خبره، فَأُخِذَ ودُفن، فما شاء الله كان.

وفي خامس عشر جمادى الآخر ظهر الطاعون بحارة الحسينية، والجامع الطولوني، وكثر الموت به وفشا بالقاهرة.

وكان دخول عبد الرحمٰن (الدفتردار) إلى القاهرة في يوم الجمعة خامس عشر شهر جمادى الآخر، بعد أن خرج لملاقاته أعيان البلد، من الأُمراء، ومَن له تعلق بالمال السلطانيّ، ومرَّ بشارع بين القصرين في موكب لطيف، وعلمه مفرود وراءه، والطبول على عادة دخول أكابر الولايات، ودخل بباب زويلة إلى أن نزل بمنزل أزبك المكحل، أقام به أياماً ثم ارتحل منه إلى منزل بالقرب من قناطر السباع، ولما صعد إلى الديوان في يوم السبت ثاني يوم دخوله فنزل عن ظهر فرسه على سُلَّم مَقْعَد الغوريّ الذي هو محل الديوان، ولم يكن ذلك محل نزول أمثاله، فأنكر العسكر ذلك، ففي يوم الأَحد عند حضوره إلى الديوان بادر إليه الأمير يونس (كيخية الجاويشية) وأعلمه أنَّ محل نزوله عن الفرس يكون بالقرب من محل جلوس البوابين ومجاوزتهم يسيراً، فنزل مِنْ ثَمَّ متكرهاً لذلك، لما عنده من التكبُّر المفرط.

ويقال: إنه أنكر على الباشاة ولايته لدرويش شلبِي نائب غيبة مَن يلي قضاء الديار المصرية، وقال له: كان الأَوْلَى إبقاء نائبه المتسلم عن ولاية عرب زاده بأمر السلطان، إلى أن يرد قاض مفوض الحكم، وفي قوله [....][1] الصواب غير أن القاضي المتولي قبل وفاته أمر بعزل غالب القضاة والشهود، وكان الباشاة قصد الإفراج عن القضاة والشهود والرسل، الذين أبطلهم متسلم عرب زاده، من المحاكم، واقتصر على خمس محاكم لا غير، فحصل عند المعزولين من الكرب ما لا مزيد عليه بسبب بطالتهم، فَأُعيدوا جميعاً إلى حالهم يوم ورود خبر وفاة قاضي مصر.

وكتب بعض الفضلاء من الشهود وهو الشيخ محيي الدين محمد الطلخاويُّ

---

(١) بياض في الأصل.

شاهد المحكمة بخط قوصون بخاطب القاضي حسن المعزول عن مصر لما منعوا من المحاكم، يقول له شعر:

الأَفَنْدِي مَوْلَى النَّدَى والعطاءِ ... شيخ الإسلام نخبة العلماء
حسن أوحد الزمان بن عبد ... المحسن الحميد الثناء
أنا داعٍ بقالبي وبقلبي ... في طوال المدى بطول البقاء
ثم إنّي أُبدي له بعض ما حلّ ... وما جلّ من عظيم البلاء
أكلتنا الذئاب يا مولاي ... وسقينا صِرْفاً كؤوس الرداء
لا تقل ما جرى علينا ـ أفندي ـ ... من بلاء يجل عن إحصاء
كانت النّاس في سرور وأمن ... وانتعاش وغبطة وهناء
دَهَمَتْهُمْ مصائب وهموم ... ليس تحصى ناهيك بالإحصاء
مُذْ تولّى بمصر قاضٍ قضايا ... ه أَضَرَّتْ بحالة الفقراء
من قضاة ومن شهود ورسل ... نالهم منه غاية الإيذاء
إذْ بداهم بالعزل من غير ذنب ... يا لها بئس فَعْلة شنعاء
وأتاهم ما لم يكن في حساب ... من شديد النكال والإنكاء
بُدِّلَ الصفو بالتكدر والأ ... من بخوف والضيق بعد الفضاء
كل يوم يمر كالعام طُولاً ... هل لقصر من طول هذا العناء
لو تراهم ما بين شاكٍ وباك ... بدموع ممزوجة بالدماء
من كهول ومن شباب وشيب ... وصغار وصبية ونساء
كلهم قائلون يا رَبِّ خُذْه ... قبل إيصاله كأَخذ القراء (؟)
أضرمت في قلوبهم جمرات ... ما لها في اللهيب من إطفاء
بعضهم باع ما له من ثياب ... وتردَّى من الرَّدَى برداء
وترى البعض باع أسباب بيت ... منفقاً ذاك في الغدا والعشاء
وتمنى الممات بعضٌ لضيق ... فهو ميت في صورة الأَحياء
فات بعضهم قوت يوم ... بات طاوي الحشا حليف الضناءِ
والذي كان راكباً عاد ماش ... وبكلٍّ قد ضاق رحبُ الفضاء
ربنا اكشف عنّا العذاب فإنّا ... مَسَّنَا الضرُّ يا سميع الدعاء
يا عظيماً يُرْجَى لكل عظيم ... يا عليماً بالسِّرِّ والنجواء
أَغْنِنَا عن سواك إنا أتينا ... والتجأنا إليك يا ذا العطاء

يا إلٰهَ السماء فرِّج ونفِّس كربنا أنت ملجأُ الضعفاء
وأغثنا وامْنُنْ بعود (أفندي) حسن ذي المناقب الحسناء
يا له من أجلِّ قاض قضايا ه بعدل ضاءتْ كضوءِ ذُكَاءِ

وحذفت ما زاد على ذلك من مدحه في القاضي حسن وولده أحمد شلبي، إذ لا محل لذكر ذلك هنا، وإنما ذكرنا هذه القصيدة لما حوت من شرح ضررهم بالعزل، وفقرهم وابتهالهم إلى الله تعالى أن يكفيهم، فكان كذلك، والله متولِّي السرائر، وهو العليم بما تكن الضمائر، لا إله غيره جلَّ وتعالى.

وفي سادس عشر جمادى الآخرة أُطلق مَامِي كاشف البهنساوية والفيوم، من الاعتقال إلى حال سبيله، وفيه عزل يحيى (السوباشاة) الذي كان محضر باشاة، وولي قريب عبد الرحمٰن شلبي (الدفتردار) الواصل صحبته بحكم من الباب.

وفي العشر الأُول من شهر تاريخه توجه عيسى بن إسماعيل أمير اللواء صحبة ولد مصطفى الباشاة، المتوجه إلى بيت المقدس، في ذكر أنه يزور بيت المقدس فظهر أنه توجه إلى باب السلطان، يشكو إليه حاله ومعه هدايا نفيسة لذلك، ولما حضر (الدفتردار) أرسل جاويشاً إليه يَرُدُّهُ إلى القاهرة، فعاد بغير طائل.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر رجب الفرد عزل عامر بن إسْماعيل أخو عيسى المذكور عَزْلاً شنيعاً من إقليم البهنساوية والفيوم، بواسطة شكوى محمد حبلص قريبه، أمير عربان البحيرة الآن منه.

وفي هذا الشهر فشا الطاعون بالقاهرة وأعمالها وحاراتها، وأفحش في منبوبة، من أعمال الجيزية، وتعدَّى فيها إلى بولاق، وإلى غالب أخطاط القاهرة.

وفيه ولي كاشف البهنساوية والفيوم (السوباشاة) المعزول قريباً عوضاً عن عامر بن إسماعيل بزيادة في المال والغلال، كما يقال وهو يحيي محضر باشاة كان.

وفي شهر رجب الفرد كثر المرض بالطاعون في سائر أخطاط القاهرة ومصر القديمة وبولاق، وأكثره في الأَطفال والمراهقين، وبعض الشباب، وفي الأَرِقَّاءِ وغيرهم من سائر الأَجناس، ورحل من القاهرة هرباً منه خلق لا تحصى، ومن اليهود، ومن النصارى، وبلغني أن الطاعون عمل في الفارين بغزة والقدس وجبل إطفيح وغير ذلك.

وممَّن توفي بالطاعون الأَمير قانصوه أبو شامة (دوادار) جانم الحمزاوي كان، والأَمير ناصف كاشف الشرقية وغيرها من المناصب، وتوفي ولده قبله بيومين وهو شاب، وصاحبنا الأَمير منصور بن حسن من أمراء هوارة بالوجه القبلي، وكان في

ذلك الأَوان سعى أن يكون أمير عربان هوارة، عوضاً عن قريبه محمود بن داود بن عمر ففاجأَه الموت، ولم ينل مراده، وشابٌّ من ذرية الملك الأَشرف أينال وأُمُّهُ من أكابر أولاد الأَسياد المنعوتين بهذه الشهرة، وسنه خمس وعشرون سنة، وصاحبنا أبو بكر بن محيي الدين يوسف، وعرف بابن أصبغ، وسنه نحو الثلاثين سنة مطعوناً في شهر شعبان، وكان والده توفي قبله في شهر رجب الفرد، ثم جاء الخبر بوفاة أخيه محمد بن أبي أصبغ، وكان بإِقليم الصعيد، ودفن فيه، وتوفي قبلهما محمد بن يوسف مطعوناً بعد أن توفي كأَبي بكر في العام الماضي بالطعن ثلاثة من أولاده، ذكور، أَسنهم عُمْرهُ ثمان عشرة سنة، وكأَنهم كانوا على ميعاد، وممَّن توفي صاحبنا حسين غلفه الرومي من عنقا فرحات (كلارجي) سليمان باشاة وأولاده وأخته، ولم يبقَ من أولاده سوى ولد مراهق فقط، وتوفي من الأَعيان أيضاً الأَمير رمضان ابن الأَمير خسروه، أمير اللواء كان والده، وتوفي باليمن، وكان رمضان المذكور قد تزوج بابنة أزدمر باشاة ودخل بها نصف جمادى الآخر من السنة فكانت وفاته في شهر شعبان الكرم، وتوفي محمد أخوه الذي كان (كيخية) الجاويشية بعده، ثم توفي ولد أخيه المذكر في شهر شعبان من السنة، وسنه اثنتي عشرة سنة، ولم يبقَ من ذرية خسروه سوى ولدٍ صغير من ولد رمضان سنة نحو أربع من السنين ـ ولله الأمر ـ.

وأكثر ما بلغت الأَموات بمصلاة باب النصر على ما حررته الثقات مئة واثنين وسبعين، وتناقص العدد فكان في أول شهر رمضان إِلى نَيِّف وأربعين، ودون ذلك، لكن ينقص يوماً ويزيد يوماً، ويكثر تارة ويقل أخرى، وتوفي في آخره محمد بن قاسم أمير العائد بالشرقية، وولد ابن باشاة مصر في يوم الجمعة ثامن عشر شهر رمضان، وناظر أوقاف الحرمين مطعوناً في يوم الخميس رابع عشري شهر رمضان، ومحمود بن حسن السراج بين الصورين قريب كاتبه، في يوم الجمعة خامس عَشْرَيه، مطعوناً أيضاً بعد أن قلّ الطعن بالقاهرة جدًّا ـ ولله الأمر ـ.

واستهل شهر شعبان المكرم وهو في زيادة ونُمُوٍّ، في كل يوم ـ نسأَل الله اللطف بالمسلمين ـ.

وفي العشر الأَول من شعبان ورد حكم للباشاة من باب السلطان بعدم التعرُّض لجميع ما كان وضع يده عليه حبلص بالبحيرة ومصر من معاصر عيسى بن إِسماعيل [. . . .][1] وشون النطرون، وعود جميع ذلك إِليه، بحيث لا يضيع له من ماله أدنى

(١) بياض في الأصل.

قيمة، وأُجْهر النداء بذلك بالقاهرة، وبرعايته وحمايته، ومَن يلوذ به ففُكَّ الختم عن شونة النطرون المتعلقة به، وكذا جميع جهاته، وذلك في غيابه بالباب السلطاني، فكان عند ذويه ومحبيه من الفرح والسرور ما لا ينحصر، ثم ورد عقيب ذلك أيضاً حكم لإبراهيم بن (المهمندار) - الذي كان ناظر أموال مصر، وعُزل، ورُسم بالتفتيش عليه كما قدّمنا ذكره - بولاية عين عرفة، وإيصالها إلى مكة المشرفة، وأنه يُعْطي لذلك من خزينة مصر خمسون ألفاً، ويقال: مئة ألف دينار، منها من متروكات رستم باشاة الوزير الكبير، بوصية منه خمسون ألف دينار من الذهب الجديد، ويرفع عنه التفتيش، فأُعيد إليه اللواء الذي أخذ منه، وكان عنده من التهاني ما لا ينحصر، ويقال: إنَّ إبراهيم أَرْشَى بنت السلطان بقدر وافر من التحف والجواهر، على أن تسْأَلَ (الخندكار) في العفو عنه على أن يكون معماراً للعين، ويكون المصروف من ماله دون مال السلطان، ولسبب ذلك أُجيب إلى العفو، بعد الجهد من (الخاصكية) ابنة السلطان، خصوصاً مسامحته بما ذكر عند أحمد شلبي خصمه، وهو من الذهب مئة ألف، وعُدَّ ذلك من تمام سعده، ومن الفرج بعد الشدة، فتهيأً لذلك، وعُمِلت لأَسبابه وللمعمارية مَرْكَبٌ جديد، ببندر السويس، يَشْحن فيها ذلك بعد خروج ركب المحمل من القاهرة.

وفيها عُزل يوسف عتيق الخواجا خضر بن عبد الله الرومي من نظر الدشيشة، وورد حكم شريف بولاية صاحبنا الأمير حمزة بن إسكندر المعزول عنها، فتسلّم مفاتيح الشون، ونقل إليه ديوان الدشيشة في أواخر شعبان المكرم، فكاد خضر أستاذ يوسف المذكور أن يموت كمداً وغيظاً، وأُشيع عنه أنه متوجه إلى الباب السلطاني لما بينه وبين حمزة المشار إليه من البغض والشنآن، والعداوة التي لا توصف بلسان، ولو تفكر خضر في شأن آخرته، وانقراض عمره مع ما جمع من الأموال ونظر في أمر المعاد والمآل، لأَعرض عن ذلك، وهان عليه ما هنالك ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وفيها عُرِض على باشاة مصر بالديوان السلطاني في ثالث عشر شهر رمضان مولودَانِ توأمانِ، كتف أحدهما ملتصق بالآخر، كأَنه كتف واحد، وهما كاملان الأَعضاء، موصولان ببعضها بعضاف، ولكل واحد ذكر وفرج، وعلى الأَليتين من كل واحد منهما قطعة لحم مسترخية، شبه ألية الضأْن، وليس فيهما روح.

وفيها استقر الأَمير محمد بن داود أمير عربان هوارة على جاري عادته، ولبس التشريف، وتوجه إلى الصعيد في ثاني عشر شهر رمضان، وهو مشكور السيرة، حسن الطريقة بين رعيته.

وفي هذا التاريخ تلاشى أمر الطاعون، وقلَّ فعلهُ جدًا، وكان بمصلى باب النصر إلى خمسة عشر نفراً، وذلك في أواخر أيام الخمسين (؟).

وأما أخبار إمرة الحاج فإن عثمان بن أزدمر باشاة اشتغل باللهو والفضائع، وحب المنكرات وترك مهمات الإمرة الضرورية وراء ظهره، ولم يُجَهِّز حمل البنادر في أوائل أوقاتها، فاتفق حصول الطاعون واشتغل الناس بما نزل بهم، وشردت عربان الحمل بما في أيديهم من الأَجر، وتعطلت أحوال هذه الإمرة إلى أول شهر رمضان المعظم، فاحتاج نقل حمل السويس الذي يجهز إلى جدة والينبع على جمالة في كرَّات متعددة، وحضر بعض العربان في النصف الثاني من شهر رمضان في وقت ضيِّق، وتأخر غالبهم، وذاق وبال أمره، وكان عاقبةُ أمره خُسْراً، ولم يُفَصِّلْ لأَهل الأَدراك عوائدهم من الجوخ، واستهان بأمرهم، وقطع صررهم ومرتباتهم، وبالغ في ذلك إلى الغاية، مع عصيانهم عن مقابلته، وبغضهم لسماع ذكره ورؤيته، وعامل جماعة المعاملين والخدمة بالخسف والحيف، والمناقصات في سائر أحوالهم، مع التكبر والبخل والتعالي في الشمم والتحجب، وازدراء الناس، مع تلاشي أحوال القاهرة جدًا، وعدم نظر باشاة مصر في أحوال الرعية، وأكل الناس بعضهم بعضاً بالباطل، وكثر البلص والتلفت إلى جمع الأَموال فقط، من سائر أهل الدولة؟ وتأخر حضور قاضٍ مولًى من باب السلطان، وأُشيع ولاية شخص يدعَى عبد الرحمٰن بن علي، كان حاكماً في جهة رُمِلِّي، تعين للديار المصرية بعد عرب زاده، وقلَّت المأكولات بأسواق القاهرة في شهر رمضان مع القحط المفرط [....][1] ومنها كالبطيخ والقرع والقثَّاء والخيار، وغالب المأكولات، وقلة السقائين الذين يحملون الروايا بحيث أنَّ الجاويشية وأشهر الأَروام وأهل الدولة يطلبون الماء بأنفسهم، ويقودون جمالهم بأيديهم، بعد الضرب والعسف، وبلغت الراوية وهي حمل الجمل من الماء إلى نصفين من الفضة، ولم يكن لذلك سبب إلاَّ إهمال الحكام أمر الرعية وتركهم أمورهم شورى بينهم، وإهمال أمر الحسبة جدًا بحيث أن ابن طبيلة المتولي لمكس الحسبة يُصَرِّفُ الأَسعار على [....][2] جمع فوائده إذْ لا آمِرَ لَهُ ولاَ نَاهٍ، مع الاختلاف الواقع بين مصطفى باشاة وعبد الرحمٰن شلبي (الدفتردار) والمباينة الشديدة في سائر أقوالهم وأفعالهم، ومعاكسة كل منهما للآخر فيما يريده، ويقصده، وعرض كل منهما للباب السلطاني في جانب النقيصة والمناقصة عما يريد ـ فما شاء الله كان ـ.

(١، ٢) بياض في الأصل.

وفي ثاني عشر شهر رمضان ورد كتاب من إبراهيم النصراني الصيرفي البحيري المتوجه في خدمة عيسى بن إسماعيل أمير عربان كان، وحُمِلَ إليَّ فَقَرَأْتُهُ، ومن مضمونه: وصول عيسى إلى مقابلة السلطان سليم بن سليمان بن عثمان بمحل ولايته ببلدة كتاهية، من ممالك الروم في ثاني عشر شعبان، واجتمع بأَخِصَّائِه، فقابل السلطان سليم، وأكرمه إكراماً زائداً، بحيث أنه طيَّب خاطره، وجهز إليه، وغيره (؟) على عادتهم في ذلك، وألبسه تشريفاً مذهباً، ويُحمل له ضيافة سنية، ثم برز أمره لوزيره أن يجلس مع عيسى ويحضر كاتبه، ويكتب عروضاً لوالده بجميع ما يختاره ويرومه من المقاصد، وجهز معه جاويشاً من خواصه إلى حضرة ديوان والده، وتوجه من عنده مكرماً إلى مقابلة الأَعتاب السليمانية، ثم ورد الخبر بوصوله إلى الأَعتاب السلطانية، وأن علي باشاة الوزير الأَعظم أنزله في بيت سليمان (كتخداي) سليمان باشاة كان، وذكر له أن السلطان مشغول بقاصد كزل باش، الواصل من عنده خمسة وعشرون حملاً من الذهب، وتجهّز للسلطان ولده (؟) فإذا تفرّغ الخاطر السلطاني من أمر ولده يكون خيراً.

وفيها جهز السلطان إلى كزل باش وزيره الخامس المدعو برثوة باشاة، وعلى يده هدية له بسبب قتل ولده بايزيد، وتسليمه للوزير يُمْضي فيه حكم والده، الذي برز أمر القدرة الإلهية به، فتوجه برثوة المذكور إلى الشاه، وملكه من السلطان بايزيد، فخنقه وأولاده، وسكن بذلك ما كان من القلقة في الممالك السلطانية، واستقر أَمر المملكة بعد السلطان سليمان لولده سليم في الظاهر، وأما في المشيئة فقل: ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وفي أَواخر هذه السنة حضر أحمد شقل (كيخداي) أَزدمر باشاة سابقاً، ومتفرقة السلطان الآن، بيده ـ على ما يقال ـ حكم لتجهيز جماعة من العساكر الخيَّالة إلى الحبشة، وحضر معه خمس مئة نفر من (الانكشارية) تجمعت من البلاد الرومية، فجهزت بحراً إليه، وكان السبب في ذلك أَنه أرسل عرضاً إلى الباب، ومعه بعض آذان وأُنوف من قَتْلَى الحبشة، يذكر في عرضه أَنه واجه ميناس النجاشي ملك الحبشة وناوشه القتال، وأَنه هرب منه ونهب (وطاقه) وذلك بمقتضى [. . . .][1] الحبشة نواب ميناس على بلاد السحرت، يدعى إِسحاق، غضب منه، وجاءَ إلى أَزدمر باشاة [. . . .][2] سلطانه، ومعه والده وثلاثة أُمراءِ أَعيان، من الحبشة، وولدان من أَولاد أَخيه ميناس، المدعو أَطناب سَكَّد وهو الذي كان النجاشي قبل أَخيه ميناس، فلما

(١، ٢) بياض في الأصل.

اجتمع بأَزدمر باشاة قوي عزمه، ثم وَلّى أحد الولدين اللذين مع إسحاق ملكاً على الحبشة صورة، واتفق أن ميناس كان خرج من كرسي ملكه لقتال الداموت، بسبب خلاف وقع منهم أيضاً، فإن ملكه تزلزل بسبب أن ميناس كان تقدّم له الدخول في دين الإسلام على يد مصطفى باشاة اليمن المعروف بالنشار، فكرهت النصارى ولايته عليهم خوفاً منه أن يكون الإسلام [....][1] مع ظهور بعض أفعال منه في حكمه اقتدى فيها بحكام الإسلام كالصلب وغيره، وهم لا يفعلون ذلك في أحكامهم، فلما عاد من قتال الداموت مَرَّ في طريقه على أزدمر باشاة، وإسحاق، ومَن معهم فيقال: إنه كان في ست مئة من الخيل غير المشاة، فخيّم تجاههم وكره مفاجأتهم بالقتال لقلة مَن معه، ولذلك هاب قتال أزدمر باشاة، ومَن معه كما قيل، وتخوّف النجاشي أن يَفِرَّ بغير قتال فيطمع فيه، فأقام أياماً على ذلك ثم احتاج (؟) أنه بدأهم بالقتال، فبرز له أزدمر باشاة بمَن معه، فتلاقيا وقتاً من النهار، ففرَّ النجاشي ومَن معه من الخيول، وتركَ بعض أثقاله فَنُهِبَتْ، وجمع أزدمر باشاة عند ذلك أُنوف مَن قتل وآذانهم، وجهزها كما ذكرنا، وحثَّ السلطنة على تجهيز العساكر للاستعانة على أخذ مملكة الحبشة، فإن ملك الحبشة الآن تَزَلْزَلَ بسبب اختلاف أُمرائه ونوابه عليه، وصار ملكه حال اختلال وانحلال.

ورأيت مع صاحبنا الشهاب أحمد شلبي كاتب يد عثمان بن أزدمر باشاة مكاتبة من والده الذي هو الباشاه ملخصها: أنه حضر إلى عندنا إسحاق وأبوه دِيْقَنَه ـ بكسر الدال المهملة وبعدها ياءٌ ساكنة تحتية، وقاف مفتوحة ونون كذلك ـ ملك السحرت، وثلاثة أُمراءٍ من أكابر الحبشة، ودخلوا علينا وصالحونا وطلعنا معهم إلى دواريه، ومنها إلى سراوي، ومنها إلى نفطره ـ بنون وفاءٍ ـ ومنها إلى عطاسي، وتوجهنا إلى الملاحة، ونحن الآن مقيمون بها، فإن أهل البلاد يقولون: إنَّ أجلَّ البلاد المملاحة لأنها معدن الملح، وهو عندهم في مقام النقود، متعاملون به. ثم قال: وكان مع إسحاق اثنين من أولاد الملك فملكنا للواحد منهم على الحبشة، وأعطوا ثلث الملك السلطان سليمان، واليوم بلاد الحبشة خالية مسيبة، بلا [....][2] فإنهم كارهون لملكهم ميناس كراهة شديدة، وسبب ذلك سيرته معهم. انتهى ما هو في الكتاب.

قلت: الذي يظهر أن اجتماع إسحاق، ومَن معه على أزدمر باشاه إنما هو كَيْدٌ، ليساعدهم على ذهاب الملك من يد ميناس لا غير، أو يكون خوفاً من ميناس

(١، ٢) بياض في الأصل.

لخروجهم عليه، فإذا أَمنوا من جهته كان الخلاف منهم على أَزدمر باشاة أَقرب قريب.

وبلغني أَن المولَى مع إسحاق وأَزدمر ملكاً على الحبشة صورة، يسمى إبراهيم، وأَنه ولد أَطناب سكد، الذي كان النجاشي قبل ميناس، والأَمر لله تعالى، وهو الفعال لما يريد ويختار.

وفي هذه السنة ولي قاسم أَغا عسكر المدينة الشريفة، ويلبغا إمرة لواءِ ونيابة زَبِيْد من ممالك اليمن، لأَنه عبد لعلي باشاه الوزير الكبير الآن وقدم إلى القاهرة، وتوجه منها إلى محل ولايته، وعزل الأَمير يونس (كيخية الجاويشية) وولي إمرة لواءِ نيابة جازان، واستقر عوضه في كيخية الجاويشية مَامَاي شهلا الذي كان (صوباشاة) سابقاً ولم تُحمد سيرته.

وفيها وردت الأَحكام السلطانية على مصطفى باشاه المملكة المصرية بولاية الأَمير عمر بن عيسى بن إسماعيل إمرة البحيرة عوضاً عن محمد حبلص، فألبسه الباشاه تشريفاً مذهباً، ومرّ بشارع القاهرة على عادة أَهل الولايات في موكب حافل، والطبول والزمور وراءَه، وركب معه جمع من (الجاويشية) وغيرهم مراعاة لوالده عيسى، ولإحسانه إليهم [....][1] ولكونه بالباب السلطاني، وورد الحكم أَيضاً بالقبض على محمد حبلص، وإيداعه في سجن العرقانة، فجهزت إليه فئة من (الجاويشية) وأَحضروه في الاعتقال والحديد على غير صورة مرضية، وأُجهر النداءُ بالتفتيش عليه بالإقليم عند اعتقاله وبالطريق، وبالديوان السلطاني، وتكرر إجهار النداءِ بالقاهرة أَياماً، مع إحضاره ماشياً في الحديد، ووقوفه في صورة الذل بالديوان، بعد أَن كان تمكن من الوصول إلى إيذاءِ عيسى بن إسماعيل بكل طريق، فلم يحضر للدعوى إلاّ أَهل المحاباة لعيسى، من أَهل الإقليم.

وبلغني أَن بعضهم كان يقول له: لا تؤاخذنا فيما ادَّعينا عليك فإننا مغصوبون، ولم يكن له كبير وشاك (؟) كما بلغني وإنَّمَا حضر الدعوى عليه بعض أَهل الأَغراض والتعصب، إما خوفاً من ملامة عيسى إذا حضر وإما محاباة له، وسجن بسجن العرقانة التي هي داخل الحوش السلطاني، وقُبِض معه على سليمان بن علي، ولد عمه لأَنه نسب إلى الغرض معه لكونه من أَولاد جويلي مثله، وسُجن بالبرج، ولم يُجْمع معه في سجن واحد، فأَقام محمد حبلص بالعِرقانة إلى أَواخر المحرم عام سبعين، وأَصبح أَهل القلعة،

---

(١) بياض في الأصل.

فوجدوا السجن مثقوباً، ولم يجدوا له خبراً مطلقاً، فأحضر الباشاه قاضي مصر، وكشف على محله من العرقانة، فوجدوا نقباً كبيراً وذكر أنه كان نقبه في السجن نَفَران من العربان، وأنهما أحضرا إليه تلك الليلة رأس غنم مَشْوِيًا، وأنه دس في بطنه [. . . .][1] والهروب، واختلفت الأقوال بسبب هروبه فمن قائل: إنه قتل بمباطنة عيسى للباشاه [. . . .][2] تسكيناً للفتن فإن الباشاه أخرجه ليلاً وقتله وأخفى أمره، وادَّعى أنه تسحّب، ونقب ذلك النقب صورة لا حقيقة، ومن قائل: إنه دفع مالاً له صورة باشاه حتى أخرجه تلك الليلة عشيًا في زيِّ الترك بداخل برنس، وتوجه لحال سبيله ومن قائل: [. . . .][3] حقيقة، وأنه هو الذي صنع النقب.

وعلى كل الأحوال فلم يظهر له خبر، ولا وقف على حقيقة غيبته ولم يعلم له أثر، واستمر سليمان بن علي بالبرج، إلى حضور عيسى قريبه من المملكة الرومية، وبلغني أنه أرسل أبوه علي إلى عامر بن إسماعيل، وإلى عمر المتولي يقول: أنا والده فإن حدث بولدي أدنى حادث كنت القاتل لك يا عمر أولاً، ولفلان وفلان، وسمي جماعة عيسى وأقاربه الذين هم من عنده، ويظهر لي أنه حيث ظهرت الفتن والأغراض، وذوي التعصب في الإمرة بإقليم البحيرة، فقد عادت إلى ما كان يحكى من أجنادها قديماً من الشرور والقتل، وتجرد التجاريد السلطانية لذلك في الدولة الجركسية ـ ولله عاقبة الأمور ـ خصوصاً وقد سئمت أهل الإقليم مدة ولايته عليهم، وكرهوا أحكامه، وهذه عادة الرعية في الغالب إذا طالت ولاية حكامها فإنهم يملونهم على كل حال، مع ما يشهر عن عيسى من الطمع في أحكامه، وزيادة البلص والجور في أحكام الجبايات، كما يشاع ذلك على ألسنة أهل إقليمه ـ والله تعالى هو الفعّال لما يريد ـ فسبحان مَن يدوم عزُّه وبقاؤه لا إلٰه إلاَّ هو.

وتواترت الأخبار من الواصلين من المملكة الرومية بولاية عيسى بن إسماعيل لإمرة الحاج، وأنه واصل من البرِّ، لأجل تقبيل يد ولد السلطان المدعو سليم في كتاهيه، فإنه كان سبباً في إعادة نعمته وخروجها عن محمد حبلص بمكاتبته لوالده.

وفيها جاءت الأخبار بهلاك إبراهيم البحيري النصراني الصيرفي بخدمة عيسى بن إسماعيل قتلاً، بمباطنة عيسى على قتله، وهو واصل من طريق الروم، فإن المذكور وقعت منه مرافعة في مال الإقليم، زمن علي باشاه بمصر، وآل الأمر فيها إلى أن عيسى زاد في الإقليم اثني عشر كيساً، وقصد قتله المرة بعد الأخرى، فلم يتمكن منه

(١، ٢، ٣) بياض في الأصل.

لحذره وخوفه منه، مع استمراره في خدمته، والمداهنة بينهما، فقدَّر الله تعالى عند فراغ أَجله قتله على يده، وتمكنه منه بأَن سافر معه إلى المملكة الرومية، وقضى مآربه، وأَخرج لعيسى أَحكاماً بما طلب من المناصب اللائقة به، وجهزه قبله، صحبة يونس بن عبد الغفار، عامل بأرنبال، وشخص من قوَّاسة عيسى، يدعى عودة، مشهور بقتل مَن أَراد الله إنفاذ قضائه فيه، وكان من تلطف عيسى به ظاهراً أَنه قال له: توجه مع يونس إلى القاهرة، واقْضِ مآربك قبل وصولي، ومنَّاهُ بظاهر الغرور، ودسَّ عليه ما أَراده، ومنع من سفر غلامَيْهِ معه، وأَخذهما عنده، فلما توجه، وفعلَ به ما كان مقرراً فعله، وجاءَ الخبر إلى عيسى بهلاكه فأَذن حينئذ لغلاميه أَن يتوجها بحراً، وقدم يونس بن عبد الغفار إلى القاهرة، وتوجه إلى بارنبال، فمات بها، ولم تطل أَيامه، وكان بين مرافعة إبراهيم لعيسى، وقتله نحو أَربعة عشر سنة.

وفيها كان قدوم القاضي عبد الرحمٰن قاضي مصر والقاهرة من مملكة رميلي بأَقصى بلاد الروم برًّا، فكان وصوله إلى القاهرة في أَواخر المحرم عام سبعين وتسع مئة، ولم تَحْمد أَهل مصر أَحكامه، ولا سيرته، واشتهر بحب جمع المال والحيلة في تحصيله، والحثّ عليه، مع عدم نظر في أَحوال أَهل الإقليم والأَحكام الشرعية، والأَمر لله تعالى يفعل ما يشاءُ.

وولي ماماي والي كشف الغربية على عادته عوضاً عن حسين كلابي، وتوجه حسين إلى ولاية كشف البهنساوية والفيوم على عادته السابقة.

وفي هذه السنة تزايد التلاشي والفساد بأَحوال مملكة مصر وجهاتها وأَقاليمها، بواسطة إهمال مصطفى باشاه لأُمور المملكة، واقتصاره على الجمع والتحصيل، والاعتراض بالأَغراض الفاسدة، وتعمدهم الكذب والأَباطيل، فكثر الهرج والقتل في الأَرياف، وقلّ الخوف من الحكام جدًّا بالقاهرة وبالأَقاليم، وكثر ورود المناسر في أَخطاط مصر والقاهرة، وظواهرهما ليلاً بالشموع، والجموع، وقتلهم للخفراءِ والمقدمين، وأَفحشوا في ذلك، وقلَّ الأَمن على الأَموال والأَزواح ومَن قدر على فساد فَعَلَهُ، أَوْ جَهْل أَظْهره، مع الغلاءِ المفرط في سائر الأَسعار، فوصل ثمن الأَردب القمح إلى خمسة وثلاثين نصفاً، ثم انحطَّ قليلاً، والسمن بخمسة عثامنة الرطل، والسيرج بنصفين، واللحم الضأن بعظمهِ كل رطل بنصف، والبقر رطلين.

والقتيل من أَولاد العَرَب لا يؤخذ له بثأر، وعمّت الأَحوال الخبيثة بالأَشرار والأَضرار، ولله عاقبة الأُمور.

وفيها وردت الأَخبار باستيلاءِ محمود باشاه على حصن حَبٍّ ـ بحاء مهملة وباء تحتية موحدة ـ ويذكرون من علو هذا الحصن، وارتفاعه في الهواءِ، وصُعوبة مسلكه ما لا يعبر (؟) عليه فكان أَهل اليمن يقولون: حصن حَبٍّ لا يقدر عليه إلاَّ الرَّب، وقتله لصاحب هذا الحصن المدعو بالنظاري، وهو أَمير عربان من أَهل اليمن، حاكم تلك الجهة توارث ذلك عن أَسلافه كابراً عن كابر، وذكر لي مَن أثِق به من أَهل اليمن أنه كان يركب في نحو الأَلف فارس، ومعه من الرماة بالبندق الرصاص نحو الأَلفين وخمس مئة غير أَتباع ذلك. وقد قدمنا أَن محمود باشاه حاصر هذا الحصن مدة شهور إلى أَن ضاق به أَهلُ الحصن ذَرْعاً، ويذكرون أَنه حصل به مَحْلٌ شديد من جهة الماءِ لعدم الأَمطار فعطشوا، واتَّفق أَنَّ ولد النظاريِّ كاتَبَ محموداً في النزول إليه بالأَمان، فأَمنه وحلف له على ذلك، ولما نزل إليه من الحصن ليقابله تلقاه بغاية البشر، وأَكرمه، وزاد في التلطُّف والبشاشة والإِنعام عليه، إلى أَن أَدهشه، وسرَّحَهُ جميلاً مكرَّماً، إلى والده الذي هو النظاري، فلما اجتمع بوالده أَثنى على محمود باشاه، وذكر حسن صنيعه له ومعه، وحسّن له دخوله في طاعته، والنزول إليه، فامتنع من ذلك، وأَصَرَّ عليه، فلم يزل به ولده إلى أَنْ أَجَابَ متكرهاً، وكاتب محمود باشاه أَيضاً لولده في بذل الأَمان له على نفسه وماله، فأَجابه إلى ذلك، ونزل إليه من الحصن، واثقاً بأَمانِه، ومعه نحو الست مئة من الرماة المشاة أَمامه، وبعض الركبان، واستعدَّ محمود حينئذ للقائه، وعمل ديواناً جليلاً جمع فيه عساكره، وأَظهر زينته، فلما وصل إليه النظاريُّ، ومعه ولده ونزلا عن فرسيهما تلقاهما محمود باشاة بغاية البشاشة، ومشى لهما خطوات، وأَلبسهما تشريفين مذهبين، كان أَعدَّهما لهما، ثم لم يلبث قليلاً، وأَشار لبعض خواصه بقتلهما، فتقدّم لذلك الأَمير علي أُذُن، وهو (أَغا) جماعة العساكر (التفكجية) وكان قبل ذلك من أَعيان (الجاويشية) بالقاهرة، وضرب النظاريَّ بخنجر في خاصرته، فصاح ولده: الله!! الله!! فوضعوا السيوف فيهما وقطعت رأْس النظاري وولده، ثم أَمر الباشاه بوضع السيف في جماعته، وأَذِنَ للعسكر بنهب الحصن، وركب بنفسه، وملك الحصن وما فيه، وأَباح للعسكر نهبه نحو اليومين، ثم ترك به (دَزْ دارا) وتوجه إلى تَعِزَّ، وكتب إلى ممالك اليمن بذلك، وبالزينة في سائر النيابات اليمنية.

ويقال: إن النظاري هذا كان عريقاً في ولاية هذا الحصن، وأَنه توارثه عن أَسلافه، في مدة تزيد عن ثلاث مئة عام، وهو حصن منيع، لا يُتَوَصَّلُ إليه بقتال، ولا حيلة، وكان من مقدور الله تعالى أَخذ محمود له بأَدنى خداع، مع عَجْزِ مَن تَقَدَّمَهُ من الباشات عنه ـ فما شاءَ الله كان ـ.

وفيها كانت وفاة الأَمير أَحمد بن يحيى الحمزاوي، صهر محمود باشاه، زوج ابنة زوجته من خوشكلدي نائب جدة، كان بأَرض إِبٍّ ـ بكسر الهمزة وتشديد الباءِ الموحدة التحتية ـ بعد أَن تمرّض سبعة أَيام، ودُفِنَ بتلك الأَرض، وأَظهر محمود باشاة الأَسف عليه، وبنى على قبره قبة لطيفة.

وأُشِيع بمكة واليمن، ونمى ذلك إِلى الأَقطار المصرية أَنه إِنَّما قُتِل مشنوقاً، وأَن كيوان (كيخية) محمود باشاه هو المنفذ لذلك، بمقتضى أَنه كان ينتقصه، ويقول في بعض مجالسه: عُرِض عليَّ كيوان [. . . .][1] بثمن بخس فلم أَرضه للشراءِ، ويقال غير ذلك ـ والله أعلم بحقيقة الحال ـ.

وفيها قتَلَ محمود باشاه (كيخيته) كيوان المذكور، ويقال في سبب قتله أَن المذكور كان شابًا حدث السن، غِرًّا بالأُمور والعواقب، وكان أفحش في بلص أَكابر المملكة، وأَرباب الولايات، واشتدَّ طمعه في ذلك، فجمع من ذلك عدة صناديق، فكرهه الخاص والعام، وكثرت الشكوى منه، فخشي من أُستاذه أَن يوقع به غضباً، فبادر إِلى سُمٍّ، دسّه عليه مع مباطنة بعض سقاته، فلما أَحسَّ محمود بنفسه طلب كيوان كيخية، وأَمر بعض أَعوانه بخنقه بحضرته فتباطأَ موته، فأَمرهم بضرب عنقه، ودفنه بالإِسطبل تحت أَرجل الخيول، جزاءً بما فعل. ويقال: إنه قَتَلَ أَيضاً معه بعض مَن اتهمه بمشاركته في ذلك، ثم احتاط على موجوده، وكان مالاً جزيلاً، وتمرّض محمود باشاه من السُّم، وظهر أَثره في ظاهر جسده، وأُشيع وفاته فعالجه رجل من أَهل الهند بعقاقير ودرياقاتٍ، خلص بها مما كان به، وركب، وجاءَت الأَخبار بذلك في موسم سنة تاريخه إِلى مكة، وأَخبرني بذلك شفاهاً أَمير الركب اليماني.

وفي هذه السنة أَضاف محمود باشاه إِلى صاحبنا العلامة الشيخ محب الدين النَّهروالي الحنفي قضاءِ جِبْلَةَ ـ بكسر الجيم وسكون الباءِ الموحدة ـ وأَبِي عَرِيش إِلى قضاءِ جازان ـ جبر الله صَدْعَ أَحواله ـ.

وفي هذه السنة جاءَت الأَخبار بمكة بأَنه ورد إِلى جدة عدة مراكب هندية، وأَن موسم البندر كبير، وأَن المراكب فوق العشرة عدة، غير أَن المياه بمكة قليلة، وكتب إِليَّ صاحبنا الشيخ العلامة قطب الدين بن علاءِ الدين النهروالي، مفتي الحنفية بمكة، يقول من مكاتبة:

---

(١) بياض في الأصل.

وإنـي عـلـى عـهـد الـمـحـبـة ثـابـتٌ وهَلْ مُمْكنٌ غير الثَّبَات من القُطْبِ

وأما أَمر الأَقوات وغيرها فمتيسرة بحمد الله تعالى غير أن الماءَ في [. . . .](١) القلة، وبرك الحاج ليس بها قطرة ماءٍ، وآبار المعلاة التي بجوف مكة نضبت.

وجـفَّ الـنَّـاس حـتـى لـو بـكـيـنـا تـعـذر مـا تُـبَـلُّ بـه الـجـفـون

فـلا يـنـدى لـمـمـدوح بـنـان ولا بـيـدي لـمـهـجُـوٍّ جـبـيـن (؟)

وآبار الجواخي (؟) هي المستعملة الآن، وأَما عين عرفة [. . . .](٢) مزدلفة، ووقفت هناك وأَنشدت:

وقف الهوى بِي حيث أَنت فليس لي مُـتَـأَخَّـرٌ عـنـه ولا مُـتَـقَـدَّم

واتفق بمكة في وسط السنة أَن شخصاً يسمى عبد النبي بن عوض الرومي الميقاتي من المجاورين بالحرم، وجد كتاباً في سوق القشاش، فاشتراه بعشرة أَنصاف، فوجد فيه إِماراتٍ وحدوداً دالَّةً على عمل زبيدة بنت أَبي جعفر المنصور لعين عرفة، الذي أَوصلته إِلى بركة السلم، التي عن يمين الظاهر إِلى عرفة بطريق منى، قبل جمرة العقبة، وهو آخر حَدٍّ عمل زبيدة كما قيل، وبعد آخر العمل المذكور البئر التي ينزلء إِليها بدج نحو الخمسين، وهي وسيعة، فعرض عبد النبي المذكور هذا الشأْن على قاضي مكة حينئذ، وهو عبد الباقي بن علي العربي قبل عزله، وذكر له أَنه إِنْ أَعطاه عمالاً ومعمارية دَلَّهُمْ على تلك الآثار، ممَّا رآه في الكتاب الذي وجده، فأَمر القاضي عبد الباقي بالصرفة على ذلك من ماله قائلاً: إِنْ أَمضاهُ السلطان، وإِلاَّ كان ثوابه لي، وتوجه عبد النبي ومعه خَدَمَةُ عين بازان، الذين هم عبيد (الخندكار) وعمال بَجيلة، وشرع في العمل، واستمرَّ يستدل على ذلك بعلامات وحدود بين كل واحدة وما بعدها نحو الإِحدى عشر ذراعاً أو اثنا عشر، وحفروا ذلك، فنجح العمل، وظهر طِبْق ما هو مكتوب في ذلك الكتاب، واستمر الماءُ يتبعهم شيئاً فشيئاً إِلى أَن وصلوا إِلى المزدلفة، وتعدَّى عنها ووقف العمل في أَواخر شهر شوال من السنة، ودخل الركب المصريُّ، والعمل موقوف، خصوصاً وقد عزل قاضي مكة المذكور، ووليها فضيل شلبي بن علي الجمالي، الذي كان قاضياً بحلب، وكان في وسط السنة حضر جاويش من الأَبواب السلطانية للكشف عن أَحوال العين، وكان ذلك في أَواخر شعبان، ومعه المعمارية، والمهندسون، وقدروا على المصروف حَفْراً، وبناءً وتكسيراً

(١، ٢) بياض في الأصل.

للصخور، وثمن مُؤَن، لكل ذراع عشرة من الذهب الجديد، واتفق أيضاً أنه لما شرع عبد النبي الرومي الموقِّتُ مع العمال في حفر عمل زبيدة ـ الذي قدّمنا ذكره ـ وتواتر رَجْمُ الجان للمال، ثم ذكروا لهم أنهم يطلبون حقهم على ذلك، وهو ثلاث بقرات تُزَفُّ في شارع مكة، وتُذبح عند العمل، فاشترى قاضي مكة من مال السلطان ثلاثاً من الإبل البكر الذين لم يركبوا وزينوا، وزفوا من الصَّفَا، ومروا بهم كذلك إلى محل العمل، فذبحوا هناك، وقد اتفق مثل ذلك في عمل عين بازان، كما قدّمنا ذكره، وأخبرني السيد الشريف حسن أمير مكة شفاهاً أَنَّ العمل في حَدِّ زبيدة الذي وقف عنده عملهم غير مُمْكِنٍ، لأنه لو أمكن ذلك لأكملت ذلك العمل زبيدة لشدة رغبتها في إسداءِ الخيرات إلى أهل الحرمين في زمنها، والمانع لها من ذلك أَنَّ هناك صخر شديد، وصعود وهبوط، فَإِنْ أخذوا العمل في طريق آخر غير هذا الحدِّ ربما ينجح، ويقال: إنَّ زبيدة بنت أبي جعفر المنصور لما عُرض عليها أمر عين عرفة، وأنها وصلت إلى هذا الحد، قالت: نُتِمُّهُ على كل حال، ولم تذكر مشيئة الله تعالى، فوقف العمل، وتعطل من ذلك اليوم بهذا السبب.

وفيها في خامس عشري القعدة هَبَّتْ على الحاج رياح سموم حارة، وكان المصريُّ بالينبع، فقوي الحر يومئذ، ووافق ذلك وصول الركب الشامي إلى محلٍّ قبل دخول المدينة المنورة بيوم واحد، فذكر أنه مات من الركب الشامي، فجأة نحو الأربعين نفراً، ومن الجِمال عدد وافر وخوى (؟) أمير الحاج في داخل محفته من تلك السموم مريضاً، وسلم المصريُّ في تلك الشدة، فإنه كان بقرية الينبع، ونزل غالبه عند النخل والحدائق، وذكروا أن ممّن تُوفي في هذه السنة من الشامي شخص من كتّاب الروم، جُهِّزَ من الأعتاب السلطانية أميناً على إبراهيم بن المهمندار في إجراءِ عين عرفات، فَعُدَّ موته من سعادة إبراهيم، لأنه كان ضِدًّا له، وكان دخول الركب المصريِّ إلى مكة المشرفة في يوم الاثنين ثاني الحجة، ودخل أمير الركب بلوائه في ثالثه، فصادف وصول إبراهيم بن المهمندار قبل الحاج بثلاثة أيام، ونزل بالمدرسة الأشرفية قايتباي، فاحتاج أمير الركب أنه نزل بالمدرسة الباسطية، وكان وصول الركب الشامي صحبة أميره محمد بك نائب صفد، بعده بيومين، ووصل بصحبته فُضَيل بن علي الجمالي قاضي مكة المشرفة، ومصطفى بن محمد معمار زاده قاضي المدينة المنورة، ووقع بين قاضي مكة المعزول، وبين المتولي تَشَاجُرٌ في استحقاق علوفة شهر شعبان ورمضان، فإِنَّ فضيل شلبي المتولِّي يقول: إِنَّ ولايتي من شهر جمادى الأول، والقاضي عبد الباقي يقول: إن المعلوم لا يُسْتَحَقُّ للجديد إلاَّ بعد الإعلام بالعزل، ولم أعلم بذلك إلا من قريب.

وذكر حجاج الشام أنه حصل عندهم موت فجأة، فابتدأ بهم قبل دخول المدينة بيوم، مع حَرٍّ شديد، وعطش وتواتر الفناء بهم في كل رحلة إلى دخول مكة، فكان يموت في اليوم نحو الأربعين نفراً ودون ذلك.

وكان الماء بمكة قليلاً ـ كما قدمنا ذكره ـ واستمرت الفساقِي فارغةً، ونَزَحَتْ الآبار التي بالزاهر وغيره، ولولا أنَّ الله تعالى أغاثَ عباده بأغا محمود الخادم، المتولي زمام ابنة السلطان سليمان ـ نصره الله تعالى ـ فإنَّه لما حجّ في هذه السنة من طريق البحر ركب بنفسه، وكشف عن آبار الزاهر والشُّبَيْكة، ودفع لإبراهيم بك (باش) العمائر مصروفاً على حفر الآبار، فحفر بئراً في طريق بركة ماجد، على يسار المتوجه إليها، وبئراً في وادي الزاهر، وحصل بهما النفع، وجعل خيمة بوادي الزاهر تُظِلُّ (الشاد) على حفر الآبار، وأصرف على ذلك من ماله، وحفر الآبار النازحة حتَّى أصلح ماءها، ودخل الركب إلى مكة وهو على ذلك ـ أثابه الله تعالى ـ ومع ذلك فكان الماء في غاية القلة، وهو مختلف الطعم ما بين مالح وعذب.

وكانت الأسعار بمكة متوسطة، أبيع اللحم كل رطل بنصفين، والسمن بستة أنصاف، والعسل النحل كذلك، والدقيق من ثمانية من الذهب إلى عشرة كل حِمْل، والعنب والخوخ كل رطل بنصف، والرطب والبلح والبطيخ والرمان والموز موجُود.

وأمراء مكة في غاية الوجل من إبراهيم بن (المهمندار) معمار عين عرفة، وكان وصوله إلى جدة في سابع عَشْرَي القعدة، وتوجه المتقدم ذكره فلم يجد للعمل من هناك طريقاً فتوجه إلى كرى، عن جبل عرفات بمسافة، وكشف عن أصل العين وابتدأ بالحفر، والعمل من هناك، وأنه يأْخذ ذلك عن طريق الْمُغَمَّسِ ـ بميم أولى مضمومة بعدها غين معجمة مفتوحة، وميم مشددة مفتوحة وسين ساكنة (؟) ـ وأهل مكة في قلقة من جهته خوفاً من وقوع فتنة، والله المسؤول في صلاح الأُمور، وشرح الصدور، بإجراء هذه العين، وإيصالها إلى مكة المشرفة.

وفي هذه السنة اتفق حصول فتنة بين بني ريشة، وبني عطيَّة الحجاز، بسبب شخص من بني ريشة، كان عليه دم، فقتله جماعة من بني عطيَّة، وأذن لهم الشريف صاحب مكة بأْخذ الثأر، فكانت بينهم مقتلة في وادي نعمان، قتل من بني عطيَّة نحو سبعة أنفار وذلك في جمادى الآخر من السنة.

وكانت الوقفة عام تاريخه يوم الاثنين، وفي ضحوة يوم عرفة تشاجر جماعة من ذوي بساط بن عنقا، وجماعة من ذوي عِجْل بن عرار، فأَدَّى بينهم التَّشاجر إلى قتل

رجل، فلما سمع بذلك السيد الشريف نهض، ومعه أولاده، وزجر الشريف عِجْلَ زجراً بليغاً فإنه كان ألبس خيوله، وظهر للشريف أنه قام في نصرة ذَوِيه إلى الغاية، فأمر بهدم خيمته عليه، وهو بها، وكاد أن يسطو عليه ضَرْباً لولا منعه الشريف حسن، وأخوه ثَقَبَةُ، فإنهما حالا بينه وبينه، واحتمى عجل بزوجته ابنة الشريف، فدخل إلى خِدْرِها، وسكنت القضية، ويقال: إن الشريف أمهلهم في القضية إلى بعد سفر الركوب.

وفيها اتفق بجدة أن شخصاً روميًا من أتباع أمين البندر، في زمن الموسم الهنديِّ، تعرّض للفرضة، وأخذ منها ثلاث بقش من الشاشات، لبعض تُجَّارِ الهند، وأخذ حبلاً من الْقُنَّبِ، وعقده عُقَداً كالسُّلَّمِ، ونصبه ليوهم بذلك أنه فعل غيره، فلما علم السيد الشريف حسن أمير مكة بذلك حضر إلى الفرضة، وكشف على الحمل، فرأى الحبل مُعَلَّقاً، فطلبه، وأخذه وشمَّهُ، وقال: هذا رائحته عطر، ولا بُدَّ أَنَّهُ اشْتُرِيَ من عطار، اذهبوا به، وابحثوا من أهل سوق الْعِطْر عمن اشتراه، ومَتَى كان ذلك. فتوجه لذلك بعض خاصته، وعرض الحبل على باعة العطر، فعرفه شابٌّ صغير عطار، من أقارب محمد الصابوني قاصد الشريف، وذكر أنه اشتراه منه بالقرب رجل رومي، يدعى فلان باسمه، وهو من أتباع أمين جدة، فَأُحْضِرَ إلى الشريف حسن، فأَخبره بالمشتري كما ذكر لجماعته، وقال له: يا مولانا أنا أُدَبِّرُ حيلةً تكشف أمر المشتري، وتشهد بصدق مقالتي، فَأُتْبِعَ بنفر من الفروخ على بُعْد، وتوجه الصبِيُّ إلى ذلك الرومي وتقدّم إليه وقال له: إن ثمن الحبل الذي أَخذته مني بالأَمس، وهو خمسة أنصاف، ظهر فيهم نصفان من زغل الفضة، لم أَصْرِفْهُم، ويحتاج أنك تبدلهم لي. فقال له: ما معي في هذا الْوقت شَيْءٌ، فرمَى بهما إليه وقال: أنا أصبر عليك ببدلهم، فلما أخذهما حضر أتباع الشريف وقبضوا عليه، وأحضروه إلى الشريف فقرره، فَأَقَرَّ بأَنَّ ذلك فعله، وأعاد جميع ما أخذه من الفرضة، ويقال: إنه ظهر عنده أشياء كثيرة من اختلاساته.

وفي موسم هذه السنة كانت وفاة عبد اللطيف الديزلي الشاعر الأَزهريِّ، هاجر من مصر إلى مكة المشرفة فانقطع بها سنين عديدة، والتجأَ إلى مديح الرسول ﷺ فجمع من ذلك كسباً، مع تكسبه فيما بين ذلك، بِقَصْد أكابر مكة، بالمديح في بعض الوقائع، وعَمَل الأَفراح والمهمات، فَحَصَّلَ من ذلك قدراً، لم يظهر عليه منه أثر في الحياة الدنيا، بل كان رذل الثياب متقشِّفاً، وضعف بصره في آخر عمره، وكان له بعض معاليم، منها بديوان جوالي مصر في كل يوم نصف من الفضة، وبدفتر الصدقة

الرومية تسعة من الذهب، وفي أوقاف الحرمين نحو ثمانية من الذهب، وكان دَأْبُهُ قَصْدَ أكابرِ مكة في غالب الأحوال، كما كانت عادته بمصر قبل الهجرة منها، وكان سبب وفاته أنه حجّ في عام تاريخه سليماً من المرض، فلما كان في يوم الخميس الثاني عشر من الحجة أصبح عند صاحبنا القاضي محمد بن عبد الحق النويريّ المالكي بِمِنَى، فتغدَّى عنده هَرِيْسَةً، وأتبعها بعنب، وأكثر منه، وقَصَد النَّفْرَ إلى مكة مع مَن نفر من أهل مكة، ممَّن أراد التعجيل في يومين، فلما كان بطريق مِنَى إلى مكة اشتدَّ به الحرُّ من وقت القائلة، وهاجرة الحجاز والجبال، والوقت في السنبلة، فلما وصل إلى بستان القاضي حسين بالأَبطح خَرَّميتا، واستمر مُلْقىَ في محله إلى يوم الجمعة ثالث عشر الحجة، فَدُفِنَ في محل موته بثيابه، من غير غسل، ولا صلاة، ولا كفن، لشدة انتفاخه، ثم فُتِحَتْ خلوته برباط العباس، وكانت عاريَّةً، فوجد فيها بعض قمصان من الدشت، ثم فُتِحَتْ خلوته برباط الأَشرف قايتباي، فوجد بها من النقد ضِمْنَ مغراف ماء زمزم من الذهب السلطاني الجديد تسع مئة دينار، ومن القايتباي نحو خمسة وأَربعين ديناراً، ومن الفضَّة مئة وثمانون نصفاً، لم ينتفع منها في حياته بدينار، ولا بدرهم.

وفي هذه السنة عزل أميرُ مكة الشريف قطبَ الدين الجيدريَّ من وظيفة (شاد) بندر جدة، لإِحَنٍ كانت في صدر السيد حُسين المالكي منه، فأَغرى به الشريف حتى عزله، وولّى عوضه محمد بن علي بن الخواجا مجد الدين العجمي اللاري، فلما كان زمن الموسم التجأ الجيدريُّ إلى عثمان أمير المصري، وسأَله في أن يأْخذه بصحبته، ويحميه من منع الشريف له من السفر، وشكا له من واقعات ذلٍّ حَطَّتْ عليه من أمير مكة سببها السيد حسين المالكي، فأَخذه بصحبته رغماً على أنف الشريف، بعد مراسلات بينهما بِسَبَبِهِ، أدَّتْ إلى إِحَنٍ بين أمير الحاج والشريف، وخرج الجيدريُّ تحت اللواء مع أمير الحاج، فلم يقدر الشريف على منعه، ثم إنه عَوَّقَ أسبابه بمنزله، فجهز أمير الحاج (دواداره) يعقوب، أحضر أسبابه جميعها، وتوجه صحبة الركب إلى القاهرة.

وكان بروز الخيام الخاصة بأَمير الحاج، وتوجه أهل الركب من مكة المشرفة إلى وادي الزاهر، يوم الأَحد ثاني عشري الحجة، ثم رحل منها أمير الحاج إلى الزاهر بلوائه في صبيحة يوم الاثنين ثالث عشريهِ، وكان رحيله من وادي الزاهر إلى مَر الظهران بعد عشاء الليلة المسفرة عن يوم الخميس سادس عَشْرَيْهِ، فأَقام بوادي مَرٌ إلى بعد ظهر يوم الجمعة سابع عَشْرَيْه، وكان الوصول إلى خُلَيص، بعد عصر يوم

السبت الثامن والعشرين بعد حصول حَرٍّ شديد، وهواءٍ حارٍّ جدًّا أضرّ بالجِمال والرجال، فمات عدد من المشاة والركبان على الرحالات، لملاقاتهم وَهَجَ الْحَرِّ والهواءِ الحار، رُمِيَتْ غالبُها في الطرقات بلا غسل، ولا دَفْن، وحُمل من ذلك في شقادف الصدقة إلى دار الْمُعَشَّاة بِخُلَيْص نحو العشرين ميتاً، ودفنوا في تلك الليلة بها. ويقال: إن الأموات نحو الستين، ويقال: أكثر من ذلك، فبات الركب بِخُلَيْص، ورَوَّى، وأصبح مقيماً بها خوفاً من مقاساة الحرّ عند رحيله نهاراً، فكان الرحيلُ منها قبل الغروب، فمرَّ على عَقَبَة السَّوِيق ليلاً، ولا يخفى ما في ذلك من المشقّات على الجِمال والرجال، لشدة الازدحام والاصطدام، لكن قَصَدَ أميرُ الحاج وقاية أهل الركب من الرحيل وقت الظهيرة، وشدة الْحَرِّ، واستمر في رحيله إلى أن غَدًا بعد الشمس، وأقام بدار المغداة إلى بعد العصر، ورحل وأدلج السير ليلاً كذا (؟)، وغَدًا بعد الشمس، ولم يزل سيره على ذلك إلى أن كان دخول المدينة المنورة في يوم الاثنين السابع من المحرم افتتاح عام سبعين، فأقام بالمدينة خمسة أيام كوامل، ولم يتفق مثل ذلك قبل هذه، ورحل من المدينة يوم السادس صبيحة يوم السبت الثاني عشر من شهر الله المحرّم، وكان على يد أمير الحاج صدقة من مال (الخاصكيّة) الموروث عنها، قدرها خمسة آلاف من الذهب فُرِّقَتْ بالحرمين، فكانت في العام السابق أربعة آلاف كذلك.

وفيها عُزِلَ الشريف جَمَّازُ عن إمرة المدينة المنورة، ووليها الشريف مانع، مع اشتهاره بالرفض، وسبِّ الشيخين، بسبب ما يدفعه من الخدمة على ولايته للشريف أبي نُمَيٍّ وولده. وفيها حضر ناظر الحرم النبويُّ بحراً المتولي عن محمد بيك (جاشنير) السلطان، كان بسؤال منه بأنه لم يوافقه هواء المدينة المنورة، نعوذ بالله من المقت!

واجتمع الركبان المصريُّ والشاميُّ بطريق الْجُدَيِّدَةِ قبل الغروب، فإنَّ الشامي تأَخَّر أَيضاً بمكة، وسار على راحة من الحرِّ في أوقات القيلولات.

وكان دخول الركب إلى الأَزلم سحر يوم الجمعة، خامس عَشَرَي المحرم، رحلة واحدة من إصطبل عنتر إليها، فإن أمير الحاج عسف السير، وحَمَّلَ أَهل الركب من المشقات ما لم يعهدوه سابقاً، فكان يسير بهم مقدار رحلتين ونصف وأَقل وأَكثر في واحدة، وكان يرحل من الدُّوْرِ أَذانَ العصر، ويستمر بهم إلى ثاني يوم بعد وقت الضحى العالي، مع الْعَسْفِ والسحت (؟) والسَّيْرِ العنيف، وساءَتْ سيرته في رجعة هذه السنة جدًّا خصوصاً مع خدمة الإمرة والعسكر، وَوَفَّرَ من رواتبهم ومَأْكولاتهم،

فكان تارةً يُغَدِّي ويرحل أَذان العصر بلا عَشَاءٍ إلى ثاني يوم فيوفر وجبة العشاءِ، إلى أن شكت الجوعَ الغلمانُ، وشكوا من الجوع ، ونقص عادتهم، وشنعوا على أمير الحاج بالألفاظ العاميَّة المهملة كقولهم: مَن أراد أن يريح نفسه، ويَرْبَحها، سنة ابن أَزدمر لا يتبعها. وكقولهم: مَن أَراد نفسه يقرفها، يأْكل من فقسة موسى التي يغرفها، يريدون به موسى بن حجي الطباخ بخدمة (أَمير) المحمل [. . . .][1] أَمير الحاج زمن ضربه، بالمقارع والضرب المبرح [. . . .][2] بين إمرته [. . . .][3] عوائد أرباب زاد المجهز إليه من الديوان السلطاني، فطمع في [. . . .][4] ذلك وصول الأدراك [. . . .][5].

كأفعال [. . . .][6] مع العربان وأَهل الرواق وغيرهم مم [. . . .][7] من أَهل له الظل [. . . .][8] فكان ينهب جمال عربان وإن من العربان الخارجين عن طاعته.

[. . . .][9].

فيهم خصوصاً عربان بليّ الأَحامدة والشوابرة [. . .][10] أَمير [. . . .][11] الأَحامدة حضروا إلى عنده لقضية بينهم.

[. . . .][12].

إليه [. . . .][13] فلما حضروا إليه [. . . .][14] الحديد.

[. . . .][15].

جزاء مَن يسدد [. . . .][16] القلعة وحضر إلى [. . . .][17].

وكان دخول الركب إلى بركة الحاج [. . . .][18] يوم الأَحد ثاني عشر صفر الخير.

[. . . .][19].

لم يأْتهم خير على [. . . .][20].

هذا والواس المدعو [. . . .][21] سبع على غفلة.

بصغر سنه [. . . .] إلى الطيش [. . . .][22] وأَحوال الناس.

[. . . .][23].

العربان [. . . .][24].

(١ ـ ٢٤) بياض في الأصل.

شخص يدعى بكمال الدين الشامي، ولي شهادة المحمل سنوات عديدة مع سيرته [....][١] بالقاهرة ودرب الحاج فكان القواس [....][٢] الأعمال الخبيثة، ولكمال الدين الشامي المذكور يقوم بالأعمال [....][٣].

[....][٤] فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون، وكمال الدين هذا ورد من الشام إلى القاهرة [....][٥] وذلك، ولما اشتهر بالفساد، فنشأ مع الغواة وأولياءِ الشيطان، وأول سعايته في شهادة المحمل في ولاية محمود باشاه اليمن لإمرة الحاج في عام سبعة وخمسين ولم يكن إذ ذاك [....][٦]، وأتذكر الشيخ أمين الدين المجولي [....][٧] عزت الشهود من القاهرة فقال لي... كمال الدين.

مع سيرته المشهورة وذكر [....][٨] واقعة أخرى [....][٩] محمود أمير الحاج شاهداً صحبة قاضي المحمل ثالث ثلاثة من الشهود.

وتواتر سفره بعد ذلك

بعث إليه مصطفى باشاه اليمن [....][١٠]

وفي ولاية إبراهيم بن عيسى [....]

فيها تصرف [....][١١] وصار يعطي القضاة من [....][١٢]

وكثير فساده، وإن لم يوافقه [....][١٣] إخفاق عليه الكرايا

وقضاة المحمل.

[....][١٤]

عليهم [....][١٥] وخيانته ويعولون [....][١٦]

وكذلك استولى على [....][١٧] لسحابة السلطانية واتفق معهم على [....][١٨]

والبغي [....][١٩]

أحوال [....][٢٠] والضر والإهمال [....][٢١] الكتابة لهم عما [....][٢٢]

بمصر.

وما صارت عليه في تصرفه وإمرته وضاعت أحوال الفقراءِ بالدرب وهلك غالبهم بالطرقات جميعها.

(١ ـ ٢٢) بياض في الأصل.

وذكر أخبار هذه السحابة [....][١].

عدم نظرهم في أحوال الأموات، وتركهم بالطرقات [....][٢] حالتهم وإن أرغموا في دفن طائفة منهم أساؤوا الصنع في الغسل والتكفين، ولم يحفروا للميت إلاَّ ما يوارى [....][٣] بالأرض خصوصاً إن كانت الأرض صلبة، ويسترون باقيه بالتراب والأحجار يودعون [....] من غير نكير ذلك، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

وفي كمال الدين الشامي أقول مُضمناً:

كمال الدين في مَيْنٍ وشَيْنٍ ... كَمَد النَّيْلِ أَيَّامَ الزيَادَهْ
يَمُوتُ عَلَى الشَّهادَةِ وَهُو حَيٌّ ... إِلٰهِيْ لا تُمِتْهُ على الشَّهادَهْ

ومن سيرته الشنيعة وما أُشيع عنه أنه لما توجه بحراً إلى المحلة الكبرى وصحبته رجل من أكابر بني شيبة، يسمى بالشيخ مكارم، ونزل عند القاضي أحمد بن سولي (؟) المالكي نائب الشرع بالمحلة، فأنزلهما بقاعة جلوسه، فاتفق لكمال الدين في تلك الليلة أن ذُكِرَ عنه كل خبيث من أفعاله، مع عبد القاضي أحمد بن سولي، ومع عَبْدِ رجل من التجار، كان ضيفاً عنده أيضاً، واشتهرت الإشاعة عنه بما لا ينبغي ذكره، ثم إنه توجه من المحلة في بحر النيل أيضاً إلى إقليم البحيرة فنزل عند الأمير عيسى بن إسماعيل أمير عربان بني عونة، بمنزله المشهور بالحوش، فاتفقت له تلك الليلة واقعة مع سايس لصاحبنا المرحوم أبي بكر ابن الأمير محيي الدين بن أبي أُصيبع اشتهرت بالحوش، ونمت إلى سمع الأمير عيسى، ثم شاع ذلك بالقاهرة شيوعاً متواتراً وتداول نقل ذلك الألسنة فقلت مخاطباً له:

ما اعتمدتَّ قبيح الخِزي والعار ... في قاعة السول (؟) فِعْلَ الهائم الساري
في غفلة منْ حجاب العقل كنت بها ... مُوَلَّهَ القلبِ لا تَلْوِي على جَارِ
مع كل أسود ذي رث بلوت به ... تَخَاله في ظلام الليل كالصاري
مزنفل مُكْفَهِرٌ أسودٌ شرس ... حديد طعن لما ترضاه دَوَّار
يصغي لِمَا قلت إلا في ثناك فقط ... خاض اللئيم إلى بحر وتيَّار
مُسَوَّد الوجه قوال إذا بدرت ... أَلفاظه كسواد الْفَحْمِ والقارِ
تبادر الناس أفواجاً إلى هرب ... كأنهم فزعوا من لفحة النار

(١، ٢، ٣) بياض في الأصل.

مُسَتّدينَ لآذانٍ لما سمعوا | من ذلك القول في فكر وتذكار
الله أكبر عاد الدين في هُزُؤٍ | من كل نَذْلٍ لئيم مهمل عار
ممزق العرض لا فخر ولا حسب | به يسود ولا فضل لمختار
سوى شقاشق ألفاظ ملفقة | قرائن المَيْن تحويها بإكثار
مات الحياءُ وعزُّ الدينُ وانقشعت | غياهب الفسق عن أوغاد فجار
قوم يهيمون في الدنيا بلا ركب | لأنها بانصداع شبه فخار
كيف التكتم والأرجاف وافدة | تيمموا [....][1] لولا صاحب الدار
ومقسماً لاَ يَفُهْ منكم بذا أَحَدٌ | بَغْد [....][2] اللُّؤمِ والعار
فَسَلِ مكارمَ عمَّا كان في غسق | من القبائح يُمْلِي صدقَ أخبار
قَضِيَّةُ الْحَوْشِ هل كانتْ [....][3] | أَم أنت مِمَّا جرى من أمرها داري
وقول وغدْ من الشُوَّاس حين بدا | صنيعهُ فِيْك مرموقاً بأبصار
لا ذَنْبَ لي إذن بدا [....][4] كلمه | وكنت أحلس من عود لأوتار
الموت أستر من داءٍ تحاوله | وشهرة لم تزل يَسْرِي بها الساري
ألم تكن يا كمال الدينِ تشهد في | محافل الحج في تيه وتخطار
معطر الثوب في زهو وفي صلف | والعرض أوسخ من سروال جزّار
ألم تكن تَدَّعي عِلماً تفوق به | على كثيرين من شبه وأنظار
أَلم تكن جالساً في الدرس تبحث عن | مسائل العلم شبه الطالب القاري
أَلم تكن تدعي في الركب معرفة | بها تُضِلُّ به مَن ليس بالداري
فارجع هُدِيْتَ عن الفحشا وكن رجلاً | عافاك ربك من داءٍ وأضرار
وراقب الله فيما أنت مدمنه | من الفواحش في جهر وإسرار
واسلك سبيل نجاة واتبعْ رشَداً | فالغيُّ مهلكة يَهْدي إلى النار
وقد تقررت الأسرار وامتلأت | بين البرية أوصاف بتكرار
وأنت تعلم أنَّ الخلق إنْ وثَبُوا | آذوْكَ دِيْناً، فَحَاذِرْ وَصْمةَ الْعَارِ

والله المسؤول بجاه محمد نبيه وعبده أن يطهر طريق وفده من أهل الفساد، وينظر بعين رحمته البلد والعباد.

(١ ـ ٤) بياض في الأصل.

سنة سبعين وتسع مئة: فيها كان أَمير الحاج عيسى بن إِسماعيل أَمير اللواءِ الشريف، وعربان بني عونة، وإِقليم البحيرة وناظر الصدقة الشريفة (الخندكارية) السائرة صحبة الحاج، وليها بالأَعتاب السلطانية لما توجه إِليها متسحباً (؟) من حكام مصر، بعد ولاية عمه محمد، المدعو حبلص بإِقليم الحبيرة، ومرافعته له، وذكره بما يغيِّر خواطر السلطنة عليه من الموالسة على الخراج السلطاني وهضمه له، وغير ذلك مما هو معلوم بالديار المصرية، وتعصب والتأم مع حبلص ذووه من أَولاد جويلي، وضاقت الأَحوال على عيسى المشار إِليه، وخشي من عروض الحكام إِلى الأَبواب السلطانية بما يكون سبباً لزوال نعمته، فخرج من الديار المصرية خائفاً يترقب، على قصد زيارة بيت المقدس، وأَخفى ما في ضميره، في عاشر جمادى الآخرة سنة تسع وستين، ووافق خروجه سفر قاضي مصر حسن بن عبد المحسن عتيق رستم باشاه معزولاً عنها بعبد الرحمٰن، فَالْتأَم عليه وسافر صحبته، ولما تم له ذلك ندم مصطفى باشاه، وعبد الرحمٰن ناظر الأَموال على الإِذن له في التوجه [....][1] فَجَهزَا إِليه جاويشاً يسمى محمد الغزاوي، وكتبا إِلى ولد الباشاه الذي هو نائب القدس، بعوده، فركب نائب القدس بخيله ورجله، بأُهبة الحرب وأَمره بالعودة، فتحيَّر [....][2] وساعده على عدم العودة القاضي حسن المذكور، وكان من خطابه لولد الباشاه: إِن كان بيدك حكم من السلطان بعوده أَمرنا بذلك، وإِلا فلا سبيل لك على [....][3] والنظر إِليه، واحتاج عيسى أَنه أَرشاه بجمال وغيرها حتى أَطلق سراحه وعجل [....][4] حينئذ.

وقصد (كتاهيه) واجتمع بها على السلطان سليم ولد السلطان سليمان [....][5] والده بما في خاطره، فأَنعم له بذلك بعد أَن هاداه عيسى وتوجه من عنده إِلى (إِسطنبول) فأَقام بها سبعة أَيام، ولم يجتمع على وزير ولا كبير، ثم اجتمع بممدوح (كيخية) علي باشاه الوزير الكبير فقابل به أُستاذه [....][6].

ومنح التأْييد في جميع أَحواله وقضاياه.

فيقال إِنه بذل ما كان معه [....][7] من النقد والأَصناف واقترض بعد ذلك ما أَصرف إِلى أَن وصل إِلى القاهرة نحو الثمانين أَلفاً من الذهب فبسبب ذلك راج أَمره هناك، فَأُعِيْدَت إِليه ولاية البحيرة، وجعلها باسم ولده الكبير عمر، ثم وُلِّيَ إِقليم المنوفية عوضاً عن خضر بن حماد بن بغداد، وإِقليم الغربية وإِقليم البهنساوية والفيوم

(١ ـ ٧) بياض في الأصل.

ونظر السحابة الشريفة (الخندكارية) السائرة صحبة الركب الشريف للفقراءِ الآفاقية وقفيَّة مال السلطان سليمان وإمرة الحاج، وتصدَّى لإخراج أرباب الولايات خصوصاً إقليم المنوفية فإنه بيد أولاد بغداد، من زمن الدولة الجركسية، وجهز من المملكة السلطانية ثلاثة عشر حكماً بولاياته ومقاصده، صحبة جاويش من الباب، يدعى محمود، من أتباع علي باشاه الوزير الكبير. ومن جملة هذه الأحكام: التفتيش على جماعات من ذوي الأعمال السلطانية، منهم ماماي القواس، كاشف الغربية بسبب القتلى الذين تَعَدَّى عليهم بإقليم البحيرة بقرية سِيْوَا التي تقدّم ذكرها والنظر في ذلك على الوجه الشرعي، ومنها التفتيش على سلمون بن الديّان اليهودي، عامل دار الضرب من جهة تحرير الدينار الذهب السلطاني، فإنه حُرِّرَ بالروم فنقص عن العيار من الفضة نصفين، وأنْ ينظر في حساب هذا النقص وتحريره من جميع ما جهِّز من مال الخزائن السلطانية [....][1]

وغير ذلك من الأحكام.

فلما ورد محمود الجاويش على [....][2].

وأطلعه على ما معه من الأحكام، تغيّر لذلك خاطره، وكذلك غالب أُمراءِ مصر، لأنه مَن ولي إقليمه صار عدوًّا له، ومَن كان بجانب عن ذلك حسده على ما صار إليه، وكان عند الباشاه من ذلك النصيب الوافر، فجمع القضاة الذين هم بالأعمال والأقاليم، وأُمراءَ الألوية وتشاوروا فيما ورد من أحكامه.

[....][3] أن الباشاه قاضي مصر يعرضان على السلطان أنه لا يمكن ولاية عيسى لإقليم المنوفية، ولا لغيره من الولايات، غير البحيرة وإمرة الحاج والسحابة، ومتى فعل ذلك تكون فتن وحروب وقتل بالأقاليم إلى الغاية، وتخرب أقاليم المملكة، ثم أحضر حسنُ بن حماد بن بغداد جماعة حشدهم وجمعهم من قرى إقليمه بكثرة زائدة يقولون: يا باشاة وليت عيسى علينا، خربت بلادنا ولا يحل ذلك لك.

وكانت أُمور وأحوال بسبب ذلك مدةً، وجُهِّزَته العروض إلى الروم، ثم إن الباشاه ألبس حسن بن بغداد تشريفاً مذهباً بولاية إقليمه من غير منازع له في ذلك، والخبر عن ذلك يطول، ولم يمكن عيسى سوى من إمرة الحاج ونظر الصدقة، وإقليم

(١، ٢، ٣) بياض في الأصل.

البحيرة، وأَحضر محمود جاويش حُكْماً بأَنه يكون نائباً عنه في تجهيز أَسباب الحج إِلى حين حضوره، فشرع في ذلك، بمعرفتي وكتابتي، ثم وردت مطالعة من الروم من عيسى بتفويض نيابة أُمور الْمُهِمّ إِلى قيت بن عبد الله (كيخيا) باشا جماعة الجراكسة، فحضر إِلى القاهرة للنظر في ذلك معي، واستمر على هذه الولاية.

وأَما مراسيم التفتيش فأَظهر حكم ماماي ظهوراً فقط وعملت (؟) المصلحة واستمر على حاله.

وأَما سلمون اليهودي فأَحال أَمر الذهب على المعلم صلاح الدين بدار الضرب، فقبض عليه، واعتقل مع الجاويشية وأَرادوا إِهانته (؟) فأَنقذه الله من ذلك، بالتجائه إِلى بهرام بن الباشاه، وأَرشاه فشهد له في الديوان بأَنه من أَهل الاستقامة، وأَنه قابله (؟) ويعرف أَحوال جماعته وعملت المصلحة (؟) في ذلك أَيضاً، كما هو شأن أَحوال الديار المصرية.

ذكر الحوادث في هذه السنة بالديار المصرية والقاهرة المعزية

ففي يوم السبت ثامن عشر صفر الخير استقر أَمين الدين الطولوني، ويعرف بأَبي جريدة، لملازمته جريدة في يده وَقْته ركوبه، لعمل الحسبة بالأَسواق، عاملاً على مكس الحسبة عوضاً عن أَبي العز بن طبيلة لشكوى الرعية من الغلاءِ في زمنه، وأَعطاه الباشاه بالديوان جريدة خضراءَ قائلاً له: تناولْ هذه الجريدة واعمل بها. وأَلبسه التشريف على عادة العمال، ومَرَّ بشوارع القاهرة في موكب حافل، والجريدة بيده، ففرحت به العامة واستبشرت بولايته، ولم تكن منه نتيجة قط، بل تزايد الغلاءُ في سائر الأَسعار، فأُبيع القمح بساحل بولاق ومصر القديمة بدينار من الذهب الجديد، والشعير بأَربعة وثلاثين نصفاً الأَردب، والفول الصحيح بثمانية وعشرين نصفاً، والسمن بنصفين عثمان. فعلم الباشاه [. . . .][١] الأَقاليم القبلية والبحرية لجمع ما فيها من السمن، وتخزينه للتجارة [. . . .][٢] مع أَنَّ هذه الأَسعار في زمن الربيع، ويقال في الأَمثال: إِذا اتَّجَرَت الملوك، هلك الصعلوك، وأُبيع الشيرج في المعاصر بنصفين كل رطل، والجبن المقليُّ بالزيت الحلو بنصف، كل رطل، وضعفت أَحوال الرعايا، وقلّت البركة من كل صنعة، حتى [. . . .][٣] بالمتاجر من

(١، ٢، ٣) بياض في الأصل.

أَصناف الأَقمشة، فتزايدت أَسعارها جِدًّا مع ذهاب في عملها من العرض المقبول في الشراء [....](١) والخروف والظهور وسائر أَصناف [....](٢) عمّ بين الناس وقست القلوب، وكثر الهرج، ووقع القحط في غالب أَصناف ما يباع [....](٣) والصابون والحبوب والخضر، وقلق الجميع [....](٤) وافتقر مَن كان مستور الحال، و[....](٥) البلص [....](٦) ونظر الحكام إلى ما يتناولونه [....](٧) من أُمراء الولايات من النقود الوافرة التي لم تعهد [....] قبل ذلك، واضمحلت الأَحوال وقلّ ما بيد الناس، وكثر الفساد وعَمَّ، وزاد في طلب المعيشة الغم والهم، وصار الزور والبهتان من الحق أَظهر، مع كثرة التباهي بالقبائح التي لا تحصر، وعدم التناهي عن فعل المنكر، ولا فعل الزنا واللواط، ورجوع أُمور الدين إلى القهقرى والانحطاط، وكَثُر مرور النصارى واليهود ركباناً في شوارع الديار المصرية من خاصَّتهم وعامَّتهم من غير مبالاة ولا نكير، ولم يُعهد ذلك قبل تاريخه، إلا لبعض أَعوانهم الخاصة صحبة نفر من العسكر [....](٨) الفسّاق وغوغاء العامة، فهو إذا كان عاملاً للسلطنة سامحوا له في الركوب على هذا الوصف وإذا كان [....](٩) كما رأينا يونس النصراني كاتب الخزانة في زمن خاير بك ملك الأُمراء بالديار المصرية، وأَصلان بن النُعمان اليهوديّ عامل دار الضرب وصيرفي الديوان في زمن داود باشاه ومع ذلك سمعت صاحبنا الشيخ محب الدين ابن بنت الدهانة كان يقول في مثل ذلك: أعزّ الله النَّصارى بالشيخ يونس، واليهود بِأَصلان وأَذَلَّ المسلمين [....](١٠) وركوب أَصلان على هذه الصفة، والشارع إنما جَوَّزَ لهم الركوب على البراذع فقط [....](١١) من جانب وتمييزاً عن المسلمين فما شاء الله كان.

ومن تلاشي أَحوال الديار المصرية توارد المناسر [....](١٢) جهاراً بالشموع والشعل والمشاعل [....](١٣) لحوانيت التجار، داخل سوق الحرير بالورّاقين، وسوق أَمير الجيوش، وبخط الميدان والأَزبكية وغير ذلك، وتغافل الحكام عن مثل ذلك [....](١٤) أُخرى، ومن الغريب الذي اتفق من بعض ولاة القاهرة [....](١٥) وأَن المنسر ورد في بعض ليالي وروده إلى بعض الأَخطاط وكسر أَبواب البيوت والحوانيت [....](١٦) الناس وتوجه على حَمِيَّة فلما بلغ (السوباشاه) [....](١٧) راكباً، وأَظهر أَنه سيمنع الخطر [....](١٨) في خط الحارة الحسينية خاناً، داخله بعض أَشخاص من تجار البقر من أَهل قرية [....](١٩) وروده إلى الخان

(١ ـ ١٩) بياض في الأصل.

[. . . .][١] من البقر وأَنقذُوا ثمنه مئة من الذهب [. . . .][٢] الليلة للتسبب من بعض [. . . .][٣] ذلك المبلغ بما يعودون لبيعه إلى القاهرة طلباً للربح، فعلم بهم وأَخرجهم من الخان هجماً، وأَخذ ما معهم من النقد وقطع أَعناقهم ودخل القاهرة ومعه تلك الرؤوس يصيح معها المنادي: هذا جزاء مَن يسعى في الأَرض الفساد، ويسرق ليلاً، فلما أَسفر النهار عرف الناس تلك الرؤوس، واشتهرت قضيتهم، ولما سمعوا عيالهم وأَولادهم بالقاهرة بذلك صعدوا إِلى الديوان لشكوى السوباشاه [. . . .][٤] الإِنصاف منه بحكم الشرع، فقال لهم الباشاه: قد عَزَلْتُهُ وذهب، دَمُ أُولئك التجار وأَموالهم بهذا، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن تلاشي أَحوال الديار المصرية جلوس مَن لا يؤبه له في الديوان على الصفات التي يجلس عليها الباشاه، كماماي القواس كاشف الغربية وسليمان [. . . .][٥] البهنساوية وأَحمد بن الخواجا الرومي، وهو شاب صغير لا شارب له [. . . .][٦] أَبيه المولى نظر الدشايش بغير استحقاق، فأَرشاهم، ولم يُعْهَد إِلى آخر دولة إسكندر باشاه وعلي باشاه أَغا المتوفى بمصر جلوس مثل هؤلاء في مجلس الديوان مع الباشاه، إذا صعدوا إِلى القلعة المصرية، وإِنما كان شأن مثل هؤلاء الوقوف إِلى أَن تُقْضَى مآربهم، ويذهبون، والحامل للباشاه على تسامحه في ذلك، وترقيهم إِلى رتبة تقصر دونها منزلتهم وسلوكهم هذه المسالك، إِرغابه بكثرة الرشا والبراطيل، وتعداد الأُلوف من الذهب الأَصيل، استهانة بالديوان السلطاني.

وبهذا السبب ذهبت مهابته من العيون والقلوب، وجلس به مَن ليس بمحبوب ولا بمرغوب، وتصدّر به كل مهمل ونذل وخسيس، بعد أَن كان أَمنع من عقاب الجو، لكل صدر ورئيس، إِلاَّ إِذا وليَ إِمرة الحاج أَو اللواء السلطاني، أَو ما يناسب ذلك، فحينئذٍ يستحق هذه الرتبة، ويدعى للجلوس مع الباشاه والمخاطبة والصحبة.

ومن التلاشي إِفحاش القتل بين الرعية والفلاَّحة، في الأَقاليم القبلية والبحرية والشرقية والغربية، وبعضها أَكثر من بعض، وفي داخل حارات القاهرة وخططها، وإِذا عرض بعض الْقَتْلى على الباشاه بالديوان، فلا يتغير لذلك ولا [. . . .][٧] لفعله، ورُبَّما أَجاب أَولياء المقتول إِذا كان القاتل روميًا والمقتول عربيًا افتياتاً: أَتتوهمون [. . . .][٨] لشكوى العسكر بنفر من الرعية؟ هذا مما لا يكون، اذهبوا وادفنوا ميتكم، مع أَنه قد أَخبرني عيسى بن إِسماعيل، أَمير عرب بني عونة بالبحيرة لما حضر من المملكة الرومية

(١ ـ ٨) بياض في الأصل.

شفاهاً في معرض حكاية العدل بدار ملك الروم أنه عرض على السلطان سليمان أن شابًا نصرانيًا وُجِد مقتولاً في إحدى قرى الروم ولم يُعْلَم قاتله، فأمر بقتل أمير الدرك القاضي والأمين بتلك القرية، فقتلا [. . . .][1] في هذه الواقعة لتحذو الحكام بالقرى والمدن [. . . .][2] ذلك وأشباهه، وأقول: إن الذي ظهر لي أنَّ السبب في إهْمَال أمر الديار المصرية وتلاشي أحوالها أُمراء [. . . .][3] على أخذ الرشا بكثرة المقدار من الذهب الذي لم يُسْمع به قبل ذلك، وبغير الذهب من الأصناف [. . . .][4] يدخل بذلك كثرة في عصر من الأعصار السابقة لحاكم من أعلى الولاة ولا من أسافلهم، ومشى ذلك [. . . .][5] أن العمل عليه، لا على إنصاف ولا عدل ولا رجوع إلى اتباع الحق واضمحلّ أمر الشرع والدين، والرجوع إلى قضايا ملة المسلمين، فلا حاكم إلا الدينار، ولا مرجع إلا إليه بلا إنكار، وإذا كان المظلوم معدماً كان من أظلم الظالمين، وإن كان الظالم ثريًا سلك به سُبل النجاة وكان من الفائزين، وصارت ولاية المناصب للكشاف ومشايخ العربان والأُمناء في سائر الأقاليم والبلاد المصرية في كل [. . . .][6] لأجل هذه القضية، وربما أُجهر النداء [. . . .][7] باشاه المتولي السابق [. . . .][8] فيها المزيد لمن يريد فإن وضع المتولي [. . . .][9] بقية واستقر فيها غيره بما رضي.

لأن الرجوع إلى الإفادة وسواء كان ذلك أيضاً له [. . . .][10]

والنفاق والظلم وسوء الأخلاق، وسواء كان [. . . .][11] من الفقر [. . . .][12].

يجد له مخلصاً من ذلك المغرم، والجملة بظلم الرعية، والتهافت على أخذ أَموالهم في كل قضية، واتسع الخرق بسبب ذلك على كل راقع، واشتدَّ ضرر أهل القرى والأمصار في أنفسهم وأموالهم، فيشكو شاكي [. . . .][13] وتصدر بسبب ذلك للولايات الجليلة كل نذل وبخيل وخسيس، ومَن هو أكثر تلبيساً وكُفراً من إبليس، واشْرَأَبَّتْ أعناق ذوي الرذائل، من كل بليد وسفيه وجاهل، إلى التصدُّر في المجالس والمحافل، [. . . .][14] في ولاية حسبة القاهرة شاب من السوقة صناعته بَيْع العنبر ومطيبات الزهور [. . . .][15] ابن خويزيقة [. . . .][16] ليحيى الزيات بباب زويلة في ولايته لها ولغيرها من الأعمال السلطانية و[. . . .][17] وغيرها من الأعمال، وتوجه المذكور إلى مدينة (إسطنبول) [. . . .][18] السلطانية، فلم يكن معه من المال ما يوفي مرادهم، فعاد على غير مراده.

(١ ـ ١٨) بياض في الأصل.

وولى [....][١] ولبس القفطان ومشى بين يديه الحفدة والأعوان، وتحفظ وركب على السرج [....][٢] الجاويشية والملاقاة [....][٣] على شمائله فاشية، فلم يلبث أياماً قلائل وعزل من ذلك النظر، وخلع [....][٤] ما صرفه، ولزم حانوته كغيره من الأراذل [....][٥]

ومثل ذلك [....][٦] فجمع بعض مال من ذلك [....][٧] نعمة إلى ولاية [....][٨] جيشاً وسعى في ولاية [....][٩] وهي عبارة عن [....][١٠] فأجيب إلى ذلك وطلب منه ضامن [....][١١] شخصاً مغربياً شابًا [....][١٢] كشفاً لحالته فلم يوجد معه شيء فعزل، وولى [....][١٣] علاء الدين الخشاب، كانت صناعته بيع أنواع من السمك القديد المسمى الفسيخ [....][١٤] ذلك [....][١٥] الشرع الشريف والدين المنيف فوليها وتصدّر لها من لا [....][١٦] ولا يعرف معنى الْحَمْدَلَةِ ولا يفرق بين الحيعلة والحوقلة كالمحب المحرقي بمحكمة باب زويلة [....][١٧] من محاكم القاهرة [....][١٨].

المجالس، وارتكبوا بجملتهم في هذه القبائح والخنا [....][١٩] بأرذل [....][٢٠] ذلك وزوراً ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

فلنرجع إلى تعداد الحوداث، ففي أول السنة ورد عليَّ كتاب من مكة بتاريخ الثامن عشر صفر وفيه أنه [....][٢١] من الغريب بمكة أنَّ شاة من الغنم ذبحت، فوجد في بطنها ولد وجهه على صفة [....][٢٢] وباقيه على صفة الغنم وله مخاليب كمخاليب الكلاب.

وفي أول الشهر انصلح المركب البحري السلطاني الذي ببحر السويس لتجهيز ما يحتاج إليه من أسباب المعمارية المتوجهين لعمارة عين عرفة وإيصاله إلى مكة المشرفة، وكان فيها أسباب إبراهيم (الدفتردار) سابقاً وتوجه معماراً على عين عرفة وغرق جمع من مماليكه ومن أسبابه المجهزة ما يُعدُّ بألوف كثيرة من الذهب، ومن الرجال المعمارية نحو الأربع مئة نفر من أرباب الصناعات، بسبب ريح عاصفة كثير الرعد، ورمي بالصاري على الركاب، فنزل المركب إلى القرار، وقبض على [....][٢٣] إبراهيم بن المهمندار لذلك، بعد ذلك الصفا الذي كان حاصلاً [....][٢٤] [....][٢٥] لما كان ناظراً على أموال مصر.

(١ ـ ٢٥) بياض في الأصل.

(١٨) طمس بمقدار ورقة.

وفي ليلة السبت المسفرة عن ثامن ربيع الأَول جاء المنسر من قنطرة الحاجب، والوقت بين المغرب والعشاء، ومَرَّ في الشارع إلى خط جامع الشيخ عبد القادر الدشطوطي؟ فرأى حانوتاً لطيفاً يباع فيه الشمع السكندري وغيره من الأَقمشة [. . . .][1] قيمته [. . . .][2] وله قدر [. . . .][3]، وجعلوا واحداً منهم كهيئة العروس، وكأَنهم يزفونها بالشمع استهزاءً [. . . .][4] منهم جماعة بخط الجامع [. . . .][5] الفرح يريدون [. . . .][6] مشايخ الجماعة، فسلبوهم بثيابهم وجرجروهم ثم قبضوا على ثلاثة من الخفراء ووقفوا على [. . . .][7] وجعلوا واحداً منهم كالباشاه وآخر كالقاضي وآخر (صوباشاه) ثم إِنهم أَعرضوا الخفراء على الذي أَمروه عليهم، فأَمر بصلب أَحدهم على الجميزة التي تحت القنطرة منكساً من رجليه، ففعلوا به ذلك [. . . .][8] أَحد الثلاثة [. . . .][9].

[. . . .][10].

ولم يتبعهم أَحد [. . . .][11] إلى البلد والرعية [. . . .][12] الديار المصرية من أُمراء الأَلوية نحو الثلاثين نفراً ليبحث لهم [. . . .][13] مشاركة الفلاحين في الطين والزراعة وتخزين البضائع، [. . . .][14] وتسعيرها بالثمن الغالي [. . . .][15] بيعها على الرعية فلا يلو [. . . .][16].

وفي أَول ربيع آخر اتفقت حادثة لصاحبنا الأَمير أَحمد (شاويش ودادار) محمود باشاه اليمن ووكيله بالقاهرة، وهو أنه استخدم بواباً لمنزله الذي هو تجاه ساقية السكر والمدرسة المعروفة بناظر الجيش من خط السبع قاعات، والبندقيين، فأَقام أياماً يسيرة، ثم إِنه دخل في حال غفلة ليلاً إِلى (الركاب خاناه) التي بها الجيش وفيها سروج صاحب المنزل وآلات خيوله، فلما حلّ بها وجد السراج وهو تركيُّ الجنس أَحد مماليك صاحب المنزل نائماً يغط في نومه فذبحه كالغنم، ثم عمد إِلى سرج مُحَلًى بالفضة، وسلسلة من الفضة، وما قدر على حمله، من ما له قيمة فأَخذه، ورد الباب على التركي المقتول وتوجه من فَوْرِهِ، فلم يُعْلَم له خير، ولم ينتطح فيها عنزان.

ثم أَعقب ذلك ورود المناسر داخل الشارع الأَعظم ليلاً، فنقبوا باب سوق الوراقين الذي هو من جهة الجوخيين من تحت العتبة، ودخلوا إِلى السوق، والباب

(١ ـ ١٦) بياض في الأصل.

على حاله مقفول، ففتحوا بعض حوانيت استجد بها صنف الحرير من [....][١]، وتوجهوا على حمية، ثم جاؤوا في اليوم الثاني إلى سوق أمير الجيوش، وفتحوا حانوتاً مشهوراً تجاه باب السوق، من جهة شارع القصبة، ونقلوا منه أصنافاً من القماش من ما له قيمة مستكثرة، وفعلوا بحانوت ثانٍ بجانب سوق أمير الجيوش كذلك، وفرُّوا على حمية، ثم جاؤوا بعد ذلك إلى خط الميدان بالقرب من باب القنطرة، وأخذوا بيتين، نقلوا ما فيهما من الأسباب، وقصدوا دار صاحبنا الشيخ العلامة شمس الدنيا والدين محمد الرملي الشافعي، فحماه الله منهم، ثم جاؤوا إلى خط الأزبكية فكان بينهم وبين الخفراء هوشة، تجرح فيها من جماعة من الخفراء ولم ينالوا من الخط شيئاً، وجاؤوا في ليلة إلى خط بولاق وصلبوا مقدم الدرك، وقتلوا بعض الخفراء، وقلقت الناس لتواتر ورودهم في الأخطاط قلقاً شديداً، واجتمع التجار، وغلقت أبواب أسواق القاهرة في ذلك اليوم كالجملون والشرف والوراقين وأمير الجيوش، وحضروا جميعاً إلى قلعة الجبل، وطُلبت حمير العلافين في ذلك اليوم حتى بلغت أُجرة الحمار نصفين، وأكثروا من الغوغاء علي باشاه مصر، ومن جملة أقوالهم له: قد خربت مصر وعدم الأمان لساكنها، نحن نتوجه إلى باب السلطان ونعرض حالنا عليه، فكان من جوابه لهم: عيِّنوا لكم غرماء أُخَلِّص لكم أشياءكم منهم، فقالوا له: غريمنا (السوباشاه) وكان إذْ ذاك يسمى عبد الرحمٰن، وهو قريب (دفتردار) مصر، فالتفت الباشاه إلى (السوباشاه) ونهره وسبَّهُ، فأجابه بعزم لكون أن قريبه جالس بالديوان: إن البلدة بها من أُمراء الألوية عدد وافر لا نفع بهم، والذين يركبون بصحبتي ليلاً نحو [....][٢] من الشيوخ العاجزين، وإذا قبضت على أحد ليلاً وعرضت أمره عليك أمرتني بإطلاقه وأن لا يعاقب، فأمره بالقبض على باعة الكتان الذين يمرون بأخراجهم في حارات القاهرة وشوارعها للتسبب على [....][٣] فقبض منهم في سابع جمادى الأول على نحو الخمسين نفراً افتياتاً من غير شاكٍ ولا جريمة، فأنكرت [....][٤] ذلك ثم جَبَى منهم مبلغاً وأطلقهم.

ثم إنَّ الباشاه أمر (دواداره) بالركوب ليلاً ومعه من العسكر نحو الثلاث مئة، وأن يمر بجميع أخطاط القاهرة ومصر القديمة، وعيَّنَهُ عسساً لذلك، وأهل البلد في رجٍّ عظيم وقلقة زائدة، فمنهم القائل: أن الباشاه هو الموالس، لما سمعوا من جواب (السوباشاه)، ومنهم القائل: إن بالقاهرة ومصر القديمة جماعة من أعيان الأكابر لهم

(١ ـ ٤) بياض في الأصل.

شهرة بجمع المناسر [....][١] و[....][٢] والموالسة عليه، ولو أراد الباشاه حسم مادّة المناسر، طلبهم وردعهم وألزمهم [....][٣] منهم الخواجا خضر الرومي الذي كان كاشفاً بالقليوبية والإقليم المذكور جمع أهل الفساد من العربان والفلاحة؛ ولهم به وبمملوكه يوسف إلمام، خصوصاً مشاركته لمشايخ السعادنة وغيرهم وقربهم منه.

وقد تقدّم له في ولاية إسكندر باشاه أن ماماي القواس لما كان عسساً قبض على جماعة من [....][٤] في حمايته ومن [....][٥] وصرح له بذلك بالديوان السلطاني، مع أن خضر المذكور في هذا العام كان غائباً في المملكة الرومية.

ومنهم محمد بن الخبير أمير عربان عزالة بالجيزية، وشهرته في جمع المناسر والمفسدين لا تُحصى على أهل القاهرة.

ومنهم القائل الخولي زين الدين بن شهاب خولي السواقي السلطانية والغيظان المصرية، وله بذلك شهرة خصوصاً من عربان الفساد وممن اشتهر بأذى العباد، ومن طوائف بني عَطِيّة والسعادنة وبني حرام والعائد، واجتماع أهل الفساد بمنزله على مَرّ الأيام، مع معاونته للقضاة بالذّب عنهم وتجهيز المؤنة إليهم [....][٦] من السلطنة من قمح وغيره، وربما كان ذلك الاختفاء بمنزله، وشهرته في ذلك تغني عن التفصيل بما يظهر من سعة جلاله في سائر معيشته، وإغداقاته الشاسعة وأسمطته التي لا تنقطع ولا تمتنع، وعموم إنعاماته لغالب حكام مصر طلباً لمراضاتهم، مع أن منزلته بين الدولة لا تحتمل مثل ذلك.

ومنهم القائل المقدم محمد بن خليل صاحب درك باب الشعرية فإنه من قدماء [....][٧] في الخفر ولهم به إلمام.

وحمزة الزمردي (؟) المشاعلي فإنه له مشاركة مع أهل الفساد [....][٨] بأعوانهم، وتقدم له مثل ذلك بدرب الحجاز لما كان في خدمة مصطفى النشار أمير الحاج.

واتفق أن في تلك الأيام التي حصلت فيها تلك القلاقل وُجِد شخص من المنسر ومعه رزمة هائلة، من أسباب التجار وغيرهم وهو يقصد التَّعدية من القرية التي تُسَمّى زعيقة فأنكره رجل قوّاس كان على شط البحر، وقبض على الرزمة وفتحها فوجد بها من التفاصيل السكندرية ومن الأقمشة المتنوعة، وكانت المعدية في انتظار الرجل إلى

(١ ـ ٨) بياض في الأصل.

الساحل، وليس بها هناك إلا القواس والسارق، وخشي القواس أن يفوته وكان شديداً جَلْداً فقبض على السارق وتعالجا إلى أن قويَ عليه وأدار كتافه، وتوجه به إلى جماعة شادِّين، من نفر العسكر بذلك الحصن لهم به إلمام، فسلّمه إليهم وأوصاهم بحفظه وما معه، وجاء مُسْرِعاً إلى الباشاه وأعلمه فركب (السوباشاه) وتوجه إلى تلك الناحية وأحضر السارق وما معه، وقرر فاعترف على جماعات عديدة فيما يقال، وأنه ذكر أنه من القليوبية وأن له رفاقة من أتباع شتى منهم أتباع الخولي زين الدين بن شهاب. ومنهم أتباع شيخ العرب ابن أبي الشوارب بالقليوبية، ومنهم أتباع ابن الخبير أمير عربان عزالة، هكذا قيل.

ودلهم على جماعة أُخر من [....][1] في مَحَلٍّ عَيَّنَه، فتوجه (السوباشاه) إلى ذلك المحل وقبض على جماعة من قرية شبرا، من إقليم القليوبية ومعهم حمارانِ يحملان أَسباب الرعايا، ومن جملة الأَسباب (كشخاناه) و(ناموسية) وثياب مخيوطة، فيقال: إن عدة المقبوض عليهم ثلاثة وثلاثون، ويقال: دون ذلك فأودعوا بالسجن جهاراً لترى عيون أهل مصر ذلك، ثم أُطلقوا ليلاً على [....][2] منهم، فلم يُقْتل منهم النفر الواحد ثم إنَّ الباشاه عزل (السوباشاه) عبد الرحمٰن قريب (الدفتردار) ليرضي التجار بذلك، وولى فُرحات (؟) كاشف القليوبية (سوباشاه) عوضه [....][3] ليبدأ حالاً [....][4] ظلماً وأفحش [....][5] وأنه أجهر النداء بالقاهرة بِأَنَّ لا أَحد من الرعية يمر بالشوارع من بعد عشاءِ الآخرة، ومَن وُجِد في ذلك الوقت لا يسأل عنه (السوباشاه) واحتج الناس، ووجد ما نحو عشرة أنفار أو أكثر قد أَخرجهم من الحبوس ليلاً ونَوَّعَ قتلهم متفرقين في أَخطاط القاهرة من تكسير وصلب وخوزقة، فلم ترضَ الرعية بذلك إذا لم يقتل ممن اتهم ومسك، النفر الواحد، و[....][6] في مصالحهم [....][7] وأَطلقوا ولم يظهر من الضوائع التي ذهبت من الوراقين وسوق أَمير الجيوش وغيرها شيء مطلقاً، بل عرف الناس جماعة من المقتولين ليلاً منهم شخص [....][8] كان يبيع الأَنطاع (؟) بسوق أَمير الجيوش وله في الحبس مدة على غير شيْءٍ يوجب القتل، وشخص من أَهل الصحراء اتهم أنه ينقل الأَخشاب من الترب المهجورة، ويبيعها، وشخص قيّم حمام بخط قنطرة آق سنقر وأَشباه تلك، وعقب قتل هؤلاء الجماعة إيهاماً للرعية أَنهم من جماعة المنسر قبض ساعي ركاب الباشاه على شاب من أولاد (السلاخورية) حرفته الدلالة على الحمير

(١ ـ ٨) بياض في الأصل.

بسوق الرملة واتهمه أنه وجده في داره، ويقال: إنَّ الدار ليست لزوجته وإنما هي لامرأة تعاشره، فأمر الباشاه بتكسيره بباب زويلة بغير موجب شرعي، واجتمع لذلك (السلاخورية) وعرفوه أن الشاب مظلوم، وأن الساقي إنما لثأر عنده غَيْرة على المرأة لكونه وجده عند بابها فلم يلتفت إلى قولهم. والقال والقيل كثير كما هو حال الرعية في زمن خلل الحكم، وأهل القاهرة ومصر في شدة من الغلاء وتزايد أسعار البضائع، ولم تظهر أسعار في زمن الربيع نتيجة، وأمين الدين الطولوني أبو جريدة يركب والحفدة تحيط ببغلته يصيحون بألفاظ متداولة: صلّى الله على محمد [....][1] وما أشبه ذلك من الألفاظ التي تشعر بعظمته ليركب على ذلك [....][2] من السوقة [....][3] عقولهم ولأنهم إذا أجابوه حمل عليهم، ولا يأخذ منهم وإهمال الباشاه وناظر الأموال وقاضي البلدة [....][4] فلا التفات لهم إلى مصلحة متعلقة بفرد من أفراد الرعايا مطلقاً، بل إلى مصالحهم المخصوصة بهم من الجمع والتحصيل، وما هم بصدده من الذهب الأحمر الأصيل، متولي زوائد الأوقاف وبعدم النظر إلى حال الفقهاء المستحقين والإسعاف، [....][5] في يوم السبت ثاني شهر ربيع الأول أعاد عبد الرحمٰن شلبي قاضي مصر قضاة الصالحية الأربعة إلى [....][6] الأربعة على عادتهم القديمة وكان السبب في ذلك أن البدر القرافي المالكي بالباب الحكمي قال له: [....][7] الباب الحنفي لما رفع إليه المتحصل في ذلك اليوم من المحاكم جميعها واستقله: إنَّ شأن محكمة والدي بالصالحية لما كان منفرداً في إيوان المالكية في اليوم الواحد أكثر من ذلك، فنقل قاضي الباب ما ذكره إلى أُستاذه فطلب البدر القرافي وقال له: أعِدْ عليَّ ما قلته لنائبي، فأعاده ولم يغادر حرفاً منه، فأمر من وقته بتفرُّق القضاة [....][8] بحكم وانفراد كل مذهب بإيوان، كما كانوا من قبل طمعاً في زيادة المعلوم، ولعمري لو كان هذا التنبيه على أمر من أُمور الدين، أو لمهم من مصالح المسلمين، لم يلتفت إليه ولم يعول بذكره عليه، وكان القاضي برويز سابقاً أول مَن جمعهم ليقل أربهم في حالة الاجتماع ويمتنع اتفاقهم على الرشوة في الغالب، مقصداً جميلاً وفيه شائبة الرفق بالرعية، ثم فرّقهم بعده القاضي حسن بن عبد المحسن من جمعهم [....][9] لما قصده القاضي برويز السابق، فكان في إعادتهم لطرق الجمع والتحصيل على أيِّ وجه كان، وسيرته في هذا المعنى مشهورة بالقاهرة.

(١ ـ ٩) بياض في الأصل.

والقاضي يحيى والد البدر القرافي المالكي، محكمته بالصالحية مشهورة بكثرة لانشغال خصوصاً من اليهود، فإن لهم ميلاً إليه في أَشغالهم، فلذلك ذكر ولده للنائب ما تقدّم ذكره.

وفي شهر ربيع الأَول أُجْهِر النداء بالقاهرة يمنع عمل الأَفراح، بالمغاني والمواشط، ومَن اشتهر بذلك قوبل عليه (؟)، فتوقف الناس عن استعماله إلا بعض الأَعيان، بالإِذن في ذلك من الباشاه.

وفيها وردت الإِخبار ضمن المكاتبات من مكة المشرفة تاريخها من صفر الخير: بأَن إِبراهيم بن المهندار في همة عالية لتشمية العين من عرفة إلى مكة، وأَنَّ الشريف حسن أَمير مكة توجه إِلى عرفات، وصحبته ولده أَبو القاسم، والقاضي حسين المالكي لضيافة إِبراهيم، فاستمرّا عنده بعرفات من يوم الأَربعاء إِلى يوم الأَربعاء من مثله، ثم قصدا العود إِلى مكة، فركب وصحبه إِبراهيم المذكور، ومَن معهما لقصد مكة المشرفة، فتأَخر الشريف أَبو القاسم بن حسن بن أَبي نُمَيّ بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان عن والده وجماعته ليشرب ماء، فشرب ثم لحقهم مُهَرْوِلاً وكان الوقت عشاءً، فسقط هو وفرسه في بعض الحفر التي صُنِعت لتمشية ماء عرفة، فبادر عبدٌ له راكباً ورمى بنفسه عليه وهو راكب، فوقع عليه بفرسه، فكان ذلك مُعْيناً على قتله، واستشهد رحمه الله تعالى وجيءَ به إِلى مكة المشرفة وصلّى عليه صلاة الصبح، ودُفن بالمعلاة إِلى جانب عمه الشريف أَحمد بن أَبي نمَي وذكروا أَنه وقع الصلح والاتفاق بين عِجْل بن عرار وذوي عَنْقا، وأَن الشريف عِجْل بن عرار على حافة الزوال، وأَما الأَسعار بمكة فالسمن بثلاثة أَنصاف وعثماني الرطل، واللحم بملّحق وعثماني الرطل، والقمح كل أَردب بثلاثة دنانير من الذهب ونصف، ثم ورد الخبر بعد ذلك بوفاة عِجْل بن عرار بن عجل بن رُميح، وزير مكة وابن وزيرها، وصهر الشريف نجم الدين أَبي نُمَيّ بن بركات زوج ابنته، وكان من أَعيان بني حسن هو ووالده، وكانا متقدمين عند الشريف أَبي نُمَيّ وأُمور الموسم وخدمة أُمراء الحاج الوافدين إِلى مكة المشرفة منوطة بهما، ولنابه وبوالده صحبة أَكيدة، ومودة مديدة، أَحسن الله مثواهما.

وفي شهر ربيع الآخر حضر الأَمير محمد ناظر الحرم الشريف النبويّ ـ على الحالّ به ضريحه أَفضل الصلاة والسلام ـ من المدينة معزولاً عنها بسؤال منه، وطلب من أُستاذه مولانا السلطان ـ نصره الله تعالى ـ فإِنه كان من (الجاشنرية)، وهذه الوظيفة عبارة عن مَن يحمل الصحون وآلة الطعام، ويقدمها إِلى السماط، وتعلّل بأَن هواء

طيبة لا يوافقه، وأنه لا يزال بها مريضاً، وكان به مرض البواسير وأفواه العروق، فكان في سؤاله البُعد عن حضرة الرسول ﷺ وحضر إلى القاهرة بحراً في أوائل الشهر المذكور، فكانت وفاته في أواخره، وخرج نعشه من خطّ جامع قوصون، فإنه كان نزل بالمكان الذي كان به شيخ الحرم الذي أخذ عنه، ودُفن بالقرب من القاضي بكار، بالقرافة عند القبور المستجدة بعد وفاة علي باشاه أغا، ودفنه بتلك البقعة، تغمّدهم الله برحمته.

وفي شهر ربيع الآخر جهز الباشاه عسكراً إلى مملكة الحبشة بعرض من أزدمر باشاه نحو الست مئة، ففرّ من عسكره جمع من أجناس مختلفة، وأشخاص دنية كالحبش (؟) والصعايدة والغلمان ومن أهل الشام، وعين تاب وحلب، وصرفت لهم جوامك، وتوجهوا إلى الحبشة في هذا الشهر، بعد أن حصل منهم بالقاهرة وأعمالها من المفساد ما لا ينحصر، كخطف أسباب الناس والمأكولات والفساد والنساء والصبيان، ولما أن توجهوا ومضى على ذلك مدة جاءَنا الخبر بوفاة أزدمر باشاه قبل وصولهم إليه، فاستمر (الجاويش) الذي توجه بهم على حاله، إلى أن أوصلهم إلى المحل الذي به نائبه، والعسكر الجركسي، وعاد إلى القاهرة في شعبان، فنسأل الله اللطف بعباده.

وأما أمر عين عرفة وأخبار المعمارية بها، فورد عليَّ مكتوبٌ من صاحبنا الشريف حسين بن الشريف زين العابدين المالكي المكي، تاريخه مستهل ربيع الأول، يذكر أن إبراهيم المعمار في همة زائدة، وأنَّ قاضي مكة فضيل شلبي بن علي الجمالي، والقاضي حسين المالكي، وخير الدين أمير اللواء بجدة، وإبراهيم المعمار، توجهوا إلى جهة بطحاء قريش، على أنهم يجروا العين من تلك الجهة، ويبطلوا العمل من جهة المفجر، واتفق الرأي على ذلك، وشرع إبراهيم في بناء مصانع [. . . .][1] وتكسير لبناء قناطر، من غير عمل زبيدة إلى بطحاء قريش، ثم اطلع على تاريخ الفاكهي بمكة ذكر فيه عين عرفة وعين مشاش وأن طريقهما إلى مكة غير طريق عمل زبيدة، ثم إن الأمير إبراهيم وقف على ذلك الدبل الذي ذكره صاحب التاريخ، وشرع في تنظيفه وتنظيف الدبل الثاني من جهة عين مشاش وحياضها، من وراء جبل الرحمة المعروف عند الفقهاء بإلال، متصلة إلى جبل أعلى جبل يقال له المقطع، ثم إلى ثنايا جبل الحل، ثم إلى عين حُنين التي هي عين مكة المعهودة.

وذكر المؤرخون في كتبهم أن معمر الجوبانية بالمدينة المنورة هو الذي

---

(١) بياض في الأصل.

المجري (؟) لهذا الدبل في القرن الرابع وأنه مَجرى قديم من تلك الأَعوام، وكان السبب في عمارة الجوبان لذلك أن القِرْبَة من الماء وصلت في ذلك الزمن إلى عشرة دراهم، فأَجرى الله على يديه هذا العمل، واستمرت على عين مشاش إلى حنين، فأَقامت نحو ستة أشهر تحريراً، وذكر أيضاً أنَّ إبراهيم المعمار قصد أن يشتري رباط العراقي الذي بالصفا مقابل رباط أيوب، وكذلك البيتين الملاصقين له وتبدل عوض الأَماكن المذكورة، وتكلم مع القاضي عبد الله بن أَبي البقاء بن ظَهِيرة الناظر على الرباط، وأن يعوضه على معلومه به في كل يوم مُحَلَّقاً، وأنه أَراد أن يشتري دار الخيزران التي هي دار الأَرقم بالصفا، ويجعلها مدرسة، وأنه طُلب في ثمنها ستة آلاف من الذهب، وذكر أنه وجد بنعمان عيناً أخرى تسمى عين الثما [. . . .][1] ماءً كثيراً، وهي مضافة إلى عين عرفة، وشرع في تنظيفها وعملها وإصلاحها، فاعتبر من وجه الأَرض إلى [. . . .][2] الأَرض اثني عشر قامة، ووجد بها ماء يكثر، فهيأَ إبراهيم المعمار مئة عامل يشتغلون [. . . .][3] ونظف جميع الفقر التي بنعمان حتى صار الماء الآن على وجه الأَرض، وملخص ما وجد في تاريخ الفاكهي أن جوبان حجّ في عام أربع مئة من العراق، فرأى الناس على غاية من تعب العطش، وكل قربة تساوي عشرة الدراهم، فلما أن توجه الحاج، وقف على عمل زُبيدة فرأى العمل وقفَ هناك، فشرع في عملٍ هذا الدبل الذي وُجِد الآن إلى أنْ جاء به من وراء جبل الرحمة، على الْمُغَمِّسِ، على جبل الْمَقْطَع على [. . . .][4] الحل على عين مشاش إلى أن صبّ العينين في عَيْن حنين. هذا ما وُجد في التاريخ.

وهيأ له إبراهيم المعمار خمسة وسبعين عاملاً لتنظيف الدبل، ووجد العين مستمرة على المغمس، والدبل بناؤه جديد، وكأَنَّ الصناع قد فرغت منه الساعة، وله من حين عمله خمس مئة وسبعون سنة، وطلب إبراهيم المعمار عبد النبي الميقاتي الرومي قبل ذلك، تهدّده بكل موعد، وحلف بالله إن لم يعمل بنجاز أمر العين، فعلت بك وصنعت، وهذا التوعد لما أن كانوا في عمل المجرى، وما حصل منه نتيجة، فلما أن حصل هذا الدبل قال له: لأَيِّ شيْءٍ ما أخبرتني أَنَّ هذا الدبل موجود وأنه رايح على المغمس؟! فأَجاب: إننا وجدنا هذا الدليل وظننا أَنه [. . . .][5] لعلم زبيدة فتركناه، واستمر الأَمر على العمارة.

ثم ورد عَلَيّ مكاتبة من صاحبنا الشيخ الإمام العلامة القدوة، نابغة أهل الأَدب،

(١ ـ ٥) بياض في الأصل.

مُلاً قطب الدين بن ملاً علاء الدين النهروالي الحنفي مفتي الحنفية بمكة المشرفة ونابغة أهل الأَدب بها، أسبغ الله عليه ظلاله، يقول: تاريخها مستهل شعبان المكرم، يقول في مطلعها:

أَخِلاَّيَ في أكناف مِصْرَ على الذي ... مقيمون أنتم أم نسيتم إخائيَا
وإني لحسن العهد لَمْ أَكُ ناسياً ... لطول النوى يوماً ولا متناسيا
وذكركم في حَضْرَةٍ حَرَمِيَّة ... فلا تخلوني في مغيبي تاسيا
ولم أدع في تلك المواطن دعوة ... إلى الله إلا كنتم شركائيا

إلَى أن قالَ: وإن الأَسعار رخية وقد حصل عدة أمطار وسيول، وجَرَتْ عَيْن حُنَيْن، وامتلأَت بركة المصري والشامي، ووصل الماء إلى بركة ماجد، وزرعوا الناس أسفل مكة البقول، ولا تجد الحجاج في هذا العام مضايقة في أمر الماء إن شاء الله تعالى، وأما الأَمير إبراهيم فهو في تعب عظيم ومشقة شديدة في قطع حجر المفجر، الذي خلف مِنَى من بئر زبيدة إلى بركة السَّلَم، وقد اجتمع عنده من حجَّارين أرض الحجاز نحو ست مئة حجَّار، وعنده من البنّائين والنجّارين والحدّادين ربما أربعة آلاف نفس، وقد قطعوا مقداراً كبيراً ولعله يقارب النصف من العلم، حصل عيوناً أخرى في أرض النعمان، وأضافها إلى عين عرفة، فصار الماء كثيراً جدًّا ووصل الماء إلى مُزْدَلفة وهو يسيل لنفسه [....][1] فقاسه المملوك فوجده نحو الذراع عمقاً ونحو الثلثي ذراع عرضاً، وله دوي عظيم وصار مفترجاً للناس يضربون عليه الخيم للتنزه، والله سبحانه وتعالى يسهِّل مجيئه إلى مكة المشرفة.

وكتب إلَيَّ في هذا التاريخ أيضاً صاحبنا السيد الشريف حسين بن زين العابدين المكي المالكي أنه لم يتجدّد بأَرض الحجاز سوى الستر والسلامة وحصول الأَمطار وجريان العين القديمة واستمرارها حتى ملأَت بركة ماجن، وجميع الحواصل التي هي على جادة العين والفقر والبساتين وزرعت بركة ماجن وصار (الوصل) (؟) من الماء بفلس كبير وقربة الحجازية بفلسين صغار، وأَن الماء في العين لم يصعد قبل الآن في القوة، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى بالجملة والتفصيل: مكة الآن ريف بحيث أن السمن بنصفين إلا قشقوش (؟) والجبن ثلاثة أرطال بمحلقين شيء بكثرة فالله تعالى يديم ذلك على المسلمين.

---

(١) بياض في الأصل.

ووصل مركب من دابول وأخبروا بموسم عظيم من الهند، وكتب إليَّ أيضاً الشيخ العلامة ملاً قطب الدين النهروالي مكاتبة تاريخها خامس رمضان يقول: وإن سألتم عن أحوال مكة فبرك الحاج مَلآنَةٌ بحمد الله تعالى، وكان حصل بعض مطر وجرت عين حنين وملأت البرك ثم ضعفت وهي الآن تجري بضعف بحيث يكفي للشرب، وأما عن عين عرفة فأَصلح إبراهيم المعمار دبولها من وادي النعمان إلى أن وصلت إلى بئر زبيدة، وهي خلف منى، ومسافتها نحو الأربعين ألف ذراع بالعمل، جُدِّد جميعه ورُمِّم وبُني ما كان يحتاج إلى البناء ولولا أن تداركه الله تعالى بهذا الترميم لانطمست عين عرفة، وما كان بقي لها أَثر ولكن هذه التي بنعمان نفعت جدًا وأَحيت العين المذكورة، فلما انتهى الترميم إلى بئر زبيدة عمل الأمير إبراهيم سماطا عظيماً، وطلب أعيان مكة وفقهاءَهَا وتجارها إلى بئر زبيدة، ونصبوا هناك الخيم والسحابيات، فصار يشبه يوم عرفة لكثرة الخلائق، فإنه ما تخلّف عن ذلك اليوم أَحد من الناس ومدّ لهم سماطاً عاماً وأكلوا منه، وقرىء مولد عظيم وأطلق الماء إلى أن صُبّ في بئر زبيدة وانشرح الناس بذلك وصدقوا بوصول الماء، وكان يوماً عظيماً مشهوداً، وذلك يوم الخميس ثامن عشري شعبان، واتفق للأمير إبراهيم المعمار مع ذلك وصول قاصد من مصر يبشره بالترقي خمسين أَلف عثماني، فكان ذلك من الاتفاقات العجيبة والله تعالى يسهل لتكميل ذلك إلى أن تدخل العين إلى مكة إن شاء الله تعالى، وقد بقي عليه من العمل قطع نحو أَلفين ذراع طولاً في الحجر الصلد اليابس في عرض خمسة أَذرع في عمق أربعين ذراعاً، وجمع عليه الحجّارين من كل ديار، فقطعوا إلى تاريخه مقدار نصف ما يجب قطعه، وبقي عليهم النصف فإن وصل إليه من مصر حجّارون غير هؤلاء فلا بد أَنْ يتم عمله في أربعة أشهر تقريباً إن شاء الله تعالى، وفي الحقيقة هذا عمل يعجز عنه الجان فضلاً عن الإنسان ولكن همّة الرجال تقطع الجبال وليس الخبر كالمعاينة، وستأْتون في خير وتحيطون علماً بذلك رأياً بالعين إن شاء الله تعالى.

وأما مقدار الماء فغزير جداً، فإنهم قايسوه نحو مئة وخمسين (لولة) كل (لولة) في غلظ الإبهام وإذا صَحَّ ذلك إن شاء الله تعالى صارت مكة ريفاً من الأَرياف، وما تصير إلا مثل الشام.

وفي هذه السنة كانت وفاة صاحبنا القاضي برهان الدين إبراهيم ابن أَقضى القضاة تاج الدين بن يعقوب المالكي، وهو على قضاء زبيد [....][1] وجميع أهل

(١) بياض في الأصل.

إقليم اليمن عنه راضون، ومن حسن سيرته شاكرون، تغمّده الله برحمته وولي عوضه [....][1] صاحبنا الشيخ الإمام العلامة محب الدين حبيب الله بن علاء الدين النهروالي الحنفي، ولعله يزيد على المتوفى في الخلال الحميدة والأقوال السديدة مع كثرة التواضع واللين، وجميل التودد، وحسن السيرة في قضايا المسلمين أحسن الله تعالى عاقبته.

هذا ما نُقل إلينا من أخبار مكة واليمن وأخبار عين عرفة.

فلنرجع إلى بقية الحوادث، فنقول: وفي نصف جمادى الأول، ورد من الباب السلطاني أحكام على يد قاصد مصطفى باشاه مصر، من جملتها الانتقام من خمسة أنفار، من أمراء الألوية بمصر، بأخذ ألويتهم، وقطع رواتبهم، ومطالبتهم بما قبضوه من ذلك، من ابتداء بروز الأمر السلطاني بذلك، وأن يتوجهوا إلى بلاد قرمان ليقيموا بها، وجعل لكل نفر منهم في السنة من الفضة العددية عشرة آلاف، ويقال: إن ذلك سببه واقعة إبراهيم بن المهمندار مع أحمد شلبي البرصوي، وكل مَن شهد عليه أو تكلم في حقه نقم عليه بذلك، والخمسة المعنية في الأحكام هم أحمد شلبي البرصوي ناظر أموال مصر سابقاً، وصابح المرافعة التي شرحنا بعضها في محله، وخير الدين نائب جدة، وولى عوضه شخص من أمراء الألوية أصله (دفتردار) السلطان سليم ابن مولانا السلطان سليمان، ومراد الذي كان نائباً بجدة سابقاً، وانتقم منه قبل ذلك، ثم أعيد إليه اللواء والشعار، ثم اتفقت له هذه المجرية (؟) فلم يلبث غير أيام قلائل، وتوفي بالقاهرة في شهر شعبان قبيل خروجه وسفره إلى قرمان، ويقال: إنَّ خير الدين نائب جدّة توفي أيضاً بمكة، وأحمد شلبي المنعوت بصاغر - أي الأصم - وهذا أصله من (المقاطعجية) بقلعة مصر، وتنقّل في المراتب إلى أن صار أمير لواء، ثم نائب جدة، فأقام بها سنوات، ثم عاد إلى القاهرة معزولاً بخير الدين المذكور قريباً، فاتفق له ما ذكرناه، ومحمود بن قانصوه البرج، وكان من أكابر أمراء الألوية بالقاهرة، وتوجه الثلاثة الأمراء من القاهرة بقصده بلاد قرمان على حالة أودت بهم ولله الأمر.

وفي شهر جمادى الأول وردت الأخبار من المملكة الرومية بأن مولانا السلطان بلغه أن ولده سليم شاه قد كثر ترداد أهل الضرورات والولايات والمناصب إلى بابه، والتماسهم منه العرض إلى أبيه لحوائجهم، وقد كثر ذلك بعد قتل أخيه بايزيد،

(١) بياض في الأصل.

وتحققه ولاية العهد بعد أبيه، فغضب السلطان لذلك، وكتب إليه يعنفه ويهدده، وتهدد جماعات من خواصه نسبهم إلى إغرائه في كثرة اجتماع النَّاس عليه، كل ذلك خوفاً من تغير حال ولده، وأمر بقتل شخص من ندمائه يقال له دراق شلبي، كان خصيصاً به فقُتل، ويقال: إنه كان زامراً مجيداً، وأمر ولده سليم أن يتحول من كتاهية، ويقيم بأماصيا التي كانت وطن أخيه مصطفى المقتول سابقاً، وقصد بذلك بُعده عن النَّاس، وعن مملكة أبيه، وحصل بسبب ذلك رَجٌّ كبير بين الرعية والعساكر، وقلقلة ويقال: إن علي باشاه الوزير الكبير أشار على السلطان بعد هذه الواقعة بقلة الركوب إلى الصيد خوفاً من مغادر يدسه عليه ولده، في محل انفراده لأجل الملك، والله أعلم بحقيقة ذلك، مع أن السلطان ـ نصره الله تعالى ـ اختار لولاية عهده ولده سليم دون بقية أولاده الذين قتلهم، مع المباينة بين سيرته وسيرتهم كما يقال، وقد قال الله عزَّ وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] إلى آخر الآية، وقال عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ولعلّ السلطان، والله أعلم، تحقّق حصول الفتنة بين أولاده من بعده فتؤدي إلى هلاك خلق كثير، فكان الفرق في القتل هنا وهناك ظاهر.

وفيها في عشية الليلة المسفرة عن يوم السبت ثامن عشري جمادى الأول، ورد الخبر بوفاة أزدمر باشاه مملكة اليمن سابقاً، والمتولي لجهاد ممالك الحبشة وكانت وفاته ضحوة يوم الجمعة الثلاثين من ربيع الأول، بقرية من قرى بلاد السحرت، يقال لها التقبين ـ بفتح الباء الموحدة التحتية ـ بالقرب من مدينة دويسة، والمشاع أنه تمرّض قبل وفاته، يوقال: إن تمرضه بسبب طعنة من حراب الحبشة، وفدت عليه على غير اكتراث منه، وفي قلة من عسكره، وغفلة منهم بحيث لم يشعروا بذلك، لكتم ذلك عنهم، وتمرّض إلى أن توفي، ووجد أثرها في سجده بعد موته، وحصل بموته استبشار لغالب المسلمين والنصارى، أما المسلمون من العساكر وذويها وغيرهم فلما فني على يده من أعداد العساكر الذين قتلوا في حرب الحبشة، وفي هجرتهم هذه معه، وتركوا أولادهم وعيالهم ونساءهم في ضيق العيش مع الشدة، والتشديد على نسائهم في عدم الإذن من باشاه مصر في طلاق مَن سألت فيه بحكم الشرع، وغيبته عنها بغير منفق، ولا كتاب، ولا وكيل، وضيق أحوالهم جدًا، ووقوعهم في المكاره بسبب ذلك، كما لا يخفى ذلك في هذا الزمن، وأما النصارى الذين هم أهل مملكة الحبشة فلراحتهم من حوادثه ولعمري كم أزهق في حركاته إلى اليمن والحبشة من أرواح لا تتعدد وأموال سلطانية تبيد وتتجدد، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وذكر القاصد المخبر بوفاته أن له ستين يوماً من تاريخ وفاته إلى يوم حضوره، وأنه قدم بالمكاتبات من صاحب مِصْوَع (؟)، وله من مِصْوَع أربعة وأربعون يوماً، فإن الأمير إسماعيل صاحب مِصْوَع جهز هذا القاصد منها، وكذلك الحدربي أمير سواكن، لما بلغه الخبر، وذكر أنه لما حضرته الوفاة عهد لأحد مماليكه الخواص بالقيام بأمر العسكر والمذكور يسمى يُوسف كجك، وكان كاتبه ومتقدماً عنده، وأمر العسكر بطاعته إلى أن يرد أمر السلطان بما يختاره من قتال الحبشة أو تركهم، ومن جملة قوله لأكابر العسكر: كونوا كالحزمة الواحدة، وأُحذركم من تفرُّق الكلمة فإن الحزمة الواحدة لا تنكسر إلاَّ إذا تفرقت، وكانت وفاته في بلاد النصارى غريباً فريداً من أهله وولده، وأمره إلى الله تعالى لأنه كان سبباً لفتح أبواب الشرور على العساكر التي ذهبت فناءً على يده، وعلى السلطان [. . . .][1] أموال خزائنه في تجهيز العساكر له، كما اتفق مثل ذلك من جانم الحمزاوي أيام سليمان باشاه في أمر الهند واليمن، وفتح أبواب الشر على أهل تلك الأقاليم من الصلحاء والأشراف، كصاحب عدن فإنه صلب [. . . .][2] ولقتل مَن قُتل من أصحاب الإمام الزيدي، ومن العساكر السلطانية، مع أن أهل تلك الجهة أشراف مسلمون، وبهذا السبب كان ابتداء عمارة بندر السويس، والمراكب الحربية، ومسك الرجال من الأقاليم بالعنف والعسف في السلاسل والأغلال والقيود والثقال، ومفارقة أولادهم وأهاليهم إلى المقاديف، كما لا يخفى أمر ذلك من حين البداءة به إلى هذا التاريخ، فكان لما ذكرناه من الأسباب البالغة في خراب المملكة المصرية جدًّا، والمذكوران سيان في ذلك، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

وفي مستهل جمادى الآخر جهز عثمان ولد أزدمر باشاه شخصاً من خاصته يسمى محمد جاويش ونفرين من مماليكه، وهما خضروه جاويش بابه، ويوسف أباظا، بسبب مخلفات والده، وضبطها، وضبط المماليك التي تركها، ويقال: إنَّ عدتهم نحو الأربع مئة، وكلها كاملة الأسلحة وآلات الحرب والخيول والخدم، وأن المعتوق منها نحو الثلاثين فقط.

وفيها كانت وفاة ميناس النجاشي ملك الحبشة، وهو أخو أطناب سَكد، الذي كان ملك الحبشة قبله، وكانت وفاة ميناس بعد وفاة أزدمر باشاه، ويقال: إنه كان قصد أن يبغت عسكر أزدمر باشاه، وينهب ما في (وطاقه) لما بلغه وفاته فنزل بمحل

(١، ٢) بياض في الأصل.

بينه وبين عسكر المسلمين بعض فراسخ، ويقال: إنه كانت به جراحة أودت به في بعض غزواته لممالك الحبشة، فلما عزم على ذلك أصبح مَيِّتاً من تلك الجراحة ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وتفرّقت عساكره بعد وفاته.

وفيها في يوم الأَحد السابع من جمادى الآخرة حضر يعقوب جاويش الذي جهزه عثمان بن أزدمر باشاه لـ(أَرمغانه) إلى الباب السلطاني يسأل في الاستعفاء من ولاية إمرة الحاج، وعاد بحراً في يوم تاريخه وعلى يده حكم سلطاني أن يُزاد في علوفة عثمان عشرون ألفاً من العثامنة بعد إعفائه من إمرة الحاج، وولاية عيسى بن إسماعيل أبي حُنيش (؟)، كنا قدمنا ذكره، ثم عقبه في يوم الجمعة ثاني عشر الشهر الذكور محمود أحد جاويشية الباب السلطاني، والمذكور كان بمصر قديماً من أتباع باني شلبي أمين الشون السلطانية، وله إلمام بالقاهرة وأهلها، وانتظم في سلك خدمة علي باشاه الوزير الكبير، لمعرفته به لما كان باشاه بالديار المصرية فرقاه إلى أن صار من جاويشية الباب السلطاني، ولما أن حضر اجتمع بمصطفى باشاه وأظهر (؟) ثلاثَ عشرة حكماً لم يمضِ الباشاه منها سوى ولاية إمرة الحاج والسحابة لعيسى المشار إليه وقد قدمنا ذكر ذلك بما يغني عن إعادته، وأحضر محمود المذكور حكماً سلطانياً بالنظر في أحوال إمرة الحاج إلى أن يحضر عيسى، فَأُذِنَ له في ذلك، وباشرت على ما جرت به عادتي، وشرعت في الأَسباب، وكانت أمور وأحوال وقلاقل بسبب حضور حسن بن حماد بن بغداد من المنوفية إلى القاهرة معزولاً بولاية عيسى لإقليمه، والقال والقيل يزيد في كل يوم، ثم إن باشاه مصر أقرّه على ولايته وألبسه تشريفاً باستمراره وأبطل ما كتب لعيسى حيث أن الحاضر يرى من المصلحة ما لا يراه الغائب، وكتب إلى الباب عروضاً من تلقائه، ومن قاضي مصر مع خطوط أكابر المملكة بما اقتضى رأيه من عمارة إقليم مصر، ووجه ذلك صحبة أحد مماليكه إلى الباب قبل حضور عيسى إلى القاهرة. وكان استقرار حسن بن حماد في أواخر جمادى الآخر، واجتمع النّاس من كل أوب، للتفرُّج على موكب حسن بن بغداد واطلاعهم على ما آل إليه أمره، وفي عقب ذلك ورد من عيسى أمير الحاج مكتوب بأَن يكون قيت بن عبد الله الداوودي (كيخية) الجراكسة نائباً عنه في تجهيز أمور المهم، فحضر إلى منزل عيسى، ونظر في أمور المهم، واستمر على ذلك، ثم في أواخر جمادى الآخرة حضر جاويش من الأَبواب السلطانية، وعلى يده أحكام بنقل أغوات العساكر إلى مراتب فوق مراتبهم، فولى (أغاة الكملية) إمرة لواء، ومحمد

شلبي الملقب بقطزرتا (؟) أغاة الغرب، وأن يكون يوسف عتيق الخواجا خضر ناظراً على الدشايش الشريفة على جاري عادته عوضاً عن حمزة بن إسكندر، وأن يكون حمزة المذكور أمير لواء من أمراء اليمن.

وفي ثامن عشري جمادى الآخرة قبض الباشاه على محمد بن الخبير أمير عربان عزاله، واعتقله بالبرج مقيّداً، وأحيط بأَمواله وداره، ويقال: إن سبب ذلك توجه بهرام ولد الباشاه إلى ربيع خيوله بناحية بشتيل من إقليم الجيزية، فسرق له حصان من خواص خيوله ليلاً مع أصحن وآنية من خيمة له هناك، فإنه أَقام بالربيع أياماً، ولما شدد في الفحص عن السارق حضر إليه سلام بن الخبير أخو محمد، وذكر أن الحصان والصحون موجودة في دار أخيه، فأَرسل الباشاه كبس على دار أَخيه بغتة، فأَحضر له الضائع بعينه فثبت عنده ما كان يشاع عنه من الموالسة على المناسر، ويقال: إن أخاه هو المتعمد لذلك، وإنما نسب ذلك إلى أخيه محمد حسداً له، فكان ذلك سبباً لولايته إمرة عربان عزالة بإقليم الجيزية، واستمر أخوه محمد في البرج، وبهرام ولد الباشاه يصمم على قتله، ويقول لأَبيه: إنه انتهك حرمة محلى بالربيع! وكلما بلغ محمد ذلك بادر إلى استنقاذ مهجته، وبذل الأَموال، فجمع مصطفى باشاه من ذلك قدراً جليلاً إلى الغاية، مع ما حصّله من حسن بن بغداد فيقال: إنه أخذ منه بمرافعته (؟) مع عيسى إلى حين استقراره في محله نيّفاً وأربعين ألف ذهباً.

وفي آخر جمادى الأَول ورد محمد الصابوني قاصد أَمير مكة من الحجاز، وبصحبته أَنفار من مماليك محمود باشاه اليمن جهزهم إلى الباب السلطاني، بعروض في مهماته، فأَخبروا أَنه تعرض له عربان بَلِيٍّ الأَحامدة، وأَخذوا من قاصد محمود باشاه من الذهب أَلفاً ومئة وخمسين ديناراً، وقبضوا على مملوك عوقوه عندهم رهينة، وذكروا أَن ذلك عوضاً عما قطعه عثمان أَمير الحاج في الخالية من صررهم، وما أَخذه من جِمالهم وخيولهم، وشكوا إلى مصطفى باشاه واقعتهم، فأَرسل إلى عثمان جاويشاً يأمره بدفع مال الأَحامدة عنده فلم يبدِ عن ذلك جواباً.

وفي شهر تاريخه أُشيع في جميع نواحي إقليم القاهرة بأَن إبراهيم معمار عين عرفة حصل له في عقله خبال واختلال، ولم يصح ذلك، ثم حضر عقيب ذلك من مكة مملوكان له صحبة هجان، فلما وصلا إلى بركة الحاج في العشر الثاني من شعبان وجدوا ثلاثيتهم مقتولين في بعض نواحي البركة، ولم يعلم قاتلهم [. . . .][1] وأَن

---

(١) بياض في الأصل.

الشهاب أحمد كيخية داود باشاه كان ببركة الحاج لعمارة له في غيط أستاذه [. . . .][١] في زمنه فوجد خرجاً مطروحاً فيه أسباب ومكاتبات حجازية، فأخذ بعض الأوراق وقرأها، فإذا هي مجهزة من إبراهيم معمار عين عرفة، فأرسلها إلى الباشاه، وقرئتْ عليه فإذا مضمونها: الرخاء العظيم والسيل المفرط. فاستبشر النّاس بذلك، ثم أمر الباشاه بالكشف عن أحوال محضر ذلك الخرج، فوقع الفحص عن ذلك ببركة الحاج، فإذا بالمملوكين والهجان موتى، وأحد المماليك قد قطع عضده بسيف، والآخر فيه ضربة مزراق خرجت من الجانب الآخر، وأصابت جعبة النشاب، فنفذت منها، والهجان مقتول طريح، وكان في هذه السنة قد كثر تواتر ورود بني عطيّة لدرب السويس، ونهبوا وسلبوا في هذه المدة ما لم يتفق قبلها، وقلّ الأمن لحمل إمرة الحاج، فإنهم نهبوا من حمله، ومن حمل الخولي زين الدين بالسواقي، ومن جمال السلطنة الحاملة للخشب، وقلّ الأمن خارج البلد كما هو داخلها.

وكان وصول عيسى بن إسماعيل إلى ساحل إسكندرية في يوم الخميس مستهل شهر شعبان، بعد قلاقل واختلاف بين الرعية بالقاهرة والأقاليم، فمن قائل: إن السلطان قتله، ومن قائل: إن الفرنج أسروه بمركبه، ومن قائل: توفي ودُفن بساحل من السواحل المالحية، ومن قائل: إن الريح رَمَى بغرابه إلى بلاد الفونج أو المغرب، وكثرت الإرجافات في شأنه لطول مدة غيبته، وأراد مصطفى باشاه ولاية ابنه بهرام أميراً على الحاج عوضه، لضيق الوقت عن عمل المصالح، وهَمَّ بذلك، فكان ورود الساعي من إسكندرية، وأخبر أنه أرسى بالغراب السلطاني على الساحل في يوم الخميس، وأنه أقام بإسكندرية ثلاثة أيام ثم قدم (بالغراب) (؟) إلى ثغر رشيد، فأقام به يوماً وبعض يوم، ورحل في الغراب على حاله قاصداً ساحل بولاق، فهرعت لنّاس لملاقاته واستمروا في كل يوم يخرجون ركباناً ومشاة إلى ساحل بولاق وشبرا ينتظرون قدومه ورؤيته، والأكذاب متواردات، فلما كان يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان ضحوة أرسى على ساحل القرية المعروفة بالوراق، وتوجهت غالب الأعيان في الشخاتير والـ [. . . .][٢] قبات للسلام عليه وهو بالغراب وكنت ممّن توجه لذلك، فاجتمعت به داخل الغراب، ورأيته في غاية الأُبهة والنظام الملوكي، وأقام في ذلك المحل يوماً وليلة، فلما كان صُبيحة يوم الأربعاء رابع عشر الشهر مَرّ على ساحل بولاق داخل الغراب وهو جالس على كرسي، وعلى رأسه المظلة، وفنيار من الذهب الأحمر مُعلق

(١، ٢) بياض في الأصل.

في مقدم الغراب، وقد اجتمع الخلائق للنظر إليه من كل أوب، بعد تلك الإشاعات عنه، وقطع النظر عن قدومه ـ كما قدمنا ذكره ـ فأرسى الغراب على الجزيرة الوسطى، ونزل حينئذ من الغراب على درج من الخشب، وقدم إليه فرس مكمل العدة بالسرج المحلى والسلسلة من الفضة جهزه إليه مصطفى باشاه مصر على يد (أمير آخوره) سوار والنّاس يحققون فيه النظر، ويكثرون من الاجتماعات لملاقاته إلى قلعة مصر، من طريق خطّ قناطر السباع، ولم يمر بالشارع الأعظم، الذي هو قصبة البلدة، وقد اجتمع الخلائق في ذلك الشارع كيوم توجه المحمل من القاهرة بل أعظم، واجتمع النساء والرجال والصبيان على الدكاكين والسقائف لانتظار قدومه عليهم، فلم يمر من ذلك الخطّ بل قصد ظواهر البلدة ودخل إلى قلعة الجبل من باب الميدان السلطاني ومعه جماعة من (الجاويشية) وجماعة من (الانكشارية) وصعد من السبع حدرات، فاجتمع على الباشاه وألبسه تشريفاً مذهّباً ونزل إلى داره في موكب غير حافل، لتغير خاطر الباشاه عليه، كما قدمنا ذكره، ولعدم اهتمامه بشأنه، واستمر على إمرة الحاج ونظر السحابة، ولم تزل أحواله عند الباشاه من يوم قدومه في تناقص بالنسبة لما ذكر من شأنه للمملكة الرومية، وفوض أمور المهم إلى قيت، (دواداره) مع المشقة الزائدة في جميع حركات المهم وأحواله، خصوصاً أمور الحمل، وشرود العربان عن الحضور إلى باب أمير الحاج، وتهاون الحكام في أمرهم مما لم يشاهد مثله قبل هذه السنة.

وفيها في العشر الأخير من شهر رجب حصلت هوشة بالحوش، من إقليم الجيزة بين أولاد عامر وعربان الجواشنة وقطاب، فكانت بينهم مقتلة عظمية، قتل فيها من أولاد عامر شاب يدعى مؤمن بن أبي جازية من أقارب عيسى، ومن الجواشنة عددٌ وافرٌ، يقال في عددهم مئة خمسون ويقال: مئة ونيف، وذهب دمهم هدراً، وكان السبب في ذلك أن عربان الجواشنة أنزلهم عامر بن إسماعيل بالحوش، في غيبة أخيه عيسى بالبلاد الرومية وكانوا مبعدين عنه في زمنه، فلما نزلوا به أطلقوا بهائمهم في برسيم أخضر، لأولاد عامر، فنهاهم مؤمن بن أبي جازية، فضربه بعضهم بمزراق قتله، فلما بلغ الأمير عامر ذلك أمر بركوب العربان والفزع، فركبوا الخيول وركبت الجواشنة ووقع الحرب بينهم فقتل من قتل كما ذكرنا، ووافق حضور عيسى من الروم يوم الخميس إلى إسكندرية ثالث عشر شعبان فأرسل إلى مشايخ الجواشنة فحضروا إليه وطيّب خواطرهم وأخلع عليهم، فسكنت الفتنة وبطل الهرج، وعدت هذه الهوشة من سوء تصرف عامر بن إسماعيل ومن سخافة عقله، وهو جدير بذلك.

وفيها في عشية الليلة المسفرة عن يوم السبت ثاني شهر شعبان المكرم وصل من الباب السلطاني قاصد مصطفى باشاه، وكان توجه مخبراً بوفاة أَزدمر باشاه، فعاد في التاريخ المذكور، وأُخبر بولاية ولده عثمان، الذي كان أَمير الركب سابقاً، باشاه بممالك الحبشة وجهاد النصارى، بها عوضاً عن أَبيه، وقرر له في كل عام ثمانية وعشرون كيساً، ثم عقبه في الحضور فايق الذي كان (كيخيَّة القابجية) لداود باشاه، فجاء بحراً بالحكم والقفطان، وهرعت الناس للسلام عليه والتهنئة له، لكونه ارتقى إلى هذه الرتبة مع صغر سنه، ولما أَنْ ورد عليه البشير كنت جالساً معه في محله، نتذاكر أَخبار إمرة الحاج، ولعل أَن تعود إليه الإمرة، إلا وقد أَقبل عليه البشير بما ذكرناه، فكنت أَول مَن هَنَّأَه بذلك وشرع في تجهيز أَسبابه والتوجه إلى تلك الأَقطار وأَمر بكتابة طائفة كثيرة من (الانكشارية) وجعل صاحبنا مصطفى ريس من (بلك) طائفة الغرب (أَغا) عليهم، وولى مماليكه (؟) مراتب مناصب الباشية (؟) ورتب جماعته في الوظائف وصار يركب ويمر في شوارع القاهرة و[. . . .][1] ووراءه من العسكر والركبان والمشاة العدد الوافر مما يقارب باشاه مصر، ولم تحمد له أَحوال هذه لمرتبة لصغر سنه وقصوره عن مكابدة الحروب، في تلك الأَقطار وخوف شؤم عاقبته لذلك.

وفي ثالث شعبان وصل إلى الديار المصرية بحراً من المملكة الرومية شخص من أَكابر خدام الباب يسمى أَغا علي كان زمَّاماً للسراية القديمة ويذكرون من أَحوال هذه (السراية) أَن السلطان إذا خرج من دار ملكه لغزو أَو غيره جعل حريمه وخواصه في تلك السراية ويكون المذكور زماماً حينئذ لتلك المحلة، ولذلك كان معظماً وكان قدومه قاصداً إلى الحج والزيارة من طريق مصر، فأَرسل إليه باشاه مصر (دواداره) وأَكابر حفدته ومعهم فرس مسرج من خيوله ليركبه ويصعد إلى القلعة ولاقته الأَكابر وساروا معه إلى أَن نزل بالقلعة المنصورة معظماً، فأَقام بها وكان أَحياناً يتردد إلى منزل أَزبك المكحل للأُنس بساكنه هو الأَمير أَحمد شلبي الذي كان عين للحج وبطل منه، لصحبة بينهما، وقصد التوجه بحراً من طريق السويس فلم يتيسر له ذلك لقلة المراكب بها، فاكترى جمالاً على يد باشاه مصر، وجهزه من طريق البر، ووصل من البلاد الرومية أَيضاً بقصد الحج إلى بيت الله الحرام (قابجي) باشاه حضرة السلطان سليم، واكترى له الباشاه جمالاً، وتوجه من طريق البر أَيضاً. وحجّ في هذه السنة من الأَكابر عبد الرحمٰن شلبي قاضي مصر، فإنه عزم على الحج في شهر رمضان، وكتبت

(١) بياض في الأصل.

قائمة احتياجه برًّا وبحراً وشرع في ذلك ومعه محفتان ونيف وثمانون جملاً، وعين القاضي أَحمد بن شعبان حاكم المنوفية للنيابة عنه بالديار المصرية في مدة غيبته، وكذلك الأَمير أَحمد المعروف بحاجي كيخية، فإنه تجهز للحج في محفة ويرق كبير، وزوجة محمود باشاه مملكة (اليمن) التي هي عتيقة خشكلدي نائب جدة كان، فإنها تجهزت إلى الحج صحبة الركب ومعها ثلاث محفات وستة عشر جملاً من المحاير المغشاة وكتبت لها قائمة احتياجها في نحو المئة وعشرين جملاً، وكذلك الشيخ العلامة محمد بن محمد أَبي الحسن البكري الصديقي الأَشعري الشافعي.

وفي هذه السنة ورد الخبر في شهر رمضان وتواتر نقله عن العدول، أَن مدينة مالطة من بلاد الفرنج خُسِفَ بها وبأَهلها جميعاً، ولما أَصبحوا رأَوا موضع البلد يتفجر ماء، وذكروا أَنه كان بها من أُسر المسلمين نحو السبعة آلاف وقيل خمسة عشر أَلفاً، ويقال: إِنَّ سبب خَسْفها أَنه كان بها من الأَسرى امرأَة شريفة حسنة الشكل، وكانت النصارى يكثرون من الفسق بها وهي لا تزال تنهاهم عن ذلك وهم يغصبونها فنهتهم يوماً وذكّرتهم غضب الله تعالى، فيقال: إِنهم أَجابوها بكلام غير مرضيٍّ في حق الباري عزّ وجل، فدعت عليهم وابتهلت إِلى الله تعالى فأَصبحوا وقد خُسِفَ بهم هكذا قيل، فإِني نقلت هذه الواقعة عمن أخبر بها من لفظ الشيخ العلامة محمد بن أَبي الحسن البكري.

وفي هذه السنة عزل كمال الدين الشامي من شهادة المحمل، عزلاً شنيعاً، وامتنع قاضي المحمل من ولايته امتناعاً كليًا ولم يقبل شفاعة شافع، وذكر أَنه أَمر بذلك من قاضي أَناضولي بالمملكة الرومية، فإِنه ذكرت له سيرة قبيحة وأَحوال شنيعة من قضاة المحامل المتقدمين في السنين السابقة، وشدد على قاضي المحمل في منعه من تعاطي الشهادة، فاستمر على ذلك، ولما وصل الأَمير عيسى من المملكة الرومية أَكد في بقاء منعه تأْكيداً شديداً، وأَنه لا تجوز ولايته لتعاطي الشهادة بين المسلمين واستمر الأَمر على ذلك.

وفي هذه السنة وصل إِليَّ أَخبار من الحجاز، بأَنه وصل إِلى جدة مركب دابولي كبير، وقبله مركبان من قوة (؟) وأَن الموسم الهندي كبير جدًا، وأَن مما اتفق أَن رجلين غصبا ولداً شابًا يُعرف بابن القفصي ففعلوا به الفاحشة رغماً عليه، ثم إِنه وصل أَمرهم إِلى قاضي المدينة وأَميرها فأَمر بإِشهارهما بعد التأْديب، ثم بعد مدة وصل الشريف حسن ووالده أَبو نُمَي إِلى المدينة الشريفة، في العشرين من شعبان المكرم، لزيارة النبي ﷺ، فاعترض الشريف حسن أَبو الولد عند الدخول إِلى الحضرة المحمدية، وطلب منه الإِنصاف بعد تعريفه بما فعلا في ولده، فأَمر الشريف بإِحضار

الرجلين وإشهارهما في المدينة، ففعل بهما ذلك، وأنه حصل مطر شديد وسيول بالطائف وعرفة وكذلك بمكة المشرفة.

وفي يوم الأحد رابع شهر شوال ورد قاصد من بلاد الحبشة على عثمان باشاه بن أزدمر مبشراً له بأن العسكر السلطاني الذي هناك ملكوا دِنْبيَه، وهي من كراسي الحبشة الجليلة، وكانت مقر أحمد المجاهد المكنى بكراد ودار ملكه، والسبب في تملك العسكر لها، أنه لما هلك ميناس النجاشي سلطان الحبشة وبلغ العسكر السلطاني هلاكه وكان نازلاً بالقرب منهم بفراسخ، فطمعوا في نهب وطاقه، وركبوا جميعاً وكبسوا وطاقه ونهبوا كما يقال، ثم طمعوا في أخذ دِنْبيَه لقربها منهم فساروا إليها ودخلوها وتملّكوها، ولما ورد هذا الخبر على عثمان باشاه استبشر وطمع في حصول مراده من الحبشة مع أن هذه الواقعة التي كانت سبباً لظفرهم حصلت قبل اجتماع أهل الحل والعقد من الحبشة على ولاية ملك منهم، ولكون أن كلمتهم متفرقة إذ ذاك، وكان قبل ورود هذا المبشر وردت مكاتبات من صاحب سواكن يذكر أن طائفة الفنج دخلوا إلى سواكن ونهبوا وخربوا، والسبب في ذلك أن لهم على أهل البلد جزء معلوم في الخراج، فحصل بينهم وبين أهل البلدة نزاع في إعطائه فاتفق لهم ما ذكرنا.

وفي يوم الاثنين خامس عشر شوال اتفق حريق كبير ببولاق بجوار المنزل الذي عمره القاضي حسن قاضي مصر، الذي أصله الدار البرادخية وكان ذلك نهاراً فسمع بذلك الباشاة وأعيان البلد، فبادر الباشاه بالركوب وجمع من الصناجق، وكذلك عثمان باشاه الحبشة وجمعوا الناس والسقّائين لطفيه، واتفق في ذلك الوقت ريح عاصفة وهواء شديد في غير أوانه، فلولا مبادرة الباشاه والناس على طفيه لأتي على أماكن كثيرة من ذلك الخطّ، وسلم المنزل الذي عمره القاضي حسن بن عبد المحسن.

ذكر أخبار الحج في عام تاريخه فنقول

وفي هذه السنة كان الركب المصري حافلاً جدًّا، لكثرة مَن اجتمع فيه من الخلائق، فإنه كان من أعيان القاهرة وغيرهم، فمنهم القاضي عبد الرحمٰن بن علي قاضي مصر بعياله في نحو المئة جمل منها [....][1] خاصته وحريمه، ومن الأعيان زوجة محمود باشاه اليمن وأولادها البنات من خوشكلدي، في ثلاث محفات

(١) بياض في الأصل.

[. . . .](١) عشرة جملاً من المحاير المغشاة من المخمل وغيره بتجمُّل فاخر، وعدة جمالها نحو المئة وعشرين جملاً ومحمد الرومي أَمين الشون السلطانية كان، في محفة وترف وجمال فاخرة، وعلى أغا السرايا القديمة بالمملكة الرومية، بمحفة وتجمُّل كبير، وحاجي أَحمد (كتخداي) داود باشاه كان في مَحَفَّة وتجمُّل كبير، والشيخ العلامة جمال الإِسلام قدوة الأَنام إمام العصر محمد البكري الأَشعري الشافعي في مَحَفَّة وتجمُّل فاخر بعياله وأَولاده على قصد المجاورة، وخجا سنان من أَعيان تجار الروم في مَحَفَّة، ومن الفقهاء العلامة البرهوشي مفتي الحنفية، وأَحمد ابن الشيخ عبد العالي الحنفي والشيخ حسن البرديني، وغير مَن ذكرنا من الأَكابر والتجار والفقهاء والفلأحة من الأَقاليم وأَهل البلاد، وخلائق لا يحصون عدداً.

وكان بروز المحمل والزِّينة من القاهرة يوم السبت عشريْ شوال، ومن البركة رحيلاً يوم السبت الثاني سابع عشري شوال، ووصله إِلى عجرود بعد عصر يوم الأَحد، فبات بها وأَصبح بها مقيماً أَيضاً، وعشّي بها وبات إِلى ظهور نجم الصبح، ورحل منها بعد إِقامة يوم وبعض يوم وليلتين، وأَقام بنخل أَيضاً يوماً وليلة، وكان وصوله إِلى عقبة أَيْلة يوم الاثنين السادس من شهر القعدة، والعاشر من الرحيل من بركة الحاج، بزيادة يوم عن العادة، فإِن المسافة من البركة إِلى عقبة أَيْلة في الذهاب ثمانية أَيام، والتاسع يكون النزول إِلى المناخ وفي الإِياب ستة أيام.

فأَما أَحوال الركب فالإِهمال المفرط من أَميرهم، لأَنه ملازم لساقة الركب، يرحل من الدار بعد مسير الركب بمسافةٍ، ويدخل إِلى الدار التي بعدها بعد تكامل اجتماع الركب بوقت، فلا يعلم للحجيج خبراً مطلقاً، ولا يراهم ولا يرونه وقت مسير، مع كثرة الركوب جدًّا، وفوّض أُمور الركب إِلى (دواداره) قيت بن عبد الله الجركسي الحبشي وهو من أَعيان أُمراء مصر و(كيخية) العسكر الجراكسة فلم يلتفت إِلى سياسة الوفد وترتيبهم، بل أَباح الْبَلْصَ على القطار من كل أَحد، وأَخلط الأَسافل مع الأَعالي، والأَراذل مع الموالي، فلم ينتظم أَمر القطار مطلقاً ذهاباً وإِياباً، وكان البلص جهاراً منه، ومن الترك المضافة إِليه، فكان هو يأْخذ على القطار من غير إِنكار، وهم يرتبون البلص على مراتب متعددة منها القطار، ومنها موارد المياه في المناهل، فكان منهم مَن يتصدّى لمنع الحجيج من السقاية، ومَلءِ الْقِرَب إِلاّ أَن يدفع إِليهم دراهم على ذلك، فربما أَخذوا على القربة الواحدة خمسة أَنصاف، وأَكثر وأَقل، بحسب المنهل، وبلغني أنهم في منهل ضيق (؟) أَخذوا على قربة

(١) بياض في الأصل.

واحدة اثنَيْ عشر نصفاً، ومَن لم يعطهم شيئاً ضرب ومنع، ومنها البلص عند دخول الأَرباع والمناهل الكبار، فإنه يجتمع من رفاقه (الدوادار) نحو العشرين نفراً من (بلكات) العسكر، ويتوجهون للطواف على خيم الأَكابر، والمتوسطين في القدر والتجار، ويطلبون منهم حلاوة السلامة، فإن أُعطوا كان، وإلاّ بادروا بالسبّ والإهانة لمَن يمنعهم من الإعطاء، ولم يتفق مثل ذلك قبل هذا العام، بل ولا سمعنا بمثله في الغابرين، وسمعت بعض أَكابر الأُمراء من الحجاج ينكر ذلك إنكاراً فاحشاً، والموجب لذلك الاستهانة بأمير الحاج، وعدم قدرته على ردع أَقل أَجناد العسكر، وبُعْدُهُ في الساقة عن أَحوال الحجيج.

وأَما (الانكشارية) فكانوا يَجْبُونَ مقاعد الباعة، ويَأْخذونَ على كل واحد نصفين، وأَتَذَكَّرُ أَني قلت لأَمير الحاج بمنزلة مغارة شُعَيب عند اشتداد بلص الترك للحجاج على موارد المياه: لا بأس أَنك تدع أَحداً من أَعيان جماعتك يقف على المنهل، ويمنع مَن يصدُّ الحجاج عن الريِّ. فكان من جوابه: إنني لا أَتعرض لهم، ولا أَعرض جماعتي للسب والإهانة والضرب.

فيا ليت شعري إذا لم تكن فيه قوة وأَهلية لِلذَّبِّ عن الحجيج خصوصاً عند موارد المياه فما المعنى بإمرته عليهم، وما حكمها حينئذ؟! ولم يزل أَمير الحاج ملازماً للساقة، بعيداً عن الوفد وأَحواله، والحجاج والعقوب على غير ترتيب ولا تعقيب، والخصام والنزاع بين أَهل الركب ينمو ويزيد، و(الدوادار) يقطع مَن يختار، ويبلص مَن يريد وإن تنازع عنده خصمان أَحال على (الدوادار) وعلى قاضي المحمل، فلم ينظر في قضية، ولم يردع مُفْسِداً عن أَذيّة.

ولما ورد الركب الأَزلم وَجَد الآبار قد طَمَّها السيل بالرمل، فَجَمَعْتُ السقائين والجمَّالة ولفيف الْفَلاَّحة لحفر الآبار، وفعلوا ذلك حتى استقى الركب دون الريِّ، وبعض أَهل الركب من الفقراء لم يقدروا عن تحصيل شيْءٍ من الماء، وذكر الشريف مهدي بن عنقا لأَمير الركب أَنه يسير من درب إلى [. . . .][1] وهو مورد سايغ شربه بين الوجه والأَزلم، وطريقه سالكة لا ضرر فيها، غير طريق الركب المعتاد، فاستشار أَمير الركب قاضي مصر في ذلك، فامتنع إلاّ من المسير في الدرب المعتاد، وهذه المسافة تزيد عن المعتاد قدر مرحلة، وفيها مورد لطيف يسمى أُم الطين (؟) لكن به شجر أُم غيلان بزيادة.

---

(١) بياض في الأصل.

وعُدَّتْ على أمير الحاج في هذه المسيرة أحوالٌ غير لائقة، منها عدم تفرقة مأكولات العسكر على حسب العوائد المتتابعة، بل كانوا يجهزون إليهم بدون الكفاية جدًّا، حتى كثرت شكايتهم من الجوع جدًّا ذهاباً وإياباً، ومنها عدم التفاته إلى أحوال الركب، وترك أُمورهم شورى بينهم، وكان يجلس في مخيمه في الدور والمنازل بغير سراويل في الغالب، ويجلس معه من الفلاَّحة وغيرهم مِمَّنْ لا يؤبه له، ومنها استدامته على لعب الشطرنج في كل دار في محل ديوانه، وتوارد (الجاويشية) والعسكر والرعية إليه، فيجدونه متلاهِياً بلعبه مع أراذل العباد، ومنها نزوله بمكة المشرفة عند بستان جانيك ولم تكن هذه منزلة أُمراء الحاج قبله، لبُعده عن الحرم والمسجد والصلاة مع الجماعة، ومضاعفتها إلى مئة ألف صلاة، ولما عاد من مِنى نزل عند بئر ذي طُوَى قريباً من وادي الزاهر، وقصد البعد أيضاً عن مكة، والمسجد الحرام، واقتصر على نزوله عند جِماله ورحله، ولما نُقِل إليه الفول من جدة جهز إليه بـ(الوطاق) وجعله في داخل حوش حريمه فإنهم كانوا بمكة، وجلس بنفسه ليلاً ونهاراً شادًّا على جرشه، وغبار الفول صاعدٌ عليه، ومُلابس له، وكل مَن ورد عليه من الأكابر يَجدُهُ على هذه الصفة، فيتعجب من ذلك، وسميت هذه السنة بسنة الْعُفاش ـ بضم العين ـ فصار ذلك لقباً لها، وبالجملة لمَّا اتصف بالأَوصاف التي ذُكِرتْ، واشتمل على الأَخلاق التي جُبِلتْ طبيعته عليها واشتهرتْ، وكان دأبه لعب الشطرنج في كل منزلة ومنهل، والعسكر السلطاني وأَهل الحوائج إذا وردوا إلى مخيمه في أمر ما، أَجابهم بلفظ مُهْمل، واستمراره على ملازمة هذه الحالة، وقابل أكابر الحاج و(الجاويشية) بتنقله في درجات السفالة، فامتنعوا من ورده‍م إلى مخيمه، وبعدوا عن تحكمه، فقرّت أَفئدتهم عن مقاربته بالكلمة، وجرى على أَلسنتهم سبّه وإهانته في كل ماجرِيَة [....][1]. وكانت ولايته من المفاحش التي لا يتلافى عارها، ولا يتلاشى عوارها، ولم يرَ قط في ميمنة الركب ولا في مسيرته، ولا سائلاً قط عن أَحواله في وقت مضيق وعسرته، بل في سياقة الركب [....][2] واللحاق بمهماته، وما عساه أن يكون لازماً عليه فعله من قضاته.

وأَما أَحوال الفقراء بالسحابة فغير مرضية ومستطابة، قد تعذّر عليهم أَمر المأْكول والمشروب والملبوس والمركوب [....][3] يفرق عليهم وجبة غير كافية مع إشابتها بالإيلام، وأُمورهم غير متلافية، وهم عن المياه في امتناع، والجباه (؟) قد قوبلوا

(١، ٢، ٣) بياض في الأصل.

بالعري والجوع، وعوملوا بالجفاء والحفا على تعدادهم والجموع، وسُقِط في أيديهم، ولُسعوا من أبي حُنَيْش، وخابت مقاصدهم، فكانوا لا في أيش ولا على أقيش، واجتمعوا على مخيمه مراراً لشكوى أحوالهم الدائرة، فعادوا خائبين في كرات خاسرة، قد أشبهت أحوالهم أهل اللحاق بالدار الآخرة، فرجعوا إلى استعمالهم غليظ القول والسبِّ والقباحة، لأنه لم يعطف عليهم بنوع من الرحمة ولا من الملاحة.

وأَما العساكر السلطانية فحلَّ عليهم من كاتبه الأَعرج البرصوي (؟) كُلُّ بلية وأَذية، وقلّل لهم الغذاء والقوت، ونَوَّع لهم أَنواعاً من المنع والمقوت، فكثرت من أَفعاله شكايتهم، وكثر سبُّهم له ولأُستاذه وإِساءَتهم، وأَعلنوا بقبيح الأَلفاظ والخطاب، وفتحوا بسبب ذلك للشرور كل باب، ولم تزل هذه حالتهم في الذهاب والإِياب.

وأَما الْخَدَمَةُ والغلمان فضجروا من مقاساة الجوع الخذلان (؟) وقطع العوائد والسب والهوان، وتحكم فيهم ذلك الأَعرج حكم جالوت، وقطع عوائدهم واستعملهم ببعض القوت.

ولم نُشاهِد في هذه السنة، من ذكر عنه ولا عن جماعته فعلةً حسنة ولا أُثْنَى عليه وعليهم بطيب الأَلسنة، وحطَّتْ أَوصافه بعد ذكر الملاحة في الحضيض، وتسلّط على عرضه بالسباب كل سفلة وبغيض، فلا ترى من الحجاج إلا مَن أَكثر من الوقيعة، وأَبدى من الأَوصاف مما هو كسراب بقيعة، فقلت:

وفُودُ بيت الإِلٰه ما برحتْ	تشكو من السوء وهي تنتحبُ
تطير اسماعة (؟) وآونة	ضَيْماً وفيما ما ذكرتُه النَّصَبُ
أَميرها أَعسر، ونائبه	أَحول، والشبه ينجدبُ
والكاتِبُ الأَعرج الذي شهرتْ	سيرته للشح يُنْتَدَبُ
رتبته في ثالب قبحت	تضيق عن حصر وصفها الكتبُ
في صدر آل الشمال منزله	يسير أَسوأ (؟) ما لها سببُ
ورابط الكلب للأذى نقلو (؟)	من رأْيها فعله وينتسبُ
ثم (الدوادار) وهو خاتمة	أَحمق في البلص شأنه عجبُ
مصائب كلها لو اجتمعت	في فَلَكٍ لم تحلَّهُ الشهبُ

ونائبه في هذه السنة على أَحوال المهم سفراً هو شاهين بن يونس ولد أَخيه، وهو أَحول، واتفق له أَن في يوم عيد الله الأَكبر، واجتماع الوفود لأَجل الصعود إلى البيت المكرم، وقف أَمير الحاج بنفسه على الباب، وهو حاسر الرأس بِعَرَقِيَّةٍ بيضاء،

بعد كسوة البيت، وفي يده عصًا منَ الشُوْمِ، كبيرة المقدار، تصلح لأَن تكون لدفع الأَعداء والخصوم، واستمر يضرب بها مَن حاول الصعود إلى باب الكعبة، ضرباً مُؤلماً، على رؤوسهم وظهورهم، حَازَ بِهِ كُلَّ مَسَبَّةٍ، وصدّهم عن بيت الله، والحالة ما ذُكر، وفيهم مَن صدع عظمه، وفيهم مَن كُسِر، وسمعت بعض أَهل الشام يقرأُ الفاتحة، ويدعو عليه، وبعضهم يسبُّه مواجهة، ومن خلفه وبين يديه، وأَغرب ما اتفق من الْعُفاش والخباط حصول الشك في يوم الوقوف لعدم الاحتياط، وكانت الوقفة بمكة يوم الجمعة، وبالمدينة المنورة وقُراها وخيوفها يوم السبت بمقتضى أَن ثبوت أَول الشهر يوم الجمعة على قاضي المدينة مصطفى بن محمد الشهير بمعمار زادة، فإنه لم يحج في هذا العام، فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم.

وكان أَمير الشامي أَبا يزيد شلبي، الذي كان ناظراً على أَموال مصر سابقاً، وأَمير اليمن حسن كفلي، وأَمير حاج البصرة موسى العقيراوي من آل عقير، رجل عربي، يقال إنه دفع إلى شيخ باشاه بغداد أَلفاً وخمس مئة من الذهب حتى أَذن له أَن يحج بالناس، فإنَّ الحج كان انقطع من البصرة نحو سبع سنوات، أَولها سنة ثلاث وستين بأَمر السلطان، خوفاً من العدو كما قيل، فحجّ موسى بالنَّاس في هذه السنة، وجَبَا من كل نفر - كما سمعت ذلك من بعض ثقاته - من خمسة من الذهب إلى أَربعة، وكان ركبهم يجمع نحو ثلاثة آلاف قواس، ومعه (بيرق) وطبل، وذكر لي مَن أَثق به أَنه ضبط جِمال أَهل البصرة وعُقَيْلٍ وبني جَبْرٍ فكانت سبع عشرة أَلف مطية.

وفي هذه السنة كان الجمع بعرفات حافلاً، وسمعت بعض أَهل المشيخة، وذوي السن يذكرون أَنهم لم يروا جمعاً بعد حجة ولد السلطان الغوري، اجتمع بعرفات مثله.

وفي هذه السنة نزل قاضي مصر بالمدرسة الأَشرفية قايتباي، وأَمير الحاج بالقرب من بستان جانيك، وحريمه بالمنزل المعروف بالسلطان سليم، وجماعة محمود باشاه اليمن بقصر الغوري، ونزلوا بمنًى بيت عجلان، وهو جد أَشراف مكة وأُجرته في ثلاثة أَيام ستون من الذهب الفرنجي.

وفي هذه السنة لم يحج الشريف أَبو نُمَيٍّ بن بركات، ولم يحضر الموسم لغيبته بالشرق، لحرب فئة تُدْعى بني خالد، من طوائف عربان بني لام، وكسرهم، ويقال: إنه قطع أَعناق نحو المئة والخمسين منهم واعتقل بعضَ أَكابرهم، وزُيِّنَتْ له مكة في شهر القعدة.

وحجّ النَّاس حجة هنيئة بعد إِشاعة أَهل الفساد، وحصول الفتن والمحن، فعافى الله عباده، وأَمن بلاده.

وفي هذه السنة كانت الأَسعار متوسطة وحمل الدقيق بين اثْنَيْ عشر ديناراً إِلى عشرة، والبقسماط كل رطل بنصف، والقمح كل أَردب بثلاثة دنانير فرنجية، والسمن بثلاثة أَنصاف، والعسل النحل كذلك، والجبن بنصفين، واللحم الضأن بنصف وعثماني، والفاكهة موجودة من العنب والخوخ والرمان والرطب والموز والبطيخ، وبرز المجاورون بمكة لقلة الماء، فإِنَّ العين وصل العمل بها إِلى خلف بركة السَّلَم التي بطريق منى، وتجاوزها يَسِيْراً، ورأَيت الْحَفْرَ هناك أَربع عشرة قامة، ورأَيت أَسفلَ هذا الحفر من الصخر الشديد الذي لا يعمل فيه الحديد، واسْتُعِين على نقره بحرق الأَحطاب فيه قبل العمل، فأَخبرني الشيخ العلامة قُطب الدين النهروالي ـ مفتي الحنفية بمكة ـ أَنه استعمل فيه من الحطب في مدة يسيرة مئتا أَلف حمل، حتى قَلَّ وجود الحطب بشعاب مكة وأَوديتها، ومع ذلك ما يتمكن العمال أَن يحفروا إِلا قدراً يسيراً، ومحل جلوسهم دون الذراع، وأَكابر مكة يذكرون أَن العمل من هناك إِلى مكة يُعَدُّ مستحيلاً، وحضر معمار من الباب السلطاني، وذكر أَنه لا بُدَّ وإِنْ تعذر العمل فيما بقي نحو ثمان سنوات والله تعالى يسهل العمل لإِجراء هذه العين إِلى مكة المشرفة بمنّه ويمنه، وحصل للحجيج مشقة عند رَيِّ جمالهم، فإِنهم كانوا يتوجهون إِلى المزدلفة لذلك والحجاج ترد عليهم المياه مع المتسببة من العبيد والجواري وغيرهم، منقولة من الآبار للبيع عليهم، بحيث أَنه ثَقُلَتْ على أَهل مكة إِقامة الركب جدًّا لضيق الماء.

ذكر الحوادث بمكة والطرقات

فمن ذلك حصول هوشة كبيرة بين عسكر أَمير المصري وغلمان الشعَّارة بخدمته عند سقاية الجمال بفسقية بدر، آلت إِلى استعداد العسكر بالسلاح للقتال، فاقتتلوا على الماء، وسالت دماءُ بعض العسكر، وجاؤُوا إِلى أَمير الحاج وهم بالسلاح الكامل، فقطعوا بعض حبال خيمته، وأَكثروا من الغوغاء عليه، وطلبوا منه أَن يسلمهم غرماءهم، فأَوجس منهم خيفة، وتوهم الفتك به من بعض أَهل العقول السخيفة، فحضر قيت (الدوادار) وجماعة (الجاويشية) وسكنوا تلك الفتنة بعد أَنْ كادت تكون أَمراً عظيماً.

وكانت هوشة أيضاً يوم التروية بين عُقَيْل وعدوان، وحُجِزَ بينهما فعادوا إلى الهوشة يوم السبت عاشر الحجة بوادي مُحَسِّرِ المجاور لمنى سبب ذلك أن عربان عدوان لهم عادة على عُقَيْلٍ من عربان البصرة جباية على الجِمال وما معهم من المتجر فيقال: إن عدوان طلبوا من عُقَيْل عن كل جمل ستة وعشرين نصفاً، فاجتمعوا بسبب ذلك، وحصلت بينهما مقتلة قُتل فيها من عُقَيْلٍ نفران، ونفر من عدوان.

ولما دَفع الركب من عرفة كادتْ أن تكون هوشة بين عسكر الشامي والمصري على تقدم محمل الشامي وتوجهه من جهة اليمن، وليس ذلك عادةً لهم بل للمصري، وسُلَّتِ السيوف، فلما رأى ذلك أمير الحاج بادر بسرعة وتوجه لتسكين الفتنة، وترك المحمل الشامي في الميمنة.

ومن الحوداث في الذهاب عند النزول بعيون القصب عصبانُ صالح بن عمرو بن عامر، أمير بني عُقْبة، ونزل بخيوله صوب الجبال وتوجه إليه (الدوادار) وأحمد بن دراز، ولد أخي أمير الحاج، فامتنع من مقابلة أمير الحاج، فسألني أمير الحاج أن أتوجه إليه، فأخذت له أماناً مؤكداً، وتوجهت إليه فحضر معي إلى المقابلة، ولبس تشريفاً، وصرفت له الصرة، فلما أراد أن يبرز من خيمة أمير الحاج قبض عليه قيت (الدوادار) واعتقله وأهانه، فجئت إلى أمير الحاج وكلمته في ذلك، وذكَّرْته بأمانهِ على يدي، فأطلقه من يد (دواداره) وتوجه ولم يقابله عند العود.

وفي هذه السنة قابل أمير الحاج شاهين بن أحمد بن غدير من شيوخ عربان بَليٍّ، وكان عاصياً مدة سنوات، فأكرمه أمير الحاج وأحسن إليه، وقدم هو للأمير حصاناً، وتوجه مَن عنده فأغار على قافلة لجهينة نحو الأربعين جملاً بما عليها، فأخذها وتوجه.

وفي هذه السنة اشتد المرض على الشريف دَرَّاج بن هِجَار أمير الينبع ولبس القفطان ولده، وقابل أمير الحاج، وولي خدمة الركب عوضاً عن أبيه، وكانت وفاة دَرَّاج في يوم السبت رابع عشر شهر صفر عام إحدى وسبعين، وسِنُّهُ نحو ثمان وخمسين سنة، وولايته تسع وثلاثون عاماً، رحمه الله تعالى فلقد كان من محاسن أُمراء الأَشراف، ولنا به صحبة ومودة.

وفي هذه السنة ورد من السلطان علاء الدين رعاية شاه ملك آشي إلى السلطان سليمان هدية من جملتها فوطة (؟) مذهب، داخلها غير معلوم قد ختم عليها بسبع ختوم، زُفَّتْ تلك الفوطة على رأس رجل حامل لها بالطبول والزمور، وهو راكب

على فرس، وعلى رأسه ظلل هندية، يحملها عدة من الرجال، ومن الهدية كافور حَيٌّ، ضمن أَلواح خشب مطبقة، ملفوفة في أَردية بيض، وفلفل أَبيض في قدر الحمص، يساوي الرطل منه عشرة من الذهب ويقال: إِنَّ ضمن الفوطة درقة بقشة مرصّعة بالجواهر الغالية الثمن، ومع الهدية نفران آشيان [. . . .][1] لحي كغالب أَهل الهند، وهما يأْكلان لحوم بني آدم نيًّا، حيًّا كان أَو ميتاً فيقال: إِن هذا الجنس يبتدىء عند أَكل لحوم بني آدم بالساق وهو صاعد يقطع منه شيئاً فشيئاً ويغمسه بالملح والفلفل حتى لا يبقى إِلا العظم، وأرسل ملك آشي يطلب من السلطان جماعة من (العرباجية) لعمل العجل لأَجل الحرب، ويعرض عليه هذه الطائفة العجيبة الفعل، ويظهر لي أَنه يريد قتالها، فوصلت الهدية إِلى القاهرة من طريق الْقُصَيْر، في جمادى الأَول وتوفي من النفرين واحد، وهو راكب السفينة ووصل الثاني إِلى الديار المصرية فهرعت الناس لُلتفرج عليه.

وكان الموسم في هذه السنة الواصل من الهند كبيراً في الذكر، صغيراً في مكة، وغلت الأَصناف الهندية بها، وكثرت بأَسواق القاهرة جدًّا وكان أَكثر موجود الموسم بمكة القطنات (؟) الحرير الملونة، والصيني خصوصاً فناجين القهوة.

وفي هذه السنة كان وصول الركب إِلى وادي مَرِّ الظهران، سحر يوم الأَحد رابع الحجة، فغدَّى به وأَقام إِلى بعد الظهر، ووصل إِلى الزاهر قبل الغروب.

وكان الرحيل من بئر ذي طُوَى إِلى وادي مَرٍّ بالعود يوم الخميس تاسع عَشْرَيْ ذي الحجة، ختام عام سبعين وتسع مئة، ولم تقع إِقامة بمكة قبلها كهي، وشرد أَمير الشامي في سرعة توجه الركب المصري، فإِنه كان مراد أَمير الحاج أَن يقيم إِلى خامس المحرم.

وكان الرحيل من الوادي ظهر يوم السبت الموافق مستهل المحرم افتتاح عام إِحدى وسبعين، وتوجه صحبة الركب من المجاورين خلائق لا يحصون عدداً، وكان الوصول إِلى ينبع صبيحة يوم الاثنين سابع عشر المحرم، والحاج بخير، بخلاف الشامي فإِنه اتفق له شدة عظيمة من بداءة سيره من مكة وإِلى المدينة المنورة من موت الرجال والمشاة والجِمال.

وأَخبرني الأَمير أَحمد (كيخية) محمود باشاه ـ فإِنه تأَخر بعد المصري ـ أَنه رأى

---

(١) بياض في الأصل.

بطريق المدينة من أموات الشامي عدداً وافراً، منها اثنا عشر رجلاً في محل واحد، وتلاقي الركب الشامي مع المصري بين فسقية طاز وقبور الشهداء، وغلت أسعار المأكولات ببندر الينبع، فأبيع كل عشرة أرطال من البقسماط بستة عشر نصفاً، والفول المجروش كل خمسة أرباع بدينار من الذهب، والدقيق كل حمل بخمسة عشر ديناراً ذهباً.

وكان الوصول إلى أكْرَّه صبيحة يوم الاثنين رابع عشري المحرم، و(باش) الملاقاة بها فإن بلاط من طائفة الجراكسة فلم يُجْد حضورها نفعاً للوفود بل تزايد الغلاء، وأُبيع الفول كل ربع بعشرة أنصاف والجبن الحالوم كل رطل بثلاثة أنصاف، والبصل كل رطل بنصف.

وكان وصول الركب إلى عقبة أَيْلة يوم الخميس رابع صفر الخير فوجد الملاقاة بكثرة، غير أَنَّ الأَسعار غالية، أُبيع البقسماط بنصف الرطل، والفول المجروش كل ربع بأربعة أَنصاف، ونزل سعره إلى نصفين وعثماني، والجبن الحالوم بنصفين وعثماني كل رطل.

وأَقام بمناخ عقبة أَيْلة اليوم الأَول والثاني، ورحل سحر يوم الثالث إلى السطح، ووصل إلى نخل تاسع الشهر فوجد الحاج الملاقاة قليلة.

وكان دخوله إلى القاهرة يوم الجمعة ثاني عشر صفر عام إحدى وسبعين وتسع مئة، وأَقام أَمير الحاج بالبركة، ورحل منها ليلاً إلى الديوان السلطاني بعد أن جهز له الباشاه جماعة من الأُمراء، ومعهم فرقة من العسكر أَسمعوه غليظ الكلام، بسبب إقامته ببركة الحاج وحده والله أَعلم، وصلى الله على سيدنا محمد [....][1].

سنة إحدى وسبعين وتسع مئة: استهلت بالثلاثاء وسلطان الديار المصرية والشامية والحلبية وديار بكر، والمعاقل والحصون الإسلامية والممالك والجزائر الرومية والبلدان الحجازية واليمانية والبغدادية وجزائر الحلبية إلى ذنبيه (؟) وما والاها من القرى والجزائر، هو السلطان سليمان ابن السلطان سليم بن بايزيد بن محمد بن مراد بن محمد بن أَرخان بن عثمان بن أَرطغلر بن أَعوز، والوزير الكبير صاحب السعادة علي باشاه الذي كان نائباً بمصر، وابتداء ولايته لمملكة الديار المصرية في عام ستة وخمسين وتسع مئة ـ كما قدمنا ذكره ـ وباشاه الديار المصرية مصطفى، وهو

(١) بياض في الأصل.

الذي ورد إليها من مملكة اليمن بعد وفاة علي باشاه أغا بها، وقاضيها عبد الرحمٰن بن علي الآخذ عن حسن بن عبد المحسن عتيق رستم باشاه، وناظر أموالها عبد الرحمٰن شلبي، الذي كان قارئاً للقصص بديوان المملكة الرومية، وهو من أعيان أُمراء الألَوية، و(كيخية) الجاويشية ماماي شهلا الآخذ عن الأَمير يونس بن طقطباي نائب القلعة في الدولة الجركسية بحكم ترقيه إلى إمرة لواء، وتوجهه إلى ذمار، من المدن اليمانية، وتُوفي بعد دخوله إليها بثمانية أيام و(المهمندار) إبراهيم زوج ابنة مصطفى باشاه النشار، وكان (جاويشاً) ثم وكيل خرج الخاصة، وأَخذ عن بهرام (كيخية) الأَمير إبراهيم بن (المهمندار)، وهو عن والد أُستاذه خذاوردي.

ويقال: إن بهرام وإبراهيم ليسا أَصلاً في هذا المنصب، وإنما هما عن ولد الأَمير إبراهيم ناظر أموال مصر سابقاً، وكُتب له حكم بذلك، وذلك لصغر سنه.

[. . . .][١] الناصري محمد بن قايتباي الجركسي الجنس، الآخذ عن صاحبنا المرحوم القاضي محمد بن قراكز، بحكم وفاته، وصاحب ديوان الإنشاءِ على القصر عليه في زمننا: الشمس محمد بن المحب الظاهري، وجماعة الموقعين كتاب الدست فهم أَبو العز بن المحب الظاهري، ومحب الدين الشمس الظاهري، والشهاب بن أَبي الوفاء الحلبي الآخذ عن والده، والشمس محمد بن رمضان المسعودي (؟) المستجد التقرير بديوان الإنشاء على يد الأَمير عبد الرحمٰن شلبي ناظر أموال مصر.

وكتّاب الديوان الشريف الذين هم خدمة الشادّة (المقاطعجية) على ما بالشرح فيه: فالشمس محمد بن محمد العبادي كاتب الجراية الأخذ عن والده، وعبد الجواد بن إسرائيل القبطي كاتب الخرج الخاصة، والمحاسبات وإقليم الغربية، وكتاب الغلال بالديوان سد الدين عوض القبطي (؟)، الآخذ عن أَبي المنصور القبطي، بحكم وفاته قتيلاً على يد فتاه، والتاج ابن الشهاب أَحمد بن الجيعان القبطي الأَصل، الآخذ عن أَحد كتاب النصارى، والبدر السملاوي المحلاوي الآخذ عن نور الدين بن الراوية.

وكتاب الجيش والأَحباس فرأْسهم محمد شلبي، ثم الشهاب أَحمد بن عبد العارف الراشدي، والشمس يحيى بن موفق، والشمس محمد بن بهرام، والشمس محمد المكني بأَبي الفضل بن مُنَيْقِيرة، وأَبو بكر عبد الله غلام ابن العبسي في الأَحباس.

(١) بياض في الأصل.

وكتاب النصارى: ففي الخزانة أبو الياسر ابن الشيخ يونس عن والده، والمشرفية فجامل بن بُوَين، والمقاطعات والثغور والبنادر، وملتزم مكس الحسبة، والمشاهرات يحيى السربات الشهير بمريقوا.

وكتّاب الشونة السلطانية عبد الرؤوف ولد أُخت السري الطنطاوي عوضاً عن الجلال بن الخازن بحكم وفاته، وصفي الدين بن تاج الدين كاتب الدواليب، الآخذ عن صفي الدين بن الرومي رفيقه، والشمس محمد بن التهامي البادري شاهد الشون، ورفيقه عبد العظيم الصندلي المصقوني، والعفيف بن الشاهد الثاني عوض، وسوباشاه القاهرة [. . . .][١].

وأَما نواب المحاكم الشرعية ففي الباب الحكمي النور القراني الشافعي والبدر القراني المالكي، والزين عبد الرحمٰن الفتوحي الحنبلي على ما اتصف به (؟).

وأَما الشهود به، فالبرهان بن الصلاح القليوبي الشافعي، والشمس محمد المرصفي، وولد أَخيه محمد، وعبد الجواد ابن الشيخ العلامة عميرة الشافعي، والشهاب الخولي، والشرف يحيى بن زكريا الشافعي ثم لقراءة القصص، وقضاة الصالحية النجمية العلامة أَبو البقاء ابن حسلات الشافعي، وهو من قدماء الهجرة (؟) والشيخ العلامة التقوي الفتوحي الحنبلي، وهو رأْس الحنابلة علماً، والشريف يحيى بن يونس القراني المالكي، ومن الشهود بهذه المدرسة فبمحكمة المالكية محب الدين سبط بن المحب والبدر القوني (؟)، ومحمد المجولي، وكمال الدين الشامي، وأَبو الفضل بن الصلاح القرافي، وعبد اللطيف القرافي، وعبد الحميد بن عبد الوارث، وإبراهيم المجولي، ورضي الدين سبط بن حسلات، وببقية محاكم المذاهب نحو الاثْنَي عشر شاهداً، وبباب زويلة الشهاب الأَحمدي الشافعي، وابن عبد الوارث المالكي، والقور الطائفي (؟) الحنبلي، وبمحكمة (؟) أبو السرور بن الوتري المالكي، ويحيى الشافعي، وبالجامع الخاصكي الشمس المقري الشافعي، وولد القاضي أَبو السرور المالكي، وبالجامع الطولوني عقيل، ومحمد السملائي المالكي، وكمال الدين بن أَحمد الشافعي، وبمصر القديمة أَمين الدين بن حاير الحنبلي، وبجامع قوصون أَبو بكر بن القراملي الشافعي على ما اتصف به، والشهاب أَحمد الدميري المالكي، ومحكمة سلطان شاه والبرمينية (؟) فهما في الغالب لمن يولي، وليست فيه أَهلية، ومَن اتصف بكل وصف رذيل وبلية، وقد ولي بها في

(١) بياض في الأصل.

تاريخه كل بليد مهووس، فارغ من علم الأَحكام الشرعية ومفلس، كالمحب المحرقي الشافعي، وولد سيبويه الحنبلي، ولله الأَمر.

وأَمير الحاج الشريف: عيسى بن إِسماعيل أَمير اللواء والبحيرة، وناظر السحابة السلطانية.

ذكر الحوادث

ففي هذه السنة توارد ورود السرّاق والمناسر بالشموع والجموع، واشتد فسادهم وأَضرارهم، وأَخذهم لأَموال المسلمين خصوصاً في زمن النيل، فبرز أَمر مصطفى باشاه بقطع شجر الأَثل المستجد الإِنشاء في زمننا من جميع أَعمال القاهرة، ومصر القديمة، وبولاق والضواحي وجهات القاهرة وما أَشبه ذلك، فعين لذلك قيت بن عبد الله الجركسي الجنس (كيخية) العساكر الجراكسة، ومعه فرقة من الانكشارية، والقطّاعون، واستمر يفحص عن محلات هذا الأَثل، ويقطعه من أُصوله أَياماً عديدة، فلم يؤثر ذلك فيما بصدده، وورد المنسر ليلة الجمعة المسفرة عن تاسع ربيع الأَول إِلى خط حارة الميدان بالقرب من حارة بهاء الدين، واستمروا بالشموع والجموع يكسرون الأَبواب وينهبون للأَسباب، إِلى وقت الفجر، ثم وردوا أَيضاً إِلى حارة السيد الشافعي ليلة الجمعة المسفرة عن رابع عشريّ ربيع الآخر، وكسروا باب كاتب مصبغة الحرير، ونهبوا ما فيه حتى أَخذوا الحلق من آذان النساء.

وفي يوم الجمعة تاسع ربيع الأَول صُليت صلاة الغيبة على القاضي بمصر كان، وهو عبد الباقي بن العربي بجامع القمري لورود الخبر من الروم بذلك.

وفي أَوائل هذه السنة وردت الأَخبار في آخر المحرم، وفي أَوائل شهر صَفر الخير، من المملكة الرومية، وتواترت مِمَّنْ يمتنع تواطؤهم على الكذب بأَنه حصل بمدينة (إِسطنبول) سيلٌ عظيم جدًا، لم يعهد مثله قط، واستمر ليلاً، فهدم الدور والجدران، وأَخذها بمَن فيها، وعليها من النساء والرجال والأَطفال والأَمتعة، ورمى بذلك جميعه بالبحر الرومي، ومَرَّ بالشوارع فهدم الحيطان ودكاكين الباعة، ورمى بذلك جميعه إِلى البحر، ووقع بالبلد نحو الأَربعين صاعقة منها واحدة هدمت منار جامع السلطان سليمان الذي بناه جديداً، واتفق أَن مولانا السلطان سليمان كان يتصيّد في السراية القديمة، ومعه مماليكه وخدمه وخيوله ممَّا جرت العادة بمسيرهم في ركابه، فلما قوي السيل أَخذ من الخيول والمماليك مَن عجز عن الدفع عن نفسه،

ورمى بهم إلى البحر وكاد السلطان أن يأخذه السيل بفرسه ويغرقه كغيره، فبادر أَحد مماليكه الخاصة الأَشداء وهو من (البستانجية) أَعني خدمة البستان الخاص بالسلطان، وحمل السلطان من ظهر فرسه، وقاطع السيل، وصعد به إلى محلٍّ عَصَمَهُ من الماء، وذهب السيل بفرسه، وحصل عنده من الرعب بسبب ذلك ما لا ينحصر، فإنه لولا مبادرة هذا المملوك إلى حمله، وفعله ما فعل كان ذهب في البحر كغيره، فسبحان الفعّال لما يريد. ويقال: إن السلطان قال له: تَمَنَّ عَليَّ، فأَجابه بأَن يكون (يستانجي باشاه) ـ أعني كبيرهم ـ فزاده السلطان لطلبه أَمراً جسيماً مع مزيد منته عليه، وبرز أَمره أَن يكون أَمير لواءٍ في محل لائق به، عيّنه بتلك الممالك، فلما حلّ السلطان بمحله وسكنت خواطره مما دهاه من ذلك، وتفقّد أَحوال البلد، فإذا السيل قد أَخذ من الأَرواح والأَموال، وهدم من البيوت، وأَهلك من الرعية قدراً حافلاً، فطلب المُفتي وأَكابر القضاة وأَجلاء أَهل العلم ببلدته، وقال لهم: أَما رأَيتم هذا الحادث العظيم الذي لم يعهد مثله؟ فيقال: إنهم أَجابوا عن كلمة واحدة: إنَّ حصول هذا الحادث فيه تنبيه لمولانا السلطان للنظر في أَحوال رعيته، لعموم ظلم نواب مملكته، ومعاملتهم الرعية بغير العدل ـ هكذا قيل ـ فبادر السلطان من فوره وبرز أَمره بكتابة المراسيم والتواقيع إلى سائر ممالكه ونُوَّابه، بالنظر في أَحوال الرعاية بالعدل والإنصاف والعمل بذلك، وجهز (الجاويشية) إلى أَقاليمه بالكشف عن أَحوال البلاد والنوّاب والعباد، ومَن كان من نوابه متصفاً بالجور تعرض أَحواله عليه ليقابله بالإزالة، وكتب مثل ذلك للديار المصرية ونائبها مصطفى باشاه اليمن سابقاً، وجهّز له على باشاه الوزير الكبير ـ وكان عوضاً له ـ وكاتبه يحذّره من سطوة السلطان، ويأمرهُ بكتابة محر، وفيه خطوط أَعيان علماء البلدة وأكابر المملكة من أُمراء الأَلوية وغيرهم، وشرح فيه أَنَّ إقليم مصر بحال الاستقامة والعدل، في أَحكام الرعية، والرخاءِ والرفق بهم، فلما ورد عليه الجاويش بما ذكرت، بادر إلى كتابة المحضر، فيقال: إن النور القرافيَّ سطر الرقعة، وقيل غيره. وكان الشمس البكريُّ غائباً بمكة، وعاد صحبة الركب من الحجاز، فجهز إلى الشمس الرملي المحضر، فامتنع من الكتابة عليه، كما هو شأْنه، وكان من جوابه: لا مدخل لي في أَحوال البلد والرعية وإنما أَنا رجل فقيه لا غير، فخوّف عاقبة الامتناع فلم يَعْبَأْ بذلك، وكذلك الشيخ عبد الوهاب الشعراني امتنع من الكتابة وأَجاب بأَنَّ ذلك ليس من شَأْني.

وبلغني أَن الشيخ عبد العالي الحنفي وهو رأْس المفتين من السادة الحنفية كتب على المحضر: أَخبرني مَن أَثق به أَن مصطفى باشاه مصر في حالة الاستقامة.

والحامل له على ذلك خوفاً على ما بيده من التداريس؟ الحافلة ذوات المعاليم، وكان بلغني امتناعه كغيره فقلت: غلبه حُب الدنيا وكانت وفاته آخر السنة.

وسئل النجم الغيطي الأَزهري الشافعي ـ وهو من مشايخ الأروقة بالجامع الأَزهر، ومدرّس الحديث النبوي ـ في الكتابة أَولاً فامتنع، فلما خوّف عاقبة الامتناع وهُدِّد [. . . .][1] قد حصل من التداريس الكبيرة المعلوم ومن الوظائف والجوالي القدر الحافل، فبلغني أنه توجه إلى القلعة، وسأَل في الكتابة بعد الامتناع، وكتب ما يخالف أَحوال البلد والرعية، فمقته الناس لذلك، وسئل بقية علماء القاهرة كالعلامة البرهمتوشي (؟) الحنفي، والخطيب الشربيني الشافعي وأَشباههم، فامتنعوا من الكتابة، وكتب الذيب الحنفي والنور القرافي الشافعي، وقضاة المحاكم الشرعية خصوصاً الذين بباب قاضي مصر، وامتنع من الكتابة منهم القاضي التقوي الفتوحي الحنبلي لدينه وعلمه، وإنما كتب قضاة المحاكم خوفاً على ذهاب مناصبهم، فهم يسلكون طرق البقاء من كل باب، ولذلك يتناولون إبداء المكس في الأَحكام الشرعية بأَيديهم، مع خشيتهم من الخيانة في جبايته من القضاة، ولا يرعون ولا يراعون ما أَنزل الله، وهذا المكس من الحوادث المتجددة في المئة العاشرة، بحيث أَن تناوله كالحقوق اللازمة فيؤخذ، ولو عنفاً بهمة غير فاترة، ولم يترك ذلك الرسم في حجة ولا دعوى، مع أَنَّ منهم مَن يقرر الدروس ومنهم مَن يكتب على الأَسئلة والفتوى، وليتهم قنعوا بذلك بل خاض بعضهم في سيل جهالاته وعام، وتناول من الرُّشا ما لا يعبر عنه بعبارة في القضايا والأَحكام، مظهراً من الجبروت وكبر العمة، وتوسعة الأَكمام، وأَعرض عن أَحوال الآخرة في ذلك الجمع والاعتصام، وربما عزل نكالاً به فسعى إلى العودة بكثير الذهب، ليعود وهو أَلَدُّ الخصام، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، أَلم يَتْلُ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وفي آي أُخر ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وفي آي أُخر ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] لقد بالغت أَشراط الساعة في الظهور، وبلغت في تواترها لمن يخشى الله إلى ضيق الحناجر وقصم الظهور، ولقد وضح قَسَمُ الذئب وهو من الحيوان ليعقوب، متبرئاً من أَكل يوسف ـ فيما ورد من الأَخبار الشائعة ـ: وإلاّ صيّرني الله يا نَبيَّ الله من أَهل المئة التاسعة، وعلى كل حال وفي كل زمان ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] ومَن أَوى إلى الله آواه الله، ومَن ركن إلى الحطام وجَمْعِهِ بقبائح الآثام، فأَمره إلى الله، ويجد الآخرة له موعداً.

---

(١) بياض في الأصل.

ومما كتب في المحضر: إن الإقليم المصريَّ في غاية الأمن والأمان، وأسعاره رخيَّة، وأحواله مرضية، واللحم الضأن يباع كل رطلين ونصف بمحلّق من الأثمان، والخبز كل رطل بدرهم، ويقاس على ذلك غيره من الأنواع في كل شأن. وسكتوا عن تواتر ورود المناسر والسُّرَّاق وعدم الأمن ووجود الضرر منهم في غالب الأخطاط بالاتّفاق، واللحم الضأن كل رطل بعظمه بنصفٍ من كل عجيف وعجيفة لا تذاق، وابتلي المؤمنون من عامة الرعايا والفلاحين بالأقاليم بتبدد الأموال، وسوء الأخلاق، فما شاء الله كان.

وفي هذه السنة أيضاً وردت الأخبار من مكة المشرفة، وتواترت بحصول سيل عظيم مفرط جدًّا، كتب بواقعته أكابر أهل مكة وعلماؤها إلى الآفاق، وممَّن كتب بتفاصيل أحواله ضمن كراسة الشيخ العلامة شمس الدنيا والدين البكريُّ الشافعي، وجهزها إلى العلامة نور الدين العسيلي، ولم أقف عليها.

وكتب إليَّ الشيخ العلامة قُطب الملة والدين بن مُلاً علاءِ الدين بالاختصار ما صورته: وإن فحصتم عن أحوال الديار المكية، فقد وقع بها في ليلة الثلاثاء خامس جمادى الأول مطر غزير عام، في سائر الأقطار المكية، استمر نحو ثمان ساعات كأفواه القِرَب، وسالت السيول العظيمة، فما مَرَّتْ بشَيْءٍ إلاَّ جعلته كالهشيم، وهدمت للدور العالية والأبنية الظاهرة، إلى أن زاد ما هدمه السيل على ألف دار، أقواها دار مولانا السيد حسن أمير مكة، المستجدة الإنشاء فمَن دونه، وثلمت - أي ونقضت - السيول خمسةَ مواضع من سَدِّ الأمير خشكلدي - رحمه الله تعالى - ودخل الماء من جميع أبواب المسجد الحرام، إلى أن بلغ القناديل، وعَلا فوق عَتَبَةِ الباب الشريف إلى موضع القفل، وفارتْ بئر زمزم، وشاهد ذلك الجياد (؟) ومَن حضره ومَلأ المسجد بالأوساخ والطين، وأتلف المصاحف والرقاع والختمات والكتب، ودخل البيوت المُطلة على المسجد الحرام، وأتلف للنَّاس كثيراً من الأمتعة والأقوات والكتب، وغرَّقَ خلقاً كثيراً، وفرّ النَّاس إلى سطح الحرم الشريف، وإلى المنابر، وتعطل المسجد الشريف يوماً وليلتين، من الطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود، وإقامة الصلوات، وسالت السيول على خيم الأمير إبراهيم معمار عين عرفة وأخذتْ (وطاقه) وفرّ هو وأولاده ومماليكه إلى جبل ثَبِيْر، وامتلأ الخندقُ الذي حفره بالأتربة والأحجار، ومَرَّ السيل بالوادي، فقلع النخيل من جذورها، وأخرب العيون، وذهب بنحو خمس مئة بيت فأكثر من العربان بغنمهم وإبلهم وأهاليهم، وأخذ عِدَّة قوافل بأحمالها، وذهب بنحو مئة عبد أسود، من عبيد أمير مكة ببيوتهم ودوابهم وأمتعتهم،

وأَخرب من بِرَك الوادي ونخيله وبيوت السادة الأَشراف ما لا يعمرهُ مئةُ كِيْسٍ فأَكثر، وكانت ليلة مهولة جدًّا، والخلق يضجُّون إِلى الله تعالى بالتوبة والاستغفار، ولم يظن النَّاس إِلاَّ أَن القيامة قد قامت، فلما سكن المطر، وأَسفر الصبح، وجدَ النَّاسُ الحرمَ الشريف حلقةً واحدة، فهدموا من جانب باب إِبراهيم فتحدر الماءُ في يوم ولَيْلة، وأَصبح النَّاس يوم الأَربعاء ففتحوا البيت الشريف، ونظفوه من الأَتربة، وغسلوه بالماورد، وبماءِ زمزم، وطَهوه بالعنبر والمسك والعود والصندل، ثم شرعوا في تنظيف المطاف الشريف، ففرغوا منه ظُهْراً، وصلُّوا فيه صلاة الظهر، ثم أَخذوا في تنظيف أَماكن من الرواق فصلُّوا الجمعة، واجتمع في الحرم الشريف أَكوام كالتِّلال الروابي من الأَتربة، وكذلك المسعى، وصار النَّاس يُهنئون بعضهم بعضاً بالسلامة، ولله الحمد على طول الأَعمار.

وكذلك فعل السيل بجدة وحدة، وكان أَمراً مهولاً، مما يخوف الله تعالى به عباده، لكثرة نُمُوِّ الظلم والفساد في الأَرض، والله المسؤول أَن يُصلح أَحوال عباده وبلاده، وأَن يلحظهم بعين رحمته آمين. هذا ما كتبه من أَمر السيل، وكتب النَّاس بهذه الواقعة إِلى الآفاق، فمنهم مَن أَطنب واستوفى تفاصيل أَحواله عما ذكره الشيخ القُطب المُفتِي، وفي المكتوب: وردت الأَخبار المتواترة من أَرض اليمن بأَنه حصل باليمن سيل عظيم جدًّا، يكثر شرح واقعته، ومن أَخباره أَنَّهُ بعد هبوطه وجد من النَّاس من الأَموات ممَّا أَهلكه السيل نحو الخمس مئة نفر، ومن الأُسُوْدِ عدداً وافراً، ومن الضِّبَاع نحو ثلاثة عشر.

ومن الحوادث أَن في أَواخر الخالية وأَوائل هذه السنة حصل بالقاهرة ومصر وأَعمالهما أَمراضٌ حادَّةٌ، وسُعال وحُمَّى، وتواتر أَمراض الدم لعامة النَّاس مدة أَيام، بحيث أَنه بلغني من الثقات أَنَّ الفصَّادين كانوا يُطْلَبُون فلا يوجدون إِلاَّ بمشقة لكثرة فعل الفصادَةِ، وإِخراج الدم في الناس، وأَنه كان على كل حانوت من حوانيتهم أَعدادٌ وافرة، يتعجب منها لكثرة الازدحام لطلب الفصد، وسفل الحوانيت ما هو كَأَذميَةِ الْجُزرِ وأَكبادها، وأَن بعضهم جمع في يوم واحد من معلوم الفِصَادَةِ مئتين وأَربعين نصفاً حساباً عن أَربع مئة وثمانين رجلاً، فإِنه كان يَأْخذ من كل واحد نصف نصف، ويقال في سبب ذلك أَنه سقط نجم من السماء يقارب القمر، في بحر بولاق قبل حصول ذلك بأَيام، فلما شرِب الناس من الماء حصل لهم ما ذكرناه، والله أَعلم بحقيقة ذلك.

وفي لَيْلة الاثنين المسفرة عن عَشْريْ ربيع الآخر ورد مملوك لمصطفى باشاه من

الباب السلطاني، وأخبره بعزله عن ولايتها، وأنه قد وليها علي باشاه بالشام الملقب بالصوفي، فأصبح يُعَجِّلُ الأَخبار عن نفسه بالعزل، فَعُدَّ ذلك من سقطاته، إذ كان يمكنه السكوت إلى أن ترد الأَحكام بذلك فإنه حيث أخبر عن نفسه بالعزل قلّت مهابته في النَّاس، وضعف حكمه مع أَن الْمُوَلَّى عوضه بعيدُ الورود إلاَّ بعد أَيام، ثم إنه في يومه أَمر بنقل أَسْبابِهِ التي بالقلعة ليلاً إلى المنزل الذي عمر، بالقرب من سوق القبو والرملة، فَسُرَّتِ العامةُ بعزله سروراً شديداً، لأَنه كان حكر الأَصناف جميعها لتجارته والمأْكولات، حتى حكر بيض الدجاج، وضيّق على العامة في معايشها ومأْكولاتها ـ فما شاء الله كان ـ قلت: ولقد حصل بعد عزله قحط وغلاء مفرط في سائر الأَسعار، وعزّ وجود الخبز والمأْكولات بالقاهرة، فلولا حسن سياسة المتولّيْ بعده ورفقه بالرعايا وعدم التفاته إلى المكاسب المتعلقة بالعامة كان النَّاسُ أَكلَ بعضهم بعضاً.

ومن الحوادث أَنَّ في أَول جمادى الأَول اتفق أَنَّ شخصاً يُسمى أَحمد بن صفيُّ الدين بن إسرائيل القبطي دخل حمَّاماً بحارة زُوَيلة، فرأَى شابًا أَمردَ من أَولاد اليهود، ومعه والده، وشخص آخر من ذويه، داخل الحارة، فتعرّض أَحمد المذكور لليهوديَّ بمزح يُؤَدِّي إلى الفساد، وهو مِمَّن يتهم بحب المردان، فبادر أَبوه إلى خصامه غيرةً على ولده، فلم يرجع، فاشتدت به الغيرة، وضرب أَحمد المذكور على وجهه، فصاح حينئذ، ووجد إلى نكايته سبيلاً، وتعصَّب معه بعض جماعة كانوا في الحمام، وقبضوا على اليهوديَّ، وذهبوا به إلى قاضي مصر، وادَّعَى أَحمد القبطي أَنَّ اليهوديَّ ضربه على عينه افتياتاً، وشهد له مَن معه، فأَمر القاضي بتعزيز اليهوديِّ ورفيقه، فَضُربَا ضرباً مبرحاً، وحلقت لحيتهما، وطيف بهما الشوارع على ثورين، وعلى رأْسهما الكروش ثم أُطلقا.

وكان وصول علي باشا إلى الديار المصرية في يوم الخميس، سابع عَشْرَيْ شهر جُمادى الآخر، بعد أَن جهّز أَحد خواصه إلى مصطفى باشا يَأْمره بالبروز إلى العادلية في يوم الأَربعاء، فبادر إلى ذلك، وبرزت خيامه إلى العادلية صحبة مماليكه، وبرز ليلاً من القاهرة إلى مخيمه، فلما أَسفر الصبح مَرَّ علي باشا على (وطاقه) فاجتمعا وتحادثا، وسأَله أَن يود إلى داره التي بالقرب من الرملة، واستمر (وطاقه) بالعادِلِيَّة، وتعلل بأَنه جهز عروضه إلى الباب، وينتظر ورود الجواب، فَأَذِنَ له بذلك، فعاد إلى داره، فاستمرَّ بها شهر رجب الفرد كملا، وبرز من القاهرة في يوم الخميس عاشر شعبان، فأَقام بالريدانية إلى الخميس القابل، ورحل منها إلى الخانقاة السرياقوسية،

فأَقام بها أَياماً، ثم رحل منها يوم الاثنين حادي عَشْرَيْ شعبان، وتوجه صحبة عبد الرحمٰن بن علي قاضي مصر بحكم عزله، وولايته قضاء (إسطنبول) وتوجه مصطفى باشا لِزيارة القدس، وصيام رمضان، ثم ورد عليه بعد ذلك نيابته لحلب بحكم وفاة نائبها.

وأَما علي باشا، فكان لدخوله يوم مشهود، واجتمع النَّاس من كل أَوْب للتفرج على موكبه، وشكوا إِليه اختلال إِقليم مصر، وأَنها خراب، ومَرَّ بالشارع الأَعظم إِلى قلعة جبل يشكر بعمامة لطيفة، دون هيئة الباشاه السوابق مركباً وملبساً وهيئة، بحيث أَن العامة كانوا لا يميزونه من بين العسكر إِلاَّ بهيئة سعاته، وبما جرت العادة به من تمييز (الباش) عن العسكر عند الركوب، ولولا اللواء الذي وراءه والطبول لما مُيِّزَ، ولما صعد قلعة الجبل هرعتْ إِليه الفلاحون بالقصص للشكوى من الْكُشَّافِ والأُمناء، وتقدم إِليه جماعة من الفلاحين بناحية المنصورة وشكوا من اختيان كاشفها، فأَلزمه بدفع ما أَخذه منهم، فكان قدراً كبيراً، وأَزال ظلامتهم ثم شكا جماعة من فلاحي القليوبية من يوسف عتيق الخواجا خضر، فعزله وأَعطى الكشف لسليمان عتيق المرحوم يوسف الحمزاوي، وكان قبل ذلك كاشف الجيزية، وله مدة ملازم لبيته، ثم تواتر ورود الفلاَّحَة بالديوان للشكوى من حكامهم فقال له (كيخية) الجاويشية مامي شهلا، وجماعة التراجمة: يا مولانا الباشا، إِن أَخذنا بيدهم الآن تعطل مال السلطان، لكن تعدهم إِلى بعد وفاء الخراج، فأَجاب إِلى ذلك، وحينئذ أَمر بمنعهم من الوقوف بالديوان، وبرز أَمره للسوباشاه بأَن يتبعهم في الشوارع ويعنِّفهم بالضرب، ويأْمرهم بالتوجه إِلى بلادهم، فسُقط في أَيديهم ورأَوا أَنهم قد [....][1] مع أُمراء الأَلوية والأَمناءِ والعسكر قاطبة من استئجار الطين السلطاني وزراعته ومنعهم من شراء السمن والجبن وغيره من الفلاحين بمصر وبالأَقاليم، وأَن يكون جميع ما يَرِدُ يدخل إِلى الخان بباب النصر، ويباع حينئذ على الأُمراء والرعايا بقدر الكفاية لا للمتجرين ففعل ذلك، ومَكن الرعية من شراء الجبن الأَخضر للتمليح ومن المسن وغيره بعد تعبهم في تحصيله من سابق، ومنع من التعرُّض لباعة البرسيم الأَخضر وأَن مَنْ أَراد من الرعية شراء شيء منه لا يمنع ولا يعارض، ومنع كافة العسكر من التعرُّض لفرد من أَفراد الفلاَّحة في شراء شيءٍ إِلا بالرضا منهم أُسوة بالرعية، فكفّ المفسدين عما كانوا يفعلون قبل ذلك، ومنع راتبه من الدقيق الذي كان عادة على (كيخية) الطحانين، لخبز

---

(١) بياض في الأصل.

خاصته وعامته، وأمر بعمارة الطاحون التي كانت بقلعة الجبل، بالحوش الذي أنشأه المرحوم خاير بك نائب مصر سابقاً، فجعل جرايته فيها لنفسه هو وخدمته، ومنع راتب الخبز الذي كان يحمل لأُمراء الألوية في كل يوم من الباشاه والسوابق، ومنع من أطعمة خاصته في السماط السلطاني المعمول في أيام الديوان، ومنع من نقل ماء السواقي السلطانية إلى عرب اليسار (؟) وغيرهم، وأمر أَنَّ الأثوار لا يستعملون في السواقي إلا نهاراً فقط وفي الليل يستريحون من العمل، وعزل يحيى الزيات من عمالة الحسبة ووضعه في سجن العرقانية على الباقي عليه، وولى عوضه شجاع الذي كان (كيخية التفكجية) بالإمانة، ومنع الأمير حمزة بن إسكندر أمير اللواء عن اعتماد الفتن الواقعة بينه وبين الخواجا خضر وعتيقه يوسف فإنه كأنه يجعل أعراضاً (؟) للشكوى ممن ذكر.

وفي يوم الأحد حادي عَشْرَي رجب ورد الخبر بعزل قاضي مصر عبد الرحمٰن بن علي وولاية شاه شلبي وهو كان قسّاماً في زمن القاضي ابن إلياس، وولي أمانة محكمة العجماوي الشافعي بالصالحية على قبض المحصول، وعين قاضي المنية لنيابة الغيبة عنه بالكاملية إلى حين حضوره، فجلس في العشر الأول من شهر شعبان، وأمر بجمع قضاة المذاهب الأربعة في إيوان الحنفية بالصالحية كما فعل القاضي حسن، وأشيع أيضاً عزل عبد الرحمٰن شلبي ناظر أموال مصر، وولاية مصطفى شلبي عوضه، ولم يكن أمير لواء ويقال: إن والده كان خباز السلطان ويسمونه في اللغة التركية بـ(يمكجي).

وفيها جاءت الأخبار من اليمن بوفاة يونس بن تَغْطِبية (؟) أمير اللواء بقرية ذمار، من أرض اليمن في خامس عشر رجب الفرد، وأنه كانت إقامته بالقرية ثمانية أيام لا غير، فتأسف الناس عليه لأنه كان حسن المحضر بديوان مصر سابقاً.

وفي يوم الاثنين خامس عشر رجب كانت وفاة الشيخ العلامة عبد العالي الحنفي، وتقدمه في أول السنة الشيخ زين بن نجيم مفتي الحنفية أيضاً وبلغني أن المخلف عنه من الذهب النقد قدر وافر فالمكثر يقول ما يختار والمُقل يقول: أربعة آلاف ونيف، وكان متقشفاً جدًا في ملبسه ومطعمه بحيث أنني رأيته مارًا في الشارع الأعظم، وعلى جسده ثوب واحد، وعمامة صغيرة جدًا، وفي رجليه قبقاب كآحاد الفقراء الأفاقية وعلى كتفه مفاتيح خزانة كتب المحمودية بخط العريبين (؟) لأنه كان خازنها وهذه الخزانة كانت من أجل خزائن مصر كتباً نفائس وعدداً.

وفي شهر رجب الفرد اتفق وقعة مهولة بإقليم البحيرة، بين عربان قطاب والجواشنة وأَولاد سلام وأولاد عامر، قتل فيها من أكابر أَولاد عامر منصور بن عامر بن إِسماعيل ولد أَخي عيسى أَيضاً، من أَعيانهم، وعثمان الأَشلم، وهو من مشاهيرهم، وجماعات من مماليك عيسى كانوا بالحوش، وتفاقم الأَمر بينهم جدًّا وقصدوا نهب الحوش، فركب عامر بن إِسماعيل وأَولاد عامر قاطبة وابن شرشرة ولفيفهم، ومنعوا عن الحوش، وجُهِّزَتْ إِليهم تجريدة كبيرة من القاهرة، صحبة حسين كلابي كاشف البهنساوية كان، فلم يفز منهم بطائل، ثم جُهِّزَتْ تجريدةٌ ثانية صحبة مَامِيَة القواس، كاشف الغربية في مستهل شعبان، فلم يتوجه، وجاء الخبر أَنَّ العربان العاصية قد تفرّقوا، ففرقة منهم نزلت بجزيرة القط (؟) ودَهكوا ما بها من الزرع، وفرقة نزلت بالجيزة لأَنهم متحالفون مع سلام بن الخبير أَمير عربان عزاله، وفسادهم متزايد، ونسب سليمان بن علي بن جويلي ـ ولد عم عيسى ـ بأَنه كان سبباً للفتنة، فقبض عليه واعتقل بالبرج ثاني مرة، واشتد على الأَمير عيسى بن إِسماعيل أَمرهم جدًّا، ثم أَلبس الباشا عسر (؟) بن منصور شقيق سلام بن الخبير قفطاناً عن شياخة عزالة، بإِذن عمه سلام، وبمساعدة الخولي زين بن شهاب، وذلك في أَول العشر الثاني من شهر شعبان، واستمرَّ إِلى يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان نحو الثلاث ليالي، وعزل، ووليها حمَّاد، ولد أَخي محمد بن الخبير المقتول على يد مصطفى باشا، واستمر سلام بن الخبير عاصِياً، ونما فساده وتعدَّى على أَمير الحاج بالجيزية فنهبها ونهب جِمال الرعية وخيولهم من الربيع، ونهب بيوتاً من الجيزة، فَجُرِّدَتْ له تجريدة صحبة عدة من الكُشَّاف وأَربعة من أُمراء الأَلوية، فتلاقوا مع حماد بالقرب من الأَهرام واقتتلوا وكان مع سلام عربان قطاب وبعض لبيد، وفئة من عربان عزالة، فكانت معركة قتل بها في يوم الأَربعاء سادس عشر شعبان ثلاثة عشر نفراً من العسكر السلطاني، وتجرح عدد وافر، وفَرَّ سلام بن الخبير، فلم يحلق هو وعربان قطاب، ثم ورد الخبر بعد ذلك أَنه قُتِلَ على يد العربان، وسببه أَنه لما فَرَّ هارباً تلاقى مع بعض العربان من أَعدائه فاشتوروا على قتله ونهب ما معه من الدبش، وتجمّعوا سِرًّا، وتبعوه في طريقه، وتبادروا إِليه ضرباً وطعناً بالرماح، فَجُرِحَ، ورمَى بنفسه إِلى البحر، فكانت منيته به، وقتل معه عسر بن منصور ولد أَخيه وجهزَتْ رأْسه إِلى الباشا بالديوان السلطاني، ثم إِنَّ الباشا جهز تجريدة حافلة لقطع دابر المفسدين جميعاً، فعيَّن ماماي القواس كاشف الغربية، وحسين كلابي كاشف البهنساوية، وسليمان أبو سبحة، ويوسف عتيق الخواجا خضر، وثلاثة أَنفار أُخر من الكُشَّاف، ومن أُمراء الأَلوية أَربعة

رأسهم أَحمد شلبي الذي كان ولي إِمرة الحاج وعزل منها قبل سفره، ومئة من الرماة (الإنكشارية) والغرب، وثلاث مئة خيالة من المتفرقة و(البلكات) غير مماليك الأُمراء وجهزهم عيسى بن إِسماعيل بماله وجِماله، وتوجهوا لاتباع آثار قطاب ومَن معهم أَيْنَمَا وُجِدُوا، ثم ورد على عيسى بن إِسماعيل الخبر من أَخيه عامر في يوم الأَربعاء ثالث عشري شعبان بأَنهم تلاقوا مع عامر بالقرب من الحوش، واقتتلوا فقتل من أَكابر أَولاد عامر وأَعيانهم نحو الثلاثين، ومن قطاب معهم نحو المئة، وفَرَّ الباقون على حمية، قبل وصول العسكر والتجريدة إِليهم ثم ورد الخبر أَيضاً بأَن التجريدة لم تجد طائلاً ورجعت، وأَنها رجعت من حيث توجهت، وكان وصول الأُمراء و(الصناجق) والعسكر في مستهل رمضان، وعليهم الذلة لعدم إِنتاج سفرهم، وذكروا أَن العربان تفرقت، وأَن معظمهم توجه على حمية إِلى جهة شرق إِطفيح، وتشاور الأُمراء فيما بينهم على الفور، فأَخبرني صاحبنا الأَمير قيت (كيخية) الجراكسة، وكان من أُمراء التجريدة، أَنه لو تلاقت التجريدة مع العربان لما عاد من العسكر أَحد، وأَن الرؤوس التي أَحضرها العسكر وعدتها ثمانية وعشرون رأْساً بعضها من رعاة الأَغنام، وبعضها من سقاة التجريدة قُتِلوا افتئاتاً، وبعضها من الهجانة خدمة جِمالهم، وبعضها من عربان النجمة أَهل الطاعة، وأَنهم تعدُّوا على قتلهم ظلماً، وأَغرب من ذلك أَن علي باشا زاد في جوامكهم بمقتضى ذلك، لكل نفر عثمانيًا وأَلبس أَكابرهم التشاريف المذهّبة.

وفي شهر رجب جلس الباشا للنظر في المظالم، وأَخرج من الحبوس جماعات أَمر بقتلهم متفرقين في الأَخطاط، منهم مقدم الدرك ببولاق، وكان مُتَّهَماً بقتل يهوديٍّ من عمالها، لأَنَّهُ وُجِد مقتولاً بطريقها في ولاية مصطفى باشا، فقُتل صَلباً بباب زويلة، وغنيم رأس المنسر المشهور بالشوي ورأَيته مَصلوباً بباب زُوَيلة وهو أَشرم الشفة العُليا شنيع المنظر، قبض عليه من ناحية المنزلة، واعتقل بالسجن في ولاية مصطفى باشا، فاستمر إِلى أَن صُلب، ورجل شامي الجنس، وُجِد معه أَسباب اختلسها من ربع بخط البندقيين، فقبض عليه في سلم الربع في زمن مصطفى باشا، واستمر في الاعتقال إِلى أَن ضرب عنقه بباب زويلة، وأَشباه ذلك.

وفي شهر شعبان المكرم وليَ عمالة مكس الحسبة أَمينُ الدين الطولوني أَبو جريدة، وزُينت له أَماكن من القصبة، وأُبطلت عنه الزيادة التي كان زادها يحيى، وهي ثلاثة أَكياس لثلاث سنوات، فإِنه أَخبرني صاحبنا عبد الغني بن أَبي منصور كاتب مكس الحسبة أَنَّ يحيى المذكور كان التزامه لثلاث سنوات، بما فيه للزيادة سبعة وعشرين كيساً، ولم يتم ذلك.

وفي الشهر المذكور ذكر أهلُ العلم بأحوال النجوم أنه اقترن نجمانِ في شهر جمادى الأَول ثم اقترن نجمان في شهر شعبان، واستمرا إلى ثالث عشريه، وافترقا، وأَنه يقترن نجمان في ذي القعدة ويدل اقتران هذه النجوم الستة المتفرقة في الشهور على حدوث موت بإقليم مصر بالسيف والفناء. قلت: فوافق اقتران ست نجوم في عام ثلاثين وتسع مئة في ولاية أحمد باشا على مصر فاتفق خروجه عن الطاعة، وما حدث من القتل والقتال لطائفة العسكر السلطاني، مع ما كان من الفناء بالطاعون الذي تَجَمَّلَتْ فيه مُصَلاَّةُ باب النصر في كل يوم أَربع مئة نعش، وقد اتفق في هذه السنة واقعة قطاب وأَولاد عامر التي تقدّم ذكرها، وما قتل من العربان ومن العسكر، وظهور الطاعون في شهر شعبان وفشا بالقاهرة في الخرباء وأَهل الصعيد وأَنكى فيهم، وفي بعض الأَلواحية (؟) وغيرهم، واستمر إلى أَول القعدة، وتُوفي فيه مَن انقضى أَجله من طوائف الناس، فإِن صحت دلالة النجوم المذكورة فهذا هو والله أَعلم بحقيقة أَقوالهم.

وكانت هذه السنة كثيرة الأَمطار في زمن الشتاء والربيع.

وأَما أَسعار القاهرة فاستهل شهر رمضان والقاهرة على غاية من القحط في المأْكولات، وقلّ القمح بسواحل مصر وبولاق، وأُبيع كل أَردب بخمسة وأَربعين نصفاً، واستمر في التزايد إلى أَن وصل في عام اثنين وسبعين إلى مئة نصف ونيف، وقلّ وجود الخبز بالأَسواق، والسمن بثلاثة أَنصاف، والصابون بأَربعة أَنصاف الرطل، وعزّ وجوده.

وقدم الأَمير محمد الهواري متولي الصعيد لمقابلة علي باشا في أَواخر شعبان، ولبس التشريف وتوجه، وبلغني أنه خدم علي باشا بعشرة آلاف من الذهب، فامتنع من قبولها وردها عليه، ولم يقبل سوى الأَصناف التي من نوع الهدية.

وفي شهر رمضان المعظم احترقت منارة المايدية بباب زويلة وسقطت من جهة القبلة فتفاءل العامة بذلك، وحرقوا، وخرفوا في أَقوالهم.

وفيه طلب الباشا من أُمراء القاهرة خدَّامَ أَبوابهم الأَغاوات، فمنهم مَن أَعطى، ومنهم مَن امتنع واحتجّ بعتقهم.

وفي شهر شوال قَلَّ الخبز بالشوارع وأَقفاص الباعة، وفي بعض الأَوقات يباع في الأَفران بالاصطلام والازدحام، وذُكِرَ لي أَنَّ القمح بلغ بإِقليم الصعيد إلى تسعين نصفاً الأَردب، وسببه هبوط النيل سريعاً فشرقت بلاد الصعيد، والذي زرع منها أَكله

الدود، ومنه ما هاف في سنبله، وأخبرني صاحبنا القاضي عبد الجواد بن إسرائيل كاتب المحاسبات بالديوان الشريف أنه اعتبر فَدَّاناً من زراعة القمح فتحصّل من الفدان كيلاً قدح ونصف قدح، وكان ذلك سبباً لحصول الغلاء في بقية هذا العام وشدته فيما بعد، وطلب الباشا أبو جريدة المحتسب وبَهْدَلَهُ، وأخرق بسبب الخبز، وكذلك فعل بـ(كيخية) الطحانين ولم يفده ذلك.

وفي رابع عشري شوال صاحت العامة على المحتسب وأكثروا من سَبِّهِ، واجتمعوا عليه جمعاً كبيراً، وتمادَى ذلك منهم به، وصاحوا على الباشا صياحاً مفرطاً، فطلب أمين الدين أبو جريدة المحتسب، وأمر بتعزيره، فَأُشْهِر في جميع شوارع القاهرة ماشياً عارياً، مكشوف الرأس ليس عليه إلا ما يستر عورته فقط، وخُزِم أَنفُه، والعامة تصيح عليه وتكبّر، وتبالغ في سَبِّه ولَعْنه، ثم أُطْلِق معزولاً ـ بعد هذه الشدائد ـ من النظر على مكس الحسبة بشخص من العسكر فلم تُفذْ ولايته، وعُزل، وولي أبو العزيز طبيلة.

وفي سابع عشر شوال مَثَلَ جماعةٌ من اليهود بالديوان، وشكوا إلى علي باشا أن يهوديًا منهم قُتِل بطريق إسكندرية، في دَرَك الأمير عمر ابن الأمير عيسى أميرْ عربان البحيرة، وكان معه من النقد اثني عشر ألفاً من الذهب الأحمر، ومن أصناف الجوخ والمخمل وغيره، والمتعرضون له عشرة أنفار فرساناً، فأفرط الباشا في الحثّ على إحضار الغرماء.

وفي التاريخ المذكور تُوفي الشريف زاير بن محرم بن هزاع بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان، وولى جَدُّهُ هزاع إمرةَ مكة في الدولة الجركسية، وترشّح والده محرم لولايتها عوضاً عن أبي نُمَيٍّ فلم يتفق له ذلك، لتوقف السلطنة عن انتهاك حُرمه الحرم الشريف للقتال فيه، وولي زاير هذا إمرة مكة في عام ثمان وخمسين وتسع مئة، وكان أمير الحاج محمود (كيخية) داود باشا ـ وقد قدمنا ذكر ذلك في محله بما يغني عن إعادته ـ.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر شوال توجه عبد الرحمٰن شلبي ناظر الأموال المعزول عنها إلى الأعتاب السلطانية، وبطل الديوان يوم توجهه من القاهرة، لاجتماع العساكر لتوديعه، وانفرد الباشا بأحكام مصر، فإنَّ القاضي و(الدفتردار) المتوليين إلى تاريخه لم يحضرا، ولعلهما توقفا عن الحضور لوجود العِلة (؟) بالقاهرة.

وكان وفاء النيل المبارك في ثاني عشري الحجة ونهايته إلى ست أصابع من

ثلاث وعشرين ذراعاً، فلم يسمع بعد النيل الوارد في ولاية خضروه باشا في نيف وأربعين وتسع مئة بمثله، لأن هذا يزيد عن ذاك عدةُ أصابع، وعَمَّ الرَّيُّ سائر الأقاليم، وما كان مشرقاً من الصعيد الأعلى، فالله تعالى يلطف بعباده ويعوضهم خيراً عن ما هم فيه من الغلاء والقحط بواسطة هبوط النيل السابق.

وفي هذه السنة ورد الحكم السلطاني بولاية حمزة بن إسكندر ناظر الدشايش، عوضاً عن يوسف عتيق خجا خضر بعد ولايته إمرة اللواء الشريف السلطاني أول العام، وصار مرجعاً من أعيان القاهرة.

ذكر الحوادث المتعلقة بأمرة الحاج والحجيج

فنقول: كان توجه الركب من القاهرة صحبة عزيز الدولة عيسى بن إسماعيل أمير اللواء والحاج، وإقليم البحيرة، ونظار السحابة السلطانية بعد مشاقّ كبيرة، عرضت له، بسبب عدم الجمال لنقل حمله إلى السويس، فإنَّ العربان جميعها اهتمُّوا في نقل قمح علي باشا، المجهز إلى الحرمين للتوسعة عليهم، فبرز أمير الحاج من الميدان بالزينة على العادة في يوم الجمعة ثاني عشري شوال، ولم يسمع بتوجه أمير الركب من القاهرة في هذا التاريخ قبله، ونقم الباشا عليه بسبب هذا التأخير كثيراً، وأسمعه غليظ القول، فأقام بالبركة إلى يوم الأحد رابع عَشْرَي شوال، وبرز أمر الباشا برحيله من البركة يوم تأريخه، وشدَّد في ذلك، وكان المقدمون متأخرين بالقاهرة على غير كفاية من أمرهم، وعليق جمال أمير الحاج لم يُعَبَّأ، وحاله على غير اعتدال، فاشتدَّ الأمر عليه، واحْتَجَّ بغيبة الجمَّالة، الذين هم علي بن العظمة وعبد الكريم الهرش ورفقتهم، وعرض على الباشا يستعطف خاطره، ويذكر أنه مُتَهَيِّئٌ للرحيل غير أنَّ الإعاقة من حضور المقدمين، فعيَّن الباشاه ماماي شهلا (كيخية الشاويشية) للقبض عليهم وتجهيزهم في الحوطة والاعتقال إلى بركة الحاج، وإلزام أمير الحاج بالرحيل سحر يوم الثلاثاء سادس عشري شوال، وإنِ امْتنع وُضِعَ في الاعتقال، وجُهِّزَ إلى القاهرة، ويتوجه عوضه أكبر القوم الذي هو حاج بصحبته، وهو المدعو كيلان فكان وصول ماماي إلى البركة بالمقدمين في الحديد، بعد عشاء يوم الاثنين، وأُخبر أمير الحاج بما برز به أمر الباشاه، فلم يسعه إلاَّ المبادرة إلى الامتثال، ورحل من البركة سحر يوم الثلاثاء، وترك بالبركة جانباً من عليقه وسَنيحه وحمله، وأَخَّر لذلك (دواداره)، أَقطوه من خيار بك، فحضر إليه في منزلة عجرود بما استطاع حمله من

ذلك، وترك الباقي في زاوية المتبولي، وبعْضه نهب، وحضر بصحبته مَن تأَخر من الحجاج بالقاهرة، فغدَّى أَمير الحاج بعجرود، ورَوى، وبات إِلى قبيل الفجر، ورحل إِلى نخل فأَقام بها يوماً كاملاً، وبات بها، وكان الرحيل منها في ثاني يوم بعد الغداء، وكان وصوله إِلى عقبة أَيْلَة يوم الخميس سادس شهر القعدة، والمسافة من البركة إِلى عقبة أَيْلَة تسعة أَيام كوامل، والنزول إِلى المناخ في اليوم العاشر بزيادة يوم عن العادة بسبب إِقاماته في المناهل السابقة، وأَقام بالمناخ ثلاثة أَيام ورحل منها، فلما كان بعيون القصَب حضر صالح بن عَمْرٍو أَميرُ بني عُقبة إِلى صوب الجبل، ولم يقابل أَمير الحاج وتردد إِليه الْقُصّاد أَن يحضر فامتنع، فجهز إِليه نصف ما له من العوائد، وتأَخر النصف إِلى الرجعة ورحل الحاج منها، وكان وصوله إِلى الينبع صبيحة يوم الثلاثاء رابع عشري القعدة، وقيل: الخامس على اختلاف الأَقوال في أَول الشهر، ووافق وصول مَرْكَبِ حمْلِهِ إِلى البندر قبل وصول الركب بأَربعة أَيام، وأَقام بالينبع ثلاثة أَيام، وتوجه إِلى مكة المشرفة، فكان وصوله إِلى وادي الزاهر بعد عصر اليوم الرابع من ذي الحجة، فبات أَمير الركب به على العادة، وأَصبح بمكة، ونزل بوطاقه في محله المعتاد، وبالقرب من بستان جانبك.

وفي هذه السنة كان ماءُ الوجهِ كثيراً، وسال لورود الأَمطار، فروى منه أَهل الركب فقط، دون الجِمال، لعدم نزولِْ أَمير الحاج على الماء، وتأَخره عنه في المحطة، وإِنما رحل ومَرَّ عليه بالْقِرَب، وكذلك فعل في الرجعة.

وفي هذه السنة كان الرخاءُ عظيماً بالطرقات في الذهاب والإِياب، فإِنَّ السمن أُبيع بدون النصف كل رطل، وكذلك العسل النحلي، وأُبيعت الرأْس من الضأن في عقبة أَيْلَة بثمانية أَنصاف وبعشرة، وما قارب ذلك، والحشيش لعلُوفة الجِمال بكثرة في سائر الطرقات، وامتارت السوقة، وبعض الحجاج من السمن والعسل، وتركوه في البنادر إِلى الرجعة ثم حملوه إِلى القاهرة للتجارة والكسب.

وأَما أَخبار مكة المعظمة، فكان الرخاءُ بها متوسطاً، وحجّ الشريف أَبو نُمَيٍّ بْن بركات في هذا العام، بعد تخلفه عن الحج ثلاث سنوات.

وأَسعار مكة الرطل السمن زمن الموسم بنصفين، والخبز كذلك، وكانت الأَسعار قبل الموسم بدون ذلك، واللحم الضأن كل رطل ونصف بمحلَّقٍ، والحَب اللُّقَيْمِيَّة كل كيلة بنصف وعثماني، والعسل النحل السحا (؟) بنصفين في زمن الموسم، والذرة والدخن كل كيلة ونصف بمحلَّقٍ، وأَما الماء فما له ثمن، بموجب

وصول عين حُنَيْن إلى بازان، وزرِعتِ الأراضي نحو بركة ماجن، وغالب خضر مكة منها، والفواكه من الخوخ المشعر والرمان والموز والعنب والبلح والرطب والبطيخ فموجود، بحيث أنه عامّ على أهل الموسم.

وأما مراكب الهند، فورد منها إلى بندر جدة موسم كبير، وأخبروا بوصول أربعة مراكب، اثنان منها من تناصر (؟) واثنان من كنباية، وأخبروا أنَّ الفرنج ـ خذلهم الله ـ أخذوا بضائع ثلاث مراكب هندية، وسلم المسلمون منهم وفازوا بأنفسهم، ثم بلغنا بعد ذلك أن الفرنج أعادوا ما أخذوه لأربابه.

وحصل في هذا العام بمكة المشرفة أمراضٌ شديدة لغالب النّاس، من الرجال والنساء والأطفال، وممّن توفي بمكة صاحبنا الشيخ أبو بكر الْيُتَيِّمْ الشاعر المكيُّ المطبوع، كان لطيف الذات، رقيق الطبع، حسن المعاشرة، ولنا به صحبة وأُنس، ومرافقة في بعض الأسفار المكية. ومن شعره في آبار الوجه لما كان بصحبتنا:

تَذَكَّرْت بِالْحَوْرَا وقَدْ عَمَّهَا الْحَيَا ... مُحَيَّا حَبِيبٍ أحْوَرٍ عَزَّ قُرْبُهُ
فَقلْت وَقَدْ شَاهدْتُ في الْوَجْهِ حُسْنَهُ ... رَعَا اللّهُ هذَا الْوَجْه وَجْهاً أُحِبُّهُ

وله في التغزل والأغانيات والدانة (؟) المكية وغير ذلك شيْءٌ وافر ـ رحمه الله تعالى ـ.

وممّن توفي بها في ثالث عشري رمضان صاحبنا العلامة نجم الدين ابن الشيخ علم الدين العباسي الشافعي، شاهد الحرم الشريف المكي، وعمدته في معرفة أرباب الصُّرَرِ المكية، على اختلاف جهاتها الواردة منها وتقسيم الصدقات، وحسن الخط المنسوب كوالده، وسرعة الكتابة، والحذق في الحساب، وبالجملة كان نادر زمانه خطًّا وتقسيماً للصدقات ومعرفة ولطفَ ذات، وكان أخذ عن صهره والد زوجته العلامة البليغ شهاب الدين أحمد أبو زرعة المنوفي الشافعي، وكان نادرةَ عصره في الانشاء والمكاتبات والرسائل، وتُوفي ولده الشاب أبو النصر قبله بأيام يسيرة، وكان شاهداً بمحكمة باب السلام، وسبب تمرض والده شدة تأسفه على ولده، وكان والده الشيخ علم الدين العباسي، كان أحد موقعي الدست بالديوان السلطاني في الدولة الغورية، ثم أحد العدول بالصالحية النجمية من القاهرة المعزية، ولنا به صحبة وأُنس ـ تغمّدهم الله برحمته ـ أجمعين.

وتولى الجمال محمد التَمريسي (؟) وزير الشريف أبي نُمَيٍّ بن بركات والشهاب أحمد البوني وزيره الثاني، وكلاهما مِمَّن سلك طريق الظلم، وأخذ أموال النّاس من غير أوجهها.

وممَّن تُوفي عبد الله المرتضى بن أَبي كبَيْش، وحسن قباصقل، ناظر الغورية بمكة، والشيخ عبد اللطيف الرومي البخاري المنعوت بشيخ السلطان، والشيخ قاسم الغم قارىء المواليد، والمعمر أَحمد بن رجب المزين، وعمر تقريباً نحو المئة عام.

وفي هذه السنة وصل صحبة الركب الشامي قاضي مكة المتولي عن فضل بن علي، وهو أَحمد بن محمد بن رمضان، وكان حجّ صحبة والده محمد في عام إحدى وستين، في ولاية مصطفى النشَّار، وتوجه إلى الباب السلطاني فقرر (نشان جي) المملكة الرومية بالديوان الشريف، وكان يلقب قبل ذلك بـ(دفتار عرب عجم) ولّى ولده قضاء مكة بحكم استعفاء خضير (؟) منه، وحضر صحبة الركب الشامي أَيضاً قاضي المدينة المنورة [....][1] المولي عن مصطفى معمار زاده، يقال: إنه وكان خجا أَحمد باشا الوزير الكبير، المقتول بانتقام مولانا السلطان سليمان سابقاً، وكان في هذا العام أَمير الشام حاجي شاه، فولّى أَمير مدينة آمد، وقاضي محمل الشام محمود شلبي من قضاة القصبات بمئة وخمسين عثمانيًا وقاضي المحمل المصري عبد الرحمٰن الغباري، وكان يقرىء الأَطفال بمكة سابقاً، فتوجه إلى البلاد الرومية واستقرّ خجا أَولاد السلطان بايزيد، فلما قتله والده اعْتُقِلَ برهةً ثم أُفرج عنه، وولي قضاء المحمل وعاد إلى مكة، ثم رجع صحبة الركب، وتوجه إلى الباب السلطاني لإحضار عياله، ولم تكن لديه فضيلة يعتد بها، وإنما هو ممَّن قدمه الزمان بغير استحقاق.

وكان أَمير الحاج اليماني محمد أَمير لواء قرية جبلي من أَرض اليمن ـ بكسر الجيم المعجمة بعدها باء ساكنة ولام مفتوحة وياء تحتية مثناة ـ وهذه القرية معروفة قديماً ببني غسان بأَرض بعدان، وحجّ وصُحبته قاضي محمل شافعي يُسمى محمد اليماني، وكان له موكب فاخر بالنسبة إلى مَن تقدمه من أُمراء الركب، فإنه حجّ ومعه (بيرق) ثاني، ومن الخيول المعتبرة المكملة اللبوس الفاخرة بالسروج، المرصعة بالفصوص والمعادن، نحو نيف وأربعين فرساً، وكان لواؤه معتبراً، ومعه طبل روميٌّ على العادة، وجملة من خصوص قرية جبلة، وهو طبل صغير، بيد رجل يضرب عليه ضرباً مخصوصاً، وكوسات المحمل اليماني المعتادة وكان بصُحبته عجلتان من غير عادة، ومن العسكر العرب خمسون نفراً، ومن (الجاويشية) أَربعة أَنفار، والمجهز بذلك جميعه محمود باشاه مملكة اليمن، وتوهم الشريف أَبو نُمَيٍّ من ذلك (اليرق)

---

(١) بياض في الأصل.

وكثرة الخيول. وبلغني أنه أَرسل إِليه يقول له: لا تدخل مكة بتلك الهيئة، فأَجابه بنعم، ثم دخل بها ولم يلتفت إِلى ذلك القول، ومرّ بالشارع والمسعى وكان الحج في هذه السنة هنيئاً، والوقفة بالأَربعاء.

وفي هذه السنة جهز مولانا السلطان شخصاً يقال له لُطفي (كيخية) قبطان مصر إِلى مدينة آشى من الهندية، للاستفهام من ملكها عما طلبه من آلة الحرب والمدافع، وتوجه صحبته جماعة من المقربين (؟).

وفي موسم هذه السنة قُرىء بمكة مثالٌ سلطاني من مضمونه: أَن أَمير الحاج المصري لا تزيد إِقامته بمكة عن ثمانية عشر يوماً من ذي الحجة ويبرز منها، وإِنِ امْتَنَعَ عُزِلَ عن الإِمرة ويتوجه بالركب نائب جُدَّة عوضه، وأَنَّ أَمير الشامي نهاية إِقامته إِلى رابع عشري الحجة، وإِنْ خالف فعِلَ به ما ذُكِرَ في المصري، فكان رحيل الركب المصري من مكة في يوم الجمعة بعد صلاتها سابع عشر الشهر إِلى وادي الزاهر، وأَصبح بقية الركب بمكة يوم السبت، فبرز أَمر الشريف أَمير مكة لمحمد بن عُقبة الحاكم بها ونائب جدة لجماعته بسرعة إِخراج الحجيج من مكة بجمالهم وأَحمالهم وأَثقالهم، ففعلوا ذلك بالعُنف والضرب المؤلم، وإِسالة الدماء وكسر الأَعضاء، بحيث أَنه لم يبت بمكة لَيْلة التاسع عشر أَحد من الحجيج، ومُنِعَ بعضهم من طواف الوداع، ولم يُسْمعْ قبل تاريخه أَن وفود الله يخرجون من حرمه بغير طواف الوداع، وهم مطرودون معاملون بالضرب المؤلم، وفلق الهامات والمقت الشديد.

ولقد بلغني أَنَّ ممَّن حصل له المشقة الشديدة والإِساءة جماعة الشيخ العلامة ممد الرملي الشافعي فأَنكر ذلك غاية الإِنكار، وأَفْتَى بعدم وجوب الحج في هذا الزمن، لتواتر المشقات الحاصلة فيه.

وأَما أَخبار عين عرفة فالحت (؟) من إِبراهيم ناظر العمارة لا يفتر ولا ينقطع، حتى إِنهم ليسخرون عبيد التجار، وبياض (؟) أَهل مكة عُمالاً في العمارة، بالعنف والقوة، ويدور جماعة الولاة على البيوت بمكة فكل بيت نظروا فيه مَن له قوة على العمل من العبيد والغلمان يأْخذونه غصباً، ومَن امتنع منهم آذوه ضرباً، والنقود من الذهب والفضة والفلوس الجدد لا تزال تنقل من قلعة مصر إِلى مكة صُحبة ركب الحاج عاماً بعد عام بسبب ذلك. وذكر لي أَمير إِبراهيم المعمار شفاهاً من لفظه حين اجتماعي عليه بعرفات المعظم أَنه قدر على ما بقي من العمارة نحو ثلث العمل، وأَنَّ المدة لذلك ـ إِن شاء الله تعالى ـ سنة كاملة والله هو المعين.

وفي هذه السنة حَجَّتْ الملكة سلطانم بنت موسى سلطان، زوجة الشاه طهماسب بن إسماعيل بن حيدر ملك العراق والعجم بأَسره، الملقب بالصوفي، في مَحَفَّة وأَجمال كثيرة صحبة الشامي، وبلغ السلطان سليمان ورودها إلى الحجاز، فبرز أَمره بأَن يُجعل عليها (اليسق) والترسيم وتجهز إلى الأَبواب السلطانية، وقد ذكرتها فيمن حجّ من أَعيان (الخوندات) آخر الجزء الثاني من كتابي هذا. وذكرت أَخبار زوجها بأَبسط من هذا فليراجع من موضعه.

وفي هذه السنة كانت إقامة الركب المصريّ بوادي مَرِّ الظهران ثلاثة أَيام بزيادة يوم عن العادة.

وممَّن حجّ صحبة الركب الشامي مصطفى (دوادار) رستم باشا الوزير الكبير كان، وعاد صحبة الركب على حاله.

وكان مستهل المحرم يوم الأَربعاء، ودخول المدينة المنورة يوم الخميس ثانيه، فصلَّى الركب بها الجمعة، وأَقام يوم السبت، ورحل صبيحة الأَحد خامسه، وكان الوصول إلى الينبع يوم الأَربعاء ثامن المحرم، وهَبَّتْ في إقامة الينبع رياحُ سمومٍ حارة، وكان الرحيل منه عَشِيَّة يوم السبت حادي عشره، ولما مرَّ الركب بالسَّبْعِ وَعْرَات، ووادي النار وطَرَاطِيْرِ الراعي في يوم أَحد ثاني عشره حصل حَر شديد، فكان يوماً عصيباً مهولاً، خصوصاً على الفقراء والمشاة والركبان على ظهور الجِمال، من غير وقاية عن حَرِّ الشمس، فتُوفي في تلك الرحلة من الركب فجأَةً بِقول المُكثر نحو المئة والمُقل نحو الستين، ومن الجِمال عدد وافر لاشْتداد الحر والهواء السموم.

وكان وصوله إلى مغارة نَبْط يوم الاثنين ثالث عشر المحرم ضحوة عالية، فتُوفي في الليلة المسفرة عنها كمال الدين الشامي شاهد المحمل قبله، تمرّض بمكة المشرفة واستمر به، وترجّح مرضه قرب وفاته إلى العافية، وزار قبر المصطفى ﷺ، فاشتد به المرض بعد البروز من المدينة المنورة وتُوفي داخل محارته، وقت مسير الجِمال، فلم يُعْلَم موته إلا حالة الوصول إلى الدار، فتولَّى غسله وتكفينه ودفنه عبد الرحمٰن بن محمد السمديسي، عريف تجار سوق الجملون، فإنه كان جاراً له بحارة الجامع الأزهر، ودُفن بمحطة الركب بِنَبْط، تحت شجر أُم غيلان، رحمه الله تعالى، ولم يأسف أَحد من خدمة الحاج على وفاته لبلصه، وسُوء سيرته حين حصول شهادته عليهم.

وكان وصول الركب إلى عَقَبة أَيْلَة يوم السبت خامس عشري المحرم، فلما حلّ

الركب بالمناخ (؟)، لم يجد للملاقاة أثراً، ولم يسمع عنها خبراً، فتضرر أَهل الركب لاحتياجهم إِلى كراءِ الجِمال لإِراحة جِمالهم الْعَيَّانة، ولشراء المأْكولات والعليق، واشتد احتياج أَمير الحاج إِلى العليق لجماله، فأَقام الثلاثة أَيام المعتادة، ولم تأْكل جِماله شيئاً، ووقع القحط والغلاء بعقبة أَيْلَة، وأَراد الأَمير الرحيل، فاستشار أَكابر الركب فمنهم مَن أَشار بالرحيل، ومنهم مَن أَشار بالإِقامة إِلى أَن ترد الملاقاة، وكان جهّز فشيغة بن سليمان بن عريفطة من مشايخ بَلِيٍّ للكشف عن الملاقاة، فحضر إِليه في ليْلة اليوم الرابع من إِقامته وأَخبره بوصولها فأَقام على حاله، وكان وصولها ظهر اليوم الرابع، فاحتاج أَنه أَقام الرابع والخامس بجانب البحر المالح، ولم يحصل بحضورها كبير غِنى للركب. وكان الرحيل من مناخ عقبة أَيْلَة صبيحة اليوم السادس من إِقامته وهو غاية الشهر، فرحل والقحط مع أَهل الركب والغلاء، ولم تحضر ملاقاة نخل وعجرود على العادة لحصول فتنة بين مشايخ عربان العائد بالريف قتل بينهم بعض أَنفار، وكانوا إِذْ ذَاكَ ثلاثة مشايخ في ولاية واحدة، وهم عبد الكريم بن سليمان بن رمضان وعمر بن دحية (؟) ومحمد (؟) فحضر بعجرود عبد الكريم بن سليمان فقط، ومعه بعض متسببة بزاد قليل، وكان دخول الركب إِلى بركة الحاج صبيحة يوم الأَربعاء السادس من شهر صفر، واستمر أَمير الحاج بالبركة ذلك اليوم وتلك الليلة، ورحل منها صبيحة اليوم السابع فنزل بالمدرسة الجان بلاطية بخط باب النصر، فأَقام بها يوم الخميس وليلة الجمعة، وصعد إِلى الديوان على العادة صبيحة يوم الجمعة ثامن الشهر، ولولا ما حصل على الحاج من القحط وتأْخير ملاقاة عقبة أَيلَة وضعف الجِمال، كان وصوله في الثالث من الشهر وإِنَّما قصد الرفق بأَهل الركب.

وممَّن تُوفي في هذه السنة بالقاهرة صاحبنا القاضي محب الدين الشهير بابن سيلقون، كاتب الخرج الخاص السلطاني، وكان عُزلَ منه بنيابة عبد الجواد بن سعد الدين الملقب بزبارة الوالي القبطي، ووُلِّي استيفاء الشُوَن السلطانية فلم يرضَ بذلك، وعزل نفسه منها بعد أَيام يسيرة، وانقطع بمنزله سنوات عديدة، وكانتْ له مشاركة في بعض العلوم والشعر، وصنف قهوة من الفول، وأَضاف إِليها أَنواعاً من العقاقير، ومدحه بأَبيات منظومة (؟) من شِعره رحمه الله تعالى.

سنة اثنتين وسبعين وتسع مئة: أَهلَّتْ بالأَربعاء، وسلطان الديار المصرية، وما معها من الأَقاليم والممالك المشروحة في السنة السابقة السلطان سليمان شاه، وباشاه الديار المصرية علي الملقب بالصوفي، وجماعة الديوان على حالهم كما ذكرنا في

السنة السابقة ما عدا (الدفتار) فإنه مصطفى شلبي بن (الينمكجي) عوضاً عن عبد الرحمٰن شلبي، وقاضي مصر، فإنه محمد شاه شلبي، عوضاً عن عبد الرحمٰن بن علي، وجماعة الديوان والكتّاب على حالهم، و(الصوباشا) مصطفى الذي كان وكيل الخرج الخاصة، عوضاً عن سنان، ثم عزل بغيره في مستهل جمادى الأَول، وَوُلِّي أَمانة الغلال بالصعيد، وأَما الكُشَّاف بالأَقاليم، فولى الغربية حسين كلابي زوج ابنة أَزدمر باشا، والبهنساوية مراد (كيخية) مصطفى باشا النشّار، والفيوم مراد أَباظة، والشرقية سنان الرومي، والقليوبية والي (؟) ابن أَخي خجا خليل، أستاذ الخواجا خضر، والمنصورة حمزة عتيق الخواجا خضر، ومشايخ العربان على حالهم، فمن أَعيانهم الأَمير عمر بن عزيز الدولة عيسى بن إسماعيل، أَمير عربان البحيرة، فإنّ والده ترفّع عن ذلك لما في يده من المنصاب العلية، منها إمرة الحاج واللواء، وغير ذلك، والمنوفية حسن بن حماد بن بغداد، والشرقية إينال ابن الأَمير بيبرس بن بقر، وأُمه من بنات الأَسياد، من أَكابر الديار المصرية، وأَمير الصعيد محمد بن داود بن عمر، وله ما زاد عن عشر سنوات في هذه الولاية.

ذكر الحوادث بالقاهرة

فيها كان الغلاء العظيم الذي لم يُعْهَدْ مثله في هذا القرن، والقحط الْمُلِح المتواتر، في الخبز خاصة، وفي بقية أَصناف المأكولات عموماً، والسبب في ذلك ما قدمنا ذكره من قصور النيل المعتاد، وهبوطه سريعاً، وشرقت غالب البلاد خصوصاً إقليم الصعيد، بحيث أَن أَهله شردوا عنه إلى القاهرة بأَولادهم وأَهاليهم، وتفرّقوا شيعاً في نواحيها، وفشا فيهم الطاعون، وسطا في السنة الخالية فأَخلى منهم محالاً كثيرة، وبمقتضى أَن بعض الأَقاليم ممّن (؟) حصل فيه الريُّ هاف الزرع به، ولم يحصل من الفدان مقدار التقاوي، وبعضها كان الزرع فيه فشا (؟) تأْكله البهائم، وأَخبرني بعض الفلاحة شفاهاً أَنه اعتبر ما زرعه من القمح، فكان الفدّان يحصل منه ربع كيل لا غير، فكان الغلاء الذي أَضَرَّ بحال سكان إقليم مصر والقاهرة والريف، غلا فيه سعر القمح إلى مئة نصف كبيرة ونيّف وغالب الشهور من ثمانين إلى ما ذكرنا، وكذلك الفول أُبيع باثنين وسبعين نصفاً قبل ظهور البرسيم الأَخضر الجديد، وأَما الحبوب فإن الأَرز بثلاثة عثامنة القدح، والباسلا بنصف القدح، وكذلك العدس والكشك بنصف وعثماني، وقس على ذلك جميع البضائع، حتى الخضروات المأْكولة، وعَزَّ وجود ذلك بأَسواق القاهرة وشوارعها جدًّا، وطلب بالأَسواق فلم

يوجد، وشكت النَّاسُ والفقراء إلى باشاه مصر جوع عيالهم وأَولادهم، فرَقَّ لهم، وحصل عنده من الحنو على الفقراء والرعية ما كان سبباً للرفق بهم في هذا الغلاء، فإنه أَمر بفتح الشُّوَنِ الشريفة السلطانية وبرز أَمره للتفرقة على الطحَّانين الذين بالقاهرة ومصر، في كل جمعة ستة آلاف أَردب من القمح، وأَن يكتب سعره بديوان السلطان بثلاثين نصفاً كل أَردب لا غير، ويُجْبَى من الطحَّانين بهذا السعر، فكانت الرعية يبيعون ما عندهم من القمح سرًّا بما زاد على المئة نصف، وقمح السلطان يفرَّق على الطحَّانين لأَجل الرعية بثلاثين، جزاه الله عن فعله خيراً.

ثم إنه أَمر أَن تضبط كلُّ محلة وخط، وما بها من الطواحين والأَفران، ويوزع القمح للطحانين كل جمعة، بما يكفي أَهل تلك المحلة، وأَن يدخل على الطحان قمحاً بالضبط ويخرج من طاحونه دقيقاً بالضبط، تقسيماً على الخبازين، كل محلة بمقدار كفايتها، وبرز أَمره بكتابة أَسماء باعة الخبز ومقدار ما يعجنون من الدقيق، وعدد الخبز الذي ينتج من ذلك، وانتدب قاضي مصر أَيضاً بالنظر في ذلك، فعين في كل سقع (؟) مَن به من نوابه، من القضاة والشهود، فكانت القضاةُ بكل خطٍّ تكتب أَسماء باعة الخبز، ومقدار ما يعجنون من الدقيق، ويضبط عليهم الخبز القرصة عدداً، ويحرج عليهم في كل يوم من التصريف في الرغيف الواحد فأكثر، إلا بمعرفة المحكمة، فكان الخبازون يحضرون أَقفاص الخبز من الفرن إلى محكمة الشرع، ويجعلون جميع أَخبازهم في محل، بمعرفة قاضي المحكمة، وعدده وضبطه ويقفل عليه الباب، ثم يباع لأَهل ذلك الخط توزيعاً عليهم، فمَن بادر وأَسرع إلى الحضور لذلك حصل كفايته ذلك اليوم، أَو دونها بالجهد والتعب، ومَن تأَخر قليلاً واشتغل ببعض أَشغاله فاته ذلك، وعَزَّ عليه وجوده جدًّا، وتفاقم الأَمر في ذلك، حتى أَنه مَن تأَخر إلى طلوع الشمس فاته ذلك التوزيع، مع حراسة أَقفاص الخبز في داخل الأَفران وخارجها بجماعة من (الإِنكشارية) تمنع النَّاس عن تَنَاهُبِهِ، وربما بيع الخبز في داخل الفرن فيحضر قاضي المحكمة إذا انتهى استواؤه ويفتح التركي شِقًّا من الباب، ويتناول دراهم المشتري شيئاً فشيئاً، ويعطي بقدرها من الخبز، فتزدحم العامة حينئذ على ذلك الباب أَو الحانوت، فيدوس بعضها بعضاً، ويكون لذلك المحل من الغوغاء والمنظر المهول لشدة الازدحام والاصطلام والقحط (؟) وربما كسروا ذراع بعضهم، وقُلعت عين بعضهم، أَو اشتدت عليه الزحمة فقُتل، وبلغني أَنه مات في الزحام بعض أَنفار منها بفرن ابن بكيلة نفران، وربما داسته الأَرجل فغشي عليه، وحُمل إلى داره، وبعضهم لا يفضل له ما يشتريه أَو لا يتوصل إليه لشدة الزحمة، فيعود لأَولاده بغير طائل، نسأَل الله عزج وجل أَن يلطف بعباده، وأَن يمنحهم رحمته.

وأَما اللحم فعزيز الوجود، والضأن لا يناله إلاَّ الأكابر من الأُمراء والأَعيان، فإنه معدوم بالأَسواق، والبقري تارة وتارة، وإذا وجد أُبيع كل رطل وربع بمحلَّق، وأَما أَوزان الخبز فإن الذي بدرهم نقرة، وزنه من ثلاثة أَواق إلى أَربعة، والذي بدرهمين يكون مثليه، ولولا رحم الله العباد بشفقة علي باشا وتلطفه مع الرعية، وعرضه لمولانا السلطان، بواقعة الغلاء، وعرض السعر، ولقد أَخرجه للرعية من الشوَنِ السلطانية بما قدمنا ذكره من السعر البخس، وعود الجواب إليه بالشكر والثناء من فعله، مع علو نِيل تاريخه وثبوته، ورَي الأَعالي والأَسافل من أَراضي إقليم مصر، وإلاَّ كان النَّاس أَكل بعضهم بعضاً، ومع ذلك فأَكثر همم عامة البلد، إنَّما هو في المبادرة إلى تحصيل شيءٍ من الخبز لقوت عياله قبل فوته كما شرحنا.

وجهز الباشا مراكب من الغلة، صحبة الأَمير سليمان أَبو سبحة كاشف البهنساوية كان، ليبيع على أَهل الصعيد، والقرى بها، بالسعر البخس، وكان ذلك جميعه من محاسنه، وعددت له محاسن منها: منع أُمراء الأَلوية والأُمناء وغيرهم من الأَكابر من استئجار الطين والتضييق على الفلاحين في زراعاتهم، فإنهم كانوا ينتخبون (؟) الطين الضامن الرَّي من كل إقليم، ويزرعونه، ويخزنون ما ينتج من زراعتهم في حواصلهم للبيع على الرعية حسب أَغراضهم، وكذلك في زراعة البرسيم الأَخضر، بل كانوا يخرجون على السمن والجبن بثمن بخس، وكذلك غيره من الأَصناف الواصلة من الريف كالبصل وغيره ويخزنونها في حواصلهم لطلب الفائدة الكثيرة، ويمنعون العامة من تحصيل مثلها، فمنعهم من ذلك جميعه ومنع الكشَّاف والأُمناء وأَرباب المناصب من الخدمة له بالذهب الأَحمر والنقود على الولايات، مما كان يؤخذ منهم قبله على ذلك، ولم يقبل شيئاً من النقود مطلقاً، إلا ما كان من خيل وصنف في معرض الهدية فلا يرده، وبذلك يكفُّ الكُشَّاف والأُمناء وأَرباب الولاية عن ظلم الفلاحين وغيرهم، ويتمكن الباشا من النكاية فيهم إذا شكوا إليه ورُفعت قصص المتظلمة.

ومنها: أَنه منع اليهود والنصارى مطلقاً سواء كانوا من خدَمة الديوان أَو من غيرهم من الركوب، وشدّد في ذلك حتى أَن سلمون بن الديّان اليهودي عامل دار الضرب والصيرفي بالديوان، سأَل ناظر الأَموال أَن يشفع له عند الباشا في ركوب الحمار لعجزه عن المشي، فكان من جوابه له: أَمَا ترضى أَن يَسْلَمَ عنقك؟ وقد كان قبله فَشَا ركوبهم جدًّا كما قدمنا ذكره.

ومنها: أَنه جرد سيفه في السرّاق وأَهل الفساد، فكل مَن وقع له، وعُرض عليه أَمره أَهلكه الله على يده.

ومنها: أَنه طلب مباشرين الكشف بالأَقاليم فحضروا إِليه بالديوان الشريف، وكانوا قبل ذلك يدفعون لكل كاشف ذهباً له صورة، وربما بلغ إِلى الأُلوف من الذهب، على خدمة بابه بذلك الإِقليم، ويستخرجون ذلك بالظلم والعدوان وأَمثاله معه من العمال والرعية، فسأَلهم هل فعلتم ذلك؟ فأَنكروا. فحذّرهم من فعل مثل ذلك، وأَوعدهم بالكشف عنهم في الأَقاليم وشدّد في ذلك إِلى الغاية.

ومنها: أَنه شدّد في منع الخمر والمسكرات، وظهور المنكرات جدًا، ونَكَّلَ بمن ظهر له من ذلك. وأَمر (السوباشاه) بالإِحداق به، وتغريمه كثيراً من ماله تغليظاً وردعاً لهم، فقلَّ التظاهُر خصوصاً في مراكب المتفرجة زمن النيل، مع إِذْنِهِ لهم في النزول في المراكب، والتفرُّج، والمرور في الخلجانِ، فاستمروا بعد نهاية الزيادة أَياماً عديدة بكثرة زائدة عن العادة من غير ضرر يحصل منهم ولهم، ولم يقع ذلك قبله.

ومِمَّا جَدَّ من حكوماته أَنَّ امرأة رفعت إِليه قصة بالديوان أَنها اقترضت من شخص من (الجاويشية) مبلغاً له صورة، بِرَهْنٍ تحت يده من مصاغ وغيره، ثم إِنها أَتته بالمبلغ، وطالبته بدفع الرهن فقال لها: مَكِّنِيني من نفسك وإِلاَّ فلا رهن لك عندي. فامتنعتْ من ذلك وقالت: أَمري إِلى الله، ولا أَفعَل حراماً. فلما عرضت قصتها بالديوان قال لها شفاهاً: هل هو في هؤلاء الحاضرين من الجاويشية؟ فأَشارت إِليه. فطلبه الباشا، وأَعاد عليه ما في القصة فأَنكر، وحلف برأْس السلطان ورأْس الباشا أَنه لا يعرفها، ولا أَخذ منها، وكادت المرأَة أَن يذهب حقُّها ضياعاً، فنظر الباشا فإِذا في يده خاتم بفص فأَمره بقلعه من يده ثم ناوله للمرأَة، ورسم على الجاويش وقال لها: تَوَجَّهِي بهذا الخاتم إِلى منزل (الجاويش) واذكري لزوجته أَنَّني رسمت عليه حتى يدفع إِليك رهنك، وأَنه أَرسلَ خاتمه أَمارة على الدفع، ففعلت ذلك فدفعت إِليها المرأَة رَهْنَهَا بكامله، وأَتَتْ به إِلى الباشا بجملته معها، فعند ذلك وبّخه وضربه ضرباً مُؤْلِماً، وقطع علوفته، وأَمر بأَنْ يكون من (الكركجية) في مراكب إِسكندرية.

وفيها كانت وفاة القاضي مصطفى معمار زادة قاضي المدينة المعزول عنها في يوم الجمعة خامس عشر صفر بالقاهرة، فإِنه كان متمرضاً بدرب الحجاز، عند وروده إِلى مصر، صحبة الركب المصري، وجهزه قاضي مصر ودفن بالقرافة بجوار القاضي بَكَّار بن قتيبة.

وتُوفي قبله في يوم الجمعة ثامن صَفر فقيه الحنابلة الشيخ العلامة تقي الدين الفتوحي الحنبلي ودُفن بتربة المجاورين.

وتُوفي الشيخ محمد الفارسكوري ابن إِمام السلطان الغوري، في العشر الأَخيرة من الشهر المذكور بمرض الزحير، كالشيخ تقي الدين المذكور قبله، رحمهما الله تعالى.

وتوفي في التاريخ المذكور بهاءُ الدين بن الأُصيفر القبطي، وكان ولي أَعمالاً سلطانية متعددة، ثم انقطع عن ذلك بهاءُ الدين إِلى أَن تُوفي في التاريخ المذكور بزيادة الدم.

وفي خامس ربيع الأَول توجه علي باشا إِلى أَدلفة، وعمارة الغوري، وطلب ناظر الأَموال وقاضي مصر للتنزه. وطلب محمد بن جنكة رئيس المخائلين، كما كان والده المتوفى في شهر القعدة سنة إِحدى وسبعين وكذلك جماعة خَيَال الظل، وجُهِّزَ إِليه من مصر القديمة ستة قوارب لنزول المخائلين بها، وقصد التَّنَزُّهَ في ذلك اليوم والليلة المقبلة ثم عاد إِلى القلعة يوم الخميس بعد الظهر.

وفي العشر الثاني من شهر ربيع الآخر صُلِب بباب زوَيْلة رجل روميٌّ من أَهل استنبول، ذكر عنه أَنه كان يجمع الرجال على إِمائه بمنزله، لشرب الخمر، والزنا، وأَن (السوباشاه) كبس على منزله بباب سر الصاغة، فوجد عنده رجلين من الفرنج، وهو وجارية له بيضاء رومية الجنس منعكفان مع الفرنج على ما ذكرناه، وذكرت عنه جارية له أُخرى كان أَعتقها وتزوجها أَنَّ هذا دأْبه، فأَمر الباشا بصلبه.

وفي العشر الأَخير من ربيع الآخر حضر إِلى القاهرة من الباب السلطاني صفر القبطان، متولياً قبطاناً بناحية مَخَا، مِنْ بلاد اليمن، وعلى يده أَحكام بأَن يجهز صحبته عشرة أَغربة، محملة بالعسكر والرجال والتجارة إِلى جهة آشي، لطلب ملك آشي من بلاد الهند ذلك.

وفي شهر تاريخه حضر شوعي الضور (؟) بخدمة السيد الشريف أَبي نُمي بن بركات أَمير مكة، وعلى يده عروض منه يذكر أَن قرية بَيش من أَرْض اليمن، كانت بيده قديماً، ويسأَل السلطان في عودها إِليه.

وكان أَمير الحج في هذه السنة أَحمد أَمير اللواء، وهو الذي وليها بأَمر باشاه مصر عام سبع وخمسين، ثم عزل عنها بعد شهرين بعثمان بن أَزدمر باشاه.

ولم تحمد سيرته في هذه السنة في سائر أَفعاله والله تعالى أَعلم.

انتهى السفر الأول بحمد الله وحُسن عونه وصلّى الله على سيدنا. . . . ويتلوه في الثاني الباب الرابع فيما يشتمل عليه ديوان إمرة الحاج.

* * *

فهرس المحتويات



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس